تفسير القرآن العظيم

للإمام المحدث ابن كثير

(٧٠١ - ٧٧٤هـ)

تحقيق

د. محمد ابراهيم البنا

الجزء الرابع

سورة الأعراف - سورة الحجر

الآية ١٥٨

شركة دار القبلة

مؤسسة علوم القرآن

دار ابن حزم

جميع حقوق الطبع محفوظة

الطبعة الأولى

١٤١٩هـ - ١٩٩٨م

دار القبلة للثقافة الإسلامية

المملكة العربية السعودية - جدة - ص.ب: ١٠٩٣٢ - ت: ٦٧١٠٠٠٠ - تلكس: ٦٠٠٤٠٨٠ - دلة. س.ج

مؤسسة علوم القرآن

سوريا - دمشق - شارع مسلم البارودي - بناء خولي وصلاحي - ص.ب ٤٦٢٠ - ت ٢٢٥٨٧٧ - بيروت - ص.ب ١٣/٥٢٨١

دار ابن حزم للطباعة والنشر والتوزيع

بيروت - لبنان - ص.ب: ١٤/٦٣٦٦ - تلفون: ٧٠١٩٧٤

تفسير القرآن العظيم

بسم الله الرحمن الرحيم

﴿ قُلْ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنِّى رَسُولُ ٱللَّهِ إِلَيْكُمْ جَمِيعًا ٱلَّذِى لَهُۥ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ يُحْىِۦ وَيُمِيتُ فَـَٔامِنُوا۟ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِ ٱلنَّبِىِّ ٱلْأُمِّىِّ ٱلَّذِى يُؤْمِنُ بِٱللَّهِ وَكَلِمَٰتِهِۦ وَٱتَّبِعُوهُ لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ ﴿١٥٨﴾ ﴾

يقولُ تعالى لنبيِّه ورسوله محمدٍ ـ ﷺ ـ: ﴿قل﴾ يا محمد: ﴿يا أيها الناس﴾، وهذا خطاب للأحمر والأسود، والعربي والعجمي، ﴿إني رسولُ الله إليكم جميعاً﴾، أي: جميعكم، وهذا من شَرَفه وعظمته أنه خاتم النبيين، وأنه مبعوثٌ إلى الناس كافة، كما قال تعالى: ﴿قل الله شهيدٌ بيني وبينكم، وأوحِيَ إليَّ هذا القرآنُ لأنذركم به ومن بلغ﴾ وقال تعالى: ﴿ومن يكفر به من الأحزابِ فالنارُ مَوعِدهُ﴾ وقال تعالى: ﴿وقل للذين أوتوا الكتاب والأميين: أأسلمتم؟ فإن أسلَمُوا فقد اهتَدَوا، وإن تَوَلَّوا فإنما عليك البلاغ﴾. والآياتُ في هذا كثيرةٌ، كما أن الأحاديث في هذا أكثر من أن تحصر، وهو معلومٌ من دين الإسلام ضرورةً أنه ـ صلوات الله وسلامه عليه ـ رسولُ الله إلى الناس كلهم.

قال البخاري رحمه الله في تفسير هذه الآية: حدثنا عبد الله، حدثنا سُلَيمان بن عبد الرحمن وموسى بن هارون قالا: حدثنا الوليد بن مسلم، حدثنا عبد الله بن العلاء بن زَبْر، حدثني بُسْر بنُ عُبَيدِ الله، حدثني أبو إدريس الخَوْلاني قال: سمعتُ أبا الدرداء ـ رَضي الله عنه ـ يقول: كانت بين أبي بكر وعمَرَ ـ رضي الله عنهما ـ محاورةٌ، فأغضب أبو بكر عُمَرَ، فانصرفَ عُمَرُ عنه مُغضَباً، فاتّبعه أبو بكر يسألُه أن يستغفر له، فلم يفعَلْ حتى أغلَقَ بابه في وجهه، فأقبل أبو بكر إلى رسول الله ـ ﷺ ـ فقال أبو الدرداء: ونحن عنده، فقال رسول الله ـ ﷺ ـ: أما صاحبكم هذا فقد غامَرَ ـ أي: غاضَبَ وحاقد ـ قال: وَنَدِم عُمَر على ما كان منه، فأقبل حتى سَلَّم وجلس إلى النبي ـ ﷺ ـ وقـص على رسول الله ﷺ ـ الخبر، قال أبو الدرداء: وغضب رسول الله ـ ﷺ ـ وجعل أبو بكر يقول: والله يا رسول الله لأنا كنت أظلَم. فقال رسول الله ـ ﷺ ـ هل أنتم تاركو لي صاحبي؟ إني قلت: يا أيها الناس، إني رسول الله إليكم جميعاً. فقلتم: كذبتَ. وقال أبو بكر: صَدَقْتَ». انفرد به البخاري(١).

وقال الإمامُ أحمدُ: حدّثنا عبد الصمد، حدثنا عبد العزيز بن مسلم، حدثنا يزيد بن أبي زياد، عَنْ مِقْسم، عن ابنِ عباس أن رسول الله ـ ﷺ ـ قال: «أعطِيتُ خمساً لم يُعطَهُنَّ نبيٌّ قبلي ـ ولا أقوله فخراً ـ بُعِثت إلى الناس كافَّةً: الأحمر والأسودِ، ونُصِرتُ بالرّعب مَسيرةَ شهر، وَأُحِلَّت لي الغنائمُ ولم تحلّ لأحد قبلي، وجُعلت لي الأرض مَسجِداً وطَهوراً، وأعطيتُ الشفاعة فأخّرتُها لأمّتي، فهي لمن لا يشرك بالله شيئاً»(٢)؛ إسناد جَيِّد، ولم يخرجوه.

وقال الإمام أحمد [أيضاً]: حدثنا قتيبة بن سعيد، حدثنا بكر بن مُضر، عن ابن الهاد، عن عَمْرو بن شُعَيب، عن أبيه، عن جده: أن رسول الله ـ ﷺ ـ عام غزوة تَبُوك، قام من الليل يُصَلّي، فاجتمع وَرَاءه رجال من أصحابه يحرسونه، حتى إذا صلى انصرف إليهم فقال لهم: «لقد أعطيت الليلة خمساً ما أُعطِيَهُنَّ أحد قبلي، أما أنا فأرسلت إلى الناس كلهم عامة، وكان من قبلي إنما يُرسَل إلى قومه. ونصرت على العدو بالرعب، ولو كان بيني وبينهم مسيرةُ شهر لَمُلِيء مني رعباً. وأُحِلّت لي الغنام آكُلُها، وكان مَن قبلي يُعَظِّمون أكلها، كانوا يَحْرِقونها. وجعلت لي الأرض مسجداً وطهوراً، أينما أدركتني الصلاة تَمَسّحتُ وصليتُ، وكان من قبلي يعظِّمون ذلك، إنما كانوا يصلون في بيعهم وكنائسهم. والخامسة هي ما هي، قيل لي: «سل؛ فإنّ كل نبي قد

(١) البخاري، تفسير سورة الأعراف ٦/ ٧٥.
(٢) مسند الإمام أحمد ١/ ٣٠١.

سأل». فأخرت مسألتي إلى يوم القيامة، فهي لكم ولمن شهد أن لا إله إلا الله»[١]. إسناد جيد قويّ أيضاً ولم يخرجوه.

وقال أيضاً: حدثنا محمد بن جعفر، حدثنا شُعبَة، عن أبي بِشْرٍ، عن سعيد بن جُبير، عن أبي موسى الأشعريِّ ـ رضي الله عنه ـ عن رسول الله ـ ﷺ ـ قال: «من سَمِعَ بي من أُمّتي أو يهوديّ أو نصرانيّ، فلم يؤمن بي، لم يَدخُل الجنةَ»[٢].

وهذا الحديث في صحيح مسلم من وجه آخر، عن أبي موسى[٣] قال: قال رسولُ الله ـ ﷺ ـ: «والذي نفسي بيده، لا يسمَعُ بي رجلٌ من هذه الأمة: يهودي ولا نصراني، ثم لا يُؤمِنُ بي إلا دَخَلَ النارَ».

وقال الإمام أحمد: حدثنا حسن، حدثنا ابن لَهيعة، حدثنا أبو يونس ـ وهو سليم بن جُبَير ـ عن أبي هُرَيرة عن رسول الله ـ ﷺ ـ أنه قال: «والذي نفسي بيده، لا يسمعُ بي أحدٌ من هذه الأمة: يهوديٌّ أو نصرانيٌّ، ثم يموتُ ولا يؤمِنُ بالذي أرسِلْتُ به، إلاّ كان من أصحاب النار» تفرّد به أحمد[٤].

وقال الإمامُ أحمدُ: حدثنا حُسَين بن محمد، حدثنا إسرائيلُ، عن أبي إسحاقَ، عن أبي بُرْدَةَ، عن أبي موسى ـ رضي الله عنه ـ قال: قال رسول الله ـ ﷺ ـ: «أعطيت خمساً: بُعِثتُ إلى الأحمرِ والأسود، وجُعِلَتْ لي الأرضُ مَسجِداً وطهوراً، وأُحِلَّت لي الغنائم ولم تَحِلَّ لمن كان قبلي، ونُصِرْتُ بالرُّعبِ شهراً، وأُعْطِيت الشفاعةَ، وليس من نبي إلا وقد سَأل الشفاعة، وإني قد اختبأت شفاعتي، ثم جعلتُها لمن مات من أُمّتي لم يشرك بالله شيئاً»[٥].

وهذا أيضاً إسناد صحيح، ولم أرهم خرجوه، والله أعلم. وهذا الحديث ثابتَ في الصحيحين أيضاً، من حديث جابر بن عبد الله قال: قال رسولُ الله ـ ﷺ ـ: «أعطيتُ خمساً لم يُعطَهُنَّ أحد من الأنبياء قبلي: نُصِرتُ بالرعب مَسِيرة شهر، وجُعِلَت لي الأرضُ مَسْجداً وطَهُوراً، فأيُّما رَجُلٍ من أُمّتي أدركته الصلاةُ فَلْيُصَلِّ، وأُحِلَّت لي الغنائمُ، ولم تَحِلَّ لأحدٍ قبلي، وأعطيتُ الشفاعَةَ، وكان النبيُّ يُبعَثُ إلى قومِهِ وبُعِثْتُ إلى الناسِ عامَّة»[٦].

وقوله: ﴿الذي له ملكُ السمواتِ والأرض لا إله إلا هو يُحيي ويميت﴾ صفة الله تعالى، في قوله: ﴿رَسُولُ الله﴾ أي: الذي أرسلني هو خالق كل شيء وربه ومليكه، والذي بيده الملك والإحياء والإماتة، وله الحكم.

وقوله: ﴿فآمنوا بالله ورسوله النبيِّ الأميِّ﴾، أخبرهم أنه رسولُ الله إليهم، ثم أَمَرَهُم باتّباعه والإيمان به، ﴿النبي الأمي﴾، أي: الذي وُعدتم به وبُشِّرتُم به في الكتب المتقدمةِ، فإنه منعوتٌ بذلك في كتبهم، ولهذا قال ﴿النبيّ الأمي الذي يؤمنُ بالله وكَلماته﴾، أي: يُصَدِّقُ قولُه عملَه، وهو يؤمِنُ بما أُنزِلَ إليه من ربِّه ﴿واتّبعوه﴾، أي: اسلكوا طريقه واقتفوا أثره، ﴿لعلكم تهتدون﴾، أي: إلى الصِّراط المستقيم.

---

(١) المسند ٢/ ٢٢٢.

(٢) المسند ٤/ ٣٩٦.

(٣) كذا، وهو عن أبي هريرة. وفيه رواية أخرى عن أبي موسى. انظر كتاب الإيمان ١٣٤ ـ ١٣٥.

(٤) مسند أحمد ٢/ ٣٥٠.

(٥) مسند أحمد ٤/ ٤١٦.

(٦) فتح الباري، كتاب التيمم ١/ ٤٣٦، ومسلم، كتاب المساجد ٣٧٠ ـ ٣٧١.

﴿وَمِن قَوْمِ مُوسَىٰٓ أُمَّةٌ يَهْدُونَ بِٱلْحَقِّ وَبِهِۦ يَعْدِلُونَ ١٥٩﴾

يقولُ تعالى مخبراً عن بني إسرائيلَ أَنَّ منهم طائفة يتَّبعون الحقَّ ويعدلون به، كما قال تعالى: ﴿من أهل الكتاب أمة قائمة يتلون آيات الله آناء الليل وهم يسجدون﴾، وقال تعالى: ﴿وإنَّ من أهل الكتاب لمن يؤمنُ بالله، وما أُنزِلَ إليكم وما أُنزلَ إليهم، خاشعينَ لله لا يشترون بآياتِ الله ثمناً قليلاً، أولئك لهم أجرُهم عند ربِّهم، إن الله سريعُ الحساب﴾، وقال تعالى: ﴿الذين آتيناهم الكتابَ من قبله هم به يؤمنونَ. وإذا يُتلى عليهم قالوا آمنـا به إنه الحق من ربِّنا إنا كنا من قبله مسلمين. أولئك يؤتونَ أجرَهُم مرَّتين بما صَبَروا﴾. . . الآية، وقال تعالى: ﴿الذين آتيناهم الكتابَ يتلُونه حقَّ تلاوته أولئك يؤمنون به﴾. . . الآية، وقال تعالى: ﴿إن الذين أوتوا العلم من قبله إذا يُتْلَى عليهم يَخِرُّون للأذقانِ سُجَّداً. ويقولون: سبحان ربنا، إن كان وعد ربنا لمفعولا. ويخرُّون للأذقان يبكون ويزيدهم خشوعاً﴾.

وقد ذكره ابنُ جريرٍ في تفسيرها خبراً عجيباً، فقال:

حدثنا القاسم، حدثنا الحُسَين: حدثنا حَجَّاج، عن ابن جُرَيج قوله: ﴿ومن قوم موسى أمةٌ يهدونَ بالحقِّ وبه يعدلون﴾، قال: بلغني أن بني إسرائيل لما قتلوا أنبياءهم، وكفروا ـ وكانوا اثني عشر سبطاً ـ تبرَّأ سبطٌ منهم مما صَنَعوا، واعتَذَرُوا، وسألوا الله ـ عز وجل ـ أن يُفرِّق بينهم وبينهم. ففتح الله لهم نَفَقاً في الأرض، فساروا فيه حتى خرجوا من وراء الصين، فهم هنالك حنفاءَ مسلمين يستقبلون قبلتنا. قال ابـن جريج: قال ابنُ عباس: فذلك قوله: ﴿وقلنا من بعده لبني إسرائيل: اسكنوا الأرض، فإذا جاء وعد الآخرة جئنا بكم لفيفاً﴾، ووَعْدُ الآخرة عيسى ابن مريم[(١)]. قال ابن جُرَيج: قال ابن عباس: ساروا في السَّرَبِ سنةً ونصفاً[(٢)].

وقال ابن عُيينة، عن صدقة أبي الهُذَيل، عن السدِّي: ﴿ومن قومِ موسى أمةٌ يهدون بالحقِّ وبه يعدلون﴾، قال: قومٌ بينكم وبينهم نهر من شُهْد.

﴿وَقَطَّعْنَٰهُمُ ٱثْنَتَىْ عَشْرَةَ أَسْبَاطًا أُمَمًا ۚ وَأَوْحَيْنَآ إِلَىٰ مُوسَىٰٓ إِذِ ٱسْتَسْقَىٰهُ قَوْمُهُۥٓ أَنِ ٱضْرِب بِّعَصَاكَ ٱلْحَجَرَ ۖ فَٱنۢبَجَسَتْ مِنْهُ ٱثْنَتَا عَشْرَةَ عَيْنًا ۖ قَدْ عَلِمَ كُلُّ أُنَاسٍ مَّشْرَبَهُمْ ۚ وَظَلَّلْنَا عَلَيْهِمُ ٱلْغَمَٰمَ وَأَنزَلْنَا عَلَيْهِمُ ٱلْمَنَّ وَٱلسَّلْوَىٰ ۖ كُلُوا۟ مِن طَيِّبَٰتِ مَا رَزَقْنَٰكُمْ ۚ وَمَا ظَلَمُونَا وَلَٰكِن كَانُوٓا۟ أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ ١٦٠ وَإِذْ قِيلَ لَهُمُ ٱسْكُنُوا۟ هَٰذِهِ ٱلْقَرْيَةَ وَكُلُوا۟ مِنْهَا حَيْثُ شِئْتُمْ وَقُولُوا۟ حِطَّةٌ وَٱدْخُلُوا۟ ٱلْبَابَ سُجَّدًا نَّغْفِرْ لَكُمْ خَطِيٓـَٰٔتِكُمْ ۚ سَنَزِيدُ ٱلْمُحْسِنِينَ ١٦١ فَبَدَّلَ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ مِنْهُمْ قَوْلًا غَيْرَ ٱلَّذِى قِيلَ لَهُمْ فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ رِجْزًا مِّنَ ٱلسَّمَآءِ بِمَا كَانُوا۟ يَظْلِمُونَ ١٦٢﴾

تقدم تفسير هذا كله في سورة «البقرة»، وهي مدنية، وهذا السياق مَكِّي، ونبهنا على الفرق بين هذا السياق وذاك بما أغنى عن إعادته، ولله الحمد والمنة[(٣)].

---

(١) بعده في تفسير الطبري: يخرجون معه.

(٢) تفسير الطبري ٩/ ٨٧ ـ ٨٨.

(٣) انظر تفسير الآية ٦٠ من سورة البقرة.

﴿ وَسْـَٔلْهُمْ عَنِ ٱلْقَرْيَةِ ٱلَّتِى كَانَتْ حَاضِرَةَ ٱلْبَحْرِ إِذْ يَعْدُونَ فِى ٱلسَّبْتِ إِذْ تَأْتِيهِمْ حِيتَانُهُمْ يَوْمَ سَبْتِهِمْ شُرَّعًا وَيَوْمَ لَا يَسْبِتُونَ لَا تَأْتِيهِمْ ۚ كَذَٰلِكَ نَبْلُوهُم بِمَا كَانُوا يَفْسُقُونَ ﴿١٦٣﴾ ﴾

هذا السياقُ هو بَسْطٌ لقوله تعالى: ﴿ولقد عَلِمتم الذين اعتدوا منكم في السبت فقلنا لهم: كونوا قِرَدَةً خاسئين﴾(١)، يقول تعالى لنبيه ـ صلوات الله وسلامه عليه ـ: ﴿واسألهم﴾، أي: واسْأَلْ هَؤُلاءِ اليهودَ الذين بحَضْرَتك عن قِصَّةِ أصحابهم الذين خالفوا أمر الله، ففاجأتهم نقمتُه على صَنيعهم واعتدائهم واحتيالهم في المخالفة. وحذِّر هؤلاء من كتمان صفتك التي يجدونها في كُتُبهم؛ لئلا يَحِلَّ بهم ما حل بإخوانهم وسَلفهم. وهذه القرية هي «أيلة»، وهي على شاطىء بحر القلزم.

قال محمد بن إسحاق، عن داود بن الحُصين، عن عكرمة، عن ابن عباس في قوله: ﴿واسألهم عن القرية التي كانت حاضرة البحر﴾، قال: هي قرية يقال لها «أيلة» بين مَدْين والطور(٢). وكذا قال عكرمة، ومجاهد، وقتادة، والسدي.

وقال عبد الله بن كثير القارىء: سمعنا أنها أيلة.

وقيل: هي مدينُ، وهو رواية عن ابن عباس.

وقال ابنُ زيد: هي قرية يقال لها. «مقنا» بين مدين وعينُونَى.

وقولُه: ﴿إذ يعدُون في السبت﴾، أي: يعتدون فيه ويخالفون أمر الله فيه لهم بالوصاة به إذ ذاك.

﴿إذ تأتيهم حيتانهم يوم سبتهم شرّعا﴾، قال الضحاك، عن ابن عباس: أي ظاهرة على الماء.

وقال العَوفيُّ، عن ابن عباس ﴿شرعاً﴾: من كل مكان.

قال ابنُ جَرير: وقوله: ﴿ويوم لا يسبتون لا تأتيهم كذلك نبلوهم﴾، أي: نختبرهم بإظهار السمك لهم على ظهر الماء في اليَوْم المحرَّم عليهم صيدُه، وإخفائه عنهم في اليَوْمِ المُحَلَّلِ لهم صيدُه، ﴿كذلك نبلوهم﴾: نختبرهم، ﴿بما كانوا يفسقونَ﴾، يقول: بفسقهم عن طاعة الله، وخروجهم عنا(٣).

وهؤلاء قوم احتالوا على انتهاك محارم الله، بما تعاطوا من الأسباب الظاهرة التي معناها في الباطن تعاطي الحرام.

وقد قال الفقيه الإمام أبو عبد الله بن بَطَّة رحمه الله:

حدثنا أحمد بن محمد بن مسلم، حدثنا الحسن بن محمد بن الصباح الزعفراني، حدثنا يزيد بن هارون، حدثنا محمد بن عمرو، عن أبي سَلَمة، عن أبي هُرَيرةَ أنَّ رسولَ الله ـ ﷺ ـ قال: «لا ترتكبوا ما ارتكبتِ اليهودُ فَتَستحلّوا محارمَ الله بأدنى الحِيَل».

وهذا إسناد جيد، فإن أحمد بن محمد بن مسلم هذا ذكره الخطيب في تاريخه(٤)، وَوَثَّقه، وباقي رجاله مشهورونَ ثقاتٌ، ويُصَحِّحُ الترمذيّ بمثلِ هذا الإسنادِ كثيراً.

(١) آية ٦٥ من سورة البقرة.
(٢) تفسير الطبري ٩/ ٩٠.
(٣) تفسير الطبري ٩/ ٩٢.
(٤) تاريخ بغداد ٥/ ٩٨ ـ ٩٩.

﴿ وَإِذْ قَالَتْ أُمَّةٌ مِّنْهُمْ لِمَ تَعِظُونَ قَوْمًا ٱللَّهُ مُهْلِكُهُمْ أَوْ مُعَذِّبُهُمْ عَذَابًا شَدِيدًا قَالُوا۟ مَعْذِرَةً إِلَىٰ رَبِّكُمْ وَلَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ ﴿١٦٤﴾ فَلَمَّا نَسُوا۟ مَا ذُكِّرُوا۟ بِهِۦٓ أَنجَيْنَا ٱلَّذِينَ يَنْهَوْنَ عَنِ ٱلسُّوٓءِ وَأَخَذْنَا ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ بِعَذَابٍۭ بَـِٔيسٍۭ بِمَا كَانُوا۟ يَفْسُقُونَ ﴿١٦٥﴾ فَلَمَّا عَتَوْا۟ عَن مَّا نُهُوا۟ عَنْهُ قُلْنَا لَهُمْ كُونُوا۟ قِرَدَةً خَـٰسِـِٔينَ ﴿١٦٦﴾ ﴾

يُخبِرُ تعالى عن أهلِ هذه القرية أَنَّهم صاروا إلى ثلاثِ فِرَقٍ: فرقةٌ ارتكبت المحذورَ، واحتالوا على اصطياد السمك يوم السَّبت، كما تقدمَ بيانه في سورة البقرة[1]. وفرقة نَهَت عن ذلك، واعتزلتهم. وفرقة سكتت فلم تفعل ولم تنه، ولكنها قالت للمنكرة: ﴿لم تعظون قوماً الله مهلكهم أو معذبهم عذاباً شديداً﴾؟ أي: لِمَ تَنْهَوْنَ هؤلاء، وقد علمتم أنهم هلكوا واستحقُّوا العقوبَةَ من الله؟ فلا فائدةَ في نهيكم إياهم. قالت لهم المنكرة: ﴿معذرةً إلى ربكم﴾ ـ قرأ بعضهم[2] بالرفع، كأنه على تقديره: هذا معذرةٌ. وقرأ آخرون بالنصب، أي: نفعل ذلك ﴿معذرةً إلى ربكم﴾، أي: فيما أخذ علينا من الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، ﴿ولعلهم يَتّقون﴾ يقولون: ولعل بهذا الإنكار يتقون ما هم فيه ويتركونه، ويرجعون إلى الله تائبين، فإذا تابوا تاب الله عليهم ورحمهم.

قال تعالى: ﴿فلما نَسُوا ما ذُكِّروا به﴾، أي: فلما أبى الفاعلون المنكرَ قبولَ النصيحة، ﴿أنجينا الذين ينهون عن السوء وأخذنا الذين ظلموا﴾، أي: ارتكبوا المعصية ﴿بعذاب بئيس﴾، فنصَّ على نجاة الناهين وهلاك الظالمين، وسكت عن الساكتين؛ لأن الجزاء من جنس العمل، فهم لا يستحقون مدحاً فيمدحوا، ولا ارتكبوا عظيماً فَيُذَمُّوا، ومع هذا فقد اختلف الأئمة فيهم: هل كانوا من الهالكين أو من الناجين؟ على قولين:

قال علي بن أبي طلحة، عن ابن عباس: ﴿وإذ قالت أمة منهم لم تعظون قوماً الله مهلكهم أو معذبهم عذاباً شديداً﴾، هي قرية على شاطىء البحر بين مصر[3] والمدينة، يقال لها: «أيلة»، فحرَّم الله عليهم الحيتان يوم سَبتهم، وكانت الحيتان تأتيهم يوم سبتهم شرعاً في ساحل البحر، فإذا مضى يوم السبت لم يقدروا عليها. فمضى على ذلك ما شاء الله، ثم إن طائفة منهم أخذوا الحيتان يوم سبتهم، فَنَهَتْهُم طائفة وقالوا: تأخذونها وقد حَرَّمها الله عليكم يوم سبتكم؟! فلم يزدادوا إلا غَيّاً وعُتوّا، وجعلت طائفة أخرى تنهاهم، فلما طال ذلك عليهم قالت طائفة من النهاة: تَعلَمُون أن هؤلاء قوم قد حَقَّ عليهم العذابُ، ﴿لم تَعِظُون قوماً الله مهلكهم﴾، وكانوا أشدَّ غضباً لله من الطائفة الأخرى، فقالوا: ﴿معذرةً إلى ربكم ولعلهم يتقون﴾، وكلٌّ قد كانوا ينهون، فلما وقع عليهم غضب الله نجت الطائفتان اللتان قالوا: ﴿لم تعظون قوماً الله مهلكهم﴾ والذين قالوا: ﴿مَعْذِرةً إلى ربكم﴾، وأهلك الله أهل معصيته الذين أخذوا الحيتان، فجعلهم قِرَدَةً.

ورَوَى العَوفيُّ، عن ابن عباس قريباً من هذا.

وقال حَمّاد بن زيد، عن داود بن الحُصَين، عن عكرمة، عن ابن عباس: ﴿وإذ قالت أمةٌ منهم: لم تَعِظُون قوماً الله مهلكهم أو مُعَذِّبهم عذاباً شديداً﴾، قال: ما أدري أنجا الذين قالوا: «أتعظون» ﴿قوماً الله مهلكُهُم﴾، أم لا؟ قال: فلم أزل به حتى عَرَّفته أنهم قد نَجَوا، فكساني حُلَّة[4].

(١) انظر تفسير الآية ٦٥ من سورة البقرة.

(٢) قرأ حفص بالنصب، والباقون بالرفع. انظر الإقناع ٦٥٠.

(٣) في تفسير الطبري ٩/ ٩٣: بين مكة والمدينة. وفي معجم البلدان لياقوت عن أبي عبيدة: أيلة مدينة بين الفسطاط ومكة على شاطىء بحر القلزم تعدّ في بلاد الشام.

(٤) تفسير الطبري ٩/ ٩٤. والقائل: «ما أدري» هو ابن عباس. والقائل: «فلم أزل. . .» إلخ. هو عكرمة، كما سيأتي في الأثر التالي، وانظر تفسير البغوي ٢/ ٢٠٩.

وقال عبد الرزاق: أخبرنا ابن جُرَيج، حدَّثني رَجُل، عن عكرمة قال: جئت ابن عباس يوماً وهو يبكي، وإذا المصحف في حجره، فأعظمت أن أدنو، ثم لم أزل على ذلك حتى تقدّمت فجلست، فَقُلْتُ: ما يُبكيكَ يا أبا عباس[١]؟ جعلني الله فداك! قال: فقال: هؤلاء الورقات. قال: وإذا هو في «سورة الأعراف»، قال: تعرف أيلة؟ قلت: نعم. قال: فإنه كان بها حيٌّ من يهودَ سِيقَت الحيتانُ إليهم يومَ السبت، ثم غاصَتْ لا يقدِرُونَ عليها حتى يَغوصوا بعد كَدٍّ ومؤنة شديدة، كانت تأتيهم يوم السبت شُرَّعاً بيضاً سماناً كأنها الماخض[٢]، تَتَبَطَّح ظهورها لبطونها بأفنيتهم، فكانوا كذلك برهة من الدهر، ثم إن الشيطان أوحى إليهم فقال: إنما نُهيتم عن أكلها يوم السبت، فخذوها فيه، وكلوها في غيره من الأيام. فقالت ذلك طائفة منهم، وقالت طائفة: بل نُهيتم عن أكلها وأخذها وصيدها يوم السبت. فكانوا كذلك، حتى جاءت الجمعة المقبلة، فغدت طائفة بأنفسها وأبنائها ونسائها، واعتزلت طائفة ذات اليمين، وتنحَّت، واعتزلت طائفة ذات اليسار وسكتت. وقال الأيمنون: ويلكم! الله، الله، ننهاكم عن أن تتعرضوا لعقوبة الله، وقال الأيسرون: ﴿لم تعظون قوماً الله مهلكهم أو معذبهم عذاباً شديداً﴾؟ قال الأيمنون: ﴿معذرة إلى ربكم ولعلهم يتقون﴾، إن ينتهوا فهو أحبُّ إلينا ألَّا يصابوا ولا يهلكوا، وإن لم ينتهوا فمعذرة إلى ربكم. فمضوا على الخطيئة. وقال الأيمنون: فقد فعلتم، يا أعداء الله. والله لا نُبَايِتُكم[٣] الليلة في مدينتكم، والله ما نراكم تصبحون حتى يصبحكم الله بخسف أو قذف أو بعض ما عنده من العذاب. فلما أصبحوا ضربوا عليهم الباب ونادوا، فلم يجابوا، فوضعوا سلماً، وأعلوا سور المدينة رجلًا، فالتفت إليهم فقال: أي عباد الله، قردةٌ والله تَعاوَى لها أذناب. قال: ففتحوا فدخلوا عليهم، فعرفت القرود أنسابها من الإنس، ولا تعرف الإنس أنسابها من القردة، فجعلت القرود يأتيها نسيبها من الإنس فَتَشَمّ ثيابه وتبكي، فتقول: ألم ننهكم عن كذا؟ فتقول برأسها[٤]: أي نعم. ثم قرأ ابن عباس: ﴿فلما نسوا ما ذكّروا به أنجينا الذين ينهون عن السوء، وأخذنا الذين ظلموا بعذاب بئيس﴾، قال: فَأَرَى الذين نَهوا قد نجوا، ولا أرى الآخرين ذُكروا، ونحن نرى أشياء ننكرها ولا نقول فيها. قال: قلت: جعلني الله فداك، ألا ترى أنهم قد كرهوا ما هم عليهم، وخالفوهم وقالوا: ﴿لم تعظون قوماً الله مهلكهم﴾؟ قال: فأمر لي فكسيت ثوبين غليظين[٥].

وكذا روى مجاهد، عنه.

وقال ابن جَرير: حدثنا يونس، أخبرنا أشهب بن عبد العزيز، عن مالك، قال: زعم ابن رُومان أن قوله تعالى: ﴿تأتيهم حيتانهم يوم سَبْتِهم شُرَّعاً ويوم لا يَسبِتُون لا تأتيهم﴾، قال: كانت تأتيهم يوم السبت، فإذا كان المساءُ ذهبتْ، فلا يُرَى منها شيء إلى يوم السبت الآخر. فاتخذ لذلك رجل خيطاً وَوَتداً، فربط حوتاً منها في الماء يوم السبت، حتى إذا أمسوا ليلة الأحد أخذه فاشتواه، فوجد الناس ريحه، فأتوه فسألوه عن ذلك، فجحَدَهم، فلم يزالوا به حتى قال لهم: «فإنه جلد حُوتٍ وجدناه». فلما كان السبت الآخر فعل مثل ذلك - ولا أدري لعلَّه قال: ربط حُوتَين - فلما أمسى من ليلة الأحد أخذه فاشتواه، فوجدوا رائحة، فجاءُوا فسألوه، فقال لهم: «لو شئتم صنعتم كما أصنع». فقالوا له: وما صنعت؟ فأخبرهم، ففعلوا مثل ما فعل، حتى كثر

(١) كنية عبد الله بن عباس.
(٢) هي التي دنا ولادها.
(٣) في الأصل: لنبايتنكم.
(٤) أي: تشير.
(٥) تفسير الطبري ٩/ ٩٤ - ٩٥.

ذلك. وكانت لهم مَدينة لها رَبَضٌ(١) يغلقونها عليهم، فأصابهم من المسخ ما أصابهم. فغدوا عليهم جيرانهم ممن كانوا حولهم، يطلبون منهم ما يطلب الناس، فوجدوا المدينة مغلقة عليهم، فنادوا فلم يجيبوهم، فتسوّروا عليهم، فإذا هم قردة، فجعل القرد يدنو يتمسّح بمن كان يعرف قبل ذلك، ويدنو منه ويتمسح به(٢).

وقد قدمنا في سورة «البقرة»(٣) من الآثار في خبر هذه القرية ما فيه مَقْنَع وكفاية، ولله الحمد والمنة.

القول الثاني: أن الساكتين كانوا من الهالكين:

قال محمد بن إسحاق، عن داود بن الحُصَين، عن عكرمة، عن ابن عباس أنه قال: ابتدعوا السبت فابتُلوا فيه، فحرمت عليهم فيه الحيتان، فكانوا إذا كان يوم السبت شَرعت لهم الحيتان ينظرون إليها في البحر. فإذا انقضى السبت ذَهَبت فلم تُرَ حتى السبت المقبل، فإذا جاء السبتُ جاءت شُرَّعاً، فمكثوا ما شاء الله أن يمكثوا كذلك، ثم إنَّ رجلاً منهم أخذ حوتاً فَخَزَم أنفه، ثم ضَرَب له وتداً في الساحل، وربطه وتركه في الماء. فلما كان الغد أخذه فشواه فأكله، ففعل ذلك وهم ينظُرون ولا ينكِرون، ولا ينهاه منهم أحدٌ، إلا عصبة منهم نَهوه، حتى ظهر ذلك في الأسواق، ففُعل علانية. قال: فقالت طائفة للذين ينهونهم: ﴿لم تعظون قوماً الله مهلكهم أو مُعَذِّبهم عذاباً شديداً. قالوا معذرة إلى ربكم﴾، فقالوا: نَسخط أعمالهم(٤) ﴿ولعلهم يتقون. فلما نَسُوا ما ذُكِّروا به﴾ إلى قوله: ﴿قردةً خاسئين﴾، قال ابن عباس: كانوا أثلاثاً: ثلث نَهوا، وثلث قالوا: ﴿لم تعظون قوماً الله مهلكهم﴾، وثلث أصحاب الخطيئة، فما نجا إلا الذين نَهوا وهلك سائرهم.

وهذا إسنادٌ جيدٌ عن ابن عباس، ولكن رجوعه إلى قول عكرمة في نجاة الساكتين أولى من القول بهذا، لأنه تبين حالهم بعد ذلك، والله أعلم.

وقولُه تعالى: ﴿وأخذنا الذين ظلموا بعذاب بَئِيسٍ﴾، فيه دلالة بالمفهوم على أن الذين بقوا نجوا.

و﴿بَئِيسٍ﴾ فيه قراءات(٥) كثيرة، ومعناه في قول مجاهد «الشديدُ»، وفي رواية: «أليم». وقال قتادةُ: «مُوجع». والكلّ متقارب، والله أعلم.

وقوله: ﴿خاسئين﴾، أي: ذليلين حَقيرين مُهَانين.

﴿وَإِذْ تَأَذَّنَ رَبُّكَ لَيَبْعَثَنَّ عَلَيْهِمْ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ مَن يَسُومُهُمْ سُوٓءَ ٱلْعَذَابِ ۗ إِنَّ رَبَّكَ لَسَرِيعُ ٱلْعِقَابِ ۖ وَإِنَّهُۥ لَغَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿١٦٧﴾﴾

﴿تَأَذَّنَ﴾: تَفَعَّل من الإذْن أي: أعلم، قاله مجاهد(٦). وقال غيره: أمر.

وفي قُوّة الكلام ما يفيد معنى القسم من هذه اللفظة، ولهذا تُلُقِّيَت باللام في قوله: ﴿ليبعثنّ عليهم﴾، أي: على اليهود ﴿إلى يوم القيامة من يسومهم سوءَ العذاب﴾، أي: بسبب عصيانهم ومخالفتهم أوامرَ الله وشرعه واحتيالهم على المحارم.

(١) أي: فضاء حول المدينة.
(٢) تفسير الطبري ٩/ ٩٦ ـ ٩٧.
(٣) أنظر تفسير الآية ٦٠ من سورة البقرة.
(٤) في تفسير الطبري: في سخطنا أعمالهم.
(٥) انظر هذه القراءات في البحر المحيط ٤/ ٤١٢ ـ ٤١٣.
(٦) في الأصل: «وقال مجاهد، قال: وقال غيره».

ويُقالُ: إنَّ موسى - عليه السلام - ضرب عليهم الخراج سبع سنين - وقيل: ثلاث عشرة سنة، وكان أول من ضرب الخراج - ثم كانوا في قهر الملوك من اليونانيين والكَشْدانيين والكُلدانيين، ثم صاروا في قهر النصارى وإذلالهم إياهم، وأَخْذِهم منهم الجِزَى[١] والخراج. ثم جاء الإسلام ومحمد - عليه أفضل الصلاة والسلام - فكانوا تحت خَفارته[٢] وذِمَّته يؤدُّون الخراج والجِزَى.

قال العَوفيُّ، عن ابن عباس في تفسير هذه الآية قال: هي المَسْكَنَةُ وأَخْذُ الجِزْيَة منهم.

وقال علي بن أبي طلحة، عنه: هي الجزية، والذين يسومونهم سوء العذاب: محمد رسول الله - ﷺ - وأمته، إلى يوم القيامة.

وكذا قال سعيد بن جُبَير، وابن جُرَيج، والسدِّيُّ، وقتادة.

وقال عبد الرزاق، عن مَعْمر، عن عبد الكريم الجزريِّ، عن سعيد بن المسيب قال: يستحب أن تبعث الأنباط في الجزية.

قلت: ثم آخر أمرهم أنهم يَخرُجون أنصاراً للدَّجَّالِ، فيقتلهم المسلمون مع عيسى ابن مريم - عليه السلام - وذلك آخر الزمان.

وقولُه: ﴿إنَّ ربك لسريعُ العقابِ﴾، أي: لمن عصاه وخالَفَ شرعه، ﴿وإنه لغفور رحيم﴾، أي: لمن تاب إليه وأناب.

وهذا من باب قَرْنِ الرَّحمةِ مع العقوبة، لئلا يحصلَ اليأسُ، فيقرن تعالى بين الترغيب والترهيب كثيراً، لتبقى النفوس بين الرجاء والخوف.

﴿ وَقَطَّعْنَاهُمْ فِي الْأَرْضِ أُمَمًا مِّنْهُمُ الصَّالِحُونَ وَمِنْهُمْ دُونَ ذَٰلِكَ وَبَلَوْنَاهُم بِالْحَسَنَاتِ وَالسَّيِّئَاتِ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ ﴿١٦٨﴾ فَخَلَفَ مِن بَعْدِهِمْ خَلْفٌ وَرِثُوا الْكِتَابَ يَأْخُذُونَ عَرَضَ هَٰذَا الْأَدْنَىٰ وَيَقُولُونَ سَيُغْفَرُ لَنَا وَإِن يَأْتِهِمْ عَرَضٌ مِّثْلُهُ يَأْخُذُوهُ ۚ أَلَمْ يُؤْخَذْ عَلَيْهِم مِّيثَاقُ الْكِتَابِ أَن لَّا يَقُولُوا عَلَى اللَّهِ إِلَّا الْحَقَّ وَدَرَسُوا مَا فِيهِ ۗ وَالدَّارُ الْآخِرَةُ خَيْرٌ لِّلَّذِينَ يَتَّقُونَ ۗ أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴿١٦٩﴾ وَالَّذِينَ يُمَسِّكُونَ بِالْكِتَابِ وَأَقَامُوا الصَّلَاةَ إِنَّا لَا نُضِيعُ أَجْرَ الْمُصْلِحِينَ ﴿١٧٠﴾ ﴾

يذكر تعالى أنه فرَّقهم في الأرض أمماً، أي: طوائِفَ وفِرقاً، كما قال: ﴿وقلنا من بعده لبني إسرائيل: اسكنوا الأرض فإذا جاء وعد الآخرة جئنا بكم لفيفاً﴾.

﴿منهم الصالحون، ومنهم دون ذلك﴾، أي: فيهم الصالح وغير ذلك، كما قالت الجن: ﴿وأنَّا منا الصالحون ومنا دون ذلك كنا طرائق قِدَداً﴾، ﴿وبلوناهم﴾ أي اختبرناهم ﴿بالحسنات والسيئات﴾ أي: بالرخاء والشدة، والرغبة والرهبة والعافية والبلاء، ﴿لعلهم يرجعون﴾.

ثم قال تعالى: ﴿فَخلف من بعدهم خَلْفٌ وَرِثوا الكتابَ يأخذون عَرَضَ هذا الأدنى ويقولون: سيُغفَرُ لنا وإن يأتهم عَرَضٌ مثله يأخذوه﴾، يقول تعالى: فخلف من بعد ذلك الجيل الذين فيهم الصالح والطالح، خَلْف

(١) الجزَى: جمع جِزْيَة.
(٢) في النسخ: صفاره. والخَفَارة - مُثلَّثة الخاء -: الذِّمَّة.

آخر لا خير فيهم، وقد ورثوا دراسة الكتاب وهو التوراة ـ وقال مجاهد: هم النصارى ـ وقد يكون أعم من ذلك، ﴿يأخذون عرض هذا الأدنى﴾، أي: يعتاضون عن بذل الحق ونشره بعرض الحياة الدنيا، ويسوّفون أنفسهم ويَعدونها بالتوبة، وكلما لاح لهم مثل الأول وقعوا فيه. ولهذا قال: ﴿وإن يأتهم عرض مثله يأخذوه﴾، كما قال سعيد بن جُبَير: يعلمون الذنب، ثم يستغفرون الله منه، فإن عرض ذلك الذنب أخذوه.

وقال مجاهدٌ في قوله: ﴿يأخذون عَرَضَ هذا الأدنى﴾، قال: لا يُشْرِف لهم شيء في الدنيا إلا أخذوه، حلالاً كان أو حراماً، ويتمنّون المغفرة، ويقولون: «سيغفر لنا»، وإن يجدوا عرضاً مثله يأخذوه.

وقال قتادة في ﴿فخلف من بعدهم خَلْفٌ﴾، إي والله، لَخَلْفُ سَوْءٍ، ورثوا الكتاب بعد أنبيائهم ورسلهم، وَرَّثَهم الله وعَهِدَ إليهم، وقال الله في آية[1] أخرى: ﴿فخلف من بعدهم خلف أضاعوا الصلاة واتبعوا الشهوات﴾، قال: ﴿يأخذون عرض هذا الأدنى، ويقولون: سيغفر لنا﴾، تمنوا على الله أماني، وغِرَّةٌ يغترون بها ﴿وإن يأتهم عرض مثله يأخذوه﴾، لا يشغلهم شيء عن شيء، ولا ينهاهم شيء عن ذلك، كلما هَفَّ لهم شيء من الدنيا أكلوه، ولا يبالون حلالاً كان أو حراماً.

وقال السدّيُّ قوله: ﴿فخلف من بعدهم خلف﴾ إلى قوله: ﴿ودرسوا ما فيه﴾، قال: كانت بنو إسرائيل لا يستقضون قاضياً إلا ارتشى في الحكم، وإن خيارهم اجتمعوا فأخذ بعضهم على بعض العهود ألَّا يفعلوا ولا يَرْتَشى[2]، فجعل الرجلُ منهم إذا استقضى ارتَشى، فيقال له: ما شأنك تَرْتَشِي في الحكم؟ فيقول: «سيغفر لي»، فيطعُنُ عليه البقية الآخرون من بني إسرائيل فيما صنع، فإذا مـات أو نُـزِع وجعل مكانه رجل ممن كان يطعُن عليه، فيرتشي، يقول: وإن يأت الآخرين عَرَضُ الدنيا يأخذوه.

قال الله تعالى: ﴿ألم يُؤخَذْ عليهم ميثاقُ الكتاب أن لا يقولوا على الله إلا الحق ودَرَسوا ما فيه﴾، يقول تعالى منكراً عليهم في صنيعهم هذا، مع ما أخذ عليهم من الميثاق لَيُبَيِّنُنَّ الحق للناس، كما قال تعالى: ﴿وإذ أخذ الله ميثاق الذين أوتوا الكتاب لتبيِّنُنَّه للناسِ ولا تكتُمُونَه، فنبَذُوه وراءَ ظُهورِهِم واشتروا به ثمناً قليلاً فبئس ما يشترون﴾.

وقال ابن جُرَيج: قال ابن عباس: ﴿ألم يؤخذ عليهم ميثاق الكتاب أن لا يقولوا على الله إلا الحق﴾، قال: فيما يُوجِبُون على الله من غفران ذنوبهم التي لا يزالون يعودون فيها، ولا يتوبون منها.

وقوله تعالى: ﴿والدار الآخرة خير للذين يتقون أفلا تعقلون﴾، يرغبهم تعالى في جزيل ثوابه، ويحذرهم من وبيل عقابه، أي: وثوابي وما عندي خير لمن اتقى المحارم، وترك هوى نفسه، وأقبل على طاعة ربه.

﴿أفلا تعقلون﴾، يقول: أفليس لهؤلاء الذين اعتاضوا بعَرَض الدنيا عما عندي عَقْل يردعهم عما هم فيه من السفه والتبذير، ثم أثنى تعالى على من تمسك بكتابه الذي يقوده إلى اتباع رسوله محمد ـ ﷺ ـ كما هو مكتوب فيه، فقال تعالى: ﴿والذين يُمسِّكُونَ بالكتاب﴾، أي: اعتصَمُوا به واقتدوا بأوامره، وتركوا زواجره ﴿وأقاموا الصلاة إنا لا نضيع أجر المصلحين﴾.

﴿۞ وَإِذْ نَتَقْنَا ٱلْجَبَلَ فَوْقَهُمْ كَأَنَّهُۥ ظُلَّةٌ وَظَنُّوٓاْ أَنَّهُۥ وَاقِعٌۢ بِهِمْ خُذُواْ مَآ ءَاتَيْنَٰكُم بِقُوَّةٍ وَٱذْكُرُواْ مَا فِيهِ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ ﴿١٧١﴾﴾

---

(١) في الأصل: آي.
(٢) أي: وألا يرتشي القاضي.

قال علي بن أبي طلحة، عن ابن عباس قوله: ﴿وإذ نتقنا الجبل فوقهم﴾، يقول: رفعناه، وهو قوله: ﴿ورفعنا فوقهم الطور بميثاقهم﴾.

وقال سفيان الثوري، عن الأعمش، عن سعيد بن جُبَير، عن ابن عباس: رفعته الملائكة فوق رؤوسهم.

وقال القاسم بن أبي أيوب، عن سعيد بن جُبَير، عن ابن عباس قال: ثم سار بهم موسى ـ عليه السلام ـ متوجهاً نحو الأرض المقدسة، وأخذ الألواح بعد ما سكت عنه الغضب، فأمرهم بالذي أمره الله تعالى أن يبلغهم من الوظائف، فثقلت عليهم، وأبوا أن يقربوها حتى يَنْتُقَ الله الجبل فوقهم كأنه ظلة، قال: رفعته الملائكة فوق رءُوسهم. رواه النسائي بطوله.

وقال سُنَيد بن داود في تَفْسِيره، عن حَجَّاج بن محمد، عن أبي بكر بن عبد الله قال: هذا كتاب، أتقبلونه بما فيه، فإن فيه بيان ما أحلّ لكم وما حرم عليكم، وما أَمَرَكم وما نهاكم؟ قالوا: انشُر علينا ما فيها، فإن كانت فرائضُها يسيرةً، وحدودُها خفيفةً قَبِلناها. قال: اقبلوها بما فيها. قالوا: لا، حتى نعلَمَ ما فيها، كيف حُدودُها وفرائضُها. فراجعوا موسى مراراً، فأوحى الله إلى الجبل فانقلع فارتَفَع في السماء، حتى إذا كان بين رءُوسهم وبين السماء قال لهم موسى: ألا تَرَون ما يقولُ ربِّي عز وجل؟ لئن لم تقبلوا التوراةَ بما فيها لأَرْمِيَنَّكم بهذا الجبل(١). قال: فحدَّثني الحسن البصري قال: لما نظروا إلى الجبل خرَّ كل رجل ساجداً على حاجبه الأيسر، ونظر بعينه اليمنى إلى الجبل، فَرَقاً من أن يسقط، فكذلك ليس اليوم في الأرض يهوديٌّ يسجدُ إلا على حاجبه الأيسر، يقولون: هذه السجدةُ التي رُفِعَت بها العقوبة. قال أبو بكر: فلما نَشَر الألواح فيها كتاب الله كتَبَه بيده، لم يبق على وجه الأرض جَبَلٌ ولا شجرٌ ولا حَجرٌ إلا اهتز، فليس اليوم يهودي على وجه الأرض صغيرٌ ولا كبيرٌ تُقرأُ عليه التوراة إلا اهتز ونَغَضَ لها رَأْسَه(٢) [(٣) أي: حَوَّل، كما قال تعالى: ﴿فَسَيُنغِضُون إليك رءُوسهم﴾(٣)].

﴿وَإِذْ أَخَذَ رَبُّكَ مِنۢ بَنِىٓ ءَادَمَ مِن ظُهُورِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ وَأَشْهَدَهُمْ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ ۖ قَالُوا۟ بَلَىٰ ۛ شَهِدْنَآ ۛ أَن تَقُولُوا۟ يَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِ إِنَّا كُنَّا عَنْ هَـٰذَا غَـٰفِلِينَ ﴿١٧٢﴾ أَوْ تَقُولُوٓا۟ إِنَّمَآ أَشْرَكَ ءَابَآؤُنَا مِن قَبْلُ وَكُنَّا ذُرِّيَّةً مِّنۢ بَعْدِهِمْ ۖ أَفَتُهْلِكُنَا بِمَا فَعَلَ ٱلْمُبْطِلُونَ ﴿١٧٣﴾ وَكَذَٰلِكَ نُفَصِّلُ ٱلْـَٔايَـٰتِ وَلَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ ﴿١٧٤﴾﴾

يُخبِرُ تعالى أنه استخرج ذرّية بني آدم من أصلابهم، شاهدين على أنفسهم أن الله ربهم ومليكهم، وأنه لا إله إلا هو، كما أنه تعالى فطرهم على ذلك وجبلهم عليه، قال تعالى: ﴿فأقم وجهك للدين حنيفاً، فطرت الله التي فطر الناس عليها لا تبديل لخلق الله﴾، وفي الصحيحين عن أبي هُرَيرة ـ رضي الله عنه ـ قال: قال رسول الله ـ ﷺ ـ: «كلُّ مولود يولد على الفطرة ـ وفي رواية: على هذه الملَّة ـ فأبواه يُهوِّدانه وينصّرانه ويمجسانه، كما تولد البهيمة بهيمةً جمعاءَ، هل تُحِسُّون فيها من جدعاء»(٤)؟ وفي صحيح مسلم، عن عياض ابن حِمَار قال: قال رسول الله ـ ﷺ ـ «يقول الله: إني خلقتُ عبادي حُنَفاء فجاءتهم الشياطين فاجتالتهم عن دينهم، وحَرَّمَتْ عليهم ما أحللتُ لهم»(٥).

---

(١) في الأصل: لأرمينكم بهذا الحيط. وانظر تفسير الطبري.

(٢) تفسير الطبري ٩/ ١٠٩.

(٣) عن الأصل. وبعده: نفض لها رأس.

(٤) أخرجاه في كتاب القدر، فتح الباري ١١/ ٤٩٣، ومسلم ٢٠٤٧ - ٢٠٤٨.

(٥) مسلم، كتاب الجنة ٢١٩٧. واجتالتهم: استخفوهم.

وقال الإمام أبو جعفر بن جرير ـ رحمه الله ـ: حدثنا يونُسُ بن عبد الأعلى، حدَّثنا ابنُ وَهْب، أخبرني السريُّ بـن يحيى: أن الحسن بن أبي الحسن حَدَّثهم، عن الأسود بن سَريعٍ من بني سعد قال: غزوتُ مع رسول الله ـ ﷺ ـ أربع غزوات، قال: فتناول القومُ الذرّية بعد ما قَتَلوا المُقَاتلة، فبلغ ذلك رسول الله ـ ﷺ ـ فاشتدّ عليه، ثم قال: ما بالُ أقوامٍ يتناولون الذرِّيةَ؟ فقال رجلٌ: يا رسولَ الله، أليسوا أبناءَ المشركين؟ فقال: إن خياركم أبناءُ المشركين! ألا إنها ليست نسمةٌ تولد إلا وُلِدت على الفطرة، فما تزالُ عليها حتى يُبِينَ عنها لسانها، فأبواها يُهوِّدانها أو ينصّرانها ـ قال الحسن: ولقد قال الله في كتابه: ﴿وإذ أخذ ربك من بني آدم من ظهورهم ذريتهـم﴾. . الآية[1].

وقد رواه الإمام أحمدُ، عن إسماعيل بـن عُلَيَّة، عن يونس بن عُبَيد، عن الحسن البصريِّ، به[2]. وأخرَجَهُ النسائيُّ في سُنَنه من حديثِ هُشَيم، عن يونس بن عُبَيد، عن الحسن قال: حدثنا الأسود بن سَرِيعٍ، فذكره، ولم يذكر قول الحسن البصري واستحضاره الآية عند ذلك.

وقد وردت [أحاديث][3] في أخذ الذرية من صُلْب آدم عليه السلام، وتمييزهم إلى أصحاب اليمين وأصحاب الشمال، وفي بعضها الإشـهـادُ عليهم بأن الله ربهم.

قال الإمام أحمدُ: حدثنا حَجّاجُ، حدثنا شعبةُ، عن أبي عِمْرَان الجَوْنيِّ، عن أَنَسِ بن مالك ـ رضي الله عنه ـ عن النبي ـ ﷺ ـ قال: «يُقال لرجل من أهل النار يوم القيامة: أرأيت لو كان لك ما على الأرض من شيءٍ أكنت مُفْتدِياً به؟ قال: فيقولُ: نعم. فيقولُ: قد أردت منك أَهْوَنَ من ذلك، قد أخذتُ عليك في ظهر آدم أن لا تُشرِكَ بي شيئاً، فأبيتَ إلا أن تُشرِكَ بي»[4].

أخرجاه في الصحيحين، من حديث شُعبةَ، به[5].

حديث آخر، وقال الإمام أحمد: حدثنا حُسَين بن محمد، حدثنا جَرير ـ يعني ابن حازم ـ عن كُلثوم بـن جَبْر، عن سَعيد بن جُبَير، عن ابن عَبَّاس، عن النبي ـ ﷺ ـ قال: «إن الله أخذ الميثاق من ظهر آدم ـ عليه السلام ـ بِنعمان ـ يعني عرفة ـ فأخرجَ من صُلْبه كلَّ ذريَّة ذَرَأها فنثرها بين يديه، ثم كَلَّمهم قِبَلاً[6]، قال: ﴿ألست بربكم؟ قالوا: بلى، شهدنا أن يقولوا[7] يوم القيامة إنا كنا عن هذا غافلين، أو يقولوا﴾[7] إلى قوله: ﴿المبطلون﴾[8].

وقد روى هذا الحديث النسائي في كتاب التفسير من سننه، عن محمد بن عبد الرحيم ـ صاعقة ـ عن حُسَين بن محمد المروزيّ، به. ورواه ابنُ جَرير وابن أبي حاتمٍ من حديث حُسَين بن محمد، به، إلا أن ابن ابي حاتم جَعَله موقوفاً. وأخرجه الحاكم في مستدركه من حديث حسين بن محمد وغيره، عن جرير بن حازم،

---

(١) تفسير الطبري ٩/ ١١٢ ـ ١١٣.
(٢) مسند الإمام أحمد ٣/ ٤٣٥.
(٣) سقط من الأصل.
(٤) مسند الإمام أحمد ٣/ ١٢٧.
(٥) فتح الباري، كتاب الأنبياء ٦/ ٣٦٣، ومسلم، كتاب صفات المنافقين ٢١٦٠ ـ ٢١٦١.
(٦) أي: عياناً ومقابلة، لا من وراء حجاب.
(٧) كذا بالياء في مخطوطة الأزهر، وهي غير واضحة في الأصل. وبالياء قرأ أبو عَمْرو، انظر الإقناع ٦٥١.
(٨) مسند الإمام أحمد ١/ ٢٧٢.

عن كلثوم بن جَبْر، به. وقال: «صحيح الإسناد ولم يخرجاه، وقد احتجَّ مسلم بكلثوم بن جَبْرٍ»(١). هكذا قال، وقد رواه عبد الوارث، عن كلثوم بن جَبْر، عن سعيد بن جُبَير، عن ابن عباس، فوقفه. وكذا رواه إسماعيل بن عُلَيّة ووكيع، عن ربيعةَ بن كُلثوم، عن أبيه، به(٢). وكذا رواه عطاءُ بن السائب، وحبيب بن أبي ثابت، وعلي ابن بَذيمة، عن سعيد بن جُبَير، عن ابن عباس(٢)، قوله. وكذا رواه العَوفي وعلي بن أبي طلحة عن ابن عَبّاس. فهذا أكثرُ وأثبتُ، والله أعلم.

وقال ابن جَرير: حدثنا ابن وكيع، حدثنا أبي، عن أبي هلال، عن أبي جَمْرَة(٣) الضَّبَعي، عن ابن عباس قال: أخرج الله ذرية آدم من ظهره كهيئة الذرِّ، وهو في آذِيّ من الماء(٤).

وقال أيضاً: حدثنا علي بن سهل، حدثنا ضَمْرة بن رَبيعَة، حدثنا أبو مسعود، عن جُوَيبر قال: مات ابنٌ للضحاك بن مزاحم، ابنُ ستة أيام. قال: فقال: يا جابرُ، إذا أنتَ وَضَعْتَ ابني في لَحْدِه، فأبرِزْ وجهَه، وحُلّ عنه عُقَدَه، فإنّ ابني مُجْلَس ومَسْئُول. ففعلتُ بِهِ الذي أمَرَ، فلما فَرَغتُ قلت: يرحمُك الله، عمَ يُسألُ ابنُكَ؟ من يسأله إيّاه؟ قال: يُسأل عن الميثاق الذي أقرَّ به في صلب آدم. قلت: يا أبا القاسم، وما هذا الميثاق الذي أقر به في صلب آدم؟ قال: حدثني ابنُ عباس أن الله مسح صُلْبَ آدم فاستخرج منه كلَّ نَسَمَةٍ هو خَلَقها إلى يوم القيامة، فأخذ منهم الميثاق: أن يعبدُوه ولا يُشركوا به شيئاً، وتكفَّل لهم بالأرزاق، ثم أعادهم في صلبه. فلن تقومَ الساعةُ حتى يولد من أُعطِيَ الميثاقَ يومئذٍ، فمن أدرك منهم الميثاقَ الآخر فَوَفَى به، نفعه الميثاق الأول. ومن أدرك الميثاق الآخَر فَلَم يَفِ(٥) به لم ينفعه الميثاق الأول، ومن مات صغيراً قبل أن يدرك الميثاق الآخر، مات على الميثاق الأول على الفطرة(٤).

فهذه الطرق كلُّها مما يُقوّي وَقْف هذا على ابن عباس، والله أعلم.

حديثٌ آخر، وقال ابنُ جَرير: حدثنا عبد الرحمن بن الوليد، حدثنا أحمد بن أبي طَيْبَةَ، عن سفيان بن سعيد، عن الأجلح، عن الضحاك [و](٦) عن منصور، عن مجاهد، عن عبد الله بن عمرو قال: قال رسول الله ـ ﷺ ـ: ﴿وإذ أخذ ربُّك من بني آدم من ظهورهم ذريتهم﴾، قال: أُخِذُوا من ظهره، كما يؤخَذُ بالمشط من الرأس، فقال لهم: ﴿ألست بربِّكم؟ قالوا: بلى﴾. قالت الملائكةُ: ﴿شهِدنا أن يقولوا يوم القيامة إنا كنا عن هذا غافلين﴾(٧).

أحمد بن أبي طَيْبَةَ هذا هو: أبو محمد الجُرجانيُّ قاضي قُومِسَ، كان أحدَ الزُّهادِ، أخرج له النسائي في سُنَنه، وقال أبو حاتم الرازي: يُكتَبُ حديثُه. وقال ابنُ عَدِيٍّ: حَدَّث بأحاديثَ كثيرة [أكثرها] غرائبُ(٨).

وقد رَوَى هذا الحديثَ عبدُ الرحمن بن مَهدِيٍّ، عن سُفيان الثَّوري، عن منصور، عن مجاهد، عن

(١) المستدرك، كتاب الإيمان ١/ ٢٨.
(٢) تفسير الطبري ٩/ ١١١.
(٣) في الأصل: حمزة. وهو خطأ، انظر تهذيب التهذيب ١٠/ ٤٣١.
(٤) تفسير الطبري ٩/ ١١٢.
والذَّرُّ صغار النمل. وآذي الماء: موجه الشديد.
(٥) في الأصل: فلم يقربه.
(٦) عن تفسير الطبري.
(٧) تفسير الطبري ٩/ ١١٣. و(يقولوا) قراءة أبي عمرو.
(٨) انظر تهذيب الكمال ١/ ٣٦١ ـ ٣٦٢. وما بين القوسين عنه.

عبد الله بن عمرو، قوله. وكذا رواه جَرير، عن منصور، به. وهذا أصح، والله أعلم.

حديث آخر، قال الإمام أحمدُ: حدثنا رَوحٌ ـ هو ابن عُبادة ـ حدثنا مالك ـ وحدثنا إسحاق، أخبرنا مالك ـ عن زيد بن أبي أُنيسَةَ: أنَّ عبد الحميد بنَ عبد الرحمن بن زيد بن الخطاب أخبَرَهُ، عن مسلم بن يَسارٍ الجُهَنيِّ: أن عُمَر بن الخطاب سُئِلَ عن هذه الآية: ﴿وإذا أخذ ربُّك من بني آدم من ظهورهم ذُرِّيتهم وأشهدَهم على أنفسهم ألست بربكم قالوا بلى﴾... الآية، فقال عُمرُ بن الخطاب: سَمِعتُ رسول الله ـ ﷺ ـ سُئِل عنها، فقال: إن الله خلق آدم ـ عليه السلام ـ ثم مَسَح ظهره بيمينه، فاستخرج منه ذُرِّيَّة، قال: خلقت هؤلاءِ للجنَّةِ، وبعَمَلِ أهلِ الجنة يعمَلُون. ثم مسح ظهره فاستخرج منه ذُرِّيَّةً، قال: خلقتُ هؤلاءِ للنار وبعَمَلِ أهلِ النار يَعْمَلُونَ. فقال رَجلٌ: يا رسولَ الله، ففيم العملُ؟ قال رسولُ الله ـ ﷺ ـ: «إذا خلق الله العبد للجنة استعمله بعَمَلِ أهلِ الجنة، حتى يموت على عمل من أعمال أهل الجنة، فيدخله به الجنة. وإذا خلق العبد للنار استعمله بعمل أهل النار حتى يموتَ على عملٍ من أعمالِ أهلِ النارِ، فيدخِلَه به النار»[١].

وهكذا رواه أبو داود عن القَعْنَبيِّ ـ والنسائي عن قتيبة ـ والترمذيّ عن إسحاق بن موسى، عن مَعْن ـ وابن أبي حاتم، عن يونس بن عبد الأعلى، عن وهب ـ وابن جَرير من حديث رَوح بن عبادة وسَعْدِ بن عبد الحميد ابن جعفر ـ وأخرجه ابن حبان في صحيحه، من رواية أبي مصعب الزبيري، كلهم عن الإمام مالك بن أنس، به.

قال الترمذيّ: «وهذا حديثٌ حَسَنٌ، ومسلم بن يَسَار لم يَسْمَع عُمَرَ». وكذا قاله أبو حاتم وأبو زُرعَةَ، زاد أبو حاتم: وبينهما نُعَيم بن رَبيعةَ.

وهذا الذي قاله أبو حاتم رواه أبو داود في سُنَنه، عن محمد بن مُصَفَّى، عن بقيةَ، عن عُمَر بن جُعْثُم القُرَشيِّ، عن زيد بن أبي أُنَيسَةَ، عن عبد الحميد بن عبد الرحمن بن زيد بن الخطاب، عن مسلم بن يَسَار الجُهَني، عن نُعَيم بن ربيعة قال: كنت عند عُمَر بن الخطاب، وقد سُئِل عن هذه الآية: ﴿وإذا أخذ ربُّك من بني آدَمَ من ظُهُورِهم ذُرِّيَّتِهم﴾... فذكره[١].

وقال الحافظ الدارقطنيُّ: وقد تابع عُمَرَ بن جُعْثُم يزيدُ بن سنان أبو فَرْوة الرُّهاوي، وقولُهما أولى بالصواب من قَولِ مالك، والله أعلم.

قلت: الظاهر أن الإمام مالكاً إنما أسقط ذكر «نُعَيمِ بن رَبيعَةَ» عمداً لما جهل حاله ولم يعرفه، فإنه غير معروف إلا في هذا الحديث، وكذلك يسقِطُ ذِكْرَ جماعةٍ ممن لا يرتضيهم، ولهذا يرسِلُ كثيراً من المرفوعات، ويقطَعُ كثيراً من الموصولات، والله أعلم.

حديث آخَرُ، قال الترمذيّ عند تفسيره هذه الآية: حدثنا عَبْدُ بن حُمَيد، حدّثنا أبو نُعَيم، حَدَّثنا هشام بن سَعْدٍ، عن زيد بن أسلم، عن أبي صالح، عن أبي هُرَيرة قال: قال رسول الله ـ ﷺ ـ: «لما خلق الله آدم مَسَحَ ظهره، فَسقَطَ من ظهره كلُّ نَسَمة هو خالقُها من ذُرِّيته إلى يوم القيامة، وجعل بين عَيْنَي كلِ إنسان منهم وَبيصاً[٢] من نور، ثم عَرَضَهم على آدم فقال: أيْ ربِّ، من هؤلاء؟ قال: هؤلاءِ ذُرِّيتُكَ. فرأى رَجلاً منهم فأعجبه وَبيصُ ما بين عينيه، فقال: أيْ رب، من هذا؟ قال: هذا رجلٌ من آخر الأُمَمِ من ذُرِّيتك، يقال له:

---

(١) مسند الإمام أحمد ١/ ٤٤ ـ ٤٥. وسنن أبي داود، كتاب السنة ٤/ ٢٢٦ ـ ٢٢٧. وعارضة الأحوذي، أبواب التفسير ١١/ ١٩٤ ـ ١٩٦، وتفسير الطبري ٩/ ١١٣. والإحسان بترتيب صحيح ابن حبان، كتاب التاريخ ١٤/٨.

(٢) أي: بريقاً.

داود. قال: رَبِّ، وكم جعلتَ عُمُرَه؟ قال: سِتِّين سنةً. قال: أَيْ ربِّ، زده من عُمْري أربعينَ سنةً. فلما انقضى عُمر آدَمَ جاءه ملكُ الموتِ قال: أَوَ لم يبق من عُمري أربعون سنةً؟ قال: أَوَ لم تُعطِها ابنَكَ داود؟ قال: فَجَحَدَ آدمُ فَجَحَدَتْ ذُرِّيتُه، ونَسِّي آدم فَنَسِّيت ذُرِّيته، وخَطِيءَ آدمُ فَخَطِئَت ذُرِّيتُه».

ثم قال الترمذي: «هذا حديث حَسَن صحيح، وقد رُوِي من غير وَجْهٍ عن أبي هُرَيـرة، عن النبي ﷺ»(١).

ورواه الحاكم في مستدركه، من حديث أبي نُعَيم الفضل بن دُكَين، به، وقال: «صحيح على شرط مسلم ولم يخرجاه»(١).

ورواه ابن أبي حاتم في تفسيره، من حديث عبد الرحمن بن زيد بن أسلم، عن أبيه، أنه حَدَّثه عن عطاء ابن يسار، عن أبي هُرَيرة ـ رضي الله عنه ـ عن النبي ـ ﷺ ـ فذكر نحوَ ما تقدم، إلى أن قال: «ثم عَرَضهم على آدم فقال: يا آدم، هؤلاء ذُرِّيتك. وإذا فيهم الأجذَمُ والأبرص والأعمى، وأنواع الأسقام، فقال آدم: يا ربِّ، لم فعلت هذا بذرِّيتي؟ قال: كي تشكُر نعمتي. وقال آدم: يا ربِّ، من هؤلاء الذين أراهم أظْهَرَ الناس نُوراً. قال: هؤلاء الأنبياء يا آدم من ذريتك». ثم ذكر قصة داود، كنحو ما تقدم.

حديثٌ آخرُ، قال عبدُ الرحمن بن قتادة النَّصْري، عن أبيه، عن هشام بن حكيم ـ رضي الله عنه ـ: أن رجلاً سأل النبي ـ ﷺ ـ فقال: يا رسول الله، أَتُبتَدَأُ الأعمالُ، أم قد قُضِي القضاء؟ قال: فقال رسولُ الله ـ ﷺ ـ: «إن الله قـد أخـذ ذُرِّيـة آدم من ظهورهم، ثم أشهدَهُم على أنفسهم، ثم أفاض(٢) بهم في كَفَّيه، ثم قال: «هؤلاء في الجنة وهؤلاء في النار»، فأهلُ الجنةُ مُيسَّرون لعملِ أهلِ الجَنَّةِ، وأهلُ النار مُيَسَّرون لعملِ أهلِ النارِ».

رواه ابن جرير(٣)، وابن مردويه، من طرق، عنه.

حديث آخر، روى جعفر بن الزبير ـ وهو ضعيف ـ عن القاسم، عن أبي أمامة قال: قال رسُول الله ـ ﷺ ـ: «لما خَلَق الله الخلق، وقَضى القَضِيَّةَ، أخذ أهلَ اليمين بيمينه وأهلَ الشمالِ بشماله، فقال: يا أصحابَ اليمين. فقالوا: لَبَّيك وسَعْدَيْكَ. قال: ألستُ بربكم؟ قالوا: بلى. قال: يا أصحابَ الشمالِ. قالوا: لَبَّيك وسَعْدَيْكَ. قال: ألستُ بربكم؟ قالوا: بلى. ثم خَلَط بينهم، فقال قائل: يا ربِّ، لم خلطتَ بينهم؟ قال: «لهم أعمالٌ من دون ذلك هم لها عاملون، أن يقولوا يوم القيامة إنا كنا عن هذا غافلين، ثم رَدَّهم في صُلْبِ آدم». رواه ابن مردويه.

أثر آخر، قال أبو جعفر الرازي، عن الربيع بن أنس، عن أبي العالية، عن أُبَيِّ بن كعب في قول الله تعالى: ﴿وإذ أخذ ربك من بني آدم من ظهورهم ذريتهم﴾... الآية والتي بعدها، قال: فَجَمعهم له يومئذ جميعاً، ما هو كائن منه إلى يوم القيامة، فجعلهم في صُوَرهم، ثم استنطقهم فتكلموا، وأخذ عليهم العهد والميثاق، ﴿وأشهدهم على أنفسهم ألست بربكم؟ قالوا: بلى﴾... الآية، قال: فإني أشهد عليكم السموات السبع، والأرضين السبع، وأشهد عليكم أباكم آدم أن تقولوا يوم القيامة: «لم نعلم بهذا». اعلموا أنَّه لا إِلَه

(١) عارضة الأحوذي، تفسير سورة الأعراف ١١/ ١٩٦ ـ ٢٠٠، والمستدرك، تفسير سورة الأعراف ٢/ ٣٢٥.
(٢) أي: بسطهم متفرقين.
(٣) تفسير الطبري ١١/ ١١٧. وانظر الدرّ المنثور ٣/٦٠٤.

غيري، ولا ربَّ غَيري، ولا تشركوا بي شيئاً، وإني سأرسل إليكم رُسُلاً يُذَكِّرونَكُم(١) عهدي وميثاقي، وأنزل عليكم كتبي. قالوا: «نشهد أنَّك ربُّنا وإلهنا، لا ربَّ لنا غيرُك، ولا إله لنا غيرك». فأقَرُّوا له يومئذ بالطاعة، ورفع أباهم آدم فَنظَر إليهم، فرأى فيهم الغني والفقير، وحَسَن الصورة ودُون ذلك. فقال: يا ربِّ، لو سوَّيتَ بين عبادك؟ قال: إني أحببت أن أُشْكَر. ورأى فيهم الأنبياء مثل السُّرُج عليهم النور، وخُصُّوا بميثاق آخَرَ من الرسالة والنبوة، فهو الذي يقول تعالى: ﴿وإذا أخذنا من النبيين ميثاقهم﴾... الآية، وهو الذي يقول: ﴿فأقم وجهَكَ للدين حنيفاً فطرت الله التي فَطَر الناس عليها لا تبديل لخلق الله﴾، ومن ذلك قال: ﴿هذا نذير من النذر الأولى﴾، ومن ذلك قال: ﴿وما وجدنا لأكثرهم من عَهْدٍ وَإِنْ وَجَدنا أكثرهم لفاسقين﴾.

رواه عبد الله بن أحمد في مسند أبيه، ورواه ابن أبي حاتم، وابن جرير، وابن مَرْدُويه في تفاسيرهم، من رواية أبي جعفر الرازي، به. ورُوي عن مجاهد، وعكرمة، وسعيد بن جُبَير، والحسن، وقتادة، والسدّي، وغير واحد من علماء السلف سياقات توافق هذه الأحاديث، اكتفينا بإيرادها عن التطويل بتلك الآثار كلها، وبالله المستعان(٢).

فهذه الأحاديثُ دالَّة على أن الله ـ عزَّ وجلَّ ـ استخرج ذرِّية آدمَ من صلبه، ومَيَّز بين أهل الجنة وأهل النار. وأما الإشهادُ عليهم هناك بأنه ربُّهم فما هو إلا في حديث كُلثوم بن جَبْر، عن سعيد بن جُبَير، عن ابن عباس، وفي حديث عبد الله بن عَمْرو، وقد بينا أنهما موقوفان لا مرفوعان، كما تقدم. ومن ثم قال قائلون من السلف والخلف: إنَّ المراد بهذا الإشهاد إنما هو فَطْرهم على التوحيد، كما تقدَّم في حديث أبي هُرَيرة وعياض ابن حِمَار المُجَاشعي، ومن رواية الحسن البصري عن الأسود بن سَرِيع. وقد فسر الحسن البصريّ الآية بذلك، قالوا: ولهذا قال: ﴿وإذ أخذ ربك من بني آدم﴾، ولم يقل: «من آدم»، ﴿من ظهورهم﴾، ولم يقل: «من ظهره» ﴿ذُرِّيتهم﴾، أي: جعل نسلهم جيلاً بعد جيل، وقرناً بعد قرن، كما قال تعالى: ﴿وهو الذي جعلكم خلائِفَ الأرض﴾، وقال: ﴿ ويجعلكم خلفاء الأرض﴾، وقال: ﴿كما أنشأكم من ذرية قوم آخرون﴾.

ثم قال: ﴿وأشهدهم على أنفسهم: ألست بربِّكم؟ قالوا: بلى﴾، أي: أوجدهم شاهدين بذلك، قائلين له حالاً وقالاً. والشهادة تارةً تكون بالقول، كما قال: ﴿قالوا شَهدنا على أَنفُسنا﴾... الآية، وتارة تكون حالاً، كما قال تعالى: ﴿ما كان للمشركين أن يَعْمُروا مَسْجدَ(٣) الله شاهدين على أنفسهم بالكفر﴾(٤)، أي: حالهم شاهدٌ عليهم بذلك لا أنهم قائلون ذلك، وهذا كقولِه تعالى: ﴿وإنه على ذلك لشهيد﴾، كما أن السؤال تارة يكون بالقال، وتارة يكون بالحال، كما في قوله: ﴿وآتاكم من كُلِّ ما سألتموه﴾.

قالوا: ومما يدلُّ على أنَّ المرادَ بهذا هذا، أن جعل هذا الإشهاد حُجَّةً عليهم في الإشراك، فلو كان قد وقع هذا كما قاله من قال، لكان كلُّ أحدٍ يذكره، ليكون حجة عليه. فإن قيل: إخبار الرسول به كاف في وجوده. فالجواب: أن المكذبين من المشركين يكذبون بجميع ما جاءتهم به الرسل من هذا وغيره، وجُعِلَ هذا حجةً مستقلة عليهم، فَدَلَّ على أنَّ الفطرة التي فُطِرُوا عليها هي الإقرار بالتوحيد، ولهذا قال: ﴿أن

(١) في الأصل: ينذرونكم. والمثبت عن المسند.
(٢) مسند الإمام أحمد ٥/ ١٣٥، وتفسير الطبري ٩/ ١١٥.
(٣) كذا في الأصل، وهي قراءة ابن كثير وأبي عَمْرو، انظر الإقناع ٦٥٧.
(٤) الآية ١٧ من سورة التوبة.
(٥) أي: إن المراد بالإشهاد هو فَطْرهم على التوحيد.

يقولوا﴾، أي: لئلا يقولوا يوم القيامة: ﴿إنا كنا عن هذا﴾، أي: التوحيد ﴿غافلين، أو يقولوا إنما أشرك آباؤنا﴾. . . الآية.

﴿وَٱتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ ٱلَّذِىٓ ءَاتَيْنَٰهُ ءَايَٰتِنَا فَٱنسَلَخَ مِنْهَا فَأَتْبَعَهُ ٱلشَّيْطَٰنُ فَكَانَ مِنَ ٱلْغَاوِينَ ﴿١٧٥﴾ وَلَوْ شِئْنَا لَرَفَعْنَٰهُ بِهَا وَلَٰكِنَّهُۥٓ أَخْلَدَ إِلَى ٱلْأَرْضِ وَٱتَّبَعَ هَوَىٰهُ ۚ فَمَثَلُهُۥ كَمَثَلِ ٱلْكَلْبِ إِن تَحْمِلْ عَلَيْهِ يَلْهَثْ أَوْ تَتْرُكْهُ يَلْهَث ۚ ذَّٰلِكَ مَثَلُ ٱلْقَوْمِ ٱلَّذِينَ كَذَّبُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَا ۚ فَٱقْصُصِ ٱلْقَصَصَ لَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ ﴿١٧٦﴾ سَآءَ مَثَلًا ٱلْقَوْمُ ٱلَّذِينَ كَذَّبُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَا وَأَنفُسَهُمْ كَانُوا۟ يَظْلِمُونَ ﴿١٧٧﴾﴾

قال عبد الرزّاق، عن سفيان الثوريِّ، عن الأعمش ومنصور، عن أبي الضُّحَى، عن مسروق، عن عبدالله ابن مسعود ـ رَضي الله عنه ـ في قوله تعالى: ﴿واتلُ عليهم نبأ الذي آتيناه آياتنا فانسلخ منها﴾. . . الآية، قال: هو رجل من بني إسرائيل، يقال له: بلعم بن آبَر. وكذا رواه شعبة وغير واحد، عن منصور، به.

وقال سعيد بن أبي عَرُوبةَ، عن قتادةَ، عن ابن عَبَّاسٍ: هو صيفي بن الراهب.

قال قتادةُ: وقال كعبٌ: كان رجلاً من أهل البلقاء، وكان يَعْلَم الاسم الأكبر، وكان مقيماً بِبَيتِ المقدس مع الجبارين.

وقال العَوفيُّ، عن ابن عباس: هو رجلٌ من أهل اليمن، يقال له: بَلْعَم، آتاه الله آياتِه فتركها.

وقال مالك بن دينار: كان من علماء بني إسرائيل، وكان مجابَ الدعوةِ، يُقدِّمونه في الشدائد، بعثه نبيُّ الله موسى إلى ملك مَدْين يَدعُوه إلى الله، فأقطعه وأعطاه، فَتبِع دينه وترك دِينَ موسى عليه السلام.

وقال سفيان بن عُيَينة، عن حُصَين، عن عِمْران بن الحارث، عن ابن عباس: هو بلعم بن باعر. وكذا قال مجاهد وعكرمة.

وقال ابن جَرير: حدثني الحارث، حدثنا عبد العزيز، حدثنا إسرائيل، عن مغيرةَ، عن مجاهد، عن ابن عباس قال: هو بلعَام(١).

وقالت ثقيف: هو أمية بن أبي الصلت.

وقال شعبة، عن يعلى بن عطاء، عن نافع بن عاصم(٢)، عن عبد الله بن عمرو في قوله: ﴿واتل عليهم نبأ الذي آتيناه﴾. . . الآية، قال: هو صاحبكم أُميَّةُ بن أبي الصَّلْتِ.

وقد رُوِي من غير وجه، عنه. وهو صحيحٌ إليه، وكأنه إنما أراد أنَّ أمية بن أبي الصَّلت يشبهه، فإنه كان قد اتصل إليه علم كثير من علم الشرائع المتقدمة، ولكنه لم ينتفع بعلمه، فإنه أدرك زمان رسول الله ـ ﷺ ـ وبلغته أعلامه وآياته ومعجزاته، وظهرت لكل من له بصيرة، ومع هذا اجتمعَ به ولم يتبعه، وصار إلى موالاةِ المشركين ومناصرتهم وامتداحهم، ورثى(٣) أهل بدر من المشركين بمرثاة بليغة، قَبَّحه الله. وقد جاء في بعض الأحاديث: «أنه ممن آمن لسانُه، ولم يُؤمِن قلبُه»؛ فإنَّ له أشعاراً ربانية، وحِكَماً وفصاحَة، ولكن لم يشرَحِ الله صَدْرَه للإسلام.

(١) هنا ينتهي الأثر في تفسير الطبري، انظر ٩/ ١٢١.
(٢) نافع بن عاصم ثقفي، ولهذا قال له عبد الله بن عمرو: هو صاحبكم.
(٣) سيرة ابن هشام ٢/ ٣٠ ـ ٣٢.

وقال ابن أبي حاتم: حدثنا أبي، حدثنا ابن أبي عُمَر[١]، حدثنا سفيان، عن أبي سعيد الأعور، عن عكرمة، عن ابن عباس في قوله: ﴿واتلُ عليهم نبَأَ الذي آتيناه آياتنا فانسلَخَ منها﴾، قال: هو رجلٌ أعطِيَ ثلاثَ دعواتٍ يُستَجابُ له فيهنَّ، وكانت له امرأةٌ له منها ولد، فقالت: اجعل لي منها واحدةً. قال: فلك واحدةٌ، فما الذي تُريدين؟ قالت: ادع الله أن يجعلني أجملَ امرأة في بني إسرائيل. فدعا الله، فجعلها أجملَ امرأة في بني إسرائيل، فلما عَلِمت أن ليس فيهم مثلها رَغِبت عنه، وأرادت شيئاً آخر، فدعا الله أن يجعلها كلبة، فصارت كلبةً، فذهبت دعوتان. فجاء بنوها فقالوا: ليس بنا على هذا قرار، قد صارت أُمُّنا كلبةً يُعيِّرنا الناس بها، فادع الله أن يردها إلى الحال التي كانت عليها، فدعا الله، فعادت كما كانت، فذهبت الدعوات الثلاث، وسُمِّيت البَسُوسَ. غريب.

وأما المشهور في سبب نزول هذه الآية الكريمة فإنما هو رجلٌ من المتقدمين في زمان بني إسرائيل، كما قال ابن مسعود وغيره من السلف.

وقال علي بن أبي طلحة، عن ابن عباس: هو رجلٌ من مدينة الجبَّارين، يقال له: «بلعام»، وكان يعلم اسم الله الأكبر.

وقال عبدُ الرحمن بن زيد بن أسلَمَ، وغيرُه من علماء السلف: كان مجابَ الدعوةِ، ولا يسأل الله شيئاً إلا أعطاه إياه.

وأغربَ، بل أبعدَ، بل أخطأَ من قال: كان قد أُوتِيَ النبوةَ فانسلخ منها. حكاه ابن جرير، عن بعضهم. ولا يصح[٢].

وقال علي بن أبي طلحة، عن ابن عباس: لما نزل موسى بهم ـ يعني بالجبارين ـ ومن معه، أتاه ـ يعني بلعم ـ أتاه بنو عمه وقومه، فقالوا: إن موسى رجلٌ حَدِيدٌ، ومعه جنود كثيرة، وإنه إنْ يَظْهَرْ علينا يُهلِكْنا، فادع الله أن يردَّ عنَّا موسى ومن معه. قال: إني إن دعوتُ الله أن يردَّ موسى ومن معه، ذهبت دنياي وآخرتي. فلم يزالوا به حتى دعا عليهم، فسلخه الله ما كان عليه، فذلك قوله تعالى: ﴿فانسلخ منها فأتبعه الشيطان﴾... الآية.

وقال السدِّي: إن الله ـ لما انقضَت الأربعون سنةً التي قال الله: ﴿فإنها محرَّمةٌ عليهم أربعين سنة﴾ ـ بعث يوشع بن نون نبياً، فدعا بني إسرائيل، فأخبرهم أنه نبيٌّ، وأن الله أمره أن يقاتل الجبارين، فبايعوه وَصَدَّقوه ـ وانطلق رجل من بني إسرائيل يقال له: «بلعم» وكان عالماً، يَعْلَم الإسمَ الأعظم المكتوم، فكَفَر ـ لعنه الله ـ وأتى الجبارين، وقال لهم: لا ترهَبُوا بني إسرائيل، فإني إذا خرجتم تقاتلونهم أدعو عليهم دعوة فيهلِكُون! وكان عندهم فيما شاء من الدنيا، غير أنه كان لا يستطيع أن يأتي النساء، لِعِظَمِهِنَّ، فكان ينكح أتاناً له، وهو الذي قال الله تعالى: ﴿فانسلخ منها﴾.

وقوله: ﴿فأتبعه الشيطان﴾، أي: استحوذ عليه وغلبه على أمره، فمهما أمره امتثل وأطاعه، ولهذا قال: ﴿فكان مِن الغاوين﴾، أي: من الهالكين الحائرين البائرين.

---

(١) في الأصل: ابن أبي نمر. والصواب ما أثبت، وهو: محمد بن يحيى بن أبي عُمَر العدني، يروي عن سفيان بن عيينة، وعنه أبو حاتم. انظر الجرح ٨/ ١٢٤.

(٢) تفسير الطبري ٩/ ١٢٢ ـ ١٢٣.

وقد وَرَد في معنى هذه الآية حديث رواه الحافظ أبو يعلى الموصلي في مسنَده حيث قال:

حدَّثنا محمد بن مرزوق، حدثنا محمد بن بكر، عن الصَّلْتِ بن بَهرام، حدثنا الحسن، حدثنا جُندُب البَجَليّ في هذا المسجد: أن حُذَيفة ـ يعني ابن اليمان ـ رضي الله عنه ـ حَدَّثه قال: قال رسولُ الله ـ ﷺ ـ: «إن مما أتخوَّف عليكم رجلٌ قرأ القرآن، حتى إذا رُئِيَتْ بَهجتُهُ عليه ـ وكان ردْءَ الإسلام أعْزَه ـ إلى ما شاء الله ـ انسلخ منه، ونبذه وراء ظهره، وسَعَى على جاره بالسيف، ورماه بالشرك. قال قلت: يا نبي الله، أيهما أولى بالشرك: المرميّ أو الرامي؟ قال: بل الرامي.

هذا إسنادٌ[1] جيّدٌ. والصَّلْتُ بن بَهْرام كان من ثقات الكوفيين، ولم يُرْمَ بشيء سوى الإرجاء، وقد وثَّقه الإمام أحمد بن حنبل ويحيى بن مَعِين وغيرهما.

وقوله تعالى: ﴿ولو شئنا لرفعناه بها ولكنه أخلد إلى الأرض واتبع هواه﴾، يقول تعالى: ﴿ولو شئنا لرفعناه بها﴾، أي: لرفعناه من التدنس عن قاذورات الدنيا بالآيات التي آتيناه إياها، ﴿ولكنه أخلد إلى الأرض﴾، أي: مال إلى زينة الدنيا وزهرتها، وأقبل على لذاتها ونعيمها، وغرّته كما غرت غيره من غير أولي البصائر والنهى.

وقال أبو الزاهريَّة في قوله تعالى: ﴿ولكنَّه أخْلَدَ إلى الأرْض﴾، قال: ترايا[2] له الشيطانُ على غَلْوةٍ[3] من قنطرة بانياسَ[4]، فسجدت الحمارة لله، وسجد بلعام للشيطان. وكذا قال عبد الرحمن بن جُبَيرِ بن نُفَيرٍ، وغير واحد.

وقال الإمام أبو جعفر بن جَرير رحمه الله: وكان من قِصَّةِ هذا الرجل ما حَدَّثنا محمد بن عبد الأعلى، حدثنا المعتمر، عن أبيه: أنه سُئِل عن هذه الآية: ﴿واتل عليهم نبأ الذي آتيناه آياتنا﴾، فحدث عن سَيّار أنه كان رجلاً يقال له: بلعام[4]، وكان مجابَ الدعوة، قال: وإن موسى أقبل في بني إسرائيل يريد الأرض التي فيها بلعام ـ أو قال: الشام ـ قال: فَرُعِبَ الناسُ منه رعباً شديداً، قال: فأتوا بلعامَ، فقالوا: ادعُ الله على هذا الرجلِ وجَيْشِهِ! قال: حتى أؤَامِرَ[5] ربي ـ أو: حتى أؤامر ـ قال: فوامر في الدعاء عليهم، فقيل له: لا تدع عليهم، فإنهم عبادي، وفيهم نَبيُّهم. قال: فقال لقومه: إني قد وامرت ربي في الدعاء عليهم، وإني قد نُهيتُ. فأهدوا له هدية فقبلها، ثم راجعوه فقالوا: ادع عليهم. فقال: حتى أوامر. فَوَامر، فلم يَحُرْ[6] إليه شيء. فقال: قد وامرتُ فلم يَحُرْ إليّ شيءٌ! فقالوا: لو كَرِهَ ربُّك أن تدعو عليهم لنهاك كما نهاك المرةَ الأولى. قال: فأخذ يدعو عليهم، فإذا دعا عليهم جَرَى على لسانه الدُعاء على قومه، وإذا أراد أن يُفْتَح لقومه، دعا أن يُفْتَح لموسى وجيشـه، أو نحواً من ذا إن شاء الله. قال: فقالوا: ما نراكَ تدعو إلا علينا. قال: ما يجري على لساني إلا هكذا، ولو دعوت عليه أيضاً ما استجيب لي، ولكن سأدلكم على أمْرٍ عَسى أن يكون فيه هلاكُهم. إن الله يُبغِضُ الزنا، وإنهم إن وَقَعُوا بالزنا هَلَكُوا، ورجوتُ أنْ يهلِكَهم الله، فأخرِجُوا النساء يَسْتَقبلنَهم، فإنهم قوم مسافرون. فعسى أن يزنوا فيهلكوا. قال: ففعلوا. قال: فأخرجوا النساء يستقبلنهم. قال: وكان للملك ابنةٌ، فذكر من عظمَها ما الله أعلم به! قال: فقال أبوها ـ أو بلعامُ ـ: لا تُمكِّني نفسك إلا من موسى! قال: ووقعوا في الزنا. قال: وأتاها

(١) المطالب العالية بزوائد المسانيد الثمانية لابن حجر ٤/ ٢٧٣ ـ ٢٧٤.
(٢) يقال: راءى فلان الناس، ورياهم مراياةً، على القلب: قابلهم فرآهم. وتفاعل مأخوذ من فاعل هذا.
(٣) الغلوة: قدرَ رَمْيَةٍ بسهم. وبانياسُ: بَلْدةٌ في فِلَسْطِينَ.
(٤) بعده في تفسير الطبري: وكان قد أوتي النبوة.
(٥) المؤامرة: المشاورة.
(٦) أي: لم يرجع.

رأسُ سِبْطٍ من أسباط بني إسرائيل، قال: فأرادها على نَفْسِها. فقالت: ما أنا بممكِّنةٍ نفسي إلا من موسى. قال: فقال: إن منزلتي كذا وكذا، وإن من حالي كذا وكذا. قال: فأرسلَتْ إلى أبيها تستأمره، قال: فقال لها: فأمكنيه قال: ويأتيهما رجل من بني هارون ومعه الرمح فيطعنُهما. قال: وأيّده الله بقوّةٍ، فانتظمَهُما جميعاً، ورفعهما على رمحه، فرآهما الناس ـ أو كما حدث ـ قال: وسَلَّط الله عليهم الطاعون. فمات منهم سبعون ألفاً.

قال أبو المعتمر: فَحَدَّثني سَيَّار: أنَّ بلعاماً رَكِبَ حمارةً له حتى أتى العلولي[١] ـ أو قال: طريقاً من العلولي[١] ـ جعل يضربها ولا تُقدم، وقامت عليه فقالت: علام تضربني؟ أما ترى هذا الذي بين يديك! فإذا الشيطان بين يديه. قال: فنزل وسجد له، قال الله تعالى: ﴿واتل عليهم نبأ الذي آتيناه آياتنا فانسلخ منها﴾ إلى قوله: ﴿لعلهم يتفكرون﴾.

قال: فحدثني بهذا سيار، ولا أدري لعله قد دخل فيه شيءٌ من حديث غيره[٢].

قلت: هو بِلْعام ـ ويقال: بَلْعَمُ ـ بن باعوراء، ويقال: ابن آبَرَ[٣]. ويقال: ابن باعور بن شهوم[٤] بن قوشتم[٥] بـن ماب بن لوط بن هاران ـ ويقال: ابن حران ـ بن آزر. وكان يسكنُ قريةً من قُرَى البلقاء.

قال ابن عساكر: «وهو الذي كان يعرف اسم الله الأعظم، فانسلخَ من دينه، له ذكر في القرآن». ثم أورد من قصته نحواً مما ذكرنا ها هنا، أورده عن وهب وغيره، والله أعلم.

وقال محمد بن إسحاق بن يسار، عن سالم أبي النضر: أنه حدّث: أن موسى ـ عليه السلام ـ لما نَزَل في أرض بني كنعان من أرض الشام، أتى قومُ بلعام إليه فقالوا له: هذا موسى بن عمران في بني إسرائيل، قد جاء يخرجنا من بلادنا ويقتلنا ويُحِلها بني إسرائيل، وإنا قومُك، وليس لنا منزلٌ، وأنت رجلٌ مجاب الدعوة، فاخرج فادع الله عليهم. قال: ويلكم! نبي الله معه الملائكة والمؤمنون، كيف أذهب أدعو عليهم، وأنا أعلم من الله ما أعلم؟! قالوا له: ما لنا من منزل! فلم يزالوا به يُرَقِّقُونه ويتضرَّعون إليه، حتى فَتَنُوه فافتتن، فركب حمارةً له متوجهاً إلى الجبل الذي يُطلِعُه على عسكر بني إسرائيل، وهو جبل حُسْبان، فلما سار عليها غير كثير رَبَضت به، فنزل عنها فضربها، حتى إذا أَذْلَقَها[٦] قامت فَرَكِبَها. فلم تَسِرْ به كثيراً حتى رَبَضت به، فضربها حتى إذا أذلقها أذن الله لهـا فكلمته حُجَّة عليه، فقالت: ويحك يا بلعم، أين تذهب؟ أما ترى الملائكة أمامي تَرُدّني عن وجهي هذا؟ أتذهب إلى نبيّ الله والمؤمنين لتدعو عليهم؟ فلم ينزع عنها يضربها، فخلّى الله سبيلَها حين فَعَلَ بها ذلك. فانطلقت به حتى إذا أشرفت به على رأس حُسْبَان، على عسكر موسى وبني إسرائيل، جعل يدعو عليهم، ولا يدعو عليهم بشرٍّ إلا صرف به لسانه إلى قومه، ولا يدعو لقومه بخير إلا صرف لسانه إلى بني إسرائيل. فقال له قومُه: أتدري يا بلعم ما تصنع؟ إنما تدعو لهم، وتدعو علينا! قال: فهذا ما لا أملك، هذا شيء قد غَلَب الله عليه! قال: واندلع[٧] لسانه فوقع على صدره، فقال لهم: قد ذَهَبَت مني الآن الدنيا والآخرةُ، ولم يبق إلا المكرُ والحيلةُ، فسأمكر لكم وأحتال: جَمِّلوا النساء وأعطوهن السِّلَع، ثم أرسلوهن إلى العسكر

---

(١) في الأصل: العلوي. والمثبت عن غير نسخة. وفي تفسير الطبري: المعلولي.

(٢) تفسير الطبري ٩/ ١٢٤ ـ ١٢٥.

(٣) كذا في الأصل وانظر الضبط في تفسير الطبري، تحقيق الأستاذ محمود شاكر ١٣/ ٢٥٣ ـ ٢٥٤.

(٤) في نسخة: شتهوم. وفي ثالثة: شتوم.

(٥) في نسخة: رستم.

(٦) أي: أجهدها.

(٧) أي: خرج من فمه.

يَبِعْنَها فيه، ومُرُوهن فلا تمنع امرأةٌ نفسها من رجل أرادها، فإنهم إن زنى رجل منهم واحد كُفِيتُموهم. ففعلوا. فلما دخلَ النساءُ العسكرَ، مَرَّتِ امرأةٌ من الكنعانيين اسمها كَسْبَى ابنة صور، رأس أمته، برجل من عظماء بني إسرائيل، وهو «زَمْري بن شلوم»، رأس سبط بني شمعون بن يعقوب بن إسحاق بن إبراهيم عليهم السلام، [(١) فقام إليها، فأخذ بيدها حين أعجبه جمالها، ثم أقبل بها حتى وقف بها على موسى عليه السلام(١)]، فقال: إني أظنك ستقول: هذا حرامٌ عليك؟ قال: أجل، هي حَرَامٌ عليك، لا تقربها. قال: فوالله لا نُطِيعك في هذا. ثم دَخل بها قُبَّته فوقَعَ عليها. وأرسل الله ـ عز وجل ـ الطاعونَ في بني إسرائيل، وكان فنحاص بن العيزار بن هارون، صاحب أمر موسى، وكان غائباً حين صنع زمري بن شلوم ما صنع، فجاء والطاعون يَجُوسُ في بني إسرائيل، فأخبر الخبر، فأخذ حَرْبته ـ وكانت من حديد كلها ـ ثم دخل القبة وهما متضاجعان، فانتظمهما بحربته، ثم خرج بهما رافعَهما إلى السماء، والحربةُ قد أخذها بذراعه، واعتمد بمَرْفِقه على خاصرته، وأسند الحربة إلى لَحْيَيْه(٢) ـ وكان بِكْرَ العيزار ـ وجعل يقول: اللهم هكذا نفعل بمن يعصيك. ورُفِعَ الطاعون، فحُسِب من هلك من بني إسرائيل في الطاعون فيما بين أن أصاب زمْري المرأة إلى أن قتله فِنْحاصُ، فوجدوه قد هلك منهم سبعون ألفاً ـ والمقلّل لهم يقول: عشرون ألفاً ـ في ساعة من النهار. فمن هنالك تُعطى بنو إسرائيل ولد فِنْحاص من كل ذبيحة ذبحوها القِبَةَ(٣) والذراعَ واللَّحْيَ ـ [(١) لاعتماده بالحربة على خاصرته، وأخذه إياها بذراعه، وإسناده إياها إلى لَحْيَيه(١)] ـ والبِكْرَ من كل أموالهم وأنفسهم، لأنه كان بِكْرَ أبيه العيزار. ففي بلعام بن باعوراء أنزل الله: ﴿واتل عليهم نبأ الذي آتيناه آياتنا فانسلَخ منها﴾ إلى قوله: ﴿لعلهم يتفكرون﴾(٤).

وقولُه تعالى: ﴿فمَثَلُه كمثل الكَلْبِ إن تَحْمِلْ عليه يَلْهَثْ أو تتركه يلهث﴾، اختلف المفسرون في معناه، فأما على سياق ابن إسحاق، عن سالم بن أبي النضر: أن بلعاماً اندلع لسانه على صدره، فتشبيهه بالكلب في لَهِيثه(٥) في كلتا حالتيه إن زُجِر وإن تُرِك.

وقيل معناه: فصار مَثَلُه في ضلاله واستمراره فيه، وعدم انتفاعه بالدعاء إلى الإيمان وعدم الدعاء، كالكلب في لَهْثه في حالتيه، إن حَمَلْتَ عليه وإن تَرَكْتَه، هو يلهث في الحالين، فكذلك هذا لا ينتفع بالموعظة والدعوة إلى الإيمان ولا عدمه، كما قال تعالى: ﴿سواء عليهم أأنذرتهم أم لم تنذرهم لا يؤمنون﴾، ﴿استغفر لهم أولا تستغفر لهم إن تستغفر لهم سبعين مرة فلن يغفر الله لهم﴾، ونحو ذلك.

وقيل: معناه أنّ قلب الكافر والمنافق والضالِّ ضعيفٌ فارغٌ من الهُدَى، فهو كثِير الوَجِيب، فَعُبِّر عن هذا بهذا. نُقِلَ نحوُه عن الحسن البصري وغيره.

وقولُه تعالى: ﴿فاقصُصِ القَصَصَ لعلهم يتفكَّرون﴾، يقول تعالى لنبيه محمد ـ ﷺ ـ: ﴿فاقصُصِ القصص لعلهم﴾، أي: لعل بني إسرائيل العالمين بحال بلعام، وما جَرَى له في إضلال الله إياه وإبعاده من رحمته، بسبب أنه استعمل نعمة الله عليه ـ في تعليمه الاسم الأعظم الذي إذا سُئِل به أَعْطَى، وإذا دُعِيَ به أجاب ـ في غير طاعة ربه، بل دعا به على حزب الرحمن، وشَعْب الإيمان، أتباع عبده ورسوله في ذلك

---

(١) عن تفسير الطبري.
(٢) اللَّحيُ: منبت اللحية.
(٣) القِبَةُ ـ بكسر القاف ـ: هَنَةٌ مُتصلةٌ بالكَرِشِ ذاتُ أطباق.
(٤) تفسير الطبري ٩/ ١٢٥ ـ ١٢٦.
(٥) كذا في الأصول. والذي في المعاجم: اللَّهْثُ.

الزمان، كليم الله موسى بن عمران ـ عليه السلام ـ ولهذا قال: ﴿لعلهم يتفكرون﴾، أي: فيحذروا أن يكونوا مثله؛ فإن الله قد أعطاهم عِلْماً، ومَيَّزهم على من عداهم من الأعراب، وجعل بأيديهم صفَة محمد ـ ﷺ ـ يعرفونها كما يعرفون أبناءهم، فهم أحقُّ الناس وأولاهم باتباعه ومناصرته وموازرته، كما أخبرتْهُم أنبياؤهم بذلك وأمرتهم به، ولهذا من خالف منهم في كتابه وكتمه فلم يُعْلم به العباد أَحَلَّ الله به ذُلاً في الدنيا موصولاً بذلّ الآخرة.

وقولُه: ﴿ساء مثلاً القومُ الذين كَذَّبوا بآياتنا وأنفسَهم كانوا يظلمون﴾، يقول: تعالى: ﴿ساءَ مثلاً القوم الذين كذبوا بآياتنا﴾، أي: ساء مثلُهم أن شُبِّهوا بالكلاب التي لا هِمَّة لها إلا في تحصيل أكلة أو شهوة، فمن خرج عن حَيِّز العلم والهدى، وأقبل على شهوة نفسه، واتَّبع هواه، صار شبيهاً بالكلب، وبئس المثل مثله. ولهذا ثبت في الصحيح أن رسول الله ـ ﷺ ـ قال: «ليس لنا مثلُ السَّوءِ، العائد في هبته كالكلب يعود في قَيْئِهِ»(١).

وقولُه: ﴿وأنفسَهم كانوا يظلمون﴾، أي: ما ظلمهم الله، ولكن هم ظَلَموا أنفسَهم، بإعراضِهم عن اتباع الهدى، وطاعة المولى، إلى الركون إلى دار البلى، والإقبال على تَحصِيل اللَّذَّاتِ، وموافقة الهوى.

﴿مَن يَهْدِ ٱللَّهُ فَهُوَ ٱلْمُهْتَدِى ۖ وَمَن يُضْلِلْ فَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْخَٰسِرُونَ ﴿١٧٨﴾﴾

يقولُ تعالى: من هداه الله فإنه لا مُضِلَّ له، ومن أَضَلَّه فقد خابَ وخَسِر وضَلَّ لا محالَةَ، فإنه تعالى ما شاء كان، وما لم يشأ لم يكن، ولهذا جاء في حديث ابن مسعود: «إنَّ الحمد لله، نحمده ونستعينه ونستهديه ونستغفرُه، ونعوذُ بالله من شرور أنفسنا ومن سيئات أعمالنا، من يَهدِهِ الله فلا مُضِلَّ له، ومن يُضلِلِ الله فلا هادي له. وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له، وأشهدُ أن محمَّداً عبدُه ورسولُه»...

الحديث بتمامه رواه الإمام أحمد(٢)، وأهل السنن، وغيرهم.

﴿وَلَقَدْ ذَرَأْنَا لِجَهَنَّمَ كَثِيرًا مِّنَ ٱلْجِنِّ وَٱلْإِنسِ ۖ لَهُمْ قُلُوبٌ لَّا يَفْقَهُونَ بِهَا وَلَهُمْ أَعْيُنٌ لَّا يُبْصِرُونَ بِهَا وَلَهُمْ ءَاذَانٌ لَّا يَسْمَعُونَ بِهَآ ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ كَٱلْأَنْعَٰمِ بَلْ هُمْ أَضَلُّ ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْغَٰفِلُونَ ﴿١٧٩﴾﴾

يقولُ تعالى: ﴿ولقد ذرأنا﴾، أي: خلقنا وجعلنا ﴿لجهنم كثيراً من الجن والإنس﴾، أي: هَيَّأناهم لها، وبعمل أهلها يعملون، فإنه تعالى لما أراد أن يخلُق الخَلْق علم ما هم عاملون قبل كونهم، فكَتَبَ ذلك عنده في كتاب قبل أن يخلق السموات والأرض بخمسين ألف سنة، كما ورد في صحيح مسلم، عن عبد الله بن عَمْرو أن رسول الله ـ ﷺ ـ قال: «إن الله قدَّر مقادير الخلائق قبل أن يخلق السمٰوات والأرض بخمسينَ ألفَ سنةٍ، وكان عرشُه على الماء»(٣).

وفي صحيح مسلم أيضاً، من حديث عائشة بنت طلحة، عن خالتها عائشة أم المؤمنين ـ رضي الله عنها ـ

---

(١) فتح الباري، كتاب الهبة ٥/ ٢٣٤ ـ ٢٣٥، ومسلم، كتاب الهبات ١٢٤٠ ـ ١٢٤١.

(٢) مسند الإمام أحمد ١/ ٣٩٢، وسنن أبي داود، كتاب الصلاة ١/ ٢٨٧، والنسائي، كتاب الجمعة ٣/ ١٠٤ ـ ١٠٥، وابن ماجه، كتاب النكاح ٦٠٩.

(٣) مسلم، كتاب القدر ٢٠٤٤.

أنها قالت: دُعِي رسول الله ـ ﷺ ـ إلى جنازة صَبيٍّ من الأنصار، فقلت: يا رسول الله، طُوبى له، عصفور من عصافير الجنة، لم يعمل السوءَ ولم يدركه. فقال: «أَوَ غير ذلك يا عائشة؟ إن الله خلق الجنة، وخَلَق لها أهلاً، وهم في أصلاب آبائهم، وخَلَق النار، وخلق لها أهلاً، وهم في أصلاب آبائهم»(١).

وفي الصحيحين من حديث ابن مسعود: «ثم يُبْعَثُ إليه الملك، فيؤمر بأربع كلمات، فيكتُبُ: رِزْقَه، وأجله، وعمله، وشَقِيٌّ أم سعيدٌ»(٢).

وتقدم أن الله لما استخرجَ ذرِّية آدم من صُلْبه وجعلهم فريقين: أصحاب اليمين وأصحاب الشمال، قال: «هؤلاء للجنة ولا أبالي، وهؤلاء للنار ولا أبالي».

والأحاديث في هذا كثيرة، ومسألة القَدَر كبيرةٌ ليس هذا موضع بَسْطِها.

وقولُه تعالى: ﴿لهم قلوبٌ لا يفقهون بها، ولهم أعينٌ لا يُبصِرُون بها، ولهم آذانٌ لا يَسْمعون بها﴾، يعني: ليس ينتفعون بشيء من هذه الجوارح التي جَعَلها اللهُ، كما قال تعالى: ﴿وجعلنا لهم سمعاً وأبصاراً وأفئدةً، فما أغنى عنهم سمعُهم ولا أبصارهُم ولا أفئدتُهم من شيء؛ إذ كانوا يجحدون بآيات الله﴾. . . الآية. وقال تعالى: ﴿صم بكم عمي فهم لا يرجعون﴾، هذا في حق المنافقين، وقال في حق الكافرين: ﴿صم بكم عمي فهم لا يعقلون﴾، ولم يكونوا صماً بكماً عمياً إلا عن الهدى، كما قال تعالى: ﴿ولو عَلِم الله فيهم خيراً لأسمعهم ولو أسمعهم لتولوا وهم معرضون﴾، وقال: ﴿فإنها لا تعمى الأبصار، ولكن تعمى القلوب التي في الصدور﴾، وقال: ﴿ومن يعْش عن ذكر الرحمن نقيض له شيطاناً فهو له قرين. وإنهم ليصدونهم عن السبيل ويحسبون أنهم مهتدون﴾.

وقولُه تعالى: ﴿أولئك كالأنعام﴾، أي: هؤلاء الذين لا يسمعون الحق ولا يَعُونه ولا يبصرون الهدى كالأنعام السارحة التي لا تنتفع بهذه الحواس منها إلا في الذي يُعَيِّشها من ظاهر الحياة الدنيا كما قال تعالى: ﴿ومثل الذين كفروا كمثل الذين ينعق بما لا يسمع إلا دعاء ونداء﴾، أي: ومثلهم في حال دعائهم إلى الإيمان، كمثل الأنعام إذا دعاها راعيها لا تسمع إلا صوته، ولا تفقه ما يقول. ولهذا قال في هؤلاء: ﴿بل هم أضل﴾، أي: من الدواب؛ لأن الدواب قد تستجيب مع ذلك لراعيها إذا أَبَسَّ بها(٣)، وإن لم تفقه كلامه، بخلاف هؤلاء؛ ولأن الدواب تفقه ما خلقت له إما بطبعها وإما بتسخيرها، بخلاف الكافر فإنه إنما خلق ليعبد الله ويوحده، فكفر بالله وأشرك به، ولهذا من أطاع الله من البشر كان أشرف من مثله من الملائكة في معاده، ومن كفر به من البشر، كانت الدواب أتم منه، ولهذا قال تعالى: ﴿أولئك كالأنعام، بل هم أضل، أولئك هم الغافلون﴾.

﴿وَلِلَّهِ ٱلْأَسْمَآءُ ٱلْحُسْنَىٰ فَٱدْعُوهُ بِهَا ۖ وَذَرُوا۟ ٱلَّذِينَ يُلْحِدُونَ فِىٓ أَسْمَـٰٓئِهِۦ ۚ سَيُجْزَوْنَ مَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ۝١٨٠﴾

عن أبي هُريرة ـ رضي الله عنه ـ قال: قال رسولُ الله ـ ﷺ ـ: «إن لله تسعةً وتسعينَ اسماً، مائةً إلا واحداً من أحصاها دَخَل الجنة، وهو وِتْر يحبُّ الوِتْر»(٤).

---

(١) مسلم، كتاب القدر ٢٠٥٠.
(٢) فتح الباري، كتاب التوحيد١٣/ ٤٤٠، ومسلم، كتاب القدر ٢٠٣٦.
(٣) أي: زَجَرَها.
(٤) فتح الباري، كتاب الدعوات ١٢/ ٢١٤. ومسلم، كتاب الذكر ٢٠٦٢.

أخرجاه في الصحيحين من حديث سُفيان بن عُيَينة، عن أبي الزناد، عن الأعرج، عنه. ورواه البخاري، عن أبي اليمان، عن شعيب بن أبي حمزة، عن أبي الزناد، به(١).

وأخرجه الترمذي، عن الجوزجاني، عن صفوان بن صالح، عن الوليد بن مسلم، عن شعيب فذكر بسنده مثله، وزاد بعد قوله: «يحب الوتْر»: هو الله الذي لا إله إلا هو الرحمن الرحيم، الملك، القدوس، السلام، المؤمن، المهيمن، العزيز، الجَبار، المتكبر، الخالق، البارىء، المصور، الغفار، القهار، الوهاب، الرزاق، الفتاح، العليم، القابض، الباسط، الخافض، الرافع، المُعِزّ، المُذِلّ، السميع، البصير، الحَكَم، العَدل، اللطيف، الخبير، الحليم، العظيم، الغفور، الشكور، العلي، الكبير، الحفيظ، المُقيت، الحسيب، الجليل، الكريم، الرقيب، المُجيب، الواسع، الحكيم، الودود، المجيد، الباعث، الشهيد، الحق، الوكيل، القوي، المتين، الولي، الحميد، المُحصِي، المُبدئ، المُعِيد، المحيي، المميت، الحيُّ، القيوم، الواجد، الماجد، الواحد، الصَّمَدُ، القادر، المقتدر، المُقدِّم، المُؤخِّر، الأول، الآخر، الظاهر، الباطِن، الوالي، المتعالي، البَرُّ، التواب، المنتقم، العَفُوّ، الرءوف، مالك الملك، ذو الجلال والإكرام، المُقسِطُ، الجامع، الغني، المُغنِي، المانع، الضارُّ، النافع، النور، الهادي، البديع، الباقي، الوارث، الرشيدَ، الصَّبورُ».

ثم قال الترمذي: هذا حديث غريب. . . وقد رُوِي من غير وجهٍ عن أبي هُريرة، ولا نعلم في كثير من الروايات ذكر الأسماء إلا في هذا الحديث(٢).

ورواه ابن حِبَّانَ في صحيحه، من طريق صفوان، به. وقد رواه ابن ماجه في سننه(٣)، من طريق آخر، عن موسى بن عقبة، عن الأعرج، عن أبي هريرة مرفوعاً، فسرد الأسماء كنحو ما تقدم بزيادة ونقصان.

والذي عَوَّل عليه جماعة من الحفاظ أن سَرد الأسماء في هذا الحديث مُدرَجٌ(٤) فيه، وإنما ذلك كما رواه الوليد بن مسلم وعبد الملك بن محمد الصنعاني، عن زهير بن محمد: أنه بلغه عن غير واحد من أهل العلم أنهم قالوا ذلك، أي: أنهم جمعوها من القرآن، كما ورد عن جعفر بن محمد، وسفيان بن عُيَينة، وأبي زيد اللُّغوي، والله أعلم.

ثُمَّ لِيُعلَمْ أن الأسماء الحسنى ليست منحصرةً في التسعة والتسعين، بدليل ما رواه الإمام أحمد في مسنده، عن يزيد بن هارون، عن فُضَيل بن مرزوق، عن أبي سلمة الجهني، عن القاسم بن عبد الرحمن، عن أبيه، عن عبد الله بن مسعود ـ رضي الله عنه ـ عن رسول الله ـ ﷺ ـ أنه قال: «ما أصاب أحداً قطُّ همٌّ ولا حُزْنٌ فقال: اللهم، إني عبدُك، ابن عبدك، ابن أَمتك، ناصيتي بيدك، ماضٍ فِيَّ حكمك، عَدلٌ فِيَّ قضاؤك، أسألك بكل اسم هو لك سَمَّيتَ به نفسَكَ، أو أعلمتَهُ أحداً من خلقك، أو أَنزلتَه في كتابكَ، أو استأثرتَ به في علم الغيب عندَك، أن تجعل القرآنَ ربيعَ قلبي، ونورَ صَدْري، وجَلاَءَ حزني، وذَهاب هَمِّي ـ إلا أذهب الله هَمَّه وحَزَنه، وأبدله مكانه فَرَحاً. فقيل: يا رسولَ الله، أفلا نتعلَّمها؟ فقال: بلى، ينبغي لمن سمعها أن يتعلمها(٥).

وقد أخرجه الإمام أبو حاتم بن حِبَّانَ البُستِيُّ في صحيحه، بمثله(٥).

(١) فتح الباري، كتاب الشروط ٥/ ٣٥٤.
(٢) عارضة الأحوذي، أبواب الدعوات ١٣/ ٣٧ ـ ٤٣.
(٣) الإحسان بترتيب صحيح ابن حِبّان، كتاب الرقائق ٢/ ٨٩، وسنن ابن ماجه، كتاب الدعاء ١٢٦٩ ـ ١٢٧٠.
(٤) المدرج: ما يذكره الراوي عقيب الحديث، كلاماً لنفسه أو لغيره، فيرويه متّصلاً به، من غير فصل، فيتوهَّم أنه من الحديث.
(٥) مسند الإمام أحمد ١/ ٣٩١، ٤٥٢. والإحسان بترتيب صحيح ابن حبان، كتاب الرقائق ٢/ ١٥٩ ـ ١٦٠.

وذكر الفقيه الإمام أبو بكر بن العربي أحد أئمة المالكية في كتابه «الأحوذي في شرح الترمذي» أن بعضهم جمع من الكتاب والسنة من أسماء الله ألف اسم، فالله أعلم[1].

وقال العوفيّ، عن ابن عباس في قوله تعالى: ﴿وذروا الذين يُلحِدُون في أسمائه﴾ قال: إلحادُ الملحدين: أن دَعَوا «اللات» في أسماء الله.

وقال ابن جُرَيج، عن مجاهد: ﴿وذروا الذين يلحدون في أسمائه﴾، قال: اشتقوا «اللات» من الله، واشتقوا «العُزّى» من العزيز.

وقال قتادةُ: ﴿يلحدون﴾: يشركون. وقال علي بن أبي طلحة، عن ابن عباس: «الإلحاد»: التكذيب.

وأصلُ الإلحاد في كلام العرب: العدلُ عن القصدِ، والميلُ والجورُ والانحرافُ، ومنه اللحدُ في القبر، لانحرافه إلى جهة القبلة عن سمت الحفر.

﴿وَمِمَّنْ خَلَقْنَآ أُمَّةٌ يَهْدُونَ بِٱلْحَقِّ وَبِهِۦ يَعْدِلُونَ ﴿١٨١﴾﴾

يقولُ تعالى: ﴿وممن خلقنا﴾، أي: ومن الأمم ﴿أمةٌ﴾ قائمةٌ بالحق، قولاً وعملاً، ﴿يهدون بالحق﴾، يقولونه ويَدعُون إليه، ﴿وبه يعدلون﴾، يعملون ويقضون.

وقد جاء في الآثار أنَّ المرادَ بهذه الأمةِ المذكورةِ في الآية هي هذه الأمةُ المحمديةُ:

قال سعيدٌ، عن قتادةَ في تفسير هذه الآية: بَلَغنا أن نبي الله ـ ﷺ ـ كان يقول إذا قرأ هذه الآية: «هذه لكم، وقد أُعطِي القومُ بين أيديكم مثلها: ﴿ومن قومِ موسى أمة يهدون بالحق وبه يعدلون﴾».

وقال أبو جعفر الرازي، عن الربيع بن أنس في قوله تعالى: ﴿وممن خلقنا أمة يهدون بالحق وبه يعدلون﴾، قال: قال رسول الله ـ ﷺ ـ: «إن من أمتي قوماً على الحقِّ، حتى ينزلَ عيسى ابن مريم متى ما نزل».

وفي الصحيحين، عن معاويةَ بن أبي سفيانَ قال: قال رسولُ الله ـ ﷺ ـ: «لا تزال طائفة من أمتي ظاهرين على الحق، لا يَضُرُّهم من خَذَلَهم ولا من خالفهم، حتى تَقُومَ الساعة ـ وفي رواية ـ: حتى يأتي أمر الله وهم على ذلك ـ وفي رواية ـ: وَهُم بالشّامِ»[2].

﴿وَٱلَّذِينَ كَذَّبُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَا سَنَسْتَدْرِجُهُم مِّنْ حَيْثُ لَا يَعْلَمُونَ ﴿١٨٢﴾ وَأُمْلِى لَهُمْ ۚ إِنَّ كَيْدِى مَتِينٌ ﴿١٨٣﴾﴾

يقولُ تعالى: ﴿والذين كذبوا بآياتنا سنستدرجُهم من حيث لا يعلمون﴾، ومعناه: أنه يفتح لهم أبواب الرزق ووجوه المعاش في الدنيا، حتى يغترُّوا بما هم فيه ويعتقدُوا أنهم على شيء، كما قال تعالى: ﴿فلما نَسُوا ما ذُكِّروا به فتحنا عليهم أبواب كل شيء، حتى إذا فَرِحوا بما أوتوا أخذناهم بغتةً فإذا هم مُبلِسُون. فقُطِع دابرُ القوم الذين ظلموا والحمدُ لله رب العالمين﴾. ولهذا قال تعالى: ﴿وأملي لهم﴾، أي: وسأملي لهم، أيْ: أُطوِّلُ لهم ما هم فيه ﴿إن كيدي متين﴾ أي: قوي شديد.

---

(١) عارضة الأحوذي، أبواب الأدب ١٠/ ٢٨١.

(٢) فتح الباري، أبواب التوحيد ١٣/ ٤٤٢، ومسلم، كتاب الإمارة ١٥٢٤.

﴿أَوَلَمْ يَتَفَكَّرُوا مَا بِصَاحِبِهِم مِّن جِنَّةٍ إِنْ هُوَ إِلَّا نَذِيرٌ مُّبِينٌ ﴿١٨٤﴾﴾

يقولُ تعالى: ﴿أَوَلَـم يتفكروا﴾ هؤلاء المكذبون بآياتنا ﴿ما بصاحبهم﴾ يعني محمداً ـ صلواتُ الله وسلامه عليه ـ ﴿من جنة﴾، أي: ليس به جنون، بل هو رسولُ الله حقّاً، دعا إلى حق، ﴿إن هو إلا نذير مبين﴾، أي: ظاهر لمن كان له قلب ولب يعقل به ويعي به، كما قال تعالى: ﴿وما صاحبكم بمجنون﴾، وقال تعالى: ﴿قل إنما أعظكم بواحدة أن تقوموا لله مثنى وفرادى ثم تتفكروا ما بصاحبكم من جنة إن هو إلا نذير لكم بين يدي عذاب شديد﴾، يقول: إنما أطلب منكم أن تقوموا لله، أي: قياماً خالصاً لله ليس فيه تعصب ولا عناد، ﴿مثنى وفرادى﴾، أي: مجتمعين ومتفرقين، ﴿ثم تتفكروا﴾ في هذا الذي جاءكم بالرسالة من الله: أبه جنون أم لا؟ فإنكم إذا فعلتم ذلك بان لكم وظهر أنه رسولُ الله حقّاً وصدقاً.

وقال قتادة بن دعامة: ذُكِر لنا أن نبيَّ الله ـ ﷺ ـ كان على الصفا، فدعا قُرَيشاً، فجعل يُفخِّذهُم[1] فخذاً فخذاً: «يا بني فلان.. يا بني فلان». فَحَذَّرَهم بأسَ الله ووقائع الله، فقال قائلهم: «إن صاحبكم هذا لمجنون! بات يصوت إلى الصباح ـ أو: حتى أصبح»، فأنزل الله تعالى: ﴿أَوَلَـم يتفكروا ما بصاحبهم من جنة إن هو إلا نذير مبين﴾.

﴿أَوَلَمْ يَنظُرُوا فِي مَلَكُوتِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا خَلَقَ اللَّهُ مِن شَيْءٍ وَأَنْ عَسَىٰ أَن يَكُونَ قَدِ اقْتَرَبَ أَجَلُهُمْ فَبِأَيِّ حَدِيثٍ بَعْدَهُ يُؤْمِنُونَ ﴿١٨٥﴾﴾

يقولُ تعالى أَوَلَمْ يَنْظُر هؤلاء المكذبون بآيـاتنا في ملك الله وسلطانـه في السمٰوات والأرض، وفيما خَلَق الله من شيء فيهما، فيتدبروا ذلك ويعتبروا به، ويعلموا أن ذلك لمن لا نظير له ولا شبيه، ومِنْ فِعْلِ مَن لا ينبغي أن تكون العبادة والدين الخالص إلا له، فيؤمنوا به، ويُصَدِّقوا رسوله، ويُنيبوا إلى طاعته، ويَخْلَعوا الأنداد والأوثان، وَيْحذَروا أن تكون آجالهم قد اقتربت، فيهلكوا على كفرهم، ويصيروا إلى عذاب الله وأليم عقابه.

وقوله: ﴿فبأي حديث بعده يؤمنون﴾؟ يقول: فبأي تخويف وتحذير وترهيب ـ بعد تحذير محمد وترهيبه، الذي أتاهم به من عند الله في آي كتابه ـ يصدقون؟ إن لم يصدقوا بهذا الحديث الذي جاءهم به محمد من عند الله، عز وجل.

وقد رَوَى الإمامُ أحمد، عن حسن بن موسى، وَعفّان بن مسلم[2]، وعبد الصمد بن عبد الوارث، عن حماد ابن سلمة، عن علي بن زيد بن جُدعان، عن أبي الصلت، عن أبي هريرة قال: قال رسول الله ـ ﷺ ـ: «رأيت ليلةَ أُسْري بي، لما انتهينا إلى السماء السابعة، فنظرتُ فوقي، فإذا أنا برعدٍ وبرقٍ وصواعقَ، قال: وأتيت على قوم بطونُهم كالبيوت فيها الحياتُ تُرَى من خارج بطونهم، قلت: من هؤلاء يا جبريل؟ قال: هؤلاء أكلة الربا. فلما نزلت إلى السماء الدنيا فنظرت إلى أسفل مني، فإذا أنا برهَجٍ[3] ودخان وأصوات، فقلت: ما هذا يا جبريلُ؟ فقال: هذه الشياطينُ يحومون على أعين بني آدم أن لا يتفكروا في ملكوت السمٰوات والأرض، ولولا ذلك لرأوا العجائب»[4].

---

(١) أي: يناديهم فَخِذاً فَخِذاً.

(٢) في الأصل: عثمان بن مسلم. وهو خطأ، انظر تهذيب الكمال، ترجمة حماد بن سلمة ٧/ ٢٥٨.

(٣) أي: غبار.

(٤) مسند الإمام أحمد ٢/ ٣٥٣، ٣٦٣.

عليُّ بن زيد بن جُدْعان له منكراتٌ.

ثم قال تعالى:

﴿مَن يُضْلِلِ ٱللَّهُ فَلَا هَادِىَ لَهُۥ ۚ وَيَذَرُهُمْ فِى طُغْيَٰنِهِمْ يَعْمَهُونَ ﴿١٨٦﴾﴾

يقولُ تعالى: من كُتِبَ عليه الضلالة فإنه لا يهديه أحد، ولو نظر لنفسه فيما نظر فإنه لا يجزي عنه شيئاً، ﴿ومن يرد الله فتنته فلن تَملك له من الله شيئاً﴾، قال تعالى: ﴿قل: انظروا ماذا في السمٰوات والأرض، وما تغني الآيات والنذر عن قوم لا يؤمنون﴾.

﴿يَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلسَّاعَةِ أَيَّانَ مُرْسَىٰهَا ۖ قُلْ إِنَّمَا عِلْمُهَا عِندَ رَبِّى ۖ لَا يُجَلِّيهَا لِوَقْتِهَآ إِلَّا هُوَ ۚ ثَقُلَتْ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۚ لَا تَأْتِيكُمْ إِلَّا بَغْتَةً ۗ يَسْـَٔلُونَكَ كَأَنَّكَ حَفِىٌّ عَنْهَا ۖ قُلْ إِنَّمَا عِلْمُهَا عِندَ ٱللَّهِ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ﴿١٨٧﴾﴾

يقول تعالى: ﴿يسألونك عن الساعة﴾، كما قال تعالى: ﴿يسألك الناس عن الساعة﴾.

قيل: نزلت في قريش. وقيل: في نَفَرٍ من اليهود. والأول أشبهُ، لأنَّ الآية مكيَّة، وكانوا يسألون عن وقت الساعة، استبعاداً لوقوعها، وتكذيباً بوجودها؛ كما قال تعالى: ﴿ويقولون متى هذا الوعدُ إن كنتم صادقين﴾، وقال تعالى: ﴿يستعجل بها الذين لا يؤمنون بها، والذين آمنوا مشفقون منها. ويعلمون أنها الحق، ألا إن الذين يمارون في الساعة لفي ضلال بعيد﴾.

وقوله: ﴿أيان مرساها﴾، قال علي بن أبي طلحة، عن ابن عباس: «منتهاها». أي: متى محطها وأيان آخر مدة الدنيا الذي هو أول وقت الساعة.

﴿قل إنما علمها عند ربي لا يجليها لوقتها إلا هو﴾، أمر تعالى نبيه ـ ﷺ ـ إذا سُئِلَ عن وقت الساعة، أن يَرُدَّ علمها إلى الله تعالى؛ فإنه هو الذي يجليها لوقتها، أي: يعلم جلية أمرها، ومتى يكون على التحديد، لا يعلم ذلك إلا هو تعالى، ولهذا قال: ﴿ثقلت في السمٰوات والأرض﴾.

قال عبد الرزاق، عن معمر، عن قتادةَ في قوله: ﴿ثَقُلت في السمٰوات والأرض﴾، قال: ثَقُل علمها على أهل السمٰوات والأرض، إنهم لا يعلمون.

قال معمر: قال الحسن: إذا جاءت ثَقُلَت على أهل السمٰوات والأرض. يقول: كَبُرت عليهم.

وقال الضحاك، عن ابن عباس في قوله: ﴿ثَقُلت في السمٰوات والأرض﴾، قال: ليس شَيء من الخلق إلا يصيبه من ضَرَر يوم القيامة.

وقال ابن جُرَيج: ﴿ثقلت في السمٰوات والأرض﴾، قال: إذا جاءت انشقت السماء، وانتثرت النجوم، وكُوِّرت الشمس، وسُيِّرت الجبال، وكان ما قال الله عز وجل، فذلك ثقلها.

واختار ابنُ جرير رحمه الله: أن المراد: ثَقُل علم وقتها على أهل السمٰوات والأرض، كما قال قتادة(١).

وهو كما قالاه، كقوله تعالى: ﴿لا تأتيكم إلا بغتة﴾، ولا ينفي ذلك ثقل مجيئها على أهل السمٰوات والأرض، والله أعلم.

(١) تفسير الطبري ٩/ ١٣٩.

وقال السدّيُّ: ﴿ثَقُلت في السمٰوات والأرض﴾، يقول: خَفِيَـت في السمٰوات والأرض، فلا يَعْلَم قيامَها حين تقوم مَلَكٌ مُقَرَّبٌ، ولا نبي مرسل.

﴿لا تأتيكم إلا بغتة﴾، يبغتهم قيامها، تأتيهم على غفلة.

وقال قتادةُ في قوله تعالى: ﴿لا تأتيكم إلا بغتة﴾، قضى الله أنها ﴿لا تأتيكم إلا بغتة﴾، قال: وذُكِر لنا أن نبيَّ الله -ﷺ- قال: «إن الساعة تَهِيجُ بالنـاس والرجل يُصلِح حوضه، والرجل يسقي ماشيته، والرجل يقيم سِلْعَتَه في السوقِ، ويخفض ميزانه ويرفعه»[(١)].

وقال البخاري: حدثنا أبو اليمان، أنبأنا شعيب، حدثنا أبو الزناد، عن عبد الرحمن، عن أبي هُرَيرة أن رسول الله -ﷺ- قال: «لا تقومُ الساعةُ حتى تطلُعَ الشمسُ من مَغْرِبها، فإذا طَلَعَتْ فرآها الناسُ آمنوا أجمعون، فذلك حين لا ينفع نفساً إيمانُها لم تكن آمنت من قبل أو كَسَبَتَ في إيمانها خيراً، ولتقومَنّ الساعةُ وقد نَشَر الرجلان ثَوْبَهُما بينهما، فلا يَتَبايعانه ولا يطويانه. ولتقومَنّ الساعةُ وقد انصرف الرجلُ بِلَبنِ لِقْحَتِهِ فلا يطعَمُه. ولتقومَنّ الساعةُ وهو يَلِيطُ حَوْضَه[(٢)] فلا يَسْقِي فيه. ولتقومَنَّ الساعةُ والرجل قد رَفَعَ أُكْلَته إلى فيه فلا يَطعَمها»[(٣)].

وقال مسلم في صحيحه: حدثني زُهَير بن حرب، حدثنا سفيان بن عُيَينَةَ، عن أبي الزناد، عن الأعرج، عن أبي هُرَيرة يبلغ به النبيَّ -ﷺ- قال: «تقوم الساعة والرجل يَحلُبُ اللِّقْحة، فما يصل الإناء إلى فيه حتى تقوم الساعة، والرجلان يتبايعان الثوب فما يتبايعانه حتى تقوم، والرجلُ يَلُوط حوضه فما يصدُر حتى تقوم»[(٤)].

وقولُه: ﴿يسألونك كأنك حفيٌّ عنها﴾، اختلف المفسِّرون في معناه،فقيل: معناه كما قال العَوفيُّ عن ابن عباس: ﴿يسألونك كأنك حَفِيٌّ عنها﴾، يقول: كأن بينك وبينهم مودة، كأنك صَدِيقٌ لهم. قال ابن عباس: لما سأل الناس محمداً -ﷺ- عن الساعة، سألوه سؤال قوم كأنهم يرون أن محمداً حفي بهم، فأوحى الله إليه: إنما علمها عنده، استأثر بعلمها، فلم يطلع عليها ملكاً مُقرباً ولا رسولاً.

وقال قتادة: قالت قريش لمحمد -ﷺ-: إن بيننا وبينك قرابةً، فأَسِرَّ إلينا متى الساعة؟ فقال الله عز وجل: ﴿يسألونك كأنك حفي عنها﴾.

وكذا رُوِي عن مجاهد، وعكرمة، وأبي مالك، والسدّيِّ، وهذا قول. والصحيح عن مجاهد -من رواية ابن أبي نَجِيح وغيره-: ﴿يسألونك كأنك حفي عنها﴾، قال: استَحْفَيت عنها السؤال، حتى عَلمت وقتها.

وكذا قال الضحاك، عن ابن عباس: ﴿يسألونك كأنك حفي عنها﴾، يقول: كأنك عالم بها، لست تعلمها، ﴿قل إنما علمها عند الله﴾.

وقال مَعْمَرٌ، عن بعضهم: ﴿كأنك حفي عنها﴾ كأنك عالم بها.

وقال عبد الرحمن بن زيد بن أسلَمَ: ﴿كأنك حفيٌّ عنها﴾ كأنك عالم بها، وقد أخفى الله علمها على خلقه، وقرأ: ﴿إن الله عنده علم الساعة﴾ الآية.

---

(١) تفسير الطبري ٩/ ١٤٠.

(٢) أي: يطيِّنه.

(٣) فتح الباري، كتاب الرقاق ١١/ ٣٥٢.

(٤) مسلم، كتاب الفتن ٢٢٧٠.

وهذا القول أرجح في المعنى من الأول، والله أعلم. ولهذا قال: ﴿قل: إنما علمها عند الله، ولكن أكثر الناس لا يعلمون﴾.

ولهذا لما جاء جبريل ـ عليه السلام ـ في صورة أعرابي، لِيُعلِّم الناس أمر دينهم، فجلس من رسول الله ـ ﷺ ـ مجلس السائل المسترشد، وسأله عن الإسلام، ثم عن الإيمان، ثم عن الإحسان، ثم قال: فمتى الساعة؟ قال له رسول الله ـ ﷺ ـ: «ما المَسْئُولُ عنها بأعلم من السائل»، أي: لست أعلم بها منك ولا أحدٌ أعلَم بها من أحدٍ، ثم قرأ النبي ـ ﷺ ـ: ﴿إن الله عنده علم الساعة﴾ الآية.

وفي رواية: فسأله عن أشراطِ الساعة، فَبَيَّن له أشراطَ الساعة، ثم قال: في خمس لا يعلمهنَّ إلا الله. وقرأ هذه الآية، وفي هذا كلِّه يقول له بعد كل جواب: «صدقت»، ولهذا عَجِب الصحابة من هذا السائل يسأله ويصدقه، ثم لما انصرف قال رسولُ الله ـ ﷺ ـ: «هذا جبريل أتاكم يعلمكم دينكم».

وفي رواية قال: «وما أتاني في صورة إلا عَرَفتُه فيها، إلا صورتَه هذه».

وقد ذَكَرْتُ هذا الحديث بطرقه وألفاظه من الصحاح والحسان والمسانيد، في أول شرح صحيح البخاري، ولله الحمد والمنة[١].

ولما سأله ذلك الأعرابي وناداه بصوت جَهْوَرِيٍّ فقال: يا محمَّدُ. قال له رسولُ الله ـ ﷺ ـ: هَاءَ[٢] ـ على نحو من صوته ـ قال: يا محمد، متى الساعة؟ قال له رسول الله ﷺ: ويحك! إن الساعة آتية، فما أعددت لها؟ قال: ما أعددت لها كبير صلاة ولا صيام، ولكني أحب الله ورسوله. فقال له رسول الله ـ ﷺ ـ المرء مع من أحب». فما فرح المسلمون بشيء فرحهم بهذا الحديث.

وهذا له طرق متعددة في الصحيحين وغيرهما عن جماعة من الصحابة، عن رسول الله ـ ﷺ ـ: أنه قال: «المرء مع من أحب»[٣]، وهي متواترة عند كثير من الحفاظ المتقنين.

ففيه أنه عليه السلام كان إذا سئل عن هذا الذي لا يحتاجون إلى علمه، أرشدهم إلى ما هو الأهم في حقهم، وهو الاستعداد لوقوع ذلك، والتهيؤ له قبل نزوله، وإن لم يعرفوا تعيين وقته.

ولهذا قال مسلم في صحيحه: حدثنا أبو بكر بن أبي شيبةَ وأبو كريبٍ قالا: حدثنا أبو أسامة، عن هشامٍ، عن أبيه، عن عائشة ـ رضي الله عنها ـ قالت: كانت الأعرابُ إذا قَدِمُوا على رسول الله ـ ﷺ ـ سألوه عن الساعة: متى الساعة؟ فَنَظَر إلى أحدث إنسانٍ منهم فقال: «إن يعش هذا لم يُدْرِكْه الهَرَم، قامت ساعتكم»[٤]. يعني بذلك موتهم الذي يُفضِي بهم إلى الحصول في بَرْزَخ الدار الآخرة.

ثم قال مسلم: وحدثنا أبو بكر بن أبي شيبة، حدثنا يونس بن محمد، عن حماد بن سَلَمة، عن ثابت، عن أنس: أن رَجُلاً سأل رسول الله ـ ﷺ ـ عن الساعة [وعنده غلام من الأنصار يقال له: محمد][٥] فقال رسول

(١) فتح الباري، كتاب الإيمان ١/ ١١٤، ومسلم، كتاب الإيمان ٣٩، وسنن أبي داود، كتاب السنة ٤/ ٢٢٣ ـ ٢٢٤، وعارضة الأحوذي، أبواب الإيمان ١٠/ ٧٥ ـ ٨٠، والنسائي، كتاب الإيمان ٨/ ٩٧ ـ ١٠١، وابن ماجه، المقدمة ٢٥، ومسند الإمام أحمد ٢/ ٤٢٦.

(٢) في الأصول: هاؤم. وهاء: كلمة إجابة وتلبية.

(٣) فتح الباري، كتاب فضائل أصحاب النبي ـ ﷺ ـ ٧/ ٤٢، ومسلم، كتاب البرِّ ٢٠٣٢، وعارضة الأحوذي، أبواب الزهد ٩/ ٢٣٢، ومسند الإمام أحمد عن ابن مسعود ١/ ٣٩٢، وأنس ٣/ ١٠٤، ١١٠، وغير ذلك، وجابر ٣/ ٣٣٦، ٣٩٤، وصفوان بن عسال ٤/ ٢٣٩ ـ ٢٤١، وأبي موسى ٤/ ٣٩٢، ٣٩٥، ٣٩٨، ٤٠٥.

(٤) مسلم، كتاب الفتن ٢٢٦٩.

(٥) عن مسلم.

الله ـ ﷺ ـ: «إن يعش هذا الغلام فعسى ألّا يدركه الهرم حتى تقوم الساعةُ». انفرد به مسلم[١].

وحدثني حجاج بن الشاعر، حدثنا سليمان بن حرب، حدثنا حَمَاد بن زيد، حدثنا مَعْبد بن هلال العَنَزيّ[٢]، عن أنس بن مالك رضي الله عنه: أن رجلاً سأل النبي ـ ﷺ ـ قال: متى الساعة؟ فسكت رسول الله ـ ﷺ ـ هُنَيهة، ثم نظر إلى غلام بين يديه من أزد شنوءة، فقال: «إن عُمِّر هذا لم يدركه الهَرَم حتى تقوم الساعة» ـ قال أنس: ذلك الغلام من أترابي[٣].

وقال: حدثنا هارون بن عبد الله، حدثنا عَفّان بن مسلم، حدثنا هَمّام، حدثنا قتادة، عن أنسٍ قال: مَرَّ غلامٌ للمغيرة بن شعبةَ ـ وكان من أقْراني ـ فقال النبي ـ ﷺ ـ: «إن يُؤَخَّر هذا لم يُدْرِكْه الهَرَمُ حتى تقوم الساعة»[٣].

ورواه البخاريُّ في كتاب «الأدب» من صحيحه، عن عَمْرو بن عاصم، عن هَمَّام بن يحيى، عن قتادة، عن أنس: أن رجلاً من أهل البادية قال: يا رسولَ الله، متى الساعة؟. . . فذكر الحديث، وفي آخره: «فَمَرَّ غلامٌ للمُغيرَةِ بـن شُعْبَةَ»[٤]، وذكره.

وهذا الإطلاق في هذه الروايات محمول على التقييد بـ «ساعتكم» في حديث عائشةَ رضي الله عنها.

وقال ابن جُرَيج: أخبرني أبو الزبير: أنه سمع جابر بن عبد الله يقول: سَمِعتُ رسول الله ـ ﷺ ـ قبل أن يموت بشهرٍ قال: «تسألوني عن الساعة، وإنما عِلمُها عند الله، وأقسم بالله ما على ظهر الأرض اليوم من نَفْسٍ مَنْفُوسَةٍ، تأتي عليها مائة سنة. . .». «رواه مسلم»[٥].

وفي الصَّحيحين، عن ابن عُمَر مثله، قال ابن عُمَر: وإنما أراد رَسُول الله ـ ﷺ ـ انخرامَ ذلك القَرْنِ[٦]،

وقال الإمام أحمد: حدثنا هُشَيم، أنبأنا العوام، عن جبلة بن سُحَيم، عن مُؤْثِر بن عَفَازَةَ، عن ابن مسعود ـ رضي الله عنه ـ عن رسول الله ـ ﷺ ـ قال: «لَقِيتُ ليلة أسري بي إبراهيم وموسى وعيسى، قال: فتذاكروا أمر الساعة، قال: فَرَدُّوا أمرهم إلى إبراهيم عليه السلام، فقال: لا علم لي بها. فردُّوا أمرَهُم إلى موسى، فقال: لا علم لي بها. فردُّوا أمرهم إلى عيسى، فقال عيسى: أما وَجْبَتُها فلا يعلم بها أحد إلا الله عز وجل، وفيما عهد إليّ ربي ـ عز وجل ـ أن الدجال خارجٌ، قال: ومعي قضيبان، فإذا رآني ذاب كما يَذُوب الرَّصاصُ، قال: فيهلكه الله عز وجل إذا رآني، حتى إن الحجر والشجر يقول: «يا مسلمُ، إن تحتي كافراً فتعال فاقتله». قال: فَيُهلكهم الله عز وجل، ثم يرجع الناس إلى بلادهم وأوطانهم، قال: فعند ذلك يخرج يأجوج ومأجوج، وهم من كل حَدَب يَنْسِلُون، فَيَطَئُون بلادهم، لا يأتُونَ على شيءٍ إلا أهلكوه، ولا يمرُّون على ماء إلا شَربوه، قال: ثم يرجِعُ النَّاسُ إليَّ فيشكونهم، فأدعـو الله ـ عز وجل ـ عليهم فيهلكهم ويميتهم، حتى تَجْوَى الأرض من نَتْن ريحهم ـ أي: تَنْتِنُ ـ قال: فينزل الله المطر، فيجترِف أجسادهم حتى يقذفهم في البحر.

قال أحمد: قال يزيد بن هارون: ثم تُنسَف الجبال، وتُمَدّ الأرضُ مَدَّ الأَدِيم ـ ثم رجع إلى حديث هُشَيم

(١) مسلم، كتاب الفتن ٢٢٦٩ ـ ٢٢٧٠.
(٢) في الأصول: سعيد بن أبي هلال المصري، والمثبت عن مسلم، وتهذيب الكمال، ترجمة أنس بن مالك ٣/ ٣٦٠.
(٣) مسلم، كتاب الفتن ٢٢٧٠.
(٤) فتح الباري، كتاب الأدب ١٠/ ٥٥٣.
(٥) مسلم، كتاب فضائل الصحابة ١٩٦٦.
(٦) مسلم، كتاب فضائل الصحابة ١٩٦٥ ـ ١٩٦٦، وفتح الباري، كتاب لمواقيت ٢/ ٧٣ ـ ٧٤.

قال: ففيما عهد إليَّ ربي ـ عز وجل ـ أن ذلك إن كان كذلك، فإن الساعة كالحامل المُتِمّ لا يدري أهلها متى تَفْجَؤُهم بولادها ليلاً أو نهاراً(١).

ورواه ابن ماجه، عن بندار عن يزيد بن هارون، عن العوام بن حوشب بسنده، نحوه(١).

فهؤلاء أكابرُ أولي العزم من المرسلين، ليس عندهم علم بوقت الساعة على التعيين، وإنما رَدُّوا الأمر إلى عيسى ـ عليه السلام ـ فتكلَّم على أشراطها، لأنه ينزل في آخر هذه الأمة منفذاً لأحكام رسول الله ـ ﷺ ـ ويقتل المسيح الدجال، ويجعل الله هلاك يأجوج ومأجوج ببركة دعائه، فأخبر بما أعلمه الله تعالى به.

وقال الإمام أحمد: حدثنا يحيى بن أبي بكير، حدثنا عُبَيد الله بن إياد(٢) بن لقيط قال: سَمِعْتُ أبي يذكر عن حُذَيفة قال: سُئِلَ رسولُ الله ـ ﷺ ـ عن الساعة فقال: «علمُها عند ربِّي لا يُجَلِّيها لوقتها إلا هو ولكن سأخبركم بمشاريطها(٣)، وما يكون بين يديها: إن بين يديها فتنةً وهَرَجا: قالوا: يا رسولَ الله، الفتنةُ قد عرفناها، فالهرجُ ما هو؟ قال: بلسان الحبشة: القتلُ. قال: «ويُلقَى بين الناس التَّنَاكُرُ، فلا يكاد أحد يعرف أحداً(٤)». لم يروه أحد من أصحاب الكتب الستة من هذا الوجه.

وقال وكيع: حدثنا ابن أبي خالد، عن طارق بن شهاب، قال: كان رسول الله ـ ﷺ ـ لا يزالُ يذكُرُ من شأن الساعة حتى نزلت: ﴿يسألونك عن الساعة أيان مرساها﴾... الآية.

ورواه النسائي من حديث عيسى بن يونس، عن إسماعيل بن أبي خالد، به: وهذا إسناد جيد قوي.

فهذا النبيّ الأمي سيد الرسل وخاتمهم ـ صلوات الله عليه وسلامه ـ نبيُّ الرحمة، ونبيُّ التوبة، ونبيُّ الملحمة، والعاقب والمُقَفَّى، والحاشر الذي تُحشَرُ الناس على قدميه، مع قوله فيما ثبت عنه في الصحيح من حديث أنس وسهل بن سعد رضي الله عنهما: «بعثت أنا والساعة كهاتين»(٥) وقرن بين إصبعيه السبابة والتي تليها»، ومع هذا كله قد أمره الله تعالى أن يَرُدّ علم وقت الساعة إليه إذا سئل عنها، فقال: ﴿قل إنما علمها عند الله ولكن أكثر الناس لا يعلمون﴾.

﴿قُل لَّآ أَمۡلِكُ لِنَفۡسِي نَفۡعٗا وَلَا ضَرًّا إِلَّا مَا شَآءَ ٱللَّهُۚ وَلَوۡ كُنتُ أَعۡلَمُ ٱلۡغَيۡبَ لَٱسۡتَكۡثَرۡتُ مِنَ ٱلۡخَيۡرِ وَمَا مَسَّنِيَ ٱلسُّوٓءُۚ إِنۡ أَنَا۠ إِلَّا نَذِيرٞ وَبَشِيرٞ لِّقَوۡمٖ يُؤۡمِنُونَ ﴿١٨٨﴾﴾

أمره الله تعالى أن يفوِّض الأمور إليه، وأن يخبر عن نفسه أنه لا يعلم الغيب [المستقبل](٦)، ولا اطلاع له على شيء من ذلك إلا بما أطلعه الله عليه، كما قال تعالى: ﴿عالم الغيب فلا يظهر على غيبه أحداً﴾... الآية.

وقوله: ﴿ولو كنت أعلم الغيب لاستكثرت من الخير﴾، قال عبد الرزاق، عن الثوري، عن منصور، عن مجاهد. ﴿ولو كنتُ أعلم الغيبَ لاستكثرتُ من الخير﴾، قال: لو كنتُ أعلم متى أموت، لعَمِلتُ عملاً صالحاً.

(١) مسند الإمام أحمد ١/ ٣٧٥، وسنن ابن ماجه، كتاب الفتن ١٣٦٥ ـ ١٣٦٦ والوجبة: السقطة. والمراد وقوعها فجأة.
(٢) في الأصل: عبد الله بن زياد. والمثبت عن المسند، وتهذيب الكمال ٣/ ٣٩٨.
(٣) أي: أوائلها.
(٤) مسند الإمام أحمد ٥/ ٣٨٩.
(٥) فتح الباري، كتاب الطلاق ٩/ ٣٤٩، ومسلم، كتاب الجمعة ٥٩٢.
(٦) عن الأصل.

وكذلك رَوَى ابن أبي نَجيح عن مجاهد. وقال مثلَه ابنُ جُرَيج.

وفيه نظر: لأن «عمل رسول الله ـ ﷺ ـ كان ديمَةً»(١) ـ وفي رواية ـ «كان إذا عمل عملاً أثبته»(٢)، فجميعُ عَمَلِه كان على منوال واحد، كأنه ينظرُ إلى الله ـ عزَّ وجلَّ ـ في جميع أحوالِه، اللهمَّ إلا أن يكون المرادُ أن يرشدَ غيره إلى الاستعداد لذلك، والله أعلم.

والأحسن في هذا ما رواه الضحاك، عن ابن عباس: ﴿ولو كنت أعلم الغيب لاستكثرت من الخير﴾، أي: من المـال. وفي رواية: لعلمت إذا اشتريت شيئاً ما أربح فيه، فلا أبيع شيئاً إلا ربحت فيه، [﴿وما مسني السوء﴾، قال]: ولا يصيبني الفقر(٣).

وقال ابن جَرير: وقال آخرون معنى ذلك: ـ ﴿لو كنت أعلم الغيب﴾، لأعددت للسنة المجدبة من المُخْصِبَة، ولوقت الغَلاء من الرُّخْصِ، فاستعددت له من الرُّخْصِ(٤).

وقال عبد الرحمن بن زيد بن أسلم: ﴿وما مسني السوء﴾، قال: لاجتنبت ما يكون من الشر قبل أن يكون، واتقيته.

ثم أخبر أنه إنما هو نذيرٌ وبشيرٌ، أي: نذيرٌ من العذاب، وبشيرٌ للمؤمنين بالجنات، كما قال تعالى: ﴿فإنما يَسَّرناه بلسانك لتبشِّرَ به المتقين وتُنْذِرَ به قوماً لُدًّا﴾.

﴿ ۞ هُوَ ٱلَّذِى خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ وَٰحِدَةٍ وَجَعَلَ مِنْهَا زَوْجَهَا لِيَسْكُنَ إِلَيْهَا ۖ فَلَمَّا تَغَشَّىٰهَا حَمَلَتْ حَمْلًا خَفِيفًا فَمَرَّتْ بِهِۦ ۖ فَلَمَّآ أَثْقَلَت دَّعَوَا ٱللَّهَ رَبَّهُمَا لَئِنْ ءَاتَيْتَنَا صَٰلِحًا لَّنَكُونَنَّ مِنَ ٱلشَّٰكِرِينَ ﴿١٨٩﴾ فَلَمَّآ ءَاتَىٰهُمَا صَٰلِحًا جَعَلَا لَهُۥ شُرَكَآءَ فِيمَآ ءَاتَىٰهُمَا ۚ فَتَعَٰلَى ٱللَّهُ عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴿١٩٠﴾ ﴾

يُنَبِّه تعالى على أنه خلق جميع الناس من آدم ـ عليه السلام ـ وأنه خلق منه زوجه حواء، ثم انتشر الناسُ منهما، كما قال تعالى: ﴿يا أيها الناس إنا خلقناكم من ذكر وأنثى وجعلناكم شعوباً وقبائـل لتعارفوا إن أكرمكم عند الله أتقاكم﴾، وقال تعالى: ﴿يا أيها الناس اتقوا ربكم الذي خلقكم من نفس واحدة وخلق منها زوجها﴾... الآية.

وقال في هذه الآية الكريمة: ﴿وجعل منها زوجها ليسكن إليها﴾، أي: ليألفها ويسكن بها، كما قـال تعالى: ﴿ومن آياته أن خلق لكم من أنفسكم أزواجاً لتسكنوا إليها، وجعل بينكم مودة ورحمة﴾، فلا ألفة بين زَوْجين أعظم مما بين الزوجين، ولهذا ذكر تعالى أن الساحر ربما توصل بكيده إلى التفرقة بين المرء وزوجه.

﴿فلما تَغشَّاها﴾، أي: وطئها ﴿حملت حملاً خفيفاً﴾، وذلك أول الحمل، لا تجد المرأة له ألمـاً، إنما هي النُّطفة، ثم العَلَقة، ثم المُضغة.

وقوله: ﴿فمرَّت به﴾، قال مجاهد: استمرَّتْ بحمله: ورُوِي عن الحسن، وإبراهيم النَّخَعِيِّ، والسديِّ، نحوه.

---

(١) أي: يَدُوم عليه ولا يقطعه، و الحديث أخرجه الشيخان، فتح الباري، كتاب الصوم ٤/ ٢٣٥، ومسلم، كتاب الصوم ٥٤١.

(٢) سنن أبي داود، كتاب الصلاة ٢/ ٤٨.

(٣) الدر المنثور ٣/ ٦٢٢، وما بين القوسين عنه.

(٤) تفسير الطبري ٩/ ١٤٣.

وقال ميمون بن مهران، عن أبيه: استخفته.

وقال أيوب: سألتُ الحسنَ عن قوله: ﴿فَمَرَّتْ بِهِ﴾ قال: لو كنت رجلاً عربياً لعرفت ما هي؟ إنما هي: فاستمرّت به.

وقال قتادة: ﴿فمرت به﴾، واستبان حملها.

وقال ابن جَرير: استمرت بالماء، قامت به وقعدت(١).

وقال العوفي، عن ابن عباس: استمرت به، فشكت: أحملت أم لا؟.

﴿فلما أثقلت﴾، أي: صارت ذات ثِقَلٍ بحملها.

وقال السدّيُّ: كَبِر الولدُ في بطنها.

﴿دَعَوا الله رَبَّهما لئن آتيتنا صالحاً﴾، أي: بَشَراً سَوِيّاً، كما قال الضحاك، عن ابن عباس: أشفقا أن يكون بَهِيمةً.

وكذلك قال أبو البَخْتري وأبو مالك: أشفقا ألّا يكون إنساناً.

وقال الحسن البصري: لئن آتيتنا غلاماً.

﴿لنكونن من الشاكرين فلما آتاهما صالحاً جعلا له شركاء فيما آتاهما فتعالى الله عما يشركون﴾، ذكر المفسرون ها هنا آثاراً وأحاديث سأوردها وأبين ما فيها، ثم نُتْبِعُ ذلك ببيان الصحيح في ذلك، إن شاء الله، به الثقة:

قال الإمام أحمد في مسنده: حدثنا عبد الصمد، حدثنا عُمَر بن إبراهيم، حدثنا قتادةَ، عن الحسنِ، عن سَمُرَةَ، عن النبي ـ ﷺ ـ قال: «لما ولدت حواءُ طـافَ بها إبليسُ ـ وكان لا يعيش لها ولد ـ فقال: «سَمِّيه عبد الحارث، فإنه يعيش»، فسمته عبد الحارث، فعاش. وكان ذلك من وحي الشيطان وأمره»(٢).

وهكذا رواه ابنُ جرير، عن محمد بن بشار ـ بندار ـ عن عبد الصمد بن عبد الوارث، به(٣).

ورواه الترمذيّ في تفسير هذه الآية عن محمد بن المثنى، عن عبد الصمد، به. وقال: هذا حديثٌ حسن غريب لا نعرفه إلا من حديث عُمَر بن إبراهيم، ورواه بعضُهم عن عبد الصمد، ولم يرفعه(٤).

ورواه الحاكم في مستدركه، من حديث عبد الصمد مرفوعاً ثم قال: هذا حديث صحيح الإسناد ولم يخرجاه(٥).

ورواه الإمام أبو محمد بن أبي حاتم في تفسيره، عن أبي زُرْعَة الرازيِّ، عن هلال بن فَيّاضٍ، عن عُمَر ابن إبراهيم، به مرفوعاً.

وكذا رواه الحافظ أبو بكر بن مَرْدُويه في تفسيره من حديث شاذّ بن فياض، عن عُمَر بن إبراهيم، به مرفوعاً.

(١) تفسير الطبري ٩/ ١٤٣.
(٢) مسند الإمام أحمد ٥/ ١١.
(٣) تفسير الطبري ٩/ ١٤٦.
(٤) عارضة الأحوذي، تفسير سورة الأعراف ١١/ ٢٠٠ ـ ٢٠١.
(٥) المستدرك، كتاب التاريخ ٢/ ٥٤٥.

قلت: «وشاذٌ»[١]، هو: هلال، وشاذٌ لقبُه. والغرضُ أن هذا الحديثَ معلولٌ من ثلاثة أوجُهٍ:

أحدها: أن عمر بن إبراهيم هذا هو البصري، وقد وثقه ابن معين، ولكن قال أبو حاتم الرازي: لا يحتج به. ولكن رواه ابن مَرْدُويه من حديث المعتمر، عن أبيه، عن الحسن، عن سمرة، مرفوعاً. فالله أعلم.

الثاني: أنه قد رُوِي من قول سَمُرة نفسه، ليس مرفوعاً، كما قال ابن جرير:

حدثنا ابن عبد الأعلى، حدثنا المعتمر، عن أبيه ـ [و][٢] حدثنا [ابن عُلَيَّة][٣]، عن سُلَيمان التَّيمي ـ عن أبي العلاء بن الشِّخِّير، عن سَمُرَةَ بن جُنْدُبٍ قال: سمى آدم ابنه «عبد الحارث».

الثالث: أن الحسن نفسه فسر الآية بغير هذا، فلو كان هذا عنده عن سَمُرَةَ مرفوعاً، لما عدل عنه.

قال ابن جرير: حدثنا ابن وكيع، حدثنا سهل بن يوسف، عن عمرو، عن الحسن: ﴿جعلا له شركاء فيما آتاهما﴾، قال: كان هذا في بعض أهل المِلَلِ، ولم يكن بآدم.

وحدثنا محمد بن عبد الأعلى، حدثنا محمد بن ثور، عن معمر قال: قال الحسن: عَنَى بها ذرية آدم، ومن أشرك منهم بعده. يعني: ﴿جعلا له شركاء فيما آتاهما﴾.

وحدثنا بشر، حدثنا يزيد، حدثنا سعيد، عن قتادة قال: كان الحسن يقول: هم اليهود والنصارى، رزقهم الله أولاداً، فهوّدوا ونَصَّروا[٤].

وهذه أسانيد صحيحة عن الحسن ـ رحمه الله ـ أنه فسر الآية بذلك، وهو من أحسن التفاسير وأولى ما حملت عليه الآية، ولو كان هذا الحديث عنده محفوظاً عن رسول الله ـ ﷺ ـ لما عدل هو ولا غيره عنه، لا سيما مع تقواه لله ووَرَعه، فهذا يدلك على أنه موقوف على الصحابي، ويحتمل أنه تلقاه من بعض أهل الكتاب، من آمن منهم، مثل: كعب أو وهب بن مُنَبِّه وغيرهما، كما سيأتي بيانه إن شاء الله، إلا أننا برئنا من عهدة المرفوع، والله أعلم.

فأما الآثار فقال محمد بن إسحاق بن يسار، عن داود بن الحُصين، عن عكرمة، عن ابن عباس قال: كانت حواء تلد لآدم ـ عليه السلام ـ أولاداً فَيُعَبِّدهم لله ويُسَمّيه: «عبدالله»، «وعبيد الله»، ونحو ذلك، فيصيبهم الموت فأتاها إبليسُ وآدمَ فقال: إنكما لو تُسَمِّيانه بغير الذي تسميانه به لعاش، قال: فولدت له رَجُلًا فسماه «عبد الحارث»، ففيه أنزل الله، يقول الله: ﴿هو الذي خلقكم من نفس واحدة﴾ إلى قوله: ﴿جعلا له شركاء فيما آتاهما﴾ . . . إلى آخر الآية.

وقال العوفي، عن ابن عباس قوله في آدم: ﴿هو الذي خلقكم من نفس واحدة﴾ إلى قوله: ﴿فمرّت به﴾، شَكّت: أحَبَلتْ أم لا؟ ﴿فلما أثقلت دعوا الله ربهما لئن آتيتنا صالحاً لنكونن من الشاكرين﴾، فأتاهما الشيطان، فقال: هل تدريان ما يولد لكما؟ أم هل تدريان ما يكون؟ أبهيمة يكون أم لا؟ وزيَّن لهما الباطل؛ إنه غوي مبين. وقد كانت قبل ذلك ولدت ولدين فماتا، فقال لهما الشيطان: إنكما إن لم تسمياه بي، لم يخرج

(١) الجرح والتعديل لابن أبي حاتم ٩/ ٧٨.

(٢) في الأصل: «عن أبيه حدثنا». وقد أثبتنا الواو لأنهما سندان للطبري، انظره بتحقيق الأستاذ محمود شاكر ١٣/ ٣١٠.

(٣) مكانه في الأصل: «حدثنا بكر بن عبد الله». والمثبت أيضاً عن الطبري. وابن عليَّة هو: إسماعيل بن إبراهيم بن مقسم، يروي عن سليمان التيمي.

(٤) تفسير الطبري ٩/ ١٤٨.

سوياً، ومات كما مات الأولان(١) فسميا ولدهما «عبد الحارث»، فذلك قول الله: ﴿فلما آتاهما صالحاً جعلا له شركاء فيما آتاهما﴾... الآية.

وقال عبدالله بن المبارك، عن شَريك، عن خُصيف، عن سعيد بن جُبَير، عن ابن عباس في قوله: ﴿فَلَمَّا آتاهما صالحاً جعلا له شركاء فيما آتاهما﴾، قال: قال الله ـ عزَّ وجلّ ـ: ﴿هو الذي خلقكم من نفس واحدة، وجعل منها زوجها ليسكن إليها فلما تغشاها﴾ آدم ﴿حملت﴾، فأتاهما إبليس ـ لعنه الله ـ فقال: إني صاحبكما الذي أخرجتكما من الجنة لتُطيعُنّي أو لأجعلنَّ قَرْنَيْ له أيِّل فيخرجُ من بطنك فيشقه، ولأفعلنَّ ولأفعلنَّ ـ يخوفهما ـ فسمِّياه «عبد الحارث». فأبيا أن يطيعاه، فخرج ميتاً. ثم حملت الثانية، فأتاهما أيضاً فقال: أنا صاحبكما الذي فعلت ما فعلت، لتفعلِنَّ أو لأفعلَنَّ ـ يخوفهما ـ فأبيا أن يطيعاه، فخرج ميتاً. ثم حملت الثالثة فأتاهما أيضاً، فذكر لهما، فأدركهما حبُّ الولد، فسمياه «عبد الحارث»، فذلك قوله: ﴿جعلا له شركاء فيما آتاهما﴾. رواه ابن أبي حاتم.

وقد تَلَقَّى هذا الأثر عن ابن عباس جماعةٌ من أصحابه، كمجاهد، وسعيد بن جُبَير، وعكرمة. ومن الطبقة الثانية: قتادةُ، والسدّيُّ، وغير واحد من السلف وجماعة من الخلف، ومن المفسرين من المتأخرين جماعات لا يُحصَونَ كثرةً، وكأنه ـ والله أعلم ـ أصلُه مأخوذٌ من أهل الكتاب، فإنَّ ابن عباس رواه عن أبيِّ بن كعب، كما رواه ابن أبي حاتم:

حدثنا أبي، حدثنا أبو الجُمَاهر، حدثنا سعيد ـ يعني ابن بشير ـ عن عقبة، عن قتادة، عن مجاهد، عن ابن عباس، عن أبيِّ بن كعب قال: لما حملت حواء أتاها الشيطان، قال: أتطيعيني ويَسْلَم لك ولدك؟ سَمِّيه «عبدَ الحارث». فلم تفعلْ، فولدت فماتَ، ثم حَمَلت فقال لها مثل ذلك، فلم تفعل، ثم حملت الثالث فجاءها فقال: إن تُطِيعيني يسلم، وإلا فإنه يكون بَهيمة، فهيَّبهما فأطاعا.

وهذه الآثار يظهر عليها ـ والله أعلم ـ أنها من آثار أهل الكتاب، وقد صَحَّ الحديث عن رسول الله ـ ﷺ ـ أنه قال: «إذا حَدَّثكم أهل الكتاب فلا تُصَدِّقوهم ولا تُكَذِّبوهم»(٢). ثم أخبارهم على ثلاثة أقسام، فمنها: ما عَلِمنا صِحَّته بما دلَّ عليه الدليلُ من كتاب الله أو سنة رسوله. ومنها ما علمنا كَذِبه، بما دُلَّ على خلافه من الكتاب والسنة أيضاً. ومنها ما هو مسكوت عنه، فهو المأذون في روايته، بقوله عليه السلام: «وحدِّثوا عن بني إسرائيلَ ولا حَرَجَ»(٣). وهو الذي لا يُصَدَّق ولا يُكَذَّب، لقوله «فلا تُصدِّقوهم ولا تُكَذِّبوهم». وهذا الأثر هل هو من القسم الثاني أو الثالث؟ فيه نظر، فأما من حَدَّث به من صحَابي أو تابعي، فإنه يراه من القسم الثالث، وأما نحن فعلى مذهب الحسن البصري ـ رحمه الله في هذا ـ والله أعلم، وأنه ليس المراد من هذا السياق آدم وحواء، وإنما المراد من ذلك المشركون من ذُرِّيته. ولهذا قال الله ﴿فتعالى الله عما يشركون﴾.

[(٤)ـ وذكر تعالى آدمَ وحواءَ كالتوطئة لما بعدهما من الوالدين، وهو كالاستطراد من ذكر الشخص إلى الجنس، كما قال تعالى: ﴿ولقد زيَّنّا السمَاء الدنيا بمصابيح وجعلناها رجوماً للشياطين﴾. ومعلومٌ أنّ المصابيح ـ وهي النجوم التي تَزَيَّنت بها السماء ـ ليست هي التي يُرْمَى بها، وإنما هذا استطرادٌ من شخص المصابيح إلى جنسها، ولهذا نظائرُ كثيرةٌ في القرآن، والله أعلم ـ(٤)]. ثم قال:

(١) في الأصل: الأول.
(٢) فتح الباري، كتاب الشهادات ٥/ ٢٩١، ومسند الإمام أحمد ٤/ ١٣٦، وسنن أبي داود، كتاب العلم ٣/ ٣١٨.
(٣) فتح الباري، كتاب الأنبياء ٦/ ٤٩٦، وعارضة الأحوذي، أبواب العلم ١٠/ ١٣٦ ـ ١٣٧، ومسند الإمام أحمد ٣/ ٤٦.
(٤) عن الأصل.

﴿ أَيُشْرِكُونَ مَا لَا يَخْلُقُ شَيْـًٔا وَهُمْ يُخْلَقُونَ ﴿١٩١﴾ وَلَا يَسْتَطِيعُونَ لَهُمْ نَصْرًا وَلَآ أَنفُسَهُمْ يَنصُرُونَ ﴿١٩٢﴾ وَإِن تَدْعُوهُمْ إِلَى
الْهُدَىٰ لَا يَتَّبِعُوكُمْ سَوَآءٌ عَلَيْكُمْ أَدَعَوْتُمُوهُمْ أَمْ أَنتُمْ صَٰمِتُونَ ﴿١٩٣﴾ إِنَّ الَّذِينَ تَدْعُونَ مِن دُونِ اللَّهِ عِبَادٌ أَمْثَالُكُمْ
فَادْعُوهُمْ فَلْيَسْتَجِيبُوا لَكُمْ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴿١٩٤﴾ أَلَهُمْ أَرْجُلٌ يَمْشُونَ بِهَآ أَمْ لَهُمْ أَيْدٍ يَبْطِشُونَ بِهَآ أَمْ لَهُمْ
أَعْيُنٌ يُبْصِرُونَ بِهَآ أَمْ لَهُمْ ءَاذَانٌ يَسْمَعُونَ بِهَا قُلِ ادْعُوا شُرَكَآءَكُمْ ثُمَّ كِيدُونِ فَلَا تُنظِرُونِ ﴿١٩٥﴾ إِنَّ وَلِـِّۧىَ اللَّهُ الَّذِى نَزَّلَ
الْكِتَٰبَ وَهُوَ يَتَوَلَّى الصَّٰلِحِينَ ﴿١٩٦﴾ وَالَّذِينَ تَدْعُونَ مِن دُونِهِ لَا يَسْتَطِيعُونَ نَصْرَكُمْ وَلَآ أَنفُسَهُمْ يَنصُرُونَ ﴿١٩٧﴾
وَإِن تَدْعُوهُمْ إِلَى الْهُدَىٰ لَا يَسْمَعُوا وَتَرَىٰهُمْ يَنظُرُونَ إِلَيْكَ وَهُمْ لَا يُبْصِرُونَ ﴿١٩٨﴾ ﴾

هذا إنكارٌ من الله على المشركين الذين عَبَدوا مع الله غيره، من الأنداد والأصنام والأوثان، وهي مخلوقةٌ لله مربوبةٌ مصنوعةٌ، لا تَمْلِك شيئاً من الأمر، ولا تضرُّ ولا تنفعُ، ولا تنتصر لعابديها، بل هي جماد لا تتحرَّكُ ولا تسمَعُ ولا تُبْصِرُ، وعابدوها أكملُ منها بسمعهم وبصرهم وبطشهم، ولهذا قال: ﴿أيشركون ما لا يخلُقُ شيئاً وهم يُخلقون﴾، أي: أتشركون به من المعبودات ما لا يخلُق شيئاً ولا يستطيع ذلك، كما قال تعالى: ﴿يا أيها الناس، ضُرِبَ مثلٌ فاستمعوا له، إن الذين تدعون من دون الله لن يخلقوا ذباباً ولو اجتمعوا له، وإن يسلبهم الذباب شيئاً لا يستنقذوه منه، ضَعُفَ الطالب والمطلوب * ما قدروا الله حق قدره إن الله لقوي عزيز﴾ أخبر تعالى أنه لو اجتمعت آلهتهم كلها ما استطاعوا خلق ذبابة، بل لو استَلَبْتهُم الذبابة شيئاً من حقير المطاعم وطارت، لما استطاعوا إنقاذ ذلك، منها، فمن هذه صفته وحاله كيف يُعبَد ليرزق ويستنصر؟! ولهذا قال تعالى: ﴿لا يخلقون شيئاً وهم يخلقون﴾، أي: بل هم مخلوقون مصنوعون كما قال الخليل: ﴿أتعبدون ما تنحتون﴾ . . . الآية.

ثم قال تعالى: ﴿ولا يستطيعون لهم نصراً﴾، أي: لعابديهم ﴿ولا أنفسهم ينصرون﴾، يعني: ولا لأنفسهم ينصرون ممن أرادهم بسوء، كما كان الخليل ـ عليه الصلاة والسلام ـ يكسر أصنام قومه ويُهينها غاية الإهانة، كما أخبر تعالى عنه في قوله: ﴿فراغ عليهم ضرباً باليمين﴾، وقال تعالى: ﴿فجعلهم جُذاذاً إلا كبيراً لهم لعلهم إليه يرجعون﴾، وكما كان معاذ بن عمرو بن الجموح ومُعاذ بن جَبَل ـ رضي الله عنهما ـ وكانا شابين قد أسلما لما قدم رسول الله ـ ﷺ ـ المدينة ـ فكانا يعدوان في الليل على أصنام المشركين يكسرانها ويتلفانها ويتخذانها حَطَباً للأرامل، ليعتبر قومهما بذلك، ويَرْتَئُوا لأنفسهم، فكان لعمرو بن الجموح ـ وكان سيِّداً في قومه ـ كان له صنم يعبده ويطيبه، فكانا يجيئان في الليل فيُنكِّسانه على رأسه، ويلطخانه بالعَذِرة، فيجيء عمرو ابن الجَمُوح فيرى ما صُنِع به، فيغسله ويُطيِّبه ويضع عنده سيفاً، ويقول له: «انتصر». ثُمَّ يعودان لمثل ذلك، ويعود إلى صنيعه أيضاً، حتى أخذاه مرة فقرنا معه جَرْو كلب ميت، ودلَّياه في حبل في بئر هناك، فلما جاء عمرو بن الجموح ورأى ذلك، نظر فعلم أن ما كان عليه من الدين باطل، وقال:

تـالله لَـوْ كُنـتَ إلَـهـاً مُسْـتَـدَنْ   لم تـكُ والكَلْبُ جميعاً في قَرَنْ(١)

ثم أسلم فَحَسُنَ إسلامه، وقتل يوم أحد شهيداً، رضِيَ الله عنه وأرضاه، وجعل جنة الفردوس مأواه.

وقولُه: ﴿وإن تدعوهم إلى الهدى لا يتبعوكم﴾ . . . الآية، يعني: أن هذه الأصنام لا تسمع دعاء من دعاها،

---

(١) انظر سيرة ابن هشام ١/ ٤٥٣، والروض الأنف ١/ ٢٨٠.
وإلهٌ مستدن: من السدانة، وهي خدمة البيت وتعظيمه. والقَرَنُ: الحبل.

وسواء لديها من دعاها ومـن دَحَاهـا، كما قال إبراهيم: ﴿يا أبت، لم تعبد ما لا يسمع ولا يبصر ولا يغني عنك شيئاً﴾؟!

ثم ذكر تعالى أنها عَبِيدٌ مثل عابديها، أي: مخلوقات مثلهم، بل الأناسيّ أكمل منها، لأنها تسمع وتبصر وتبطش، وتلك لا تفعل شيئاً من ذلك.

وقولُه: ﴿قل ادعوا شركاءكم﴾. . . الآية، أي: استنصروا بها عليّ، فلا تُؤَخِّروني طرفة عَين، واجهَدوا جُهْدكم! ﴿إن وليي الله الذي نزل الكتاب وهو يتولى الصالحين﴾، أي: الله حسبي وكافيّ، وهو نصيري، وعليه متكلي، وإليه ألجأ، وهو وليي في الدنيا والآخرة، وهو ولي كل صالح بعدي. وهذا كما قال هود ـ عليه السلام ـ لما قال له قومُه: ﴿إن نقول إلا اعتراك بعضُ آلهتنا بسوء. قال: إني أشهد الله، واشهَدُوا أني بريءٌ مما تشركون من دونه فكيدوني جميعاً ثم لا تنظرون. إني توكلت على الله ربي وربكم ما من دابة إلا هو آخذ بناصيتها إن ربي على صراط مستقيم﴾، وكقولِ الخليل: ﴿أفرأيتم ما كنتم تعبدُون. أنتم وآباؤكم الأقدمون. فإنهم عَدُوٌّ لي إلا ربَّ العالمين. الذي خلقني فهو يهدين﴾. . . وكقوله لأبيه وقومه: ﴿إنني براء مما تعبدون. إلا الذي فطرني فإنه سيهدين. وجعلها كلمة باقية في عَقبه لعلهم يرجعون﴾.

وقوله: ﴿والذين تدعون من دونه﴾. . . إلى آخر الآية، مُؤكِّدٌ لما تقدَّم، إلا أنه بصيغَة الخطابِ، وذلك بصيغة الغيبة، ولهذا قال: ﴿لا يستطيعونَ نَصْرَكمْ، ولا أنفسَهم ينصُرُون﴾.

وقولُه: ﴿وإن تدعوهم إلى الهدى لا يَسْمَعُوا، وتراهم ينظرون إليك وهم لا يبصرون﴾، كقوله تعالى: ﴿إن تَدْعوهم لا يسمعوا دعاءكم﴾. . . الآية.

وقولُه: ﴿وتراهم ينظرون إليك وهم لا يبصرون﴾، إنما قال: ﴿ينظرون إليك﴾، أي: يقابلونك بعيون مُصَوَّرة كأنها ناظرة، وهي جَماد، ولهذا عاملهم مُعَامَلَة من يعقِلُ؛ لأنها على صُوَر مصورة كالإنسان، ﴿وتراهم ينظرون إليك﴾، فعبر عنها بضمير من يعقل.

وقال السدِّيُّ: المراد بهذا المشركون. ورُوي عن مجاهد نحوه. والأول أولى، وهو اختيار ابن جرير[1]، وقاله قتادة:

﴿خُذِ ٱلْعَفْوَ وَأْمُرْ بِٱلْعُرْفِ وَأَعْرِضْ عَنِ ٱلْجَٰهِلِينَ ﴿١٩٩﴾ وَإِمَّا يَنزَغَنَّكَ مِنَ ٱلشَّيْطَٰنِ نَزْغٌ فَٱسْتَعِذْ بِٱللَّهِ ۚ إِنَّهُۥ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴿٢٠٠﴾﴾

قال عَليُّ بن أبي طلحة، عن ابن عباس قوله: ﴿خُذِ العَفْوَ﴾، يعني: «خذ ما عَفَا لك من أموالهم، وما أتوك به من شيء فخذه. وكان هذا قبل أن تنزل «براءة» بفرائض الصدقات وتفصيلها، وما انتهت إليه الصدقات». وقاله السُّدي.

وقال الضحاك، عن ابن عباس ﴿خذ العفو﴾: أَنْفِقِ الفَضْلَ.

وقال سعيد بن جُبَير، عن ابن عباس: ﴿خذ العَفْوَ﴾، قال: الفَضْلَ.

وقال عبدُ الرحمن بن زَيدِ بن أَسْلَم في قوله: ﴿خُذْ العَفْوَ﴾: أمره الله بالعفو والصَّفح عن المشركين عشر

(١) انظر تفسير الطبري ٩/ ١٥٣.

سنين، ثم أمره بالغلظة عليهم. واختار هذا القولَ ابنُ جَرِيرٍ[(١)].

وقال غير واحد، عن مجاهد في قوله تعالى: ﴿خُذِ الْعَفْوَ﴾، قال: من أخلاق الناس وأعمالهم بغير تَحَسُّسٍ[(٢)].

وقال هشام بن عروة، عن أبيه: أمر الله رسوله ـ ﷺ ـ أن يأخُذَ العفو من أخلاق الناس. وفي رواية قال: خُذْ ما عفا لك من أخلاقهم.

وفي صحيح البخاري، عن هشام، عن أبيه عروة، عن أخيه عبد الله بن الزبير قال: إنما أنزل: ﴿خذ العفو﴾ من أخلاق الناس[(٣)]. وفي رواية لغيره: عن هشام، عن أبيه، عن ابن عمر. وفي رواية: عن هشام، عن أبيه، عن عائشة أنهما قالا مثل ذلك، والله أعلم.

وفي رواية سعيد بن منصور، عن أبي معاوية، عن هشام، عن وهب بن كيسان، عن ابن[(٤)] الزبير: ﴿خذ العفو﴾ قال: من أخلاق الناس، والله لآخذنه منهم ما صحبتهم.

وهذا أشهرُ الأقوال، ويشهدُ له ما رواه ابن جَرِيرٍ وابنُ أبي حاتم جميعاً:

حدثنا يونس، حدثنا سفيان ـ هو ابنُ عُيَينة ـ عن أُمَيٍّ[(٥)] قال: «لما أنزل الله عز وجل على نبيه ـ ﷺ ـ: ﴿خُذِ الْعَفْوَ وأمر بالعرف وأعرض عن الجاهلين﴾، قال رسول الله ـ ﷺ ـ: ما هذا يا جبريل؟ قال: إن الله أمرك أن تَعفُوَ عمن ظَلَمك، وتُعطِيَ من حَرَمك، وتَصِلَ من قطعك»[(٦)].

وقد رواه ابنُ أبي حاتم أيضاً، عن أبي يزيد القراطيسي كتابة، عن أصبغ بن الفرج، عن سفيان، عن أُمَيٍّ، عن الشعبي، نحوه، وهذا على كل حال مرسل، وقد روى له شاهد من وجوه أخر، وقد رُوِيَ مرفوعاً عن جابر وقيس بن سعد بن عبادة، عن النبيِّ ـ ﷺ ـ، أسندهما ابن مَرْدُويه.

وقال الإمام أحمد: حدثنا أبو المغيرة، حدثنا معاذ بن رفاعة، حدثني علي بن يزيد، عن القاسم، عن أبي أمامة الباهلي، عن عُقبةَ بن عامر ـ رضي الله عنه ـ قال: لقيت رسول الله ـ ﷺ ـ فابتدأته، فأخذت بيده، فقلت: يا رسولَ الله، أَخْبِرْني بفواضِلِ الأعمالِ. فقال: «يا عقبةُ، صِلْ من قَطَعك، وَأَعْطِ من حَرَمَكَ، وأعرض عمن ظَلَمَكَ»[(٧)].

وروى الترمذي نحوه من طريق عُبَيد الله بن زَحْر، عن علي بن يزيد، به. وقال: حسن[(٧)].

قلت: ولكن «علي بن يزيد» وشيخه «القاسم أبو عبد الرحمن»، فيهما ضعف.

وقال البخاري قوله: ﴿خُذِ العفو وَأْمُرْ بالعرفِ وأَعْرِضْ عن الجاهلين﴾، «العرف»: المعروف.

---

(١) تفسير الطبري ٩/ ١٥٥.

(٢) في الأصل: تجسيس. والمثبت عن تفسير الطبري ٩/ ١٥٤، والمعنى: بغير مبالغة في الطلب.

(٣) فتح الباري، تفسير سورة الأعراف ٨/ ٣٠٥.

(٤) في الأصول: أبي الزبير، ومثله في تفسير الطبري ٩/ ١٥٤. وقد نبّه على ذلك الشيخ الأستاذ محمود محمد شاكر في تحقيقه، وانظر أيضاً ترجمة وهب بن كيسان في الجرح ٩/ ٢٣.

(٥) هو: أُمَيّ بن ربيعة المرادي، انظر تهذيب الكمال ٣/ ٣٢٨.

(٦) تفسير الطبري ٩/ ١٥٥.

(٧) مسند الإمام أحمد ١٤٨/٤. وانظر عارضة الأحوذي، أبواب الزهد ٢٤٧/٩.

حدثنا أبو اليمان، أخبرنا شعيب، عن الزهري، أخبرني عبيد الله بن عبد الله بن عتبة: أن ابن عباس قال: قدم عُيَينة بن حصن بن حُذيفة، فنزل على ابن أخيه الحُرّ بن قيس ـ وكان من النفر الذين يُدْنِيهم عُمَر، وكان القراءُ أصحابَ مَجَالِس عُمَر ومشاورته ـ كُهُولاً كانوا أو شباناً ـ فقال عُيَينة لابن أخيه: يا ابنَ أخي، لك وَجْهٌ عند هذا الأمير، فاستأذن لي عليه. قال: سأستأذن لك عليه. قال ابن عباس: فاستأذن الحرُّ لعُيينَةَ، فأذن له عُمَر، فلما دخلَ قال: هِيْ يا ابن الخطاب، فوالله ما تعطينا الجَزْل، ولا تحكم بيننا بالعدلِ. فَغَضِبَ عمر حتى هَمّ أن يُوقِعَ به، فقال له الحر: يا أمير المؤمنين، قال الله لنبيه ـ ﷺ ـ: ﴿خذ العفو وأمر بالعرف وأعرض عن الجاهلين﴾. وإن هذا من الجاهلين، والله ما جاوزها عُمَر حين تلاها عليه، وكان وَقَّافاً عند كتاب الله عز وجل[(١)]. انفرد بإخراجه البخاري.

وقال ابن أبي حاتم: حدثنا يونُس بن عبد الأعلى قراءةً، أخبرنا ابنُ وهبٍ، أخبرني مالك بن أنس، عن عبد الله بن نافع: أن سالم بن عبد الله بن عمر مَرَّ على عِيرٍ لأهل الشام وفيها جَرَس، فقال: إن هذا منهيٌّ عنه، فقالوا: نحن أعلمُ بهذا منك، إنما يكره الجُلْجل الكبير، فأما مثل هذا فلا بأس به. فسكَتَ سالم وقال: ﴿وأعرض عن الجاهلين﴾.

وقال البخاري: «العرف»: المعروف. نَصّ عليه عُرْوَةُ بن الزبير، والسدي، وقتادة، وابن جرير، وغير واحد. وحكى ابن جُرير أنه يقال: أوليته عُرْفـاً[(٢)]، وعارفاً، وعارفَةً، كل ذلك بمعنى: المعروف، قال: وقد أمر الله نبيه ـ ﷺ ـ أن يأمر عباده بالمعروف. ويدخلُ في ذلك جميعُ الطاعاتِ، وبالإعراض عن الجاهلين، وذلك وإن كان أمراً لنبيه ـ ﷺ ـ فإنه تأديب لخلقه باحتمال من ظلمهم واعتدى عليهم، لا بالإعراض عمن جَهِلَ الحقَّ الواجبَ من حَقّ الله، ولا بالصفح عمن كفر بالله وجَهِل وحدانيته، وهو للمسلمين حَرْبٌ.

وقال سعيد بن أبي عَرُوبة، عن قتادة في قوله: ﴿خذ العفو وأمر بالعرف وأعرض عن الجاهلين﴾، قال: هذه أخلاقٌ أمر الله بها نبيّه ـ ﷺ ـ ودلّه عليها.

وقد أخذ بعض الحكماء هذا المعنى، فسبكه في بيتين فيهما جناس فقال:

خُـذ الـعفـو وأمـر بعُـرفٍ كَمَـا ... أُمِـرْتَ وأعْـرِض عَـن الجَـاهِـلـيـنْ
وَلِـنْ فـي الـكَـلام لـكُـلّ الأنَـام ... فَمُسْتَحْسَنٌ مِنْ ذَوِي الجـاه لـيـنْ

وقال بعضُ العلماء: الناس رجلان: فرجل محسنٌ، فخذ ما عفا لك من إحسانه، ولا تُكَلِّفه فوق طاقته ولا ما يحرجه. وإما مسيء فَمُرْه بالمعروف، فإن تمادَى على ضلاله واستعصى عليك واستمرَّ في جهله، فأعرض عنه، فلعلّ ذلك أن يردّ كيدَه، كما قال تعالى: ﴿ادفع بالتي هي أحسن السيئة، نحن أعلمُ بما يصفون. وقل ربِّ أعوذُ بكَ من هَمَزات الشياطين. وأعوذ بك رب أن يحضرون﴾، وقال تعالى: ﴿ولا تستوي الحسنة ولا السيئة، ادفع بالتي هي أحسن، فإذا الذي بينك وبينه عداوة كأنه ولي حميم. وما يلقاها﴾ ـ أي هذه الوصية ـ ﴿إلا الذين صبروا وما يلقاها إلا ذو حظ عظيم. وإما ينزغنك من الشيطان نزغ فاستعذ بالله، إنه هو السميع العليم﴾ وقال في هذه السورة الكريمة أيضاً: ﴿وإما ينزغنك من الشيطان نزغ فاستعذ بالله إنه سميع عليم﴾، فهذه الآيات الثلاث في «الأعراف»، «والمؤمنون». «وحمَ السجدة»، لا رابـع لهن، فإنه تعالى يُرشِدُ فيهنَّ إلى

(١) فتح الباري، تفسير سورة الأعراف ٨/ ٣٠٤ ـ ٣٠٥، وانظر كتاب الاعتصام ١٣/ ٢٥٠.
(٢) في الأصل: معروفاً. انظر تفسير الطبري ٩/ ١٥٦.

معاملة العاصي من الإنس بالمعروف والتي هي أحسن، فإن ذلك يكفه عما هو فيه من التمرد بإذنه تعالى، ولهذا قال: ﴿فإذا الذي بينك وبينه عداوة كأنه ولي حميم﴾. ثم يرشد تعالى إلى الاستعاذة به من شيطان الجان، فإنه لا يكفه[١] عنك الإحسان، وإنما يريد هلاكك ودمارك بالكلية، فإنه عدو مبين لك ولأبيك من قبلك.

قال ابنُ جريرٍ في تفسير قوله: ﴿وإما ينزغَنَّكَ من الشيطان نزغٌ﴾: وإما يُغْضِبَنَّك من الشيطان غَضَب يصدُّك عن الإعراض عن الجاهلين، ويحملك على مجازاتهم، ﴿فاستعذ بالله﴾، يقول: فاستجر بالله من نزغه، ﴿إنه سميع عليم﴾، يقول: [[٢]-إن الله الذي تستعيذ به من نزغ الشيطان-[٢]] - سميع لجهل الجاهل عليك، والاستعاذة به من نَزْغه، ولغير ذلك من كلام خلقه، لا يخفى عليه منه شيء، عليم بما يذهب عنك نزغ الشيطان. وغير ذلك من أمور خلقه.

وقال عبدُ الرحمن بن زيد بن أسلم: لما نزل: ﴿خذ العفو وأمر بالعرف وأعرض عن الجاهلين﴾، قال رسول الله - ﷺ -: يا ربِّ، كيفَ بالغضب؟ فأنزل الله: ﴿وإما ينزغَنَّكَ من الشيطان نزغٌ فاستعِذْ بالله إنه سميع عليم﴾.

قلت: وقد تقدم في أول الاستعاذة حديث الرجلين اللذين تسابّا بحضرة النبي - ﷺ - فغضب أحدهما حتى جعل أنفه يتمزع غَضَباً، فقال رسول الله - ﷺ - إني لأعلم كلمة لو قالها لذهب عنه ما يجد: «أعوذ بالله من الشيطان الرجيم». فقيل له، فقال: ما بي من جنون.

وأصل النزغ الفسادُ، إما بالغضب أو غيره، قال الله تعالى: ﴿وقل لعبادي يقولوا التي هي أحسن إن الشيطان ينزغ بينهم﴾، و«العِياذ»: الالتجاء والاستناد والاستجارة من الشر، وأما «الملاذ» ففي طلب الخير، كما قال المُتَنَبِّي في شعره[٣]:

يا مَنْ ألوذُ به فيما أؤمِّلُه ... وَمَنْ أعوذُ به مما أحاذِرُه
لا يَجْبُرُ الناس عَظماً أنت كاسِرُهُ ... وَلَا يَهِيضُون عَظْماً أنت جابِرُهُ

وقد قدمنا أحاديث الاستعاذة في أول التفسير، بما أغنى عن إعادته ها هنا.

﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ٱتَّقَوْاْ إِذَا مَسَّهُمْ طَٰٓئِفٌ مِّنَ ٱلشَّيْطَٰنِ تَذَكَّرُواْ فَإِذَا هُم مُّبْصِرُونَ ﴿٢٠١﴾ وَإِخْوَٰنُهُمْ يَمُدُّونَهُمْ فِى ٱلْغَىِّ ثُمَّ لَا يُقْصِرُونَ ﴿٢٠٢﴾﴾

يخبر تعالى عن المتقين من عباده الذين أطاعوه فيما أمر، وتركوا ما عنه زَجَر، أنهم ﴿إذا مسهم﴾، أي: أصابهم ﴿طَيْفٌ﴾[٤] - وقرأ آخرون: ﴿طائف﴾، وقد جاء فيه حديث، وهما قراءتان مشهورتان، فقيل: بمعنى واحد. وقيل: بينهما فرق، ومنهم من فسر ذلك بالغضب، ومنهم من فسره بمس الشيطان بالصرع ونحوه، ومنهم من فسره بالهَمّ بالذنب، ومنهم من فسره بإصابة الذنب.

وقوله: ﴿تذكروا﴾، أي: عقاب الله وجزيل ثوابه، ووعده ووعيده، فتابوا وأنابوا، واستعاذوا بالله ورجعوا

---

(١) في نسخة: لا يكفيه منك.
(٢) عن تفسير الطبري ٩/ ١٥٦.
(٣) في الأصل: «أبو الحسن بن هانىء». ثم ضرب عليها، وأثبت بعدها: «المتنبي في شعره». والبيتان في ديوانه ٢/ ٢٧٢.
(٤) هي قراءة ابن كثير وأبي عمرو والكسائي، وبالألف والهمز قراءة من عداهم من السبعة، انظر الإقناع لابن الباذش ٦٥٢.

إليه من قريب. ﴿فإذا هم مبصرون﴾، أي: قد استقاموا وصحوا مما كانوا فيه.

وقد أورد الحافظ أبو بكر بن مَرْدُويه ها هنا حديث محمد بن عمرو، عن أبي سلمة، عن أبي هُرَيرة - رضي الله عنه - قال: جاءت امرأة إلى النبي - ﷺ - وبها طَيفٌ فقالت: يا رسول الله، ادع الله أن يَشْفيني. فقال: إن شئتَ دعوتُ الله فشفاك، وإن شئتَ فاصبري ولا حسَابَ عليك. فقالت: بل أصبر، ولا حساب عليّ.

ورواه غير واحد من أهل السنن، وعندهم: «قالت: يا رسول الله، إني أُصْرَعُ وأتَكشَّفُ[1]، فادع الله أن يشفيني. فقال: إن شئت دعوت الله أن يشفيك، وإن شئت صبرت ولك الجنة؟ فقالت: بل أصبر، ولي الجنة، ولكن ادع الله أن لا أتكشَّف، فدعا لها، فكانتْ لا تَتَكشَّفُ.

وأخرجه الحاكم في مُسْتَدْركه، وقال: صحيحٌ على شرط مسلم، ولم يخرجاه[2].

[[3]-وقد ذكر الحافظُ ابنُ عساكر في ترجمة «عمرو بن جامع» من تاريخه: أن شاباً كان يعبد في المسجد، فَهَويته امرأة، فدعتهُ إلى نفسها، وما زالت به حتى كاد يدخل معها المنزل، فذكر هذه الآية: ﴿إن الذين اتقوا إذا مسهم طائف من الشيطان تذكروا فإذا هم مبصرون﴾، فخر مَغْشِيّاً عليه، ثم أفاق فأعادها، فمات. فجاء عُمَر فعزّى فيه أباه، وكان قد دُفِن ليلاً، فذهب فصلى على قبره بمن معه، ثم ناداه عمر فقال: يا فتى، ﴿ولمن خاف مقام ربه جنتان﴾. فأجابه الفتى من داخل القبر: يا عمر، قد أعطانيهما ربي، عز وجل، في الجنة مرّتين-[3]].

وقولُه: ﴿وإخوانهم﴾، أي: وإخوان الشياطين من الإنس، كقوله: ﴿إن المبذِّرين كانوا إخوان الشياطين﴾ وهم أتباعهم والمستمعون لهم القابلون لأوامرهم ﴿يمدونهم في الغي﴾، أي: تساعدهم الشياطين في المعاصي، وتسهلها عليهم وتحسنها لهم.

وقال ابن كثير: «المد» الزيادة[4]. يعني: يزيدونهم في الغي، يعني: الجهل والسفه.

﴿ثم لا يُقْصِرُونَ﴾، قيل معناه: إن الشياطين تَمُدّ، والإنس لا تُقْصِرُ في أعمالهم بذلك. كما قال علي ابن أبي طلحة، عن ابن عباس في قوله: ﴿وإخوانهم يمدونهم في الغي ثم لا يقصرون﴾، قال: لا الإنس يُقصِرُون عما يعملون [من السيئات]، ولا الشياطين تمسك عنهم.

وقيل: معناه كما رواه العَوْفي، عن ابن عباس في قوله: ﴿يمدونهم في الغي ثم لا يقصرون﴾، قال: هم الجن، يوحون إلى أوليائهم من الإنس ﴿ثم لا يقصرون﴾، يقول: لا يسأمون.

وكذا قال السدّيُّ وغيره: يعني أن الشياطين يمدون أولياءهم من الإنس ولا تسأم من إمدادهم في الشر؛ لأن ذلك طبيعة لهم وسجية، لا تفتر فيه ولا تَبْطُل عنه، كما قال تعالى: ﴿ألم تر أنا أرسلنا الشياطين على الكافرين تَؤُزّهم أزاً﴾، قال ابن عباس وغيره. تُزْعجُهم إلى المعاصي إزعاجاً.

---

(١) يروى أيضاً: وأتكشف، بالنون الساكنة مخففاً من الانكشاف. والمراد: أنها خشيت أن تظهر عورتها وهي لا تشعر.

(٢) المستدرك، كتاب الطب ٤/ ٢١٨. وفيه: محمد بن عمرو بن أبي سلمة. وهو خطأ.

هذا وانظر فتح الباري، كتاب المرضى ١٠/ ١١٤، ومسلم، كتاب البرّ ١٩٩٤، ومسند الإمام أحمد ١/ ٣٤٦ - ٣٤٧. فالحديث فيها مخرّج عن ابن عباس.

(٣) سقط من الأصل.

(٤) تفسير الطبري ١٥٩.

﴿وَإِذَا لَمْ تَأْتِهِم بِآيَةٍ قَالُوا لَوْلَا اجْتَبَيْتَهَا ۚ قُلْ إِنَّمَا أَتَّبِعُ مَا يُوحَىٰ إِلَيَّ مِن رَّبِّي ۚ هَٰذَا بَصَائِرُ مِن رَّبِّكُمْ وَهُدًى وَرَحْمَةٌ لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴿٢٠٣﴾﴾

قال علي بن أبي طَلحة، عن ابن عَبّاسٍ في قوله تعالى: ﴿قالوا لولا اجتبيتها﴾، يقول: لولا تَلَقَّيتها. وقال مرة أخرى: لولا أحدثْتها فأنشأتها.

وقال ابن جُرَيج، عن عبد الله بن كَثِير، عن مجاهد في قوله: ﴿وإذا لم تأتهم بآية قالوا لولا اجتبيتها﴾، قال: لولا اقتَضَبْتَها(١)، قالوا: تخرجها من نفسك. وكذا قال قتادة، والسدي، وعبد الرحمن بن زيد بن أسلم، واختاره ابن جرير.

وقال العَوفِيُّ، عن ابن عَبَّاس: ﴿لولا اجتبيتها﴾، يقول: تَلَقَّيتَها من الله تعالى.

وقال الضحّاك: ﴿لولا اجتبيتَها﴾، يقول: لولا أخذتها أنت فجئتَ بها من السماء.

ومعنى قوله تعالى: ﴿وإذا لم تأتهم بآية﴾، أي: معجزةٍ وخارقٍ، كما قال تعالى: ﴿إن نشأ ننزل عليهم من السماء آية فظلت أعناقهم لها خاضعين﴾، يقولون للرسول ـ ﷺ ـ لم لا تجهد نفسك في تَطَلُّب الآيات من الله حتى نراها ونؤمنَ بها؟ قال الله تعالى له: ﴿قل إنما أتبع ما يوحى إليّ من ربي﴾، أي: أنا لا أتقدم إليه تعالى في شيء، وإنما أتبعُ ما أمرني به فأمتثل ما يوحيه إليّ، فإن بعث آية قبلتها، وإن منعها لم أسأله ابتداءً إياها؛ إلا أن يأذن لي في ذلك، فإنه حكيم عليم.

ثم أرشدهم إلى أن هذا القرآن هو أعظم المعجزات وأبين الدلالات وأصدق الحجج والبيانات، فقال: ﴿هذا بصائر من ربكم وهدى ورحمة لقوم يؤمنون﴾.

﴿وَإِذَا قُرِئَ الْقُرْآنُ فَاسْتَمِعُوا لَهُ وَأَنصِتُوا لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ ﴿٢٠٤﴾﴾

لما ذكر تعالى أنّ القرآن بصائرُ للناس وهُدًى ورحمة، أمر تعالى بالإنصات عند تلاوته إعظاماً له واحتراماً، لا كما كان يعتمدُه كفار قريش المشركون في قولهم: ﴿لا تَسمَعُوا لهذا القرآن والغَوا فيه﴾. ولكن يتأكد ذلك في الصلاة المكتوبة إذا جهر الإمام بالقراءة كما ورد الحديث الذي رواه مسلم في صحيحه، من حديث أبي موسى الأشعري ـ رضي الله عنه ـ قال: قال رسول الله ـ ﷺ ـ: «إنما جُعِل الإمامُ ليؤتمَّ به، فإذا كَبَّرَ فكبِّروا، وإذا قرأ فأنصتوا»(٢). وكذلك رواه أهل السنن من حديث أبي هريرة(٢)، وصححه مسلم بن الحجاج أيضاً، ولم يخرجه في كتابه(٣). وقال إبراهيم بن مسلم الهجري، عن أبي عياض، عن أبي هريرة قال: كانوا يتكلّمون في الصّلاة، فلما نزلت هذه الآية: ﴿وإذا قُرِىَء القرآن فاستمعوا له﴾، والآية الأخرى، أمروا بالإنصات.

وقال ابن جرير: حدثنا أبو كريب، حدثنا أبو بكر بن عياش، عن عاصم، عن المسيب بن رافع، قال ابن

---

(١) أي: ارْتَجَلْتَهَا من غير تهيئة ولا إعداد.

(٢) مسلم، كتاب الصلاة ٣٠٣. وسنن النسائي، كتاب الافتتاح ٢/ ١٤١ ـ ١٤٢، وابن ماجه، كتاب الإقامة ٢٧٦، ومسند الإمام أحمد ٢/ ٣٧٦، ٤٢٠.

(٣) انظر صحيح مسلم ٣٠٤.

مسعود: كنا نُسلِّم بعضنا على بعض في الصلاة، فجاء القرآن: ﴿وإذا قرىء القرآن فاستمعوا له وأنصتوا لعلكم ترحمون﴾[١].

وقال أيضاً: حدثنا أبو كريب، حدثنا المحاربي، عن داودَ بن أبي هند، عن بَشِيرُ بن جابر قال: صلّى ابن مسعود، فسمع ناساً يقرأون مع الإمام، فلما انصرف قال: أما آن لكم أن تَفْهَموا؟ أما آن لكم أن تعقلوا؟ ﴿وإذا قرىء القرآن فاستمعوا له وأنصتوا﴾، كما أمركم الله.

قال: وحدثني أبو السائب، حدثنا حفص، عن أشعث، عن الزُهري قال: نزلت هذه الآيةُ في فَتًى من الأنصار، كان رسول الله ـ ﷺ ـ كلما قرأ شيئاً قرأه، فنزلت: ﴿وإذا قرىء القرآن فاستمعوا له وأنصتوا﴾.

وقد روى الإمام أحمد وأهل السنن، من حديث الزهري، عن ابن أكيمة الليثي، عن أبي هُرَيرة: أن رسول الله ـ ﷺ ـ انصرف من صلاة جَهَر فيها بالقراءة، فقال: هل قرأ أحد منكم معي آنفاً؟ قال رجل: نعم يا رسول الله. فقال: إني أقول: ما لي أنَازَع[٢] القرآنَ؟! قال: فانتهى الناس عن القراءة مع رسول الله ـ ﷺ ـ فيما جهر فيه رسولُ الله ـ ﷺ ـ بالقراءة من الصلوات، حين سَمِعوا ذلك من رسول الله، ﷺ[٣].

وقال الترمذي: «هذا حديث حسن»[٣]. وصححه أبو حاتم الرازي.

وقال عبد الله بن المبارك، عن يونس، عن الزهري قال: لا يقرأ مَنْ وراء الإمام فيما يجهر به الإمام، تكفيهم قراءة الإمام وإن لم يُسمعهم صوته، ولكنهم يقرأون فيما لا يجهر به سراً في أنفسهم، ولا يصلح لأحد خلفه أن يقرأ معه فيما يجهر به سراً ولا علانية، فإن الله تعالى قال: ﴿وإذا قُرِىء القرآن فاستمعوا له وأنْصِتُوا لعلكم ترحمون﴾.

قلت: هذا مذهب طائفة من العلماء: أن المأمومَ لا يَجِبُ عليه في الصلاة الجهرية قراءة فيما جهر فيه الإمام لا الفاتحة ولا غيرها، وهو أحد قولي الشافعي، وهو القديم كمذهبِ مالك، ورواية عن أحمد بن حنبل، لما ذكرناه من الأدلة المتقدمة. وقال في الجديد: يقرأ الفاتحة فقط في سكتات الإمام، وهو قول طائفة من الصحابة والتابعين فمن بعدهم. وقال أبو حنيفة وأحمد بن حنبل: لا يجب على المأموم قراءة أصلاً في السرية ولا الجهرية، لما ورد في الحديث: «من كان له إمام فقراءته له قراءة»[٤]. وهذا الحديث رواه الإمام أحمد في مسنده عن جابر مرفوعاً، وهو في موطأ مالك عن وهب بن كيسان، عن جابر موقوفاً، وهذا أصح. وهذه المسألةُ مبسوطةٌ في غير هذا الموضع، وقد أفرد لها الإمام أبو عبد الله البخاري مصنفاً على حدة، واختار وجوب القراءة خلف الإمام في السرية والجهرية أيضاً، والله أعلم.

وقال علي بن أبي طلحة، عن ابن عباس قوله: ﴿وإذا قرىء القرآن فاستمعوا له وأنصتوا﴾، يعني: في الصلاة المفروضة. وكذا روي عن عبد الله بن المُغَفَّل.

وقال ابن جَرير: حدثنا حميد بن مَسْعَدة، حدثنا بشر بن المفضل، حدثنا الجُرَيريّ، عن طلحة بن عبيد الله بـن كَرِيزٍ قَال: رَأيت عُبَيد بن عُمَير وعطاء بن أبي رباح يتحدَّثان، والقاصُ يقصُّ، فقلت: ألا تسمعان

---

(١) تفسير الطبري ٩/ ١٦٢.

(٢) المراد بالمنازعة أنهم لا يُفردونه بالقراءة، بل يقرأون معه، وهو من التنازع بمعنى التجاذب.

(٣) مسند الإمام أحمد ٢/ ٣٠١ ـ ٣٠٢، وعارضة الأحوذي، أبواب الصلاة ٢/ ١٠٧ ـ ١٠٨، والنسائي، كتاب الافتتاح ٢/ ١٤٠ ـ ١٤١، والموطأ، كتاب الصلاة ١/ ٨٦ ـ ٨٧.

(٤) مسند الإمام أحمد ٣/ ٣٣٩.

إلى الذكر وتستوجبان الموعود؟ قال: فنظرا إليَّ، ثم أقبلا على حديثهما. قال: فأعدتُ، فنظرا إليَّ، وأقبلا على حديثهما. قال: فأعدت الثالثة، قال: فنظرا إليَّ فقالا: إنما ذلك في الصلاة: ﴿وإذا قُرِئ القرآنُ، فاستمعوا له وأنصتوا﴾[1].

وقال سفيانُ الثوريُّ: عن أبي هاشم إسماعيل بن كثير، عن مجاهد في قوله: ﴿وإذا قُرِئ القرآن فاستمعوا له وأنصتوا﴾، قال: في الصلاة. وكذا رواه غيرُ واحد عن مجاهد.

وقال عبد الرزاق، عن الثوري، عن ليث، عن مجاهد قال: لا بأس إذا قرأ الرجل في غير الصلاة أن يتكلم.

وكذا قال سعيد بن جُبَير، والضحاك، وإبراهيم النَّخَعِيُّ، وقتادةُ، والشعبي، والسّديُّ، وعبد الرحمن بن زيد بن أسلم: أن المراد بذلك في الصلاة.

وقال شعبة، عن منصور، سمعت إبراهيم بن أبي حُرَّة يحدِّث أنه سَمع مجاهداً يقول في هذه الآية: ﴿وإذا قرئ القرآن فاستمعوا له وأنصتوا﴾، قال: في الصلاة والخطبة يوم الجمعة.

وكذا رَوى ابنُ جُرَيج، عن عطاء، مثله.

وقال هشيم، عن الربيع بن صُبَيح، عن الحسن قال: في الصلاة وعند الذكر.

وقال ابن المبارك، عن بقية: سمعت ثابت بن عجلان يقول: سمعت سعيد بن جُبَير يقول في قوله: ﴿وإذا قُرِئ القرآن فاستمعوا له وأنصتوا﴾، قال: الإنصات يوم الأضحى، ويوم الفطر، ويوم الجمعة، وفيما يجهر به الإمام من الصلاة.

وهذا اختيار ابن جرير أن المراد بذلك الإنصات في الصلاة وفي الخطبة، لما جاء في الأحاديث من الأمر بالإنصات خلف الإمام وحال الخطبة.

وقال عبد الرزاق، عن الثوري، عن ليث، عن مجاهد أنه كره إذا مر الإمام بآية خوف أو بآية رحمة أن يقول أحد من خلفه شيئاً، قال: السكوت.

وقال مبارك بن فضالة، عن الحسن: إذا جلست إلى القرآن فأنصت له.

وقال الإمام أحمد: حدثنا أبو سعيد مولى بني هاشم، حدثنا عَبَّاد بن مَيْسَرَةَ، عن الحسن، عن أبي هريرة ـ رضي الله عنه ـ: أن رسول الله ـ ﷺ ـ قال: «من استمع إلى آية من كتاب الله، كتبت له حَسَنَةٌ مضاعفة، ومن تلاها كانت له نوراً يوم القيامة»[2]. تفرد به أحمد، رحمه الله.

﴿ وَٱذْكُر رَّبَّكَ فِى نَفْسِكَ تَضَرُّعًا وَخِيفَةً وَدُونَ ٱلْجَهْرِ مِنَ ٱلْقَوْلِ بِٱلْغُدُوِّ وَٱلْءَاصَالِ وَلَا تَكُن مِّنَ ٱلْغَٰفِلِينَ ﴿٢٠٥﴾ إِنَّ ٱلَّذِينَ عِندَ رَبِّكَ لَا يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِهِۦ وَيُسَبِّحُونَهُۥ وَلَهُۥ يَسْجُدُونَ ۩ ﴿٢٠٦﴾ ﴾

يأمر تعالى بذكره أول النهار وآخره، كما أمر بعبادته في هذين الوقتين في قوله: ﴿وسبح بحمد ربك قبل طلوع الشمس وقبل الغروب﴾. وقد كان هذا قبل أن تفرض الصلواتُ الخمسُ ليلةَ الإسراءِ، وهذه الآية مكية.

(١) تفسير الطبري ٩/ ١٦٣.
(٢) مسند الإمام أحمد ٢/ ٣٤١.

وقال هاهنا: ﴿بالغدو﴾ وهو أوائل النهار، ﴿والآصال﴾: جمع أصيل، كما أن الأيمان جمع يمين.

وأما قوله: ﴿تضرعاً وخيفة﴾، أي: اذكر ربك في نفسك رهبة ورغبة، وبالقول لا جهراً، ولهذا قال: ﴿ودون الجهر من القول﴾. وهكذا يُستحَبّ أن يكون الذكر، لا يكون نداء وجهراً بليغاً؛ ولهذا لما سألوا رسول الله - ﷺ - فقالوا: أقريب ربنا فنناجِيَه أم بعيد فنناديَه؟ فأنزل الله: ﴿وإذا سألك عبادي عني فإني قريب أجيب دعوة الداع إذا دعان﴾.

وفي الصحيحين عن أبي موسى الأشعري قال: رفع الناس أصواتهم بالدعاء في بعض الأسفار فقال لهم النبي - ﷺ - «أيها الناس، ارْبَعُوا[1] على أنفسكم، فإنكم لا تدعون أصمّ ولا غائباً، إن الذي تدعونه سميع قريب»[2].

وقد يكون المرادُ من هذه الآية كما في قوله تعالى: ﴿ولا تجهر بصلاتك ولا تخافت بها، وابتغ بين ذلك سبيلاً﴾، فإن المشركين كانوا إذا سمعوا القرآن سبُّوه، وسبوا من أنزله ومن جاء به؛ فأمره الله تعالى ألاَّ يجهر به، لئلا ينال منه المشركون، ولا يخافت به عن أصحابه فلا يُسْمِعَهم، ولْيتخذْ سبيلاً بين الجهر والإسرار. وكذا قال في هذه الآية الكريمة: ﴿ودُون الجهر من القول بالغدو والآصال، ولا تكن من الغافلين﴾.

وقد زعم ابن جرير وعبد الرحمن بن زيد بن أسلم قبله: أن المراد بهذه الآية أمْرُ السامع للقرآن في حال استماعه بالذكر على هذه الصفة. وهذا بعيد مناف للإنصات المأمور به، ثم المراد بذلك في الصلاة، كما تقدم، أو الصلاة والخطبة، ومعلوم أن الإنصاتَ إذ ذاك أفضل من الذكر باللسان، سواءكان سراً أو جهراً. فهذا الذي قالاه لم يُتَابَعا عليه، بل المراد الحضُّ على كثرة الذكر من العباد بالغدو والآصال، لئلا يكونوا من الغافلين. ولهذا مدح الملائكة الذين يسبحون الليل والنهار لا يفترون، فقال: ﴿إن الذين عند ربك لا يستكبرون عن عبادته﴾. . . الآية. وإنما ذكرهم بهذا لِيُتَشَبَّه بهم في كثرة طاعتهم وعبادتهم. ولهذا شرع لنا السجود ها هنا لما ذكر سجودهم لله -عز وجل- كما جاء في الحديث: «ألا تَصُفّون كما تَصُفُّ الملائكةُ عند ربها، يُتِمُّونَ الصفوفَ الأوَل، ويتراصُّون في الصَّفّ»[3]؟

وهذه أول سجدة في القرآن، مما يشرع لتاليها ومستمعها السجود بالإجماع. وقد وَرَد في حديث رواه ابن ماجه[4]، عن أبي الدرداء، عن النبي - ﷺ - أنه عَدَّها في سجدات القرآن.

* * *

آخر سورة الأعراف، ولله الحمد والمنة

---

(١) أي: ارفقوا.

(٢) فتح الباري، كتاب الدعوات ١١/ ١٧٨، ومسلم، كتاب الذكر ٢٠٧٦.

(٣) مسلم، كتاب الصلاة ٣٢٢، وسنن أبي داود، كتاب الصلاة ١/ ١٧٧ - ١٧٨، والنسائي، كتاب الإمامة ٢/ ٩٢، وابن ماجه، كتاب الإقامة ٣١٧، ومسند الإمام أحمد ٥/ ١٠١، ٢/ ٩٨.

(٤) سنن ابن ماجه، كتاب الإقامة ٣٣٥.

تفسير

سُورَةُ الأَنفَال

ترتيبها ٨ — آياتها ٧٥

وهي مدنية [(١)آياتها ست وسبعون آية(٢). كلماتُها ألف كلمةٍ، وستمائة كلمةٍ، وإحدى وثلاثون كلمةً. حروفُها خمسة آلاف ومائتان، وأربعة وتسعون حَرْفاً، والله أعلم(١)].

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

﴿ يَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلْأَنفَالِ ۖ قُلِ ٱلْأَنفَالُ لِلَّهِ وَٱلرَّسُولِ ۖ فَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَأَصْلِحُوا۟ ذَاتَ بَيْنِكُمْ ۖ وَأَطِيعُوا۟ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥٓ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴿١﴾ ﴾

قال البخاري: قال ابن عباس: «الأنفال» الغنائم:

حدثنا مُحمَّد بن عبد الرحيم، حدثنا سعيد بن سليمان. حدثنا هُشَيم، حدثنا أبو بشر، عن سعيد بن جُبَير قال: قلت لابن عباس: سورة الأنفال؟ قال: نزلت في بدر(٣).

أما ما عَلَّقه عن ابن عباس فكذلك رواه علي بن أبي طلحة، عن ابن عباس أنه قال: «الأنفال» الغنائم(٤)، كانت لرسول الله ـ ﷺ ـ خالصةً، ليس لأحد منها شيء. وكذا قال مجاهد، وعكرمة، وعطاء، والضحاك، وقتادةُ، وعطاء الخراسانيُّ، ومقاتل بن حَيَّان، وعبد الرحمن بن زيد بن أسلم، وغير واحد أنها المغانم.

وقال الكلبي، عن أبي صالح، عن ابن عباس أنه قال: «الأنفال»: الغنائم، قال فيها لَبِيدٌ(٥):

إنَّ تَقْوَى رَبِّنا خيرُ نَفَلْ ... وبإذْنِ الله رَيْثِي وعَجَلْ

وقال ابن جرير: حَدَّثني يونُسُ، أخبرنا ابن وَهْب، أخبرني مالك بن أنس، عن ابن شهاب، عن القاسم ابن محمد قال: سمعتُ رَجُلاً يسأل ابنَ عَبَّاسٍ عن «الأنفال»، فقال ابن عباس ـ رضي الله عنهما ـ: الفرس من

(١) ما بين القوسين ساقط من الأصل، وأثبتناه عن إحدى النسخ.
(٢) في الأصل: وأربعون. وهو خطأ.
(٣) فتح الباري، تفسير سورة الأنفال ٨/٣٠٦. وتفسر سورة الحشر ٨/٦٢٨ ـ ٦٢٩.
(٤) قال في الفتح: «وصله ابن أبي حاتم من طريق علي بن أبي طلحة عن ابن عباس.
(٥) ديوان ٢/ ١٢، ومجاز أبي عبيدة ١/ ٤٠، وتفسير الطبري ٩/ ١٧١.

النَّفْل، والسلبَ من النفل. ثم عاد لِمَسْأَلته، فقال ابنُ عباس ذلك أيضاً. ثم قال الرجل: «الأنفال» التي قال الله في كتابه، ما هي؟ قال القاسم: فلم يزل يسأله حتى كاد يُحرِجُه، فقال ابن عباس: أتدرون ما مَثَلُ هذا؟ مثلُ صَبِيغٍ [١] الذي ضربه عمر بن الخطاب [٢].

وقال عبد الرزَّاق: أخبرنا مَعْمَر، عن الزُّهريّ، عن القاسم بن محمد قال: قال ابن عباس: كان عمر بن الخطاب ـ رضي الله عنه ـ إذا سُئِلَ عن شيء قال: «لا آمرك ولا أنهاك»، ثم قال ابن عباس: والله ما بعث الله نبيه ـ ﷺ ـ إلا زاجراً آمراً مُحِلاً محرماً. قال القاسم: فَسُلِّط على ابن عباس رجلٌ يسأله عن الأنفال، فقال ابن عباس: كان الرجل يُنَفِّل فرس الرجل وسلاحه. فأعاد عليه الرجل، فقال له مثل ذلك، ثم أعاد عليه حتى أغضبه، فقال ابن عباس: أتدرون ما مَثَل هذا؟ مثل صبيغ الذي ضربه عمر بن الخطاب، حتى سالت الدماء على عقبيه ـ أو على: رجليه ـ فقال الرجل: أما أنت فقد انتقم الله لعمر منك.

وهذا إسناد صحيح إلى ابن عباس: أنه فَسّر النَّفَل بما يَنفّله الإمام لبعض الأشخاص من سَلَب أو نحوه، بعد قَسْم أصل المغنم، وهو المتبادر إلى فهم كثير من الفقهاء من لفظ النفَل، والله أعلم.

وقال ابن أبي نجيح، عن مجاهد: إنهم سألوا رسول الله ـ ﷺ ـ عن الخُمْس بعد الأربعة الأخماس، فنزلت: ﴿يسألونك عن الأنفال﴾.

وقال ابن مسعود ومسروق: لا نَفَل يوم الزحف، إنما النفل قبل التقاء الصفوف. رواه ابن أبي حاتم عنهما.

وقال ابن المبارك وغير واحد، عن عبد الملك بن أبي سليمان، عن عطاء بن أبي رباح: ﴿يسألونك عن الأنفال﴾، قال: يسألونك فيما شذ من المشركين إلى المسلمين في غير قتال، من دابة أو عبد أو أمة أو متاع، فهو نفل للنبي ـ ﷺ ـ يصنع به ما يشاء.

وهذا يقتضي أنه فسر الأنفال بالفيء، وهو ما أخذ من الكفار من غير قتال.

وقال ابن جرير: وقال آخرون: هي أنفال السرايا:

حدثني الحارث، حدثنا عبد العزيز، حدثنا علي بن صالح بن حَيٍّ قال: بلغني في قوله تعالى: ﴿يسألونك عن الأنفال﴾، قال: السرايا [٣].

ويعني هذا ما ينفله الإمام لبعض السرايا زيادة على قَسْمهم مع بقية الجيش، وقد صرَّح بذلك الشعبيُّ، واختار ابنُ جرير أنها الزيادات على القَسْمِ، ويشهد لذلك ما ورد في سبب نزول الآية، وهو ما رواه الإمام أحمد حيث قال:

حدثنا أبو معاوية، حدثنا أبو إسحاق الشيباني، عن محمد بن عُبَيد الله الثقفي، عن سعد بن أبي وقاص قال: «لما كان يومُ بدرٍ، وقُتِل أخي عُمير، وقَتَلْتُ سعيدَ بن العاص وأخذتُ سيفه، وكان يسمّى «ذا الكَتِيفَةِ» [٤]، فأتيت به نبي الله ـ ﷺ ـ فقال: اذهب فاطرحه في القَبَض [٥]. قال: فرجعت وبي ما لا يعلمه إلا الله من قتل

(١) هو صَبِيغ بن عِسْل. مترجم في الإصابة ٢/ ١٩١، انظر خبره مع عُمَر ـ رضي الله عنه ـ هناك.
(٢) تفسير الطبري ٩/ ١٧٠.
(٣) تفسير الطبري ٩/ ١٦٩.
(٤) الكتيفة ـ بفتح الكاف ـ: السيف العريض.
(٥) هو ما جمع مع الغنيمة قبل أن تقسم.

أخي وأخذ سلبي، قال: فما جاوزت إلا يسيراً حتى نزلَتْ سورةُ الأنفال، فقال لي رسول الله ـ ﷺ ـ: اذهَبْ فَخُذْ سيفَكَ»[١].

وقال الإمامُ أحمدُ أيضاً: حَدَّثنا أسودُ بن عامر، أخبرنا أبو بكر، عن عاصم بن أبي النَّجُودِ، عن مُصعَب ابن سعد، عن سعد بن مالك قال، قال: يا رسولَ الله، قد شفاني الله اليومَ من المشركين، فَهَبْ لي هذا السيفَ. فقال: إن هذا السيف لا لك ولا لي، ضَعْه. قال: فوضعته. ثم رجعتُ قلت: عسى أن يُعطِيَ هذا السيفَ اليوم من لا يُبْلِي بلائي! قال: إذا رجلٌ يدعوني من ورائي، قال قلت: قد أنزل الله فيَّ شيئاً؟ قال: كنت سألتني السيف، وليس هو لي وإنه قد وهب لي، فهو لك. قال: وأنزل الله هذه الآية: ﴿يسألونك عن الأنفال قل الأنفال لله والرسول﴾[٢].

ورواه أبو داود، والترمذي، والنسائي من طرق، عن أبي بكر بن عياش، به. وقال الترمذي: حسن صحيح[٣].

وهكذا رواه أبو داود الطيالسي: أخبرنا شعبة، أخبرنا سِماك بن حَرْب، قال: سمعتُ مُصعَبَ بن سَعْدٍ، يُحَدِّث عن سعد قال: نزلَتْ فيَّ أربعُ آيات: أصبت سيفاً يوم بدر، فأتيت النبي ـ ﷺ ـ فقلت: نَفِّلْنِيهِ. فقال: ضَعْهُ من حيث أخذته، مرتين، ثم عاودته فقال النبي ـ ﷺ ـ: ضعه من حيث أخذته. فنزلت هذه الآيةُ: ﴿يسألونك عن الأنفال﴾[٤].

وتمام الحديث في نزول: ﴿ووصينا الإنسان بوالديه حسناً﴾، وقوله تعالى: ﴿إنما الخمر والميسر﴾[٥]، وآية الوصية[٦]. وقد رواه مسلم في صحيحه، من حديث شعبة[٧]، به.

وقال محمد بن إسحاق: حدثني عبد الله بن أبي بكر، عن بعض بني ساعدة قال: سمعت أبا أُسَيد مالك ابن ربيعة يقول: أَصَبْتُ سيفَ ابن عائذ يوم بدر، وكان السيف يدعى بالمرزبان، فلما أمر رسولُ الله ـ ﷺ ـ الناسَ أن يَرُدُّوا ما في أيديهم من النَّفَلِ، أقبلتُ به فألقيته في النَّفل، وكان رسول الله ـ ﷺ ـ لا يمنع شيئاً يُسأله، فرآه الأرقم بن أبي الأرقم المخزومي، فسأله رسولَ الله ـ ﷺ ـ فأعطاه إياه.

ورواه ابن جرير من وجه آخر[٨].

سبب آخر في نزول الآية

وقال الإمام أحمد: حدثنا محمد بن سلمة، عن ابن إسحاق، عن عبد الرحمن، عن سليمان بن موسى، عن مكحول، عن أبي أمامة قال: سألت عُبادة عن الأنفال، فقال: فينا ـ أصحابَ بدرٍ ـ نَزَلَتْ، حين اختلفنا في

---

(١) مسند الإمام أحمد ١/ ١٨٠.
(٢) مسند الإمام أحمد ١/ ١٧٨.
(٣) سنن أبي داود، كتاب الجهاد ٣/ ٧٧ ـ ٧٨، وعارضة الأحوذي، تفسير سورة الأنفال ١١/ ٢٠١ ـ ٢٠٧.
(٤) منحة المعبود ٢/ ١٨.
(٥) الآية ٩٠ من سورة المائدة.
(٦) الآية ١٥ من سورة لقمان.
(٧) مسلم، كتاب فضائل الصحابة ١٩٧٧ ـ ١٨٧٨.
(٨) تفسير الطبري ٩/ ١٧٣ ـ ١٧٤.

النفل، وساءت فيه أخلاقنا، فانتزعه الله من أيدينا، وجعله إلى رسول الله - ﷺ - فقسمه رسول الله - ﷺ - بين المسلمين عن بَـوَاءٍ. يقول: عن سواء[١].

وقال أحمد أيضاً: حدثنا معاويةبن عمرو، أخبرنا أبو إسحاق[٢]، عن عبد الرحمن بن الحارث بن عبدالله ابن عياش بن أبي ربيعة، عن سليمان بن موسى، عن أبي سلام، عن أبي أمامة، عن عُبادَةَ بن الصَّامِت قال: خرجنا مع النبي - ﷺ - فَشهِدْتُ معه بَدْراً، فالتقى الناس، فهزم الله العدو، فانطلقت طائفة في آثارهم يهزمون ويقتلون. وأكبَّت طائفة على العسكر يحوونه ويجمعونه. وأحدقت طائفة برسول الله - ﷺ - لا يصيب العدو منه غرة. حتى إذا كان الليل، وفاء الناس بعضهم إلى بعض، قال الذين جمعوا الغنائم: نحن حويناها، فليس لأحد فيها نصيب. وقال الذين خرجوا في طلب العدو: لستم بأحق به منا، نحن نفينا عنها العدو وهزمناهم. وقال الذين أحدقوا برسول الله - ﷺ -: [لستم بأحق بها منا، نحن أحدقنا برسول الله - ﷺ - و] خفنا أن يصيب العدو منه غرة، فاشتغلنا به. فنزلت: ﴿يسألونك عن الأنفال قل الأنفال لله والرسول فاتقوا الله وأصلحوا ذات بينكم﴾، فقسمها رسول الله - ﷺ - بين المسلميـن. وكان رسول الله - ﷺ - إذا أغار في أرض العدو نفل الربع، فإذا أقبل وكل الناس راجعاً، نفل الثلث، وكان يكره الأنفال [ويقول: ليرد قويُّ المؤمنين على ضَعِيفهم][٣].

ورواه الترمذي وابن ماجه، من حديث سفيان الثوري، عن عبد الرحمن بن الحارث به نحوه، وقال الترمذي: هذا حديث حسن. ورواه ابن حبان في صحيحه، والحاكم في مستدركه من حديث عبد الرحمن بن الحارث، وقال الحاكم: صحيح الإسناد على شرط مسلم ولم يخرجاه[٤].

وروى أبو داود، والنسائي، وابن جرير، وابن مَرْدُويه - واللفظ له - وابن حبان، والحاكم من طرق، عن داودبن أبي هند، عن عكرمة، عن ابن عباس قال: لما كان يومُ بدرٍ قال رسولُ الله - ﷺ -: «من صَنَعَ كذا وكذا فله كذا وكذا»، فتسارع في ذلك شبانُ الرجالِ وبقي الشيوخُ تحت الرايات، فلما كانت المغانم، جاؤوا يطلبون الذي جعل لهم، فقال الشيوخُ: لا تستأثروا علينا؛ فإنا كنا رِدْءاً لكم لو انكشفتم لَفِئْتُم إلينا. فتنازعوا، فأنزل الله تعالى: ﴿يسألونك عن الأنفال﴾ إلى قوله: ﴿وأطيعوا الله ورسوله إن كنتم مؤمنين﴾[٥].

وقال الثـوريُّ، عن الكلبيِّ، عن أبي صالح، عن ابن عباس قال: «لما كان يوم بدر قال رسولُ الله - ﷺ -: «من قَتَل قتيلاً فله كذا وكذا، ومن أتى بأسيرٍ فله كذا وكذا». فجاء أبو اليَسَر بأسيرين، فقال: يا رسول الله، وعدتنا. فقام سعدُ بن عبادة فقال: يا رسولَ الله، إن أعطيتَ هؤلاء لم يبق لأصحابك شيء، وإنه لم يمنعنا من هذا زهادة في الأجر، ولا جُبْنٌ عن العدوِّ، وإنما قمنا هذا المقام محافظة عليك، تخافُ أن يأتوك من ورائك. فتشاجروا، ونزل القرآنُ: ﴿يسألونَكَ عن الأنفالِ قل الأنفالُ لله والرسولِ﴾، قال: ونزل القرآنُ: ﴿واعلموا أنما غَنِمتـم من شيء فَأَنَّ لله خُمُسَه﴾ إلى آخر الآية.

وقال الإمام أبو عُبَيد القاسم بن سلام - رحمه الله - في كتاب «الأموال الشرعية وبيان جهاتها ومصاريفها»: أما الأنفال فهي المغانم، وكل نيل ناله المسلمون من أموال أهل الحرب. فكانت الأنفالُ الأولى إلى

---

(١) مسند الإمام أحمد ٥/ ٣٢٢.

(٢) في الأصل وغيره: ابن إسحاق، والصواب عن المسند، وانظر تهذيب التهذيب ١٠/ ٢١٥. وهو ابن إسحاق الفزاري.

(٣) مسند الإمام أحمد ٥/ ٣٢٣ - ٣٢٤، وما بين الأقواس عنه.

(٤) عارضة الأحوذي، أبواب السير ٧/ ٥١ - ٥٣، وابن ماجه، كتاب الجهاد ٩٥١. والمستدرك، كتاب قسم الفيء ٢/ ١٣٦، وكتاب التفسير ٢/ ٣٢٦.

(٥) سنن أبي داود، كتاب الجهاد ٣/ ٧٧، وتفسير الطبري ٩/ ١٧١ - ١٧٢، والمستدرك، تفسير سورة الأنفال ٢/ ٣٢٦ - ٣٢٧.

النبي ـ ﷺ ـ، يقول الله تعالى: ﴿يسألونك عن الأنفال قل الأنفال لله والرسول﴾، فقسّمها يوم بدر على ما أراده الله من غير أن يخمسها على ما ذكرناه في حديث سعد. ثم نزلت بعد ذلك آية الخمس، فنسخت الأولى(١).

قلت: هكذا روى علي بن أبي طلحة، عن ابن عباس، سواء. وبه قال مجاهد، وعكرمة، والسدي.

وقال ابن زيد: ليست منسوخة بل هي محكمة.

قال أبو عبيد: وفي ذلك آثار. . . والأنفالُ أصلُها جماعُ(٢) الغنائم، إلا أن الخمس منها مخصوص لأهله على ما نزل به الكتاب، وجرت به السنة. ومعنى الأنفال في كلام العرب: كلُّ إحسانٍ فَعَلَه فاعلٌ تفضلاً من غير أن يجب ذلك عليه، فذلك النَفلُ الذي أحلَّه الله للمؤمنين من أموال عَدُوِّهم، وإنما هو شيءٌ خَصَّه الله به تطولاً منه عليهم، بعد أن كانت المغانم مُحَرَّمَةً على الأمم قبلهم، فَنَفَّلها الله هذه الأمة، فهذا أصل النفل(٣).

قلت: شاهد هذا في الصحيحين عن جابر: أن رسول الله ـ ﷺ ـ قال: «أعطيت خمساً لم يُعطَهُنَّ أحد قبلي. . فذكر الحديث إلى أن قال: وأحلت لي الغنائم ولم تحل لأحد قبلي»، وذكر تمام الحديث(٤).

ثم قال أبو عبيد: ولهذا سُمِّي ما جعل الإمامُ للمقاتلة نَفَلاً، وهو تفضيلُه بعضَ الجيش على بعض بشيء سوى سهامهم، يفعل ذلك بهم على قدر الغناء عن الإسلام والنِّكاية في العدوِّ. وفي النفل الذي ينفله [الإمام] سننٌ أربع، لكل واحدة منهن موضع غير موضع الأخرى:

فإحداهن في النفل لا خمس فيه: وذلك السلب.

والثانية في النفل الذي يكون من الغنيمة بعد إخراج الخمس: وهو أن يُوَجِّه الإمامُ السرايا في أرض الحرب، فتأتي بالغنائم، فيكون للسرية مما جاءت به الربع أو الثلث بعد الخمس.

والثالثة في النفل من الخمس نفسه: وهو أن تُحَازَ الغنيمةُ كلُّها، ثم تُخَمَّس، فإذا صار الخمس في يدي الإمام، نَفَّل منه على قدر ما يرى.

والرابعة في النَّفَل في جُمْلَةِ الغنيمة قبل أن يُخَمَّس منها شيءٌ وهو أن يعطى الأدلاء ورعاة الماشية والسَّوّاق لها، وفي كل ذلك اختلاف.

قال الربيع: قال الشافعي: الأنفال ألَّا يخرج من رأس الغنيمة قبل الخمس شيء غير السَّلَب(٥).

قال أبو عُبَيد: والوجه الثاني من النفل هو شيء زيدُوه غير الذي كان لهم، وذلك من خمس النبي ـ ﷺ ـ فإن له خمس الخمس من كل غنيمة، فينبغي للإمام أن يجتهد، فإذا كثر العدوّ واشتدت شوكتهم، وقل من بإزائه من المسلمين، نَفَّلَ منه اتباعاً لسنة رسول الله ـ ﷺ ـ وإذا لم يكن ذلك لم يُنَفِّل.

والوجه الثالث من النفل: إذا بعث الإمام سريةً أو جيشاً، فقال لهم قبل اللقاء: من غَنِم شيئاً فله بعد الخمس. فذلك لهم على ما شرط الإمام؛ لأنهم على ذلك غَزَوا، وبه رَضُوا. انتهى كلامه.

وفيما تقدم من كلامه وهو قوله: «إن غنائم بدر لم تُخَمَّس» نظر، ويرد عليه حديثُ علي بن أبي طالب في

(١) الأموال ٤٢٦.
(٢) كذا في الأصل، وفي غيره: جمع.
(٣) انظر الأموال لأبي عبيد ٤٢٦، ٤٢٨، ٤٣٠.
(٤) انظر تخريج الحديث عند الآية ١٣ من سورة النساء.
(٥) الأم ٤/ ٦٦.

شارِفَيه(١) اللذين حصلا له من الخمس يوم بدر، وقد بَيَّنتُ ذلك في كتاب السيرة بياناً شافياً، ولله الحمدُ.

وقولُه تعالى: ﴿فاتقوا الله وأصلحوا ذات بينكم﴾، أي: اتقوا الله في أموركم، وأصلحوا فيما بينكم ولا تظالموا ولا تخاصموا ولا تشاجروا؛ فما آتاكم الله من الهدى والعلم خير مما تختصمون بسببه، ﴿وأطيعوا الله ورسوله﴾، أي: في قَسْمِه بينكم على ما أراه الله، فإنه إنما يقسمه كما أمره الله من العدل والإنصاف.

وقال ابن عباس: هذا تحريج من الله [على المؤمنين] أن يتقوا ويصلحوا ذات بينهم. وكذا قال مجاهد.

وقال السديّ: ﴿فاتقوا الله وأصلحوا ذات بينكم﴾، أي: لا تستَبُّوا(٢).

ونذكر ها هنا حديثاً أورده الحافظ أبو يعلى أحمد بن علي بن المثنى الموصلي ـ رحمه الله ـ في مسنده فإنه قال: حدثنا مجاهد بن موسى، حدثنا عبد الله بن بكر، حدثنا عَبّاد بن شَيْبَةَ الحَبَطِيّ، عن سعيد بن أنس، عن أنس ـ رضي الله عنه ـ قال: بينا رسولُ الله ـ ﷺ ـ جالسٌ، إذ رأيناه ضَحِكَ حتى بدت ثناياه، فقال عمر: ما أضحكك ـ يا رسول الله ـ بأبي أنت وأمي؟ فقال: رجلان جَثَيا من أمتي بين يدي رَبِّ العزة تبارك وتعالى، فقال أحدهما: يا ربِّ، خُذْ لي مظلمتي من أخي. قال الله تعالى: أعط أخاك مظلمته. قال: يا ربِّ، لم يبق من حسناتي شيءٌ. قال: رَبِّ، فليحمل عني من أوزاري ـ قال: وفاضت عينا رسولِ الله ـ ﷺ ـ بالبكاء، ثم قال: إن ذلك ليومٌ عظيمٌ، يوم يحتاج الناس إلى من يتحمل عنهم من أوزارهم ـ فقال الله تعالى للطالب: ارفع بصرك فانظر في الجنان، فرفع رأسه فقال: يا ربِّ، أرى مدائن من فضة وقصوراً من ذهب مكللةً باللؤلؤ، لأيِّ نبيٍّ هذا؟ لأيِّ صديقٍ هذا؟ لأيِّ شهيدٍ هذا؟ قال: هذا لمن أعطى الثمن؟ قال: يا رب، ومن يملك ذلك؟ قال: أنت تملكُه. قال: ماذا يا رب؟ قال: تعفو عن أخيك. قال: يا ربِّ، فإني قد عفوت عنه. قال الله تعالى: خذ بيد أخيك فأدخله الجنة. ثم قال رسولُ الله ـ ﷺ ـ: «فاتقوا الله وأصلحوا ذات بينكم، فإن الله تعالى يصلح بين المؤمنين يوم القيامة»(٣).

﴿إِنَّمَا ٱلْمُؤْمِنُونَ ٱلَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ ٱللَّهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ وَإِذَا تُلِيَتْ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتُهُۥ زَادَتْهُمْ إِيمَٰنًا وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ ﴿٢﴾ ٱلَّذِينَ يُقِيمُونَ ٱلصَّلَوٰةَ وَمِمَّا رَزَقْنَٰهُمْ يُنفِقُونَ ﴿٣﴾ أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُؤْمِنُونَ حَقًّا لَّهُمْ دَرَجَٰتٌ عِندَ رَبِّهِمْ وَمَغْفِرَةٌ وَرِزْقٌ كَرِيمٌ ﴿٤﴾﴾

قال عليُّ بن أبي طلحةَ، عن ابن عباس قوله: ﴿إنما المؤمنون الذين إذا ذُكر الله وجلت قلوبهم﴾، قال: المنافقون لا يدخل قلوبَهم شيءٌ من ذكر الله عند أداءِ فرائِضِه، ولا يؤمنونَ بشيءٍ من آيات الله، ولا يتوكَّلون، ولا يُصلُّون إذا غابوا، ولا يؤدون زكاة أموالهم. فأخبر الله تعالى أنهم ليسوا بمؤمنين، ثم وصف المؤمنين فقال: ﴿إنما المؤمنون الذين إذا ذكر الله وجلت قلوبهم﴾، فأدوا فرائضه ﴿وإذا تليت عليهم آياته زادتهم إيماناً﴾، يقول: تصديقاً، ﴿وعلى ربهم يتوكلون﴾، يقول: لا يرجون غيره.

وقال مجاهد: ﴿وَجِلَتْ قلوبُهم﴾، فرقت. أي: فزعت وخافت. وكذا قال السدّيُّ وغير واحد.

(١) الشّارفان: مُثنّى شارف، وهو من الإبل المُسِنُّ والمُسِنَّةُ.
(٢) تفسير الطبري ٩/ ١٧٨.
(٣) المطالب العالية بزوائد المسانيد الثمانية ٤/ ٣٩١ ـ ٣٩٢.

وهذه صفةُ المؤمنِ حقِّ المؤمن، الذي إذا ذكر الله وجل قلبه، أي: خاف منه، ففعَلَ أوامرَه، وترَكَ زواجره، كقوله تعالى: ﴿والذين إذا فعلوا فاحشة أو ظلموا أنفسهم، ذكروا الله فاستغفروا لذنوبهم، ومن يغفرُ الذنوبَ إلا الله ولم يُصِرُّوا على ما فعلوا وهم يعلَمُون﴾. وكقوله تعالى: ﴿وأما مَن خاف مقام رَبِّه ونهى النفسَ عن الهوى. فإن الجنة هي المأوى﴾. ولهذا قال سفيان الثوري: سمعت السدِّي يقول في قوله تعالى: ﴿إنما المؤمنون الذين إذا ذكر الله وجلت قلوبهم﴾، قال: هو الرجل يريد أن يظلم ـ أو قال: يَهُمُّ بَمَعصِيةٍ ـ فيقال له: اتق الله. فَيجلُ قلبه.

وقال الثوريُّ أيضاً، عن عبدالله بن عثمان بن خُثَيم، عن شهر بن حَوْشَب، عن أم الدرداء[1] في قوله: ﴿إنما المؤمنون الذين إذا ذكر الله وجلت قلوبهم﴾، قالت: الوجل في القلب كاحتراق السَّعَفَةِ، أما تَجدُ لها قشعريرةً؟ قال: بلى. قالت لي: إذا وجدت ذلك فادعُ الله عند ذلك، فإن الدُّعاء يُذهِبُ ذلك.

وقولُه: ﴿وإذا تُلِيت عليهم آياتُه زادتهم إيماناً﴾، كقوله: ﴿وإذا ما أنزلت سورة فمنهم من يقول أيكم زادته هذه إيماناً؟ فأما الذين آمنوا فزادتهم إيماناً وهم يستبشرون﴾.

وقد استدل البخاري[2] وغيره من الأئمة بهذه الآية وأشباهها، على زيادة الإيمان وتفاضله في القلوب، كما هو مذهب جمهور الأمة، بل قد حكى الإجماع على ذلك غير واحد من الأئمة، كالشافعي، وأحمد بن حنبل، وأبي عُبَيد كما بينا ذلك مستقصى في أول شرح البخاري، ولله الحمد والمنة.

﴿وعلى ربهم يتوكلون﴾، أي: لا يرجون سواه، ولا يقصدون إلا إياه، ولا يلوذون إلا بجانبه، ولا يطلبون الحوائج إلا منه، ولا يرغبون إلا إليه، ويعلمون أنه ما شاء كان، وما لم يشأ لم يكن، وأنه المتصرف في الملك وحده لا شريك له، ولا معقب لحكمه، وهو سريع الحساب. ولهذا قال سعيد بن جبير: التوكل على الله جماع الإيمان.

وقوله: ﴿الذين يقيمون الصلاة ومما رزقناهم ينفقون﴾، ينبه بذلك على أعمالهم، بعد ما ذكر اعتقادهم. وهذه الأعمال تشمل أنواع الخير كلها، وهو إقامة الصلاة، وهو حق الله تعالى.

وقال قتادة: إقامة الصلاة: المحافظة على مواقيتها، ووضوئها، وركوعها، وسجودها.

وقال مقاتل بن حبان: إقامتها: المحافظة على مواقيتها، وإسباغ الطهور فيها، وتمام ركوعها وسجودها، وتلاوة القرآن فيها، والتشهد والصلاة على النبي ـ ﷺ ـ هذا إقامتها.

والإنفاق مما رزقهم الله يشمل إخراج الزكاة، وسائر الحقوق للعباد من واجب ومستحب، والخلق كلهم عيال الله، فأحبهم إلى الله أنفعهم لخلقه.

قال قتادةُ في قوله: ﴿ومما رزقناهم ينفقون﴾ فأنفقوا مما أعطاكم الله، فإنما هذه الأموال عَواريُّ وودائع عندك يا ابن آدم أوشكت أن تفارقها.

وقوله: ﴿أولئك هم المؤمنون حقاً﴾ أي: المتصفون بهذه الصفات هم المؤمنون حق الإيمان.

وقال الحافظ أبو القاسم الطبراني: حدثنا محمد بن عبد الله الحضرمي، حدثنا أبو كريب، حدثنا زيد بن الحباب، حدثنا ابن لهيعة، عن خالد بن يزيد السَّكْسَكي، عن سعيد بن أبي هلال، عن محمد بن أبي الجهم،

(١) هي أم الدرداء الصغرى زوج أبي الدرداء، واسمها هجيمة ويقال: جهيمة. انظر تهذيب التهذيب ١٢/ ٤٦٥، وأسد الغابة ٧/ ٣٢٧.
(٢) فتح الباري، كتاب الإيمان ١/ ٤٥.

عن الحارث بن مالك الأنصاري: أنه مَرَّ برسول الله ـ ﷺ ـ فقال له: كيف أصبحت يا حارث؟ قال: أصبحت مؤمناً حقاً. قال: انظر ما تقول، فإن لكل شيء حقيقة، فما حقيقةُ إيمانك؟ فقال: عَزَفت نفسي عن الدنيا، فأسهرت ليلي، وأظمأتُ نهاري، وكأني أنظر إلى عرش ربي بارزاً، وكأني أنظر إلى أهل الجنة يتزاورون فيها، وكأني أنظر إلى أهل النار يتضاغون(١) فيها. فقال: يا حارثُ، عرفت فالزم، ثلاثاً(٢).

وقال عمرو بن مُرَّة في قوله: ﴿أولئك هم المؤمنون حقاً﴾، إنما أنزلَ القرآن بلسان العرب، كقولك: فلان سيد حقاً، وفي القوم سادة. وفلان تاجر حقاً، وفي القوم تجار. وفلان شاعر حقاً، وفي القوم شعراء.

وقوله: ﴿لهم درجات عند ربهم﴾، أي: منازل ومقامات ودرجات في الجنات، كما قال تعالى: ﴿هم درجات عند الله والله بصير بما يعملون﴾.

﴿ومغفرة﴾، أي: يغفر لهم السيئات، ويشكر لهم الحسنات.

وقال الضحاك في قوله: ﴿لهم درجات عند ربهم﴾: أهل الجنة بعضهم فوق بعض، فيرى الذي هو فوق فضله على الذي هو أسفل منه، ولا يرى الذي هو أسفلُ أنه فُضِّل عليه أحد.

ولهذا جاء في الصحيحين أن رسول الله ـ ﷺ ـ قال: «إن أهل عِلِّيين ليراهم من أسفلَ منهم كما ترون الكوكب الغابر في أفق من آفاق السماء. قالوا: يا رسولَ الله، تلك منازل الأنبياء، لا ينالها غيرهم؟ فقال: بلى، والذي نفسي بيده رجالٌ آمنوا بالله وصَدَّقوا المرسلين»(٣).

وفي الحديث الآخر الذي رواه الإمام أحمد وأهل السنن من حديث عطية، عن أبي سعيد قال: قال رسول الله ـ ﷺ ـ: «إن أهلَ الجنة ليتراءون أهل الدرجات العُلَى كما تَرَون الكوكب الغابر في أفق السماء، وإن أبا بكر وعمر منهم وأنْعَما»(٤).

﴿ كَمَآ أَخْرَجَكَ رَبُّكَ مِنۢ بَيْتِكَ بِٱلْحَقِّ وَإِنَّ فَرِيقًا مِّنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ لَكَٰرِهُونَ ﴿٥﴾ يُجَٰدِلُونَكَ فِى ٱلْحَقِّ بَعْدَ مَا تَبَيَّنَ كَأَنَّمَا يُسَاقُونَ إِلَى ٱلْمَوْتِ وَهُمْ يَنظُرُونَ ﴿٦﴾ وَإِذْ يَعِدُكُمُ ٱللَّهُ إِحْدَى ٱلطَّآئِفَتَيْنِ أَنَّهَا لَكُمْ وَتَوَدُّونَ أَنَّ غَيْرَ ذَاتِ ٱلشَّوْكَةِ تَكُونُ لَكُمْ وَيُرِيدُ ٱللَّهُ أَن يُحِقَّ ٱلْحَقَّ بِكَلِمَٰتِهِۦ وَيَقْطَعَ دَابِرَ ٱلْكَٰفِرِينَ ﴿٧﴾ لِيُحِقَّ ٱلْحَقَّ وَيُبْطِلَ ٱلْبَٰطِلَ وَلَوْ كَرِهَ ٱلْمُجْرِمُونَ ﴿٨﴾ ﴾

قال الإمام أبو جعفر الطبري: اختلف المفسرون في السبب الجالب لهذه «الكاف» في قوله: ﴿كما أخرجك ربك﴾، فقال بعضهم: شُبِّه به في الصلاح للمؤمنين اتقاؤهم رَبَّهم، وإصلاحُهم ذاتَ بَيْنِهم، وطَاعتُهم الله ورسوله. ثم روى عن عكرمة نحو هذا.

ومعنى هذا أن الله تعالى يقول: كما أنكم لما اختلفتم في المغانم وتشاححتم فيها فانتزعها الله منكم،

---

(١) أي: يتصايحون ويبكون.

(٢) المعجم الكبير ٣/ ٢٦٦ - ٢٦٧.

(٣) فتح الباري، كتاب بدء الخلق ٦/ ٣٢٠، ومسلم، كتاب الجنة ٢١٧٧.

(٤) مسند الإمام أحمد ٣/ ٦١.

وجعلها إلى قَسْمه وقَسْم رَسُوله ـ ﷺ ـ فقسمها على العدل والتسوية، فكان هذا هو المصلحة التامة لكم. وكذلك لما كرهتم الخروج إلى الأعداء من قتال ذات الشوكة ـ وهم النفيرُ الذين خرجوا لنصر دينهم، وإحراز عِيرهم ـ فكان عاقبة كراهتكم للقتال ـ بأن قدّره لكم، وجَمَع به بينكم وبين عدوكم على غير ميعاد ـ رَشَداً وهدى، ونصراً وفتحاً، كما قال تعالى: ﴿كُتِبَ عليكم القتال وهو كره لكم وعسى أن تكرهوا شيئاً وهو خير لكم وعسى أن تحبوا شيئاً وهو شر لكم والله يعلم وأنتم لا تعلمون﴾.

قال ابن جرير: وقال آخرون: معنى ذلك: ﴿كما أخرجك رَبُّك من بيتك بالحقِّ﴾، على كره من فريق من المؤمنين، كذلك هم كارهون للقتال، فهم يجادِلُونَكَ فيه بعد ما تَبَيَّن لهم. ثم رَوَى نحوه عن مجاهد أنه قال: ﴿كما أخرجك ربك﴾، قال: كذلك يجادلونك في الحق.

وقال السدّيُّ: أنزل الله في خروجه إلى بدر ومجادلتهم إياه فقال: ﴿كما أخرجك ربك من بيتك بالحق وإن فريقاً من المؤمنين لكارهون﴾، لطلب المشركين ﴿يجادلونك في الحق بعد ما تبين﴾.

وقال بعضُهم: يسألونك عن الأنفال مجادلة، كما جادلوك يوم بدر فقالوا: «أخرجتنا للعير، ولم تعلمنا قتالاً فنستعدَّ له»[1].

قلتُ: رسولُ الله ـ ﷺ ـ إنما خَرَج من المدينة طالباً لعير أبي سفيان، التي بلغه خَبَرُها أنها صادرةٌ من الشام، فيها أموال جزيلة لقريش، فاستنهض رسولُ الله ـ ﷺ ـ المسلمين من خَفَّ منهم، فخرج في ثلاثمائة وبضعةَ عَشَرَ رجلاً، وطلب نحو الساحل مِن على طريق بدر، وعلم أبو سفيان بخروج رسول الله ـ ﷺ ـ في طلبه، فبعث ضَمْضَم بن عمرو نذيراً إلى مكة، فنهضوا في قريب من ألف مُقَنَّع[2] ما بين التسعمائة إلى الألف، وتيامن أبو سفيان بالعير إلى سِيفِ البحر فنجا، وجاء النفير فوردوا ماء بدر، وجمع الله بين المسلمين والكافرين على غير ميعاد، لما يريد الله تعالى من إعلاء كلمة المسلمين ونصرهم على عدوهم، والتفرقة بين الحق والباطل، كما سيأتي بيانُه.

والغرض أنَّ رسول الله ـ ﷺ ـ لما بلغه خروجُ النَّفِير، أوحى الله إليه بَعدهُ إحدى الطائفتين: إما العيرُ وإما النَفيرُ، ورَغِب كثير من المسلمين إلى العير، لأنه كسبٌ بلا قتال، كما قال تعالى: ﴿وَيودُّون أن غير ذات الشوكة تكون لكم، ويريدُ الله أن يحق الحقَّ بكلماتِه ويقطعَ دابر الكافرين﴾.

قال الحافظ أبو بكر بن مَرْدُويه في تفسيره: حدثنا سليمان بن أحمد الطبراني، حدثنا بكر بن سهل، حدثنا عبد الله بن يوسف، حدثنا ابن لَهيعة؛ عن يزيد بن أبي حبيب، عن أسلم أبي عمران، حدَّثه أنه سَمع أبا أيوب الأنصاري يقول: قال رسول الله ـ ﷺ ـ ونحن بالمدينة: «إني أُخبِرتُ عن عِير أبي سفيان أنها مقبلةٌ؛ فهل لكم أن نخرُجَ قِبَلَ هذه العير لعلَّ الله يُغْنِمُنَاهَا؟ فقلنا: نعم. فخرج وخرجنا، فلما سِرْنا يوماً أو يومين قال لنا: ما ترون في القوم؛ فإنهم قد أخبروا بمخرجكم؟ فقلنا: لا، والله ما لنا طاقة بقتال العدو؛ ولكنا أردنا العير. ثم قال: ما ترون في قتال القوم؟ فقلنا مثل ذلك، فقال المقداد بن عَمْرو: إذاً لا نقول لك ـ يا رسول الله ـ كما قال قومُ موسى لموسى: ﴿اذهب أنتَ وربُّك فقاتلا إنا ههنا قاعدون﴾. قال: فتمنينا ـ معشرَ الأنصار ـ أن لو قلنا كما قال المقداد أحب إلينا من أن يكون لنا مال عظيم. قال: فأنزل الله على رسوله ـ ﷺ ـ:

(١) انظر تفسير الطبري ٩/ ١٨١ ـ ١٨٢.

(٢) هو: المتغطي بالسلاح.

﴿كما أخرجَكَ ربُّك من بيتكَ بالحقِّ وإن فريقاً من المؤمنين لكارهون﴾ . . . وذكر تمام الحديث[١].

ورواه ابن أبي حاتم، من حديث ابن لَهِيعة، بنحوه.

وروى ابن مَرْدُويه أيضاً من حديث محمد بن عمرو بن علقمَةَ بن وَقَّاص اللَّيثِيِّ، عن أبيه، عن جَدِّه قال: خرج رسولُ الله ـ ﷺ ـ إلى بدر، حتى إذا كان بالروحاء ـ خطب الناس ـ فقال: كيف تَرونَ؟ فقال أبو بكر: يا رسول الله، بلغنا أنهم بمكان كذا وكذا. قال: ثم خَطَبَ الناس فقال: كيف تَرونَ؟ فقال عُمَر مثل قولِ أبي بكر، ثم خَطَبَ الناسَ فقال: كيف تَرونَ؟ فقال سعدُ بن معاذ: يا رسولَ الله، إيانا تريد؟ فوالذي أكرمك وأنزل عليك الكتاب، ما سلكتُها قَط ولا لي بها علم، ولئن سرت حتى تأتي «بِرْكَ الغُماد»[٢] من ذي يَمَنٍ لنسيرنَّ معك، ؛ ولا نكون كالذين قالوا لموسى: ﴿اذهب أنت وربك فقاتلا إنا ههنا قاعدون﴾، ولكن اذهب أنت وربُّك فقاتلا إنا معكم متبعون. ولعلك أن تكون خرجت لأمر، وأحدث الله إليك غيره، فانظر الذي أحدث الله إليك، فامض له، فَصِلْ حِبَالَ من شِئْتَ، واقطع حِبالَ من شِئْتَ، وعادِ من شِئْتَ، وسَالِمْ من شئت، وخُذْ من أموالنا ما شِئْتَ. فنزل القرآن على قول سعد: ﴿كما أخرجك ربك من بيتك بالحق وإن فريقاً من المؤمنين لكارهون﴾ . . . الآيات.

وقال العوفي، عن ابن عباس: لما شاور النبي ـ ﷺ ـ في لقاء العدو، وقال له سعد بن عُبادة ما قال، وذلك يوم بدر، أمر الناس فَتَعبَّئُوا للقتال، وأمرهم بالشوكة، فكره ذلك أهل الإيمان، فأنزل الله: ﴿كما أخرجَكَ ربك من بيتك بالحقِّ، وإنَّ فريقاً من المؤمنين لكارِهُونَ * يجادِلُونَكَ في الحقِّ بعد ما تبين كأنما يساقون إلى الموت وهم ينظرون﴾.

وقال مجاهد: يجادلونك في الحق: في القتال. وقال محمد بن إسحاق: ﴿يجادلونك في الحق﴾ أي: كراهية للقاء المشركين، وإنكاراً لِمَسير قريش حين ذكروا لهم.

وقال السدِّيُّ: ﴿يجادلونك في الحقِّ بعد ما تبيَّـنَ﴾، أي بعدَ ما تبيَّن لهم أنك لا تفعل إلا ما أمرك الله به.

قال ابن جَرير: وقال آخرون: عَنَى بذلك المشركين.

حدثني يُونُسُ، أنبأنا ابنُ وهبٍ قال: قال ابنُ زيد في قوله تعالى: ﴿يُجادلونَكَ في الحقِّ بعد ما تَبَيَّن كأنما يُساقون إلى الموت وهم يَنظرون﴾، قال: هؤلاء المشركون، جادلوه في الحق ـ ﴿كأنما يساقون إلى الموت﴾، حين يدعون إلى الإسلام ـ ﴿وهم ينظرون﴾، قال: وليس هذا من صفة الآخرين، هذه صفة مبتدأة لأهل الكفر.

ثم قال ابنُ جَرير: ولا معنى لما قاله! لأنَّ الذي قبل قوله: ﴿يجادلونك في الحق﴾ خَبَرٌ عن أهل الإيمان، والذي يتلوه خَبَرٌ عنهم، والصَّوابُ قولُ ابن عباس وابن إسحاق أنه خبر عن المؤمنين[٣].

وهذا الذي نصره ابن جرير هو الحق، وهو الذي يدل عليه سياق الكلام، والله أعلم.

وقال الإمام أحمد رحمه الله: حدثنا يحيى بن أبي بكير وعبد الرزاق قالا: حدثنا إسرائيل، عن سماك، عن عكرمة، عن ابن عباس قال: قيل لرسول الله ـ ﷺ ـ حين فَرَغَ من بدر: عليك بالعِير ليس دونها شيء،

(١) انظر الحديث بتمامه في المعجم الكبير للطبراني ٤/١٧٤ ـ ١٧٦.

(٢) موضع في أقاصي هجر، كذا في معجم ما استعجم ١/٢٤٣، وفيه أيضاً أنه موضع في الحبشة، وسيأتي هذا في خبر ابن إسحق.

(٣) انظر تفسير الطبري ٩/ ١٨٣ ـ ١٨٤.

فناداه العباس بن عبد المطلب ـ قال عبد الرزاق: وهو أسير في وثاقه ـ ثم اتفقا: إنه لا يصلح لك. قال: ولم؟ قال: لأن الله ـ عز وجل ـ إنما وعدك إحدى الطائفتين، وقد أعطاك وما وعدك[١].

إسنادٌ جيد، ولم يخرجوه[٢].

ومعنى قوله تعالى: ﴿وتودُّون أن غير ذات الشوكة تكون لكم﴾، أي: يُحِبُّونَ أن الطائفة التي لا حَدَّ لها ولا منعة ولا قتال، تكون لهم، وهي العير. ﴿ويريدُ الله أن يُحِقَّ الحقَّ بكلماته﴾، أي، هو يريد أن يجمع بينكم وبين الطائفة التي لها الشوكة والقتال، ليُظْفِركم بهم ويَنْصُرَكم عليهم، ويُظْهِرَ دينه، ويَرْفَع كَلِمَةَ الإسلام، ويجعله غالباً على الأديان، وهو أعلمُ بعواقِبِ الأمور، وهو الذي يُدَبِّركم بحسنِ تدبيره، وإن كان العباد يُحِبُّون خلاف ذلك فيما يظهر لهم، كما قال تعالى: ﴿كُتِبَ عليكم القتال وهو كره لكم، وعسى أن تكرهوا شيئاً وهو خير لكم، وعسى أن تحبوا شيئاً وهو شر لكم﴾.

وقال محمد بن إسحاق رحمه الله: حدثني محمد بن مسلم الزهري، وعاصم بن عُمَر بن قتادة، وعبدالله ابن أبي بكر، ويزيد بن رومان، عن عُروة بن الزُّبير وغيرهم من علمائنا، عن عبد الله بن عباس ـ كل قد حدثني بعض هذا الحديث، فاجتمع حديثُهم فيما سُقْتُ من حديث بدر ـ قالوا: لما سَمِع رسولُ الله ـ ﷺ ـ بأبي سفيان مقبلاً من الشام نَدَبَ المسلمين إليهم، وقال: هذه عِيرُ قريش فيها أموالُهم فاخرجُوا إليها لعلّ الله أن يُنْفِلَكُمُوها. فانتدَب الناسَ، فخفَّ بعضهم وثَقُل بعضهم، وذلك أنهم لم يظنوا أن رسول الله ـ ﷺ ـ يَلْقى حرباً، وكان أبو سفيان قد استنفر حين دنا من الحجاز يَتجسَّسُ الأخبارَ، ويسأل من لقي من الركبان، تخوفاً على أمر الناس، حتى أصاب خبراً من بعض الركبان: أن محمداً قد استنفر أصحابه لك ولعيرك، فَحَذِرَ عند ذلك، فاستأجر ضَمْضَم بن عمرو الغفاري، فبعثه إلى مكة، وأمره أن يأتي قريشاً فيستنفرهم إلى أموالهم، ويخبرهم أن محمداً قد عرض لها في أصحابه. فخرج ضَمْضَمُ بن عمرو سريعاً إلى مكة. وخَرَج رسولُ الله ـ ﷺ ـ في أصحابه حتى بَلَغَ وادياً يقال له «ذَفِرَان»[٣]، فخرجَ منه حتى إذا كان ببعضه نزل، وأتاه الخبر عن قُريش بمسيرهم ليمنعوا عيرهم، فاستشار النبي ـ ﷺ ـ الناسَ، وأخبرهم عن قريش، فقام أبو بكر ـ رضي الله عنه ـ فقال فأحسن، ثم قام عمر ـ رضي الله عنه ـ فقال فأحسن، ثم قام المقداد بن عمرو فقال: يا رسولَ الله، امض لما أمرك الله به، فنحنُ معك، والله لا نقولُ لك كما قالت بنو إسرائيل لموسى: ﴿إذهب أنت وربك فقاتلا إنا ههنا قاعدون﴾ ولكن اذهَبْ أنت وربُّك فقاتلا إنا معكما مقاتلون، فوالذي بعثك بالحق لو سرت بنا إلى «بِرْك الغِماد» ـ يعني مدينةَ الحبشة ـ لجالدنا معك من دونه حتى تبلغه. فقال له رسول الله ـ ﷺ ـ خيراً، ودعا له بخير. ثم قال رسول الله ـ ﷺ ـ: «أشيروا عَلَيَّ أيها الناس ـ وإنما يريد الأنصار ـ وذلك أنهم كانوا عَدد[٤] الناس، وذلك أنهم حين بايعوه بالعقبة قالوا: يا رسول الله، إنا برآء من ذِمَامك حتى تصل إلى دارنا، فإذا وصلت إلينا فأنت من ذِمَامنا، نمنعك مما نمنع منه أبناءنا ونساءنَا. فكان رسولُ الله ـ ﷺ ـ يتخوف ألا تكون الأنصار ترى عليها نصرته إلا ممن دهَمه بالمدينة، من عدوه، وأن ليس عليهم أن يسير بهم إلى عدوٍّ من بلادهم. فلما قال رسولُ الله ـ ﷺ ـ ذلك قال له سعدُ بن معاذ: والله لكأنك تريدُنا يا رسولَ الله؟ قال: أجل. قال: فقد آمنا بك وصدَّقناك، وشهدنا أن ما جئت به هو الحق، وأعطيناك على ذلك عهودنا ومواثيقنا على السمع والطاعة، فامض

(١) مسند الإمام أحمد ١/ ٢٢٩، ٣١٤.
(٢) كذا، وقد أخرجه الترمذي في تفسير سورة الأنفال، انظر عارضة الأحوذي ١١/ ٢٠٧ ـ ٢١١.
(٣) وادٍ بقرب المدينة. انظر معجم ما استعجم ١/ ٦١٣.
(٤) أي: جمهورهم.

يا رسول الله لما أردت، فوالذي بعثك بالحق إن استعْرَضْتَ بنا هذا البحْرَ فخضتَه لخضناه معك، ما يتخلف منا رجلٌ واحد، وما نكره أن تلقي بنا عدونا غداً، إنا لصُبُرٌ عند الحرب، صُدُقٌ عند اللقاء، ولعل الله يُريك منا تَقَرُّ بِهِ عينك، فسر بنا على بركة الله. فسُرَّ رسول الله ـ ﷺ ـ بقول سعد: ونشَّطه ذلك، ثم قال: سيروا على بركة الله وأبشروا، فإن الله قد وعدني إحدى الطائفتين، والله لكأني الآن أنظر إلى مصارع القوم»[1].

وروى العوفي عن ابن عباس نحو هذا. وكذلك قال السدّي، وقتادةُ، وعبد الرحمن بن زيد بن أسلم، وغيرُ واحد من علماء السَّلَفِ والخَلَفِ، اختصرنا أقوالهم اكتفاءً بسياق محمد بن إسحاق.

﴿ إِذْ تَسْتَغِيثُونَ رَبَّكُمْ فَاسْتَجَابَ لَكُمْ أَنِّي مُمِدُّكُم بِأَلْفٍ مِّنَ الْمَلَائِكَةِ مُرْدِفِينَ ﴿٩﴾ وَمَا جَعَلَهُ اللَّهُ إِلَّا بُشْرَىٰ وَلِتَطْمَئِنَّ بِهِ قُلُوبُكُمْ ۚ وَمَا النَّصْرُ إِلَّا مِنْ عِندِ اللَّهِ ۚ إِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴿١٠﴾ ﴾

قال الإمام أحمد: حدثنا أبو نوح قُراد، حدثنا عكرمة بن عمّار، حدثنا سماك الحَنَفي أبو زُمَيل، حدثني ابن عباس، حدثني عمر بن الخطاب ـ رضي الله عنه ـ قال: لما كان يوم بدر نظر النبي ـ ﷺ ـ إلى أصحابه، وهم ثلاثمائة ونيِّف، ونظر إلى المشركين فإذا هم ألف وزيادة، فاستقبل النبي ـ ﷺ ـ القبلة [ثم مدّ يديه][2] وعليه رداؤه وإزاره، ثم قال: اللهم [أين ما وعدتني[2]؟ اللهم] أنجز لي ما وعدتني، اللهم إن تهلك هذه العصابة من أهل الإسلام فلا تعبد في الأرض أبداً. قال: فما زال يستغيث ربه ويدعوه حتى سقط رداؤه. فأتاه أبو بكر فأخذ رداءه فردّاه[3]، ثم التزمه من ورائه، ثم قال: يا رسول الله كفاك مناشدتك ربك، فإنه سينجز لك ما وعدك. فأنزل الله عز وجل: ﴿إذْ تستغيثون ربكم فاستجاب لكم أني ممدكم بألف من الملائكة مردفين﴾. فلما كان يومئذ والتقوا، فهزم الله المشركين، فقُتِل منهم سبعون رجلاً وأسر منهم سبعون رجلاً. واستشار رسول الله ـ ﷺ ـ أبا بكر وعلياً وعمر، فقال أبو بكر: يا رسول الله، هؤلاء بنو العم والعشيرة والإخوان، وإني أرى أن تأخذ منهم الفدية، فيكون ما أخذناه منهم قُوَّةً لنا على الكفار، وعسى أن يهديهم الله فيكونوا لنا عَضُداً. فقال رسول الله ـ ﷺ ـ: ما ترى يا ابن الخطاب؟ قال، قلت: [والله[2]] ما أرى ما رأى أبو بكر، [ولكني[2]] أرى أن تُمَكِّنني من فلان ـ قريب لعمر ـ فأضرب عنقه، وتمكن علياً من عقيل فيضربَ عنقه، وتمكن حمزة من فلان ـ أخيه ـ فيضرب عنقه، حتى يعلم الله أن ليس في قلوبنا هوادة للمشركين، هؤلاء صناديدهم وأئمتهم وقادتهم. فَهَوِيَ رسول الله ـ ﷺ ـ ما قال أبو بكر، ولم يهوَ ما قلت، وأخذ منهم الفداء. فلما كان من الغد قال عمر: فَغَدوت إلى النبي ـ ﷺ ـ وأبي بكر وهما يبكيان، فقلت: يا رسول الله، ما يبكيك أنت وصاحبك؟ فإن وجدتُ بكاء بَكَيتُ، وإن لم أجد بكاء تَبَاكَيتُ لبكائكما. قال النبي ـ ﷺ ـ: للَّذي عَرض علي أصحابك من أخذهم الفداء، قد عرض عليّ عذابكم أدنى من هذه الشجرة ـ لشجرة قريبة ـ وأنزل الله ـ عز وجلّ ـ: ﴿ما كان لنبي أن يكون له أسرى حتى يثخن في الأرض﴾ إلى قوله: ﴿لولا كتاب من الله سبق لمسكم فيما أخذتم﴾ من الفداء، ثم أحل لهم الغنائم. فلما كان يوم أحد من العام المقبل عوقبوا بما صنعوا يوم بدر، من أخذهم الفداء، فقتل منهم سبعون، وفَرّ أصحابُ النبي ـ ﷺ ـ عن النبي ـ ﷺ ـ وكُسِرت رباعِيتُه، وهُشِمت البَيْضة على رأسه، وسال الدمُ على وجهه، فأنزل الله ـ عز وجلّ ـ: ﴿أوَ لما أصابتكم مصيبة قد أصبتم مثليها، قلتم: أنى هذا؟

(١) تفسير الطبري ٩/ ١٨٥ ـ ١٨٦، وسيرة ابن هشام ١/ ٦٠٦ ـ ٦٠٧.
(٢) عن المسند.
(٣) أي: ألبسه إياه.

قل: هو من عند أنفسكم، إن الله على كل شيء قدير﴾، بِأَخْذِكُم الفداء[١].

ورواه مسلم، وأبو داود، والترمذي، وابن جَرِيرٍ، وابن مَرْدُويه، من طرق، عن عكرمة بن عمار، به. وصححه علي بن المديني والترمذي، وقالا: «لا يعرف إلا من حديث عكرمة بن عمار اليماني»[١].

وهكذا رَوَى علي بن أبي طلحة والعَوفيّ، عن ابن عباس: أن هذه الآية الكريمة قوله: ﴿إذ تستغيثون ربكم﴾ أنها في دعاء النبي ـ ﷺ ـ وكذا قال زيد بن يُثَيـع، والسدِّيُّ، وابن جُرَيج[٢].

وقال أبو بكر بن عياش، عن أبي حُصَين، عن أبي صالح قال: لما كان يوم بدر جعل النبي ـ ﷺ ـ يناشد ربه أشد النِّشدةَ يدعو، فأتاه عمر بن الخطاب فقال: يا رسولَ الله، بعضَ نِشْدَتِك! فوالله ليفَيَنَّ الله لك بما وعدك[٢].

وقال البخاري في «كتاب المغازي»، باب قول الله عز وجل: ﴿إذ تستغيثون ربكم فاستجاب لكم﴾ إلى قوله: ﴿فإن الله شديد العقاب﴾:

حدثنا أبو نُعَيم، حدثنا إسرائيل، عن مُخَارق، عن طارق قال: سمعت ابن مسعود يقول: شهدتُ من المقداد بن الأسود مَشهداً لأن أكون صاحبه أحبّ إليّ مما عُدل به، أتى النبيَّ ـ ﷺ ـ وهو يدعو على المشركين، فقال: لا نقول كما قال قوم موسى لموسى: ﴿اذهب أنت وربك فقاتلا﴾، ولكن نقاتل عن يمينك وعن شمالك، وبين يديك وخلفك. فرأيت النبيّ ـ ﷺ ـ أشرق وجهه وسَرَّه.

وَحَدَّثنا محمَّد بن عبد الله بن حوشب، حدثنا عبد الوهاب، حدثنا خالد الحذاء، عن عكرمة، عن ابن عباس قال: قال رسول الله ـ ﷺ ـ يوم بدر: اللهم أنشدك عَهدك ووعدك، اللهم إن شئت لم تُعْبَد. فأخذ أبو بكر بيده، فقال: حَسْبُكَ. فخرَجَ وهو يقول: ﴿سيُهزَم الجميعُ ويولّون الدُبُر﴾[٣].

ورواه النسائي عن بُندارٍ، عن عبد الوهاب بن عبد المجيد الثَّقفي.

وقولُه تعالى: ﴿بألفٍ من الملائكةِ مُرْدِفِينَ﴾، أي: يُرْدِفُ بعضُهم بعضاً، كما قال هارون بن عَنْتَرَةَ[٤]، عن ابن عباس ﴿مُرْدفين﴾: متتابعين.

ويحتمل أن المراد ﴿مُرْدِفِينَ﴾ لكم، أي: نجدة لكم، كما قال العوفي، عن ابن عباس: ﴿مردفين﴾، يقول: المدَدَ، كما تقول: ائت الرجل فزده كذا وكذا.

وهكذا قال مجاهد، وابن كثير القارىء، وابن زيد: ﴿مردفين﴾: مُمِدِّين.

وقـال أبو كُدَينَةَ[٥]، عن قابوس، عن أبيه، عن ابن عباس ﴿ممدكم بألف من الملائكة مردفين﴾، قال: وراء كل مَلَك ملك.

---

(١) مسند الإمام أحمد ١/ ٣٠ ـ ٣١، ومسلم، كتاب الجهاد ١٣٨٣ ـ ١٣٨٥، وسنن أبي داود، كتاب الجهاد ٣/ ٦١، وعارضة الأحوذي، تفسير سورة الأنفال ١١/ ٢١١ ـ ٢١٢، وتفسير الطبري ٩/ ١٨٩.

(٢) تفسير الطبري ١/ ١٩٠.

(٣) فتح الباري، كتاب المغازي ٧/ ٢٨٧.

(٤) في الأصل: هارون بن هبيرة. وهو خطأ، والتصحيح من إحدى النسخ، وتفسير الطبري ٩/ ١٩٠، وانظر الجرح والتعديل لابن أبي حاتم ٨/ ٩٢.

(٥) هو يحيى بن المهلب، انظر الجرح ٩/ ١٨٨.

وفي رواية بهذا الإسناد: ﴿مُرْدَفِين﴾، قال: بعضُهم على أَثَرِ بعض. وكذا قال أبو ظبيان، والضحاك، وقتادة.

وقال ابن جرير: حدثني المثنى، حدثنا إسحاق، حدثنا يعقوب بن محمد الزهري، حدثني عبد العزيز بن عمران، عن الزَّمْعِيّ(١)، عن أبي الحويرث، عن محمد بن جُبَير، عن علي ـ رضي الله عنه ـ قال: نزل جبريل في ألفٍ من الملائكة عن مَيْمَنةِ النبي ـ ﷺ ـ وفيها أبو بكر. ونزل ميكائيلُ في ألفٍ من الملائكة عن مَيْسَرةِ النبي ـ ﷺ ـ، وأنا في الميسرة(٢).

وهذا يقتضي ـ لو صَحَّ إسنادُه ـ أن الألف مُرْدَفَةٌ بمثلها، ولهذا قرأ بعضهم: ﴿مُردَفين﴾ بفتح الدال، فالله أعلم.

والمشهور ما رواه علي بن أبي طلحة، عن ابن عباس قال: وأمدَّ الله نبيه ـ ﷺ ـ والمؤمنين بألف من الملائكة، فكان جبريل في خمسمائة من الملائكة مجنِّبَة، وميكائيل في خمسمائة مُجَنِّبة(٣).

وروى الإمام أبو جعفر بن جَرير، ومسلم، من حديث عكرمة بن عمار، عن أبي زُمَيل سِمَاك بن وليد الحَنَفي، عن ابن عباس، عن عمر الحديثَ المتقدِّم. ثم قال أبو زُمَيل: حَدَّثني ابن عباس قال: بينا رجلٌ من المسلمينَ يَشْتَدُّ في أَثَرِ رَجُلٍ من المشركين أمامَه، إذ سَمِعَ ضربةً بالسوطِ فَوْقَه، وصوتَ الفارسِ يقولُ: «أَقْدِمْ حَيْزُومُ»(٤). إذ نظر إلى المشرِك أمامه، فخر مستلقياً قال: فنظر إليه، فإذاهو قد خُطِمَ(٥) أنفُه، وشُقَّ وَجْهُه كضربة السوط، فاخضرَّ ذلك أجمع، فجاء الأنصاري فحدَّثَ ذلك رسولَ الله ـ ﷺ ـ فقال: صَدَقْتَ، ذلك من مَدَد السماء الثالثة، فقَتَلوا يومئذ سَبْعِين، وأَسَرُوا سَبْعِينَ(٦).

وقال البخاري: «باب شهودِ الملائكةِ بَدْراً»: حدثنا إسحاقُ بن إبراهيمَ، حدثنا جَرِيرٌ، عن يحيى بن سعيد، عن معاذ بن رفاعة بن رافع الزُّرَقي، عن أبيه ـ وكان أبوه من أهل بدر ـ قال: جاء جبريل إلى النبي ـ ﷺ ـ فقال: ما تعدّون أهلَ بدرٍ فيكم؟ قال: من أفضل المسلمين ـ أو كلمةً نحوها ـ قال: وكذلك من شهد بدراً من الملائكة(٧).

انفرد بإخراجه البخاري، وقد رواه الطبراني في المعجم الكبير(٨) من حديث رافع بن خَدِيج، وهو خطأ، والصواب رواية البخاري، والله أعلم.

وفي الصحيحين أن رسولَ الله ـ ﷺ ـ قال لعمر لما شاوره في قَتْل حاطب بن أبي بلتعة: «إنه قد شَهِد بدراً، وما يُدريكَ لعلَّ الله قد اطَّلَعَ على أهل بَدْرٍ فقال: اعملوا ما شئتم فقد غَفَرْت لكم»(٩).

قولُه تعالى: ﴿وما جعله الله إلا بشرى﴾. . . الآية، أي: وما جعل الله بعث الملائكة وإعلامه إياكم بهم

(١) في الطبري وإحدى النسخ: الربعي. والمثبت عن التهذيب، والزمعي هو موسى بن يعقوب.
(٢) تفسير الطبري ٩/ ١٩٢.
(٣) المجنِّبة: هي التي تكون في ميمنة الجيش وميسرته. وانظر تفسير الطبري ٩/ ١٩٥.
(٤) أي: يا حيزوم. وحيزوم: اسم فرس المَلَك.
(٥) الخَطْمُ: الأثر على الأنف.
(٦) مسلم، كتاب الجهاد ١٣٨٤ ـ ١٣٨٥.
(٧) فتح الباري، كتاب المغازي ٧/ ٣١١ ـ ٣١٢.
(٨) المعجم الكبير ٤/ ٢٧٧.
(٩) فتح الباري، كتاب المغازي ٧/ ٣٠٥، ومسلم، كتاب فضائل الصحابة ١٩٤١ ـ ١٩٤٢.

إلا بُشرى، ﴿ولتطمئن به قلوبكم﴾؛ وإلا فهو تعالى قادر على نصركم على أعدائكم بدون ذلك، ولهذا قال: ﴿وما النصر إلا من عند الله﴾، كما قال تعالى: ﴿فإذا لقيتم الذين كفروا فضرب الرقاب حتى إذا أثخنتموهم فشدُّوا الوثاق فإما مَنًّا بعد وإما فداءً حتى تضع الحربُ أوزارَها، ذلك ولو يشاء الله لانتصَر منهم ولكن ليبلُو بعضكم ببعض، والذين قُتِلُوا في سبيل الله فلن يُضِلَّ أعمالهم. سيهديهم ويُصْلِحُ بالهم. ويدخلهم الجنة عَرَّفها لهم﴾، وقال تعالى: ﴿وتلك الأيام نُداوِلُها بين الناس وليعلم الله الذين آمنوا ويَتَّخِذَ منكم شهداء، والله لا يحب الظالمين. وَلِيُمَحِّصَ الله الذين آمنوا ويمحقَ الكافرين﴾، فهذه حِكَمُ شَرْع الله جهاد الكفار بأيدي المؤمنين لأجلها. وقد كان تعالى إنما يعاقب الأمم السالفة المكذبة للأنبياء بالقوارع التي تعم تلك الأمة المكذبة، كما أهلك قوم نوح بالطوفان، وعاداً الأولى بالدَّبُور، وثمودَ بالصيحة، وقوم لوط بالخسف والقلب وحجارة السجيل، وقوم شُعَيب بيوم الظلة، فلما بعث الله تعالى موسى وأهلك عدوه فرعون وقومه بالغرق في اليمِّ، ثم أنزل على موسى التوراة، شرع فيها قتال الكفار، واستمر الحكم في بقية الشرائع بعده على ذلك، كما قال تعالى: ﴿ولقد آتينا موسى الكتاب من بعد ما أهلكنا القرون الأولى بصائر﴾، وقَتْلُ المؤمنين الكافرين أشد إهانة للكافرين، وأشفى لصدور المؤمنين، كما قال تعالى للمؤمنين من هذه الأمة: ﴿قاتلوهم يعذبهم الله بأيديكم، ويخزهم وينصركم عليهم، ويشف صدور قوم مؤمنين﴾، ولهذا كان قَتْلُ صناديد قريش بأيدي أعدائهم الذين ينظرون إليهم بأعين ازدرائهم أنكى لهم وأشفى لصدور حزب الإيمان. فقَتْلُ أبي جهل في معركة القتال وَحومة الوغى أشد إهانة له من أن يموتَ على فراشه بقارعة أو صاعقة أو نحو ذلك، كما مات أبو لهب ـ لعنه الله ـ بالعَدَسَة[1] بحيث لم يقربه أحد من أقاربه، وإنما غسلوه بالماء قذفاً من بعيد، ورَجَمُوه حتى دفنوه، ولهذا قال تعالى: ﴿إن الله عزيزٌ﴾، أي: له العزَّةُ ولرسوله وللمؤمنين بهما في الدنيا والآخرة، كما قال تعالى: ﴿إنا لننصر رسلنا والذين آمنوا في الحياة الدنيا ويوم يقوم الأشهاد﴾، ﴿حكيمٌ﴾ فيما شرعه من قتال الكفار، مع القدرة على دمارهم وإهلاكهم، بحوله وقوته، سبحانه وتعالى.

﴿إِذْ يُغَشِّيكُمُ ٱلنُّعَاسَ أَمَنَةً مِّنْهُ وَيُنَزِّلُ عَلَيْكُم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً لِّيُطَهِّرَكُم بِهِۦ وَيُذْهِبَ عَنكُمْ رِجْزَ ٱلشَّيْطَٰنِ
وَلِيَرْبِطَ عَلَىٰ قُلُوبِكُمْ وَيُثَبِّتَ بِهِ ٱلْأَقْدَامَ ﴿١١﴾ إِذْ يُوحِى رَبُّكَ إِلَى ٱلْمَلَٰٓئِكَةِ أَنِّى مَعَكُمْ فَثَبِّتُوا۟ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ سَأُلْقِى فِى
قُلُوبِ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ ٱلرُّعْبَ فَٱضْرِبُوا۟ فَوْقَ ٱلْأَعْنَاقِ وَٱضْرِبُوا۟ مِنْهُمْ كُلَّ بَنَانٍ ﴿١٢﴾ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ شَآقُّوا۟ ٱللَّهَ
وَرَسُولَهُۥ وَمَن يُشَاقِقِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ فَإِنَّ ٱللَّهَ شَدِيدُ ٱلْعِقَابِ ﴿١٣﴾ ذَٰلِكُمْ فَذُوقُوهُ وَأَنَّ لِلْكَٰفِرِينَ عَذَابَ
ٱلنَّارِ ﴿١٤﴾﴾

يُذَكِّرهم الله بما أنعم به عليهم من إلقائه النعاسَ عليهم، أماناً من خَوْفهم الذي حَصَل لهم من كثرة عَدُوِّهم وقلة عَدَدِهم، وكذلك فَعَل تعالى بهم يوم أُحُدٍ، كما قال تعالى: ﴿ثم أنزل عليكم من بعد الغم أَمَنَةً نعاساً يغشى طائفة منكم وطائفة قد أهمتهم أنفسهم﴾.

قال أبو طلحة: كنت ممن أصابه النعاس يوم أحد، ولقد سقط السيف من يدي مراراً يسقط وآخذه، ويسقط وآخذه، ولقد نظرت إليهم يميدون وهم تحت الحَجَف[2].

---

(١) هي بَثْرَةٌ تشبه العدسة، تخرج في مواضع من الجسد، تقتل صاحبها غالباً.
(٢) انظر تفسير الآية ١٥٤ من سورة آل عمران.

وقال الحافظ أبو يعلى: حدثنا زُهَير، حدثنا ابن مَهْديٍّ، عن شُعبَة، عن أبي إسحاقَ، عن حارثة بن مُضَرِّب، عن علي ـ رضي الله عنه ـ قال: ما كان فينا فارسٌ يوم بَدْرٍ غير المقداد، ولقد رأيتُنا وما فينا إلا نائم إلا رسولُ الله ـ ﷺ ـ يصلي تحت شجرة ويبكي حتى أصبحَ(١).

وقال سفيان الثوريُّ، عن عاصم، عن أبي رَزِين، عن عبد الله بن مسعود ـ رضي الله عنه ـ أنه قال: النعاس في القتال أمنةٌ من الله، وفي الصلاة من الشيطان(٢).

وقال قتادة: النعاسُ في الرأس، والنومُ في القلب.

قلت: أما النعاسُ فقد أصابهم يوم أحد، وأمر ذلك مشهورٌ جداً، وأما يومَ بدرٍ فهذه الآيةُ الشريفةُ إنما هي في سياق قصة بدر، وهي دالة على وقوع ذلك أيضاً، وكأن ذلك كان سجيةً للمؤمنين عند شدة البأس، لتكون قلوبهم آمنة مطمئنة بنصر الله. وهذا من فضل الله ورحمته بهم ونِعَمِهِ عليهم، وكما قال تعالى: ﴿فإنَّ مع العسر يسراً. إن مع العسر يسرا﴾، ولهذا قال في الصحيح إن رسول الله ـ ﷺ ـ لما كان يوم بدر في العريش مع الصديق ـ رضي الله عنه ـ وهما يدعوان، أخذت رسولَ الله ـ ﷺ ـ سِنَةٌ من النوم، ثم استيقظ متبسماً فقال: أبشر يا أبا بكر، هذا جبريلُ على ثناياه النَّقْعُ. ثم خرج من باب العريش وهو يتلو قوله تعالى: ﴿سيُهزَمُ الجَمْعُ ويولُّون الدُّبرُ﴾.

وقوله: ﴿وينزِّلُ عليكم من السماء ماء﴾، قال علي بن أبي طلحة، عن ابن عباس قال: نزل النبي ـ ﷺ ـ (يعني): حين سار إلى بدر ـ والمسلمون(٣) بينهم وبين الماء رملة دَعْصَةٌ(٤)، فأصاب المسلمين ضعفٌ شديدٌ، وألقى الشيطان في قلوبهم الغيظَ، يُوَسْوِسُ بينهم: تَزعمُون أنكم أولياء الله تعالى وفيكم رسوله، وقد غلبكم المشركون على الماء، وأنتم تصلون مُجْنِبين! فأمطر الله عليهم مطراً شديداً، فشَرِبَ المسلمون وتَطَهَّروا، وأذهب الله عنهم رجز الشيطان وانشفّ(٥) الرملُ حين أصابه المطر، ومشى الناسُ عليه والدواب، فساروا إلى القوم، وأمدَّ الله نبيه ـ ﷺ ـ والمؤمنين بألف من الملائكة، فكان جبريل في خمسمائة مُجَنِّبة، وميكائيل في خمسمائة مُجَنِّبة.

وكذا قال العَوْفي، عن ابن عباس: إن المشركين من قريش لما خرجُوا لينصروا العِيرَ وليقاتلوا عنها، نزلوا على الماء يوم بدر، فَغَلبوا المؤمنين عليه. فأصاب المؤمنين الظمأ، فجعلوا يصلون مُجْنِبين مُحْدِثين، حتى تعاطوا ذلك في صدورهم، فأنزل الله من السماء ماءً حتى سال الوادي، فشرب المؤمنون، وملأوا الأسقية، وسقوا الركاب. واغتسلوا من الجنابة، فجعل الله في ذلك طهوراً، وثَبَّت الأقدام. وذلك أنه كانت بينهم وبين القوم رملة، فبعث الله المطر عليها، فضربها حتى اشتدَّت، وثبتت عليها الأقدامُ.

ونحو ذلك رُوي عن قتادة، والضحاك، والسدّي.

وقد رُوي عن سعيد بن المسيب، والشعبي، والزُّهري، وعبد الرحمن بن زيد بن أسلم: أنه طَشٌّ(٦) أصابهم يوم بدر.

---

(١) مسند أبي يعلى ١/٢٤٢.
(٢) تفسير الطبري ٩/ ١٩٣.
(٣) في الأصل: «والمشركون»، انظر تفسير الطبري ٩/ ١٩٥.
(٤) هي الطائفة من الرمل مجتمعة.
(٥) في الأصل: وانكشف الرمل، والمثبت عن غيره. وفي تفسير الطبري: «وثبت الرمل».
(٦) الطش: مطر قليل فوق الرذاذ.

والمعروف أن رسول الله ـ ﷺ ـ لما سار إلى بدر، نزل على أدنى ماءٍ هناك، أي: أوَّل ماءٍ وجده، فتقدم إليه الحباب بن المنذر فقال: يا رسولَ الله، هذا المنزل الذي نزلته منزلٌ أنزلَكَهُ الله فليس لنا أن نجاوزه، أو منزل نزلته للحرب والمكيدة؟ فقال: بل منزلٌ نزلتُه للحرب والمكيدة. فقال: يا رسولَ الله، إن هذا ليس بمنزلٍ، ولكن سر بنا حتى ننزل على أدنى ماء يلي القوم، ونُغَوِّر[1] ما وراءه من القُلُب، ونستقي الحياض، فيكون لنا ماء وليس لهم ماء. فسار رسول الله ـ ﷺ ـ ففعل كذلك.

وفي مغازي «الأموي» أن الحباب لما قال ذلك نزل ملك من السماء وجبريل جالس عند رسول الله ـ ﷺ ـ فقال ذلك الملك: يا محمد، إن ربك يقرأ عليك السلام ويقول لك: إن الرأي ما أشار به «الحباب بن المنذر». فالتفت رسول الله ـ ﷺ ـ إلى جبريل ـ عليه السلام ـ فقال: هل تعرف هذا؟ فنظر إليه فقال: ما كل الملائكة أعرفهم، وإنه ملك وليس بشيطان.

وأحسن ما في هذا ما رواه الإمام محمد بن إسحاق بن يسار صاحب «المغازي» رحمه الله:

حدثني يزيد بن رُومان، عن عروة بن الزبير قال: بعث الله السماء وكان الوادي دَهْساً[2]، فأصاب رسول الله ـ ﷺ ـ وأصحابه ما لَبَّد لهم الأرض ولم يمنعهم من المسير، وأصاب قريشاً ما لم يقدروا على أن يرتحلوا معه[2].

وقال مجاهد: أنزل الله عليهم المطر قبل النعاس، فأطفأ بالمطر الغبار، وتلبَّدت به الأرضُ، وطابت نفوسهم، وثبتت به أقدامُهم.

وقال ابن جرير: حدثنا هارون بن إسحاق، حدثنا مُصعَبُ بن المقدام، حدثنا إسرائيل، حدثنا أبو إسحاق، عن حارثة، عن علي ـ رضي الله عنه ـ قال: أصابنا من الليل طَشٌّ من المطر يعني الليلة التي كانت في صبيحتها وقعة بدر ـ فانطلقنا تحت الشَّجَر والحَجَف، نستظل تحتها من المطر. وبات رسول الله ـ ﷺ ـ [[4] يدعو ربه: «اللهم، إن تهلك هذه العصابة لا تعبد في الأرض!» فلما أن طلع الفجر، نادى: الصلاة، عباد الله! فجاء الناس من تحت الشجر والحَجَف، فصلى بنا رسول الله ـ ﷺ ـ[4]] وحَرَّض على القتال[5].

وقولُه: ﴿ليطهِّركم به﴾، أي: من حدث أصغر أو أكبر، وهو تطهيرُ الظاهر، ﴿ويذهب عنكم رجز الشيطان﴾، أي: من وسوسة أو خاطر سيىء، وهو تطهير الباطن، كما قال تعالى في حق أهل الجنة: ﴿عاليهم ثيابُ سُنْدُسٍ خُضْرٍ وإستبرقٌ وَحُلُّوا أساوِرَ من فضة﴾، فهذا زينة الظاهر، ﴿وسقاهم ربهم شراباً طهوراً﴾، أي: مطهراً لما كانَ من غِلّ أو حَسَد أو تباغض، وهو زينة الباطن وطهارته.

﴿وليربط على قلوبكم﴾، أي: بالصبر والإقدام على مجالدة الأعداء، وهو شجاعة الباطن، ﴿ويثبت به الأقدام﴾، وهو شجاعة الظاهر، والله أعلم.

وقولُه: ﴿إذ يوحي ربك إلى الملائكة أني معكم فثبّتوا الذين آمنوا﴾، وهذه نعمةٌ خفيةٌ أظهرها الله تعالى لهم، ليشكروه عليها وهو أنه ـ تعالى وتقدس وتبارك وتمجد ـ أوحى إلى الملائكة الذين أنزلهم لنصر نبيه ودينه

(١) القُلُب: جمع قليب، وهي البئر، وتعويرها: سَدُّها.
(٢) سيرة ابن هشام ١/ ٦٢٠. والدهس: كل مكان لين.
(٣) الحَجَف: جمع حَجَفَةٍ، وهي الترس يكون من الجلود.
(٤) سقط من الأصول، أثبتناه عن تفسير الطبري.
(٥) تفسير الطبري ٩/ ١٩٤ ـ ١٩٥.

وحزبه المؤمنين يوحي إليهم فيما بينه وبينهم أن يثبتوا الذين آمنوا.

قال ابن إسحاق: وَازِرُوهم. وقال غيره: قاتِلُوا معهم. وقيل: كَثِّروا سَوَادهم. وقيل: كان ذلك بأن الملَك كان يأتي الرجلَ من أصحاب النبي - ﷺ - يقول: سَمِعت هؤلاء القوم - يعني المشركين - يقولون: «والله لئن حَمَلُوا علينا لنَنْكَشِفَنّ». فيحدّث المسلمون بعضُهم بعضاً بذلك، فتقوى أنفسهم. حكاه ابن جرير، وهذا لفظه بحروفه[(١)].

وقولُه: ﴿سألقي في قلوب الذين كفروا الرعب﴾، أي: ثَبِّتوا أنتم المسلمين وقَوُّوا أنفسَهم على أعدائهم، عن أمري لكم بذلك: سألقي الرعبَ والمذلّة والصَّغار على من خَالَفَ أمري، وكَذَّب رسولي، ﴿فاضربوا فوق الأعناق واضربوا منهم كل بنان﴾، أي: اضربوا الهام ففلِّقوها، واحتزُّوا الرقاب فقطِّعوها، وقَطِّعوا الأطراف منهم، وهي أيديهم وأرجلهم.

وقد اختلف المفسرون في معنى: ﴿فوق الأعناق﴾ فقيل: معناه اضربوا الرؤوس، قاله عكرمة.

وقيل: معناه ﴿فوق الأعناق﴾، أي: على الأعناق، وهي الرقاب، قاله الضحاك، وعطية العَوْفي.

ويشهَدُ لهذا المعنى أن الله تعالى أرشد المؤمنين إلى هذا في قوله تعالى: ﴿فإذا لَقيتم الذين كفروا فَضَرْبَ الرِّقاب حتى إذا أثختنموهم فشدوا الوثاق﴾.

وقال وكيع، عن المسعودي، عن القاسم قال: قال رسولُ الله - ﷺ -: «إني لم أُبعثْ لأعذِّب بعذاب الله، إنما بُعِثْتُ بِضَرْبِ الرِّقاب وشدِّ الوثاق».

واختار ابن جرير أنها قد تدل على ضرب الرقاب وفَلْق الهام.

قلت: وفي مغازي «الأموي» أن رسول الله - ﷺ - جعل يمر بين القتلى يوم بدر فيقول:

نُـفَـلِّق هـامـاً ... ...

فيقول أبو بكر:

... ... مِنْ رجالٍ أعِزّة عَلَينا، وهم كـانُـوا أعَقَّ وَأظْلَمـا[(٢)]

فيبتدىء رسول الله - ﷺ - بأول البيت، ويستطعِمُ أبا بكر - رضي الله عنه - إنشادَ آخِرِه، لأنه كان لا يحسن إنشاد الشعر، كما قال الله تعالى: ﴿وما علمناه الشعر وما ينبغي له﴾.

وقال الربيع بن أنس: كان الناسُ يومَ بدرٍ يَعْرِفون قَتْلَى الملائكة ممن قتلوا هم بضرب فوق الأعناق، وعلى البَنَان مثل سمة النار قد أُحرق به.

وقوله: ﴿واضربوا منهم كل بنان﴾، قال ابن جرير: معناه: واضربوا أيها المؤمنون من عدوكم كل طَرَفٍ ومَفْصِل من أطراف أيديهم وأرجلهم. «والبنان»: جمع بنانة، كما قال الشاعر[(٣)]:

ألا لَـيتَـني قَـطَّعتُ مِنّي بَنَـانَـةً وَلاَقَيْتُه في البَيْت يَقْظَانَ حَـاذرا

(١) تفسير الطبري ٩/ ١٩٧.
(٢) البيت للحصين بن الحمام المرّي، انظره في الشعر والشعراء ٢/ ٦٤٨.
(٣) العباس بن مرداس السلمي، والبيت في تفسير الطبري ٩/ ١٩٩، ومجاز أبي عبيدة ١/ ٢٤٢.

وقال علي بن أبي طلحة، عن ابن عباس: ﴿واضربوا منهم كُلَّ بنان﴾ يعني بالبنان: الأطراف. وكذا قال الضحاك وابن جُرَيج.

وقال السدّيُّ: البنان الأطراف، ويقال: كل مَفْصل.

وقال عكرمة، وعطية العَوْفي والضحاك ـ في رواية أخرى ـ: كل مفصل.

وقال الأوزاعيُّ في قوله تعالى: ﴿واضربوا منهم كل بنان﴾، قال: اضرِبْ منه الوجه والعين، وارمه بشهاب من نار، فإذا أخذته حرم ذلك كله عليك.

وقال العوفي، عن ابن عباس ـ فذكر قصة بدر إلى أن قال ـ: فقال أبو جهل: لا تقتلوهم قتلاً، ولكن خُذُوهم أخذاً، حتى تُعَرِّفوهم الذي صنعوا من طعنهم في دينكم، وَرَغْبَتِهم عن اللات والعزى. فأوحى الله إلى الملائكة: ﴿أني معكم، فثبتوا الذين آمنوا، سألقي في قلوب الذين كفروا الرعب، فاضربوا فوق الأعناق واضربوا منهم كل بنان﴾، فقُتِلَ أبو جهل ـ لعنه الله ـ في تسعة وستين رجلاً، وأسر عقبة بن أبي مُعيط فقتل صَبْراً، فوفّى ذلك سبعين، يعني قتيلاً.

ولذلك قال تعالى: ﴿ذلك بأنهم شَاقُّوا الله ورسوله﴾، أي: خالفوهما فساروا في شِقٍّ[1]، وتَرَكُوا الشرع والإيمان به وأتباعه في شِقٍّ ـ ومأخوذ أيضاً من شَقِّ العصا، وهو جعلها فرقتين ـ ﴿ومن يشاقق الله ورسوله فإن الله شديد العقاب﴾، أي: هو الطالب الغالب لمن خالفه وناوأه، لا يفوته شيء، ولا يقوم لغضبه شيء، تبارك وتعالى، لا إلّه سواه.

﴿ذلكم فذوقوه، وأنَّ للكافرين عذاب النار﴾ هذا خطابٌ للكفار، أي: ذُوقُوا هذا العذاب والنَّكال في الدنيا، واعلموا أيضاً أن للكافرين عذابَ النارِ في الآخرة.

﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ إِذَا لَقِيتُمُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ زَحْفًا فَلَا تُوَلُّوهُمُ ٱلْأَدْبَارَ ﴿١٥﴾ وَمَن يُوَلِّهِمْ يَوْمَئِذٍ دُبُرَهُۥٓ إِلَّا مُتَحَرِّفًا لِّقِتَالٍ أَوْ مُتَحَيِّزًا إِلَىٰ فِئَةٍ فَقَدْ بَآءَ بِغَضَبٍ مِّنَ ٱللَّهِ وَمَأْوَىٰهُ جَهَنَّمُ ۖ وَبِئْسَ ٱلْمَصِيرُ ﴿١٦﴾ ﴾

يقول تعالى متوعِّداً على الفرار من الزحف بالنار لمن فعل ذلك: ﴿يا أيها الذين آمنوا، إذا لقيتم الذين كفروا زحفاً﴾، أي: تقاربتم منهم ودنوتم إليهم، ﴿فلا تولوهم الأدبار﴾ أي: تَفِرُّوا وتتركوا أصحابكم. ﴿ومن يُوَلِّهم يومئذ دبره إلا مُتَحَرِّفاً لقتال﴾، أي: يفر بين يدي قِرْنه مَكِيدة، ليريه أنه خاف منه فيتبعه، ثم يَكُرّ عليه فيقتله، فلا بأس عليه في ذلك. نص عليه سعيد بن جبير، والسُّدِّي.

وقال الضحاك: أن يتقدم عن أصحابه ليرى غرَّه من العدو فيصيبها. ﴿أو مُتَحيِّزاً إلى فِئةٍ﴾، أي: فَرَّ من ها هنا إلى فئة أخرى من المسلمين، يعاونهم ويعاونوه، فيجوز له ذلك، حتى لو كان في سرية ففر إلى أميره أو إلى الإمام الأعظم دخل في هذه الرخصة.

قال الإمام أحمد: حدثنا حسن، حدثنا زهير، حدثنا يزيد بن أبي زياد، عن عبد الرحمن بن أبي ليلى، عن عبد الله بن عمر ـ رضي الله عنهما ـ قال: كنت في سَرِيَّة من سرايا رسول الله ـ ﷺ ـ فحاص[2] الناس

(١) الشِّق ـ بالكسر ـ: الجهة والناحية.
(٢) أي: فَرُّوا من القتال.

حَيْصة وكنت فيمن حاص، فقلنا: كيف نصنع وقد فَرَرنا من الزَّحفِ وبُؤْنا بالغضب؟ ثم قلنا: لو دخلنا المدينة فَبِتْنا؟ ثم قلنا: لو عَرَضنا أنفسنا على رسول الله - ﷺ - فإن كانت لنا توبة وإلا ذهبنا؟ فأتيناه قبل صلاة الغداة، فخرج فقال: من القوم؟ فقلنا: نحن الفرَّارون. فقال: لا، بل أنتم العَكَّارون[١]، أنا فِئَتُكم، وأنا فئة المسلمين. قال: فأتيناه حتى قَبَّلنا يده[٢].

وهكذا رواه أبو داود[٢]، والترمذيّ، وابنُ ماجه، من طُرُقٍ عن يزيدَ بن أبي زيادٍ، وقال الترمذيُّ: حَسَنٌ لا نعرفُه إلا من حَديثه[٢].

ورواه ابن أبي حاتم، من حديث يزيدَ بن أبي زياد، به، وزاد في آخره: «وقرأ رسول الله - ﷺ - هذه الآية: ﴿أو مُتَحَيِّزاً إلى فِئَةٍ﴾.

قال أهل العلم: معنى قوله: «العَكَّارون»، أي: العَطَّافون. وكذلك قال عُمَر بن الخطاب - رضي الله عنه - في أبي عُبَيد لما قُتِل على الجِسر بأرض فارس، لكثرة الجيش من ناحية المجوس، فقال عمر: لو انحاز إليَّ كنتُ له فِئةً. هكذا رواه مُحمَّد بن سيرين، عن عمر.

وفي رواية أبي عثمان النَّهدِيِّ، عن عُمَر قال: لما قتل أبو عُبَيد قال عُمَر: يا أيها الناسُ، أنا فِئَتُكم.

وقال مجاهد: قال عمر: أنا فئة كل مسلم.

وقال عبد الملك بن عُمَير، عن عمر: أيها الناس، لا تغرنكم هذه الآيةُ، فإنما كانَتْ يوم بدر، وأنا فئة لكل مسلم.

وقال ابن أبي حاتم: حدثنا أبي، حدثنا حَسَّان بن عبد الله المصري، حدثنا خَلَّاد بن سُليمان الحضرمي، حدثنا نافع: أنه سأل ابن عمر قلت: إنا قوم لا نثبت عند قتال عدونا، ولا ندري من الفئة: إمامنا أو عسكرنا؟ فقال: إن الفِئةَ رسولُ الله - ﷺ -. فقلت: إن الله يقول: ﴿إذا لقيتم الذين كفروا زحفاً﴾... الآية، فقال: إنما نزلت هذه الآية في يوم بدر، لا قبلها ولا بعدها.

وقال الضحاك في قوله: ﴿أو متحيزاً إلى فئة﴾: المتحيز: الفار إلى النبي وأصحابه، وكذلك من فر اليوم إلى أميره أو أصحابه.

فأما إن كان الفرارُ لا عن سَبَبٍ من هذه الأسباب، فإنه حَرَام وكبيرة من الكبائر، لما رواه البخاري ومسلم في صحيحيهما عن أبي هُرَيرة - رضي الله عنه قال: قال رسول الله - ﷺ -: «اجتنبوا السبع الموبقات. قيل: يا رسول الله، وما هُنّ؟ قال: «الشرك بالله، والسِّحرُ، وقتلُ النفس التي حَرَّم الله إلا بالحق، وأكل الربا، وأكل مال اليتيم، والتولِّي يوم الزحف، وقذفُ المحصناتِ الغافلاتِ المؤمناتِ»[٣].

ولهذا الحديث شواهد من وجوه أخر، ولهذا قال تعالى: ﴿فقد باء﴾، أي: رجع ﴿بغضب من الله ومأواه﴾، أي: مصيره ومنقلبه يوم ميعاده ﴿جهنم وبئس المصير﴾.

وقال الإمام أحمد: حدثنا زكريا بن عَدِيّ، حدثنا عُبَيد الله بن عَمْرو الرَّقِّي، عن زيد بن أبي أنيسة،

---

(١) قال الترمذيُّ: العَكَّارُ: الذي يفرُّ إلى إمامه لينصره، ليس يريد الفرار من الزَّحف.

(٢) مسند الإمام أحمد ٢/ ٧٠، وسنن أبي داود، كتاب الجهاد ٣/ ٤٦، وعارضة الأحوذي، أبواب الجهاد ٧/ ٢١٢ - ٢١٣، وسنن ابن ماجه، كتاب الأدب ١٢٢١.

(٣) انظر تخريج هذا الحديث عند الآية ٣١ من سورة النساء.

حدثنا جَبَلَة بن سُحَيم عن أبي المثنى العَبْدي، سمعت السَّدُوسي ـ يعني ابن الخصاصية، وهو بَشِير بن مَعْبَد ـ قال: أتيتُ النبي ـ ﷺ ـ لأبايعه، فاشترط عَلَيَّ: «شهادة أن لا إله إلا الله، وأن محمداً عبده ورسوله، وأن أُقيمَ الصلاة، وأن أؤدِّي الزكاة، وأن أَحُجَّ حَجَّةَ الإسلام، وأن أصومَ شهر رمضان، وأن أجاهِدَ في سبيل الله». فقلتُ: يا رسولَ الله، أما اثنتان فوالله لا أطيقهما: الجهاد، فإنهم زعموا أنه من وَلَّى الدُّبُر فقد باء بغَضَب من الله، فأخاف إن حضرتُ ذلك جَشِعَتْ[1] نفسي وكَرِهَتَ الموت ـ والصدقة، فوالله ما لي إلا غُنَيمَةٌ وعَشْرُ ذَوْدٍ هُنَّ رَسَلُ[2] أهلي وحَمُولتهم. فقبض رسولُ الله ـ ﷺ ـ يده، ثم حَرَّك يده، ثم قال: فلا جهادَ ولا صدقةَ، فيم تدخل الجنة إذاً؟! فقلت: يا رسول الله، أنا أبايعك. فبايعته عليهنَّ كلِّهنَّ[3].

هذا حديث غريب من هذا الوجه، ولم يخرجوه في الكتب الستة.

وقال الحافظ أبو القاسم الطبراني: حدثنا أحمد بن محمد بن يحيى بن حمزة، حدثنا إسحاق بن إبراهيم أبو النضر، حدثنا يزيد بن ربيعةَ، حدثنا أبو الأشعث، عن ثَوبان، عن النبي ـ ﷺ ـ قال: «ثلاثة لا ينفع معهن عَمَلٌ: الشرك بالله، وعقوق الوالدين، والفِرَارُ من الزَّحف»[4].

وهذا أيضاً حديث غريب جداً.

وقال الطبراني أيضاً: حدثنا العباس بن الفضل الأسفاطي، حدثنا موسى بن إسماعيلَ، حدثنا حَفْصُ بن عُمَر الشَّنِّي، حدثني عُمَر بن مُرَّة قال: سمعت بلال بن يسار بن زيد ـ مولى رسول الله ـ ﷺ ـ قال: سمعت أبي يحدث عن جَدِّي قال: قال رسول الله ـ ﷺ ـ: من قال: «أستغفر الله الذي لا إله إلا هو وأتوب إليه»، غفر له وإن كان قد فَرَّ من الزحف[5].

وهكذا رواه أبو داود، عن موسى بن إسماعيل، به. وأخرجه الترمذيّ، عن البخاري، عن موسى بن إسماعيل، به. وقال: غريب لا نعرفه إلا من هذا الوجه[6].

قلت: ولا يعرف لزيد مولى النبي ـ ﷺ ـ عنه سواه.

وقد ذهب ذاهبون إلى أن الفرار إنما كان حَرَاماً على الصحابة؛ لأنه[7] كان فرض عين عليهم. وقيل: على الأنصار خاصة، لأنهم بايعوا على السمع والطاعة في المنشَط والمكره. وقيل: إنما المرادُ بهذه الآية أهلُ بَدْرٍ خاصةً، يُرْوَى هذا عن عُمَر، وابن عُمَر، وابن عباس، وأبي هُرَيرة، وأبي سعيد وأبي نَضْرة، ونافع مولى ابن عمر، وسعيد بن جُبَير، والحسنِ البَصْرِيِّ، وعكرمة، وقتادةَ، والضحَّاكِ، وغيرهم.

وحُجَّتهم في هذا أنه لم تكن عصابةٌ لها شوكةٌ يفيئون إليها سوى عصابتهم تلك، كما قال النبي ـ ﷺ ـ: «اللهم إن تهلك هذه العصابة لا تعبد في الأرض»، ولهذا قال عبد الله بن المبارك، عن مبارك بن فضالة، عن الحسن في قوله: ﴿ومن يولهم يومئذ دبره﴾، قال: ذلك يوم بدر، فأما اليوم فإن انحاز إلى فئة أو مصر، أحسبه قال: فلا بأس عليه.

(١) الجَشَع: أسوأ الحِرْص.
(٢) الذود: ما فوق الثنتين إلى التسع. والرَّسَلُ: القطيع.
(٣) مسند الإمام أحمد ٥/ ٢٢٤.
(٤) المعجم الكبير ٢/ ٩٥.
(٥) المعجم الكبير ٥/ ٨٩.
(٦) سنن أبي داود، كتاب الصلاة ٢/ ٨٥، وعارضة الأحوذي، أبواب الدعوات ١٣/ ٨٠.
(٧) أي: الجهاد.

وقال ابن المبارك أيضاً، عن ابن لَهيعة: حدثني يزيد بن أبي حَبيب قال: أَوْجَبَ الله تعالى لمن فَرَّ يوم بدر النار، قال: ﴿ومن يُوَلِّهم يومئذ دُبُرَه إلا مُتحرِّفاً لقتال أو مُتحيِّزاً إلى فِئَةٍ فقد باء بغَضَبٍ من الله﴾، فلما كان يومُ أحد بعد ذلك قال: ﴿إن الذين تولوا منكم يوم التقى الجمعان﴾ إلى قوله: ﴿ولقد عفا الله عنهم﴾، ثم كان يوم حنين بعد ذلك بسبع سنين، قال: ﴿ثم وليتم مدبرين... ثم يتوب الله من بعد ذلك على من يشاء﴾.

وفي سنن أبي داود، والنسائي، ومستدرك الحاكم، وتفسير ابن جرير، وابن مَرْدويه، من حديث داودَ بن أبي هند، عن أبي نَضْرة، عن أبي سَعيدٍ أنه قال في هذه الآية: ﴿ومن يُوَلِّهم يومئذ دُبُره﴾: إنما أُنزلَت في أهل بَدْرٍ(١).

وهذا كلُّه لا ينفي أن يكونَ الفِرارُ من الزَّحْفِ حَراماً على غير أهل بدر، وإن كان سببُ النزولِ فيهم، كما دلَّ عليه حديث أبي هُرَيرَةَ المتقدِّم، من أنَّ الفِرار من الزَّحْفِ من الموبقات، كما هو مذهبُ الجماهير، والله أعلم.

﴿فَلَمْ تَقْتُلُوهُمْ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ قَتَلَهُمْ ۚ وَمَا رَمَيْتَ إِذْ رَمَيْتَ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ رَمَىٰ ۚ وَلِيُبْلِيَ ٱلْمُؤْمِنِينَ مِنْهُ بَلَآءً حَسَنًا ۚ إِنَّ ٱللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴿١٧﴾ ذَٰلِكُمْ وَأَنَّ ٱللَّهَ مُوهِنُ كَيْدِ ٱلْكَٰفِرِينَ ﴿١٨﴾﴾

يُبيِّن تعالى أنه خالقُ أفعالِ العباد، وأنه المحمودُ على جميع ما صَدَر عنهم من خَيرٍ، لأنه هو الذي وفقهم لذلك وأعانهم، ولهذا قال: ﴿فلم تقتلوهم ولكن الله قتلهم﴾، أي: ليس بحَوْلكم وقوتكم قتلتم أعداءكم مع كثرة عددهم وقلة عددكم، أي: بل هو الذي أظفركم عليهم كما قال تعالى: ﴿ولقد نصركم الله ببدر وأنتم أذلة﴾... الآية، وقال تعالى: ﴿لقد نصركم الله في مواطن كثيرة ويوم حنين إذ أعجبتكم كثرتكم فلم تغن عنكم شيئاً، وضاقت عليكم الأرض بما رحبت ثم وليتم مدبرين﴾، يُعلم - تبارك وتعالى - أنَّ النصرَ ليس عن كثرةِ العَدَدِ، ولا بلُبس اللَّأْمَةِ(٢) والعَدَدِ، وإنما النصرُ من عند الله تعالى، كما قال: ﴿كم من فئةٍ قليلةٍ غَلَبَتْ فئةً كثيرةً بإذنِ الله، والله مع الصابرين﴾.

ثم قال لنبيه - ﷺ - أيضاً في شأن القبضة من التراب، التي حَصَب بها وجوهَ المشركين يوم بدر، حين خرج من العريش بعد دعائه وتَضرُّعه واستكانته، فرماهم بها، وقال: «شاهَتِ الوجوهُ». ثم أمر أصحابه أن يَصْدُقُوا الحملة إثرها، ففعلوا، فأوصل الله تلك الحصباء إلى أعين المشركين، فلم يبق أحدٌ منهم إلا ناله منها ما شَغَله عن حاله. ولهذا قال: ﴿وما رميتَ إذ رميت ولكن الله رمى﴾، أي: هو الذي بلغ ذلك إليهم، وكَبَتَهُم بها لا أنت.

قال علي بن أبي طلحة، عن ابن عباس: رفع رسول الله - ﷺ - يديه، يعني يوم بدر، فقال: «يا رب إن تَهْلِكْ هذه العصابة فلن تعبد في الأرض أبداً. فقال له جبريل: «خذ قبضة من التراب [فارم بها في وجوههم] فأخذ قبضة من التراب، فرمى بها في وجوههم، فما من المشركين أحد إلا أصاب عينيه ومنخريه وفمه ترابٌ من تلك القبضة، فولوا مدبرين.

وقال السدي: قال رسول الله - ﷺ - لعلي - رضي الله عنه - يوم بدر: «أعطني حصباً من الأرض». فناوله

---

(١) سنن أبي داود، كتاب الجهاد ٣/ ٤٦، والمستدرك، كتاب التفسير ٢/ ٣٢٧، وتفسير الطبري ٩/ ٢٠١.
(٢) أي: الدرع والسلاح.

حصباً عليه تراب، فرمى به في وجوه القوم، فلم يبق مشرك إلا دخل في عينيه من ذلك التراب شيء، ثم رَدِفهم[١] المؤمنون يقتلونهم ويأسرونهم، وأنزل الله: ﴿فلم تقتلوهم ولكن الله قتلهم، وما رميتَ إذ رميتَ ولكنَّ الله رَمى﴾.

وقال أبو معشر المدني، عن محمد بن قيس ومحمد بن كعب القرظي قالا: لما دنا القوم بعضهم من بعض، أخذ رسول الله ـ ﷺ ـ قبضة من تراب، فرمى بها في وجوه القوم، وقال: «شاهت الوجوه». فدخلت في أعينهم كلهم، وأقبل أصحاب رسول الله ـ ﷺ ـ يقتلونهم ويأسرونهم، وكانت هزيمتهم في رمية رسول الله ـ ﷺ ـ فأنزل الله: ﴿وما رميت إذ رميت ولكن الله رمى﴾.

وقال عبد الرحمن بن زيد بن أسلم: ﴿وما رميت إذ رميتَ ولكن الله رمى﴾، قال: هذا يوم بدر، أخذ رسول الله ـ ﷺ ـ ثلاث حَصيات فرمى بحصاة في ميمنة القوم، وحصاة في ميسرة القوم، وحصاة بين أظهرهم، وقال: «شاهت الوجوه». فانهزموا.

وقد روى في هذه القصة عن عروةَ بن الزبير، ومجاهد، وعكرمة، وقتادة، وغير واحد من الأئمة: أنها نزلت في رمية النبي ـ ﷺ ـ يوم بدر، وإن كان قد فعل ذلك يوم حنين أيضاً.

وقال أبو جعفر بن جرير: حدثنا أحمد بن منصور، حدثنا يعقوبُ بن محمد، حدثنا عبد العزيز بن عمران، حدثنا موسى بن يعقوبَ بن عبد الله بن زَمْعَة، عن يزيدَ بن عبد الله، عن أبي بكر بن سليمان بن أبي حَثْمَةَ، عن حكيم بن حزَام قال: لما كان يومُ بدرٍ، سَمِعنا صوتاً وَقَعَ من السماء، كأنه صوتُ حصاةٍ وقعت في طَسْت، ورمى رسول الله ـ ﷺ ـ تلك الرَّمْية فانهزمنا[٢].

غريب من هذا الوجه. وها هنا قولان آخران غريبان جداً، أحدهما[٣]:

قال ابن جرير: حدثني محمد بن عوف الطائي، حدثنا أبو المغيرة، حدثنا صفوان بن عمرو، حدثنا عبد الرحمن بن جُبَير: أن رسول الله ـ ﷺ ـ يوم كان ابن أبي الحُقَيق بخيبر، دعا بقوس، فأتي بقوس طويلة، وقال: جيئوني بقوس غيرها. فجاؤوه بقوس كَبْداء[٤]، فرمى النبي ـ ﷺ ـ الحصن، فأقبل السهم يَهوِي حتى قتل ابن أبي الحُقَيق، وهو في فراشه، فأنزل الله عزَّ وجلَّ: ﴿وما رميتَ إذ رميتَ ولكنَّ الله رَمَى﴾.

وهذا غريبٌ، وإسنادهُ جَيِّدٌ إلى عبد الرحمن بن جُبَير بن نُفَير، ولعله اشتَبه عليه، أو أنه أراد أنَّ الآية تعم هذا كله، وإلا فسياق الآية في سورة الأنفال في قِصَّةِ بَدْرٍ لا محالةَ، وهذا مما لا يخفى على أئمة العلم، والله أعلم.

والثاني: روى ابن جرير أيضاً، والحاكم في مستدركه[٥]، بإسناد صحيح إلى سعيد بن المسيب والزهري أنهما قالا: أنزلت في رمية رسول الله ـ ﷺ ـ يوم أحد أُبَيّ بن خَلَفٍ بالحربة وهو في لأمته، فخدشه في تَرْقُوته، فجعل يتدأدأ عن فَرَسه مراراً، حتى كانت وفاتُه بعد أيامٍ قاسى فيها العذابَ الأليمَ، مَوصولاً بعذابِ البَرْزَخِ، المتَّصِلِ بعذابِ الآخِرَة.

(١) أي: تبعهم.
(٢) تفسير الطبري ٩/ ٢٠٤ ـ ٢٠٥.
(٣) لم نجد هذين الأثرين في تفسير الطبري.
(٤) أي: غليظة الكبد، وكَبِدُ القَوْس: فُوَيق مقبضها حيث يقع السهم.
(٥) المستدرك، كتاب التفسير ٢/ ٣٢٧.

وهذا القولُ عن هذين الإمامين غريبٌ أيضاً جدّاً، ولعلهما أرادا أنّ الآية تتناوله بعمومها، لا أنها نزلت فيه خاصة كما تقدم، والله أعلم.

وقال محمد بن إسحاق: حدثني محمد بن جَعفر بن الزبير، عن عروة بن الزُّبير في قوله: ﴿وليبلي المؤمنين منه بلاءً حسناً﴾، أي: ليُعرِّف المؤمنين من نعمته عليهم، من إظهارهم على عدوهم مع كثرة عَدُوِّهم، وقلة عَدَدِهم، ليعرفوا بذلك حَقَّه، ويشكروا بذلك نعمته[١].

وهكذا فسر ذلك ابن جرير أيضاً. وفي الحديث: «وكلّ بلاءٍ حسن أبلانا».

وقوله: ﴿إن الله سميع عليم﴾، أي: سميع: الدعاء، عليم بمن يستحق النصر والغَلَب.

وقوله: ﴿ذلكم وأن الله موهن كيد الكافرين﴾: هذه بشارةٌ أخرى مع ما حصل من النصر: أنه أعلمهم تعالى بأنه مُضْعِفُ كيد الكافرين فيما يستقبل، مُصَغِّر أمرهم، وأنهم كل ما لهم في تبار ودمار، ولله الحمد والمنة.

﴿إِن تَسْتَفْتِحُواْ فَقَدْ جَآءَكُمُ ٱلْفَتْحُ وَإِن تَنتَهُواْ فَهُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ وَإِن تَعُودُواْ نَعُدْ وَلَن تُغْنِيَ عَنكُمْ فِئَتُكُمْ شَيْـًٔا وَلَوْ كَثُرَتْ وَأَنَّ ٱللَّهَ مَعَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿١٩﴾﴾

يقول تعالى للكفار: ﴿إن تستفتحوا﴾، أي: تستنصروا وتستقضوا الله وتستحكموه أن يفصل بينكم وبين أعدائكم المؤمنين، فقد جاءكم ما سألتم، كما قال محمد بن إسحاق وغيره، عن الزُّهري، عن عبد الله بن ثعلبة بن صُعَير: أن أبا جهل قال يوم بدر: «اللهم أَقْطَعُنا للرحم، وآتانا بما لا نعرف، فَأَحِنْه[٢] الغداة. وكان ذلك استفتاحاً منه فنَزلَتْ: ﴿إن تستفتِحُوا فقد جاءكم الفتحُ﴾... إلى آخرِ الآيةِ.

وقال الإمام أحمدُ: حدثنا يزيد ـ يعني ابن هارون ـ أخبرنا محمد بن إسحاق، حدثني الزُّهري، عن عبد الله بن ثعلبةَ: أنَّ أبا جهل قال حين التقى القوم: اللهمَّ، أقطعنا للرحم، وآتانا بما لا نعرف، فَأَحِنْه[٢] الغداة. فكان المستفتحَ[٣].

وأخرجه النسائي في التفسير من حديث صالح بن كيسان، عن الزهري، به. وكذا رواه الحاكم في مستدركه من طريق الزهري، به، وقال: صحيح على شرط الشيخين، ولم يخرجاه[٤].

ورُوي هذا عن ابن عباس، ومجاهد، والضحاك، وقتادة، ويزيد بن رومان، وغير واحد.

وقال السدّيُّ: كان المشركون حين خرجوا من مكة إلى بدر، أخذوا بأستار الكعبة فاستنصروا الله وقالوا: «اللهم انصر أعلى الجندين، وأكرم الفئتين، وخير القبيلتين». فقال الله: ﴿إن تستفتحوا فقد جاءكم الفتح﴾، يقول: قد نصرت ما قلتم، وهو محمد ﷺ.

وقال عبد الرحمن بن زيد بن أسلم: هو قوله تعالى إخباراً عنهم: ﴿وإذ قالوا اللهم إن كان هذا هو الحق من عندك﴾... الآية.

(١) سيرة ابن هشام ١/ ٦٦٨، وتفسير الطبري ٩/ ٢٠٦.
(٢) أي: أهلكه.
(٣) مسند الإمام أحمد ٥/ ٤٣١.
(٤) المستدرك، كتاب التفسير ٢/ ٣٢٨.

وقوله: ﴿وإن تنتهوا﴾، أي: عما أنتم فيه من الكفر بالله والتكذيب لرسوله، ﴿فهو خير لكم﴾، أي: في الدنيا والآخرة. ﴿وإن تعودوا نعد﴾ كقوله: ﴿وإن عدتم عدنا﴾، معناه: وإن عدتم إلى ما كنتم فيه من الكفر والضلالة، نَعُدْ لكم بمثل هذه الواقعة.

وقال السدّيّ: ﴿وإن تعودوا﴾، أي: إلى الاستفتاح ﴿نعد﴾ إلى الفتح لمحمد ـ ﷺ ـ والنصر له وتظفيره على أعدائه. والأولُ أقوى.

﴿ولن تغني عنكم فئتكم شيئاً ولو كثرت﴾، أي: ولو جَمَعتم من الجموع ما عَسَى أن تجمَعُوا، فإن من كان الله معه فلا غالبَ له، فإنَّ الله مع المؤمنين، وهم الحزبُ النبويُّ، والجنابُ المصطفويُّ.

﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَطِيعُواْ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ وَلَا تَوَلَّوْاْ عَنْهُ وَأَنتُمْ تَسْمَعُونَ ﴿٢٠﴾ وَلَا تَكُونُواْ كَٱلَّذِينَ قَالُواْ سَمِعْنَا وَهُمْ لَا يَسْمَعُونَ ﴿٢١﴾ ۞ إِنَّ شَرَّ ٱلدَّوَآبِّ عِندَ ٱللَّهِ ٱلصُّمُّ ٱلْبُكْمُ ٱلَّذِينَ لَا يَعْقِلُونَ ﴿٢٢﴾ وَلَوْ عَلِمَ ٱللَّهُ فِيهِمْ خَيْرًا لَّأَسْمَعَهُمْ ۖ وَلَوْ أَسْمَعَهُمْ لَتَوَلَّواْ وَّهُم مُّعْرِضُونَ ﴿٢٣﴾ ﴾

يأمرُ تعالى عباده المؤمنين بطاعتِه وطاعةِ رسوله، ويزجُرُهم عن مخالفته والتشبُّه بالكافرين به المعاندين له، ولهذا قال: ﴿ولا تولَّوا عنه﴾، أي: تتركوا طاعته وامتثال أوامره وتَرْكَ زواجره، ﴿وأنتم تسمعون﴾، أي: بعدما علمتم ما دعاكم إليه.

﴿ولا تكونوا كالذين قالوا: سمعنا، وهم لا يسمعُون﴾، قيل: المراد المشركون. واختاره ابن جرير[1].

وقال ابن إسحاق: هم المنافقون؛ فإنهم يظهرون أنهم قد سمعوا واستجابوا، وليسوا كذلك.

ثم أخبر تعالى أن هذا الضرب من بني آدم شر الخلق والخليقة، فقال: ﴿إن شر الدواب عند الله الصم﴾، أي: عن سماع الحق ﴿البُكْم﴾ عن فَهْمه. ولهذا قال: ﴿الذين لا يعقلون﴾، فهؤلاء شر البرية، لأن كل دابة مما سواهم مطيعة لله فيما خلقها له، وهؤلاء خلقوا للعبادة فكفروا. ولهذا شبههم بالأنعام في قوله: ﴿ومثل الذين كفروا كمثل الذي ينعق بما لا يسمع إلا دعاء ونداء﴾... الآية. وقال في الآية الأخرى: ﴿أولئك كالأنعام بل هم أضل أولئك هم الغافلون﴾.

وقيل: المراد بهؤلاء المذكورين نَفَرٌ من بني عبد الدار من قريش. رُوي عن ابن عباس، ومجاهد، واختاره ابن جرير.

وقال محمد بن إسحاق: هم المنافقون.

قلت: ولا منافاة بين المشركين والمنافقين في هذا، لأن كلًّا منهم مسلوبُ الفهمِ الصَّحيح والقصدِ إلى العمل الصالح.

ثم أخبر تعالى بأنهم لا فهم لهم صحيح، ولا قصدَ لهم صحيح لو فرض أن لهم فهماً، فقال: ﴿ولو علم الله فيهم خيراً لأسمعهم﴾، أي: لأفهمْهم، وتقدير الكلام: ولكن لا خير فيهم فلم يفهمهم، لأنه يعلم أنه ﴿لو أسمعهم﴾، أي: أفهمهم ﴿لتولوا﴾ عن ذلك قصداً وعناداً بعد فهمهم ذلك، ﴿وهم معرضون﴾ عنه.

(١) تفسير الطبري ٩/ ٢١٠.

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱسْتَجِيبُواْ لِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ إِذَا دَعَاكُمْ لِمَا يُحْيِيكُمْۖ وَٱعْلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ يَحُولُ بَيْنَ ٱلْمَرْءِ وَقَلْبِهِۦ وَأَنَّهُۥٓ إِلَيْهِ تُحْشَرُونَ ﴿٢٤﴾ ﴾

قال البخاري: ﴿استجيبوا﴾: أجيبوا، ﴿لما يُحييكم﴾: لما يُصْلِحكم.

حدثنا إسحاق، حدثنا روح، حدثنا شعبة، عن خُبَيب بن عبد الرحمن قال: سمعت حَفْصَ بن عاصم يُحدِّث عن أبي سعيد بن المعلَّى قال: كنتُ أصلِّي، فمر بي رسولُ الله ـ ﷺ ـ فدعاني، فلم آتِهِ حتى صَلَّيتُ، ثم أتيته فقال: ما منعَكَ أن تأتيني؟ ألم يقل الله: ﴿يا أيها الذين آمنوا استجيبوا لله وللرسول إذا دعاكم لما يحييكم﴾، ثم قال: لأعلمَنَّك أعظم سورة في القرآن قبل أن أخرج. فذهب رسولُ الله ـ ﷺ ـ ليخرُجَ، فذكَرْت له ـ وقال معاذ: حدثنا شعبة،عن خُبَيب بن عبد الرحمن سَمِع حَفْصَ بن عاصم، سَمِع أبا سعيد رجلاً من أصحاب النبي ـ ﷺ ـ بهذا ـ وقال: ﴿الحمد لله رب العالمين﴾، السبع المثاني[١].

هذا لفظهُ بحروفِهِ، وقد تقدَّم الكلام على هذا الحديث بذكر طُرُقه في أول تفسير الفاتحة.

وقال مجاهد في قوله: ﴿لما يحييكم﴾، قال: الحق. وقال قتادة: ﴿لما يحييكم﴾، قال: هو هذا القرآن، فيه النجاة والتقاة والحياة. وقال السدِّيُّ: ﴿لما يُحييكم﴾، ففي الإسلام إحياؤُهم بعد موتهم بالكفر.

وقال محمد بن إسحاق، عن محمد بن جعفر بن الزبير، عن عروة بن الزبير: ﴿يا أيها الذين آمنوا استجيبوا لله وللرسول إذا دعاكم لما يحييكم﴾، أي: للحرب التي أعزكم الله تعالى بها بعد الذل، وقوَّاكم بها بعد الضعف، ومَنَعكم من عدوكم بعد القهر منهم لكم.

وقولُه تعالى: ﴿واعلموا أن الله يحول بين المرء وقلبه﴾، قال ابن عباس: يحول بين المؤمن وبين الكفر، وبين الكافر وبين الإيمان.

رواه الحاكم في مستدركه موقوفاً، وقال: صحيح ولم يخرجاه[٣]. ورواه ابن مردويه من وجه آخر مرفوعاً، ولا يصح لضعف إسناده، والموقوف أصح. وكذا قال مجاهد، وسعيد، وعكرمة، والضحاك، وأبو صالح، وعطية، ومقاتل بن حيان، والسدي.

وفي رواية عن مجاهد في قوله: ﴿يحول بين المرء وقلبه﴾، حتى تَرَكه لا يعقل. وقال السدي: يحول بين الإنسان وقلبه، فلا يستطيع أن يؤمن ولا يكفر إلا بإذنه. وقال قتادةُ هو كقوله: ﴿ونحنُ أقربُ إليه من حَبْلِ الوريد﴾.

وقد وَرَدَت الأحاديثُ عن رسول الله ـ ﷺ ـ بما يناسب هذه الآية:

قال الإمام أحمد: حدثنا أبو معاويةَ، عن الأعمش، عن أبي سفيان، عن أنس بن مالك ـ رضي الله عنه ـ قال: كان النبي ـ ﷺ ـ يكثر أن يقول: «يا مُقلِّبَ القلوب، ثَبِّتْ قلبي على دينك». قال، فقلنا: يا رسول الله، آمنا بك وبما جئت به، فهل تخاف علينا؟ فقال: نعم، إن القلوب بين أصبعين من أصابع الله تعالى يُقلبها[٤]».

(١) فتح الباري، تفسير سورة الأنفال ٨/ ٣٠٧ ـ ٣٠٨.
(٣) المستدرك، تفسير سورة الأنفال ٢/ ٣٢٨.
(٤) مسند الإمام أحمد ٣/ ١١٢.

وهكذا رواه الترمذي في «كتاب القدر» من جامعه، عن هَنّاد بن السري، عن أبي معاوية محمد بن حازم الضرير، عن الأعمش ـ واسمه سليمان بن مهْران ـ عن أبي سفيان ـ واسمه طلحة بن نافع ـ عن أنس، ثم قال: «حسن». وهكذا رُوِي عن غير واحد عن الأعمش، رواه بعضُهم عنه، عن أبي سفيان، عن جابر، عن النبي ـ ﷺ ـ وحديث أبي سفيان عن أنس أصح»(١).

حديث آخر، وقال الإمام عبد بن حميد في مسنده: حدثنا عبد الملك بن عمرو، حدثنا شعبة، عن الحاكم، عن ابن أبي ليلى، عن بلال ـ رضي الله عنه ـ: أن النبي ـ ﷺ ـ كان يدعو: «يا مقلِّبَ القلوب ثبت قلبي على دينك». هذا حديث جيد الإسناد إلا أن فيه انقطاعاً. وهو مع ذلك على شرط أهل السنن، ولم يخرجوه.

حديث آخر، وقال الإمام أحمدُ: حدثنا الوليد بن مسلم قال: سمعت ابن جابر يقول: حدثني بُسر بن عبد الله الحضرمي: أنه سَمع أبا إدريس الخَوْلَانِيَّ يقول: سَمِعت النُّواسَ بن سمْعان الكلابي ـ رضي الله عنه ـ يقول: سمعت رسولَ الله ـ ﷺ ـ يقول: «ما من قلب إلا وهو بين أصبعين من أصابع رب العالمين(٢) إذا شاء أن يقيمه أقامه، وإذا شاء أن يُزيغه أزاغه». وكان يقول: «يا مُقَلِّب القلوبِ، ثَبِّتْ قلوبنا على دينك»، قال: «والميزان بيد الرحمن يخفضه ويرفعه»(٣).

وهكذا رواه النسائي وابن ماجه، من حديث عبد الرحمن بن يزيد بن جابر، فذكر مثله(٤).

حديث آخر، قال الإمام أحمد: حدثنا يونس، حدثنَا حَمَّاد بن زيد، عن المعلَّى بن زياد، عن الحسن أن عائشة قالت: دعواتٌ كان رسول الله ـ ﷺ ـ يدعو بها: «يا مُقَلِّبَ القلوبِ، ثَبِّت قلبي على دينك. قالت، فقلت: يا رسولَ الله، إنك تكثر أن تدعو بهذا الدعاء. فقال: إن قلب الآدمي بين أُصبَعينِ من أصابع الله، فإذا شاء أزاغه، وإذا شاء أقامه»(٥).

حديث آخر، قال الإمام أحمد: حدثنا هاشم، حدثنا عبد الحميد، حدثني شَهرٌ، سمعت أُمَّ سلمة تحدِّث أن رسول الله ـ ﷺ ـ كان يكثر في دعائه يقول: «اللهم يا مقلِّب القلوبِ، ثَبِّت قلبي على دينك». قالت: فقلتُ: يا رسولَ الله، أو إن القلوب لتقلب؟ قال: «نعم، ما خلق الله من بشرٍ من بني آدم إلا أنَّ قلبه بين أصبعين من أصابع الله ـ عز وجل ـ فإن شاء أقامه. وإن شاء أزاغه. فنسأل الله ربنا ألَّا يُزيغَ قلوبنا بعد إذ هدانا، ونسأله أن يهب لنا من لدنه رحمة إنه هو الوهاب. قالت، قلت: يا رسولَ الله، ألا تعلمني دعوةً أدعو بها لنفسي؟ قال: بلى، قولي: اللهم رب النبيِّ محمدٍ، اغفر لي ذنبي، وأذهِب غيظ قلبي، وأجرْني من مُضِلَّات الفِتنِ ما أحييتَنِي»(٦).

حديث آخر، قال الإمام أحمد: حدثنا أبو عبد الرحمن، حدثنا حَيْوَة، أخبرني أبو هانىء: أنه سمع أبا عبد الرحمن الحُبُلِيَّ: أنه سمع عبد الله بن عمرو: أنه سمع رسول الله ـ ﷺ ـ يقول: «إن قلوب بني آدم بين

---

(١) عارضة الأحوذي، أبواب القدر ٨/٣٠٧ـ ٣٠٨.

(٢) في الأصل: «من أصابع الرحمن رب العالمين». والمثبت عن المسند، وإحدى النسخ.

(٣) مسند الإمام أحمد ٤/ ١٨٢.

(٤) سنن ابن ماجه، المقدمة ٧٢.

(٥) مسند الإمام أحمد ٦/٩١.

(٦) مسند الإمام أحمد ٦/ ٣٠١ـ ٣٠٢.

أصبعين من أصابع الرحمن، كقلب واحد يُصرِّف كيف شاء». ثم قال رسول الله ـ ﷺ ـ: «اللهم مُصرِّف القلوب،صَرِّفْ قلوبنا إلى طاعَتِكَ»(١).

انفرد بإخراجه مسلم عن البخاري، فرواه مع النسائي من حديث حَيْوَة بن شُرَيحٍ المصريِّ، به(٢).

﴿وَاتَّقُوا فِتْنَةً لَّا تُصِيبَنَّ الَّذِينَ ظَلَمُوا مِنكُمْ خَاصَّةً وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ ﴿٢٥﴾﴾

يُحذِّر تعالى عبادَه المؤمنين ﴿فتنة﴾، أي: اختباراً ومحنة، يعم بها المسيء وغيره، لا يخص بها أهل المعاصي ولا من باشر الذنب، بل يعمّهما حيث لم تدفع وترفع، كما قال الإمام أحمد:

حدثنا أبو سعيد مولى بني هاشم، حدثنا شداد بن سعيد، حدثنا غَيلانُ بن جَرير، عن مُطَرِّف قال: قلنا للزبير: يا أبا عبد الله، ما جاء بكم؟ ضيعتم الخليفة الذي قُتِل، ثم جئتم تطلبون بدمه؟ فقال الزُّبير ـ رضي الله عنه ـ: إنا قرأنا على عهد رسول الله ـ ﷺ ـ وأبي بكر وعمر وعثمان ـ رضي الله عنهم ـ: ﴿واتقوا فتنة لا تصيبن الذين ظلموا منكم خاصة﴾، لم نكن نحسب أنا أهلها حتى وَقَعَتْ منا حيث وَقَعَتْ(٣).

وقد رواه البزّار من حديث مُطَرِّف، عن الزُّبير، وقال: لا نعرف مُطَرِّفاً روى عن الزبير غير هذا الحديث(٤).

وقد روى النسائي من حديث جرير بن حازم، عن الحسن، عن الزُّبير نَحْوَ هذا.

وروى ابن جرير: حدثني الحارث، حدثنا عبد العزيز، حدثنا مبارك بن فضالة، عن الحسن قال: قال الزُّبير: لقد خُوِّفنا بها. يعني قوله: ﴿واتقوا فتنة لا تصيبن الذين ظلموا منكم خاصة﴾، ونحن مع رسول الله ـ ﷺ ـ وما ظننا أنا خُصِصْنا بها خاصة(٥).

وكذا رواه حُمَيد، عن الحسن، عن الزبير رضي الله عنه(٦).

وقال داود بن أبي هند، عن الحسن في هذه الآية قال: نزلت في علي، وعثمان(٧)، وطلحة، والزبير، رضي الله عنهم.

وقال سفيان الثوريُّ عن الصَّلْت بن دينار، عن عقبة بن صهبان، سمعت الزُّبير يقول: لقد قرأت هذه الآية زماناً وما أرانا من أهلها فإذا نحن المعنيُّون بها: ﴿واتقوا فتنةً لا تُصِيبنَّ الذين ظلموا منكم خاصةً، واعلموا أن الله شديد العقابِ﴾.

وقد رُوِي من غير وجهٍ، عن الزُّبير بن العَوَّام.

وقال السدّيُّ: نزلت في أهلِ بدْرٍ خاصّةً، فأصابتهم يومَ الجَمَلِ، فاقتتلوا.

---

(١) مسند الإمام أحمد ٢/ ١٦٨.
(٢) مسلم، كتاب القدر ٢٠٤٥.
(٣) مسند الإمام أحمد ١/ ١٦٥.
(٤) كشف الأستار عن زوائد البزّار، كتاب الفتن ٤/ ٩١.
(٥) تفسير الطبري ٩/ ٢١٩.
(٦) تفسير الطبري ٩/ ٢١٨.
(٧) في الأصول: وعمار. وأثبتنا لفظ الطبري ٩/ ٢١٨.

وقال علي بن أبي طلحة، عن ابن عباس في قوله تعالى: ﴿واتقوا فتنةً لا تُصيبن الذين ظلموا منكم خاصة﴾؛ يعني أصحاب النبي ـ ﷺ ـ خاصة.

وقال في رواية له، عن ابن عباس، في تفسير هذه الآية: أمر الله المؤمنين ألَّا يقروا المنكر بين ظَهْرَانيهم. فَيَعُمَّهم الله بالعذاب.

وهذا تفسيرٌ حَسَنٌ جداً، ولهذا قال مجاهد في قوله تعالى: ﴿واتقوا فتنة لا تصيبن الذين ظلموا منكم خاصة﴾: هي أيضاً لكم. وكذا قال الضحاك، ويزيد بن أبي حَبيبٍ، وغيرُ واحدٍ.

وقال ابن مسعود: ما منكم من أحد إلا وهو مشتمل على فتنةٍ، إن الله تعالى يقول: ﴿إنما أموالكم وأولادكم فتنة﴾، فأيكم استعاذ فليستعذ بالله من مضلات الفتن. رواه ابن جرير.

والقول بأن هذا التحذير يعمُّ الصحابة وغيرهم ـ وإن كان الخطاب معهم ـ هو الصحيحُ، ويدل على ذلك الأحاديث الواردة في التحذير من الفتن، ولذلك كتاب مستَقل يُوَضَّح فيه إن شاء الله تعالى، كما فعله الأئمة وأفردوه بالتصنيف، ومن أخص ما يذكر ها هنا ما رواه الإمام أحمد حيث قال:

حدثنا أحمد بن الحجاج، أخبرنا عبد الله، يعني ابن المبارك، أنبأنا سيف بن أبي سليمان، سمعت عَديّ ابن عَديّ الكندي يقول: حدثني مولى لنا أنه سَمع جَدِّي ـ يعني عَدِيَّ بن عميرة ـ يقول: سمعتُ رسول الله ـ ﷺ ـ يقول: «إن الله ـ عز وجل ـ لايُعذِّب العامة بِعَمَلِ الخاصة حتى يروا المنكر بين ظهرانيهم، وهم قادرون على أن يُنْكِرُوه فلا يُنْكِرُوه؛ فإذا فعلوا ذلك عَذَّب الله الخاصَّة والعامة»(١).

فيه رجل مبهم، ولم يُخْرِجُوه في الكتب الستَّةِ، ولا واحدٌ منهم، والله أعلم.

حديث آخر، قال الإمام أحمد: حدثنا سليمان الهاشمي، حدثنا إسماعيل ـ يعني ابن جعفر ـ أخبرني عمرو بن أبي عمرو، عن عبد الله بن عبد الرحمن الأشهل، عن حُذَيفة بن اليمان: أن رسول الله ـ ﷺ ـ قال: «والذي نفسي بيده لتأمُرُنَّ بالمعروف، ولتنهوُنَّ عن المنكر، أو ليوشِكَنَّ الله أن يَبْعَثَ عليكم عقاباً من عنده، ثم لتدعُنَّه فلا يَستجِيبُ لكم»(٢).

ورواه عن أبي سعيد، عن إسماعيل بن جعفر(٣)، وقال: «أو ليبعثن الله عليكم قوماً ثم تدعونه فلا يستجيب لكم».

وقال أحمد: حدثنا عبد الله بن نُمَير، حدثنا رَزِين بن حَبيبٍ الجُهَني، حدثني أبو الرُّقاد قال: خرجتُ مع مولاي، فَدُفِعتُ إلى حُذَيفة وهو يقول: إن كان الرجل ليتكلَّم بالكلمة على عهد رسول الله ـ ﷺ ـ فيصيرُ منافقاً، وإني لأسمعها من أحدكم في المقعد الواحد أربع مرات، لتأمُرُنَّ بالمعروف، ولتنهوُنَّ عن المنكر، ولَتَحَاضُّنَّ على الخير، أو لَيُسْحِتَنَّكُم الله جميعاً بعذاب، أو ليؤمِّرَنَّ عليكم شراركم، ثم يدعو خياركم فلا يُستجاب لهم(٤).

(١) مسند الإمام أحمد ٤/ ١٩٢.
(٢) مسند الإمام أحمد ٥/ ٣٨٨ ـ ٣٨٩.
(٣) لم تقع لنا هذه الرواية، والذي في المسند رواية أبي سعيد عن سليمان بن بلال، عن عمرو بن أبي عمرو، انظر ٥/ ٣٩١.
(٤) مسند الإمام أحمد ٥/ ٣٩٠.
ومعنى ليسحتنكم: ليستأصلنكم.

حديث آخر، قال الإمام أحمدُ أيضاً: حدثني يحيى بن سعيد، عن زكريا، حدثنا عامرٌ قال: سمعت النعمان بن بَشِيرٍ ـ رضي الله عنه ـ يخطب يقول ـ وأومأ بإصْبَعِه إلى أُذُنَيه ـ يقول: مثلُ القائم على حدود الله والواقع فيها ـ أو المُدْهِن فيها ـ كمثل قوم ركبوا سفينة، فأصاب بعضُهم أسفلَها وأوْعَرَها وشرَّها، وأصاب بعضُهم أعلاها، فكان الذين في أسفلها إذا استقوا الماء مَرُّوا على من فوقهم فآذَوهُم، فقالوا: «لو خَرَقْنا في نَصِيبِنا خرقاً، فاستقينا منه، ولم نُؤْذِ من فوقنا» فإن تركوهم وأمرهم هَلَكُوا جميعاً، وإن أخذوا على أيديهم نَجَوا جميعاً»(١).

انفرد بإخراجه البخاري دون مسلم، فرواه في «الشركة» و«الشهادات»، والترمذي في «الفتن»، من غير وجه، عن سليمان بن مهران الأعمش، عن عامر بن شَرَاحيل الشعبي، به(٢).

حديث آخر، قال الإمام أحمد: حدثنا حُسَين، حدثنا خَلَف بن خَلِيفة، عن ليث، عن علقمة بن مَرْثد، عن المعرور بن سُوَيد، عن أم سلمة زوجِ النبي ـ ﷺ ـ قالت: سَمِعتُ رسولَ الله ـ ﷺ ـ يقول: «إذا ظَهَرتِ المعاصي في أُمَّتي، عَمَّهم الله بعذاب من عنده. فقلت: يا رسولَ الله، أما فيهم أناسٌ صالحون؟ قال: بلى. قالت: فكيف يَصنعُ أولئك؟ قال: يُصِيبهم ما أصابَ الناسَ، ثم يصيرون إلى مغفرةٍ من الله ورضوان»(٣).

حديث آخر، قال الإمام أحمد: حدثنا حجاج بن محمد، أخبرنا شريك، عن أبي إسحاق، عن المنذر بن جرير، عن أبيه قال: قال رسولُ الله ـ ﷺ ـ: «ما من قوم يعملون بالمعاصي، وفيهم رجل أعزّ منهم وأمنع لا يغيرون، إلا عَمَّهم الله بعقاب ـ أو: أصابهم العقاب»(٤).

ورواه أبو داود، عن مُسَدَّد، عن أبي الأحوص، عن أبي إسحاق، به(٤).

وقال أحمد أيضاً: حدثنا محمد بن جعفر، حدثنا شعبةُ، سمعتُ أبا إسحاق يحدِّث، عن عُبيد الله بن جَرير، عن أبيه. أن رسولَ الله ـ ﷺ ـ قال: «ما من قومٍ يُعْمَل فيهم بالمعاصي، هم أعزُّ وأكثر ممن يعمله، لم يغيروه، إلا عَمَّهم الله بعقاب»(٥).

ثم رواه أيضاً عن وكيع، عن إسرائيل ـ وعن عبد الرزاق، عن معمر ـ وعن أسود، عن شريك ويونس ـ كلهم عن أبي إسحاق السبيعي(٥)، به.

وأخرجه ابن ماجه، عن علي بن محمد، عن وكيع، به(٥).

وقال الإمام أحمد: حدثنا سفيان، حدثنا جامع بن أبي راشد، عن مُنذِرٍ، عن حسن بن محمد، عن امرأته، عن عائشة تبلغُ به النبيَّ ـ ﷺ ـ: «إذا ظهر السوءُ في الأرض، أنزل الله بأهلِ الأرضِ بأسه. قالت: وفيهم أهلُ طاعة الله؟ قال: نعم، ثم يصيرون إلى رحمةِ الله»(٦).

﴿وَٱذْكُرُوٓاْ إِذْ أَنتُمْ قَلِيلٌ مُّسْتَضْعَفُونَ فِى ٱلْأَرْضِ تَخَافُونَ أَن يَتَخَطَّفَكُمُ ٱلنَّاسُ فَـَٔاوَىٰكُمْ وَأَيَّدَكُم بِنَصْرِهِۦ

(١) مسند الإمام أحمد ٤/ ٢٦٩.
ومعنى المدهن: الذي يرائي، ويضيع الحقوق، ولا يغيِّر المنكر.

(٢) فتح الباري، كتاب الشركة ٥/ ١٣٢، وكتاب الشهادات ٥/ ٢٩٢ ـ ٢٩٣. وعارضة الأحوذي، أبواب الفتن ٩/ ١٩.

(٣) مسند الإمام أحمد ٦/ ٣٠٤.

(٤) مسند الإمام أحمد ٤/ ٣٦١، وسنن أبي داود، كتاب الملاحم ٤/ ١٢٢ ـ ١٢٣.

(٥) مسند الإمام أحمد ٤/ ٣٦٤، ٣٦٦، وسنن ابن ماجه، كتاب الفتن ١٣٢٩.

(٦) مسند الإمام أحمد ٦/ ٤١.

وَرَزَقَكُم مِّنَ ٱلطَّيِّبَٰتِ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴿٢٦﴾﴾

يُنَبِّه تعالى عبادَه المؤمنين على نعَمه عليهم وإحسانه إليهم، حيث كانوا قليلين فَكَثّرهم، ومُسْتَضعفِين خائفين فقوّاهم ونَصرهم، وفقراءَ عالةً فرزقهم من الطيبات. واستشكرهم فأطاعوه وامتثلوا جميع ما أمرهم. وهذا كان حالَ المؤمنين حالَ مقامهم بمكة قليلين مستخفين مُضطرِّين، يخافون أن يتخطَّفَهم الناسُ مِن سائر بلاد الله، من مشرك ومجوسيٍّ وروميٍ، كُلُّهم أعداءٌ لهـم لِقِلَّتهم وعدم قوتهم، فلم يزل ذلك دَأْبَهم حتى أذِن لهم في الهجرة إلى المدينة، فآواهم إليها، وقَيَّض لهم أهلَها، آووا ونَصَروا يوم بدر وغيره وآسَوا بأموالهم، وبَذَلوا مُهَجَهم في طاعة الله وطاعة رسوله.

قال قتادةُ بن دِعامة السَّدُوسِيُّ ـ رحمه الله ـ في قوله تعالى: ﴿واذكروا إذ أنتم قليل مستضعفون في الأرض﴾، قال: كان هذا الحيُّ مِن العَرَب أذلَّ الناس ذلاًّ، وأشقاه عيشاً، وأجوعه بطوناً، وأعراه جلوداً، وأبينه ضلالاً، من عاشَ منهم عاشَ شقياً، ومن مات منهم رُدِّيَ في النار، يؤكلون ولا يأكلون. والله ما نَعْلم قبيلاً من حاضر أهل الأرض يومئذ كانوا أشر منزلاً منهم، حتى جاء الله بالإسلام فَمَكَّن به في البلاد، وَوَسَّع به في الرزق، وجعلهم به ملوكاً على رقاب الناس. وبالإسلام أعطى الله ما رأيتم. فاشكروا لله نعمه، فإن ربكم منعمٌ يحبُّ الشكر، وأهل الشكر في مزيد من الله[(١)].

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا تَخُونُوا۟ ٱللَّهَ وَٱلرَّسُولَ وَتَخُونُوٓا۟ أَمَٰنَٰتِكُمْ وَأَنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿٢٧﴾ وَٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّمَآ أَمْوَٰلُكُمْ وَأَوْلَٰدُكُمْ فِتْنَةٌ وَأَنَّ ٱللَّهَ عِندَهُۥٓ أَجْرٌ عَظِيمٌ ﴿٢٨﴾﴾

قال عبد الله بن أبي قتادة والزُّهري: أُنزلَتْ في أبي لبابة بن عبد المنذر، حين بعثه رسولُ الله ـ ﷺ ـ إلى بني قُرَيظة لينزلوا على حكم رسولِ الله ـ ﷺ ـ فاستشاروه في ذلك، فأشار عليهم بذلك ـ وأشار بيده إلى حلقه ـ أي: إنه الذَّبح. ثم فطِن أبو لبابة، ورأى أنه قد خان الله ورسوله، فحلف لا يذوق ذَواقاً حتى يموتَ أو يتوب الله عليه. وانطلق إلى مسجد المدينة، فَربط نفسه في ساريةٍ منه، فمكث كذلك تسعة أيام، حتى كان يَخِرُّ مغشياً عليه من الجَهْدِ، حتى أنزل الله توبتَه على رسوله. فجاء الناس يُبَشِّرونه بتوبة الله عليه، وأرادوا ليحلّوه من السارية، فحلف لا يَحُلُّه منها إلا رسولُ الله ـ ﷺ ـ بيده، فَحلّه، فقال: يا رسولَ الله، إني كنت نذرت أن أنخلع من مالي صدقةً. فقال: «يجزيك الثلثُ أن تصدق به»[(٢)].

وقال ابن جرير: حدثني الحارثُ، حدثنا عبد العزيز، حدثنا يونُس بن الحارث الطائفيّ، حدثنا مُحمَّد بن عبيد الله أبو عون الثقفي، عن المغيرة بن شعبة قال: نزلت هذه الآيةُ في قتل عثمان ـ رضي الله عنه ـ: ﴿يا أيها الذين آمنوا لا تخونوا الله والرسول﴾... الآية[(٣)].

وقال ابنُ جَرير أيضاً: حدثنا القاسم بن بشر بن معروف، حدثنا شَبَابَةُ بن سَوَّار، حدثنا محمد بن المحرم قال: لقيتُ عطاء بن أبي رباح فحدَّثني قال: حدثني جابر بن عبد الله: أن أبا سفيان خَرَجَ من مكة، فأتى جبريل رسول الله ـ ﷺ ـ فقال: إنَّ أبا سفيان بمكان كذا وكذا. فقال رسول الله ـ ﷺ ـ لأصحابه: إن أبا سفيان في

(١) تفسير الطبري ٩/ ٢٢٠.
(٢) انظر خبر أبي لبابة في سيرة ابن هشام ٢/ ٢٣٦ ـ ٢٣٧، وتفسير الطبري ٩/ ٢٢١، ومسند الإمام أحمد ٣/ ٤٥٢ ـ ٤٥٣، ٥٠٢.
(٣) تفسير الطبري ٩/ ٢٢٢. وفيه: محمد بن عبد الله بن عون. وهو خطأ، انظر الجرح والتعديل لابن أبي حاتم ٨/ ١.

موضع كذا وكذا، فاخرجوا إليه واكتُموا. فكتب رجل من المنافقين إليه: «إن محمداً يريدكم، فَخُذُوا حِذْرَكم». فأنزل الله: ﴿لا تخونوا الله والرسول وتخونوا أماناتكم﴾(١) الآية.

هذا حديثٌ غريبٌ جداً، وفي سنده وسياقه نظر.

وفي الصحيحين(٢) قصة «حاطب بن أبي بلتعة» أنه كتب إلى قُرَيش يُعلِمُهم بِقَصْدِ رسولِ الله - ﷺ - إياهم عام الفتح، فأطلع الله رسوله على ذلك، فبعث في إثر الكتاب فاسترجعه، واستحضَرَ حاطباً فأقر بما صنع، فقام عمر بن الخطاب فقال: يا رسولَ الله، ألا أضربُ عنقه، فإنه قد خان الله ورسوله والمؤمنين؟ فقال: «دَعْهُ، فإنه قد شَهِدَ بدراً، وما يدريك لعل الله اطَّلَعَ على أهلِ بَدْرٍ فقال: اعمَلُوا ما شئتم فقد غَفَرْتُ لكم».

قلت: والصحيحُ أنَّ الآية عامةٌ، وإن صَحَّ أنها وَرَدَتْ على سبب خاص، فالأخذُ بعمومِ اللفظ لا بخصوص السبب عند الجماهير من العلماء. والخيانةُ تعم الذنوبَ الصِّغار والكبار اللازمة والمتعدية.

وقال علي بن أبي طلحة، عن ابن عباس: ﴿وتخونوا أماناتكم﴾: «الأمانة» الأعمال التي ائتمن عليها العباد، يعني الفريضة. يقول: لا تخونوا: ولا تنقضُوها. وقال في رواية أخرى: ﴿لا تخونوا الله والرسول﴾، يقول: بترك سنته وارتكاب معصيته.

وقال محمد بن إسحاق: حدثني محمد بن جعفر بن الزبير، عن عروة بن الزبير في هذه الآية، أي: لا تظهروا لله من الحق ما يرضى به منكم، ثم تخالفوه في السر إلى غيره؛ فإن ذلك هلاكٌ لأماناتكم، وخيانةٌ لأنفسكم.

وقال السدِّيُّ: إذا خانوا الله والرسولَ فقد خانُوا أماناتهم. وقال أيضاً: كانوا يسمعون من النبي - ﷺ - الحديث فيفشونه حتى يبلغ المشركين.

وقال عبد الرحمن بن زيد: نهاكم أن تخونوا الله والرسول، كما صَنَع المنافقون.

وقولُه تعالى: ﴿واعلموا أنما أموالكم وأولادكم فتنةٌ﴾، أي: اختبار وامتحان منه لكم؛ إذ أعطاكُمُوها لِيَعلَمَ أتشكرونه عليها وتُطيعونه فيها؟ أو تَشْتَغِلُون بها عنه، وتعتاضُون بها منه، كما قال تعالى: ﴿إنما أموالكم وأولادكم فتنةٌ والله عنده أجر عظيم﴾، وقال: ﴿ونبلوكم بالشرِّ والخير فتنةً﴾، وقال تعالى: ﴿يا أيها الذين آمنوا، لا تلهكم أموالكم ولا أولادكم عن ذكر الله، ومن يفعل ذلك فأولئك هم الخاسرون﴾، وقال تعالى: ﴿يا أيها الذين آمنوا، إن من أزواجكم وأولادكم عدواً لكم فاحذروهم﴾ . . . الآية.

وقوله: ﴿وأن الله عنده أجر عظيم﴾، أي: ثوابُه وعطاؤُه وجناتُه خيرٌ لكم من الأموال والأولاد، فإنه قد يُوجَدُ منهم عَدُوٌّ، وأكثرهم لا يُغني عنك شيئاً، والله - سبحانه - هو المتصرفُ المالك للدنيا والآخرة، ولديه الثواب الجزيل يوم القيامة. وفي الأثر يقول تعالى: «ابن آدم، اطلبني تَجِدْني، فإن وَجَدْتني وجدت كل شيء، وإن فُتُّكَ فاتك كل شيء، وأنا أَحبُّ إليك من كل شيء». وفي الصحيح عن رسول الله - ﷺ -: «ثلاثٌ من كنَّ فيه وَجَد بهنَّ حلاوةَ الإيمان: من كان الله ورسولُه أَحبَّ إليه مما سواهما، ومن كان يحبُّ المرءَ لا يُحبُّه إلا لله، ومن كان أن يُلْقَى في النار أحبَّ إليه من أن يَرجِعَ إلى الكفرِ بعدَ إذْ أنقذه الله منه»(٣). بل حُبُّ الله ورسولِه مقدَّم على

(١) تفسير الطبري ٩/ ٢٢١.

(٢) تقدم الحديث عند الآية التاسعة من هذه السورة، وخرجناه هنالك.

(٣) فتح الباري، كتاب الإيمان ١/ ٦٠، ومسلم، كتاب الإيمان ٦٦.

الأولاد والأموال والنفوس، كما ثبت في الصحيح أنه ـ عليه السلام ـ قال: «والذي نفسي بيده، لا يُؤمن أحدكم حتى أكونَ أحبَّ إليه من نفسِه وماله والناس أجمعينَ»(١).

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِن تَتَّقُواْ ٱللَّهَ يَجۡعَل لَّكُمۡ فُرۡقَانٗا وَيُكَفِّرۡ عَنكُمۡ سَيِّـَٔاتِكُمۡ وَيَغۡفِرۡ لَكُمۡۗ وَٱللَّهُ ذُو ٱلۡفَضۡلِ ٱلۡعَظِيمِ ٢٩﴾

قال ابن عباس، والسدي، ومجاهد، وعكرمة، والضحاك، وقتادة، ومقاتل بن حيان: ﴿فرقاناً﴾، مخرجاً. زاد مجاهد: «في الدنيا والآخرة».

وفي رواية عن ابن عباس: «فرقاناً»: نجاة. وفي رواية عنه: نصراً.

وقال محمد بن إسحاق: ﴿فُرقاناً﴾، أي: فَصْلاً بين الحقِّ والباطل.

وهذا التفسيرُ من ابن إسحاق أعمُّ مما تقدَّم، وقد يستلزم ذلك كلَّه، فإن من اتَّقى الله بِفِعْل أوامره وتَرْكِ زواجره، وُفِّق لمعرفة الحق من الباطل، فكان ذلك سبَب نَصْره ونجاته ومَخْرَجه من أمور الدنيا، وسَعادَته يوم القيامة. وتكفير ذنوبه ـ وهو مَحْوُها، وَغَفْرُها: سترها عن الناس ـ سبباً لنيل ثواب الله الجزيل، كما قال تعالى: ﴿يا أيها الذين آمنوا، اتقوا الله وآمنوا برسوله، يؤتكم كفلين من رحمته، ويجعل لكم نوراً تمشون به، ويغفر لكم، والله غفور رحيم﴾.

﴿وَإِذۡ يَمۡكُرُ بِكَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لِيُثۡبِتُوكَ أَوۡ يَقۡتُلُوكَ أَوۡ يُخۡرِجُوكَۚ وَيَمۡكُرُونَ وَيَمۡكُرُ ٱللَّهُۖ وَٱللَّهُ خَيۡرُ ٱلۡمَٰكِرِينَ ٣٠﴾

قال ابن عباس، ومجاهد، وقتادة: ﴿لِيُثْبِتُوك﴾، لِيُقَيِّدُوك. وقال عطاء، وابن زيد: ليحبسوك. وقال السدِّيُّ: «الإثبات» هو الحبس والوثاق. وهذا يشمل ما قاله هؤلاء وهؤلاء. وهو يجمع الأقوال، وهو الغالب من صنيع من أراد غيره بسوء.

وقال سُنَيد، عن حَجَّاج، عن ابن جُرَيج، قال عطاء: سمعت عُبَيد بن عُمَير يقول: لما ائتمروا بالنبي ـ ﷺ ـ ليثبتوه أو يقتلوه أو يخرجوه، قال له عمُّه أبو طالب: هل تَدْرِي ما ائتَمَروا بك؟ قال: يريدون أن يَسْحَروني أو يقتلوني أو يُخرِجوني. فقال: من أخبرك بهذا؟ قال: ربِّي. قال: نعم الربُّ ربك، استوص به خيراً. فقال: أنا أستوصي به؟! بل هو يستوصي بي.

وقال أبو جعفر بن جرير: حدثني محمد بن إسماعيل البصري(٢) المعروف بالْوَسَاوِسِيِّ، أخبرنا عبد الحميد بن أبي روَّاد، عن ابن جُرَيج، عن عطاء، عن عُبَيد عن عُمَير، عن المطَّلب بن أبي وَدَاعة: أن أبا طالب قال لرسول الله ـ ﷺ ـ: ما يأتمر بك قومك؟ قال: يريدون أن يَسْحروني أو يقتلوني أو يُخرِجوني. فقال: من أخبرك بهذا؟ قال: قال: ربي. قال: نعم الرب ربك، فاستوص به خيراً. قال: أنا أستوصي به؟! بل هو يستوصي بي. قال: فنزلت: ﴿وإذ يمكر بك الذين كفروا ليثبتوك أو يقتلوك أو يخرجوك﴾ الآية.

وَذِكْرُ أبي طالب في هذا غريبٌ جداً، بل منكَرٌ، لأن هذه الآية مدنية، ثم إن هذه القصة واجتماعَ قريش

(١) أخرجاه في كتاب الإيمان، فتح الباري ١/ ٥٨، ومسلم ٦٧.
(٢) في الأصول: المصري. والمثبت عن تفسير الطبري ٩/٢٢٧، والجرح والتعديل لابن أبي حاتم ٧/١٩٠.

على هذا الإئتمار والمشاورة على الإثبات أو النفي أو القتل، إنما كان ليلة الهجرة سواء، وكان ذلك بعد موت أبي طالب بنحو من ثلاث سنين، لمَّا تمكنوا منه واجترءُوا عليه بعد موت عمه أبي طالب، الذي كان يَحُوطُه وَيَنْصُره ويقومُ بأعبائه. والدليلُ على صحة ما قلنا ما رواه الإمام محمدُ بن إسحاقَ بن يسار صاحبُ «المَغازِي» عن عبد الله بن أبي نَجيح، عن مجاهد، عن ابن عباس ـ قال: وحدثني الكلبي، عن باذان مولى أم هانىء، عن ابن عباس: أن نفراً من قريش من أشراف كل قبيلة، اجتمعوا ليدخلوا دار الندوة، فاعترضهم إبليس في صورة شيخ جليل، فلما رأوه قالوا: من أنت؟ قال: شيخ من نجد، سمعت أنكم اجتمعتم، فأردت أن أحضركم ولن يَعْدَمكم رأيي ونصحي. قالوا: أجل، ادخل. فدخل معهم فقال: انظروا في شأن هذا الرجل، والله ليوشكن أن يواثبكم في أمركم بأمـره. قال: فقال قائل منهم: احبسوه في وثاق، ثم تربصوا به [ريب] المنون، حتى يهلك كما هلك من كان قبله من الشعراء: زهير والنابغة، إنما هو كأحدهم. قال: فصرخ عدوُّ الله الشيخُ النجديُّ فقال: والله ما هذا لكم برأي، والله ليخرجنه ربه من محبسه إلى أصحابه، فليوشكن أن يثبوا عليه حتى يأخذوه من أيديكم، فيمنعوه منكم، فما آمن عليكم أن يخرجوكم من بلادكم، قال: فانظروا في غير هذا.

قال: فقال قائل منهم: فأخرجوه من بين أظهركم تستريحوا منه، فإنه إذا خرج لن يضركم ما صنع وأين وقع، إذا غاب عنكم أذاه واسترحتم، وكان أمره في غيركم. فقال الشيخ النجدي: والله ما هذا لكم برأي، ألم تروا حلاوة قَوْلِه، وطلاوة لسانه، وأخذَ القلوب ما تَسْتَمِعُ من حديثه؟ والله لئن فعلتم ثم استعرض [العرب] ليجتمعن عليه، ثم ليأتين إليكم حتى يخرجكم من بلادكم ويقتل أشرافكم، قالوا: صدق والله. فانظروا باباً غير هذا.

قال: فقال أبو جهل لعنه الله: والله لأشيرن عليكم برأي ما أراكم أبصرتموه بعد، ما أرى غيره. قالوا: وما هو؟ قال: نأخذ من كل قبيلة غلاماً شاباً وسيطاً[١] نَهْداً، ثم يُعطَى كلُّ غلام منهم سيفاً صارماً، ثم يضربونه ضربة رجل واحد، فإذا قتلوه تفرق دمه في القبائل، فلا أظن هذا الحي من بني هاشم يَقْوَوْنَ على حرب قريش كلها. فإنهم إذا رأوا ذلك قبلوا العَقْل[٢] واسترحنا وقطعنا عنا أذاه.

قال: فقال الشيخُ النجديُّ: هذا ـ والله ـ الرأيُ، القولُ ما قال الفتى، لا رأي غيره. قال: فَتَفَرَّقوا على ذلك وهم مجمعون له.

فأتى جبريل النبي ـ ﷺ ـ فأمـره ألاَّ يبيت في مضجعه الذي كان يبيت فيه، وأخبره بمكر القوم. فلم يبت رسول الله ـ ﷺ ـ في بيته تلك الليلة، وأذن الله له عند ذلك بالخروج، وأنزل الله عليه بعد قدومه المدينة «الأنفال» يذكر نعمه عليه وبلاءه عنده: ﴿وإذ يُمكر بك الذين كفروا لِيُثْبِتوك أو يقتلوك أو يخرجوك ويمكرون والله خير الماكرين﴾، وأنزل في قولهم: (تَرَبَّصوا به حَتَّى يهلك ما هَلَكَ من كان قَبْلَه من الشعراء): ﴿أم يقولون شاعرٌ نتربَّصُ به رَيْبَ المنونِ﴾، وكان ذلك اليومُ يُسَمَّى «يوم الزحمةِ»، لِلَّذي اجتَمَعُوا عليه من الرأي[٣].

وعن السدِّيِّ نحو هذا السياق، وأنزل الله في إرادتهم إخراجَه قولَه تعالى: ﴿وإن كادوا ليستفزُّونَكَ من الأرض ليخرجُوك منها، وإذاً لا يلبثُونَ خِلافَكَ إلا قليلاً﴾.

وكذا روى العَوْفي، عن ابن عباس. ورُوي عن مجاهد، وعُروةَ بن الزبير، وموسى بن عقبةَ، وقتادةَ، ومِقْسَم، وغير واحد، نحو ذلك.

---

(١) الوسيط: الشريف. والنهد: الكريم.

(٢) أي: الدية.

(٣) سيرة ابن هشام ١/ ٤٨٠ ـ ٤٨٣، وتفسير الطبري ٩/ ٢٢٧ ـ ٢٢٨.

وقال يُونُس بنُ بكَير، عن ابن إسحاقَ: فأقام رسولُ الله ـ ﷺ ـ ينتظر أمر الله، حتى إذا اجتمعَت قُريشٌ فمكرت به، وأرادوا به ما أرادوا، أتاه جبريل ـ عليه السلام ـ فأمره ألا يبيتَ في مكانه الذي كان يبيت فيه. فدعا رسولُ الله ـ ﷺ ـ علي بن أبي طالب، فأمره أن يبيت على فراشه وأن يَتسجَّى ببُردٍ له أخضَرَ، ففعل. ثم خرج رسول الله ـ ﷺ ـ على القوم وهم على بابه، وخَرَج معه بحَفْنَةٍ من تراب، فجعل يَذُرُّها[1] على رءُوسهم، وأخذ الله بأبصارهم عن نبيه محمد ـ ﷺ ـ وهو يقرأ: ﴿يسٓ. والقرآنِ الحَكِيمِ﴾ إلى قوله: ﴿ فأغشيناهم فَهُم لا يبصرون﴾.

قال الحافظ أبو بكر البيهقي: ورُوي عن عكرمة ما يُؤكِّد هذا[2].

وقد روى ابن حبّان في صحيحه، والحاكم في مستدركه، من حديث عبد الله بن عثمان بن خُثَيم، عن سعيدِ بن جُبَير، عن ابن عباس قال: دخلت فاطمةُ على رسول الله ـ ﷺ ـ وهي تبكي، فقال: ما يبكيك يا بُنَيَّةُ؟ قالت: يا أبتِ، مالي لا أبكي؟ وهؤلاء الملأ من قُرَيش في الحجر يتعاقدون باللات والعُزّى ومناةَ الثالثة الأخرى، لو قد رأوك لقاموا إليك فيقتلونكَ وليس منهم إلا من قد عَرَف نصيبه من دمك. فقال: يا بُنَيَّة، ائتني بوَضُوءٍ. فتوضَّأ رسول الله ـ ﷺ ـ ثم خرج إلى المسجد. فلما رأوه قالوا: إنما هو. فطأطَئوا رءُوسهم، وسقطت أذقانُهم بين أيديهم، فلم يرفعُوا أبصارهم. فتناول رسولُ الله ـ ﷺ ـ قبضةً من تراب فَحَصَبَهُم بها، وقال: شاهتِ الوجوهُ. فما أصاب رجلاً منهم حصاةٌ من حَصَياتِهِ إلا قُتل يوم بدر كافراً.

ثم قال الحاكم: صحيح على شرط مسلم، ولم يخرجاه. ولا أعرف له علة[3].

وقال الإمام أحمد: حدثنا عبد الرزاق، أخبرنا معمر، أخبرني عثمان الجَزَري، عن مِقْسَم مولى ابن عباس، أخبره عن ابن عباس في قوله: ﴿وإذ يمكُر بك الذين كفروا ليثبتوك﴾. قال: تشاورت قريش ليلةً بمكة، فقال بعضُهم: إذا أصبحَ فأثْبِتوه بالوَثاق، يريدون النبي ـ ﷺ ـ وقال بعضهم: بل اقتلوه. وقال بعضهم: بل أخْرِجُوه. فأطلع الله نبيَّه على ذلك، فبات علي ـ رضي الله عنه ـ على فراش رسول الله ـ ﷺ ـ وخرج رسول الله ـ ﷺ ـ حتى لحق بالغار، وبات المشركون يحرسُونَ علياً، يحسبونه النبي ـ ﷺ ـ فلما أصبحوا ثاروا إليه، فلما رأوا علياً رَدَّ الله تعالى مكرهم، فقالوا: أين صاحبُك هذا؟ قال: لا أدري. فاقتصُّوا أثره، فلما بلغوا الجبل اختلط عليهم، فصَعِدوا في الجبل فمرّوا بالغار، فرأوا على بابه نَسْجَ العنكبوتِ، فقالوا: لو دخل ها هنا لم يكن نسج العنكبوت على بابه. فمكث فيه ثلاث ليال[4].

وقال محمد بن إسحاق، عن محمد بن جعفر بن الزبير، عن عروة بن الزبير في قوله: ﴿ويمكرون ويمكر الله والله خير الماكرين﴾، أي: فمكرت بهم بكيدي المتين، حتى خلصتك منهم[5].

﴿ وَإِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتُنَا قَالُوا۟ قَدْ سَمِعْنَا لَوْ نَشَآءُ لَقُلْنَا مِثْلَ هَٰذَآ ۙ إِنْ هَٰذَآ إِلَّآ أَسَٰطِيرُ ٱلْأَوَّلِينَ ﴿٣١﴾
وَإِذْ قَالُوا۟ ٱللَّهُمَّ إِن كَانَ هَٰذَا هُوَ ٱلْحَقَّ مِنْ عِندِكَ فَأَمْطِرْ عَلَيْنَا حِجَارَةً مِّنَ ٱلسَّمَآءِ أَوِ ٱئْتِنَا بِعَذَابٍ أَلِيمٍ ﴿٣٢﴾

---

(١) ذَرَّ الشيءَ يَذُرُّه: أخذه بأطراف أصابعه، ثم نثره على الشيء.
(٢) دلائل النبوة للبيهقي ٢/ ٤٦٩ ـ ٤٧٠.
(٣) الإحسان بترتيب صحيح ابن حبّان، كتاب التاريخ ٨/١٤٨، والمستدرك، كتاب معرفة الصحابة ٣/١٥٧.
(٤) مسند الإمام أحمد ١/ ٣٤٨.
(٥) سيرة ابن هشام ١/ ٦٦٩.

وَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيُعَذِّبَهُمْ وَأَنتَ فِيهِمْ ۚ وَمَا كَانَ ٱللَّهُ مُعَذِّبَهُمْ وَهُمْ يَسْتَغْفِرُونَ ﴿٣٣﴾ ﴾

يُخبِرُ تعالى عن كُفْرِ قريش وعُتوِّهم وتمرُّدِهم وعنادهم، ودعواهم الباطلَ عند سماع آياته حين تتلى عليهم أنهم يقولون: ﴿قد سَمِعنا لو نشاء لقلنا مثل هذا﴾. وهذا منهم قولٌ بلا فعلٍ، وإلا فقد تحدَّوا غير ما مرَّةٍ أن يأتوا بسورة من مثله فلا يجدون إلى ذلك سبيلاً. وإنما هذا قولٌ منهم يَغُرّون به أنفسهم ومن اتبعهم على باطلهم.

وقد قيل: إن القائل لذلك هو النضرُ بن الحارث ـ لعنه الله ـ كما قد نصَّ على ذلك سعيد بن جُبَير، والسدِّيُّ وابن جُرَيج وغيرهم؛ فإنه ـ لعنه الله ـ كان قد ذهب إلى بلاد فارس، وتعلَّم من أخبار ملوكهم رسْتم وإسفنديار، ولما قَدم وَجدَ رسول الله ـ ﷺ قد بعثه الله، وهو يتلو على الناس القرآن، فكان إذا قام ـ ﷺ ـ من مجلس، جلس فيه النضر فَيُحدثهم من أخبار أولئك، ثم يقول: بالله أيهما أحسنُ قَصَصاً، أنا أو محمد؟ ولهذا لما أمكن الله تعالى منه يوم بدر ووقع في الأسارى، أمر رسول الله ـ ﷺ ـ أن تُضْرَبَ رقبته صبراً بين يديه، ففَعِل ذلك، ولله الحمد. وكان الذي أسره المقداد بن الأسود رضي الله عنه، كما قال ابن جرير:

حدثنا محمد بن بشار، حدثنا محمد بن جعفر، حدثنا شعبة، عن أبي بِشْرٍ، عن سعيد بن جُبَير قال: قَتَلَ النبيُّ ـ ﷺ ـ يوم بدر صبراً عُقبة بن أبي مُعَيط، وطُعَيمة بن عَديٍّ، والنضر بن الحارث. وكان المقداد أسر النضر، فلما أمر بقتله قال المقداد: يا رسولَ الله، أسيري! فقال رسول الله ـ ﷺ: إنه كان يقول في كتاب الله ـ عز وجل ـ ما يقول. فأمر رسول الله ـ ﷺ ـ بقتله، فقال المقداد: يا رسول الله، أسيري! فقال رسول الله ـ ﷺ ـ: اللهم أغْنِ المقداد من فضلك. فقال المقداد: هذا الذي أردت. قال: وفيه أنزلت هذه الآية: ﴿وإذا تتلى عليهم آياتنا قالوا قد سمعنا لو نشاء لقلنا مثل هذا إن هذا إلا أساطير الأولين﴾[(١)].

وكذا رواه هُشيم، عن أبي بشر جعفر بن أبي وَحْشِيَّة، عن سعيد بن جُبَير أنه قال: «المطعم بن عَدِيٍّ» «بدل طعيمة»[(٢)]. وهو غلط، لأن المطعم بن عدي لم يكن حيّاً يوم بدر، ولهذا قال رسولُ الله ـ ﷺ ـ يومئذ: «لو كان المُطْعِم حَيّاً، ثم سألني في هؤلاء النَّتْنَى، لوهبتهم له»[(٣)]. يعني الأسارى؛ لأنه كان قد أجار رسولَ الله ـ ﷺ ـ يوم رجع من الطائف.

ومعنى: ﴿أساطيرُ الأولين﴾، وهو جمعُ أسطورة، أي: كتبهم اقتبسها، فهو يتعلم منها ويتلوها على الناس. وهذا هو الكَذِبُ البحتُ، كما أخبر الله عنهم في الآية الأخرى: ﴿وقالوا أساطير الأولين اكتتبها فهي تُملَى عليه بُكرةً وأصيلاً. قل: أنزله الذي يعلم السر في السمٰوات والأرض إنه كان غفوراً رحيماً﴾، أي: لمن تاب إليه وأناب؛ فإنه يتقبل منه ويصفح عنه.

وقوله: ﴿وإذ قالوا: اللهم، إن كان هذا هو الحق من عندك فأمطر علينا حجارة من السماء أو ائتنا بعذاب أليم﴾، هذا من كثرة جهلهم وعُتُوِّهم وعنادهم وشدة تكذيبهم، وهذا مما عِيبُوا به، وكان الأولى لهم أن يقولوا: «اللهم، إن كان هذا هو الحق من عندك، فاهدِنا له، وَوَفِّقنا لاتباعه». ولكن استفتحوا على أنفسهم، واستعجلوا العذاب، وتقديمَ العُقوبة كما قال تعالى: ﴿ويستعجلونك بالعذاب، ولولا أجلٌ مسمًّى لجاءهم العذاب، وليأتينهم بغتةً وهم لا يشعرون﴾. ﴿وقالوا ربنا عَجِّل لنا قِطَّنا قبل يوم الحساب﴾، ﴿سأل سائل

(١) تفسير الطبري ٩/ ٢٣١ ـ ٢٣٢.

(٢) تفسير الطبري ٩/ ٢٣٢.

(٣) فتح الباري، كتاب فرض الخمس ٦/ ٢٤٣، وسنن أبي داود، كتاب الجهاد ٣/ ٦١، ومسند الإمام أحمد ٤/ ٨٠.

بعذاب واقع. للكافرين ليس له دافع. من الله ذي المعارج﴾. وكذلك قال الجهلة من الأمم السالفة، كما قال قوم شُعَيب له: ﴿ فأسقط علينا كسفاً من السماء إن كنت من الصادقين﴾، وقال هؤلاء: ﴿اللهمَّ، إن كان هذا هو الحقَّ من عندك، فأمطر علينا حجارة من السماء أو ائتنا بعذاب أليم﴾.

قال شُعبَةُ، عن عبد الحميد صاحب الزِّيادي، عن أنَس بن مالك قال: هو أبو جهل بن هشام قال: ﴿اللهم إن كان هذا هو الحقَّ من عندك، فأمطرِ علينا حجارةً من السماء، أو ائتنا بعذابٍ أليم﴾، فنزلت: ﴿وما كان الله لِيُعذِّبهم وأنت فيهم، وما كان الله مُعذِّبهم وهم يستغفِرون﴾... الآية.

رواه البخاري(١)، عن أحمد ومحمد بن النضر، كلاهما عن عُبَيد الله بن مُعَاذ، عن أبيه، عن شعبة، به. وأحمد هذا هو: أحمد بن النضر بن عبد الوهاب، قاله الحاكم أبو أحمد، والحاكم أبو عبد الله النيسابوري(٢). والله أعلم.

وقال الأعمشُ، عن رجل، عن سعيد بن جُبَير، عن ابن عباس في قوله: ﴿وإذ قالوا اللهم إن كان هذا هو الحق من عندك فأمطر علينا حجارة من السماء أو ائتنا بعذاب أليم﴾، قال: هو النضر بن الحارث بن كَلَدَة، قال: فأنزل الله: ﴿سأل سائلٌ بعذابٍ واقعٍ. للكافرين ليس له دافع﴾. وكذا قال مجاهد، وعطاء، وسعيد بن جُبير، والسدِّيُّ: إنه النضرُ بن الحارث. زاد عطاء: فقال الله تعالى: ﴿وقالوا ربنا عَجِّل لنا قطنا قبل يوم الحساب﴾، وقال: ﴿ولقد جِئْتُمونا فرادى كما خلقناكم أول مرة﴾، وقال: ﴿سأل سائلٌ بعذابٍ واقع للكافرين﴾. قال عطاء: ولقد أنزل فيه بضع عشرة آية من كتاب الله عز وجل.

وقال ابن مَرْدُويه: حدثنا محمد بن إبراهيم، حدثنا الحسن بن أحمد بن الليث، حدثنا أبو غسان، حدثنا أبو تُمَيلة، حدثنا الحسين، عن ابن بُرَيدَة، عن أبيه قال: رأيتُ عمرو بن العاص واقفاً يوم أحد على فرس، وهو يقول: «اللهم، إن كان ما يقول محمد حقاً فاخسِفْ بي وبفرسي».

وقال قتادةُ في قوله: ﴿وإذ قالوا اللهم إن كان هذا هو الحق من عندك﴾... الآية، قال: قال ذلك سَفَهة هذه الأمة وجَهَلتها، فعاد الله بعائدته ورحمته على سَفَهة هذه الأمة وجهلتها(٣).

وقولُه تعالى: ﴿وما كان الله ليعذِّبهم وأنتَ فيهم وما كان الله مُعَذِّبهم وهم يستغفرون﴾؛ قال ابن أبي حاتم:

حدثنا أبي، حدثنا أبو حذيفة موسى بن مسعود، حدثنا عكرمة بن عمار، عن أبي زُمَيل سماك الحنفي، عن ابن عباس قال: كان المشركون يطوفون بالبيت ويقولون: لَبَّيكَ اللَّهمَّ لبَّيكَ، لا شريك لك. فيقول النبيُّ -ﷺ-: «قَدْ قَدْ» (ويقولون: «لا شريك لك) إلا شريكاً هو لك، تَمْلِكُه وما مَلَك». ويقولون: «غفرانك، غفرانك». فأنزل الله: ﴿وما كان الله ليعذبهم وأنت فيهم، وما كان الله معذبهم وهم يستغفرون﴾. قال ابن عباس: كان فيهم أمانان: النبي -ﷺ- والاستغفار، فذهب النبي -ﷺ- وبَقِي الاستغفارُ.

وقال ابن جَرير: حدثني الحارث، حدثنا عبد العزيز، حدثنا أبو معشر، عن يزيد بن رُومان ومحمد بن قيسٍ قالا: قالت قُريشٌ بعضُها لبعضٍ: محمد أكرمه الله من بيننا، ﴿اللهم إن كان هذا هو الحق من عندك

(١) فتح الباري، تفسير سوة الأنفال ٨/ ٣٠٨- ٣٠٩.
(٢) انظر فتح الباري ٨/ ٣٠٨.
(٣) تفسير الطبري ٩/ ٢٣٣.

فأمطِر علينا حجارة من السماء أو ائتنا بعذاب أليم﴾، فلما أمْسَوا نَدِموا على ما قالوا، فقالوا: غفرانك اللهم! فأنزل الله عز وجل: ﴿وما كان الله مُعَذِّبهم وهم يستغفرون﴾ إلى قوله: ﴿ولكن أكثرهم لا يعلمون﴾[(١)].

وقال علي بن أبي طلحة، عن ابن عباس: ﴿وما كان الله ليعذِّبهم وأنت فيهم﴾، يقول: ما كان الله ليعذِّب قوماً وأنبياؤهم بين أظهرهم حتى يخرجهم، ثم قال: ﴿وما كان الله مُعَذِّبهم وهم يستغفرون﴾، يقول: وفيهم من قد سبق له من الله الدخولُ في الإيمان، وهو الاستغفار ﴿يستغفرون﴾ يعني: يصلون، يعني بهذا أهل مكة[(٢)].

ورُوي عن مجاهد، وعكرمة، وعطية العوفي، وسعيد بن جُبَير، والسّدِّيّ، نحو ذلك.

وقال الضحاك وأبو مالك: ﴿وما كان الله معَذِّبهم وهم يستغفرون﴾، يعني: المؤمنين الذين كانوا بمكة.

وقال ابن أبي حاتم: حدثنا أبي، حدثنا عبد الغفار بن داود، حدثنا النضر بن عَرَبي، قال ابن عباس: إن الله جعل في هذه الأمة أمانين لا يزالون معصومين مُجارين من قوارع العَذَاب ما داما بين أظهرهم، فأمان قَبَضه الله إليه، وأمان بقي فيكم، قوله: ﴿وما كان الله لِيُعَذِّبهم وأنت فيهم، وما كان الله مُعَذِّبهم وهم يستغفرون﴾.

قال أبو صالح عبد الغفار: حدثني بعض أصحابنا أن النضر بن عربيّ حَدَّثه هذا الحديث، عن مجاهد، عن ابن عباس.

وروى ابن مَرْدُويه وابن جَرير، عن أبي موسى الأشعريّ نحواً من هذا. وكذا رُوي عن قتادة وأبي العلاء النحويّ المقرئ.

وقال الترمذي: حدثنا سفيان بن وكيع، حدثنا ابن نُمَير، عن إسماعيلَ بن إبراهيمَ بن مهاجر، عن عَبَّاد بن يوسف، عن أبي بُردَة بن أبي موسى، عن أبيه قال: قال رسولُ الله ـ ﷺ ـ: أنزلَ عليَّ أمانين لأمتي: ﴿وما كان الله ليعذبهم وأنت فيهم وما كان الله معذبهم وهم يستغفرون﴾، فإذا مَضَيتُ تركتُ فيكم الاستغفار[(٣)].

ويشهد لهذا ما رواه الإمام أحمد في مسنده، والحاكم في مستدركه، من حديث عبد الله بن وهب: أخبرني عمرو بن الحارث، عن دَراج، عن أبي الهيثم، عن أبي سعيد أن رسول الله ـ ﷺ ـ قال: «إن الشيطان قال: وعزّتِكَ يا ربُّ، لا أبرحُ أغوِي عبادك ما دامتْ أرواحُهم في أجسادِهِمْ، فقال الربُّ: وعِزّتي وجلالي لا أزالُ أغفِرُ لهم ما استغفروني».

ثم قال الحاكم: صحيح الإسناد ولم يخرجاه[(٤)].

وقال الإمام أحمد: حدثنا معاوية بن عمرو، حدثنا رِشْدِين هو ابن سَعْدٍ، حدثني معاوية بن سَعِيدٍ[(٥)] التُّجِيبيُّ، عمن حَدَّثه، عن فَضَالة بن عُبَيدٍ، عن النبي ـ ﷺ ـ أنه قال: «العبد آمن من عذابِ الله ما استغفرَ الله عز وجل»[(٦)].

---

(١) تفسير الطبري ٩/ ٢٣٥.

(٢) تفسير الطبري ٩/ ٢٣٧.

(٣) عارضة الأحوذي، تفسير سورة الأنفال ١١/ ٢١٢ ـ ٢١٣.

(٤) المستدرك، كتاب التوبة والإنابة ٤/ ٢٦١، وانظر مسند الإمام أحمد ٣/ ٢٩، ٤١، ٧٦.

(٥) في الأصول: ابن سعد، والمثبت عن المسند، والجرح لابن أبي حاتم ٨/ ٣٨٤، وتهذيب الكمال، ترجمة بقية بن الوليد ٤/ ١٩٤.

(٦) مسند الإمام أحمد ٦/ ٢٠.

﴿وَمَا لَهُمْ أَلَّا يُعَذِّبَهُمُ اللَّهُ وَهُمْ يَصُدُّونَ عَنِ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ وَمَا كَانُوا أَوْلِيَاءَهُ إِنْ أَوْلِيَاؤُهُ إِلَّا الْمُتَّقُونَ وَلَكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٣٤﴾ وَمَا كَانَ صَلَاتُهُمْ عِنْدَ الْبَيْتِ إِلَّا مُكَاءً وَتَصْدِيَةً فَذُوقُوا الْعَذَابَ بِمَا كُنْتُمْ تَكْفُرُونَ ﴿٣٥﴾﴾

يخبر تعالى أنهم أهلٌ لأن يعذِّبهم، ولكن لم يوقع ذلك بهم لبركة مقام رسول الله ـ ﷺ ـ بين أظهرهم، ولهذا لما خرج من بين أظهرهم، أوقع الله بهم بأسه يوم بدر، فقُتل صناديدهم وأُسِرت سَرَاتُهم. وأرشدهم تعالى إلى الاستغفار من الذنوب، التي هم مُتَلَبِّسُون بها من الشرك والفساد.

قال قتادة والسدِّيُّ وغيرهما: لم يكن القومُ يستغفرون، ولو كانوا يستغفرون لما عذبوا.

واختاره ابن جرير[1]، فلولا ما كان بين أظهرهم من المستضعفين من المؤمنين المستغفرين لأوقع بهم البأس الذي لا يُرَدّ، ولكن دُفع عنهم بسبب أولئك، كما قال تعالى في يوم الحُدَيبية: ﴿هم الذين كفروا وصدُّوكم عن المسجد الحرام والهدي معكوفاً أن يبلغ مَحِلَّه، ولولا رجالٌ مؤمنون ونساء مؤمنات لم تعلموهم أن تطئوهم فتصيبكم منهم مَعرَّةٌ بغير علم، ليدخل الله في رحمته من يشاء، لو تزيَّلُوا لعذبنا الذين كفروا منهم عذاباً أليماً﴾.

قال ابن جرير: حدثنا ابن حميد، حدثنا يعقوب، عن جعفر بن أبي المغيرة، عن ابن أَبْزى قال: كان النبي ـ ﷺ ـ بمكة، فأنزل الله: ﴿وما كان الله ليعذِّبهم وأنت فيهم﴾، قال: فخرج النبي ـ ﷺ ـ إلى المدينة، فأنزل الله: ﴿وما كان الله معذبهم وهم يستغفرون﴾. قال: وكان أولئك البقية من المؤمنين الذين بقوا فيها يستغفرون ـ يعني بمكة ـ فلما خرجوا أنزل الله: ﴿وما لهم أن لا يعذبهم الله وهم يصدون عن المسجد الحرام وما كانوا أولياءه﴾، قال: فأذن الله في فتح مكة، فهو العذاب الذي وعدهم[2].

ورُوي عن ابن عباس: وأبي مالك، والضحاك، وغير واحد، نحو هذا.

وقد قيل: إن هذه الآية ناسخة لقوله: ﴿وما كان الله معذبهم وهم يستغفرون﴾، على أن يكون المراد صدور الاستغفار منهم أنفسهم.

قال ابن جرير: حدثنا ابن حُمَيد، حدثنا يحيى بن واضح، عن الحسين بن واقد، عن يزيد النحوي، عن عكرمة والحسن البصري قالا: قال في «الأنفال»: ﴿وما كان الله ليعذِّبهم وأنت فيهم، وما كان الله معذبهم وهم يستغفرون﴾، فنسختها الآية التي تليها: ﴿وما لهم ألا يعذبهم الله﴾ إلى قوله: ﴿فذوقوا العذاب بما كنتم تكفرون﴾، فقُوتلوا بمكة، فأصابهم فيها الجوع والضر[3].

وكذا رواه ابن أبي حاتم من حديث أبي تُمَيلة يحيى بن وَاضِح.

وقال ابن أبي حاتم: حدثنا الحسن بن محمد بن الصباح، حدثنا حجاج بن محمد، عن ابن جُرَيج وعثمان بن عطاء، عن عطاء، عن ابن عباس: ﴿وما كان الله معذبهم وهم يستغفرون﴾، ثم استثنى أهل الشرك فقال: ﴿وما لهم ألا يعذبهم الله وهم يصدون عن المسجد الحرام﴾.

---

(١) تفسير الطبري ٩/ ٢٣٦.
(٢) تفسير الطبري ٩/ ٢٣٤.
(٣) تفسير الطبري ٩/ ٢٣٨.

وقوله: ﴿وما لهم ألا يعذبهم الله وهم يصدون عن المسجد الحرام، وما كانوا أولياءه إن أولياؤه إلا المتقون، ولكن أكثرهم لا يعلمون﴾، أي: وكيف لا يعذبهم الله وهم يصدون عن المسجد الحرام، أي الذي ببكة، يصدون المؤمنين الذين هم أهله عن الصلاة عنده والطواف به، ولهذا قال: ﴿وما كانوا أولياءه﴾، أي: هم ليسوا أهل المسجد الحرام، وإنما أهله النبي - ﷺ - وأصحابه، كما قال تعالى: ﴿ما كان للمشركين أن يعمروا مساجد الله شاهدين على أنفسهم بالكفر أولئك حبطت أعمالهم وفي النار هم خالدون. إنما يعمر مساجد الله من آمن بالله واليوم الآخر وأقام الصلاة وآتى الزكاة ولم يخش إلا الله فعسى أولئك أن يكونوا من المهتدين﴾، وقال تعالى: ﴿وصدٌّ عن سبيل الله وكفر به والمسجد الحرام وإخراج أهله منه أكبر عند الله﴾ الآية.

وقال الحافظ أبو بكر بن مَرْدُويه في تفسير هذه الآية: حدثنا سليمان بن أحمد - هو الطبراني - حدثنا جعفر ابن إلياس بن صدقة المصري، حدثنا نُعَيم بن حماد، حدثنا نوح بن أبي مريم، عن يحيى بن سعيد الأنصاري، عن أنس بن مالك - رضي الله عنه - قال: سئل رسول الله - ﷺ -: من آلُك؟ قال: كل تقيٍّ، وتلا رسول الله - ﷺ -: ﴿إن أولياؤه إلا المتقون﴾[١].

وقال الحاكم في مستدركه: حدثنا أبو بكر الشافعي، حدثنا إسحاق بن الحسن، حدثنا أبو حذيفة، حدثنا سفيان، عن عبد الله بن عثمان بن خُثَيم، عن إسماعيل بن عُبَيد بن رفاعة، عن أبيه، عن جده قال: جمع رسول الله - ﷺ - قريشاً فقال: هل فيكم من غيركم؟ قالوا: فينا ابن أختنا، وفينا حليفنا، وفينا مولانا. فقال: حليفنا منا، وابن أختنا منا، ومولانا منا، إن أوليائي منكم المتقون.

ثم قال: هذا صحيحٌ، ولم يُخرِجاه[٢].

وقال عروة، والسدّيّ، ومحمد بن إسحاقَ في قوله تعالى: ﴿إن أولياؤُه إلا المتقون﴾، قال: هم محمد - ﷺ - وأصحابه، رضي الله عنهم.

وقال مجاهد: هم المُتَّقُون مَن كانوا، وحيث كانوا[٣].

ثم ذكر تعالى ما كانوا يَعتمِدُونه عند المسجد الحرام وما كانُوا يعامِلُونه به، فقال: ﴿وما كان صلاتهم عند البيت إلا مُكَاء﴾.

قال عبد الله بن عمر، وابن عباس، ومجاهد، وعكرمة، وسعيد بن جُبَير، وأبو رجاء العُطَارِدِيُّ، ومحمد ابن كعب القُرَظي، وحُجْر بن عَنْبَس، ونُبيط بن شُرَيط، وقتادةُ، وعبد الرحمن بن زيد بن أسلم: هو الصفير. وزاد مجاهد: هم المتَّقُونَ مَن كانوا، وحيث كانوا[٣].

وقال السدّيُّ: «المُكَاء»، الصَّفِيرُ على نحو طير أبيضَ يقال له: «المُكَاء»[٤]، يكون بأرضِ الحِجَازِ.

﴿وتصديةً﴾، قال ابن أبي حاتم:

حدثنا أبو خَلَّاد سليمانُ بن خَلَّاد، حدثنا يونُس بن محمد المؤدب، حدثنا يعقوبُ - يعني ابن عبد الله

(١) أخرجه الطبراني في المعجم الصغير ١/ ١١٥.
(٢) المستدرك، تفسير سورة الأنفال ٢/ ٣٢٨.
(٣) تفسير الطبري ٩/ ٢٣٩.
(٤) المُكَاء: طائر نحو القنبرة إلا أن في جناحيه بَلَقاً، سُمّي بذلك لأنه يجمع يديه ثم يصَفِّر بهما صفيراً حسناً.

الأشعري ـ حدثنا جعفر بن المغيرة[(١)]، عن سعيد بن جُبَير، عن ابن عباس في قوله: ﴿وما كان صلاتهم عند البيت إلا مكاءً وتَصْدِيةً﴾، قال: كانت قريشٌ تطوف بالكعبة عراة تَصْفِر وتُصَفِّق ـ و«المكاء»: الصفير، وإنما شبهوا بصفير الطير، وتصدية: التصفيق.

وهكذا روى علي بن أبي طلحة والعوفي، عن ابن عباس. وكذا روى عن ابن عُمَر، ومجاهد، ومحمد ابن كعب، وأبي سَلمة بن عبد الرحمن، والضحاك، وقتادة، وعطية العَوفيِّ، وحُجْر بن عَنْبَسٍ، وابن أَبْزَى نحو هذا.

وقال ابن جرير: حدثنا ابن بشار، حدثنا أبو عامر، حدثنا قرة، عن عَطِيَّةَ، عن ابن عُمَر في قوله: ﴿وما كان صلاتُهم عند البيتِ إلا مُكاءً وَتَصْدِيَةً﴾، قال: المكاء: الصَّفِيرُ، والتصدية: التصفيق. قال قرة: وحَكَى لنا عطية فعل ابن عمر، فَصَفَر ابن عُمَر، وأمال خدَّه، وصَفَّق بيديه[(٢)].

وعن ابن عمر أيضاً أنه قال: كانوا يضعون خُدودهم على الأرض ويُصَفقون ويصفِرُونَ. رواه ابن أبي حاتم في تفسيره بسنده عنه.

وقال عكرمة: كانوا يطوفون بالبيت على الشمال. قال مجاهدٌ: وإنما كانوا يصنعون ذلك ليخلطوا بذلك على النبي ـ ﷺ ـ صلاته. وقال الزهري: يستهزئون بالمؤمنين.

وعن سعيد بن جُبَير وعبد الرحمن بن زيد: ﴿وتصدية﴾، قال: صدُّهم الناس عن سبيل الله عز وجل.

قوله: ﴿فذوقوا العذاب بما كنتم تكفرون﴾، قال الضحاك، وابن جُرَيجٍ، ومحمد بن إسحاقَ: هو ما أصابهم يوم بدر من القتل والسبي. واختاره ابن جرير، ولم يحك غيره[(٣)].

وقال ابن أبي حاتم: حدثنا أبي، حدثنا ابن أبي عُمَر، حدثنا سفيان، عن ابن أبي نَجيح، عن مجاهد قال: عذاب أهل الإقرار بالسيف، وعذاب أهل التكذيب بالصيحة والزلزلة.

﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ يُنفِقُونَ أَمْوَٰلَهُمْ لِيَصُدُّواْ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِۚ فَسَيُنفِقُونَهَا ثُمَّ تَكُونُ عَلَيْهِمْ حَسْرَةً ثُمَّ يُغْلَبُونَۗ وَٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ إِلَىٰ جَهَنَّمَ يُحْشَرُونَ ﴿٣٦﴾ لِيَمِيزَ ٱللَّهُ ٱلْخَبِيثَ مِنَ ٱلطَّيِّبِ وَيَجْعَلَ ٱلْخَبِيثَ بَعْضَهُۥ عَلَىٰ بَعْضٍ فَيَرْكُمَهُۥ جَمِيعًا فَيَجْعَلَهُۥ فِى جَهَنَّمَۚ أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْخَٰسِرُونَ ﴿٣٧﴾﴾

قال محمد بن إسحاق: حدثني الزهري، ومحمد بن يحيى بن حَبَّان، وعاصم بن عمر بن قتادة، والحصين بن عبد الرحمن[(٤)] بن عمرو بن سعد بن معاذ ـ قالوا: لما أُصِيبَتْ قريشٌ يوم بدر، ورجع فَلُّهم[(٥)] إلى مكة، ورجع أبو سفيان بِعِيره، مشى عبد الله بن أبي[(٦)] ربيعة، وعكرمة بن أبي جهل، وصفوان بن أميَّة، في

---

(١) كذا، ومثله في بعض نسخ الجرح والتعديل لابن أبي حاتم، وفي غيرها: جعفر بن أبي المغيرة، انظر ٢/ ٤٩٠، ومثله في تهذيب الكمال ٥/ ١١٢.

(٢) تفسير الطبري ٩/ ٢٤١.

(٣) تفسير الطبري ٩/ ٢٤٣.

(٤) في تفسير الطبري ٩/ ٢٤٥، «والحصين بن عبد الرحمن وعمرو بن سعد..». وهو خطأ، انظر الجرح لابن أبي حاتم ٣/ ١٩٤.

(٥) أي: المنهزمون.

(٦) في تفسير الطبري: عبد الله بن ربيعة. وهو خطأ، انظر سيرة ابن هشام ١/ ٣٣٣، ٣٣٥، ٣٣٧، ٣٤٢، ٢/ ٦٠.

رجال من قريش أصيب آباؤهم وأبناؤهم وإخوانهم ببدر، فكلَّموا أبا سفيان بن حرب ومن كانت له في تلك العير من قريش تجارةٌ، فقالوا: يا معشرَ قريش، إن محمداً قد وَتَركم وقَتَل خياركم، فأعينونا بهذا المال على حَرْبِهِ، لعلنا أن ندركَ منه ثأراً بمن أصيب منا! ففعلوا، قال: ففيهم - كما ذُكِر عن ابن عباس - أنزل الله عز وجل: ﴿إن الذين كفروا ينفقون أموالهم﴾ إلى قوله: ﴿والذين كفروا إلى جهنم يحشرون﴾.

وهكذا رُوِي عن مجاهد، وسعيد بن جُبير، والحكم بن عُتَيبة، وقتادة، والسدِّيِّ، وابن أَبْزَى: أنها نَزَلَتْ في أبي سفيان ونفقته الأموال في أُحُدٍ لقتال رسولِ الله ﷺ.

وقال الضحاك: نزلت في أهل بدر.

وعلى كلِّ تقدير فهي عامةٌ، وإن كان سبب نزولها خاصاً، فقد أخبر تعالى أن الكفار ينفقون أموالهم ليصدوا عن اتباع طريق الحق، فسيفعلون ذلك، ثم تذهب أموالهم، ﴿ثم تكون عليهم حَسْرَةً﴾، أي: ندامَةً، حيث لم تُجْدِ شيئاً. لأنهم أرادوا إطفاء نور الله وظهور كلمتهم على كَلِمة الحق، والله مِتمُّ نورِه ولو كره الكافرون، وناصر دينِه، ومُعْلِن كلمته، ومُظْهِرُ دينه على كلِّ دين. فهذا الخزيُ لهم في الدنيا، ولهم في الآخرة عذابُ النار. فمن عاش منهم رأى بعينه وسَمِع بأذنه ما يسوءُه، ومن قُتل منهم أو مات فإلى الخزي الأبَدِيِّ والعذاب السرمدِيِّ. ولهذا قال: ﴿فسينفقونها ثم تكون عليهم حسرةً ثم يُغلَبون، والذين كفروا إلى جهنم يحشرون﴾.

وقولُه تعالى: ﴿ليميز الله الخبيث من الطيب﴾، قال علي بن أبي طلحة، عن ابن عباس في قوله: ﴿ليميز الله الخبيث من الطيب﴾: فيميز أهلَ السعادة من أهل الشقاء. وقال السدّيّ: يميز المؤمن من الكافر. وهذا يحتملُ أن يكون هذا التميز في الآخرة، كما قال تعالى: ﴿ثم نقول للذين أشركوا: مكانكم أنتم وشركاؤكم فَزَيَّلنا بينهم﴾، وقال تعالى: ﴿ويوم تقوم الساعة يومئذ يتفرقون﴾. وقال في الآية الأخرى: ﴿يومئذ يصَّدَّعون﴾، وقال تعالى: ﴿وامتازوا اليوم أيها المجرمون﴾.

ويَحتَمِلُ أن يكون هذا التمييزُ في الدنيا، بما يظهر من أعمالهم للمؤمنين، وتكون «اللام» معللة لما جعل الله للكفار من مال ينفقونَه في الصد عن سبيل الله، أي: إنما أقدرناهم على ذلك ﴿ليميز الله الخبيث من الطيب﴾، أي: من يُطِيعه بقتال أعدائه الكافرين، أو يَعصِيه بالنكول عن ذلك، كما قال تعالى: ﴿وما أصابكم يوم التقى الجمعان فبإذن الله وليعلم المؤمنين. وليعلم الذين نافقوا وقيل لهم: تعالوا قاتلوا في سبيل الله أو ادفعوا. قالوا: لو نعلم قتالاً لاتبعناكم﴾... الآية، وقال تعالى: ﴿ما كان الله ليذر المؤمنين على ما أنتم عليه حتى يَميزَ الخبيثَ من الطيِّب، وما كان الله ليطلعكم على الغيب﴾ الآية، وقال تعالى: ﴿أم حسبتم أن تدخلوا الجنةَ ولما يعلمِ الله الَّذين جاهَدُوا منكم ويعلم الصابرين﴾، ونظيرتُها في براءة أيضاً.

فمعنى الآية على هذا: إنما ابتليناكم بالكفار يقاتلونكم، وأَقْدَرْناهم على إنفاق الأموال وَبَذْلِها في ذلك، ليتميز الخبيث من الطيب، فيجعل الخبيث بعضه على بعض، ﴿فيركمه﴾، أي: يجمعه كله، وهو جمعُ الشيء بعضه على بعض، كما قال تعالى في السحاب: ﴿ثم يجعله ركاماً﴾، أي: متراكماً متراكباً، ﴿فيجعله في جهنم أولئك هم الخاسرون﴾، أي: هؤلاء هم الخاسرون في الدنيا والآخرة.

﴿قُل لِّلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ إِن يَنتَهُواْ يُغْفَرْ لَهُم مَّا قَدْ سَلَفَ وَإِن يَعُودُواْ فَقَدْ مَضَتْ سُنَّتُ ٱلْأَوَّلِينَ ﴿٣٨﴾
وَقَٰتِلُوهُمْ حَتَّىٰ لَا تَكُونَ فِتْنَةٌ وَيَكُونَ ٱلدِّينُ كُلُّهُۥ لِلَّهِ فَإِنِ ٱنتَهَوْاْ فَإِنَّ ٱللَّهَ بِمَا يَعْمَلُونَ بَصِيرٌ ﴿٣٩﴾

﴿وَإِن تَوَلَّوْاْ فَٱعْلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ مَوْلَىٰكُمْ ۚ نِعْمَ ٱلْمَوْلَىٰ وَنِعْمَ ٱلنَّصِيرُ ﴿٤٠﴾﴾

يقول تعالى لنبيِّه محمدٍ ـ ﷺ ـ: ﴿قل للذين كفروا: إن ينتهوا﴾، أي: عما هم فيه من الكفر والمشاقَّةِ والعناد، ويدخلوا في الإسلام والطاعة والإنابة، يغفر لهم ما قد سَلَف، أي: من كُفرهم، وذنوبهم وخطاياهم، كما جاء في الصحيح، من حديث أبي وائل، عن ابن مسعود: أن رسول الله ـ ﷺ ـ قال: «مَن أحْسَن في الإسلام لم يُؤاخذْ بما عَمِل في الجاهلية، ومن أساء في الإسلام أُخِذَ بالأول والآخر»(١).

وفي الصحيح أيضاً أن رسول الله ـ ﷺ ـ قال: «الإسلام يَجُبّ ما قبله، والتوبةُ تُجبُّ ما كان قبلها»(٢).

وقوله: ﴿وإن يعودوا﴾، أي: يستمروا على ما هم فيه، ﴿فقد مَضَت سنة الأولين﴾، أي: فقد مَضَت سُنَّتنا في الأولين أنهم إذا كَذَّبوا واستمرّوا على عنادهم أنا نُعاجِلُهُم بالعَذَاب والعقوبة.

قال مجاهد في قوله: ﴿فقد مَضَت سُنَّة الأولين﴾، أي: في قريشٍ يوم بدر وغيرها من الأمم، وقال السدِّيُّ ومحمد بن إسحاق أي: يوم بدر(٣).

وقوله: ﴿وقاتلوهم حتى لا تكون فتنة ويكون الدين كله لله﴾، قال البخاري:

حدثنا الحسن بن عبد العزيز، حدثنا عبد الله بن يحيى، حدثنا حَيْوة بن شُرَيح، عن بكر بن عمرو، عن بُكَير، عن نافع، عن ابن عمر: أن رجلاً جاءه فقال: يا أبا عبد الرحمن، ألا تسمع ما ذَكَر الله في كتابه: ﴿وإن طائفتان من المؤمنين اقتتلوا﴾ . . . الآية، فما يمنَعُك ألا تقاتلَ كما ذَكَر الله في كتابه؟ فقال: يا ابن أخي، أُعَيَّر بهذه الآية ولا أقاتل أَحَبُّ إلي من أن أُعيَّرَ بالآية التي يقول الله عز وجل: ﴿ومن يقتل مؤمناً متعمداً﴾ . . . إلى آخرها ـ قال: فإن الله تعالى يقول: ﴿وقاتلوهم حتى لا تكون فتنة﴾؟ قال ابن عمر: قد فعلنا على عهد النبي ـ ﷺ ـ إذ كان الإسلام قليلاً، وكان الرجل يُفتَنُ في دينه: إما أن يقتلوه، وإما أن يُوثِقُوه، حتى كثر الإسلام فلم تكن فتنة. فلما رأى أنه لا يوافقه فيما يريد، قال: فما قولك في عليٍّ وعثمان؟ قال ابن عمر: ما قولي في عليٍّ وعثمان؟ أمَّا عثمان فكان الله قد عفا عنه، وكرهتم أن تَعفُوا عنه، وأما عليٌّ فابنُ عَمِّ رسولِ الله ـ ﷺ ـ وخَتَنُه ـ وأشار بيده ـ وهذه ابنته ـ أو: بنته ـ حيث ترون.

وحدثنا أحمد بن يونس، حدثنا زُهَير، حدثنا بيان أن وَبَرَة حَدَّثه قال: حدثني سعيد بن جُبَير قال: خرج علينا ـ أو: إلينا ـ ابن عُمَر ـ رضي الله عنهما ـ فقال [رجل]: كيف ترى في قتال الفتنة؟ فقال: وهل تدري ما الفتنة؟ كان محمد ـ ﷺ ـ يقاتل المشركين، وكان الدخولُ عليهم فتنةً، وليس بقتالكم على الملك.

هذا كله سياق البخاري رحمه الله(٤).

وقال عبيد الله، عن نافع، عن ابن عمر: أنه أتاه رجلان في فتنة ابن الزبير فقالا: إن الناس قد صَنَعوا ما ترى، وأنت ابن عمر بن الخطاب، وأنت صاحبُ رسولِ الله ـ ﷺ ـ فما يمنَعُك أن تخرجَ؟ قال: يمنعني أن الله حَرَّم علي دم أخي المسلم. قالوا: أو لم يقل الله: ﴿وقاتلوهم حتى لا تكون فتنة ويكون الدين كله لله﴾؟ قال: قد قاتلنا حتى لم تكن فتنة، وكان الدينُ كلُّه لله. وأنتم تريدون أن تقاتلوا حتى تكون فتنة، ويكون الدينُ لغير الله.

---

(١) أخرجه الشيخان، فتح الباري، كتاب استتابة المرتدين ١٢/ ٢٦٥، ومسلم، كتاب الإيمان ١١١.
(٢) مسند الإمام أحمد ٤/ ١٩٩.
(٣) تفسير الطبري ٩/ ٢٤٨.
(٤) فتح الباري، تفسير سورة الأنفال ٨/ ٣٠٩ ـ ٣١٠.

وكذا رواه حَمَّاد بن سلمة، عن علي بن زيد، عن أيوب بن عبد الله اللخمي قال: كنتُ عند عبد الله بن عمر - رضي الله عنهما - فأتاه رجلٌ فقال: إن الله يقول: ﴿وقاتلوهم حتى لا تكون فتنةٌ ويكون الدينُ كلُّه لله﴾، فقال ابن عمر: قاتلت أنا وأصحابي حتى كان الدينُ كلُّه لله، وذهبَ الشركُ ولم تكن [فتنةٌ]، ولكنك وأصحابَكَ تقاتلون حتى تكون فتنة، ويكون الدين لغير الله. رواهما ابن مَرْدُويه.

وقال أبو عوانة، عن الأعمش، عن إبراهيم التَّيمِي، عن أبيه قال: قال ذو البطين - يعني أسامة بن زيد -: لا أقاتل رجلاً يقول: «لا إله إلا الله» أبداً. قال: فقال سعدُ بن مالك: «وأنا والله لا أقاتل رجلاً يقول: لا إله إلا الله أبداً. فقال رجل: ألم يقل الله: ﴿وقاتلوهم حتى لا تكون فتنةٌ ويكون الدينُ كلُّه لله﴾؟ فقالا: قد قاتلنا حَتَّى لم تكن فتنة، وكان الدين كله لله. رواه ابن مردويه.

وقال الضحاك، عن ابن عباس: ﴿وقاتلوهم حتى لا تكون فتنة﴾، يعني: لا يكون شرك. وكذا قال أبو العالية، ومجاهد، والحسن، وقتادة، والربيع بن أنس، والسدّيُّ، ومقاتل بن حَيَّان، وزيد بن أسلم.

وقال محمد بن إسحاق: بلغني عن الزهريِّ، عن عروةَ بن الزُّبير وغيره من علمائنا: ﴿حتى لا تكونَ فتنةٌ﴾: حتى لا يُفتَن مسلمٌ عن دينه.

وقوله: ﴿ويكون الدين كلُّه لله﴾، قال الضحاك، عن ابن عباس في هذه الآية. قال: يَخْلُصَ التوحيدُ لله.

وقال الحسن وقتادة، وابن جُرَيج ﴿ويكون الدينُ كلُّه لله﴾: أن يقال: «لا إله إلا الله».

وقال محمد بن إسحاق: ويكون التوحيدُ خالصاً لله، ليس فيه شركٌ، ويخلع ما دونه من الأنداد.

وقال عبد الرحمن بن زيد بن أسلم: ﴿ويكون الدينُ كلُّه لله﴾، لا يكون مع دينكم كفر.

ويشهد له ما ثبتَ في الصحيحين عن رسول الله - ﷺ - أنه قال: «أمرت أن أقاتل الناس حتى يقولوا: لا إله إلا الله»، فإذا قالوها عَصَمُوا مني دماءَهم وأموالهم إلا بحقِّها، وحسابُهم على الله عز وجل»[١]. وفي الصحيحين عن أبي موسى الأشعري قال: سُئِل رسولُ الله - ﷺ - عن الرجل يقاتلُ شجاعةً ويقاتل حَمِيَّةً، ويقاتل رياءً، أيُّ ذلك في سبيل الله عز وجل؟ فقال: من قاتل لتكون كلمةُ الله هي العليا، فهو في سبيل الله»[٢].

وقوله: ﴿فإن انتهوا﴾، أي: بقتالكم إياهم عماهم فيه من الكفر، فكفُّوا عنه وإن كنتم لا تعلمون بواطنهم، ﴿فإن الله بما يعملون بصير﴾، كما قال تعالى: ﴿فإن تابوا وأقاموا الصلاة وآتوا الزكاة فخلوا سبيلهم، إن الله غفور رحيم﴾، وفي الآية الأخرى: ﴿فإخوانكم في الدين﴾.

وقال: ﴿وقاتلوهم حتى لا تكون فتنة ويكون الدين لله، فإن انتهوا فلا عدوان إلا على الظالمين﴾، وفي الصحيح أن رسول الله - ﷺ - قال لأسامة - لما علا ذلك الرجلَ بالسيف، فقال: «لا إله إلا الله». فضربه فقتله، فَذُكِرَ ذلك لرسول الله - ﷺ - فقال لأسامة -: «أقتلته بعد ما قال «لا إله إلا الله»؟ وكيف تصنعُ بلا إله إلا الله يوم القيامة؟ قال: يا رسول الله، إنما قالها تَعَوُّذاً. قال: هلا شَقَقْتَ عن قلبه؟ وجعل يقولُ ويكرر عليه: من لك بـ«لا إله إلا الله» يوم القيامة؟ قال أسامة: حتى تَمَنَّيتُ أني لم أكن أسلمت إلا يومئذٍ[٣].

---

(١) أخرجاه في كتاب الإيمان، فتح الباري ١/ ٧٥، ومسلم ٥١ - ٥٢.

(٢) فتح الباري، كتاب العلم ١/ ٢٢٢، ومسلم، كتاب الإمارة ١٥١٢ - ١٥١٣.

(٣) مسلم، كتاب الإيمان ٩٧، وسنن أبي داود، كتاب الجهاد ٣/ ٤٤ - ٤٥، وابن ماجه، كتاب الفتن ١٣٩٦، ومسند الإمام أحمد ٥/ ٢٠٧.

وقولُه: ﴿وإن تولوا فاعلموا أن الله مولاكم نعم المولى ونعم النصير﴾، أي: وإن استمرُّوا على خلافكم ومحاربتكم، ﴿فتعلموا أن الله مولاكم﴾: سيدكم وناصركم على أعدائكم، فنعم المولى ونعم النصير.

وقال محمد بن جرير: حدثني عبدُ الوارث بن عبد الصَّمد، حدثنا أبي، حدثنا أبان العطار، حدثنا هشام ابن عُروة، عن عُروة: أن عبد الملك بن مَرْوان كتب إليه يسأله عن أشياء، فكتب إليه عروةُ: «سلامٌ عليك، فإني أحمدُ إليك الله الذي لا إله إلا هو. أما بعدُ فإنك كتبت إليّ تسألني عن مخرج رسول الله - ﷺ - من مكة، وسأخبرك به، ولا حول ولا قوة إلا بالله:

كان من شأن مخرج رسول الله - ﷺ - من مكة، أن الله أعطاه النبوة، فَنِعْم النَّبيُّ، ونعم السيدُ، ونعم العشيرةُ، فجزاه الله خيراً، وَعرَّفَنا وجهه في الجَنَّة، وأحيانا على مِلَّته، وأماتنا عليها، وبعثنا عليها. وإنه لما دعا قومَه لما بعثه الله له من الهدى والنور الذي أنزل عليه، لم يبعدوا[١] منه أول ما دعاهم إليه، وكادوا يسمعون له حتى ذكر طواغيتهم. وقَدِم ناسٌ من الطائف من قُرَيش، لهم أموال، أنكر ذلك عليه ناسٌ واشتدوا عليه، وكرهوا ما قال، وأغروا به من أطاعهم، فانصفق[٢] عنه عامّة الناس، فتركوه إلا من حفظه الله منهم، وهم قليلٌ. فمكث بذلك ما قَدَّر الله أن يمكُث، ثم ائتمرت رءُوسُهم بأن يفتِنُوا من اتَّبعه عن دين الله من أبنائهم وإخوانهم وقبائلهم، فكانت فتنةٌ شديدةُ الزلزال، فافتُتِن من افتُتن، وعصم الله من شاء منهم. فلما فُعِل ذلك بالمسلمين، أمرهم رسول الله - ﷺ - أن يخرجوا إلى أرض الحبشة. وكان بالحبشة ملك صالح يقال له «النجاشي»، لا يُظلَم أحدٌ بأرضه، وكان يُثْني عليه مع ذلك، وكانت أرضُ الحبشة متجراً لقريش، يتجرون فيها، ومساكن لتجارهم، يجدون فيها رتاعاً[٣] من الرزق وأمنا ومتجراً حسناً. فأمَرَهم بها النبي - ﷺ - فذهب إليها عامتهم لما قُهِروا بمكة، وخاف[٤] عليهم الفتن. ومكث هو فلم يَبْرَح، فمكث بذلك سنواتٍ يشتدُّون على من أسلم منهم. ثم إنه فَشا الإسلام فيها، ودخل فيه رجالٌ من أشرافهم ومَنَعَتهم[٥]. فلما رأوا ذلك استرخوا [استرخاءة][٦] عن رسول الله - ﷺ - وعن أصحابه. وكانت الفتنةُ الأولى هي أخرجت من خرج من أصحاب رسول الله - ﷺ - قِبَلَ أرض الحبشة مخافتها، وفراراً مما كانوا فيه من الفتن والزلزال. فلما اسْتُرْخِيَ عنهم ودَخَل في الإسلام من دخل منهم، تُحدِّث باسترخائهم عنهم، فبلغ ذلك من كان بأرض الحبشة من أصحاب رسول الله - ﷺ -: أنه قد اسْتُرخِيَ عمن كان منهم بمكة، وأنهم لايُفتَنُونَ. فرجعوا إلى مكة، وكادوا يأمنون بها، وجعلوا يزدادون ويكثرون. وإنه أسلم من الأنصار بالمدينة ناس كثير، وفشا بالمدينة الإسلام، وطَفِق أهلُ المدينة يأتون رسول الله - ﷺ - بمكة. فلما رأت قريشٌ ذلك تآمرت على أن يَفْتِنُوهم ويشتدُّوا، فأخذوهم، فَحَرَصُوا على أن يفتنوهم، فأصابهم جَهْد شديد، فكانت الفتنة الأخيرة، فكانت فتنتان: فتنةٌ أخرَجَتْ من خَرَج منهم إلى أرض الحبشة، حين أمرهم النبي - ﷺ - بها، وأذن لهم في الخروج إليها، وفتنة لما رجعوا ورأوا من يأتيهم من أهل المدينة. ثم إنه جاء رسولَ الله - ﷺ - من المدينة سبعون نقيباً، رءُوسُ الذين أسلموا، فوافَوه بالحجِّ، فبايعوه بالعقبة، وأعطوه عهودَهم على أنا منك وأنت منا، وعلى أن من جاء من أصحابك أو جئتنا، فإنا نَمنَعُك مما نمنَعُ

(١) في تفسير الطبري: لم ينفروا.
(٢) أي: رجعوا وانصرفوا. وفي تفسير الطبري: فانعطف عنه.
(٣) في الأصل: رقاعاً. والمثبت عن تفسير الطبري. يقال: رتع يرتع رَتْعاً ورُتُوعاً ورتاعاً: وهو الأكل والشرب رغداً في الريف.
(٤) في النسخ: وخافوا. وأثبتنا ما أثبته الأستاذ محمود شاكر في نشرته لتفسير الطبري عن تاريخ الطبري.
(٥) المَنَعَةُ: جمع مانع، وهم الذين يمنعون من يريدهم بسوء.
(٦) عن تفسير الطبري. والمعنى أنهم خففوا عنهم العذاب.

منه أنفسنا، فاشتدَّت عليهم قريشٌ عند ذلك، فأمر رسولُ الله ـ ﷺ ـ أصحابه أن يخرجوا إلى المدينة، وهي الفتنة الآخرة التي أخرج فيها رسول الله ـ ﷺ ـ أصحابه، وخرج هو، وهي التي أنزل الله ـ عز وجل ـ فيها: ﴿وقاتلوهم حتى لا تكون فتنة ويكون الدين كله لله﴾(١).

ثم رواه [عن] يونس بن عبد الأعلى، عن ابن وهب، عن عبد الرحمن بن أبي الزِّناد، عن أبيه، عن عُروة ابن الزبير: أنه كتب إلى الوليد ـ يعني ابن عبد الملك بن مروان ـ بهذا، فذكر مثله. وهذا صحيح إلى عروة رحمه الله.

﴿ ۞ وَٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّمَا غَنِمْتُم مِّن شَىْءٍ فَأَنَّ لِلَّهِ خُمُسَهُۥ وَلِلرَّسُولِ وَلِذِى ٱلْقُرْبَىٰ وَٱلْيَتَـٰمَىٰ وَٱلْمَسَـٰكِينِ وَٱبْنِ ٱلسَّبِيلِ إِن كُنتُمْ ءَامَنتُم بِٱللَّهِ وَمَآ أَنزَلْنَا عَلَىٰ عَبْدِنَا يَوْمَ ٱلْفُرْقَانِ يَوْمَ ٱلْتَقَى ٱلْجَمْعَانِ ۗ وَٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴿٤١﴾ ﴾

يُبيِّن تعالى تفصيل ما شَرَعه مخصَّصاً لهذه الأمة الشريفة، من بين سائر الأمم المتقدمة، من إحلال المغانم. والغنيمة: هي المال المأخوذ من الكفار بإيجاف(٢) الخيل والركاب، والفيءُ: ما أُخِذ منهم بغير ذلك، كالأموال التي يصالحون عليها، أو يتوفون عنها ولا وارث لهم، والجزية والخراج ونحو ذلك. هذا مذهب الإمام الشافعي في طائفة من علماء السلف والخلف.

ومن العلماء من يطلق الفيء على ما تطلق عليه الغنيمة، والغنيمة على الفيء أيضاً، ولهذا ذهب قتادةُ إلى أن هذه الآية ناسخة لآية «الحشر»: ﴿ما أفاء الله على رسوله من أهل القرى فلله وللرسول ولذي القربى واليتامى والمساكين﴾ الآية، قال: فنسخت آية ﴿الأنفال﴾ تلك، وجعلت الغنائم: أربعة أخماسٍ للمجاهدين وخمساً منها لهؤلاء المذكورين(٣).

وهذا الذي قاله بعيدٌ، لأنَّ هذه الآية نزلت بعد وقعة بدر، وتلك نزلت في بني النضير، ولا خلاف بين علماء السير والمغازي قاطبة أن بني النضير بعد بدر. هذا أمر لا يُشَكُّ فيه ولا يُرتابُ، فمن يفرق بين معنى الفيء والغنيمة يقول: تلك نزلت في أموال الفيء وهذه في المغانم. ومن يجعل أمر المغانم والفيء راجعاً إلى رأي الإمام يقول: لا منافاة بين آية الحشر وبين التَّخمِيس إذا رآه الإمامُ، والله أعلم.

وقوله تعالى: ﴿واعلموا أنما غنمتم من شيء فأن لله خُمُسه﴾ توكيـدٌ لتخميس كل قليل وكثير حتى الخيط والمِخْيطِ، قال الله تعالى: ﴿ومن يغلل يأت بما غل يوم القيامة، ثم توفى كل نفس ما كسبت وهم لا يظلمون﴾.

وقوله: ﴿فأن لله خمسه وللرسول﴾، اختلف المفسرون ها هنا، فقال بعضهم: لله نصيب [من الخمس] يجعل في الكعبة:

قال أبو جعفر الرازي، عن الربيع، عن أبي العالية الرياحي قال: كان رسولُ الله ـ ﷺ ـ يؤتَى بالغنيمة فيقسمها على خمسة، تكون أربعة أخماس لمن شهدها، ثم يأخذ الخمس فيضرب بيده فيه، فيأخذ منه الذي قبض كفه، فيجعله للكعبة، وهو سَهمُ الله. ثم يقسم ما بقي على خمسة أسهم، فيكون سهم للرسول، وسهم

---

(١) تفسير الطبري ٩/ ٢٤٩ ـ ٢٥٠.
(٢) أرجف الخيل: حثها.
(٣) تفسير الطبري ١٠/ ٢.

لذوي القربى، وسهم لليتامى، وسهم للمساكين، وسهم لابن السبيل[١].

وقال آخرون: ذكر الله ها هنا استفتاحُ كلامٍ للتبرُّكِ، وسهمُه[٢] للرسول عليه السلام:

قال الضحاك، عن ابن عباس ـ رضي الله عنهما ـ: كان رسولُ الله ـ ﷺ ـ إذا بعث سرية فغنموا، خَمَّس الغنيمة، فَضَرب ذلك الخمس في خَمْسة. ثم قرأ: ﴿واعلموا أنما غَنِمتُم من شيءٍ فَأَنَّ لله خُمسَه وللرسولِ﴾، [قال[٣]: وقوله:] ﴿فَأَنَّ لله خُمسَه﴾، مفتاح كلام، لله ما في السموات وما في الأرض، فَجُعِل الله وسهمُ الرسول واحداً.

وهكذا قال إبراهيم النَّخَعي، والحسن بن محمد بن الحنفية. والحسن البصري، والشعبي، وعطاء بن أبي رباح، وعبد الله بن بُرَيدة[٤]، وقتادة، ومغيرة، وغير واحد: أن سهم الله ورسوله واحد.

ويؤيد هذا ما رواه الإمام الحافظ أبو بكر البيهقي بإسناد صحيح، عن عبد الله بن شقيق، عن رجل من بَلْقَين[٥] قال: أتيتُ رسولَ الله ـ ﷺ ـ وهو بوادي القُرَى، وهو يعرض فرساً، فقلت: يا رسولَ الله، ما تقول في الغنيمة؟ فقال: لله خمسها، وأربعة أخماس للجيش. قلت: فما أحد أولى به من أحد؟ قال: لا، ولا السهم تستخرجه من جَنْبك، ليس أنت أحق به، من أخيك المسلم[٦].

وقال ابن جَرير: حدثنا عمران بن موسى، حدثنا عبد الوارث، حدثنا أبانُ، عن الحَسَنِ قال: أوصى أبو بكر[٧] بالخمس من ماله، وقال: ألا أرضى من مالي بما رضي الله لنفسه.

ثم اختلف قائلو هذا القول، فروى علي بن أبي طلحة، عن ابن عباس قال: كانت الغنيمة تقسم على خمسة أخماس، فأربعة منها بين من قاتل عليها، وخمس واحد يقسم على أربعة[٨]: فربعٌ لله وللرسول. فما كان لله وللرسولِ فهو لقرابة رسول الله ﷺ، ولم يأخذ النبي ـ ﷺ ـ من الخمس شيئاً.

وقال ابن أبي حاتم: حدثنا أبي، حدثنا أبو معمر المنقري، حدثنا عبد الوارث بن سعيد، عن حسين المعلم، عن عبد الله بن بُريدَة في قوله: ﴿واعلموا أنما غنمتم من شيء فأن لله خمسه وللرسول﴾، قال: الذي لله فلنبيّه، والذي للرسول لأزواجه.

وقال عبد الملك بن أبي سليمان، عن عطاء بن أبي رباح قال: خمسُ الله والرسولِ واحدٌ، يَحْمِلُ منه ويَصْنَعُ فيه ما شاء. يعني النبيَّ ﷺ.

وهذا أعمُّ وأشملُ، وهو أن الرسول ـ ﷺ ـ يتصرَّفُ في الخمس الذي جعله الله له بما شاء، ويَرُدُّه في أمته كيف شاء، ويشهد لهذا ما رواه الإمام أحمد حيث قال:

حدثنا إسحاق بن عيسى، حدثنا إسماعيل بن عَيَّاش، عن أبي بكر بن عبد الله بن أبي مريم، عن أبي

---

(١) تفسير الطبري ١٠/ ٣ ـ ٤.
(٢) في الأصل: وسهم. والمثبت عن إحدى النسخ، ولفظها: وسهمه لرسوله عليه السلام.
(٣) عن تفسير الطبري ١٠/ ٣.
(٤) في الأصل: عبد الله بن أبي بريدة. وهو خطأ، انظر الجرح والتعديل لابن أبي حاتم ٥/ ١٣. وسيرد على الصواب في بعض الآثار.
(٥) أي: من بني القين. خفف بحذف بعض الحروف.
(٦) السنن الكبرى، كتاب قسم الفيء ٦/ ٣٢٤.
(٧) في النسخ: أوصى الحسن. والمثبت عن تفسير الطبري ١٠/ ٣.
(٨) في النسخ: أربعة أخماس. وفي تفسير الطبري ١٠/ ٤: «على أربع، فربع...».

سلام الأعرج، عن المقدام بن معد يكرب الكندي: أنه جلس مع عُبادة بن الصامت، وأبي الدرداء، والحارث ابن معاوية الكندي - رضي الله عنهم - فتذاكروا حديثَ رسول الله - ﷺ - فقال أبو الدرداء لعبادة: يا عبادة، كلمات رسول الله - ﷺ - في غزوة كذا وكذا في شأن الأخماس؟ فقال عبادة: إنَّ رسولَ الله - ﷺ - صلى بهم في غزوة إلى بعير من المغنم، فلما سلم قام رسول الله - ﷺ - فتناول وَبرة بين أنملتيه فقال: إن هذه من غنائمكم، وإنه ليس لي فيها إلا نصيبي معكم إلا الخمس، والخمس مردود عليكم، فأدّوا الخيط والمِخْيَطَ، وأكبَرَ من ذلك وأصغَرَ، ولا تَغُلّوا فإن الغلول نار وعارٌ على أصحابه في الدنيا والآخرة، وجاهدوا الناسَ في الله القريبَ والبعيدَ، ولا تبالوا في الله لومة لائم، وأقيموا حدودَ الله في الحَضَر والسَّفَر، وجاهدوا في الله، فإن الجهاد باب من أبواب الجنة عظيم، يُنَجّي به الله من الهمِّ والغَمِّ(١).

هذا حديث حسن، ولم أره في شيء من الكتب الستة من هذا الوجه. ولكن روى الإمام أحمد أيضاً، وأبو داود، والنسائي، من حديث عمرو بن شُعَيب، عن أبيه، عن جَدِّه عبد الله بن عمرو، عن رسول الله - ﷺ - نحوه في قصة الخُمْسِ، والنهي عن الغلول(٢).

وعن عمرو بن عَبَسَة أن رسول الله - ﷺ - صَلَّى بهم إلى بعير من المغنم، فلما سَلَّم أخذ وبرة من ذلك البعير ثم قال: ولا يحل لي من غنائمكم مثل هـذه إلا الخمسَ، والخمسُ مردودٌ فيكم. رواه أبو داود والنسائي(٣).

وقد كان للنبي - ﷺ - من المغانم شيء يصطفيه لنفسه، عبداً أو أمة أو فرساً أو سيفاً، أو نحو ذلك، كما نَصَّ على ذلك محمد بن سيرين وعامر الشعبي(٤)، وتبعهما على ذلك أكثر العلماء.

وروى الإمام أحمد، والترمذيّ - وحسنه - عن ابن عباس: «أن رسول الله - ﷺ - تَنَفَّلَ سيفه ذا الفَقَار يوم بدر، وهو الذي رأى فيه الرؤيا يوم أحد»(٥).

وعن عائشة رضي الله عنها قالت: «كانت صَفِيَّة من الصَّفِيِّ». رواه أبو داود في سننه(٦).

وروى أيضاً بإسناده، والنسائي أيضاً عن يزيد بن عبد الله قال: كنا بالمِرْبَد إذْ دَخَل رجلٌ معه قطعة أَدِيم، فقرأناها فإذا فيها: «من محمد رسول الله إلى بني زُهَير بن أقيش، إنكم إن شهدتم أن لا إله إلا الله، وأنّ محمداً رسولُ الله، وأقمتم الصلاة، وآتيتم الزكاةَ، وأدّيتم الخمسَ مِن المغنم، وسَهْمَ النبيِّ وسَهْمَ الصَّفِيِّ، أنتم آمنونَ بأمان الله ورسوله». فقلنا: من كَتَبَ لك هذا؟ فقال: رسولُ الله ﷺ(٧).

فهذه أحاديث جَيِّدةٌ تدل على تقرر هذا وثبوته، ولهذا جعل ذلك كثيرون من الخصائص له صلوات الله وسلامه عليه.

---

(١) مسند الإمام أحمد ٦/ ٣١.

(٢) انظر تفسير الآية ١٦١ من سورة آل عمران.

(٣) سنن أبي داود، كتاب الجهاد ٣/ ٨٢، وفي النسائي، كتاب قسم الفيء ٧/ ١٣١. عن عبادة بن الصامت وعمرو بن العاص.

(٤) أخرجه أبو داود في كتاب الإمارة ٣/ ١٥٢. وانظر الخراج لأبي يوسف ٦٦.

(٥) مسند الإمام أحمد ١/ ٢٧١، وعارضة الأحوذي، أبواب السير ٧/ ٥٤.

ومعنى تَنَفَّلَ: أخذه زيادةً على السهم.

فأما الرؤيا فقد رأى عليه السلام في منامه يوم أحد أنه هَزّ ذا الفقار فانقطع من وسطه، ثم هَزّه هَزّةً أخرى فعاد أحسن مما كان.

(٦) سنن أبي داود، كتاب الإمارة ٣/ ١٥٢.

(٧) سنن أبي داود، كتاب الإمارة ٣/ ١٥٣، والنسائي، كتاب قسم الفيء ٧/ ١٣٤، ومسند الإمام أحمد ٥/ ٧٧ - ٧٨، ٣٦٤.

وقال آخرون: إن الخمس يتصرف فيه الإمام بالمصلحة للمسلمين، كما يَتصرَّف في مال الفيء.

وقال شيخنا الإمام العلامة ابن تَيمِية رحمه الله: وهذا قولُ مالكٍ وأكثر السَّلَف، وهو أصح الأقوال.

فإذا ثبت هذا وعُلِم، فقد اختلِفَ أيضاً في الذي كان يناله ـ عليه السلام ـ من الخُمُسِ، ماذا يُصنَعُ به من بعده؟ فقال قائلون: يكون لمن يلي الأمر من بعده. رُوِي هذا عن أبي بكر، وعلي، وقتادة، وجماعة، وجاء فيه حديث مرفوع.

وقال آخرون: يُصْرفُ في مَصالح المسلمين.

وقال آخرون: بل هو مردودٌ على بقيَّة الأصناف: ذوي القربى، واليتامى، والمساكين، وابن السبيل. واختاره ابن جرير[١].

وقال آخرون: بل سهمُ النبي ـ ﷺ ـ وسهم ذوي القربى مردودان على اليتامى والمساكين وابن السبيل.

قال ابن جرير: وذلك قول جماعة من أهل العراق.

وقيل: إن الخمس جميعه لذوي القربى، كما رواه ابن جرير:

حدثنا الحارث، حدثنا عبد العزيز، حدثنا عبد الغفار، حدثنا المنهال بن عمرو: سألتُ عبدَ الله بن محمد بن عليٍّ، وعَلِيَّ بن الحُسَين، عن الخُمُس فقالا: هو لنا. فقلتُ لعليٍّ: فإنَّ الله يقول: ﴿واليتامى والمساكين وابن السبيل﴾، فقالا: يتامانا ومساكيننا.

وقال سفيان الثوري، وأبو نُعَيم، وأبو أسامة، عن قيس بن مسلم: سألت الحسن بن محمد بن الحنفية ـ رحمه الله تعالى ـ: عن قول الله تعالى: ﴿واعلموا أنما غنمتم من شيء فأن لله خمسه وللرسول﴾، قال: هذا مفتاح كلام، لله الدنيا والآخرة. ثم اختلف الناس في هذه السهمين بعد وفاة رسول الله ـ ﷺ ـ فقال قائلون: سهم النبي ـ ﷺ تسليماً ـ للخليفة من بعده، وقال قائلون: لقرابة النبي ـ ﷺ ـ وقال قائلون: سهم القرابة لقرابة الخليفة. فاجتمع قولهم على أن يجعلوا هذين السهمين في الخيل والعُدّة في سبيل الله، فكانا على ذلك في خلافة أبي بكر وعمر رضي الله عنهما[٢].

قال الأعمش، عن إبراهيم: كان أبو بكر وعمر يجعلان سهم النبي ـ ﷺ ـ في الكُراع[٣] والسلاح، فقلت لإبراهيم: ما كانَ عليٌّ يقول فيه؟ قال: كان أشدَّهم فيه[٤].

وهذا قولُ طائفةٍ كثيرةٍ من العلماء رَحِمهم الله.

وأمّا سهمُ ذَوِي القُرْبى فإنه يُصْرَفُ إلى بني هاشم وبني المطلب، لأنَّ بني المطَّلب وازرُوا بَنِي هاشمٍ في الجاهلية، ودَخَلُوا معهم في الشِّعب غَضَباً لرسول الله ـ ﷺ ـ وحماية له: مُسلمُهم طاعةً لله ولرسوله، وكافِرُهم حَمِيَّةً للعشيرة وأنفَةً وطاعةً لأبي طالب عم رسوّل الله. وأما بنو عبد شمس وبنو نوفل ـ وإن كانوا أبناء عمهم ـ فلم يوافقوهم على ذلك، بل حاربوهم ونابذوهم، ومالئوا بطون قريش على حرب الرسول، ولهذا كان ذَمّ أبي طالب لهم في قصيدته اللامية أشدَّ من غيرهم، لشدَّةِ قربهم. ولهذا يقولُ في أثناء قصيدته:

---

(١) تفسير الطبري ١٠/ ٨.
(٢) تفسير الطبري ١٠/٦-٧.
(٣) الكراع: اسم لجميع الخيل.
(٤) تفسير الطبري ١٠/ ٧.

جَـزَى اللهُ عَنَّا عبدَ شمس ونَـوفلا ... عُقُوبَـةَ شَـرٍّ عـاجـلٍ غيرِ آجـلِ
بـمـيـزان قِـسْـطٍ لا يَخيسُ شَعِيـرَةً ... لـهُ شاهـدٌ مِنْ نَفْسه غيرُ عـائـلِ(١)
لقـد سَفِهت أحـلامُ قـومٍ تَبـدَّلـوا ... بَنِي خَلَفٍ قَيْضًا بنا والغَيـاطِـلِ(٢)
ونحن الصَّميمُ مـن ذؤابـةِ هـاشم ... وآلِ قُصيٍّ في الخُـطُوبِ الأوائـلِ(٣)

وقال جُبَيرُ بن مُطعِم بن عَدِيٍّ: مَشَيتُ أنا وعثمانَ بن عَفَّان ـ يعني ابن أبي العاص بن أمية بن عبد شمس ـ إلى رسول الله ـ ﷺ ـ فقلنا: يا رسولَ الله، أعطيتَ بني المطَّلِب من خُمُسِ خَيْبَرَ وتركتَنا، ونحن وَهُم منك بمنزلةٍ واحدة! فقال: إنما بنو هاشم وبنو المطلب شيءٌ واحد.

رواه مسلم(٤). وفي بعض روايات هذا الحديث: «إنهم لمْ يُفارِقُونا في جاهِلِيَّة ولا إسلامٍ»(٤).

وهذا قولُ جمهور العلماء أنهم بنو هاشم وبنو المطلب.

قال ابن جَرير: وقال آخرون: هم بنو هاشم. ثم روى عن خُصَيف، عن مجاهد قال: علم الله أن في بني هاشم فقراء، فجعل لهم الخمس مكان الصدقة. وفي رواية عنه قال: هم قرابة رسول الله ـ ﷺ ـ الذين لا تحل لهم الصدقة. ثم روى عن علي بن الحسين نحو ذلك.

قال ابن جرير: وقال آخرون: بل هم قريش كلها:

حدثني يُونُس بن عبد الأعلى، حدثني عبد الله بن نافع، عن أبي معشر، عن سعيد المقبُريِّ قال: كتب نَجْدَةُ إلى عبد الله بن عباس يسأله عن «ذي القربى»، فكتب إليه ابنُ عباسٍ: كُنَّا نقولُ: إنا هُم، فأبى ذلك علينا قومُنا، وقالوا: قريش كلها ذوو قربى(٥).

وهذا الحديثُ في صحيح(٦) مسلم، وأبي داود، والترمذيّ، والنسائي من حديث سعيد المقبريِّ عن يزيدَ بن هُرمُز أن نَجْدَة كتب إلى ابن عباس يسأله عن ذوي القربى، فذكره إلى قوله: «فأبى ذلك علينا قومنا». والزيادة من أفراد أبي معشر نَجيح بن عبد الرحمن المدني، وفيه ضعفٌ.

وقال ابنُ أبي حاتم: حدثنا أبي، حدثنا إبراهيم بن مهدي المَصِّيصي، حدثنا المعتمر بن سليمان، عن أبيه، عن حَنَشٍ، عن عكرمة، عن ابن عباس قال: قال رسول الله ـ ﷺ ـ: «رغبت لكم عن غُسالـة(٧) الأيدي، لأن لكم من خُمُس الخمس ما يغنيكم أو يكفيكم».

هذا حديثٌ حسنُ الإسناد، وإبراهيم بن مهدي هذا وَثَّقه أبو حاتم، وقال يحيى بن معين: يأتي بمناكير. والله أعلم.

---

(١) خاس الرجل خيساً: وعده شيئاً ثم أعطاه أنقص منه. والمعنى هنا: لا ينقص مقدار شعيرة. وفي لسان العرب، عيل: لا يُغِلُّ شعيرةً. وعال الميزان يعيل: جار.

(٢) القيضُ: العِوضُ، يقال: قاضه يَقِضيهُ، مثل قايضه يقايضه. والغياطل: بنو سهم.

(٣) سيرة ابن هشام ١/ ٢٧٧ ـ ٢٧٨.

(٤) كذا، ولم يقع لنا في مسلم، والحديث رواه البخاري في كتاب المناقب والمغازي، انظر فتح الباري ٦/ ٥٣٣، ٧/ ٤٨٤. ورواه النسائي في كتاب قسم الفيء ٧/ ١٣٠ ـ ١٣١. وانظر تحفة الأشراف ٢/٤٠٩ ـ ٤١٠.

(٥) تفسير الطبري ١٠/ ٦. ونجدة هو ابن عامر الحروري، من زعماء الخوارج.

(٦) مسلم، كتاب الجهاد ١٤٤٥، وهـو في سنن أبي داود، والنسائي من رواية الزهري عن يزيد بن هرمز، انظر أبا داود، كتاب الإمارة ٣/ ١٤٦، والنسائي، كتاب قسم الفيء ٧/ ١٢٨ ـ ١٢٩.

(٧) غسالة كلِّ شيء: ماؤه الذي يُغْسَلُ به. أراد به الصدقة.

وقوله: ﴿واليتامى﴾، أي: يتامى المسلمين. واختلف العلماءُ: هل يختصّ بالأيتام الفقراء، أو يعم الأغنياء والفقراء؟ على قولين.

و﴿المساكين﴾، هم المحاويجُ الذين لا يجدون ما يسدّ خلتهم ومسكنتهم.

﴿وابن السبيل﴾، هو: المسافر، أو المُريد للسفر، إلى مسافة تقصر فيها الصلاة، وليس له ما يُنفِقُه في سَفَره ذلك. وسيأتي تفسيرُ ذلك في آية الصدَقات في «سورة براءة»، إن شاء الله تعالى، وبه الثقة، وعليه التكلان.

وقوله: ﴿إن كنتم آمنتم بالله وما أنزلنا على عبدنا﴾، أي: امتَثِلُوا ما شرعنا لكم من الخمس في الغنائم، إن كنتم تؤمنون بالله واليوم الآخر وما أنزل على رسوله. ولهذا جاء في الصحيحين، من حديث عبد الله بن عباس، وفي حديث وفد عبد القيس: أن رسول الله ـ ﷺ ـ قال لهم: «وآمركم بأربع وأنهاكم عن أربع: آمركم بالإيمان بالله» . . . ثم قال: «هل تدرون ما الإيمان بالله؟ شهادةُ أن لا إله إلا الله، وأن محمداً رسول الله، وإقام الصلاة وإيتاء الزكاة، وَأَن تُؤَدُّوا الخُمُسَ من المغنم . . .» الحديث بطوله، فجعل أداء الخمس من جملة الإيمان، وقد بَوَّب البخاري على ذلك في «كتاب الإيمان» من صحيحه فقال: ﴿باب أداء الخمس من الإيمان﴾، ثم أورد حديث ابن عباس هذا، وقد بسطنا الكلام عليه في «شرح البخاري»، ولله الحمد والمنة[(١)].

وقال مقاتل بن حَيَّان: ﴿وما أنزلنا على عبدنا يوم الفرقان﴾، أي: في القسمة.

وقوله: ﴿يوم الفرقان يوم التقى الجمعان، والله على كل شيء قدير﴾، يُنَبِّه تعالى على نعمته وإحسانه إلى خلقِه، بما فَرَق به بين الحقِّ والباطل ببدر، وسُمِّي الفرقان، لأن الله تعالى أعلى فيه كلمة الإيمان على كلمةِ الباطل، وأظهر دينه، ونصر نبيه وحزبه.

قال علي بن أبي طلحة والعَوفِيُّ، عن ابن عباس: ﴿يوم الفرقان﴾ يوم بدر، فَرَق الله فيه بين الحقِّ والباطِلِ رواه الحاكم[(٢)].

وكذا قال مجاهد، ومقسم، وعبيد الله بن عبد الله، والضحاك، وقتادة، ومقاتل بن حيان، وغير واحد: أنه يوم بدر.

وقال عبد الرزاق، عـن مَعْمَر، عن الزهري، عن عُروَةَ بن الزبير في قوله: ﴿يوم الفرقان﴾: يوم فرق الله بين الحق والباطل، وهو يوم بدر، وهو أول مشهد شَهِده رسول الله ـ ﷺ ـ وكان رأسُ المشركين عتبةَ بـن ربيعة، فالتقوا يوم الجمعة لتسعَ عشرةَ ـ أو: سبع عشرة ـ مضت من رمضان، وأصحاب رسول الله ـ ﷺ ـ يومئذ ثلثمائة وبضعة عشر رجلاً، والمشركون ما بين الألف والتسعمائة. فهزم الله المشركين، وقتل منهم زيادة على السبعين، وأسر منهم مثل ذلك.

وقد روى الحاكم في مستدركه، من حديث الأعمش، عن إبراهيم، عن الأسود، عن ابن مسعود قال في ليلة القدر: تَحَروها لإحدى عشرة بقيـن فإن صَبِيحَتَها يوم بدر. وقال: على شرطهما[(٣)].

ورُوِي مثله عن عبد الله بن الزبير أيضاً، من حديث جعفر بن برقان، عن رجل، عنه.

---

(١) أخرجاه في كتاب الإيمان، فتح الباري ١/ ١٢٩ ومسلم ٤٧ ـ ٤٨.
(٢) المستدرك، كتاب المغازي ٣/ ٢٣.
(٣) المستدرك، كتاب المغازي ٣/ ٢٠.

وقال ابن جرير: حدثنا ابن حميد، حدثنا يحيى بن واضح، حدثنا يحيى بن يعقوب أبو طالب، عن أبي[1] عون محمد بن عبيد الله الثقفي، عن أبي عبد الرحمن السلمي قال: قال الحسن بن علي: كانت ليلة الفرقان يوم التقى الجمعان لسبع عشرة من رمضان، إسناد جيد قوي.

ورواه ابن مَرْدُويه، عن أبي عبد الرحمن عبد الله بن حبيب، عن علي قال: كانت ليلة الفرقان ليلة التقى الجمعان، في صَبِيحتها ليلة الجمعة لسبع عشرة مَضَت من شهر رمضان.

وهو الصحيح عند أهل المغازي والسير.

وقال يزيد بن أبي حَبيب إمامُ أهل الديار المصرية في زمانه: «كان يومُ بدرٍ يوم الاثنين». ولم يُتَابع على هذا، وقول الجمهورُ مُقَدَّمٌ عليه، والله أعلم.

﴿إِذْ أَنتُم بِالْعُدْوَةِ الدُّنْيَا وَهُم بِالْعُدْوَةِ الْقُصْوَىٰ وَالرَّكْبُ أَسْفَلَ مِنكُمْ ۚ وَلَوْ تَوَاعَدتُّمْ لَاخْتَلَفْتُمْ فِي الْمِيعَادِ ۙ وَلَٰكِن لِّيَقْضِيَ اللَّهُ أَمْرًا كَانَ مَفْعُولًا لِّيَهْلِكَ مَنْ هَلَكَ عَن بَيِّنَةٍ وَيَحْيَىٰ مَنْ حَيَّ عَن بَيِّنَةٍ ۗ وَإِنَّ اللَّهَ لَسَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴿٤٢﴾﴾

يقول تعالى مخبراً عن يوم الفرقان: ﴿إذ أنتم بالعدوة الدنيا﴾، أي: إذ أنتم نُزُول بعدوة الوادي الدنيا القريبة إلى المدينة، ﴿وهم﴾، أي: المشركون نزولٌ ﴿بالعدوى القصوى﴾، أي: البعيدة التي من ناحية مكة، ﴿والركب﴾، أي: العير الذي فيه أبو سفيان بما معه من التجارة ﴿أسفل منكم﴾، أي: مما يلي سيف البحر ﴿ولو تواعدتم﴾، أي: أنتم والمشركون إلى مكان ﴿لاختلفتم في الميعاد﴾.

قال مُحمَّد بن إسحاقَ: وَحَدَّثني يحيى بن عَبَّاد بن عبد الله بن الزبير، عن أبيه في هذه الآية، قال: ولو كان ذلك عن ميعاد منكم ومنهم، ثم بلغكم كثرةُ عَدَدِهم وقلَّة عَدَدِكم، ما لقيتُموهم، ﴿ولكن ليقضي الله أمراً كان مفعولاً﴾، أي: ليقضِيَ الله ما أراد بقدرته من إعزاز الإسلام وأهله، وإذلال الشركِ وأهله، عن غير مَلأٍ[2] منكم، ففعل ما أراد من ذلك بلطفه[3].

وفي حديث كعب بن مالك قال: إنما خرج رسول الله ـ ﷺ ـ والمسلمون يريدون عِيرَ قريش، حتى جمع الله بينهم وبين عَدُوِّهم على غير ميعاد[4].

وقال ابن جرير: حدثني يعقوب، حدثنا ابن عُلَيَّة، عن ابن عَونٍ، عن عُمَيْر[5] بن إسحاق قال: أقبل أبو سفيان في الركب من الشام، وخرج أبو جهل ليمنعه من رسول الله ـ ﷺ ـ وأصحابه، فالتقوا ببدر، لا يشعُرُ هؤلاء بهؤلاء، ولا هؤلاء بهؤلاء، حتى التقتِ السّقاة، ونَهَد[6] الناسُ بعضهم لبعض.

---

(١) في النسخ: «عن ابن عون، عن محمد بن عبد الله». وفي تفسير الطبري ١٠/ ٩. «وعن ابن عون محمد بن عبد الله». والمثبت عن الجرح لابن أبي حاتم ٨/ ١، وتهذيب التهذيب ٩/ ٣٢٢.

(٢) أي: عن غير اجتماع وتشاور.

(٣) سيرة ابن هشام ١/ ٦٧٢، وتفسير الطبري ١٠/ ١١.

(٤) فتح الباري، كتاب المغازي ٧/ ٢٨٥.

(٥) في تفسير الطبري ١٠/ ١١: «عمر بن إسحاق». والصواب ما أثبت، انظر الجرح لابن أبي حاتم ٦/ ٣٧٥.

(٦) أي: نهضوا للقتال. وفي تفسير الطبري: ونظر الناس.

وقال محمد بن إسحاق في السيرة: ومضى رسول الله ـ ﷺ ـ على وجهه ذلك، حتى إذا كان قريباً من «الصفراء» بعث بَسْبَسَ بن عمرو، وعَدِيّ بن أبي الزَّغْباء الجُهَنِيَّين، يلتمسان الخبر عن أبي سفيان، فانطلقا حتى إذا وَرَدا بدراً فأناخا بَعيريهما إلى تَلٍّ من البطحاء، فاستقيا في شَنّ[1] لهما من الماء، فسمعا جاريتين تَختصمان، تقول إحداهما لصاحبتها: «اقضيني حقي». وتقول الأخرى: «إنما تأتي العير غداً أو بعد غد، فأقضيك حقك». فَخَلّص بينهما مَجْدِيُّ بنُ عَمْرو، وقال: صَدَقْتِ. فسمع ذلك بَسْبَسٌ وَعَدِيٌّ، فجلسا على بعيريهما، حتى أتيا رسول الله ـ ﷺ ـ فأخبراه الخبر. وأقبل أبو سفيان حين وليا وقد حَذِر، فتقدم أمام عيره وقال لمجديّ بن عمرو: هل أحْسَسْتَ على هذا الماء من أحدٍ تُنكِرُه؟ فقال: لا والله، إلا أني قد رأيتُ راكبين أناخا إلى هذا التل، فاستقيا في شَنٍّ لهما، ثم انطلقا. فجاء أبو سفيان إلى مُناخ بعيريهما، فأخذ من أبعارهما، فَفَتَّه، فإذا فيه النَّوى، فقال: «هذه والله علائفُ يَثْرِبَ». ثم رجع سريعاً فضرب وجه عِيره، فانطلق بها فَساحَل، حتى إذا رأى أن قد أحرز عِيرَه بعث إلى قريش فقال: إن الله قد نَجّى عِيرَكم وأموالكم ورجالكم، فارجعوا.

فقال أبو جهل: والله لا نرجع حتى نأتي بدراً ـ وكانتَ بدرٌ سوقاً من أسواق العرب ـ فنقيم بها ثلاثاً، فنُطْعمُ بها الطعام، وننحرُ بها الجُزُر، ونسْقَى بها الخمر، وتَعزِفَ علينا القِيانُ، وتسمعَ بنا العربُ وبسيرنا، فلا يزالون يهابوننا بعدها أبداً.

فقال الأخنس بن شَرِيق: يا معشر بني زُهَرة، إن الله قد نَجّى أموالكم، ونَجّى صاحبكم، فارجعوا. فأطاعوه، فرجعت بنو زُهرَةَ، فلم يشهدوها ولا بنو عَدِيّ[2].

قال محمد بن إسحاق: وحدثني يزيد بن رُومانَ، عن عُروة بن الزُّبير قال: وبعثَ رسولُ الله ـ ﷺ ـ حين دنا من بدر ـ عليّ بنِ أبي طالب، وسعد بن أبي وقّاص، والزُّبير بن العوام، في نَفَرٍ من أصحابه، يتحسَّسُون له الخبر، فأصابوا سُقَاةً لقريش: غلاماً لبني سعيد بن العاص، وغلاماً لبني الحجاج، فأتوا بهما رسولَ الله ـ ﷺ ـ فوجدوه يُصَلّي، فجعل أصحابُ رسول الله ـ ﷺ ـ يسألونهما: لمن أنتما؟ فيقولان: «نحن سُقاةُ لقريش، بعثونا نسقيهم من الماء». فَكَرِه القومُ خبرهما، ورجوا أن يكونا لأبي سفيان، فضربوهما فلما أذلقوهما[3] قالا: «نحن لأبي سفيان». فتركوهما، وركع رسولُ الله ـ ﷺ ـ وسجد سَجْدَتين، ثم سَلَّم وقال: «إذا صَدَقاكم ضربتموهما، وإذا كَذَباكم تركتموهما. صَدَقا، والله إنَّهما لِقُريش، أخبرَاني عن قُرَيش. قالا: هم وراء هذا الكَثِيب الذي ترى بالعُدْوَة القُصْوَى ـ والكثيب: العَقَنْقَلُ[4] ـ فقال لهما رسولُ الله ـ ﷺ ـ: كم القومُ؟ قالا: كثيرٌ. قال: ما عِدَّتُهم؟ قالا: ما نَدْرِي. قال: كم يَنْحَرون كلَّ يوم؟ قالا: يوماً تسعاً، ويوماً عشراً. قال رسول الله ـ ﷺ ـ: القوم ما بين التسعمائة إلى الألف. ثم قال لهما: فمن فيهم من أشراف قريش؟ قالا: عُتبَةُ بن رَبِيعة، وشَيْبَةُ بن رَبِيعَة، وأبو البَخْتَرِيّ بن هشام، وحَكِيمُ بن حِزَامٍ، ونوفلُ بن خُوَيلِدٍ، والحارثُ بن عامر بن نَوفل، وطُعَيمة بن عدي بن نوفل، والنضر بن الحارث، وزَمْعَةُ بن الأسود، وأبو جَهلٍ بن هشام، وأميَّةُ بن خَلَفٍ، ونُبَيه ومُنَبِّه ابنا الحجاج، وسُهَيل بن عمرو، وعَمْرُو بن عَبْدِ وِدّ. فأقبل رسول الله ـ ﷺ ـ على الناس فقال: هذه مكة قد ألقت إليكم أفلاذ كبدها»[5].

---

(١) هي القربة البالية.

(٢) سيرة ابن هشام ١/ ٦١٧ ـ ٦١٩.

(٣) أي: بالغوا في ضربهما.

(٤) العَقَنْقَل: ما ارتكم من الرمل وتعقل بعضه ببعض وتداخل.

(٥) سيرة ابن هشام ١/ ٦١٦ ـ ٦١٧.

قال محمد بن إسحاق ـ رحمه الله تعالى ـ: وحَدَّثني عبدالله بن أبي بكر بن حَزْم: أن سعدَ بن معاذ قال لرسول الله ـ ﷺ ـ لمَّا التقى الناس يوم بدر: يا رسولَ الله، ألا نبني لك عَريشاً تَكُون فيه، وتُنِيخُ إليك ركائبك، ونلقى عَدُوَّنا؟ فإن أظهرنا الله عليهم وأعزنا فذاك ما نحب، وإن تكن الأخرى فتَجلس على ركائبك، وتلحق بمن وراءنا من قومنا، فقد ـ والله ـ تَخلَّف عنك أقوام ما نحن بأشدّ لك حباً منهم، لو عَلِمُوا أنك تلقى حرباً ما تخلفوا عنك، ويوادُّونك وينصرونك. فأثنى عليه رسول الله ـ ﷺ ـ خيراً ودعا له[1]. فبُنِيَ له عريش، فكان فيه رسول الله ـ ﷺ ـ وأبو بكر، وما معهما غيرهما[2].

قال ابن إسحاق: وارتحلت قُرَيشٌ حين أصبحت، فلما أقبلت ورآها رسول الله ـ ﷺ ـ تُصَوَّب[3] من العَقَنْقَل ـ وهو الكَثِيب ـ الذي جاؤوا منه إلى الوادي قال: «اللهمَّ، هذه قريشٌ قد أقبلت بفخرها وخُيلائها تُحادُّك[3] وتُكَذِّب رسولك، اللهم أحِنْهم[3] الغداة»[4].

وقوله: ﴿ليهلِكَ من هَلَكَ عن بينة ويحيى من حَيّ عن بينة﴾، قال محمد بن إسحاق: أي ليكفُرَ من كَفَر بعد الحُجَّة، لما رأى من الآية والعِبْرةِ، ويُؤْمِنَ من آمن على مِثْلِ ذلِك[5].

وهذا تفسيرٌ جيد، وبَسْطُ ذلك أنه تعالى يقول: إنما جمعكم مع عدوكم في مكان واحد على غير ميعاد، لينصُرَكم عليهم، ويرفَع كلمةَ الحقّ على الباطل، ليصير الأمرُ ظاهراً، والحجةُ قاطعةً، والبراهينُ ساطعةً، ولا يبقى لأحد حجة ولا شبهة، فحينئذ ﴿يهلك من هلك﴾، أي: يستمرُّ في الكفر من استمرَّ فيه على بصيرةٍ من أمره أنه مُبطِلٌ، لقيام الحجة عليه، ﴿ويحيى من حَيَّ﴾، أي: يؤمنُ من آمن، ﴿عن بينة﴾، أي: حجة وبصيرة. والإيمان هو حياة القلوب، قال الله تعالى: ﴿أوَ من كان ميتاً فأحييناه وجعلنا له نوراً يمشي به في الناس﴾. وقالت عائشةُ في قِصَّة الإفْكِ: «فهَلَكَ فِيَّ من هلك»[6] أي: قال فيها ما قال من الكَذِب والبهتانِ والإفْكِ.

وقوله: ﴿وإن الله لسميع﴾، أي: لدعائكم وتَضَرُّعكم واستغاثتكم به، ﴿عليم﴾، أي: بكم، فإنكم تستحِقُّون النصر على أعدائكم الكفرة المعاندين.

﴿إِذْ يُرِيكَهُمُ ٱللَّهُ فِى مَنَامِكَ قَلِيلًا ۖ وَلَوْ أَرَىٰكَهُمْ كَثِيرًا لَّفَشِلْتُمْ وَلَتَنَـٰزَعْتُمْ فِى ٱلْأَمْرِ وَلَـٰكِنَّ ٱللَّهَ سَلَّمَ ۗ إِنَّهُۥ عَلِيمٌۢ بِذَاتِ ٱلصُّدُورِ ﴿٤٣﴾ وَإِذْ يُرِيكُمُوهُمْ إِذِ ٱلْتَقَيْتُمْ فِىٓ أَعْيُنِكُمْ قَلِيلًا وَيُقَلِّلُكُمْ فِىٓ أَعْيُنِهِمْ لِيَقْضِىَ ٱللَّهُ أَمْرًا كَانَ مَفْعُولًا ۗ وَإِلَى ٱللَّهِ تُرْجَعُ ٱلْأُمُورُ ﴿٤٤﴾﴾

قال مجاهد: أراهم الله في منامه قليلاً، فأخبر النبي ـ ﷺ ـ أصحابه بذلك، فكان تثبيتاً لهم[7].

وكذا قال ابن إسحاقَ وغيرُ واحدٍ. وحكى ابنُ جَريرٍ عن بعضهم أنه رآهم بعينه التي ينام بها.

(١) في سيرة ابن هشام: ودعا له بخير.
(٢) سيرة ابن هشام ١/ ٦٢٠ ـ ٦٢١.
(٣) التصويب: المجيء من مكان عالٍ. وتحادّك: تعاديك. وأحنهم: أهلكهم.
(٤) سيرة ابن هشام ١/ ٦٢١.
(٥) سيرة ابن هشام ١/ ٦٧٢ ـ ٦٧٣.
(٦) فتح الباري، تفسير سورة النور ٨/ ٤٥٢، ومسلم، كتاب التوبة ٢١٣١، ومسند الإمام أحمد ٦/ ١٩٥.
(٧) تفسير الطبري ١٠/ ١٢.

وقد روى ابنُ أبي حاتم: حدثنا يوسف بن موسى (التُّسْتَري)(١)، حدثنا أبو قتيبة، عن سهل السراج، عن الحسن في قوله: ﴿إذ يريكهم الله في منامك قليلاً﴾، قال: بِعَيْنِكَ.

وهذا القولُ غريبٌ، وقد صَرَّح بالمنام ها هنا، فلا حاجة إلى التأويل الذي لا دليل عليه.

وقولُه: ﴿ولو أراكهم كثيراً لفشِلْتُم﴾، أي، لَجَبُنْتُم عنهم واختلفتم فيما بينكم، ﴿ولكن الله سلم﴾، أي: من ذلك، بأن أراكَهم قَليلاً، ﴿إنه عليمٌ بذات الصدور﴾، أي: بما تجِنُّه الضمائر، وتَنْطوِي عليه الأحشاء، فيعلم خائنةَ الأعين وما تُخفِي الصدور.

وقولُه: ﴿وَإِذْ يريكموهم إذ التقيتم في أعينكم قليلاً﴾، وهذا أيضاً من لطفه تعالى بهم، إذ أراهم إياهم قليلاً في رأي العين، لِيُجرِّئهم عليهم، ويُطمِعَهم فيهم.

قال أبو إسحاق السَّبيعي، عن أبي عُبيدة، عن عبد الله بن مسعود ـ رضي الله عنه ـ قال: لقد قُلِّلوا في أعيننا يوم بدر، حتى قلتُ لرجل إلى جَانبي: تراهم سبعين؟ قال: لا، بل مائة. حتى أخذنا رجلاً منهم فسألناه، قال: كنا ألفاً. رواه ابن أبي حاتم، وابن جرير(٢).

وقوله: ﴿وَيُقلِّلكم في أعينهم﴾، قال ابن أبي حاتم:

حدثنا سُلَيمان بن حَرْب، حدثنا حَمّاد بن زيد، عن الزُّبَير بـن الخِرِّيت، عن عكرمة: ﴿وإذ يُرِيكُمُوهُم إذِ التَقيتُم في أعينكم قليلاً ويُقَلِّلكم في أعينهم﴾ قال: حَضَّض بعضهم على بعض. إسناد صحيح.

وقال محمد بن إسحاق: حدثني يحيى بن عباد بن عبد الله بن الزُّبير، عن أبيه في قوله تعالى: ﴿ليقضيَ الله أمراً كان مفعولاً﴾، أي: ليلقي(٣) بينهم الحرب، للنقمة ممن أراد الانتقام منه، والإنعام على من أراد تمام النعمة عليه من أهل ولايته.

ومعنى هذا أنه تعالى أغرى كلاً من الفريقين بالآخر، وقَلَّله في عينه ليطمعَ فيه، وذلك عند المواجهة. فلما التحم القتال وأيَّد الله المؤمنين بألف من الملائكة مُرْدِفين، بقي حزبُ الكفار يَرَى حِزْبَ الإيمان ضِعْفَيه، كما قال تعالى: ﴿قد كان لكم آية في فئتين التقتا: فئةٌ تقاتل في سبيل الله وأخرى كافرة، يرونهم مثليهم رأي العين، والله يؤيد بنصره من يشاء، إن في ذلك لعبرة لأولي الأبصار﴾. وهذا هو الجمع بين هاتين الآيتين، فإن كلاً منها حق وصدق، ولله الحمد والمنة.

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِذَا لَقِيتُمْ فِئَةً فَٱثْبُتُواْ وَٱذْكُرُواْ ٱللَّهَ كَثِيرًا لَّعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴿٤٥﴾ وَأَطِيعُواْ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ وَلَا تَنَٰزَعُواْ فَتَفْشَلُواْ وَتَذْهَبَ رِيحُكُمْ وَٱصْبِرُوٓاْ إِنَّ ٱللَّهَ مَعَ ٱلصَّٰبِرِينَ ﴿٤٦﴾ ﴾

هذا تعليمٌ من الله عباده المؤمنين آدابَ اللقاء، وطريقَ الشجاعة عند مواجهة الأعداء: ﴿يا أيها الذين آمنوا إذا لقيتم فئة فاثبتوا﴾.

(١) ليست في الأصل. والمثبت عن الجرح لابن أبي حاتم ٩/ ٢٣١، وكأنها كذلك في إحدى النسخ.
(٢) تفسير الطبري ١٠/ ١٣.
(٣) لفظ السيرة ١/ ٦٧٣، وتفسير الطبري ١٠/ ١٤: «ليؤلف بينهم على الحرب».

ثبت في الصحيحين، عن عبد الله بن أبي أوفى، عن رسول الله ـ ﷺ ـ أنه انتظر في بعض أيامه التي لقي فيها العدو حتى إذا مالت الشمس قام فيهم فقال: «يا أيها الناس، لا تَتَمنّوا لقاء العدوّ، واسألوا الله العافية، فإذا لَقِيتُمُوهم فاصبروا، واعلموا أن الجنة تحت ظِلال السيوف. ثم قام النبي ـ ﷺ ـ قال: اللهمَّ، مُنَزِّلَ الكتاب، ومُجرِيَ السحابِ، وهازِمَ الأحزاب، اهزمْهُم وانصرنا عليهم»(١).

وقال عبد الرزاق، عن سفيان الثوري، عن عبد الرحمن بن زياد، عن عبد الله بن يزيد، عن عبد الله بن عمرو قال: قال رسول الله ـ ﷺ ـ «لا تتمنوا لقاءَ العدوّ، واسألوا الله العافية، فإذا لقيتموهم فاثْبُتوا، واذكروا الله، فإن أجلبوا وضَجُّوا فعليكم بالصمت»(٢).

وقال الحافظ أبو القاسم الطبراني: حدثنا إبراهيم بن هاشم البَغَوِيُّ، حدثنا أمية بن بِسْطام، حدثنا معتمر ابن سليمان، حدثنا ثابت بن زيد، عن رجل، عن زيد بن أرقم، عن النبي ـ ﷺ ـ قال: «إن الله يُحِبُّ الصمتَ عند ثلاث: عند تلاوة القرآن، وعند الزَّحف، وعند الجنازَةِ»(٣).

وفي الحديث الآخر المرفوع يقول الله تعالى: «إنَّ عبدي كُلَّ عبدي الذي يذكُرُني وهو مناجزٌ قِرْنَه»(٤). أي: لا يشغله ذلك الحال عن ذكري ودعائي واستعانتي.

وقال سعيد بن أبي عَرُوبة، عن قتادة في هذه الآية، قال: افترض الله ذكره عند أشغل ما تكونون، عند الضِّرَاب بالسيوف.

وقال ابن أبي حاتم: حدثنا أبي، حدثنا عَبْدَة بن سليمان، حدثنا ابن المبارك، عن ابن جُرَيج، عن عطاء قال: وجب الإنصات والذكر عند الزحف، ثم تلا هذه الآية، قلت: يجهرون بالذكر؟ قال: نعم.

وقال أيضاً: قُرِىء على يونس بن عبد الأعلى، أنبأنا ابن وهب، أخبرني عبد الله بن عياش، عن يزيد بن قَوْذَرٍ، عن كعب الأحبار قال: ما من شيءٍ أحبَّ إلى الله تعالى من قراءة القرآن والذكر، ولولا ذلك ما أمر الناس بالصلاة والقتال، ألا ترون أنه أمر الناسَ بالذِّكر عند القتال، فقال: ﴿يا أيها الذين آمنوا إذا لَقِيتُم فئةً فاثبُتوا واذكروا الله كثيراً لعلكم تفلحون﴾.

قال الشاعر(٥):

ذكـرْتُـكِ والخَـطِّيّ يَخـطِرُ بَيْنَنَـا ... وَقَـد نَهَلَتْ فينَـا المُثَقَّفَـةُ السُّمْـرُ

وقال عَنْتَرةُ(٦):

وَلَقَـد ذكـرْتُـك والـرِّمـاحُ شَـوَاجِـرٌ ... فينـا وَبِيضُ الهِنْد تَقْـطُر مِنْ دَمي

فأمر تعالى بالثبات عند قتال الأعداء والصبر على مبارزتهم، فلا يَفِرُّوا ولا يَنكُلُوا ولا يجبُنوا، وأن يذكروا الله في تلك الحال ولا ينسوه بل يستعينوا به ويتكلوا عليه، ويسألوه النصر على أعدائهم، وأن يطيعوا الله ورسوله

(١) أخرجاه في كتاب الجهاد، فتح الباري ٦/ ١٢٠، ومسلم ١٣٦٢.
(٢) سنن الدارمي، كتاب السير ٢/ ١٣٥.
(٣) المعجم الكبير ٥/ ٢١٣.
(٤) عارضة الأحوذي، أبواب الدعوات ١٣/ ٨٢.
(٥) البيت لأبي عطاء السنديّ، مولى أسد بن خزيمة، وكان جيّد الشعر. وهو من شواهد ابن يعيش في شرح المفصل ٢/ ٦٧.
(٦) من معلقته، والبيت في الديوان ١٥٠.

في حالهم ذلك. فما أمرهم الله تعالى به ائتمروا، وما نهاهم عنه انزجروا، ولا يتنازعوا فيما بينهم أيضاً فيختلفوا فيكون سبباً لتخاذلهم وفشلهم.

﴿وتذهب ريحكم﴾، أي: قوَّتكم وحِدَّتُكم وما كنتم فيه من الإقبال، ﴿واصبروا إن الله مع الصابرين﴾.

وقد كان للصحابة ـ رضي الله عنهم ـ في باب الشجاعة والائتمار بأوامر الله ورسوله وامتثال ما أرشدهم إليه . ما لم يكن لأحدٍ من الأمم والقرون قبلَهم، ولا يكون لأحدٍ ممن بعدهم؛ فإنهم ببركة الرسول ـ صلوات الله وسلامه عليه ـ وطاعته فيما أمرهم، فتحوا القلوب والأقاليم شرقاً وغرباً في المدة اليسيرة، مع قلة عَدَدهم بالنسبة إلى جيوش سائر الأقاليم، من الروم والفرس والترك والصقالبة والبربر والحُبُوش وأصناف السودان والقِبْط، وطوائف بني آدم، قَهَرُوا الجميع حتى علت كلمة الله، وظهر دينه على سائر الأديان، وامتدت الممالك الإسلامية في مشارق الأرض ومغاربها، في أقل من ثلاثين سنة، فرضي الله عنهم وأرضاهم أجمعين، وَحَشرنا في زمرتهم، إنه كريم وهاب.

﴿ وَلَا تَكُونُوا۟ كَٱلَّذِينَ خَرَجُوا۟ مِن دِيَـٰرِهِم بَطَرًا وَرِئَآءَ ٱلنَّاسِ وَيَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ ۚ وَٱللَّهُ بِمَا يَعْمَلُونَ مُحِيطٌ ﴿٤٧﴾ وَإِذْ زَيَّنَ لَهُمُ ٱلشَّيْطَـٰنُ أَعْمَـٰلَهُمْ وَقَالَ لَا غَالِبَ لَكُمُ ٱلْيَوْمَ مِنَ ٱلنَّاسِ وَإِنِّى جَارٌ لَّكُمْ ۖ فَلَمَّا تَرَآءَتِ ٱلْفِئَتَانِ نَكَصَ عَلَىٰ عَقِبَيْهِ وَقَالَ إِنِّى بَرِىٓءٌ مِّنكُمْ إِنِّىٓ أَرَىٰ مَا لَا تَرَوْنَ إِنِّىٓ أَخَافُ ٱللَّهَ ۚ وَٱللَّهُ شَدِيدُ ٱلْعِقَابِ ﴿٤٨﴾ إِذْ يَقُولُ ٱلْمُنَـٰفِقُونَ وَٱلَّذِينَ فِى قُلُوبِهِم مَّرَضٌ غَرَّ هَـٰٓؤُلَآءِ دِينُهُمْ ۗ وَمَن يَتَوَكَّلْ عَلَى ٱللَّهِ فَإِنَّ ٱللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴿٤٩﴾ ﴾

يقولُ تعالى بعد أمره المؤمنين بالإخلاص في القتال في سبيله وكثرة ذكره، ناهياً لهم عن التشبه بالمشركين في خروجهم من ديارهم ﴿بَطَراً﴾، أي: دفعاً للحق، ﴿ورئاء الناس﴾، وهو: المفاخرة والتكبر عليهم، كما قال أبو جهل ـ لما قيل له: إن العير قد نجا فارجعوا ـ فقال: لا، والله لا نرجع حتى نَرِد ماء بدر، وَنَنْحر الجُزُر، ونشرب الخمر، وتعزف علينا القيان، وتتحدث العرب بمكاننا فيها يومنا أبداً. فانعكس ذلك عليه أجمع، لأنهم لما وَرَدُوا ماء بدر وَرَدُوا به الحِمَام، ورُموا في أطواء بَدْرٍ مهانين أذلاء، صَغَرةً أشقياء في عذاب أبديٍّ سَرْمَدِيٍّ ولهذا قال: ﴿والله بما يعملون محيط﴾، أي: عالم بما جاءُوا به وله، ولهذا جازاهم على ذلك شر الجزاء لهم.

قال ابن عباس، ومجاهد، وقتادة، والضحاك، والسدّيُّ في قوله تعالى: ﴿ولا تكونوا كالذين خَرَجُوا من ديارهم بطراً ورئاء الناس﴾، قالوا: هم المشركون، الذين قاتلوا رسول الله ـ ﷺ ـ يوم بدر.

وقال محمد بن كعب: لما خرجت قريش من مكة إلى بدر، خرجوا بالقيان والدفوف، فأنزل الله: ﴿ولا تكونوا كالذين خرجوا من ديارهم بطراً ورئاء الناس، ويصدون عن سبيل الله والله بما يعملون محيط﴾.

وقوله: ﴿وإذْ زيـن لهم الشيطان أعمالهم وقال لا غالب لكم اليوم من الناس وإني جار لكم﴾... الآية، حَسَّن لهم ـ لعنه الله ـ ما جاءُوا له وما هَمّوا به، وأطمعهم أنه لا غالب لهم اليوم من الناس، ونفى عنهم الخشية من أن يُؤتوا في ديارهم من عدوهم بنيْ بكر فقال: «أنا جار لكم». وذلك أنه تَبَدّى لهم في صورة سراقة بن مالك بن جُعْشُم، سيد بني مُدْلج، كبير تلك الناحية، وكلُّ ذلك منه، كما قال تعالى عنه: ﴿يَعدهم ويُمنِّيهم وما يَعِدُهم الشيطان إلا غروراً﴾.

قال ابن جُريج: قال ابنُ عَبَّاس في هذه الآية: لما كان يومُ بدرٍ سار إبليس برايته وجنوده مع المشركين، وألقى في قلوب المشركين أن أحداً لن يغلبكم، وإني جار لكم. فلما التقوا، ونظر الشيطان إلى إمداد الملائكة، ﴿نكص على عقبيه﴾ ـ قال: رجع مدبراً ـ وقال ﴿إني أرى ما لا ترون﴾ . . . الآية.

وقال علي بن أبي طلحة، عن ابن عباس قال: جاء إبليس يوم بدر في جُندٍ من الشياطين، معه رايتُه، في صُورةِ رجُلٍ من بني مُدلج، والشيطان في صورة سُراقَة بن مالك بن جُعشُم، فقال الشيطانُ للمشركين: ﴿لا غالب لكم اليومَ من الناس، وإني جار لكم﴾، فلما اصطف الناس أخذ رسول الله ـ ﷺ ـ قبضة من التراب فرمى بها في وجوه المشركين، فولُّوا مدبرين. وأقبل جبريلُ ـ عليه السلام ـ إلى إبليس، فلما رآه ـ وكانت يده في يد رجل من المشركين ـ انتزع يده، ثم ولى مدبراً وشيعته، فقال الرجل: يا سراقة، أتزعم أنك لنا جار؟ فقال: ﴿إني أرى ما لا ترون، إني أخاف الله، والله شديد العقاب﴾ وذلك حين رأى الملائكة[١].

وقال محمد بن إسحاق: حدثني الكلبي، عن أبي صالح، عن ابن عباس: أن إبليس خرج مع قريش في صورة سُرَاقة بن مالك بن جُعْشم، فلما حَضر القتال ورأى الملائكة، نَكَص على عَقِبيه، وقال: ﴿إني بريءٌ منكم﴾، فَتَشَبَّثَ به الحارث بن هشام فَنَخر في وجهه، فَخَرَّ صَعِقاً، فقيل له: ويلك يا سُرَاقة! على هذه الحال تَخْذُلنا وتَبْرأ منا. فقال: ﴿إني بريء منكم، إني أرى ما لا تَرون، إني أخاف الله، والله شديد العقابِ﴾.

وقال محمد بن عمر الواقدي: أخبرني عُمَر بن عقبة، عن شعبة ـ مولى ابن عباس ـ عن ابن عباس قال: لما تواقَفَ الناس أُغْمِي على رسول الله ـ ﷺ ـ ساعة ثم كُشِف عنه، فَبَشَّرِ الناس بجبريل في جند من الملائكة ميمنة الناس، وميكائيل في جند آخر ميسرة الناس، وإسرافيل في جند آخر ألفٍ. وإبليس قد تصور في صورة سراقة بن مالك بن جُعشُم المدلجي، يُذَمِّر[٢] المشركين ويخبرهم أنه لا غالب لهم اليوم من الناس. فلما أبصر عدوّ الله الملائكة، نَكَص على عَقِبيه، وقال: ﴿إني بريء منكم، إني أرى ما لا ترون﴾، فَتَشَبَّثَ به الحارث بن هشام، وهو يرى أنه سُرَاقة، لِمَا سَمِع من كلامه، فَضَرب في صَدْرِ الحارث، فَسَقطَ الحارث، وانطلق، إبليسُ لا يُرَى حَتَّى سَقَط في البحر، ورفع يديه[٣] وقال: يا رب، مَوعِدَكَ الذي وَعَدْتَنِي[٤].

وفي الطبراني، عن رفاعة بن رافع، قريبٌ من هذا السياق وأبسطُ منه[٥]، ذكرناه في السيرة.

وقال محمد بن إسحاق: حدثني يزيد بن رومان، عن عُروةَ بن الزبير قال: لما أجمعت قريش المسير، ذكرت الذي بينها وبين بنِي بكر من الحرب، فكاد ذلك أن يثنيهم، فتبدَّى لهم إبليسُ في صورة سراقة بن مالك ابن جُعشُم المُدْلجي ـ وكان من أشراف بني كنانة ـ فقال: أنا جار لكم أن تأتيكم كنانة بشيء تكرهونه. فخرجوا سراعاً[٦].

قال محمد بن إسحاق: فَذُكِرَ لي أنهم كانوا يَرَونه في كلِّ منزل في صورة سُرَاقة بن مالك لا يُنْكِرونه، حتى إذا كان يوم بدر والتقى الجمعان، كان الذي رآه ـ حين نَكَص ـ الحارثَ بن هشام ـ أو: عُمَير بن وهب ـ

(١) تفسير الطبري ١٠/ ١٩.
(٢) أي: يحضهم.
(٣) في الأصل: ثوبه. والمثبت عن إحدى النسخ، والواقدي.
(٤) المغازي ٧١.
(٥) المعجم الكبير ٥/ ٤٧ ـ ٤٨.
(٦) تفسير الطبري ١٠/ ١٩.

فقال: أين، أيْ سُرَاق؟» وَمَثَل عَدُوّ الله فذهب ـ قال: فأوردهم ثم أسلمهم ـ قال: ونظر عدو الله إلى جنود الله، قد أيد الله بهم رسوله والمؤمنين فنكص على عقبيه، وقال: ﴿إني بريء منكم، إني أرى ما لا ترون﴾، وصدق عدو الله، وقال: ﴿إني أخاف الله والله شديد العقاب﴾[١].

وهكذا رُوي عن السدّيّ، والضحاك، والحسن البصري، ومحمد بن كعب القُرَظِيّ، وغيرهم، رَحِمَهُم الله.

وقال قتادة: وذُكِر لنا أنه رأى جبريل ـ عليه السلام ـ تنزل معه الملائكةُ، فَعَلِمَ عدوُّ الله أنه لا يَدَان[٢] له بالملائكة فقال: ﴿إني أرى ما لا ترون، إني أخاف الله﴾، وكَذَب عدوُّ الله، والله ما به مخافةُ الله، ولكن علم أنه لا قوة له ولا مَنَعة، وتلك عادةُ عدوِّ الله لمن أطاعه واستقاد[٣] له، حتى إذا التقى الحقّ والباطل أسلمهم شرَّ مُسْلَمٍ، وتَبَرَّأ منهم عند ذلك[٤].

قلت: يعني بعادته لمن أطاعه قولَه تعالى: ﴿كمثل الشيطان إذ قال للإنسان: اكفر، فلما كفر قال: إني بريء منك إني أخاف الله﴾، وقوله تعالى: ﴿وقال الشيطان لما قُضِي الأمر: إنَّ الله وَعَدَكم وَعْدَ الحقِّ، ووعدتُكُم فأخلفتكم، وما كان لي عليكم من سلطانٍ إلا أن دعوتُكُم فاستجبتُم لي، فلا تلوموني ولُومُوا أنفسكم، ما أنا بِمُصْرِخِكُم وما أنتم بمصرخِيَّ، إني كفرتُ بما أشركتمونِ من قبلُ، إنَّ الظالمين لهم عذاب أليم﴾.

وقال يونس بن بُكَير، عن محمد بن إسحاق: حدثني عبد الله بن أبي بكر بن عمرو بن حَزْم، عن بعض بني ساعِدَةَ قال: سمعتُ أبا أسيد مالك بن ربيعةَ بعدما أُصِيبَ بصرُه يقول: لو كنتُ معكم الآنَ ببدرٍ ومعي بصري، لأخبرتكم بالشِّعب الذي خَرَجَتْ منه الملائكةِ، لا أشك ولا أتمارى[٥].

فلما نزلت الملائكة ورآها إبليسُ، وأوحى الله إليهم: ﴿أنـي معكم فثَبِّتوا الذين آمنوا﴾. وتَثبيتُهم أن الملائكة كانت تأتي الرجل في صورةِ الرجل يعرفه، فيقول له: أَبْشِر فإنهم ليسوا بشيء، والله معكُم، كُرُّوا عليهم. فلما رأى إبليس الملائكة نَكَصَ على عقبيه، وقال: ﴿إني بريءٌ منكم إني أرى ما لا ترون﴾، وهو في صورة سراقة، وأقبل أبو جهل يُحَضِّضُ أصحابه ويقول: لا يهولَنَّكم خِذْلانُ سُرَاقَةَ إياكم، فإنه كان على موعد من محمد وأصحابه. ثم قال: واللَّاتِ والعُزَّى لا نَرجِعُ حتى نقرنَ مُحمَّداً وأصحابه في الحبال، فلا تقتلوهم وخُذُوهم أخذاً. وهذا من أبي جهلٍ ـ لعنه الله ـ كقولِ فرعونَ للسحرةِ لما أسلموا: ﴿إنَّ هذا لمكرٌ مَكَرْتُموه في المدينةِ لتُخرِجُوا أهلَها﴾، وكقوله: ﴿إنه لكبيركم الذي عَلَّمَكُمُ السِّحْرَ﴾، وهو من باب البَهْتِ والافتراءِ، ولهذا كان أبو جهلٍ فرعونَ هذه الأمة.

وقال مالك بن أنس، عن إبراهيم بن أبي عَبْلة، عن طلحةَ بن عُبَيد الله بن كَرِيز: أن رسول الله ـ ﷺ ـ قال: «ما رُئِيَ إبليس في يوم هو فيه أصغرُ ولا أحقرُ ولا أدحرُ ولا أغيظُ منِ يوم عرفة. وذلك مما يرى من تَنَزّل الرحمة والعفو عن الذنوب إلا ما رأى يوم بدر. قالوا: يا رسول الله، وما رأى يوم بدر؟ قال: أما إنه رأى جبريل عليه السلام يَزَعُ الملائكة»[٦].

هذا مرسلٌ من هذا الوجه.

---

(١) تفسير الطبري ١٠/ ١٩، وسيرة ابن هشام ١/ ٦٦٣.

(٢) أي: لا قدرة له.

(٣) أي: انقاد له.

(٤) تفسير الطبري ١٠/ ١٩.

(٥) سيرة ابن هشام ١/ ٦٣٣.

(٦) الموطأ، كتاب الحج ١/ ٤٢٢. يَزَعُ الملائكة: يَصُفّهم للقتال.

وقوله: ﴿إذ يقول المنافقون والذين في قلوبهم مرض غرَّ هؤلاء دينُهم﴾، قال علي بن أبي طلحة، عن ابن عباس في هذه الآية قال: لما دنا القومُ بعضُهم من بعض قَلَّل الله المسلمين في أعيُنِ المشركين، وقَلَّل المشركين في أعيُنِ المسلمين، فقال المشركون: ﴿غرَّ هؤلاء دينُهم﴾ وإنما قالوا ذلك من قلتهم في أعينهم، فظنوا أنهم سيهزمُونَهم، لا يشكُّون في ذلك، فقال الله: ﴿ومن يتوكَّلْ على الله، فإن الله عزيزٌ حكيمٌ﴾.

وقال قتادةُ: رَأَوا عصابةً من المؤمنين تَشَدَّدت لأمر الله، وذكر لنا أن أبا جهل عَدُوَّ الله لما أشرف على محمد ـ ﷺ ـ وأصحابه قال: «والله لا تَعبُدُوا الله بعد اليوم». قسوة وعُتُواً[١].

وقال ابن جُرَيج في قوله: ﴿إذ يقولُ المنافقون والذين في قلوبهم مرضٌ﴾: هم قومٌ كانوا من المنافقين بمكة، قالوه يوم بدر.

وقال عامر الشعبيُّ: كان ناسٌ من أهل مكَّةَ قد تكلَّمُوا بالإسلام، فَخَرجُوا مع المشركين يوم بدر، فلما رأوا قلة المسلمين قالوا: ﴿غرَّ هؤلاء دينُهم﴾.

وقال مجاهد في قوله: ﴿إذ يقول المنافقون والذين في قلوبهم مرض: غر هؤلاء دينُهم﴾، قال: فئة من قريش: [أبو][٢] قيس بن الوليد بن المغيرة، وأبو قيس بن الفاكه بن المغيرة، والحارث بن زَمْعَةَ بن الأسود بن المطلب، وعلي بن أمية بن خلف، والعاص بن مُنَبِّه بن الحجاج، خرجوا مع قريش من مكة وهم على الارتياب، فحبسهم ارتيابهم، فلما رأوا قِلَّة أصحاب رسول الله ـ ﷺ ـ قالوا: ﴿غرَّ هؤلاء دينُهم﴾، حتى قدموا على ما قدموا عليه، مع قلة عددهم وكثرة عدوهم.

وهكذا قال محمد بن إسحاق بن يسار، سواءً.

وقال ابنُ جرير: حدثنا مُحمَّد بن عبد الأعلى، حدثنا مُحمَّدُ بن ثَورٍ، عن مَعْمَرٍ، عن الحسن في هذه الآية، قال: هم قوم لم يشهدوا القتال يوم بدر، فَسُمُّوا منافقين. قال مَعْمَرٌ: وقال بعضهم: هم قوم كانوا أقروا بالإسلام، وهم بمكة، فخرجوا مع المشركين يوم بدر، فلما رأوا قلَّة المسلمين قالوا: ﴿غرَّ هؤلاء دينُهم﴾.

وقوله: ﴿ومن يتوكَّلْ على الله﴾، أي: يعتمدُ على جنابه، ﴿فإن الله عزيزٌ﴾، أي: لا يُضَام من التجأ إليه، فإن الله عزيزٌ منيعُ الجنابِ، عظيمُ السلطانِ، حكيمٌ في أفعالِه، لا يَضَعُها إلا في مواضعها، فينصرُ من يستحقُّ النَّصرَ، ويخذل من هو أهل لذلك.

﴿ وَلَوْ تَرَىٰٓ إِذْ يَتَوَفَّى ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ ٱلْمَلَـٰٓئِكَةُ يَضْرِبُونَ وُجُوهَهُمْ وَأَدْبَـٰرَهُمْ وَذُوقُوا۟ عَذَابَ ٱلْحَرِيقِ ﴿٥٠﴾ ذَٰلِكَ بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيكُمْ وَأَنَّ ٱللَّهَ لَيْسَ بِظَلَّـٰمٍ لِّلْعَبِيدِ ﴿٥١﴾ ﴾

يقول تعالى: ولو عاينتَ ـ يا محمد ـ حالَ تَوَفِّي الملائكةِ أرواحَ الكفار، لرأيتَ أمراً عظيماً هائلاً فَظيعاً منكَراً، إذ يضربون وُجُوهَهم وأدبارهم، ويقولون لهم: ﴿ذوقوا عذاب الحريق﴾.

قال ابن جُرَيج، عن مجاهد: ﴿وأدبارهم﴾: أستاهم، قال: يوم بدر.

قال ابن جُرَيج، قال ابن عباس: إذا أقبل المشركون بوجوههم إلى المسلمين، ضَرَبُوا وجوهَهُم

---

(١) تفسير الطبري ١٠/ ٢١.
(٢) عن سيرة ابن هشام ١/ ٦٤١، وفي تفسير الطبري ١٠/ ٢١ مثل ما هنا.

بالسيوف. وإذا ولَّوا أدركتهم الملائكة فضربُوا أدبارهم.

قال ابن أبي نَجِيح، عن مجاهد قوله: ﴿إذ يتوفَّى الذين كفروا الملائكةَ يضرِبُونَ وجوهَهُم وأدبارهم﴾: يوم بدر.

وقال وكيع، عن سفيان الثوريِّ، عن أبي هاشم إسماعيل بن كثير، عن مجاهد، عن شعبة، عن يعلى ابن مسلم، عن سعيد بن جُبَير: ﴿يضربون وجوههم وأدبارهم﴾ قال: وأستاهَهُم، ولكن الله يَكْنِي.

وكذا قال عُمَر مولى غُفْرة.

وعن الحسن البصري قال: قال رجلٌ: يا رسولَ الله، إني رأيت بظهر أبي جهل مثل الشُّرُكِ[١].

قال: ذاك ضرب الملائكة. رواه ابن جرير، وهو مرسل.

وهذا السياقُ ـ وإن كان سَبَبُهُ وقعةَ بدر ـ ولكنه عامٌّ في حقِّ كلِّ كافر: ولهذا لم يُخَصِّصْه تعالى بأهل بدر. بل قال تعالى: ﴿ولو تَرَى إذ يتوفَّى الذين كفروا الملائكةُ يضرِبُون وجوهَهم وأدبارهم﴾. وفي سورة القتال مثلها[٢]، وتقدم في سورة الأنعام قوله تعالى: ﴿ولو ترى إذ المجرمون في غَمَرات الموت، والملائكة باسِطُو أيديهم، أخرجوا أنفسكم﴾[٣]، أي: باسطو أيديهم بالضرب فيهم، يأمرونهم إذا استعصَتْ[٤] أنفسهم، وامتنعت من الخروج من الأجساد أن تخرجَ قهراً. وذلك إذ بشروهم بالعذاب والغضب من الله، كما جاء في حديث البراء: إن ملك الموت ـ إذا جاء الكافر عند احتضاره في تلك الصورة المنكرة ـ يقول: «اخرجي أيتها النفسُ الخبيثةُ إلى سَمُومٍ وحَمِيم، وظلٍّ من يحمُوم». فتتفرق في بدنه، فيستخرجونها من جسده، كما يخرج السَّفُود[٥] من الصوف المبلول[٦]. فتخرجُ معها العروقُ والعَصَبُ. ولهذا أخبر تعالى أن الملائكة تقول لهم: ﴿ذوقوا عذاب الحريق﴾.

وقولُه تعالى: ﴿ذلـكَ بمـا قَدَّمت أيديكم﴾، أي: هذا الجزاءُ بسبب ما عملتم من الأعمال السيئة في حياتكم الدنيا، جَزَاكم الله بها هذا الجزاء، ﴿وأن الله ليس بظلام للعبيد﴾، أي: لا يظلم أحداً من خلقه، بل هو الحَكَمُ العـدل الذي لا يجورُ ـ تبارك وتعالى وتقدس وتنزه ـ الغني الحميد. ولهذا جاء في الحديث الصحيح عند مسلم ـ رحمه الله ـ من رواية أبي ذرّ ـ رضي الله عنه ـ عن رسول الله ـ ﷺ ـ: «إن الله تعالى يقول: ﴿يا عبادي إني حرَّمت الظلم على نفسي، وجعلته بينكم محرماً فلا تظالموا. يا عبادي، إنما هي أعمالكم أحصيها لكم، فمن وجد خيراً فليحمد الله، ومن وجد غير ذلك فلا يلومَنَّ إلا نفسه»[٧]. ولهذا قال تعالى:

﴿كَدَأْبِ ءَالِ فِرْعَوْنَ وَالَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ كَفَرُوا بِـَٔايَـٰتِ اللَّهِ فَأَخَذَهُمُ اللَّهُ بِذُنُوبِهِمْ إِنَّ اللَّهَ قَوِيٌّ شَدِيدُ الْعِقَابِ ﴿٥٢﴾﴾

(١) في الأصل: الشوك. وفي تفسير الطبري ١٠/ ٢٢: «الشُّراك». والمثبت عن إحدى النسخ. والشِّراك: سير النعل، والجمع شُرُك.
(٢) الآية ٢٧ من سورة محمد.
(٣) الآية ٩٣ من سورة الأنعام.
(٤) في الأصل: استصعبت. والمثبت عن إحدى النسخ.
(٥) هي حديدة ذات شعب مُعَقَّفة، يشوى بها اللحم.
(٦) مسند الإمام أحمد ٤/ ٢٨٨، ٢٩٦.
(٧) مسلم، كتاب البرّ ١٩٩٤ ـ ١٩٩٥.

يقولُ تعالى: فَعَلَ هؤلاء المشركون المكذبون بما أُرسِلْتَ به يا محمد، كما فعل الأمم المكذبة قبلهم، ففعلنا بهم ما هو دَأْبُنا، أي: عادتنا وسُنَّتنا في أمثالهم من المكذبين من آل فرعونَ ومن قبلهم من الأمم المكذبة بالرسل، الكافرين بآيات الله. ﴿فأخذهم الله بذنوبهم﴾، أي بسبب ذنوبهم أَهْلَكَهُم وأخذهم أَخْذَ عزيز مقتدر، ﴿إن الله قوي شديد العقاب﴾، أي: لا يغلبه غالبٌ، ولا يفوته هاربٌ.

﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّ ٱللَّهَ لَمْ يَكُ مُغَيِّرًا نِّعْمَةً أَنْعَمَهَا عَلَىٰ قَوْمٍ حَتَّىٰ يُغَيِّرُوا مَا بِأَنفُسِهِمْ ۙ وَأَنَّ ٱللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴿٥٣﴾ كَدَأْبِ ءَالِ فِرْعَوْنَ ۙ وَٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ ۚ كَذَّبُوا بِـَٔايَٰتِ رَبِّهِمْ فَأَهْلَكْنَٰهُم بِذُنُوبِهِمْ وَأَغْرَقْنَآ ءَالَ فِرْعَوْنَ ۚ وَكُلٌّ كَانُوا ظَٰلِمِينَ ﴿٥٤﴾﴾

يخبر تعالى عن تمام عدله، وقِسْطِه في حكمه، بأنه تعالى لا يُغَيِّر نعمة أنعمها على أحد إلا بسبب ذنب ارتكبه، كما قال تعالى: ﴿إن الله لا يُغَيِّر ما بقوم حتى يُغَيِّروا ما بأنفسهم، وإذا أراد الله بقوم سُوءًا فلا مردَّ له، وما لهم من دونه من والٍ﴾، وقوله: ﴿كَدَأْب آل فرعونَ﴾، أي: كصُنْعِهِ بآل فرعون وأمثالهم حين كَذَّبوا بآياته، أهلكهم بسبب ذنوبهم، وسلبهم تلك النعم التي أسداها إليهم من جنات وعيون، وزُرُوع وكنوز ومقام كريم، ونعمة كانوا فيها فاكهين، وما ظلمهم الله في ذلك، بل كانوا هم الظالمين.

﴿إِنَّ شَرَّ ٱلدَّوَآبِّ عِندَ ٱللَّهِ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا فَهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ ﴿٥٥﴾ ٱلَّذِينَ عَٰهَدتَّ مِنْهُمْ ثُمَّ يَنقُضُونَ عَهْدَهُمْ فِى كُلِّ مَرَّةٍ وَهُمْ لَا يَتَّقُونَ ﴿٥٦﴾ فَإِمَّا تَثْقَفَنَّهُمْ فِى ٱلْحَرْبِ فَشَرِّدْ بِهِم مَّنْ خَلْفَهُمْ لَعَلَّهُمْ يَذَّكَّرُونَ ﴿٥٧﴾﴾

أخبر تعالى أنّ شَرَّ ما دبّ على وجه الأرض هم الذين كفروا فهم لا يؤمنون، الذين كُلَّما عاهدوا عهداً نَقَضُوه، وكُلَّما أكدوه بالأيمان نكثوه، ﴿وهم لا يتقون﴾، أي: لا يخافون من الله في شيء ارتكبوه من الآثام.

﴿فإما تثقفنَّهم في الحرب﴾، أي: تغلبهم وتظفر بهم في حرب، ﴿فشرِّد بهم من خلفهم﴾، أي: نَكِّلْ بهم، قاله ابن عباس، والحسن البصري، والضحاك، والسدي، وعطاء الخراساني، وابن عُيينة ـ ومعناه غَلِّظ عقوبتهم وأثخنهم قتلاً ـ ليخاف من سواهم من الأعداء، من العرب وغيرهم، ويصيروا لهم عبرة ﴿لعلهم يذكرون﴾.

وقال السدّيُّ: يقول: لعلهم يحذَرون أن ينكثوا فيُصنَع بهم مثل ذلك[1].

﴿وَإِمَّا تَخَافَنَّ مِن قَوْمٍ خِيَانَةً فَٱنۢبِذْ إِلَيْهِمْ عَلَىٰ سَوَآءٍ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ ٱلْخَآئِنِينَ ﴿٥٨﴾﴾

يقول تعالى لنبيه ـ صلواتُ الله وسلامه عليه ـ: ﴿وإمَّا تخافَنَّ من قوم﴾ قد عاهدتهم ﴿خيانة﴾، أي: نقضاً لما بينك وبينهم من المواثيق والعهود، ﴿فانبذ إليهم﴾، أي: عهدهم ﴿على سواء﴾، أي: أعلمهم بأنك قد نقضت عهدهم حتى يبقى علمك وعلمهم بأنك حرب لهم، وهم حَرْبٌ لك، وأنه لا عهد بينك وبينهم على السواء، أي: تستوي أنت وهم في ذلك، قال الراجز[2]:

فَاضْرِبْ وُجُوه الغُدُرِ الأَعْدَاءِ حَتَّى يُجِيبُوكَ إلى السَّوَاءِ

(١) تفسير الطبري ١٠/ ٢٦.
(٢) تفسير الطبري ١٠/ ٢٧.

وعن الوليد بن مسلم أنه قال في قوله: ﴿فانبذ إليهم على سواء﴾، أي: على مَهَلٍ، ﴿إن الله لا يحب الخائنين﴾، أي: حتى ولو في حق الكافرين، لا يحبها أيضاً.

قال الإمام أحمد: حدثنا محمد بن جعفر، حدثنا شعبة، عن أبي الفيض، عن سليم بن عامر، قال: «كان معاوية يسير في أرض الروم، وكان بينه وبينهم أمد، فأراد أن يدنو منهم فإذا انقضى الأمد غزاهم، فإذا شيخ على دابة يقول: الله أكبر الله أكبر، وفاءً لا غدراً، إنَّ رسولَ الله ـ ﷺ ـ قال: «ومن كان بينه وبين قوم عهدٌ فلا يَحُلَّن عُقْدَةً ولا يشدها حتى ينقضي أمدها، أو يَنْبِذْ إليهم على سواء. قال: فبلغ ذلك معاوية، فرجع، وإذا الشيخ عمرو بن عَبَسَة، رَضِي الله عنه»[١].

وهذا الحديث رواه أبو داود الطيالسي، عن شعبة. وأخرجه أبو داود، والترمذي، والنسائي، وابن حبّان في صحيحه من طرق عن شعبة، به. وقال الترمذيّ: «حسن صحيح»[٢].

وقال الإمام أحمدُ أيضاً: حدثنا محمد بن عبد الله الزُّبَيري، حدثنا إسرائيلُ، عن عطاء بن السائب، عن أبي البَخْتَرِيِّ، عن سلمان ـ يعني الفارسيَّ ـ رضي الله عنه: أنه انتهى إلى حِصْنٍ ـ أو: مدينة ـ فقال لأصحابه: دَعُوني أدعُوهُمْ كما رأيتُ رسول الله ـ ﷺ ـ يدعُوهم، فقال: إنما كنتُ رَجُلاً منكم، فهداني الله عزَّ وجلَّ ـ للإسلام، فإذا أسلمتم فَلَكُم ما لنا وعليكُم ما علينا، وإن أنتم أبيتم فأدُّوا الجزية وأنتم صاغرون، فإن أبيتم نابذناكم على سواء، ﴿إن الله لا يحب الخائنين﴾، يفعل بهم ذلك ثلاثة أيام، فلما كان اليوم الرابع غدا الناس إليها، ففتحوها بعون الله»[٣].

﴿ وَلَا يَحْسَبَنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ سَبَقُوٓاْۚ إِنَّهُمْ لَا يُعْجِزُونَ ﴿٥٩﴾ وَأَعِدُّواْ لَهُم مَّا ٱسْتَطَعْتُم مِّن قُوَّةٍ وَمِن رِّبَاطِ ٱلْخَيْلِ تُرْهِبُونَ بِهِۦ عَدُوَّ ٱللَّهِ وَعَدُوَّكُمْ وَءَاخَرِينَ مِن دُونِهِمْ لَا تَعْلَمُونَهُمُ ٱللَّهُ يَعْلَمُهُمْۚ وَمَا تُنفِقُواْ مِن شَيْءٍ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ يُوَفَّ إِلَيْكُمْ وَأَنتُمْ لَا تُظْلَمُونَ ﴿٦٠﴾ ﴾

يقول تعالى لنبيه ـ ﷺ ـ: ﴿ولا تحسبنَّ﴾[٤] ـ يا محمد ـ ﴿الذين كفروا سبقوا﴾، أي: فاتونا فلا نقدِرُ عليهم، بل هم تحت قَهْر قُدْرَتنا وفي قبضة مشيئتنا فلا يُعجِزُوننا، كما قال تعالى: ﴿أم حَسِب الذين يعملون السيئات أن يَسبِقُونا ساء ما يحكمون﴾، أي: يظنون، وقال تعالى: ﴿لا تحسَبنَّ الذين كفروا معجزينَ في الأرض ومأواهم النار ولبئس المصيرُ﴾ وقال تعالى: ﴿لا يَغُرَّنَّكَ تقلبُ الذين كفروا في البلاد. متاعٌ قليل ثم مأواهم جهنم وبئس المهاد﴾.

ثم أمر تعالى بإعداد آلات الحرب لمقاتلتهم حَسَبَ الطاقةِ والإمكانِ والاستطاعة، فقال: ﴿وأعدُّوا لهم ما استطعتم﴾، أي: مهما أمكنكم، ﴿من قوة ومن رباط الخيل﴾.

قال الإمام أحمد: حَدَّثنا هارونُ بن معروفٍ، حدثنا ابن وَهْبٍ، أخبرني عمرو بن الحارث، عن أبي علي ثُمامَةَ بن شُفَيٍّ، أنه سَمِع عقبة بن عامر يقول: سمعت رسول الله ـ ﷺ ـ يقول وهو على المنبر: ﴿وأعدوا لهم

(١) مسند الإمام أحمد ٤/ ١١١.
(٢) منحة المعبود في ترتيب مسند أبي داود ١/ ٢٤٠، وسنن أبي داود، كتاب الجهاد ٣/ ٨٣، وعارضة الأحوذي، أبواب السير ٧/ ٧٦. والإحسان بترتيب صحيح ابن حِبَّان، كتاب السِّيَر ٧/ ١٨٢.
(٣) مسند الإمام أحمد ٥/ ٤٤٠.
(٤) ﴿ولا يحسبنَّ﴾ بالياء: حفص وابن عامر وحمزة، وباقي السبعة: ﴿ولا تحسبَنَّ﴾، بالتاء. انظر الإقناع لابن الباذش ٦٥٥.

ما استطعتم من قوة﴾، ألا إن القوَّةَ الرميُ، ألا إن القوَّةَ الرميُ[١].

رواه مسلم، عن هارون بن معروفٍ، وأبو داودَ عن سَعيدِ بن منصورٍ، وابن ماجَه عن يونُسَ بن عبدِ الأعلى، ثلاثَتُهم عن عبد الله بن وَهْبٍ، به[١].

ولهذا الحديث طرق أخرَ، عن عُقْبَةَ بن عامرٍ، منها ما رواه الترمذيُّ، من حديث صالح بن كيسان، عن رجل، عنه[٢].

وروى الإمامُ أحمدُ وأهلُ السُّنَنِ، عنه قال: قال رسولُ الله ـ ﷺ ـ: «ارمُوا واركَبُوا، وأن تَرْمُوا خيرٌ من أن تركبوا»[٣].

وقال الإمامُ مالكٌ، عن زيد بن أسلم، عن أبي صالح السَّمان، عن أبي هُرَيرة ـ رضي الله عنه ـ: أن رسول الله ـ ﷺ ـ قال: «الخيل لثلاثة: لرجلٍ أجرٌ، ولرجلٍ سِترٌ، وعلى رجل وِزْرٌ. فأما الذي له أجر فرجل رَبَطها في سبيل الله، فأطال لها في مَرْجٍ ـ أو: رَوضة ـ فما أَصابت في طِيَلِهَا ذلك[٤] من المرج ـ أو: الروضة ـ كانت له حسنات، ولو أنها قَطَعت طِيلَها فاستَنَّتْ[٥] شَرَفاً أو شَرَفين، كانت آثارها وأرواثُها حسناتٍ له، ولو أنها مرت بنهر فشربت منه، ولم يُرِد أن يَسْقى به، كان ذلك حسنات له؛ فهي لذلك الرجلِ أجر. ورجل ربطها تَغَنِّياً[٦] وتعففاً، ولم ينس حق الله في رقابها ولا ظُهُورِهـا، فهي له سِترٌ. ورجل ربطها فخراً ورياءً ونِوَاءً[٧] فهي على ذلك وِزْر».

وسُئِل رسولُ الله ـ ﷺ ـ عن الحُمُر[٨] فقال: «ما أنزل الله عَليَّ فيها شيئاً إلا هذه الآية الجامعة الفاذَّة: ﴿فمن يعمل مثقال ذرة خيراً يره. ومن يعمل مثقال ذرة شراً يره﴾[٩]».

رواه البخاري ـ وهذا لفظه ـ ومسلم، كلاهما من حديث مالك[١٠].

وقال الإمام أحمدُ: حَدَّثنا حجاج، أخبرنا شَريك، عن الرُّكين بن الربيع، عن القاسم بن حسان؛ عن عبد الله بن مسعود، عن النبي ـ ﷺ ـ قال: «الخيل ثلاثة: فَفَرَسٌ للرحمن، وفَرَسٌ للشيطان، وفَرَسٌ للإنسان. فأما فرسُ الرحمنِ فالذي يربط في سبيل الله، فَعَلَفُه ورَوْثُه وبَوْلُه، وذكر ما شاء الله. وأما فرس الشيطان فالذي يقامَرُ أو يراهن عَليه، وأما فَرَسُ الإنسان فالفرس يرتبطها الإنسانُ يلتمس بطنها، فهي ستر من فَقْر[١١].

---

(١) مسند الإمام أحمد ٤/ ١٥٦ ـ ١٥٧. ومسلم، كتاب الإمارة ١٥٢٢، وسنن أبي داود، كتاب الجهاد ٣/ ١٤، وابن ماجه، كتاب الجهاد ٩٤٠.

(٢) عارضة الأحوذي، تفسير سورة الأنفال ١١/ ٢١٣ ـ ٢١٦.

(٣) مسند الإمام أحمد ٤/ ١٤٤، ١٤٦، ١٤٨، وسنن أبي داود، كتاب الجهاد ٣/ ١٣، والنسائي، كتاب الخيل ٦/ ٢٤٣، وابن ماجه، كتاب الجهاد ٩٤٠.

(٤) أي: حبلها الذي تُرْبَط فيه.

(٥) أي: جرت. والشَّرَف: المكان العالي من الأرض.

(٦) أي: استغناءً عن الناس، وتعففاً عن السؤال.

(٧) في الموطأ: «ونواءً لأهل الإسلام». والنِّواء: المناوأة والمعادلة.

(٨) أي: هل لها حكم الخيل؟ أو عن زكاتها.

(٩) الموطأ، كتاب الجهاد ٢/ ٤٤٤.

(١٠) فتح الباري، كتاب الجهاد ٦/ ٦٣ ـ ٦٤، ومسلم، كتاب الزكاة ٦٨٠ ـ ٦٨٢. ولم يقع لنا في مسلم إلا من حديث سويد بن سعيد، عن حفص، عن زيد بن أسلم. وانظر تحفة الأشراف ٩/٣٤٣.

(١١) مسند الإمام أحمد ١/ ٣٩٥.

وقد ذهب أكثر العلماء إلى أن الرمي أفضل من ركوب الخيل، وذهب الإمام مالك إلى أن الركوب أفضل من الرمي، وقول الجمهور أقوى للحديث، والله أعلم.

وقال أحمدُ: حدثنا حَجَّاج وهشام قالا: حدثنا ليثٌ، حدثني يزيدُ بن أبي حَبِيب، عن ابنِ شُماسَة: أن معاويةَ بن حُدَيجٍ مَرَّ على أبي ذَرٍّ، وهو قائمٌ عند فرس له، فسأله ما تعالجُ من فرسِك هذا؟ فقال: إني أظنُّ أنَّ هذا الفرسَ قد استُجيب له دعوته! قال: وما دعاءُ بهيمةٍ من البهائم؟ قال: والذي نفسي بيده، ما من فرسٍ إلا وهو يدعو كلَّ سَحَرٍ فيقول: اللهم، أنت خَوَّلْتَنِي عبداً من عبادك، وجَعَلْتَ رزقي بيده، فاجعلني أَحَبَّ إليه من أهله وماله وولده[١].

قال: وحدثنا يحيى بن سَعِيدٍ، عن عبد الحميد بن جَعْفَرٍ؛ حدثني يزيد بن أبي حَبِيب، عن سُوَيد بن قيس؛ عن معاوية بن حُدَيجٍ؛ عن أبي ذر ـ رضي الله عنه ـ قال: قال رسول الله ـ ﷺ ـ: «إنه ليس من فرس عربي إلا يُؤذَنُ له مع كلِّ فجر، يدعو بدعوتين، يقول: اللهم، إنك خَوَّلتني من خَوَّلتني من بني آدم، فاجعلني من أحبِّ أهله وماله إليه. أو: أحبَّ أهله وماله إليه»[٢].

رواه النسائيُّ، عن عَمْرو بن علي الفَلَّاس، عن يحيى القطان[٣] به.

وقال أبو القاسم الطبراني: حدثنا الحسين بن إسحاق التُّسْتَرِيّ، حدثنا هشام عن عمار، حدثنا يحيى بن حمزة، حدثنا المطعم بن المقدام الصَّنعاني، عن الحسنِ بن أبي الحسن أنه قال لابن الحنظلية ـ يعني سَهْلاً ـ: حَدِّثنا حديثاً سمعته من رسول الله ـ ﷺ ـ فقال: سمعتُ رسولَ الله ـ ﷺ ـ يقول: «الخيلُ معقودٌ في نواصيها الخيرُ إلى يوم القيامة، وأهلُها مُعانُونَ عليها، ومن رَبَطَ فرساً في سبيل الله كانت النفقةُ عليه، كالمادِّ يده بالصدقة لا يقبضها»[٤].

والأحاديثُ الواردةُ في فَضْل ارتباط الخيل كثيرة، وفي صحيح البخاري، عن عُرْوَة بن أبي الجعد البارقي: أن رسول الله ـ ﷺ ـ قال: «الخيلُ معقودٌ في نواصيها الخير إلى يوم القيامة: الأجرُ والمغنم»[٥].

وقوله: ﴿تُرْهِبُونَ﴾، أي: تُخَوِّفون ﴿به عَدُوَّ الله وعدوكم﴾ أي: من الكفار ﴿وآخرين من دونهم﴾ ـ قال مجاهد: يعني «قريظة». وقال السدِّيُّ: «فارس»، وقال سفيان الثوريّ: قال ابن يمان: «هم الشياطين التي في الدور».

وقد ورد حديثٌ بمثل ذلك، قال ابن أبي حاتم:

حدثنا أبو عتبة أحمد بن الفرج الحمصي، حدثنا أبو حَيْوة ـ يعني شُرَيح بن يزيد المقرىء ـ حدثنا سَعيد ابن سنَان، عن ابن عَريب ـ يعني يزيد بن عبد الله بن عَرِيبٍ ـ عن أبيه، عن جده أن رسول الله ـ ﷺ ـ كان يقول في قول الله تعالى: ﴿وآخرين من دونهم لا تعلمونهم﴾، قال: هم الجن.

---

(١) مسند الإمام أحمد ٥/ ١٦٢.
(٢) المسند ٥/ ١٧٠.
(٣) سنن النسائي، كتاب الخيل ٦/ ٢٢٣.
(٤) المعجم الكبير ٦/ ٩٨.
(٥) فتح الباري، كتاب الجهاد ٦/ ٥٤ ـ ٥٦.

ورواه الطبراني، عن إبراهيم بن دُحَيم؛ عن أبيه، عن محمد بن شعيب؛ عن سعيد بن سنان[1]؛ عن يزيد ابن عبدالله بن عَريب، به، وزاد: قال رسول الله ـ ﷺ ـ: «لا يُخبل بيت فيه عَتِيقٌ من الخليل»[2].

وهذا الحديث منكر، لا يصح إسناده ولا متنه.

وقال مقاتل بن حيان، وعبد الرحمن بن زيد بن أسلم: «هم المنافقون»[3].

وهذا أشبهُ الأقوالِ، ويشهَدُ له قولُه: ﴿وممَّن حَولكم من الأعرابِ منافِقُون ومن أهل المدينة مَرَدُوا على النفاق، لا تعلمهم، نحن نعلمهم﴾.

وقوله: ﴿وما تُنفِقُوا من شيءٍ في سبيل الله يُوَفَّ إليكم وأنتم لا تظلمون﴾، أي: مهما أنفقتم في الجهاد، فإنه يوفى إليكم على التمام والكمال، ولهذا جاء في حديث رواه أبو داود: أن الدِّرهم يضاعَفُ ثوابه في سبيل الله إلى سبعمائة ضعف[4]، كما تقدم في قوله تعالى: ﴿مثل الذين ينفقون أموالهم في سبيل الله؛ كمثل حبة أنبتت سبع سنابل؛ في كل سنبلة مائة حبة، والله يضاعف لمن يشاء، والله واسع عليم﴾[5].

وقال ابن أبي حاتم: حدثنا أحمد بن القاسم بن عطية، حدثنا أحمد بن عبد الرحمن الدَّشْتَكي، حدثنا أبي، عن أبيه، حدثنا الأشعث بن إسحاق، عن جعفر، عن سعيد بن جُبير، عن ابن عباس، عن النبي ـ ﷺ ـ أنه كان يأمر ألَّا يُتصدَّقَ إلا على أهل الإسلام، حتى نَزَلت: ﴿وما تُنفِقُوا من شيءٍ في سبيلِ الله يُوَفَّ إليكم﴾، فأَمَرَ بالصدقة بعدها على كل من سألك من كل دين.

وهذا أيضاً غريب.

﴿۞ وَإِن جَنَحُوا۟ لِلسَّلْمِ فَٱجْنَحْ لَهَا وَتَوَكَّلْ عَلَى ٱللَّهِ ۚ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ ﴿٦١﴾ وَإِن يُرِيدُوٓا۟ أَن يَخْدَعُوكَ فَإِنَّ حَسْبَكَ ٱللَّهُ ۚ هُوَ ٱلَّذِىٓ أَيَّدَكَ بِنَصْرِهِۦ وَبِٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿٦٢﴾ وَأَلَّفَ بَيْنَ قُلُوبِهِمْ ۚ لَوْ أَنفَقْتَ مَا فِى ٱلْأَرْضِ جَمِيعًا مَّآ أَلَّفْتَ بَيْنَ قُلُوبِهِمْ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ أَلَّفَ بَيْنَهُمْ ۚ إِنَّهُۥ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴿٦٣﴾﴾

يقولُ تعالى: إذا خِفْتَ من قوم خيانةً فانبِذْ إليهم عهدهم على سواء، فإن استمروا على حَرْبك ومُنابذتك فقاتلهم، ﴿وإن جَنَحُوا﴾، أي: مالوا ﴿للسَّلم﴾، أي: المسالمة والمصالحة والمهادنة، ﴿فاجنح لها﴾، أي: فَمِلْ إليها، واقبل منهم ذلك. ولهذا لما طَلَب المشركون عام الحديبية الصلح ووضع الحرب بينهم وبين رسول الله ـ ﷺ ـ تسع سنين؛ أجابهم إلى ذلك مع ما اشترطوا من الشروط الأخر.

وقال عبد الله ابن الإمام أحمد: حدثنا محمد بن أبي بكر المقدمي، حدثنا فضيل بن سليمان ـ يعني النميري ـ حدثنا محمد بن أبي يحيى، عن إياس بن عمرو الأسلمي، عن علي بن أبي طالب ـ رضي الله عنه ـ قال: قال رسول الله ـ ﷺ ـ: «إنه سيكون بعدي اختلاف ـ أو: أمر ـ فإن استطعت أن يكون السّلم، فافعل»[6].

وقال مجاهد: «نزلت في بني قريظة».

(١) في الأصل: «عن سنان بن سعيد بن سنان». والمثبت عن المعجم الكبير، والجرح والتعديل لابن أبي حاتم ٤/ ٢٨.
(٢) المعجم الكبير ١٧/ ١٨٩.
(٣) تفسير الطبري ١٠/ ٣٢.
(٤) سنن أبي داود، كتاب الجهاد ٣/ ٨.
(٥) انظر تفسير الآية ٢٦١ من سورة البقرة.
(٦) مسند الإمام أحمد ١/ ٩٠.

وهذا فيه نظر، لأن السياق كله في وقعة بدر، وذكرها مكتنف لهذا كُلِّه.

وقَوْلُ ابن عباس، ومجاهد، وزيد بن أسلم، وعطاء الخراساني، وعكرمة، والحسن، وقتادة: أن هذه الآية منسوخة بآية السيف في «براءة»: ﴿قَاتِلُوا الذين لا يؤمنون بالله ولا باليوم الآخر...﴾ الآية، فيه نظرٌ أيضاً: لأن آية براءة فيها الأمر بقتالهم إذا أمكن ذلك، فأما إذا كان العدوُّ كثيفاً فإنه تجوزُ مهادنتهم، كما دلَّت عليه هذه الآية الكريمة، وكما فعل النبي ـ ﷺ ـ يوم الحديبية، فلا منافاةَ ولا نسخ ولا تخصيص، والله أعلم.

وقولُه: ﴿وَتَوَكَّلْ على الله﴾، أي: صالحهم وتوكل على الله، فإنَّ الله كافيك وناصرُك، ولو كانوا يريدون بالصلح خديعة ليتقووا ويستعدوا، ﴿فإنَّ حسبك الله﴾، أي: كافيك وحدَه.

ثم ذَكَر نعمته عليه بما أيده به من المؤمنين المهاجرين والأنصار، فقال: ﴿هو الذي أيَّدك بنصره وبالمؤمنين وألَّف بين قُلوبهم﴾، أي: جمعها على الإيمان بك، وعلى طاعتك ومناصرتك ومُوازرتك. ﴿لو أنفقت ما في الأرض جميعاً ما ألَّفت بين قلوبهم﴾، أي: لما كان بينهم من العداوة والبغضاء؛ فإنَّ الأنصار كانت بينهم حروب كثيرة في الجاهلية، بين الأوس والخزرج، وأمور يلزم منها التسلسل في الشر، حتى قطع الله ذلك بنور الإيمان، كما قال تعالى: ﴿واذكروا نعمة الله عليكم إذ كنتم أعداء فألَّف بين قلوبكم، فأصبحتم بنعمته إخواناً، وكنتم على شفا حفرة من النار فأنقذكم منها. كذلك يبين لكم آياته لعلكم تهتدون﴾.

وفي الصحيحين أن رسول الله ـ ﷺ ـ لما خَطَب الأنصار في شأن غنائم حُنَين قال لهم: «يا معشر الأنصارِ، ألم أجدكم ضُلاّلاً فهداكم الله بي، وعالة فأغناكم الله بي، وكنتم متفرقين فألَّفكم الله بي؟ كُلَّما قال شيئاً قالوا: الله ورسوله أَمَنّ»[(١)].

ولهذا قال تعالى: ﴿ولكن الله ألف بينهم إنه عزيز حكيم﴾، أي: عزيز الجناب، فلا يَخيب رجاء من توكل عليه، حكيم في أفعاله وأحكامه.

قال الحافظ أبو بكر البيهقي: أخبرنا أبو عبد الله الحافظ، أنبأنا علي بن بشر الصيرفي القزويني في منزلنا، أنبأنا أبو عبد الله محمد بن الحُسَين القِنْديلي الإستراباذي، حدثنا أبو إسحاق إبراهيم بن محمد بن النعمان الصفار، حدثنا ميمون بن الحكم، حدثنا بكر بن الشرود، عن محمد بن مسلم الطائفي، عن إبراهيم ابن ميسرة، عن طاوس، عن ابن عباس قال: قَرابة الرَّحِم تُقطعُ، ومِنَّةُ النعمة تُكْفَرُ، ولم يُرَ مثل تقارُبِ القُلُوبِ؛ يقول الله تعالى: ﴿لو أنفقت ما في الأرض جميعاً ما ألفت بين قلوبهم﴾، وذلك موجود في الشعر:

إذا مَتَّ ذُو القُرْبَى إليك بِرحْمِهِ ... فَغَشَّك واستَغْنَى فليس بذي رِحْمِ
ولكن ذا القربى الذي إن دَعوتَه ... أجاب ومن يَرْمِي العَدُوَّ الذي تَرْمِي

قال: ومن ذلك قول القائل:

وَلَقَد صَحِبتُ الناس ثُمّ سَبَرْتهم ... وَبَلوت ما وَصَلُوا من الأسْبَابِ
فإذَا القَرَابَةُ لا تُقَرِّبُ قَاطِعاً ... وَإِذَا المَوَدَّةُ أقربُ الأَسْبَابِ

قال البيهقي: لا أدري هذا موصول بكلام ابن عباس، أو هو من قول من دونه من الرواة[(٢)]؟.

وقال أبو إسحاق السَّبِيعي، عن أبي الأحوص، عن عبد الله بن مسعود ـ رضي الله عنه ـ سمعته يقول:

(١) فتح الباري، كتاب المغازي ٨/ ٤٧، ومسلم، كتاب الزكاة ٧٣٨.
(٢) أخرجه البيهقي في شعب الإيمان، انظر الدرّ المنثور ٤/ ١٠٠.

﴿لو أنفقت ما في الأرض جميعاً ما ألفت بين قلوبهم﴾. . . الآية، قال: هم المتحابون في الله. وفي رواية: نزلت في المتحابين في الله.

رواه النسائي والحاكم في مستدركه، وقال: «صحيح»(١).

وقال عبد الرزاق: أخبرنا معمر، عن ابن طاوس، عن أبيه، عن ابن عباس قال: إن الرحم لتقطع، وإن النعمة لتكفر؛ وإن الله إذا قارب بين القلوب لم يزحزحها شيء، ثم قرأ: ﴿لو أنفقت ما في الأرض جميعاً ما ألفت بين قلوبهم﴾.

رواه الحاكم أيضاً(١).

وقال أبو عمرو الأوزاعي: حدثني عبدة بن أبي لبابة، عن مجاهد، ولقيته فأخذ بيدي فقال: إذا تراءى المتحابان في الله، فأخذ أحدهما بيد صاحبه، وضحك إليه تحاتّت خطاياهما كما يَتحاتُّ(٢) ورق الشجر. قال عبدة: فقلت له: إن هذا ليسير! فقال: لا تقل ذلك؛ فإن الله تعالى يقول: ﴿لو أنفقت ما في الأرض جميعاً ما ألّفت بين قلوبهم﴾! قال عبدة: فعرفت أنه أفقه مني.

وقال ابن جرير: حدثنا أبو كريب، حدثنا ابن يمان، عن إبراهيم الخُوزيّ، عن الوليد بن أبي مغيث، عن مجاهد قال: إذا التقى المسلمان فتصافحا غُفر لهما، قال: قلت لمجاهد: بمصافحة يغفر لهما؟ فقال مجاهد: أما سمعته يقول: ﴿لو أنفقت ما في الأرض جميعاً ما ألفت بين قلوبهم ولكن الله ألف بينهم﴾؟ فقال الوليد لمجاهد: أنت أعلم مني(٣).

وكذا روى طلحة بن مُصَرِّف، عن مجاهد.

وقال ابن عون، عن عمير بن إسحاق قال: كنا نُحدَّث(٤) أن أول ما يرفع من الناس الألفة.

وقال الحافظ أبو القاسم سليمان بن أحمد الطبراني رحمه الله: حدثنا الحسين بن إسحاق التُّسْتَرِيّ، حدثنا عُبَيد الله بن عمر القواريري، حدثنا سالم بن غيلان، سمعت جعداً أبا عثمان، حدثني أبو عثمان النهدي، عن سلمان الفارسي: أن رسول الله ـ ﷺ ـ قال: «إن المسلم إذا لقي أخاه المسلم، فأخذ بيده، تَحاتَّت عنهما ذنوبهما، كما يَتحاتُّ الورقُ عن الشجرةِ اليابسة في يوم ريحٍ عاصفٍ، وإلا غُفِر لهما ولو كانت ذنوبهما مثل زَبَد البحار»(٥).

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ حَسْبُكَ ٱللَّهُ وَمَنِ ٱتَّبَعَكَ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿٦٤﴾ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ حَرِّضِ ٱلْمُؤْمِنِينَ عَلَى ٱلْقِتَالِ ۚ إِن يَكُن مِّنكُمْ عِشْرُونَ صَٰبِرُونَ يَغْلِبُوا۟ مِائَتَيْنِ ۚ وَإِن يَكُن مِّنكُم مِّا۟ئَةٌ يَغْلِبُوٓا۟ أَلْفًا مِّنَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَّا يَفْقَهُونَ ﴿٦٥﴾ ٱلْـَٰٔنَ خَفَّفَ ٱللَّهُ عَنكُمْ وَعَلِمَ أَنَّ فِيكُمْ ضَعْفًا ۚ فَإِن يَكُن مِّنكُم مِّا۟ئَةٌ صَابِرَةٌ يَغْلِبُوا۟ مِائَتَيْنِ ۚ وَإِن يَكُن مِّنكُمْ أَلْفٌ يَغْلِبُوٓا۟ أَلْفَيْنِ بِإِذْنِ ٱللَّهِ ۗ وَٱللَّهُ مَعَ ٱلصَّٰبِرِينَ ﴿٦٦﴾﴾

---

(١) المستدرك، تفسير سورة الأنفال ٢/ ٣٢٨ ـ ٣٢٩.

(٢) أي: يتساقط.

(٣) تفسير الطبري ١٠/ ٣٦.

(٤) في الأصل: نتحدّث. والمثبت عن تفسير الطبري.

(٥) المعجم الكبير ٦/ ٢٥٦.

يحرض تعالى نبيه ـ صلوات الله وسلامه عليه ـ والمؤمنين على القتال ومناجزة الأعداء ومبارزة الأقران، ويخبرهم أنه حسبهم، أي: كافيهم وناصرهم ومؤيدهم على عدوهم، وإن كثرت أعدادهم وترادفت أمدادهم، ولو قل عدد المؤمنين.

قال ابن أبي حاتم: حدثنا أحمد بن عثمان بن حكيم، حدثنا عبيد الله بن موسى، أنبأنا سفيان، عن ابن شَوْذَبٍ، عن الشعبي في قوله: ﴿يا أيها النبي حسبك الله ومن اتبعك من المؤمنين﴾، قال: حسبك الله، وحسب من شهد معك.

قال: «وَرُوِيَ عن عطاء الخراساني، وعبد الرحمن بن زيد، مثله».

ولهذا قال: ﴿يا أيها النبي، حَرِّض المؤمنين على القتال﴾، أي: حثهم وذَمِّرْهم عليه، ولهذا كان رسول الله ـ ﷺ ـ يحرِّض على القتال عند صفهم ومواجهة العدو، كما قال لأصحابه يوم بدر، حين أقبل المشركون في عَدَدهم وعُدَدهم: قوموا إلى جنة عرضها السمٰوات والأرض. فقال عُمَير بن الحُمَام: عرضها السمٰوات والأرض؟! فقال رسول الله ـ ﷺ ـ: نعم. فقال: بَخٍ بَخٍ، فقال: ما يحملك على قولك «بَخٍ بَخٍ؟» قال: رجاء أن أكون من أهلها! قال: فإنك من أهلها. فتقدَّم الرجل فكسر جَفْنَ سيفه. وأخرج تمرات فجعل يأكل منهن، ثم ألقى بقيَّتهن من يده، وقال: لئن أنا حَيِيتُ حتى آكلهنّ إنها لحياة طويلةٌ! ثم تقدم فقاتل حتى قُتِلَ، رضي الله عنه»[(١)].

وقد رُوي عن سعيد بن المسيب، وسعيد بن جُبَير: أن هذه الآية نزلت حين أسلم عمر بن الخطاب، وكمل به الأربعون.

وفي هذا نظر؛ لأن هذه الآية مدنية، وإسلام عمر كان بمكة بعد الهجرة إلى أرض الحبشة وقبل الهجرة إلى المدينة، والله أعلم.

ثم قال تعالى مُبَشِّراً للمؤمنين وآمراً: ﴿إن يكن منكم عشرون صابرون يغلبوا مائتين، وإن يكن منكم مائة يغلبوا ألفاً من الذين كفروا﴾، وكل واحد بعشرة. ثم نسخ هذا الأمر وبقيت البشارة.

قال عبد الله بن المبارك، حدثنا جرير بن حازم، حدثني الزبير بن الخِرِّيت، عن عكرمة، عن ابن عباس قال: لما نزلت: ﴿إن يكن منكم عشرون صابرون يغلبوا مائتين﴾، شق ذلك على المسلمين حين فرض الله عليهم ألَّا يفر واحد من عشرة، ثم جاء التخفيف، فقال: ﴿الآن خفف الله عنكم﴾ . . . إلى قوله: ﴿يغلبوا مائتين﴾، قال: خفف الله عنهم من العدة، ونقص من الصبر بقدر ما خفف عنهم.

وروى البخاري من حديث ابن المبارك، نحوه[(٢)].

وقال سعيد بن منصور: حدثنا سفيان، عن عمرو بن دينار، عن ابن عباس في هذه الآية قال: كتب عليهم ألَّا يفرَّ عشرون من مائتين، ثم خفف الله عنهم، فقال: ﴿الآن خَفَّف الله عنكم وعلم أن فيكم ضعفاً﴾، فلا ينبغي لمائة أن يفروا من مائتين.

وروى البخاري، عن علي بن عبد الله، عن سفيان، به ونحوه[(٢)].

وقال محمد بن إسحاق: حدثني ابن أبي نَجِيح، عن عطاء، عن ابن عباس، قال: لما نزلت هذه الآية

(١) مسلم، كتاب الإمارة ١٥٠٩ ـ ١٥١١، ومسند الإمام أحمد ٣/ ١٣٦ ـ ١٣٧، وسيرة ابن هشام ١/ ٦٢٧.
(٢) فتح الباري، تفسير سورة الأنفال ٨/ ٣١١ ـ ٣١٢.

ثقلت على المسلمين، وأَعْظَمُوا أن يقاتل عشرون مائتين، ومائةٌ ألفاً، فخَفَّف الله عنهم. فَنَسخها بالآية الأخرى فقال: ﴿الآن خَفَّفَ الله عنكم وعلم أن فيكم ضعفاً﴾. . . الآية، فكانوا إذا كانوا على الشطر من عَدُوٍّ لهم لم يَنْبَغِ لهم أن يَفِرُّوا من عَدُوِّهم، وإذا كانوا دون ذلك، لم يجب عليهم قتالهم، وجاز لهم أن يتحوَّزُوا عنهم(١).

وروى علي بن أبي طلحة والعَوْفِي، عن ابن عباس، نحو ذلك. قال ابن أبي حاتم: وَرُوِي عن مجاهد، وعطاء، وعكرمة، والحسن، وزيد بن أسلم، وعطاء الخراساني، والضحاك، نحو ذلك.

وروى الحافظ أبو بكر بن مردويه، من حديث المسيب بن شريك، عن ابن عون، عن نافع، عن ابن عمر ـ رضي الله عنهما ـ: ﴿إن يكن منكم عشرون صابرون يغلبوا مائتين﴾ قال: نزلت فينا أصحاب محمد ﷺ.

وروى الحاكم في مستدركه، من حديث أبي عمرو بن العلاء، عن نافع، عن ابن عُمَر: أن رسول الله ـ ﷺ ـ قرأ: ﴿الآن خَفَّفَ الله عنكم وعلم أن فيكم ضَعْفاً﴾، رَفَعَ. ثم قال: «صحيح الإسناد ولم يخرجاه»(٢).

﴿مَا كَانَ لِنَبِيٍّ أَن يَكُونَ لَهُۥٓ أَسْرَىٰ حَتَّىٰ يُثْخِنَ فِى ٱلْأَرْضِ ۚ تُرِيدُونَ عَرَضَ ٱلدُّنْيَا وَٱللَّهُ يُرِيدُ ٱلْـَٔاخِرَةَ ۗ وَٱللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴿٦٧﴾ لَّوْلَا كِتَـٰبٌ مِّنَ ٱللَّهِ سَبَقَ لَمَسَّكُمْ فِيمَآ أَخَذْتُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴿٦٨﴾ فَكُلُوا۟ مِمَّا غَنِمْتُمْ حَلَـٰلًا طَيِّبًا ۚ وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٦٩﴾﴾

قال الإمام أحمدُ: حدثنا علي بن عاصم، عن حُمَيد، عن أنس ـ رضي الله عنه ـ قال: استشار رسول الله ـ ﷺ ـ الناسَ في الأسارى يوم بدر، فقال: إن الله قد أمكنكم منهم. فقام عمر بن الخطاب فقال: يا رسول الله، اضرب أعناقهم. فأعرض عنه النبي ـ ﷺ ـ ثم عاد رسول الله ـ ﷺ ـ فقال: يا أيها الناس، إن الله قد أَمْكَنَكُم منهم، وإنما هم إخوانكم بالأمس. فقام عمر فقال: يا رسول الله، اضرب أعناقهم. فأعرض عنه النبي ـ ﷺ ـ ثم عاد النبي ـ ﷺ ـ فقال للناس مثل ذلك، فقام أبو بكر الصديق ـ رضي الله عنه ـ فقال: يا رسول الله، نرى أن تعفو عنهم، وأن تقبل منهم الفداء. قال: فذهب عن وجه رسول الله ـ ﷺ ـ ما كان فيه من الغم، فعفا عنهم، وقبل منهم الفداء. قال: وأنزل الله عز وجل: ﴿لولا كتاب من الله سبق﴾. . . الآية(٣).

وقد سبق في أول السورة حديث ابن عباس في صحيح مسلم بنحو ذلك(٤).

وقال الأعمش، عن عمرو بن مرة، عن أبي عُبَيدة، عن عبد الله قال: لما كان يوم بدر قال رسول الله ـ ﷺ ـ: «ما تقولون في هؤلاء الأسارى؟ قال: فقال أبو بكر: يا رسول الله، قومك وأهلك، استَبْقِهِم واستَتِبهُم، لعل الله أن يتوب عليهم. قال: وقال عمر: يا رسول الله، أخرجوك، وكذَّبوك، فَقَدِّمْهم فاضرب أعناقهم. قال: وقال عبد الله بن رواحة: يا رسول الله، أنت في واد كثير الحَطَب، فأضرم الوادي عليهم ناراً، ثم ألقهم فيه. [قال: فقال العباس: قطعت رَحِمَك](٥). قال: فسكت رسول الله ـ ﷺ ـ فلم يرُدَّ عليهم شيئاً،

(١) تفسير الطبري ١٠/ ٣٩.

(٢) المستدرك، كتاب التفسير ٢/ ٣٢٩.

(٣) مسند الإمام أحمد ٣/ ٢٤٣.

(٤) انظر تفسير الآية التاسعة من هذه السورة.

(٥) عن المسند.

ثم قام فدخل فقال ناس: يأخذ بقول أبي بكر. وقال ناس: يأخذ بقول عمر. وقال ناس: يأخذ بقول عبد الله بن رواحة. ثم خرج عليهم رسول الله ـ ﷺ ـ فقال: إن الله لَيُلين قلوب رجال حتى تكون ألْيَن من اللبن، وإن الله ليشدد قلوب رجال فيه حتى تكون أشد من الحجارة، وإنَّ مثلَكَ يا أبا بكر كمثل إبراهيم، قال: ﴿فمن تبعني فإنه مني ومن عصاني فإنك غفور رحيم﴾، وإنَّ مثلك يا أبا بكر كمثل عيسى [قال]: ﴿إن تُعَذِّبهم فإنهم عبادك وإن تَغْفِر لهم فإنك أنت العزيز الحكيم﴾، وإن مثلك يا عمر مثل موسى عليه السلام، قال: ﴿ربنا اطمِسْ على أموالهم واشْدُدْ على قلوبهم فلا يؤمنوا حتى يروا العذاب الأليم﴾، وإن مثلَكَ يا عمر كمثل نوح عليه السلام، قال: ﴿رب لا تذر على الأرض من الكافرين دياراً﴾. أنتم عَالَةٌ فلا يَنْفَلِتَنَّ أحد منهم إلا بفداء أو ضربة عُنُق. قال ابن مسعود: قلت: يا رسول الله، إلا سُهَيل بن بيضاء، فإنه يَذْكُر الإسلام، فسكت رسول الله ـ ﷺ ـ فما رأيتني في يوم أخوفَ أن تقع عليَّ حجارةٌ من السماء مِني في ذلك اليوم، حتى قال رسول الله ـ ﷺ ـ: إلا سُهَيلَ بن بَيْضَاء. فأنزل الله تعالى: ﴿ما كان لنبي أن يكون له أسرى﴾، . . . إلى آخر الآية.

رواه الإمام أحمد والترمذي(١)، من حديث أبي معاوية، عن الأعمش، والحاكم في مستدركه، وقال: «صحيح الإسناد ولم يخرجاه». وروى الحافظ أبو بكر بنُ مردويه، عن عبدالله بن عمر، وأبي هريرة ـ رضي الله عنهما ـ عن النبي ـ ﷺ ـ نحوه، وفي الباب عن أبي أيوب الأنصاري.

وروى ابن مردويه أيضاً ـ واللفظ له ـ والحاكم في مستدركه، من حديث عبيد الله بن موسى: حدثنا إسرائيل، عن إبراهيم بن مهاجر، عن مجاهد، عن ابن عمر قال: لما أُسِرَ الأسارى يوم بدر، أُسِرَ العباس فيمن أُسِرَ، أَسَرَه رجل من الأنصار، قال: وقد أوعدته الأنصار أن يقتلوه. فبلغ ذلك النبي ـ ﷺ ـ فقال رسول الله ـ ﷺ ـ: إني لم أنم الليلة من أجل عمي العباس، وقد زعمت الأنصار أنهم قاتلوه. فقال له عمر: فآتهم؟ قال: نعم. فأتى عمر الأنصار فقال لهم: أرسلوا العباس. فقالوا: لا، والله لا نرسله. فقال لهم عمر: فإن كان لرسول الله ـ ﷺ ـ رضًى؟ قالوا: فإن كان لرسول الله ـ ﷺ ـ رضى فخذه. فأخذه عمر فلما صار في يده قال له: يا عباس، أسلم، فوالله لأنْ تُسلمَ أحبُّ إليَّ من أن يسلم الخطاب، وما ذاك إلا لما رأيت رسول الله ـ ﷺ ـ يعجبه إسلامك، قال: فاستشار رسول الله ـ ﷺ ـ أبا بكر، فقال أبو بكر: عشيرتك. فأرسلهم، فاستشار عمر، فقال: اقتلهم. ففاداهم رسول الله ـ ﷺ ـ فأنزل الله: ﴿ما كان لنبي أن يكون له أسرى حتى يثخن في الأرض﴾ الآية.

قال الحاكم: صحيح الإسناد، ولم يخرجاه(٢).

وقال سفيان الثوري، عن هشام ـ هو ابن حسان ـ عن محمد بن سيرين، عن عَبِيدَةَ، عن علي ـ رضي الله عنه ـ قال: جاء جبريل إلى النبي ـ ﷺ ـ يوم بدر فقال: خَيِّر أصحابك في الأسارى: إن شاءُوا الفداء، وإن شاءُوا القتل، على أن يقتل مقبلاً مثلهم. قالوا: الفداء ويقتل منا.

رواه الترمذي، والنسائي، وابن حبّان في صحيحه من حديث الثوري، به. وهذا حديث غريب جداً(٣).

وقال ابن عون، عن عَبِيدَةَ، عن علي قال: قال رسول الله ـ ﷺ ـ في أسارى يوم بدر: «إن شئتم

---

(١) المسند ١/ ٣٨٣ ـ ٣٨٤، وتحفة الأحوذي ٨/ ٤٧٦ ـ ٤٧٧، والمستدرك، كتاب المغازي ٣/ ٢١ ـ ٢٢.
(٢) المستدرك، كتاب التفسير ٢/ ٣٢٩.
(٣) تحفة الأحوذي، أبواب السير ٥/ ١٨٥ ـ ١٨٨.

قتلتموهم، وإن شئتم فاديتموهم واستمعتم بالفداء، واستشهد منكم بعدتهم». قال: فكان آخر السبعين ثابت بن قيس، قتل يوم اليمامة، رضي الله عنه.

ومنهم من روى هذا الحديث عن عَبِيدة مرسلاً، فالله أعلم.

وقال محمد بن إسحاق، عن ابن أبي نَجيح، عن عطاء، عن ابن عباس: ﴿ما كان لنبيٍّ أن يكون له أسرى﴾، فقرأ حتى بلغ: ﴿عذاب عظيم﴾، قال: غنائمُ بدر، قبل أن يُحِلَّها لهم، يقول: لولا أني لا أعذِّب من عصاني حتى أتقدم إليه، لمسّكم فيما أخذتم عذاب عظيم(١).

وكذا روى ابن أبي نجيح، عن مجاهد.

وقال الأعمش: سبَقَ منه أن لا يعـذب أحداً شهد بدراً. وروي نحوه عن سعد بن أبي وقاص، وسعيد ابن جبير، وعطاء.

وقال شعبة، عن أبي هاشم، عن مجاهد: ﴿لولا كتاب من الله سبق﴾، أي: «لهم بالمغفرة». ونحوه عن سفيان الثوري رحمه الله.

وقال علي بن أبي طلحة، عن ابن عباس في قوله: ﴿لولا كتاب من الله سبق﴾، يعني: في أم الكتاب الأول أن المغانم والأسارى حلال لكم، ﴿لمسّكم فيما أخذتم﴾ من الأسارى ﴿عذاب عظيم﴾، قال الله تعالى: ﴿فكلوا مما غنمتم﴾... الآية. وكذا روى العوفي، عن ابن عباس. وروي مثله عن أبي هريرة، وابن مسعود، وسعيد بن جبير، وعطاء، والحسن [البصري]، وقتادة، والأعمش أيضاً: أن المراد ﴿لولا كتاب من الله سبق﴾ لهذه الأمة بإحلال الغنائم. وهو اختيار ابن جرير رحمه الله.

ويستشهد لهذا القول بما أخرجاه في الصحيحين، عن جابر بن عبد الله ـ رضي الله عنه ـ قال: قال رسول الله ـ ﷺ ـ: «أعطيت خمساً، لم يُعطَهُنَّ أحد من الأنبياء قبلي: نُصِرت بالرعب مَسِيرَة شهر، وجُعلت لي الأرض مَسْجداً وطهوراً، وأُحِلَّت لي الغنائمُ ولم تَحِلَّ لأحد قبلي، وأعطِيتُ الشفاعة، وكان النبي يُبعَثُ إلى قومه وبُعِثْتُ إلى الناس عامة»(٢).

وقال الأعمش، عن أبي صالح، عن أبي هُرَيرة ـ رضي الله عنه ـ قال: قال رسول الله ـ ﷺ ـ «لم تحل الغنائم لسود الرؤوس غيرنا»(٣).

ولهذا قال الله تعالى: ﴿فكلوا مما غنمتم حلالاً طيباً واتقوا الله إن الله غفور رحيم﴾، فعند ذلك أخذوا من الأسارى الفداء.

وقد روى الإمام أبو داود في سننه: حدثنا عبد الرحمن بن المبارك العيشي، حدثنا سفيان بن حبيب، حدثنا شعبة، عن أبي العنبس، عن أبي الشعثاء، عن ابن عباس: أن رسول الله ـ ﷺ ـ جعل فداء أهل الجاهلية يوم بدر أربعمائة(٤).

وقد استقر الحكم في الأسرى عند جمهور العلماء: أن الإمام مخير فيهم: إن شاء قَتَلَ ـ كما فُعِل ببني

(١) سيرة ابن هشام ١/ ٦٧٦.
(٢) فتح الباري، كتاب التيمّم ١/ ٤٣٥ ـ ٤٣٦، ومسلم، كتاب المساجد ٣٧٠ ـ ٣٧١.
(٣) تحفة الأحوذي، تفسير سورة الأنفال ٨/ ٤٧٤.
(٤) سنن أبي داود، كتاب الجهاد ٣/ ٦١ ـ ٦٢.

قريظة ـ وإن شاء فادى بمال ـ كما فُعِل بأسرى بدر ـ أو بمن أُسِرَ من المسلمين ـ كما فعل رسول الله ـ ﷺ ـ في تلك الجارية وابنتها اللتين كانتا في سَبْي سَلَمَةَ بن الأكوع، حيث رَدَّهما وأخَذَ في مقابلتهما من المسلمين الذين كانوا عند المشركين، وإن شاء استرق من أُسِرَ. هذا مذهب الإمام الشافعي وطائفة من العلماء، وفي المسألة خلاف آخر بين الأئمة مقرر في موضعه من كتب الفقه.

﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ قُل لِّمَن فِىٓ أَيْدِيكُم مِّنَ ٱلْأَسْرَىٰٓ إِن يَعْلَمِ ٱللَّهُ فِى قُلُوبِكُمْ خَيْرًا يُؤْتِكُمْ خَيْرًا مِّمَّآ أُخِذَ مِنكُمْ وَيَغْفِرْ لَكُمْ وَٱللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٧٠﴾ وَإِن يُرِيدُوا۟ خِيَانَتَكَ فَقَدْ خَانُوا۟ ٱللَّهَ مِن قَبْلُ فَأَمْكَنَ مِنْهُمْ وَٱللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴿٧١﴾﴾

قال محمد بن إسحاق: حدثني العباس بن عبد الله بن مَعْبَدٍ، عن بعض أهله، عن عبد الله بن عباس ـ رضي الله عنهما ـ أن رسول الله ـ ﷺ ـ قال يوم بدر: إني قد عرفتُ أن أناساً من بني هاشم وغيرهم، قد أُخرجُوا كَرْهاً، لا حاجة لهم بقتالنا، فمن لقي منكم أحداً منهم ـ أي: من بني هاشم ـ فلا يقتُله، ومن لقي أبا البَخْتَرِيِّ بن هشام فلا يقتله، ومن لقي العباس بن عبد المطلب فلا يقتُلْه، فإنه إنما أُخْرِج مستكرهاً. فقال أبو حُذَيفة بن عتبة: أنقتل آباءنا وأبناءنا وإخواننا وعشائرنا ونترك العباس؟! والله لئن لقيتُه لألجِمَنَّه بالسيف(١)! فَبَلَغت رسولَ الله ـ ﷺ ـ فقال لعمر بن الخطاب: يا أبا حَفْص ـ قال عُمَر: والله إنه لأول يوم كَنَّاني فيه رسول الله ـ ﷺ ـ أيضرب وجهُ عَمِّ رسول الله بالسيف؟ فقال عمر: يا رسول الله، ائذن لي فأضرِبَ عُنُقَه، فوالله لقد نافق. فكان أبو حذيفة يقول بعد ذلك: والله ما آمَنُ من تلك الكلمة التي قلت، ولا أزالُ منها خائفاً، إلا أن يكفرها الله عني بشهادة. فقتل يوم اليمامة شهيداً، رضي الله عنه(٢).

وبه، عن ابن عباس قال: لما أمسى رسول الله ـ ﷺ ـ يوم بدر، والأسارى محبوسون بالوثاق، بات رسولُ الله ـ ﷺ ـ ساهراً أول الليل، فقال له أصحابه: يا رسول الله، ما لك لا تنام؟ ـ وقد أَسَرَ العباسَ رجلٌ من الأنصار ـ فقال رسول الله ـ ﷺ ـ: سمعت أنين عمي العباس في وَثَاقِهِ. فأَطْلَقوه، فسكتَ، فنام رسول الله ﷺ.

قال محمد بن إسحاق: وكان أكثر الأسارى يوم بدر فداء العباس بن عبد المطلب، وذلك أنه كان رجلاً مُوسراً فافتدى نفسه بمائة أوقيه ذهباً.

وفي صحيح البخاري، من حديث موسى بن عقبة، قال ابن شهاب: حدثني أنس بن مالك أن رجالاً من الأنصار استأذنوا رسول الله ـ ﷺ ـ فقالوا: ائذن لنا فَلْنترُكْ لابن أختنا عباس فداءه. قال: لا، والله لا تَذَرُونَ منه درهماً(٣).

وقال يونس بن بكير، عن محمد بن إسحاق، عن يزيد بن رُومان، عن عروة ـ وعن الزهري، عن جماعة ـ سماهم ـ قالوا: بعثت قريش إلى رسول الله ـ ﷺ ـ في فداء أسراهم، ففدى كل قوم أسيرهم بما رضوا، وقال العباس: يا رسول الله، قد كنت مسلماً! فقال رسول الله ـ ﷺ : الله أعلمُ بإسلامك، فإن يكن كما تقول فإن الله يجزيك، وأما ظاهرك فقد كان علينا، فافتد نفسك وابنَي أخيك: نوفل بن الحارث بن عبد المطلب، وعَقيل بن أبي طالب بن عبد المطلب، وحليفك عتبة بن عمرو أخي بني الحارث بن فهر». قال: ما ذاك عندي يا رسول الله!

(١) في السيرة: لألجمنَّه السيف.

(٢) سيرة ابن هشام ١/ ٦٢٨ ـ ٦٢٩.

(٣) فتح الباري، كتاب المغازي ٧/ ٣٢١.

قال: فأين المال الذي دفنته أنت وأم الفضل، فقلت لها: إن أُصِبْتُ في سفري هذا، فهذا المال الذي دفنته لبَنيَّ: الفضل، وعبد الله، وقُثَم؟ قال: والله يا رسول الله، إني لأعلم أنك رسول الله، إن هذا لشيء ما علمه أحد غيري وغيرُ أم الفضل، فاحسب لي يا رسول الله ما أصبتم مني: عشرين أوقية من مال كان معي؟ فقال رسول الله ـ ﷺ ـ لا، ذاك شيء أعطانا الله تعالى منك. ففدى نفسه وابني أخويه وحليفه، وأنزل الله عز وجل فيه: ﴿يا أيها النبي قل لمن في أيديكم من الأسارى[(١)] إن يعلم الله في قلوبكم خيراً يؤتكم خيراً مما أخذ منكم ويغفر لكم والله غفور رحيم﴾، قال العباس: فأعطاني الله مكان العشرين الأوقية في الإسلام عشرين عبداً، كلهم في يده مال يَضْرِبُ به، مع ما أرجو من مغفرة الله عز وجل.

وقد روى ابن إسحاق أيضاً، عن ابن نَجيح، عن عطاء، عن ابن عباس في هذه الآية بنحو مما تقدم.

وقال أيضاً أبو جعفر بن جرير: حدثنا ابن وكيع، حدثنا ابن إدريس، [عن ابن إسحاق][(٢)] عن ابن أبي نَجيح، عن مجاهد، عن ابن عباس قال: قال العباس: فيّ نزلت: ﴿ما كان لنبي أن يكون له أسرى حتى يُثْخِنَ في الأرض﴾، فأخبرت النبي ـ ﷺ ـ بإسلامي، وسألته أن يحاسبني بالعشرين الأوقية التي أخذ مني، فأبى، فأبدلني الله بها عشرين عبداً، كلهم تاجرٌ، مالي في يده.

وقال ابن إسحاق أيضاً: حدثني الكلبي، عن أبي صالح، عن ابن عباس، عن جابر بن عبد الله بن رئاب قال: كان العباس بن عبد المطلب يقول: فيّ نزلت ـ والله ـ حين ذكرت لرسول الله ـ ﷺ ـ إسلامي ـ ثم ذكر نحو الحديث كالذي قبله.

وقال ابن جُرَيج، عن عطاء الخراساني، عن ابن عباس: ﴿يا أيها النبي، قل لمن في أيديكم من الأسرى﴾: عباس وأصحابه، قال: قالوا للنبي ـ ﷺ ـ: آمنا بما جئت به، ونشهد أنك رسول الله، لننصحن لك على قومنا. فأنزل الله: ﴿إن يعلم الله في قلوبكم خيراً يؤتكم خيراً مما أخذ منكم﴾، إيماناً وتصديقاً، يخلف لكم خيراً مما أخذ منكم، ﴿ويغفر لكم﴾ الشرك الذي كنتم عليه. قال: فكان العباس يقول: ما أحب أن هذه الآية لم تنزل فينا، وأن لي الدنيا، لقد قال: ﴿يؤتكم خيراً مما أخذ منكم﴾، فقد أعطاني خيراً مما أخذ مني مائة ضعف، وقال: ﴿ويغفر لكم﴾، وأرجو أن يكون غُفر لي.

وقال علي بن أبي طلحة، عن ابن عباس في هذه الآية: كان العباس أسر يوم بدر، فافتدى نفسه بأربعين أوقية من ذهب، فقال العباس حين قرئت هذه الآية: لقد أعطانا الله عز وجل خَصلتين، ما أحب أن لي بهما الدنيا، إني أسرت يوم بدر فَفَديت نفسي بأربعين أوقية، فأتاني أربعين عبداً، وأنا أرجو المغفرة التي وعدنا الله جل ثناؤه.

وقال قتادة في تفسير هذه الآية: ذُكر لنا أن رسول الله ـ ﷺ ـ لما قدم عليه مال البحرين ثمانون ألفاً، وقد توضأ لصلاة الظهر، فما أعطى يومئذ ساكتاً ولا حرم سائلاً، وما صلى يومئذ حتى فرقه، فأمر العباس أن يأخذ منه وَيَحْتَثِي [فأخذ. قال:][(٣)] فكان العباس يقول: هذا خير مما أخذ منا، وأرجو المغفرة.

وقال يعقوب بن سفيان: حدثنا عمرو بن عاصم، حدثنا سليمان بن المغيرة، عن حميد بن هلال قال: بعث ابن الحضرمي إلى رسول الله ـ ﷺ ـ من البحرين ثمانين ألفاً، ما أتاه مال أكثر منه لا قَبلُ ولا بَعدُ، قال:

---

(١) كذا في الأصل: (الأسارى). وهي قراءة أبي عمرو من السبعة. وقرأ الجمهور: (من الأسرى). انظر الإقناع ٢/ ٦٥٥.
(٢) عن تفسير الطبري بتحقيق الأستاذ محمود شاكر ١٤/ ٧٣.
(٣) عن تفسير الطبري.

فَنُثِرَتْ على حَصِير ونُودِي بالصلاة. قال: وجاء رسولُ الله ـ ﷺ ـ فمثَلَ قائماً على المال، وجاء أهل المسجد فما كان يومئذ عَدَدٌ ولا وَزْنٌ، ما كان إلا قَبْضاً، وجاء العباس بن عبد المطلب يَحْثِي في خَمِيصَةٍ[1] عليه، وذهب يقوم فلم يستطع، قال: فرفع رأسه إلى رسول الله ـ ﷺ ـ فقال: يا رسول الله، ارفع علي. قال: فتبسم رسول الله ـ ﷺ ـ حتى خرج ضاحكه[2] ـ أو: نابه ـ وقال له: أعدْ من المال طائفة، وقم بما تطيق. قال: ففعل، وجعل العباس يقول ـ وهو منطلق ـ: أمَّا إحدى اللتين وعدنا الله فقد أنجزنا، وما ندري ما يصنع في الأخرى: ﴿يا أيها النبي قل لمن في أيديكم من الأسرى﴾... الآية، ثم قال: هذا خير مما أخذ منا، ولا أدري ما يصنع الله في الأخرى. فما زال رسول الله ـ ﷺ ـ ماثلاً على ذلك المال، حتى ما بقي منه درهم، وما بعث إلى أهله بدرهم، ثم أتى الصلاة فصلى.

حديث آخر في ذلك، قال الحافظ أبو بكر البيهقي:

أنبأنا أبو عبد الله الحافظ، أخبرني أبو الطيب محمد بن محمد بن عبد الله الشَّعِيرِيُّ، حدثنا مَحْمِش بن عصام، حدثنا حفص بن عبد الله، حدثنا إبراهيم بن طهمان، عن عبد العزيز بن صُهَيب، عن أنس بن مالك قال: أُتِي رسولُ الله ـ ﷺ ـ بمال من البحرين، فقال: انثروه في المسجد. قال: وكان أكثر مال أتي به رسول الله ـ ﷺ ـ فخرج إلى الصلاة ولم يلتفت إليه، فلما قضي الصلاة جاء فجلس إليه، فما كان يرى أحداً إلا أعطاه، إذ جاء العباس فقال: يا رسول الله، أعطني، فإني فاديتُ نفسي، وفاديت عَقيلاً. فقال له رسول الله ـ ﷺ ـ: خذ. فحثا في ثوبه، ثم ذهب يُقِلّه[3] فلم يستطع، فقال: مُرْ بعضهم يرفعه إليّ. قال: لا. قال: فارفعه أنت عليّ. قال: لا. فنثر منه ثم احتمله على كاهله، ثم انطلق، فما زال رسول الله ـ ﷺ ـ يُتبعه بصره حتى خَفِيَ عنه، عَجَباً من حِرْصه، فما قام رسول الله ـ ﷺ ـ وثَمَّ منها درهم[4].

وقد رواه البخاري في مواضعَ من صحيحه تعليقاً بصيغة الجَزْمِ، يقول: «وقال إبراهيمُ بن طهمان» ويسوقه وفي بعض السياقات أتم من هذا[4].

وقولُه: ﴿وإن يريدوا خيانتك﴾، أي: فيما أظهروا لك من الأقوال، ﴿فقد خانوا الله من قبل﴾، أي: من قبل بدر بالكفر به، ﴿فأمكن منهم﴾، أي: بالإسار يوم بدر، ﴿والله عليم حكيم﴾. أي: عليم بما يفعله، حكيم فيه.

قال قتادةُ: نزلت في عبد الله بن سعد بن أبي سَرْحٍ الكاتبِ حين ارتد، ولحق بالمشركين.

وقال ابن جُرَيج، عن عطاء الخراساني، عن ابن عباس: نزلت في عباس وأصحابه، حين قالوا: «لننصحن لك على قومنا».

وفسرها السدّيُّ على العموم، وهو أشمل وأظهر، والله أعلم.

﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَهَاجَرُوا۟ وَجَٰهَدُوا۟ بِأَمْوَٰلِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ وَٱلَّذِينَ ءَاوَوا۟ وَّنَصَرُوٓا۟ أُو۟لَٰٓئِكَ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَآءُ بَعْضٍ ۚ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَلَمْ يُهَاجِرُوا۟ مَا لَكُم مِّن وَلَٰيَتِهِم مِّن شَىْءٍ حَتَّىٰ يُهَاجِرُوا۟ ۚ وَإِنِ ٱسْتَنصَرُوكُمْ فِى ٱلدِّينِ فَعَلَيْكُمُ

(١) هي كساء أبيض مربع.
(٢) الضاحك: السنّ التي تبدو عند الضحك.
(٣) أي: يحمله.
(٤) السنن الكبرى للبيهقي، كتاب قسم الفيء والخراج ٣٥٦/٦، وفتح الباري، كتاب الصلاة ٥١٦/١، وكتاب الجزية ٢٦٨/٦.

ٱلنَّصۡرُ إِلَّا عَلَىٰ قَوۡمِۭ بَيۡنَكُمۡ وَبَيۡنَهُم مِّيثَٰقٞۗ وَٱللَّهُ بِمَا تَعۡمَلُونَ بَصِيرٞ ﴿٧٢﴾

ذكر تعالى أصناف المؤمنين، وقسّمهم إلى مهاجرين خرجوا من ديارهم وأموالهم، وجاءُوا لنصر الله ورسوله، وإقامة دينه، وبذلوا أموالهم وأنفسهم في ذلك. وإلى أنصار، وهم: المسلمون من أهل المدينة إذذاك، آووا إخوانهم المهاجرين في منازلهم، وواسوهم في أموالهم، ونصروا الله ورسوله بالقتال معهم، فهؤلاء بعضهم أولياء بعض، أي: كل منهم أحق بالآخر من كل أحد. ولهذا آخى رسول الله ـ ﷺ ـ بين المهاجرين والأنصار، كل اثنين أخوان، فكانوا يتوارثون بذلك إرثاً مقدماً على القرابة، حتى نسخ الله تعالى ذلك بالمواريث، ثبت ذلك في صحيح البخاري، عن ابن عباس(١)، ورواه العَوْفي، وعلي بن أبي طلحة، عنه. وقال [به] مجاهد، وعكرمة، والحسن، وقتادة وغيرهم.

قال الإمام أحمد: حدثنا وكيع، عن شريك، عن عاصم، عن أبي وائل، عن جَرير ـ هو ابن عبد الله البجلي، رضي الله عنه ـ قال: قال رسول الله ـ ﷺ ـ: «المهاجرون والأنصار أولياء، بعضهم لِبَعْضٍ، والطلقاء من قريش، والعتقاء من ثقيف، بعضهم أولياء بعض إلى يوم القيامة. تفرد به أحمد(٢).

وقال الحافظ أبو يعلى: حدثنا شيبان، حدثنا عكرمة ـ يعني ابن إبراهيم الأزدي ـ حدثنا عاصم، عن شقيق، عن ابن مسعود قال: سمعت رسول الله ـ ﷺ ـ يقول: «المهاجرون والأنصار والطلقاء من قريش، والعتقاء من ثقيف، بعضهم أولياء بعض في الدنيا والآخرة».

هكذا رواه في مسند عبد الله بن مسعود(٣).

وقد أثنى الله ورسوله على المهاجرين والأنصار في غير ما آية في كتابه، فقال: ﴿والسابقون الأولون من المهاجرين والأنصار والذين اتبعوهم بإحسان رَضِي الله عنهُم ورَضُوا عنه وأعدَّ لهم جنات تجري تحتها الأنهار...﴾ الآية، وقال: ﴿لقد تاب الله على النبي والمهاجرين والأنصار الذين اتبعوه في ساعة العسرة...﴾ الآية، وقال تعالى: ﴿للفقراء المهاجرين الذين أخرجوا من ديارهم وأموالهم يبتغون فضلاً من الله ورضواناً وينصرون الله ورسوله أولئك هم الصادقون * والذين تبوّءُوا الدار والإيمان من قبلهم يحبون من هاجر إليهم، ولا يجدون في صدورهم حاجة مما أوتوا، ويؤثرون على أنفسهم ولو كان بهم خصاصة...﴾ الآية.

وأحسن ما قيل في قوله: ﴿ولا يجدون في صدورهم حاجة مما أوتوا﴾، أي: لا يحسدونهم على فضل ما أعطاهم الله على هجرتهم، فإن ظاهر الآيات تقديم المهاجرين على الأنصار، وهذا أمر مجمع عليه بين العلماء، لا يختلفون في ذلك، ولهذا قال الإمام أبو بكر أحمد بن عمرو بن عبد الخالق البزار في مسنده:

حدثنا محمد بن معمر، حدثنا مسلم بن إبراهيم، حدثنا حماد بن سلمة، عن علي بن زيد، عن سعيد بن المسيب، عن حذيفة قال: «خيّرني رسول الله ـ ﷺ ـ بين الهجرة والنصرة، فاخترت الهجرة».

ثم قال: لا نعرفه إلا من هذا الوجه(٤).

وقوله: ﴿والذين آمنوا ولم يهاجروا ما لكم من ولايتهم﴾، قرأ حمزة: وِلَايتهم(٥) بالكسر، والباقون

---

(١) فتح الباري، تفسير سورة النساء ٨/ ٢٤٧.
(٢) مسند الإمام أحمد ٤/ ٣٦٣.
(٣) مسند أبي يعلى ٨/ ٤٤٦.
(٤) كشف الأستار عن زوائد البزار، مناقب حذيفة ٣/ ٢٦٥ ـ ٢٦٦.
(٥) الإقناع لابن الباذش ٦٥٦.

بالفتح، وهما واحد كالدِّلالة والدَّلالة، ﴿من شيء حتى يهاجروا﴾، هذا هو الصنف الثالث من المؤمنين، وهم الذين آمنوا ولم يهاجروا، بل أقاموا في بَوَاديهم، فهؤلاء ليس لهم في المغانم نَصِيبٌ، ولا في خُمسها إلا ما حضروا فيه القتال، كما قال الإمام أحمد:

حدثنا وكيع، حدثنا سفيان، عن علقمة بن مَرْثَدٍ، عن سليمان بن بُرَيدة، عن أبيه بُرَيدة بن الحُصَيب الأسلمي ـ رضي الله عنه ـ قال: كان رسولُ الله ـ ﷺ ـ إذا بعث أميراً على سريَّة أو جيش، أوصاه في خاصَّةِ نفسه بتقوى الله وَمَن معه من المسلمين خيراً، وقال: اغزوا باسم الله في سبيل الله، قاتلوا من كفر بالله، إذا لقيت عدوك من المشركين فادعهم إلى إحدى ثلاث خصال ـ أو: خلال ـ فأيتهن ما أجابوك إليها فاقبل منهم، وكف عنهم. ادعُهم إلى الإسلام، فإن أجابوك فاقبل منهم، وكُفَّ عنهم. ثم ادعُهُم إلى التحوُّل من دارهم إلى دار المهاجرين، وأعلمهم إن فعلوا ذلك أن لهم ما للمهاجرين، وأن عليهم ما على المهاجرين. فإن أَبَوا واختارُوا دارهم فأعلمهم أنهم يكونون كأعراب المسلمين، يجري عليهم حكم الله الذي يجري على المؤمنين، ولا يكون لهم في الفيء والغنيمة نصيب، إلا أن يجاهدوا مع المسلمين، فإن هم أَبَوا فادعهُم إلى إعطاء الجزية، فإن أجابوا فاقبل منهم وكف عنهم، فإن أبوا فاستعن بالله ثم قاتلهم»[١].

انفرد به مسلم، وعنده زيادات أخر[٢].

وقوله: ﴿وإن استنصروكم في الدين فعليكم النصر إلا على قوم بينكم وبينهم ميثاق، والله بما تعملون بصير﴾.

يقول تعالى: ﴿وإن استنصروكم﴾ هؤلاء الأعراب، الذين لم يهاجروا في قتال ديني، على عدوّ لهم فانصروهم، فإنه واجب عليكم نصرهم، لأنهم إخوانكم في الدين، إلا أن يستنصروكم على قوم من الكفار ﴿بينكم وبينهم ميثاق﴾، أي: مهادنة إلى مدة، فلا تخفروا ذمتكم، ولا تنقضوا أيمانكم مع الذين عاهدتم. وهذا مروي عن ابن عباس رضي الله عنه.

﴿وَٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَآءُ بَعْضٍ ۚ إِلَّا تَفْعَلُوهُ تَكُن فِتْنَةٌ فِى ٱلْأَرْضِ وَفَسَادٌ كَبِيرٌ ﴿٧٣﴾﴾

لما ذكر تعالى أن المؤمنين بعضُهم أولياء بعض، قطع الموالاة بينهم وبين الكفار، كما قال الحاكم في مستدركه:

حدثنا محمد بن صالح بن هانىء، حدثنا أبو سعيد[٣] يحيى بن منصور الهروي، حدثنا محمد بن أبان، حدثنا محمد بن يزيد وسفيان بن حسين، عن الزهري، عن علي بن الحسين، عن عمرو بن عثمان، عن أسامة، عن النبي ـ ﷺ ـ قال: «لا يتوارث أهل ملتين، ولا يرث مسلم كافراً، ولا كافر مسلماً، ثم قرأ: ﴿والذين كفروا بعضهم أولياء بعض إلا تفعلوه تكن فتنة في الأرض وفساد كبير﴾.

ثم قال الحاكم: صحيح الإسناد ولم يخرجاه[٤].

قلت: الحديث في الصحيحين من رواية أسامة بن زيد قال: قال رسولُ الله ـ ﷺ ـ: «لا يرث المسلم

(١) مسند الإمام أحمد ٥/ ٣٥١.
(٢) مسلم، كتاب الجهاد والسير ١٣٥٦ ـ ١٣٥٧.
(٣) يقال فيه أيضاً: أبو سعد. انظر المقتنى في سَرْدِ الكُنَى للذهبي ٢٦٣.
(٤) المستدرك، كتاب التفسير ٢/ ٢٤٠.

الكافر ولا الكافر المسلم»[١]، وفي المسند والسنن، من حديث عمرو بن شعيب، عن أبيه، عن جده قال: قال رسول الله ـ ﷺ ـ: «لا يتوارثُ أهلُ ملَّتين شتَّى». وقال الترمذي: «حسن صحيح»[٢].

وقال أبو جعفر بن جرير: حدثنا محمد، [عن محمد بن ثور][٣]، عن معمر، عن الزهري: أن رسول الله ـ ﷺ ـ أخذَ على رجل دخل في الإسلام فقال: تقيم الصلاة، وتؤتي الزكاة، وتحج البيت، وتصوم رمضان، وأنك لا ترى نار مشرك إلا وأنت له حرب».

وهذا مرسلٌ من هذا الوجه، وقد رُوِي مُتَّصلاً من وجه آخر، عن رسول الله ـ ﷺ ـ: أنه قال: «أنا بريءٌ من كلِّ مسلم بين ظهراني المشركين، ثم قال: لا يتراءى ناراهما»[٤].

وقال أبو داود في آخر كتاب الجهاد: حدثنا محمد بن داود بن سفيان، أخبرني يحيى بن حسان، أنبأنا سليمان بن موسى أبو داود، حدثنا جعفر بن سعد بن[٥] سَمُرة بن جندب، حدثني خبيب بن سليمان، عن أبيه سليمان بن سمرة، عن سَمُرة بن جُندَب: أما بعد، قال رسول الله ـ ﷺ ـ: «من جامع المشرك وسكن معه فإنه مثله»[٦].

وقد ذكر الحافظ أبو بكر بن مَرْدُويه، من حديث حاتم بن إسماعيل، ، عن عبد الله بن هُرْمُز، عن محمد وسعيد ابني عبيد، عن أبي حاتم المزني قال: قال رسول الله ـ ﷺ ـ: إذا أتاكم من تَرْضَون دينه وخلقه فأَنكِحُوه، إلا تفعلوا تكن فتنة في الأرض وفساد عريض. قالوا: يا رسول الله، وإن كان. . . ؟ قال: إذا أتاكم من تَرْضَون دينه وخلقه فأنكحوه. ثلاث مرات.

وأخرجه أبو داود والترمذي، من حديث حاتم بن إسماعيل، به بنحوه[٧].

ثم رُوِيَ من حديث عبد الحميد بن سليمان، عن ابن عجلان، عن ابن وَثِيمَةَ النَّصْري، عن أبي هريرة ـ رضي الله عنه ـ قال: قال رسول الله ـ ﷺ ـ: «إذا أتاكم من ترضون خلقه ودينه فزوجوه، إلا تفعلوا تكن فتنة في الأرض وفساد عريض»[٨].

ومعنى قوله تعالى: ﴿إلاَّ تفعلوه تَكُنْ فتنةٌ في الأرض وفسادٌ كبيرٌ﴾، أي: إن لم تجانبوا المشركين وتوالوا المؤمنين، وإلا وقعت الفتنة في الناس، وهو التباس الأمر واختلاط المؤمن بالكافر، فيقع بين الناس فساد منتشر طويل عريض.

﴿وَالَّذِينَ ءَامَنُوا وَهَاجَرُوا وَجَٰهَدُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَالَّذِينَ ءَاوَوا وَّنَصَرُوٓا أُولَٰٓئِكَ هُمُ الْمُؤْمِنُونَ حَقًّا لَّهُم مَّغْفِرَةٌ وَرِزْقٌ كَرِيمٌ ﴿٧٤﴾ وَالَّذِينَ ءَامَنُوا مِنۢ بَعْدُ وَهَاجَرُوا وَجَٰهَدُوا مَعَكُمْ فَأُولَٰٓئِكَ مِنكُمْ وَأُولُوا الْأَرْحَامِ بَعْضُهُمْ أَوْلَىٰ بِبَعْضٍ فِي كِتَٰبِ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ ﴿٧٥﴾﴾

(١) أخرجاه في كتاب الفرائض، فتح الباري ١٢/ ٥٠، ومسلم ١٢٣٣.
(٢) أخرجه أبو داود والترمذي وابن ماجه في كتاب الفرائض، سنن أبي داود ٣/١٢٥ ـ ١٢٦، وتحفة الأحوذي ٦/٣٨٧، وابن ماجه ٢/٩١١، ومسند الإمام أحمد ٢/١٩٥.
(٣) عن تفسير الطبري ١٠/ ٥٤.
(٤) سنن أبي داود، كتاب الجهاد ٣/ ٤٥، والنسائي، كتاب القسامة ٨/ ٣٦.
(٥) في الأصل: عن سمرة. وهو خطأ. انظر تهذيب التهذيب ٢/ ٩٣.
(٦) سنن أبي داود، كتاب الجهاد ٣/ ٩٣.
(٧) أخرجه أبو داود في المراسيل، انظر تحفة الأشراف ٩/ ١٤١، وتحفة الأحوذي، كتاب النكاح ٤/ ٢٠٥.
(٨) تحفة الأحوذي، كتاب النكاح ٤/ ٢٠٤.

لما ذكر تعالى حُكْم المؤمنين في الدنيا، عطف بذكر ما لهم في الآخرة؛ فأخبر عنهم بحقيقة الإيمان، كما تقدم في أول السورة، وأنه سيجازيهم بالمغفرة والصفح عن ذنوب إن كانت، وبالرزق الكريم، وهو الحسن الكثير الطيب الشريف، دائم مستمر أبداً، لا ينقطع ولا ينقضي، ولا يُسْأم ولا يُمَلّ، لحسنه وتنوعه.

ثم ذكر أن الأتباع لهم في الدنيا على ما كانوا عليه من الإيمان والعمل الصالح، فهم معهم في الآخرة، كما قال: ﴿والسابقون الأولون من المهاجرين والأنصار، والذين اتبعوهم بإحسان، رضي الله عنهم، ورضوا عنه، وأعد لهم جنات تجري تحتها الأنهار﴾. . . الآية، وقال: ﴿والذين جاءُوا من بعدهم يقولون: ربنا، اغفر لنا ولإخواننا الذين سبقونا بالإيمان، ولا تجعل في قلوبنا غلاً للذين آمنوا، ربنا إنك رءُوف رحيم﴾ وفي الحديث المتفق عليه، بل المتواتر، من طرق صحيحة، عن رسول الله ـ ﷺ ـ أنه قال: «المرءُ مع من أحب»(١)، وفي الحديث الآخر: «من أحب قوماً حُشِر معهم».

وقال الإمام أحمد: حدثنا وكيع، عن شريك، عن عاصم، عن أبي وائل، عن جرير قال: قال رسول الله ـ ﷺ ـ: «المهاجرون والأنصار أولياء بعضهم لبعض، والطلقاء من قريش والعتقاء من ثقيف بعضهم أولياء بعض إلى يوم القيامة. قال شريك: فحدثنا الأعمش، عن تميم بن سلمة، عن عبد الرحمن بن هلال، عن جرير، عن النبي ـ ﷺ ـ مثله.

تفرد به أحمد من هذين الوجهين(٢).

وأما قوله تعالى: ﴿وأولوا الأرحام بعضهم أولى ببعض في كتاب الله﴾، أي: في حكم الله، وليس المراد بقوله: ﴿وأولوا الأرحام﴾ خصوصية ما يطلقه علماء الفرائض على القرابة، الذين لا فرض لهم ولا هم عصبة، بل يُدْلون بوارث، كالخالة، والخال، والعمة، وأولاد البنات، وأولاد الأخوات، ونحوهم، كما قد يزعمه بعضهم ويحتج بالآية، ويعتقد ذلك صريحاً في المسألة، بل الحق أن الآية عامة تشمل جميع القرابات. كما نص ابن عباس، ومجاهد، وعكرمة، والحسن، وقتادة وغير واحد: على أنها ناسخة للإرث بالحِلْف والإخاء اللَّذين كانوا يتوارثون بهما أولاً، وعلى هذا فتشمل ذوي الأرحام بالاسم الخاص. ومن لم يورثهم يحتج بأدلة من أقواها حديثُ: «إنَّ الله قد أعطى كلَّ ذي حقٍّ حقَّه، فلا وَصِيَّة لوارثٍ»(٣)، قالوا: فلو كان ذا حق لكان له فرض في كتاب الله مسمى، فلما لم يكن كذلك لم يكن وارثاً، والله أعلم.

* * *

آخر سورة «الأنفال»، ولله الحمد والمنة، وعليه التكلان. وهو حسبنا ونعم الوكيل.

---

(١) انظر تفسير الآية ١٨٧ من سورة الأعراف، فقد خرجناه هنالك.

(٢) المسند ٤/ ٣٤٣.

(٣) سنن أبي داود، كتاب الوصايا ٣/ ١١٤، وتحفة الأحوذي، أبواب الوصايا ٦/ ٣٠٩، ومسند الإمام أحمد ٤/ ١٨٦ ـ ١٨٧ ، ٥/ ٢٦٧.

تفسير

سُورَةُ التَّوْبَةِ

﴿ بَرَاءَةٌ مِّنَ اللَّهِ وَرَسُولِهِ إِلَى الَّذِينَ عَاهَدتُّم مِّنَ الْمُشْرِكِينَ ۝١ فَسِيحُوا فِي الْأَرْضِ أَرْبَعَةَ أَشْهُرٍ وَاعْلَمُوا أَنَّكُمْ غَيْرُ مُعْجِزِي اللَّهِ وَأَنَّ اللَّهَ مُخْزِي الْكَافِرِينَ ۝٢ ﴾

هذه السورة الكريمة من أواخر ما نزل على رسول الله - ﷺ - كما قال البخاري:

حدثنا أبو الوليد، حدثنا شعبة، عن أبي إسحاق قال: سمعت البراء يقول: آخرُ آيةٍ نزلت: ﴿يستفتونك قل الله يفتيكم في الكلالة﴾، وآخر سورةٍ نَزَلَتْ براءة(١).

وإنما لا يبسمل في أولها لأن الصحابة لم يكتبوا البسملة في أولها في المصحف الإمام، والاقتداء في ذلك بأمير المؤمنين عثمان بن عفان - رضي الله عنه وأرضاه - كما قال الترمذي:

حدثنا محمد بن بشار، حدثنا يحيى بن سعيد، ومحمد بن جعفر، وابن أبي عَديّ، وسَهْل بن يوسف قالوا: حدثنا عوف بن أبي جَميلة، أخبرني يزيد الفارسي، أخبرني ابن عباس قال: قلت لعثمان بن عفان: ما حملكم أن عمدتم إلى الأنفال، وهي من المثاني(٢)، وإلى براءة وهي من المِئين، فقرنتم بينهما، ولم تكتبوا بينهما سطر ﴿بسم الله الرحمن الرحيم﴾، ووضعتموها في السبع الطّوَل، ما حملكم على ذلك؟ فقال عثمان: كان رسول الله - ﷺ - مما(٣) يأتي عليه الزمان وهو يَنزل عليه السور ذوات العدد، فكان إذا نزل عليه الشيءُ دعا بعض من كان يكتب، فيقول: ضَعُوا هذه الآيات في السورة التي يُذْكَرُ فيها كذا وكذا. فإذا نزلت عليه الآية فيقول: ضَعُوا هذه في السورة التي يُذْكَر فيها كذا وكذا. وكانت الأنفال من أول ما نزل بالمدينة، وكانت براءةُ من آخر القرآن، وكانت قصّتُها شبيهة بقصتها، وحَسِبْتُ أنها منها، وقُبِضَ رسول الله - ﷺ - ولم يُبَيِّن لنا أنها منها، فمن أجل ذلك قَرَنْتُ بينهما، ولم أكتب بينهما سطر ﴿بسم الله الرحمن الرحيم﴾، فَوضعْتُها في السبع الطوَل(٤).

وكذا رواه أحمد، وأبو داود، والنسائي، وابن حبّان في صحيحه، والحاكم في مستدركه، من طرق أخر،

(١) فتح الباري، تفسير سورة براءة ٨/ ٣١٦.
(٢) المثاني: كل سورة أقل من المئين.
(٣) أي: ربما يأتي عليه الزمان الطويل.
(٤) تحفة الأحوذي، تفسير سورة التوبة ٨/ ٣٧٧ - ٤٨٠.

عن عوف الأعرابي، به. وقال الحاكم: «صحيح الإسناد ولم يخرجاه»(١).

وأول هذه السورة الكريمة نزل على رسول الله ـ ﷺ ـ لما رجع من غزوة تبوك وهَمَّ بالحج، ثم ذُكِر أن المشركين يحضرون عامهم هذا الموسم على عادتهم في ذلك، وأنهم يطوفون بالبيت عراة فكره مخالطتهم، فبعث أبا بكر الصديق ـ رضي الله عنه ـ أميراً على الحج هذه السنة، ليقيم للناس مناسكهم، ويعلم المشركين أن لا يحجوا بعد عامهم هذا، وأن ينادى في الناس ببراءة، فلما قفل أتبعه بعلي بن أبي طالب ليكون مبلغاً عن رسول الله ـ ﷺ ـ لكونه عَصَبة له، كما سيأتي بيانه.

فقوله: ﴿براءة من الله ورسوله﴾، أي: هذه براءة، أي: تَبَرُّؤٌ من الله ورسوله ﴿إلى الذين عاهدتم من المشركين. فسيحوا في الأرض أربعة أشهر﴾:

اختلف المفسرون ها هنا اختلافاً كثيراً، فقال قائلون: هذه الآية لذوي العهود المطلقة غير المؤقتة، أو من له عهد دون أربعة أشهر، فيكمل له أربعة أشهر، فأما من كان له عهد مؤقّت فأجله إلى مدته، مهما كان، لقوله تعالى: ﴿فأتموا إليهم عهدهم إلى مدتهم إن الله يحب المتقين﴾. ولما سيأتي في الحديث: «ومن كان بينه وبين رسول الله ـ ﷺ ـ عهد فعهده إلى مدته». وهذا أحسن الأقوال وأقواها، وقد اختاره ابن جرير رحمه الله. ورُوي عن الكلبي، ومحمد بن كعب القُرظي، وغير واحد.

وقال علي بن أبي طلحةَ، عن ابن عباس في قوله: ﴿براءةٌ من الله ورسوله إلى الذين عاهدتم من المشركين * فسيحوا في الأرض أربعة أشهر﴾ قال: حَدَّ الله للذين عاهدوا رسوله أربعة أشهرٍ، يَسيحون في الأرض حيثما شاءوا، وأَجَّلَ أَجَلَ(٢) من ليس له عهد انسلاخَ الأشهر الحرم، من يوم النحر إلى انسلاخ المحرم، فذلك خمسون ليلة، فإذا انسلَخَ الأشهرُ الحرم أمره بأن يضع السيف فيمن لا عهد له(٣).

وكذا رواه العوفي، عن ابن عباس.

وقال [الضحاك](٤) بعد قوله: «فذلك خمسون ليلة»: فأمر الله نبيه إذا انسلخ المحرَّم أن يضع السيف فيمن لم يكن بينه وبينه عهدٌ يقتُلُهم حتى يدخلوا في الإسلام. وأمر بمن كان له عهد إذا انسلخ أربعة أشهر من يوم النحر إلى عشر خَلَون من ربيع الآخر، أن يضع السيف فيهم أيضاً، حتى يدخلوا في الإسلام.

وقال أبو معشرٍ المَدَنِيُّ: حدثنا محمد بن كعب القرظي وغيره قالوا: بعث رسول الله ـ ﷺ ـ أبا بكر أميراً على الموسم سنة تسع، وبعث علي بن أبي طالب بثلاثين آية أو أربعين آية من «براءة»، فقرأها على الناس، يؤجّل المشركين أربعة أشهر يسيحون في الأرض، فقرأها عليهم يوم عرفة، أجَّل المشركين عشرين من ذي الحجة، والمحرم، وصفر، وشهر ربيع الأول، وعشراً من ربيع الآخر، وقرأها عليهم في منازلهم، وقال: لا يحجن بعد عامنا هذا مشرك، ولا يطوفن بالبيت عريان.

وقال ابن أبي نَجيح، عن مجاهد: ﴿براءة من الله ورسوله﴾ إلى أهل العهد: خزاعةَ، ومُدْلج، ومن كان له عهد أو غيرهم. أقبل(٥) رسول الله ـ ﷺ من تبوك حين فرغ، فأراد رسول الله ـ ﷺ ـ الحج، ثم قال: إنما

---

(١) مسند الإمام أحمد ١/٥٧، وسنن أبي داود، كتاب الصلاة ١/٢٠٨ ـ ٢٠٩، والإحسان بترتيب صحيح ابن حبان، كتاب الوحي ١/١٢٥ ـ ١٢٦، والمستدرك ٢/٣٣٠.

(٢) أي: جعل له أجلا ووقتاً معلوماً.

(٣) تفسير الطبري ١٠/ ٦٠.

(٤) عن تفسير الطبري ١٠/ ٦٠.

(٥) في الأصل: إقبال. والمثبت عن تفسير الطبري.

يحضر المشركون فيطوفون عُرَاة، فلا أحب أن أحجَّ حتى لا يكون ذلك. فأرسل أبا بكر وعلياً ـ رضي الله عنهما ـ فطافا بالناس في ذي المَجاز وبأمكنتهم التي كانوا يتبايعون بها بالمواسم كلها، فآذَنوا أصحابَ العهدِ بأن يأمنوا أربعة أشهر، فهي الأشهر المتواليات: عشرون من ذي الحجة إلى عشر يَخْلُون من ربيع الآخر، ثم لا عهد لهم، وآذَنَ الناس كُلَّهم بالقتال إلا أن يؤمنوا.

وهكذا رُوي عن السدِّيِّ، وقتادة.

وقال الزهري: كان ابتداء التأجيل من شوال وآخره سَلْخُ المحرم.

وهذا القول غريبٌ، وكيف يحاسبون بمدة لم يبلغهم حكمها، وإنما ظهر لهم أمرها يوم النحر، حين نادى أصحاب رسول الله ـ ﷺ ـ بذلك، ولهذا قال تعالى:

﴿وَأَذَٰنٌ مِّنَ ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦٓ إِلَى ٱلنَّاسِ يَوْمَ ٱلْحَجِّ ٱلْأَكْبَرِ أَنَّ ٱللَّهَ بَرِىٓءٌ مِّنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ۙ وَرَسُولُهُۥ ۚ فَإِن تُبْتُمْ فَهُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ ۖ وَإِن تَوَلَّيْتُمْ فَٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّكُمْ غَيْرُ مُعْجِزِى ٱللَّهِ ۗ وَبَشِّرِ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ بِعَذَابٍ أَلِيمٍ ﴿٣﴾﴾

يقول تعالى: وإعلام ﴿من الله ورسوله﴾ وتَقَدُّمٌ وإنذار إلى الناس، ﴿يوم الحج الأكبر﴾، وهو اليومُ[1] الذي هو أفضل أيام المناسك وأظهرها وأكثرها جمعًا، ﴿أن الله بريء من المشركين ورسولُه﴾، أي: بريء منهم أيضاً.

ثم دعاهم إلى التوبة إليه فقال: ﴿فإن تبتم﴾، أي: مما أنتم فيه من الشرك والضلال، ﴿فهو خير لكم، وإن توليتم﴾ أي: استمررتم على ما أنتم عليه، ﴿فاعلموا أنكم غير معجزي الله﴾، بل هو قادر عليكم، وأنتم في قبضته، وتحت قهره ومشيئته، ﴿وبشر الذين كفروا بعذاب أليم﴾، أي: في الدنيا بالخزي والنكال، وفي الآخرة بالمقامع[2] والأغلال.

قال البخاري رحمه الله: حدثنا عبد الله بن يوسف، حدثنا الليث، حدثني عقيل، عن ابن شهاب قال: أخبرني حُمَيد بن عبد الرحمن أن أبا هريرة قال: بعثني أبو بكر ـ رضي الله عنه ـ في تلك الحَجَّة في المُؤَذِّنين، بعثهم يوم النحر، يُؤذِّنون بمنى: ألَّا يحج بعد العام مشرك، ولا يطوفَ بالبيت عريـان. قال حُمَيد: ثم أردف النبي ـ ﷺ ـ بعلي بن أبي طالب، فأمره أن يُؤذِّن ببـراءة. قال أبو هُرَيرة: فأذَّن معنا عليّ في أهل منى يوم النحر ببراءة، وألَّا يحج بعد العام مشرك، ولا يطوفَ بالبيت عريانٌ[3].

ورواه البخاري أيضاً: حدثنا أبو اليمان، أخبرنا شُعَيب، عن الزهري، أخبرني حميد بن عبد الرحمن أن أبا هريرة قال: بعثني أبو بكر فيمن يُؤذِّن يوم النحر بمنى: لا يحج بعد العام مشرك، ولا يطوفُ بالبيت عُريان، ويوم الحج الأكبر يوم النحر، وإنما قيل: «الأكبر»، من أجل قول الناس: «الحج الأصغر»، فَنَبَذَ أبو بكر إلى الناس في ذلك العام، فلم يحج عام حجة الوداع الذي حج فيه رسول الله ـ ﷺ ـ مشرك.

وهذا لفظ البخاري في كتاب «الجهاد»[4].

---

(١) سيأتي المراد بيوم الحج الأكبر، أهو يوم عَرَفة أو يوم النحر؟.
(٢) المقامع: جمع مِقْمَعَة، وهي: سياط تُعْمَل من حديد، رؤوسها معوجَّة.
(٣) فتح الباري، تفسير سورة براءة ٨/ ٣١٧ ـ ٣١٨.
(٤) فتح الباري، كتاب الجزية والموادعة ٦/ ٢٧٩.

وقال عبد الرزاق، عن معمر، عن الزهري، عن ابن المسيب، عن أبي هريرة ـ رضي الله عنه ـ في قوله: ﴿براءة من الله ورسوله﴾، قال: لما كان النبي ـ ﷺ ـ زمن حنين، اعتمر من الجِعِرَّانة[١]، ثم أَمَّرَ أبا بكر على تلك الحجة ـ قال معمر: قال الزهري: وكان أبو هريرة يحدّث أن أبا بكر أَمَرَ أبا هريرة أن يؤذن ببراءة في حجة أبي بكر. قال أبو هريرة: ثم أتبعنا النبي ـ ﷺ ـ علياً، وأمره أن يؤذّن ببراءة، وأبو بكر على الموسم كما هو ـ أو قال: على هيئته.

وهذا السياق فيه غرابة، من جهة أن أمير الحج كان سنة عمرة الجِعرّانة[١] إنما هو عَتَّاب بن أسيد، فأما أبو بكر إنما كان أميراً سنة تسع.

وقال أحمد: حدثنا محمد بن جعفر، حدثنا شعبة، عن مغيرة، عن الشعبي، عن مُحرَّز بن أبي هريرة، عن أبيه قال: كنت مع علي بن أبي طالب، حين بعثه رسول الله ـ ﷺ ـ إلى مكة بـ «براءة»، فقال: ما كنتم تنادون؟ قال: كنا ننادي: أن لا يدخل الجنة إلا مؤمن، ولا يطوفَ بالبيت عريان، ومن كان بينه وبين رسول الله ـ ﷺ ـ عهد فإن أجله ـ أو أَمَدَه ـ إلى أربعة أشهر، فإذا مضت الأربعة الأشهر فإن الله بريء من المشركين ورسوله، ولا يحج هذا البيت بعد العام مشرك ـ قال: فكنت أنادي حتى صَحَلَ صوتي[٢].

وقال الشعبي: حدثني محرّز بن أبي هريرة، عن أبيه قال: كنت مع ابن أبي طالب ـ رضي الله عنه ـ حين بعثه رسول الله ـ ﷺ ـ ينادي، فكان إذا صَحَل ناديتُ. قلت: بأي شيء كنتم تنادون؟ قال: بأربع: لا يطوف بالكعبة عريان، ومن كان له عهد مع رسول الله ـ ﷺ ـ فعهده إلى مدته، ولا يدخل الجنة إلا نفس مؤمنة، ولا يحج بعد عامنا مشرك.

رواه ابن جرير من غير ما وجه، عن الشعبي. ورواه شعبة، عن مغيرة، عن الشعبي، به، إلا أنه قال: «ومن كان بينه وبين رسول الله ـ ﷺ ـ عهد، فعهده إلى أربعة أشهر» وذكر تمام الحديث.

قال ابن جرير: وأخشى أن يكون وهماً من بعض نقلته، لأن الأخبار متظاهرة في الأجل بخلافه.

وقال الإمام أحمد: حدثنا عفان، حدثنا حماد، عن سِمَاك، عن أنس بن مالك ـ رضي الله عنه ـ: أن رسول الله ـ ﷺ ـ بعث بـ «براءة» مع أبي بكر، فلما بلغ ذا الحليفة قال: لا يبلغها إلا أنا أو رجل من أهل بيتي. فبعث بها مع علي بن أبي طالب رضي الله عنه[٣].

ورواه الترمذي في التفسير، عن بُندار، عن عفان وعبد الصمد كلاهما عن حماد بن سلمة، به ثم قال: حسن غريب من حديث أنس رضي الله عنه[٤].

وقال عبد الله بن أحمد بن حنبل: حدثنا محمد بن سليمان ـ لُوَين ـ حدثنا محمد بن جابر، عن سِمَاك، عن حَنَش، عن علي ـ رضي الله عنه ـ قال: لما نزلت عشر آيات من «براءة» على النبي ـ ﷺ ـ دعا النبي ـ ﷺ ـ أبا بكر، فبعثه بها ليقرأها على أهل مكة، ثم دعاني فقال: أَدْرِك أبا بكر، فحيثما لَحِقته فخذ الكتابَ منه، فاذهب

(١) الجعرّانة: منزل بين مكة والطائف، وهي إلى مكة أقرب، نزله النبي ـ ﷺ ـ وقسم به غنائم حنين، وأحرم منه بالعمرة، وكان ذلك سنة ثمان، وله فيه مسجد.

(٢) مسند الإمام أحمد ٢/ ٢٩٩.

وصحل صوته: بحّ.

(٣) مسند الإمام أحمد ٣/ ٢٨٣.

(٤) تحفة الأحوذي، تفسير سورة براءة ٨/ ٤٨٥.

إلى أهل مكة فاقرأه عليهم. فلحقته بالجُحْفة، فأخذت الكتاب منه، ورجع أبو بكر إلى النبي ـ ﷺ ـ فقال: يا رسول الله، نزل فيَّ شيء؟ فقال: لا، ولكن جبريل جاءني فقال: لن يؤدي عنك إلا أنت أو رجل منك[١].

هذا إسناد فيه ضعف.

وليس المراد أن أبا بكر ـ رضي الله عنه ـ رجع من فوره، وإنما رجع بعد قضائه المناسك التي أمّره عليها رسول الله ـ ﷺ ـ كما جاء مبيناً في الرواية الأخرى.

وقال عبد الله أيضاً: حدثني أبو بكر، حدثنا عمرو بن حماد، عن أسباط بن نصر، عن سماك، عن حَنَش، عن علي ـ رضي الله عنه ـ: أن رسول الله ـ ﷺ ـ حين بعثه بـ «براءة» قال: يا نبي الله، إني لستُ باللَّسِنِ ولا بالخطيب. قال: ما بدّ لي أن أذهب بها أنا أو تذهب بها أنت. قال: فإن كان ولا بدّ فسأذهب أنا. قال: انطلق، فإن الله يُثَبِّتُ لسانك ويهدي قلبك. قال: ثم وَضَع يده على فيه[٢].

وقال الإمام أحمد: حدثنا سفيان، عن أبي إسحاق، عن زيد بن يُثَيْع ـ رجل من هَمْدان ـ: سألنا علياً: بأي شيء بُعثت؟ يعني يوم بَعَثَهُ النبي ـ ﷺ ـ مع أبي بكر في الحجة. قال: بعثت بأربع: لا يدخل الجنة إلا نفس مؤمنة، ولا يطوف بالبيت عريان، ومن كان بينه وبين النبي ـ ﷺ ـ عهد فعهده إلى مدته، ولا يحج المشركون والمسلمون بعد عامهم[٣] هذا.

ورواه الترمذي عن قِلاَبَة، عن سفيان بن عُيَينة، به، وقال: «حسن صحيح»[٤].

كذا قال. ورواه شعبة، عن أبي إسحاق فقال: عن «زيد بن أُثَيلٍ»[٥]، وَهِمَ فيه. ورواه الثوري، عن أبي إسحاق، عن بعض أصحابه، عن علي رضي الله عنه.

وقال ابن جرير: حدثنا ابن وكيع، حدثنا أبو أسامة، عن زكريا، عن أبي إسحاق عن زيد بن يُثَيع، عن علي قال: بعثني رسول الله ـ ﷺ ـ حين أنزلت «براءة» بأربع: أن لا يطوف بالبيت عريان، ولا يقرب المسجد الحرام مشرك بعد عامهم هذا، ومن كان بينه وبين رسول الله ـ ﷺ ـ عهد فهو إلى مُدَّته، ولا يدخل الجنة إلا نفس مؤمنة[٦].

ثم رواه ابن جرير، عن محمد بن عبد الأعلى، عن أبي ثور، عن معمر، عن أبي إسحاق، عن الحارث، عن علي قال: «أمِرْتُ بأربعٍ . . .» فذكره.

وقال إسرائيل، عن أبي إسحاق، عن زيد بن يُثَيع قال: نزلت براءة فبعثَ رسولُ الله ـ ﷺ ـ أبا بكر، ثم أرسَل علياً، فأخذها منه فلما رجع أبو بكر قال: نزل فيَّ شيء؟ قال: لا، ولكن أمرت أن أبلغها أنا أو رجل من أهل بيتي. فانْطَلَقَ إلى أهل مكة، فقام فيهم بأربع: لا يدخل مكة مشرك بعد عامه هذا، ولا يطوف بالبيت عريان، ولا يدخُلِ الجنَّةَ إلا نفسٌ مسلِمَةٌ، ومن كان بينه وبين رسولِ الله ـ ﷺ ـ عهد، فعهدُه إلى مُدَّتِهِ.

وقال محمد بن إسحاق، عن حكيم بن حكيم بن عَبَّادِ بن حُنَيف، عن أبي جعفر محمد بن علي بن الحسين

---

(١) مسند الإمام أحمد ١/ ١٥١.
(٢) مسند الإمام أحمد ١/ ١٥٠.
(٣) مسند الإمام أحمد ١/ ٧٩.
(٤) تحفة الأحوذي، تفسير سورة التوبة ٨/ ٤٨٨ ـ ٤٩٩.
(٥) انظر تهذيب الكمال ١٠/١١٦.
(٦) تفسير الطبري ١٠/ ٦٤.

ابن علي قال: لما نزلت «براءة» على رسول الله - ﷺ - وقد كان بعث أبا بكر ليقيم الحج للناس، فقيل: يا رسول الله، لو بعثتَ إلى أبي بكر. فقال: لا يُؤدِّي عني إلا رجلٌ من أهل بيتي. ثم دعا علياً فقال: اخرُج بهذه القصة من صدر براءة» وأذِّن في الناس يوم النحر إذا اجتمعوا بمنىً: أنه لا يدخُل الجنّة كافرٌ، ولا يحجُّ بعد العام مشرك، ولا يَطُفْ بالبيت عريان، ومن كان له عند رسول الله - ﷺ - عهد فهو له إلى مدته. فخرج علي - رضي الله عنه - على ناقة رسول الله - ﷺ - العضباء، حتّى أدرك أبا بكر في الطريق، فلما رآه أبو بكر قال: أمير أو مأمور؟ قال: بل مأمور. ثم مضيا، فأقام أبو بكر للناس الحج، [والعربُ][1] إذ ذاك في تلك السنة على منازلهم من الحج التي كانوا عليها في الجاهلية حتى إذا كان يوم النحر، قام علي بن أبي طالب فأذن في الناس بالذي أمره رسول الله - ﷺ - فقال: يا أيها الناس، إنه لا يدخل الجنة كافر، ولا يحج بعد العام مشرك، ولا يَطُفْ بالبيت عريان. ومن كان له عهد عند رسول الله - ﷺ - فهو إلى مدته. فلم يحج بعد ذلك العام مشرك، ولم يطف بالبيت عريان، ثم قدما على رسول الله - ﷺ - فكان هذا من «براءة» فيمن كان من أهل الشرك من أهل العهد العام، وأهل المدة إلى الأجل المسمى.

وقال ابن جرير: حدثنا محمد بن عبد الله بن عبد الحكم، أخبرنا أبو زُرْعَةَ وهبُ الله بن راشدٍ، أخبرنا حَيْوَة بن شُريح: أخبرنا ابن[2] صخر: أنه سمع أبا معاوية البجلي من أهل الكوفة يقول: سمعت أبا الصهباء البكري وهو يقول: سألت علي بن أبي طالب عن ﴿يوم الحج الأكبر﴾ فقال: إن رسول الله - ﷺ - بعث أبا بكر ابن أبي قُحَافة يقيم للناس الحج، وبعثني معه بأربعين آية من «براءة»، حتى أتى عرفة فخطب الناس يوم عرفة، فلما قضى خطبته التفت إليّ فقال: قم، يا علي، فأدّ رسالة رسول الله ﷺ. فقمت فقرأت عليهم أربعين آية من «براءة»، ثم صَدَرنا[3] فأتينا منى، فرميت الجمرة ونحرتُ البدنة، ثم حلقت رأسي، وعلمت أن أهل الجمع لم يكونوا حضروا كلهم خطبة أبي بكر يوم عرفة، فطفت أتتبع بها الفساطيط أقرؤها عليهم، فمن ثَمّ إخال حسبتم أنه يوم النحر، وهو يوم عرفة.

وقال عبد الرزاق، عن أبي إسحاق: سألت أبا جُحَيفة عن ﴿يوم الحج الأكبر﴾ قال: يوم عرفة. فقلت: أمنْ عندك، أم من أصحاب محمد ﷺ؟ قال: كل في ذلك.

وقال عبد الرزاق أيضاً، عن جريج، عن عطاء قال: يوم الحج الأكبر: يوم عرفة.

وقال عُمَر بن الوليد الشَّنِّي: حدثنا شهاب بن عباد العَصَرِيّ، عن أبيه قال: سَمِعت عُمَر بن الخطاب يقول: هذا يوم عرفة، يوم الحج الأكبر، فلا يصومَنَّه أحد. قال: فحججت بعد أبي فأتيت المدينة، فسألت عن أفضل أهلها، فقالوا: سعيد بن المسيب، فأتيته فقلت: إني سألت عن أفضل أهل المدينة فقالوا: سعيد بن المسيب، فأخْبِرْني عن صوم يوم عرفة؟ فقال: أخْبِرُك عمن هو أفضل مني مائة ضِعْفٍ: عمر - أو: ابن عمر - كان ينهي عن صومه، ويقول: هو يوم الحج الأكبر[4].

رواه ابن جرير وابن أبي حاتم، وهكذا رُوي عن ابن عباس، وعبد الله بن الزبير، ومجاهد، وعكرمة، وطاوس: أنهم قالوا: يوم عرفة هو يوم الحج الأكبر.

---

(١) عن تفسير الطبري ١٠/ ٦٥.
(٢) كذا في الأصل: ابن صخر. وفي تفسير الطبري ١٠/ ٦٧: أبو صخر. وكلاهما صواب. انظر تهذيب التهذيب ٣/ ٤١.
(٣) أي: رجعنا.
(٤) تفسير الطبري ١٠/ ٦٨.

وقد ورد فيه حديث مرسل رواه ابن جُرَيج: أُخْبِرتُ عن محمد بن قيس بن مخرمة أن رسول الله ـ ﷺ ـ خَطَب يوم عرفة، فقال: هذا يومُ الحجِّ الأكبر.

وروي من وجه آخر عن ابن جريج، عن محمد بن قيس، عن المسور بن مخرمة، عن رسول الله ـ ﷺ ـ: أنـه خطبهم بعرفات فحمد الله وأثنى عليه، ثم قال: أما بعد، فإن هذا يوم الحج الأكبر.

والقول الثاني: أنه يوم النحر.

قال هشيم، عن إسماعيل بن أبي خالد، عن الشعبي، عن علي ـ رضي الله عنه ـ قال: يوم الحج الأكبر يوم النحر.

وقال أبو إسحاق السَّبِيعي، عن الحارث الأعور، سألتُ علياً ـ رضي الله عنه ـ عن يوم الحج الأكبر، فقال: يوم النحر.

وقال شعبة، عن الحكم: سمعت يحيى بن الجَزَّار يحدث عن علي ـ رضي الله عنه ـ: أنه خرج يوم النحر على بغلة بيضاء يريد الجبَّانة، فجاء رجل فأخذ بلجام دابته، فسأله عن الحج الأكبر، فقال: هو يومك هذا، خَل سبيلها.

وقال عبد الرزاق، عن سفيان وشعبة، عن عبد الملك بن عمير، عن عبد الله بن أبي أوفى أنه قال: يوم الحج الأكبر يوم النحر.

وروى شعبة وغيره، عن عبد الملك بن عمير، به نحوه. وهكذا رواه هشيم وغيره، عن الشيباني، عن عبد الله بن أبي أوفى.

وقال الأعمش، عن عبد الله بن سنان قال: خطبنا المغيرة بن شعبة يوم الأضحى على بعير فقال: هذا يوم الأضحى، وهذا يوم النحر، وهذا يوم الحج الأكبر.

وقال حماد بن سلمة، عن سماك، عن عكرمة، عن ابن عباس أنه قال: الحج الأكبر، يوم النحر.

وكذا رُوِي عن أبي جُحَيفة، وسعيد بن جبير، وعبد الله بن شداد بن الهاد، ونافع بن جُبَير بن مطعم، والشعبي، وإبراهيمَ النخَعِيِّ، ومجاهد، وعكرمة، وأبي جَعفر الباقر، والزُّهري، وعبد الرحمن بن زيد بن أسلَمَ أنّهم قالوا: يوم الحج الأكبر هو يوم النحر. واختاره ابن جَرِير.

وقد تقدم الحديث عن أبي هُرَيرة، في صحيح البخاري: أن أبا بكر بعثهم يوم النحر يُؤذِّنون بمنى. وقد ورد في ذلك أحاديث أخر، كما قال الإمام أبو جعفر بن جرير:

حدثني سهل بن محمد السجستاني، حدثنا أبو جابر الحَرَميُّ، حدثنا هشام بن الغاز الجُرَشـي، عن نافع، عن ابن عمر قال: وقف رسول الله ـ ﷺ ـ يوم النحر عند الجمرات في حجة الوداع، فقال: هذا يوم الحج الأكبر.

وهكذا رواه ابن أبي حاتم، وابن مَرْدُويه من حديث أبي جابر ـ واسمه محمد بن عبد الملك، به. ورواه ابن مردويه أيضاً من حديث الوليد بن مسلم، عن هشام بن الغاز، به. ثم رواه من حديث سعيد بن عبد العزيز، عن نافع، به.

وقال شعبة، عن عمرو بن مُرّة، عن مُرّة الهَمْداني، عن رجل من أصحاب النبي ـ ﷺ ـ قال: قام فينا رسول

الله ـ ﷺ ـ على ناقة حمراء مخضرمة، فقال: أتدرون أيُّ يوم يومكم هذا؟ قالوا: يوم النحر. قال: صدقتم، يوم الحج الأكبر.

وقال ابن جرير: حدثنا أحمد بن المقدام، حدثنا يزيد بن زُرَيع، حدثنا ابن عون، عن محمد بن سيرين، عن عبد الرحمن بن أبي بكرة، عن أبيه قال: لما كان ذلك اليوم، قعد رسول الله ـ ﷺ ـ على بعير له، وأخذ الناس بخطامه ـ أو: زمامه ـ فقال: أيّ يوم هذا؟ قال: فسكتنا حتى ظننا أنه سيُسَمّيه سوى اسمه، فقال: أليس هذا يوم الحج الأكبر؟.

وهذا إسناد صحيح، وأصله مخرج في الصحيح.

وقال أبو الأحوص، عن شَبِيب بن غَرْقَدَة، عن سليمان بن عمرو بن الأحوص، عن أبيه قال: سمعت رسول الله ـ ﷺ ـ في حجة الوداع، فقال: أيّ يوم هذا؟ فقالوا: اليوم الحجُّ الأكبر.

وعن سعيد بن المسيب أنه قال: يوم الحج الأكبر اليوم الثاني من يوم النحر. رواه ابن أبي حاتم.

وقال مجاهد أيضاً: يوم الحج الأكبر أيامُ الحج كلها.

وكذا قال أبو عبيد، قال سفيان: «يوم الحج»، «ويوم الجمل»، «ويوم صفين»، أي: أيامه كلها.

وقال سهل السرَّاج: سُئِلَ الحسنُ البصريُّ عن يوم الحج الأكبر، فقال: ما لكم وللحج الأكبر، ذاك عامٌ حج فيه أبو بكر، الذي استخلفه رسولُ الله ـ ﷺ ـ فحج بالناس. رواه ابن أبي حاتم.

وقال ابن جرير: حدثنا ابن وكيع، حدثنا أبو أسامة، عن ابن عون: سألت محمداً ـ يعني ابن سيرين ـ عن يوم الحج الأكبر فقال: كان يوماً وافق فيه حجُّ رسولِ الله ـ ﷺ ـ حَجَّ أهل الوَبر.

﴿إِلَّا ٱلَّذِينَ عَٰهَدتُّم مِّنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ثُمَّ لَمْ يَنقُصُوكُمْ شَيْـًٔا وَلَمْ يُظَٰهِرُوا۟ عَلَيْكُمْ أَحَدًا فَأَتِمُّوٓا۟ إِلَيْهِمْ عَهْدَهُمْ إِلَىٰ مُدَّتِهِمْ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُتَّقِينَ ﴿٤﴾﴾

هذا استثناء من ضرب مدة التأجيلِ بأربعة أشهر، لمن له عهدٌ مطلقٌ ليس بمؤقَّتٍ، فأجلهُ أربعةُ أشهر، يسيح في الأرض، يذهبُ فيها لينجُوَ بنفسه حيث شاء، إلا من له عهد مؤقت، فأجله إلى مُدّته المضروبة التي عوهد عليها، وقد تقدمت الأحاديث: «ومن كان له عَهد مع رسول الله ـ ﷺ ـ فعهدُه إلى مُدَّتِه». وذلك بشرط ألا ينقضَ المعاهد عهده، ولم يظاهر على المسلمين أحداً، أي: يمالىء عليهم من سواهم، فهذا الذي يُوفَى له بذمته وعهده إلى مدته، ولهذا حرض الله تعالى على الوفاء بذلك فقال: ﴿إن الله يحب المتقين﴾، أي: الموفين بعهدهم.

﴿فَإِذَا ٱنسَلَخَ ٱلْأَشْهُرُ ٱلْحُرُمُ فَٱقْتُلُوا۟ ٱلْمُشْرِكِينَ حَيْثُ وَجَدتُّمُوهُمْ وَخُذُوهُمْ وَٱحْصُرُوهُمْ وَٱقْعُدُوا۟ لَهُمْ كُلَّ مَرْصَدٍ ۚ فَإِن تَابُوا۟ وَأَقَامُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتَوُا۟ ٱلزَّكَوٰةَ فَخَلُّوا۟ سَبِيلَهُمْ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٥﴾﴾

اختلف المفسِّرون في المراد بالأشهر الحُرُم ها هنا، ما هي؟ فذهب ابن جرير إلى أنها المذكورة في قوله تعالى: ﴿منها أربعة حرم ذلك الدين القيم فلا تظلموا فيهن أنفسكم﴾... الآية، قاله أبو جعفر الباقر. لكن قال ابن جرير: آخر الأشهر الحرم في حقهم المُحَرّم. وهذا الذي ذهب إليه حكاه علي بن أبي طلحة عن ابن

عباس، وإليه ذهب الضحاك أيضاً. وفيه نظر، والذي يظهر من حيث السياق ما ذهب إليه ابن عباس في رواية العَوْفي عنه، وبه قال مجاهدٌ، وعمرو بن شُعَيب، ومحمد بن إسحاقَ، وقتادةَ، والسدّيُّ، وعبد الرحمن بن زيد ابن أَسْلَمَ أنَّ المرادَ بها أشهر التسيير الأربعةِ المنصوصِ عليها في قوله: ﴿فَسِيحُوا في الأرض أربعةَ أشهُرٍ﴾. ثم قال: ﴿فإذا انسلَخَ الأشهر الحُرُمُ﴾، أي: إذا انقضت الأشهر [الأربعة] التي حرمنا فيها عليكم قتالهم، وأجلناهم فيها، فحيثما وجدتموهم فاقتلوهم، لأن عود العهد على مذكور أولى من مقدر؛ ثم إن الأشهر الأربعة المحرَّمَةَ سيأتي بيان حكمها في آية أخرى بعدُ في هذه السورة الكريمة.

وقوله: ﴿فاقتلوا المشركين حيث وجدتموهم﴾ أي: من الأرض. وهذا عام، والمشهور تخصيصه بتحريم القتال في الحرم بقوله: ﴿ولا تقاتلوهم عند المسجد الحرام حتى يقاتلوكم فيه، فإن قاتلوكم فاقتلوهم﴾.

وقوله: ﴿وخذوهم﴾، أي: وَأْسِرُوهم، إن شئتم قتلاً، وإن شئتم أسراً.

وقوله: ﴿واحصروهم واقعدوا لهم كل مرصد﴾، أي: لا تكتفوا بمجرد وجدانكم لهم، بل اقصدوهم بالحصار في معاقلهم وحصونهم، والرصد في طرقهم ومسالكهم حتى تُضَيِّقوا عليهم الواسع، وتضطروهم إلى القتل أو الإسلام. ولهذا قال: ﴿فإن تابوا وأقاموا الصلاة وآتوا الزكاة فخلوا سبيلهم، إن الله غفور رحيم﴾.

ولهذا اعتمد الصديق ـ رضي الله عنه ـ في قتال مانعي الزكاة على هذه الآية الكريمة وأمثالها، حيث حرمت قتالهم بشرط هذه الأفعال، وهي الدخول في الإسلام، والقيام بأداء واجباته. ونَبَّه بأعلاها على أدناها، فإن أشرف الأركان بعد الشهادة الصلاة، التي هي حق الله عز وجل، وبعدها أداء الزكاة التي هي نفع مُتعدّ إلى الفقراء والمحاويج، وهي أشرف الأفعال المتعلقة بالمخلوقين، ولهذا كثيراً ما يقرن الله بين الصلاة والزكاة، وقد جاء في الصحيحين، عن ابن عمر ـ رضي الله عنهما ـ عن رسول الله ـ ﷺ ـ أنه قال: «أُمِرْتُ أن أقاتِلَ الناسَ حتى يشهَدُوا أن لا إله إلا الله وأن محمداً رسول الله، ويقيموا الصلاة، ويؤتوا الزكاة»[1].

وقال أبو إسحاق، عن أبي عُبَيدَةَ، عن عبد الله بن مسعود ـ رضي الله عنه ـ قال: أمرتم بإقام الصلاة وإيتاء الزكاة، ومن لم يُزَكِّ فلا صلاة له.

وقال عبد الرحمن بن زيد بن أَسْلَمَ: أبى الله أن يقبل الصلاة إلا بالزكاة، وقال: يرحم الله أبا بكر، ما كان أفقهه.

وقال الإمامُ أحمدُ: حدثنا عليُّ بن إسحاقَ، أنبأنا عبد الله بن المبارك، أنبأنا حُمَيد الطويل، عن أنس أن رسول الله ـ ﷺ ـ قال: «أُمِرْتُ أن أقاتلَ الناسَ حتى يشهَدُوا أن لا إله إلا الله، وأن محمداً رسولُ الله، فإذا شهدوا أن لا إله إلا الله وأنَّ محمداً رسول الله، واستقبلوا قبلتنا، وأكلوا ذَبيحتنا، وصَلُّوا صَلاَتنا، فقد حَرُمت علينا دماؤهم وأموالهم إلا بحقِّها، لهم ما للمسلمين، وعليهم ما عليهم».

ورواه البخاري في صحيحه وأهل السنن إلا ابن ماجه، من حديث عبد الله بن المبارك، به[2].

وقال الإمام أبو جعفر بن جَرِيرٍ: حَدَّثنا عبد الأعلى بن واصل الأسديّ، حدثنا عُبَيد الله بن موسى، أخبرنا أبو جعفر الرازي، عن الربيع بن أَنس، عن أنس قال: قال رسول الله ـ ﷺ ـ: من فارق الدنيا على الإخلاص لله وحده، وعبادته لا يشرك به شيئاً، فارَقَها والله عنه راضٍ. قال: وقال أنس: هو دينُ الله الذي جاءت به

(١) أخرجاه في كتاب الإيمان، فتح الباري ١/ ٧٥، ومسلم ٥١ ـ ٥٢.
(٢) المسند ٣/ ١٩٩، ٢٢٤ ـ ٢٢٥. وفتح الباري، كتاب الصلاة ١/ ٤٩٧.

الرسلُ وبَلَّغوه عن ربهم، قبل هَرْج الأحاديث، واختلاف الأهواء. وتصديقُ ذلك في كتاب الله في آخر ما أنزل، قال الله تعالى: ﴿فإن تابوا وأقاموا الصلاة وآتوا الزكاة فَخلُّوا سبيلهم﴾ قال: توبتهم خلع الأوثان، وعبادة ربهم، وإقام الصلاة، وإيتاء الزكاة، ثم قال في آية أخرى: ﴿فإن تابوا وأقاموا الصلاة وآتوا الزكاة فإخوانكم في الدين﴾[1].

ورواه ابن مردويه.

ورواه محمد بن نصر المروزي في كتاب «الصلاة» له: حدثنا إسحاق بن إبراهيم، أنبأنا حَكّام بن سِلْمٍ، حدثنا أبو جعفر الرازي، به سواء.

وهذه الآية الكريمة هي آية السيف التي قال فيها الضحاك بن مُزَاحم: إنها نَسَخت كلَّ عهدٍ بين النبي ـ ﷺ ـ وبين أحَد من المشركين، وكُلَّ عَهدٍ، وكُلَّ مدّةٍ.

وقال العوفي، عن ابن عباس في هذه الآية: لم يبق لأحد من المشركين عهدٌ ولا ذمّةٌ، منذ نزلت براءة وانسلاخ الأشهر الحرم، ومدة من كان له عهد من المشركين قبل أن تنزل أربعة أشهر، من يوم أذن ببراءة إلى عشر من أول شهر ربيع الآخر.

وقال علي بن أبي طلحة، عن ابن عباس في هذه الآية، قال: أمره الله تعالى أن يضَعَ السيف فيمن عاهد إن لم يدخلوا في الإسلام، ونَقْضِ ما كان سَمّى لهم من العهد والميثاق، وأذهب الشرط الأول.

وقال ابن أبي حاتم: حدثنا أبي، حدثنا إسحاق بن موسى الأنصاري قال: قال سفيان: قال علي بن أبي طالب: بعث النبي ـ ﷺ ـ بأربعة أسياف، سيفٍ في المشركين من العرب، قال الله: ﴿فاقتلوا المشركين حيث وجدتموهم﴾.

هكذا رواه مختصراً، وأظن أن السيف الثاني هو قتال أهل الكتاب في قوله: ﴿قاتلوا الذين لا يؤمنون بالله ولا باليوم الآخر، ولا يحرمون ما حرم الله ورسوله، ولا يدينون دين الحق من الذين أوتوا الكتاب حتى يعطوا الجزية عن يد وهم صاغرون﴾، والسيف الثالث: قتال المنافقين في قوله: ﴿يا أيها النبي جاهد الكفار والمنافقين﴾، والرابع: قتال الباغين في قوله: ﴿وإن طائفتان من المؤمنين اقتتلوا فأصلحوا بينهما، فإن بغت إحداهما على الأخرى فقاتلوا التي تبغي حتى تفيء إلى أمر الله﴾.

ثم اختلف المفسرون في آية السيف هذه، فقال الضحاكُ والسدّيُّ: هي منسوخةٌ بقوله تعالى: ﴿فإما منّاً بعد وإما فداء﴾، وقال قتادةُ بالعكس.

﴿وَإِنْ أَحَدٌ مِّنَ الْمُشْرِكِينَ اسْتَجَارَكَ فَأَجِرْهُ حَتَّىٰ يَسْمَعَ كَلَامَ اللَّهِ ثُمَّ أَبْلِغْهُ مَأْمَنَهُ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَّا يَعْلَمُونَ ۞٦﴾

يقول تعالى لنبيه ـ صلوات الله وسلامه عليه ـ: ﴿وإن أحدٌ من المشركين﴾، الذين أمرتك بقتالهم، وأحللت لك استباحة نفوسهم وأموالهم، ﴿استجارك﴾، أي: استأمنك، فأجبه إلى طَلبته ﴿حتى يسمع كلام الله﴾، أي: تقرؤه عليه، وتذكر له شيئاً من الدين تقيم عليه به حجة الله، ﴿ثم أبلغه مأمنه﴾، أي: وهو آمن مستمرُّ الأمان حتى يرجع إلى بلاده وداره ومأمنه، ﴿ذلك بأنهم قوم لا يعلمون﴾، أي: إنما شرعنا أمان مثل هؤلاء ليعلموا دين الله، وتنتشر دعوة الله في عباده.

---

(١) تفسير الطبري ١٠/ ٧٨.

وقال ابن أبي نَجيح، عن مجاهد، في تفسير هذه الآية، قال: إنسان يأتيك يسمع ما تقول وما أُنزِلَ عليك، فهو آمن حتى يأتيك فيسمع كلام الله، وحتى يبلغ مأمنه، حيث جاء.

ومن هذا كان رسول الله ـ ﷺ ـ يعطي الأمان لمن جاءه، مسترشداً أو في رسالة، كما جاءه يوم الحديبية جماعة من الرسل من قريش، منهم: عروة بن مسعود، ومكرز بن حفص، وسهيل بن عمرو، وغيرهم واحداً بعد واحد، يترددُون في قضية بينه وبين المشركين، فرأوا من إعظام المسلمين رسول الله ـ ﷺ ـ ما بهرهم وما لم يشاهدوه عند ملك ولا قيصر، فرجعوا إلى قومهم فأخبروهم بذلك، وكان ذلك وأمثاله من أكبر أسباب هداية أكثرهم[١].

ولهذا أيضاً لما قدم رسول مسيلمة الكذاب على رسول الله ـ ﷺ ـ قال له: «أتشهد أن مسيلمة رسول الله؟ قال: نعم. فقال رسول الله ـ ﷺ ـ لولا أن الرسل لا تقتل ضربت عنقك»[٢]. وقد قيض الله له ضرب العنق في إمارة ابن مسعود على الكوفة، وكان يقال له: ابن النواحة، ظهر عنه في زمان ابن مسعود أنه يشهد لمسيلمة بالرسالة، فأرسل إليه ابن مسعود فقال له: «إنك الآن لست في رسالة»، وأمر به فضُربت عنقه، لا رَحمه الله ولعنه.

والغرضُ أن من قَدِم من دار الحرب إلى دار الإسلام في أداء رسالة أو تجارة، أو طلب صُلحٍ أو مهادنة أو حمل جزية، أو نحو ذلك من الأسباب، فطلب من الإمام أو نائبه أماناً، أعطي أماناً ما دام متردداً في دار الإسلام، وحتى يرجع إلى مأمنه ووطنه. لكن قال العلماء: لا يجوز أن يمكن من الإقامة في دار الإسلام سنة، ويجوز أن يمكن من إقامة أربعة أشهر، وفيما بين ذلك فيما زاد على أربعة أشهر ونقص عن سنة قولان، عن الإمام الشافعي وغيره من العلماء، رحمهم الله.

﴿كَيْفَ يَكُونُ لِلْمُشْرِكِينَ عَهْدٌ عِندَ ٱللَّهِ وَعِندَ رَسُولِهِۦٓ إِلَّا ٱلَّذِينَ عَٰهَدتُّمْ عِندَ ٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ ۖ فَمَا ٱسْتَقَٰمُوا۟ لَكُمْ فَٱسْتَقِيمُوا۟ لَهُمْ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُتَّقِينَ ۝٧﴾

يبين تعالى حكمته في البراءة من المشركين ونَظِرتَه إياهم أربعة أشهر، ثم بعد ذلك السيف المرهف أين ثُقفوا، فقال تعالى: ﴿كيف يكون للمشركين عهد﴾ وأمان ويتركون فيما هم فيه وهم مشركون بالله كافرون به وبرسله، ﴿إلا من عاهدتم عند المسجد الحرام﴾، يعني يوم الحديبية، كما قال تعالى: ﴿هم الذين كفروا وصدوكم عن المسجد الحرام والهدي معكوفاً أن يبلغ محله﴾ . . . الآية، ﴿فما استقاموا لكم فاستقيموا لهم﴾، أي: مهما تمسكوا بما عاقدتموهم عليه وعاهدتموهم من ترك الحرب بينكم وبينهم عشر سنين ﴿فاستقيموا لهم إن الله يحب المتقين﴾، وقد فعل رسول الله ـ ﷺ ـ ذلك والمسلمون، استمرَّ العقدُ والهدنةُ مع أهل مكةَ من ذي القعدة في سنةَ ست، إلى أن نَقَضَت قريشٌ العهدَ ومالأوا حلفاءهم بني بكر على خزاعة أحلاف رسول الله ـ ﷺ ـ فقتلوهم معهم في الحرم أيضاً، فعند ذلك غزاهم رسول الله ـ ﷺ ـ في رمضانَ سنة ثمان، ففتح الله عليه البلد الحرام، ومَكَّنه من نواصيهم، ولله الحمد والمنة. فأطلق من أسلم منهم بعد القهر والغلبة عليهم، فَسُمُّوا الطلقاء، وكانوا قريباً من ألفين، ومن استمر على كفره وفرّ من رسولِ الله ـ ﷺ ـ بعث إليه بالأمان والتسيير في

(١) سيرة ابن هشام ٢/ ٣٠٨ ـ ٣٠٩.
(٢) السيرة ١/ ٦٠٠.

الأرض أربعة أشهر، يذهب حيث شاء: منهم صفوان بن أمية، وعكرمة بن أبي جهل وغيرهما، ثم هداهم الله بعد ذلك إلى الإسلام التام، والله المحمود على جميع ما يقدره ويفعله.

﴿كَيْفَ وَإِن يَظْهَرُوا عَلَيْكُمْ لَا يَرْقُبُوا فِيكُمْ إِلًّا وَلَا ذِمَّةً ۚ يُرْضُونَكُم بِأَفْوَاهِهِمْ وَتَأْبَىٰ قُلُوبُهُمْ وَأَكْثَرُهُمْ فَاسِقُونَ ﴿٨﴾﴾

يقول تعالى مُحرّضاً للمؤمنين على معاداة المشركين والتبري منهم، ومبيّناً أنهم لا يستحقون أن يكون لهم عهد لشركهم بالله وكفرهم برسول الله، ولو أنهم إذ ظهروا على المسلمين وأديلوا عليهم، لم يبقوا ولم يذروا، ولا راقبوا فيهم إلاًّ ولا ذمة.

قال علي بن أبي طلحة، وعكرمة، والعوفي عن ابن عباس: الإلّ: القرابة، والذمة: العهد. وكذا قال الضحاك والسدّيّ(١)، كما قال تَمِيمُ بن مُقْبِل(١):

أَفْسَدَ النَّاسَ خُلُوفٌ خَلَفُوا قَطَعُوا الإلَّ وَأَعْرَاقَ الرَّحِمْ

وقال حسان بن ثابت رضي الله عنه(٢):

وَجَدْنَاهُمْ كَاذِباً إِلُّهُمْ وَذُو الإلِّ وَالعَهْدِ لا يَكْذِبْ

وقال ابن أبي نَجِيحٍ، عن مجاهد: ﴿لا يرقُبون في مؤمن إلاًّ﴾ قال: الله. وفي رواية: لا يرقُبُونَ الله ولا غيره.

وقال ابن جرير: حدثني يعقوب، حدثنا ابن عُلَيّة، عن سليمان، عن أبي مِجْلَز في قوله تعالى: ﴿لا يرقبون في مؤمن إلّا ولا ذمة﴾. مثلُ قوله «جبرائيل»، «ميكائيل»، «إسرافيل».

كأنه يقول: يضيف «جَبْر»، و«ميكا»، و«إسراف»، إلى «إيل»، يقول: عبد الله ـ ﴿لا يرقبون في مؤمن إلاًّ﴾(٣) كأنه يقول: لا يرقبون الله.

والقول الأول أشهر وأظهر، وعليه الأكثر.

وعن مجاهد أيضاً: الإل: العهد. وقال قتادة: الإلُّ: الحِلْفُ.

﴿اشْتَرَوْا بِآيَاتِ اللَّهِ ثَمَنًا قَلِيلًا فَصَدُّوا عَن سَبِيلِهِ ۚ إِنَّهُمْ سَاءَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴿٩﴾ لَا يَرْقُبُونَ فِي مُؤْمِنٍ إِلًّا وَلَا ذِمَّةً ۚ وَأُولَٰئِكَ هُمُ الْمُعْتَدُونَ ﴿١٠﴾ فَإِن تَابُوا وَأَقَامُوا الصَّلَاةَ وَآتَوُا الزَّكَاةَ فَإِخْوَانُكُمْ فِي الدِّينِ ۗ وَنُفَصِّلُ الْآيَاتِ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ ﴿١١﴾﴾

---

(١) انظر البيت في تفسير الطبري ١٠/ ٨٥.

(٢) كذا، ولم نجده في ديوانه، وهو في تفسير الطبري غير منسوب، انظر ١٠/٨٥، فأما بيت حسان الذي استشهد به ابن جرير فهو:

لَعَمْرُكَ إنَّ إلَّكَ من قُرَيشٍ كَإلِّ السَّقْبِ من رَأْلِ النَّعَامِ

وهو في لسان العرب، مادة: أَلَلَ.

(٣) سقط من الأصل، والمثبت من تفسير الطبري ١٠/ ٨٣.

يقول تعالى ذَمًّا للمشركين وحَثًّا للمؤمنين على قتالهم: ﴿اشتروا بآيات الله ثمناً قليلاً﴾، يعني أنهم اعتاضوا عن اتباع آيات الله بما التَهَوا به من أمور الدنيا الخسيسة، ﴿فصدوا عن سبيله﴾، أي: منعوا المؤمنين من اتباع الحق، ﴿إنهم ساء ما كانوا يعملون. لا يرقبون في مؤمن إلاً ولا ذمة﴾ تقدم تفسيره، وكذا الآية التي بعدها: ﴿فإن تابوا وأقاموا الصلاة﴾ إلى آخرها، تقدمت.

وقال الحافظ أبو بكر البزار: حدثنا محمد بن المثنى، حدثنا يحيى بن أبي بكر، حدثنا أبو جعفر الرازي، حدثنا الربيع بن أنس قال: سمعتُ أنس بن مالك يقول: قال رسول الله ـ ﷺ ـ: «من فارق الدنيا على الإخلاص لله وعبادته، لا يشرك به، وأقام الصلاة، وآتى الزكاة ـ فارقها والله عنه راضٍ».

وهو دين الله الذي جاءت به الرسل وبلغوه عن ربهم، قبل هَرْج الأحاديث واختلاف الأهواء، وتصديق ذلك في كتاب الله: ﴿فإن تابوا﴾، يقول: فإن خلعوا الأوثان وعبادتها ﴿وأقاموا الصلاة وآتوا الزكاة فخلوا سبيلهم﴾، وقال في آية أخرى: ﴿فإن تابوا وأقاموا الصلاة وآتوا الزكاة فإخوانكم في الدين﴾.

ثم قال البزار: آخرُ الحديث عندي والله أعلم: «فارقها وهو عنه راض»، وباقيه عندي من كلام الربيع بن أنس[(١)].

﴿وَإِن نَّكَثُوٓاْ أَيْمَٰنَهُم مِّنۢ بَعْدِ عَهْدِهِمْ وَطَعَنُواْ فِى دِينِكُمْ فَقَٰتِلُوٓاْ أَئِمَّةَ ٱلْكُفْرِ إِنَّهُمْ لَآ أَيْمَٰنَ لَهُمْ لَعَلَّهُمْ يَنتَهُونَ ﴿١٢﴾﴾

يقول تعالى: وإن نكث هؤلاء المشركون الذين عاهدتموهم على مدة معينة أيمانهم، أي: عهودهم ومواثيقهم، ﴿وطعنوا في دينكم﴾، أي: عابوه وانتقصوه. ومن ها هنا أُخِذ قتلُ من سبَّ الرسولَ ـ صلوات الله وسلامه عليه ـ أو مَن طعن في دين الإسلام أو ذكره بتنقص، ولهذا قال: ﴿فقاتلوا أئمة الكفر، إنهم لا أيمان لهم، لعلهم ينتهون﴾، أي: يرجعون عما هم فيه من الكفر والعناد والضلال.

وقد قال قتادة وغيره: أئمة الكفر كأبي جهل، وعتبة، وشيبة، وأمية بن خلف. وعدَّد رجالاً.

وعن مصعب بن سعد بن أبي وقاص قال: مر سعد برجل من الخوارج، فقال الخارجي: هذا من أئمة الكفر. فقال سعد: كذبت، بل أنا قاتلت أئمة الكفر. رواه ابن مَرْدُويه.

وقال الأعمش، عن زيد بن وهب، عن حذيفة أنه قال: ما قُوتل أهلُ هذه الآية بعد.

ورُوي عن علي بن أبي طالب ـ رضي الله عنه ـ مثله.

والصحيح أن الآية عامة، وإن كان سبب نزولها مشركي قريش فهي عامة لهم ولغيرهم، والله أعلم.

وقال الوليد بن مسلم: حدثنا صفوان بن عمرو، عن عبد الرحمن بن جُبَير بن نُفَير: أنه كان في عهد أبي بكر ـ رضي الله عنه ـ إلى الناس حين وجههم إلى الشام، قال: إنكم ستجدون قوماً مُحَوَّقَةً[(٢)] رؤوسهم، فاضربوا معاقد الشيطان منهم بالسيوف، فوالله لأن أقتلَ رجلاً منهم أحبّ إليّ من أن أقتل سبعين من غيرهم، وذلك بأن الله يقول: ﴿فقاتلوا أئمة الكفر﴾. رواه ابن أبي حاتم[(٣)].

---

(١) أخرجه ابن ماجه والحاكم وصححه، وغير واحد، انظر الدر المنثور ٤/ ١٣٢.

(٢) في النهاية عند هذا الأثر: «والحَوْقُ: الكنس، أراد أنهم حلقوا وَسَطَ رؤوسهم، فشبه إزالة الشعر منه بالكنس. ويجوز أن يكون من الحُوق، وهو الإطار المحيط بالشيء المستدير حوله».

(٣) انظر آثار هذه الآية في الدر المنثور ٣/ ٢١٥، وتفسير الطبري ١٠/ ٨٨ ـ ٨٩.

﴿ أَلَا تُقَٰتِلُونَ قَوْمًا نَّكَثُوٓا۟ أَيْمَٰنَهُمْ وَهَمُّوا۟ بِإِخْرَاجِ ٱلرَّسُولِ وَهُم بَدَءُوكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ ۚ أَتَخْشَوْنَهُمْ ۚ فَٱللَّهُ أَحَقُّ أَن تَخْشَوْهُ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴿١٣﴾ قَٰتِلُوهُمْ يُعَذِّبْهُمُ ٱللَّهُ بِأَيْدِيكُمْ وَيُخْزِهِمْ وَيَنصُرْكُمْ عَلَيْهِمْ وَيَشْفِ صُدُورَ قَوْمٍ مُّؤْمِنِينَ ﴿١٤﴾ وَيُذْهِبْ غَيْظَ قُلُوبِهِمْ ۗ وَيَتُوبُ ٱللَّهُ عَلَىٰ مَن يَشَآءُ ۗ وَٱللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴿١٥﴾ ﴾

وهذا أيضاً تَهييجٌ وتحضيضٌ وإغراء على قتال المشركين الناكثين لأيمانهم، الذين هَمُّوا بإخراج الرسول من مَكَّة، كما قال تعالى: ﴿وإذ يمكرُ بك الذين كفروا لِيُثْبِتُوكَ أو يقتلوك أو يخرجوك، ويمكرون، ويمكر الله، والله خير الماكرين﴾.

وقال تعالى: ﴿يخرجون الرسول وإياكم أن تؤمنوا بالله ربكم﴾... الآية، وقال تعالى: ﴿وإن كادوا ليستفزونك من الأرض ليخرجوك منها وإذاً لا يلبثون خَلْفَكَ[1] إلا قليلاً﴾.

وقوله: ﴿وهم بدءوكم أول مرة﴾، قيل: المراد بذلك يوم بدر، حين خرجوا لنَصْر عِيرهم، فلما نجت وعلموا بذلك استمروا على وجوههم طلباً للقتال، بغياً وتكبراً، كما تقدم بسط ذلك.

وقيل: المراد نقضهم العهد وقتالهم مع حلفائهم بني بكر لخزاعة أحلاف رسول الله ـ ﷺ ـ حتى سار إليهم رسول الله ـ ﷺ ـ عام الفتح، وكان ما كان، ولله الحمد.

وقوله: ﴿أتخشونهم فالله أحق أن تخشوه إن كنتم مؤمنين﴾، يقول تعالى: لا تخشوهم واخشونِ، فأنا أهل أن يخشى العباد من سطوتي وعقوبتي، فبيدي الأمر، وما شئت كان، وما لم أشأ لم يكن.

ثم قال تعالى عزيمةً[2] على المؤمنين، وبياناً لحكمته فيما شرع لهم من الجهاد مع قدرته على إهلاك الأعداء بأمر من عنده: ﴿فاقتلوهم يعذبهم الله بأيديكم، ويخزهم وينصركم عليهم، ويشف صدور قوم مؤمنين﴾. وهذا عام في المؤمنين كلهم.

وقال مجاهد، وعكرمة، والسدِّيّ في هذه الآية: ﴿ويَشْفِ صدور قوم مؤمنين﴾، يعني: خزاعة. وأعاد الضمير في قوله: ﴿ويذهب غيظ قلوبهم﴾ عليهم أيضاً.

وقد ذكر ابنُ عساكر في ترجمة مؤذِّن لعمر بن عبد العزيز ـ رضي الله عنه ـ عن مسلم بن يسار، عن عائشة رضي الله عنها ـ أن رسول الله ـ ﷺ ـ كان إذا غَضِبت أخذ بأنفها، وقال: يا عُوَيشُ، قولي: اللهم، رب النبي محمد، اغفر ذنبي، وأذهب غيظ قلبي، وأجِرني من مُضلات الفتن».

ساقه من طريق أبي أحمد الحاكم، عن الباغَنْدي، عن هشام بن عمار، حدثنا عبد الرحمن بن أبي الجَون، عنه.

﴿ويتوب الله على من يشاء﴾، أي: من عباده، ﴿والله عليم﴾، أي: بما يصلح عباده، ﴿حكيم﴾ في أفعاله وأقواله الكونية والشرعية، فيفعل ما يشاء، ويحكم ما يريد، وهو العادل الحاكم الذي لا يجور أبداً، ولا يُضِيع مثقال ذَرَّةٍ من خيرٍ وَشرٍّ، بل يجازي عليه في الدنيا والآخرة.

﴿ أَمْ حَسِبْتُمْ أَن تُتْرَكُوا۟ وَلَمَّا يَعْلَمِ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ جَٰهَدُوا۟ مِنكُمْ وَلَمْ يَتَّخِذُوا۟ مِن دُونِ ٱللَّهِ وَلَا رَسُولِهِۦ وَلَا ٱلْمُؤْمِنِينَ

(١) كذا في الأصل: (خَلْفك). وهي قراءة سبعيَّة، انظر الإقناع ٦٨٧.
(٢) أي: إيجاباً عليهم.

وَلِيجَةً وَٱللَّهُ خَبِيرُۢ بِمَا تَعۡمَلُونَ ﴿١٦﴾﴾

يقول تعالى: ﴿أم حسبتم﴾ أيها المؤمنين أن نترككم مهملين، لا نختبركم بأمور يظهرُ فيها أهل العزم الصادق من الكاذب؟ ولهذا قال: ﴿ولما يَعْلَمِ الله الذين جاهدوا منكم ولم يتخذوا من دون الله ولا رسوله ولا المؤمنينَ ولِيجَةً﴾، أي: بطانة ودخيلة، بل هم في الظاهر والباطن على النصح لله ولرسوله، فاكتفى بأحد القسمين عن الآخر، كما قال الشاعر[1]:

وما أدري إذا يَمَّمْتُ أرضاً ... أُرِيدُ الخير أيهما يليني

وقد قال الله تعالى: في الآية الأخرى: ﴿أَحَسِبَ الناسُ أن يُتْرَكوا أن يقولوا آمنا وهم لا يفتنون. ولقد فتنا الذين من قبلهم فليعلمَنَّ الله الذين صَدَقُوا وليعلمن الكاذبين﴾، وقال تعالى: ﴿أم حسبتم أن تدخلوا الجنة ولما يعلم الله الذين جاهدوا منكم ويعلم الصابرين﴾ وقال تعالى: ﴿ما كان الله ليذر المؤمنين على ما أنتم عليه حتى يميز الخبيث من الطيب، وما كان الله ليطلعكم على الغيب﴾. . . الآية.

والحاصل أنه ـ تعالى ـ لما شرع الجهاد لعباده، بيّن أن له فيه حكمة، وهو اختبار عبيده: مَنْ يُطيعه ممّن يعصيه، وهو تعالى العالم بما كان وما يكون، وما لم يكن لو كان كيف كان يكون؟ فيعلم الشيء قبل كونه، ومع كونه على ما هو عليه، لا إله إلا هو، ولا رب سواه، ولا رادّ لما قدره وأمضاه.

﴿مَا كَانَ لِلۡمُشۡرِكِينَ أَن يَعۡمُرُواْ مَسَٰجِدَ ٱللَّهِ شَٰهِدِينَ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِم بِٱلۡكُفۡرِۚ أُوْلَٰٓئِكَ حَبِطَتۡ أَعۡمَٰلُهُمۡ وَفِي ٱلنَّارِ هُمۡ خَٰلِدُونَ ﴿١٧﴾ إِنَّمَا يَعۡمُرُ مَسَٰجِدَ ٱللَّهِ مَنۡ ءَامَنَ بِٱللَّهِ وَٱلۡيَوۡمِ ٱلۡأٓخِرِ وَأَقَامَ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتَى ٱلزَّكَوٰةَ وَلَمۡ يَخۡشَ إِلَّا ٱللَّهَۖ فَعَسَىٰٓ أُوْلَٰٓئِكَ أَن يَكُونُواْ مِنَ ٱلۡمُهۡتَدِينَ ﴿١٨﴾﴾

يقول تعالى: ما ينبغي للمشركين بالله أن يعمروا مساجد الله التي بُنيت على اسمه وحده لا شريك له. ومن قرأ: ﴿مَسْجِدَ الله﴾[2]، فأراد به المسجد الحرام، أشرف المساجد في الأرض، الذي بُني من أول يوم على عبادة الله وحده لا شريك له. وأسسه خليل الرحمن هذا، وهم شاهدون على أنفسهم بالكفر، أي: بحالهم وقَالِهم، كما قال السدي: لو سألت النصراني: ما دينك؟ لقال: نصراني. واليهودي: ما دينك؟ لقال يهودي. والصابئي، لقال: صابىء. والمشرك، لقال: مشرك.

﴿أولئك حبطت أعمالهم﴾، أي: بشركهم، ﴿وفي النار هم خالدون﴾، كما قال تعالى: ﴿وما لهم ألا يعذبهم الله وهم يصدون عن المسجد الحرام، وما كانوا أولياءه إن أولياؤه إلا المتقون ولكن أكثرهم لا يعلمون﴾، ولهذا قال: ﴿إنما يعمر مساجد الله من آمن بالله واليوم الآخر﴾، فشهد تعالى بالإيمان لعُمّار المساجد، كما قال الإمام أحمد:

حدثنا سُرَيج، حدثنا ابن وهب، عن عمرو بن الحارث: أن دراجاً أبا السمح حدثه، عن أبي الهيثم، عن أبي سعيد الخدري أن رسول الله ـ ﷺ ـ قال: «إذا رأيتم الرجل يعتاد المسجد، فاشهدوا له بالإيمان؛ قال الله

(١) المثقب العَبْدِيّ، ديوانه ٢١٢.
(٢) قرأ بها ابن كثير وأبو عمرو، انظر الإقناع ٦٥٧.

تعالى: ﴿إنما يعمر مساجد الله من آمن بالله واليوم الآخر﴾[١].

ورواه الترمذي وابن مردويه، والحاكم في مستدركه، من حديث عبد الله بن وهب[١]، به.

وقال عبد بن حُمَيد في مسنده: حدثنا يونس بن محمد، حدثنا صالح المُرّي، عن ثابت البناني، عن ميمون بن سِيَاه وجعفر بن زيد، عن أنس بن مالك قال: قال رسول الله ـ ﷺ ـ: «إنما عمار المساجد هم أهل الله».

ورواه الحافظ أبو بكر البزار، عن عبد الواحد بن غياث، عن صالح بن بشير المُرّي، عن ثابت، عن أنس قال: قال رسول الله ـ ﷺ ـ: «إنما عُمَّار المساجد هم أهل الله». ثم قال: لا نعلم رواه عن ثابت غير صالح[٢].

وقد روى الدارقطني في الأفراد من طريق حكامة بنت عثمان بن دينار، عن أبيها، عن أخيه مالك بن دينار، عن أنس مرفوعاً: «إذا أراد الله بقوم عاهـةً نظر إلى أهل المساجد، فصَرَف عنهم». ثم قال: غريب.

وروى الحافظ البهاء في المستقصى، عن أبيه بسنده إلى أبي أمية الطرسوسي: حدثنا منصور بن صُقَير، حدثنا صالح المري، عن ثابت، عن أنس مرفوعاً: «يقول الله: وعزتي وجلالي، إني لأهُمّ بأهل الأرض عذاباً، فإذا نظرت إلى عُمَّار بيوتي وإلى المتحابين فيّ، وإلى المستغفرين بالأسحار، صرفت ذلك عنهم». ثم قال ابن عساكر: حديث غريب.

وقال الإمام أحمد: حدثنا روح، حدثنا سعيد، عن قتادة، حدثنا العلاء بن زياد، عن معاذ بن جبل: أن النبي ـ ﷺ ـ قال: «إن الشيطان ذئبُ الإنسانِ، كذئب الغنمِ يأخذُ الشاةَ القاصِيةَ والناحِيةَ، فإياكم والشِّعاب، وعليكم بالجماعة والعامة والمسجد»[٣].

وقال عبد الرزاق، عن معمر، عن أبي إسحاق، عن عمرو بن ميمون الأوْديّ قال: أدركت أصحاب النبي ـ ﷺ ـ وهم يقولون: إن المساجد بيوت الله في الأرض، وإنه حق على الله أن يكرم من زَاره فيها.

وقال المسعودي، عن حبيب بن أبي ثابت وعدي بن ثابت، عن سعيد بن جبير، عن ابن عباس ـ رضي الله عنهما ـ قال: من سمع النداء بالصلاة ثم لم يُجبْ ويأتي المسجد ويصلي، فلا صلاة له، وقد عصى الله ورسوله، قال الله تعالى: ﴿إنما يعمر مساجد الله من آمن بالله واليوم الآخر﴾ . . . الآية. رواه ابن مردويه.

وقد رُوي مرفوعاً من وجه آخر، وله شواهد من وجوه أخر ليس هذا موضع بسطها.

وقوله: ﴿وأقام الصلاة﴾، أي: التي هي أكبر عبادات البَدَن، ﴿وآتى الزكاة﴾، أي: التي هي أفضل الأعمال المتعدية إلى بر الخلائق، ﴿ولم يخش إلا الله﴾، أي: ولم يَخَفْ إلا من الله تعالى، ولم يخش سواه، ﴿فعسى أولئك أن يكونوا من المهتدين﴾.

قال علي بن أبي طلحة، عن ابن عباس في قوله: ﴿إنما يعمر مساجد الله من آمن بالله واليوم الآخر﴾، يقول: من وَحَّد الله، وآمن باليوم الآخر. يقول: من آمن بما أنزل الله، ﴿وأقام الصلاة﴾، يعني الصلوات الخمس، ﴿ولم يخش إلا الله﴾، يقول: لم يعبد إلا الله، ثم قال: ﴿فعسى أولئك﴾، يقول: إن أولئك هم

(١) مسند الإمام أحمد ٣/ ٦٨، وتحفة الأحوذي، تفسير سورة التوبة ٨/ ٤٩٠ ـ ٤٩١، والمستدرك ٢/ ٣٣٢.
(٢) كشف الأستار عن زوائد البزار ١/ ٢١٧.
(٣) مسند الإمام أحمد ٥/ ٢٣٢ ـ ٢٣٣.

المفلحون، كقوله لنبيه ـ ﷺ ـ: ﴿عسى أن يبعثك ربك مقاماً محموداً﴾، [يقول: إن ربك سيبعثك مقاماً محموداً][1] وهي الشفاعة، وكل «عسى» في القرآن فهي واجبة.

وقال محمد بن إسحاق بن يسار ـ رحمه الله ـ: و «عسى» من الله حق.

﴿۞ أَجَعَلْتُمْ سِقَايَةَ الْحَاجِّ وَعِمَارَةَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ كَمَنْ آمَنَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَجَاهَدَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ ۚ لَا يَسْتَوُونَ عِندَ اللَّهِ ۗ وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ ﴿١٩﴾ الَّذِينَ آمَنُوا وَهَاجَرُوا وَجَاهَدُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ أَعْظَمُ دَرَجَةً عِندَ اللَّهِ ۚ وَأُولَٰئِكَ هُمُ الْفَائِزُونَ ﴿٢٠﴾ يُبَشِّرُهُمْ رَبُّهُم بِرَحْمَةٍ مِّنْهُ وَرِضْوَانٍ وَجَنَّاتٍ لَّهُمْ فِيهَا نَعِيمٌ مُّقِيمٌ ﴿٢١﴾ خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا ۚ إِنَّ اللَّهَ عِندَهُ أَجْرٌ عَظِيمٌ ﴿٢٢﴾﴾

قال العَوفي في تفسيره، عن ابن عباس في تفسير هذه الآية، قال: إن المشركين قالوا: عمارة بيت الله، وقيام على السقاية، خير ممن آمن وجاهد، وكانوا يفخرون بالحرم ويستكبرون به من أجل أنهم أهله وعُمّاره. فذكر الله استكبارهم وإعراضهم، فقال لأهل الحرم من المشركين: ﴿قد كانت آياتي تتلى عليكم فكنتم على أعقابكم تنكصون * مستكبرين به سامراً تهجرون﴾، يعني أنهم كانوا يستكبرون بالحرم ـ قال: ﴿به سامراً﴾، كانوا يسمرون به، ويهجرون القرآن والنبي ـ ﷺ ـ. فَخَيَّر [الله] الإيمان والجهاد مع نبي الله ـ ﷺ ـ على عمارة المشركين البيت وقيامهم على السقاية. ولم يكن ينفعهم عند الله مع الشرك به أنْ كانوا يعمرون بيته ويخدمونه[2]. قال الله: ﴿لا يستوون عند الله والله لا يهدي القوم الظالمين﴾، يعني: الذين زعموا أنهم أهل العمارة، فسماهم الله «ظالمين» بشركهم، فلم تُغْن عنهم العمارة شيئاً.

وقال علي بن أبي طلحة، عن ابن عباس، في تفسير هذه الآية، قال: نزلت في العباس بن عبد المطلب حين أسر يوم بدر[3]، قال: لئن كنتم سبقتمونا بالإسلام والهجرة والجهاد، لقد كنا نعمر المسجد الحرام، ونسقي [الحاج][4]، ونفك العاني، قال الله عز وجل: ﴿أجعلتم سقاية الحاج﴾ إلى قوله: ﴿والله لا يهدي القوم الظالمين﴾، يعني أن ذلك كان في الشرك، ولا أقبل ما كان في الشرك.

وقال الضحاك بن مزاحم: أقبل المسلمون على العباس وأصحابه، الذين أسروا يوم بدر، يعيّرونهم بالشرك، فقال العباس: أما والله لقد كنّا نعمرُ المسجدَ الحرام، ونفُكّ العاني، ونَحجُب البيتَ، ونَسْقي الحاجَّ، فأنزل الله: ﴿أجعلتم سقاية الحاج﴾... الآية.

وقال عبد الرزاق: أخبرنا ابن عُيَينة، عن إسماعيل، عن الشعبي قال: نزلت في علي، والعباس ـ رضي الله عنهما ـ تكلما في ذلك.

وقال ابن جرير: حدثني يونس، حدثنا ابن وهب[5]، [أخبرت] عن أبي صخر قال: سمعت محمد بن كعب القرظي يقول: افتخر طلحة بن شيبة من بني عبد الدار، وعباس بن عبد المطلب، وعلي بن أبي طالب،

---

(١) عن تفسير الطبري ١٠/ ٩٤.

(٢) في الأصل: «وإن كانوا يعمرون بيته ويحرمونه». والمثبت عن تفسير الطبري ١٠/٩٥.

(٣) في الأصل: «بعد بدر». والمثبت عن تفسير الطبري ١٠/ ٩٥.

(٤) عن تفسير الطبري ١٠/ ٩٥.

(٥) في الأصل: «أخبرنا ابن وهب، أخبرني ابن لهيعة، عن أبي صخر». والمثبت عن تفسير الطبري ١٠/ ٩٦. وفي تهذيب التهذيب ٣/ ٤١ أن عبد الله بن وهب يروي عن حميد بن زياد أبي صخر.

فقال طلحة: أنا صاحب البيت، معي مفتاحه، ولو أشاء بتّ فيه. وقال العباس: أنا صاحب السقاية والقائم عليها، ولوأشاء بتّ في المسجد. فقال علي رضي الله عنه: ما أدري ما تقولان، لقد صليت إلى القبلة ستة أشهر قبل الناس، وأنا صاحب الجهاد، فأنزل الله عز وجل: ﴿أجعلتم سقاية الحاج؟﴾... الآية كلها.

وهكذا قال السدِّيّ، إلا أنه قال: افتخر علي والعباس وشيبةُ بن عثمانَ... وذكر نحوه.

وقال عبدُ الرزّاقِ: أخبرنا معمر، عن عمرو، عن الحسن قال: نزلت في علي وعباس وعثمان وشيبةَ، تكلموا في ذلك، فقال العباس: ما أراني إلا تَارِكَ سِقَايتنا. فقال رسولُ الله ـ ﷺ ـ: أقيموا على سقايتكم، فإن لكم فيها خيراً.

ورواه محمد بن ثور، عن معمر، عن الحسن فذكر نحوه[(١)].

وقد ورد في تفسير هذه الآية حديث مرفوع، فلا بد من ذكره ها هنا، قال عبد الرزاق:

أخبرنا معمر، عن يحيى بن أبي كثير، عن النعمان بن بشير ـ رضي الله عنه ـ أن رَجُلاً قال: ما أبالي ألَّا أعمل عملاً بعد الإسلام إلا أن أسقي الحاج. وقال آخر: ما أبالي ألَّا أعمل عملاً بعد الإسلام، إلا أن أعمُرَ المسجد الحرام. وقال آخر: الجهاد في سبيل الله أفضل مما قلتم. فزجرهم عمر رضي الله عنه وقال: لا ترفعوا أصواتكم عند منبر رسول الله ـ ﷺ ـ وذلك يوم الجمعة ـ ولكن إذا صَلَّينا الجمعَةَ دخلنا عليه. فنزلت: ﴿أجعلتم سقايةَ الحاجِّ وعمارَةَ المسجد الحرام﴾ إلى قوله: ﴿لا يستوون عند الله﴾[(٢)].

طريق أخرى، قال الوليد بن مسلم: حدثني معاوية بن سلَّام، عن جَدِّه أبي سلَّام الأسود، عن النعمان ابن بَشِير الأنصاري قال: كنت عند مِنْبَر رسول الله ـ ﷺ ـ في نَفَرٍ من أصحابه، فقال رجلٌ منهم: ما أبالي ألَّا أعملَ لله عملاً بعد الإسلام إلا أن أسقي الحاج. وقال آخر: بل عمارة المسجد الحرام. وقال آخر: بل الجهاد في سبيل الله خير مما قلتم. فَزَجَرَهُم عمر بن الخطاب ـ رضي الله عنه ـ وقال: لا ترفعوا أصواتكم عند منبر رسول الله ـ ﷺ ـ وذلك[(٣)] يوم الجمعة ـ ولكن إذا صليتُ الجمعة دخلت على رسول الله فاستفتيته فيما اختلفتم فيه. قال: ففعل، فأنزل الله عز وجل: ﴿أجعلتُم سقاية الحاجِّ وعمارَةَ المسجدِ الحرام﴾ إلى قوله: ﴿والله لا يهدي القوم الظالمين﴾.

رواه مسلم في صحيحه[(٤)]، وأبو داود ـ وابن جَرِيرٍ وهذا لفظُه ـ وابن مردويه، وابن أبي حاتمٍ في تفاسيرهم، وابن حبان في صحيحه.

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَتَّخِذُوٓاْ ءَابَآءَكُمْ وَإِخْوَٰنَكُمْ أَوْلِيَآءَ إِنِ ٱسْتَحَبُّواْ ٱلْكُفْرَ عَلَى ٱلْإِيمَٰنِ ۚ وَمَن يَتَوَلَّهُم مِّنكُمْ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلظَّٰلِمُونَ ﴿٢٣﴾ قُلْ إِن كَانَ ءَابَآؤُكُمْ وَأَبْنَآؤُكُمْ وَإِخْوَٰنُكُمْ وَأَزْوَٰجُكُمْ وَعَشِيرَتُكُمْ وَأَمْوَٰلٌ ٱقْتَرَفْتُمُوهَا وَتِجَٰرَةٌ تَخْشَوْنَ كَسَادَهَا وَمَسَٰكِنُ تَرْضَوْنَهَآ أَحَبَّ إِلَيْكُم مِّنَ ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَجِهَادٍ فِى سَبِيلِهِۦ فَتَرَبَّصُواْ حَتَّىٰ يَأْتِىَ ٱللَّهُ بِأَمْرِهِۦ ۗ وَٱللَّهُ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلْفَٰسِقِينَ ﴿٢٤﴾ ﴾

(١) ذكر بعده في الأصل: «إلا أنه قال: فقال رسول الله ـ ﷺ ـ: أقيموا على سقايتكم فإن لكم فيها خيراً».
(٢) تفسير الطبري ١٠/ ٩٥ ـ ٩٦.
(٣) في الأصل: «وهو يوم الجمعة». والمثبت عن تفسير الطبري ١٠/٩٥.
(٤) مسلم، كتاب الإمارة ١٤٩٩. ولم يقع لنا في سنن أبي داود، وانظر تحفة الأشراف ٩/٢٩. وأخرجه ابن حِبّان في كتاب السير ٧/٥٦.

أمر تعالى بمباينة الكفار به، وإن كانوا آباء أو أبناء، ونهى عن موالاتهم إذا ﴿استحبوا﴾، أي: اختاروا الكفر على الإيمان، وتوعد على ذلك كما قال تعالى: ﴿لا تجد قوماً يؤمنون بالله واليوم الآخر يوادُّونَ من حادَّ الله ورسوله، ولو كانوا آباءهم أو أبناءهم أو إخوانهم أو عشيرتهم، أولئك كتب في قلوبهم الإيمان، وأيدهم بروح منه، ويدخلهم جنات تجري من تحتها الأنهار﴾... الآية.

وروى الحافظ البيهقيُّ من حديث عبد الله بن شَوْذَب قال: جَعَلَ أبو أبي عُبَيدة بن الجراح يَنْعَت[١] له الآلهة يوم بدر، وجعل أبو عُبَيدَة يحيد عنه، فلما أكثر الجراح قصدَه ابنُه أبو عُبيدةَ فقتَلَه، فأنزل الله فيه هذه الآية: ﴿لا تجد قوماً يؤمنون بالله واليوم الآخر﴾... الآية.

ثم أمر تعالى رسوله أن يتوعد من آثر أهله وقرابته وعشيرته على الله وعلى رسوله وجهاد في سبيله، فقال: ﴿قل إن كان آباؤكم وأبناؤكم وإخوانكم وأزواجكم وعشيرتكم وأموال اقترفتموها﴾، أي: اكتسبتُمُوها وحَصَّلتموها ﴿وتجارة تخشون كسادها ومساكن ترضونها﴾، أي تحبُّونها لطيبها وحسنها، أي: إن كانت هذه الأشياء ﴿أحب إليكم من الله ورسوله وجهاد في سبيله فتربصوا﴾، أي: فانتظروا ماذا يحل بكم من عقابه ونكاله بكم، ولهذا قال: ﴿حتى يأتي الله بأمره، والله لا يهدي القوم الفاسقين﴾.

وقال الإمام أحمد: حدثنا قُتَيبة بن سعيد، حدثنا ابن لَهِيعة، عن زُهْرَةَ بن مَعْبَدٍ، عن جده قال: كنا مع رسول الله ـ ﷺ ـ وهو آخذ بيد عمر بن الخطاب، فقال: والله لأنت يا رسول الله أحبُّ إليّ من كل شيء إلا من نفسي. فقال رسول الله ـ ﷺ ـ: «لا يؤمن أحدكم حتى أكون أحب إليه من نفسه. فقال عمر: فأنت الآن والله أحب إليّ من نفسي. فقال رسول الله: الآن يا عمر»[٢].

انفرد بإخراجه البخاري، فرواه عن يحيى بن سليمان، عن ابن وهب، عن حيوَة بن شُريح، عن أبي عَقِيل زُهْرَة بن مَعْبد، أنه سمع جده عبد الله بن هشام، عن النبي ـ ﷺ ـ بهذا[٣].

وقد ثبت في الصحيح عن رسول الله ـ ﷺ ـ أنه قال: «والذي نفسي بيده لا يؤمن أحدكم حتى أكون أحب إليه من والده وولده والناس أجمعين»[٤].

وروى الإمام أحمد، وأبو داود ـ واللفظ له ـ من حديث أبي عبد الرحمن الخراساني، عن عطاء الخراساني، عن نافع، عن ابن عُمَر قال: سمعتُ رسولَ الله ـ ﷺ ـ يقول: إذا تبايعتم بالعِيْنَةِ[٥]، وأخذتم بأذناب البقر، وَرَضِيتم بالزرع، وتركتُم الجهاد، سلَّط الله عليكم ذلاً لا يَنْزِعُهُ حتى ترجعوا إلى دينكم»[٦].

وروى الإمام أحمد أيضاً عن يزيد بن هارون، عن أبي جَنَاب، عن شهر بن حوشب أنه سمع عبد الله بن عمرو عن رسول الله ـ ﷺ ـ بنحو ذلك[٧]. وهذا شاهد للذي قبله، والله أعلم.

---

(١) في سنن البيهقي، كتاب السير ٩/ ٢٧: «ينصب الآلهة».
(٢) مسند الإمام أحمد ٤/ ٣٣٦.
(٣) فتح الباري، كتاب الأيمان والنذور ١١/ ٥٢٣.
(٤) أخرجاه في كتاب الإيمان، فتح الباري ١/ ٥٨، ومسلم ٦٧.
(٥) هو أن يبيع الرجل سلعة بثمن معلوم إلى أجل مسمًّى، ثم يشتريها منه بأقل من الثمن الذي باعها به، وقد تقدمت عند تفسير الآية ٢٧٩ من سورة البقرة.
(٦) سنن أبي داود، كتاب البيوع ٣/ ٢٧٤، ومسند الإمام أحمد ٢/ ٤٢.
(٧) مسند الإمام أحمد ٢/ ٨٤.

﴿ لَقَدْ نَصَرَكُمُ اللَّهُ فِي مَوَاطِنَ كَثِيرَةٍ وَيَوْمَ حُنَيْنٍ إِذْ أَعْجَبَتْكُمْ كَثْرَتُكُمْ فَلَمْ تُغْنِ عَنكُمْ شَيْئًا وَضَاقَتْ عَلَيْكُمُ الْأَرْضُ بِمَا رَحُبَتْ ثُمَّ وَلَّيْتُم مُّدْبِرِينَ ﴿٢٥﴾ ثُمَّ أَنزَلَ اللَّهُ سَكِينَتَهُ عَلَىٰ رَسُولِهِ وَعَلَى الْمُؤْمِنِينَ وَأَنزَلَ جُنُودًا لَّمْ تَرَوْهَا وَعَذَّبَ الَّذِينَ كَفَرُوا وَذَٰلِكَ جَزَاءُ الْكَافِرِينَ ﴿٢٦﴾ ثُمَّ يَتُوبُ اللَّهُ مِن بَعْدِ ذَٰلِكَ عَلَىٰ مَن يَشَاءُ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٢٧﴾ ﴾

قال ابن جرير، عن مجاهد: هذه أول آية نزلت من «براءة».

يذكر تعالى للمؤمنين فضله عليهم وإحسانه لديهم في نصره إياهم في مواطن كثيرة من غزواتهم مع رسوله، وأن ذلك من عنده تعالى، وبتأييده وتقديره، لا بعَدَدهم. ونبَّههم على أن النصر من عنده، سواء قلّ الجمعُ أو كثر، فإن يوم حنين أعجبتهم كثرتهم، ومع هذا ما أجدى ذلك عنهم شيئاً فولّوا مدبرين إلا القليلَ منهم مع رسول الله ﷺ. ثم أنزل نصره وتأييده على رسوله وعلى المؤمنين الذين معه، كما سنبينه إن شاء الله تعالى مفصلاً، ليعلمهم أن النصر من عنده تعالى وحده وبإمداده وإن قلّ الجمع، فكم من فئة قليلة غلبت فئة كثيرة بإذن الله، والله مع الصابرين.

وقد قال الإمام أحمد: حدثنا وهب بن جرير، حدثنا أبي، سمعت يونس يحدث عن الزهري، عن عُبَيد الله، عن ابن عباس قال: قال رسول الله ـ ﷺ ـ: «خير الصحابة أربعة، وخير السرايا أربعمائة، وخير الجيوش أربعة آلاف، ولن تُغْلَب اثنا عشر ألفاً من[1] قلة».

وهكذا رواه أبو داود، والترمذي، ثم قال: «هذا حديث حسن غريب، لا يسنده كبير أحد غيرُ جرير بن حازم، وإنما روي عن الزهري، عن النبي ـ ﷺ ـ مرسلاً»[2].

وقد رواه ابن ماجه[3] والبيهقي وغيره، عن أكثم بن الجَوْن، عن رسول الله ـ ﷺ ـ بنحوه. والله أعلم.

وقد كانت وقعة «حُنين» بعد فتح مكة في شوال سنة ثمان من الهجرة، وذلك لما فرغ عليه السلام من فتح مكة، وتمهدت أمورها، وأسلم عامة أهلها، وأطلقهم رسول الله ـ ﷺ ـ فبلغه أن هوازن جمعوا له ليقاتلوه، وأن أميرهم مالك بن عوف النَّصْري، ومعه ثَقيف بكمالها، وبنو جُشَم وبنو سعد بن بكر، وأوزاع[4] من بني هلال، وهم قليل، وناس من بني عمرو بن عامر، وعوف بن عامر، وقد أقبلوا معهم النساء والولدان والشاء والنَّعَم، وجاءُوا بقَضِّهم وقَضيضهم[5]. فخرج إليهم رسولُ الله ـ ﷺ ـ في جيشه الذي جاء معه للفتح، وهو عشرة آلاف من المهاجرين والأنصار وقبائل العرب، ومعه الذين أسلموا من أهل مكة، وهم الطلقاء في ألفين أيضاً، فسار بهم إلى العدو، فالتقوا بواد بين مكة والطائف يقال له «حنين»، فكانت فيه الوقعة في أول النهار في غَلَس الصبح، انحدروا في الوادي وقد كمنت فيه هوازن، فلما تواجهوا لم يشعر المسلمون إلا بهم قد ثاوروهم[6]، ورشقوا بالنبال، وأصلتوا السيوف، وحملوا حملة رجل واحد، كما أمرهم ملكهم. فعند ذلك ولى المسلمون مدبرين، كما قال الله عز وجل، وثبت رسول الله ـ ﷺ ـ وهو راكب يومئذ بغلته الشهباء يسوقها إلى نحر العدو،

(١) مسند الإمام أحمد ١/ ٢٩٤.
(٢) سنن أبي داود، كتاب الجهاد ٣/ ٣٦، وتحفة الأحوذي، أبواب السير ٥/ ١٦٥ ـ ١٦٦.
(٣) سنن ابن ماجه، كتاب الجهاد ٢/ ٩٤٤. والسنن الكبرى للبيهقي، كتاب السير ٩/ ١٥٦ ـ ١٥٧.
(٤) أي: فِرَق.
(٥) أي: بأجمعهم.
(٦) أي: واثبوهم.

والعباس عمه آخذ بركابها الأيمن، وأبو سفيان بن الحارث بن عبد المطلب آخذ بركابها الأيسر، يثقلانها لئلا تسرع السير، وهو ينوه باسمه ـ عليه الصلاة والسلام ـ ويدعو المسلمين إلى الرجعة: أين يا عباد الله؟ إليَّ أنا رسول الله. ويقول في تلك الحال:

أنا النبيُّ لا كَذِبْ أنا ابن عبد المطلِبْ

وثبت معه من أصحابه قريب من مائة، ومنهم من قال: ثمانون، فمنهم: أبو بكر وعمر ـ رضي الله عنهما ـ والعباس وعلي، والفضل بن عباس، وأبو سفيان بن الحارث، وأيمن ابن أم أيمن، وأسامة بن زيد، وغيرهم، رضي الله عنهم.

ثم أمر رسول الله ـ ﷺ ـ عمه العباس ـ وكان جهير الصوت ـ أن ينادي بأعلى صوته: يا أصحاب الشجرة ـ يعني شجرة بيعة الرضوان، التي بايعه المسلمون من المهاجرين والأنصار تحتها، على ألَّا يفروا عنه ـ فجعل ينادي بهم: يا أصحاب السَّمُرة[1]، ويقول تارة: يا أصحاب سورة البقرة، فجعلوا يقولون: يا لبيك، يا لبيك. وانعطف الناس فجعلوا يتراجعون إلى رسول الله ـ ﷺ ـ حتى إن الرجل منهم إذا لم يطاوعه بعيره على الرجوع لبس درعه ثم انحدر عنه، وأرسله، ورجع بنفسه إلى رسول الله ﷺ. فلما رجعت شرذمة منهم، أمرهم ـ عليه السلام ـ أن يَصْدُقوا الحملة، وأخذ قبضة من التراب بعد ما دعا ربه واستنصره، وقال: اللهم أنجز لي ما وعدتني. ثم رمى القوم بها، فما بقي إنسان منهم إلا أصابه منها في عينه وفمه ما شغله عن القتال، ثم انهزموا، فاتبع المسلمون أقفاءهم يقتلون ويأسرون، وما تراجع بقية الناس إلا والأسارى مُجَدَّلَةٌ[2] بين يدي رسول الله ﷺ.

وقال الإمام أحمد: حدثنا عفان، حدثنا حماد بن سلمة، أخبرنا يعلى بن عطاء، عن عبد الله بن يسار أبي همام، عن أبي عبد الرحمن الفِهريِّ ـ واسمه يزيد بن أُسَيد، ويقال: يزيد بن أُنَيس، ويقال: كُرْز ـ قال: كنت مع رسول الله ـ ﷺ ـ في غزوة حُنَين، فَسِرْنا في يوم قائظٍ شديدَ الحرِّ، فنزلنا تحتَ ظلالِ الشجر، فلما زالت الشمسُ لبست لأمَتي وركبت فرسي، فانطلقت إلى رسول الله ـ ﷺ ـ وهو في فُسطاطه، فقلت: السلامُ عليك يا رسولَ الله ورحمةُ الله، حان الرواحُ. فقال: أجل. فقال: يا بلال. فثار[3] من تحت سَمُرة كَأَنَّ ظله ظل طائر، فقال: لبيك وسعديك، وأنا فداؤك. فقال: أَسْرِجْ لي فَرَسي. فأخرج سَرْجاً دفَّتاه من ليفٍ، ليس فيهما أَشَرٌ ولا بَطَر.

قال: فأَسْرَجَ، فركب وركبنا، فصافقناهم عشيتنا وليلتنا، فتشامَّتِ[4] الخيلانُ، فولى المسلمون مدبرين، كما قال الله عز وجل: ﴿ثم وليتم مدبرين﴾. فقال رسول الله ـ ﷺ ـ: يا عباد الله، أنا عبد الله ورسوله، ثم قال: يا معشر المهاجرين، أنا عبد الله ورسوله. قال: ثم اقتحم رسول الله ـ ﷺ ـ عن فرسه، فأخذ كفاً من تراب، فأخبرني الذي كان أدنى إليه مني: أنه ضرب به وجوههم، وقال: شاهت الوجوه. فهزمهم الله ـ عز وجل ـ قال يعلى بن عطاء: فحدثني أبناؤهم، عن آبائهم، أنهم قالوا: لم يبق منا أحد إلا امتلأت عيناه وفمه تراباً، وسمعنا صَلْصَلَةً بين السماء والأرض، كإمرار الحديد على الطَّسْت الجديد[5].

(١) السَّمُرة: من شجرة الطلح.
(٢) جدَّلته: رميته وصرعته.
(٣) أي: ظهر. وقوله: «كأن ظلّه ظلّ طائر»: كناية عن سرعته في إجابة النبي ـ ﷺ ـ إليه.
(٤) أي تقاربت. والخيلان: جمع خال، وهو البعير الضخم.
(٥) مسند الإمام أحمد ٥/ ٢٨٦.

وهكذا رواه الحافظُ البيهقيُّ في «دلائل النبوَّة» من حديثِ أبي داودَ الطيالِسيِّ، عن حماد بن سَلَمة، به[١].

وقال محمد بن إسحاق: حدثني عاصم بن عمر بن قتادة، عن عبد الرحمن بن جابر، عن أبيه جابر بن عبد الله قال: فخرج مالك بن عوف بمن معه إلى حُنين، فسبق رسول الله ـ ﷺ ـ إليه، فأعدوا وتهيئوا في مضايق الوادي وأحنائه، وأقبل رسول الله ـ ﷺ ـ وأصحابه، حتى انحط بهم الوادي في عَمَاية[٢] الصبح، فلما انحط الناس ثارت في وجوههم الخيل، فاشتدت عليهم، وانكفأ الناس منهزمين، لا يُقْبِلُ أحد على أحد، وانحاز رسول الله ـ ﷺ ـ ذات اليمين يقول: أيها الناس، هَلُمُّوا إليّ أنا رسولُ الله، أنا رسولُ الله. أنا محمد بن عبد الله. فلا شيء، وركبت الإبل بعضها بعضاً، فلما رأى رسول الله ـ ﷺ ـ أَمْرَ الناس قال: يا عباس، اصرخ: يا معشر الأنصار، يا أصحاب السمرة. فأجابوه: لبيك، لبيك. فجعل الرجل يذهب ليعطف بعيره، فلا يقدر على ذلك، فيقذف درعه في عنقه، ويأخذ سيفه وقوسه، ثم يَؤُم الصوت، حتى اجتمع إلى رسول الله ـ ﷺ ـ منهم مائة، فاستعرض الناسُ فاقتتلوا، وكانت الدعوة أول ما كانت: يا للأنصار، ثم جُعِلت آخراً: يا للخزرج ـ وكانوا صُبُراً عند الحرب ـ وأشرف رسول الله ـ ﷺ ـ في ركائبه، فنظر إلى مُجتَلَدِ[٣] القوم، فقال: الآن حَمِيَ الوَطِيسُ[٤] ـ قال: فوالله ما راجعه الناس إلا والأسارى عند رسول الله ملقَون، فقَتَلَ الله منهم من قتل، وانهزم منهم من انهزم، وأفاء الله على رسوله أموالهم وأبناءهم[٥].

وفي الصحيحين من حديث شعبةَ، عن أبي إسحاقَ، عن البراء بن عازب ـ رضي الله عنهما ـ أنه قال له رجل: يا أبا عمارة، أفررتم عن رسول الله ـ ﷺ ـ يوم حنين؟! فقال: لكن رسول الله ـ ﷺ ـ لم يفرَّ، إن هوازن كانوا قوماً رُماة، فلما لقيناهم وحَمَلنا عليهم انهزموا، فأقبل الناس على الغنائم، فاستقبلونا بالسهام، فانهزم الناس، فلقد رأيت رسول الله ـ ﷺ ـ وأبو سفيان بن الحارث آخذ بلجام بغلة رسول الله ـ ﷺ ـ البيضاءِ، وهو يقول:

أَنَـا الـنـبـيُّ لا كَـذِبْ أنـا ابـن عَـبْـد الـمُـطَّلِبْ[٦]

قلت: وهذا في غاية ما يكون من الشجاعة التامة، إنه في مثل هذا اليوم من حَومة الوغى وقد انكشف عنه جيشه، هو مع ذلك على بغلة وليست سريعةَ الجَرْيِ، ولا تصلح لكرّ ولا لفرّ ولا لهرب، وهو مع هذا أيضاً يركضها إلى وجوههم وينوّه باسمه ليعرفه من لم يعرفه ـ صلوات الله وسلامه عليه دائماً إلى يوم الدين ـ وما هذا كله إلا ثقة بالله، وتوكّلاً عليه، وعلماً منه بأنه سينصره، ويتم ما أرسله به، ويظهر دينه على سائر الأديان، ولهذا قال تعالى: ﴿ثم أنزل الله سكينته على رسوله﴾، أي: طمأنينته وثباته على رسوله، ﴿وعلى المؤمنين﴾، أي: الذين معه، ﴿وأنزل جنوداً لم تروها﴾، وهم الملائكة، كما قال الإمام أبو جعفر بن جرير:

---

(١) دلائل النبوة ٥/ ١٤١.
(٢) أي: ظلامه.
(٣) أي: مكان جلادهم بالسيوف.
(٤) الوطيس: شبه التنور. وقيل: حجارة مُدَوَّرة إذا حميت لم يقدر أحد يطؤها. وقيل: هو الوطء الذي يَطِسُ الناسَ، أي: يدقهم. وقيل: هو الضراب في الحرب. ولم يسمع هذا الكلام من أحد قبل النبي ﷺ. عبَّر به عن اشتباك الحرب.
(٥) سيرة ابن هشام ٢/ ٤٤٢ ـ ٤٤٥.
(٦) أخرجاه في كتاب الجهاد، فتح الباري ٦/ ٦٩، ومسلم ١٤٠١.

[حدثنا القاسم قال][1] حدثني الحسن بن عرفة قال: حدثني المعتمر بن سليمان، عن عوف ـ هو ابن أبي جَمِيلَةَ الأعرابي ـ قال: سمعتُ عبد الرحمن مولى ابن بُرثن، حدثني رجلٌ كان من المشركين يوم حُنَين قال: لما التقينا نحن وأصحابُ رسول الله ـ ﷺ ـ يوم حنين لم يقوموا لنا حَلْبَ شاة[2] ـ قال: فلما كشفناهم جعلنا نسوقهم في آثارهم، حتى انتهينا إلى صاحب البغلة البيضاء، فإذا هو رسول الله ـ ﷺ ـ قال: فتلقانا عنده رجال بيض حسان الوجوه، فقالوا لنا: شاهت الوجوه، ارجعوا. قال: فانهزمنا، وركبوا أكتافنا، فكانت إياها.

وقال الحافظ أبو بكر البيهقي: أنبأنا أبو عبد الله الحافظ، حدثني محمد بن أحمد بن بَالُويه، حدثنا إسحاق بن الحسن الحربي، حدثنا عفان بن مسلم، حدثنا عبد الواحد بن زياد، حدثنا الحارث بن حَصِيرة، حدثنا القاسم بن عبد الرحمن، عن أبيه قال: قال ابن مسعود ـ رضي الله عنه ـ: كنت مع رسول الله ـ ﷺ ـ يوم حُنين، فولَّى عنه الناسُ، وبقيتُ معه في ثمانين رجلاً من المهاجرين والأنصار، قدمنا ولم نولهم الدبر، وهم الذين أنزل الله عليهم السكينة ـ قال: ورسول الله ـ ﷺ ـ على بغلته يمضي قُدُماً، فحادَت بغلته، فمال عن السَّرج، فقلت: ارتفع رفعك الله. قال: ناولني كفاً من التراب. فناولته، قال: فضرب به وجوهَهُم، فامتلأت أعينهم تراباً، قال: أين المهاجرون والأنصار؟ قلت: هم هناك. قال: اهْتِف بهم. فَهَتَفْتُ بهم، فجاءُوا وسيوفُهم بأيمانهم، كأنها الشُّهُب، وَوَلَّى المشركون أدبارهم[3].

ورواه الإمام أحمد في مسنده عن عَفَّان، به نحوه[4].

وقال الوليد بن مسلم: حدثني عبد الله بن المبارك، عن أبي بكر الهُذلي، عن عكرمة مولى ابن عباس، عن شيبة بن عثمان قال: لما رأيت رسول الله ـ ﷺ ـ يوم حُنَين قد عَرِيَ[5]، ذكرت أبي وعمي وقَتْلَ عليٍّ وحمزة إياهما، فقلت: اليوم أُدركُ ثاري منه. قال: فذهبت لأجيئه عن يمينه، فإذا أنا بالعباس بن عبد المطلب قائماً، عليه درعٌ بيضاءُ كأنها فضة، يكشف عنها العجاج، فقلت: عَمُّهُ ولن يخذله. قال: فجئته عن يساره، فإذا أنا بأبي سفيان بن الحارث بن عبد المطلب، فقلت: ابنُ عمه ولن يخذله. فجئته من خلفه، فلم يبق إلا أن أُسَوِّرَهُ[6] سَوْرَةً بالسيف، إذ رُفع لي شُوَاظ من نار بيني وبينه، كأنه برق، فخفت أن تَمْحَشَني[7]، فوضعت يدي على بصري ومشيت القهقرى، فالتفت رسول الله ـ ﷺ ـ وقال: يا شيبَ، يا شيبَ، ادن مني، اللهم أذهِبْ عنه الشيطان. قال: فرفعت إليه بصري، وَلَهو أحبُّ إليَّ من سمعي وبصري، فقال: يا شيبَ، قاتل الكفار[8].

رواه البيهقي من حديث الوليد، فذكره، ثم روى من حديث أيوب بن جابر، عن صَدَقة بن سعيد، عن مصعب بن شيبة، عن أبيه قال: خرجت مع رسول الله ـ ﷺ ـ يوم حنين، والله ما أخرجني إسلام، ولا معرفة به، ولكني أبيتُ[9] أن تظهر هوازن على قريش، فقلت وأنا واقف معه: يا رسول الله، إني أرى خيلاً بُلْقاً، فقال: يا شيبة، إنه لا يراها إلا كافر. فضرب بيده على صدري، ثم قال: اللهمَّ اهدِ شيبة، ثم ضربها الثانية،

---

(١) عن تفسير الطبري ١٠/ ١٠٣.

(٢) أي: مقدار الوقت الذي تحلب فيه الشاة.

(٣) دلائل النبوة ٥/ ١٤٢.

(٤) المسند ١/ ٤٥٣ ـ ٤٥٤.

(٥) أي: انفضّ عنه الناس.

(٦) أي: ارتفع إليه وآخذه.

(٧) أي: تحرقني.

(٨) دلائل النبوة ٥/ ١٤٥.

(٩) نص الدلائل: أَنِفْتُ.

ثم قال: اللهم، اهد شيبة. ثم ضربها الثالثة ثم قال: اللهم اهد شيبة. قال: فوالله ما رفع يده من صدري في الثالثة حتى ما كان أحد من خلق الله أحبَّ إليَّ منه...

وذكر تمام الحديث، في التقاء الناس وانهزام المسلمين ونداء المسلمين ونداء العباس، واستنصار رسول الله ـ ﷺ ـ حتى هَزَم الله المشركين(١).

قال محمد بن إسحاق: حدثني والدي إسحاق بن يسار، عمن حدثه، عن جُبير بن مطعم ـ رضي الله عنه ـ قال: إنا لمع رسول الله ـ ﷺ ـ يوم حنين، والناس يقتتلون، إذ نظرت إلى مثل البجَاد(٢) الأسود يهوي من السماء، حتى وقع بيننا وبين القوم، فإذا نمل منثور قد ملأ الوادي، فلم يكن إلا هزيمة القوم، فما كنا نشك أنها الملائكة(٣).

وقال سعيد بن السائب بن يسار، عن أبيه قال: سمعت يزيد بن عامر السُّوَائي ـ وكان شهد حنيناً مع المشركين ثم أسلم بعد ـ فكنا نسأله عن الرعب الذي ألقى الله في قلوب المشركين يوم حنين، فكان يأخذ الحصاة فيرمي بها في الطَّسْت فيطنّ، فيقول: كنا نجد في أجوافنا مثل هذا.

وقد تقدم له شاهد من حديث يزيدَ بن أُسَيدٍ، فالله أعلم.

وفي صحيح مسلم، عن محمد بن رافع، عن عبد الرزاق، أنبأنا معمر، عن هَمّام قال: هذا ما حدثنا أبو هريرة قال: قال رسول الله ـ ﷺ ـ: «نُصِرتُ بالرُّعبِ، وأوتِيتُ جوامع الكَلِمِ»(٤).

ولهذا قال تعالى: ﴿ثم أنزل الله سكينته على رسوله وعلى المؤمنين، وأنزل جنوداً لم تروها، وعذب الذين كفروا، وذلك جزاء الكافرين﴾.

وقوله: ﴿ثم يتوب الله من بعد ذلك على من يشاء والله غفور رحيم﴾، قد تاب الله على بقية هوازن، وأسلموا وقدموا عليه مسلمين، ولحقوه وقد قارب مكة عند الجِعِرّانه، وذلك بعد الوقعة بقريب من عشرين يوماً، فعند ذلك خَيَّرهم بين سبيهم وبين أموالهم، فاختاروا سبيهم، وكانوا ستة آلاف أسير ما بين صبي وامرأة، فرده عليهم، وقسم أموالهم بين الغانمين، ونفل أناساً من الطلقاء ليتألف قلوبهم على الإسلام، فأعطاهم مائةً مائةً من الإبل، وكان من جملة من أعطى مائةً مالك بن عوف النَّصْري، واستعمله على قومه كما كان، فامتدحه بقصيدته التي يقول فيها(٥):

مَا إن رَأيتُ ولا سَمِعتُ بمِثْله ... في النَّاس كُلِّهم بمِثْل مُحَمَّدِ
أوْفَى وَأعْطَى للجزيل إذا اجتُدِي ... ومَتى تَشَأ يُخْبِركَ عَمَّا في غَدِ
وإذَا الكتيبة عَرَّدَتْ(٦) أنيابُها ... بالسَّمْهَرِيّ وضَرْب كُلِّ مُهَنَّدِ(٧)
فَكَأنَّه لَيثٌ عَلَى أشْبَالِه ... وَسْطَ الهَبَاءَة(٨) خَادِرٌ في مَرْصَدِ

(١) الدلائل ٥/ ١٤٦.

(٢) أي: الكساء.

(٣) سيرة ابن هشام ٢/ ٤٤٩.

(٤) مسلم، كتاب المساجد ٣٧٢.

(٥) انظر سيرة ابن هشام ٢/ ٤٩١، ودلائل النبوة للبيهقي ٥/ ١٩٩، وأسد الغابة ٥/ ٤٣.

(٦) عَرّدَ الناب يعرِّد عُرُوداً: خرج كلُّه واشتدّ وانتصب. يصف الكتيبة بالشدّة والقوة. والسمهري: الرمح الصليب العود.

(٧) في الدلائل: أمَّ العِدَى فيها بكلِّ مُهَنَّد.

(٨) في الأصل: الصباءة. والمثبت عن السيرة والدلائل.

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِنَّمَا ٱلْمُشْرِكُونَ نَجَسٌ فَلَا يَقْرَبُواْ ٱلْمَسْجِدَ ٱلْحَرَامَ بَعْدَ عَامِهِمْ هَٰذَا ۚ وَإِنْ خِفْتُمْ عَيْلَةً فَسَوْفَ يُغْنِيكُمُ ٱللَّهُ مِن فَضْلِهِۦٓ إِن شَآءَ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴿٢٨﴾ قَٰتِلُواْ ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَلَا بِٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ وَلَا يُحَرِّمُونَ مَا حَرَّمَ ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥ وَلَا يَدِينُونَ دِينَ ٱلْحَقِّ مِنَ ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلْكِتَٰبَ حَتَّىٰ يُعْطُواْ ٱلْجِزْيَةَ عَن يَدٍ وَهُمْ صَٰغِرُونَ ﴿٢٩﴾﴾

أمر تعالى عبادَهُ المؤمنين الطاهرين ديناً وذاتاً بنفي المشركين، الذين هم نَجَس ديناً، عن المسجد الحرام، وَألَّا يقربوه بعد نزول هذه الآية. وكان نزولها في سنة تسع، ولهذا بعث رسول الله ـ ﷺ ـ علياً صحبة أبي بكر ـ رضي الله عنهما ـ عامئذ، وأمره أن ينادي في المشركين: «ألَّا يحج بعد العام مشرك، ولا يطوف بالبيت عريان». فأتم الله ذلك، وحكم به شرعاً وقدراً.

وقال عبد الرزاق: أخبرنا ابن جُريج، أخبرني أبو الزبير، أنه سمع جابر بن عبد الله يقول في قوله تعالى: ﴿إنما المشركون نجس فلا يقربوا المسجد الحرام بعد عامهم هذا﴾: إلا أن يكون عبداً، أو أحداً من أهل الذمة.

وقد رُوِي مرفوعاً من وجه آخر، فقال الإمام أحمد:

حدثنا حُسَين، حدثنا شريك، عن الأشعث ـ يعني ابن سَوَّار ـ عن الحسن، عن جابر قال: قال النبي ـ ﷺ ـ: «لا يدخل مسجدنا بعد عامنا هذا مشرك، إلا أهلَ العهدِ وخَدَمَهم»(١).

تفرد به أحمد مرفوعاً، والموقوف أصح إسناداً.

وقال الإمام أبو عمرو الأوزاعي: كتب عمر بن عبد العزيز رضي الله عنه: أن امنعوا اليهود والنصارى من دخول مساجد المسلمين، وَأَتْبَع نَهيه قولَ الله: ﴿إنما المشركون نجس﴾.

وقال عطاء: الحرم كله مسجد، لقوله تعالى: ﴿فلا يقربوا المسجد الحرام بعد عامهم هذا﴾.

ودلت هذه الآية الكريمة على نجاسة المشرك كما وَرَدَ في الصحيح: «المؤمن لا ينجس»(٢). وأما نجاسة بدنه فالجمهور على أنه ليس بنجس البدن والذات، لأن الله تعالى أحل طعام أهل الكتاب، وذهب بعض الظاهرية إلى نجاسة أبدانهم.

وقال أشعث، عن الحسن: من صافحهم فليتوضأ. رواه ابن جرير.

وقوله: ﴿وإن خفتم عيلة فسوف يغنيكم الله من فضله﴾، قال ابن إسحاق: وذلك أن الناس قالوا: لتنقطعَنّ عنا الأسواق، ولتهلكن التجارة، وليذهبن ما كنا نصيب فيها من المرافق، فنزلت: ﴿وإن خفتم عيلةً فسوف يغنيكم الله من فضله﴾، من وجه غير ذلك. ﴿إن شاء﴾ إلى قوله: ﴿وهم صاغرون﴾، أي: إن هذا عوض ما تخوفتم من قطع تلك الأسواق، فعوّضهم الله مما قُطِعَ بأمر(٣) الشرك، وما أعطاهم من أعناق أهل الكتاب، من الجزية(٤).

(١) مسند الإمام أحمد ٣/ ٣٩٢.
(٢) فتح الباري، كتاب الغسل ١/ ٣٩٠.
(٣) في الأصل: أمر. والمثبت عن السيرة.
(٤) سيرة ابن هشام ٢/ ٥٤٧ ـ ٥٤٨.

وهكذا رُوي عن ابن عباس، ومجاهد، وعكرمة، وسعيد بن جُبير، وقتادة، والضحاك، وغيرهم.

﴿إن الله عليم﴾، أي: بما يصلحكم، ﴿حكيم﴾، أي: فيما يأمر به وينهى عنه، لأنه الكامل في أفعاله وأقواله، العادل في خلقه وأمره، تبارك وتعالى. ولهذا عوضهم عن تلك المكاسب بأموال الجزية التي يأخذونها من أهل الذمة، فقال: ﴿قاتلوا الذين لا يُؤْمِنون بالله ولا باليوم الآخر، ولا يحرمون ما حرم الله ورسوله، ولا يدينون دين الحق من الذين أوتوا الكتاب، حتى يعطوا الجزية عن يد وهم صاغرون﴾. فهم في نفس الأمر لما كفروا بمحمد - صلوات الله وسلامه عليه - لم يبق لهم إيمان صحيح بأحد من الرسل ولا بما جاءُوا به، وإنما يتبعون آراءهم وأهواءهم وآباءهم فيما هم فيه، لا لأنه شرع الله ودينه، لأنهم لو كانوا مؤمنين بما بأيديهم إيماناً صحيحاً، لقادهم ذلك إلى الإيمان بمحمد - صلوات الله عليه - لأن جميع الأنبياء بشروا به، وأمروا باتباعه، فلما جَاءَ كَفَرُوا به، وهو أشرف الرسل، عُلِم أنهم ليسوا متمسكين بشرع الأنبياء الأقدمين لأنه من عند الله، بل لحظوظهم وأهوائهم، فلهذا لا ينفعهم إيمانهم ببقية الأنبياء، وقد كفروا بسيدهم وأفضلهم وخاتمهم وأكملهم، ولهذا قال: ﴿قاتلوا الذين لا يؤمنون بالله ولا باليوم الآخر، ولا يحرمون ما حرم الله ورسوله، ولا يدينون دين الحق من الذين أوتوا الكتاب﴾. وهذه الآية الكريمة نزلت أول الأمر بقتال أهل الكتاب، بعدما تمهدت أمور المشركين ودخل الناس في دين الله أفواجاً. [فلما استقامت][1] جزيرة العرب أمر الله رسوله بقتال أهل الكتابين اليهود والنصارى، وكان ذلك في سنة تسع، ولهذا تجهز رسول الله - ﷺ - لقتال الروم، ودعا الناس إلى ذلك، وأظهره لهم، وبعث إلى أحياء العرب حول المدينة فندبهم، فَأَوْعَبوا[2] معه، واجتمع من المقاتلة نحو ثلاثين ألفاً، وتخلف بعضُ الناس من أهل المدينة ومن حولها من المنافقين وغيرهم، وكان ذلك في عام جدب، ووقت قيظ وحر، وخرج عليه السلام يريد الشام لقتال الروم، فبلغ تبوك فنزل بها وأقام على مائها قريباً من عشرين يوماً، ثم استخار الله في الرجوع، فرجع عامه ذلك لضيق الحال وضعف الناس، كما سيأتي بيانه بعد إن شاء الله.

وقد استدَلّ بهذه الآية الكريمة مَن يرى أنه لا تؤخذ الجزية إلا من أهل الكتاب، أو من أشبههم كالمجوس، لما صح فيهم الحديث أن رسول الله - ﷺ - أخذها من مجوس هجر. وهذا مذهب الشافعي، وأحمد - في المشهور عنه - وقال أبو حنيفة رحمه الله: بل تؤخذ من جميع الأعاجم، سواء كانوا من أهل الكتاب أو من المشركين، ولا تؤخذ من العرب إلا من أهل الكتاب.

وقال الإمام مالك: بل يجوز أن تضرب الجزية على جميع الكفار من كتابيّ، ومجوسي، ووثني، وغير ذلك. ولمأخذ هذه المذاهب وذكر أدلتها مكان غير هذا، والله أعلم.

وقوله: ﴿حتى يعطوا الجزية﴾ أي: إن لم يسلموا، ﴿عن يد﴾، أي: عن قهر لهم وغلبة، ﴿وهم صاغرون﴾، أي: ذليلون حقيرون مهانون. فلهذا لا يجوز إعزاز أهل الذمة ولا رفعهم على المسلمين، بل هم أذلاء صَغَرة أشقياء، كما جاء في صحيح مسلم، عن أبي هُرَيرة - رضي الله عنه - أن النبي - ﷺ - قال: «لا تبدءُوا اليهودَ والنَّصارى بالسلام، وإذا لَقِيتُم أحدَهم في طريقٍ فاضطَرُّوه إلى أضيقه»[3]. ولهذا اشترط عليهم أمير المؤمنين عمر بن الخطاب - رضي الله عنه - تلك الشروط المعلومة في إذلالهم وتصغيرهم

(١) في الأصل: «فاستقامت».
(٢) أي: جاءوا أجمعين.
(٣) مسلم، كتاب السلام ١٧٠٧.

وتحقيرهم، وذلك مما رواه الأئمة الحفاظ، من رواية عبد الرحمن بن غَنْم الأشعري قال: كتبتُ لعمَر بن الخطاب ـ رضي الله عنه ـ حين صالح نصارى من أهل الشام: بسم الله الرحمن الرحيم، هذا كتاب لعبد الله عمر أمير المؤمنين من نصارى مدينة كذا وكذا، إنكم لما قدمتم علينا سألناكم الأمان لأنفسنا وذرارينا، وأموالنا وأهل ملتنا وشرطنا لكم على أنفسنا ألا نُحْدِث في مدينتنا ولا فيما حولها ديراً ولا كنيسة، ولا قَلَّايَةً[1] ولا صومعة راهب، ولا نجدِّد ما خَرِبَ منها، ولا نحيي منها ما كان خِطَط المسلمين، وألاّ نمنع كنائسنا أن ينزلها أحد من المسلمين في ليل ولا نهار، وأن نوسع أبوابها للمارة وابن السبيل، وأن ينزل من مر بنا من المسلمين ثلاثة أيام نطعمهم، ولا نُؤْوِي في كنائسنا ولا منازلنا جاسُوساً، ولا نَكْتُم غشاً للمسلمين، ولا نُعَلِّم أولادنا القرآن، ولا نُظْهِرَ شركاً، ولا ندعو إليه أحداً، ولا نمنع أحداً من ذوي قرابتنا الدخول في الإسلام إن أرادوه، وأن نُوَقِّر المسلمين، وأن نَقُومَ لهم من مجالسنا إن أرادوا الجلوس، ولا نَتَشَبَّه بهم في شيءٍ من ملابسهم، في قلنسوة، ولا عمامة، ولا نعلين، ولا فرق شعر، ولا نتكلم بكلامهم، ولا نكتني بكُنَاهم، ولا نَرْكَب السروج، ولا نتقلَّد السيوف، ولا نَتَّخذ شيئاً من السلاح، ولا نحمله معنا، ولا نَنْقُش خواتمنا بالعربية، ولا نبيع الخمور. وأن نَجُزّ مقاديم رءُوسنا، وأن نَلْزَم زِيَّنا حيثما كنا، وأن نَشُدَّ الزنانير على أوساطنا، وألا نظهر الصليب على كنائسنا، وألاّ نظهر صُلُبَنا ولا كُتُبَنا في شيء من طريق المسلمين ولا أسواقهم، ولا نضرب نواقيسنا في كنائسنا إلا ضرباً خفيّاً، وألا نرفع أصواتنا بالقراءة في كنائسنا في شيء من حضرة المسلمين، ولا نخرج سعانين[2] ولا باعوثا، ولا نرفع أصواتنا مع موتانا، ولا نظهر النيران معهم في شيء من طرق المسلمين ولا أسواقهم، ولا نجاورهم بموتانا، ولا نتخذ من الرقيق ما جرى عليه سهام المسلمين، وأن نُرْشِد المسلمين، ولا نَطَّلعَ عليهم في منازلهم.

قال: فلما أتيت عمر بالكتاب، زاد فيه: ولا نَضْرب أحداً من المسلمين، شرطنا لكم ذلك على أنفسنا وأهل ملتنا، وقبلنا عليه الأمان، فإن نحن خالفنا في شيء مما شرطناه لكم وَوَظَّفْنا[3] على أنفسنا، فلا ذمة لنا، وقد حل لكم منا ما يحل من أهل المعاندة والشقاق.

﴿وَقَالَتِ ٱلْيَهُودُ عُزَيْرٌ ٱبْنُ ٱللَّهِ وَقَالَتِ ٱلنَّصَٰرَى ٱلْمَسِيحُ ٱبْنُ ٱللَّهِ ۖ ذَٰلِكَ قَوْلُهُم بِأَفْوَٰهِهِمْ ۖ يُضَٰهِـُٔونَ قَوْلَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِن قَبْلُ ۚ قَٰتَلَهُمُ ٱللَّهُ ۚ أَنَّىٰ يُؤْفَكُونَ ﴿٣٠﴾ ٱتَّخَذُوٓا۟ أَحْبَارَهُمْ وَرُهْبَٰنَهُمْ أَرْبَابًا مِّن دُونِ ٱللَّهِ وَٱلْمَسِيحَ ٱبْنَ مَرْيَمَ وَمَآ أُمِرُوٓا۟ إِلَّا لِيَعْبُدُوٓا۟ إِلَٰهًا وَٰحِدًا ۖ لَّآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ۚ سُبْحَٰنَهُۥ عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴿٣١﴾﴾

وهذا إغراء من الله ـ تعالى ـ للمؤمنين على قتال المشركين الكفار من اليهود والنصارى، لمقالتهم هذه المقالةَ الشنيعةَ، والفرْية على الله تعالى، فأما اليهودُ فقالوا في العُزَير: «إنه ابن الله»، تعالى عن ذلك عُلُوّاً كَبيراً. وذكر السدِّيُّ وغيرُه أن الشبهة التي حَصَلت لهم في ذلك، أن العمالقة لما غَلَبت على بني إسرائيل، فقتلوا عُلَماءهم وسَلَبُوا كبارهم، بقي العُزَير يبكي على بني إسرائيل وذَهاب العِلْم منهم، حتى سَقَطت جُفُون عينيه، فبينا هو ذات يوم إذ مَرَّ على جبانة، وإذا امرأةٌ تبكي عند قبر وهي تقول: وامطعماه! واكاسياه! فقال لها:

---

(١) القلاَّية: مُعَرّب كَلاَّدة، وهي عند النصارى من بيوت عبادتهم.
(٢) سعانين: عيد معروف عند النصارى قبل عيدهم الكبير بأسبوع. وقيل: هو جمع واحده سعنون. والباعوث: استسقاء النصارى.
(٣) أي: ألزمناها به.

ويلك، ويحك! من كان يطعمك قبل هذا؟ قالت: الله. قال: فإن الله حي لا يموت! قالت: يا عُزَير فمن كان يعلِّم العلماءَ قبل بني إسرائيل؟ قال: الله. قالت: فلم تبكي عليهم؟، فَعَرَفَ أنه شيء قد وُعِظ به. ثم قيل له: اذهب إلى نهر كذا فاغتسل منه، وصَلِّ هناك ركعتين، فإنك ستلقى هناك شيخاً، فما أطعمك فكله. فذهب ففعل ما أمر به، فإذا شيخ فقال له: افتح فمك. ففتح فمه، فألقى فيه شيئاً كهيئة الجَمْرَةِ العظيمة، ثلاث مرَّات، فرجع عُزَير وهو من أعلم الناس بالتوراة، فقال: يا بني إسرائيل، قد جئتكم بالتوراة. فقالوا: يا عُزَير، ما كنت كَذَّاباً. فعمد فَرَبط على إصبع من أصابعه قلماً، وكتب التوراة بأصبعه كلها، فلما تراجع الناس من عَدُوّهم ورجع العلماء، أخبروا بشأن عُزَير، فاستخرجوا النسخ التي كانوا أودعوها في الجبال، وقابلوها بها، فوجدوا ما جاء به صحيحاً، فقال بعضُ جَهَلَتِهم: إنما صَنَعَ هذا لأنه ابنُ الله[1].

وأما ضلالُ النصارى في المسيح فظاهر، ولهذا كَذَّب الله سبحانه الطائفتين فقال: ﴿ذلك قولهم بأفواههم﴾، أي: لا مستند لهم فيما ادعوه سوى افترائهم واختلاقهم، ﴿يضاهئون﴾، أي: يشابهون ﴿قول الذين كفروا من قبل﴾، أي: من قبلهم من الأمم، ضلوا كما ضل هؤلاء، ﴿قاتلهم الله﴾ ـ قال ابن عباس: لعنهم الله، ﴿أنى يؤفكون﴾، أي: كيف يضلون عن الحق، وهو ظاهر، ويعدلون إلى الباطل؟!.

﴿اتخذوا أحبارهم ورهبانهم أرباباً من دون الله والمسيح ابن مريم﴾. روى الإمام أحمد، والترمذي، وابنُ جرير من طرق، عن عَدِيّ بن حاتم ـ رضي الله عنه ـ: أنه لما بلغته دعوةُ رسول الله ـ ﷺ ـ فَرَّ إلى الشام، وكان قد تنصر في الجاهلية، فأُسِرَتْ أختُه وجماعة من قومه، ثم مَنَّ رسول الله ـ ﷺ ـ على أخته وأعطاها، فرجَعَتْ إلى أخيها، ورَغَّبته في الإسلام وفي القدوم على رسول الله ﷺ، فقدم عَدِيّ المدينةَ، وكان رئيساً في قومه طَيِّىء، وأبوه حاتم الطائي المشهور بالكرم، فتحدّث الناس بقدومه، فدخل على رسول الله ـ ﷺ ـ وفي عُنُق عَدِيّ صَلِيبٌ من فضة، فقرأ رسول الله ـ ﷺ ـ هذه الآية: ﴿اتخذوا أحبارهم ورهبانهم أرباباً من دون الله﴾، قال: فقلت: إنهم لم يعبدوهم. فقال: بلى، إنهم حَرَّموا عليهم الحلال، وأَحَلُّوا لهم الحرام، فاتبعوهم، فذلك عبادتهم إياهم». وقال رسولُ الله ـ ﷺ ـ: يا عَدِيُّ، ما تقول؟ أَيُفِرُّكَ؟ أَيُفِرُّكَ[2] أن يُقالَ: «الله أكبر»؟ فهل تعلم شيئاً أكبر من الله؟ما يُفِرّكَ؟أيفِرّك أن يقال: لا إِلَه إلا الله؟ فهل تعلم من إِلَه إلا الله؟ثم دعاه إلى الإسلام فأسلم، وشهد شهادة الحق، قال: فلقد رأيتُ وجهه استبشر ثم قال: «إن اليهود مغضوب عليهم، والنصارى ضالون»[3].

وهكذا قال حذيفة بن اليمان، وعبد الله بن عباس، وغيرهما في تفسير: ﴿اتخذوا أحبارهم ورهبانهم أرباباً من دون الله﴾: إنهم اتبعوهم فيما حللوا وحرموا.

وقال السدّيُّ: استنصحوا الرجالَ، وتركوا كتابَ الله وراء ظهورهم.

ولهذا قال تعالى: ﴿وما أمروا إلا ليعبدوا إلَهاً واحداً﴾، أي: الذي إذا حَرَّم الشيء فهو الحرام، وما حَلَّله حلّ، وما شَرَعه اتُّبِعَ، وما حَكَم به نَفَذ.

﴿لا إِلَه إلا هو سبحانه عما يشركون﴾، أي: تعالى وتقدَّسَ وتنزَّهَ عن الشركاء والنظراء والأعوان والأضداد والأولاد، لا إِلَه إلا هُوَ، ولا ربَّ سواه.

---

(١) تفسير الطبري ١٠/ ١١١ ـ ١١٢.

(٢) أي: أيحملك على الفرار والهرب أن يقال: الله أكبر؟

(٣) مسند الإمام أحمد ٤/ ٣٧٨ ـ ٣٧٩، وتحفة الأحوذي، تفسير سورة التوبة ٨/ ٤٩٢ ـ ٤٩٤.

﴿يُرِيدُونَ أَن يُطْفِـُٔوا۟ نُورَ ٱللَّهِ بِأَفْوَٰهِهِمْ وَيَأْبَى ٱللَّهُ إِلَّآ أَن يُتِمَّ نُورَهُۥ وَلَوْ كَرِهَ ٱلْكَـٰفِرُونَ ﴿٣٢﴾ هُوَ ٱلَّذِىٓ أَرْسَلَ رَسُولَهُۥ بِٱلْهُدَىٰ وَدِينِ ٱلْحَقِّ لِيُظْهِرَهُۥ عَلَى ٱلدِّينِ كُلِّهِۦ وَلَوْ كَرِهَ ٱلْمُشْرِكُونَ ﴿٣٣﴾﴾

يقول تعالى: يريدُ هؤلاءِ الكفارُ من المشركين-وأهل الكتابِ ﴿أن يُطفئوا نور الله﴾، أي: ما بعثَ به رسوله من الهدي ودين الحق، بمجرَّد جدالهم وافترائهم، فمثلُهم في ذلك كمَثَل من يُريدُ أن يطفىء شعاع الشمس، أو نور القمر بنَفْخِه، وهذا لا سبيل إليه، فكذلك ما أرسل الله به رسوله لا بُدَّ أن يتمَّ ويظهرَ، ولهذا قال - تعالى - مقابلاً لهم فيما راموه وأرادوه: ﴿ويأبى الله إلا أن يتم نوره ولو كره الكافرون﴾.

والكافر: هو الذي يستُرُ الشيءَ ويُغطِّيه، ومنه سُمِّي الليل كافراً، لأنه يسترُ الأشياء، والزارع كافراً، لأنه يغطي الحَبَّ في الأرض، كما قال: ﴿يعجب الكفار نباته﴾.

ثم قال تعالى: ﴿هو الذي أرسل رسوله بالهدى ودين الحق﴾، فالهدى: هو ما جاء به من الإخبارات الصادقة، والإيمان الصحيح، والعلم النافع. ودين الحق: هي الأعمال الصحيحة النافعةُ في الدنيا والآخرة.

﴿ليظهره على الدين كله﴾، أي: على سائر الأديان، كما ثَبَت في الصحيح، عن رسول الله - ﷺ - أنه قال: إن الله زَوَى[1] لي الأرضَ مشارقَها ومغاربَها، وسيبلغ ملكُ أُمّتي ما زُوِيَ لي منها»[2].

وقال الإمام أحمد: حدثنا محمد بن جعفر، حدثنا شعبة، عن محمد بن أبي يعقوب: سمعت شقيق بن حيان يحدث عن مسعود بن قَبيصة - أو: قبيصة بن مسعود - يقول: صَلَّى هذا الحيُّ من «مُحَارِبٍ» الصبح، فلما صَلُّوا قال شابٌ منهم: سمعت رسول الله - ﷺ - يقول: إنه سيُفْتَح لكم مشارق الأرض ومغاربها، وإنَّ عمالها في النار، إلا من اتقى الله وأدى الأمانة»[3].

وقال الإمام أحمد: حدثنا أبو المغيرة، حدثنا صفوان، حدثنا سليم بن عامر، عن تميم الداري - رضي الله عنه - قال: سمعت رسول الله - ﷺ - يقول: «ليبلغَنَّ هذا الأمرُ ما بَلَغَ الليلُ والنهار، ولا يترك الله بيتَ مَدَر ولا وَبَر إلا أدخله هذا الدينَ، بعزِّ عزيزٍ، أو بذلِّ ذليلٍ، عِزّاً يُعِزُّ الله به الإسلام، وذُلّاً يُذِلُّ الله به الكفر» - فكان تميم الداريُّ يقول: «قد عرفتُ ذلك في أهل بيتي، لقد أصاب من أسلم منهم الخيرَ والشرفَ والعزَّ، ولقد أصاب من كان منهم كافراً الذلَّ والصغارَ والجزيةَ»[4].

وقال الإمام أحمد: حدثنا يزيد بن عبد ربِّه، حدثنا الوليد بن مسلم، حدثني ابن جابر، سمعتُ سُلَيم بن عامر قال: سمعت المقداد بن الأسود يقول: سَمِعْتُ رسولَ الله - ﷺ - يقول: «لا يبقى على ظَهْر الأرض بيتُ مَدَر ولا وَبَر، إلا أدخله الله كلمة الإسلام بعزِّ عزيزٍ، أو ذُلِّ ذليل، إما يُعِزُّهم الله فيجعلهم من أهلها، وإما يُذِلُّهم فَيَدِينُون لها»[5].

وفي المسند أيضاً: حدثنا محمد بن أبي عديٍّ، عن ابن عَونٍ، عن ابن سيرين، عن ابن حُذَيفة، عن عَديِّ بن حاتم سَمِعه يقول: دخلتُ على رسول الله - ﷺ فقال: يا عدي،

---

(١) زَوَى: جمع.

(٢) مسلم، كتاب الفتن ٢٢١٥.

(٣) مسند الإمام أحمد ٥/ ٣٦٦ - ٣٦٧.

(٤) المسند ٤/ ١٠٣.

(٥) المسند ٦/ ٤.

أسلم تسلم. فقلت: إني من أهل دين. قال: أنا أعلم بدينك منك. فقلت: أنت أعلم بديني مني؟! قال: نعم، ألست من الرَّكوسية(١)، وأنت تأكل مرباع قومك؟. قلت: بلى. قال: فإن هذا لا يحل لك في دينك. قال: فلم يَعْدُ أن قالها فتواضعت لها، قال: أما إني أعلم ما الذي يمنعك من الإسلام، تقول: إنما اتبعه ضَعَفَةُ الناس ومن لا قوة له، وقد رمتهم العرب، أتعرف الحيرة؟ قلت: لم أرها، وقد سمعت بها. قال: فوالذي نفسي بيده ليتمَّن الله هذا الأمر حتى تخرج الظعينة من الحيرة، حتى تطوف بالبيت في غير جوار أحد، وَلَتُفتَحَنَّ كنوزُ كسرى بن هرمز. قلت: كسرى بن هُرْمُزَ؟! قال: نعم، كسرى بن هُرْمُزَ، وليُبْذَلنّ المال حتى لا يقبله أحد ـ قال: عَدِيّ بن حاتم: فهذه الظَّعِينة تخرجُ من الحيرة، فتطوف بالبيت في غير جوار أحد، ولقد كنت فيمن فتح كنوز كسرى بن هرمز، والذي نفسي بيده لتكونن الثالثة، لأن رسول الله ـ ﷺ ـ قد قالها(٢).

وقال مسلم(٣): حدثنا أبو معن زيد بن يزيد الرَّقَاشِيّ، حدثنا خالد بن الحارث، حدثنا عبد الحميد بن جعفر، عن الأسود بن العلاء، عن أبي سَلَمَة، عن عائشة ـ رضي الله عنها ـ قالت: سَمِعتُ رسولَ الله ـ ﷺ ـ يقول: لا يذهبُ الليل والنهار حتى تُعبَدَ اللاتُ والعُزّى. فقلت: يا رسول الله، إن كنتُ لأظنُّ حين أنزل الله عز وجل: ﴿هو الذي أرسل رسوله بالهدى ودين الحق﴾، إلى قوله: ﴿ولو كره المشركون﴾ أن ذلك تام، قال: إنه سيكون من ذلك ما شاء الله عز وجل، ثم يبعثُ الله ريحاً طَيِّبة [(٤)فتوفَّى كُلَّ من كان في قلبه مثقال حَبَّةُ خردلٍ من إيمان(٤)]، فيبقَى من لا خير فيه، فيرجعون إلى دين آبائهم».

﴿ ۞ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِنَّ كَثِيرٗا مِّنَ ٱلۡأَحۡبَارِ وَٱلرُّهۡبَانِ لَيَأۡكُلُونَ أَمۡوَٰلَ ٱلنَّاسِ بِٱلۡبَٰطِلِ وَيَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِۗ وَٱلَّذِينَ يَكۡنِزُونَ ٱلذَّهَبَ وَٱلۡفِضَّةَ وَلَا يُنفِقُونَهَا فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ فَبَشِّرۡهُم بِعَذَابٍ أَلِيمٖ ﴿٣٤﴾ يَوۡمَ يُحۡمَىٰ عَلَيۡهَا فِي نَارِ جَهَنَّمَ فَتُكۡوَىٰ بِهَا جِبَاهُهُمۡ وَجُنُوبُهُمۡ وَظُهُورُهُمۡۖ هَٰذَا مَا كَنَزۡتُمۡ لِأَنفُسِكُمۡ فَذُوقُواْ مَا كُنتُمۡ تَكۡنِزُونَ ﴿٣٥﴾ ﴾

قال السدي: «الأحبار من اليهود، والرهبان من النصارى».

وهو كما قال، فإن الأحبار هم علماءُ اليهود، كما قال تعالى: ﴿لولا ينهاهم الربانيون والأحبار عن قولهم الإثم وأكلهم السحت﴾، والرهبان: عباد النصارى، والقسّيسون علماؤهم، كما قال تعالى: ﴿ذلك بأن منهم قسيسين ورهباناً وأنهم لا يستكبرون﴾.

والمقصودُ: التحذيرُ من علماءِ السوءِ وعُبَّاد الضلال، كما قال سفيان بن عُيَينة: «من فَسَد من علمائنا كان فيه شَبَهٌ من اليهود، ومن فسد من عُبَّادنا كان فيه شَبَهٌ من النصارى». وفي الحديث الصحيح: «لتركبُنّ سَنَنَ من كان قبلكم حَذْو القُذَّة بالقُذَّة. قالوا: اليهود والنصارى؟ قال: فمن؟ ـ وفي رواية: فارس والروم؟ قال: وَمَن الناس إلا هؤلاء؟»(٥).

(١) الرَّكُوسِيَّةُ: قوم لهم دينٌ بين النصارى والمجوسيَّة. وعن ابن الأعرابيِّ قال: هذا من نعت النصارى.
(٢) مسند الإمام أحمد ٣٧٧/٤ ـ ٣٧٨. وانظر أيضاً ٢٥٧/٤.
(٣) مسلم، كتاب الفتح ٢٢٣٠.
(٤) عن مسلم. وتوفَّى: أصله تَتَوفَّى، فَحُذِفَت إحدى التاءين.
(٥) انظر فتح الباري، كتاب الاعتصام ١٣/ ٣٠٠، ومسند الإمام أحمد ٤/ ٢٥. والقذة واحدة القُذَذِ، وهي: ريشُ السهم. وكل واحدة من ريش السهم تقدر بحسب صاحبتها وتقطع. يضرب مثلاً للشيئين المستويين.

والحاصلُ التحذيرُ من التشبه بهم في أحوالهم وأقوالهم، ولهذا قال تعالى: ﴿ليأكلون أموال الناس بالباطل﴾، وذلك أنهم يأكلون الدنيا بالدين ومناصبِهم ورياستِهم في الناس، يأكلون أموالهم بذلك، كما كان لأحبار اليهود على أهل الجاهلية شرفٌ، ولهم عندهم خَرْج(١) وهدايا وضرائب تجيء إليهم، فلما بَعَث الله رسوله ـ صلواتُ الله وسلامُه عليه ـ استمرُّوا على ضلالهم وكفرهم وعنادهم، طمعاً منهم أن تبقى لهم تلك الرياسات، فأطفأها الله بنورِ النبوة، وسَلَبهم إياها، وعوَّضَهم بالذلة والمسكنة، وَبَاءُوا بِغَضبٍ من الله.

وقولُه تعالى: ﴿ويصدون عن سبيل الله﴾، أي: وهم مع أكلهم الحرام يصدّون الناس عن اتباع الحق، ويَلبسون الحق بالباطل، ويظهرون لمن اتبعهم من الجهلة أنهم يدعون إلى الخير، وليسوا كما يزعمون، بل هم دعاة إلى النار، ويوم القيامة لا ينصرون.

وقوله: ﴿والذين يكنِزُون الذهب والفضة ولا ينفقونها في سبيل الله فبشرهم بعذاب أليم﴾، هؤلاء هم القسم الثالث من رءُوس الناس، فإن الناس عالة على العلماء، وعلى العُبَّاد، وعلى أرباب الأموال، فإذا فَسَدت أحوالُ هؤلاء فَسَدت أحوالُ الناس، كما قال بعضهم:

وَهَلْ أَفْسَدَ الدِّينَ إلاَّ المُلُوكُ وَأحبارُ سُوءٍ وَرُهْبَانُها؟

وأما الكنز فقال مالك، عن عبد الله بن دينار، عن ابن عمر أنه قال: هو المال الذي لا تؤدى منه الزكاة.

ورُوِي عن الثوري وغيره عن عُبَيد الله، عن نافع، عن ابن عمر قال: «ما أُدِّي زكاتُه فليس بكنز، وإن كان تحت سَبْعِ أرضين، وما كان ظاهِراً لا تؤدَّى زكاته فهو كنز».

وقد رُوِي هذا عن ابن عباس، وجابر، وأبي هُرَيرة موقوفاً ومرفوعاً، وعمر بن الخطاب، نحوه ـ رضي الله عنهم ـ: أيما مال أدّيت زكاته فليس بكنز، وإن كان مدفوناً في الأرض، وأيما مال لم تؤد زكاته فهو كنز يكوى به صاحبه وإن كان على وجه الأرض.

ورَوَى البخاري من حديث الزُّهْرِيِّ، عن خالد بن أسلَم قال: خرجنا مع عبد الله بن عُمَر، فقال: هذا قبل أن تنزل الزكاة؛ فلما نزلت جعلها الله طُهراً للأموال(٢).

وكذا قال عمر بن عبد العزيز، وعِرَاكُ بن مالك: نسخها قوله تعالى: ﴿خذ من أموالهم﴾.

وقال سعيد، عن محمد بن زياد، عن أبي أمامة أنه قال: حلية السيوف من الكنز، ما أُحَدِّثكم إلا ما سمعت».

وقال الثوري، عن أبي حصين، عن أبي الضحى، عن جَعْدَةَ بن هُبَيرة، عن علي ـ رضي الله عنه ـ قال: أربعة آلاف فما دونها نفقةٌ، فما كان أكثرَ منه فهو كنزٌ.

وهذا غريب. وقد جاء في مدح التقلُّل من الذهبِ والفضةِ وذم التكثُرِ منهما، أحاديثُ كثيرةٌ؛ وَلْنُورِدْ منها هنا طرفاً يدل على الباقي، فقال عبد الرزاق:

أخبرنا الثوري، أخبرني أبو حُصَين، عن أبي الضحى، عن جَعْدة بن هُبَيرة، عن علي ـ رضي الله عنه ـ في قوله: ﴿والذين يكنزون الذهب والفضة ولا ينفقونها في سبيل الله﴾، قال النبي ـ ﷺ ـ: تبًّا للذهب تبًّا

---

(١) هو ما يخرجه القوم في السنة من مالهم بقدر معلوم.

(٢) فتح الباري، كتاب الزكاة ٣/ ٢٧١، وتفسير سورة التوبة ٨/ ٣٢٤.

للفضة، يقولها ثلاثاً، قال: فشق ذلك على أصحاب رسول الله ـ ﷺ ـ وقالوا: فَأَيّ مال نتخذ؟ فقال عمر ـ رضي الله عنه ـ: أنا أعلم لكم ذلك، فقال: يا رسول الله، إن أصحابك قد شق عليهم، قالوا: فَأَيَّ المال نتخذ؟ قال: لساناً ذاكراً، وقلباً شاكراً، وزوجة تعين أحدكم على دينه.

حديث آخر، قال الإمام أحمد:

حدثنا محمد بن جعفر، حدثنا شعبة، حدثني سالم، حدثني عبد الله بن أبي الهُذَيل، حدثني صاحب لي أن رسول الله ـ ﷺ ـ قال: تباً للذهب والفضة ـ قال: فحدثني صاحبي أنه انطلق مع عمر بن الخطاب فقال: يا رسول الله، قولك: تباً للذهب والفضة، ماذا نذّخر[١]؟ قال رسول الله ـ ﷺ ـ: لساناً ذاكراً، وقلباً شاكراً، وزوجة تُعين على الآخرة.

حديث آخر، قال الإمام أحمد:

حدثنا وكيع، حدثنا عبد الله بن عمرو بن مُرَّةَ، عن أبيه، عن سالم بن أبي الجعد، عن ثَوبان قال: لما نزل في الفضة والذهب ما نزل قالوا: فَأَيَّ المال نتخذ؟ قال [عُمَرُ][٢]: أنا أعلم ذلك لكم. فأوضع على بعير فأدركه، وأنا في أثره، فقال: يا رسول الله، أيَّ المال نتخذ؟ قال: ليتخذ أحدكم قلباً شاكراً، ولساناً ذاكراً، وزوجة تعين أحدكم على أمر الآخرة»[٣].

ورواه الترمذي، وابن ماجه، من غير وجه، عن سالم بن أبي الجعد، وقال الترمذي: حسن، وحكى عن البخاري أن سالماً لم يسمعه من ثوبان[٤].

قلت: ولهذا رواه بعضهم عنه مرسلاً، والله أعلم.

حديث آخر، قال ابن أبي حاتم: حدثنا حميد بن مالك، حدثنا يحيى بن يعلى المحاربي، حدثنا أبي، حدثنا غيلان بن جامع المحاربي، عن عثمان[٥] أبي اليقظان، عن جعفر بن إياس، عن مجاهد، عن ابن عباس قال: لما نزلت هذه الآيةُ: ﴿والذين يكنِزُون الذَّهَبَ والفضَّةَ﴾... الآية، كَبُر ذلك على المسلمين، وقالوا: ما يستطيع أحد منا أن يترك لولده مالاً يبقى بعده. فقال عمر: أنا أفرّج عنكم. فانطلق عمر واتبعه ثوبان، فأتى النبيّ ـ ﷺ ـ فقال: يا نبي الله، إنه قد كَبُر على أصحابك هذه الآيةُ. فقال نبيُّ الله ـ ﷺ ـ: إن الله لم يفرض الزكاة إلا ليطيب بها ما بقي من أموالكم، وإنما فَرَضَ المواريث من أموال تبقى بعدكم. قال: فكبَّر عمر، ثم قال له النبي ـ ﷺ ـ: ألا أخبرك بخيرِ ما يكنز المرءُ؟ المرأةُ الصالحةُ التي إذا نَظَر إليها سَرّته، وإذا أمَرها أطاعته، وإذا غاب عنها حَفِظَتْه».

ورواه أبو داودَ، والحاكم في مستدركه، وابن مَرْدُويه من حديث يحيى بن يَعْلَى، بـه. وقال الحاكم: صحيحٌ على شرطهما، ولم يخرجاه[٦].

---

(١) في المسند ٥/٣٦٦: ماذا. دون كلمة «نَدَّخِرُ».
(٢) عن المسند.
(٣) المسند ٥/ ٢٨٢.
(٤) تحفة الأحوذي، تفسير سورة التوبة ٨/ ٤٩١ ـ ٤٩٢، وابن ماجه، كتاب النكاح ١/ ٥٩٦.
(٥) في الأصل: عثمان بن أبي اليقظان. والصواب ما أثبت، انظر تهذيب التهذيب ٧/ ١٤٥.
(٦) سنن أبي داود، كتاب الزكاة ٢/ ١٢٦، والمستدرك، تفسير سورة التوبة ٢/٣٣٣.

حديث آخر، قال الإمام أحمد:

حدثنا روح حدثنا الأوزاعي، عن حسان بن عطية قال: كان شداد بن أوس ـ رضي الله عنه ـ في سَفَر، فنزل منزلاً، فقال لغلامه: ائتنا بالشَّفرَة[١] نعبث بها. فأنكرت عليه، فقال: ما تكلمت بكلمة منذ أسلمت إلا وأنا أخْطِمُها[٢] وأزمُّها غير كلمتي هذه، فلا تحفظوها علي، واحفظوا ما أقول لكم: سمعت رسول الله ـ ﷺ ـ يقول: إذا كنز الناسُ الذهبَ والفضةَ فاكنزوا هؤلاء الكلمات: اللهم إني أسألك الثبات في الأمر، والعزيمة على الرشد، وأسألك شكر نعمتك، وأسألك حسن عبادتك، وأسألك قلباً سليماً، وأسألك لساناً صادقاً، وأسألك من خير ما تعلم، وأعوذ بك من شر ما تعلم، وأستغفرك لما تعلم، إنك أنت علام الغيوب»[٣].

وقولَه تعالى: ﴿يوم يُحمَى عليها في نار جهنم فتكوى بها جباههم وجنوبهم وظهورهم، هذا ما كنزتم لأنفسكم، فذوقوا ما كنتم تكنزون﴾، أي: يقال لهم هذا الكلامُ تبكيتاً وتقريعاً وتهكُّماً، كما في قوله: ﴿ثم صبوا فوق رأسه من عذاب الحميم. ذق إنك أنت العزيز الكريم﴾، أي: هذا بذاك، وهو الذي كنتم تكنزون لأنفسكم. ولهذا يقال: من أحبَّ شيئاً وقدَّمه على طاعة الله، عُذب به. وهؤلاء لما كان جمع هذه الأموال آثر عندهم من رضا الله عنهم، عذبوا بها، كما كان أبو لهب لعنه الله جاهداً في عداوة الرسول ـ ﷺ ـ وامرأته تعينه في ذلك، كانت يوم القيامة عَوناً على عذابه أيضاً ﴿في جيدها﴾، أي: عنقها ﴿حبل من مسد﴾، أي: تجمع من الحطب في النار وتلقي عليه، ليكون ذلك أبلغ في عذابه ممن هو أشفق عليه ـ كان ـ في الدنيا، كما أن هذه الأموال لما كانت أعز الأشياء على أربابها، كانت أضر الأشياء عليهم في الدار الآخرة، فيحمى عليها في نار جهنم، وناهيك بحرها، فتكوى بها جباههم وجنوبهم وظهورهم.

قال سفيان، عن الأعمش، عن عبد الله بن مُرَّة، عن مسروق، عن عبد الله بن مسعود: والله الذي لا إله غيره، لا يكوى عبد بكنز، فَيَمَسُّ دينار ديناراً، ولا درهمٌ درهماً، ولكن يوسَّع جلده، فيوضع كل دينار ودرهم على حدته.

وقد رواه ابن مرْدُويه، عن أبي هريرة مرفوعاً، ولا يصح رفعه، والله أعلم.

وقال عبد الرزاق: أخبرنا معمر، عن ابن طاوس، عن أبيه قال: بلغني أن الكنز يتحول يوم القيامة شُجَاعاً[٤] يتبع صاحبه، وهو يفر منه ويقول: أنا كنزك! لا يدرك منه شيئاً إلا أخذه.

وقال الإمام أبو جعفر بن جرير: حدثنا بشر، حدثنا يزيد، حدثنا سعيد، عن قتادة، عن سالم بن أبي الجعد، عن معدان بن أبي طلحة، عن ثوبانَ أن نبيَّ الله ـ ﷺ ـ كان يقول: من ترك بعده كنزاً مَثل له يوم القيامة شُجاعاً أقرع له زبيبَتان، يتبعه، يقول: ويلك ما أنت؟ فيقول: أنا كنزك الذي تركته بعدك! ولا يزال يتبعه حتى يُلقمه يده فَيُقَصْقِصَها[٥] ثم يتبعه سائر جسده».

ورواه ابن حبان في صحيحه، من حديث يزيد، عن سعيد، به. وأصلُ هذا الحديث في الصَّحِيحين من رواية أبي الزناد، عن الأعرج، عن أبي هُرَيرة رضي الله عنه[٦].

---

(١) الشَّفرَةُ والشُّفيرةُ: التي تقنع من النكاح بأيسره، وهي نقيض القَعيرَة.

(٢) أي: أربطها. يريد الاحتياط فيما يقوله.

(٣) مسند الإمام أحمد ٤/ ١٢٣.

(٤) أي: حية.

(٥) قصقص الشيء: كسره. وفي تفسير الطبري: فيقضمها.

(٦) الإحسان بترتيب صحيح ابن حبان، كتاب الزكاة ١٠٦/٥، وفتح الباري، تفسير سورة التوبة ٣٢٢/٨. وانظر تحف الأشراف ١٠/ ١٧٥.

وفي صحيح مسلم، من حديث سُهَيل بن أبي صالح، عن أبيه، عن أبي هُرَيـرة أَنَّ رسولَ الله - ﷺ - قال: ما من رجل لا يؤدِّي زكاة ماله، إلا جُعِل يوم القيامة صفائح من نار يُكوَى بها جَنْبُه وجَبْهَتُه وظهره، في يوم كان مقداره خمسينَ ألفَ سنةٍ حتى يقضى بين الناس، ثم يُرَى سبيله إما إلى الجنة وإما إلى النار[1]»... وذكر تمام الحديث.

وقال البخاري في تفسير هذه الآية: حدثنا قتيبة، حدثنا جرير، عن حُصين، عن زيد بن وهب قال: مررت على أبي ذر بالرَّبذَة[2]، فقلت: ما أنزلك بهذه الأرض، قال: كنا بالشام، فقرأت: ﴿والذين يكنزون الذهب والفضة ولا ينفقونها في سبيل الله فبشِّرهم بعذاب أليم﴾، فقال معاوية: ما هذه فينا، ما هذه إلا في أهل الكتاب! قال قلت: إنها لفينا وفيهم[3].

ورواه ابن جرير من حديث عَبْثَر[4] بن القاسم، عن حصين، عن زيد بن وهب، عن أبي ذر - رضي الله عنه - فذكره وزاد: فارتفع في ذلك بيني وبينه القولُ، فكتب إلى عثمان يشكوني، فكتَبَ إليَّ عثمان أن أَقبِلْ إليه، قال: فأقبلتُ، فلما قَدِمتُ المدينة ركبني الناسُ كأنهم لم يروني قبل يومئذ، فشكوتُ ذلك إلى عثمانَ، فقال لي: تَنَحَّ قريباً قلت: والله لن أدع ما كنت أقول.

قلت: كان من مذهب أبي ذر - رضي الله عنه - تحريم إِدِّخار ما زاد على نفقة العيال، وكان يُفتي بذلك، ويحثُّهم عليه، ويأمُرُهم به، ويغلظ في خلافه. فنهاه معاويةُ فلم ينته، فخشي أن يَضُرَّ بالناس في هذا، فكتب يشكوه إلى أمير المؤمنين عثمان، وأن يأخذه إليه، فاستقدمه عثمان إلى المدينة، وأنزله بالربذَةِ وَحْدَه، وبها مات - رضي الله عنه - في خلافة عثمان - وقد اختبره معاوية - رضي الله عنه - وهو عنده، هل يوافق عملهُ قولَه؟ فبعث إليه بألف دينار، ففرَّقها من يومه، ثم بعث إليه الذي أتاه بها فقال: إن معاوية إنما بعثني إلى غيرك فأخطأتُ، فهاتِ الذهبَ! فقال: ويحك! إنها خَرَجَتْ، ولكن إذا جاء مالي حاسبناك به.

وهكذا رَوَى علي بن أبي طلحة، عن ابن عباس أنها عامّة.

وقال السدي: هي في أهل القبلة.

وقال الأحنف بن قيس: قدمت المدينة، فبينا أنا في حلقة فيها مَلأ من قريش، إذ جاء رجل أخشن الثياب، أخشن الجسد، أخشن الوجه، فقام عليها فقال: بَشِّرِ الكانزين برَضْفٍ[5] يحمَى عليه من نار جهنم، فيوضع على حَلمة ثَدْي أَحَدهم حتى يخرج من نُغْض[6] كتفه، ويوضع على نُغْض كتفه حتى يخرج من حلمة ثديه يتزلزل - قال: فوضع القوم رءوسهم، فما رأيت أحداً منهم رَجَع إليه شيئاً. قال: وأدبر فاتبعته حتى جلس إلى سارية، فقلت: ما رأيت هؤلاء إلا كرهوا ما قلت لهم. فقال: إن هؤلاء لا يعلمون شيئاً.

وفي الصحيح أن رسول الله - ﷺ - قال لأبي ذَرٍّ: ما يسرُّني أن عندي مثل أُحُدٍ ذهباً يمرُّ عليه ثالثةٌ وعندي منه شيء، إلا دينارٌ أَرصُدُه لدين»[7].

---

(١) مسلم، كتاب الزكاة ٦٨٢.

(٢) الرَّبَذَة: من قرى المدينة، وبها قبر أبي ذَرٍّ.

(٣) فتح الباري، تفسير سورة التوبة ٨/ ٣٢٢.

(٤) كذا في الأصول. وفي تفسير الطبري ١٠/ ١٢١: «حدثني أبو حُصَين عبد الله بن أحمد بن يونس، قال: حدثنا هشيم قال: حدثنا حصين». وفي تهذيب التهذيب ٥/ ١٣٦ أن عبثر بن القاسم يروي عن حصين، ويروي عنه أحمد بن يونس وابنه عبد الله.

(٥) هي الحجارة المحماة على النار.

(٦) هو العظم الرقيق على طرف الكتف.

(٧) فتح الباري، كتاب الرقاق ١١/ ٢٦٤.

فهذا ـ والله أعلم ـ هو الذي حدا أبا ذر على القول بهذا.

وقال الإمام أحمد: حدثنا عفان، حدثنا همام، حدثنا قتادة، عن سعيد بن أبي الحسن، عن عبد الله بن الصامت رضي الله عنه: أنه كان مع أبي ذَرّ، فخرج عطاؤه ومعه جارية له، فجعلت تقضي حوائجه، ففضلت معها سبعة، فأمرها أن تشتري به فلوساً. قال قلت: لو ادخرته للحاجة تَنُوبك وللضيف ينزل بك! قال: إن خليلي عهد إليّ أنْ أيما ذهب أو فضة أوكِيَ[1] عليه، فهو جمر على صاحبه، حتى يفرغه في سبيل الله عز وجل[2].

ورواه عن يزيد، عن همام، بـه. وزاد: إفراغاً[3].

وقال الحافظ ابن عساكر بسنده إلى أبي بكر الشبلي في ترجمته، عن محمد بن مهدي: حدثنا عمرو بن أبي سلمة، عن صدقة بن عبد الله، عن طلحة بن زيد، عن أبي فروة الرّهاوي، عن عطاء، عن أبي سعيد ـ رضي الله عنه ـ قال: قال رسول الله ـ ﷺ ـ: الق الله فقيراً ولا تلقه غنياً. قال: يا رسول الله، كيفَ لي بذلك؟ قال: ما سُئلتَ فلا تمنع، وما رُزِقْت فلا تَخْبَأ. قال: يا رسول الله، كيف لي بذلك؟ قال رسول الله ـ ﷺ ـ: هو ذاك وإلا فالنار. إسناده ضعيف.

وقال الإمام أحمد: حدثنا عفان، حدثنا جعفر بن سليمان، حدثنا عُتَيبَة، عن بُرَيدِ بن أَصْـرَمَ قال: سمعت علياً رضي الله عنه يقول: مات رجل من أهل الصُفَّة، وترك دينارين ـ أو: درهمين ـ فقال رسول الله ـ ﷺ ـ: كَيَّتان، صلوا على صاحبكم[4].

وقد رُوِي هذا من طرق أخر[5].

وقال قتادة، عن شَهر بن حَوشب، عن أبي أمامة صُدَيّ بن عجلان قال: مات رجل من أهل الصُّفَّة، فوجد في مئزره دينار، فقال رسول الله ـ ﷺ ـ: كية! ثم تُوفي رجل آخر فوجد في مئزره ديناران، فقال رسول الله ـ ﷺ ـ: كيتان.

وقال ابن أبي حاتم: حدثنا أبي، حدثنا أبو النضر إسحاق بن إبراهيم الفَراديسي، حدثنا معاوية بن يحيى الأطرابُلسِيُّ، حدثني أرطاة، حدثني أبو عامر الهَوْزَني، سمعت ثَوْبانَ مولى رسول الله ـ ﷺ ـ قال: ما من رجلٍ يموتُ وعنده أحمرُ أو أبيضُ، إلا جعل الله بكل قيراطٍ صفحةً من نار يُكوى بها من قدمه إلى ذَقَنِه.

وقال الحافظ أبو يعلى: حدثنا محمود بن خداش، حدثنا سيف بن محمد الثوري، حدثنا الأعمش، عن أبي صالح، عن أبي هُرَيرة ـ رضي الله عنه ـ قال: قال رسول الله ـ ﷺ ـ «لا يوضع الدينار على الدينار، ولا الدرهم على الدرهم، ولكن يُوسِّع جلده فيكوى بها جباههم وجنوبهم وظهورهم، هذا ما كنزتم لأنفسكم فذُوقوا ما كنتم تكنزون.

سيف هذا: كذاب، متروك.

---

(١) أي شُدّ عليه الوكاء، وهو خيط تشدّ به الصُرّة.

(٢) مسند الإمام أحمد ٥/ ١٥٦.

(٣) المسند ٥/ ١٧٥ ـ ١٧٦. ورواية يزيد: «حتى يفرغه إفراغاً في سبيل الله».

(٤) المسند ١/ ١٠١، وانظر ١/ ١٣٧ ـ ١٣٨، ٤١٢.

(٥) المطالبُ العالية لابن حجر ٣/ ٣٣٨ ـ ٣٣٩.

﴿إِنَّ عِدَّةَ الشُّهُورِ عِندَ اللَّهِ اثْنَا عَشَرَ شَهْرًا فِي كِتَابِ اللَّهِ يَوْمَ خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ مِنْهَا أَرْبَعَةٌ حُرُمٌ ذَٰلِكَ الدِّينُ الْقَيِّمُ فَلَا تَظْلِمُوا فِيهِنَّ أَنفُسَكُمْ وَقَاتِلُوا الْمُشْرِكِينَ كَافَّةً كَمَا يُقَاتِلُونَكُمْ كَافَّةً وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ مَعَ الْمُتَّقِينَ ﴿٣٦﴾﴾

قال الإمام أحمدُ: حدثنا إسماعيل، أخبرنا أيوب، أخبرنا محمد بن سيرينَ، عن أبي بَكْرة: أن النبي ـ ﷺ ـ خطب في حجَّتِهِ، فقال: ألا إنَّ الزمان قد استدار كهيئته يوم خلق الله السموات والأرضَ، السنةُ اثنا عشرَ شهراً، منها أربعة حرم، ثلاثة متواليات: ذو القعدة، وذو الحجة، والمحرم، ورجب مضر الذي بين جُمادى وشعبان. ثم قال: ألا أيّ يوم هذا؟ قلنا: الله ورسوله أعلمُ. فسكت حتى ظننا أنه سَيُسمِّيه بغير اسمه، قال: أليس يومَ النحر؟ قلنا: بلى. ثم قال: أيّ شهر هذا؟ قلنا: الله ورسوله أعلم. فسكت حتى ظننا أنه سيسميه بغير اسمه، قال: أليس ذا الحِجَّة؟ قلنا: بلى. ثم قال: أيّ بلد هذا؟. قلنا: الله ورسولُه أعلمُ. فسكت حتى ظَنَنَّا أنه سَيُسَمِّيه بغير اسمه، قال: «أليست البلدة؟. قلنا: بلى. قال: فإن دماءكم وأموالكم ـ قال: وأحسبه قال: وأعراضكم ـ عليكم حرام كحرمة يومكم هـذا، في شهركم هذا، في بلدكم هذا، وستلقون ربكم فيسألكم عن أعمالكم، ألا لا ترجعوا بعدي ضُلَّالاً يضرب بعضكم رقاب بعض، ألا هل بلغت؟ ألا ليبلغ الشاهدُ الغائب منكم، فلعلَّ من يبلغه يكون أَوْعَى له مِنْ بعضِ من يسمعه[1].

ورواه البخاري في التفسير وغيره، ومسلم من حديث أيوب، عن محمد ـ وهو ابن سيرين ـ عن عبد الرحمن بن أبي بكرة، عن أبيه به[2].

وقد قال ابن جَرِير: حدثنا محمد بن معمر، حدثنا روح، حدثنا أشعث، عن محمد بن سيرين، عن أبي هُرَيرة ـ رضي الله عنه ـ قال: قال رسول الله ـ ﷺ ـ: «إنّ الزمان قد استدار كهيئته يوم خلق الله السموات والأرض، وإن عدة الشهور عند الله اثنا عشر شهراً في كتاب الله يوم خلق السموات والأرض منها أربعةٌ حُرُمٌ، ثلاثةٌ متوالياتٌ، ورجب مضر، بين جمادى وشعبان.

ورواه البزّار، عن محمد بن معمر، به. ثم قال: لا يروى عن أبي هُبَيرة إلا من هذا الوجه، وقد رواه ابن عون وقُرَّة وابن سيرين، عن عبد الرحمن بن أبي بكرة، عن أبيه، به[3].

وقال ابن جرير، أيضاً: حدثني موسى بن عبد الرحمن المَسْرُوقيّ، حدثنا زيد بن حباب، حدثنا موسى ابن عبيدة الرَّبَذي، حدثني صَدَقة بن يسار، عن ابن عمر قال: خطب رسول الله ـ ﷺ ـ في حَجَّةِ الوداع بمنى في أوسط أيام التشريق فقال: أيها الناسُ، إن الزمان قد استدار، فهو اليوم كهيئته يوم خلق الله السموات والأرض، وإنَّ عدَّة الشهورِ عند الله اثنا عَشَرَ شهراً منها أربعة حرم، أولهن رَجَبُ مضر بين جمادى وشعبان، وذو القعدة، وذو الحجة، والمحرم[4].

وروى ابن مَرْدُويه من حديث موسى بن عُبَيدة، عن عبد الله بن دينار، عن ابن عُمَر، مثله أو نحوه.

وقـال حَمّاد بن سَلَمـة: حدثني علي بن زَيـدٍ، عن أبي حُرَّة الرَّقـاشي، عن عمـه ـوكانت لـه

(١) المسند ٥/ ٣٧.
(٢) فتح الباري، تفسير سورة التوبة ٨/ ٣٢٤، ومسلم، كتاب القسامة ١٣٠٥ ـ ١٣٠٦.
(٣) كشف الأستار عن زوائد البزار، كتاب الحج ٢/ ٣٥.
(٤) تفسير الطبري ١٠/ ١٢٤ ـ ١٢٥.

صحبة ـ قال: كنت آخذاً بزمام ناقة رسول الله ـ ﷺ ـ في أوسط أيام التشريق، أذود الناس عنه، فقال رسول الله ـ ﷺ ـ: «ألا إنَّ الزمانَ قد استدار كهيئته يوم خلق الله السموات والأرض، وإن عِدَّة الشهور عند الله اثنا عشر شهراً في كتاب الله يوم خلق السموات والأرض، منها أربعة حرم فلا تظلموا فيهن أنفسكم»(١).

وقال سعيدُ بن منصور: حدثنا أبو معاوية، عن الكلبي، عن أبي صالح، عن ابن عباس في قوله: ﴿منها أربعة حرم﴾، قال: محرم، ورجب، وذو القعدة، وذو الحجة.

وقوله ـ ﷺ ـ في الحديث: «إن الزمان قد استدار كهيئته يوم خلق الله السموات والأرض»، تقرير منه ـ صَلَوات الله وسلامه عليه ـ وتثبيت للأمر على ما جعله الله تعالى في أول الأمر من غير تقديم ولا تأخير، ولا زيادة ولا نقص، ولا نَسيء ولا تبديل، كما قال في تحريم مكة: «إن هذا البلد حَرَّمه الله يوم خلق السموات والأرض، فهو حرام بحرمة الله إلى يوم القيامة»، وهكذا قال ها هنا: «إن الزمان قد استدار كهيئته يوم خلق الله السموات والأرض»، أي: الأمر اليوم شرعاً كما ابتدأ الله في ذلك في كتابه يوم خلق السموات والأرض.

وقد قال بعض المفسرين والمتكلمين على هذا الحديث: إن المراد بقوله: «قد استدار كهيئته يوم خلق الله السموات والأرض»، إنه اتفق أن حَجَّ رسول الله ـ ﷺ ـ في تلك السنة في ذي الحجة، وأن العرب قد كانت نسأت النسيء، يحجون في كثير من السنين، بل أكثرها، في غير ذي الحجة، وزعموا أن حَجَّة الصدِّيق في سنة تسع كانت في ذي القعدة. وفي هذا نظرٌ، كما سَنُبَيِّنه إذا تكلمنا على النسيء.

وأغرب منه ما رواه الطبراني، عن بعض السلف، في جملة حديث: أنه اتفق حَجُّ المسلمين واليهود والنصارى في يوم واحد، وهو يوم النحر، عام حجة الوداع، والله أعلم.

[حاشية فصل]

ذكر الشيخ علم الدين السَّخاوي في جزء جَمَعه سماه «المشهور في أسماء الأيام والشهور»: أن المحرم سمي بذلك لكونه شهراً محرماً. وعندي أنه سمي بذلك تأكيداً لتحريمه، لأن العرب كانت تَتَقلَّبُ به، فتحله عاماً وتحرمه عاماً. قال: ويجمع على محرمات، ومحارم، ومحاريم.

صفر: سمي بذلك لخلو بيوتهم منهم، حين يخرجون للقتال والأسفار، يقال: صَفِر المكان: إذا خلا، ويجمع على أصفار كجَمَل وأجمال.

شهر ربيع الأول: سمي بذلك لارتباعهم فيه، والارتباع: الإقامة في عِمارة الرَّبع. ويجمع على أَربِعَاء كنصيب وأنصباء، وعلى أَرْبِعَةٍ، كرغيف وأَرْغِفَةٍ.

ربيع الآخر: كالأول.

جُمادى: سمي بذلك لجمود الماء فيه. قال: وكانت الشهورُ في حسابهم لا تدُور.

وفي هذا نظر؛ إذ كانت شهورهم منوطةً بالأهلة، ولا بدَّ من دورانها، فلعلَّهم سَمَّوه بذلك، أول ما سُمِّي عند جمود الماء في البرد، كما قال الشاعر:

وَلَيلَةٍ مِنْ جُمادى ذَاتِ أَندِيَةٍ ... لا يُبْصِرُ العَبدُ في ظَلْمائها الطُّنُبَا
لا ينبَحُ الكلبُ فيها غيرَ واحدَةٍ ... حَتّى يَلُف عَلَى خُرْطومه الذَّنَبَا

(١) أخرجه الإمام أحمد بإسناده إلى حَمَّادِ بن سَلَمَةَ، وفيه زياداتٌ، انظر المسند ٥/٧٢-٧٣.

ويُجمع على جُمَاديات، كحبارى وحُبَاريات، وقد يذكر ويؤنث، فيقال: جمادى الأولى والأول، وجمادى الآخر والآخرة.

رَجَبٌ: من الترجيب، وهو التعظيم، ويجمع على أرجاب، ورِجَاب، ورَجَبات.

شعبانُ: من تَشَعُّبِ القبائل وتَفَرُّقها للغارة ويجمع على شَعَابين وشَعْبانات.

رمضانُ: من شدة الرمضاء، وهو الحر، يقال: رَمِضَت الفصالُ: إذا عَطِشت، ويجمع على رَمَضَانات ورَماضين وأرْمِضَة. قال: وقول من قال: إنه اسم من أسماء الله، خطأٌ لا يعرَّجُ عليه، ولا يُلتَفَتُ إليه.

قلت: قد وَرَدَ فيه حديث؛ ولكنه ضعيف، وبينته في أول كتاب الصيام.

شَوَّالٌ: من شالت الإبل بأذنابها للطِّراق، قال: ويجمع على شَوَاول وشواويل وشَوَّالات.

القَعدة: بفتح القاف ـ قلت: وكسرها ـ لقُعودهم فيه عن القتال والتِّرحالِ، ويجمع على ذوات القعدة.

الحِجَّة: بكسر الحاء ـ قلت: وفتحها ـ سمي بذلك لإيقاعهم الحج فيه، ويجمع على ذوات الحجة.

أسماء الأيام: أولها الأحد، ويجمع على آحاد، وأُحاد ووحود. ثم يوم الإثنين، ويجمع على أثانين. الثلاثاء: يمد، ويُذكَّر ويؤنث، ويجمع على ثلاثاوات وأثالث. ثم الأربعاء بالمد، ويجمع على أربعاوات وأرابيع. والخميس: يجمع على أخمسة وأخامس. ثم الجمعة ـ بضم الميم، وإسكانها، وفتحها أيضاً ـ ويجمع على جُمَع وجُمُعات. السبت: مأخوذ من السَّبْت، وهو القطع، لانتهاء العدد عنده. وكانت العرب تسمي الأيام: أَوَّلَ، ثم أَهْوَنَ، ثم جُبَار، ثم دُبَار، ثم مُؤنِس، ثم العروبة، ثم شِيَار. قال الشاعر، من العرب العرباء العاربة المتقدِّمين[1]:

أُرَجِّـي أن أعـيشَ وَأن يَـوْمِـي ... بـأَوَّلَ أو بـأَهْـوَنَ أو جُـبَـارِ
أو الـتـالـي دُبَـارَ فـإن أَفُـتْـهُ ... فَـمُـؤْنِسَ أو عَـرُوبَـةَ أو شِـيَـارِ

وقوله تعالى: ﴿منها أربعة حرم﴾، فهذا مما كانت العرب أيضاً في جاهليتها تحرمه، وهو الذي كان عليه جمهورهم، إلا طائفة منهم يقال لهم: «البَسْلُ»، كانوا يُحرِّمُونَ من السنة ثمانِيَةَ أشْهُر، تعمقاً وتشديداً[2].

وأما قوله: «ثلاث متواليات: ذو القعدة وذو الحجة والمحرم، ورجب مضر الذي بين جمادى وشعبان»، فإنما أضافه إلى مضر، ليبين صحة قولهم في رجب: إنه الشهر الذي بين جمادى وشعبان، لا كما كانت تظنه ربيعة من أنَّ رجب المحرم هو الشهر الذي بين شعبان وشوال، وهو رمضان اليوم. فبين ـ عليه السلام ـ أنه رجب مضر لا رجب ربيعة. وإنما كانت الأشهر المحرمة أربعة، ثلاثة سَرْدٌ وواحد فرد، لأجل أداء مناسك الحج والعمرة، فحرم قبل شهر الحج شهر، وهو ذو القعدة، لأنهم يقعدون فيه عن القتال، وحُرِّم شهر ذي الحجة لأنهم يوقعون فيه الحج ويشتغلون فيه بأداء المناسك، وحرم بعده شهر آخر، وهو المحرم، ليرجعوا فيه إلى نائي أقصى بلادهم آمنين، وحُرِّم رجب في وسط الحول، لأجل زيارة البيت والاعتمار به، لمن يقدم إليه من أقصى جزيرة العرب، فيزوره ثم يعود إلى وطنه فيه آمناً.

---

(١) البيتان في الإنصاف لأبي البركات الأنباري ٢٩٧، وهَمْعِ الهوامع للسيوطي ١/١٢٠.
وأول: يوم الأحد، وأهون: يوم الاثنين، وجُبَارُ: يوم الثلاثاء، ودبار: يوم الأربعاء، ومُؤْنِسُ: يوم الخميس، وعروبة: يوم الجُمُعَة، وشيار: يوم السبت.

(٢) انظر سيرة ابن هشام ١/١٠١ - ١٠٢.

وقوله: ﴿ذلك الدين القيم﴾، أي: هذا هو الشرع المستقيم، من امتثال أمر الله فيما جعل من الأشهر الحرم، والحَذْو بها على ما سبق في كتاب الله الأول.

وقال تعالى: ﴿فلا تظلموا فيهن أنفسكم﴾، أي: في هـذه الأشهر المحرمة، لأنه آكد وأبلغ في الإثم من غيرها، كما أن المعاصي في البلد الحرام تضاعف، لقوله تعالى: ﴿ومن يرد فيه بإلحاد بظلم نذقه من عذاب أليم﴾، وكذلك الشهر الحرام تغلظ فيه الآثام، ولهذا تغلظ فيه الدية في مذهب الشافعي، وطائفة كثيرة من العلماء، وكذا في حق من قتل في الحرم أو قتل ذا محرم.

وقال حماد بن سلمة، عن علي بن زيد، عن يوسف بن مهران، عن ابن عباس، في قوله: ﴿فلا تظلموا فيهن أنفسكم﴾، قال: في الشهور كلها.

وقال علي بـن أبي طلحة، عن ابن عباس قوله: ﴿إن عدة الشهور عند الله اثنا عشر شهراً﴾ . . . الآية، ﴿فلا تظلموا فيهن أنفسكم﴾: في كلِّهن. ثم اختص من ذلك أربعة أشهر فجعلهن حراماً، وعَظَّم حُرُماتهن، وجعل الذنب فيهن أعظم، والعمل الصالح والأجر أعظم.

وقال قتادةُ في قوله: ﴿فلا تَظْلِموا فيهنَّ أنفسكم﴾: إنَّ الظلم في الأشهر الحُرُم أعظمُ خطيئةً ووزراً مـن الظلم فيما سواها، وإن كان الظلم على كل حال عظيماً، ولكن الله يعظم من أمره ما يشاء. قال: إن الله اصطفى صَفَايا من خلقه، اصطفى من الملائكة رسلًا، ومن الناس رسلًا، واصطفى من الكلام ذكْرَه، واصطفى من الأرض المساجدَ، واصطفى من الشهور رمضانَ والأشهَرَ الحُرُمَ، واصطفى من الأيام يومَ الجُمُعة، واصطفى من الليالي ليلةَ القدرِ، فَعَظِّموا ما عَظَّم الله، فإنما تُعَظَّم الأمورُ بما عَظَّمها الله به عند أهل الفهم وأهل العقل.

وقال الثوريُّ، عن قَيْسِ بن مسلم، عن الحسن بن مُحَمَّد ابن الحنفية: بأن لا تحرموهُنَّ كحرمتهنَّ[1].

وقال محمد بن إسحاق: ﴿فلا تظلموا فيهن أنفسكم﴾، أي: لا تجعلوا حرامها حلالاً ولا حلالها حراماً، كما فعل أهل الشرك، فإنما النسيء الذين كانوا يصنعون من ذلك، زيادة في الكفر ﴿يضل به الذين كفروا﴾ الآية.

وهذا القول اختيار ابن جرير.

وقوله: ﴿وقاتلوا المشركين كافة﴾، أي: جميعكم، ﴿كما يقاتلونكم كافة﴾، أي: جميعهم، ﴿واعلموا أن الله مع المتقين﴾.

وقد اختلف العلماء في تحريم ابتداء القتال في الشهر الحرام: هل هو منسوخ أو محكم؟ على قولين:

أحدهما، وهو الأشهر: أنه منسوخ، لأنه تعالى قال ها هنا: ﴿فلا تظلموا فيهن أنفسكم﴾، وأمر بقتال المشركين. وظاهر السياق مشعر بأنه أمر بذلك أمراً عاماً، فلو كان محرماً في الشهر الحرام لأوشك أن يقيده بانسلاخها، ولأن رسول الله ـ ﷺ ـ حاصر أهل الطائف في شهر حرام ـ وهو ذو القعدة ـ كما ثبت في الصحيحين: أنه خرج إلى هوازن في شوال، فلما كسرهم واستفاء أموالهم، ورجع فَلُّهـم[2] فَلَجَئُوا إلى الطائف ـ عَمَد إلى الطائف فحاصرها أربعين يوماً، وانصرف ولم يفتتحها فثبت أنه حاصر في الشهر الحرام.

والقول الآخر: أن ابتداء القتال في الشهر الحرام حرام، وأنه لم ينسخ تحريم الشهر الحرام، لقوله

---

(١) لفظ الطبري ١٠/ ١٢٧: وظلم أنفسكم ألاّ تحرموهُنّ كحرمتهنّ.

(٢) أي: المنهزمون.

تعالى: ﴿يا أيها الذين آمنوا لا تحلوا شعائر الله ولا الشهر الحرام﴾. . . . الآية، وقال: ﴿الشهر الحرام بالشهر الحرام، والحرمات قصاص، فمن اعتدى عليكم فاعتدوا عليه بمثل ما اعتدى عليكم﴾. . . الآية، وقال: ﴿فإذا انسلخ الأشهر الحرم فاقتلوا المشركين﴾. . . الآية.

وقد تقدم أنها الأربعة المقررة في كل سنة، لا أشهر التسيير على أحد القولين.

وأما قوله تعالى: ﴿وقاتلوا المشركين كافَّةً كما يقاتلونكم كافَّة﴾، فيحتمل أنه منقطعٌ عما قبله، وأنه حكم مستأنفٌ، ويكونُ من باب التَّهييج والتَّحضيض، أي: كما يجتمعون لحربكم إذا حاربوكم فاجتمِعُوا أنتم أيضاً لهم إذا حاربتموهم، وقاتلوهم بنظير ما يفعلون. ويحتمل أنه أَذِن للمؤمنين بقتال المشركين في الشهر الحرام إذا كانت البداءة منهم، كما قال تعالى: ﴿الشهر الحرام بالشهر الحرام والحرمات قصاص﴾، وقال تعالى: ﴿ولا تقاتلوهم عند المسجد الحرام حتى يقاتلوكم فيه فإن قاتلوكم فاقتلوهم﴾. . . الآية.

وهكذا الجواب عن حصار رسول الله - ﷺ - أهل الطائف، واستصحابه الحصار إلى أن دخل الشهر الحرام، فإنه من تتمة قتال هَوازِنَ وأحلافها من ثَقِيفٍ، فإنهم هم الذين ابتدؤوا القتال، وجمعوا الرِّجال، ودَعَوا إلى الحرب والنِّزالِ، فعندها قَصَدَهم رسولُ الله - ﷺ - كما تقدم، فلما تَحصَّنُوا بالطائف ذَهَب إليهم لِيُنْزِلَهم من حُصُونهم، فنالوا من المسلمين، وقَتَلُوا جماعةً، واستمرّ الحصارُ بالمجانيق وغيرها قريباً من أربعين يوماً. وكان ابتداؤُه في شهر حلالٍ، ودخل الشهرُ الحرامُ، فاستمرَّ فيه أياماً، ثم قَفَلَ عنهم لأنه يغتفر في الدوام ما لا يغتفر في الابتداء، وهذا أمر مقرَّرٌ، وله نظائرُ كثيرةٌ، والله أعلم. وَلْنَذْكُرِ الأحاديثَ الواردةَ في ذلك. وقد حرَّرنا ذلك في السيرة، والحمد لله(١).

﴿إِنَّمَا ٱلنَّسِيٓءُ زِيَادَةٌ فِى ٱلْكُفْرِ ۖ يُضَلُّ بِهِ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ يُحِلُّونَهُۥ عَامًا وَيُحَرِّمُونَهُۥ عَامًا لِّيُوَاطِـُٔوا۟ عِدَّةَ مَا حَرَّمَ ٱللَّهُ فَيُحِلُّوا۟ مَا حَرَّمَ ٱللَّهُ ۚ زُيِّنَ لَهُمْ سُوٓءُ أَعْمَـٰلِهِمْ ۗ وَٱللَّهُ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلْكَـٰفِرِينَ ﴿٣٧﴾﴾

هذا مما ذم الله - تعالى - به المشركين من تَصرُّفهم في شَرْع الله بآرائهم الفاسدة، وتغييرهم أحكامَ الله بأهوائهم الباردة، وتحليلهم ما حرَّم الله وتحريمهم ما أحلَّ الله. فإنهم كان فيهم من القُوّة الغَضَبيَّة والشهاميَّة والحمية، ما استطالوا به مدة الأشهر الثلاثة في التحريم المانع لهم من قضاء أوطارهم من قتال أعدائهم، فكانوا قد أحدثوا قبل الإسلام بمدَّة تحليلَ المحرم وتأخيره إلى صفر. فيحلون الشهر الحرام، ويُحرِّمُون الشهر الحلال، لِيُوَاطِئُوا عِدَّةَ الأشهر الأربعة، كما قال شاعرهم، وهو عُمَير بن قَيْس المعروف بجِذْل الطعان(٢):

لَقَدْ عَلِمَتْ مَعَدُّ أَنَّ قَوْمِي ... كِرَامُ النَّاسِ أَنَّ لَهُمْ كِرَاماً(٣)
أَلَسْنَا النَّاسِئِينَ عَلَى مَعَدٍّ ... شُهُورَ الحِلِّ نَجْعَلُهَا حَرَاماً
فَأَيُّ النَّاسِ لَم نُدْرِكْ بِوِتْرٍ؟ ... وَأيُّ النَّاسِ لَم نُعْلِكْ لِجاماً(٤)؟

قال علي بن أبي طلحة، عن ابن عباس في قوله: ﴿إنما النسيء زيادة في الكفر﴾، قال: النسيء أنَّ جُنادة بن عوف بن أمية الكناني، كان يوافي الموسم في كل عام، وكان يُكنى «أبا ثُمامة»، فينادي: «ألا إنَّ أبا

(١) كذا، وبعده بياض يسع أحد عشر سطراً.
(٢) الأبيات في سيرة ابن هشام ١/ ٤٥. والروض الأنف ١/ ٤٢.
(٣) أي: ان لهم آباء كراماً وأخلاقاً كراماً.
(٤) أي: لم نقرعهم ونكفَّهم كما يُقْرَع الفرس باللجام.

ثمامة لا يُحاب(١) ولا يُعاب، إلا وإن صفر العام الأول العامَ حلال». فيحله للناس، فيحرم صفراً عاماً، ويحرم المحرم عاماً، فذلك قول الله: ﴿إنما النسيء زيادة في الكفر﴾ [(٢)إلى قوله: ﴿الكافرين﴾. وقوله: ﴿إنما النسيء زيادة في الكفر﴾(٢)]، يقول: يتركون المحرم عاماً، وعاماً يحرمونه. وروى العَوْفِيّ، عن ابن عباس نحوه.

وقال ليث بن أبي سُلَيم، عن مجاهد: كان رجل من بني كنانة يأتي كُلَّ عام إلى الموسِم على حِمَارٍ له، فيقول: «أيها الناس، إني لا أعاب ولا أُحاب، ولا مَرَدّ لما أقول، إنا قد حَرّمنا المُحرم، وأخرنا صفر. ثم يجيء العام المقبل بعده فيقول مثل مقالته، ويقول: «إنا قد حرمنا صفر، وأخرنا المحرم»، فهو قوله: ﴿ليواطِئُوا عدة ما حَرَّم الله﴾، قال: يعني الأربعة - ﴿فيحلوا ما حرم الله﴾، لتأخير هذا الشهر الحرام(٣).

وروي عن أبي وائل، والضحاك، وقتادة، نحو هذا.

وقال عبد الرحمن بن زيد بن أَسْلَمَ في قوله: ﴿إنما النسيء زيادة في الكفر﴾... الآية، قال: هذا رجل من بني كنانة يقال له: «القَلَمَّس»، وكان في الجاهلية. وكانوا في الجاهلية لا يُغير بعضهم على بعض في الشهر الحرام، يلقى الرجلُ قاتلَ أبيه ولا يَمُدّ إليه يده، فلما كان هو، قال: «اخرُجوا بنا» قالوا له: «هذا المحرم»! قال: «نُنْسِئُه العام، هما العام صفران، فإذا كان العام القابل قضينا جعلناهما مُحرَّمين». قال: ففعل ذلك، فلما كان عام قابل قال: «لا تغزُوا في صفر، حرّموه مع المحرم، هما محرمان».

فهذه صفة غريبة في النسيء، وفيها نظر، لأنهم في عام إنما يحرمون على هذا [ثلاثة] أشهر فقط، وفي العام الذي يليه يحرمون خمسة أشهر، فأين هذا من قوله تعالى: ﴿يحلونه عاماً ويحرمونه عاماً ليواطِئُوا عدة ما حرم الله﴾؟ وقد رُوِيَ عن مجاهد صفة أخرى غريبة أيضاً، فقال عبد الرزاق:

أخبرنا معمر، عن ابن أبي نَجِيح، عن مجاهد، في قوله: ﴿إنما النسيء زيادة في الكفر﴾ الآية، قال: فَرَض الله - عز وجل - الحجَّ في ذي الحِجَّة. قال: وكان المشركون يُسَمُّون الأشهر(٤): ذو الحجة، والمحرّم، وصفر، وربيع، وربيع، وجُمَادى، وجُمَادى، ورَجَب، وشعبان، ورَمضان، وشوالُ، وذو القعدة. وذو الحجة يحجون فيه مرة أخرى، ثم يسكتون عن المحرم ولا يذكرونه، ثم يعودون فيسمون صفر، [صفر](٥) يسمون شعبان رمضان، ثم يسمون رمضان شوالاً(٦)، ثم يسمون ذا القعدة شوالاً، ثم يسمُّون ذا الحجَّةِ ذا القعدة، ثم يسمون المحرم ذا الحجة، فيحجون فيه، واسمه عندهم ذو الحجة. ثم عادوا بمثل هذه الصفة فكانوا يحجون في كل شهر عامين، حتى وافق حجةُ أبي بكر الآخر من العامين في ذي القعدة. ثم حج النبي - ﷺ - حجته التي حَجّ، فوافق ذا الحجة، فذلك حين يقول النبي - ﷺ - في خطبته: «إن الزمان قد استدار كهيئته يوم خلق السموات والأرض»(٣).

وهذا الذي قاله مجاهد فيه نظر أيضاً، وكيف تَصِحُّ حجة أبي بكر وقد وقعت في ذي القعدة، وأنَّى هذا؟

(١) يريد: لا ينسب إلى الحُوب، وهو الإثم.
(٢) عن تفسير الطبري: ١٠/ ١٣٠.
(٣) تفسير الطبري ١٠/ ١٣١.
(٤) في الأصل «يسمون ذا الحجة المحرم وصفر». والمثبت عن الطبري، والدُّر المنثور ٤/ ١٨٩.
(٥) عن الطبري والدرّ المنثور: ورواية ابن أبي حاتم كما في مخطوطة تفسيره: «كانوا يُسقِطُون المحرم ثم يقولون: صَفَرَين لصفر وشهر ربيع الأول، ثم يقولون: شهري ربيع لشهر ربيع الآخر ولجمادى الأولى. ثم يقولون لرمضان: شعبان، ويقولون لشوال: رمضان، ويقولون لذي القعدة: شوال، ثم يقولون لذي الحجة: ذي القعدة، ثم يقولون للمحرم: ذي الحجة. فيحجون في المحرم. ثم يأتنفون فيعدّون على ذلك عدة مستقيمة على وجه ما ابتدءوا، فيقولون: المحرم، فيحجون صفر، وشهر ربيع الأوّل، على نحو عَدَدهم في أول ما أسقطوا».
(٦) في الأصل: ثم يسمون شوالاً رمضانَ.

وقد قال الله تعالى: ﴿وأذان من الله ورسوله إلى الناس يوم الحج الأكبر أن الله بريء من المشركين ورسوله﴾. . . الآية، وإنما نُودِي بذلك في حجَّة أبي بكر، فلو لم تكن في ذي الحجة لما قال تعالى: ﴿يوم الحج الأكبر﴾. ولا يلزم من فعلهم النسيء هذا الذي ذكره من دَوَران السنة عليهم وحَجِّهم في كل شهر عامين؛ فإنَّ النسيءَ حاصلٌ بدون هذا، فإنهم لما كانوا يُحِلُّون شَهْرَ المحرم عاماً يحرِّمون عِوَضَه صفراً، وبعده ربيع وربيع إلى آخر السنة بحالها على نظامها وعدتها وأسماء شهورها، ثم في السنة الثانية يحرمون المحرم ويتركونه على تحريمه، وبعده صفر، وربيع وربيع إلى آخرها فيحلونه عاماً ويحرمونه عاماً، ليواطِئُوا عدة ما حرم الله، فيحلوا ما حرم الله، أي: في تحريم أربعة أشهر من السنة، إلا أنهم تارة يقدمون تحريم الشهر الثالث من الثلاثة المتوالية وهو المحرم، وتارة يُنْسِئُونَه إلى صفر، أي: يؤخرونه. وقد قدمنا الكلام على قوله ـ ﷺ ـ: «إن الزمان قد استدار كهيئته يوم خلق الله السموات والأرض، السنة اثنا عشر شهراً منها أربعة حرم، ثلاثة متوالية: ذو القعدة، وذو الحجة، والمحرم، ورجب مضر»، أي: إن الأمر في عدة الشهور وتحريم ما هو محرم منها، على ما سبق في كتاب الله من العدد والتوالي، لا كما يعتمده جهلة العرب، من فصلهم تحريم بعضها بالنسيء عن بعض، والله أعلم.

وقال ابن أبي حاتم: حدثنا صالح بن بشر[1] بن سلمة الطبراني، حدثنا مكي بن إبراهيم، حدثنا موسى بن عبيدة، عن عبد الله بن دينار، عن ابن عمر أنه قال: وقف رسول الله ـ ﷺ ـ بالعقبة، فاجتمع إليه من شاء الله من المسلمين، فحمد الله وأثنى عليه بما هو له أهل، ثم قال: ﴿إنما النسيءُ ـ من الشيطانِ ـ زيادةٌ في الكفر، يُضَلّ به الذين كفروا، يُحِلّونه عاماً ويُحرِّمونه عاماً﴾. فكانوا يحرمون المحرم عاماً، ويستحلون صفر، [ويُحرِّمون صَفَرَ][2] ويستحلون المحرم، وهو النسيء.

وقد تكلم الإمام محمد بن إسحاق على هذا في «كتاب السيرة» كلاماً جَيِّداً ومفيداً حسناً، فقال: كان أَوَّلَ من نسأ الشُّهورَ على العرب، فأحلَّ منها ما حَرَّمَ الله، وحَرَّم منها ما أحلَّ الله ـ عز وجل ـ القَلَمَّسُ، وهو: حُذَيفة ابن عَبْدِ بن فُقَيم بن عديّ بن عامر بن ثعلبة بن الحارث بن مالك بن كنانة بن خُزَيمة بن مُدْرِكة بن إلياس ابن مُضَر بن نِزارِ بن مَعدِّبن عدنان، ثم قام بعده على ذلك ابنه عَبَّاد، ثم من بعد عباد ابنه: قَلَعُ بن عباد، ثم ابنه أمية بن قلع، ثم ابنه: عوف بن أمية، ثم ابنه أبو ثمامة جُنَادة بن عوف، وكان آخِرَهم، وعليه قام الإسلامُ. فكانت العرب إذا فَرَغت من حَجِّها اجتمعت إليه، فقام فيهم خطيباً، فحرَّم: رجباً، وذا القعدة، وذا الحجة، ويحل المحرم عاماً، ويجعل مكانه صَفَر، ويحرمه عاماً ليواطىء عدة ما حرم الله، فَيُحِلّ ما حرم الله، يعني: ويحرِّم ما أحل الله[3]:

﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مَا لَكُمْ إِذَا قِيلَ لَكُمُ ٱنفِرُواْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ ٱثَّاقَلْتُمْ إِلَى ٱلْأَرْضِ ۚ أَرَضِيتُم بِٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا مِنَ ٱلْـَٔاخِرَةِ ۚ فَمَا مَتَـٰعُ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا فِى ٱلْـَٔاخِرَةِ إِلَّا قَلِيلٌ ﴿٣٨﴾ إِلَّا تَنفِرُواْ يُعَذِّبْكُمْ عَذَابًا أَلِيمًا وَيَسْتَبْدِلْ قَوْمًا غَيْرَكُمْ وَلَا تَضُرُّوهُ شَيْـًٔا ۗ وَٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴿٣٩﴾﴾

هذا شروعٌ في عتاب من تخلَّف عن رسول الله ـ ﷺ ـ في غزوة تبوكَ، حين طابت الثمار والظلال في شدة الحر وحَمارَّة القيظ، فقال تعالى: ﴿يا أيها الذين آمنوا ما لكم إذا قيل لكم انفروا في سبيل الله﴾، أي: إذا

(١) كذا في النسخ وتفسير ابن أبي حاتم. وفي الجرح لابن أبي حاتم ٣٩٦/٤: بشير.
(٢) عن تفسير ابن أبي حاتم.
(٣) سيرة ابن هشام ٤٤/١.

دُعِيتم إلى الجهاد في سبيل الله ﴿اثاقلتم إلى الأرض﴾، أي: تكاسلتم وملتم إلى المقام في الدعة والخفض وطيب الثمار، ﴿أرضيتم بالحياة الدنيا من الآخرة؟﴾ أي: ما لكم فعلتم هكذا؟! أرِضاً منكم بالدنيا بدلاً من الآخرة؟

ثم زَهَّد تبارك وتعالى في الدنيا، ورَغَّب في الآخرة، فقال: ﴿فما متاع الحياة الدنيا في الآخرة إلا قليل﴾، كما قال الإمام أحمد:

حدثنا وكيع ويحيى بن سعيد قالا: حدثنا إسماعيل بن أبي خالد، عن قيس، عن المستورد أخي بني فهر قال: قال رسول الله ـ ﷺ ـ: «ما الدنيا في الآخرة إلا كما يجعلُ أحدُكم إصبَعَه هذه في اليمِّ، فَلْيَنظُرْ بِمَ ترجعُ»؟ وأشارَ بالسبَّابَةِ[1]. انفرد بإخراجه مسلم[1].

وقال ابن أبي حاتم: حدثنا بشر بن مسلم بن عبد الحميد الحمصي بحمص، حدثنا الربيع بن روح، حدثنا محمد بن خالد الوهبي، حدثنا زياد ـ يعني الجَصَّاص ـ عن أبي عثمان قال قلت: يا أبا هُرَيرة، سمعتُ من إخواني بالبصرة أنك تقولُ: سمعتُ نبيَّ الله يقولُ: «إنَّ الله يجزي بالحسنة ألفَ ألف حسنة؟ قال أبو هُرَيرة: بل سمعت رسول الله ـ ﷺ ـ يقول: «إن الله يجزي بالحسنة ألفي ألف حَسَنةٍ»، ثم تلا هذه الآية: ﴿فما متاع الحياة الدنيا في الآخرة إلا قليل﴾. فالدنيا ما مضى منها وما بقي منها عند الله قليل.

وقال الثوري، عن الأعمش في الآية: ﴿فما متاع الحياة الدنيا في الآخرة إلا قليل﴾. قال: كزاد الراكب.

وقال عبد العزيز بن أبي حازم، عن أبيه: لما حَضَرتْ عبدَ العزيز بن مروان الوفاةُ قال: ائتوني بكفني الذي أكفَّن فيه، أنظر إليه. فلما وُضع بين يديه نَظَر إليه فقال: أمَا لي من كثير ما أُخلِفُ من الدنيا إلا هذا؟ ثم وَلَّى ظهره فبكى وهو يقول: أفّ لك من دار! إن كان كثيرُك لقليل، وإن كان قليلك لقصير، وإن كنا منك لفي غرور.

ثم تَوَعَّدَ تعالى على ترك الجهاد فقال: ﴿إلاَّ تنفروا يُعَذِّبكم عذاباً أليماً﴾، قال ابن عباس: استنفرَ رسولُ الله ـ ﷺ ـ حيّاً من العربَ، فَتَثاقلوا عنه، فأمسكَ الله عنهم القَطْر، فكان عذابهم.

﴿ويستبدلْ قوماً غيركم﴾، أي: لنصرة نَبِيِّه وإقامة دينه، كما قال تعالى: ﴿وإن تَتولَّوا يَسْتَبدل قوماً غيركم ثم لا يكونوا أمثالكم﴾.

﴿ولا تَضُرُّوه شيئاً﴾، أي: ولا تَضُرُّوا الله شيئاً بتولِّيكم عن الجهاد، ونُكُولكم وتَثَاقُلِكُم عنه، ﴿والله على كل شيء قدير﴾، أي: قادرٌ على الانتصار على الأعداء بدونكم.

وقد قيل: إن هذه الآية، وقوله: ﴿انفِرُوا خفافاً وثقالاً﴾، وقوله: ﴿ما كان لأهل المدينة ومن حولهم من الأعراب أن يتخلفوا عن رسول الله﴾: إنهن منسوخات بقوله تعالى: ﴿وما كان المؤمنون لينفروا كافة، فلولا نَفَر من كل فرقة منهم طائفة﴾، روي هذا عن ابن عباس، وعكرمة، والحسن، وزيد بن أسلم، ورَدَّه ابن جرير وقال: «إنما هذا فيمن دعاهم رسول الله ـ ﷺ ـ إلى الجهاد، فتعيَّن عليهم ذلك، فلو تركوه لعوقبوا عليه»[2].

وهذا له اتجاه، والله أعلم.

(١) مسند الإمام أحمد ٤/ ٢٢٨ ـ ٢٢٩. ومسلم، كتاب الجنة وصفة نعيمها وأهلها ٢١٩٣.
(٢) تفسير الطبري ١٠/ ١٣٥.

﴿إِلَّا تَنصُرُوهُ فَقَدْ نَصَرَهُ ٱللَّهُ إِذْ أَخْرَجَهُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ ثَانِىَ ٱثْنَيْنِ إِذْ هُمَا فِى ٱلْغَارِ إِذْ يَقُولُ لِصَٰحِبِهِۦ لَا تَحْزَنْ إِنَّ ٱللَّهَ مَعَنَا ۖ فَأَنزَلَ ٱللَّهُ سَكِينَتَهُۥ عَلَيْهِ وَأَيَّدَهُۥ بِجُنُودٍ لَّمْ تَرَوْهَا وَجَعَلَ كَلِمَةَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ ٱلسُّفْلَىٰ ۗ وَكَلِمَةُ ٱللَّهِ هِىَ ٱلْعُلْيَا ۗ وَٱللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴿٤٠﴾﴾

يقول تعالى: ﴿إلا تنصروه﴾، أي: تنصروا رسوله، فإن الله ناصره ومؤيده وكافيه وحافظه، كما تولى نصره ﴿إذ أخرجه الذين كفروا ثاني اثنين﴾، أي: عام الهجرة، لما هَمَّ المشركون بقتله أو حبسه أو نَفْيه، فخرج منهم هارباً صحبة صدّيقه وصاحبه أبي بكر بن أبي قحافة، فلجأ إلى غار ثور ثلاثة أيام ليرجع الطَّلَبُ الذين خرجوا في آثارهم. ثم يَسِيرُ نحو المدينة، فجعل أبو بكر ـ رضي الله عنه ـ يجزع أن يَطَّلع عليهم أحد، فيخلص إلى الرسول ـ عليه السلام ـ منهم أذى، فجعل النبي ـ ﷺ ـ يسكّنه ويثبّته ويقول: «يا أبا بكر، ما ظنك باثنين الله ثالثهما»؟ كما قال الإمام أحمد:

حدثنا عفان، حدثنا هَمَّام، أنبأنا ثابت، عن أنس أن أبا بكر حدثه قال: قلت للنبي ـ ﷺ ـ ونحن في الغار: لو أنَّ أحدَهم نظر إلى قَدَميه لأبصَرَنا تحت قدَمَيه. قال: فقال: «يا أبا بكر، ما ظنُّك باثنين الله ثالثُهما»؟ أخرجاه في الصحيحين(١).

ولهذا قال تعالى: ﴿فأنزل الله سكينته عليه﴾، أي: تأييده ونصره عليه، أي: على الرسول في أشهر القولين. وقيل: على أبي بكر. ورُوي عن ابن عباس وغيره، قالوا: لأن الرسولَ لم تزل معه سكينةٌ. وهذا لا ينافي تَجَدُّدَ سكينةٍ خاصَّةٍ بتلك الحال، ولهذا قال: ﴿وأيده بجنود لم تروها﴾، أي: الملائكة، ﴿وجعل كلمة الذين كفروا السفلى وكلمة الله هي العليا﴾.

قال ابن عباس: يعني: ﴿كلمة الذين كفروا﴾: الشرك و﴿كلمة الله﴾ هي: لا إلَه إلا الله.

وفي الصحيحين عن أبي موسى الأشعري ـ رضي الله عنه ـ قال: سُئِلَ رسولُ الله ـ ﷺ ـ عن الرجل يقاتل شجاعةً، ويقاتل حَمِيَّةً، ويقاتل رياءً، أيُّ ذلك في سبيل الله؟ فقال: من قاتل لتكون كلمةُ الله هي العليا فهو في سبيل الله(٢).

وقوله: ﴿والله عزيز﴾، أي: في انتقامه وانتصاره، منيع الجَناب، لا يُضام من لاذ ببابه، واحتمى بالتمسك بخطابه، ﴿حكيم﴾ في أقواله وأفعاله.

﴿ٱنفِرُوا۟ خِفَافًا وَثِقَالًا وَجَٰهِدُوا۟ بِأَمْوَٰلِكُمْ وَأَنفُسِكُمْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ ۚ ذَٰلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿٤١﴾﴾

قال سفيان الثوريُّ، عن أبيه، عن أبي الضُّحى مسلم بن صَبيح: هذه الآية: ﴿انفروا خفافاً وثقالاً﴾ أوَّلُ ما نزلَ من سورة براءةَ.

وقال معتمر بن سليمان، عن أبيه قال: زعم حَضْرميّ أنه ذكر له أن ناساً كانوا عسى أن يكون أحدهم عليلاً أو كبيراً، فيقول: إني لا آثم، فأنزل الله: ﴿انفروا خفافاً وثقالاً﴾... الآية.

(١) مسند الإمام أحمد ١/ ٤، وفتح الباري، تفسير سورة التوبة ٨/ ٣٢٥، ومسلم، كتاب فضائل الصحابة ١٨٥٤.
(٢) فتح الباري، كتاب العلم ١/ ٢٢٢ ومسلم، كتاب الإمارة ١٥١٢ ـ ١٥١٣.

أمر الله تعالى بالنفير العام مع الرسول ـ صلواتُ الله وسلامُه عليه ـ عام غزوة تبوك، لقتال أعداءِ الله من الروم الكفرة من أهل الكتاب، وحَتّم على المؤمنين في الخروج معه على كل حال في المَنْشَط والمَكْرَه، والعسر واليسر، فقال: ﴿انفروا خفافاً وثقالاً﴾.

وقال علي بن زيد، عن أنس، عن أبي طلحةَ: كُهولاً وشَباباً، ما أسمع الله عَذَر أحداً. ثم خرج إلى الشام فقاتل حتى قُتِل.

وفي رواية: قرأ أبو طلحة سورة براءة، فأتى على هذه الآية: ﴿انفروا خفافاً وثقالاً، وجاهدوا بأموالكم وأنفسكم في سبيل الله﴾، فقال: أرى رَبَّنا يستنفرنا شيوخاً وشَبَاباً، جَهِّزُوني يا بَنِيّ. فقال بَنُوه: يرحَمُكَ الله! قد غزوت مع رسول الله حتى مات، ومع أبي بكر حتى مات، ومع عمر حتى مات، فنحن نغزوا عنك. فأبى، فَرَكِبَ البحر فمات، فلم يجدوا له جَزِيرَةً يدفنونه فيها إلا بعد تسعة أيام، فلم يَتَغيَّر، فدفنوه بها.

وهكذا رُوي عن ابن عباس، وعكرمة، وأبي صالح، والحسن البصري، وشِمْر بن عَطِيَّة، ومُقاتل بن حَيَّان، والشعبي، وزيد بن أسلم: أنهم قالوا في تفسير هذه الآية: ﴿انفروا خفافاً وثقالاً﴾، قالوا: كهولاً وشباباً. وكذا قال عكرمة، والضحاك، ومقاتل بن حيان، وغير واحد.

وقال مجاهد: شباباً وشيوخاً، وأغنياء ومساكين. كذا قال أبو صالح، وغيره.

وقال الحكم بن عُتَيبَةَ: مشاغيل وغير مشاغيل.

وقال العوفي، عن ابن عباس في قوله تعالى: ﴿انفروا خفافاً وثقالاً﴾، يقول: انفروا نِشاطاً وغير نِشاطٍ. وكذا قال قتادة.

وقال ابن أبي نجيح، عن مجاهد: ﴿انفروا خفافاً وثقالاً﴾، قالوا: فإن فينا الثَّقِيلَ، وذا الحاجة والضيعة والشغل، والمتيسر به أمره؟ فأنزل الله وأبى أن يعذرهم دون أن ينفروا خفافاً وثقالاً وعلى ما كان منهم.

وقال الحسن بن أبي الحسن البصري أيضاً: في العسر واليسر. وهذا كله من مقتضيات العموم في الآية، وهذا اختيار ابن جرير.

وقال الإمام أبو عَمْرو الأوزاعيُّ: إذا كان النفير إلى دُروب الروم نَفَر الناس إليها خفافاً وركباناً، وإذا كان النفير إلى هذه السواحل نفروا إليها خفافاً وثقالاً، ركباناً ومشاة. وهذا تفصيل في المسألة.

وقد رُوي عن ابن عباس، ومحمد بن كعب، وعطاء الخراساني وغيرهم أن هذه الآية منسوخة بقوله تعالى: ﴿فلولا نفر من كل فرقة منهم طائفة﴾. وسيأتي الكلام على ذلك إن شاء الله.

وقال السُّدِّي قوله: ﴿انفروا خفافاً وثقالاً﴾، يقول: غنياً وفقيراً، وقوياً وضعيفاً. فجاءه رجل يومئذ ـ زعموا أنه المقداد ـ وكان عظيماً سميناً، فشكا إليه وسأله أن يأذن له، فأبى. فنزلت يومئذ: ﴿انفروا خفافاً وثقالاً﴾، فلما نزلت هذه الآية اشتد على الناس شأنها، فنسخها الله، فقال: ﴿ليس على الضعفاء ولا على المرضى ولا على الذين لا يجدون ما ينفقون حرج إذا نصحوا لله ورسوله﴾.

وقال ابن جرير: حدثني يعقوب، حدثنا ابن عُلَيَّة، حدثنا أيوب، عن محمد قال: شهد أبو أيوب مع رسول الله ـ ﷺ ـ بدراً ثم لم يتخلف عن غَزاة للمسلمين إلا وهو في آخرين إلا عاماً واحداً قال: وكان أبو أيوب يقول: قال الله: ﴿انفروا خفافاً وثقالاً﴾، فلا أجدني إلا خفيفاً أو ثقيلاً.

وقال ابن جرير: حدثني سعيد بن عمرو السَّكُونيُّ، حدثنَا بقيَّة، حدثنا حَريزٌ، حدثني عبد الرحمن بن ميسرة، حدثني أبو راشد الحُبْراني قال: وافيت المقداد بن الأسود فارس رسول الله ـ ﷺ ـ جالساً على تابوت من توابيت الصيارفة بحمص، وقد فضل عنها من عظَمه، يريد الغزو، فقلت له: لقد أعذر الله إليك. فقال: أتت علينا «سورة البُحُوث»(١): ﴿انفروا خفافاً وثقالاً﴾(٢).

وبه قال حَريز: حدثني حبّان بن زيد الشرعبي قال: نَفَرنا مع صَفوان بن عمرو، وكان والياً على حمص قِبَلَ الأفسُوس(٣)، إلى الجراجمة(٤) فلقيت شيخاً كبيراً هِمّاً(٥)، وقد سقط حاجباه على عينيه، من أهل دمشق، على راحلته، فيمن أغار. فأقبلت إليه فقلت: يا عم، لقد أعذَرَ الله إليك. قال: فرفع حاجِبَيه فقال: يا ابنَ أخي، استنفرنَا الله خفافاً وثقالاً، إنه من يحبه الله يبتليه، ثم يعيده الله فيبقيه. وإنما يبتلي الله من عباده من شكر وصبر وذكر، ولم يعبد إلا الله عز وجل(٦).

ثم رَغَّب تعالى في النفقة في سبيله، وبَذْلِ المُهَجِ في مرضاته ومرضاة رسوله، فقال ﴿وجاهِدُوا بأموالكم وأنفسكم في سبيل الله، ذلكم خير لكم إن كنتم تعلمون﴾، أي: هذا خيرٌ لكم في الدنيا والآخرة، ولأنكم تَغْرَمُون في النفقة قليلاً فيغنمكم الله أموال عدوكم في الدنيا، مع ما يَدّخر لكم من الكرامة في الآخرة، كما قال النبي ـ ﷺ ـ: «وتكَفَّلَ الله للمجاهد في سبيله إن توفاه أن يُدخِلَه الجنة، أو يردَّه إلى منزله نائلاً ما نالَ من أجرٍ أو غَنيمةٍ»(٧).

ولهذا قال تعالى: ﴿كُتِبَ عليكم القتالُ وهو كُرهٌ لكم، وعسى أن تكرهوا شيئاً وهو خير لكم، وعسى أن تُحِبُّوا شيئاً وهو شر لكم، والله يعلَمُ وأنتم لا تعلمونَ﴾.

ومن هذا القبيل ما رواه الإمام أحمد:

حدثنا محمد بـن أبي عَديٍّ، عن حميد، عن أنَس ٍ أنَّ رسولَ الله ـ ﷺ ـ قال لرجل: أَسْلِمْ. قال: أجِدُني كارهاً. قال: أسلم، وإن كنت كارهاً»(٨).

﴿ لَوْ كَانَ عَرَضًا قَرِيبًا وَسَفَرًا قَاصِدًا لَّاتَّبَعُوكَ وَلَٰكِنۢ بَعُدَتْ عَلَيْهِمُ الشُّقَّةُ ۚ وَسَيَحْلِفُونَ بِاللَّهِ لَوِ اسْتَطَعْنَا لَخَرَجْنَا مَعَكُمْ يُهْلِكُونَ أَنفُسَهُمْ وَاللَّهُ يَعْلَمُ إِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ ﴿٤٢﴾ ﴾

يقول تعالى موبِّخاً للذين تخلفوا عن النبي ـ ﷺ ـ في غزوة تبوك، وقعدوا عن النبي ـ ﷺ ـ بعدما استأذنوه في ذلك، مظهرين أنهم ذوو أعذار، ولم يكونوا كذلك، فقال: ﴿لو كان عرضاً قريبـاً﴾. قال ابن عباس: غنيمة قريبة. ﴿وسفراً قاصداً﴾، أي: قريباً أيضاً، ﴿لاتبعوك﴾، أي: لكانوا جاءُوا معك لذلك، ﴿ولكن بَعُدت

(١) سميت سورة التوبة بسورة البحوث لما تضمنته من البحث عن أسرار المنافقين، والبُحُوث: جمع بحث. وقد ذكر ابن الأثير في النهاية عن الفائق أنها البَحُوث ـ بفتح الباء ـ على وزن فَعُول، وهو من أبنية المبالغة، ويقع على الذكر والأنثى.
(٢) تفسير الطبري ١٠/ ١٣٩ ـ ١٤٠.
(٣) أفسوس: بلد بثغر طرسوس، وطرسوس: مدينة بثغور الشام بين أنطاكية وحلب وبلاد الروم.
(٤) الجراجمة: قوم من العجم بالجزيرة.
(٥) الهِمُّ: الشيخ الكبير الفاني.
(٦) تفسير الطبري ١٠/ ١٣٨.
(٧) فتح الباري، كتاب التوحيد ١٣/ ٤٤١، ومسلم، كتاب الإمارة ١٤٩٦.
(٨) مسند الإمام أحمد ٣/ ١٠٩، وانظر أيضاً المسند ٣/١٨١.

عليهم الشقة﴾، أي: المسافة إلى الشام، ﴿وسيحلفون بالله﴾، أي: لكم إذا رجعتم إليهم ﴿لو استطعنا لخرجنا معكم﴾، أي: لو لم تكن لنا أعذار لخرجنا معكم. قال الله تعالى: ﴿يهلكون أنفسهم، والله يعلم إنهم لكاذبون﴾.

﴿عَفَا اللَّهُ عَنكَ لِمَ أَذِنتَ لَهُمْ حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ لَكَ الَّذِينَ صَدَقُوا وَتَعْلَمَ الْكَاذِبِينَ ﴿٤٣﴾ لَا يَسْتَأْذِنُكَ الَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ أَن يُجَاهِدُوا بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ ۗ وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِالْمُتَّقِينَ ﴿٤٤﴾ إِنَّمَا يَسْتَأْذِنُكَ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَارْتَابَتْ قُلُوبُهُمْ فَهُمْ فِي رَيْبِهِمْ يَتَرَدَّدُونَ ﴿٤٥﴾﴾

قال ابن أبي حاتم: حدثنا أبي، حدثنا أبوحصين[1] بن سليمان الرازي، حدثنا سفيان بن عيينة، عن مسعر، عن عَون قال: هل سَمِعتُم بمعاتبةٍ أحسَنَ من هذا؟ بَدَأ بالعفو قبل المعاتبة فقال: ﴿عفا الله عنك، لم أذنت لهم﴾؟ وكذا قال مُوَرِّقٌ العِجْلي وغيره.

وقال قتادةُ: عاتبه كما تسمعون، ثم أنزل التي في سورة النور، فرخَّصَ له في أن يأذن لهم إن شاء: ﴿فإذا استأذنوك لبعض شأنهم فَأْذَنْ لمن شِئْتَ منهم﴾. وكذا رُوي عن عطاء الخراساني.

وقال مجاهد: نَزَلت هذه الآية في أُناس قالوا: استأذِنُوا رسول الله فإن أَذِنَ لكم فاقعدوا، وإن لم يأذن لكم فاقعدوا.

ولهذا قال تعالى: ﴿حتَّى يَتَبَيَّن لك الذين صَدَقوا﴾، أي: في إبداء الأعذار، ﴿وتعلم الكاذبين﴾، يقول تعالى: هَلَّا تَرَكتهم لما استأذنوك، فلم تأذن لأحد منهم في القعود، لتعلم الصادِقَ منهم في إظهار طاعتك من الكاذب، فإنهم قد كانوا مُصِرِّين على القعود [عن الغزو] وإن لم تأذن لهم فيه. ولهذا أخبر تعالى أنه لا يستأذنه في القعود عن الغزو أحد يؤمن بالله ورسوله، فقال: ﴿لا يستأذنك﴾، أي: في القعود عن الغزو ﴿الذين يؤمنون بالله واليوم الآخر أن يُجاهدوا بأموالهم وأنفسهم﴾، لأن أولئك يَرون الجهاد قُربَةً، ولما نَدَبهم إليه بَادَرُوا وامتثلوا، ﴿والله عليم بالمتقين * إنما يستأذنك﴾، أي: في القعود ممن لا عذر له ﴿الذين لا يؤمنون بالله واليوم الآخر﴾، أي: لا يرجون ثواب الله في الدار الآخرة على أعمالهم، ﴿وارتابت قلوبهم﴾، أي: شَكَّتْ في صِحَّة ما جِئتَهم به، ﴿فهم في ريبهم يترددون﴾، أي: يتحيرون، يُقَدِّمون رِجلاً ويؤخرون أخرى، وليست لهم قَدَم ثابتة في شيء، فهم قوم حَيارى هَلْكى، لا إلى هؤلاء ولا إلى هؤلاء، ومن يضلل الله فلن تجد له سبيلاً.

﴿۞ وَلَوْ أَرَادُوا الْخُرُوجَ لَأَعَدُّوا لَهُ عُدَّةً وَلَٰكِن كَرِهَ اللَّهُ انبِعَاثَهُمْ فَثَبَّطَهُمْ وَقِيلَ اقْعُدُوا مَعَ الْقَاعِدِينَ ﴿٤٦﴾ لَوْ خَرَجُوا فِيكُم مَّا زَادُوكُمْ إِلَّا خَبَالًا وَلَأَوْضَعُوا خِلَالَكُمْ يَبْغُونَكُمُ الْفِتْنَةَ وَفِيكُمْ سَمَّاعُونَ لَهُمْ ۗ وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِالظَّالِمِينَ ﴿٤٧﴾﴾

يقول تعالى: ﴿ولو أرادوا الخروج﴾، أي: معك إلى الغزو ﴿لأعدوا له عدة﴾، أي: لكانوا تأهبوا له، ﴿ولكن كره الله انبعاثهم﴾، أي: أبغض أن يخرجوا معك قَدراً، ﴿فثبطهم﴾، أي أخرهم، ﴿وقيل: اقعدوا مع القاعدين﴾، أي: قدراً.

(١) مترجم في الجرح لابن أبي حاتم ٣٦٤/٩، وفيها: «أبوحصين بن يحيى بن سليمان».

ثم بين وجه كراهيته لخروجهم مع المؤمنين، فقال: ﴿لو خرجوا فيكم ما زادوكم إلا خبالاً﴾، أي: لأنهم جبناء مخذولون، ﴿ولأوضعوا خلالكم يبغونكم الفتنة﴾، أي: ولأسرعوا السير والمشي بينكم بالنميمة والبغضاء والفتنة، ﴿وفيكم سماعون لهم﴾، أي: مطيعون لهم ومستحسنون لحديثهم وكلامهم، يستنصحونهم وإن كانوا لا يعلمون حالهم، فيؤدي هذا إلى وقوع شر بين المؤمنين وفساد كبير.

وقال مجاهد، وزيد بن أسلم، وابن جرير: ﴿وفيكم سماعون لهم﴾، أي: عيون يسمعون لهم الأخبار وينقلونها إليهم.

وهذا لا يبقى له اختصاص لخروجهم معهم، بل هذا عام في جميع الأحوال، والمعنى الأول أظهر في المناسبة بالسياق، وإليه ذهب قتادة وغيره من المفسرين.

وقال محمد بن إسحاق: كان - فيما بلغني - من استأذن من ذوي الشرف منهم: عبد الله بن أبي بن سلول والجدُّ بن قيس، وكانوا أشرافاً في قومهم، فَثَبَّطهم الله، لعلمه بهم، أن يخرجوا معه، فيفسدوا عليه جنده. وكان في جنده قوم أهل محبة لهم وطاعة فيما يدعونهم إليه، لشرفهم فيهم، فقال: ﴿وفيكم سَمَّاعُونَ لهم﴾.

ثم أخبر تعالى عن تَمام علمه فقال: ﴿والله عليم بالظالمين﴾، فأخبر بأنه يعلَمُ ما كان، وما يكون، وما لم يكن - لو كان - كيف كان يكون. ولهذا قال تعالى: ﴿لو خرَجوا فيكم ما زادوكم إلا خبالاً﴾، فأخبر عن حالهم كيف يكون لو خرجوا ومع هذا ما خرجوا، كما قال تعالى: ﴿ولو رُدُّوا لعادوا لما نهوا عنه وإنهم لكاذبون﴾، وقال تعالى: ﴿ولو علم الله فيهم خيراً لأسمعهم، ولو أسمعهم لتولوا وهم معرضون﴾، وقال تعالى: ﴿ولو أنا كتبنا عليهم أن اقتلوا أنفسكم أو اخرجوا من دياركم ما فعلوه إلا قليل منهم، ولو أنهم فعلوا ما يوعظون به لكان خيراً لهم وأشد تثبيتاً * وإذاً لآتيناهم من لدنا أجراً عظيماً * ولهديناهم صراطاً مستقيماً﴾، والآياتُ في هذا كثيرةٌ.

﴿لَقَدِ ٱبْتَغَوُا۟ ٱلْفِتْنَةَ مِن قَبْلُ وَقَلَّبُوا۟ لَكَ ٱلْأُمُورَ حَتَّىٰ جَآءَ ٱلْحَقُّ وَظَهَرَ أَمْرُ ٱللَّهِ وَهُمْ كَـٰرِهُونَ ﴿٤٨﴾﴾

يقول تعالى مُحرِّضاً لنبيه - عليه السلام - على المنافقين: ﴿لقد ابتغوا الفتنةَ من قبلُ، وقلَّبوا لك الأمورَ﴾، أي: لقد أعملوا فكرهم وأجالوا آراءهم في كيدك وكيد أصحابك وخِذْلانِ دينك وإخماله مدَّةً طويلةً، وذلك أول مَقْدَم النبي - ﷺ - المدينةَ، رَمَتْه العربُ عن قَوْسٍ واحدةٍ، وحاربته يهودُ المدينة ومنافقوها، فلمَّا نَصَره الله يومَ بدرٍ وأعلى كلمته، قال عبد الله بن أُبيٍّ وأصحابه: هذا أمر قد تَوَجَّهَ[1]. فدخلوا في الإسلام ظاهراً، ثم كُلَّما أعز الله الإسلامَ وأهله غاظهم ذلك وساءهم، ولهذا قال تعالى: ﴿حتى جاء الحقُّ وظَهَرَ أمر الله وهم كارهون﴾.

﴿وَمِنْهُم مَّن يَقُولُ ٱئْذَن لِّى وَلَا تَفْتِنِّىٓ ۚ أَلَا فِى ٱلْفِتْنَةِ سَقَطُوا۟ ۗ وَإِنَّ جَهَنَّمَ لَمُحِيطَةٌۢ بِٱلْكَـٰفِرِينَ ﴿٤٩﴾﴾

يقول تعالى: ومن المنافقين من يقول لك يا محمد: ﴿ائذن لي﴾ في القعود ﴿ولا تَفْتِنِّي﴾ بالخروج معك، بسبب الجواري من نساء الروم. قال الله تعالى: ﴿ألا في الفتنة سقطوا﴾، أي: قد سقطوا في الفتنة بقولهم هذا، كما قال محمد بن إسحاقَ، عن الزُّهري، ويزيد بن رُومانَ، وعبد الله بن أبي بكر، وعاصم بن عُمَر بن قتادةَ وغيرهم قالوا: قال رسولُ الله - ﷺ - ذاتَ يوم، وهو في جهازِه، للجَدِّ بن قيس أخي بني سَلِمَةَ: هل لك يا جَدُّ العامَ في جِلَادِ بني الأصفر؟ فقال: يا رسول الله، أو تأذنُ لي ولا تَفْتِنِّي، فوالله لقد عَرَفَ قومي ما رجلٌ أشدُّ عجباً بالنساء مني، وإني أخشى إن رأيتُ نساء بني الأصفرِ ألَّا أصْبِرَ عنهنَّ. فأعرضَ عنه رسولُ

---

(١) أي: انتهى.

الله ـ ﷺ ـ وقال: قد أَذِنْتُ لك. ففي الجدِّ بن قيس نزلت هذه: ﴿ومنهُم من يقول: ائذَنْ لي ولا تفتنِّي﴾ . . . الآية، أي: إن كان إنما يخشَى من نساء بني الأصفر وليس ذلك به، فما سقط فيه من الفتنة بتخلُّفه عن رسول الله ـ ﷺ ـ والرغبة بنفسه عن نفسه، أعظم[1].

وهكذا رُوِي عن ابن عباس، ومجاهد، وغير واحد: أنها نزلت في الجَدّ بن قيس. وقد كان الجد بن قيس هذا من أشراف بني سَلِمة، وفي الصحيح أن رسول الله ـ ﷺ ـ قال لهم: «من سيدكم يا بني سَلِمَةَ؟ قالوا: الجَدُّ بن قيس، علي أنا نُبَخِّله. فقال رسول الله ـ ﷺ ـ: وأيّ داءٍ أدْوَأُ من البخل؟! ولكن سَيِّدكم الفتى الأبيض الجَعْدُ بشرُ بن البراء بن مَعْرُورٍ»[2].

وقوله تعالى: ﴿وإن جهنم لمحيطة بالكافرين﴾، أي: لا مَحيد لهم عنها، ولا مَحيص، ولا مَهرَب.

﴿ إِن تُصِبْكَ حَسَنَةٌ تَسُؤْهُمْ وَإِن تُصِبْكَ مُصِيبَةٌ يَقُولُوا۟ قَدْ أَخَذْنَآ أَمْرَنَا مِن قَبْلُ وَيَتَوَلَّوا۟ وَّهُمْ فَرِحُونَ ﴿٥٠﴾ قُل لَّن يُصِيبَنَآ إِلَّا مَا كَتَبَ ٱللَّهُ لَنَا هُوَ مَوْلَىٰنَا ۚ وَعَلَى ٱللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ ٱلْمُؤْمِنُونَ ﴿٥١﴾ ﴾

يُعلِم تبارك وتعالى نبيه بعداوة هؤلاء له، لأنه مهما أصابه من ﴿حسنة﴾، أي: فتح ونصر وظفر على الأعداء، مما يَسُرُّه[3] ويَسُرّ أصحابه، ساءهم ذلك، ﴿وإن تصبك مصيبة يقولوا قد أخذنا أمرنا من قبل﴾، أي: قد احترزنا من متابعته من قبل هذا، ﴿ويتولوا وهم فرحون﴾. فأرشد الله تعالى رسوله ـ صلوات الله وسلامه عليه ـ إلى جوابهم في عداوتهم هذه التامة. فقال: ﴿قل﴾، أي: لهم ﴿لن يصيبنا إلا ما كتب الله لنا﴾، أي: نحن تحت مشيئة الله وقدره، ﴿هو مولانا﴾، أي: سيدنا ومَلْجَؤُنا ﴿وعلى الله فليتوكل المؤمنون﴾، أي: ونحن متوكلون عليه، وهو حسبنا ونعم الوكيل.

﴿ قُلْ هَلْ تَرَبَّصُونَ بِنَآ إِلَّآ إِحْدَى ٱلْحُسْنَيَيْنِ ۖ وَنَحْنُ نَتَرَبَّصُ بِكُمْ أَن يُصِيبَكُمُ ٱللَّهُ بِعَذَابٍ مِّنْ عِندِهِۦٓ أَوْ بِأَيْدِينَا ۖ فَتَرَبَّصُوٓا۟ إِنَّا مَعَكُم مُّتَرَبِّصُونَ ﴿٥٢﴾ قُلْ أَنفِقُوا۟ طَوْعًا أَوْ كَرْهًا لَّن يُتَقَبَّلَ مِنكُمْ ۖ إِنَّكُمْ كُنتُمْ قَوْمًا فَٰسِقِينَ ﴿٥٣﴾ وَمَا مَنَعَهُمْ أَن تُقْبَلَ مِنْهُمْ نَفَقَٰتُهُمْ إِلَّآ أَنَّهُمْ كَفَرُوا۟ بِٱللَّهِ وَبِرَسُولِهِۦ وَلَا يَأْتُونَ ٱلصَّلَوٰةَ إِلَّا وَهُمْ كُسَالَىٰ وَلَا يُنفِقُونَ إِلَّا وَهُمْ كَٰرِهُونَ ﴿٥٤﴾ ﴾

يقول تعالى: ﴿قل﴾ لهم يا مُحَمَّدُ: ﴿هل تربصون بنا﴾ أي: تنتظرون بنا ﴿إلا إحدى الحسنيين﴾: شهادَة أو ظَفَرٌ بكم. قاله ابن عباس، ومجاهد، وقتادةُ، وغيرهم. ﴿ونحن نتربَّصُ بكم أن يُصِيبكم الله بعذابٍ من عنده أو بأيدينا﴾، أي: ننتظر بكم هذا أو هذا، إما أن يصيبكم الله بقارعةٍ من عنده أو بأيدينا، بقتل أو بسَبْيٍ، ﴿فتربَّصُوا إنا معكم مُتَربِّصُون﴾.

وقوله: ﴿قل أنفقوا طوعاً أو كرهاً﴾، أي: مهما أنفقتم من نفقة طائعين أو مكرهين ﴿لن يُتَقَبَّل منكم، إنكم كنتم قوماً فاسقين﴾.

---

(١) تفسير الطبري ١٠/ ١٤٨ ـ ١٤٩، وسيرة ابن هشام ٢/ ٥١٦.
(٢) مسند الإمام أحمد ٣/ ٣٠٨. وانظر سيرة ابن هشام ١/ ٤٦١.
(٣) في الأصل: مما يسره الله.

ثم أخبر تعالى عن سبب ذلك، وهو أنهم لا يُتَقَبَّل منهم، ﴿لأنهم كفروا بالله وبرسوله﴾، أي قد كفروا والأعمال إنما تصح بالإيمان، ﴿ولا يأتون الصلاة إلا وهم كسالى﴾، [أي: ليس لهم قصد صحيح، ولا همة في العمل]، ﴿ولا ينفقون﴾ نفقة ﴿إلا وهم كارهون﴾.

وقد أخبر الصادق المصدوق أن الله لا يَمَلُّ حتى تَمَلُّوا، وأنه طيب لا يقبل إلّا طيباً. فلهذا لا يتقبل الله من هؤلاء نفقة ولا عملاً، لأنه إنما يتقبل من المتقين.

﴿فَلَا تُعْجِبْكَ أَمْوَٰلُهُمْ وَلَآ أَوْلَـٰدُهُمْۚ إِنَّمَا يُرِيدُ ٱللَّهُ لِيُعَذِّبَهُم بِهَا فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَتَزْهَقَ أَنفُسُهُمْ وَهُمْ كَـٰفِرُونَ ﴿٥٥﴾﴾

يقولُ تعالى لرسوله ـ صلواتُ الله وسلامُه عليه ـ: ﴿فلا تُعجِبْك أموالُهم ولا أولادُهم﴾، كما قال: ﴿ولا تَمُدَّن عينيك إلى ما متَّعنا به أزواجاً منهم زهرةَ الحياة الدنيا لنفتنهم فيه، ورزقُ ربِّك خيرٌ وأبقى﴾، وقال: ﴿أيحسبون أن ما نمدهم به من مال وبنين. نسارع لهم في الخيرات بل لا يشعرون﴾.

وقوله: ﴿إنما يريد الله ليعذبهم بها في الحياة الدنيا﴾، قال الحسن البصري: بزكاتها، والنفقة منها في سبيل الله.

وقال قتادة: هذا من المقدم والمؤخر، تقديره: فلا تُعْجِبْك أموالهم ولا أولادهم في الحياة الدنيا إنما يُرِيدُ الله لِيعذِّبَهم بها [في الآخرة].

واختار ابنُ جرير(١) قولَ الحسن، وهو القولُ القويُّ الحَسَنُ.

وقوله: ﴿وتزهَقَ أنفسهم وهم كافرون﴾، أي: ويريد أن يميتهم حين يميتهم على الكفر، ليكون ذلك أنكى لهم وأشد لعذابهم، عياذاً بالله من ذلك، وهذا يكون من باب الاستدراج لهم فيما هم فيه.

﴿وَيَحْلِفُونَ بِٱللَّهِ إِنَّهُمْ لَمِنكُمْ وَمَا هُم مِّنكُمْ وَلَـٰكِنَّهُمْ قَوْمٌ يَفْرَقُونَ ﴿٥٦﴾ لَوْ يَجِدُونَ مَلْجَـًٔا أَوْ مَغَـٰرَٰتٍ أَوْ مُدَّخَلًا لَّوَلَّوْا۟ إِلَيْهِ وَهُمْ يَجْمَحُونَ ﴿٥٧﴾﴾

يخبر تعالى نبيه ـ صلواتُ الله وسلامُه عليه ـ عن جَزَعهم وفزعهم وفَرَقهم وهَلَعهم أنهم ﴿يحلفون بالله إنهم لمنكم﴾، يميناً مؤكدة، ﴿وما هم منكم﴾، أي: في نفس الأمر، ﴿ولكنهم قوم يفرقون﴾، أي: فهو الذي حملهم على الحلف. ﴿لو يَجِدونَ مَلْجَأً﴾، أي: حِصْناً يتحصَّنون به، وحِرْزاً يحترزُونَ به، ﴿أو مغاراتٍ﴾، وهي التي في الجبال، ﴿أو مُدَّخلاً﴾، وهو السَّرَب في الأرض والنفَق. قال ذلك في الثلاثة ابنُ عباس، ومجاهد، وقتادة ـ ﴿لولَّوا إليه وهم يجمَحُون﴾، أي: يسرعون في ذهابهم عنكم، لأنهم إنما يخالطونكم كرهاً لا محبة، وودوا أنهم لا يخالطونكم، ولكن للضرورة أحكام، ولهذا لا يزالون في هم وحزن وغَمّ، لأن الإسلامَ وأهلَه لا يزال في عزّ ونصر ورفعة، فلهذا كلما سُرّ المؤمنون ساءهم ذلك، فهم يَوَدُّون ألا يخالطوا المؤمنين، ولهذا قال: ﴿لو يجدون ملجأ أو مغارات أو مدخلاً لولوا إليه وهم يجمحون﴾.

﴿وَمِنْهُم مَّن يَلْمِزُكَ فِى ٱلصَّدَقَـٰتِ فَإِنْ أُعْطُوا۟ مِنْهَا رَضُوا۟ وَإِن لَّمْ يُعْطَوْا۟ مِنْهَآ إِذَا هُمْ يَسْخَطُونَ ﴿٥٨﴾ وَلَوْ أَنَّهُمْ

(١) تفسير الطبري ١٠/ ١٥٣.

رَضُوا مَآ ءَاتَىٰهُمُ ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥ وَقَالُوا۟ حَسْبُنَا ٱللَّهُ سَيُؤْتِينَا ٱللَّهُ مِن فَضْلِهِۦ وَرَسُولُهُۥٓ إِنَّآ إِلَى ٱللَّهِ رَٰغِبُونَ ﴿٥٩﴾﴾

يقول تعالى: ﴿ومنهم﴾، أي: ومن المنافقين ﴿من يلمزك﴾، أي: يَعِيبُ عليك ﴿في﴾ قَسْم ﴿الصدقات﴾ إذا فرقتها، ويَتَّهِمُكَ في ذلك، وهم المتَّهَمُون المأبونُون، وهم مع هذا لا ينكرون للدين، وإنما ينكرون لحظِّ أنفسهم، ولهذا إن أعطوا من الزكاة رضوا، وإن لم يعطوا منها إذا هم يسخطون، أي: يغضبون لأنفسهم.

قال ابن جُرَيج: أخبرني داود بن أبي عاصم قال: أتى النبي ـ ﷺ ـ بصدقة فقسمها ها هنا وها هنا حتى ذهبت. قال: ووراءه رجل من الأنصار فقال: ما هذا بالعدل! فنزلت هذه الآية.

وقال قتادة في قوله: ﴿ومنهم من يلمزك في الصدقات﴾، يقول: ومنهم من يطعُنُ عليك في الصدقات. وذُكر لنا أن رجلاً من البادية حديثَ عهدٍ بأعرابية، أتى رسول الله ـ ﷺ ـ وهو يقسم ذهباً وفضة، فقال: يا محمد، والله لئن كان الله أمرك أن تعدل، ما عدلت. فقال نبي الله ـ ﷺ ـ: ويلك. فمن ذا يعدل عليك بعدي؟! ثم قال نبي الله: احذروا هذا وأشباهه فإن في أمتي أشباه هذا، يقرأون القرآن لا يجاوز تَرَاقيَهم، فإذ خرجوا فاقتلوهم، ثم إذا خرجوا فاقتلوهم، ثم إذا خرجوا فاقتلوهم. وذُكر لنا أن نبي الله ـ ﷺ ـ كان يقول: والذي نفسي بيده، ما أعطيكم شيئاً ولا أمنعكموه، إنما أنا خازن.

وهذا الذي ذكره قتادة شَبِيهٌ بما رواه الشيخان من حديث الزهري، عن أبي سَلَمة، عن أبي سعيد في قصة ذي الخُوَيصرة ـ واسمه حُرْقُوصٌ ـ لما اعترض على النبي ـ ﷺ ـ حين قَسَم غَنائم حنين، فقال له: اعدِلْ، فإنك لم تَعْدِلْ. فقال: لقد خِبْتُ وخَسِرْتُ إن لم أكن أعدِلْ. ثم قال رسول الله ـ ﷺ ـ وقد رآه مُقَفِّياً: إنه يخرج من ضِئْضِيء هذا قوم يَحقِرُ أحدُكم صلاتَه مع صلاتِهم، وصيامَه مع صيامِهم، يمرقُون من الدين مُرُوق السهم من الرمية، فأينما لقيتموهم فاقتُلوهم، فإنهم شرُّ قتلى تحتَ أديمِ السماء»[1]... وذكر بقية الحديث.

ثم قال تعالى مُنَبِّهاً لهم على ما هو خيرٌ من ذلك لهم، فقال: ﴿ولو أنهم رضوا ما آتاهم الله ورسوله وقالوا: حسبنا الله سيؤتينا الله من فضله ورسوله إنا إلى الله راغبون﴾ فتَضمَّنَتْ هذه الآيةُ الكريمةُ أدباً عظيماً وسراً شريفاً، حيث جعل الرضـا بما آتاه الله ورسوله والتوكل على الله وحده، وهو قوله: ﴿وقالوا حسبنا الله﴾. وكذلك الرغبة إلى الله وحده في التوفيق لطاعة الرسول وامتثال أوامره، وترك زواجره، وتصديق أخباره، والاقتفاء بآثاره.

﴿۞ إِنَّمَا ٱلصَّدَقَـٰتُ لِلْفُقَرَآءِ وَٱلْمَسَـٰكِينِ وَٱلْعَـٰمِلِينَ عَلَيْهَا وَٱلْمُؤَلَّفَةِ قُلُوبُهُمْ وَفِى ٱلرِّقَابِ وَٱلْغَـٰرِمِينَ وَفِى سَبِيلِ ٱللَّهِ وَٱبْنِ ٱلسَّبِيلِ ۖ فَرِيضَةً مِّنَ ٱللَّهِ ۗ وَٱللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴿٦٠﴾﴾

لما ذكر تعالى اعتراضَ المنافقين الجَهَلةِ على النبيِّ ـ ﷺ ـ ولَمْزَهمْ إياه في قَسْم الصدقات، بَيّن تعالى أنه هو الذي قَسَمها وبيَّن حكمها، وتولّى أمرها بنفسه، ولم يَكِلْ قَسْمها إلى أحدٍ غيره، فجزّأها لهؤلاء المذكورين، كما رواه الإمام أبو داود في سننه من حديث عبد الرحمن بن زياد بن أَنْعُم ـ وفيه ضعف ـ عن زياد ابن نُعَيم، عن زياد بن الحارث الصُّدَائي ـ رضي الله عنه ـ قال: أتيت النبيَّ ـ ﷺ ـ فبايعته، فأتى رجل فقال:

(١) فتح الباري، كتاب المناقب ٦/ ٦١٧ ـ ٦١٨، ومسلم، كتاب الزكاة ٧٤٤، ومسند الإمام أحمد ٣/ ٥٦، ٦٥.

أَعْطِني من الصدقة فقال له: «إن الله لم يَرْضَ بحكم نبيٍّ ولا غيرِه في الصدقات حتى حَكم فيها هو، فَجَزَّأَها ثمانية أصناف، فإن كنت من تلك الأجزاءِ أعطيتُك»(١).

وقد اختلف العلماء في هذه الأصناف الثمانية: هل يجب استيعاب الدفع إليها أو إلى ما أمكن منها؟ على قولين:

أحدهما: أنه يجب ذلك، وهو قول الشافعي وجماعة.

والثاني: أنه لا يجب استيعابها، بل يجوز الدفع إلى واحد منها، ويعطى جميعَ الصدقة مع وجود الباقين. وهو قول مالك وجماعة من السلف والخلف، منهم: عمر، وحذيفة، وابن عباس، وأبو العالية، وسعيد بن جبير، وميمون بن مهران.

قال ابن جرير: وهو [قولُ] عامَّة أهل العلم، وعلى هذا فإنما ذكرت الأصناف ها هنا لبيان المصرف لا لوجوب استيعاب الإعطاء(٢).

ولوجوه الحجاج والمآخذ مكان غير هذا، والله أعلم.

وإنما قَدَّم الفقراء ها هنا لأنهم أحوجُ من البقية على المشهور، لشدَّة فاقتهم وحاجتهم، وعند أبي حنيفة أن المسكين أسوأ حالاً من الفقير، وهو كما قال، قال ابن جرير:

حدثني يعقوب، حدثنا ابن عُلَيّة، أنبأنا ابن عون، عن محمد قال: قال عمر ـ رضي الله عنه ـ: الفقير ليس بالذي لا مال له، ولكن الفقير الأخلق الكسب. قال ابن علية: «الأخلق»: المحارَفُ عندنا(٣).

والجمهورُ على خلافه. ورُوي عن ابن عباس، ومجاهد، والحسن البصري، وابن زيد. واختار ابنُ جرير وغير واحد أن الفقير هو المتعفِّفُ الذي لا يسألُ الناسَ شيئاً، والمسكينُ هو الذي يسألُ ويطوفُ ويتّبع الناس.

وقال قتادةُ: «الفقير» من به زَمَانةٌ، «والمسكين» الصحيحُ الجسمِ.

وقال الثوريُّ، عن منصور، عن إبراهيم: هم فقراء المهاجرين. قال سفيان الثوري: يعني ولا يُعطَى الأعرابُ منها شيئاً.

وكذا رُوِيَ عن سعيد بن جُبَير، وسعيد بن عبد الرحمن بن أَبْزَى.

وقال عكرمة: لا تقولوا لفقراء المسلمين مساكين، وإنما المساكين [مساكين] أهل الكتاب.

ولنذكر أحاديث تتعلق بكل من الأصناف الثمانية:

فأما «الفقراء»، فعن ابن عمرو قال: قال رسول الله ـ ﷺ ـ: «لا تحل الصدقة لغنيّ ولا لذي مِرَّة(٤) سَوِيٍّ». رواه أحمد، وأبو داود، والترمذي(٥).

ولأحمد أيضاً، والنسائي، وابن ماجه عن أبي هريرة، مثله(٦).

---

(١) سنن أبي داود، كتاب الزكاة ٢/ ١١٧.

(٢) تفسير الطبري ١٠/ ١٦٦.

(٣) المحارَفُ: المنقوصُ الحظِّ المحروم، إذا طلب الرزق لم يرزق، ضدّ المبارك.

(٤) المِرَّة: القوة. والسويّ: السليم.

(٥) مسند الإمام أحمد ٢/ ١٦٤، ١٩٢، وسنن أبي داود، كتاب الزكاة ٣/ ١١٨، وتحفة الأحوذي، أبواب الزكاة ٣/ ٣١٦ـ ٣١٧.

(٦) المسند ٢/ ٣٧٧، ٣٨٩، والنسائي، كتاب الزكاة ٥/ ٩٩، وابن ماجه، كتاب الزكاة ١/ ٥٨٩.

وعن عبيد الله بن عَديّ بن الخيار: أن رجلين أخبراه: أنهما أتيا النبي ـ ﷺ ـ يسألانه من الصدقة، فقلَّبَ فيهما البصَرَ، فرآهما جَلْدَين. فقال: «إن شئتما أعطيتُكما، ولا حَظّ فيها لغني ولا لقوي مكتسب».

رواه أحمد، وأبو داود، والنسائي بإسناد جيد قوي[1].

وقال ابن أبي حاتم في كتاب الجرح والتعديل: «أبو بكر العَبْسي قال: قرأ عمر ـ رضي الله عنه ـ ﴿إنما الصدقات للفقراء﴾، قال: هم أهل الكتاب، روى عنه عمر بن نافع، سمعت أبي يقول ذلك»[2].

قلت: وهذا قول غريب جداً بتقدير صحة الإسناد، فإن أبا بكر هذا، وإن لم ينص أبو حاتم على جهالته، لكنه في حكم المجهول.

وأما ﴿المساكين﴾، فعن أبي هُرَيرة ـ رضي الله عنه ـ أنَّ رسول الله ـ ﷺ ـ قال: «ليس المسكينُ بهذا الطّواف الذي يَطُوف على الناس، فَتَرُدُّه اللقمةُ واللقمتان، والتمرةُ والتمرتان. قالوا: فما المسكين يا رسولَ الله؟ قال: الذي لا يَجِدُ غِنىً يُغْنِيه، ولا يُفْطَنُ له فيُتَصَدَّقَ عليه، ولا يسأل الناسَ شيئاً».

رواه الشيخان البخاريّ ومسلم[3].

وأما ﴿العاملون عليها﴾ فهم الجباة والسّعاة يستحقون منها قسطاً على ذلك، ولا يجوز أن يكونوا من أقرباء رسول الله ـ ﷺ ـ الذين تحرم عليهم الصدقة، لما ثبت في صحيح مسلم، عن عبد المطلب بن ربيعة بنِ الحارث: أنه انطلق هو والفضلُ بن عباس يسألان رسول الله ـ ﷺ ـ ليستعملهما على الصدقة، فقال: «إنّ الصدقةَ لا تحِلُّ لمحمدٍ ولا لآلِ مُحمَّدٍ، إنما هي أوساخُ الناسِ»[4].

وأما ﴿المؤلفة قلوبهم﴾ فأقسام، منهم من يعطى ليُسلم، كما أعطى النبي ـ ﷺ ـ صفوان بن آمية من غنائم حُنين، وقد كان شهدها مشركاً، قال: فلم يزل يعطيني حتى صار أحبَّ الناس إليَّ بعد أن كان أبغضَ الناس إليّ، كما قال الإمام أحمد:

حدثنا زكريا بن عديٍّ، أنا ابنُ المبارك، عن يونُس، عن الزهريِّ، عن سعيد بن المسيَّبِ، عن صفوانَ ابن أميَّةَ قال: أعطاني رسولُ الله ـ ﷺ ـ يوم حُنَين، وإنه لأبغض الناس إلي، فما زال يعطِيني حتى إنه لأحبُّ الناس إليّ[5]. ورواه مسلم والترمذيّ، من حديث يونس، عن الزهري، به[5].

ومنهم من يُعطَى ليحسُن إسلامه، ويثبت قلبه، كما أعطى يوم حنين أيضاً جماعة من صناديد الطلقاء وأشرافهم: مائة من الإبل، مائة من الإبل، وقال: «إني لأعطِي الرجلَ وغيرُه أحبُّ إليَّ منه، مخافَةَ أن يَكُبَّه الله على وجهه في نار جَهنَّم»[6].

وفي الصحيحين عن أبي سعيد: أن علياً بعث إلى النبي ـ ﷺ ـ بِذُهَيْبَةٍ في تربتها من اليمن فقسمها بين

---

(١) المسند ٤/ ٢٢٤، ٥/ ٣٦٢، وسنن أبي داود، كتاب الزكاة ٢/ ١١٨، والنسائي، كتاب الزكاة ٥/ ٩٩ ـ ١٠٠.

(٢) هذه ترجمة أبي بكر العَبْسيّ في الجرح ٩/٣٤١. وفي الجرح سقط يُكَمَّل بما ذكره ابن كثير هنا.

(٣) أخرجاه في كتاب الزكاة، فتح الباري ٣/ ٣٤٠، ومسلم ٧١٩.

(٤) مسلم، كتاب الزكاة ٢/٧٥٣.

(٥) المسند ٦/٤٦٥. ومسلم، كتاب الفضائل ١٨٠٦، وتحفة الأحوذي، أبواب الزكاة ٣/٣٣٣ ـ ٣٣٤.

(٦) أخرجاه في كتاب الزكاة، فتح الباري ٣/ ٣٤٠، ومسلم ٧٣٣.

أربعة نفر: الأقرع بن حابس، وعُيَينة بن بدر، وعلقمة بن عُلاثة، وزيدِ الخير، وقال: أتألفهم[١].

ومنهم من يُعطَى لما يرجى من إسلام نظرائه. ومنهم من يُعطَى ليجبي الصدقات ممن يليه، أو ليدفع عن حَوزة المسلمين الضرر من أطراف البلاد. ومحل تفصيل هذا في كتب الفروع، والله أعلم.

وهل تعطى المؤلفة على الإسلام بعد النبي ﷺ؟ فيه خلاف، فرُوي عن عُمَر، وعامر الشَّعبي وجماعة: أنهم لا يُعطَون بعده، لأن الله قد أعز الإسلام وأهله، ومكّن لهم في البلاد، وأذل لهم رقاب العباد[٢].

وقال آخرون: بل يُعطَون؛ لأنه ـ عليه الصلاة والسلام ـ قد أعطاهم بعد فتح مكة وكسر هَوازن، وهذا أمر قد يحتاج إليه فيصرف إليه.

وأما ﴿الرقاب﴾، فرُوِيَ عن الحسن البصريِّ، ومُقاتل بن حَيّان، وعُمَر بن عبد العزيز، وسعيد بن جُبَير، والنخَعي، والزهريِّ، وابن زيد: أنهم المكاتَبُون، ورُوِي عن أبي موسى الأشعريِّ نحوه، وهو قولُ الشافعي والليث.

وقال ابن عباس، والحسن: لا بأس أن تُعتَقَ الرقبةُ من الزكاة، وهو مذهبُ الإمام أحمدَ بن حنبل، ومالك، وإسحاق، أي: إن الرقابَ أعمُّ من أن يُعطِيَ المكاتَبُ، أو يشتري رقبةً فيعتقها استقلالاً. وقد ورد في ثواب الإعتاق وفك الرقبة أحاديث كثيرة، وإن الله يَعْتِقُ بكل عضو منها عضواً من مُعتقها حتى الفَرْج بالفرج، وما ذاك إلا لأن الجزاء من جنس العمل، ﴿وما تجزون إلاّ ما كنتم تعملون﴾.

وعن أبي هُرَيرة ـ رضي الله عنه ـ أن النبي ـ ﷺ ـ قال: «ثلاثة حَقٌّ على الله عَوْنُهم: الغازي في سبيل الله، والمكاتَبُ الذي يريد الأداءَ، والناكحُ الذي يُريد العفافَ». رواه الإمام أحمد وأهل السنن إلا أبا داود[٣].

وفي المسند عن البراء بن عازب قال: جاء رجل فقال: يا رسول الله، دُلّني على عَمَلٍ يُقَرِّبُني من الجنّة ويباعدني عن النار. فقال: أعتِقِ النَّسَمة وفُكَّ الرقبةَ. فقال: يا رسولَ الله، أوَليسا واحداً؟ قال: لا، عِتقُ النَّسمةِ أن تُفرَد بعتقها، وفك الرَقبة أن تُعينَ في ثمنها[٤].

وأما ﴿الغارمون﴾ فهم أقسام، فمنهم من تَحَمَّل حَمَالة[٥] أو ضمن ديناً فلزمه فأجحف بماله، أو غرم في أداء دينه أو معصية ثم تاب، فهؤلاء يدفع إليهم. والأصل في هذا الباب حديث قَبيصةَ بن مُخارِقٍ الهلاليِّ قال: تَحمَّلتُ حَمالةً، فأتيتُ رسولَ الله ـ ﷺ ـ أسأله فيها، فقال: أقم حتى تأتينا الصدقةُ، فنأمر لكَ بها. قال: ثم قال: يا قبيصة، إن المسألة لا تحل إلا لأحد ثلاثة: رجل تحمّل حمالة فحلت له المسألة حتى يصيبها، ثم يمسك. ورجل أصابته جائحةٌ اجتاحت ماله، فَحلَّت له المسألة حتى يُصيب قِواماً[٦] من عيش ـ أو قال: سِدَاداً

(١) فتح الباري، كتاب الأنبياء ٦/ ٣٧٦، ومسلم، كتاب الزكاة ٧٤١ والذهيبة: تصغير ذهب.

(٢) أنظر تفسير الطبري ١٠/ ١٦٢ ـ ١٦٣.

(٣) المسند ٢/ ٢٥١، ٤٣٧، وتحفة الأحوذي، أبواب فضائل الجهاد ٥/ ٢٩٦، والنسائي، كتاب النكاح ٦/٦١. وابن ماجه، كتاب العتق ٢/٨٤١-٨٤٢.

(٤) المسند ٤/ ٢٩٩.

(٥) هي ما يتحمله الإنسان عن غيره من دية أو غرامة، مثل أن تقع حربٌ بين فريقين تسفك فيها الدماء، فيدخل بينهم رجل يتحمل ديات القتل.

(٦) القوام: ما تقوم به الحاجة. والسداد: ما تُسدّ به الحاجة.

من عيش - ورجل أصابته فاقة حتى يقوم ثلاثة من ذوي الحجا من قومه، فيقولون: لقد أصابت فلاناً فاقةٌ فحلَّتْ له المسألة، حتى يصيب قِواماً من عيش - أو قال: سَدَاداً من عيش - فما سواهُنَّ من المسألة سُحْتٌ يأكلها صاحبُها سُحْتاً. رواه مسلم(١).

وعن أبي سعيد قال: أُصِيب رجلٌ في عهد رسول الله - ﷺ - في ثمار ابتاعها، فَكَثُر دَيْنُه، فقال النبي - ﷺ -: «تَصَدَّقُوا عليه. فَتَصَدَّق الناسُ، فلم يبلغ ذلك وفاءَ دينه، فقال النبي - ﷺ - لغرمائه: «خذوا ما وجدتم، وليس لكم إلا ذلك». رواه مسلم(٢).

وقال الإمام أحمد: حدثنا عبدُ الصمد، أنبأنا صَدَقة بن موسى، عن أبي عمران الجَوْني، عن قيس بن زيد، عن قاضي المِصْرين، عن عبد الرحمن بن أبي بكر قال: قال رسول الله - ﷺ -: يدعو الله بصاحب الدَّين يوم القيامة حتى يُوقَفَ بين يديه، فيقول: يا ابن آدم، فيم أخذتَ هذا الدين؟ وفيم ضَيَّعت حقوقَ الناس؟ فيقول: يا رب، إنك تعلَمُ أني أخذتُه فلم آكل ولم أشرب ولم أُضيِّع، ولكن أتى على يدي إما حَرَق وإما سَرَق وإما وَضِيعة. فيقول الله: صدق عبدي، أنا أحق من قضى عنك اليومَ. فيدعو الله بشيء فيضعه في كِفَّة ميزانه، فترجحَ حسناتُه على سيئاته، فيدخل الجنة بفضل الله ورحمته(٣).

وأما ﴿في سبيل الله﴾ فمنهم الغزاة الذين لا حق لهم في الديوان، وعند الإمام أحمد، والحسن، وإسحاق: «والحج من سبيل الله» للحديث.

وكذلك ﴿ابن السبيل﴾ وهو المسافر المجتاز في بلد ليس معه شيء يستعينُ به على سفره، فَيُعْطَى من الصدقات ما يكفيه إلى بلده وإن كان له مال. وهكذا الحكمُ فيمن أراد إنشاءَ سفرٍ من بلده وليس معه شيءٌ، فَيُعطَى من مال الزكاة كفايته في ذهابه وإيابه. والدليل على ذلك الآية، وما رواه الإمام أبو داود وابن ماجه من حديث معمر، عن زيد بن أسلم، عن عطاء بن يسار، عن أبي سعيد - رضي الله عنه - قال: قال رسول الله - ﷺ -: «لا تحل الصدقة لغنيٍّ إلا لخمسة: العامل عليها، أو رجل اشتراها بماله، أو غارم، أو غاز في سبيل الله، أو مسكين تُصُدِّق عليه منها فأهدى لغني»(٤).

وقد رواه السفيانان، عن زيد بن أسلم، عن عطاء مرسلاً. ولأبي داود عن عَطِيَّة العَوفي، عن أبي سعيد الخُدْري قال: قال رسول الله - ﷺ -: لا تحل الصدقة لغني إلا في سبيل الله، وابن السبيل، أو جار فقير يُهدي لك أو يدعوك»(٥).

وقوله: ﴿فريضةً من الله﴾، أي: حكماً مقدراً بتقدير الله وفَرْضِه وقَسْمه، ﴿والله عليم﴾ أي: عليم بظواهر الأمور وبواطنها وبمصالح عباده، ﴿حكيم﴾ فيما يفعله ويقوله ويشرعه ويحكم به، لا إله إلا هو، ولا رب سواه.

﴿ وَمِنْهُمُ ٱلَّذِينَ يُؤْذُونَ ٱلنَّبِيَّ وَيَقُولُونَ هُوَ أُذُنٌۚ قُلْ أُذُنُ خَيْرٍ لَّكُمْ يُؤْمِنُ بِٱللَّهِ وَيُؤْمِنُ لِلْمُؤْمِنِينَ وَرَحْمَةٌ لِّلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مِنكُمْۚ وَٱلَّذِينَ يُؤْذُونَ رَسُولَ ٱللَّهِ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ (٦١) ﴾

(١) مسلم، كتاب الزكاة ٧٢٢.
(٢) مسلم، كتاب المساقاة ١١٩١.
(٣) المسند ١/ ١٩٧ - ١٩٨. والوضيعة: الخسارة.
(٤) سنن أبي داود، كتاب الزكاة ٢/ ١١٩، وابن ماجه، كتاب الزكاة ١/ ٥٩٨ - ٥٩٠.
(٥) سنن أبي داود، كتاب الزكاة ٢/ ١١٩.

يقول تعالى: ومن المنافقين قوم يؤذون رسولَ الله ـ ﷺ ـ بالكلام فيه ويقولون: ﴿هو أذن﴾، أي: من قال له شيئاً صَدَّقه، ومن حدثه فينا صدقه، فإذا جئنا وحلفنا له صدقنا. روى معناه عن ابن عباس، ومجاهد، وقتادة. قال الله تعالى: ﴿قل أذن خير لكم﴾، أي: هو أذن خير، يعرف الصادق من الكاذب، ﴿يؤمن بالله ويؤمن للمؤمنين﴾، أي: ويصدّق المؤمنين، ﴿ورحمة للذين آمنوا منكم﴾، أي: وهو حجة على الكافرين، ولهذا قال: ﴿والذين يؤذون رسول الله لهم عذاب أليم﴾.

﴿ يَحْلِفُونَ بِاللَّهِ لَكُمْ لِيُرْضُوكُمْ وَاللَّهُ وَرَسُولُهُۥٓ أَحَقُّ أَن يُرْضُوهُ إِن كَانُوا۟ مُؤْمِنِينَ ﴿٦٢﴾ أَلَمْ يَعْلَمُوٓا۟ أَنَّهُۥ مَن يُحَادِدِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ فَأَنَّ لَهُۥ نَارَ جَهَنَّمَ خَٰلِدًا فِيهَا ۚ ذَٰلِكَ ٱلْخِزْىُ ٱلْعَظِيمُ ﴿٦٣﴾ ﴾

قال قتادة في قوله تعالى: ﴿يحلفون بالله لكم ليرضوكم﴾... الآية، قال: ذُكِرَ لنا أن رجلاً من المنافقين قال: والله إن هؤلاء لخيارنا وأشرافنا، وإن كان ما يقول محمد حقاً لهم شر من الحمير. قال: فَسَمِعها رجل من المسلمين فقال: والله إن ما يقول محمد لحقٌّ، ولأنت أَشَرُّ من الحمار. قال: فسعى بها الرجل إلى النبي ـ ﷺ فأخبره، فأرسل إلى الرجل فدعاه فقال: ما حملك على الذي قُلتَ؟ فجعل يلتعن، ويحلف بالله ما قال ذلك. وجعل الرجل المسلم يقول: اللهم صَدِّق الصادِقَ وكَذِّب الكاذِبَ. فأنزل الله عزَّ وجلَّ: ﴿يَحْلِفون بالله ليرضوكم، والله ورسوله أحق أن يرضوه إن كانوا مؤمنين﴾.

وقوله تعالى: ﴿ألم يعلموا أنه من يحادد الله ورسوله فأن له نار جهنم خالداً فيها﴾، أي: ألم يتحققوا ويعلموا أنه من حادّ الله، أي: شاقه وحاربه وخالفه، وكان في حَدّ والله ورسوله في حدّ ﴿فأن له نار جهنم خالداً فيها﴾، أي: مهاناً معذباً، ﴿ذلك الخزي العظيم﴾، أي: وهذا هو الذل العظيم، والشقاء الكبير.

﴿ يَحْذَرُ ٱلْمُنَٰفِقُونَ أَن تُنَزَّلَ عَلَيْهِمْ سُورَةٌ تُنَبِّئُهُم بِمَا فِى قُلُوبِهِمْ ۚ قُلِ ٱسْتَهْزِءُوٓا۟ إِنَّ ٱللَّهَ مُخْرِجٌ مَّا تَحْذَرُونَ ﴿٦٤﴾ ﴾

قال مجاهد: يقولون القول بينهم، ثم يقولون: «عسى الله ألاّ يفشي علينا سرنا هذا»(١).

وهذه الآية شبيهة بقوله تعالى: ﴿وإذا جاءُوك حيوك بما لم يحيك به الله، ويقولون في أنفسهم: لولا يعذبنا الله بما نقول، حسبهم جهنم يصلونها فبئس المصير﴾. وقال في هذه الآية: ﴿قل استهزءُوا إن الله مخرج ما تحذرون﴾، أي: إن الله سينزل على رسوله ما يفضحكم به، ويبين له أمركم كما قال: ﴿أم حسب الذين في قلوبهم مرض أن لن يخرج الله أضغانهم﴾ إلى قوله: ﴿ولتعرفنهم في لحن القول والله يعلم أعمالكم﴾. ولهذا قال قتادة: كانت تسمى هذه السورة «الفاضحة» فاضحةَ المنافقين.

﴿ وَلَئِن سَأَلْتَهُمْ لَيَقُولُنَّ إِنَّمَا كُنَّا نَخُوضُ وَنَلْعَبُ ۚ قُلْ أَبِٱللَّهِ وَءَايَٰتِهِۦ وَرَسُولِهِۦ كُنتُمْ تَسْتَهْزِءُونَ ﴿٦٥﴾ لَا تَعْتَذِرُوا۟ قَدْ كَفَرْتُم بَعْدَ إِيمَٰنِكُمْ ۚ إِن نَّعْفُ عَن طَآئِفَةٍ مِّنكُمْ نُعَذِّبْ طَآئِفَةًۢ بِأَنَّهُمْ كَانُوا۟ مُجْرِمِينَ ﴿٦٦﴾ ﴾

---

(١) تفسير الطبري ١٠/ ١٧١.

قال أبو معشر المدينيُّ، عن محمد بن كعب القُرَظي وغيره قالوا: قال رجلٌ من المنافقين: ما أرى قُرّاءنا هؤلاء إلا أرغَبنا بُطُوناً، وأكذَبنا ألسنةً، وأجبننا عند اللقاءِ. فرفع ذلك إلى رسول الله ـ ﷺ ـ فجاء إلى رسول الله وقد ارتحل وركب ناقته، فقال: يا رسول الله، إنما كنا نخوضُ ونلعبُ. فقال: ﴿أبالله وآياته ورسوله كنتم تستهزِءُون﴾ إلى قوله: ﴿مجرمين﴾ وإن رجليه لتنسفان[1] الحجارة وما يلتفت إليه رسول الله ـ ﷺ ـ وهو متعلق بنِسْعَة[2] رسول الله ﷺ[3].

وقال عبد الله بن وهب: أخبرني هشام بن سعد، عن زيد بن أسلَمَ، عن عبدالله بن عُمَر قال: قال رجلٌ في غزوةِ تَبُوكَ في مجلسٍ يوماً: ما رأيتُ مثل قُرّائنا هؤلاء، أرغبَ بطوناً، ولا أكذَبَ ألسُناً، ولا أجبن عند اللقاء. فقال رجل في المسجِد: كذبتَ، ولكنَّكَ منافق. لأُخبِرَنَّ رسول الله ـ ﷺ ـ فبلَغَ ذلك رسولَ الله ـ ﷺ ـ ونزل القرآن. قال عبد الله بن عُمَر: وأنا رأيتُه متعلقاً بحَقَبِ[4] ناقةِ رسول الله ـ ﷺ ـ تنكبُهُ الحجارةُ، وهو يقول: «يا رسول الله، إنما كنا نخوضُ ونلعَبُ». ورسولُ الله ـ ﷺ ـ يقول: ﴿أبالله وآياته ورسوله كنتم تستهزِءُون. لا تعتذروا قد كفرتُم بعد إيمانكم﴾[5].

وقد رواه الليث، عن هشام بن سعد، بنحو من هذا.

وقال ابن إسحاق: وقد كان جماعةٌ من المنافقين منهم وديعَة بن ثابت، أخو بني أمية بن زيد، من بني عمرو بن عوف، ورجل من أشجَعَ حَليفٌ لبني سَلِمَةَ يقال له: مُخشِّن بن حُمَيِّر يُشِيرون إلى رسول الله ـ ﷺ ـ وهو منطلق إلى تبوك، فقال بعضهم لبعض: أتحسبون جلاد بني الأصفر كقتال العرب بعضهم بعضاً؟ والله لكأنا بكم غداً مُقَرَّنين في الحبال. إرجافاً وترهيباً للمؤمنين. فقال مُخَشِّن بن حُمَيِّر: والله لوَدِدتُ أني أقاضي على أن يضرب كل رجل منا مائة جلدة، وإنا نَنْفَلِتُ أن ينزل فينا قرآن لمقالتكم هذه. وقال رسول الله ـ ﷺ ـ فيما بلغني ـ لعمار بن ياسر: أدرك القوم فإنهم قد احترقوا، فسلهم عما قالوا، فإن أنكروا فقل: بلى، قلتم كذا وكذا. فانطلق إليهم عمار، فقال ذلك لهم، فأتوا رسول الله ـ ﷺ ـ يعتذرون إليه، فقال وديعة بن ثابت ـ ورسول الله ـ ﷺ ـ واقف على راحلته، فجعل يقول وهو آخذ بحَقَبِها: يا رسول الله، إنما كنا نخوض ونلعب، [فأنزل الله عز وجل: ﴿ولئن سألتهم ليقُولُنَّ: إنما كنا نخوضُ ونلعَبُ﴾][6]. فقال مُخَشِّن بن حُمَير: يا رسول الله، قعَدَ بي اسمي واسمُ أبي. فكان الذي عُفِي عنه في هذه الآية مُخَشِّن بن حُمَيِّر، فتسمى عبد الرحمن[7] وسأل الله أن يقتل شهيداً لا يعلم بمكانه، فقتل يوم اليمامة، فلم يوجد له أثر[8].

وقال قتادة: ﴿ولئن سألتهم ليقولن إنما كنا نخوض ونلعب﴾، قال: فبينما رسولُ الله ـ ﷺ ـ في غزوة تبوك، وركب من المنافقين يسيرون بين يديه، فقالوا: «يظن هذا أن يفتح قصور الروم وحصونها. هيهات هيهات»! فأطلع الله نبيه ـ ﷺ ـ على ما قالوا، فقال: عَليَّ بهؤلاء النفر. فدعاهم، فقال: قلتم كذا وكذا؟ فحلفوا ما كنا إلا نخوض ونلعب.

---

(١) النسف: القلع، وناقة نسوف: تنسف التراب في عدوها.

(٢) هي سير مضفور يجعل زماماً للبعير.

(٣) تفسير الطبري ١٠/ ١٧٣.

(٤) هو حبل يشد به الرحل في بطن البعير. وتنكبه: تناله وتؤذيه.

(٥) تفسير الطبري ١٠/ ١٧٢.

(٦) عن سيرة ابن هشام.

(٧) كذا في الاستيعاب ٣/ ١٣٨١. وفي سيرة ابن هشام وأسد الغابة: فسماه عبد الله بن عبد الرحمن.

(٨) انظر سيرة ابن هشام ٢/ ٥٢٤ ـ ٥٢٥، وأسد الغابة ٥/ ١٢٦، وتفسير الطبري ١٠/ ١٧٢.

وقال عكرمة في تفسير هذه الآية: كان رجل ممن ـ إن شاء الله ـ عفا عنه يقول: «اللهم، إني أسمَعُ آية أنا أُعنى بها، تَقْشَعِرّ منها الجلود، وتَجبُ[1] منها القلوبُ، اللهم، فاجعل وفاتي قتلاً في سبيلك، لا يقولُ أحد: أنا غَسَّلتُ، أنا كَفَّنتُ، أنا دَفَنتُ». قال: فَأُصِيبَ يوم اليمامة، فما أحد من المسلمين إلا وقد وُجِدَ غيره.

وقوله: ﴿لا تعتذروا قد كفرتم بعد إيمانكم﴾، أي: بهذا المقال الذي استهزأتم به ﴿إن نعف عن طائفة منكم نعذب طائفة﴾، أي: لا يُعفى عن جميعكم، ولا بد من عذاب بعضكم، ﴿بأنهم كانوا مجرمين﴾، أي: مجرمين بهذه المقالة الفاجرة الخاطئة.

﴿ٱلْمُنَٰفِقُونَ وَٱلْمُنَٰفِقَٰتُ بَعْضُهُم مِّنۢ بَعْضٍۚ يَأْمُرُونَ بِٱلْمُنكَرِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ ٱلْمَعْرُوفِ وَيَقْبِضُونَ أَيْدِيَهُمْۚ نَسُوا۟ ٱللَّهَ فَنَسِيَهُمْۚ إِنَّ ٱلْمُنَٰفِقِينَ هُمُ ٱلْفَٰسِقُونَ ﴿٦٧﴾ وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلْمُنَٰفِقِينَ وَٱلْمُنَٰفِقَٰتِ وَٱلْكُفَّارَ نَارَ جَهَنَّمَ خَٰلِدِينَ فِيهَاۚ هِىَ حَسْبُهُمْۚ وَلَعَنَهُمُ ٱللَّهُۖ وَلَهُمْ عَذَابٌ مُّقِيمٌ ﴿٦٨﴾﴾

يقول تعالى منكراً على المنافقين الذين هم على خلاف صفات المؤمنين، ولما كان المؤمنونَ يأمرون بالمعروف وينهَوْنَ عن المنكر، كان هؤلاء ﴿يأمرون بالمنكر وينهون عن المعروف ويقبضون أيديهم﴾، أي: عن الإنفاق في سبيل الله، ﴿نسوا الله﴾ أي: نسوا ذكر الله، ﴿فنسيهم﴾، أي: عاملهم معاملة من نَسيهم، كقوله تعالى: ﴿وقيل: اليوم ننساكم كما نسيتم لقاء يومكم هذا﴾، ﴿إن المنافقين هم الفاسقون﴾، أي: الخارجون عن طريق الحق، الداخلون في طريق الضلالة.

وقوله: ﴿وعد الله المنافقين والمنافقات والكفار نار جهنم﴾، أي: على هذا الصنيع الذي ذُكر عنهم، ﴿خالدين فيها﴾ أي: ماكثين فيها مخلدين، هم والكفار، ﴿هي حسبهم﴾، أي: كفايتهم في العذاب، ﴿ولعنهم الله﴾، أي: طردهم وأبعدهم، ﴿ولهم عذاب مقيم﴾.

﴿كَٱلَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ كَانُوٓا۟ أَشَدَّ مِنكُمْ قُوَّةً وَأَكْثَرَ أَمْوَٰلًا وَأَوْلَٰدًا فَٱسْتَمْتَعُوا۟ بِخَلَٰقِهِمْ فَٱسْتَمْتَعْتُم بِخَلَٰقِكُمْ كَمَا ٱسْتَمْتَعَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِكُم بِخَلَٰقِهِمْ وَخُضْتُمْ كَٱلَّذِى خَاضُوٓا۟ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ حَبِطَتْ أَعْمَٰلُهُمْ فِى ٱلدُّنْيَا وَٱلْءَاخِرَةِۖ وَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْخَٰسِرُونَ ﴿٦٩﴾﴾

يقول تعالى: أصاب هؤلاء من عذاب الله في الدنيا والآخرة كما أصاب من قبلهم، وقد كانوا أشد منهم قوة وأكثر أموالاً وأولاداً، ﴿فاستمتعوا بخلاقهم﴾، قال الحسن البصري: بدينهم، ﴿كما استمتع الذين من قبلكم بخلاقهم وخضتم كالذي خاضوا﴾، أي: في الكذب والباطل، ﴿أولئك حبطت أعمالهم﴾، أي: بطلت مساعيهم، فلا ثواب لهم عليها لأنها فاسدة ﴿في الدنيا والآخرة وأولئك هم الخاسرون﴾ لأنهم لم يحصل لهم عليها ثواب.

قال ابن جُرَيج، عن عُمَر بن عطاء، عن عكرمة، عن ابن عباس في قوله: ﴿كالذين من قبلكم﴾... الآية، قال ابن عباس: ما أشبه الليلة بالبارحة، ﴿كالذين من قبلكم﴾ هؤلاء بنو إسرائيل، شُبِّهنا بهم، لا أعلم إلا أنه قال: «والذي نفسي بيده، لَتتبِعُنَّهم حتى لو دخل الرجل منهم جُحر ضَبّ لدخلتموه».

قال ابن جُرَيج: وأخبرني زياد بن سعد، عن محمد بن زيد بن مهاجر، عن سَعِيد بن أبي سَعيدٍ

(١) أي: تضطرب.

المقبُري، عن أبي هُرَيرة - رضي الله عنه - قال: قال رسولُ الله - ﷺ -: «والَّذي نفسي بيده لَتتبعنَّ سَنَنَ الذين من قبلكم، شِبراً بشبرٍ، وذراعاً بذراعٍ، وباعاً بباعٍ، حتى لو دَخلُوا جُحْرَ ضَبٍّ لَدَخلتُموه. قالوا: ومن هُمْ يا رسولَ الله؟ أهل الكتاب؟ قال: فمه».

وهكذا رواه أبو مَعْشَرٍ، عن سعيد المَقْبُري، عن أبي هُرَيرة، عن النبي - ﷺ - فذكره وزاد: قال أبو هُرَيرة: اقرأوا إن شئتم القرآن: ﴿كالذين من قبلكم كانوا أشد منكم قوة وأكثر أموالاً وأولاداً، فاستمتعوا بخلاقهم فاستمتعتم بخلاقكم كما استمتع الذين من قبلكم بخلاقهم﴾ - قال أبو هُرَيرة: الخَلاقُ: الدين - ﴿وخضتم كالذي خاضوا﴾ - قالوا: يا رسول الله، كما صنعت فارس والروم؟ قال: فهل الناس إلا هم[1].

وهذا الحديث له شاهد في الصحيح[2].

﴿أَلَمْ يَأْتِهِمْ نَبَأُ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ قَوْمِ نُوحٍ وَعَادٍ وَثَمُودَ وَقَوْمِ إِبْرَٰهِيمَ وَأَصْحَٰبِ مَدْيَنَ وَٱلْمُؤْتَفِكَٰتِ ۚ أَتَتْهُمْ رُسُلُهُم بِٱلْبَيِّنَٰتِ ۖ فَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيَظْلِمَهُمْ وَلَٰكِن كَانُوٓا۟ أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ ﴿٧٠﴾﴾

يقول تعالى واعظاً لهؤلاء المنافقين المكذبين للرسل: ﴿ألم يأتهم نبأ الذين من قبلهم﴾، أي: ألم تُخبَروا خبَرَ من كان قبلكم من الأمم المكذبة للرسل ﴿قوم نوح﴾، وما أصابهم من الغَرَقِ العامِّ لجميع أهلِ الأرض، إلا من آمن بعبده ورسوله نوح عليه السلام، ﴿وعاد﴾ كيف أهلكوا بالريح العقيم، لما كذبوا هوداً عليه السلام، ﴿وثمود﴾ كيف أخذتهم الصيحة لما كذبوا صالحاً - عليه السلام - وعقروا الناقة، ﴿وقوم إبراهيم﴾ كيف نصره الله عليهم وأيده بالمعجزات الظاهرة عليهم، وأهلك ملكهم النمروذ بن كنعان بن كُوش الكنعاني - لعنه الله - ﴿وأصحاب مدين﴾ وهم قوم شعيب - عليه السلام - وكيف أصابتهم الرجفةُ والصيحةُ وعذابُ يوم الظلة. ﴿والمؤتفكات﴾: قوم لوط، وقد كانوا يسكنون في مدائن، وقال في الآية الأخرى: ﴿والمؤتفكة أهوى﴾، أي: الأمة المؤتفكة، وقيل: أم قراهم، وهي «سدوم». والغرض: أن الله تعالى أهلكهم عن آخرهم بتكذيبهم نبي الله لوطاً عليه السلام، وإتيانهم الفاحشة التي لم يسبقهم بها أحد من العالمين.

﴿أتتهم رسلهم بالبينات﴾، أي: بالحجج والدلائل القاطعات، ﴿فما كان الله ليظلمهم﴾، أي: بإهلاكه إياهم، لأنه أقام عليهم الحجة بإرسال الرسل وإزاحة العلل، ﴿ولكن كانوا أنفسهم يظلمون﴾، أي: بتكذيبهم الرسل ومخالفتهم الحق، فصاروا إلى ما صاروا إليه من العذاب والدمار.

﴿وَٱلْمُؤْمِنُونَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتُ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَآءُ بَعْضٍ ۚ يَأْمُرُونَ بِٱلْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ ٱلْمُنكَرِ وَيُقِيمُونَ ٱلصَّلَوٰةَ وَيُؤْتُونَ ٱلزَّكَوٰةَ وَيُطِيعُونَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥٓ ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ سَيَرْحَمُهُمُ ٱللَّهُ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴿٧١﴾﴾

لما ذكر تعالى صفاتِ المنافقين الذميمةَ، عَطَفَ بذكر صفاتِ المؤمنين المحمودةَ، فقال: ﴿بعضهم أولياء بعض﴾، أي: يتناصرون ويتعاضدون، كما جاء في الصحيح: «المؤمن للمؤمن كالبنيان يشدُّ بعضه بعضاً»[3]، وشبك بين أصابعه. وفي الصحيح أيضاً: «مثل المؤمنين في تَوادِّهم وتراحُمهم، كمثلِ الجَسَدِ

(١) تفسير الطبري ١٠/ ١٧٦.
(٢) فتح الباري، كتاب الاعتصام ١٣/ ٣٠٠، ومسلم، كتاب العلم ٢٠٥٤.
(٣) فتح الباري، كتاب الصلاة ١/ ٥٦٥، ومسلم، كتاب البر ١٩٩٩.

الواحِدِ، إذا اشتكى منه عُضْوٌ تداعى له سائر الجسد بالحمّى والسَّهَر»(١).

وقوله: ﴿يأمرون بالمعروف وينهون عن المنكر﴾، كما قال تعالى: ﴿ولتكن منكم أمة يدعون إلى الخير ويأمرون بالمعروف وينهون عن المنكر وأولئك هم المفلحون﴾.

وقولُه تعالى: ﴿ويقيمون الصلاة ويؤتون الزكاة﴾، أي: يطيعون الله ويحسنون إلى خلقه، ﴿ويطيعون الله ورسوله﴾، أي: فيما أمر، وترك ما عنه زجر، ﴿أولئك سيرحمهم الله﴾ أي: سيرحَم الله من اتَّصَف بهذه الصفات، ﴿إن الله عزيز حكيم﴾، أي: ﴿عزيز﴾ من أطاعه أعزه، فإن العزة لله ولرسوله وللمؤمنين، ﴿حكيم﴾ في قسمته هذه الصفات لهؤلاء، وتخصيصه، المنافقين بصفاتهم المتقدمة، فإن له الحكمة في جميع ما يفعله، تبارك وتعالى.

﴿وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلْمُؤْمِنِينَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتِ جَنَّٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَا وَمَسَٰكِنَ طَيِّبَةً فِى جَنَّٰتِ عَدْنٍ ۚ وَرِضْوَٰنٌ مِّنَ ٱللَّهِ أَكْبَرُ ۚ ذَٰلِكَ هُوَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ ﴿٧٢﴾﴾

يخبر تعالى بما أعده للمؤمنين به والمؤمنات من الخيرات والنعيم المقيم في ﴿جنات تجري من تحتها الأنهار خالدين فيها﴾، أي: ماكثين فيها أبداً، ﴿ومساكن طيبة﴾، أي: حسنة البناء، طيبة القرار، كما جاء في الصحيحين من حديث أبي عمران الجَوْني، عن أبي بكر بن أبي موسى عبد الله بن قيس الأشعري، عن أبيه قال: قال رسول الله ـ ﷺ «جنتان من ذَهَبٍ آنيتُهما وما فيهما، وجنتان من فِضَّةٍ آنيتُهما وما فيهما، وما بين القوم وبين أن ينظروا إلى ربهم إلا رداءُ الكبرياءِ على وجهه في جنة عَدَن»(٢).

وبه قال: قال رسول الله ـ ﷺ ـ: «إن للمؤمن في الجنة لخيمةً من لؤلؤةٍ واحدةٍ مُجَوَّفَةٍ، طولُها ستون ميلاً في السماء، للمؤمن فيها أهلون يطوفُ عليهم، لا يرى بعضُهم بعضاً»(٣). أخرجاه.

وفي الصحيحين أيضاً، عن أبي هُرَيرةِ قال: قال رسول الله ـ ﷺ ـ: «من آمن بالله ورسوله وأقام الصلاة وصامَ رمضان، فإنَّ حقاً على الله أن يُدخِلَه الجنةَ، هاجر في سبيل الله، أو جَلَس في أرضِه التي ولد فيها. قالوا: يا رسول الله، أفلا نُخْبِرُ الناسَ؟ قال: إن في الجنة مائة درجةٍ، أعدَّها الله للمجاهدينَ في سبيله، بينَ كلِ درجتين كما بين السماء والأرض، فإذا سألتم الله فاسألوه الفِرْدَوسَ، فإنه أعلى الجنةِ وأوسطُ الجنةِ، ومنه تَفَجَّرُ أنهارُ الجنةِ، وفوقَه عرشُ الرّحمنِ»(٤).

وعند الطبراني والترمذي وابن ماجه، من رواية زيد بن أسلم، عن عطاء بن يسار، عن معاذ بن جبل ـ رضي الله عنه ـ: سمعتُ رسولَ الله ـ ﷺ ـ يقول. . . فذكر مثله(٥). وللترمذي، عن عبادة بن الصامت، مثله(٦).

---

(١) فتح الباري، كتاب الأدب ١٠/ ٤٣٨ ومسلم، كتاب البر ١٩٩٩ ـ ٢٠٠٠.
(٢) فتح الباري، تفسير سورة الرحمن ٨/ ٦٢٣ ـ ٦٢٤، ومسلم، كتاب الإيمان ١٦٣.
(٣) فتح الباري، تفسير سورة الرحمن ٨/ ٦٢٤، ومسلم، كتاب الجنة ٢١٨٢.
(٤) فتح الباري، كتاب التوحيد ٤٠٤/١٣. ولم يقع لنا في صحيح مسلم. وانظر تحفة الأشراف ٢٧٨/١٠.
(٥) المعجم الكبير ٢٠/ ١٥٧ ـ ١٥٨، وتحفة الأحوذي، أبواب صفة الجنة ٧/ ٢٣٥ ـ ٢٣٧، وسنن ابن ماجه، كتاب الزهد ٤٤٤٨.
(٦) تحفة الأحوذي، أبواب صفة الجنة ٧/ ٢٣٧.

وعن أبي حازم، عن سهل بن سعد قال: قال رسول الله ـ ﷺ ـ: «إن أهل الجنة ليتراءون الغُرفة في الجنة، كما تراءون الكوكب في السماء». أخرجاه في الصحيحين(١).

ثم ليعلم أن أعلى منزلةٍ في الجنة مكان يقال له «الوسيلة» لقربه من العرش، وهو مسكن رسول الله ـ ﷺ ـ من الجنة، كما قال الإمام أحمد:

حدثنا عبد الرزاق، أخبرنا سفيان، عن ليث، عن كعب، عن أبي هريرة أن رسول الله ـ ﷺ ـ قال: «إذا صليتم عليّ فسلوا الله لي الوسيلة. قيل: يا رسول الله، وما الوسيلة؟ قال: أعلى درجة في الجنة، لا ينالها إلا رجل واحد، وأرجو أن أكون أنا هو»(٢).

وفي صحيح مسلم، من حديث كعب بن علقمةَ، عن عبد الرحمن بن جُبَير، عن عبد الله بن عَمْرو بن العاص: أنه سمع النبي ـ ﷺ ـ يقول: «إذا سَمِعتُمُ المؤذِّن فقولوا مثل ما يقول، ثم صلُّوا عليّ، فإنَّه من صلَّى عليَّ صلاةً صلَّى الله عليه بها عشراً، ثم سَلُوا لي الوسيلةَ، فإنها منزلة في الجنة لا تَنْبَغي إلا لعبد من عباد الله. وأرجو أن أكون أنا هو، فمن سأل لي الوسيلة حلّت عليه الشفاعة يوم القيامة»(٣).

وقال الحافظ أبو القاسم الطبراني: حدثنا أحمد بن علي الأبار، حدثنا الوليد بن عبد الملك الحراني، حدثنا موسى بن أعين، عن ابن أبي ذئب، عن محمد بن عمرو بن عطاء، عن ابن عباس قال: قال رسولُ الله ـ ﷺ ـ: «سَلُوا الله لي الوسيلة، فإنه لم يسألها لي عبد في الدنيا إلا كنت له شهيداً ـ أو شفيعاً ـ يوم القيامة».

وفي مسند الإمام أحمد، من حديث سعد أبي مجاهد الطائي، عن أبي المدَلّه، عن أبي هريرة ـ رضي الله عنه ـ قال: قلنا: يا رسول الله، حَدِّثنا عن الجنة، ما بناؤُها؟ قال: لَبِنَةٌ ذهب، ولَبِنَةٌ فضة. ومِلاَطُها(٤) المسك وحصباؤها اللؤلؤ والياقوت، وترابها الزعفران. من يدخلها ينعم لا ييأس، ويخلد لا يموت، لا تبلى ثيابه، ولا يفنى شبابه»(٥).

وروى عن ابن عمر مرفوعاً، نحوه.

وعند الترمذي، من حديث عبد الرحمن بن إسحاق، عن النعمان بن سعد، عن علي ـ رضي الله عنه ـ قال: قال رسول الله ـ ﷺ ـ: «إن في الجنة لغُرَفاً يُرَى ظهورُها من بطونها، وبطونُها من ظهورها. فقام أعرابي فقال: يا رسول الله، لمن هي؟ فقال: لمن طَيَّبَ الكلام، وأطعم الطعامَ، وأدام الصيام، وصلَّى بالليل والناسُ نيامٌ».

ثم قال: «حديث غريب»(٦).

ورواه الطبراني، من حديث عبد الله بن عمرو وأبي مالك الأشعري، كلٌ منهما عن النبي ـ ﷺ ـ بنحوه، وكل من الإسنادين جيد حسن، وعنده أن السائل هو «أبو مالك»، فالله أعلم.

---

(١) فتح الباري، كتاب الرقاق ١١/ ٤١٦، ومسلم، كتاب الجنّة ٢١٧٧.
(٢) المسند ٢/ ٢٦٥.
(٣) مسلم، كتاب الصلاة ٢٨٨ ـ ٢٨٩.
(٤) أي: الطين الذي يجعل بين سافي البناء، يملط به الحائط، أن يخلط. والسافُ: كل صف من اللَّبِن.
(٥) المسند ٢/ ٣٠٤ ـ ٣٠٥.
(٦) تحفة الأحوذي، أبواب صفة الجنة ٧/ ٢٣١.

وعن أسامة بن زيد قال: قال رسول الله ـ ﷺ ـ: «ألا هل مُشَمّرٌ إلى الجنة؟ فإن الجنةَ لا خطَر[1] لها، هي ـ وربِّ الكعبة ـ نورٌ يتلألأ، وريحانة تهتزّ، وقصر مَشِيدٌ، ونهر مُطَّرد، وثمرة نَضيجة، وزوجة حسناءُ جميلة، وحُلَل كثيرة، ومقام في أبَدٍ، في دار سليمة، وفاكهة وخضرة وحَبْرة[2]، ونعمة في محلة عالية بهية. قالوا: نعم يا رسول الله، نحن المشمرون لها، قال: قولوا: إن شاء الله. فقال القوم: إن شاء الله. رواه ابن ماجه[3].

وقوله تعالى: ﴿ورضوان من الله أكبر﴾، أي: رضا الله عنهم أكبر وأجلّ وأعظم مما هم فيه من النعيم، كما قال الإمام مالك ـ رحمه الله ـ عن زيد بن أسلم، عن عطاء بن يسار، عن أبي سعيد الخُدْري ـ رضي الله عنه ـ أن رسول الله ـ ﷺ ـ قال: «إن الله عز وجل ـ يقول لأهلِ الجنةِ: يا أهلَ الجنةِ. فيقولون: لَبَّيكَ يا ربنا وَسعْدَيْكَ، والخيرُ في يديك. فيقول: هل رَضِيتُم؟ فيقولون: ومَا لنا لا نرضى يا ربّ، وقد أعطيتنا ما لم تُعطِ أحداً من خلقك! فيقول: ألا أعطيكم أفضل من ذلك؟ فيقولون: يا رب، وأيُّ شيء أفضلُ من ذلك؟ فيقول: أُحِلّ عليكم رضواني فلا أسخط عليكم بعده أبداً». أخرجاه من حديث مالك[4].

وقال أبو عبد الله الحسين بن إسماعيل المَحَامِلي[5]: حدثنا الفضل الرُّخامي، حدثنا الفريابي، عن سفيان، عن محمد بن المنكدر، عن جابر بن عبد الله قال: قال رسولُ الله ـ ﷺ ـ: «إذا دخل أهلُ الجنةِ الجنةَ قال الله ـ عز وجل ـ: هل تشتهون شيئاً فأزيدكم؟ قالوا: يا ربَّنا، ما خيرٌ مما أعطيتنا؟ قال: رضواني أكبر».

ورواه البزار في مسنده، من حديث الثوري. وقال الحافظ الضياء المقدسي في كتابه «صفة الجنة»: هذا عندي على شرط الصحيح، والله أعلم.

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ جَٰهِدِ ٱلْكُفَّارَ وَٱلْمُنَٰفِقِينَ وَٱغْلُظْ عَلَيْهِمْ ۚ وَمَأْوَىٰهُمْ جَهَنَّمُ ۖ وَبِئْسَ ٱلْمَصِيرُ ﴿٧٣﴾ يَحْلِفُونَ بِٱللَّهِ مَا قَالُوا۟ وَلَقَدْ قَالُوا۟ كَلِمَةَ ٱلْكُفْرِ وَكَفَرُوا۟ بَعْدَ إِسْلَٰمِهِمْ وَهَمُّوا۟ بِمَا لَمْ يَنَالُوا۟ ۚ وَمَا نَقَمُوٓا۟ إِلَّآ أَنْ أَغْنَىٰهُمُ ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥ مِن فَضْلِهِۦ ۚ فَإِن يَتُوبُوا۟ يَكُ خَيْرًا لَّهُمْ ۖ وَإِن يَتَوَلَّوْا۟ يُعَذِّبْهُمُ ٱللَّهُ عَذَابًا أَلِيمًا فِى ٱلدُّنْيَا وَٱلْءَاخِرَةِ ۚ وَمَا لَهُمْ فِى ٱلْأَرْضِ مِن وَلِىٍّ وَلَا نَصِيرٍ ﴿٧٤﴾﴾

أمر تعالى رسولَه ـ ﷺ ـ بجهاد الكفار والمنافقين والغلظة عليهم، كما أمره بأن يخفض جناحه لمن اتبعه من المؤمنين، وأخبره أنّ مصير الكفار والمنافقين إلى النار في الدار الآخرة. وقد تَقَدَّم عن أمير المؤمنين علي ابن أبي طالب أنه قال: بُعِث رسول الله ـ ﷺ ـ بأربعة أسياف، سيف للمشركين: ﴿فإذا انسلخ الأشهر الحرم فاقتلوا المشركين﴾. وسيف للكفار أهل الكتاب: ﴿قاتلوا الذين لا يؤمنون بالله ولا باليوم الآخر ولا يحرمون ما حرم الله ورسوله، ولا يدينون دين الحق من الذين أوتوا الكتاب حتى يعطوا الجزية عن يد وهم صاغرون﴾. وسيف للمنافقين: ﴿جاهد الكفار والمنافقين﴾. وسيف للبغاة: ﴿فقاتلوا التي تبغي حتى تَفيء إلى أمر الله﴾.

(١) أي: لا مثل لها.
(٢) هي: النعمة وسعة العيش.
(٣) سنن ابن ماجه، كتاب الزهد ١٤٤٨ ـ ١٤٤٩.
(٤) فتح الباري، كتاب الرقاق ١١/ ٤١٥، ومسلم، كتاب الجنة ٢١٧٦.
(٥) ترجم له الذهبي في العبر ٢/ ٢٢٢، في وفيات سنة ٣٣٠ هـ، وقال: «وأقدم شيخ له أحمد بن إسماعيل السهمي صاحب مالك». وذكر عن أبي بكر الداوودي أنه كان يحضر مجلسه عشرة آلاف رجل. وانظر الأنساب للسمعاني ٥/ ٢٠٨ ـ ٢٠٩.

وهذا يقتضي أنهم يجاهدون بالسيوف إذا أظهروا النفاق، وهو اختيار ابن جرير[١].

وقال ابن مسعود في قوله تعالى: ﴿جاهد الكفار والمنافقين﴾، قال: بيده، فإن لم يستطع فبلسانه، فإن لم يستطع فبقلبه، فإن لم يستطع فَلْيَكْفَهِرَّ في وجهه.

وقال ابن عبَّاسٍ: أَمَره الله بجهاد الكفَّار بالسيف، والمنافقينَ باللسانِ، وأذهب الرفق عنهم.

وقال الضحاك: جاهِدِ الكفارَ بالسيفِ، واغلُظْ على المنافقين بالكلام، وهو مجاهدتهم. وعن مقاتل، والربيع مثله.

وقال الحسن وقتادة: مجاهدتهم إقامة الحدود عليهم.

وقد يقال: إنه لا منافاة بين هذه الأقوال، لأنه تارة يؤاخذهم بهذا، وتارة بهذا، بحسب الأحوال، والله أعلم.

وقوله: ﴿يحلِفُون بالله ما قالوا، ولقد قالوا كلمة الكفر، وكفروا بعد إسلامهم﴾، قال قتادةُ: نزلَتْ في عبد الله بن أُبَيٍّ، وذلك أنه اقتتل رجلان: جُهَني وأنصاري، فعلا الجُهَنِيُّ على الأنصاريِّ، فقال عبد الله للأنصار: ألا تنصروا أخاكم؟ والله ما مثلنا ومثل محمد إلا كما قال القائل: «سَمِّن كلبك يأكُلْك»، وقال: ﴿لئن رجعنا إلى المدينة ليُخْرِجنَّ الأعزُّ منها الأذلَّ﴾. فسعى بها رجلٌ من المسلمين إلى النبي - ﷺ - فأرسل إليه فسأله، فجعل يحلف بالله ما قاله، فأنزل الله فيه هذه الآية[٢].

وَرَوَى إسماعيلُ بن إبراهيمَ بن عُقْبَة، عن عَمِّه موسى بن عُقْبَة قال: فحدَّثني عبدُ الله بن الفضل، أنه سَمع أنس بن مالك - رضي الله عنه - يقول: حَزِنْتُ على من أصيب بالحَرَّة[٣] من قومي، فكتب إليَّ زيدُ بن أرقم، وبلغه شدة حزني، يذكر أنه سَمع رسول الله - ﷺ - يقول: اللهم اغفر للأنصار ولأبناء الأنصار - وَشَكَّ ابنُ الفضل في أبناء أبناء الأنصار - قال ابن الفضل: فسأل أنساً بعضُ من كان عنده عن زيد بن أرقَمَ، فقال: هو الذي يقول له رسُول الله - ﷺ - أوفى الله له بأذُنه[٤] وذاك حين سمع رجلاً من المنافقين يقول - ورسول الله - ﷺ - [يخطب]: لئن كان هذا صادقاً فنحن شر من الحمير. فقال زيد بن أرقم: فهو والله صادق، ولأنت شر من الحمار. ثم رُفع ذلك إلى رسول الله - ﷺ - فجَحَـده القائل، فأنزل الله هذه الآية تصديقاً لزيـد، يعني قوله: ﴿يحلفون بالله ما قالوا﴾ . . . الآية.

رواه البخاري في صحيحه، عن إسماعيل بن أبي أويس، عن إسماعيل بن إبراهيم بن عقبة. إلى قوله: «هذا الذين أوفى الله له بأذُنه»[٥]. ولعل ما بعده من قول موسى بن عقبة، وقد رواه محمد بن فُلَيح، عن موسى بن عقبة بإسناده ثم قال: «قال ابن شهاب». فذكر ما بعده عن موسى، عن ابن شهاب.

والمشهور في هذه القصة أنها كانت في غزوة بني المصطلق، فلعل الراوي وهم في ذكر الآية، وأراد أن يذكر غيرها، فذكرها، والله أعلم.

---

(١) تفسير الطبري ١٠/ ١٨٣ - ١٨٤.

(٢) تفسير الطبري ١٠/ ١٨٦.

(٣) كانت وقعة الحرَّة سنة ثلاث وستين، حين خلع أهل المدينة بيعة يزيد بن معاوية، فأرسل إليهم جيشاً كبيراً استباح المدينة وقتل من الأنصار عدداً كبيراً. وكان أنس يومئذ بالبصرة، فحزن على ما أصاب الأنصار.

(٤) أي: أظهر الله صدقه في إخباره عما سمعت أذنه. وانظر تفسير الآية السابعة من سورة المنافقين، وترجمة زيد بن أرقم في أسد الغابة ٢/ ٢٧٦.

(٥) فتح الباري، تفسير سورة المنافقون ٨/ ٦٥٠.

قال الأموي في مغازيه: حدثنا محمد بن إسحاق، عن الزهري، عن عبد الرحمن بن عبد الله بن كعب ابن مالك، عن أبيه، عن جده قال: لما قَدِم رسول الله ـ ﷺ ـ أخذني قومي فقالوا: إنك امرؤٌ شاعر، فإن شئتَ أن تَعتذِرَ إلى رسول الله ـ ﷺ ـ ببعض العلَّة، ثم يكون ذنباً تستغفر الله منه. وذكر الحديث بطوله، إلى أن قال: وكان ممن تخلَّفَ من المنافقين، ونزل فيه القرآن منهم، ممن كان مع النبي ـ ﷺ ـ: الجُلَاس بن سُوَيدِ بن الصامت، وكان على أم عُمَير بن سعد، وكان عمير في حِجْره، فلما نزل القرآنُ وذكَرَهم الله بما ذَكر مما أنزل في المنافقين، قال الجُلاس: والله لئن كان هذا الرجل صادقاً فيما يقول لنحن شَرٌّ من الحمير. فسمعها عُمَير بن سعد فقال: والله ـ يا جُلاسُ ـ إنك لأحبُّ الناس إليَّ، وأحسَنُهم عندي بلاءً، وأعزُّهم علي أن يَصِلَه شيءٌ يَكْرَهه، ولقد قلت مقالةً لئن ذكرتُها لأفضحنَّك[1] ولئن كتمتُها لتهلكني، ولإحداهما أهونُ عليَّ من الأخرى. فَمَشَى إلى رسول الله ـ ﷺ ـ فذكر له ما قالَ الجلاسُ. فلما بلغ ذلك الجُلاسَ خَرَجَ حتى يأتي النبي ـ ﷺ ـ فحلف بالله ما قال ما قال عُمَير بن سعد، ولقد كَذَب عليَّ. فأنزل الله عز وجل فيه: ﴿يحلفون بالله ما قالوا، ولقد قالوا كلمة الكفر، وكفروا بعد إسلامهم﴾، إلى آخر الآية. فَوَقَفه رسول الله ـ ﷺ ـ عليها. فزعموا أن الجلاس تاب فَحَسُنَت توبتُه، ونَزَع فأحسنَ النزوعَ[2].

هكذا جاء هذا[3] مُدْرَجاً في الحديث متصلاً به، وكأنه والله أعلم من كلام ابن إسحاق نفسه، لا من كلام كعب بن مالك.

وقال عروة بن الزبير: نزلت هذه الآيةُ في الجُلَاس بن سُوَيد بن الصامت، أقبل هو وابن امرأته مُصعب من قُباء، فقال الجلاس: إن كان ما جاء به محمد حقاً فنحن أشرُّ من حُمُرنا هذه التي نحن عليها. فقال مُصعَب: أما والله ـ يا عدو الله ـ لأخبرنَّ رسول الله ـ ﷺ ـ بما قلت. فأتيت النبيَّ ـ ﷺ ـ وخفت أن ينزل فيَّ القرآن، أو تُصِيبَني قارعة، أو أن أُخْلَط بخطيئته، فقلت: يا رسول الله، أقبلت أنا والجُلَاس من قباء، فقال كذا وكذا، ولولا مخافة أن أُخْلَط بخطيئة أو تصيبني قارعةٌ ما أخبرتك. قال: فدعا الجُلَاس فقال: يا جلاس، أَقُلْتَ الذي قاله مصعب؟ فحلف، فأنزل الله: ﴿يحلفون بالله ما قالوا ولقد قالوا كلمة الكفر وكفروا بعد إسلامهم﴾ . . . الآية[4].

وقال محمد بن إسحاق: كان الذي قال تلك المقالة ـ فيما بلغني ـ الجُلَاس بن سُوَيد بن الصامت، فرفعها عليه رجل كان في حجره، يقال له: عمير بن سعيد[5]، فأنكرها، فحلف بالله ما قالها. فلما نزل فيه القرآن تاب وَنَزع وحَسُنت توبته، فيما بلغني.

وقال الإمام أبو جعفر بن جرير: حدثني أيوب بن إسحاق بن إبراهيم، حدثنا عبد الله بن رجاء، حدثنا إسرائيل، عن سماكٍ، عن سعيد بن جُبَير، عن ابن عباس قال: كان رسول الله ـ ﷺ ـ جالساً في ظل شجرة، فقال: إنه سيأتيكم إنسانٌ ينظر إليكم بعيني الشيطانِ، فإذا جاء فلا تكلموه. فلم يلبثوا أن طلع رجلٌ أزرقُ[6]، فدعاه رسول الله ـ ﷺ ـ فقال: علام تشتمني أنت وأصحابك؟! فانطلق الرجل فجاء بأصحابه، فحلفوا بالله ما

(١) في الأصل: «ولتفضحني». انظر أسد الغابة ١/ ٣٤٧، وسيرة ابن هشام ١/ ٥١٩.
(٢) انظر سيرة ابن هشام ١/ ٥١٩ ـ ٥٢٠.
(٣) المدرج من قوله: «فزعموا» . . . إلى آخره.
(٤) تفسير الطبري ١٠/ ١٨٤.
(٥) كذا: «سعيد». ومثله في تفسير الطبري ١٠/ ١٨٥. وقد تقدّم أنه ابن سعد. وفي أسد الغابة خلاف حول اسمه، انظر ٤/ ٢٩٤.
(٦) الزرقة: خضرة في سواد العين. وكانت العرب تتشاءم بالأزرق.

قالوا، حتى تجاوز عنهم، فأنزل الله عز وجل: ﴿يحلفون بالله ما قالوا﴾. . . الآية.

وقوله: ﴿وَهَمُّوا بما لم ينالوا﴾، قيل: نزلت في الجُلاس، وذلك أنه هَمَّ بقتل ابن امرأته حين قال: لأخبِرَنَّ رسـولَ الله ﷺ.

وقيل: في عبد الله بن أُبَيّ، هم بقتل النبي ﷺ.

وقال السدي: نزلت في أناس أرادوا أن يُتَوِّجوا عبد الله بن أبي، وإن لم يَرْض رسول الله.

وقد وَرَدَ أَنَّ نفراً من المنافقين هَمُّوا بالفتك بالنبي - ﷺ - وهو في غزوة تبوك، وفي بعض تلك الليالي، في حال السير، وكانوا بضعة عشر رجلاً، قال الضحاك: ففيهم نزلت هذه الآية.

وذلك بَيِّنٌ فيما رواه الحافظ أبو بكر البيهقي في كتاب «دلائل النبوة» من حديث محمد [بن إسحاق]، عن الأعمش، عن عمرو بن مُرَّةَ، عن أبي البَخْتَري، عن حذيفة بن اليمانَ - رضي الله عنه - قال: كنت آخِذاً بخطام ناقة رسول الله - ﷺ - أقود به، وعمار يسوق الناقة - أو أنا: أسوقُهُ، وعمار يقوده - حتى إذا كُنَّا بالعقبة فإذا أنا باثني عشر راكباً قد اعترضوه فيها، قال: فأنبهتُ رسول الله - ﷺ - بهم، فصرخ بهم فَوَلَّوا مدبرين، فقال لنا رسول الله - ﷺ -: هل عرفتم القوم؟ قلنا: لا، يا رسول الله، قد كانوا مُتَلَثِّمِينَ، ولكنا قد عرفنا الرِّكابَ. قال: هؤلاء المنافقون إلى يوم القيامة. وهل تَدْرُونَ ما أرادوا؟ قلنا: لا. قال: أرادوا أن يَزْحَمُوا رسول الله في العقبة، فَيُلْقُوه منها. قلنا: يا رسول الله، أولا تبعث إلى عشائرهم حتى يبعثَ إليك كلُّ قوم برأس صاحبهم؟ قال: لا، أكره أن تتحدث العرب بينها أن محمداً قاتل بقوم حتى [إذا] أظهره الله بهم أقبل عليهم يقتلهم. ثم قال: اللهم ارمهم بالدُّبَيْلَة. قلنا: يا رسول الله، وما الدُّبَيْلَة؟ قال: شهاب من نار يقع على نياط قلب أحدهم فيهلك»[(١)].

وقال الإمام أحمد - رحمه الله -: حدثنا يزيد، أخبرنا الوليد بن عبد الله بن جُمَيع، عن أبي الطُّفيل قال: لما أقبل رسول الله - ﷺ - من غزوة تبوك، أمر منادياً فنادى: «إنَّ رسول الله أخذ العقبة فلا يأخُذْها أحد». فبينما رسول الله - ﷺ - يقوده حذيفة ويسوقه عَمّار، إذ أقبل رهط متلثمون على الرواحل، فغشوا عماراً وهو يسوق برسول الله - ﷺ - وأقبل عمار - رضي الله عنه - يضرب وجوهَ الرواحل، فقال النبي الله - ﷺ - لحذيفة: قَدْ، قَدْ[(٢)]. حتى هبط رسولُ الله - ﷺ - [فلما هبط] نزل ورجع عمار، فقال: يا عمار، هل عرفت القوم؟ فقال: قد عرفت عامة الرواحل، والقوم متلثمون. قال: هل تدري ما أرادوا؟ قال: الله ورسولُه أعلم. قال: أرادوا أن يَنْفِرُوا برسول الله - ﷺ - راحلته[(٣)] فيطرحوه. قال: فسأل عمارٌ رجلاً من أصحاب النبي - ﷺ - فقال: نشدتك بالله كم تعلم كان أصحابُ العقبة؟ قال: أربعة عشر. فقال: إن كنتَ منهم فقد كانوا خمسة عشر. قال: فعذر[(٤)] رسول الله - ﷺ - منهم ثلاثة قالوا: والله ما سمعنا منادي رسول الله، وما علمنا ما أراد القوم. فقال عمار: أشهد أن الاثني عشر الباقين حرب لله - عز وجل - ولرسوله في الحياة الدنيا ويوم يقوم الأشهاد[(٥)].

وهكذا روى ابن لَهِيعَةَ، عن أبي الأسود، عن عروة بن الزبير نحو هذا، وأن رسول الله - ﷺ - أمر أن يمشي الناس في بطن الوادي، وصَعِد هو وحُذَيفة وعمّارُ العقبةَ، فتبعهم هؤلاء النفر الأرذلون، وهم متلثمون،

(١) الدلائل ٥/ ٢٦٠ - ٢٦١.
(٢) أي: حسبك.
(٣) ليست في المسند.
(٤) في المسند: فعلد.
(٥) المسند ٥/ ٤٥٣ - ٤٥٤.

فأرادوا سلوك العقبة، فأطلع الله على مرادهم رسوله، فأمر حُذيفة فرجَعَ إليهم، فضرب وجوه رواحلهم، ففزعوا ورجَعُوا مقبوحين، وأعلم رسول الله ـ ﷺ ـ حُذيفة وعمّاراً بأسمائهم، وما كانوا هَمُّوا به من الفتك بـه ـ صلوات الله وسلامه عليه ـ وأمرهما أن يكتما عليهم[١].

وكذلك روى يونس بن بُكَير، عن ابن إسحاق، إلا أنه سَمّى جماعة منهم، فالله أعلم[٢].

وكذا قد حُكِي في معجم الطبراني، قاله البيهقي. ويشهد لهذه القصة بالصحة ما رواه مسلم:

حدثنا زُهَير بن حرب، حدثنا أبو أحمد الكوفي، حدثنا الوليد بن جُمَيع، حدثنا أبو الطفيل قال: كان بين رجل من أهل العَقَبة وبين حذيفةَ بعضُ ما يكون بين الناس، فقال: أنشدُك بالله، كم كان أصحابُ العَقَبة؟ قال: فقال له القوم: أخبره إذ سألك. قال: كنا نُخبَّر أنهم أربعةَ عشَرَ، فإن كنت منهم فقد كان القوم خمسةَ عشَر، وأشهد بالله أن اثني عشَرَ منهم حربٌ لله ولرسوله في الحياة الدنيا ويومَ يقومُ الأشهادُ، وعَذَرَ ثلاثة، قالوا: ما سَمِعنا مناديَ رسولِ الله ـ ﷺ ـ ولا علمنا بما أراد القوم. وقد كان في حَرَّةٍ فمشى فقال: إن الماء قليل، فلا يسبقني إليه أحد، فوجد قوماً قد سبقوه، فلعنهم يومئذ[٣].

وما رواه مسلم أيضاً، من حديث قتادةُ، عن أبي نَضْرَةَ، عن قَيس بن عُبَادٍ، عن عَمّار بن ياسر قال: أخبرني حذيفة عن النبي ـ ﷺ ـ أنه قال: «في أصحابي اثنا عشر منافقاً، لا يدخلون الجنة، ولا يجدون ريحها حتى يلج الجمل في سَمِّ الخياط: ثمانية منهم تكفيكهم الدُّبَيلَةُ: سراجٌ من نار يظهَرُ بين أكتافهم حتى ينجُم من صُدُورهم»[٤].

ولهذا كان حُذَيفة يُقالُ له: «صاحبُ السرِّ الذي لا يعلمه غيرُه». أي: من تعيينِ جماعةٍ من المنافقين، وهم هؤلاء، قد أطلعه عليهم رسول الله ـ ﷺ ـ دون غيره، والله أعلم.

وقد ترجم الطبراني في مسند حُذَيفة[٥] تسميةَ أصحاب العقبة، ثم روي عن علي بن عبد العزيز، عن زبير بن بكار أنه قال: هم مُعتِّب بن قُشَير، وَوَديعة بن ثابت، وجَدُّ بن عبد الله بن نَبْتَل بن الحارث، من بني عمرو بن عوف، والحارث بن يزيد الطائي، وأوس بن قَيْظِي، والحارث[٦] بن سُوَيد، وسعد بن زُرَارة، وقيس ابن قَهدٍ، وسُوَيد وداعس من بني الحبلي، وقيس بن عمرو بن سهل، وزيدُ بن اللُّصَيتِ، وسلالة[٧] بن الحمام، وهما من بني قينقاع، أظهرا الإسلام.

وقوله: ﴿وما نَقَموا إلا أن أغناهم الله ورسوله من فضله﴾، أي: وما للرسول عندهم ذنبٌ إلا أن الله أغناهم ببركته ويُمْن سِفارته، ولو تمت عليهم السعادة لهداهم الله لما جاء به، كما قال عليه السلام للأنصار: «ألم أجدكم ضُلَّالاً فهداكم الله بي؟ وكنتم متفرقين فألَّفكم الله بي؟ وعالةً فأغناكم الله بي؟ كلما قال شيئاً قالوا: الله ورسوله أَمَنُّ»[٨].

(١) دلائل النبوة للبيهقي ٥/ ٢٥٦ ـ ٢٥٧.
(٢) انظر الدلائل أيضاً ٥/ ٢٥٧ ـ ٢٥٨.
(٣) مسلم، كتاب صفة المنافقين ٢١٤٤.
(٤) مسلم، كتاب صفة المنافقين ٢١٤٣ ـ ٢١٤٤.
(٥) المعجم الكبير ٣/ ١٦٥ ـ ١٦٧.
(٦) في المعجم: والجلاس بن سويد. وهو أخو الحارث، انظر سيرة ابن هشام ١/ ٥١٩.
(٧) في المعجم: وسلامة.
(٨) فتح الباري، كتاب المغازي ٨/ ٤٧، ومسلم، كتاب الزكاة ٧٣٨.

وهذه الصيغة تقال حيث لا ذنب كما قال تعالى: ﴿وما نقموا منهم إلا أن يؤمنوا بالله العزيز الحميد﴾، وكما قال عليه السلام: «ما ينقم ابنُ جَمِيلٍ إلاأن كان فَقِيراً فأغناه الله»[1].

ثم دعاهم الله تبارك وتعالى إلى التوبة فقال: ﴿فإن يتوبوا يك خيراً لهم، وإن يتولوا يعذبهم الله عذاباً أليماً في الدنيا والآخرة﴾، أي: وإن يستمروا على طريقهم ﴿يعذبهم الله عذاباً أليماً في الدنيا﴾، أي: بالقتل والهم والغم، ﴿والآخرة﴾، أي: بالعذاب والنكال والهوان والصغار، ﴿وما لهم في الأرض من ولي ولا نصير﴾، أي: وليس لهم أحد يسعدهم ولا ينجدهم، ولا يحصل لهم خيراً، ولا يدفع عنهم شراً.

﴿ ۞ وَمِنْهُم مَّنْ عَٰهَدَ ٱللَّهَ لَئِنْ ءَاتَىٰنَا مِن فَضْلِهِۦ لَنَصَّدَّقَنَّ وَلَنَكُونَنَّ مِنَ ٱلصَّٰلِحِينَ ﴿٧٥﴾ فَلَمَّآ ءَاتَىٰهُم مِّن فَضْلِهِۦ بَخِلُوا۟ بِهِۦ وَتَوَلَّوا۟ وَّهُم مُّعْرِضُونَ ﴿٧٦﴾ فَأَعْقَبَهُمْ نِفَاقًا فِى قُلُوبِهِمْ إِلَىٰ يَوْمِ يَلْقَوْنَهُۥ بِمَآ أَخْلَفُوا۟ ٱللَّهَ مَا وَعَدُوهُ وَبِمَا كَانُوا۟ يَكْذِبُونَ ﴿٧٧﴾ أَلَمْ يَعْلَمُوٓا۟ أَنَّ ٱللَّهَ يَعْلَمُ سِرَّهُمْ وَنَجْوَىٰهُمْ وَأَنَّ ٱللَّهَ عَلَّٰمُ ٱلْغُيُوبِ ﴿٧٨﴾ ﴾

يقول تعالى: ومن المنافقين من أعطى الله عهده وميثاقه، لئن أغناه من فضله ليصدَّقَنَّ من ماله، وليكونن من الصالحين. فما وفى بما قال، ولا صدق فيما ادعى، فأعقبهم هذا الصنيع نفاقاً سكن في قلوبهم إلى يوم يلقونَ الله عز وجل، يوم القيامة، عياذاً بالله من ذلك.

وقد ذكر كثير من المفسرين، منهم ابن عباس، والحسن البصري أَنَّ سبب نزولِ هذه الآيةِ الكريمةِ في «ثعلبة بن حاطب الأنصاري».

وقد ورد فيه حديث رواه ابنُ جرير ها هنا وابن أبي حاتم، من حديث مُعَان بن رفاعة، عن علي بن يزيد، عن أبي عبد الرحمن القاسم بن عبد الرحمن ـ مولى عبد الرحمن بن يزيد بن معاوية ـ عن أبي أمامة الباهلي، عن ثعلبة بن حاطب الأنصاري أنه قال لرسول الله ـ ﷺ ـ: ادعُ الله أن يرزقني مالاً. فقال رسول الله ـ ﷺ ـ: ويحك يا ثعلبة! قليلٌ تُؤَدِّي شكره خيرٌ من كثير لا تطيقه. قال: ثم قال مرة أخرى، فقال: أما تَرْضَى أن تكون مثل نبيِّ الله، فوالـذي نفسي بيده لو شئتُ أن تسيرَ معي الجبالُ ذهباً وفضةً لسارت. قال: والذي بعثك بالحق لئن دعوتَ الله فرزقني مالاً لأعطينَّ كل ذي حق حقه. فقال رسول الله ـ ﷺ ـ: اللهم ارزق ثعلبة مالاً. قال: فاتخذ غنماً، فَنَمت كما ينمو الدودُ، فضاقت عليه المدينة، فَتَنَحَّى عنها، فنزل وادياً من أوديتها، حتى جعل يصلي الظهر والعصر في جماعة، ويترك ما سواهما. ثم نمت وكَثُرت، فَتَنَحَّى حتى ترك الصواتِ إلا الجمعة، وهي تنمو كما ينمو الدودُ، حتى ترك الجمعة. فطفق يَتَلقَّى الركبان يوم الجمعة، يسألهم عن الأخبار، فقال رسولُ الله ـ ﷺ ـ: ما فعل ثعلبة؟ فقالوا: يا رسول الله، اتَّخذَ غنماً فضاقت عليه المدينة. فأخبروه بأمره فقال: يا ويحَ ثعلبةُ، يا ويحَ ثعلبة! يا ويح ثعلبة! وأنزل الله جلَّ ثناؤه: ﴿خذ من أموالهم صدقـة تطهرهم وتزكيهم بها﴾... الآية، قال: ونزلت عليه فرائض الصدقة، فبعث رسول الله ـ ﷺ ـ رجلين على الصدقة: رجلاً من جهينة، ورجلاً من سُلَيم، وكتب لهما كيف يأخذانِ الصدقةَ من المسلمين، وقال لهما: «مُرَّا بثعلبة، وبفلانٍ ـ رجل من بني سُليم ـ فَخُذا صدقاتهما. فخرجا حتى أتيا ثعلبة، فسألاه الصدقة، وأقرآه كتاب رسول الله ـ ﷺ ـ فقال: ما هذه إلا جزيةٌ. ما هذه إلا أختُ الجزية. ما أدري ما هذا؟ انطلقا حتى تَفرُغا ثم عُودا إليَّ.

فانطلقا وسَمع بهما السُّلَمِيّ، فنظر إلى خيار أسنان إبله، فَعَزَلها للصدقة، ثم استقبلهما بها. فلما رأوها

(١) أخرجاه في كتاب الزكاة، فتح الباري ٣/ ٣٣١، ومسلم ٦٧٦.

قالوا: ما يجبُ عليك هذا، وما نريد أن نأخذ هذا منك. قال: بلى، فخذوها فإن نفسي بذلك طيبةٌ، وإنما هي له. فأخذوها منه.

فلما فَرَغَا من صدقاتهما رجعا حتى مرًّا بثعلبة، فقال: أروني كتابكما. فنظر فيه، فقال: ما هذه إلا أختُ الجزيةِ. انطلقا حتى أرى رأيي. فانطلقا حتى أتيا النبي ـ ﷺ ـ فلما رآهما قال: يا ويح ثعلبة! قبل أن يُكَلِّمهما، ودعا للسلمي بالبركة. فأخبراه بالذي صنع ثعلبة والذي صنع السُّلَمي. فأنزل الله عز وجل: ﴿ومنهم من عاهد الله لئن آتانا من فضله لنصدقن﴾ إلى قوله: ﴿وبما كانوا يكذبون﴾. قال: وعند رسول الله ـ ﷺ ـ رجلٌ من أقارِبِ ثعلبةَ، فسمع ذلك، فخرج حتى أتاه فقال: ويحك يا ثعلبة! قد أنزل الله فيك كذا وكذا. فخرجِ ثعلبة حتى أَتى النبي ـ ﷺ ـ فسأله أن يقبل منه صدقته، فقال: إن الله منعني أن أقبل منكَ صدقتك. فجعل يحثو على رأسه الترابَ، فقال له رسول الله ـ ﷺ ـ: [هذا] عَمَلُك، قد أمرتك فلم تطعني. فلما أبى أن يقبضَ رسولُ الله ـ ﷺ ـ رجع إلى منزله، فَقُبِض رسولُ الله ـ ﷺ ـ ولَمْ يقْبَلْ منه شيئاً.

ثم أتى أبا بكر ـ رضي الله عنه ـ حين استُخْلِفَ، فقال: قد عَلِمْتَ منزلتي من رسول الله ـ ﷺ ـ وموضِعي من الأنصار، فاقبل صدقتي. فقال أبو بكر: لم يقبلها منك رسول الله ـ ﷺ ـ وأبى أن يقبلها، فقُبِضَ أبو بكر ولم يَقْبَلها.

فلما وَلِي عمر ـ رضي الله عنه ـ أتاه فقال: يا أمير المؤمنين، اقبل صدقتي. فقال: لم يقبلها رسول الله ـ ﷺ ـ ولا أبو بكر، فأنا أقبلها منك! فقبض ولم يقبلها.

ثم ولي عثمان ـ رضي الله عنه ـ فسأله أن يقبل صدقته، فقال: لم يقبلها رسول الله ـ ﷺ ـ ولا أبو بكر ولا عمر، وأنا أقبلُها منك. فلم يقبلها منه، وهَلَكَ ثعلبة في خلافة عثمان(١).

وقوله تعالى: ﴿بما أخلفوا الله ما وعدوه بما كانوا يكذبون﴾، أي: أعقبهم النفاق في قلوبهم بسبب إخلافهم الوعد وكذبهم، كما جاء في الصحيح(٢)، عن رسول الله ـ ﷺ ـ أنه قال: «آية المنافق ثلاث: إذا حَدَّث كذب، وإذا وعد أخلف، وإذا اؤتمن خان». وله شواهد كثيرة، والله أعلم.

وقوله: ﴿ألم يعلموا أن الله يعلم سرهم ونجواهم وأن الله علام الغيوب﴾، يخبرهم تعالى أنه يعلم السرَّ وأخفى، وأنه أعلم بضمائرهم وإن أظهروا أنهم إن حَصَل لهم أموال تَصَدَّقوا منها وشَكَروا عليها، فإنه أعلم بهم من أنفسهم، لأنه تعالى علام الغيوب، أي: يعلم كل غيب وشهادة، وكلَّ سرٍّ ونجوى، ويعلم ما ظَهَرَ وما بَطَن.

﴿ٱلَّذِينَ يَلْمِزُونَ ٱلْمُطَّوِّعِينَ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ فِى ٱلصَّدَقَٰتِ وَٱلَّذِينَ لَا يَجِدُونَ إِلَّا جُهْدَهُمْ فَيَسْخَرُونَ مِنْهُمْ سَخِرَ ٱللَّهُ مِنْهُمْ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٧٩﴾﴾

وهذه أيضاً من صفاتُ المنافقين: لا يَسْلَم أحدٌ من عيبهم ولَمْزهم في جميع الأحوال، حتى ولا المتصدِّقون يسلمون منهم، إن جاء أحد منهم بمال جزيل قالوا: هذا مراءٍ. وإن جاء بشيء يسير قالوا: إن الله لغني عن صدقة هذا. كما قال البخاري:

حدثنا عبيد الله بن سعيد، حدثنا أبو النعمان البصري، حدثنا شعبة، عن سليمان، عن أبي وائل، عن

(١) تفسير الطبري ١٠/ ١٨٩ ـ ١٩٠.
(٢) فتح الباري، كتاب الإيمان ١/ ٨٩.

أبي مسعود قال: لما نزلت آية الصدقة كنا نُحامل(١) على ظهورنا، فجاء رجلٌ فتصدَّق بشيءٍ كثير، فقالوا: مُرائي. وجاء رجل فتصدق بصاع، فقالوا: إن الله لغنى عن صدقة هذا. فنزلت: ﴿الذين يَلْمِزُون المُطَّوِّعين من المؤمنين في الصدقات، والذين لا يجدون إلا جُهْدَهم﴾(٢) الآية.

وقد رواه مسلم أيضاً في صحيحه، من حديث شعبة، به(٢).

وقال الإمام أحمد: حدثنا يزيد، حدثنا الجُرَيري، عن أبي السَّلِيل قال: وقف علينا رجل في مجلسنا بالبقيع فقال: حدثني أبي ـ أو عَمِّي ـ أنه رأى رسولَ الله ـ ﷺ ـ بالبقيع، وهو يقول: من يتصدَّق بصدقة أشهدُ له بها يوم القيامة؟ قال: فَحَلَلْتُ من عمامتي لَوْثاً أو لَوْثَين(٣)، وأنا أريد أن أتصدق بهما، فأدركني ما يدرك ابن آدم، فعقدت على عمامتي، فجاء رجلٌ لم أر بالبقيع رجلاً أشدَّ سواداً [ولا] أقصر قِمَّة(٤)، ولا أَدَمَّ بعين(٤) منه [يقود ناقة]، لم أر بالبقيع ناقةً أحسَنَ منها، فقال: يا رسولَ الله، أصدقةٌ؟ قال: نعم. فقال: دونك هذه الناقة. قال: فَلَمَزَه رجلٌ فقال: هذا يتصدقُ بهذه. فوالله لهي خيرٌ منه. قال: فَسَمِعَها رسولُ ـ ﷺ ـ فقال: كذبتَ. بل هو خير منك ومنها ـ ثلاث مرات ـ ثم قال: ويل لأصحاب المئين من الإبل ـ ثلاثاً ـ قالوا: إلا من يا رسولَ الله؟ قال: إلا من قال بالمال هكذا وهكذا. وجَمَع بين كَفَّيه عن يمينه وعن شماله، ثم قال: قد أفلح المُزْهِد المُجْهِد، ثلاثاً. المُزْهِدِ في العيش، المُجْهِدِ في العبادة(٥).

وقال علي بن أبي طلحة، عن ابن عباس في هذه الآية، قال: جاء عبد الرحمن بن عوف بأربعين أوقية من ذهب إلى رسول الله ـ ﷺ ـ وجاءه رجلٌ من الأنصار بصاع من طعام، فقال بعضُ المنافقين: والله ما جاء عبد الرحمن بما جاء به إلا رياءً. وقالوا: إن كان الله ورسولُه لَغَنِيَّين عن هذا الصاع(٦).

وقال العوفي، عن ابن عباس: إن رسول الله خرج إلى الناس يوماً فنادى فيهم: أن اجمعوا صدقاتكم. فجمع الناس صَدَقاتِهم، ثم جاء رجلٌ من آخرهم بصاع من تمر، فقال: يا رسولَ الله. هذا صاعٌ من تَمْرٍ بتُّ ليلتي أَجُرُّ بالجَرير الماءَ(٧)، حتى نِلتُ صاعين من تمرٍ فأمسكتُ أحدَهما، وأتيتك بالآخر. فأمره رسول الله ـ ﷺ ـ أن ينثره في الصدقات. فَسَخِر منه رجالٌ، وقالوا: إن الله ورسوله لغنيّان عن هذا. وما يصنعان بصاعك من شيء. ثم إن عبد الرحمن بن عوف قال لرسول الله ـ ﷺ ـ: هل بقي أحد من أهل الصدقات؟ [(٨)فقال له رسول الله ـ ﷺ ـ: لم يبق أحد غيرك(٨)]. فقال له عبد الرحمن بن عوف: فإن عندي مائة أوقية من ذهب في الصدقات. فقال له عمر بن الخطاب ـ رضي الله عنه ـ: أمجنون أنت؟! قال: ليس بي جنون. قال: أفعلت ما فعلت؟ قال: نعم، مالي ثمانية آلاف، أما أربعة آلاف فأقرضها ربي، وأما أربعة آلاف فلي. فقال له رسول الله ـ ﷺ ـ: بَارَكَ الله لك فيما أمسكتَ وفيما أعطيتَ. ولمزه المنافقونَ فقالوا: والله ما أعطى عبد الرحمن عطيته إلا رياء. وهم كاذبون، إنما كان به مُتَطَوِّعاً، فأنزل الله ـ عز وجل ـ عذره وعذر صاحبه المسكين

---

(١) أي: نحمل على ظهورنا بالأجرة لنكتسب ما نتصدّق به.
(٢) أخرجاه في كتاب الزكاة، فتح الباري ٣/ ٢٨٢، ومسلم ٧٠٦.
(٣) أي: لَفَّةً أو لَفّتين.
(٤) في الأصل: «ولا أدم ببعير». والمثبت عن تفسير الطبري ١٠/ ١٩٧، وفيه: «لعيني».
(٥) مسند الإمام أحمد ٥/ ٣٤.
(٦) تفسير الطبري ١٠/ ١٩٤.
(٧) الجرير: الحبل. أراد أنه كان يستقي الماء بالحبل.
(٨) عن الأصل.

الذي جاء بالصاع من التمر، فقال تعالى في كتابه: ﴿الذين يلمزون المطَّوِّعين من المؤمنين في الصدقات﴾[(١)]. . . الآية.

وكذا رُوي عن مجاهد، وغير واحد.

وقال ابن إسحاق: كان المُطَّوِّعون من المؤمنين في الصدقات: عبد الرحمن بن عوف، تصدق بأربعة آلاف درهم، وعاصم بن عدي أخا بني العجلان، وذلك أن رسول الله ـ ﷺ ـ رَغَّب في الصدقات، وحَضَّ عليها، فقام عبد الرحمن بن عوف فتصدق بأربعةِ آلاف، وقام عاصم فتصدق بمائة وسق من تمر، فلمزوهما وقالوا: ما هذا إلا رياء. وكان الذي تَصَدَّق بجهده: أبو عَقِيل أخو بني أُنَيف الإراشي ـ حليفُ بني عمرو بن عوف ـ أَتَى بصاع من تمر فأفرغه في الصدقة، فتضاحكوا به وقالوا: إن الله لغنيٌّ عن صاع أبي عَقيل[(٢)].

وقال الحافظ أبو بكر البزار: حدثنا طالوت بن عباد، حدثنا أبو عوانة، عن عُمَر بن أبي سلمة، عن أبيه، عن أبي هُرَيرة قال: قال رسولَ الله ـ ﷺ ـ: تَصَدَّقوا، فإني أريد أن أبعث بعثاً. قال: فجاء عبد الرحمن بن عوف فقال: يا رسول الله، عندي أربعة آلاف، ألفان أقرضهما ربي، وألفان[(٣)] لعيالي. فقال رسول الله ـ ﷺ ـ: بارك الله لك فيما أعطيت، وبارك لك فيما أمسكتَ. وبات رجل من الأنصار فأصاب صاعين من تمر، فقال: يا رسول الله، أصبت صاعين من تمر: صاع أقرضه لربي، وصاع لعيالي. قال: فلمزه المنافقون وقالوا: ما أعطى الذي أعطى ابن عوف إلا رياء؟ وقالوا: ألم يكن الله ورسوله غَنِيَّين عن صاع هذا؟ فأنزل الله: ﴿الذين يلمزون المطوعين من المؤمنين في الصدقات، والذين لا يجدون إلا جهدهم فيسخرون منهم﴾. . . الآية.

ثم رواه عن أبي كامل، عن أبي عوانة، عن عُمَر بن أبي سلمة، عن أبيه مرسلاً. قال: ولم يسنده أحد إلا طالوت[(٤)].

وقال الإمام أبو جعفر بن جَرير: حدثنا ابنُ وكيع، حدثنا زيد بن الحُبَاب، عن موسى بن عُبَيدة، حدثني خالد بن يَسَار، عن ابن أبي عَقيل، عن أبيه قال: بت أجرُ الجَرير[(٥)] على ظهري، على صاعين من تمر، فانقلبت بأحدهما إلى أهلي يتبلَّغون به، وجئتُ بالآخر أتقرب [به] إلى رسول الله ـ ﷺ ـ فأتيت رسول الله ـ ﷺ ـ فأخبرته، فقال: انثره في الصدقة. قال: فَسَخِر القوم وقالوا: لقد كان الله غَنِيّاً عن صدقة هذا المسكين. فأنزل الله: ﴿الذين يلمزون المطوعين من المؤمنين في الصدقات﴾. . . الآيتين[(٦)].

وكذا رواه الطبراني من حديث زيد بن الحباب، به. وقال: «اسم (أبي) عقيل حَبْحاب[(٧)]، ويقال: عبد الرحمن[(٨)] بن عبد الله بن ثعلبة.

وقوله: ﴿فيسخرون منهم سخر الله منهم﴾، وهذا من باب المقابلة على سوء صنيعهم واستهزائهم

(١) تفسير الطبري ١٠/ ١٩٤ ـ ١٩٥.
(٢) تفسير الطبري ١٠/ ١٩٦.
(٣) في الأصل: «ألفين أقرضهما ربي، وألفين لعيالي». والمثبت عن كشف الأستار.
(٤) كشف الأستار ٣/ ٥١.
(٥) الجرير: الحبل. أراد أنه كان يستقي الماء بالحبل.
(٦) تفسير الطبري ١٠/ ١٩٦.
(٧) أسد الغابة ١/ ٤٣٨.
(٨) الدرّ المنثور ٤/ ٢٥٠.

بالمؤمنين؛ لأن الجزاء من جنس العمل، فعاملهم معاملة من سخر بهم، انتصاراً للمؤمنين في الدنيا، وأعد للمنافقين في الآخرة عذاباً أليماً.

﴿ٱسْتَغْفِرْ لَهُمْ أَوْ لَا تَسْتَغْفِرْ لَهُمْ إِن تَسْتَغْفِرْ لَهُمْ سَبْعِينَ مَرَّةً فَلَن يَغْفِرَ ٱللَّهُ لَهُمْ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ كَفَرُوا۟ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَٱللَّهُ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلْفَٰسِقِينَ ﴿٨٠﴾﴾

يخبر تعالى نبيَّه - ﷺ - بأنَّ هؤلاء المنافقين ليسُوا أهلاً للاستغفار، وأنَّه لو استغفر لهم ولو سبعين مَرَّةً فإنَّ الله لا يغفر لهم.

وقد قيل: إنَّ السبعين إنما ذُكرت حسماً لمادة الاستغفار لهم، لأن العرب في أساليب كلامها تذكر السبعين في مبالغةِ كلامها، ولا تريد التحديدَ بها، ولا أن يكون ما زاد عليها بخلافها.

وقيل: بل لها مفهوم، كما رَوَى العَوْفيُّ عن ابن عباس أَنَّ رسول الله - ﷺ - قال لما نزلت هذه الآية: أسمعُ ربي قد رَخّص لي فيهم، فوالله لأستغفرن أكثر من سبعين مرة، لعل الله أن يغفر لهم! فقال الله من شدة غضبه عليهم: ﴿سواء عليهم أستغفرت لهم أم لم تستغفر لهم لن يغفر الله لهم، إن الله لا يهدي القوم الفاسقين﴾[١].

وقال الشعبي: لما ثَقُل عبد الله بن أبيّ، انطلق ابنه إلى النبي - ﷺ - فقال: إن أبي قد احتُضِرَ، فأحبُّ أن تَشهَدَه وتُصَلِّي عليه. فقال النبيُّ - ﷺ -: ما اسمُكَ. قال: الحبابُ بن عبد الله. قال: بل أنت عبد الله بن عبد الله، إن الحباب اسم شيطان. قال: فانطلق معه حتى شَهِدَه وألبسه قميصه وهو عَرِقٌ، وصلَّى عليه، فقيل له: أتصلي عليه [وهو منافق][٢]؟ قال: إن الله قال: ﴿إن تستغفر لهم سبعين مرة﴾، ولأستغفرن له سبعين وسبعين وسبعين.

وكذا رُوِي عن عروةَ بن الزبير، ومجاهد بن جَبْرٍ، وقتادة بن دِعَامَة. رواها ابن جرير بأسانيده.

﴿فَرِحَ ٱلْمُخَلَّفُونَ بِمَقْعَدِهِمْ خِلَٰفَ رَسُولِ ٱللَّهِ وَكَرِهُوٓا۟ أَن يُجَٰهِدُوا۟ بِأَمْوَٰلِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ وَقَالُوا۟ لَا تَنفِرُوا۟ فِى ٱلْحَرِّ قُلْ نَارُ جَهَنَّمَ أَشَدُّ حَرًّا لَّوْ كَانُوا۟ يَفْقَهُونَ ﴿٨١﴾ فَلْيَضْحَكُوا۟ قَلِيلًا وَلْيَبْكُوا۟ كَثِيرًا جَزَآءًۢ بِمَا كَانُوا۟ يَكْسِبُونَ ﴿٨٢﴾﴾

يقول تعالى ذاماً للمنافقين المتخلفين عن صحابة رسول الله - ﷺ - في غزوة تبوك، وفرحوا بمقعدهم بعد خروجه، ﴿وكرهوا أن يجاهدوا﴾ معه ﴿بأموالهم وأنفسهم في سبيل الله، وقالوا﴾، أي: بعضهم لبعض: ﴿لا تنفروا في الحر﴾. وذلك أن الخروج في غزوة تبوك كان في شدة الحر، عند طيب الظلال والثمار، فلهذا قالوا: ﴿لا تنفروا في الحر﴾، قال الله تعالى لرسوله: ﴿قل﴾ لهم: ﴿نار جهنم﴾ التي تصيرون إليها بسبب مخالفتكم ﴿أشد حراً﴾ مما فررتم منه من الحر، بل أشد حراً من النار، كما قال الإمام مالك، عن أبي الزناد، عن الأعرج، عن أبي هريرة أن رسول الله - ﷺ - قال: «نارُ بني آدَمَ التي يُوقِدون بها جزءٌ من سبعين جزءاً من نار جَهَنَّم. فقالوا: يا رسولَ الله، إنْ كانت لكافيةً. فقال: فُضِّلت عليها بتسعة وستين جزءاً. أخرجاه في الصحيحين من حديث مالك، به[٣].

(١) تفسير الطبري ١٠/ ١٩٩ - ٢٠٠.

(٢) عن تفسير الطبري ١٠/ ١٩٩.

(٣) الموطأ، كتاب جهنم ٩٩٤، وفتح الباري، كتاب بدء الخلق ٦/ ٣٣٠، ومسلم، كتاب الجنة وصفة نعيمها وأهلها عن قتيبة بن سعيد، عن المغيرة، عن أبي الزناد ٢١٨٤.

وقال الإمام أحمد: حدثنا سفيان، عن أبي الزناد، عن الأعرج، عن أبي هُرَيرة، عن النبي ـ ﷺ ـ قال: «إنّ ناركم هذه جزءٌ من سبعين جزءاً من نار جَهَنَّم، وضُرِبت بالبحر مرَّتين، ولولا ذلك ما جعل الله فيها منفعة لأحد»[(١)]. وهذا أيضاً إسناده صحيح.

وقد روَى الإمامُ أبو عيسى الترمذيّ وابنُ ماجه، عن عباس الدّوريّ، عن يحيى بن أبي بكير، عن شَريك، عن عاصم، عن أبي صالح، عن أبي هُرَيرة ـ رضي الله عنه ـ قال: قال رسولُ الله ـ ﷺ ـ: «أوقدَ على النّار ألفَ سنةٍ حتى احمرَّتْ، ثم أوقد عليها ألفَ سنةٍ حتى ابيضَّتْ، ثم أوقد عليها ألفَ سنة حتى اسودَّت، فهي سوداء كالليل المظلم». ثم قال الترمذيُّ: لا أعلم أحداً رفَعه غير يحيى[(٢)].

كذا قال. وقد رواه الحافظ أبو بكر بن مَرْدُويه عن إبراهيم بن محمد، عن محمد بن الحسين بن مُكْرَم، عن عبيد الله بن سعد، عن عمه، عن شريك ـ وهو ابن عبدالله النخعي ـ ،به. ورَوَى أيضاً ابن مَرْدُويه من رواية مبارك بن فضالة، عن ثابت، عن أنس قال: تلا رسولُ الله ـ ﷺ ـ: ﴿ناراً وقودُها الناس والحجارة﴾، قال: «أُوقد عليها ألف عامٍ حتى ابيضَّتْ، وألفَ عامٍ حتى احمرت، وألف عامٍ حتى اسودَّت، فهي سوداءُ كالليلِ لا يُضِيء لهبُها».

وروى الحافظُ أبو القاسم الطبرانيُّ من حديث تمام بن نَجيح ـ وقد اختُلِفَ فيه ـ عن الحسَنِ، عن أنسٍ مرفوعاً: «لو أن شرارةً بالمشرق، أي: من نار جهنم، لوجَدَ حَرَّها مَن بالمغرب».

وروى الحافظ أبو يعلى عن إسحاق بن أبي إسرائيل، عن أبي عبيدة الحداد، عن هشام بن حسام، عن محمد بن شبيب، عن جعفر بن أبي وحشية، ؛ عن سعيد بن جُبَير، عن أبي هُرَيرة قال: قال رسولُ الله ـ ﷺ ـ: «لو كان في هذا المسجدِ مائةُ ألفٍ أو يزيدونَ، وفيهم رجلٌ من أهل النارِ فتنفَّس، فأصابهم نَفَسُه، لاحترق المسجدُ ومن فيه». غريب.

وقال الأعمش، عن أبي إسحاقَ، عن النعمان بن بَشِير قال: قال رسول الله ـ ﷺ ـ: «إنَّ أهونَ أهلِ النار عذاباً يوم القيامة لمن له نعلان وَشِرَاكـان من نار، يغلي منهما دماغه كما يغلي المِرْجَلُ، لا يَرَى أن أحداً من أهل النار أشَدُّ عذاباً منه، وإنه أهوَنُهم عذاباً». أخرجاه في الصحيحين، من حديث الأعمش[(٣)].

وقال مسلم أيضاً: حدثنا أبو بكر بن أبي شيبة، حدثنا يحيى بن أبي بُكَير، حدثنا زهير بن محمد، عن سهيل بن أبي صالح، عن النعمان بن أبي عياش، عن أبي سعيد الخدري أن رسول الله ـ ﷺ ـ قال: «إنّ أدنى أهل النار عذاباً يوم القيامة يَنْتَعِلُ بنعلين من نارٍ، يَغْلِي دِماغه من حَرارة نعليه»[(٤)].

وقال الإمامُ أحمدُ: حدثنا يحيى، عن ابن عجلان، سمعت أبي، عن أبي هُرَيرة، عن النبي ـ ﷺ ـ قال: «إن أدنى أهل النار عذاباً رجل يُجعَلُ له نعلان يَغْلِي منهما دماغه»[(٥)].

وهذا إسناد جيد قويٌ، رجاله على شرط مسلم، والله أعلم.

والأحاديث والآثار النبوية في هذا كثيرة، وقال الله تعالى في كتابه العزيز: ﴿كلا إنها لظى * نزاعة

---

(١) مسند الإمام أحمد ٢/ ٢٤٤.

(٢) تحفة الأحوذي، أبواب صفة جهنم ٧/ ٣١٦ ـ ٣١٧، وسنن ابن ماجه، كتاب الزهد ١٤٤٥.

(٣) فتح الباري، كتاب الرقاق ١١/ ٤١٧، وهو فيه من رواية شعبة وإسرائيل عن أبي إسحاق، ومسلم، كتاب الإيمان ١٩٦. وانظر تحفة الأشراف ٩/ ٢٧ ـ ٢٨.

(٤) مسلم، كتاب الإيمان ١٩٥ ـ ١٩٦.

(٥) مسند الإمام أحمد ٢/ ٤٣٨ ـ ٤٣٩.

للشوى﴾، وقال تعالى: ﴿يُصَبّ من فوق رءوسهم الحميم. يُصهَرُ به ما في بطونهم والجلودُ. ولهم مقامعُ من حديدٍ. كُلما أرادوا أن يخرجوا منها من غَمٍّ أعيدُوا فيها وذُوقُوا عذابَ الحريق﴾، وقال تعالى: ﴿إن الذين كفروا بآياتنا سوف نُصليهم ناراً كُلّما نَضِجَتْ جلودُهم بَدَّلناهم جُلوداً غيرها ليذُوقُوا العذابَ﴾.

وقال تعالى في هذه الآية الكريمة: ﴿قل: نارُ جهنَّم أشدُّ حراً لو كانوا يفقهون﴾، أي: لو أنهم يفقهون ويفهمون لَنَفروا مع الرسول في سبيلِ الله في الحر، ليتّقوا به من حَرّ جَهَنّم، الذي هو أضعافُ أضعافِ هذا، ولكنهم كما قال الآخر[1]:

* كالمستَجيرِ منَ الرَّمضاءِ بالنارِ *

وقال الآخر:

عُمرُكَ بالحِمْيَةِ[2] أفنيْتَهُ مَخافَةَ البارِدِ والحَارِ
وَكانَ أولَى بكَ أنْ تَتَّقِي مِنَ المَعَاصِي حَذَرَ النّارِ

ثم قال تعالى ـ جلّ جلاله ـ متوعداً لهؤلاء المنافقين على صنيعهم هذا: ﴿فَلْيَضْحَكُوا قليلاً وليبكوا كثيراً جزاء بما كانوا يكسبون﴾.

قال ابنُ أبي طَلْحَة، عن ابن عباس: الدنيا قليلٌ، فَلْيَضْحَكوا فيها ما شاءُوا، فإذا انقطعت الدنيا وصاروا إلى الله ـ عز وجل ـ استأنفوا بكاءً لا ينقطع أبداً. وكذا قال أبو رَزِين، والحسنُ، وقتادةُ، والربيع بن خُثَيم، وعَون العقيلي، وزيد بن أسلم.

وقال الحافظ أبو يعلى الموصلي: حدثنا عبد الله بن عبد الصمد بن أبي خداش، حدثنا محمد بن حُمَيد[3]، عن ابن المبارك، عن عمران بن زيد، حدثنا يزيد الرَّقاشي، عن أَنَس بن مالك قال: سمعتُ رسولَ الله ـ ﷺ ـ يقول: «يا أيها الناس، ابكوا، فإن لم تبكوا فتباكَوا، فإن أهلَ النارِ يبكُون حتى تسيلَ دموعُهم في وجوهِهم كأنها جداولُ. حتى تنقطعَ الدموع فَتسيلَ[4] فَتَقرَحَ العيونَ. فلو أن سُفُناً أُرْخِيَتْ فيها لَجَرت»[5].

ورواه ابن ماجه من حديث الأعمش، عن يزيد الرَّقاشيِّ، به[6].

وقال الحافظ أبو بكر بن عبد الله بن محمد بن أبي الدنيا. حدثنا محمد بن العباس، حدثنا حماد الجزري، عن زيد بن رفيع ـ رفعه ـ قال: إن أهلِ النار إذا دخلوا النار بكَوا الدموع زماناً، ثم بكوا القَيْحَ زماناً ـ قال: فتقول لهم الخَزَنَة: يا معشرَ الأشقياءِ، تركتُم البكاءَ في الدار المرحوم فيها أهلها في الدنيا، هل تجدون اليوم من تستغيثون به؟ قال: فيرفعون أصواتَهم: يا أهل الجنة، يا معشرَ الآباء والأمهات والأولاد، خرجنا من

(١) هو التُّكلام الضُّبَعي، وصدره:

المستجير بعمرو عند كربته

ويروى العجز:

كالمستجير من الدعصاء بالنار.

انظر البيت في كتاب الأمثال لأبي عبيد ٢٦٣، واللسان: دعص.

(٢) الحمية: الإقلال من الطعام.

(٣) في الأصل: محمد بن جبر، وهو خطأ، صوابه من مسند أبي يعلى.

(٤) بعده في أبي يعلى: يعني الدماء.

(٥) مسند أبي يعلى ٧/ ١٦٢.

(٦) سنن ابن ماجه، كتاب الزهد ٤٤٦١.

القبور عطاشاً، وكنَّا طول الموقف عِطاشاً، ونحن اليوم عطاشٌ، فأفيضوا علينا من الماء أو مما رزقكم الله، فيدْعُون أربعين سنة لا يُجيبهم، ثم يجيبهم: ﴿إنكم ماكثون﴾، فييأسون من كل خير».

﴿فَإِن رَّجَعَكَ ٱللَّهُ إِلَىٰ طَآئِفَةٍ مِّنْهُمْ فَٱسْتَـْٔذَنُوكَ لِلْخُرُوجِ فَقُل لَّن تَخْرُجُوا۟ مَعِىَ أَبَدًا وَلَن تُقَـٰتِلُوا۟ مَعِىَ عَدُوًّا ۖ إِنَّكُمْ رَضِيتُم بِٱلْقُعُودِ أَوَّلَ مَرَّةٍ فَٱقْعُدُوا۟ مَعَ ٱلْخَـٰلِفِينَ ﴿٨٣﴾﴾

يقول تعالى آمراً لرسوله ـ عليه الصلاة والسلام ـ: ﴿فإن رجعك الله﴾، أي: ردك الله من غَزْوَتك هذه ﴿إلى طائفة منهم﴾ ـ قال قتادة: ذكر لنا أنهم كانوا اثني عشر رجلاً ـ ﴿فاستأذنوك للخروج﴾، أي: مَعَكَ إلى غَزْوةٍ أخرى، ﴿فقل: لن تخرجُوا معي أبداً، ولن تقاتلوا معي عَدُوّاً﴾. أي: تعزيراً لهم وعقوبة. ثم عَلَّل ذلك بقوله: ﴿إنكم رضيتم بالقعود أول مرة﴾، وهذا كقوله تعالى: ﴿ونُقَلِّبُ أفئدتهم وأبصارهم كما لم يُؤْمِنُوا به أوَّل مرة﴾، فإن من جزاء السيئة السيئة بعدها كما أن من ثواب الحسنة الحسنة بعدها، كما قال في عُمرة الحديبية: ﴿سيقول المخلفون إذا انطلقتم إلى مغانم لتأخذوها: ذرونا نتبعكم. يريدون أن يبدلوا كلام الله، قل لن تتبعونا، كذلكم قال الله من قبل﴾.

وقولُه تعالى: ﴿فاقعُدوا مع الخالفين﴾ ـ قال ابن عباس: أي الرِّجالِ الذين تَخلَّفوا عن الغزاة. وقال قتادةُ: ﴿فاقعُدوا مع الخالفين﴾، أي: مع النساء.

قال ابنُ جَرير: وهذا لا يستقيمُ، لأن جَمْعَ النساء لا يكون بالياء والنون، ولو أريد النساء لقال: فاقعدوا مع الخوالف، أو الخالفات، ورجح قول ابن عباس رضي الله عنهما[١].

﴿وَلَا تُصَلِّ عَلَىٰٓ أَحَدٍ مِّنْهُم مَّاتَ أَبَدًا وَلَا تَقُمْ عَلَىٰ قَبْرِهِۦٓ ۖ إِنَّهُمْ كَفَرُوا۟ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَمَاتُوا۟ وَهُمْ فَـٰسِقُونَ ﴿٨٤﴾﴾

أمر الله تعالى رسولَ ـ ﷺ ـ أن يَبْرأ من المنافقين، وألاّ يُصلِّي على أحد منهم إذا مات، وألاّ يقوم على قبره ليستغفر له أو يدعوَ له؛ لأنهم كفروا بالله ورسوله، وماتوا عليه. وهذا حُكْمٌ عامٌ في كلِّ من عُرِف نفاقُه، وإن كان سببُ نزولِ الآية في «عبد الله بن أُبَيّ بن سلول» رأس المنافقين، كما قال البخاري:

حدثنا عُبَيد بن إسماعيل، عن أبي أسامة، عن عُبَيد الله، عن نافع، عن ابن عمر قال: لما توفي عبد الله ـ هو ابن أُبَيّ ـ جاء ابنه عبد الله بن عبد الله إلى رسول الله ـ ﷺ ـ فسأله أن يُعطيه قميصه يكفِّن فيه أباه، فأعطاه، ثم سأله أن يصلي عليه، فقام رسول الله ـ ﷺ ـ ليصلِّي عليه، فقام عمر فأخذ بثوب رسول الله ـ ﷺ ـ فقال: يا رسولَ الله، تُصلِّي عليه وقد نهاك ربك أن تُصلِّي عليه؟ فقال رسول الله ـ ﷺ ـ: إنما خيَّرني الله فقال: ﴿استغفر لهم أو لا تستغفر لهم إن تستغفر لهم سبعين مرة فلن يغفر الله لهم﴾، وسأزيده على السبعين. قال: إنه منافقٌ؟ قال: فصلَّى عليه [رسول[٢] الله] ـ ﷺ ـ فأنزل الله عز وجل آية: ﴿ولا تصلِّ على أحد منهم مات أبداً ولا تقم على قبره﴾[٣].

(١) الآثار وقول الطبري في تفسيره ١٠/ ٢٠٤.
(٢) ما بين القوسين عن البخاري.
(٣) فتح الباري، تفسير سورة براءة ٨/ ٣٣٣.

وكذا رواهُ مسلِمٌ عن أبي بكر بن أبي شَيبَةَ، عن أبي أسامةَ حَمَّادِ بن أسامةَ، به[١].

ثم رواه البخاريُّ عن إبراهيمَ بن المنذر، عن أنس بن عياض، عن عُبَيد الله ـ وهو ابن عُمَر العُمَرِيّ ـ به، وقال: «فصلى عليه، وصلينا معه، وأنزل الله: ﴿ولا تصل على أحد منهم مات أبداً﴾ . . . الآية[٢].

وهكذا رواه الإمام أحمد، عن يحيى بن سعيد القطان، عن عبيد الله، به[٣].

وقد رُوِي من حديث عُمَر بن الخطاب نفسه أيضاً بنحوٍ من هذا، فقال الإمام أحمد:

حدثنا يعقوبُ، حدثنا أبي، عن ابن إسحاقَ، حَدَّثني الزهريُّ، عن عُبَيد الله بن عبد الله، عن ابن عباس قال: سَمِعتُ عُمَر بن الخطابَ ـ رضي الله عنه ـ يقول: لما تُوفي عبد الله بن أُبَيٍّ دُعِي رسول الله ـ ﷺ ـ للصلاة عليه، فقام إليه، فلما وقف عليه يريد الصلاة تحولتُ حتى قمتُ في صدره، فقلت: يا رسول الله، أَعَلى عَدُوّ الله عبد الله بن أُبيّ القائل يوم كذا كذا وكذا؟! ـ يُعَدِّد أيامه ـ قال: ورسول الله ـ ﷺ ـ يتبسم، حتى إذا أكثرتُ عليه قال: أَخِّرْ عني يا عمر، إني خُيِّرت فاخترتُ، قد قيل لي: ﴿استغفر لهم أو لا تستغفر لهم، إن تستغفر لهم سبعين مرة فلن يغفر الله لهم﴾، لو أعلم أني إن زدت على السبعين غُفِر له لزدت. قال: ثم صلى عليه، ومشى معه، وقام على قبره حتى فُرِغ منه. قال: فعجبٌ لي[٤] وجَراءتي على رسول الله ـ ﷺ ـ والله ورسوله أعلم! قال: فوالله ما كان إلا يسيراً حتى نزلت هاتان الآيتان: ﴿ولا تصل على أحد منهم مات أبداً ولا تقم على قبره إنهم كفروا بالله ورسوله، وماتوا وهم فاسقون﴾. فما صلى رسول الله ـ ﷺ ـ بعده على منافق، ولا قام على قبره، حتى قَبَضه الله عز وجل[٥].

وهكذا رواه الترمذي في «التفسير» من حديث محمد بن إسحاق، عن الزهري، به، وقال: حسن صحيح[٦]. ورواه البخاري، عن يحيى بن بُكَير، عن الليث، عن عُقَيل، عن الزُّهري، به ـ فذكر مثله ـ وقال: أَخِر عني يا عمر. فلما أكثرت عليه قال: إني خُيِّرت فاخترتُ، ولو أعلم أني إن زدتُ على السبعين يُغْفَر له لَزِدْتُ عليها. قال: فصلى عليه رسول الله ثم انصرف، فلم يلبث إلا يسيراً حتى نزلت الآيتان من براءة: ﴿ولا تُصَلِّ على أحد منهم مات أبداً ولا تقم على قبره﴾ . . . الآية، فعجبتُ بعد من جُرْأتي على رسول الله ـ ﷺ ـ ورسول الله ـ ﷺ ـ أعلم[٧].

وقال الإمام أحمد: حدثنا محمد بن أبي عُبَيد، حدثنا عبد الملك، عن أبي الزبير، عن جابر قال: لما مات عبد الله بن أبيّ، أتى ابنُه النبي ـ ﷺ ـ فقال: يا رسول الله، إنك إن لم تأته لم نَزَلْ نُعيَّر بهذا. فأتاه النبيّ ـ ﷺ ـ فوجده قد أدخل في حفرته، فقال: أفلا قبل أن تدخلوه! فأخرجَ من حُفرته، وتَفَل عليه من قَرْنِهِ إلى قَدَمِه، وألبسه قَمِيصه[٨].

ورواه النسائي، عن أبي داود الحراني، عن يعلى بن عبيد، عن عبد الملك ـ وهو ابن أبي سليمان ـ به.

---

(١) مسلم، كتاب صفات المنافقين ٢١٤١.
(٢) فتح الباري، تفسير سورة براءة ٨/ ٣٣٧.
(٣) مسند أحمد ٢/ ١٨.
(٤) في الأصل: إلى.
(٥) مسند الإمام أحمد ١/ ١٦.
(٦) تحفة الأحوذي، تفسير سورة براءة ٨/ ٤٩٥ ـ ٤٩٩.
(٧) فتح الباري، تفسير سورة براءة ٨/ ٣٤٠.
(٨) مسند الإمام أحمد ٣/ ٣٧١.

وقال البخاري: حدثنا عبد الله بن عثمان، أخبرنا ابن عُيَينة، عن عَمْرو، سَمِعَ جابر بن عبد الله قال: «أتى النبي ـ ﷺ ـ عبد الله بن أُبيٍّ بعدما أُدخِلَ في قبره، فأمر به فأُخرِجَ، ووُضع على ركبتيه ونَفث عليه من ريقه، وألبسه قميصَه، والله أعلم»[1].

وقد رواه أيضاً في غير موضع مع مسلم والنسائي، من غير وجه، عن سفيان بن عُيَينة به[1].

وقال الإمام أبو بكر أحمد بن عمرو بن عبد الخالق البزار في مسنده: حدثنا عمرو بن علي، حدثنا يحيى، حدثنا مجالد، حدثنا عامر، حدثنا جابر (ح) وحدثنا يوسف بن موسى، حدثنا عبد الرحمن بن مغراء الدوسي، حدثنا مجالد، عن الشعبي، عن جابر قال: مات رأس المنافقين ـ قال يحيى بن سعيد: بالمدينة ـ فأوصى أن يُصلي عليه النبي ـ ﷺ ـ فجاء ابنه إلى رسول الله ـ ﷺ ـ فقال: إن أبي أوصى أن يكفن في قميصك. ـ وهذا الكلام في حديث عبد الرحمن بن مغراء ـ قال يحيى في حديثه: فصلى عليه، وألبسه قميصه، فأنزل الله تعالى: ﴿ولا تصل على أحد منهم مات أبداً ولا تقم على قبره﴾ ـ وزاد عبد الرحمن: وخلع النبي ـ ﷺ ـ قميصه، فأعطاه إياه، ومشى فصلى عليه، وقام على قبره، فأتاه جبريل ـ عليه السلام ـ لما وَلَّى قال: ﴿ولا تُصَلِّ على أحد منهم مات أبداً ولا تقم على قبره﴾.

وهذا إسنادٌ لا بأسَ بِهِ، وما قبله شاهدٌ له.

وقال الإمام أبو جعفر الطبري: حدثنا أحمد بن إسحاق، حدثنا أبو أحمد، حدثنا حماد بن سلمة، عن يزيد الرَّقاشي، عن أنس: أن رسول الله ـ ﷺ ـ أراد أن يُصَلِّي على عبد الله بن أبيّ، فأخذ جبريلُ بثوبه وقال: ﴿ولا تُصَلِّ على أحد منهم مات أبداً ولا تقم على قبره﴾[2].

ورواه الحافظ أبو يعلى في مسنده، من حديث يَزيدَ الرَّقاشيِّ، وهو ضَعيفٌ[3].

وقال قتادةُ: أرسل عبدُ الله بن أبيّ إلى رسول الله ـ ﷺ ـ وهو مريض، فلما دخل عليه قال له النبي ـ ﷺ ـ: أهلكك حُبُّ يهودَ. قال: يا رسول الله، إنما أرسلتُ (إليك) لتستغفر لي، ولم أرسل إليك لتؤنبني! ثم سأله عبد الله أن يعطيه قميصه أن يكفَّن فيه أباه، فأعطاه إياه، وصلى عليه، وقام على قبره، فأنزل الله عز وجل: ﴿ولا تصل على أحد منهم مات أبداً ولا تقم على قبره﴾[4].

وقد ذكر بعض السلف أنه إنما ألبسه قميصه، لأن عبد الله بن أبيّ لما قَدِم العباس طُلِب له قَمِيصٌ، فلم يُوجد على تفصيله إلا ثوب عبد الله بن أُبيّ، لأنه كان ضخماً طويلاً، ففعل ذلك به رسول الله ـ ﷺ ـ مكافأة له، فالله أعلم. ولهذا كان رسول الله ـ ﷺ ـ بعد نُزول هذه الآية الكريمةِ عليه لا يصلِّي على أحد من المنافقين، ولا يقوم على قبره، كما قال الإمام أحمد:

حدثنا يعقوبُ، حدثنا أبي، عن أبيه، حدثني عبد الله بن أبي قتادة، عن أبيه قال: كان رسول الله ـ ﷺ ـ إذا دُعِي لجنازةٍ سأل عنها، فإن أُثني عليها خيرٌ قام فصلى عليها، وإن أُثني عليها غير ذلك قال لأهلها: شأنكم بها، ولم يُصَلِّ عليها[5].

---

(١) فتح الباري، كتاب اللباس ١٠/ ٢٦٦، ومسلم، كتاب صفات المنافقين وأحكامهم ٢١٤٠، والنسائي، كتاب الجنائز ٤/ ٣٧ ـ ٣٨.
(٢) تفسير الطبري ١٠/ ٢٠٥.
(٣) مسند أبي يعلى ٧/ ١٤٤ ـ ١٤٥.
(٤) تفسير الطبري ١٠/ ٢٠٦.
(٥) مسند الإمام أحمد ٥/ ٢٩٩ ـ ٣٠٠.

وكان عمر بن الخطاب لا يُصَلِّي على جنازة من جُهِل حاله، حتى يُصَلِّي عليها حُذَيفة بن اليمان، لأنه كان يعلم أعيان منافقين قد أخبره بهم رسولُ الله ـ ﷺ ـ ولهذا كان يقال له: «صاحب السر» الذي لا يعلمه غيره، أي: من الصحابة.

وقال أبو عُبَيد في كتاب «الغريب» في حديثِ عُمَر أنه أراد أن يصلي على جنازة رَجُلٍ ، فَمرَزَه حُذيفة، كأنه أراد أن يَصُدَّه عن الصلاة عليها. ثم حَكَى عن بعضهم أن «المَرْز» بلغة أهل اليمامة هو: القَرْص بأطراف الأصابع.

ولما نهى الله ـ عز وجل ـ عن الصلاة على المنافقين والقيام على قبورهم للاستغفار لهم، كان هذا الصنيعُ من أكبر القُرُبات في حق المؤمنين، فشرع ذلك. وفي فعله الأجرُ الجزيلُ، لما ثبت في الصحاح وغيرها، من حديث أبي هريرة، أن رسول الله ـ ﷺ ـ قال: من شَهد الجنازَة حتى يُصَلَّى عليها فله قيراطٌ، ومن شَهِدها حتى تُدفن فله قيراطان. قيل: وما القيراطان؟ قال: أصغَرهما مثل أُحد(١).

وأما القيام عند قبر المؤمن إذا مات فقد قال أبو داود:

حدثنا إبراهيم بن موسى الرازي، أخبرنا هشام، عن عبد الله بن بَحِير، عن هانىء ـ وهو أبو سَعيد البربري، مولى عثمان بن عفان ـ عن عثمان ـ رضي الله عنه ـ قال: كان النبي ـ ﷺ ـ إذا فرغ من دفنِ الرجلِ وَقَفَ عليه وقال: «استغفروا لأخيكم، واسألوا له التثبيتَ، فإنه الآن يُسأَلُ».

انفرد بإخراجه أبو داود رحمه الله(٢).

﴿وَلَا تُعْجِبْكَ أَمْوَٰلُهُمْ وَأَوْلَٰدُهُمْ ۚ إِنَّمَا يُرِيدُ ٱللَّهُ أَن يُعَذِّبَهُم بِهَا فِى ٱلدُّنْيَا وَتَزْهَقَ أَنفُسُهُمْ وَهُمْ كَٰفِرُونَ ﴿٨٥﴾﴾

قد تقدم تفسير نظير هذه الآية، ولله الحمد(٣).

﴿وَإِذَآ أُنزِلَتْ سُورَةٌ أَنْ ءَامِنُوا۟ بِٱللَّهِ وَجَٰهِدُوا۟ مَعَ رَسُولِهِ ٱسْتَـْٔذَنَكَ أُو۟لُوا۟ ٱلطَّوْلِ مِنْهُمْ وَقَالُوا۟ ذَرْنَا نَكُن مَّعَ ٱلْقَٰعِدِينَ ﴿٨٦﴾ رَضُوا۟ بِأَن يَكُونُوا۟ مَعَ ٱلْخَوَالِفِ وَطُبِعَ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ فَهُمْ لَا يَفْقَهُونَ ﴿٨٧﴾﴾

يقول تعالى منكراً وذاماً للمتخلفين عن الجهاد، الناكلين عنه مع القدرة عليه، ووجود السَّعَةِ والطَّوْل، واستأذنوا الرسول في القعود، وقالوا: ﴿ذرنا نكن مع القاعدين﴾، ورضوا لأنفسهم بالعار والقعود في البلد مع النساء، وهن الخوالف، بعد خروج الجيش، فإذا وقع الحرب كانوا أجبن الناس، وإذا كان أمن كانوا أكثر الناس كلاماً، كما قال تعالى عنهم في الآية الأخرى: ﴿فإذا جاء الخوف رأيتهم ينظرون إليك، تدور أعينهم كالذي يغشى عليه من الموت، فإذا ذهب الخوف سلقوكم بألسنة حداد﴾، أي: علت ألسنتهم بالكلام الحاد القوي في الأمن، وفي الحرب أجبنُ شيء، كما قال الشاعر(٤):

(١) أخرجاه في كتاب الجنائز، فتح الباري ٣/ ١٩٦، ومسلم ٦٥٢.
(٢) سنن أبي داود، كتاب الجنائز ٣/ ٢١٥.
(٣) انظر الآية ٥٥ من هذه السورة.
(٤) هي هند بنت عتبة، والبيت في سيرة ابن هشام ١/ ٦٥٦، والروض الأنف ٢/ ٨٢ ـ ٨٣.
والأعيار: جمع عَيْر، وهو الحمار. وعَرَكت المرأة ودَرَست وطَمَثت: حاضت.

أفي السَّلم أعياراً جَفـاءً وَغِلْظَةً وَفي الحَـرْبِ أشباهُ النِّسَاءِ العَـوارِكِ

وقال تعالى في الآية الأخرى: ﴿ويقول الذين آمنوا: لولا نُزِّلت سورة، فإذا أنزلت سورة محكمة، وذكر فيها القتال رأيت الذين في قلوبهم مرض ينظرون إليك نَظَرَ المغشي عليه من الموت، فأولى لهم. طاعة وقول معروف، فإذا عزم الأمر فلو صدقوا الله لكان خيراً لهم﴾.

وقوله: ﴿وطُبع على قلوبهم﴾، أي: بِسَبب نكولهم عن الجهاد والخروج مع الرسول في سبيل الله، ﴿فهم لا يفقهون﴾، أي: لا يفهمون ما فيه صلاح لهم فيفعلوه، ولا ما فيه مضرة لهم فيجتنبوه.

﴿لَٰكِنِ ٱلرَّسُولُ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مَعَهُۥ جَٰهَدُواْ بِأَمْوَٰلِهِمْ وَأَنفُسِهِمْۚ وَأُوْلَٰٓئِكَ لَهُمُ ٱلْخَيْرَٰتُۖ وَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ ﴿٨٨﴾ أَعَدَّ ٱللَّهُ لَهُمْ جَنَّٰتٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَاۚ ذَٰلِكَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ ﴿٨٩﴾﴾

لما ذكر تعالى ذمّ المنافقيـن بيّن ثناء المؤمنين، وما لهم في آخرتهم، فقال: ﴿لكن الرسول والذين آمنوا معه جاهدوا﴾... إلى آخر الآيتين، من بيان حالهم ومآلهم.

وقوله: ﴿وأولئك لهم الخيرات﴾ أي: في الدار الآخرة، في جناتِ الفِرْدَوسِ والدَّرَجاتِ العُلى.

﴿وَجَآءَ ٱلْمُعَذِّرُونَ مِنَ ٱلْأَعْرَابِ لِيُؤْذَنَ لَهُمْ وَقَعَدَ ٱلَّذِينَ كَذَبُواْ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥۚ سَيُصِيبُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ مِنْهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٩٠﴾﴾

ثم بَيَّن تعالى حالَ ذَوِي الأعذار في ترك الجهاد، الذين جاءُوا رسول الله ـ ﷺ ـ يعتذرون إليه، ويبينون له ما هم فيه من الضعف، وعدم القدرة على الخروج، وهم من أحياء العرب ممن حول المدينة.

قال الضحاك، عن ابن عباس: إنه كان يقرأ: ﴿وجاء المُعْذِرُونَ﴾، بالتخفيف، ويقول: هم أهل العذر[(١)].

وكذا روى ابن عُيَينة، عن حُمَيد، عن مجاهد سواء.

قال ابنُ إسحاقَ: وَبَلَغني أنهم نَفَر من بني غِفار، منهم خُفافُ بن إيماء بن رَحَضَة[(٢)].

وهذا القولُ هو الأظهر في معنى الآية، لأنه قال بعد هذا: ﴿وقعد الذين كذبوا الله ورسوله﴾، أي: لم يأتوا فيعتذروا.

وقال ابن جُرَيج، عن مجاهد: ﴿وجاء المعذِّرونَ من الأعراب﴾، قال: نَفَر من بني غِفَار، جاءُوا فاعتذروا فلم يُعْذرهم الله. وكذا قال الحسن، وقتادة، ومحمد بن إسحاق. والقولُ الأولُ أظهر ـ والله أعلم ـ لما قدمنا من قوله بعده: ﴿وقعد الذين كذبوا الله ورسوله﴾، أي: وقعد آخرون من الأعرابِ عن المجيء للاعتذار، ثم أوعدهم بالعذاب الأليم، فقال: ﴿سَيُصِيبُ الذين كفروا منهم عذاب أليم﴾.

(١) معاني القرآن للفراء ١/ ٤٤٨، وتفسير الطبري ١٠/ ٢١٠.
(٢) انظر تفسير الطبري ١٠/٢١١. والدرّ المنثور ٤/٢٦١.

﴿لَّيْسَ عَلَى الضُّعَفَاءِ وَلَا عَلَى الْمَرْضَىٰ وَلَا عَلَى الَّذِينَ لَا يَجِدُونَ مَا يُنفِقُونَ حَرَجٌ إِذَا نَصَحُوا لِلَّهِ وَرَسُولِهِ ۚ مَا عَلَى الْمُحْسِنِينَ مِن سَبِيلٍ ۚ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٩١﴾ وَلَا عَلَى الَّذِينَ إِذَا مَا أَتَوْكَ لِتَحْمِلَهُمْ قُلْتَ لَا أَجِدُ مَا أَحْمِلُكُمْ عَلَيْهِ تَوَلَّوا وَّأَعْيُنُهُمْ تَفِيضُ مِنَ الدَّمْعِ حَزَنًا أَلَّا يَجِدُوا مَا يُنفِقُونَ ﴿٩٢﴾ ۞ إِنَّمَا السَّبِيلُ عَلَى الَّذِينَ يَسْتَأْذِنُونَكَ وَهُمْ أَغْنِيَاءُ ۚ رَضُوا بِأَن يَكُونُوا مَعَ الْخَوَالِفِ وَطَبَعَ اللَّهُ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ فَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٩٣﴾﴾

ثم بين تعالى الأعذار التي لا حرَج على من قَعَد فيها عن القتال، فذكر منها ما هو لازمٌ للشخص لا ينفك عنه، وهو الضعف في التركيب الذي لا يستطيعُ معه الجِلَاد في الجهادِ، ومنه العمى والعَرَج ونحوهما، ولهذا بدأ به. وما هو عارض بسبب مرض عَنَّ له في بدنه، شغله عن الخروج في سبيل الله، أو بسبب فقره، لا يقدر على التجهز للحرب، فليس على هؤلاءِ حَرَجٌ إذا قَعَدُوا ونَصَحُوا في حال قعودهم، ولم يُرْجِفُوا بالناس، ولم يُثَبِّطوهم، وهم محسنون في حالهم هذا، ولهذا قال: ﴿ما على المحسنين من سبيل، والله غفور رحيم﴾.

وقال سفيان الثوري، عن عبد العزيز بن رفيع، عن أبي ثمامة ـ رضي الله عنه ـ قال: قال الحواريون: يا روح الله، أخبرنا عن الناصح لله؟ قال: الذي يُؤثر حق الله على حق الناس، وإذا حدث له أمران، أو: بدا له أمر الدنيا وأمر الآخرة، بدأ بالذي للآخرة ثم تفرغ للذي للدنيا.

وقال الأوزاعيُّ: خرج الناس للاستسقاء، فقام فيهم بلال بن سعد[1]، فحمد الله وأثنى عليه، ثم قال: يا معشر من حضر، ألستم مُقِرِّين بالإساءة؟ قالوا: اللهم نعم. فقال: اللهم إنا نسْمَعُك تقول: ﴿ما على المحسنين من سبيل﴾، اللهم وقد أقررنا بالإساءة فاغفر لنا وارحَمنا واسقِنا. ورفع يديه ورفعوا أيديهم فَسُقوا.

وقال قتادة: نزلت هذه الآية في عائذ بن عمرو المزني.

وقال ابن أبي حاتم: حدثنا أبي، حدثنا هشام بن عبيد الله الرازي، حدثنا ابن جابر، عن ابن فروة، عن عبد الرحمن بن أبي ليلى، عن زيد بن ثابت قال: كنت أَكْتُب لرسول الله ـ ﷺ ـ فكنت أكتب «براءة»، فإني لواضعُ القلم على أذني إذ أُمِرْنا بالقتال، فجعل رسول الله ـ ﷺ ـ ينظر ما ينزل عليه، إذ جاء أعمى فقال: كيف بي يا رسول الله وأنا أعمى؟ فأنزل الله، ﴿ليس على الضعفاء ولا على المرضى﴾. . . الآية.

وقال العوفي، عن ابن عباس في هذه الآية: وذلك أن رسول الله ـ ﷺ ـ أمرَ الناس أن ينبعثوا غازين معه، فجاءته عصابة من أصحابه، فيهم «عبد الله بن مُغَفَّل[2] المزني»، فقالوا: يا رسول الله، احملنا. فقال لهم: والله لا أجد ما أحملكم عليه. فتولوا ولهم بكاء، وعزّ عليهم أن يجلسوا عن الجهاد، ولا يجدون نفقة ولا محملاً. فلما رأى الله حِرْصَهم على محبته ومحبة رسوله أنزل عذرهم في كتابه، فقال: ﴿ليس على الضعفاء ولا على المرضى، ولا على الذين لا يجدون ما ينفقون حرج﴾ إلى قوله تعالى: ﴿فهم لا يعلمون﴾[3]».

وقال مجاهد في قوله: ﴿ولا على الذين إذا ما أتوك لتحملهم﴾: نزلت في بني مَقَرِّن من مزينة.

وقال محمد بن كعب: كانوا سبعة نفر، من بني عمرو بن عوف: سالم بن عُمَير[4]، ومن بني واقف:

---

(١) تابعيٌ ثِقَة، كان بالشام مثل الحسن البصريّ بالعراق، وكان قارىء الشام. انظر تهذيب الكمال ٤/٢٩١.

(٢) في الأصل: معقل، والمثبت عن تفسير الطبري والمؤتلف والمختلف للدارقطني ٣/١٦٥٨ ـ ١٦٥٩.

(٣) تفسير الطبري ١٠/ ٢١١.

(٤) في الأصل: ابن عوف. والمثبت عن تفسير الطبري، وأسد الغابة ٢/٣١٠ ـ ٣١١. ويقال له أيضاً: سالم بن عمرو.

هَرَمى(١) بن عمرو. ومن بني مازن بن النجار: عبد الرحمن بن كعب، ويكنى أبا ليلى. ومن بني المُعَلَّى: [(٢-سلمان بن صخر. ومن بني حارثة: عبد الرحمن بن زيد، أبو عبلة، وهو الذي تصدق بعرضه فقبله الله منه-٢)] ومن بني سَلِمة: عمرو بن عَنَمة، وعبد الله بن عمرو المزني.

وقال محمد بن إسحاق في سياق غزوة تبوك: «ثم إن رجالاً من المسلمين أتوا رسول الله ـ ﷺ ـ وهم البكاؤون، وهم سبعة نفر من الأنصار وغيرهم، من بني عمرو بن عوف: سالم بن عُمَير، وعُلْبَة بن زيد أخو بني حارثة، وأبو ليلى عبد الرحمن بن كعب، أخو بني مازن بن النجار، وعَمْرو بن الحُمام بن الجَمُوح، أخو بني سلِمَةَ، وعبد الله بن المغفَّل المزني ـ وبعضُ الناس يقول: بل هو عبد الله بن عمرو المزني، وهَرَميّ بن عبد الله، أخو بني واقف، وعِرْباض بن سارية الفَزاري، فاستحملوا رسولَ(٣) الله ـ ﷺ ـ وكانوا أهلَ حاجةٍ، فقال: لا أجدُ ما أحملكم عليه. فتولوا وأعينهم تفيض من الدمع حزناً ألا يجدوا ما ينفقون(٤).

وقال ابن أبي حاتم: حدثنا عمر بن الأودي، حدثنا وكيع، عن الربيع، عن الحسن قال: قال رسول الله ـ ﷺ ـ لقد خَلَّفتم بالمدينة أقواماً، وما أنفقتم من نفقة، ولا قطعتم وادياً، ولا نلتم من عدو نيلاً إلا وقد شَركوكم في الأجر، ثم قرأ: ﴿ولا على الذين إذا ما أتوك لتحملهم قلت: لا أجد ما أحملكم عليه﴾ الآية.

وأصل هذا الحديث في الصحيحين من حديث [أنس](٥) أن رسول الله ـ ﷺ ـ قال: إنَّ بالمدينة أقواماً ما قطعتم وادياً، ولا سِرْتُم إلا وهم معكم. قالوا: وهم بالمدينة؟ قال: نعم، حَبَسَهم العذرُ.

وقال الإمام أحمد: حدثنا وكيع، حدثنا الأعمش، عن أبي سفيان، عن جابر قال: قال رسول ـ ﷺ ـ: «لقد خلفتم بالمدينة رجالاً، ما قطعتم وادياً ولا سلكتم طريقاً إلا شَركوكم في الأجر، حبسهم المرض»(٦).ـ

ورواه مسلم، وابن ماجه، من طرق، عن الأعمش، به(٧).

ثم رد تعالى الملامة على الذين يستأذنون في القعود وهم أغنياء، وأنَّبهم في رضاهم بأن يكونوا مع النساء الخوالف في الرحال، ﴿وطبع الله على قلوبهم فهم لا يعلمون﴾.

﴿ يَعْتَذِرُونَ إِلَيْكُمْ إِذَا رَجَعْتُمْ إِلَيْهِمْ قُل لَّا تَعْتَذِرُوا لَن نُّؤْمِنَ لَكُمْ قَدْ نَبَّأَنَا اللَّهُ مِنْ أَخْبَارِكُمْ وَسَيَرَى اللَّهُ عَمَلَكُمْ وَرَسُولُهُ ثُمَّ تُرَدُّونَ إِلَىٰ عَالِمِ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ فَيُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿٩٤﴾
سَيَحْلِفُونَ بِاللَّهِ لَكُمْ إِذَا انقَلَبْتُمْ إِلَيْهِمْ لِتُعْرِضُوا عَنْهُمْ فَأَعْرِضُوا عَنْهُمْ إِنَّهُمْ رِجْسٌ وَمَأْوَاهُمْ جَهَنَّمُ جَزَاءً بِمَا

(١) في الأصل: حرمى، بالحاء، وما أثبتناه عن أسد الغابة ٥/ ٣٩٤.
هذا وترجمته في أسد الغابة: هرمى بن عبد الله، وكذلك ورد اسمه في سيرة ابن هشام ٢/ ٥١٨.
(٢) عن تفسير الطبري، ومكانه في الأصل: فضل الله.
(٣) أي: طلبوا منه ما يحملهم عليه.
(٤) سيرة ابن هشام ٢/ ٥١٨.
(٥) مكانه بياض في الأصل، والمثبت عن البخاري، انظر فتح الباري، كتاب الجهاد ٦/ ٤٦ ـ ٤٧، وكتاب المغازي ٨/ ١٢٦. وهو في مسلم من رواية جابر في كتاب الإمارة ١٥١٨.
(٦) المسند ٣/ ٣٠٠.
(٧) مسلم، كتاب الإمارة ١٥١٨، وابن ماجه، كتاب الجهاد ٩٢٣.

كَانُوا يَكْسِبُونَ ﴿٩٥﴾ يَحْلِفُونَ لَكُمْ لِتَرْضَوْا عَنْهُمْ فَإِن تَرْضَوْا عَنْهُمْ فَإِنَّ ٱللَّهَ لَا يَرْضَىٰ عَنِ ٱلْقَوْمِ ٱلْفَٰسِقِينَ ﴿٩٦﴾﴾

أخبر تعالى عن المنافقين بأنهم إذا رجعوا إلى المدينة أنهم يعتذرون إليهم، ﴿قل: لا تعتذروا لن نؤمن لكم﴾، أي: لن نصدقكم، ﴿قد نبأنا الله من أخباركم﴾، أي: قد أعلمنا الله أحوالكم، ﴿وسيرى الله عملكم ورسوله﴾، أي: سيظهر أعمالكم للناس في الدنيا، ﴿ثم تردون إلى عالم الغيب والشهادة فينبئكم بما كنتم تعملون﴾، أي: فيخبركم بأعمالكم، خيرها وشرها، ويجزيكم عليها.

ثم أخبر عنهم أنهم سيحلفون معتذرين لتعرضوا عنهم فلا تؤنِّبوهم، ﴿فأعرضوا عنهم﴾، احتقاراً لهم، ﴿إنهم رجس﴾، أي: خُبثاء نجس بواطنهم واعتقاداتهم، ﴿ومأواهم﴾ في آخرتهم ﴿جهنم جزاء بما كانوا يكسبون﴾، أي: من الآثام والخطايا.

وأخبر أنهم وإن رضوا عنهم بحلفهم لهم، ﴿فإن الله لا يرضى عن القوم الفاسقين﴾، أي: الخارجين عن طاعته وطاعة رسوله، فإن الفسق هو الخروج، ومنه سميت الفارة «فُويسقة» لخروجها من جُحرها للإفساد، ويقال: «فَسَقت الرُّطَبة»: إذا خرجت من أكمامها.

﴿ٱلْأَعْرَابُ أَشَدُّ كُفْرًا وَنِفَاقًا وَأَجْدَرُ أَلَّا يَعْلَمُوا حُدُودَ مَا أَنزَلَ ٱللَّهُ عَلَىٰ رَسُولِهِۦ ۗ وَٱللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴿٩٧﴾ وَمِنَ ٱلْأَعْرَابِ مَن يَتَّخِذُ مَا يُنفِقُ مَغْرَمًا وَيَتَرَبَّصُ بِكُمُ ٱلدَّوَآئِرَ ۚ عَلَيْهِمْ دَآئِرَةُ ٱلسَّوْءِ ۗ وَٱللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴿٩٨﴾ وَمِنَ ٱلْأَعْرَابِ مَن يُؤْمِنُ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْآخِرِ وَيَتَّخِذُ مَا يُنفِقُ قُرُبَٰتٍ عِندَ ٱللَّهِ وَصَلَوَٰتِ ٱلرَّسُولِ ۚ أَلَآ إِنَّهَا قُرْبَةٌ لَّهُمْ ۚ سَيُدْخِلُهُمُ ٱللَّهُ فِى رَحْمَتِهِۦٓ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٩٩﴾﴾

أخبر تعالى أن في الأعراب كفاراً ومنافقين ومؤمنين، وأن كفرهم ونفاقهم أعظم من غيرهم وأشد، ﴿وأجدرُ﴾، أي أحرى ألَّا يعلموا حدود ما أنزل الله على رسوله، كما قال الأعمش، عن إبراهيم قال: جلس أعرابي إلى زيد بن صُوحان وهو يحدث أصحابه، وكانت يده قد أصيبت يوم نَهاوَند، فقال الأعرابي: والله إن حديثك ليُعجبني، وإن يدك لَتُريبُني! فقال زيد: ما يُريبك من يدي؟ إنها الشمال. فقال الأعرابي: والله ما أدري، اليمين يقطعون أو الشمالَ؟ فقال زيد بن صُوحان: صدق الله[1]: ﴿الأعراب أشدُّ كفراً ونفاقاً وأجدرُ ألَّا يعلموا حدودَ ما أنزل الله على رسوله﴾.

وقال الإمام أحمد: حدثنا عبد الرحمن بن مهدي، حدثنا سفيان، عن أبي موسى، عن وهب بن مُنَبِّه، عن ابن عباس، عن النبي - ﷺ - قال: من سَكَنَ البادية جفا، ومن اتبع الصيد غَفَل، ومن أتى السلطان افتتن»[2].

ورواه أبو داود، والترمذي، والنسائي من طرق، عن سفيان الثوري، به. وقال الترمذي: «حسن غريب؛ لا نعرفه إلا من حديث الثوري»[3].

---

(١) في الأصل: صدق الله ورسوله. وانظر الأثر في تفسير الطبري ١١/ ٤.

(٢) المسند ١/ ٣٥٧، وسنن أبي داود، كتاب الصيد ٣/ ١١١، وتحفة الأحوذي، أبواب الفتن ٦/ ٥٣٢ - ٥٣٣، والنسائي، كتاب الصيد ٧/ ١٩٥ - ١٩٦.

ولما كانت الغلظة والجفاء في أهل البوادي لم يبعث الله تعالى منهم رسولاً، وإنما كانت البعثة في أهل القرى، كما قال تعالى: ﴿وما أرسلنا من قبلك إلا رجالاً نوحي إليهم من أهل القُرَى﴾. ولما أهدى ذلك الأعرابيُّ تلك الهديَّةَ لرسولِ الله ـ ﷺ ـ فردَّ عليه أضعافها حتى رضي، قال: «لقد هَمَمْتُ ألَّا أقبلَ هدية إلا من قُرشِيٍّ، أو ثقفي أو أنصاري، أو دَوْسيّ»(١)؛ لأن هؤلاء كانوا يسكنون المدن: مكة، والطائف، والمدينة، واليمن، فهم ألطف أخلاقاً من الأعراب، لما في طباع الأعراب من الجفاء.

حديث الأعرابي في تقبيل الولد، قال مسلم(٢): حدثنا أبو بكر بن أبي شيبة وأبو كُرَيب قالا: حدثنا أبو أسامة وابن نُمَير، عن هشام، عن أبيه، عن عائشة قالت: قَدِمَ ناسٌ من الأعراب على رسولِ الله ـ ﷺ ـ فقالوا: أتقبِّلون صبيانكم؟ قالوا: نعم. قالوا: لكنا والله ما نُقَبِّل. فقال رسولُ الله ـ ﷺ ـ: «وَأَمْلِكُ(٣) أن كان الله نزع منكم الرحمة؟ [وقال ابن نُمَير: من قَلْبِكَ الرحمة]»(٤).

وقوله: ﴿والله عليم حكيم﴾ أي: عليم بمن يستحق أن يعلمه الإيمان والعلم، ﴿حكيم﴾ فيما قسم بين عباده من العلم والجهل والإيمان والكفر والنفاق، لا يسأل عما يفعل، لعلمه وحكمته.

وأخبر تعالى أن منهم ﴿من يتخذ ما ينفق﴾، أي: في سبيل الله ﴿مغرماً﴾ أي: غرامة وخسارة، ﴿ويتربَّصُ بكم الدوائر﴾، أي: ينْتظر بكم الحوادث والآفات، ﴿عليهم دائرة السوء﴾، أي: هي منعكسة عليهم والسُّوء دائرٌ عليهم، ﴿والله سميع عليم﴾، أي: سميع لدعاء عباده، عليم بمن يستحق النصر ممن يستحق الخذلان.

وقوله: ﴿ومن الأعراب من يؤمن بالله واليوم الآخر ويتخذ ما ينفق قُرُبات عند الله وصلوات الرسول﴾: هذا هو القسم الممدوح من الأعراب، وهم الذين يتخذون ما ينفقون في سبيل الله قُربة يتقربون بها عند الله، ويبتغون بذلك دعاء الرسول لهم، ﴿ألا إنها قربة لهم﴾، أي: ألا إن ذلك حاصل لهم، ﴿سيدخلهم الله في رحمته، إن الله غفور رحيم﴾.

﴿وَالسَّٰبِقُونَ ٱلْأَوَّلُونَ مِنَ ٱلْمُهَٰجِرِينَ وَٱلْأَنصَارِ وَٱلَّذِينَ ٱتَّبَعُوهُم بِإِحْسَٰنٍ رَّضِىَ ٱللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا۟ عَنْهُ وَأَعَدَّ لَهُمْ جَنَّٰتٍ تَجْرِى تَحْتَهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَآ أَبَدًا ذَٰلِكَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ ﴿١٠٠﴾﴾

يُخبِرُ تعالَى عن رضاه عن السابقين من المهاجرين والأنصار والتابعين لهم بإحسان، ورضاهم عنه بما أعَدَّ لهم من جناتِ النَّعِيم، والنعيم المقيم.

قال الشعبي: السابقون الأولون من المهاجرين والأنصار من أدرك بيعة الرضوان عام الحديبية.

وقال أبو موسى الأشعري، وسعيد بن المسيب، ومحمد بن سيرين، والحسن، وقتادة: هم الذين صلوا إلى القبلتين مع رسول الله ﷺ.

وقال محمد بن كعب القُرَظِيُّ: مَرّ عمر بن الخطاب برجل يقرأ: ﴿والسابقون الأولون من المهاجرين والأنصار﴾، فأخذ عُمَر بيده فقال: من أَقْرَأكَ هذا؟ فقال: أُبَيُّ بن كعبٍ. فقال: لا تفارقني حتى أذهب بك

---

(١) النسائي، كتاب العُمْرَى ٦/ ٢٨٠، ومسند أحمد ١/ ٢٩٥.
(٢) في الأصل: قال حديث مسلم.
(٣) أي: أو أملك؟ وهو استفهام يقصد به النفي، أي: لا أملك أن أدفع ما ثبت في قلوبهم وما قدّره الله عليكم.
(٤) مسلم، كتاب الفضائل ١٨٠٨، وما بين المعكوفتين ليس في الأصل.

إليه. فلما جاءه قال عمر: أنت أقرأت هذا هذه الآية هكذا؟ قال: نعم. قال: وسمعتَها من رسول الله ﷺ؟ قال: نعم. قال: لقد كنت أرى أنا رُفِعْنا رفعة لا يبلغها أحد بعدنا، فقال أُبيّ: تصديق هذه الآية في أول سورة الجمعة: ﴿وآخرين منهم لما يلحقوا بهم وهو العزيز الحكيم﴾، وفي سورة الحشر: ﴿والذين جاءوا من بعدهم يقولون: ربنا اغفر لنا ولإخواننا الذين سبقونا بالإيمان﴾ وفي الأنفال: ﴿والذين آمنوا وهاجروا وجاهدوا معكم فأولئك منكم﴾ إلى آخر الآية، رواه ابن جرير(١).

قال: «وذكر عن الحسن البصري أنه كان يقرؤها برفع ﴿الأنصارُ﴾ عطفاً على ﴿والسابقون الأولون﴾.

فقد أخبر الله العظيمُ أنه قد رَضِي عن السابقين الأولين من المهاجرين والأنصار والذين اتبعوهم بإحسان، فيا ويل من أبغضهم أو سَبَّهم أو أبغض أو سبَّ بعضهم، ولا سيما سيدُ الصحابة بعد الرسول وخيرهم وأفضلهم، أعني الصديق الأكبر والخليفةَ الأعظم أبا بكر بن أبي قحافة، رضي الله عنه، فإن الطائفة المخذولة من الرافضة يعادون أفضل الصحابة ويُبغضونهم ويَسُبّونهم، عياذاً بالله من ذلك. وهذا يدل على أن عقولهم معكوسة، وقلوبهم منكوسة، فأين هؤلاء من الإيمان بالقرآن إذ يسبّون من رضي الله عنهم؟ وأما أهل السنة فإنهم يترضون عمن رضي الله عنه، ويسبون من سبه الله ورسوله، ويوالون من يوالي الله، ويعادون من يعادي الله، وهم متبعون لا مبتدعون، ويقتدون ولا يبتدون، ولهذا هم حزب الله المفلحون وعباده المؤمنون.

﴿ وَمِمَّنْ حَوْلَكُم مِّنَ ٱلْأَعْرَابِ مُنَٰفِقُونَ ۖ وَمِنْ أَهْلِ ٱلْمَدِينَةِ ۖ مَرَدُوا۟ عَلَى ٱلنِّفَاقِ لَا تَعْلَمُهُمْ ۖ نَحْنُ نَعْلَمُهُمْ ۚ سَنُعَذِّبُهُم مَّرَّتَيْنِ ثُمَّ يُرَدُّونَ إِلَىٰ عَذَابٍ عَظِيمٍ ﴿١٠١﴾ ﴾

يخبر تعالى رسوله - صَلواتُ الله وسلامهُ عليه - أن في أحياء العرب ممن حول المدينة منافقون، وفي أهل المدينة أيضاً منافقون ﴿مَردوا على النفاق﴾، أي: مرنوا واستمروا عليه، ومنه يقال: «شيطان مَرِيد ومارد»، ويقال: «تَمَرَّدَ فلان على الله» أي: عَتَا وَتَجبَّر.

وقوله: ﴿لا تعلمهم نحن نعلمهم﴾، لا ينافي قوله تعالى: ﴿ولو نشاء لأريناكهم فَلَعرفتهم بسيماهم، ولتعرفهم في لحن القول﴾... الآية. لأن هذا من باب التوسّم فيهم بصفات يعرفون بها، لا أنه يعرف جميع من عنده من أهل النفاق والريب على التعيين. وقد كان يعلم أن في بعض من يخالطه من أهل المدينة نفاقاً، وإن كان يراه صباحاً ومساء، وشاهد هذا بالصحة ما رواه الإمام أحمد في مسنده حيث قال:

حدثنا محمد بن جعفر، حدثنا شعبة، عن النعمان بن سالم، عن رجل، عن جُبَير بن مطعم - رضي الله عنه - قال قلت: يا رسول الله، إنهم يَزعمُون أنه ليس لنا أجرٌ بمكة، فقال: لتأتينكم أجورُكم ولو كنتم في جُحر ثعلب. وأصغى إليّ رسول الله - ﷺ - برأسه فقال: إن في أصحابي منافقين(٢).

ومعناه أنه قد يبوح بعض المنافقين والمرجفين من الكلام بما لا صحة له، ومن مثلهم صَدَرَ هذا الكلامُ الذي سمعه جُبَير بن مطعم. وتقدم في تفسير قوله: ﴿وهموا بما لم ينالوا﴾ أنه - عليه السلام - أعلم حُذَيفة بأعيان أربعة عشر أو خمسة عشر منافقاً، وهذا تخصيص لا يقتضي أنه اطلع على أسمائهم وأعيانهم كلهم، والله أعلم.

---

(١) تفسير الطبري ١١/ ٨.
(٢) مسند الإمام أحمد ٤/ ٨٣.

وروى الحافظ ابن عساكر في ترجمة «أبي عُمَر البيروتي» من طريق هشام بن عمار: حدثنا صدقة بن خالد، حدثنا ابن جابر، حدثني شيخ ببيروتَ يكنى أبا عُمَر، أظنه حدثني عن أبي الدرداء: أن رجلاً يقال له «حرملة». أتى النبي ـ ﷺ ـ فقال: «الإيمان ها هنا ـ وأشار بيده إلى لسانه ـ والنفاق ها هنا ـ وأشار بيده إلى قلبه ولم يذكر الله إلا قليلاً. فقال رسول الله ـ ﷺ ـ: اللهم اجعل له لساناً ذاكراً، وقلباً شاكراً، وارزقه حُبّي، وحبَّ من يُحِبُّني، وصَيِّر أمره إلى خير. فقال: يا رسول الله، إنَّه كان لي أصحاب من المنافقين وكنت رأساً فيهم، أفلا آتيك بهم؟ قال: من أتانا استغفرنا له، ومن أَصَرَّ على دينه فالله أولى به، ولا تَخْرِقن على أَحَدٍ سِتراً».

قال: وكذا رواه أبو أحمد الحاكم، عن أبي بكر الباغَنْديِّ، عن هشام بن عَمَّار، به.

وقال عبد الرزاق: أخبرنا معمر، عن قتادةَ في هذه الآية أنه قال: ما بال أقوام يتكلَّفون عِلْم الناس؟ فلان في الجنة وفلان في النار. فإذا سألت أحدَهم عن نفسه قال: لا أدري! لَعَمْري أنت بنَصِيبك[1] أعلم منك بأحوال الناس، ولقد تكلفت شيئاً ما تكلفه الأنبياء قبلك. قال نبي الله نوح: ﴿وما علمي بما كانوا يعملون﴾، وقال نبي الله شعيب: ﴿بَقِيَّةُ الله خَيْر لكم إن كنتم مؤمنين وما أنا عليكم بحفيظ﴾، وقال الله لنبيه ـ ﷺ ـ: ﴿لا تعلمهم نحن نعلمهم﴾.

وقال السدِّيُّ، عن أبي مالك، عن ابن عباس في هذه الآية قال: قام رسول الله ـ ﷺ ـ خطيباً يوم الجمعة فقال: اخرج يا فلان، فإنك منافق، واخرج يا فلان فإنك منافق. فأخرج من المسجد ناساً منهم، فضحهم. فجاء عُمَر وهم يخرجون من المسجد فاختبأ منهم حَياء أنه لم يشهد الجمعة، وظن أن الناس قد انصرفوا، واختبئوا هم من عمر، ظنوا أنه قد علم بأمرهم. فجاء عمر فدخل المسجد فإذا الناسُ لم يصلّوا، فقال له رجل من المسلمين: أبشر يا عمر، قد فَضَح الله المنافقين اليومَ. قال ابنُ عباس: فهذا العذابُ الأولُ حين أخرجَهم من المسجد، والعذابُ الثاني عذابُ القبر[2].

وكذا قال الثوري، عن السدي، عن أبي مالك، نحو هذا.

وقال مجاهد في قوله: ﴿سنعذبهم مرتين﴾، يعني: القتل والسِّباء، وقال في رواية: بالجوع وعذاب القبر، ﴿ثم يردون إلى عذاب عظيم﴾، [قال: النار][3].

وقال ابن جُرَيج: عذابُ الدنيا، وعذاب القبر، ثم يردون إلى عذاب النار.

وقال الحسن البصري: عذاب في الدنيا، وعذاب في القبر.

وقال عبد الرحمن بن زيد: أما عذاب في الدنيا فالأموال والأولاد، وقرأ قول الله: ﴿فلا تعجبك أموالهم ولا أولادهم، إنما يريد الله ليعذبهم بها في الحياة الدنيا﴾، فهذه المصائب لهم عذاب، وهي للمؤمنين أجر، وعذاب في الآخرة في النار، ﴿ثم يردون إلى عذاب عظيم﴾، قال: النار.

وقال محمد بن إسحاق: ﴿سنعذبهم مرتين﴾، قال: هو ـ فيما بلغني ـ ما هم فيه من أمر الإسلام، وما يدخل عليهم من غيظ ذلك على غير حسبة، ثم عذابهم في القبور إذا صاروا إليها، ثم العذاب العظيم الذي يُرَدّون إليه، عذاب الآخرة والخلد فيه.

---

(١) في تفسير الطبري: بنفسك.
(٢) تفسير الطبري ١١/ ١٠.
(٣) عن الأصل.

وقال سعيد، عن قتادة في قوله: ﴿سنعذبهم مرتين﴾: عذاب الدنيا، وعذاب القبر، ﴿ثم يردون إلى عذاب عظيم﴾، ذكر لنا أن نبي الله ـ ﷺ ـ أسرَّ إلى حذيفة باثني عشر رجلاً من المنافقين، فقال: «ستة منهم تكفيكهم الدُّبيلة: سراج من نار جهنم، يأخذ في كتف أحدهم حتى يفضي إلى صدره، وستة يموتون موتاً». وذكر لنا أن عمر بن الخطاب ـ رضي الله عنه ـ كان إذا مات رجل ممن يُرى أنه منهم، نظر إلى حذيفة، فإن صلى عليه وإلا تركه. وذُكر لنا أن عمر بن الخطاب قال لحذيفة: أَنشُدُكَ بالله، أمنهم أنا؟ قال: لا. ولا أُومن منها أحداً بعدك.

﴿وَءَاخَرُونَ ٱعْتَرَفُوا۟ بِذُنُوبِهِمْ خَلَطُوا۟ عَمَلًا صَٰلِحًا وَءَاخَرَ سَيِّئًا عَسَى ٱللَّهُ أَن يَتُوبَ عَلَيْهِمْ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿١٠٢﴾﴾

لما بيّن تعالى حالَ المنافقين المتخلفين عن الغَزاة رغبةً عنها وتكذيباً وشكّاً، شَرَع في بيان حال المذنبين الذين تأخروا عن الجهاد كسلاً وميلاً إلى الراحة، مع إيمانهم وتصديقهم بالحق، فقال: ﴿وآخرون اعترفوا بذنوبهم﴾، أي: أقروا بها واعترفوا فيما بينهم وبين ربّهم، ولهم أعمال أخر صالحةٌ، خَلَطوا هذه بتلك، فهؤلاء تحتَ عفوِ الله وغفرانه.

وهذه الآيةُ، وإن كانت نزلت في أناس مُعيَّنين، إلا أنَّها عامةٌ في كل المذنبين الخاطئين المخلصين المتلوثين.

وقد قال مجاهد: إنها نزلت في أبي لُبابة لما قال لبني قريظة: «إنه الذبح»، وأشار بيده إلى حلقه.

وقال ابن عباس: ﴿وآخرون﴾، نزلت في أبي لُبابة وجماعة من أصحابه، تخلفوا عن غزوة تبوك، فقال بعضهم: أبو لبابة وخمسة معه، وقيل: وسبعة معه، وقيل: وتسعة معه، فلما رجع النبي ـ ﷺ ـ من غزوة تبوك، ربطوا أنفسهم بسواري المسجد، وحلفوا لا يحلهم إلا رسول الله ـ ﷺ ـ فلما أنزل الله هذه الآية: ﴿وآخرون اعترفوا بذنوبهم﴾، أطلقهم النبي ـ ﷺ ـ وعفا عنهم.

وقال البخاري: حدثنا مُؤمَّلُ بن هشام، حدثنا إسماعيل بن إبراهيم، حدثنا عوف، حدثنا أبو رجاء، حدثنا سَمُرة بن جُندَب قال: قال رسولُ الله ـ ﷺ ـ لنا: «أتاني الليلة آتيان فابتعثاني، فانتهينا إلى مدينة مَبنيّة بلبن ذَهَبٍ ولَبن فضّةٍ، فتلقانا رجال شَطْر من خلقهم كأحسن ما أنت رَاء، وشطر كأقبح ما أنت راءٍ، قالا لهم: اذهبوا فقَعُوا في ذلك النهر. فوقعوا فيه، ثم رَجعوا إلينا قد ذهب ذلك السوءُ عنهم، فصاروا في أحسن صورة، قالا لي: هذه جنَّةُ عَدْنٍ، وهذا منزلك. قالا: أما القومُ الذين كانوا شَطْرٌ منهم حَسَن وشَطْرٌ منهم قبيح، فإنهم خلطوا عملاً صالحاً وآخر سيئاً، فتجاوز الله عنهم»[1].

هكذا رواه مختصراً، في تفسير هذه الآية.

﴿خُذْ مِنْ أَمْوَٰلِهِمْ صَدَقَةً تُطَهِّرُهُمْ وَتُزَكِّيهِم بِهَا وَصَلِّ عَلَيْهِمْ ۖ إِنَّ صَلَوٰتَكَ سَكَنٌ لَّهُمْ ۗ وَٱللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴿١٠٣﴾ أَلَمْ يَعْلَمُوٓا۟ أَنَّ ٱللَّهَ هُوَ يَقْبَلُ ٱلتَّوْبَةَ عَنْ عِبَادِهِۦ وَيَأْخُذُ ٱلصَّدَقَٰتِ وَأَنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلتَّوَّابُ ٱلرَّحِيمُ ﴿١٠٤﴾﴾

أمر الله تعالى رسول الله ـ ﷺ ـ بأن يأخُذ من أموالهم صدقة يطهرهم ويزكيهم بها، وهذا عامٌ وإن أعاد

(١) فتح الباري، تفسير سورة براءة ٨/ ٣٤١.

بعضهم الضمير في «أموالهم» إلى «الذين اعترفوا بذنوبهم وخلطوا عملاً صالحاً وآخر سيئاً». ولهذا اعتقد بعض مانعي الزكاة من أحياء العرب أن دفع الزكاة إلى الإمام لا يكون، وإنما كان هذا خاصاً برسول الله ـ ﷺ ـ ولهذا احتجوا بقوله تعالى: ﴿خذ من أموالهم صدقة تطهرهم وتزكيهم بها وصل عليهم، إن صلاتك سكن لهم﴾، وقد رَدَّ عليهم هذا التأويل والفهم الفاسد الصديق أبو بكر وسائر الصحابة، وقاتلوهم حتى أَدُّوا الزكاة إلى الخليفَةِ، كما كانوا يُؤَدُّونها إلى رسولِ الله ـ ﷺ ـ حتى قال الصدِّيقُ: والله لو مَنَعوني عِقَالاً ـ وفي رواي :.عَنَاقاً[١] ـ يُؤَدُّونه إلى رسول الله ـ ﷺ ـ لأقاتلنهم على منعه[٢].

وقوله: ﴿وَصَلِّ عليهم﴾، أي: ادعُ لهم واستغفر لهم، كما رواه مسلم في صحيحه، عن عبد الله بن أبي أوفى قال: كان رسول الله ـ ﷺ ـ إذا أُتِيَ بصدقة قَوْمٍ صَلَّى عليهم، فأتاه أبي بصدقته فقال: «اللهم صَلِّ على آل أبي أوفى»[٣].

وفي الحديث الآخر أن امرأة قالت: يا رسول الله، صَلِّ عَلَيَّ وعلى زوجي. فقال: صَلَّى الله عليك، وعلى زَوْجِكِ[٤].

وقوله: ﴿إن صَلَوٰتـك﴾، قرأ بعضهم: ﴿صَلَواتك﴾ على الجمع، وآخرون قرأوا: ﴿إن صلاتك﴾ على الأفراد[٥].

﴿سكن لهم﴾، قال ابن عباس: رحمة لهم. وقال قتادة: وقار.

وقوله: ﴿والله سميع﴾، أي: لدعائك ﴿عليم﴾، أي: بمن يستحق ذلك منك ومن هو أهل له.

قال الإمام أحمد: حدثنا وكيع، حدثنا أبو العُمَيس، عن أبي بكر بن عمرو بن عتبة، عن ابن لحذيفة، عن أبيه: أن النبي ـ ﷺ ـ كان إذا دعا لرجل أصابته، وأصابتَ ولَده، وَوَلَد وَلَدِه[٦].

ثم رواه عن أبي نُعَيم، عن مِسْعَر، عن أبي بكر بن عمرو بن عتبة، عن ابن لحذيفةَ ـ قال مسعر: وقد ذكره مرة عن حُذَيفة ـ : إن صلاة النبي ـ ﷺ ـ لَتُدرِكُ الرجلَ وولَده وَوَلَدَ وَلَدِه[٧].

وقوله: ﴿ألم يعلموا أن الله هو يقبل التوبة عن عباده ويأخذ الصدقات﴾: هذا تهييج إلى التوبة والصدقة اللتين كل منها يحطّ الذنوب ويمحِّصُها ويمحقها.

وأخبر تعالى أنَّ كل من تاب إليه تاب عليه، ومن تَصَدَّق بصدقة من كسب حلال فإن الله تعالى يَتَقَبَّلُها بيمينه فيُرَبِّيها لصاحبها، حتى تصير التمرة مثل أحد. كما جاء بذلك الحديث، عن رسول الله ـ ﷺ ـ كما قال الثوري ووكيع، كلاهما عن عباد بن منصور، عن القاسم بن محمد، أنه سمع أبا هُرَيرة يقول: قال رسول الله ـ ﷺ ـ: «إن الله يقبل الصدقةَ ويأخذُها بيمينِهِ فَيُرَبِّيها لأحدكم، كما يُرَبِّي أَحَدُكم مُهْرَه، حتى إن اللُّقمةَ

(١) العِقَال: ما يُشَدّ به ظلف البعير بذراعه حال بروكه حتى لا يقوم فيشرد. والعَنَاق: الأنثى من ولد الماعز.
(٢) فتح الباري، كتاب الاعتصام ١٣/ ٢٥٠، ومسلم، كتاب الإيمان ١/ ٥١ ـ ٥٢.
(٣) مسلم، كتاب الزكاة ٧٥٦ ـ ٧٥٧.
(٤) سنن أبي داود، كتاب الصلاة ٢/ ٨٨ ـ ٨٩.
(٥) قرأ بالإفراد حفص وحمزة والكسائي. وباقي السبعة بالجمع، انظر الإقناع لابن الباذش ٦٥٨.
(٦) مسند أحمد ٥/ ٣٨٥ ـ ٣٨٦.
(٧) المسند ٥/ ٤٠٠.

لتصير مثل أُحُدٍ». وتصديق ذلك في كتاب الله عز وجل: ﴿ألم يعلموا أن الله هو يقبل التوبة عن عباده ويأخذ الصدقات﴾، و﴿يمحق الله الربا ويربي الصدقات﴾.

وقال الثوري والأعمش كلاهما، عن عبد الله بن السائب، عن عبد الله بن أبي قتادة قال: قال عبد الله بن مسعود ـ رضي الله عنه ـ: إن الصدقة تقع في يد الله ـ عز وجل ـ قبل أن تقع في يد السائل. ثم قرأ هذه الآية: ﴿ألم يعلموا أن الله هو يقبل التوبة عن عباده ويأخذ الصدقات﴾(١).

وقد روى ابن عساكر في تاريخه، في ترجمة عبد الله بن الشاعر السَّكْسَكِيِّ الدمشقي ـ وأصله حِمْصِيٌّ، وكان أحد الفقهاء، روى عن معاوية وغيره، وحكى عنه حَوْشَبُ بن سيف السكسكي الحِمْصِيُّ قال: غزا الناس في زمان معاوية ـ رضي الله عنه ـ وعليهم عبد الرحمن بن خالد بن الوليد، فَغَلَّ رجل من المسلمين مائة دينار رومية. فلما قفل الجيش نَدم وأتى الأميرَ، فأبى أن يقبلها منه، وقال: قد تفرق الناس ولن أقبلها منك، حتى تأتي الله بهايوم القيامةَ. فجعل الرجلُ يستقرىء الصحابةَ، فيقولون له مثلَ ذلك، فلما قَدِم دمشق ذهب إلى معاويةَ ليقبلها منه، فأبى عليه. فخرج من عنده وهو يبكي ويَسْتَرْجِعُ، فمر بعبد الله ابن الشاعر السكسكي، فقال له: ما يُبْكِيكَ؟ فذكر له أمره، فقال: أَمُطِيعِي أنت؟ فقال: نعم، فقال: اذهب إلى معاوية فقل له: اقبَلْ مني خُمسَكَ. فادفع إليه عشرين ديناراً، وانظر الثمانين الباقية فتصدَّقْ بها عن ذلك الجيش، فإن الله يقبلِ التوبة عن عباده، وهو أعلم بأسمائهم ومكانهم. ففعَلَ الرجلُ، فقال معاوية ـ رضي الله عنه ـ: «لأن أكون أفتيتُه بها أحبُّ إليّ من كلِّ شيء أَمْلِكُه، أحسن الرجلُ».

﴿وَقُلِ اعْمَلُوا فَسَيَرَى اللَّهُ عَمَلَكُمْ وَرَسُولُهُ وَالْمُؤْمِنُونَ وَسَتُرَدُّونَ إِلَىٰ عَالِمِ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ فَيُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿١٠٥﴾﴾

قال مجاهد: هذا وَعِيدٌ ـ يعني من الله تعالى ـ للمخالفين أوامره، بأن أعمالهم سَتُعرَضُ عليه ـ تبارك وتعالى ـ وعلى الرسول، وعلى المؤمنين. وهذا كائن لا محالة يوم القيامة، كما قال: ﴿يومئذ تعرضون لا تخفى منكم خافية﴾، وقال تعالى: ﴿يوم تبلى السرائر﴾، وقال: ﴿وحُصِّل ما في الصدور﴾، وقد يظهر الله تعالى ذلك للناس في الدنيا، كما قال الإمام أحمد:

حدثنا حسن بن موسى، حدثنا ابن لَهِيعة، حدثنا دَرَّاج، عن أبي الهيثم، عن أبي سعيد، عن رسول الله ـ ﷺ ـ أنه قال: «لو أن أحدكم يعملُ في صخرة صَمَّاء ليس لها باب ولا كُوَّة، لأخرج الله عمله للناس كائناً ما كان»(٢).

وقد ورد: أن أعمال الأحياء تُعرض على الأموات من الأقرباء والعشائر في البرزخ، كما قال أبو داود الطيالسي:

حدثنا الصلت بن دينار، عن الحسن، عن جابر بن عبد الله قال: قال رسول الله ـ ﷺ ـ: «إن أعمالكم تعرض على أقربائكم وعشائركم في قبورهم، فإن كان خيراً استبشروا به، وإن كان غير ذلك قالوا: «اللهم ألهمهم أن يعملوا بطاعتك»(٣).

(١) انظر الأحاديث الواردة في ذلك عند آية البقرة ٢٧٦، وتفسير الطبري ١١/ ١٩ ـ ٢٠.
(٢) المسند ٣/ ٢٨.
(٣) منحة المعبود ١/ ١٥٧.

وقال الإمام أحمد: أخبرنا عبد الرزاق، عن سفيان، عمَّن سمع أنساً يقول: قال النبي ـ ﷺ ـ: «إن أعمالكم تعرض على أقاربكم وعشائركم من الأموات، فإن كان خيراً استبشروا به، وإن كان غير ذلك قالوا: اللهم لا تمتهم حتى تَهدِيهم كما هديتنا»(١).

وقال البخاري: قالت عائشة ـ رضي الله عنها ـ: إذا أعجبك حُسن عمل امرىء فقل: ﴿اعملوا فسيرى الله عملكم ورسوله والمؤمنون﴾(٢).

وقد وردَ في الحديث شبيهٌ بهذا، قال الإمام أحمد:

حدثنا يزيد، حدثنا حُمَيد، عن أنس أن رسول الله ـ ﷺ ـ قال: «لا عليكم أن تُعجَبُوا بأحدٍ حتَّى تنظروا بم يُخْتَم له؟ فإنَّ العاملَ يعملُ زماناً من عمره ـ أو: بُرهَة من دهره ـ بعملٍ صالحٍ لو ماتَ عليه لدخلَ الجنةَ، ثم يتحولُ فيعملُ عملاً سيئاً، وإنَّ العبد ليعملُ البرهةَ منْ دَهْرِهِ بعملٍ سَيِّىءٍ لو ماتَ عليه دخلَ النارَ، ثم يتحوَّلُ فيعملُ عملاً صالحاً، وإذا أراد الله بعبدٍ خيراً استعملَه قبلَ موته. قالوا: يا رسول الله، وكيف يستعمله؟ قال: يُوفِّقه لعملٍ صالحٍ ثم يقبضه عليه. تفرد به أحمد من هذا الوجه(٣).

﴿وَءَاخَرُونَ مُرْجَوْنَ لِأَمْرِ ٱللَّهِ إِمَّا يُعَذِّبُهُمْ وَإِمَّا يَتُوبُ عَلَيْهِمْ وَٱللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴿١٠٦﴾﴾

قال ابن عباس، ومجاهد، وعكرمة، والضحاك، وغير واحد: هم الثلاثة الذين خلِّفوا، أي: عن التوبة، وهم: مُرارة بن الربيع، وكعبُ بن مالك، وهلالُ بن أمية، قعدُوا عن غزوة تبوك في جملةٍ من قعدَ، كسلاً وميلاً إلى الدّعة والحفظِ وطيب الثّمار والظلال، لا شكاً ونفاقاً، فكانت منهم طائفةٌ رَبَطُوا أنفسهم بالسواريِّ، كما فَعَل أبو لبابة وأصحابُه. وطائفةٌ لم يفعلوا ذلك، وهم هؤلاء الثلاثة المذكورون، فنزلت توبةُ أولئك قبلَ هؤلاء، وأرجِىء هؤلاء عن التوبة حتى نزلت الآية الآتية، وهي قوله: ﴿لقد تَابَ الله على النبيِّ والمهاجرين والأنصار﴾... الآية، ﴿وعلى الثلاثة الذين خُلفوا حتى إذا ضاقت عليهم الأرضُ بما رَحبت﴾... الآية، كما سيأتي بيانه في حديث كعب بن مالك.

وقوله: ﴿إما يعذبهم وإما يتوب عليهم﴾، أي: هم تحت عفو الله، إن شاء فعل بهم هذا، وإن شاء فعل بهم ذاك، ولكن رحمته تغلب غضبه، وهو ﴿عليم حكيم﴾، أي: عليم بمن يستحق العقوبة ممن يستحق العفو، حكيم في أفعاله وأقواله، لا إله إلا هو، ولا رب سواه.

﴿وَٱلَّذِينَ ٱتَّخَذُوا۟ مَسْجِدًا ضِرَارًا وَكُفْرًا وَتَفْرِيقًۢا بَيْنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ وَإِرْصَادًا لِّمَنْ حَارَبَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ مِن قَبْلُ ۚ وَلَيَحْلِفُنَّ إِنْ أَرَدْنَآ إِلَّا ٱلْحُسْنَىٰ ۖ وَٱللَّهُ يَشْهَدُ إِنَّهُمْ لَكَـٰذِبُونَ ﴿١٠٧﴾ لَا تَقُمْ فِيهِ أَبَدًا ۚ لَّمَسْجِدٌ أُسِّسَ عَلَى ٱلتَّقْوَىٰ مِنْ أَوَّلِ يَوْمٍ أَحَقُّ أَن تَقُومَ فِيهِ ۚ فِيهِ رِجَالٌ يُحِبُّونَ أَن يَتَطَهَّرُوا۟ ۚ وَٱللَّهُ يُحِبُّ ٱلْمُطَّهِّرِينَ ﴿١٠٨﴾﴾

سَبَبُ نزول هذه الآيات الكريمات أنه كان بالمدينة قبل مَقْدَم رسولِ الله ـ ﷺ ـ إليها رجلٌ من الخزرج يقال له: «أبو عامر الراهبُ»، وكان قد تَنصَّر في الجاهلية، وقرأ عِلْم أهل الكتاب، وكان فيه عبادة في

---

(١) المسند ٣/ ١٦٤ ـ ١٦٥.
(٢) فتح الباري، كتاب التوحيد ١٣/ ٥٠٣.
(٣) المسند ٣/ ١٢٠.

الجاهلية، وله شرفٌ في الخزرج كبير. فلما قَدم رسولُ الله - ﷺ - مهاجراً إلى المدينة، واجتمع المسلمون عليه، وصارت للإسلام كلمة عالية، وأظهرهم الله يوم بدر، شَرِق اللعينُ أبو عامر بريقه، وبارَزَ بالعداوة، وظاهر بها، وخرج فاراً إلى كفار مكة من مشركي قريش، فألَّبهم على حرب رسول الله - ﷺ - فاجتمعوا بمن وافقهم من أحياء العرب، وقدموا عام أُحُدٍ، فكان من أمر المسلمين ما كان، وامتحنهم الله، وكانت العاقبة للمتقين. وكان هذا الفاسق قد حفر حفائر فيما بين الصَّفين، فوقَعَ في إحداهُنَّ رسول الله - ﷺ - وأُصيبَ ذلك اليوم، فَجُرِح في وجهه وكُسِرَتَ رَبَاعِيَته اليمنى السفلى، وشُجَّ رأسه - صلوات الله وسلامه عليه - وتقدم أبو عامر في أولِ المبارزة إلى قومه من الأنصار، فخاطبهم واستمالهم إلى نَصْره وموافقته، فلما عَرَفوا كلامه قالوا: «لا أنعم الله بك عيناً يا فاسقُ يا عدوَّ الله»! ونالوا منه وسَبُّوه. فرجع وهو يقول: والله لقد أصاب قومي بَعْدِي شَرّ.

وكان رسولُ الله - ﷺ - قد دعاه إلى الله قبل فراره، وقرأ عليه من القرآن، فأبى أن يسلم وتمرّد، فدعا عليه رسول الله - ﷺ - أن يموت بعيداً طريداً، فنالته هذه الدعوةُ.

وذلك أنه لما فرغَ الناسُ من أُحُدٍ، ورأى أمْرَ الرَّسُولِ - صلوات الله وسلامه عليه - كلُّ ما لَه في ارتفاع وظهور، ذهب إلى هرقل ملك الروم يستنصره على النبي - ﷺ - فوعده ومَنَّاه، وأقام عنده، وكتب إلى جماعة من قومه من الأنصار من أهل النفاق والريب يَعِدهم ويُمنِّيهم أنه سَيَقْدَمُ بجيش يقاتل به رسول الله - ﷺ - ويغلبه ويردُّه عما هو فيه، وأمرهم أن يتخذوا له مَعقلاً يقدَم عليهم فيه من يقدم من عنده لأداء كُتُبه، ويكونَ مرصداً له إذا قدم عليهم بعد ذلك، فشرعوا في بناء مسجد مجاورٍ لمسجد قباء، فبنوه وأحكموه، وفرغوا منه قبل خروج النبي - ﷺ - إلى تبوك، وجاءُوا فسألوا رسول الله - ﷺ - أن يأتي إليهم فيصلِّي في مسجدهم، ليحتجوا بصلاته عليه السلام فيه على تقريره وإثباته، وذكروا أنهم إنما بنوه للضعفاء منهم وأهل العلة في الليلة الشاتية. فعصمه الله من الصلاة فيه فقال: «إنا على سفر، ولكن إذا رجعنا إن شاء الله».

فلما قفل عليه السلام راجعاً إلى المدينة من تبوك، ولم يبق بينه وبينها إلا يوم أو بعض يوم، نزل عليه الوحي بخبر مسجد الضِّرار، وما اعتمده بانوه من الكفر والتفريق بين جماعة المؤمنين في مسجدهم مسجد قباء، الذي أُسس من أول يوم على التقوى. فبعث رسول الله - ﷺ - إلى ذلك المسجد من هَدَمَه قبل مقدمه المدينة، كما قال علي بن أبي طلحة، عن ابن عباس في قوله: ﴿والذين اتخذوا مسجداً ضِرارا﴾: وهم أناس من الأنصار، ابتنوا مسجداً، فقال لهم أبو عامر: ابنوا مسجداً واستعدوا بما استطعتم من قوة ومن سلاح، فإني ذاهب إلى قيصر ملك الروم، فآتي بجُند من الروم وأخرج محمداً وأصحابه. فلما فرغوا من مسجدهم، أتوا النبي - ﷺ - فقالوا: قد فرغنا من بناء مسجدنا، فنحبّ أن تصلي فيه وتدعو لنا بالبركة. فأنزل الله عز وجل: ﴿لا تقم فيه أبداً لمسجد أسس على التقوى من أول يوم﴾ إلى: ﴿والله لا يهدي القوم الظالمين﴾.

وكذا رُوي عن سعيد بن جُبير، ومجاهد، وعروة بن الزبير، وقتادة، وغير واحد من العلماء.

وقال محمد بن إسحاق بن يَسَار، عن الزُّهري، ويزيد بن رُومانَ، وعبد الله بن أبي بكر، وعاصم بن عُمَر ابن قتادة،وغيرهم، قالوا: أقبل رسولُ الله - ﷺ - يعني من تبوك - حتى نزل بذي أوان - بلدٍ بينه وبين المدينة ساعةٌ من نهار - وكان أصحابُ مسجدِ الضِّرارِ قد كانوا أتوه وهو يتجهز إلى تبوك، فقالوا: يا رسولَ الله، إنا قد بنينا مسجداً لذي العِلّة والحاجة والليلة المطيرة والليلة الشاتية، وإنا نُحِبُّ أن تأتينا فتصلي لنا فيه. فقال: إني على جَناح سَفر وحال شُغل - أو كما قال رسول الله - ﷺ - ولو قدمنا إن شاء الله تعالى آتيناكم فصلينا لكم فيه. فلما نزل بذي أوان آتاه خبرُ المسجد، فدعا رسول الله - ﷺ - مالك بن الدُّخشُم أخا بني سالم بن عوف،

ومعنَ بن عَدِيٍّ ـ أو: أخاه عامر بن عَدِيٍّ ـ أخا بَلْعَجْلانِ، فقال: «انطلقا إلى هذا المسجد الظالم أهله، فاهدماه وحرقاه». فخرجا سريعين حتى أتيا بني سالم بن عوف، وهم رهط مالك بن الدّخشم، فقال مالك لمعن: أنظرني حتى أخرج إليك بنار من أهلي. فدخل أهله فأخذ سَعَفاً من النخل، فأشعل فيه ناراً، ثم خرجا يشتدّان حتى دخلا المسجد وفيه أهله، فحرقاه وهدماه وتفرقوا عنه. ونزل فيهم من القرآن ما نزل: ﴿والذين اتخذوا مسجداً ضراراً﴾ إلى آخر القصة. وكان الذين بنوه اثني عشر رجلاً: خذَام بن خالد، من بني عُبَيد بن زيد، أحد بني عمرو بن عوف، ومن داره أخرج مسجد الشقاق. وثعلبة بن حاطب، من بني عبيد، وهو إلى بني أمية بن زيد. ومعتب بن قُشَيْر، من ضُبَيعة بن زيد. وأبو حبيبة بن الأزعر، من بني ضُبَيعة بن زيد. وعَبَّاد بن حُنَيف، أخو سهل بن حُنَيف، من بني عمرو بن عوف. وجارية بن عامر، وابناه: مُجَمِّع بن جارية، وزيد بن جارية. ونَبْتَل الحارث، وهم من بني ضبيعة. وبحزج وهو من بني ضبيعة. وبجاد بن عُثمان وهو من بني ضبيعة. ووديعة بن ثابت، وهو إلى بني أمية رهط أبي لبابة بن عبد المنذر[1].

وقوله: ﴿وليحلفن﴾، أي: الذين بنوه ﴿إن أردنا إلا الحسنى﴾، أي: ما أردناه ببنيانه إلا خيراً ورفقاً بالناس، قال الله تعالى: ﴿والله يشهدُ إنهم لكاذبون﴾، أي: فيما قصدوا وفيما نَووا، وإنما بنوه ضِراراً لمسجِد قُباء، وكفراً بالله، وتفريقاً بين المؤمنين، وإرصاداً لمن حارب الله ورسوله، وهو أبو عامر الفاسق، الذي يقال له «الراهب»، لعنه الله.

وقوله: ﴿لا تقم فيه أبداً﴾، نهي من الله لرسوله ـ صلوات الله وسلامه عليه ـ والأمة تَبَع له في ذلك، عن أن يقوم فيه، أي: يصلي فيه أبداً.

ثم حثه على الصلاة في مسجد قُباء الذي أسس من أول يوم بنائه على التقوى، وهي طاعة الله، وطاعة رسوله، وجمعاً لكلمة المؤمنين ومَعقلاً وموئلاً للإسلام وأهله. ولهذا قال تعالى: ﴿لمسجد أسس على التقوى من أول يوم أحق أن تقوم فيه﴾، والسياق إنما هو في معرض مسجد قباء، ولهذا جاء في الحديث الصحيح أن رسول الله ـ ﷺ ـ قال: «صلاة في مسجد قُباء كعُمرةٍ»[2]. وفي الصحيح: أنَّ رسولَ الله ـ ﷺ ـ كان يزور مسجد قباء راكباً وماشياً[3]، وفي الحديث: أن رسول الله ـ ﷺ ـ لما بناه وأسسه أول قدومه ونزوله على بني عمرو بن عوف كان جبريل هو الذي عَيّن له جِهَة القبلة، فالله أعلم.

وقال أبو داود: حدثنا محمد بن العلاء، حدثنا معاوية بن هشام، عن يونس بن الحارث، عن إبراهيم بن أبي ميمونة، عن أبي صالح، عن أبي هريرة رضي الله عنه، عن النبي ـ ﷺ ـ قال: «نزلت هذه الآية في أهل قباء: ﴿فيه رجال يحبون أن يتطهروا﴾، قال: كانوا يستنجون بالماء، فنزلت فيهم الآية»[4].

ورواه الترمذي وابن ماجه، من حديث يونس بن الحارث ـ وهو ضعيف ـ وقال الترمذي: «غريب من هذا الوجه»[5].

وقال الطبراني: حدثنا الحسن بن علي المعمري، حدثنا محمد بن حُمَيد الرازي، حدثنا سَلَمَةُ بن

(١) سيرة ابن هشام ٢/ ٥٣٠، وتفسير الطبري ١١/ ٢٣.
(٢) سنن ابن ماجه، كتاب إقامة الصلاة ٤٥٢.
(٣) مسلم، كتاب الحج ١٠١٦، ومسند أحمد ٢/ ٤ ـ ٥.
(٤) سنن أبي داود، كتاب الطهارة ١/ ١١.
(٥) تحفة الأحوذي، تفسير سورة التوبة ٨/ ٥٠٣، وابن ماجه، كتاب الطهارة ١/ ١٢٨.

الفَضْل، عن محمد بن إسحاقَ، عن الأعمش، عن مجاهد، عن ابن عباس قال: نزلت هذه الآية: ﴿فيه رجال يُحِبُّون أن يتطهروا﴾، بعث رسول الله - ﷺ - إلى عُوَيم[1] بن ساعدة فقال: ما هذا الطهور الذي أثنى الله عليكم؟ فقال: يا رسول الله، ما خرج منا رجل ولا امرأة من الغائط إلا غسل فرجه - أو قال: مقعدته - فقال النبي - ﷺ -: هو هذا.

وقال الإمام أحمد: حدثنا حُسَين بن محمد، حدثنا أبو أويس، حدثنا شرحبيل، عن عُوَيم بن ساعدة الأنصاري: أنه حَدَّثه أن النبي - ﷺ - أتاهم في مسجد قُباء، فقال: «إن الله تعالى قد أحسن عليكم الثناء في الطهور في قصة مسجدكم، فما هذا الطهور الذي تطهرون به؟ فقالوا: والله - يا رسول الله - ما نعلم شيئاً إلا أنه كان لنا جيران من اليهود، فكانوا يغسلون أدبارهم من الغائط، فغسلنا كما غَسَلوا»[2]. ورواه ابن خزيمة في صحيحه.

وقال هُشَيم، عن عبد الحميد المدني، عن إبراهيم بن إسماعيل[3] الأنصاري: أن رسول الله - ﷺ - قال لعُويم بن ساعدة: ما هذا الذي أثنى الله عليكم: ﴿فيه رجال يحبون أن يتطهروا والله يحب المطهرين﴾؟ قالوا: يا رسول الله، إنا نغسل الأدبار بالماء.

وقال ابن جَرِير: حدثني محمد بن عمارة الأسدي، حدثنا محمد بن سعيد، حدثنا إبراهيم بن محمد، عن شرحبيل بن سعد قال: سمعت خُزَيمة بن ثابت يقول: نزلت هذه الآية: ﴿فيه رجال يحبون أن يتطهروا والله يحب المطَّهرين﴾، قال: كان يغسلون أدبارهم من الغائط[4].

حديث آخر، قال الإمام أحمد بن حنبل: حدثنا يحيى بن آدم، حدثنا مالك - يعني ابن مِغْوَل - سمعت سَيَّاراً[5] أبا الحكم، عن شهر بن حوشب، عن محمد بن عبد الله بن سلام قال: لما قَدِمَ رسول الله - ﷺ - يعني قباء، فقال: «إن الله عز وجل قد أثنى عليكم في الطهور خيراً، أفلا تخبروني؟ - يعني قوله تعالى: ﴿فيه رجال يحبون أن يَتَطهروا والله يحب المطَّهرين﴾ - فقالوا: يا رسولَ الله، إنا نجدُه مكتوباً علينا في التوراة الاستنجاءُ بالماء»[6].

وقد صَرَّح بأنه مسجدُ قُباءٍ جماعةٌ من السلف، رواه علي بن أبي طلحة، عن ابن عباس. ورواه عبد الرزاق، عن معمر، عن الزهري، عن عروة بن الزبير. وقاله عطية العَوفيُّ، وعبدُ الرحمنِ بن زيدِ بن أسلَمَ، والشعبيُّ، والحسنُ البصريُّ، ونقله البغويُّ[7] عن سعيد بن جُبَير، وقتادةَ.

وقد ورد في الحديث الصحيح أن مسجد رسول الله - ﷺ - الذي هو في جَوْفِ المدينة، هو المسجد الذي أُسِّسَ على التقوى. وهذا صحيح. ولا منافاة بين الآية وبين هذا، لأنه إذا كان مسجدُ قباء قد أُسِّسَ على التقوى من أول يوم، فمسجد رسول الله - ﷺ - بطريق الأولى والأحرى، ولهذا قال الإمام أحمد بن حنبل في مسنده:

(١) في المعجم الكبير ١١/ ٦٧: عويمر. وهو خطأ، وانظر مسند أحمد ٣/ ٤٢٢.
(٢) المسند ٣/ ٤٢٢.
(٣) في الأصل: إبراهيم بن المعلى الأنصاري. والمثبت عن تفسير الطبري ١١/ ٣٠.
(٤) تفسير الطبري ١١/ ٣٠.
(٥) في المسند: يسار. وانظر ترجمة سيّار أبي الحكم العنزي في تهذيب التهذيب ٤/ ٢٩١.
(٦) المسند ٦/ ٦.
(٧) تفسير البغوي ٢/٣٢٨.

حدثنا أبو نُعيم، حدثنا عبد الله بن عامر الأسلمي، عن عمران بن أبي أنس، عن سهل بن سعد، عن أُبي ابن كعب: أن النبي ـ ﷺ ـ قال: «المسجد الذي أُسِّسَ على التقوى مسجدي هذا»[١]. تفرد به أحمد.

حديث آخر، قال الإمام أحمد: حدثنا وكيع، حدثنا ربيعة بن عثمان التيمي، عن عمران بن أبي أنس، عن سهل بن سعد الساعدي قال: اختلف رجلان على عهد رسول الله ـ ﷺ ـ في المسجد الذي أُسِّسَ على التقوى، فقال أحدهما: هو مسجدُ رسول الله ﷺ. وقال الآخر: هو مسجد قباء. فأتيا النبي ـ ﷺ ـ فسألاه، فقال: هو مسجدي هذا. تفرد به أحمد أيضاً[٢].

حديث آخر، قال أحمد: حدثنا موسى بن داود، حدثنا ليث، عن عمران بن أبي أنس، عن سعيد بن أبي سعيد الخدري ـ رضي الله عنه ـ قال: تمارى رجلان في المسجد الذي أُسِّسَ على التقوى، فقال أحدهما: هو مسجدُ قباء، وقال الآخر: هو مسجد النبي ـ ﷺ ـ، فقال النبي ـ ﷺ ـ هو مسجدي هذا[٣]. تفرد به أحمد.

طريق أخرى، قال الإمام أحمد: حدثنا إسحاق بن عيسى، حدثنا ليث، حدثني عمران بن أبي أنس، عن ابن أبي سعيد، عن أبيه أنه قال: تمارى رجلان في المسجد الذي أُسِّسَ على التقوى من أول يوم، فقال رجل: هو مسجد قباء، وقال الآخر: هو مسجد رسول الله ﷺ. فقال رسول الله ـ ﷺ ـ: هو مسجدي[٤].

وكذا رواه الترمذي[٥] والنسائي عن قتيبة، عن الليث ـ وصححه الترمذي ـ ورواه مسلم كما سيأتي.

طريق أخرى، قال أحمد: حدثنا يحيى، عن أنيس بن أبي يحيى، حدثني أبي قال: سمعت أبا سعيد الخدري قال: اختلف رجلان: رجل من بني خُدْرة، ورجل من بني عمرو بن عوف، في المسجد الذي أسس على التقوى، فقال الخدري: هو مسجد رسول الله ﷺ. وقال العَمْرِيّ: هو مسجد قباء. فأتيا رسول الله ـ ﷺ ـ فَسَألاه عن ذلك، فقال: هو هذا المسجد ـ لمسجد رسول الله ـ ﷺ ـ وقال: في ذاك خير كثير. يعني مسجد قباء[٦].

طريق أخرى، قال أبو جعفر بن جرير: حدثنا ابن بشار، حدثنا يحيى بن سعيد، حدثنا حُمَيدٌ الخرّاط المدني، سألت أبا سلمة بن عبد الرحمن بن أبي سعيد فقلت: كيف سمعت أباك يقول في المسجد الذي أسس على التقوى؟ فقال: قال أبي: أتيتُ رسولَ الله ـ ﷺ ـ فدخلت عليه في بيت لبعض نسائه، فقلت: يا رسول الله، أين المسجدُ الذي أُسِّس على التقوى؟ قال: فأخذ كفّاً من حصباءَ فَضَرَبَ به الأرضَ، ثم قال: هو مسجدكم هذا. ثم قال: سمعت أباك يَذْكُرُه[٧].

رواه مسلم منفرداً به عن محمد بن حاتم، عن يحيى بن سعيد، به. ورواه عن أبي بكر بن أبي شيبة وغيره، عن حاتم بن إسماعيل، عن حُمَيدٍ الخَرَّاط، به[٨].

---

(١) مسند أحمد ٥/ ١١٦.
(٢) المسند ٥/ ٣٣١.
(٣) المسند ٣/ ٨٩.
(٤) المسند ٣/ ٧.
(٥) تحفة الأحوذي، تفسير سورة التوبة ٨/ ٥٠٢ ـ ٥٠٣.
(٦) مسند أحمد ٣/ ٢٣.
(٧) تفسير الطبري ١١/ ٢٧.
(٨) مسلم، كتاب الحج ١٠١٥.

وقد قال بأنه مسجدُ النبيِّ - ﷺ - جماعةٌ من السلَفِ والخَلَفِ، وهو مَرْوِيٌّ عن عُمَر بن الخطاب، وابنه عبد الله، وزيد بن ثابت، وسعيد بن المسيب. واختاره ابن جرير.

وقوله: ﴿لمسجد أُسِّس على التقوى من أول يوم أحق أن تقوم فيه فيه رجال يحبون أن يتطهروا والله يحب المطَّهرين﴾،دليل على استحباب الصلاة في المساجد القديمة المؤسسة من أول بنائها على عبادة الله وحده لا شريك له، وعلى استحباب الصلاة مع جماعة الصالحين، والعباد العاملين المحافظين على إسباغ الوضوء، والتنزه عن ملابسة القاذورات.

وقد قال الإمام أحمد: حدثنا محمد بن جعفر، عن شعبة، عن عبد الملك بن عمير، سمعت شبيباً أبا روح يُحدِّث عن رجل من أصحاب النبي - ﷺ -: أن رسول الله - ﷺ - صلَّى بهم الصبح، فَقَرأ بهم الرومَ فأوهم، فلما انصرفَ قال: «إنه يُلْبِسُ علينا القرآنَ، إنَّ أقواماً منكم يصلُّونَ معنا لا يُحسِنُونَ الوضوءَ، فمن شَهِد الصلاة معنا فَلْيُحسِنْ الوضوءَ»[١].

ثم رواه من طريقين آخرين، عن عبد الملك بن عُمَير، عن شبيب أبي روح، من ذي الكَلاع: أنه صلى مع النبي - ﷺ - فذكره[٢]. فدل هذا على أن إكمال الطهارة يسهل القيام في العبادة، ويعين على إتمامها وإكمالها والقيام بمشروعاتها.

وقال أبو العالية في قوله تعالى: ﴿والله يحب المطَّهرين﴾: إن الطُّهور بالماء لحسن، ولكنهم المطَّهرون من الذنوب.

وقال الأعمش: التوبة من الذنب، والتطهير من الشرك.

وقد ورد في الحديث المروي من طرق، في السنن وغيرها، أن رسول الله - ﷺ - قال لأهل قباء: قد أثنى الله عليكم في الطهور، فماذا تصنعون؟ فقالوا: نستنجي بالماء.

وقد قال الحافظ أبو بكر البَزَّارُ: حدثنا عبد الله بن شَبِيب، حدثنا أحمد بن محمد بن عبد العزيز قال: وجدتُه في كتاب أبي، عن الزُّهري، عن عُبَيد الله بن عبد الله، عن ابن عباس قال: نزلت هذه الآيةُ في أهلِ قُباءٍ: ﴿فيه رجال يحبون أن يَتَطَهَّروا، والله يحبُّ المطَّهرين﴾. فسألهم رسول الله - ﷺ - فقالوا: إنا نُتْبِعُ الحجارةَ الماءَ.

ثم قال: تفرد به محمد بن عبد العزيز، عن الزُّهري، ولم يرو عنه سوى ابنه[٣].

قلت: وإنما ذكرته بهذا اللفظ لأنه مشهور بين الفقهاء، ولم يعرفه كثير من المحدِّثين المتأخرين، أو كلهم، والله أعلم.

﴿أَفَمَنْ أَسَّسَ بُنْيَانَهُۥ عَلَىٰ تَقْوَىٰ مِنَ ٱللَّهِ وَرِضْوَٰنٍ خَيْرٌ أَم مَّنْ أَسَّسَ بُنْيَٰنَهُۥ عَلَىٰ شَفَا جُرُفٍ هَارٍ فَٱنْهَارَ بِهِۦ فِى نَارِ جَهَنَّمَ وَٱللَّهُ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿١٠٩﴾ لَا يَزَالُ بُنْيَٰنُهُمُ ٱلَّذِى بَنَوْا۟ رِيبَةً فِى قُلُوبِهِمْ إِلَّآ أَن تَقَطَّعَ قُلُوبُهُمْ وَٱللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴿١١٠﴾﴾

(١) المسند ٣/ ٤٧١.
(٢) المسند ٤/ ٤٧١ - ٤٧٢.
(٣) كشف الأستار عن زوائد البزار ٣/ ١٣٠ - ١٣١.

يقول تعالى: لا يستوي من أسس بنيانه على تقوى من الله ورضوان، ومن بنى مسجداً ضراراً وكفراً وتفريقاً بين المؤمنين، وإرصاداً لمن حارب الله ورسوله من قبل، فإنما بنى هؤلاء بنيانهم ﴿على شفا جُرُف هارٍ﴾، أي: طرف حَفِيرة مُتْثالة ﴿في نار جهنم والله لا يهدي القوم الظالمين﴾، أي: لا يصلح عمل المفسدين.

قال جابر بن عبد الله: رأيت المسجد الذي بني ضراراً يخرج منه الدخان على عهد النبي ﷺ.

وقال ابن جريج: ذُكر لنا أن رجالاً حَفَروا فوجدوا الدخان يخرج منه. وكذا قال قتادة.

وقال خلف بن ياسين الكوفي: رأيت مسجد المنافقين الذي ذكره الله تعالى في القرآن، وفيه جحرٌ يخرج منه الدخان، وهو اليوم مَزْبلة. رواه ابن جرير، رحمه الله(١).

وقوله: ﴿لا يزال بنيانهم الذي بنوا ريبة في قلوبهم﴾، أي: شكاً ونفاقاً بسبب إقدامهم على هذا الصنيع الشنيع، أورثهم نفاقاً في قلوبهم، كما أشرب عابدو العجل حبه.

وقوله: ﴿إلا أن تَقَطَّع قلوبُهم﴾، أي: بموتهم. قاله ابن عباس، ومجاهد، وقتادة، وزيد بن أسلم، والسديُّ، وحبيب بن أبي ثابت، والضحاك، وعبد الرحمن بن زيد بن أسلم، وغير واحد من علماء السلف.

﴿والله عليم﴾، أي: بأعمال خلقه، ﴿حكيم﴾، في مجازاتهم عنها، من خير وشر.

﴿ ۞ إِنَّ ٱللَّهَ ٱشْتَرَىٰ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ أَنفُسَهُمْ وَأَمْوَٰلَهُم بِأَنَّ لَهُمُ ٱلْجَنَّةَ ۚ يُقَـٰتِلُونَ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ فَيَقْتُلُونَ وَيُقْتَلُونَ ۖ وَعْدًا عَلَيْهِ حَقًّا فِى ٱلتَّوْرَىٰةِ وَٱلْإِنجِيلِ وَٱلْقُرْءَانِ ۚ وَمَنْ أَوْفَىٰ بِعَهْدِهِۦ مِنَ ٱللَّهِ ۚ فَٱسْتَبْشِرُوا۟ بِبَيْعِكُمُ ٱلَّذِى بَايَعْتُم بِهِۦ ۚ وَذَٰلِكَ هُوَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ ﴿١١١﴾ ﴾

يُخبرُ تعالى أنه عاوَضَ عباده المؤمنين عن أنفسهم وأموالهم إذا بذلُوها في سبيله بالجنة، وهذا من فَضْلِه وكَرَمه وإحسانِهِ، فإنه قبل العَوْض عما يملكه بما تَفضَّل به على عباده المطيعين له. ولهذا قال الحسن البصري وقتادة: بايعهم والله فأغلى ثمنهم.

وقال شِمْرُ بنُ عَطِيَّةَ: ما من مسلم إلا وَلِلَّهِ ـ عزَّ وجلَّ ـ في عُنُقِه بيعةٌ، وَفَى بها أو مات عليها، ثم تلا هذه الآية(٢).

ولهذا يقال: من حمل في سبيل الله بايع الله. أي: قَبل هذا العقدَ ووفى به.

وقال محمد بن كعب القرظي وغيره: قال عبد الله بن رواحة ـ رضي الله عنه ـ لرسول الله ـ ﷺ ـ يعني ليلة العقبة: اشترط لربك ولنفسك ما شئت! فقال: «أشترط لربي أن تعبدوه ولا تشركوا به شيئاً. وأشترط لنفسي أن تمنعوني مما تمنعون منه أنفسكم وأموالكم». قالوا: فما لنا إذا فعلنا ذلك؟ قال: الجنةُ. قالوا: رَبِح البيعُ، لا نُقيل ولا نستقيل(٣)، فَنَزلت: ﴿إن الله اشترى من المؤمنين أنفسَهُم وأموالهم﴾. . . الآية.

وقوله: ﴿يقاتلون في سبيل الله فَيَقْتُلون ويُقتَلُون﴾، أي: سواء قَتَلوا أو قُتِلوا، أو اجتمع لهم هذا وهذا، فقد وجبت لهم الجنة. ولهذا جاء في الصحيحين: «وتكفل الله لمن خرج في سبيله، لا يخرجه إلا جهاد في

(١) تفسير الطبري ١١/ ٣٣.
(٢) تفسير الطبري ١١/ ٣٥.
(٣) الإقالة: فسخ البيع، والاستقالة: طلب الفسخ.

سبيلي وتصديق برسلي، إن توفاه أن يدخله الجنة، أو يَرْجِعُه إلى مسكنه الذي خرج منه، نائلاً ما نال من أجر أو غنيمة»[١].

وقوله: ﴿وعداً عليه حقاً في التوراة والإنجيل والقرآن﴾ تأكيد لهذا الوعد، وإخبار بأنه قد كتبه على نفسه الكريمة، وأنزله على رسله في كُتُبه الكبار، وهي التوراة المنزلة على موسى، والإنجيل المنزل على عيسى، والقرآن المنزل على محمد، صلوات الله وسلامه عليهم أجمعين.

وقوله: ﴿ومن أوفى بعهده من الله﴾ ([٢]أي: ولا أُحَدَ أعظمُ وفاءً بما عاهد عليه من الله[٢])، فإنه لا يُخلِفُ الميعاد، وهذا كقوله تعالى: ﴿ومن أصدق من الله حديثاً﴾، ﴿ومن أصدق من الله قيلاً﴾، ولهذا قال: ﴿فاستبشروا ببيعكم الذي بايعتم به وذلك هو الفوز العظيم﴾، أي: فليستبشر من قام بمقتضى هذا العقد ووفى بهذا العهد، بالفوز العظيم، والنعيم المقيم.

﴿ ٱلتَّـٰٓئِبُونَ ٱلْعَـٰبِدُونَ ٱلْحَـٰمِدُونَ ٱلسَّـٰٓئِحُونَ ٱلرَّٰكِعُونَ ٱلسَّـٰجِدُونَ ٱلْـَٔامِرُونَ بِٱلْمَعْرُوفِ وَٱلنَّاهُونَ عَنِ ٱلْمُنكَرِ وَٱلْحَـٰفِظُونَ لِحُدُودِ ٱللَّهِ ۗ وَبَشِّرِ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿١١٢﴾ ﴾

هذا نعتُ المؤمنين الذين اشترى الله منهم أنفسَهم وأموالهم بهذه الصفات الجميلةِ والخِلالِ الجليلةِ: ﴿التائبونَ﴾ من الذنوبِ كُلِّها، التاركون للفواحِشِ، ﴿العابدونَ﴾، أي: القائمونَ بعبادَةِ ربِّهم محافظين عليها، وهي الأقوال والأفعال فمن أخصِّ الأقوال الحمدُ، فلهذا قال: ﴿الحامدونَ﴾، ومن أفضلِ الأعمال الصيامُ، وهو تَرْكُ الملاذِّ من الطعام والشراب والجماع، وهو المرادُ بالسياحة ها هنا، ولهذا قال: ﴿السائحون﴾، كما وصف أزواج النبي ـ ﷺ ـ بذلك في قوله تعالى: ﴿سائحات﴾، أي: صائمات، وكذا الركوع والسجود، وهما عبارة عن الصلاة، ولهذا قال: ﴿الراكعون الساجدون﴾، وهم مع ذلك ينفعون خَلْقَ الله، ويُرْشِدُونهم إلى طاعة الله بأمرهم بالمعروف ونهيهم عن المنكر، مع العلم بما ينبغي فعله ويجب تركهُ، وهو حفظ حدود الله في تحليله وتحريمه، علماً وعملاً، فقاموا بعبادة الحق ونصح الخلق، ولهذا قال: ﴿وبشر المؤمنين﴾، لأن الإيمان يشمل هذا كله، والسعادة كل السعادة لمن اتـصف به.

[بيان أن المراد بالسياحة الصيام]

قال سفيان الثوري، عن عاصم، عن زِرّ، عن عبد الله بن مسعود قال: ﴿السائحون﴾ الصائمون. وكذا رُوي عن سعيد بن جُبيرٍ والعوفي عن ابن عباس.

وقال علي بن أبي طلحة، عن ابن عباس: كل ما ذكر الله في القرآن السياحة، هم الصائمون. وكذا قال الضحاك رحمه الله.

وقال ابن جرير: حدثنا أحمد بن إسحاق، حدثنا أبو أحمد، حدثنا إبراهيم بن يزيد، عن الوليد بن عبدالله، عن عائشة ـ رضي الله عنها ـ قالت: سياحةُ هذه الأمة الصيام[٣].

وهكذا قال مجاهد، وسعيد بن جبير، وعطاء، وأبو عبد الرحمن السلمي، والضحاك بن مُزاحم، وسفيان ابن عُيينة وغيرهم: أن المراد بالسائحين الصائمون.

(١) فتح الباري، كتاب فرض الخمس ٦/ ٢٢٠، ومسلم، كتاب الإمارة ١٤٩٥ ـ ١٤٩٦. وفي النسخ: «بأن توفاه». وانظر تفسير الآية ٤١ من هذه السورة.
(٢) عن الأصل.
(٣) تفسير الطبري ١١/ ٣٩.

وقال الحسن البصري: ﴿السائحون﴾ الصائمون شهر رمضان. وقال أبو عمرو العَبْدي: ﴿السائحون﴾ الذي يديمون الصيام من المؤمنين.

وقد ورد في حديثٍ مرفوعٍ نحوُ هذا، فقال ابن جرير: حدثني محمد بن عبدالله بن بَزِيع، حدثنا حَكِيم بن حِزَام، حدثنا سليمان، عن أبي صالح، عن أبي هُرَيرة قال: قال رسول الله ـ ﷺ ـ: «السائحون هم الصائمون». ثم رواه عن بُنْدَارٍ، عن ابن مَهْدِيٍّ، عن إسرائيل، عن سليمان الأعمش عن أبي صالح، عن أبي هريرة ـ رضي الله عنه ـ قال: ﴿السائحون﴾ هم الصائمون. وهذا الموقف أصح.

وقال أيضاً: حدثني يونس، عن ابن وهب، عن عمر بن الحارث، عن عمرو بن دينار، عن عُبَيد بن عُمَير قال: سُئِل النبي ـ ﷺ ـ عن السائحين فقال: «هم الصائمون». وهذا مرسلٌ جيِّدٌ.

فهذه أصحُّ الأقوالِ وأشهرها، وجاء ما يدلُّ على أن السياحةَ الجهاد، وهو ما روى أبو داود في سُنَنه، من حديث أبي أمامة أن رجلاً قال: يا رسولَ الله، ائذَنْ لي في السياحة. فقال النبي ـ ﷺ ـ: «سياحةُ أمتي الجهادُ في سبيل الله».

وقال ابن المبارك، عن ابن لهِيعة: أخبرني عُمارة بن غَزِيَّة: أن السياحة ذكرت عند رسول الله ﷺ، فقال رسول الله ـ ﷺ ـ: «أبدلنا الله بذلك الجهاد في سبيل الله، والتكبير على كل شرف». وعن عكرمة أنه قال: هم طلبة العلم.

وقال عبد الرحمن بن زيد بن أسلم: هم المهاجرون. رواهما ابن أبي حاتم. وليس المراد من السياحة ما قد يفهم بعض من يتعبد بمجرد السياحة في الأرض، والتفرد في شواهق الجبال والكهوف والبراري، فإن هذا ليس بمشروع إلا في أيام الفتَن والزلازل في الدين، كما ثبت في صحيح البخاري، عن أبي سعيد الخدري أن رسول الله ـ ﷺ ـ قال: «يُوشِكُ أن يكونَ خيرُ مالِ الرجلِ غَنَمٌ يَتْبَعُ بها شَغَفَ الجبال، ومواقع القَطْرِ، يَفِرُّ بدينه من الفتن».

وقال العَوْفِي وعلي بن أبي طلحة، عن ابن عباس في قوله: ﴿والحافظون لحدود الله﴾، قال: القائمون بطاعة الله.

وكذا قَال الحسن البصري. وعنه رواية: ﴿الحافظون لحدود الله﴾، قال: لفرائض الله، وفي رواية: القائمون على أمر الله.

﴿ مَا كَانَ لِلنَّبِيِّ وَالَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَن يَسْتَغْفِرُواْ لِلْمُشْرِكِينَ وَلَوْ كَانُوٓاْ أُوْلِي قُرْبَىٰ مِنۢ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُمْ أَصْحَٰبُ ٱلْجَحِيمِ ﴿١١٣﴾ وَمَا كَانَ ٱسْتِغْفَارُ إِبْرَٰهِيمَ لِأَبِيهِ إِلَّا عَن مَّوْعِدَةٍ وَعَدَهَآ إِيَّاهُ فَلَمَّا تَبَيَّنَ لَهُۥٓ أَنَّهُۥ عَدُوٌّ

﴿لِلَّهِ تَبَرَّأَ مِنْهُ إِنَّ إِبْرَٰهِيمَ لَأَوَّٰهٌ حَلِيمٌ ۝١١٤﴾

قال الإمام أحمد: حدثنا عبد الرزاق، حدثنا معمر، عن الزهري، عن ابن المسيب، عن أبيه قال: لما حَضرت أبا طالب الوفاةُ دخل عليه النبي -ﷺ- وعنده أبو جهل، وعبد الله بن أمية، فقال: أيْ عَمِّ، قل: لا إله إلا الله، كلمة أحاجّ لك بها عند الله عز وجل. فقال أبو جهل وعبد الله بن أبي أمية: يا أبا طالب، أترغب عن ملّة عبد المطلب؟ فقال: أنا على ملة عبد المطلب فقال النبي -ﷺ-: لأستغفرن لك ما لم أُنْهَ عنك. فنزلت: ﴿ما كان للنبي والذين آمنوا أن يستغفروا للمشركين ولو كانوا أولي قربى من بعد ما تبين لهم أنهم أصحاب الجحيم﴾، قال: ونزلت فيه: ﴿إنك لا تهدي من أحببت﴾. أخرجاه(١).

وقال الإمام أحمد: حدثنا يحيى بن آدم، أخبرنا سفيان، عن أبي إسحاق، عن أبي الخليل، عن علي -رضي الله عنه- قال: سمعت رجلاً يستغفر لأبويه، وهما مشركان، فقلت: أيستغفر الرجل لأبويه وهما مشركان؟ فقال: أوَلم يستغفر إبراهيم لأبيه؟ فذكرت ذلك للنبي -ﷺ- فنزلت: ﴿ما كان للنبي والذين آمنوا أن يستغفروا للمشركين﴾ إلى قوله: ﴿فلما تبين له أنه عَدُوّ لله﴾، قال: «لما مات». فلا أدري قاله سفيان أو قاله إسرائيل، أو هو في الحديث «لما مات»(٢).

قلت: هذا ثابتٌ عن مجاهد أنه قال: لما مات(٣).

وقال الإمام أحمد: حدثنا الحسن بن موسى، حدثنا زُهَير، حدثنا زُبيد بن الحارث اليامي، عن محارب ابن دثار، عن ابن بُرَيدة، عن أبيه قال: كنا مع النبي -ﷺ- فنزل بنا ونحن معه قريبٌ من ألف راكب، فَصَلّى ركعتين، ثم أقبل علينا بوجهه وعيناه تَذْرِفان فقام إليه عمر بن الخطاب وفَداه بالأب والأم، وقال: يا رسول الله، ما لك؟ قال: إني سألت ربي -عزَّ وجل- في الاستغفار لأمّي، فلم يأذن لي، فدمعَت عيناي رحمة لها من النار، وإني كنت نهيتكم عن ثلاث: نهيتكم عن زيارة القبور فزوروها، لتذكركم زيارتُها خيراً. ونهيتكم عن لحوم الأضاحي بعد ثلاث، فكلوا وأمسكوا ما شئتم. ونهيتكم عن الأشربة في الأوعية، فاشربوا في أي وعاء ولا تشربوا مسكراً(٤).

وروى ابن جَرير، من حديث علقمة عن مرثد، عن سليمان بن بُرَيدة، عن أبيه: أن النبي -ﷺ- لما قَدِم مكّة أتى رَسْمَ قبر، فجلس إليه، فجعل يخاطب، ثم قام مستعبراً. فقلنا: يا رسول الله، إنا رابنا ما صنعت! قال: إني استأذنت ربي في زيارة قبر أمي، فأذن لي، واستأذنته في الاستغفار لها فلم يأذن لي. فما رُئِيَ باكياً أكثر من يومئذ(٥).

وقال ابن أبي حاتم، في تفسيره: حدثنا أبي، حدثنا خالد بن خداش، حدثنا عبد الله بن وهب، عن ابن جُرَيج، عن أيوب بن هانىء، عن مسروق، عن عبدالله بن مسعود قال: خرجَ رسول الله -ﷺ- يوماً إلى المقابر، فاتبعناه، فجاء حتى جلس إلى قبر منها، فناجاه طويلاً، ثم بكى فبكينا لبكائه، ثم قام فقام إليه عمر بن

---

(١) مسند أحمد ٥/ ٥٣٣، وفتح الباري، تفسير سورة التوبة ٨/٣٤١، ومسلم، كتاب الإيمان ٥٤.
(٢) المسند ١/ ٩٩.
(٣) تفسير الطبري ١١/ ٤٥.
(٤) المسند ٥/ ٣٥٥.
(٥) تفسير الطبري ١١/ ٤٢.

الخطاب، فدعاه ثم دعانا، فقال: «ما أبكاكم؟ فقلنا: بكينا لبكائك. قال: إن القبر الذي جلستُ عنده قبر آمنة، وإني استأذنتُ ربِّي في زيارتها فأذن لي».

[(١ثم أورده من وجه آخر، ثم ذكر من حديث ابن مسعود قريباً منه، وفيه١)]: «وإني استأذنت ربي في الدعاء لها فلم يأذن لي، وأنزل علي: ﴿ما كان للنبي والذين آمنوا أن يستغفروا للمشركين ولو كانوا أولي قربى﴾، فأخذني ما يأخذ الولدَ للوالدة، وكنت نهيتكم عن زيارة القبور فزوروها، فإنها تذكر الآخرة»(٢).

حديث آخر في معناه، قال الطبراني: حدثنا محمد بن علي المَرْوَزِيّ، حدثنا أبو الدرداء عبد العزيز بن مُنِيب، حدثنا إسحاق بن عبد الله بن كيسان، عن أبيه، عن عكرمةَ، عن ابن عباس: أن رسولَ الله ـ ﷺ ـ لما أقبل من غزوة تبوك واعتمَر، فلما هَبَط من ثَنِيَّة عُسْفان أمر أصحابه: أن استندوا إلى العقبة حتى أرجعَ إليكم، فذهب فنزل على قبر أمّه، فناجى ربَّه طويلاً، ثم إنه بكى فاشتد بكاؤه، وبكى هؤلاء لبكائه، وقالوا: ما بكى نبي الله بهذا المكان إلا وقد أحدث الله في أمته شيئاً لا تُطيقه. فلما بكى هؤلاء قام فرجع إليهم، فقال: ما يبكيكم؟ قالوا: يا نبي الله، بكينا لبكائك، فقلنا: لعله أُحدِث في أُمَّتِكَ شيءٌ لا تُطيقه. قال: لا، وقد كان بعضُه، ولكن نزلتُ على قبر أمي فدعوتُ الله أن يأذَنَ لي في شفاعتها يوم القيامة، فأبى الله أن يأذن لي، فَرحِمْتُها وهيِ أمّي، فَبَكَيت، ثم جاءني جبريل فقال: ﴿وما كان استغفار إبراهيم لأبيه إلا عن مَوْعِدةٍ وعدها إياه، فلما تَبَيَّن له أنه عدو لله تبرأ منه﴾، فَتَبَرَّأ أنتَ من أُمِّك كما تبرأ إبراهيمُ من أبيه، فَرَحِمْتُها وهي أمي، ودعوتُ ربي أن يرفع عن أمتي أربعاً، فرفع عنهم اثنتين، وأبى أن يرفع عنهم اثنتين: دعوتُ ربي أن يرفع عنهم الرجم من السماء والغَرْق من الأرض، وألاّ يَلْبسهم شيعاً، وألا يُذِيق بعضهم بأس بعض. فرفع الله عنهم الرجم من السماء، والغرق من الأرض، وأبى الله أن يرفع عنهم القتل والهَرَج». وإنما عدل إلى قبر أُمّه لأنها كانت مدفونة تحت كذا وكذا، وكانت عُسْفان لهم(٣).

وهذا حديث غريب وسياق عجيب، وأغرب منه وأشد نَكارة ما رواه الخطيب البغدادي في كتاب «السابق واللاحق» بسند مجهول، عن عائشة في حديث فيه قصة أن الله أحيا أمَّه فآمنَتْ ثم عادت. وكذلك ما رواه السهيلي في «الروض» بسند فيه جَمَاعة مجهولون: أن الله أحيا له أباه وأمه، فآمنا به(٤).

وقد قال الحافظ ابن دِحْيَة(٥): هذا الحديث موضوع يَرُدّه القرآن والإجماع، قال الله تعالى: ﴿ولا الذين يموتون وهم كفار﴾. وقد مال أبو عبد الله القرطبي إلى مقتضى هذا الحديث، وردَّ عَلَى ابنِ دِحْية في هذا الاستدلال بما حاصله أنَّ هذه حياة جديدة، كما رجعت الشمس بعد غيبوبتها فصلى عَلِيٌّ العصر. قال الطحاوي: وهو ثابت، يعني حديث الشمس.

فال القرطبي: فليس إحياؤُهما يمتنع عقلاً ولا شرعاً، قال: عَلِمْتُ أن الله أحيا عَمَّه أبا طالب، فآمن به(٦).

قلت: وهذا كله متوقِّفٌ على صِحَّةِ الحديث، فإذا صَحَّ فلا مانع منه. والله أعلم.

---

(١) ليس في الأصل.
(٢) أخرجه البيهقي في الدلائل بإسناده إلى عبد الله بن وهب ١/ ١٨٩ ـ ١٩٠، وانظر الدر المنثور ٤/٣٠٢ـ٣٠٣.
(٣) المعجم الكبير للطبراني ١١/ ٣٧٤ ـ ٣٧٥.
(٤) انظر الروض الأنُف للسهيلي ١/ ١١٣، ٢٥٩.
(٥) هو أبو الخطاب عمر بن الحسن، تلميذ أبي القاسم السهيلي، انظر ترجمته في بغية الوعاة ٢/٢١٨.
(٦) انظر التذكرة في أحوال الموتى وأمور الآخرة للقرطبي ١٤ ـ ١٦.

وقال العَوفيّ، عن ابن عباس في قوله: ﴿ما كان للنبي والذين آمنوا أن يستغفروا للمشركين﴾ الآية، فإن رسول الله ـ ﷺ ـ أراد أن يستغفرَ لأمِّه، فنهاه الله عن ذلك، فقال: «فإنَّ إبراهيم خليلَ الله قد استغفر لأبيه»، فأنزل الله: ﴿وما كان استغفارُ إبراهيمَ لأبيه إلا عن مَوْعِدَةٍ وَعَدها إياه﴾. . . الآية.

وقال عليُّ بن أبي طَلْحَةَ، عن ابن عباس، في هذه الآية: كانوا يستغفِرُون لهم، حتى نزلت هذه الآية، فلما نزلت أمسكوا عن الاستغفار لأمواتهم، ولم يُنْهَوا أن يستغفروا للأحياء حتى يموتوا. ثم أنزل الله: ﴿وما كان استغفار إبراهيم لأبيه﴾. . . الآية.

وقال قَتادة في هذه الآية: ذُكِرَ لنا أن رجالاً من أصحاب النبي ـ ﷺ ـ قالوا: يا نبي الله، إن من آبائنا من كان يُحسِنُ الجِوارَ، ويَصِلُ الأرحامَ، وَيفُكُّ العانِيَ، ويُوفِي بالذِّمَم، أفلا نستغفر لهم؟ قال: فقال النبي ـ ﷺ ـ: بلى، والله إني أستغفر لأبي كما استغفر إبراهيمُ لأبيه. فأنزلَ الله: ﴿ما كان للنبي والذين آمنوا أن يستغفروا للمشركين﴾، حتى بلغ: ﴿الجحيم﴾، ثم عَذَرَ الله تعالى إبراهيم ـ عليه السلام ـ فقال: ﴿وما كان استغفار إبراهيم لأبيه إلا عن موعدة وعدها إياه، فلما تَبيَّن له أنه عدوٌّ لله تبرأ منه﴾ قال: وذُكِرَ لنا أن نبي الله قال: «أُوحِيَ إليّ كلمات، فدخلن في أذني وَوَقَرْن في قلبي: أُمِرْتُ ألاَّ أستغفر لمن مات مشركاً، ومن أعْطى فَضْلَ ماله فهو خيرٌ له، ومن أمسك فهو شرٌّ له، ولا يلوم الله على كَفاف»[1].

وقال الثَّوريُّ، عن الشيباني، عن سَعيد بن جُبير قال: مات رجل يَهُوديٌّ وله ابن مسلم، فلم يخرج معه، فذكر ذلك لابن عباس فقال: فكان ينبغي له أن يمشي معه ويدفنه، ويدعو له بالصلاح ما دام حياً، فإذا مات وَكَله إلى شأنه. ثم قال: ﴿وما كان استغفار إبراهيم لأبيه إلا عن موعدة وعدها إياه، فلما تبين له أنه عدو لله تبرأ منه﴾، لم يَدْعُ[2].

وهذا يَشْهَدُ له بالصحة ما رواه أبو داودَ وغيرُه، عن عليٍّ بن أبي طالب قال: «لما ماتَ أبو طالب قلتُ: يا رسولَ الله، إن عَمَّك الشيخَ الضال قد مات. قال: اذهب فَوَاره ولا تُحْدثَنّ شيئاً حتى تأتيني». وذكر تمام الحديث[3].

ويُرْوَى أن رسول الله ـ ﷺ ـ لما مَرّت به جنازة عَمِّه أبي طالب قال: وَصَلتكَ رحِمٌ يا عم.

وقال عطاء بن أبي رباح: ما كنت لأدع الصلاة على أحد من أهل القبلة، ولو كانت حبشية حبلى من الزنا، لأني لم أسمع الله حجب الصلاة إلا عن المشركين، يقول الله عز وجل: ﴿ما كان للنبي والذين آمنوا أن يستغفروا للمشركين﴾.

وروى ابنُ جَرير، عن ابن وكيع، عن أبيه، عن عصمة بن زامل[4]، عن أبيه قال: سَمِعتُ أبا هُرَيرةَ يقولُ: رَحِم الله رَجُلاً استغفر لأبي هُرَيرة ولأمِّه. قلت: ولأبيه؟ قال: لا، قال: إن أبي مات مشركاً.

وقوله: ﴿فلما تبيَّن له أنه عدوٌّ لله تَبَرَّأ منه﴾، قال ابن عباس: ما زال إبراهيم يستغفر لأبيه حتى مات، فلما تبين له أنه عدو لله تبرأ منه. وفي رواية: لما مات تبين له أنه عدو لله.

وكذا قال مجاهد، والضحاك، وقتادة، وغيرهم رحمهم الله.

---

(١) تفسير الطبري ١١/ ٤٣.
(٢) تفسير الطبري ١١/ ٤٤.
(٣) سنن أبي داود، كتاب الجنائز ٣/ ٢١٤. والنسائي، كتاب الجنائز ٤/ ٧٩ ـ ٨٠.
(٤) في تفسير الطبري ١١/ ٤٤: عصمة بن راشد. وهو خطأ، انظر الجرح لابن أبي حاتم ٧/ ٢٠.

وقال عُبَيد بن عمَير، وسعيد بن جُبير: إنه يتبرأ منه يوم القيامة حين يلقى أباه، وعلى وجه أبيه الغُبرة والقَتَرة فيقول: يا إبراهيم، إني كنت أعصيك وإني اليوم لا أعصيك. فيقول: أيْ ربي، ألم تعدني أن لا تخزني يوم يبعثون؟ فَأيُّ خزْي أخزى من أبي الأبعد؟ فيقال: انظر إلى ما وراءك، فإذا هو بذِيخٍ مُتلطِّخٍ، أي: قد مُسِخ ضِبْعاناً(١) ثم يسحب بقوائمه، ويلقى في النار.

وقولُه: ﴿إنَّ إبراهيمَ لأوَّاهٌ حليم﴾، قال سفيانُ الثوريُّ وغيرُ واحدٍ، عن عاصم بن بَهدَلَة، عن زِرّ بن حُبَيش، عن عبد الله بن مسعود أنه قال: الأوّاهُ الدعَّاءُ. وكذا رُوِي من غير وجه، عن ابن مسعود(٢).

وقال ابن جَرير: حدثني المثنّى، حدثنا الحجّاجُ بن مِنْهالٍ، حدثنا عبد الحميد بن بهرام، حدثنا شهر بن حَوشب، عن عبد الله بن شَداد بن الهاد قال: بينما رسول الله ـ ﷺ ـ جالس قال رجل: يا رسول الله، ما الأوّاه؟ قال: المتضرع، قال: ﴿إن إبراهيم لأواه حليم﴾(٣).

ورواه ابن أبي حاتم من حديث ابن المبارك، عن عبد الحميد بن بهرام، به، قال: المتضرع الدَّعَّاء.

وقال الثوريُّ، عن سلمة بن كهَيل، عن مسلم البَطِين، عن أبي العُبَيدَيْن أنه سأل ابن مسعود عن الأواه، فقال: هو الرحيم.

وبه قال مجاهدٌ، وأبو ميسرةَ عمرو بن شُرحبيل، والحسن البصريُّ، وقتادَةُ: أنه الرحيم، أي: بعباد الله.

وقال ابن المبارك، عن خالد، عن عكرمة، عن ابن عباس قال: الأوّاه: الموقن بلسان الحبشة. وكذا قال العوفي، عن ابن عباس: أنه الموقن. وكذا قال مجاهد، والضحاك. وقال علي بن أبي طلحة، ومجاهد، عن ابن عباس: الأواه: المؤمن ـ زاد علي بن أبي طلحة عنه: المؤمن التواب. وقال العوفي عنه: هو المؤمن بلسان الحبشة. وكذا قال ابن جُرَيج: هو المؤمن بلسان الحبشة.

وقال أحمد: حدثنا موسى، حدثنا ابن لَهيعة، عن الحارث بن يزيد، عن علي بن رَبَاح، عن عقبة بن عامر: أن رسول الله ـ ﷺ ـ قال لرجل يقال له «ذو البجادين»: «إنه أوّاه»، وذلك أنه رجل كثير الذكر لله في القرآن ويرفع صوته في الدعاء(٤). ورواه ابن جرير(٤).

وقال سعيد بن جُبَير، والشعبي: الأوّاهُ المسبِّحُ. وقال ابنُ وَهْبٍ، عن معاويةَ بن صالح، عن أبي الزاهرية، عن جُبَير بنُ نفير، عن أبي الدرداء ـ رضي الله عنه ـ قال: لا يحافظ على سُبْحَةِ الضُّحى إلا أوّاه.

وقال شُفَيّ بن ماتع، عن أبي أيوب: الأوّاهُ الذي إذا ذكر خطاياه استغفر منها.

وعن مجاهد: الأوّاه الحفيظُ الوَجِلُ، يُذْنِبُ الذنب سِرّاً، ثم يَتُوب منه سِرّاً.

ذكر ذلك كلّه ابن أبي حاتم، رحمه الله.

وقال ابن جرير: حدثنا ابن وَكِيع، حدثنا المُحَاربي، عن حَجّاج، عن الحكم، عن الحسن بن مسلم بن

---

(١) الذِّيخ: ذكر الضباع، وتلطخه بالرجيع أو الطين. والضِّبعان: ذكر الضباع، والأنثى: الضَّبعُ، ويقال للذكر أيضاً: ضَبُعٌ.
(٢) انظر تفسير الطبري، ١١/٤٧.
(٣) تفسير الطبري ١١/ ٥١.
(٤) مسند أحمد ٤/ ٥٩، وتفسير الطبري ١١/٥٠.

يَنَّاق: أن رجلاً كان يكثر ذكر الله ويسبّح، فذكر ذلك للنبي - ﷺ - فقال: إنه أواه[١].

وقال أيضاً: حدثنا أبو كُرَيب، حدثنا ابن يمان[٢]، حدثنا المنهال بن خليفة، عن حَجّاج بن أرطاة، عن عطاء، عن ابن عباس: أن النبي - ﷺ - دفن ميتاً، فقال: رَحِمك الله إن كنتَ لأواها ! - يعني تلّاءً للقرآن.

وقال شعبة، عن أبي يونس الباهلي قال: سمعت رجلاً بمكة - وكان أصله رومياً، وكان قاصّاً - يحدِّث عن أبي ذَرٍّ قال: كان رجل يطوف بالبيت الحرام ويقول في دعائه «أوّه! أوّه»، فذُكِر ذلك للنبي - ﷺ - فقال: إنه أوّاه. قال: فخرجتُ ذات ليلة، فإذا رسولُ الله - ﷺ - يدفن ذلك الرجلَ ليلاً ومعه المصباح.

هذا حديث غريب رواه ابن جرير وَمَشّاه[٣].

ورُوِي عن كعب الأحبار أنه قال[٤]: ﴿إن إبراهيم لأواه﴾، قال: كان إذا ذكر النار قال: «أوّه من النار».

وقال ابن جُرَيج، عن ابن عباس ﴿إن إبراهيم لأواه﴾، قال: فقيه.

قال الإمام العلم أبو جعفر بن جرير: وأولى الأقوال قول من قال: إنه الدّعَّاء وهو المناسب للسياق، وذلك أن الله تعالى لما ذكر أن إبراهيم إنما استغفرَ لأبيه عن موعدةٍ وعدها إياه، وقد كان إبراهيمُ كَثِير الدُّعاء حليماً عمن ظلمه وأناله مكروهاً، ولهذا استغفر لأبيه مع شِدَّةِ أذاه في قوله: ﴿أراغِبٌ أنتَ عن آلهتي يا إبراهيم، لئن لم تنته لأرجمنَّكَ واهجُرْني ملياً * قال: سلامٌ عليك سأستغفر لك ربي، إنه كان بي حفياً﴾، فَحَلم عنه مع أذاه له، ودَعَا له واستغفر، ولهذا قال تعالى: ﴿إن إبراهيم لأواه حليم﴾[٥].

﴿وَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيُضِلَّ قَوْمًۢا بَعْدَ إِذْ هَدَىٰهُمْ حَتَّىٰ يُبَيِّنَ لَهُم مَّا يَتَّقُونَ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمٌ ﴿١١٥﴾ إِنَّ ٱللَّهَ لَهُۥ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۖ يُحْىِۦ وَيُمِيتُ ۚ وَمَا لَكُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ مِن وَلِىٍّ وَلَا نَصِيرٍ ﴿١١٦﴾﴾

يقول تعالى مخبراً عن نفسه الكريمة وحكمه العادل: إنه لا يُضِلّ قوماً بعد بلاغ الرسالة إليهم، حتى يكونوا قد قامت عليهم الحجة، كما قال تعالى: ﴿وأما ثمود فهديناهم فاستحبُّوا العَمَى على الهدى﴾ الآية.

وقال مجاهد في قوله تعالى: ﴿وما كان الله لِيُضِلَّ قوماً بعد إذ هداهم حتى يبين لهم ما يتقون﴾، قال: بيان الله عز وجل [للمؤمنين][٦] في الاستغفار للمشركين خاصة، وفي بيانه طاعته ومعصيته عامة، فافعلوا أو ذَروا.

وقال ابن جرير: يقول الله تعالى: وما كان الله ليقضي عليكم في استغفاركم لموتاكم المشركين بالضلال بعد إذ رزقكم الهداية ووفقكم للإيمان به وبرسوله، حتى يتقدم إليكم بالنهي عنه فتتركوا، فأما قبل أن يبين لكم كراهيته ذلك بالنهي عنه، ثم تتعدوا نهيه إلى ما نهاكم عنه، فإنه لا يحكم عليكم بالضلال، فإن الطاعة

---

(١) تفسير الطبري ١١/ ٥٠.

(٢) في الأصل: ابن هانىء. والمثبت عن تفسير الطبري ١٠/ ٥٠. وابن يمان هو يحيى العجلي، وفي تهذيب التهذيب ١١/ ٣٠٦ أنه يروي عن المنهال بن خليفة، ويروي عنه أبو كريب.

(٣) تفسير الطبري ١١/ ٥٠.

(٤) في الأصل: «أنه قال: سمعت إن إبراهيم». انظر التفسير الطبري ١١/ ٥١.

(٥) تفسير الطبري ١١/ ٥١ - ٥٢.

(٦) عن تفسير الطبري ١١/ ٥٣.

والمعصية إنما يكونان من المأمور والمنهي، وأما من لم يُؤْمَر ولم يُنْه فغير كائن مطيعاً أو عاصياً فيما لم يؤمر به ولم ينه عنه(١).

وقولُه: ﴿إن الله له ملك السموات والأرض يحيي ويميت،وما لكم من دون الله من ولي ولا نصير﴾، قال ابن جرير: هذا تحريض من الله لعباده المؤمنين في قتال المشركين وملوك الكفر، وأن يثقوا بنصر الله مالك السموات والأرض، ولا يرهبوا من أعدائه، فإنه لا ولي لهم من دون الله، ولا نصير لهم سواه(٢).

وقال ابن أبي حاتم: حدثنا علي بن أبي دلامة البغدادي، حدثنا عبد الوهاب بن عطاء، حدثنا سعيد، عن قتادة، عن صفوان بن محرز، عن حكيم بن حزام قال: بينا رسول الله ـ ﷺ ـ بين أصحابه إذ قال لهم: هل تسمعون ما أسمع؟ قالوا: ما نسمع من شيء. فقال رسول الله ـ ﷺ ـ. إني لأسمع أطِيطَ(٣) السماء وما تلام أن تَئِطَّ، وما فيها من موضع شبر إلا وعليه ملك ساجد أو قائم.

وقال كعب الأحبار: ما من موضع خَرْمَةِ إبرةٍ من الأرض إلا وملك موكل بها، يرفع علم ذلك إلى الله، وإن ملائكة السماء لأكثر من عدد التراب، وإن حملة العرش ما بين كعب أحدهم إلى مُخّه مسيرة مائة عام.

﴿لَّقَد تَّابَ ٱللَّهُ عَلَى ٱلنَّبِيِّ وَٱلْمُهَـٰجِرِينَ وَٱلْأَنصَارِ ٱلَّذِينَ ٱتَّبَعُوهُ فِى سَاعَةِ ٱلْعُسْرَةِ مِنۢ بَعْدِ مَا كَادَ يَزِيغُ قُلُوبُ فَرِيقٍ مِّنْهُمْ ثُمَّ تَابَ عَلَيْهِمْ ۚ إِنَّهُۥ بِهِمْ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ ﴿١١٧﴾﴾

قال مجاهد وغير واحد: نزلت هذه الآية في غزوة تبوك، وذلك أنهم خَرَجُوا إليها في شدَّةٍ من الأمر في سنة مُجْدِبَةٍ، وحَرٍّ شديد، وعُسْرٍ من الزاد والماء.

قال قتادةُ: خَرَجوا إلى الشام عام تبوكَ في لَهَبان الحر، على ما يعلم الله من الجهد، أصابهم فيها جهد شديد، حتى لقد ذكر لنا أن الرجلين كانا يشقان التمرة بينهما، وكان النفر يتداولون التمرة بينهم، يمصها هذا ثم يشرب عليها، ثم يمصها هذا ثم يشرب عليها، فتاب الله عليهم وأقفلهم من غزوتهم.

وقال ابنُ جرير: حدثني يونس بن عبد الأعلى، أخبرنا ابن وهب، أخبرني عَمْرو بن الحارث، عن سعيد ابن أبي هلال، عن عُتْبَةَ بن أبي عُتْبَةَ، عن نافع بن جُبَير بن مُطعِم، عن عبد الله بن عباس: أنه قيل لعمر بن الخطاب في شأن العسرة، فقال عمر: خرجنا مع رسول الله ـ ﷺ ـ إلى تبوك في قيظ شديد، فنزلنا منزلاً، فأصابنا فيه عَطَش، حتى ظننا أن رقابنا ستنقطع، [(٤)حتى إن كان الرجل ليذهب يلتمسُ الماء، فلا يرجع حتى يظن أن رقبته ستنقطع(٤)]، حتى إن الرجل لينحر بعيره فيعصر فَرْثَه فيشربه، ويجعل ما بقي على كبده، فقال أبو بكر الصديق: يا رسول الله، إن الله عز وجل قد عَوّدك في الدعاء خيراً، فادع لنا. قال: تحب ذلك؟ قال: نعم! فرفع يديه فلم يرجعهما حتى مالت السماء فأظَلّت(٥) ثم سكبت، فَمَلأوا ما معهم، ثم ذهبنا ننظر فلم نجدها جاوزت العسكر(٦).

---

(١) تفسير الطبري ١١/ ٥٣.
(٢) تفسير الطبري ١١/ ٥٤.
(٣) أي: صوتها. وأصل الأطيط صوت الرحل.
(٤) عن تفسير الطبري.
(٥) في الأصل: فأهطلت. والمثبت عن تفسير الطبري. وأظلت: جاء السحابُ بالظِّلّ.
(٦) تفسير الطبري ١١/ ٥٥.

وقال ابن جرير في قوله: ﴿لقد تاب الله على النبي والمهاجرين والأنصار الذين اتبعوه في ساعة العسرة﴾، أي: من النفقة والظَّهر والزاد والماء، ﴿من بعد ما كاد تَزيغُ[1] قلوب فريق منهم﴾، أي: عن الحق ويشك في دين رسول الله ـ ﷺ ـ ويرتاب، بالذي نالهم من المشقة والشدة في سفره وغزوه، ﴿ثم تاب عليهم﴾، يقول: ثم رزقهم الإنابة إلى ربهم، والرجوع إلى الثبات على دينه، ﴿إنه بهم رءوف رحيم﴾.

﴿وَعَلَى ٱلثَّلَٰثَةِ ٱلَّذِينَ خُلِّفُواْ حَتَّىٰٓ إِذَا ضَاقَتۡ عَلَيۡهِمُ ٱلۡأَرۡضُ بِمَا رَحُبَتۡ وَضَاقَتۡ عَلَيۡهِمۡ أَنفُسُهُمۡ وَظَنُّوٓاْ أَن لَّا مَلۡجَأَ مِنَ ٱللَّهِ إِلَّآ إِلَيۡهِ ثُمَّ تَابَ عَلَيۡهِمۡ لِيَتُوبُوٓاْۚ إِنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلتَّوَّابُ ٱلرَّحِيمُ ﴿١١٨﴾ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَكُونُواْ مَعَ ٱلصَّٰدِقِينَ ﴿١١٩﴾﴾

قال الإمام أحمد: حدثنا يعقوبُ بن إبراهيم، حدثنا ابنُ أخي الزهريِّ محمد بن عبد الله، عن عمه محمد ابن مسلم الزهري، أخبرني عبد الرحمن بن عبد الله بن كعب بن مالك، أنّ عبد الله بن كعب بن مالك ـ وكان قائد كعب من بنيه حين عَمِي ـ قال: سمعت كعب بن مالك يحدّث حديثه حين تخلف عن رسول الله ـ ﷺ ـ في غزوة تبوك، فقال كعب بن مالك: لم أتخلَّف عن رسول الله ـ ﷺ ـ في غزاة غيرها قط إلا في غزوة تبوك، غير أني كنت تخلفت في غزاة بدر، ولم يعاتَب أحدٌ تخلف عنها، وإنما خرج رسول الله ـ ﷺ ـ يريد عير قريش، حتى جمع الله بينهم وبين عدوّهم على غير ميعاد، ولقد شهدتُ مع رسول الله ـ ﷺ ـ ليلة العقبة حين توافقنا على الإسلام، وما أحب أن لي بها مشهد بدر، وإن كانت بدر أذْكَرَ في الناس منها وأشهر. وكان من خَبَري حين تخلّفت عن رسول الله ـ ﷺ ـ في غزوة تبوك أَني لم أكُنْ قط أقْوَى ولا أيسَرَ مني حين تخلّفتُ عنه في تلك الغزاة، والله ما جمعتُ قبلها راحلتين قط حتى جمعتُهما في تلك الغزاة، وكان رسول الله ـ ﷺ ـ قَلَّما يريد غزوة يغزوها إلا وَرّى[2] بغيرها، حتى كانت تلك الغزوة فغزاها رسول الله ـ ﷺ ـ في حَرٍّ شديد، واستقبل سفراً بعيداً ومفازاً[3]، واستقبل عدواً كثيراً، فَجَلّى للمسلمين أمرهم ليتأهبوا أهبة عدوهم، فأخبرهم وَجْهَه الذي يريد، والمسلمون مع رسول الله ـ ﷺ ـ كثير، لا يجمعهم كتاب حافظ ـ يريد الديوان ـ فقال كعب: فَقَلَّ رجل يريد أن يتغيب إلا ظن أن ذلك سيخفى له ما لم ينزل فيه وحي من الله عز وجل.

وغزا رسول الله ـ ﷺ ـ تلك الغزاة حين طابت الثمار والظل، وأنا إليها أصعَرُ[4]. فتجهز إليها رسول الله ﷺ ـ والمؤمنون معه، وَطفِقْتُ أغدو لكي أتجهَّزَ معهم، فأرجع ولم أقْضِ من جهازي شيئاً، فأقول لنفسي: «أنا قادر على ذلك إذا أردت»، فلم يزل ذلك يتمادى بي حتى شمّر بالناس[5] الجِدّ، فأصبح رسول الله ـ ﷺ ـ غاديا والمسلمون معه، ولم أقض من جهازي شيئاً، وقلت: الجهاز بعد يوم أو يومين ثم ألحقه. فغدوت بعدما فصلوا لأتجهز، فرجعت ولم أقض شيئاً من جهازي. ثم غدوت فرجعت ولم أقض شيئاً، فلم يزل [ذلك][6] يتمادى بي حتى أسرعوا وتفارط الغزو، فهممت أن أرتحل فأدركهم ـ وليت أنّي فعلتُ ـ ثم لم يُقدَّر ذلك لي، فطفقت إذا خرجتُ في الناس بعد [خروج][6] رسول الله ـ ﷺ ـ [فَطُفت فيهم] يُحزِنُني ألا أرى إلا رجلاً

(١) كذا في الأصل: تزيغ. وهي قراءة ما عدا حمزة وحفصاً. انظر الإقناع ٦٥٩.
(٢) أي: أوهم أنه يريد غيرها.
(٣) أي: بَرِّيَّةً طويلةً قليلة الماء، يخاف فيها الهلاك.
(٤) أي: أميل.
(٥) في الأصل: حتى استمرَّ بالناس الجد. والمثبت عن المسند.
(٦) عن المسند.

مغموصاً[١] عليه في النفاق، أو رجلاً ممن عذره الله، عز وجل.

ولم يذكرني رسول الله ـ ﷺ ـ حتى بلغ تبوك، فقال وهو جالس في القوم بتبوك: ما فعل كعب بن مالك؟ قال رجل من بني سَلِمة: حَبَسه يا رسول الله بُرْداه، والنظر في عِطفيه[٢]. فقال له معاذ بن جبل: بئسما قلت! والله يا رسول الله ما علمنا عليه إلا خيراً! فسكت رسول الله ـ ﷺ ـ قال كعب بن مالك: فلما بلغني أن رسول الله ـ ﷺ ـ قد تَوجَّه قافلاً من تبوك حضرني بَثّي[٣]، فطفقت أتذكر الكَذِبَ، وأقول: بماذا أخرج من سَخَطِه غداً؟ أستعين على ذلك كُلَّ ذي رَأيٍ من أهلي. فلما قيل: إن رسول الله ـ ﷺ ـ قد أطلَّ قادماً، زاح عني الباطل، وعرفت أني لم أنج منه بشيء أبداً. فأجمعتُ صدقه.

وصَبَّح رسول الله ـ ﷺ ـ وكان إذا قدم من سفر بدأ بالمسجد فركع ركعتين، ثم جلس للناس. فلما فعل ذلك جاءه المتخلفون فَطَفِقُوا يعتذرون إليه ويحلفون له ـ وكانوا بضعة وثمانين رجلاً ـ فقبل منهم رسول الله ـ ﷺ ـ علانيتهم، ويستغفر لهم، ويكل سرائرهم إلى الله تعالى، حتى جئت، فلما سلَّمت عليه تبسَّم تبسُّم المغضب، ثم قال لي: تعالَ. فجئت أمشِي حتى جلستُ بين يديه، فقال لي: «ما خلَّفك؟ ألم تك قد اشتريت ظهرك؟ قال: فقلت: يا رسول الله، إني لو جلست عند غيرك من أهل الدنيا لرأيت أن أخرج من سَخَطه بعذر، لقد أُعطِيتُ جَدَلاً، ولكنه والله لقد علمتُ لئن حَدَّثتك اليوم حديثَ كَذِبٍ ترضى به عَنِّي ليوشِكَنَّ الله يُسْخطك عَلَيَّ، ولئن حدثتك بصدق تَجِدُ عَلَيَّ فيه إني لأرجو قربَ عقبى[٤] من الله تعالى، والله ما كان لي عذر، والله ما كنت قط أفرغَ ولا أيسرَ مني حين تخلفت عنك. قال: فقال رسول الله ـ ﷺ ـ: أمَّا هذا فقد صدق، فَقُم حتى يقضي الله فيك. فقمتُ وبادرني[٥] رجال من بني سلمة واتَّبعوني، فقالوا لي: والله ما علمناك كنت أذنبت ذنباً قبل هذا، ولقد عَجَزت ألاّ تكون اعتذرت إلى رسول الله ـ ﷺ ـ بما اعتذر به المتخلفون، فقد كان كافيك [من ذنبك][٦] استغفار رسول الله ـ ﷺ ـ قال: فوالله ما زالوا يُؤَنِّبوني حتى أردت أن أرجع فَأكذِّب نفسي. قال: ثم قلت لهم: هل لقي هذا معي أحد؟ قالوا: نعم، لقيه معك رجلان قالا ما قلتَ، وقيل لهما مِثلَ ما قيل لك. قلت: فمن هما؟ قالوا: مُرَارة بن الربيع العامري، وهلال بن أُمَيَّةَ الواقفي. فذكروا لي رجلين صالحين قد شهدا بدراً لي فيهما أسوةٌ. قال: فمضيت حين ذكروهما لي. قال: ونهى رسول الله ـ ﷺ ـ المسلمين عن كلامنا ـ أيها الثلاثة ـ من بين من تخلف عنه، فاجتنَبنا الناس وتغيَّروا لنا، حتى تنكرَتْ لي في نفسي الأرضُ، فما هي بالأرض التي كنت أعرف، فلبثنا على ذلك خمسين ليلةً. فأما صاحباي فاستكانا وقعدا في بيوتهما يبكيان، وأما أنا فكنت أَشَدَّ القوم وأجلدَهم، فكنت أشهد الصلاة مع المسلمين، وأطوفُ بالأسواق، فلا يكلمني أحد، وآتي رسول الله ـ ﷺ ـ وهو في مجلسه بعد الصلاة فأسلم، وأقول في نفسي: حَرَّك شفتيه بردِّ السلام عليَّ أم لا؟ ثم أصلّي قريباً منه، وأسارقه النظر، فإذا أقبلت على صلاتي نظر إليَّ فإذا التفت نحوه أعرَضَ.

حتى إذا طال على ذلك من هَجْرِ المسلمين مَشَيت حتى تَسوَّرتُ[٧] حائط أبي قتادة ـ وهو ابن عمي،

(١) أي: مطعوناً في دينه.

(٢) هو كناية عن عجبه بنفسه، واختياله بحسن لباسه.

(٣) أي: حزني.

(٤) كذا في الأصل، ولفظ المسند: إني لأرجو قرّة عيني عفواً من الله تبارك وتعالى. ولفظ البخاري ومسلم: «إني لأرجو فيه عفو الله».

(٥) لفظ المسند: «وبادرت رجال». ولفظ البخاري ومسلم: «فقمت وثار رجال».

(٦) عن المسند.

(٧) أي: علوته.

وأحبُّ الناس إليَّ ـ فسلمت عليه، فوالله ما ردَّ علي السلام، فقلت له: يا أبا قتادة، أنشُدُكَ الله: هل تعلم أني أحبُّ الله ورسوله؟ قال: فسكت. قال: فعدت فَنَشَدْتُه [فسكتَ، فعدتُ فَنَشَدتُه]، فقال: الله ورسوله أعلم. قال: ففاضت عيناي وتوليتُ حتى تَسوَّرتُ الجِدارَ.

فبينا أنا أمشي بسوق المدينة إذا نَبَطِيّ[(١)] من أنباط الشام، ممن قَدِم بطعام يبيعه بالمدينة يقول: من يدل على كعب بن مالك؟ قال: فَطَفِقَ الناسُ يشيرون له إليّ، حتى جاء فدفع إليّ كتاباً من مَلِك غسان، وكنتُ كاتباً، فإذا فيه: «أما بعد، فقد بلغنا أن صاحبك قد جفاك ولم يجعلك الله بدار هَوان ولا مَضْيَعَة، فالحَقْ بنا نُواسِكَ. قال: فقلت حين قرأتُها: وهذا أيضاً من البلاء. قال: فتيمَّمْتُ به التَّنور فَسَجرتُه[(٢)].

حتى إذا مضت أربعون ليلة من الخمسين، إذا برسول رسولِ الله ـ ﷺ ـ يأتيني، فقال: إن رسول الله ـ ﷺ ـ يأمرك أن تعتزل امرأتك. قال فقلت: أطلقها أم ماذا أفعل؟ قال: بل اعتزلها ولا تقربها. قال: وأرسل إلى صاحبيّ بمثل ذلك. قال فقلت لامرأتي: الحقي بأهلك، فكوني عندهم حتى يقضي الله في هذا الأمر. قال: فجاءت امرأة هلال بن أمية رسول الله ـ ﷺ ـ فقالت له: يا رسول الله، إن هلالاً شيخ ضائع ليس له خادم، فهل تكره أن أخدمه؟ قال: لا، ولكن لا يقربَنَّك. قالت: وإنه والله ما به حَرَكَةٌ إلى شيء، والله ما يزال يبكي من لَدُن أن كان من أَمْرِكَ ما كانَ إلى يَوْمِه هذا. قال: فقال لي بعض أهلي: لو استأذنت رسول الله ـ ﷺ ـ في امرأتك، فقد أذن لامرأة هلال بن أمية أن تَخدُمه. قال: فقلت: والله لا أستأذن فيها رسول الله ـ ﷺ ـ وما أدري ما يقول رسول الله ـ ﷺ ـ إذا استأذنته وأنا رجل شاب؟

قال: فلبثنا[(٣)] بعد ذلك] عشر ليال، فكمُل لنا خمسون ليلة من حين نهى عن كلامنا، قال: ثم صليتُ صلاةَ الفجرِ صباح خمسين ليلة على ظهر بيت من بيوتنا، فبينما أنا جالس على الحال التي ذكر الله تعالى منا: قد ضاقت علي نفسي، وضاقت عَلَيَّ الأرض بما رَحُبت، سمعت صارخاً أوفى على جَبَلِ سَلْعٍ يقول بأعلى صوته: يا كعب بن مالك، أبشر. قال: فخررت ساجداً، وعرفت أن قد جاء فرج، فآذن رسول الله ـ ﷺ ـ بتوبة الله علينا حين صَلَّى الفجر، فذهب الناس يبشروننا، وذهب قِبَل صاحِبَيَّ مبشرون، وركَض إليَّ رَجُلٌ فرساً، وسعى ساعٍ من أسلَمَ وأوفى على جَبَلٍ، فكان الصوت أسرعَ من الفَرَس. فلما جاءني الذي سمعتُ صوته يبشرني، فنزعت ثوبي، فكسوتهما إياه ببشارته، والله ما أملِكُ غيرهما يومئذٍ، واستعرتُ ثوبين فلبستهما، وانطلقت أؤم رسول الله ـ ﷺ ـ يلقاني الناس فوجاً فوجاً يُهنِّئوني بالتوبة، يقولون: «لِيَهْنِكَ[(٤)] توبة الله عليك». حتى دخلت المسجد، فإذا رسول الله ـ ﷺ ـ جالس في المسجد حوله الناس، فقام إليَّ طلحة بن عبيد الله يُهرول، حتى صافحني وهَنَّأني، والله ما قام إلي رجل من المهاجرين غيره، قال: فكان كعب لا ينساها لطلحة.

قال كعب: فلما سلمتُ على رسول الله ـ ﷺ ـ قال: وهو يَبْرُق وجهه من السرور: «أبشر بخير يوم مَرَّ عليكَ منذُ وَلَدَتْكَ أُمُك. قال قلت: أمن عندك يا رسولَ الله أم من عند الله ؟ قال: لا، بل من عند الله. قال: وكان رسول الله ـ ﷺ ـ إذا سُرَّ استنار وجهُه حتى كأنه قطعة قَمَر، حتى يُعرَفَ ذلك منه. فلما جلست بين يديه قلت: يا رسول الله، إن من توبتي أن أنخلع من مالي صدقةً إلى الله وإلى رسوله. قال: أمسك عليك بعض

(١) أي: فَلَاح.
(٢) أي: أوقدته بالصحيفة.
(٣) عن المسند.
(٤) أصل: لَيهنك: ليهنئك، وكذلك ورد لفظ مسلم، وقد يجوز تسهيل الهمزة فيقال: لِيَهْنِيك. فأما حذف الياء بعد التسهيل فهي دون اللغتين السابقتين، حتى عدّها بعض اللغويين من قول العامة. يقال: هناه بالأمر والولاية هِنْئاً، وهَنَّأه تهنئة: إذا قال له: ليهنئك.

مالك، فهو خير لك. قال فقلت: فإني أُمسِكُ سهمي الذي بخيبر. وقلت: يا رسول الله، إنما نجاني الله بالصدق، وإن من توبتي ألَّا أُحَدِّث إلا صدقاً ما بقيت. قال: فوالله ما أعلمُ أحداً من المسلمين أبلاه(١) الله من الصدق في الحديث منذ ذكرت ذلك لرسول الله ـ ﷺ ـ أحسن مما أبلاني الله تعالى، والله ما تَعَمَّدتُ كَذْبَةً منذ قلت ذلك لرسول الله ـ ﷺ ـ إلى يومي هذا، وإني لأرجو أن يحفظَني الله فيما بقي. قال: وأنزل الله تعالى: ﴿لقد تاب الله على النبي والمهاجرين والأنصار الذين اتبعوه في ساعة العسرة من بعد ما كاد تَزِيغُ قلوبُ فريقٍ منهم، ثم تاب عليهم إنه بهم رءُوف رحيم * وعلى الثلاثة الذين خُلِّفوا حتى إذا ضاقت عليهم الأرض بما رحبت وضاقت عليهم أنفسهم وظنوا أن لا ملجأ من الله إلا إليه، ثم تاب عليهم ليتوبوا، إن الله هو التواب الرحيم * يا أيها الذين آمنوا اتقوا الله وكونوا مع الصادقين﴾. قال كعب: فوالله ما أنعم الله عليَّ من نعمة قطُّ بعد أن هداني للإسلام أعظمَ في نفسي من صدقي رسولَ الله ـ ﷺ ـ يومئذ ألَّا أكون كَذَبتُه، فأهلك كما هلك الذين كَذَبوه [حين كَذَبُوه](٢)؛ فإن الله تعالى قال للذين كَذَبوه(٢) حين أنزل الوحي شر ما قال لأحد، فقال الله ـ سبحانه وتعالى ـ: ﴿سيحلفون بالله لكم إذا انقلبتم إليهم لتعرضوا عنهم، فأعرضوا عنهم، إنهم رجس ومأواهم جهنم، جزاء بما يكسبون * يحلِفُون لكم لترضَوا عنهم فإن تَرْضَوا عنهم فإن الله لا يرضَى عن القوم الفاسقين﴾. قال: وكنا خُلِّفنا ـ أيها الثلاثة ـ عن أمر أولئك الذين قَبِلَ منهم رسول الله ـ ﷺ ـ حين حَلَفوا، فبايعهم واستغفر لهم، وأرجأ رسولُ الله أمرَنا، حَتَّى قضى الله فيه، فبذلك قال الله تعالى: ﴿وعلى الثلاثة الذين خلفوا﴾، وليس تخليفُه إيانا وإرجاؤه أمرنا الذي ذَكر مما خُلِّفنا بتخلفنا عن الغزو، وإنما هو عمَّن حَلَف له واعتذر إليه، فقبل منه(٣).

هذا حديثٌ صحيحٌ ثابتٌ متفقٌ على صحَّتِه، رواه صاحبا الصحيح البخاريُّ ومسلمٌ من حديث الزُّهرِيِّ، بنحوه(٣).

فقد تضمن هذا الحديث تفسير هذه الآية الكريمة بأحسن الوجوه وأبسطها. وكذا رُوِي عن غير واحد من السلف في تفسيرها، كما رواه الأعمش، عن أبي سفيان، عن جابر بن عبد الله في قوله تعالى: ﴿وعلى الثلاثة الذين خلفوا﴾، قال: هم كعب بن مالك، وهلال بن أمية، ومُرارة بن ربيعة وكلهم من الأنصار(٤).

وكذا قال مجاهد، والضحاك، وقتادة، والسدي وغير واحد، وكلهم قال: مُرارة بن ربيعة.

[(٥وفي رواية عن سعيد بن جبير: ربيع بن مرارة. وقال الحسن البصري: ربيع بن مرارة، أو: مرارة بن ربيع٥)].

وفي رواية عن الضحاك: مُرارة بن الربيع، كما وقع في الصحيحين، وهو الصواب(٦).

وقوله: «فسمّوا رجلين شهدا بدراً»، قيل: إنه خطأ من الزهري، فإنه لا يُعْرَف شُهودُ واحد من هؤلاء الثلاثة بدراً، والله أعلم.

ولما ذكر تعالى ما فَرَّج به عن هؤلاء الثلاثة من الضيق والكرب، من هجر المسلمين إياهم نحواً من

(١) أي: أنعم عليه.
(٢) عن المسند.
(٣) المسند ٣/ ٤٥٦ ـ ٤٥٩، وفتح الباري، كتاب المغازي ٨/ ١١٣ ـ ١١٦، ومسلم، كتاب التوبة ٢١٢٠ ـ ٢١٢٨.
(٤) تفسير الطبري ١١/ ٥٦ ـ ٥٧.
(٥) سقط من الأصل، ومكانه فيه: «وكذا في مسلم: بن ربيعة، في بعض نسخه، وفي بعضها: مرارة بن الربيع». وكأنه مضروب عليه.
(٦) تفسير الطبري ١١/ ٥٧.

خمسين ليلة بأيامها، ﴿وضاقت عليهم أنفسهم﴾، ﴿وضاقت عليهم الأرضُ بما رَحُبتْ﴾، أي: مع سعتها، فسُدِّدت عليهم المسالكُ والمذاهبُ، فلا يهتدون ما يصنعون، فَصَبَروا لأمر الله، واستكانوا لأمر الله، وثبتوا حتى فَرَّج الله عنهم بسبب صِدْقهم رسولَ الله ـ ﷺ ـ في تَخلُّفهم، وأنه كان عن غير عذر، فَعُوقبُوا على ذلك هذه المدة، ثم تاب الله عليهم، فكان عاقبة صدقهم خيراً لهم وتوبة عليهم، ولهذا قال: ﴿يا أيها الذين آمنوا، اتقوا الله وكونوا مع الصادقين﴾، أي: اصدقُوا والزمُوا الصدق تكونوا مع أهله، وتنجوا من المهالك، ويَجْعَلْ لكم فرجاً من أموركم، ومخرجاً، وقد قال الإمام أحمد:

حدثنا أبو معاوية، حدثنا الأعمش، عن شقيق؛ عن عبد الله ـ هو ابن مسعود ـ رضي الله عنه ـ قال: قال رسول الله ـ ﷺ ـ: «عليكم بالصدق، فإن الصدق يهدي إلى البرِّ وإن البر يهدي إلى الجنة، وما يزال الرجلِ يصدُق ويتحرَّى الصدقَ حتى يُكتَبَ عند الله صدِّيقاً، وإياكم والكذبَ فإنَّ الكذبَ يَهْدِي إلى الفُجُور، وإن الفجورَ يهدي إلى النار، وما يزال الرجل يكذِب ويتحرَّى الكَذِبَ، حتى يُكتَبَ عند الله كذاباً»[١]. أخرجاه في الصحيحين[١].

وقال شعبة، عن عمرو بن مُرَّة، سمع أبا عَبيدَة يُحدِّث عن عبد الله بن مسعود ـ رضي الله عنه ـ أنه قال: الكَذبُ لا يصلُح منه جِدٌّ ولا هَزْلٌ، اقرءُوا إن شئتم: ﴿يا أيها الذين آمنوا اتقوا الله وكونوا مِنَ الصادقين﴾ ـ هكذا قرأها[٢] ـ ثم قال: فهل تجدون لأحد فيه رخصة؟[٣]

وعن عبد الله بن عُمَر: ﴿اتقوا الله وكونوا مع الصادقين﴾: مع محمد ـ ﷺ ـ وأصحابه. وقال الضحاك: مع أبي بكر وعمر وأصحابهما. وقال الحسن البصري: إن أردت أن تكون مع الصادقين فعليك بالزهد في الدنيا، والكَفِّ عن أهل الملَّة.

﴿مَا كَانَ لِأَهْلِ ٱلْمَدِينَةِ وَمَنْ حَوْلَهُم مِّنَ ٱلْأَعْرَابِ أَن يَتَخَلَّفُوا۟ عَن رَّسُولِ ٱللَّهِ وَلَا يَرْغَبُوا۟ بِأَنفُسِهِمْ عَن نَّفْسِهِۦ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ لَا يُصِيبُهُمْ ظَمَأٌ وَلَا نَصَبٌ وَلَا مَخْمَصَةٌ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ وَلَا يَطَـُٔونَ مَوْطِئًا يَغِيظُ ٱلْكُفَّارَ وَلَا يَنَالُونَ مِنْ عَدُوٍّ نَّيْلًا إِلَّا كُتِبَ لَهُم بِهِۦ عَمَلٌ صَٰلِحٌ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُضِيعُ أَجْرَ ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿١٢٠﴾﴾

يعاتب الله تعالى المتخلِّفينَ عن رسول الله ـ ﷺ ـ في غزوة تَبُوكَ، من أهل المدينة ومن حولها من أحياء العرب، ورغبتهم بأنفسهم عن مواساته فيما حصل من المشقة، فإنّهم نَقَصُوا أنفسهم من الأجر، لأنَّهم ﴿لا يُصيبهم ظمأ﴾ ـ وهو: العطش ـ ﴿ولا نَصَبٌ﴾ ـ وهو: التعب ـ ﴿ولا مخمصة﴾ ـ وهي: المجاعة ـ ﴿ولا يَطَئُون موطئاً يغيظ الكفار﴾ ـ أي: ينزلون مَنْزِلاً يُرهِبُ عدوهم ـ ﴿ولا ينالون﴾ منه ظفراً وغلبة عليه إلا كتب الله لهم بهذه الأعمال التي ليست داخلة تحت قُدَرهم، وإنما هي ناشئةٌ عن أفعالهم، أعمالاً صالحة وثواباً جزيلاً، ﴿إن الله لا يضيع أجر المحسنين﴾، كما قال تعالى: ﴿إنا لا نضيع أجر من أحسن عملاً﴾.

﴿وَلَا يُنفِقُونَ نَفَقَةً صَغِيرَةً وَلَا كَبِيرَةً وَلَا يَقْطَعُونَ وَادِيًا إِلَّا كُتِبَ لَهُمْ لِيَجْزِيَهُمُ ٱللَّهُ أَحْسَنَ مَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴿١٢١﴾﴾

(١) مسند الإمام أحمد ١/ ٣٨٤، وفتح الباري، كتاب الأدب ١٠/ ٥٠٧، ومسلم، كتاب البرّ ٢٠١٢.
(٢) أي: من الصادقين.
(٣) تفسير الطبري ١١/ ٦٣.

يقول تعالى: ولا ينفق هؤلاء الغزاة في سبيل الله ﴿نفقة صغيرة ولا كبيرة﴾ ـ أي: قليلاً ولا كثيراً ـ ﴿ولا يقطعون وادياً﴾ ـ أي: في السير إلى الأعداء ـ ﴿إلا كُتِبَ لهم﴾ ـ ولم يقل ها هنا «به» لأن هذه أفعال صادرة عنهم، ولهذا قال: ﴿ليجزيهم الله أحسن ما كانوا يعملون﴾.

وقد حصل لأمير المؤمنين عثمان بن عفان ـ رضي الله عنه ـ من هذه الآية الكريمة حظ وافر، ونصيب عظيم، وذلك أنه أنفق في هذه الغزوة النفقات الجليلة، والأموال الجزيلة، كما قال عبد الله ابن الإمام أحمد:

حدثنا أبو موسى العَنَزي، حدثنا عبد الصمد بن عبد الوارث، حدثني سَكَن بن المغيرة، حدثني الوليد بن أبي هِشَام(١)، عن فَرقدٍ أبي طلحة، عن عبد الرحمن بن خَبَّاب السلمي قال: خَطَبَ رسولُ الله ـ ﷺ ـ فحثَّ على جيش العسرة، فقال عثمان بن عفان ـ رضي الله عنه ـ: عليَّ مائةُ بعيرٍ بأحلاسِها وأقتابها(٢). قال: ثم حث، فقال عثمان: على مائة أخرى بأحلاسها وأقتابها. قال: ثم نزل مرْقاة من المنبر ثم حَثَّ، فقال عثمان بن عفان: عليَّ مائة أخرى بأحلاسها وأقتابها. قال: فرأيت رسول الله ـ ﷺ ـ يقول بيده هكذا ـ يحركها. وأخرج عبد الصمد يده كالمتعجب، ما على عثمان ما عمل بعد هذا(٣).

وقال عبد الله أيضاً: حدثنا هارون بن معروف، حدثنا ضمرة، حدثنا عبد الله بن شَوْذب، عن عبد الله بن القاسم، عن كثير مولى عبد الرحمن بن سَمُرة، عن عبد الرحمن بن سمرة قال: جاء عثمان، إلى النبي ـ ﷺ ـ بألف دينار في ثوبه حين جَهَّز النبي ـ ﷺ ـ جيش العُسرة ـ قال: فَصَبَّها في حِجْر النبي ـ ﷺ ـ فجعل النبي ـ ﷺ ـ يقلبها بيده ويقول: ما ضَرَّ ابن عفانَ ما عَمِلَ بعد اليوم. يُرَدِّدها مِرَاراً(٤).

وقال قتادة في قوله تعالى: ﴿ولا يقطعون وادياً إلا كتب لهم﴾... الآية: ما ازداد قومٌ من أهليهم في سبيلِ الله بُعداً إلا ازدادوا من الله قُرباً.

﴿۞ وَمَا كَانَ ٱلْمُؤْمِنُونَ لِيَنفِرُوا۟ كَآفَّةً ۚ فَلَوْلَا نَفَرَ مِن كُلِّ فِرْقَةٍ مِّنْهُمْ طَآئِفَةٌ لِّيَتَفَقَّهُوا۟ فِى ٱلدِّينِ وَلِيُنذِرُوا۟ قَوْمَهُمْ إِذَا رَجَعُوٓا۟ إِلَيْهِمْ لَعَلَّهُمْ يَحْذَرُونَ ﴿١٢٢﴾﴾

هذا بيان من الله تعالى لما أراد من نَفير الأحياء مع الرسول في غزوة تبوك، فإنه قد ذهب طائفة من السلف إلى أنه كان يجب النفير على كل مسلم إذا خرج رسول الله ـ ﷺ ـ ولهذا قال تعالى: ﴿انفروا خفافاً وثقالاً﴾، وقال: ﴿ما كان لأهل المدينة ومن حولهم من الأعراب أن يتخلفوا عن رسول الله﴾، قالوا: فنسخ ذلك بهذه الآية.

وقد يقال: إن هذا بيان لمراده تعالى من نفير الأحياء كلها، أو شرذمة من كل قبيلة إن لم يخرجوا كلهم، ليتفقه الخارجون مع الرسول ـ عليه السلام ـ بما يَنزل من الوحي عليه، وينذروا قومهم إذا رجعوا إليهم بما كان من أمر العدو، فيجتمع لهم الأمران في هذا: النفير المعين، وبعده ـ صلوات الله وسلامه عليه ـ تكون الطائفة النافرة من الحيّ إما للتفقه وإما للجهاد؛ فإنه فرض كفاية على الأحياء.

---

(١) في الأصل: «بن أبي هاشم». وهو خطأ، انظر تهذيب التهذيب ١١/ ١٥٦.
(٢) الأحلاس: جمع حِلْس، وهو الكساء الذي يلي ظهر البعير تحت القَتَب، والقَتَب للبعير بمثابة البرذعة للحمار.
(٣) المسند ٤/ ٧٥.
(٤) المسند ٥/ ٦٢.

وقال علي بن أبي طلحة، عن ابن عباس: ﴿وما كان المؤمنون لينفروا كافة﴾، يقول: ما كان المؤمنون لينفروا جميعاً ويتركوا النبي - ﷺ - وحده، ﴿فلولا نفر من كل فرقة منهم طائفة﴾، يعني: عُصبةً، يعني السرايا، ولا يَتَسرَّوا[١] إلا بإذنه، فإذا رجعت السرايا وقد نزل بعدهم قرآن تعلمه القاعدون من النبي - ﷺ - قالوا: «إن الله قد أنزل على نبيكم قرآناً، وقد تعلمناه». فتمكث السرايا يتعلمون ما أنزل الله على نبيهم بعدهم، ويبعث سرايا أخرى، فذلك قوله: ﴿ليتفقهوا في الدين﴾، يقول: ليتعلموا ما أنزل الله على نبيهم، وليعلموا السرايا إذا رجعت إليهم ﴿لعلهم يحذرون﴾.

وقال مجاهدٌ: نَزلَتْ هذه الآيةُ في أُناسٍ من أصحاب محمد - ﷺ - خَرَجُوا في البوادي، فأصابوا من الناس معروفاً، ومن الخِصْب ما ينتفعُونَ به، وَدَعوا مَن وجدوا من الناس إلى الهدى، فقال الناس لهم: ما نراكم إلا وقد تركتم أصحابكم وجئتمونا. فوجدوا في أنفسهم من ذلك تحرجاً، وأقبلوا من البادية كلهم حتى دخلوا على النبي - ﷺ - فقال الله عز وجل: ﴿فلولا نفر من كل فرقة منهم طائفة﴾ يبتغُونَ الخير، ﴿ليتفقهوا﴾ وليستمعوا ما في الناس، وما أنزل الله بعدهم، ﴿ولينذروا قومهم﴾، الناس كلهم، ﴿إذا رجعوا إليهم لعلهم يحذرون﴾.

وقال قتادة في هذه الآية: هذا إذا بعثَ رسولُ الله - ﷺ - الجيوش، أمرهم الله ألاّ يُعَرُّوا[٢] نبيَّه - ﷺ - وتقيم طائفة مع رسول الله تَتَفقه في الدِين، وتنطلق طائفةٌ تدعو قومها، وتُحذِّرهم وقائع الله فيمن خلا قبلهم.

وقال الضحاك: كان رسولُ الله - ﷺ - إذا غزا بنفسه لم يحلّ لأحد من المسلمين أن يتخلف عنه، إلا أهل العذر. وكان إذا أقام فاسترت[٣] السرايا لم يَحِلّ لهم أن ينطلقوا إلا بإذنه، فكان الرجل إذا استرى فنزل بعده قرآن تلاه رسول الله - ﷺ - على أصحابه القاعدين معه، فإذا رجعت السرية قال لهم الذين أقاموا مع رسول الله - ﷺ -: «إن الله أنزل بعدكم على نبيه قرآناً». فَيُقرِئُونهم ويفقهونهم في الدين، وهو قوله: ﴿وما كان المؤمنون لينفروا كافة﴾، يقول: إذا أقام رسول الله ﴿فلولا نفر من كل فرقة منهم طائفة﴾، يعني بذلك: أنه لا ينبغي للمسلمين أن ينفروا جميعاً ونبي الله - ﷺ - قاعد، ولكن إذا قعد نبي الله تسرَّت[٤] السرايا، وقعد معه عُظْم الناس.[٥]

وقال ابن أبي طلحة أيضاً، عن ابن عباس قوله: ﴿وما كان المؤمنون لينفروا كافة﴾، فإنها ليست في الجهاد، ولكن لما دعا رسول الله - ﷺ - على مُضَرَ بالسنينَ أجدبتْ بلادهم، وكانت القبيلة منهم تُقبِل بأسرها حتى يَحِلُّوا بالمدينة من الجهد، ويعتلُّوا بالإسلام وهم كاذبون. فضيقوا على أصحاب النبي - ﷺ - وأجهدوهم. فأنزل الله يخبر رسوله أنهم ليسوا مؤمنين، فردهم رسول الله إلى عشائرهم، وحذّر قومهم أن يفعلوا فعلهم، فذلك قوله: ﴿ولينذروا قومهم إذا رجعوا إليهم لعلهم يحذرون﴾.

وقال العوفي، عن ابن عباس في هذه الآية: «كان ينطلقُ من كلِّ حيٍّ من العرب عصابةٌ، فيأتون النبي - ﷺ - فيسألونه عما يُريدُونَ من أمر دينهم، ويتفقهون في دينهم، ويقولون لنبي الله: ما تأمرنا أن نفعله؟

(١) في الأصل: ولا يسيروا. والمثبت عن تفسير الطبري١١/ ٦٧.
(٢) في الأصل: وأن يغزوا. والمثبت عن تفسير الطبري١١/ ٦٨.
(٣) أي: أسرت، يقال: استرى وأسرى.
(٤) في الأصل: فسرت. والمثبت عن الطبري، وتسرّت السرايا: خرجت.
(٥) في الأصل: ويقبلوا. والمثبت عن الطبري١١/ ٦٨.

وأخبرنا [ما(١) نقول] لعشائرنا إذا انطلقنا إليهم قال: فيأمرهم نبي الله بطاعة الله وطاعة رسوله، ويبعثهم إلى قومهم بالصلاة والزكاة. وكانوا إذا أتوا قومهم نادوا: إن من أسلم فهو منا»، وينذرونهم، حتى إن الرجل ليفارق أباه وأمه، وكان رسول الله ـ ﷺ ـ يخبرهم وينذرهم قومهم، فإذا رجعوا إليهم يدعونهم إلى الإسلام، وينذرونهم النار، ويبشرونهم بالجنة.

وقال عكرمةَ: لما نزلت هذه الآيةُ: ﴿ إلا تنفروا يُعَذبكم عذاباً أليماً﴾، ﴿وما كان لأهل المدينة ومن حولهم من الأعراب أن يتخلفوا﴾، قال المنافقون: هلك أصحاب البدو الذين تخلفوا عن محمد ولم ينفروا معه. وقد كان ناس من أصحاب النبي ـ ﷺ ـ خرجوا إلى البدو إلى قومهم يفقهونهم، فأنزل الله عز وجل: ﴿وما كان المؤمنون لينفروا كافة فلولا نفر من كل فرقة منهم طائفة﴾... الآية، ونزلت: ﴿والذين يحاجون في الله من بعد ما استجيب له﴾ الآية(٢).

وقال الحَسنُ البَصْرِيُّ: ﴿فلولا نفر من كل فرقة منهم طائفة ليتفقهوا في الدين﴾، قال: لِيَتَفَقَّهَ الذين خرجوا بما يُريهم(٣) الله من الظهور على المشركين والنصرة، وينذروا قومهم إذا رجعوا إليهم.

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ قَٰتِلُواْ ٱلَّذِينَ يَلُونَكُم مِّنَ ٱلۡكُفَّارِ وَلۡيَجِدُواْ فِيكُمۡ غِلۡظَةٗۚ وَٱعۡلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ مَعَ ٱلۡمُتَّقِينَ ١٢٣﴾

أمر تعالى المؤمنين أن يقاتلوا الكفار أولاً فأولاً، الأقرب فالأقرب إلى حوزة الإسلام، ولهذا بدأ رسول الله ـ ﷺ ـ بقتال المشركين في جزيرة العرب، فلما فَرَغَ منهم وفتح الله عليه مكة، والمدينة، والطائف، واليمن واليمامة، وهجر، وخيبر، وحضرموت، وغير ذلك من أقاليم جَزيرةِ العرب، ودخل الناس من سائر أحياء العرب في دين الله أفواجاً، شرع في قتال أهل الكتاب، فتجهَّز لغزو الروم الذين هم أقرب الناس إلى جزيرة العرب، وأولى الناس بالدعوة إلى الإسلام لكونهم أهل الكتاب، فبلغ تبوك ثم رجع لأجل جهْد الناس وجَدْب البلاد وضيق الحال، وكان ذلك سنة تسع من هجرته عليه السلام.

ثم اشتغل في السنة العاشرة بحجته حَجّة الوداع. ثم عاجلته المنية ـ صلوات الله وسلامه عليه ـ بعد الحجة بأحد وثمانين يوماً، فاختاره الله لما عنده.

وقال بالأمر بعده وزيرُه وصديقهُ وخليفتُه أبو بكر ـ رضي الله عنه ـ وقد مال الدينُ ميلة كاد أن يَنْجَفِلَ(٤)، فثبته الله تعالى به فوطد القواعد، وثبت الدعائم، ورد شارد الدين وهو راغم. ورد أهل الردة إلى الإسلام، وأخذ الزكاة ممن منعها من الطَّغَام(٥)، وبين الحق لمن جهله، وأدّى عن الرسول ما حمله. ثم شرع في تجهيز الجيوش الإسلامية إلى الروم عَبَدَةِ الصلبَان، وإلى الفرس عبدة النيران، ففتح الله ببركة سفارته البلاد، وأرغم أنفس كسرى وقيصر ومن أطاعهما من العباد. وأنفق كنوزهما في سبيل الله، كما أخبر بذلك رسول الله.

وكان تمامُ الأمر على يَدَي وصيّه من بعده، وَوَلِيِّ عهدِه الفاروقِ الأوّاب، شهيد المحراب، أبي حفص عمر بن الخطاب، فأرغم الله به أنوف الكفرة الملحدين، وقمع الطغاة والمنافقين، واستولى على الممالك

(١) عن تفسير الطبري ١١/٦٨.
(٢) تفسير الطبري ١١/٦٩.
(٣) في الأصل: بما يردهم. والمثبت عن الطبري ١١/ ٧٠، وتفسير البَغَويُّ ٢/٢٣٩.
(٤) أي: يذهب.
(٥) هم أوغاد الناس.

شرقاً وغرباً. وحُمِلت إليه خزائنُ الأموالِ من سائرِ الأقاليمِ بعداً وقُرْباً. فَفَرَّقها على الوجه الشرعيِّ، والسبيل المرضيِّ.

ثم لما مات شهيداً وقد عاش حميداً، أجمع الصحابة من المهاجرين والأنصار على خلافة أمير المؤمنين عثمان بن عفان شهيد الدار. فَكَسِيَ الإسلامُ [بحَالَةِ (١)] رياسته حُلَّةً سابغةً، وأُمِدَّتْ في سائر الأقاليم على رقاب العباد حُجَّةُ الله البالغة، وظهر الإسلام في مشارق الأرض ومغاربها، وعلت كلمة الله وظهر دينه. وبلغت الأمة الحنيفية من أعداء الله غاية مآربها، فكلما عَلَوا أمة انتقلوا إلى من بعدهم، ثم الذين يلونهم من العتاة الفجار، امتثالاً لقوله تعالى: ﴿يا أيها الذين آمنوا قاتلوا الذين يلونكم من الكفار﴾، وقوله تعالى: ﴿وليجدوا فيكم غلظة﴾، أي: وليجد الكفار منكم غلظة عليهم في قتالكم لهم، فإن المؤمن الكامل هو الذي يكون رفيقاً لأخيه المؤمن، غليظاً على عدوه الكافر، كما قال تعالى: ﴿فسوف يأتي الله بقوم يحبهم ويحبونه، أذلّة على المؤمنين، أعزّة على الكافرين﴾، وقال تعالى: ﴿محمد رسول الله والذين معه أشداء على الكفار رحماء بينهم﴾ وقال تعالى: ﴿يا أيها النبي جاهد الكفار والمنافقين واغلظ عليهم﴾. وفي الحديث أن رسول الله ـ ﷺ ـ قال: «أنا الضحوك القتال»، يعني: أنه ضحوك في وجه وليه، قتال لهامة عدوه.

وقوله: ﴿واعلموا أن الله مع المتقين﴾، أي: قاتلوا الكفار، وتوكلوا على الله، واعلموا أن الله معكم إن اتقيتموه وأطعتموه.

وهكذا الأمر لما كانت القرون الثلاثة، الذين هم خير هذه الأمة، في غاية الاستقامة، والقيام بطاعة الله تعالى، لم يزالوا ظاهرين على عدوهم، ولم تزل الفتوحات كثيرة، ولم تزل الأعداء في سَفال وخسار. ثم لما وقعت الفتن والأهواء والاختلافات بين الملوك، طمع الأعداء في أطراف البلاد، وتقدموا إليها، فلم يمانعوا لشغل الملوك بعضهم ببعض، ثم تقدموا إلى حوزة الإسلام، فأخذوا من الأطراف بلداناً كثيرة، ثم لم يزالوا حتى استحوذوا على كثير من بلاد الإسلام، ولله سبحانه الأمر من قبل ومن بعد. فكلما قام ملك من ملوك الإسلام، وأطاع أوامر الله، وتوكل على الله، فتح الله عليه من البلاد، واسترجع من الأعداء بحسبه، وبقدر ما فيه من ولاية الله. والله المسئول المأمول أن يمكن المسلمين من نواصي أعدائه الكافرين، وأن يعلي كلمتهم في سائر الأقاليم، إنه جواد كريم.

﴿وَإِذَا مَآ أُنزِلَتْ سُورَةٌ فَمِنْهُم مَّن يَقُولُ أَيُّكُمْ زَادَتْهُ هَٰذِهِۦٓ إِيمَٰنًا ۚ فَأَمَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ فَزَادَتْهُمْ إِيمَٰنًا وَهُمْ يَسْتَبْشِرُونَ ﴿١٢٤﴾ وَأَمَّا ٱلَّذِينَ فِى قُلُوبِهِم مَّرَضٌ فَزَادَتْهُمْ رِجْسًا إِلَىٰ رِجْسِهِمْ وَمَاتُوا۟ وَهُمْ كَٰفِرُونَ ﴿١٢٥﴾﴾

يقول تعالى: ﴿وإذا ما أنزلت سورة﴾ فمن المنافقين ﴿من يقول: أيكم زادته هذه إيماناً﴾؟ أي: يقول بعضهم لبعض أيكم زادته هذه السورة إيماناً؟ قال الله تعالى: ﴿فأما الذين آمنوا فزادتهم إيماناً وهم يستبشرون﴾.

وهذه الآيةُ من أكبر الدلائل على أنَّ الإيمان يزيدُ وينقصُ، كما هو مذهبُ أكثر السلفِ والخلفِ من أئمة العلماء. بل قد حَكَى الإجماعَ على ذلك غيرُ واحدٍ، وقد بُسِطَ الكلام على هذه المسألة في أوَّل «شرح البخاري» رحمه الله.

﴿وأما الذين في قلوبهم مرض فزادتهم رجساً إلى رجسهم﴾، أي: زادتهم شكاً إلى شكهم، ورَيباً إلى ريبهم، كما قال تعالى: ﴿وننزل من القرآن ما هو شفاء ورحمة للمؤمنين ولا يزيد الظالمين إلا خساراً﴾ وقال

(١) عن الأصل. وكَسِيَ: لبس.

تعالى: ﴿قل هو للذين آمنوا هدى وشفاء، والذين لا يؤمنون في آذانهم وقر وهو عليهم عمىً، أولئك يُنادَون من مكان بعيد﴾. وهذا من جملة شقائهم أن ما يهدي القلوب يكون سَبباً لضلالهم ودمارهم، كما أن سَيِّءَ المِزاج لو غُذِيَ بما غُذِي به لا يَزيده إلا خبالاً ونقصاً.

﴿أَوَلَا يَرَوْنَ أَنَّهُمْ يُفْتَنُونَ فِي كُلِّ عَامٍ مَّرَّةً أَوْ مَرَّتَيْنِ ثُمَّ لَا يَتُوبُونَ وَلَا هُمْ يَذَّكَّرُونَ ﴿١٢٦﴾ وَإِذَا مَا أُنزِلَتْ سُورَةٌ نَّظَرَ بَعْضُهُمْ إِلَىٰ بَعْضٍ هَلْ يَرَاكُم مِّنْ أَحَدٍ ثُمَّ انصَرَفُوا ۚ صَرَفَ اللَّهُ قُلُوبَهُم بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَّا يَفْقَهُونَ ﴿١٢٧﴾﴾

يقول تعالى: أَوَلا يرى هؤلاء المنافقون ﴿أنهم يفتنون﴾، أي: يُختبرون، ﴿في كل عام مرة أو مرتين ثم لا يتوبون ولا هم يذكرون﴾، أي: لا يتوبون من ذنوبهم السالفة، ولا هم يذكرون فيما يُستقبل من أحوالهم.

قال مجاهد: يُختبرون بالسَّنَةِ والجُوع.

وقال قتادةُ: بالغزو في السنة مرة أو مرتين.

وقال شريك، عن جابر - هو الجعفي - عن أبي الضُّحَى، عن حُذَيفة: ﴿أَوَلا يرون أنهم يفتنون في كل عام مرة أو مرتين﴾، قال: كنا نسمع في كل عام كذبة أو كذبتين، فَيَضِلُّ بها فئام[1] من الناس كثير. رواه ابن جرير[2].

وفي الحديث عن أنس: «لا يزداد الأمرُ إلا شدَّةً، ولا يزداد الناسُ إلا شحّاً، وما من عام إلا والذي بعده شرٌّ منه، سَمِعته من نبيكم ﷺ»[3].

وقوله: ﴿وإذا ما أنزلت سورة نظر بعضهم إلى بعض: هل يراكم من أحد، ثم انصرفوا صرف الله قلوبهم بأنهم قوم لا يفقهون﴾، هذا أيضاً إخبار عن المنافقين أنهم إذا أنزلت سورة على رسول الله - ﷺ - ﴿نظر بعضهم إلى بعض﴾، أي تَلَفَّتُوا، ﴿هل يراكم من أحد، ثم انصرفوا﴾، أي: تولوا عن الحق وانصرفوا عنه، وهذا حالهم في الدين لا يثبتون عند الحق ولا يقبلونه ولا يفهمونه، كما قال تعالى: ﴿فما لهم عن التذكرة معرضين. كأنهم حُمُر مستنفرة. فرَّت من قَسْورَة﴾، وقال تعالى: ﴿فما للذين كفروا قِبَلَكَ مهطعين. عن اليمين وعن الشمال عزين﴾، أي: ما لهؤلاء القوم يَتَفَلَّلُونَ[4] عنك يميناً وشمالاً، هروباً من الحق، وذهاباً إلى الباطل.

وقوله: ﴿ثم انصرفوا صرف الله قلوبهم﴾، كقوله: ﴿فلما زاغوا أزاغ الله قلوبهم﴾، ﴿بأنهم قوم لا يفقهون﴾ أي: لا يفهمون عن الله خطابه، ولا يقصدون لفهمه ولا يريدونه، بل هم في شُدْهٍ عنه، ونفورٍ منه فلهذا صاروا إلى ما صاروا إليه.

﴿لَقَدْ جَاءَكُمْ رَسُولٌ مِّنْ أَنفُسِكُمْ عَزِيزٌ عَلَيْهِ مَا عَنِتُّمْ حَرِيصٌ عَلَيْكُم بِالْمُؤْمِنِينَ

(١) أي: الجماعات.
(٢) تفسير الطبري ١١/٧٤.
(٣) سنن ابن ماجه، كتاب الفتن ١٣٤٠ - ١٣٤١. وانظره في المستدرك، كتاب الفتن ٤/٤٤١ - ٤٤٢.
(٤) أي: يبتعدون.

﴿رَءُوفٌ رَّحِيمٌ ﴿١٢٨﴾ فَإِن تَوَلَّوْاْ فَقُلْ حَسْبِيَ ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَهُوَ رَبُّ ٱلْعَرْشِ ٱلْعَظِيمِ ﴿١٢٩﴾﴾

يقول تعالى ممتناً على المؤمنين بما أرسل إليهم رسولاً من أنفسهم، أي: من جنسهم وعلى لغتهم، كما قال إبراهيم عليه السلام: ﴿ربنا وابعث فيهم رسولاً منهم﴾، وقال تعالى: ﴿لقد مَنَّ الله على المؤمنين إذ بعث فيهم رسولاً من أنفسهم﴾، وقال تعالى: ﴿لقد جاءكم رسول من أنفسكم﴾، أي: منكم وبلغتكم، كما قال جعفر بن أبي طالب للنجاشي، والمغيرة بن شعبة لرسول كسرى: إن الله بعث فينا رسولاً منا، نَعرف نسبه وصفته، ومدخله ومخرجه، وصدقه وأمانته... وذكر الحديث(١).

وقال سفيان بن عُيينة، عن جعفر بن محمد، عن أبيه في قوله تعالى: ﴿لقد جاءكم رسول من أنفسكم﴾، قال: لم يصبه شيء من ولادة الجاهلية، وقال ـ ﷺ ـ: «خرجت من نكاح، ولم أخرج من سفاح»(٢).

وقد وصل هذا من وجه آخر، كما قال الحافظ أبو محمد الحسن بن عبد الرحمن الرامَهُرْمُزي في كتابه «الفاصل بين الراوي والواعي»:

حدثنا أبو أحمد يوسف بن هارون بن زياد، حدثنا ابن أبي عُمَر، حدثنا محمد بن جعفر بن محمد قال: أشهد على أبي لحدثني، عن أبيه، عن جده، عن علي قال: قال رسول الله ـ ﷺ ـ: «خرجت من نكاح ولم أخرج من سفاح، من لدن آدم إلى أن ولدني أبي وأمي، لم يَغْشَني من سفاح الجاهلية شيء».

وقوله: ﴿عزيز عليه ما عنتم﴾، أي: يعز عليه الشيء الذي يُعْنِتُ أمته ويشق عليها. ولهذا جاء في الحديث المروي من طرق عنه أنه قال: «بعثت بالحنيفية السَّمْحَة»(٣)، وفي الصحيح: «إن هذا الدينَ يسرٌ»(٤)، وشريعته(٥) كلها سمحة كاملة، يسيرة على من يسرها الله ـ تعالى ـ عليه.

﴿حريصٌ عليكم﴾ أي: على هدايتكم ووصول النفع الدنيوي والأخروي إليكم.

قال الطبراني: حدثنا محمد بن عبد الله الحضرمي، حدثنا محمد بن عبد الله بن يزيد المقري، حدثنا سفيان بن عيينة، عن فِطْر، عن أبي الطُّفَيل، عن أبي ذرٍّ قال: تركنا رسول الله ـ ﷺ ـ وما طائر يقلب جناحيه في الهواء إلا وهو يُذَكِّرنا منه علماً ـ قال: وقال ـ ﷺ ـ: «ما بقي شيءٌ يُقرِّب من الجنة ويباعد من النار إلا وقد بُيِّن لكم».

وقال الإمام أحمد: حدثنا [أبو](٦) قَطَن، حدثنا المسعودي، عن الحسن بن سعد، عن عبدة النَّهْدِيِّ(٧)، عن عبد الله بن مسعود قال: قال رسول الله ـ ﷺ ـ: «إن الله لم يُحَرِّم حُرمة إلا وقد عَلِم أنه سيطَّلعها منكم مُطَّلِع، ألا وإني آخذٌ بِحُجَزكم أن تهافتوا في النار كتهافت الفراش، أو الذباب»(٨).

وقال الإمام أحمد: حدثنا حسن بن موسى، حدثنا حماد بن سلمة، عن علي بن زيد بن جُدعان، عن

---

(١) سيرة ابن هشام ١/ ٣٣٦.
(٢) تفسير الطبري: ١١/ ٧٦.
(٣) مسند أحمد ٥/ ٢٦٦، ٦/ ٢٣٣.
(٤) فتح الباري، كتاب الإيمان ١/ ٩٣.
(٥) في الأصل: وشريعتها.
(٦) عن مسند أحمد.
(٧) في الأصل: الهذلي، والمثبت عن المسند، وانظر تهذيب التهذيب ٦/ ٤٥٧.
(٨) المسند ١/ ٣٩٠.

يوسف بن مهران، عن ابن عباس: أن رسول الله ـ ﷺ ـ أتاه ملكان، فيما يرى النائم، فقعد أحدهما عند رجليه والآخر عند رأسه، فقال الذي عند رجليه للذي عند رأسه: اضرب مثل هذا ومثل أمته. فقال: إن مَثَله ومَثَل أمته كمثل قوم سَفْر انتهوا إلى رأس مفازة فلم يكن معهم من الزاد ما يقطعون به المفازة، ولا ما يرجعون به، فبينما هم كذلك إذ أتاهم رجل في حُلَّة حِبَرَةٍ[1] فقال: أرأيتم إن وَرَدت بكم رياضاً مُعْشِبَةً، وحياضاً رِوَاءً تتبعوني؟ فقالوا: نعم. قال: فانطلق بهم، فأوردهم رياضاً معشبة، وحياضاً رِوَاءً، فأكلوا وشربوا وسَمِنوا، فقال لهم: ألم ألفكم على تلك الحال، فجعلتم لي إن وردت بكم رياضاً مُعْشِبةً وحياضاً رِوَاءً أن تتبعوني؟ فقالوا: بلى. قال: فإن بين أيديكم رياضاً هي أعشب من هذه، وحياضاً هي أروى من هذه، فاتبعوني. فقالت طائفة: صدق، والله لنتبعنه. وقالت طائفة: قد رَضِينا بهذا نُقِيم عليه»[2].

وقال البزار: حدثنا سلمة بن شبيب وأحمد بن منصور قالا: حدثنا إبراهيم بن الحكم بن أبان، حدثنا أبي، عن عكرمة، عن أبي هُرَيرة ـ رضي الله عنه ـ أن أعرابياً جاء إلى رَسُول الله ـ ﷺ ـ يَسْتَعِينه في شيء ـ قال عكرمة: أراه قال: «في دَم» ـ فأعطاه رسول الله ـ ﷺ ـ شيئاً، ثم قال: أحسنت إليك؟ قال الأعرابي: لا، ولا أجملتَ. فغضب بعضُ المسلمين وهَمُّوا أن يقوموا إليه، فأشار رسول الله إليهم: أن كُفُّوا. فلما قام رَسولُ الله ـ ﷺ ـ وبلغ إلى منزله، دعا الأعرابي إلى البيت، فقال له: إنك جئتنا فسألتنا فأعطيناك، فقلت ما قلت. فزاده رسول الله شيئاً، وقال: أحسنت إليك؟ فقال الأعرابي: نعم، فجزاك الله من أهل وعشيرةٍ خيراً. قال النبي ـ ﷺ ـ: إنك جئتنا فَسَألتنا فأعطيناك، فقلت ما قلت، وفي أنفس أصحابي عليكَ من ذلك شيءٌ، فإذا جئتَ فقل بين أيديهم ما قلتَ بين يدَيّ، حتى يُذْهِبَ عن صدورهم. قال: نعم. فلما جاء الأعرابي قال رسول الله ـ ﷺ ـ: إن صاحبكم كان جاءنا فسألنا فأعطيناه، فقال ما قال، وإنا قد دعوناه فأعطيناه، فزعم أنه قد رضي، أكذلك؟ قال الأعرابي: نعم، فجزاك الله من أهل وعَشيرةٍ خيراً. فقال النبي ـ ﷺ ـ: إن مثلي ومثلُ هذا الأعرابي كمثل رجل كانت له ناقة فَشَرَدَت عليه، فأتبعها الناسُ فلم يزيدوها إلا نفوراً. فقال لهم صاحب الناقة: خلوا بيني وبين ناقتي، فأنا أرفق بها وأعلم بها. فَتوجَّه إليها وأخذ لها من قَتَام[3] الأرض، ودعاها حتى جاءت واستجابت، وشدَّ عليها رحْلها [واستوى عليها[4]]، وإنه لو أطعتكم حيث قال ما قال لدخل النار».

ثم قال البزار: لا نعلمه يُرْوَى إلا من هذا الوجهِ[5].

قلت: وهو ضعيفٌ بحال إبراهيم بن الحكم بن أبان. والله أعلم.

وقوله: ﴿بالمؤمنين رءُوف رحيم﴾، كما قال تعالى: ﴿واخفض جناحك لمن اتبعك من المؤمنين * فإن عصوك فقل: إني بريء مما تعملون * وتوكل على العزيز الرحيم﴾ وهكذا أمره تعالى.

وهذه الآية الكريمة، وهي قوله تعالى: ﴿فإن تولوا﴾، أي: تولوا عما جئتهم به من الشريعة العظيمة المطهرة الكاملة الشاملة، ﴿فقل حسبي الله﴾ أي: الله كافيَّ، لا إلّـه إلا هو عليه توكلت، كما قال تعالى: ﴿رب المشرق والمغرب لا إلّه إلا هو فاتخذه وكيلاً﴾.

---

(١) هي ضرب من برود اليمن. وهي بكسر الحاء وفتحها مع فتح العين.

(٢) مسند أحمد ١/ ٢٦٧.

(٣) القتام: الغبار.

(٤) عن كشف الأستار.

(٥) كشف الأستار عن زوائد البزّار ٣/ ١٦٠.

﴿وهو رب العرش العظيم﴾، أي: هو مالك كل شيء وخالقه، لأنه رب العرش العظيم، الذي هو سقف المخلوقات. وجميع الخلائق من السموات والأرضين وما فيهما وما بينهما تحت العرش مقهورون بقدرة الله تعالى، وعِلْمُه محيط بكل شيء، وقدره نافذ في كل شيء، وهو على كل شيء وكيل.

قال الإمام أحمد: حدثني محمد بن أبي بكر، حدثنا بشر بن عمر، حدثنا شعبة، عن علي بن زيد، عن يوسف بن مهران، عن ابن عباس ـ رضي الله عنهما ـ عن أبي بن كعب قال: آخر آية نزلت من القرآن هذه الآية ﴿لقد جاءكم رسول من أنفسكم﴾ إلى آخر السورة[١].

وقال عبد الله ابن الإمام أحمد: حدثنا روح بن عبد المؤمن، حدثنا عمر بن شقيق، حدثنا أبو جعفر الرازي، عن الربيع بن أنس، عن أبي العالية، عن أبي بن كعب ـ رضي الله عنه ـ: أنهم جَمَعُوا القرآن في مصاحف في خلافة أبي بكر رضي الله عنه، فكان رجال يكتبون ويملي عليهم أبي بن كعب، فلما انتهوا إلى هذه الآية من سورة براءة: ﴿ثم انصرفوا صرف الله قلوبهم بأنهم قوم لا يفقهون﴾، فظنوا أن هذا آخر ما أنزل من القرآن. فقال لهم أبيّ بن كعب: إن رسول الله ـ ﷺ ـ أقرأني بعدها آيتين: ﴿لقد جاءكم رسول من أنفسكم عزيز عليه ما عنتم حريص عليكم بالمؤمنين رءوف رحيم﴾ إلى: ﴿وهو رب العرش العظيم﴾ قال: هذا آخر ما أنزل من القرآن قال: فختم بما فُتح به، بالله الذي لا إله إلا هو، وهو قول الله تعالى: ﴿وما أرسلنا من قبلك من رسول إلا يُوحَى إليه أنه لا إله إلا أنا فاعبدون﴾[٢]. غريب أيضاً.

وقال الإمام أحمد: حدثنا على بن بحر، حدثنا محمد بن سلمة، عن محمد بن إسحاق، عن يحيى بن عباد، عن أبيه عباد بن عبد الله بن الزبير ـ رضي الله عنه ـ قال: أتى الحارث بن خَزَمَةَ بهاتين الآيتين من آخر براءة: ﴿لقد جاءكم رسول من أنفسكم﴾ إلى عمر بن الخطاب، فقال: من معك على هذا؟ قال: لا أدري، والله إني لأشهد لسمعتها من رسول الله ـ ﷺ ـ ووعيتُها وحَفِظتها. فقال عمر: وأنا أشهد لسمِعتُها من رسول الله ـ ﷺ ـ ثم قال: لو كانت ثلاثُ آياتٍ لجعلتُها سورةً على حِدَةً، فانظروا سُورةً من القرآن، فضعوها فيها. فوضعوها في آخر براءة[٣].

وقد تقدم أن عمر بن الخطاب هو الذي أشار على أبي بكر الصديق ـ رضي الله عنهما ـ بجمع القرآن، فأمر زيد بن ثابت فجمعه. وكان عمر يحضرهم وهم يكتبون ذلك. وفي الصحيح أن زيداً قال: فوجدت آخر سورة «براءة» مع خزيمة بن ثابت ـ أو: أبي خزيمة[٤]. وقدمنا أن جماعة من الصحابة تذكروا ذلك عن رسول الله ـ ﷺ ـ كما قال خزيمة بن ثابت حين ابتدأهم بها، والله أعلم.

وقد روى أبو داود، عن يزيد بن محمد، عن عبد الرزاق بن عُمَر ـ وقال: كان من ثِقَاتِ المسلمين من المُتَعَبِّدِينَ ـ عن مُدْرِك بن سعد ـ قال يزيد: شيخٌ ثقة ـ عن يونس بن مَيْسَرَةَ، عن أمِّ الدَّرداء، عن أبي الدَّرداء قال: من قال إذا أَصْبَحَ وإذا أَمْسَى: حسبي الله، لا إله إلا هو، عليه توكلت، وهو ربّ العرش العظيم. سبع مرات، إلاّ كفاه ما أهمَّه[٥].

---

(١) مسند أحمد ٥/ ١١٧.
(٢) المسند ٥/ ١٣٤.
(٣) مسند أحمد ١/ ١٩٩.
(٤) فتح الباري، تفسير سورة براءة ٨/ ٣٤٤.
(٥) سنن أبي داود، كتاب الأدب ٤/ ٣٢١ وفي الأصل: «كفاه الله ما يُغمّه».

وقد رواه ابن عساكر في ترجمة «عبد الرزاق بن عُمَر» هذا من رواية أبي زُرْعَةَ الدِّمَشْقِيِّ، عنه، عن أبي سعد[١] مدرك بن أبي سعد[٢] الفزاريِّ، عن يونُس بن ميسرة بن حَلْبَس، عن أُمِّ الدَّرداء: سَمِعتُ أبا الدَّرداء يقول: ما من عبدٍ يقول: حسبي الله، لا إلَه إلا هو، عليه توكَّلتُ، وهو رب العرش العظيم. سبع مَرَّات صادقاً كان بها أو كاذباً، إلا كفاه الله ما هَمَّه.

وهذه زيادة غريبة.

ثم رواه في ترجمة عبد الرزّاق أبي محمد، عن أحمد بن عبد الله بن عبد الرزّاق، عن جدّه عن الرزّاق بن عُمَر، بسنده يرفعه، فذكر مثله بالزيادة. وهذا منكر. والله أعلم.

آخر سورة براءة[٣].

(١) في الأصل: أبو سعيد. والمثبت عن تهذيب التهذيب ١٠/ ٧٩.

(٢) يقال له: ابن سعد، وابن أبي سعد، انظر تهذيب التهذيب.

(٣) في ختام هذا الجزء: «الحمد لله وحده، رابع عشر ربيع الأول سنة ثمانين وسبعمائة من الهجرة النبوية، وحسبنا الله ونعم الوكيل. ولا حول ولا قوة إلا بالله العظيم».

تفسير

سُورَةُ يُونُس

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

﴿ الٓر تِلْكَ ءَايَٰتُ ٱلْكِتَٰبِ ٱلْحَكِيمِ ۝١ أَكَانَ لِلنَّاسِ عَجَبًا أَنْ أَوْحَيْنَآ إِلَىٰ رَجُلٍ مِّنْهُمْ أَنْ أَنذِرِ ٱلنَّاسَ وَبَشِّرِ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ أَنَّ لَهُمْ قَدَمَ صِدْقٍ عِندَ رَبِّهِمْ ۗ قَالَ ٱلْكَٰفِرُونَ إِنَّ هَٰذَا لَسَٰحِرٌ مُّبِينٌ ۝٢ ﴾

أمَّا الحروفُ المقطَّعَة في أوائل السُّور فقد تقدَّم الكلامُ عليها في أوائل سُورةِ البقَرةِ.

وقال أبو الضُّحَى، عنِ ابن عباس في قوله تعالى: ﴿ الر ﴾، أي: أنا الله أرَى. وكذا قال الضحَّاكُ وغيرُه.

﴿ تلك آياتُ الكتابِ الحَكِيم ﴾، أي: هذه آياتُ القرآنِ المُحكم المُبين.

وقال مجاهدٌ: ﴿ الر تلك آياتُ الكتابِ الحكيم ﴾ قال: التوراة والإنجيل. وقال قتادة: ﴿تلك آياتُ الكتابِ﴾، قال: الكتبُ التي كانت قبل القرآن[1]. وهذا القول لا أعرفُ وجهَه ولا معناه.

وقولُه: ﴿ أكان للناس عجباً أن أوحينا إلى رَجُلٍ منهم أن أنذِرِ الناسَ وبَشِّر الذين آمنوا﴾ . . . الآية، يقول تعالى مُنكراً على من تَعجَّب من الكفَّار من إرسالِ المرسلين من البشر، كما أخبر تعالى عن القرون الماضية من قولهم: ﴿ أبشر يهدوننا ﴾، وقال هودٌ وصالحٌ لقومهما: ﴿ أوَعَجِبتُم أن جاءكم ذكرٌ من ربِّكم على رجل منكم ﴾ وقال تعالى مخبراً عن كفار قريش أنهم قالوا: ﴿ أجعل الآلهةَ إلَهاً واحداً إنَّ هذا لشيءٌ عُجاب ﴾.

وقال الضحَّاك، عن ابن عباس: لما بَعَث الله تعالى مُحمَّداً ـ ﷺ ـ رسولاً أنكرت العربُ ذلك، أو من أنكر منهم، فقالوا: الله أعظم من أن يكون رسولُه بشراً مثلَ محمدٍ. قال: فأنزل الله عز وجل: ﴿ أكان للناسِ عجباً أن أوحينا إلى رَجُل منهم ﴾.

وقوله: ﴿ أن لهم قَدَم صِدْقٍ عند ربِّهم ﴾، اختلفوا فيه، فقال علي بن أبي طلحة، عن ابن عباس في قوله: ﴿ وبَشِّرِ الذين آمنوا أنَّ لهم قَدَم صدق ﴾ يقول: سَبَقت لهم السعادةُ في الذِّكر الأوَّلِ.

---

(١) تفسير الطبري ١١/٨٠.

وقال العَوفيُّ، عن ابن عباس: ﴿أن لهم قَدَم صِدْقٍ عند ربهم﴾، يقول: أجراً حسناً بما قَدَّموا. وكذا قال الضحَّاكُ، والربيعُ بن أنَس، وعبدُ الرحمن بنُ زيدِ بنِ أسلَمَ. وهذا كقوله تعالى: ﴿لِيُنذِرَ بأساً شديداً من لَدُنه ويُبَشِّر المؤمنين الذين يعملون الصالحاتِ أنَّ لهم أجراً حسناً * ماكثين فيه أبداً﴾.

وقال مجاهدٌ: ﴿أنَّ لهم قَدَم صِدْقٍ عند ربِّهم﴾، قال: الأعمالُ الصالحةُ صلاتُهم وصومُهم وصَدَقَتُهم وتسبيحُهم. قال: ومحمَّدٌ ـ ﷺ ـ شفيعٌ لهم. وكذا قال زيدُ بن أسلَم، ومقاتلُ بن حَيَّانَ. وقال قتادة: سَلَفُ صدق عند رَبِّهم.

واختار ابنُ جرير قولَ مجاهد أنها الأعمال الصالحة التي قَدَّموها، قال: كما يُقَال: «له قَدَمٌ في الإسلام»، ومنه قولُ حسان ـ رضي الله عنه ـ(١):

لَنَا القَدَمُ العُليا إليك وَخَلْفُنا ... لأوَّلِنا في طاعَةِ الله تابِعُ

وقولُ ذِي الرُّمة(٢):

لَكُم قَدَمٌ لا يُنْكِرُ النَّاسُ أنها ... مَعَ الحسَبِ العَادِيِّ طَمَّت عَلَى البَحْرِ

وقولُه تعالى: ﴿قال الكافرون إنَّ هذا لساحرٌ مبينٌ﴾، أي: مع أنا بعثنا إليهم رسولاً منهم، رَجُلاً من جنسهم، بشيراً ونذيراً، ﴿قال الكافرون إن هذا لساحر مبين﴾، أي: ظاهر وَهُم الكاذِبُون في ذلك.

﴿إِنَّ رَبَّكُمُ ٱللَّهُ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ فِى سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ ٱسْتَوَىٰ عَلَى ٱلْعَرْشِ يُدَبِّرُ ٱلْأَمْرَ مَا مِن شَفِيعٍ إِلَّا مِنۢ بَعْدِ إِذْنِهِۦ ذَٰلِكُمُ ٱللَّهُ رَبُّكُمْ فَٱعْبُدُوهُ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ ﴿٣﴾﴾

يُخبِر تعالى أنه ربُّ العالَم جَميعِهِ، وأنه خَلَق السمواتِ والأرضَ في ستَّةِ أيام، قيل: كهذه الأيام، وقيل: كل يوم كألف سنة مما تَعدُّون، كما سيأتي بيانه. ﴿ثم استوى على العرش﴾، والعرشُ أعظَمُ المخلوقاتِ وسَقفُها.

قال ابنُ أبي حاتم: حدثنا حجَّاجُ بن حَمْزَة، حدثنا أبو أسامَةَ، حدثنا إسماعيل بن أبي خالد قال: سَمِعتُ سعداً الطائي يقول: العرشُ ياقوتةٌ حمراء.

وقال وهبُ بن مُنَبِّهٍ: خَلَقه الله من نُوره. وهذا غريبٌ.

﴿يُدَبِّر الأمرَ﴾، أي: يُدَبِّر أمر الخلائق، ﴿لا يعزُب عنه مثقالُ ذَرَّةٍ في السمواتِ ولا في الأرض﴾، ولا يَشغَلُه شأنٌ عن شأن، ولا تُغلِّطُه المسائلُ، ولا يَتبرَّمُ بإلحاح المُلِحِّين، ولا يُلهيه تدبيرُ الكبيرِ عن الصغيرِ، في الجبال والبحار والعُمران والقِفارِ، ﴿وما من دابَّةٍ في الأرضِ إلا على الله رزقُها ويعلم مُستَقرَّها ومُستودَعها كلٌ في كتابٍ مبين﴾، ﴿وما تسقط من ورقة إلا يعلمها ولا حَبَّةٍ في ظلماتِ الأرض ولا رَطْبٍ ولا يابسٍ إلاّ في كتابٍ مبين﴾.

وقال الدَّراوَرْدِيُّ، عن سَعدِ بن إسحاقَ بن كعبٍ أنه قال: حين نزلت هذه الآيةُ: ﴿إن ربكم الله الذي خَلَق السمواتِ والأرضَ في ستَّةِ أيام﴾ لَقِيهم رَكْبٌ عظيمٌ من العَرَبِ، فقالوا لهم: من أنتم؟ قالوا: من الجن، خَرَجنا من المدينة، أخرجتنا هذه الآية. رواه ابن أبي حاتم.

(١) ديوانه ١١٤، وتفسير الطبري ١١/٨٧.
(٢) ديوانه ٢/٩٧٢، وفيه: «طمّت على الفخر». والعاديّ: القديم.

﴿ ما من شفيع إلا من بعد إذنه ﴾، كقوله تعالى: ﴿من ذا الذي يشفعُ عنده إلا بإذنه﴾، وكقولِهِ تعالى: ﴿ وكم من ملك في السموات لا تُغني شفاعَتُهم شيئاً إلاَّ من بعدِ أن يأذنَ الله لمن يشاءُ ويرضى ﴾ وقوله: ﴿ ولا تنفعُ الشفاعة عندَه إلا لمن أذِنَ له ﴾.

وقولُه: ﴿ ذلكم الله ربُّكم فاعبدُوه أفلا تَذَكَّرُون ﴾، أي: أفرِدُوه بالعبادة وحدَه لا شريكَ له، ﴿ أفلا تذكَّرون﴾، أي: أيُّها المشركون في أمركم، تعبدُون مع الله غيره، وأنتم تعلمون أنه المتفرِّدُ بالخَلْقِ، كقوله تعالى: ﴿ ولئن سألتهم من خلقهم ليقولن الله ﴾، وقوله: ﴿ قل من ربُّ السموات السبع وربُّ العرشِ العظيمِ. سيقولـون لله قُلْ أفلا تتقون ﴾، وكذا الآيةُ التي قبلها والتي بعدَها.

﴿ إِلَيْهِ مَرْجِعُكُمْ جَمِيعًا وَعْدَ اللَّهِ حَقًّا إِنَّهُ يَبْدَؤُا الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ لِيَجْزِيَ الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّلِحَتِ بِالْقِسْطِ وَالَّذِينَ كَفَرُوا لَهُمْ شَرَابٌ مِّنْ حَمِيمٍ وَعَذَابٌ أَلِيمٌ بِمَا كَانُوا يَكْفُرُونَ ﴿٤﴾ ﴾

أخبر تعالى أن إليه مرجعَ الخلائقِ يومَ القيامة، لا يتركُ منهم أحداً حتى يُعيده كما بدأه. ثم ذكر تعالى أنه كما بدأ الخلق كذلك يُعيده، ﴿ وهو الذي يبدأ الخلق ثم يُعيده وهو أهونُ عليه ﴾.

﴿ ليجزيَ الذين آمنوا وعَمِلُوا الصالحات بالقِسْطِ ﴾، أي: بالعَدْلِ والجزاء الأوفى، ﴿ والذين كفروا لهم شرابٌ من حميم وعذابٌ أليم بما كانوا يكفرون ﴾، أي: بسبب كُفرهم يُعذَّبون يوم القيامة بأنواع العقاب، من ﴿ سَمُوم وحَمِيم. وظِلٍّ من يحمُوم ﴾، ﴿هذا فليذوقوه حميمٌ وغسَّاقٌ * وآخرُ من شكله أزواجٌ ﴾، ﴿ هذه جهنَّم التي يكذب بها المجرمون * يطوفون بينها وبين حَميم آنٍ﴾.

﴿ هُوَ الَّذِي جَعَلَ الشَّمْسَ ضِيَاءً وَالْقَمَرَ نُورًا وَقَدَّرَهُ مَنَازِلَ لِتَعْلَمُوا عَدَدَ السِّنِينَ وَالْحِسَابَ مَا خَلَقَ اللَّهُ ذَلِكَ إِلَّا بِالْحَقِّ يُفَصِّلُ الْآيَتِ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ ﴿٥﴾ إِنَّ فِي اخْتِلَفِ الَّيْلِ وَالنَّهَارِ وَمَا خَلَقَ اللَّهُ فِي السَّمَوَتِ وَالْأَرْضِ لَآيَتٍ لِّقَوْمٍ يَتَّقُونَ ﴿٦﴾ ﴾

يخبرُ تعالى عما خَلق من الآياتِ الدالَّة على كمال قُدرته، وعظيم سُلطانه، وأنه جعل الشُّعاع الصادِرَ عن جِرْمِ الشمس ضياءً وشعاعَ القمر نُوراً، هذا فنٌّ وهذا فنٌّ آخرُ، ففاوت بينهما لئلا يشتبها، وجعلَ سلطان الشمسِ بالنهار، وسلطانَ القمَر بالليل، وقدَّر القمَر منازِلَ، فأولُ ما يبدُو صغيراً ثم يتزايد نُورُه وجِرمُه، حتى يستوسقَ ويكمُلَ إبدارُه، ثم يشرَع في النقص حتى يرجعَ إلى حاله الأوَّلِ في تمام شهر، كما قال تعالى: ﴿ والقمَرَ قدَّرناه منازلَ حتى عادَ كالعُرجونِ القديم * لا الشمسُ ينبغي لها أن تُدرِكَ القمَرَ ولا الليلُ سابقُ النهارِ وكلٌّ في فَلَكٍ يَسبحُونَ ﴾، وقال: ﴿ والشمسَ والقمرَ حُسباناً ذلك تقديرُ العزيزِ العليمِ ﴾.

وقال في هذه الآيةِ الكريمةِ: ﴿ وقَدَّره ﴾، أي: القمَرَ ﴿ منازلَ لتعلموا عددَ السنين والحسابَ ﴾، فبالشمس تُعرَفُ الأيامُ، وبِسَيرِ القمر تُعرف الشهورُ والأعوامُ.

﴿ ما خلق الله ذلك إلا بالحقِّ ﴾، أي: لم يخلقْه عبثاً بل له حكمةٌ عظيمةٌ في ذلك، وحُجَّةٌ بالغة، كما قال تعالى: ﴿ وما خلقنا السماء والأرض وما بينهما باطلاً ذلك ظَنُّ الذين كفروا فويلٌ للذين كفرُوا من النار ﴾ وقال تعالى: ﴿ أفحسِبتُم أنما خلقناكُم عبثاً وأنكم إلينا لا تُرجَعُون * فتعالى الله الملك الحقُّ لا إلَه إلا هو ربُّ العرشِ الكريمِ ﴾.

وقولُه: ﴿ نُفصِّل الآياتِ ﴾، أي: نبين الحُجَجَ والأدلَّةَ ﴿لقومٍ يعلمُون﴾.

وقولُه: ﴿ إنَّ في اختلاف اللَّيلِ والنَّهار ﴾، أي: تَعاقُبهما إذا جاء هذا ذَهَب هذا، وإذا ذَهَب هذا جاء هذا، لا يتأخر عنه شيئاً. كما قال تعالى: ﴿ يُغشِي اللَّيلَ النهارَ يطلُبه حثيثاً ﴾، وقال: ﴿ لا الشمسُ يَنبغي لها أن تُدرِكَ القمَرَ ولا الليلُ سابقُ النهارِ ﴾، وقال تعالى: ﴿ فالقُ الإصباح وجاعِلُ الليل سكناً[1] والشمس والقمر حسباناً ذلك تقدير العزيز العليم ﴾.

وقولُه: ﴿ وما خلَق الله في السمواتِ والأرضِ ﴾، أي: من الآياتِ الدالَّة على عَظَمته تعالى، كما قال: ﴿ وكأين من آيةٍ في السمواتِ والأرض ﴾... الآية. وقولِه: ﴿ قل انظُروا ما في السمواتِ والأرضِ وما تُغني الآياتُ والنذُر عن قومٍ لا يُؤمنون ﴾، وقال: ﴿ أفلم يَرَوا إلى ما بين أيديهم وما خَلْفَهم من السماءِ والأرضِ ﴾، وقال: ﴿ إنَّ في خلقِ السموات والأرضِ واختلافِ الليل والنهار لآياتٍ لأولي الألباب ﴾، أي: العقول، وقال هاهنا: ﴿ لآياتٍ لقومٍ يتقون ﴾، أي: عقابَ الله وسخَطَه وعذابه.

﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ لَا يَرْجُونَ لِقَآءَنَا وَرَضُوا۟ بِٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَٱطْمَأَنُّوا۟ بِهَا وَٱلَّذِينَ هُمْ عَنْ ءَايَـٰتِنَا غَـٰفِلُونَ ﴿٧﴾ أُو۟لَـٰٓئِكَ مَأْوَىٰهُمُ ٱلنَّارُ بِمَا كَانُوا۟ يَكْسِبُونَ ﴿٨﴾ ﴾

يقول تعالى مخبراً عن حال الأشقياء الذين كَفَروا بلقاء الله يوم القيامة ولا يرجُون في لقاء الله شيئاً، ورضُوا بهذه الحياةِ الدنيا واطمأنت إليها أنفسُهم.

قال الحسنُ: والله ما زيَّنُوها ولا رَفَعوها حتى رضَوا بها وهم غافِلُون عن آيات الله الكونيَّةِ فلا يَتفكَّرون فيها، والشرعيَّة فلا يأتمرون بها، بأن مأواهم يومَ معادهم النارُ، جزاءً على ما كانوا يكسِبُون في دُنياهم من الآثام والخطايا والأجرام، مع ما هُم فيه من الكُفرِ بالله ورسُولِه واليومِ الآخِرِ.

﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّـٰلِحَـٰتِ يَهْدِيهِمْ رَبُّهُم بِإِيمَـٰنِهِمْ ۖ تَجْرِى مِن تَحْتِهِمُ ٱلْأَنْهَـٰرُ فِى جَنَّـٰتِ ٱلنَّعِيمِ ﴿٩﴾ دَعْوَىٰهُمْ فِيهَا سُبْحَـٰنَكَ ٱللَّهُمَّ وَتَحِيَّتُهُمْ فِيهَا سَلَـٰمٌ ۚ وَءَاخِرُ دَعْوَىٰهُمْ أَنِ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَـٰلَمِينَ ﴿١٠﴾ ﴾

وهذا إخبارٌ عن حال السعداء الذين آمنُوا بالله وصَدَّقُوا المرسَلين، وامتثَلُوا ما أُمِرُوا، فَعمِلوا الصالحاتِ، بأنه سَيَهديهم بإيمانهم.

يَحتمِلُ أن تكُونَ «الباء» هاهنا سببيةً، فتقديرُه: بسبب إيمانهم في الدنيا يهديهم الله يومَ القيامة على الصراط، حتى يَجُوزُوه ويخلُصُوا إلى الجنة. ويَحتمِلُ أن تكونَ للاستعانة، كما قال مجاهد في قوله: ﴿ يهديهم ربهم بإيمانهم ﴾، قال: يكون لهم نوراً يمشُون[2] به.

وقال ابنُ جُريج في الآية: يَمثُلُ له عمله في صورة حَسنةٍ وريحٍ طَيِّبةٍ إذا قام من قبره، يُعارِضُ صاحبه ويبشره بكلِّ خيرٍ، فيقولُ له: من أنتَ؟ فيقولُ: أنا عَمَلُك. فَيُجعَلُ له نوراً من بين يَدَيه حتى يُدخِلَه الجنة،

(١) كذا في نسخة الأزهر، وهي قراءة سبعية، وقرأ الكوفيون: ﴿وجَعَلَ اللَّيلَ﴾. انظر الإقناع لابن الباذش ٢/٦٤١.
(٢) تفسير الطبري ١١/٨٩.

فذلك قوله تعالى: ﴿ يَهديهم رَبُّهم بإيمانهم ﴾. والكافرُ يَمْثُلُ له عملُه في صورة سَيِّئةٍ وريحٍ مُنْتِنَةٍ، فيلازِمُ صاحبَه ويُلازُّه حتى يقذفه في النار(١). ورُوِي نحوه عن قتادة مُرسَلاً، فالله أعلم.

وقولُه: ﴿ دعواهُم فيها سبحانك اللهمَّ وتحيتُهم فيها سلامٌ وآخِرُ دعواهُم أن الحمدُ لله ربِّ العالمين ﴾، أي: هذا حالُ أهلِ الجنَّةِ.

قال ابنُ جُريج: «أُخْبِرْتُ أنَّ قوله: ﴿ دعواهُم فيها سبحانك اللهمَّ ﴾، قال: إذا مَرَّ بهم الطيرُ يشتهونَه، قالوا: سبحانَكَ اللهمَّ، وذلك دعواهُم فيأتيهم الملَكُ بما يشتهونه، فيُسلِّم عليهم، فيردُّون عليه، فذلك قولُه: ﴿ وتحيتُهم فيها سلامٌ ﴾، قال: فإذا أكلُوا حَمِدوا الله ربَّهم، فذلك قوله: ﴿ وآخر دعواهُم أن الحمدُ لله ربِّ العالمين ﴾».

وقال مقاتلُ بن حيَّانَ: إذا أراد أهلُ الجنة أن يدعُوا بالطعام قال أحدُهم: ﴿ سبحانك اللهمَّ ﴾، قال: فيقوم على أحدِهم عشرةُ آلاف خادم، مع كل خادمٍ صفحة من ذَهَبٍ، فيها طعامٌ ليس في الأخرى، قال: فيأكلُ منهن كُلِّهن.

وقال سفيان الثوريُّ: إذا أراد أحدُهم أن يدعوَ بشيءٍ قال: ﴿ سبحانك اللهمَّ ﴾.

وهذه الآيةُ فيها شَبَهٌ من قوله: ﴿ تحيتُهم يوم يلقَونه سلامٌ وأعدَّ لهم أجراً كريماً ﴾، وقولِه: ﴿ لا يسمَعون فيها لغواً ولا تأثيماً * إلا قيلاً سلاماً سلاماً ﴾، وقولِه: ﴿ سلامٌ قولاً من رب رحيم ﴾، وقولِه: ﴿ والملائكة يدخلُون عليهم من كل باب * سلامٌ عليكم بما صبرتم فنعم عُقبى الدار ﴾.

وقولُه: ﴿ وآخرُ دعواهم أن الحمدُ لله ربِّ العالمين ﴾، هذا فيه دلالةٌ على أنَّ الله تعالى هو المحمود أبداً، المعبودُ على طول المَدَى، ولهذا حَمِد نفسَه عند ابتداءِ خلقه واستمرارِه، وفي ابتداءِ كتابِه، وعند ابتداءِ تنزيلِه، حيثُ يقولُ تعالى: ﴿ الحمدُ لله الذي أنزلَ على عبده الكتابَ ﴾، ﴿ الحمدُ لله الذي خلَق السمواتِ والأرضَ ﴾، إلى غير ذلك من الأحوال التي يطولُ بسطُها، وأنه المحمودُ في الأولِ والآخِرِ، في الحياة الدنيا وفي الآخرة، في جميع الأحوال، ولهذا جاء في الحديث: «إن أهلَ الجنة يُلْهَمُون التسبيحَ والتحميدَ كما يُلهَمُون النَّفَس(٢)». وإنما يكون ذلك كذلك لما يرونَ من تضاعُفِ نِعَمِ الله عليهم، فتُكَرَّر وتُعادُ وتُزادُ، فليس لها انقضاءٌ ولا أَمَدٌ، فلا إلَه إلا هُو ولا ربَّ سِواه.

﴿ ۞ وَلَوْ يُعَجِّلُ ٱللَّهُ لِلنَّاسِ ٱلشَّرَّ ٱسْتِعْجَالَهُم بِٱلْخَيْرِ لَقُضِىَ إِلَيْهِمْ أَجَلُهُمْ ۖ فَنَذَرُ ٱلَّذِينَ لَا يَرْجُونَ لِقَآءَنَا فِى طُغْيَٰنِهِمْ يَعْمَهُونَ ﴿١١﴾ ﴾

يخبرُ تعالى عن حِلْمِه ولطفِه بعبادِه: أنه لا يَستجيبُ لهم إذا دَعَوا على أنفسِهم أو أموالِهم أو أولادِهم، في حال ضَجَرِهم وغَضَبِهم، وأنه يعلم منهم عدَمَ القصدِ إلى إرادةِ ذلك، فلهذا لا يستجيبُ لهم ـ والحالَةُ هذه ـ لطفاً ورحمةً، كما يستجيبُ لهم إذا دَعَوا لأنفسِهم أو لأموالِهم وأولادِهم بالخير والبركةِ والنماءِ، ولهذا قال: ﴿ ولو يُعجِّل الله للناسِ الشرَّ استعجالَهم بالخير لَقُضِيَ إليهم أجلُهم ﴾، أي: لو استجاب لهم كلَّما دَعَوه به في

(١) أخرجه الطبري وغير واحد، انظر تفسير الطبري ١١/٨٩، والدر المنثور ٤/٣٤٥.
(٢) أخرجه مسلم في كتاب صفة الجنة ٢/٢١٨٠ ـ ٢١٨١، والإمام أحمد في مسنده ٣/٣٤٩، ٣٥٤، ٣٨٤، كلاهما عن جابر بن عبد الله.

ذلك لأهلكهم، ولكن لا ينبغي الإكثارُ من ذلك، كما جاء في الحديث الذي رواه الحافظ أبو بكر البزَّار في مُسنده:

حَدَّثنا محمد بن معمَر، حدثنا يعقوبُ بن محمد، حدثنا حاتمُ بن إسماعيل، حدثنا يعقوبُ بن مجاهد أبو حَزْرَة، عن عبادة بن الوليد، حدثنا جابر قال: قال رسولُ الله ـ ﷺ ـ: «لا تدعُوا على أنفسكم، لا تدعُوا على أولادكم، لا تدعُوا على أموالكم. لا توافِقُوا من الله ساعةً فيها إجابةٌ فيستجيبَ لكم».

ورواه أبو داود، من حديث حاتم بن إسماعيل، به[1].

وقال البزارُ: تفرد به عبادةُ بن الوليد بن عبادةَ بن الصامتِ الأنصاري، لم يشاركه أحد فيه وهذا كقوله تعالى: ﴿ ويدعُ الإنسان بالشر دعاءَه بالخير وكان الإنسانُ عجولاً ﴾.

وقال مجاهد في تفسير هذه الآية: ﴿ ولو يُعَجِّل الله للناس الشرَّ استعجالَهم بالخير ﴾: وهو قولُ الإنسانِ لولدِه ومالِه إذا غَضِب عليه: «اللهمَّ لا تُبارِك فيه والعنه». فلو يُعجِّل لهم الاستجابة في ذلك كما يستجاب لهم في الخير، لأهلكهم.

﴿ وَإِذَا مَسَّ ٱلْإِنسَٰنَ ٱلضُّرُّ دَعَانَا لِجَنۢبِهِۦٓ أَوْ قَاعِدًا أَوْ قَآئِمًا فَلَمَّا كَشَفْنَا عَنْهُ ضُرَّهُۥ مَرَّ كَأَن لَّمْ يَدْعُنَآ إِلَىٰ ضُرٍّ مَّسَّهُۥ كَذَٰلِكَ زُيِّنَ لِلْمُسْرِفِينَ مَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ (١٢) ﴾

يخبرُ تعالى عن الإنسانِ وضَجَرِه وقَلَقِه إذا مسَّه الضر، كقولِه: ﴿ وإذا مَسَّه الشرُّ فذو دُعاءٍ عَريضٍ ﴾ أي: كثير، وهما في معنىً واحدٍ، وذلك لأنه إذا أصابته شِدَّةٌ قَلِقَ لها وجَزِع منها، وأكثر الدعاء عند ذلك، فدعا الله في كشفها وزوالها عنه في اضطجاعِه وقعُوده وقيامِه، وفي جميع أحوالِه، فإذا فرّج الله شِدَّته وكشَف كُربته، أعرضَ ونأى بجانبه، وذَهَب كأنه ما كان به من ذاك شيءٌ، ﴿مَرَّ كأن لم يدعنا إلى ضُرٍّ مسَّه ﴾.

ثم ذمَّ تعالى مَنْ هذه صفتُه وطريقتُه فقال: ﴿ كذلكَ زُيِّن للمسرفين ما كانوا يعملُون ﴾، فأما مَن رَزَقه الله الهدايةَ والسداد والتوفيقَ والرشادَ فإنه مُستثنىً مِن ذلك، كما قال تعالى: ﴿ إلا الذين صَبَرُوا وعَمِلوا الصالحاتِ ﴾، وكقولِ رسولِ الله ـ ﷺ ـ: «عَجَباً لأمر المؤمن! لا يَقضِي الله له قضاءً إلا كان خيراً له: إن أصابته ضَرَّاءُ صَبَر فكان خيراً له، وإن أصابَته سَرَّاءُ شَكَر فكان خيراً له[2]». وليس ذلك لأحدٍ إلا للمُؤمِنِ.

﴿ وَلَقَدْ أَهْلَكْنَا ٱلْقُرُونَ مِن قَبْلِكُمْ لَمَّا ظَلَمُوا۟ ۙ وَجَآءَتْهُمْ رُسُلُهُم بِٱلْبَيِّنَٰتِ وَمَا كَانُوا۟ لِيُؤْمِنُوا۟ ۚ كَذَٰلِكَ نَجْزِى ٱلْقَوْمَ ٱلْمُجْرِمِينَ (١٣) ثُمَّ جَعَلْنَٰكُمْ خَلَٰٓئِفَ فِى ٱلْأَرْضِ مِنۢ بَعْدِهِمْ لِنَنظُرَ كَيْفَ تَعْمَلُونَ (١٤) ﴾

أخبر تعالى عما أحلَّ بالقرون الماضيةِ في تكذيبهم الرسلَ فيما جاءوهم به من البيِّنات والحُجج الواضحات. ثم استخلف الله هؤلاء القومَ من بعدهم، وأرسل إليهم رسُولاً لِينظُرَ طاعتهم له واتباعَهم رسولَه، وفي صحيح مسلم من حديث أبي نَضْرةَ، عن أبي سعيد قال: قال رسولُ الله ـ ﷺ ـ: «إنَّ الدنيا حُلوةٌ خَضِرَةٌ،

(١) سنن أبي داود، كتاب الصلاة ٢/٨٨. وهو طرف من حديث أخرجه مسلم في آخر كتاب الزاهد والرقاق ٤/٢٣٠٤. وانظر تحفة الأشراف للمزّي ٢/٦٦٠ - ٦٦١.

(٢) أخرجه مسلم في كتاب الزهد ٤/٢٢٩٥، والإمام أحمد في مسنده ٤/٣٣٢ - ٣٣٣، ٦/١٥، عن صُهَيب رضي الله عنه.

وإن الله مستخلفكُم فيها فناظرٌ ماذا تعملون، فاتقوا الدنيا واتقوا النساء؛ فإنَّ أول فتنةِ بني إسرائيلَ كانت في النساءِ[1]».

وقال ابنُ جرير: حدثني المثنى، حدثنا زيدُ بن عوف أبو ربيعة فهدٌ، حدثنا حماد، عن ثابت البُناني، عن عبدِ الرحمنِ بن أبي لَيلي: أن عوف بن مالكٍ قال لأبي بكر: رأيتُ فيما يَرى النائمَ كأن سبباً[2] دُلّي من السماء، فانتُشِط[3] رسولُ الله ـ ﷺ ـ ثم أُعيد، فانتُشِطَ أبو بكر ثم ذُرِعَ[4] الناسِ حولَ المنبر، فَفَضَل عمر بثلاث أذرع إلى المنبر. فقال عمر: دعنا من رؤياك، لا أَرَبَ لنا فيها! فلما استُخلِفَ عمر قال: يا عوف، رؤياك! فقال: وهل لك في رؤياي من حاجة؟ أوَ لم تنتَهرني؟ فقال: ويحك! إني كرهتُ أن تنعى لخليفة رسول الله ـ ﷺ ـ نفسه! فقصَّ عليه الرؤيا، حتى إذا بلغ: «ذُرِعَ الناسُ إلى المنبر بهذه الثلاث الأذرع»، قال: أما إحداهن فإنه كائن خليفة. وأما الثانية فإنه لا يخاف في الله لومة لائم. وأما الثالثة فإنه شهيدٌ. قال فقال: يقولُ الله تعالى: ﴿ ثم جعلناكم خلائف في الأرض من بعدهم لننظر كيف تعملُون ﴾، فقد استُخلِفت يا ابن أُمِّ عمر فانظر كيفَ تَعملُ؟ وأما قوله: «فإني لا أخاف في الله لومةَ لائم»، فما شاء الله ! وأما قوله: ﴿ شهيد ﴾، فأنّى لعمر الشهادة والمسلمون مُطيفون به[5]؟!

﴿ وَإِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ ءَايَاتُنَا بَيِّنَٰتٍ قَالَ ٱلَّذِينَ لَا يَرْجُونَ لِقَآءَنَا ٱئْتِ بِقُرْءَانٍ غَيْرِ هَٰذَآ أَوْ بَدِّلْهُ قُلْ مَا يَكُونُ لِيٓ أَنْ أُبَدِّلَهُۥ مِن تِلْقَآيِ نَفْسِيٓ إِنْ أَتَّبِعُ إِلَّا مَا يُوحَىٰٓ إِلَيَّ إِنِّيٓ أَخَافُ إِنْ عَصَيْتُ رَبِّي عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ ﴿١٥﴾ قُل لَّوْ شَآءَ ٱللَّهُ مَا تَلَوْتُهُۥ عَلَيْكُمْ وَلَآ أَدْرَىٰكُم بِهِۦ فَقَدْ لَبِثْتُ فِيكُمْ عُمُرًا مِّن قَبْلِهِۦٓ أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴿١٦﴾ ﴾

يخبرُ تعالى عن تعنُّتِ الكفار من مشركي قُرَيش الجاحدين الحقَّ المُعرضين عنه، أنهم إذا قرأ عليهم الرسولُ ـ ﷺ ـ كتابَ الله وحُجَجه الواضِحَةَ قالوا له: ﴿ ائت بقرآنٍ غير هذا ﴾؛ أي: رُدَّ هذا وجئنا بغيره من نَمَطٍ آخَر، أو بَدِّله إلى وضع آخَر ـ قال الله لنبيه ـ صلوات الله وسلامه عليه ـ: ﴿قل ما يكونُ لي أن أُبدِّله من تلقاءِ نفسي ﴾، أي: ليس هذا إليّ، إنما أنا عبدٌ مأمورٌ، ورسولٌ مُبلِّغ عن الله: ﴿ إن أتَّبِع إلا ما يُوحَى إليَّ إني أخاف إن عصيت ربي عذاب يوم عظيم ﴾.

ثم قال مُحتجاً عليهم في صِحَّة ما جاءهم به: ﴿ قُل لو شاء الله ما تلوتُه عليكم ولا أدراكُم به ﴾، أي: هذا إنما جئتكم به عن إذنِ الله لي في ذلك وَمشيئتِه وإرادتِه، والدليلُ على أني لستُ أتقوَّله من عندي ولا افتريته أنكُم عاجزُون عن مُعارضَتِه، وأنكم تَعلَمُون صِدْقِي وأمانَتي منذ نشأتُ بينكم إلى حينَ بعثَنِي الله عز وجل، لا تَنتَقِدون عليَّ شيئاً تَغمِصُوني[6] به، ولهذا قال: ﴿ فقد لبثتُ فيكم عُمُراً من قبله أفلا تعقلون ﴾، أي: أفليس لكم عقولٌ تعرفون بها الحقَّ من الباطل؟! ولهذا لما سأل هرقلُ ملكُ الروم أبا سفيان ومن معه، فيما سأله من صفةِ النبي ﷺ قال: هل كنتم تتَّهمونه بالكذِب قبل أن يقول ما قال؟ قال أبو سفيان: فقلت: لا. وقد كان أبو

(١) مسلم، كتاب الرقاق ٢٠٩٨/٤.
(٢) أي: حَبْلاً.
(٣) أي: جُذِب إلى السماء.
(٤) أي: قُدِّر ما بينهم وبين المنبر بالذِّراع. والذِّراع: مقياس أشهر أنواعه الذِّراعُ الهاشمية، وهي ٣٢ إصبعاً، أو ٦٤ سنتيمتراً.
(٥) تفسير الطبري ٩٤/١١.
(٦) غَمَصَ عليه قولاً قاله: عابه عليه.

سفيان إذ ذاك رأسَ الكَفَرةِ وزَعيم المشركين، ومع هذا اعترف بالحق:

وَالفَضْلُ ما شَهِدَتْ بِه الأعداءُ

فقال له هِرَقلُ: فقد أعرِفُ أنه لم يكن ليدَعَ الكَذِبَ على الناس ثم يذهبَ فيكذِبَ على الله[1]!

وقال جعفرُ بن أبي طالب للنجاشي مَلِكِ الحبشة: بَعثَ الله فينا رسُولاً نعرف نَسَبه وصِدْقَه وأمانته[2]. وقد كانت مدة مُقامه ـ عليه السلام ـ بين أَظْهرِنا قبل النبوَّة أربعينَ سنةً. وعن سعيد بن المُسيَّبِ: ثلاثاً وأربعينَ سنةً. والصحيح المشهور الأول.

﴿فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ افْتَرَىٰ عَلَى اللَّهِ كَذِبًا أَوْ كَذَّبَ بِآيَاتِهِ ۚ إِنَّهُ لَا يُفْلِحُ الْمُجْرِمُونَ ﴿١٧﴾﴾

يقولُ تعالى: لا أحدَ أظلمُ ولا أعتَى ولا أشدُّ إجراماً ﴿ممن افترى على الله كَذباً﴾، وتَقوَّل على الله، وزعمَ أن الله أرسله، ولم يكن كذلك، فليس أحدٌ أكبرَ جُرماً ولا أعظم ظُلماً من هذا، ومثلُ هذا لا يخفى أمرُه على الأغبياء، فكيف يشتبه حال هذا بالأنبياء! فإن مَن قال هذه المقالةَ صادقاً أو كاذباً، فلا بدَّ أن الله يَنصب عليه من الأدلَّةِ على بِرّه أو فُجوره ما هو أظهرُ من الشمس، فإنَّ الفرق بين محمد ـ ﷺ ـ وبين مسيلمة الكذَّاب لمن شاهدهما أظهرُ من الفرق بين وقت الضُّحَى ووقتِ نصف الليل في حِنْدِس الظلماء، فَمِنْ سيما كُلٍّ منهما وكلامِه وفعاله يَستدلّ من له بصيرةٌ على صدقِ محمد ـ ﷺ ـ وكَذب مُسَيلمةَ الكذَّاب، وسَجَاحَ، والأسود العَنْسِيِّ.

قال عبد الله بن سَلَام: لما قَدِم رسولُ الله ـ ﷺ ـ المدينةَ انجفَلَ[3] الناس، فكنتُ فيمن انجفَلَ، فلما رأيتُه عرفتُ أنَّ وجهه ليس بوجه رجل كَذَّاب، فكان أولُ ما سمعتُه يقول: «يا أيها الناسُ، أفشوا السلامَ، وأطعموا الطعامَ، وصِلُوا الأرحام، وصَلُّوا بالليل والناس نيام، تدخلُوا الجنةَ بسلام[4]».

ولما قَدم ضِمَام بن ثعلبَةَ على رسول الله ـ ﷺ ـ في قومه بني سعد بن بكر قال لرسول الله فيما قال له: من رَفَع هذه السماءَ؟ قال: الله. قال: ومن نَصَبَ هذه الجبالَ؟ قال: الله. قال: ومن سَطَح هذه الأرض؟ قال: الله. قال: فبالذي رَفَع هذه السماءَ، ونصبَ هذه الجبالَ، وسَطحَ هذه الأرضَ، آللهُ أرسلَكَ إلى الناس كُلِّهم؟ قال: اللهمَّ نعم. ثم سأله عن الصلاة، والزكاة، والحجِّ، والصيام، ويحلف عند كل واحدةٍ هذه اليمينَ، ويحلف رسولُ الله ـ ﷺ ـ فقال له: صدقتَ، والذي بعثك بالحقِّ لا أَزيدُ على ذلك ولا أنقصُ[5].

فاكتفى هذا الرجلُ بِمُجرَّدِ هذا، وقد أيقن بصدقِهِ ـ صلواتُ الله وسلامُه عليه ـ بما رأى وشاهدَ من الدلائل الدالَّة عليه، كما قال حَسَّانُ بن ثابت[6]:

لَو لَم تَكُنْ فِيهِ آياتٌ مُبَيِّنَةٌ كانَتْ بَديهَتُهُ تَأتِيكَ بِالخَبَرِ

---

(١) أخرجه الشيخان، فتح الباري، كتاب بدء الوحي ٣٢/١، ومسلم، كتاب الجهاد والسِّير ١٣٩٥/٣.

(٢) أخرجه الإمام أحمد في مسنده ٢٠١/١ ـ ٢٠٣، ٢٩٠/٥ ـ ٢٩٢ من حديث طويل.

(٣) أي: ذهبوا مسرعين.

(٤) أخرجه الترمذي في أبواب صفة القيامة، عارضة الأحوذي ٣٠٠/٩، وابن ماجه في كتاب إقامة الصلاة ٤٢٣/١، والإمام أحمد في مسنده ٤٥١/٥.

(٥) سيرة ابن هشام ٥٧٣/٢، ٥٧٥.

(٦) ديوانه تحقيق الدكتور وليد عرفات ٤٨٢/١.

وأما مُسَيلِمَةُ فمن شاهَدَه من ذوي البصائر عَلِم أمرَه لا محالةَ، بأقواله الركيكة التي ليست بفصيحةٍ، وأفعاله غير الحسنةِ بل القبيحةِ، وقرآنِهِ الذي يَخلُدُ به في النار يومَ الحسرةِ والفضيحةِ، وكَم من فَرقٍ بين قوله تعالى: ﴿ الله لا إلَه إلا هو الحيُّ القيُّوم لا تأخذُه سنة ولا نومٌ له ما في السمواتِ وما في الأرض مَن ذا الذي يشفَعُ عنده إلا بإذنه يعلَمُ ما بين أيديهم وما خَلْفَهم ولا يُحِيطون بشيءٍ من عِلْمِه إلا بما شاء وَسِعَ كرسيُّه السموات والأرضَ ولا يَئُودُه حفظهُما وهو العليُّ العظيمُ ﴾، وبين عُلاكِ[1] مُسَيلِمة ـ قبحه الله ولعنه ـ «يا ضِفْدَعُ بنتَ الضِّفدعين، نقِّي كم تُنقِّين، لا الماء تُكَدِّرين، ولا الشاربَ تمنعين». وقوله ـ قُبِّح ولُعِن ـ: «لقد أنعَمَ الله على الحُبلَى. إذ أخرجَ منها نَسمةً تسعَى. من بين صِفَاقٍ وحَشاً»[2]. وقَولِهِ ـ خَذَّرَه[3] الله في نار جهنم، وقد فَعَل ـ: «الفيل وما أدراك ما الفيل؟ له زُلقُومٌ[4] طويل». وقوله ـ أبعده الله من رحمته ـ: «والعاجناتِ عَجْناً، والخابزاتِ خبزاً، واللاقمات لَقْماً، إهالةً وسَمْناً، إن قُرَيشاً قومٌ يعتدون». إلى غير ذلك من الهَذَيانات والخُرَافات التي يأنفُ الصِّبيان أن يتلفظوا بها، إلا على وجه السُّخرية والاستهزاءِ، ولهذا أرغم الله أنفه، وشَرِب يوم «حَدِيقة الموت[5]» حتفه. ومَزَّق شمله. ولعنه صحبُه وأهلُه. وقَدِمُوا على الصِّدِّيق تائبين، وجاءُوا في دين الله راغبين، فسألهم الصدِّيقُ خليفةُ الرسولِ ـ صلوات الله وسلامُه عليه، ورَضِي عنه ـ أن يقرأوا عليه شيئاً من قرآن مُسَيلِمَة ـ لعنه الله ـ فسألوه أن يَعفِيَهم من ذلك، فأبى عليهم إلا أن يقرأوا شيئاً منه ليسمعه من لم يسمعه من الناس، فيعرفُوا فضل ما هم عليه من الهدى والعلم. فقرأوا عليه من هذا الذي ذكرناه وأشباهه، فلما فرغُوا قال لهم الصديق ـ رضي الله عنه ـ: ويحكُم! أين كان يُذهَب بعقُولكم؟ والله إن هذا لم يخرُج من إلٍّ[6].

وذكروا أن وَفَد عَمْرو بن العاص على مُسَيلِمَةَ، وكان صديقاً له في الجاهلية، وكان عمرو لم يسلم بعدُ، فقال له مُسَيلِمة: ويحكَ يا عمرو! ماذا أُنزِلَ على صاحبكم ـ يعني رسول الله ـ ﷺ ـ في هذه المدة؟ فقال: لقد سَمِعتُ أصحابَه يقرأون سورةً عظيمةً قصيرةً، فقال: وما هي؟ فقال: ﴿ والعصرِ * إن الإنسانَ لفي خُسر * إلا الذين آمنوا وعملوا الصالحاتِ وتواصَوا بالحقِّ وتواصَوا بالصبر ﴾. ففكر مُسَيلمة ساعة، ثم قال: وقد أُنزِلَ عليّ مثلُه، فقال: وما هو؟ فقال: «يا وَبْرُ[7]، إنما أنا أُذنان وصَدْرٌ، وسائرك حَقْرٌ نَقْرٌ، كيف ترى يا عمرو؟». فقال له عمرو: «والله إنكَ لَتعلم أني أعلَمُ أنك لَتكذِبُ»؛ فإذا كان هذا من مشرك في حال شركه، لم يشتبه عليه حال محمد ـ ﷺ ـ وصدقه، وحالُ مُسَيلِمَة ـ لعنه الله ـ وَكذبه، فكيف بأولي البصائر والنهي، وأصحابِ العقول السليمة المستقيمة والحِجَى! ولهذا قال الله تعالى: ﴿ ومن أظلم ممن افترى على الله كذِباً أو قال أُوحِيَ إليَّ ولم يُوحَ إليه شيءٌ ومن قال سأُنزلُ مثل ما أنزلَ الله ﴾، وقال في هذه الآية الكريمة: ﴿ ومن أظلَمُ ممن افترى على الله كذباً أو كَذَّب بآياته إنه لا يُفلِحُ المجرمون ﴾، وكذلك من كَذَّب بالحقِّ الذي جاءت به الرسلُ وقامت عليه الحُجَج، لا أحدَ أظلم منه، كما جاء في الحَدِيثِ: «أعتى الناسِ على الله رجلٌ قَتَلَ نبياً، أو قتله نبيٌّ»[8].

(١) العُلاك ـ بفتح العين وضمها ـ: ما يُعلَكُ ويُمضَغ. يريد أن ما يقوله مسيلمة لا معنى له، فمثله كمثل من يُدِير العِلْك في فيه.

(٢) الصِّفاق: الجلد الباطن تحت الجلد الظاهر، وغشاءٌ ما بين الجلد والأمعاء. والحَشا: ما دون الحجاب مما يلي البطن كلّه من الكبد والطِّحال والكرش وما تبع ذلك.

(٣) أي: جعله مُلازماً للنار، يقال: خَدَّر المرأةَ: ألزمها الخِدْر، وهو سترٌ يُمَدُّ للمرأة في ناحية البيت.

(٤) في نسخة الأزهر: زلُّوم. ولم نجده، والزُّلقوم: الخرطوم للفيل.

(٥) حديقة الموت: بستان كان بأرض اليمامة. انظر خبر مقتل مسيلمة في مغازي الواقدي ٢٨٧/١، والبداية والنهاية ٣٤٥/٦ ـ ٣٤٦.

(٦) أي: من ربوبيَّة. وقيل: الأصل الجيِّد، أي: لم يجيء من الأصل الذي جاء منه القرآن.

(٧) الوَبْر: دُوَيبة على قدر السِّنَّوْرِ غبراءُ أو بيضاءُ، من دواب الصحراء، حسنة العينين، شديدة الحياء، تكون بالغَوْرِ، والحَقْر: الحقير، وحَقْرٌ نَقْرٌ إتباع، ويقال أيضاً: حَقِير نَقِير.

(٨) أخرجه الإمام أحمد في مسنده ٤٠٧/١.

﴿ وَيَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ مَا لَا يَضُرُّهُمْ وَلَا يَنفَعُهُمْ وَيَقُولُونَ هَٰٓؤُلَآءِ شُفَعَٰٓؤُنَا عِندَ ٱللَّهِ ۚ قُلْ أَتُنَبِّـُٔونَ ٱللَّهَ بِمَا لَا يَعْلَمُ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَلَا فِى ٱلْأَرْضِ ۚ سُبْحَٰنَهُۥ وَتَعَٰلَىٰ عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴿١٨﴾ وَمَا كَانَ ٱلنَّاسُ إِلَّآ أُمَّةً وَٰحِدَةً فَٱخْتَلَفُوا۟ ۚ وَلَوْلَا كَلِمَةٌ سَبَقَتْ مِن رَّبِّكَ لَقُضِىَ بَيْنَهُمْ فِيمَا فِيهِ يَخْتَلِفُونَ ﴿١٩﴾ ﴾

يُنكِرُ تعالى على المشركين الذين عَبَدوا مع الله غيره، ظانِّين أن تلك الآلهة تنفعُهم شفاعتُها عند الله، فأخبر تعالى أنها لا تنفع ولا تَضرُّ ولا تملِكُ شيئاً، ولا يقَع شيءٌ مما يزعمُون فيها، ولا يكون هذا أبداً، ولهذا قال تعالى: ﴿ قل أتنبِّئُون الله بما لا يعلم في السمواتِ ولا في الأرضِ ﴾.

وقال ابنُ جَرير: «معناه: أتخبِرُون الله بما لا يكونُ في السَّمواتِ ولا في الأرضِ؟».

ثم نزه نفسَه عن شركهم وكفرهم، فقال: ﴿ سبحانه وتعالى عما يشركون ﴾. ثم أخبر تعالى أن هذا الشرك حَادِثٌ في الناس، كائنٌ بعد أن لم يكن، وأن الناسَ كلَّهم كانوا على دين واحدٍ، وهو الإسلامُ؛ قال ابنُ عباس: كان بين آدمَ ونوح عشرةُ قرونٍ، كُلُّهم على الإسلام، ثم وقع الاختلافُ بين الناس، وعُبِدت الأصنامُ والأندادُ والأوثانُ، فبعث الله الرسل بآياتِه وبيناتِه وحُجَجِه البالغة وبراهينه الدامغةِ، ﴿ليهلِكَ من هلك عن بينة ويحيى من حَيَّ عن بينة ﴾.

وقولُه: ﴿ ولولا كلمة سبَقَت من رَبِّك لَقُضِي بينهم فيما هم فيه يختلفون ﴾، أي: لولا ما تَقَدَّم من الله تعالى أنه لا يُعَذِّب أحداً إلا بعد قيام الحُجَّةِ عليه؛ وأنه قد أَجَّلَ الخلق إلى أجلٍ معدودٍ لَقُضِي بينهم فيما فيه اختلفوا، فأسعدَ المؤمنين، وأعنَتَ الكافِرينَ.

﴿ وَيَقُولُونَ لَوْلَآ أُنزِلَ عَلَيْهِ ءَايَةٌ مِّن رَّبِّهِۦ ۖ فَقُلْ إِنَّمَا ٱلْغَيْبُ لِلَّهِ فَٱنتَظِرُوٓا۟ إِنِّى مَعَكُم مِّنَ ٱلْمُنتَظِرِينَ ﴿٢٠﴾ ﴾

أي: ويقولُ هؤلاء الكَفرة المُكَذِّبون المعاندون: «لولا أنزل على محمد آيةٌ من ربِّه»، يعنون كما أعطى الله ثمودَ الناقة، أو أن يُحوِّل لهم الصفَا ذهباً، أو يُزيح عنهم جبال مكة ويجعل مكانها بَساتين وأنهاراً، ونحو ذلك مما الله عليه قادرٌ، ولكنه حكيم في أفعاله وأقواله، كما قال تعالى: ﴿ تبارك الذي إن شاء جَعَل لك خيراً من ذلك جناتٍ تجري من تحتها الأنهارُ ويجعل لك قُصُوراً * بل كَذَّبُوا بالساعةِ وأعتدنا لمن كَذَّب بالساعة سعيراً ﴾ وقال تعالى: ﴿ وما مَنَعنا أن نرسل بالآيات إلا أن كَذَّب بها الأولون وآتينا ثمودَ الناقة مبصرةً فظلموا بها وما نُرسِلَ بالآياتِ إلا تخويفاً ﴾. يقول تعالى: إن سُنَّتي في خَلقي أنِّي إذا آتيتهم ما سألوا، فإن آمنوا وإلاَّ عاجلتُهم بالعقوبة. ولهذا لما خُيِّر رسولُ الله ـ عليه الصلاة والسلام ـ بين أن يُعطى ما سألوا فإن أجابوا وإلا عُوجلوا، وبين أن يتركهم ويُنْظِرهم، اختار إنظارهم، كما حَلَم عنهم غير مرة ـ صلواتُ الله عليه ـ ولهذا قال تعالى إرشاداً لنبيِّه إلى الجواب عما سألوا: ﴿ فقُل إنما الغيبُ لله ﴾، أي: الأمر كُلُّه لله، وهو يعلَمُ العواقِبَ في الأمور، ﴿ فانتظرُوا إني معكم من المنتَظِرين ﴾، أي: إن كنتُم لا تؤمنون حتى تُشاهدوا ما سألتم فانتظِرُوا حُكم الله فيَّ وفيكم. هذا مع أنهم قد شاهدُوا من معجزاته ـ عليه السلام ـ أعظم مما سألوا، حين أشار بحضرَتهم إلى القمر ليلةَ إبداره، فانشقَّ باثنتين: فرقةٌ من وراءِ الجبل، وفرقة من دونه. وهذا أعظم من سائر الآيات الأرضيَّة مما سَألوا وما لم يسألوا، ولو عَلِم الله منهم أنهم سَألوا ذلك استرشاداً وتثبُّتاً لأجابهم، ولكن علم أنهم إنما يسألُون عناداً وتعنُّتاً، فتركهم فيما رابهم، وعَلِم أنَّهم لا يُؤمِنُ منهم أحدٌ، كما قال تعالى: ﴿ إنَّ الذين حَقَّت عليهم كلمةُ ربِّك لا يؤمنون * ولو جاءتهم كُلُّ آية حتى يَرَوُا العذابَ الأليم ﴾. وقال تعالى: ﴿ ولو أننا

نزّلنا إليهم الملائكة وكلّمهم الموتى وحشرنا عليهم كُلَّ شيء قُبُلاً ما كانوا لِيُؤمِنوا إلا أن يشاء الله ولكنَّ أكثرَهم يجهلونَ ﴾. ولما فيهم من المُكابرة، كما قال تعالى: ﴿ ولو فتحنا عليهم باباً من السماء فظلّوا فيه يَعرُجون * لقالوا إنما سُكِّرَتْ أبصارنا بل نحن قومٌ مَسحُورونَ ﴾، وقال تعالى: ﴿ وإن يَروا كِسْفاً من السماء ساقطاً يَقولوا سحابٌ مركوم﴾. وقال تعالى: ﴿ ولو نَزّلنا عليك كتاباً في قرطاسٍ فَلَمسُوه بأيديهم لقال الذين كَفَروا إن هذا إلا سحرٌ مبين ﴾. فمثلُ هؤلاء أقلُّ من أن يُجابوا إلى ما سألوا، لأنه لا فائدةَ في جواب هؤلاءِ، لأنه دائرٌ على تعنّتهم وعِنادِهم، لكثرةِ فُجورهم وفَسادهم، ولهذا قال: ﴿ فانتَظِروا إني معكم من المُنتَظِرينَ ﴾.

﴿ وَإِذَآ أَذَقۡنَا ٱلنَّاسَ رَحۡمَةٗ مِّنۢ بَعۡدِ ضَرَّآءَ مَسَّتۡهُمۡ إِذَا لَهُم مَّكۡرٞ فِيٓ ءَايَاتِنَاۚ قُلِ ٱللَّهُ أَسۡرَعُ مَكۡرًاۚ إِنَّ رُسُلَنَا يَكۡتُبُونَ مَا تَمۡكُرُونَ ﴿٢١﴾ هُوَ ٱلَّذِي يُسَيِّرُكُمۡ فِي ٱلۡبَرِّ وَٱلۡبَحۡرِۖ حَتَّىٰٓ إِذَا كُنتُمۡ فِي ٱلۡفُلۡكِ وَجَرَيۡنَ بِهِم بِرِيحٖ طَيِّبَةٖ وَفَرِحُواْ بِهَا جَآءَتۡهَا رِيحٌ عَاصِفٞ وَجَآءَهُمُ ٱلۡمَوۡجُ مِن كُلِّ مَكَانٖ وَظَنُّوٓاْ أَنَّهُمۡ أُحِيطَ بِهِمۡ دَعَوُاْ ٱللَّهَ مُخۡلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ لَئِنۡ أَنجَيۡتَنَا مِنۡ هَٰذِهِۦ لَنَكُونَنَّ مِنَ ٱلشَّٰكِرِينَ ﴿٢٢﴾ فَلَمَّآ أَنجَىٰهُمۡ إِذَا هُمۡ يَبۡغُونَ فِي ٱلۡأَرۡضِ بِغَيۡرِ ٱلۡحَقِّۗ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنَّمَا بَغۡيُكُمۡ عَلَىٰٓ أَنفُسِكُمۖ مَّتَٰعَ ٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَاۖ ثُمَّ إِلَيۡنَا مَرۡجِعُكُمۡ فَنُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمۡ تَعۡمَلُونَ ﴿٢٣﴾ ﴾

يخبرُ تعالى أنه إذا أذاقَ الناسَ رحمةً من بعد ضَرّاءَ مَسَّتهُم، كالرَّخاء بعد الشدَّة، والخِصْبِ بعد الجَدْبِ، والمَطَرِ بعد القَحطِ، ونحو ذلك، ﴿ إذا لهم مكرٌ في آياتنا ﴾.

قال مجاهد: «استهزاءٌ وتكذيبٌ». كما قال: ﴿ وإذا مَسَّ الإنسانَ الضرُّ دعانا لِجَنبه أو قاعداً أو قائماً فلما كَشَفنا عنه ضُرَّه مَرَّ كأن لم يدعُنا إلى ضُرٍّ مَسَّه﴾. وفي الصَّحيحِ أن رسولَ الله ـ ﷺ ـ صلَّى بهم الصبح على إثرِ سماءٍ ـ مطرٍ ـ أصابهم من الليل ثم قال: «هل تدرُونَ ماذا قالَ ربُّكم الليلة؟ قالوا: اللهُ ورسولُه أعلمُ. قال: قالَ: أصبحَ من عبادي مؤمنٌ بي وكافرٌ، فأما من قال: مُطِرنا بفضل اللهِ ورَحمتِه، فذلك مؤمنٌ بي كافرٌ بالكوكب، وأما من قال: مُطِرنا بِنَوءِ كذا وكذا فذاكَ كافرٌ بي مؤمنٌ بالكوكب»[١].

وقولُه: ﴿ قُلِ الله أسرعُ مكراً ﴾، أي: أشدُّ استدراجاً وإمهالاً، حتى يظُنَّ الظانُّ من المجرمين أنه ليس بمعذَّب، وإنما هو في مُهلة، ثم يُؤخَذ على غِرَّةٍ منه، والكاتبون الكرام يكتُبون عليه جميعَ ما يفعلُه، ويُحصونه عليه، ثم يَعرِضُونه على عالم الغيبِ والشهادةِ، فيُجازِيه على الحقيرِ والجليلِ، والنقيرِ والقِطْمِير.

ثم أخبر تعالى أنه ﴿ هو الـذي يُسَيِّرُكم في البرِّ والبحر ﴾، أي: يحفظُكم ويَكلَؤُكم بحراسته، ﴿ حتَّى إذا كنتُم في الفلك وجَرين بهم بريح طَيِّبةٍ وفَرِحُوا بها ﴾، أي: بسرعة سَيرِهم رافقين، فبينما هم كذلك إذ ﴿جاءَتها﴾، أي: تلك السفنَ ﴿ ريحٌ عاصفٌ ﴾، أي: شَديدةٌ ﴿وجاءَهم الموجُ من كُلِّ مكانٍ ﴾، أي: اغتلم[٢] البحرُ عليهم، ﴿ وظنوا أنهم أُحيطَ بهم ﴾، أي: هَلَكُوا ﴿ دَعَوا الله مُخلِصين له الدِّينَ ﴾، أي: لا يدعونَ معه صنماً ولا وثناً، بل يُفرِدُونه بالدعاء والابتهال، كما قال تعالى: ﴿ وإذا مَسَّكُم الضرُّ في البحر ضَلَّ من تَدْعُونَ إلا إياه فلما نجاكم إلى البرِّ أعرضتُم وكان الإنسانُ كفوراً ﴾، وقال هاهنا: ﴿ دَعَوا الله مُخلِصينَ لهُ الدينَ لَئِن أنجيتَنا من هَذِه ﴾، أي: هذه الحالِ ﴿ لنكونَنَّ من الشاكرين ﴾، أي: لا نُشرِكُ بك أحداً، ولَنفردَنَّك بالعبادة

(١) أخرجه الشيخان، فتح الباري، كتاب الاستسقاء ٢/٥٢٢، ومسلم، كتاب الإيمان ١/٨٣ ـ ٨٤.
(٢) اغتلم البحر: هاج واضطربت أمواجه.

هناك كما أفردناك بالدُّعاء هاهنا. قال الله تعالى: ﴿ فَلَمَّا أنجاهم ﴾، أي: من تلك الورطة ﴿ إذا هُم يبغونَ في الأرضِ بغير الحقِّ ﴾، أي: كأن لم يَكُن من ذلك شيءٌ، ﴿ كأن لم يدعُنا إلى ضُرٍّ مَسَّه ﴾.

ثم قال تعالى: ﴿ يا أيُّها الناسُ إنما بغيُكم على أنفُسِكم ﴾، أي: إنما يذوقُ وبالَ هذا البغي أنتم أنفسكم ولا تَضرُّون به أحداً غيركم، كما جاء في الحديث: «ما من ذنبٍ أجدرُ أن يُعجِّل الله عُقوبَته في الدنيا مع ما يَدَّخر الله لصاحبه في الآخرة، من البغى وقَطيعة الرَّحِم»(١).

وقولُه: ﴿ متاعَ الحياة الدنيا ﴾، أي: إنما لكم متاعٌ في الحياة الدنيا الدنيئة الحقيرة، ﴿ ثم إلينا مَرجِعُكم ﴾، أي: مَصيركم ومآلكم، ﴿ فَنُنبئكم ﴾، أي: فَنُخبِرُكم بجميعِ أعمالك، ونُوفِّيكم إياها، فمن وَجَد خيراً فَلْيحمَدِ الله، ومن وَجَدَ غيرَ ذلك فلا يلومنَّ إلا نفسَه.

﴿ إِنَّمَا مَثَلُ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا كَمَآءٍ أَنزَلْنَٰهُ مِنَ ٱلسَّمَآءِ فَٱخْتَلَطَ بِهِۦ نَبَاتُ ٱلْأَرْضِ مِمَّا يَأْكُلُ ٱلنَّاسُ وَٱلْأَنْعَٰمُ حَتَّىٰٓ إِذَآ أَخَذَتِ ٱلْأَرْضُ زُخْرُفَهَا وَٱزَّيَّنَتْ وَظَنَّ أَهْلُهَآ أَنَّهُمْ قَٰدِرُونَ عَلَيْهَآ أَتَىٰهَآ أَمْرُنَا لَيْلًا أَوْ نَهَارًا فَجَعَلْنَٰهَا حَصِيدًا كَأَن لَّمْ تَغْنَ بِٱلْأَمْسِ كَذَٰلِكَ نُفَصِّلُ ٱلْءَايَٰتِ لِقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ ﴿٢٤﴾ وَٱللَّهُ يَدْعُوٓاْ إِلَىٰ دَارِ ٱلسَّلَٰمِ وَيَهْدِى مَن يَشَآءُ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴿٢٥﴾ ﴾

ضَرَب تعالى مثلاً لِزَهرةِ الحياةِ الدُّنيا وزينتها وسُرعَةِ انقضائها وزَوالها، بالنَّبات الذي أخرجَه الله من الأرض بما أنزل من السماء من الماء، مما يأكُلُ الناسُ من زَرع وثِمَارٍ، على اختلافِ أنواعِها وأصنافِها، وما تأكلُ الأنعامُ من أبٍّ وقَضْب وغير ذلك، ﴿ حتى إذا أخذت الأرضُ زُخرفَها ﴾، أي: زينتها الفانية، ﴿ وازَّيَّنت ﴾، أي: حَسُنت بما خَرَج من رُباها من زهور نَضِرَةٍ مختلفة الأشكالِ والألوانِ، ﴿ وظَنَّ أهلُها ﴾، الذين زَرَعُوها وغَرَسُوها، ﴿ أنهم قادِرُونَ عليها ﴾، أي: على جذاذِها وحَصادها، فَبيناهم كذلك إذ جاءتها صاعقةٌ، أو ريحٌ باردة، فَأيبسَت أوراقهَا، وأتلفت ثِمارها. ولهذا قال تعالى: ﴿ أتاها أمرُنا ليلاً أو نهاراً فجعلناها حَصِيداً ﴾، أي: يَبَساً بعد الخُضرَةِ والنَّضارَةِ، وقال قتادةُ: (كأن لم تغن): كأن لم تَنْعَم.

وهكذا الأمورُ بعد زَوالها كأنها لم تكن. ولهذا جاء في الحديثِ: يُؤتى بأنعم أهل الدنيا فَيُغمَسُ في النار غَمْسَةً، ثم يقال له: هلِ رأيتَ خيراً قطُّ؟ هل مَرَّ بك نعيمٌ قطُّ؟ فيقول: لا. ويؤتى بأشدِّ الناس عذاباً في الدُّنيا، فَيُغمَسُ في النعيم غَمْسَةً، ثم يقال له: هل رأيت بُؤساً قطُّ؟ فيقول: لا(٢). وقال تعالى إخباراً عن المُهلَكِينَ: ﴿ فَأَصبحُوا في دَارِهم جاثِمِين * كأن لم يغنَوا فيها ﴾(٣).

ثم قال تعالى: ﴿ كَذَلِكَ نُفَصِّل الآيات ﴾، أي: نُبيِّن الحُجَجَ والأدلَّة، ﴿ لقوم يَتَفكَّرُون ﴾، فيعتبرون بهذا المَثل في زَوال الدنيا عن أهلها سَريعاً مع اغترارِهم بها، وتَمَكُّنهم بمواعيدها وتَفَلُّتها منهم، فإنَّ من طبعها الهَرَبَ ممن طلبها، والطَّلَبَ لمن هَرَب منها، وقد ضربَ الله مثلَ الحياة الدنيا بنباتِ الأرضِ في غير ما آيةٍ من كتابه العزيز، فقال في سورة الكهف: ﴿ واضرب لهم مثلَ الحياة الدنيا كماءٍ أنزلناه من السماء فاختلَطَ به نباتُ

(١) أخرجه أبو داود والترمذي وابن ماجه، سنن أبي داود، كتاب الأدب ٤/٢٧٦، وعارضة الأحوذي، أبواب صفة القيامة ٩/٣١٥ ـ ٣١٦، وابن ماجه، كتاب الزهد ٢/١٤٠٨.

(٢) أخرجه ابن ماجه في الزهد ٢/١٤٤٥.

(٣) من الآيتين ٩٤ ـ ٩٥ من سورة هود.

الأرض فأصبح هَشِيماً تَذرُوه الرِّياحُ وكان اللهُ على كلِّ شيءٍ مُقتَدِراً ﴾، وكذا في سورة الزُّمَر والحديد[1] يضرب بذلك مثل الحياة الدنيا كماء.

وقال ابنُ جرير: حدثني الحارث، حدثنا عبد العزيز، حدثنا ابن عُيينَة، عن عَمرو بن دينار، عن عبد الرحمن بن أبي بكر بن عبد الرحمن بن الحارث بن هشام قال: سَمِعت مَرْوانَ ـ يعني ابنَ الحكم ـ يقرأ على المنبر: « وازَّيَّنَت وظنَّ أهلها أنهم قادِرونَ عليها وما كان الله لِيُهلِكَهَا إلا بِذُنُوبِ أهلـهـا»، قال: قد قرأتها وليسَت في المصحف. فقال عباسُ بن عبد الله بن عباس: هكذا يقرؤها ابنُ عباس. فأرسلوا إلى ابن عباس فقال: هكذا أقرأني أبيّ بن كعب[2]. وهذه قراءة غريبة، وكأنها زيادةٌ للتفسير.

وقولُه: ﴿ والله يدعُو إلى دار السلام ﴾ . . . الآية، لما ذكر تعالى الدنيا وسرعةَ زَوالها، رَغَّب في الجَنَّةِ ودعا إليها، وسَمَّاها دارَ السلام، أي: من الآفاتِ والنقائصِ والنكباتِ، فقال: ﴿ والله يدعُو إلى دار السلام ويهدِي من يشاء إلى صراط مستقيم ﴾.

قال أيُّوبُ، عن أبي قِلابة، عن النبي ـ ﷺ ـ قال: «قيل لي: لِتنَمْ عَينُكَ، وَلْيعقِلْ قلبُكَ، ولتسمَع أذُنك»، فنامت عيني، وعَقَل قلبي، وسَمِعَت أذني ثم قيل: «سَيِّدٌ بَنى داراً، ثم صنع مَأدُبة، وأرسل داعياً، فمن أجاب الداعيَ دخل الدار، وأكلَ من المأدُبة، ورَضِيَ عنه السَّيد. ومن لم يُجِب الدَّاعِيَ لم يدخُل الدار، ولم يأكل من المأدُبة، ولم يرضَ عنه السَّيِّد». فالله السيدُ، والدارُ الإسلامُ، والمأدُبة الجنةُ، والداعي محمدٌ ﷺ [3].

وهذا حديثٌ مرسلٌ، وقد جاء متصلاً من حديث اللَّيث، عن خالد بن يزيد، عن سعيدِ بن أبي هلالٍ، عن جابر بن عبد الله ـ رضي الله عنه ـ قال: خرج علينا رسولُ الله ـ ﷺ ـ يوماً فقال: «إني رأيتُ في المنام كأنّ جبريلَ عند رأسي، وميكائيلَ عندَ رجلي، يقول أحدُهما لصاحبه: اضرب له مثلاً. فقال: اسمع سَمِعَتْ أذنُك، واعقِل عقَلَ قَلبُك، إنما مَثَلُك ومثلُ أمّتك كمثل مَلِك اتخذ داراً، ثم بنى فيها بيتاً، ثم جعل فيها مأدُبة، ثم بعث رَسُولاً يدعُو الناسَ إلى طعامه، فمنهم من أجابَ الرسولَ، ومنهم من تَركه، فالله الملكُ، والدارُ الإسلام، والبيت الجنةُ، وأنت يا محمدُ الرسُولُ، فمن أجابك دخلَ الإسلامَ، ومن دخلَ الإسلامَ دخلَ الجنَة، ومن دخلَ الجنةَ أكلَ منها». رواه ابن جرير[3].

وقال قتادةُ: حدثني خُلَيد العَصَري، عن أبي الدَّرْداءِ قال: قال رسولُ الله ـ ﷺ ـ: «ما من يوم طلعت فيه شمسُه إلا وبِجَنْبَتَيْها ملكان يناديان، يسمعُهما خلقُ الله كلُّهم إلا الثَّقلَين: يا أيُّها الناسُ، هَلُمُّوا إلى ربِّكم، إن ما قلَّ وكفَى خيرٌ مما كَثُر وألهى». قال: وأنزلَ ذلك في القرآن، في قوله: ﴿ والله يدعُو إلى دارِ السلام ويهدِي من يشاءُ إلى صراطٍ مستقيمٍ ﴾. رواه ابن أبي حاتم، وابن جرير[4].

﴿ ۞ لِّلَّذِينَ أَحْسَنُوا الْحُسْنَىٰ وَزِيَادَةٌ وَلَا يَرْهَقُ وُجُوهَهُمْ قَتَرٌ وَلَا ذِلَّةٌ أُولَٰئِكَ أَصْحَابُ الْجَنَّةِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ ﴿٢٦﴾ ﴾

---

(١) سورة الزمر، آية ٢١، والحديد، آية ٢٠.

(٢) تفسير الطبري ١١/١٠٢ ـ ١٠٣.

(٣) أخرجه الطبري في تفسيره ١١/١٠٣ ـ ١٠٤.

(٤) أخرجه الإمام أحمد في مسنده ٥/١٩٧، والحاكم وصححه في تفسير سورة الشورى ٢/٤٤٤ ـ ٤٤٥. وانظر تفسير الطبري ١١/١٠٤.

يُخبر تعالى أَنَّ لِمَن أحسن العملَ في الدنيا بالإيمانِ والعَمَلِ الصالحِ أن يُبدِلَهُ الحُسنى في الدارِ الآخرةِ، كما قال تعالى: ﴿هل جَزَاءُ الإحسانِ إلا الإحسانُ﴾.

وقولُه: ﴿ وزيادةٌ ﴾، هي: تضعيفُ ثوابِ الأعمال بالحَسنةِ عشرُ أمثالها إلى سَبعمائة ضعفٍ، وزيادةٍ على ذلك، ويَشمَلُ ما يُعطِيهم الله في الجِنانِ من القُصور والحُورِ والرِّضا عنهم، وما أخفاه لهم من قُرَّةِ أعيُنٍ، وأفضلُ من ذلك وأعلاه النظرُ إلى وجهِهِ الكريمِ، فإنه زيادةٌ أعظم من جَميع ما أُعطُوه، لا يستحقونها بعملهم، بل بِفضلِهِ وبِرَحمتِهِ. وقد رُوِيَ تفسير الزيادة بالنظرِ إلى وجه الله الكريم، عن أبي بكر الصِّديق، وحُذَيفة بن اليمان، وعبدِ الله بن عباس، وسَعيد بن المُسيَّب، وعبد الرحمن بن أبي ليلى، وعبد الرحمن بن سابطٍ، ومجاهدٍ، وعكرمةَ، وعامرِ بن سعدٍ، وعطاءٍ، والضَّحَّاكِ، والحسنِ، وقتادةَ، والسُّدِّيِّ، ومحمدِ بن إسحاق، وغيرِهم من السَّلَفِ والخَلَف.

وقد وردت في ذلك أحاديثُ كثيرةٌ عن رسولِ الله ـ ﷺ ـ فمن ذلك ما رواه الإمامُ أحمدُ:

حدثنا عفَّانُ، أخبرنا حَمَّاد بن سَلَمة، عن ثابت البُناني، عن عبد الرحمن بن أبي ليلى، عن صُهَيب: أن رسول الله ـ ﷺ ـ تلا هذه الآية: ﴿للذين أحسنوا الحسنى وزيادةٌ﴾، وقال: إذا دخل أهلُ الجنةِ الجنةَ، وأهلُ النارِ النارَ، نادى منادٍ: يا أهلَ الجنة، إن لكم عند الله مَوعِداً يُريدُ أن يُنْجِزَكُمُوه. فيقولون: وما هو؟ ألم يُثقِّل مَوَازِينَنَا؟ ويُبيِّض وُجُوهَنا ويُدخِلْنا الجنةَ، ويُزحزِحنا من النارِ؟ قال: فَيُكشَفُ لهم الحجابُ فينظرون إليه، فوالله ما أعطاهم الله شيئاً أحبَّ إليهم من النَّظَرِ إليه، ولا أقرَّ لأعينهم[١].

وهكذا رواه مسلمٌ وجماعةٌ من الأئمة، من حديثِ حَمَّادِ بن سَلمة، به[١].

وقال ابنُ جرير: أخبرنا يونسُ، أخبرنا ابنُ وهب، أخبرنا شَبيب، عن أبانَ، عن أبي تميمة الهُجَيمِيِّ: أنه سَمِع أبا موسَى الأشعريَّ يُحدِّث عن رسولِ الله ـ ﷺ ـ: «إن الله يبعثُ يوم القيامة منادياً يُنادِي: يا أهلَ الجنة ـ بصَوْت يُسْمِعُ أوَّلهم وآخِرَهم ـ: «إن الله وَعَدكم الحسنى وزيادةً، ﴿ الحُسنَى ﴾: الجنةُ، و﴿ زيادةٌ ﴾: النظرَ إلى وجهِ الرحمنِ عَزَّ وجَلَّ»[٢].

ورواه أيضاً ابنُ أبي حاتم، من حديث أبي بكر الهُذلي، عن أبي تَمِيمة الهُجَيميِّ، به.

وقال ابنُ جرير أيضاً: حدثنا ابن حُمَيد، حدثنا إبراهيم بن المختار، عن ابن جُرَيج، عن عطاءٍ، عن كعب بن عُجرَةَ، عن النبيِّ ـ ﷺ ـ في قوله: ﴿ للذين أحسنوا الحُسنى وزيادةٌ ﴾، قال: النظرُ إلى وجهِ الرحمنِ عَزَّ وجلَّ[٢].

وقال أيضاً: حدثنا ابن عبد الرحيم[٣]، حدثنا عَمرو بن أبي سَلَمة، سَمِعت زُهَيراً، عمن سَمِعَ أبا العالية، حدثنا أُبَيِّ بن كَعب: أنه سأَلَ رسولَ الله ـ ﷺ ـ عن قول الله عز وجل: ﴿ للذين أحسَنُوا الحسنَى وزيادةٌ ﴾، قال: «الحُسنَى: الجنةُ، والزيادةُ: النظرُ إلى وجه الله عز وجل»[٢].

ورواه ابنُ أبي حاتم أيضاً من حديثِ زُهَيرٍ، به.

(١) مسند أحمد ٣٣٣/٤، ومسلم في كتاب الإيمان ١٦٣/١، وعارضة الأحوذي في أبواب صفة الجنة ١٠/١٨ ـ ١٩. وتفسير سورة يونس ٢٦٩/١١ ـ ٢٧٠. وسنن ابن ماجه، المقدمة ٦٧/١. وانظر تحفة الأشراف للمزي ١٩٨/٤ ـ ١٩٩.

(٢) تفسير الطبري ١٠٥/١١ ـ ١٠٧.

(٣) في تفسير الطبري: حدثنا ابن الرقي.

وقولُه تعالى: ﴿ وَلَا يَرْهَقُ وجوهَهم قَتَرٌ ﴾، أي: قتامٌ وسوادٌ في عَرَصات المحشَر، كما يَعْتَري وُجوهَ الكَفرةِ الفَجَرةِ من القَتَرة والغَبَرة، ﴿ ولا ذِلَّة ﴾، أي: هَوانٌ وصَغارٌ، أي: لا يحصلُ لهم إهانة في الباطن، ولا في الظاهر، بل هم كما قال تعالى في حقِّهم: ﴿ فوقاهم الله شَرَّ ذلك اليوم ولقاهم نَضْرةً وسُرُوراً ﴾، أي: نَضرةً في وُجُوهِهِم، وسُروراً في قُلوبهم. جَعَلنا الله منهم بِفَضْلِهِ ورحمَتِهِ، آمين.

﴿ وَٱلَّذِينَ كَسَبُواْ ٱلسَّيِّـَٔاتِ جَزَآءُ سَيِّئَةِۭ بِمِثْلِهَا وَتَرْهَقُهُمْ ذِلَّةٌ مَّا لَهُم مِّنَ ٱللَّهِ مِنْ عَاصِمٍ كَأَنَّمَآ أُغْشِيَتْ وُجُوهُهُمْ قِطَعًا مِّنَ ٱلَّيْلِ مُظْلِمًا أُوْلَـٰٓئِكَ أَصْحَـٰبُ ٱلنَّارِ هُمْ فِيهَا خَـٰلِدُونَ ﴿٢٧﴾ ﴾

لما أخبر تعالى عن حال السُّعداءِ الذين يُضاعِفُ لهم الحسناتِ، ويَزدادون على ذلك، عَطَف بِذِكْرِ حال الأشقياء، فَذَكر عَدله تعالى فيهم، وأنه يُجازيهم على السيِّئةِ بمثلها، لا يَزِيدُهم على ذلك، ﴿ وترهقهُم ﴾، أي: تعتريهم وتعلُوهم ﴿ ذلَّة ﴾ من معاصيهم وخوفهم منها، كما قال تعالى: ﴿ وتراهم يُعرضون عليها خاشعين من الذلِّ ينظُرون من طَرفٍ خَفيٍّ ﴾، وقال تعالى: ﴿ ولا تحسبَنَّ الله غافلاً عما يعمل الظالمون إنما يؤخِّرهم ليوم تشخَصُ فيه الأبصار * مُهطِعين مُقنِعي رُءُوسهم لا يرتدُّ إليهم طَرفُهم وأفئدتُهم هواءٌ * وأنذِرِ الناسَ يوم يأتيهم العذابُ ﴾، وقوله: ﴿ ما لَهُم من الله من عاصمٍ ﴾، أي: من مانعٍ ولا واقٍ يقيهم العذابَ، كما قال تعالى: ﴿ يقولُ الإنسانُ يومئذٍ أين المَفرُّ * كلَّا لا وَزَرَ * إلى ربك يومئذ المستقرُّ ﴾.

وقولُه: ﴿ كأنما أُغشِيَت وجوهُهم قِطَعاً من الليل مُظلِماً ﴾، إخبارٌ عن سَوادِ وُجوههم في الدار الآخرة، كما قال تعالى: ﴿ يوم تَبيضُّ وجوهٌ وتسودُّ وجوهٌ فأما الذين اسودَّت وجوهُهم أكفرتُم بعد إيمانكم فذوقُوا العذاب بما كنتم تكفرون * وأما الذين ابيضَّت وجوهُهم ففي رَحمةِ الله هم فيها خالدُونَ ﴾، وكما قال تعالى: ﴿ وجوهٌ يومئذ مُسفرةٌ * ضاحكةٌ مستبشرةٌ * ووجُوهٌ يومئذ عليها غَبَرة * ترهَقُها قَترةٌ * أولئك هم الكَفرة الفَجرة﴾.

﴿ وَيَوْمَ نَحْشُرُهُمْ جَمِيعًا ثُمَّ نَقُولُ لِلَّذِينَ أَشْرَكُواْ مَكَانَكُمْ أَنتُمْ وَشُرَكَآؤُكُمْ فَزَيَّلْنَا بَيْنَهُمْ وَقَالَ شُرَكَآؤُهُم مَّا كُنتُمْ إِيَّانَا تَعْبُدُونَ ﴿٢٨﴾ فَكَفَىٰ بِٱللَّهِ شَهِيدًۢا بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ إِن كُنَّا عَنْ عِبَادَتِكُمْ لَغَـٰفِلِينَ ﴿٢٩﴾ هُنَالِكَ تَبْلُواْ كُلُّ نَفْسٍ مَّآ أَسْلَفَتْ وَرُدُّوٓاْ إِلَى ٱللَّهِ مَوْلَىٰهُمُ ٱلْحَقِّ وَضَلَّ عَنْهُم مَّا كَانُواْ يَفْتَرُونَ ﴿٣٠﴾ ﴾

يقولُ تعالى: ﴿ ويوم نحشُرهم ﴾، أي: أهلَ الأرضِ كُلَّهم، من إنسٍ وجنٍّ، وبَرٍّ وفاجرٍ، كما قال: ﴿ وحشرناهم فلم نُغادِر منهم أحداً ﴾.

﴿ ثم نقولُ للذين أشركوا مكانَكُم أنتم وشركاؤكم ﴾، أي: الزمُوا أنتم وهُم مكاناً مُعيَّناً، امتازوا فيه عن مقام المؤمنين، كما قال تعالى: ﴿ وامتازُوا اليومَ أيها المجرمُون ﴾، وقال: ﴿ ويومَ تقوم الساعةُ يومئذٍ يَتفرَّقُونَ ﴾، وفي الآية الأخرى: ﴿ يومئذ يَصَّدَّعُونَ ﴾، أي: يصيرون صِدْعَين[١]، وهذا يكون إذا جاء الرب تعالى لفصل القضاء، ولهذا قيل ذلك[٢]. . . يَستَشفِعُ المؤمنون إلى الله تعالى أن يأتيَ لفصلِ القضاءِ ويُريحنا

(١) أي: يصيرون فرقتين.

(٢) بعده بياض. وحديث الاستشفاع تقدّم عند تفسير الآية ٣١ من سورة البقرة وخرجناه هنالك.

من مَقامنا هذا. وفي الحديثِ الآخَرِ: «نحنُ يومَ القيامةِ على كَوْم فوقَ الناسِ»(١).

وقال الله تعالى في هذه الآيةِ الكَريمةِ إخباراً عما يأمر به المشركين وأوثانهم يوم القيامة: ﴿ مكانَكُم أنتم وشركاؤكـم فَزَيَّلنا بينهم وقال شركاؤُهم ما كنتم إيانا تَعبدُون ﴾، أنكروا عبادتَهم وتَبرَّءُوا منهم، كما قال تعالى: ﴿ سيكفرونَ بعبادتهم ويكونون عليهم ضداً ﴾ الآية. وقال: ﴿ إذ تبرأَ الذين اتُّبِعُوا من الذين اتَّبعوا ﴾، وقال: ﴿ ومن أضلُّ ممن يدعو من دون الله مَن لا يستجيب له إلى يوم القيامة وهُم عن دعائهم غافلونَ * وإذا حُشِر الناس كانوا لهم أعداءً وكانوا بعبادتهم كافرين﴾. وقال في هذه الآية إخباراً عن قَول الشُّركاء فيما راجعُوا فيه عابديهم عند ادعائهم عبادتهم: ﴿فكفَى بالله شَهيداً بيننا وبينكم إن كُنَّا عن عِبَادتكم لغافلينَ﴾، أي: ما كُنَّا نشعرُ بها ولا نعلم، وإنما أنتم كنتمُ تَعبدُوننا من حيث لا ندري بكم، والله شهيد بيننا وبينكم أنَّا ما دعوناكُم إلى عبادتنا، ولا أمرناكُم بها، ولا رَضِينا منكم بذلك.

وفي هذا تبكيتٌ عظيمٌ للمشركين الذين عَبَدوا مع الله غيره، مِمَّن لا يسمَعُ ولا يُبصِرُ، ولا يُغني عنهم شيئاً، ولم يأمرهم بذلك ولا رَضِيَ به ولا أراده، بل تَبرَّأ منهم في وقتٍ أحوَج ما يكونونَ إليه، وقد تركوا عبادةَ الحيِّ القيُّوم، السميع البصير، القادر على كُلِّ شيء، العليم بِكلِّ شيء، وقد أرسلَ رُسُلَه وأنزلَ كُتُبَه، آمراً بعبادته، وحدَه لا شريك له، ناهياً عن عبادَةِ ما سواه، كما قال تعالى: ﴿ ولقد بعثنا في كُلِّ أمةٍ رسولاً أن اعبدُوا الله واجتنبُوا الطاغوتَ فمنهم من هَدَى الله ومنهم من حَقَّت عليه الضلالةُ ﴾. وقال تعالى: ﴿ وما أرسلنا من قَبلِكَ من رَسُولٍ إلا يُوحَى(٢) إليه أنه لا إلَه إلا أنا فاعبدُونِ ﴾، وقال: ﴿ واسأل مَن أرسلنا من قَبْلِكَ من رُسُلنا أجعلنا من دُونِ الرحمن آلهةً يُعبدُونَ ﴾.

والمشركون أنواعٌ وأقسامٌ كثيرون، قد ذَكَرهم الله في كتابه، وبَيَّن أحوالَهم وأقوالَهم، وردَّ عليهم فيما هُم فيه أتَمَّ ردٍّ.

وقولُه: ﴿هنالك تبلُوا كُلُّ نفسٍ ما أَسْلَفَتْ﴾، أي: في موقف الحسابِ يومَ القيامةِ تُختَبَر كُلُّ نفس وتعلَمُ ما أسلفت من خير وشر، كما قال تعالى: ﴿ يوم تُبلَى السرائرُ ﴾، وقال تعالى: ﴿ يُنَبَّأُ الإنسانُ يومئذٍ بما قَدَّم وأخَّرَ ﴾، وقال تعالى: ﴿ ونُخرِجُ له يومَ القيامة كتاباً يلقاه منشوراً * اقرأ كتابَكَ كَفَى بنفسِكَ اليومَ عليك حَسِيباً ﴾.

وقد قرأ بعضُهم: ﴿ هنالك تتلُو كُلُّ نفسٍ ما أسلفَتْ ﴾(٣)، وفَسَّرها بعضهم بالقراءة، وفسَّرها بعضهم بمعنى تتبع ما قدمته من خير وشرٍّ، وفَسَّرها بعضهم بحديثِ: «تَتْبَع كُلُّ أمةٍ ما كانت تعبُدُ، فيتبع من كان يعبدُ الشمسَ الشمسَ، ويتبَعُ من كان يعبدُ القمرَ القَمر، ويَتْبَع من كان يعبدُ الطواغيتَ الطواغيتَ...»(٤) الحديث.

وقولُه: ﴿ ورُدُّوا إلى الله مولاهم الحقِّ ﴾، أي: ورَجَعت الأمورُ كُلُّها إلى اللهِ الحَكَم العدلِ، فَفَصَّلَها، وأدخل أهلَ الجنةِ الجنةَ، وأهلَ النارِ النارَ.

(١) أخرجه الإمام أحمد ٣/٣٤٥. والكَوْمُ: المواضع المشرفة العالية، واحدها كَوْمَةٌ.
(٢) كذا في مخطوطة الأزهر، بالياء. وفي التبصرة لمكي ٥٩٧: «وقرأ حَفْصٌ: ﴿ نوحي إليهم ﴾ [أي: الآية السابعة من الأنبياء] بالنون وضمها وكسر الحاء. وقرأ حفص وحمزة والكسائي: ﴿ نُوحِي إليه ﴾ الثاني [أي: في الآية ٢٥ من هذه السورة] بالنون أيضاً وكسر الحاء. وقرأهما الباقون بالياء وفتح الحاء».
(٣) قرأ بها من السبعة حمزة والكسائي، انظر التبصرة لمكي ٥٣٤.
(٤) أخرجه الشيخان، فتح الباري كتاب التوحيد ١٣/٤١٩، ومسلم في كتاب الإيمان ١/١٦٤.

﴿ وضلَّ عنهم ﴾، أي: ذَهَب عن المشركين ﴿ ما كانوا يَفترُون ﴾، أي: ما كانوا يعبدُون من دونِ الله افتراءً عليه.

﴿ قُلْ مَن يَرْزُقُكُم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ أَمَّن يَمْلِكُ ٱلسَّمْعَ وَٱلْأَبْصَٰرَ وَمَن يُخْرِجُ ٱلْحَىَّ مِنَ ٱلْمَيِّتِ وَيُخْرِجُ ٱلْمَيِّتَ مِنَ ٱلْحَىِّ وَمَن يُدَبِّرُ ٱلْأَمْرَ ۚ فَسَيَقُولُونَ ٱللَّهُ ۚ فَقُلْ أَفَلَا تَتَّقُونَ ﴿٣١﴾ فَذَٰلِكُمُ ٱللَّهُ رَبُّكُمُ ٱلْحَقُّ ۖ فَمَاذَا بَعْدَ ٱلْحَقِّ إِلَّا ٱلضَّلَٰلُ ۖ فَأَنَّىٰ تُصْرَفُونَ ﴿٣٢﴾ كَذَٰلِكَ حَقَّتْ كَلِمَتُ رَبِّكَ عَلَى ٱلَّذِينَ فَسَقُوٓا۟ أَنَّهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ ﴿٣٣﴾ ﴾

يَحتجُّ تعالى على المشركين باعترافهم بوحدانيته ورُبوبيَّتِه على وَحدانيَّةِ الإلَه، فقال: ﴿ قُل من يرزقُكُم من السماء والأرض ﴾، أي: منِ ذا الذي يُنزِل من السَّماء ماء المطر، فَيشُقُّ الأرضَ شقاً بِقُدرته ومشيئته، فَيُخرج منها ﴿حباً * وعنباً وقضباً * وزيتوناً ونخلاً * وحَدائِقَ غُلْباً * وَفاكِهةً وَأَبًّا﴾، أإِلَه مع الله؟ فسيقولون: الله، ﴿أمن هذا الذي يرزُقكم إن أمسك رِزْقَه ﴾، وكذلك قوله: ﴿ أمَّن يملك السمعَ والأبصارَ ﴾، أي: الذي وَهَبكم هذه القُوَّة السامِعةَ، والقُوَّة الباصِرَةَ، ولو شاء لذهبَ بها وسَلَبكم إياها، كما قال تعالى: ﴿ قل هُوَ الذي أنشأكُم وَجَعَل لكم السمع والأبصارَ والأفئدة قليلاً ما تشكرون ﴾، وقال: ﴿ قل أرأيتُم إن أخذَ اللهُ سَمعَكم وأبصارَكُم وَخَتمَ على قُلُوبكم من إلَهٌ غيرُ الله يأتيكُم به ﴾.

وقولُه: ﴿ ومَن يُخرجُ الحيَّ مِن الميِّتِ ويُخرجُ الميِّتَ مِن الحَيِّ ﴾، أي: بقُدرته العظيمة ومِنَّتِه العَمِيمة. وقد تقدم ذكر الخلاف في ذلك، وأن الآية عامة في ذلك كله.

وقولُه: ﴿ ومنِ يُدَبِّر الأمرَ ﴾، أي: مَن بِيَدِه ملكوتُ كلِّ شيءٍ وهو يُجير ولا يُجَار عليه، وهو المتصرِّفُ الحاكمُ الذي لا مُعقِّب لحكمه، ولا يُسْأل عما يفعلُ وهم يُسْألُون، ﴿ يسألُه مَن في السمواتِ والأرض كُلَّ يوم هُو في شأن ﴾، فالملك كُلُّه العُلْوي والسِّفلي، وما فيهما من ملائكةٍ وإنسٍ وجانٍّ، فقيرونَ إليه، عَبِيدٌ له، خاضِعُون لديه، ﴿ فسيقولون الله ﴾، أي: هم يعلمُون ذلك ويَعترِفُون به، ﴿ فَقُل أفلا تَتَّقُون ﴾، أي: أفلا تخافونَ منه أن تَعبدُوا مَعه غيرَه بآرائكم وَجَهلِكم؟!.

وقولُه: ﴿ فذلكم الله رَبُّكم الحقُّ فماذا بعد الحقِّ إلا الضلالُ فَأنَّى تُصرفُونَ ﴾، أي: فهذا الذي اعترفتُم بأنه فاعلُ ذلك كُلِّه هو ربُّكم وإلَهكُم الحقُّ الذي يَستحِقُّ أن يُفرَدَ بالعِبَادَةِ، ﴿ فماذا بعد الحقِّ إلا الضلالُ ﴾، أي: فَكلُّ معبودٍ سواه باطلٌ، لا إلَه إلا هُوَ، واحدٌ لا شريكَ له.

﴿ فَأنَّى تُصرفونَ ﴾، أي: فكيف تُصرَفُون عن عبادتِهِ إلى عبادةِ ما سواه، وأنتم تعلمُونَ أنه الربُّ الذي خَلَق كُلَّ شيءٍ، والمتصرِّف في كلِّ شيء؟!

وقولُه: ﴿ كذلك حَقَّت كلمةُ ربِّك على الذين فَسقُوا أنهم لا يُؤمنُونَ ﴾، أي: كما كَفَر هؤلاء المشركون واستمرُّوا على شِرْكِهِم وعِبادتهم مع الله غيره، مع أنهم يَعترفون بأنه الخالقُ الرازقُ المتصرِّف في الملك وحدَه، الذي بَعَث رُسُلَه بتوحيده، فلهذا حَقَّت عليهم كلمةُ الله أنهم أشقياءُ من ساكني النار، كقوله: ﴿ قالوا بَلَى ولكن حَقَّت كلمةُ العذابِ على الكافرين ﴾.

﴿ قُلْ هَلْ مِن شُرَكَآئِكُم مَّن يَبْدَؤُا۟ ٱلْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُۥ ۚ قُلِ ٱللَّهُ يَبْدَؤُا۟ ٱلْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُۥ ۖ فَأَنَّىٰ تُؤْفَكُونَ ﴿٣٤﴾ قُلْ هَلْ مِن شُرَكَآئِكُم مَّن يَهْدِىٓ إِلَى ٱلْحَقِّ ۚ قُلِ ٱللَّهُ يَهْدِى لِلْحَقِّ ۗ أَفَمَن يَهْدِىٓ إِلَى ٱلْحَقِّ أَحَقُّ أَن يُتَّبَعَ أَمَّن لَّا يَهِدِّىٓ إِلَّآ أَن يُهْدَىٰ ۖ فَمَا لَكُمْ كَيْفَ

تَحْكُمُونَ ﴿٣٥﴾ وَمَا يَتَّبِعُ أَكْثَرُهُمْ إِلَّا ظَنًّا إِنَّ الظَّنَّ لَا يُغْنِي مِنَ الْحَقِّ شَيْئًا إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ بِمَا يَفْعَلُونَ ﴿٣٦﴾ ﴾

وهذا إبطالٌ لدعواهم فيما أشركُوا بالله غيره، وعَبَدوا من الأصنام والأنداد، ﴿ قل هل من شُركائكم من يبدأُ الخَلْقَ ثم يُعيده ﴾، أي: من بَدَأَ خَلْقَ هذه السمواتِ والأرضِ ثم يُنشِيء ما فيهما من الخَلائِق، ويُفرِّق أجرام السمواتِ والأرضِ ويُبدِّلهما [بفناء ما فيهما]، ثم يُعيدُ الخَلْقَ خَلْقاً جديداً؟ ﴿ قل الله ﴾، هو الذي يفعلُ هذا ويستقلُّ به، وحدَه لا شريكَ له، ﴿ فأنَّى تُؤفَكون ﴾، أي: فكيفَ تُصرَفُون عن طريقِ الرُّشدِ إلى الباطِلِ؟!

﴿ قُل هَل من شُركائِكم من يَهدي إلى الحقِّ قل الله يهدِي للحَقِّ ﴾، أي: أنتم تعلَمُونَ أنَّ شُركاءَكم لا تقدر على هدايةِ ضالٍّ، وإنما يَهدِي الحيارى والضُّلَّال ويُقلِّب القلوب من الغيِّ إلى الرُّشدِ اللهُ الذي لا إلَه إلا هُوَ.

﴿ أفمَن يهدِي إلى الحقِّ أحقُّ أن يُتَّبع أمَّن لا يَهدِّي إلا أن يُهدَى ﴾، أي: أفيُتَّبعُ [العبدُ الذي يهدي إلى الحقِّ ويُبصِّرُ بعد العَمَى، أم الذي لا يهدي إلى شيءٍ إلا] أن يُهدَى، لعماه وبَكَمِه؟ كما قال تعالى إخباراً عن إبراهيم أنه قال: ﴿ يا أبت لِمَ تعبدُ ما لا يسمَعُ ولا يُبصِرُ ولا يُغنِي عنك شيئاً ﴾، وقال لقومه: ﴿ أتعبدُونَ ما تَنحِتُون * والله خلقكم وما تَعمَلُون ﴾. إلى غير ذلك من الآياتِ.

وقولُه: ﴿ فما لكم كيفَ تحكُمون ﴾، أي: فما بالكم يُذهَبُ بعقولكم، كيفَ سَوَّيتُم بين الله وبين خَلقِهِ، وعَدَلتم هذا بهذا، وعبدتُم هذاوهذا؟! وهلا أفردتم الربَّ ـ جلا جلاله ـ المالك الحاكم الهادي من الضلالة بالعبادة وحدَه، وأخلصْتُم إليه الدعوة والإنابة؟!

ثم بَيَّن تعالى أنهم لا يَتَّبِعون في دينهم هذا دليلاً ولا برهاناً، وإنما هو ظَنٌّ منهم، أي: تَوَهُّم وتخيُّلٌ، وذلك لا يُغني عنهم شيئاً، ﴿ إن الله عليمٌ بما يفعلُون ﴾: تَهديدٌ لهم، ووعيدٌ شديدٌ، لأنه تعالى أخبر أنه سَيُجازيهم على ذلك أتمَّ الجزاء.

﴿ وَمَا كَانَ هَٰذَا الْقُرْآنُ أَن يُفْتَرَىٰ مِن دُونِ اللَّهِ وَلَٰكِن تَصْدِيقَ الَّذِي بَيْنَ يَدَيْهِ وَتَفْصِيلَ الْكِتَابِ لَا رَيْبَ فِيهِ مِن رَّبِّ الْعَالَمِينَ ﴿٣٧﴾ أَمْ يَقُولُونَ افْتَرَاهُ قُلْ فَأْتُوا بِسُورَةٍ مِّثْلِهِ وَادْعُوا مَنِ اسْتَطَعْتُم مِّن دُونِ اللَّهِ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ ﴿٣٨﴾ بَلْ كَذَّبُوا بِمَا لَمْ يُحِيطُوا بِعِلْمِهِ وَلَمَّا يَأْتِهِمْ تَأْوِيلُهُ كَذَٰلِكَ كَذَّبَ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ فَانظُرْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الظَّالِمِينَ ﴿٣٩﴾ وَمِنْهُم مَّن يُؤْمِنُ بِهِ وَمِنْهُم مَّن لَّا يُؤْمِنُ بِهِ وَرَبُّكَ أَعْلَمُ بِالْمُفْسِدِينَ ﴿٤٠﴾ ﴾

هذا بيانٌ لإعجاز القرآن، وأنه لا يستطيعُ البشرُ أن يأتوا بمثله، ولا بعشر سُوَرٍ، ولا بِسُورةٍ من مثله، لأنه بفصاحته وبَلاغته ووجَازته وحلاوته، واشتماله على المعاني العزيزة، النافعة في الدنيا والآخرة، لا يكون إلا من عند الله الذي لا يُشْبِهه شيءٌ في ذاته ولا صفاته، ولا في أفعاله وأقواله، فكلامُه لا يُشبِه كلامَ المخلوقين، ولهذا قال تعالى: ﴿ وما كان هذا القرآنُ أن يُفترَى من دون الله ﴾، أي: مِثلُ هذا القرآنِ لا يكونُ إلَّا من عند الله، ولا يُشبِه هذا كلامَ البَشَرِ، ﴿ ولكن تصديقَ الذي بين يَديه ﴾، أي: من الكُتُبِ المُتقدِّمة، ومُهيمناً عليها، ومُبيِّناً لما وقع فيها من التحريف والتأويل والتبديل.

وقولُه: ﴿ وتفصيلَ الكتابِ لا ريبَ فيه من ربِّ العالمين ﴾، أي: وبيانَ الأحكام والحَلال والحرام، بياناً

شافياً كافياً حقاً لا مِرْيَةَ فيه من الله ربِّ العالمين، كما تَقدَّم في حديث الحارث الأعور، عن علي بن أبي طالب: «فيه خَبَرُ ما قبلكم، ونبأُ ما بعدكم، وفَصلُ ما بينكم»[١]، أي: خَبرٌ عما سَلَف وعما سيأتي، وحُكمٌ فيما بين الناس بالشرع الذي يحبه الله ويرضاه.

وقولُه: ﴿ أم يقولون افتراه قل فأتوا بسورةٍ مثلِهِ وادعوا من استطعتُم من دُون الله إن كنتم صادقين ﴾، أي: إن ادعيتُم وافتريتُم وشككتُم في أن هذا من عند الله، وقلتم كَذِباً وميناً: «إن هذا من عند محمد»، فمحمدٌ بشر مثلكم، وقد جاء فيما زعمتُم بهذا القرآن، فأتوا أنتُم بسورةٍ مثلِه، أي: من جنسِ القرآنِ، واستعينُوا على ذلك بكل من قدَرتُم عليه من إنسٍ وجانٍّ.

وهذا هو المقامُ الثالثُ في التحدِّي، فإنه تعالى تَحدَّاهم ودَعَاهم، إن كانوا صادقين في دعواهم أنه من عند محمد، فَلْتُعَارِضُوه بنظير ما جاء به وحدَه واستعينوا بمن شئتم، وأخبر أنهم لا يَقدِرُون على ذلك، ولا سبيلَ لهم إليه، فقال تعالى: ﴿ قل لئن اجتمعتِ الإنسُ والجنُّ على أن يأتوا بمثل هذا القرآنِ لا يأتُون بمثله ولو كان بعضُهم لبعضٍ ظَهيراً ﴾، ثم تقاصر معهم إلى عشر سُوَرٍ منه، فقال في أول سورة هُودٍ: ﴿ أم يقولونَ افتراه قل فأتوا بعشر سُوَرٍ مثلِه مُفتَرَيات وادعُوا مَن استطعتُم من دون الله إن كنتُم صادقين ﴾، ثم تنازل إلى سورةٍ، فقال في هذه السورةِ: ﴿ أم يقولون افتراه قُل فأتوا بسُورةٍ مثله وادعُوا من استطعتُم من دونِ الله إن كنتم صادقينَ ﴾، وكذا في سورة البقرة، وهي مدنيَّة، تَحدَّاهم بسُورةٍ منه، وأخبر أنَّهُم لا يَستطِيعونَ ذلك أبداً، فقال: ﴿ فإن لم تفعلُوا ولن تفعلُوا فاتقوا النار ﴾... الآية.

هذا وقد كانت الفصاحةُ من سجاياهم، وأشعارُهم ومعلقاتُهم إليها المُنتهَى في هذا الباب، ولكن جاءهم من الله ما لا قِبَلَ لأحدٍ به، ولهذا آمن مَن آمن منهم بما عَرف من بلاغة هذا الكلام وحَلاوته، وجَزَالته وطَلاَوته، وإفادته وبراعته، فكانوا أعلَمَ الناسِ به، وأفهمَهم له، وأتبعَهُم له وأشدَّهم له انقياداً، كما عَرَف السحرة لِعِلْمهم بفُنُون السحر، أن هذا الذي فَعَلَه موسى ـ عليه السلام ـ لا يصدُر إلا عن مُؤيَّد مُسدَّدٍ مُرسَل من الله، وأن هذا لا يُستَطَاع لبشر إلا بإذن الله. وكذلك عيسى ـ عليه السلام ـ بُعِثَ في زمان عُلَماءِ الطِّبِّ ومعالجة المرضى، فكان يُبرِىءُ الأكمَهَ والأبرص، ويُحيي الموتى بإذن الله، وَمِثلُ هذا لا مدخَلَ للعلاج والدواء فيه، فَعرفَ مَن عَرَف منهم أنه عبد الله ورسولُه. ولهذا جاء في الصحيح، عن رسولِ الله ـ ﷺ ـ أنه قال: «ما من نَبيٍّ من الأنبياء إلا وقد أُوتِيَ من الآيات ما آمن على مثله البشرُ، وإنما كان الذي أُوتِيتُه وحياً أوحاه الله إلي، فأرجُو أن أكون أكثرهم تابعاً»[١].

وقولُه: ﴿ بل كَذَّبوا بما لم يُحِيطُوا بعلمه ولما يأتِهم تأويلُه ﴾، يقول: بل كَذَّب هؤلاء بالقرآن، ولم يفهمُوه ولا عَرَفوه، ﴿ ولما يأتِهم تأويلُه ﴾، أي: ولم يُحصِّلُوا ما فيه من الهُدَى ودين الحقِّ إلى حين تَكْذِيبهم به جهلاً وسَفَهاً: ﴿ كذلك كَذَّب الذين من قبلهم ﴾، أي: من الأمم السالفة، ﴿ فانظر كيف كان عاقبةُ الظالمين ﴾، أي: فانظر كيفَ أهلكناهم بتكذيبهم رُسُلنا ظلماً وعُلُواً! وكُفراً وعِناداً وَجهْلاً، فاحذَرُوا أيها المُكَذِّبون أن يُصِيبَكُم ما أصابهم.

وقولُه: ﴿ ومنهم مَن يُؤمِن به ومنهم مَن لا يُؤمِن به وربُّك أعلم بالمُفسِدِين ﴾، أي: وَمِن هؤلاء الذين بُعثتَ إليهم يا محمدُ مَن يُؤمِنُ بهذا القرآن، ويتبعُك وينتفعُ بما أُرسِلْتَ به، ﴿ ومنهم مَن لا يُؤمِنُ به ﴾، بل

---

(١) تقدم الحديث في فضائل القرآن أول التفسير، وخرجناه هنالك.

يموتُ على ذلك ويُبعَثُ عليه، ﴿ وَرَبُّكَ أعلمُ بالمفسدين ﴾، أي: وهو أعلمُ بمن يستحقُّ الهداية فيهدِيه، ومن يَستحِقُّ الضلالَةَ فيُضِلّه، وهو العادل الذي لا يجورُ، بل يُعطِي كُلًّا ما يستحِقُّه، تبارك وتعالى وتقدس وتنزَّه، لا إله إلا هُوَ.

﴿ وَإِن كَذَّبُوكَ فَقُل لِّي عَمَلِي وَلَكُمْ عَمَلُكُمْ أَنتُم بَرِيٓـُٔونَ مِمَّآ أَعْمَلُ وَأَنَا۠ بَرِىٓءٌ مِّمَّا تَعْمَلُونَ ﴿٤١﴾ وَمِنْهُم مَّن يَسْتَمِعُونَ إِلَيْكَ أَفَأَنتَ تُسْمِعُ ٱلصُّمَّ وَلَوْ كَانُوا۟ لَا يَعْقِلُونَ ﴿٤٢﴾ وَمِنْهُم مَّن يَنظُرُ إِلَيْكَ أَفَأَنتَ تَهْدِى ٱلْعُمْىَ وَلَوْ كَانُوا۟ لَا يُبْصِرُونَ ﴿٤٣﴾ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَظْلِمُ ٱلنَّاسَ شَيْـًٔا وَلَٰكِنَّ ٱلنَّاسَ أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ ﴿٤٤﴾ ﴾

يقولُ تعالى لنبيه ـ ﷺ ـ: وإن كَذَّبك هؤلاء المشركون، فَتبرَّأْ منهم ومن عمَلهم، ﴿ فَقُل لي عَمَلي ولكُم عملكم ﴾، كقوله تعالى: ﴿قُل يا أيها الكافرون * لا أعبدُ ما تعبدُون * ولا أنتم عابدُون ما أعبدُ * ولا أنا عابدٌ مَا عبدتُم * ولا أنتم عابدون ما أعبدُ * لكم دينكُم ولي دينِ﴾. وقال إبراهيمُ الخليل وأتباعُه لقومهم المشركين: ﴿ إنا بُرَاء منكم ومما تعبدون من دون الله كفرنَا بكم وبدَا بيننا وبينكم العداوةُ والبغضاء أبداً حتى تُؤمِنُوا بالله وحدَه ﴾.

وقولُه: ﴿ ومنهم من يَستمِعُون إليك ﴾، أي: يَسمَعُون كلامكَ الحَسَن، والقرآنَ العظيم، والأحاديثَ الصحيحةَ الفصيحةَ النافعة في القلوب والأبدان والأديان، وفي هذا كفايةٌ عظيمةٌ، ولكن ليس ذلك إليك ولا إليهم، فإنَّك لا تقدرُ على إسماع الأصم ـ وهو الأطرشُ ـ فكذلك لا تقدِرُ على هداية هؤلاء، إلا أن يشاء اللهُ.

﴿ ومنهم من ينظر إليك ﴾، أي: ينظرُون إليك وإلى ما أعطاك الله من التُّؤدة، والسَّمتِ الحَسَن، والخُلُق العظيم، والدلالة الظاهرةِ على نُبُوَّتِكَ لأولي البصائر والنُّهى، وهؤلاء ينظرونَ كما ينظرُ غيرهم، ولا يحصلُ لهم من الهداية شيءٌ مما يحصلُ لغيرهم، بل المؤمنون ينظرونَ إليك بعين الوقارِ، والكافرونَ ينظرونَ بعين الاحتقار، ﴿ وإذا رأوك إن يتخذُونك إلا هُزُواً أهذا الذي بعثَ اللهُ رسولاً * إن كادَ لَيُضِلُّنا عن آلهتنا لولا أن صَبَرنا عليها وسوفَ يعلَمُون حين يَرَون العذابَ من أضلُّ سبيلاً ﴾.

ثم أخبر تعالى أنه لا يَظلمُ أحداً شيئاً، وإن كان قد هَدَى به من هَدَى وبَصَّر به من العَمَى، وفتحَ به أعيُناً عُمياً، وآذاناً صُمّاً، وقُلُوباً غُلفاً، وأضلَّ به عن الإيمان آخرين، فهو الحاكمُ المتصرِّفُ في مُلكه بما يشاءُ، الذي لا يُسْأل عما يفعل وهم يُسألونَ، لِعِلْمِه وحِكْمَتِهِ وعَدْلِه، ولهذا قال تعالى: ﴿ إن الله لا يظلمُ الناس شيئاً ولكنَّ الناسَ أنفُسَهم يَظلِمُون ﴾. وفي الحديث عن أبي ذَرٍّ، عن النبيِّ ـ ﷺ ـ فيما يرويه عن رَبِّهِ عزَّ وجلَّ: «يا عبادي، إني حَرَّمتُ الظلمَ على نفسِي، وجعلتُه بينكم مُحرَّماً فلا تَظَالموا»... إلى أن قال في آخره: «يا عبادي، إنما هي أعمالُكم أُحصِيها لكم، ثم أُوفِّيكم إياها، فمن وَجَد خيراً فَلْيَحمد الله، ومن وَجَد غير ذلك فلا يَلُومَنَّ إلا نفسَه». رواه مسلم بطوله(١).

﴿ وَيَوْمَ يَحْشُرُهُمْ كَأَن لَّمْ يَلْبَثُوٓا۟ إِلَّا سَاعَةً مِّنَ ٱلنَّهَارِ يَتَعَارَفُونَ بَيْنَهُمْ قَدْ خَسِرَ ٱلَّذِينَ كَذَّبُوا۟ بِلِقَآءِ ٱللَّهِ وَمَا كَانُوا۟ مُهْتَدِينَ ﴿٤٥﴾ ﴾

يقول تعالى مذَكِّراً للناس قيامَ الساعة وحَشْرَهم من أجداثهم إلى عَرَصَات القيامة: كأنهم يومَ يُوافُونها لم يلبثُوا في الدنيا إلا ساعةً من النهار. كما قال تعالى: ﴿ كأنهم يومَ يرونَها لم يلبثُوا إلا عشيةً أو ضُحَاها ﴾،

(١) أخرجه مسلم في كتاب البر ٤/١٩٩٤ ـ ١٩٩٥.

وقال تعالى: ﴿ يومَ يُنفَخُ في الصور ونَحشُر المجرمين يومئذ زرقاً * يتخافتون بينهم إن لبثتم إلا عَشْراً * نحنُ أعلم بما يقولون إذ يقول أمثلهم طريقة إن لبثتم إلا يوماً ﴾، وقال تعالى: ﴿ ويوم تقومُ الساعةُ يقسِمُ المجرمون ما لَبثوا غيرَ ساعة كذلك كانوا يُؤفكون * وقال الذين أوتوا العلم والإيمان لقد لبثتم في كتابِ الله إلى يوم البعثِ فهذا يومُ البعثِ ولكنكم كنتُم لا تعلمون ﴾.

وهذا كُلُّه دليلٌ على استقصار الحياة الدنيا في الدارِ الآخرةِ كما قال: ﴿ قال كَم لبثتُم في الأرضِ عَدَد سِنينَ * قالوا لبثنا يوماً أو بعضَ يوم فاسأل العادِّين * قال إن لبثتُم إلا قليلاً لو أنكُم كنتم تعلمون﴾.

وقولُه: ﴿ يَتعارفُون بينهم ﴾، أي: يعرفُ الأبناءُ الآباءَ، والقراباتُ بعضُهم بعضاً، كما كانوا في الدنيا، ولكن كُلٌّ مشغولٌ بنفسه، ﴿ فإذا نُفِخ في الصُّورِ فلا أنسابَ بينهم يومئذ ولا يتساءَلُون ﴾، وقال تعالى: ﴿ ولا يَسأل حَميمٌ حَميماً * يُبَصَّرونهم يودُّ المجرم لو يفتدي من عذاب يومئذ بِبَنِيه * وصاحِبَتِه وأَخِيه * وفَصِيلته التي تُؤويه * ومَن في الأرض جَميعاً ثم ينجيه * كَلَّا﴾.

وقولُه: ﴿ قد خَسِر الذين كَذَّبوا بلقاء الله وما كانوا مُهتَدِين ﴾، كقوله تعالى: ﴿ ويلٌ يومئذ للمكذبين ﴾، لأنهم خَسِروا أَنفُسَهم وأهليهم يوم القيامة، ألا ذلك هو الخسرانُ المبين. فهذه هي الخسارةُ العظيمةُ، ولا خسارةَ أعظمُ من خسَارة من فُرِّق بينه وبين أحِبَّتِهِ، يومَ الحسرةِ والنَّدَامَةِ.

﴿ وَإِمَّا نُرِيَنَّكَ بَعْضَ ٱلَّذِى نَعِدُهُمْ أَوْ نَتَوَفَّيَنَّكَ فَإِلَيْنَا مَرْجِعُهُمْ ثُمَّ ٱللَّهُ شَهِيدٌ عَلَىٰ مَا يَفْعَلُونَ ﴿٤٦﴾ وَلِكُلِّ أُمَّةٍ رَّسُولٌ فَإِذَا جَآءَ رَسُولُهُمْ قُضِىَ بَيْنَهُم بِٱلْقِسْطِ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ ﴿٤٧﴾ ﴾

يقولُ تعالى مخاطباً لرسوله ـ ﷺ ـ: ﴿وإما نُرِيَنَّكَ بعضَ الذي نَعِدُهم ﴾، أي: ننتقم منهم في حياتِكَ، لتقرَّ عينُك منهم، ﴿ أو نَتوفينَّكَ فإلينا مَرجِعُهم ﴾، أي: مَصِيرُهم ومُنقَلَبهم، والله شهيدٌ على أفعالهم بعدك.

وقد قال الطبراني: حدثنا عبد الله بن أحمد، حدثنا عُقبة بن مكرم، حدثنا أبو بكر الحَنفي، حدثنا داود بن الجارود، عن أبي الطُّفيل، عن حُذَيفة بن أَسِيد، عن النبي ـ ﷺ ـ قال: «عُرِضت عليَّ أُمَّتي البارحة لدى هذه الحُجرَة، أولُها وآخرُها، فقال رجل: يا رسولَ الله، عُرِض عليك من خُلِق، فكيف من لم يُخلَق؟ فقال: صُوِّرُوا لي في الطين، حتى إني لأعرفُ بالإنسانِ منهم مِن أَحدِكم بصاحبه»[1].

ورواه عن محمد بن عثمان بن أبي شَيبة، عن عقبة بن مكرم، عن يونس بن بكير، عن زياد بن المنذر، عن أبي الطفيل، عن حُذَيفة بن أَسِيد، به نحوه[1].

وقولُه: ﴿ ولكلِّ أمةٍ رسولٌ فإذا جاء رسولُهم ﴾، قال مجاهد: يعني يوم القيامة. ﴿ قُضيَ بينهم بالقسط وهم لا يُظلَمُون ﴾، كما قال تعالى: ﴿ وأشرقتِ الأرضُ بنور ربها ووُضِعَ الكتابُ وجيءَ بالنبيين والشهداءِ وقُضِي بينهم بالحق وهم لا يُظلَمُون ﴾، فكُلُّ أمة تُعرَضُ على الله بحضرة رَسُولها، وكتابُ أعمالها من خيرٍ وشرٍّ موضوعٌ شاهدٌ عليهم، وحَفَظتهم من الملائكة شهودٌ أيضاً أُمَّةٌ بعد أمةٍ. وهذه الأمةُ الشريفةُ وإن كانت آخر الأمم في الخـلق إلا أنها أولُ الأمم يومَ القيامة يُفصَلُ بينهم، ويُقضَى لهم، كما جاء في الصَّحِيحَين عن رسولِ الله ـ ﷺ ـ أنه قال: «نحن الآخِرُون السابِقُون يوم القيامة، المقضيُّ لهم قبل الخلائق»[2]. فأمته إنما حازت قَصَب

(١) المعجم الكبير ١٨١/٣.
(٢) فتح الباري، كتاب تعبير الرؤيا ٤٢٣/١٢، ومسلم، كتاب الجمعة ٥٨٦/٢.

السَّبقِ لِشَرَفِ رَسُولها، صلواتُ الله وسلامُه عليه إلى يوم الدين.

﴿ وَيَقُولُونَ مَتَى هَٰذَا ٱلْوَعْدُ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ۝٤٨ قُل لَّآ أَمْلِكُ لِنَفْسِى ضَرًّا وَلَا نَفْعًا إِلَّا مَا شَآءَ ٱللَّهُ ۗ لِكُلِّ أُمَّةٍ أَجَلٌ ۚ إِذَا جَآءَ أَجَلُهُمْ فَلَا يَسْتَـْٔخِرُونَ سَاعَةً ۖ وَلَا يَسْتَقْدِمُونَ ۝٤٩ قُلْ أَرَءَيْتُمْ إِنْ أَتَىٰكُمْ عَذَابُهُۥ بَيَٰتًا أَوْ نَهَارًا مَّاذَا يَسْتَعْجِلُ مِنْهُ ٱلْمُجْرِمُونَ ۝٥٠ أَثُمَّ إِذَا مَا وَقَعَ ءَامَنتُم بِهِۦٓ ۚ ءَآلْـَٰٔنَ وَقَدْ كُنتُم بِهِۦ تَسْتَعْجِلُونَ ۝٥١ ثُمَّ قِيلَ لِلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ ذُوقُوا۟ عَذَابَ ٱلْخُلْدِ هَلْ تُجْزَوْنَ إِلَّا بِمَا كُنتُمْ تَكْسِبُونَ ۝٥٢ ﴾

يقولُ تعالى مخبراً عن كُفر هؤلاء المشركين في استعجَالِهم العذَاب وسُؤَالهم عن وقته قبل التعيين، مما لا فائدةَ فيه لهم، كما قال تعالى: ﴿ يَستعجِلُ بها الذين لا يُؤمِنُونَ بها والذين آمنوا مُشفِقُون منها ويعلمُون أنها الحقُّ ﴾، أي: كائنةٌ لا محالةَ وواقعةٌ، وإن لم يعلموا وقتها عيناً، ولهذا أرشدَ رسولَه - ﷺ - إلى جوابهم فقال: ﴿ قل لا أملك لنفسي ضرّاً ولا نفعاً إلا ما شاء الله ﴾، أي: لا أقولُ إلا ما علَّمني، ولا أقدِرُ على شيء مما استأثر به إلا أن يُطلعني عليه، فأنا عبدُه ورسولُه إليكم، وقد أخبرتُكم بمجيءِ الساعةِ وأنها كائنةٌ، ولم يُطلِعني على وقتها، ﴿ لكل أمة أجلٌ ﴾، أي: لكل قرنٍ مدَّة من العمر مقدَّرةٌ، فإذا انقضى أجلهم ﴿ فلا يَستأخِرُون ساعةً ولا يَستقدِمُون ﴾، كما قال تعالى: ﴿ ولن يُؤَخِّر الله نفساً إذا جاء أجلُها ﴾. ثم أخبرهم أنَّ عذابَ الله سيأتيهم بغتةً، فقال: ﴿ قل أرأيتم إن أتاكُم عذابُه بياتاً أو نهاراً ﴾، أي: ليلاً أو نهاراً، ﴿ ماذا يَستعجِلُ منه المجرمون * أَثُمَّ إذا ما وَقَع آمنتُم به ﴾، يعني: أنهم إذا جاءهم العذابُ قالوا: ﴿ ربَّنا أبصرنا وسَمِعنا فارجعنا نعمل صالحاً إنا موقنون ﴾، وقال تعالى: ﴿ فلما رأوا بأسَنا قالوا آمنا بالله وحدَه وكفرنا بما كُنَّا به مشركين * فلم يَكُ ينفعهم إيمانُهم لما رأوا بأسنا سنة الله التي قد خَلَت في عبادِهِ وخَسِر هنالك الكافِرُونَ ﴾.

﴿ ثم قيل للذين ظَلَمُوا ذوقُوا عذابَ الخلد ﴾، أي: يومَ القيامةِ يُقَال لهم هذا تبكيتاً وتقريعاً، كقوله: ﴿يوم يُدَعُّون إلى نار جهنم دعّاً * هذه النارُ التي كنتُم بها تكذبون * أفَسِحرٌ هذا أم أنتم لا تُبصِرُونَ * اصلَوها فاصبروا أو لا تَصبِرُوا سواءٌ عليكم إنما تُجزَون ما كنتم تعملون ﴾.

﴿ ۞ وَيَسْتَنۢبِـُٔونَكَ أَحَقٌّ هُوَ ۖ قُلْ إِى وَرَبِّىٓ إِنَّهُۥ لَحَقٌّ ۖ وَمَآ أَنتُم بِمُعْجِزِينَ ۝٥٣ وَلَوْ أَنَّ لِكُلِّ نَفْسٍ ظَلَمَتْ مَا فِى ٱلْأَرْضِ لَٱفْتَدَتْ بِهِۦ ۗ وَأَسَرُّوا۟ ٱلنَّدَامَةَ لَمَّا رَأَوُا۟ ٱلْعَذَابَ ۖ وَقُضِىَ بَيْنَهُم بِٱلْقِسْطِ ۚ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ ۝٥٤ ﴾

يقولُ تعالى: ويستخبرونك ﴿ أحقٌّ هو ﴾؟ أي: المَعادُ والقيامةُ من الأجداثِ بعد صيرورةِ الأجسام تراباً. ﴿ قل إي وربِّي إنه لحق وما أنتم بِمُعجِزينَ ﴾، أي: ليس صيرورتُكم تُراباً بمعجزٍ لله عن إعادتكم كما بدأكم من العدم فـ ﴿ إنما أمرهُ إذا أراد شيئاً أن يقول له كُن فيكونُ ﴾.

وهذه الآيةُ ليس لها نظيرٌ في القرآن إلا آيتان أخريان، يأمر الله تعالى رسولَه أن يُقسِم به على من أنكر المَعاد، في سورة سبأ: ﴿ وقال الذين كفرُوا لا تأتينا الساعة قل بلى وربِّي لَتأتينَّكم ﴾، وفي التغابن: ﴿ زَعَم الذين كفروا أن لن يُبعَثُوا قل بلى وربي لَتُبعثُنَّ ثم لَتُنبَّؤُنَّ بما عملتم وذلك على الله يسيرٌ ﴾.

ثم أخبر تعالى أنه إذا قامت القيامةُ يودّ الكافرُ لو افتدى من عذاب الله بِملءِ الأرض ذهباً، ﴿ وأسرُّوا الندامةَ لما رأوا العذاب وقُضِي بينهم بالقسطِ ﴾، أي: بالحقِّ، ﴿ وهم لا يُظلَمُونَ ﴾.

﴿ أَلَآ إِنَّ لِلَّهِ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۗ أَلَآ إِنَّ وَعْدَ ٱللَّهِ حَقٌّ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٥٥﴾ هُوَ يُحْىِۦ وَيُمِيتُ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴿٥٦﴾ ﴾

يُخبِرُ تعالى أنه مالكُ السمواتِ والأرضِ، وأنَّ وعدَه حقٌّ كائنٌ لا محالَةَ، وأنه يُحيي ويُميتُ وإليه مرجعهُم، وأنه القادر على ذلك، العليمُ بما تفرقَ من الأجسامِ وتمزَّقَ في سائرِ أقطارِ الأرضِ والبحارِ والقفارِ.

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ قَدْ جَآءَتْكُم مَّوْعِظَةٌ مِّن رَّبِّكُمْ وَشِفَآءٌ لِّمَا فِى ٱلصُّدُورِ وَهُدًى وَرَحْمَةٌ لِّلْمُؤْمِنِينَ ﴿٥٧﴾ قُلْ بِفَضْلِ ٱللَّهِ وَبِرَحْمَتِهِۦ فَبِذَٰلِكَ فَلْيَفْرَحُوا۟ هُوَ خَيْرٌ مِّمَّا يَجْمَعُونَ ﴿٥٨﴾ ﴾

يقول تعالى ممتناً على خَلْقِه بما أنزل إليهم من القرآن العظيم على رسوله الكريم: ﴿ يا أيها الناسُ قد جاءتكُم موعظةٌ من ربكم ﴾ أي: زاجرٌ عن الفواحش، ﴿ وشفاءٌ لما في الصُّدور ﴾، أي: من الشُّبَه والشكوك، وهو إزالةُ ما فيها من رجسٍ ودَنَس، ﴿ وهُدىً ورحمةٌ ﴾، أي: مُحَصِّلٌ لها الهدايةَ والرحمةَ من الله تعالى. وإنما ذلك للمؤمنين به والمصدِّقينَ الموقنين بما فيه، كما قال تعالى: ﴿ ونُنَزِّل من القرآن ما هو شفاءٌ ورحمةٌ للمؤمنين ولا يزيدُ الظالمين إلا خساراً﴾ وقال تعالى: ﴿ قُل هو للذين آمنوا هدىً وشفاءٌ والذين لا يؤمِنُون في آذانهم وقرٌ وهو عليهم عَمىً أولئك يُنادَون من مكانٍ بعيدٍ ﴾.

وقولُه تعالى: ﴿ قل بِفَضلِ الله وبِرَحمتِهِ فبذلك فَلْيفرحُوا هو خيرٌ مما يجمَعُون ﴾، أي: بهذا الذي جاءَهم من الله من الهدى ودين الحق فَلْيفرَحُوا، فإنه أولى ما يَفرحُون به، ﴿ هو خيرٌ مما يجمَعُون ﴾، أي: من حُطام الدنيا وما فيها من الزهرة الفانية الذاهبة لا محالةَ، كما قال ابن أبي حاتم، في تفسير هذه الآية: «وذُكر عن بقيةَ ـ يعني ابن الوليد ـ عن صفوانَ بن عمرٍو، سَمِعت أيفعَ بن عبد الكَلاَعي يقول: لما قَدِمَ خراجُ العراق إلى عمر ـ رضي الله عنه ـ خرج عُمَرُ ومولى له فجعَل عمر يعدُّ الإبل، فإذا هي أكثر من ذلك، فجعل عمر يقول: الحمد لله تعالى. ويقول مولاه: هذا والله من فَضل الله ورحمتِه. فقال عمر: كذبت. ليس هذا هو الذي يقول الله تعالى: ﴿ قل بفضل الله وبِرَحمتِهِ فبذلك فَلْيفرحُوا هو خيرٌ مما يجمعون ﴾، وهذا مما يجمعون.

وقد أسنده الحافظُ أبو القاسم الطَّبرانيُّ، فَرواه عن أبي زُرعةَ الدِّمشقي، عن حيْوة بن شُريح، عن بَقِيَّةَ، فذكره[١].

﴿ قُلْ أَرَءَيْتُم مَّآ أَنزَلَ ٱللَّهُ لَكُم مِّن رِّزْقٍ فَجَعَلْتُم مِّنْهُ حَرَامًا وَحَلَٰلًا قُلْ ءَآللَّهُ أَذِنَ لَكُمْ ۖ أَمْ عَلَى ٱللَّهِ تَفْتَرُونَ ﴿٥٩﴾ وَمَا ظَنُّ ٱلَّذِينَ يَفْتَرُونَ عَلَى ٱللَّهِ ٱلْكَذِبَ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ لَذُو فَضْلٍ عَلَى ٱلنَّاسِ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَشْكُرُونَ ﴿٦٠﴾ ﴾

قال ابنُ عباس، ومجاهدٌ، والضَّحَّاكُ، وقتادةُ، وعبدُ الرحمن بن زيد بن أسلَمَ: نَزلَت إنكاراً على المشركين فيما كانوا يُحرِّمون ويُحلِّون من البحائر والسوائب والوصائل. كقوله تعالى: ﴿ وجعلُوا لله مما ذَرأ من الحرثِ والأنعام نَصيباً ﴾... الآيات.

وقال الإمامُ أحمدُ: حدثنا محمد بن جعفر، حدثنا شعبةُ، عن أبي إسحاقَ، سمعتُ أبا الأحوصِ ـ وهو

(١) انظر الدرّ المنثور ٤/٣٦٨.

عوفُ بـن مالك بن نَضلَةَ ـ يُحدِّث عن أبيه قال: أتيتُ رسولَ الله ـ ﷺ ـ وأنا قَشِفُ[١] الهيئةِ، فقال: هل لك مال؟ قال قلتُ: نعم. قال: من أيِّ المال؟ قال قلت: من كلِّ المال، من الإبلِ والرقيقِ والخيلِ والغَنَم. فقال: إذا آتاك الله مالاً فَلْيُرَ عليك. وقال: هل تُنتجُ إبلُ قومك صِحاحاً آذانُها فَتعمِدَ إلى موسى فتقطعَ آذانَها فتقول: هذه بُحُر، وتَشُقُّها، أو تشقُّ جلودها وتقول: هذه صُرُم، وتُحرِّمها عليك وعلى أهلك؟ قال: نعم. قال: فإنَّ ما آتاك الله لكَ حلٌّ، وساعِدُ الله أشدُّ من ساعِدِك، ومُوسَى الله أحدُّ من مُوسَاكَ... وذكر تمام الحديث[٢].

ثم رواه عن سُفيانَ بن عُيَينةَ، عن أبي الزَّعراء عَمرو بن عمرو، عن عَمِّه أبي الأحوص[٣]. وعن بَهزِ بن أسدٍ، عن حَمَّادِ بن سلمةَ، عن عبد الملك بن عُمَير، عن أبي الأحوصِ، به[٣]. وهذا حديثٌ جيدٌ قويُّ الإسنادِ.

وقد أنكر تعالى على من حرّم ما أحلَّ الله، أو أحلَّ ما حَرَّم بمجرد الآراء والأهواء، التي لا مُستَنَد لها ولا دليلَ عليها. ثم تَوَعَّدهم على ذلك يوم القيامة، فقال: ﴿ وما ظَنُّ الذين يفترُونَ على اللهِ الكَذِبَ يومَ القِيامة ﴾، أي: ما ظَنُّهم أن يُصنَع بهم يومَ مرجِعِهم إلينا يومَ القيامة.

وقولُه: ﴿ إنَّ الله لَذُو فَضلٍ على الناسِ ﴾، قال ابنُ جريرٍ: في تَرْكِهِ مُعاجَلَتهم بالعُقوبةِ في الدُّنيا.

قلت: ويَحتمِلُ أن يكون المرادُ لذو فَضْلٍ على الناس فيما أباحَ لهم مما خَلَقه من المنافع في الدنيا، ولم يُحَرِّم عليهم إلاَّ ما هو ضارٌّ لهم في دُنياهم أو دِينهم.

﴿ ولكنَّ أكثَرهم لا يشكرونَ ﴾، بل يُحَرِّمون ما أنعَمَ الله عليهم، ويُضَيِّقون على أنفسهم، فيجعلونَ بعضاً حلالاً وبعضاً حراماً. وهذا قد وَقع فيه المشركون فيما شَرَّعُوه لأنفسهم، وأهل الكتاب فيما ابتدعُوه في دينهم.

وقال ابنُ أبي حاتم في تفسير هذه الآية: حدثنا أبي، حدثنا أحمد بن أبي الحَوَارِيِّ، حدثنا رَباح، حدثنا عبد الله بـن سُلَيمان، حدثنا موسى بن الصباح في قولِ الله ـ عزَّ وجلَّ ـ: ﴿ إنَّ الله لَذُو فَضلٍ على الناس ﴾، قال: إذا كان يومُ القيامة، يُؤتَى بأهل ولاية الله ـ عزَّ وجلَّ ـ فيقومون بين يدي الله ـ عز وجل ـ ثلاثةَ أصنافٍ، قال: فَيُؤتى برجلٍ من الصنف الأول فيقولُ: عبدي، لماذا عملتَ؟ فيقول: يا ربِّ، خلقتَ الجنة وأشجارها وثمارَها وأنهارها، وحُورها ونَعيمها، وما أعددتَ لأهل طاعتك فيها، فأسهرتُ ليلي وأظمأتُ نهاري شوقاً إليها. قال: فيقول الله تعالى: عبدي، إنما عملتَ للجنة، هذه الجنةُ فادخلها، ومن فَضْلي عليك أن أُعتِقَكَ من النار، ومن فَضْلِي عليك أن أُدخِلَكَ جَنَّتِي. قال: فيدخلُ هو ومن معه الجنةَ. قال: ثم يُؤتَى برجل من الصِّنف الثاني، قال: فيقول: عَبدِي، لمـاذا عملتَ؟ فيقول: يا ربِّ، خلقتَ ناراً وخلقت أغلالَها وسَعِيرَها وسَمُومها ويَحمُومَها وما أعددتَ لأعدائِكَ وأهلِ معصِيَتكَ فيها، فأسهرتُ ليلي وأظمأتُ نهاري خَوفاً منها. فيقول: عبدِي، إنما عَمِلتَ ذلك خوفاً من ناري، فإني قد أعتقتُكَ من النار، ومن فَضْلِي عليك أن أُدخِلَك جنتي. فيدخلُ هو ومن معه الجنةَ. ثم يُؤتَى برجلٍ من الصِّنف الثالث، فيقول: عبدي، لمـاذا عَملت؟ فيقول: ربِّ، حُبّاً لك، وشوقاً إليكَ، وعزَّتِك لقد أسهرتُ ليلي وأظمأتُ نهاري شوقاً إليك وحُباً لكَ. فيقولُ تبارك وتعالى: عبدِي، إنَّما عملت

(١) يقال: قَشِفَ فلان قَشَفاً: إذا كان رث الهيئة.
(٢) مسند الإمام أحمد ٣/٤٧٣.
(٣) مسند الإمام أحمد ٤/١٣٦ ـ ١٣٧، ٣/٤٧٣ ـ ٤٧٤.

حُبّاً لي وشوقاً إليَّ، فيتجلَّى له الربُّ جل جلاله، ويقول: ها أنا ذا، انظر إلي. ثم يقول: من فَضْلِي عليك أن أعتقَك من النار، وأبيحكَ جنتي، وأزيرَك ملائكتي، وأسلِّم عليك بنفسي. فيدخل هو ومن معه الجنةَ.

﴿ وَمَا تَكُونُ فِي شَأْنٍ وَمَا تَتْلُوا مِنْهُ مِن قُرْءَانٍ وَلَا تَعْمَلُونَ مِنْ عَمَلٍ إِلَّا كُنَّا عَلَيْكُمْ شُهُودًا إِذْ تُفِيضُونَ فِيهِ وَمَا يَعْزُبُ عَن رَّبِّكَ مِن مِّثْقَالِ ذَرَّةٍ فِي الْأَرْضِ وَلَا فِي السَّمَاءِ وَلَا أَصْغَرَ مِن ذَٰلِكَ وَلَا أَكْبَرَ إِلَّا فِي كِتَابٍ مُّبِينٍ (٦١) ﴾

يخبر تعالى نبيه ـ صلواتُ الله عليه وسلامُه ـ أنَّه يعلم جميعَ أحوالِه وأحوالَ أُمَّتِه، وجميعَ الخلائقِ في كُلِّ ساعةٍ وآنٍ ولحظة، وأنه لا يعزُبُ عن علمه وبصره مثقالُ ذَرَّةٍ في حَقارتها وصِغَرها في السَّمواتِ ولا في الأرضِ، ولا أصغرَ منها ولا أكبرَ إلا في كتابٍ مُبين، كقولِهِ: ﴿ وعنده مَفَاتِحُ الغيبِ لا يعلَمُها إلاَّ هو ويعلَمُ ما في البرِّ والبحر وما تسقطُ من ورقةٍ إلاَّ يعلمُها ولا حَبَّةٍ في ظُلُماتِ الأَرْضِ ولا رَطْبٍ ولا يابسٍ إلا في كتابٍ مُبين ﴾، فأخبر تعالى أنه يعلَمُ حركَةَ الأشجارِ وغيرِها من الجَمادَاتِ وكذلك الدوابُّ السارحةُ، في قوله: ﴿ وما من دابَّةٍ في الأرض إلا على الله رِزْقُها ويعلم مُستقرَّها ومستودَعَها كلٌّ في كتابٍ مبين ﴾.

وإذا كان هذا عِلْمَه بحركات هذه الأشياءِ، فكيف بعِلْمِهِ بحركات المُكلَّفين المأمورين بالعبادة، كما قال تعالى: ﴿وتوكَّل على العزيز الرحيم * الذي يراك حين تقومُ وتَقلُّبك في السَّاجِدِين ﴾، ولهذا قال تعالى: ﴿ وما تكونُ في شأنٍ وما تتلُو منه من قرآنٍ ولا تعمَلُونَ من عَمَلٍ إلا كُنَّا عليكم شُهُوداً إذ تُفِيضُون فيه ﴾، أي: إذ تأخذُون في ذلك الشيءِ نحن مُشاهِدُون لكم راءُون سامِعُونَ، ولهذا قال ـ عليه السلام ـ لما سأله جبريلُ عنِ الإحسانِ: «أن تعبُدَ الله كأنَّكَ تَراهُ، فإن لم تَكن تَراه فإنَّه يَراكَ»(١).

﴿ أَلَا إِنَّ أَوْلِيَاءَ اللَّهِ لَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ (٦٢) الَّذِينَ ءَامَنُوا وَكَانُوا يَتَّقُونَ (٦٣) لَهُمُ الْبُشْرَىٰ فِي الْحَيَوٰةِ الدُّنْيَا وَفِي الْآخِرَةِ لَا تَبْدِيلَ لِكَلِمَاتِ اللَّهِ ذَٰلِكَ هُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ (٦٤) ﴾

يخبرُ تعالى أن أولياءه وهم الذين آمنوا وكانوا يَتَّقُون ـ كما فَسَّرهم ربُّهم، فكُلُّ من كان تقيّاً كان لله ولياً ـ: أنه ﴿ لا خَوفٌ عليهم ﴾ فيما يَستقبلون من أهوال القيامة، ﴿ ولا هم يَحزنُون ﴾، على ما وراءهم في الدنيا.

وقال عبدُ الله بن مسعود، وابنُ عباس، وغيرُ واحدٍ من السَّلَفِ، أولياءُ الله الذين إذا رُءُوا ذُكِـرَ الله.

وقد وَرَد هذا في حديث مرفوع كما قال البزَّارُ:

حدثنا عليُّ بن حَرب الرازيُّ، حدثنا محمد بن سَعيد بن سابق، حدثنا يعقوبُ بن عبدِ الله الأشعَريُّ ـ وهو القُمِّي ـ عن جعفر بن أبي المغيرة، عن سعيد بن جُبَير، عن ابن عباس قال: قال رجلٌ: يا رسول الله، مَنْ أولياءُ الله؟ قال: «الذين إذا رُءُوا ذُكر الله». ثم قال البزَّارُ: وقد رُوي عن سعيد مرسلاً(٢).

وقال ابنُ جرير: حدثنا أبو هِشَام الرفاعيُّ، حدثنا أبو فُضَيل، حدثنا أبي، عن عُمَارة بن القَعقاع، عن أبي زُرعَةَ بن عَمرو بن جَرير البَجَلي، عن أبي هُرَيرة ـ رضي الله عنه ـ قال: قال رسولُ الله ـ ﷺ ـ: «إنَّ من عبادِ الله عباداً يَغبِطُهم الأنبياءُ والشهداءُ. قيل: من هم يا رسولَ الله؟ لعلنا نُحبُّهم. قال: هم قوم تحابُّوا في الله من غير

(١) أخرجه الشيخان في كتاب الإيمان، فتح الباري ١/١١٤، ومسلم ١/٣٧.
(٢) كشف الأستار عن زوائد البزار، كتاب الزهد ٤/٢٤١.

أموال ولا أنساب، وجوهُهم نورٌ على منابِرَ من نورٍ، لا يخافُونَ إذا خافَ النَّاسُ، ولا يحزَنُون إذا حَزِن النَّاسُ». ثم قرأ: ﴿ أَلَا إِنَّ أَوْلِيَاءَ اللَّهِ لَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴾(١).

ثم رواه وأيضاً أبو داودَ، من حديث جَرير، عن عُمَارة بن القَعقاعِ، عن أبي زُرعةَ بن عمرو بن جَرير، عن عُمَر بن الخطاب ـ رضي الله عنه ـ عن النبي ـ ﷺ ـ بمثله(١).

وهذا أيضاً إسنادٌ جيِّدٌ، إلا أنه منقطع بين أبي زُرعة وعُمَر بن الخطاب، والله أعلم.

وفي حديث الإمام أحمد، عن أبي النَّضر، عن عبد الحميد بن بَهرام، عن شهر بن حَوشب، عن عبد الرحمن بن غَنْمٍ، عن أبي مالك الأشعريِّ قال: قال رسولُ الله ـ ﷺ ـ: «يأتي من أفناءِ(٢) الناسِ ونَوَازعِ القبائِلِ قومٌ لم تتصل بينهم أرحامٌ متقاربةٌ، تحابُّوا في الله، وتَصافَوا في الله، يَضَع الله لهم يومَ القيامة منابرَ من نور، فَيُجلِسُهم عليها، يفزع الناسُ ولا يفزعون، وهم أولياءُ الله، الذين لا خوفٌ عليهم ولا هم يحزَنُونَ». والحديث مُتطوّل(٣).

وقال الإمامُ أحمدُ: حدثنا عبدُ الرزَّاق، أخبرنا سفيانُ، عن الأعمش، عن ذكوانَ أبي صالح، عن رجل، عن أبي الدَّرْدَاء ـ رضي الله عنه ـ عن النبي ـ ﷺ ـ في قوله: ﴿ لَهُمُ الْبُشْرَىٰ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَفِي الْآخِرَةِ ﴾، قال: «الرؤيا الصالحةُ يراها المسلمُ، أو تُرَى له»(٤).

وقال ابنُ جرير: حدثني أبو السائب، حدثنا أبو مُعَاويةَ، عن الأعمش، عن أبي صالح، عن عطاءِ بن يَسَارٍ، عن رجل من أهل مصر، عن أبي الدرداء في قوله: ﴿ لَهُمُ الْبُشْرَىٰ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَفِي الْآخِرَةِ ﴾، قال: سأل رجل أبا الدرداء عن هذه الآية، فقال: لقد سألتَ عن شيءٍ ما سمعتُ أحداً سأل عنه بعد رَجُل سأل عنه رسولَ الله، فقال: «هي الرؤيا الصالحةُ يراها الرجلُ المسلمُ، أو تُرَى له، بُشراه في الحياة الدنيا، وبُشراه في الآخرة الجنة»(٥).

ثم رواه ابنُ جرير من حديث سفيانَ، عن ابن المُنكَدِرِ، عن عطاءِ بن يَسَارٍ، عن رَجُلٍ من أهل مصر: أنه سأل أبا الدرداء عن هذه الآيةِ، فذكر نحو ما تَقَدَّم(٥).

وقال ابنُ جرير: حدثني المثنَّى، حَدَّثنا الحجاجُ بن مِنهَالٍ، حَدَّثنا حَمَّاد بن زيد، عن عاصم بن بَهْدَلَة، عن أبي صالح قال: سَمِعتُ أبا الدرداء، وسُئِل عن: ﴿ الَّذِينَ آمَنُوا وَكَانُوا يَتَّقُونَ * لَهُمُ الْبُشْرَىٰ ﴾... فذكر نحوَه سواءً.

وقال الإمامُ أحمدُ: حدثنا عفَّان، حدثنا أبانُ، حدثنا يحيى، عن أبي سَلَمة، عن عُبادَةَ بن الصَّامتِ: أنه سأل رسول الله ـ ﷺ ـ فقال: يا رسولَ الله، أرأيتَ قولَ الله تعالى: ﴿ لَهُمُ الْبُشْرَىٰ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَفِي الْآخِرَةِ ﴾؟ فقال: «لقد سألتني عن شيءٍ ما سألني عنه أحدٌ من أمتي ـ أو: أحدٌ قبلك ـ قال: تلك الرؤيا الصالحة، يَرَاها الرجلُ الصالحُ أو تُرَى له»(٦).

---

(١) تفسير الطبري ١١/١٣٢، وسنن أبي داود، كتاب البيوع ٣/٢٨٨.
(٢) الأفناء من الناس: الأخلاط، لا يُدرَى من أيِّ قبيلة هم؟
(٣) مسند الإمام أحمد ٥/٣٤٣.
(٤) مسند الإمام أحمد ٦/٤٤٥.
(٥) تفسير الطبري ١١/١٣٤.
(٦) مسند الإمام أحمد ٥/٣١٥.

وكذا رَواه أبو داودَ الطَّيَالسيُّ، عن عِمران القَطَّانِ، عن يحيى بن أبي كَثير، به. ورواه الأوزاعيُّ، عن يحيى بن أبي كثير، فذكره. ورواه عليُّ بن المبارك، عن يحيى، عن أبي سَلَمة قال: نُبِّئنا عن عُبادَةَ بن الصَّامِتِ، سأل رسولَ الله - ﷺ - عن هذه الآية، فذكره.

وقال ابنُ جرير: حدثني أبو حُمَيد الحِمصيُّ، حدثنا يحيى بن سَعيد، حدثنا عُمَر بن عَمرو بن عبد الأحْمُوسي، عن حُمَيد بن عبد الله المُزَنيِّ قال: أتى رجلٌ عُبادَةَ بن الصَّامت فقال: آيةٌ في كتاب الله أسألُكَ عنها، قولُ الله تعالى: ﴿ لهم البُشرى في الحياة الدنيا ﴾؟ فقال عُبادَةُ: ما سألني عنها أحدٌ قبلك، سألت عنها نَبِيَّ الله فقال مثلَ ذلك: «ما سألني عنها أحدٌ قبلَكَ. الرؤيا الصالحة، يراها العبدُ المؤمِنُ في المنام أو تُرَى له»(١).

ثم رواه من حديث موسى بن عُبَيدة، عن أيوب بن خالد بن صَفوان، عن عُبادَةَ بن الصامت: أنه قال لرسول الله - ﷺ -: ﴿ لهم البُشرى في الحياةِ الدنيا وفي الآخرة ﴾، فقد عَرفنا بُشرى الآخرة الجنة، فما بُشرى الدنيا؟ قال: «الرؤيا الصالحة يراها العبد أو تُرَى له، وهي جُزءٌ من أربعةٍ وأربعينَ جُزءاً - أو سبعينَ جزءاً - من النُّبوةِ»(١).

وقال أحمدُ أيضاً: حَدَّثنا بَهْز، حدثنا حَمَّاد، حدثنا أبو عمران، عن عبد الله بن الصامت، عن أبي ذَرٍّ أنه قال: يا رسولَ الله، الرجلُ يعملُ العملَ فيحمَدُه الناسُ عليه، ويثنُونَ عليه به، فقال رسولُ الله ﷺ: «تلك عاجِلُ بشرى المؤمن»(٢). رواه مسلم(٢).

وقال أحمد أيضاً: حدثنا حَسَن - يعني الأشيب - حدثنا ابنُ لَهِيعة، حدثنا دَرَّاج، عن عبد الرحمن بن جُبير، عن عبد الله بن عَمرو، عن رسول الله - ﷺ - أنه قال: ﴿ لهم البُشرى في الحياة الدُّنيا وفي الآخرة ﴾، قال: الرؤيا الصالحة يُبَشَّرُها المؤمنُ هي جزءٌ من تسعةٍ وأربعين جزءاً من النبوة، فَمَن رأى ذلك فَلْيُخبِر بهَا، ومن رأى سوى ذلك فإنما هو من الشيطانِ لِيَحْزُنه، فَلْينفُثْ عن يساره ثلاثاً، وَلْيُكبِّر ولا يُخبِرْ بها أحداً»(٣). لم يخرجوه.

وقال ابنُ جَرير: حدثني يونس، أنبأنا ابن وَهب، حدثني عَمرو بن الحارث أن دَرَّاجاً أبا السَّمح حَدَّثه عن عبد الرحمن بن جُبَير، عن عبد الله بن عَمرو، عن رسولِ الله - ﷺ - أنه قال: «﴿ لهم البُشرى في الحياةِ الدنيا ﴾، الرؤيا الصالحة يُبَشَّرُها المؤمنُ، جزءٌ من ستةٍ وأربعين جزءاً من النبوَّةِ».

وقال أيضاً ابنُ جرير: حدثني محمد بن حاتم المؤدِّب، حدثنا عَمَّار بن محمد، حدثنا الأعمش، عن أبي صالح، عن أبي هُرَيرة، عن النبي - ﷺ - ﴿ لهم البشرى في الحياة الدنيا وفي الآخرة ﴾، قال: «هي في الدنيا الرؤيا الصالحةُ، يَراها العبد أو تُرَى له، وهي في الآخرة الجنة».

ثم رَواه عن أبي كُرَيب، عن أبي بكر بن عياش، عن أبي حُصَين، عن أبي صالح، عن أبي هُرَيرة أنه قال: الرؤيا الحسنة بُشرى من الله، وهي من المُبَشِّرات. هكذا رواه من هذه الطريق موقوفاً.

وقال أيضاً: حدثنا أبو كُرَيب، حدثنا أبو بكر، حدثنا هشام، عن ابن سيرين، عن أبي هُرَيرة قال: قال رسولُ الله - ﷺ -: «الرؤيا الحسنةُ هي البشرى، يَرَاها المسلم أو تُرَى له».

---

(١) تفسير الطبري ١١/١٣٤ - ١٣٥.
(٢) مسند أحمد ٥/١٥٦، ومسلم، كتاب البرّ ٤/٢٠٣٤.
(٣) مسند أحمد ٢/٢١٩ - ٢٢٠. ونَفَث يَنْفِث - بكسر العين وضمها - نَفْثاً ونَفَثاناً: نَفَخ. ونَفَثَ الشيءَ من فيه: رمى به.

وقال ابنُ جرير: حدثني أحمد بن حماد الدُّولابيُّ، حدثنا سُفيانُ، عن عُبيد الله بن أبي يزيد، عن أبيه، عن سِبَاع بن ثابت، عن أم كُرزٍ الكَعْبِيَّةِ: سَمِعتُ رسول الله ـ ﷺ ـ يقول: «ذهبتِ النبوَّةُ وبَقِيتِ المُبشِّراتُ»(١).

وهكذا رُوِيَ عن ابن مسعودٍ، وأبي هُرَيرة، وابن عباس، ومجاهدٍ، وعُروةَ بن الزُّبيرِ، ويحيى بن أبي كثير، وإبراهيمَ النَّخَعِي، وعطاء بن أبي رباح: أنهم فَسَّروا ذلك بالرؤيا الصالحة.

وقيل: المرادُ بذلكَ بُشرى الملائكةِ للمؤمن عند احتضاره بالجَنَّةِ والمغفِرَةِ كما في قوله تعالى: ﴿ إنَّ الذين قالوا ربُّنا الله ثم استقاموا تتنزل عليهم الملائكة ألا تخافوا ولا تحزنُوا وأبشروا بالجنة التي كنتم توعدون * نحنُ أولياؤكم في الحياة الدنيا وفي الآخرة ولكم فيها ما تشتهي أنفسكم ولكم فيها ما تَدَّعون * نُزُلاً من غَفُور رَحِيمٍ ﴾.

وفي حديث البراء: إن المؤمن إذا حَضَره الموت جاءه ملائكةٌ بيضُ الوُجُوه، بيضُ الثيابِ، فقالوا: اخرُجِي أيتها الروحُ الطَّيبة إلى رَوْحٍ ورَيحان، وربٍّ غيرِ غضْبَانَ. فتخرُجُ من فَمِهِ، كما تَسِيلُ القطرةُ من فَمِ السِّقَاءِ(٢).

وأما بُشراهم في الآخرة، فكما قال تعالى: ﴿ لا يحزنُهم الفزعُ الأكبرُ وتتلقاهم الملائكة هذا يومُكم الذي كنتم تُوعَدُون ﴾، وقال تعالى: ﴿ يوم تَرَى المؤمنين والمؤمناتِ يسعى نورُهم بين أيديهم وبأيمانِهم بُشرَاكُم اليوم جناتٌ تجري من تحتها الأنهار خالدين فيها ذلك هو الفوز العظيم ﴾.

وقولُه: ﴿ لا تبديلَ لكلماتِ الله ﴾، أي: هذا الوعدُ لا يُبدَّل ولا يُخلَفُ ولا يُغيَّر، بل هو مُقرَّر مُثبتٌ كائن لا محالةَ: ﴿ ذلك هو الفوزُ العظيمُ ﴾.

﴿ وَلَا يَحْزُنكَ قَوْلُهُمْ إِنَّ ٱلْعِزَّةَ لِلَّهِ جَمِيعًا هُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ ﴿٦٥﴾ أَلَآ إِنَّ لِلَّهِ مَن فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَن فِى ٱلْأَرْضِ وَمَا يَتَّبِعُ ٱلَّذِينَ يَدْعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ شُرَكَآءَ إِن يَتَّبِعُونَ إِلَّا ٱلظَّنَّ وَإِنْ هُمْ إِلَّا يَخْرُصُونَ ﴿٦٦﴾ هُوَ ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُمُ ٱلَّيْلَ لِتَسْكُنُوا۟ فِيهِ وَٱلنَّهَارَ مُبْصِرًا إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّقَوْمٍ يَسْمَعُونَ ﴿٦٧﴾ ﴾

يقولُ تعالى لرسوله ـ ﷺ ـ: ﴿ ولا يحزنكَ ﴾ قولُ هؤلاء المشركين، واستعِن بالله عليهم، وتوكَّل عليه؛ فإن العزَّة لله جميعاً، أي: جميعُها له ولرسوله وللمؤمنين، ﴿ هو السميعُ العليم ﴾، أي: السميعُ لأقوال عباده العليمُ بأحوالهم.

ثم أخبر تعالى أنَّ له ملكَ السموات والأرض،وأن المشركين يعبدونَ الأصنام، وهي لا تملكُ شيئاً لا ضَرّاً ولا نفعاً، ولا دليلَ لهم على عبادتها. بل إنما يَتَّبعون في ذلك ظُنُونَهم وتَخَرُّصهم وكذبهم وإفكهم.

ثم أخبر أنه الذي جعلَ لعباده الليلَ ليسكنوا فيه، أي: يستريحون فيه من نَصَبهم وكَلاَلِهم وحَرَكاتهم، ﴿ والنهار مبصراً ﴾، أي: مُضيئاً لمعاشهم وسَعْيِهم، وأسفارِهم ومَصَالِحِهم، ﴿ إن في ذلك لآياتٍ لقوم يسمَعُون ﴾، أي: يسمعُون هذه الحُجَج والأدلَّة فيعتبرون بها، ويستدلُّون على عظمةِ خالقِها، ومقدِّرها ومسيِّرها.

(١) انظر هذه الآثار في تفسير الطبري ١١/١٣٤ ـ ١٣٧.

(٢) أخرجه الإمام أحمد في مسنده ٤/٢٨٧، وأخرجه مختصراً أبو داود والنسائيُّ وابن ماجه في كتاب الجنائز، سنن أبي داود ٣/٢١٣، والنسائي ٤/٧٨، وابن ماجه ١/٤٩٤. وأخرجه أبو داود مطولاً في كتاب السنة ٤/٢٣٩ ـ ٢٤٠.

﴿ قَالُوا اتَّخَذَ اللَّهُ وَلَدًا سُبْحَانَهُ هُوَ الْغَنِيُّ لَهُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ إِنْ عِندَكُم مِّن سُلْطَانٍ بِهَذَا أَتَقُولُونَ عَلَى اللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴿٦٨﴾ قُلْ إِنَّ الَّذِينَ يَفْتَرُونَ عَلَى اللَّهِ الْكَذِبَ لَا يُفْلِحُونَ ﴿٦٩﴾ مَتَاعٌ فِي الدُّنْيَا ثُمَّ إِلَيْنَا مَرْجِعُهُمْ ثُمَّ نُذِيقُهُمُ الْعَذَابَ الشَّدِيدَ بِمَا كَانُوا يَكْفُرُونَ ﴿٧٠﴾ ﴾

يقولُ تعالى منكراً على من ادَّعى أن له ولداً: ﴿ سبحانَه هو الغنيُّ ﴾، أي: تَقَدَّس عن ذلك، هو الغنيُّ عن كُلِّ ما سواه، وكلُّ شيءٍ فقيرٌ إليه، ﴿لــه ما في السمواتِ وما في الأرضِ ﴾، أي: فكيف يكون له وَلَدٌ مما خلَق، وكلُّ شيءٍ مملوكٌ له، عبدٌ له؟! ﴿ إن عندكم من سلطان بهذا ﴾، أي: ليس عندكُم دليلٌ على ما تقولونه من الكـذِبِ والبهتان! ﴿ أتقولون على الله ما لا تَعلَمون ﴾: إنكارٌ ووعيدٌ أكيدٌ، وتهديدٌ شديدٌ، كما قال تعالى: ﴿وقالوا اتَّخذَ الرحمنُ ولداً * لقد جئتم شيئاً إدّاً * تكادُ السمواتُ يَتفطَّرن منه وتَنشقُّ الأرض وتخرُّ الجبال هَدًا * أن دَعَوا للرحمن وَلَداً * وما ينبغي للرحمن أن يَتَّخِذَ ولداً * إن كلُّ من في السمواتِ والأرضِ إلا آتي الرحمنِ عبداً * لقد أحصاهُم وعدَّهم عدًا * وكلُّهم آتيه يومَ القيامة فَرْداً﴾.

ثم تَوعَّد تعالى الكاذِبين عليه المفترين، ممن زَعَم أن له ولداً، بأنهم لا يُفلِحُون في الدنيا ولا في الآخرةِ، فأمَّا في الدنيا فإنهم إذا استدرجَهم وأملى لهم مَتَّعَهم قليلاً، ثم يضطرهم إلى عذابٍ غليظٍ، كما قال هاهنا: ﴿ متاعٌ في الدنيا ﴾، أي: مُدَّةٌ قريبةٌ، ﴿ ثم إلينا مرجعُهم ﴾، أي: يومَ القيامة، ﴿ ثم نُذِيقهم العذابَ الشديدَ ﴾، أي: المُوجِعَ المؤلم ﴿ بما كانوا يكفرون ﴾، أي: بِسَبَبِ كُفرِهم وافترائِهم وكذبهم على الله، فيما ادَّعوه من الإفكِ والزُّور.

﴿ ۞ وَاتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ نُوحٍ إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِ يَا قَوْمِ إِن كَانَ كَبُرَ عَلَيْكُم مَّقَامِي وَتَذْكِيرِي بِآيَاتِ اللَّهِ فَعَلَى اللَّهِ تَوَكَّلْتُ فَأَجْمِعُوا أَمْرَكُمْ وَشُرَكَاءَكُمْ ثُمَّ لَا يَكُنْ أَمْرُكُمْ عَلَيْكُمْ غُمَّةً ثُمَّ اقْضُوا إِلَيَّ وَلَا تُنظِرُونِ ﴿٧١﴾ فَإِن تَوَلَّيْتُمْ فَمَا سَأَلْتُكُم مِّنْ أَجْرٍ إِنْ أَجْرِيَ إِلَّا عَلَى اللَّهِ وَأُمِرْتُ أَنْ أَكُونَ مِنَ الْمُسْلِمِينَ ﴿٧٢﴾ فَكَذَّبُوهُ فَنَجَّيْنَاهُ وَمَن مَّعَهُ فِي الْفُلْكِ وَجَعَلْنَاهُمْ خَلَائِفَ وَأَغْرَقْنَا الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا فَانظُرْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُنذَرِينَ ﴿٧٣﴾ ﴾

يقول تعالى لنبيِّه ـ صلواتُ الله وسلامُه عليه ـ: ﴿ واتلُ عليهم ﴾، أي: أَخبِرهُم واقصُصْ عليهم، أي: على كفَّار مكةَ الذين يُكذِّبونكَ ويُخالِفُونكَ ﴿ نبأَ نوح ﴾، أي: خَبَره مع قومِهِ الذين كَذَّبوه، كيف أهلكهم اللهُ ودمَّرهم بالغرَقِ أجمعين عن آخرهم، لِيحذَرَ هؤلاء أن يُصيبَهم من الهَلاكِ والدَّمار ما أصابَ أولئك. ﴿ إذ قال لقومه يا قوم إن كان كَبُرَ عليكم ﴾، أي: عَظُم عليكم، ﴿ مَقامي ﴾، أي: فيكم بين أظْهُركم، ﴿ وتذكِيري ﴾ إيَّاكم ﴿ بآياتِ الله ﴾، أي: بِحُجَجِه وبراهينه، ﴿ فعلى الله تَوكَّلت ﴾، أي: فإني لا أُبالِي ولا أكفُّ عنكم، سواءٌ عظم عليكم أو لا! ﴿ فَأَجمِعُوا أمركم وشركاءكم ﴾، أي: فاجتمِعُوا أنتم وشركاؤكم الذين تَدْعُون من دون الله، من صَنَم ووَثَنٍ، ﴿ ثم لا يكُنْ أمرُكم عليكم غُمَّةً ﴾، أي: ولا تجعلوا أمرَكُم عليكم مُلْتَبِساً، بل افصِلُوا حالكم معي، فإنْ كنتم تزعمُون أنكم مُحِقّون فاقضُوا إلي ولا تُنظِرُونِ، أي: ولا تُؤَخروني ساعة واحدة، أي: مهما قدرتم فافعلُوا، فإني لا أباليكم ولا أخاف منكم، لأنكم لستُم على شيءٍ، كما قال هودٌ لقومه: ﴿إني أشهدُ الله واشهدوا أني بريءٌ مما تشركون * من دُونه فكيدوني جميعاً ثم لا تنظرونِ * إني توكلت على الله ربي وربِّكم ما من دابة إلا هو آخذٌ بناصيتها إن ربِّي على صراطٍ مستقيم ﴾.

﴿ فإن تَوَلَّيتُم ﴾، أي: كَذَّبتُم وأدبرتُم عن الطاعة، ﴿ فما سألتُكم من أجرٍ ﴾، أي: لم أطلُبْ منكم على نُصحِي إيَّاكم شيئاً، ﴿ إن أجرِيَ إلاَّ عَلى الله وأمِرْتُ أن أكونَ من المسلمين ﴾، أي: وأنا ممتثلٌ ما أُمِرْتُ به من الإسلامِ لله عَزَّ وجَلَّ؛ والإسلامُ هو دين الأنبياءِ من أولهم إلى آخرهم وإن تَنَوَّعت شرائعُهم وتَعدَّدت مناهجُهم، كما قال تعالى: ﴿ لِكُلٍّ جعلنا منكم شِرْعَةً ومنهاجاً ﴾، قال ابنُ عباس: «سبيلاً وسنةً»، فهذا نوحٌ يقول: ﴿ وأمرت أن أكونَ من المسلمين ﴾، وقال تعالى عن إبراهيمَ الخليل: ﴿ إذ قال له ربه أَسْلِمْ قال أسلمتُ لربِّ العالمينَ * وَوَصَّى بها إبراهيمُ بَنِيه ويعقوبُ يا بنيَّ إن الله اصطفى لكم الدِّينَ فلا تَموتُنَّ إلا وأنتم مُسلِمُون ﴾، وقال يوسفُ: ﴿ ربِّ قد آتيتني من المُلكِ وعَلَّمتني من تأويلِ الأحاديثِ فاطِرَ السمواتِ والأرضِ * أنتَ وَلِيِّي في الدنيا والآخرة تَوَفَّني مُسلِماً وأَلْحِقني بالصالحين ﴾، وقال موسى: ﴿ يا قوم إن كنتم امنتم بالله فعليه تَوَكَّلوا إن كنتُم مسلمين ﴾، وقالت السحرة: ﴿ رَبَّنا أفرغ علينا صَبْراً وَتوَفَّنا مُسلِمين ﴾، وقالت بِلْقِيسُ: ﴿ ربِّ إني ظلمتُ نفسي وأسلمتُ مع سُلَيمانَ لله ربِّ العالمين ﴾. وقال تعالى: ﴿ إنا أنزلنا التوراةَ فيها هُدىً ونورٌ يحكُم بها النبيُّون الذين أسلمُوا ﴾، وقال تعالى: ﴿ وإذ أوحيتُ إلى الحواريِّين أن آمِنوا بي وبرسُولي قالوا آمنا واشهد بأننا مُسلمون ﴾ وقال خاتمُ الرسل وسيِّدُ البَشَر: ﴿ إنَّ صلاتي ونُسُكي ومحياي ومماتي لله رب العالمين * لا شَريك له وبذلك أُمِرْتُ وأنا أولُ المسلمين ﴾، أي: من هذه الأمَّة، ولهذا قال في الحديث الثابت عنه: «نحن معاشرَ الأنبياء أولادُ عَلاَّتٍ، دينُنا واحدٌ»(١)، أي: وَهُو عبادةُ الله وحدَه لا شريكَ له، وإن تَنوَّعت شرائعنا، وذلك معنى قوله: «أولاد عَلاَّت»، وهم: الإخوةُ من أُمَّهاتٍ شتى والأبُ واحدٌ.

وقولُه تعالى: ﴿ فَكَذَّبوه فَنَجَّيناه ومَن معه ﴾، أي: على دينِهِ ﴿ في الفُلْكِ ﴾، وهي: السَّفينة، ﴿ وجعلناهُم خلائفَ ﴾، أي: في الأرض، ﴿ وأغرقنا الذين كَذَّبوا بآياتِنا فانظُر كيفَ كان عاقبةُ المُنذَرِينَ ﴾، أي: يا محمَّد كيفَ أنجينَا المُؤمِنينَ، وأهلكنا المُكَذِّبينَ؟

﴿ ثُمَّ بَعَثْنَا مِنۢ بَعْدِهِۦ رُسُلًا إِلَىٰ قَوْمِهِمْ فَجَآءُوهُم بِٱلْبَيِّنَٰتِ فَمَا كَانُوا۟ لِيُؤْمِنُوا۟ بِمَا كَذَّبُوا۟ بِهِۦ مِن قَبْلُ كَذَٰلِكَ نَطْبَعُ عَلَىٰ قُلُوبِ ٱلْمُعْتَدِينَ ﴿٧٤﴾ ﴾

يقولُ تعالى: ثم بعثنا من بعد نُوح رُسُلاً إلى قومهم، فجاءوهم بالبيِّنات، أي: بالحُجَج والأدِلَّة والبراهينِ على صِدْقِ ما جاءُوهم به، ﴿ فما كانُوا ليؤمِنُوا بما كَذَّبوا به من قبل ﴾، أي: فما كانت الأُمَم لتؤمن بما جاءَتْهم بِهِ رسلُهم، بسبب تكذيبهم إيَّاهم أوَّلَ ما أُرْسِلُوا إليهم، كما قال تعالى: ﴿ ونُقَلِّبُ أفئِدَتَهم وأبصارَهُم كما لم يُؤمِنُوا به أَوَّلَ مَرَّةٍ ﴾.

وقولُه: ﴿ كذلك نطبَعُ على قُلوبِ المعتدين ﴾، أي: كما طَبَع الله على قُلُوب هؤلاء فما آمنوا بسبب تكذيبهم المُتقدِّم، هكذا يطبع اللهُ على قُلُوبِ من أشبهَهُم ممن بعدَهم، ويختم على قُلُوبهم، فلا يؤمنوا حَتَّى يَرَوا العذابَ الأليم.

والمرادُ أن الله تعالى أهلكَ الأُمَمَ المُكَذِّبة للرسل وأنجى مَن آمن بهم، وذلك من بعد نُوح عليه السلام، فإنَّ الناس كانوا من قبله من زَمَان آدم ـ عليه السلام ـ على الإسلام إلى أن أحدثَ الناسُ عبادة

(١) أخرجه الشيخان، فتح الباري، كتاب الأنبياء ٤٧٧/٦ ـ ٤٧٨، ومسلم، كتاب الفضائل ١٨٣٧/٤. وأولاد العلاَّت: هم الإخوة لأب من امهات شتَّى.

الأصنام، فبَعث الله إليهم نُوحاً عليه السلام، ولهذا يقول له المؤمنون يوم القيامة: أنت أَوَّلُ رسولٍ بعثهُ الله إلى أهلِ الأرض.

وقال ابنُ عباس: كان بين آدمَ ونُوحٍ عشرةُ قرونٍ كُلُّهم على الإسلام.

وقال الله تعالى: ﴿ وكَم أهلكنا مِن القُرون من بعد نُوحٍ وكَفَى بِربِّكَ بِذنُوب عِباده خبيراً بَصِيراً ﴾، وفي هذا إنذارٌ عظيمٌ لمشركي العَرَبِ الذين كَذَّبُوا بِسَيِّد الرسل وخاتَمِ الأنبياءِ والمرسلين، فإنه إذا كان قد أصابَ مَن كذب بتلك الرُّسُلِ ما ذكره الله تعالى مِن العقاب والنَّكالِ، فماذا ظَنُّ هؤلاءِ وقد ارتكَبُوا أكبَرَ من أولئك؟!

﴿ ثُمَّ بَعَثْنَا مِنۢ بَعْدِهِم مُّوسَىٰ وَهَٰرُونَ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ وَمَلَإِيْهِۦ بِـَٔايَٰتِنَا فَٱسْتَكْبَرُوا۟ وَكَانُوا۟ قَوْمًا مُّجْرِمِينَ ﴿٧٥﴾ فَلَمَّا جَآءَهُمُ ٱلْحَقُّ مِنْ عِندِنَا قَالُوٓا۟ إِنَّ هَٰذَا لَسِحْرٌ مُّبِينٌ ﴿٧٦﴾ قَالَ مُوسَىٰٓ أَتَقُولُونَ لِلْحَقِّ لَمَّا جَآءَكُمْ ۖ أَسِحْرٌ هَٰذَا وَلَا يُفْلِحُ ٱلسَّٰحِرُونَ ﴿٧٧﴾ قَالُوٓا۟ أَجِئْتَنَا لِتَلْفِتَنَا عَمَّا وَجَدْنَا عَلَيْهِ ءَابَآءَنَا وَتَكُونَ لَكُمَا ٱلْكِبْرِيَآءُ فِى ٱلْأَرْضِ وَمَا نَحْنُ لَكُمَا بِمُؤْمِنِينَ ﴿٧٨﴾ ﴾

يقولُ تعالى: ﴿ ثم بعثنا ﴾ من بعد تلك الرسُلِ ﴿ مُوسَى وهارونَ إلى فرعونَ ومَلَئِه ﴾، أي: قومِه، ﴿ بآياتنا ﴾، أي: حُجَجِنا وبَراهِيننا، ﴿ فاستكبرُوا وكانوا قوماً مُجرمِينَ ﴾، أي: استكبرُوا عن اتِّباعِ الحقِّ والانقيادِ له، ﴿ فلما جاءهم الحقُّ من عندنا قالوا إنَّ هذا لسحرٌ مُبِينٌ ﴾، كأنهم - قبَّحهم الله - أقسمُوا على ذلك، وهم يعلمُون أن ما قالوه كَذِبٌ وبهتانٌ، كما قال تعالى: ﴿ وجَحدوا بها واستيقنتها أنفسُهم ظُلماً وعُلُوّاً فانظر كيفَ كانَ عاقِبةُ المفسِدِين ﴾.

﴿قال﴾ لهم ﴿موسى﴾ منكراً عليهم: ﴿أتقولُون للحقِّ لما جاءكم أسحر هذا ولا يُفلِحُ الساحرون * قالوا أجئتَنا لِتَلْفِتَنا ﴾، أي: تَثْنِيَنا ﴿ عما وجدنا عليه آباءَنا ﴾، أي: الدِّين الذي كانوا عليه، ﴿ وتكونَ لكما ﴾، أي: لك ولِهارونَ ﴿ الكبرياءُ ﴾، أي: العظمةُ والرياسةُ ﴿ في الأرضِ وما نحنُ لكما بمؤمنين ﴾.

وكثيراً ما يذكر الله تعالى قصة موسى - عليه السلام - مع فرعونَ في كتابه العزيز، لأنها من أعجبِ القَصَصِ، فإن فرعون حذَّر من موسى كلَّ الحَذَر، فَسخَّره القدر أن رَبَّى هذا الذي يُحذِّر منه على فراشِهِ ومائِدتِه بمنزلة الولدِ، ثم تَرَعرَعَ وعقَد الله له سبباً أخرجَه من بين أظهرهم، ورزَقه النُّبوَّةَ والرسالَةَ والتكليمَ، وبعثَه إليه ليدعُوَه إلى الله تعالى ليعبدَه ويرجعَ إليه، هذا مَعَ ما كان عليه فرعونُ من عَظَمة المملكة والسلطان، فجاءه برسالةِ الله، وليس له وزيرٌ سِوَى أخيه هارونَ عليه السلامُ، فتمرَّدَ فرعونُ واستكبر وأخذته الحميَّةُ والنفسُ الخبيثةُ الأبيةُ، وقَوَّى رأسَه وتَوَلَّى بركنه، وادَّعى ما ليس له، وتَجهرَم على الله، وعَتَا وبغى وأهانَ حزبَ الإيمانِ من بَني إسرائيل، والله تعالى يحفظُ رسولَه موسى وأخاه هارونَ، ويحوطُهما بعنايته، ويحرسُهما بعينه التي لا تَنام، ولم تَزَل المحاجَّةُ والمجادَلَةُ والآياتُ تقومُ على يَدَيْ موسى شيئاً بعد شيءٍ، ومَرَّةً بعد مَرَّةٍ، مما يبهَرُ العقولَ ويُدهِشُ الألبابَ، مما لا يقومُ له شيءٌ، ولا يأتي به إلا من هو مُؤيَّدٌ من الله، ﴿ وما تأتيهم من آيةٍ إلا هي أكبرُ من أُختِها ﴾، وصَمَّم فرعون ومَلؤه - قبَّحَهُم الله - على التكذيب بذلك كُلِّه، والجَحد والعنادِ والمكابرةِ، حتى أَحَلَّ الله بهم بأسه الذي لا يُرَدّ، وأغرقَهُم في صَبِيحَة واحدةٍ أجمعِين، ﴿ فَقُطِع دابرُ القوم الذين ظلموا والحمدُ لله رب العالمين ﴾.

﴿ وَقَالَ فِرْعَوْنُ ٱئْتُونِى بِكُلِّ سَٰحِرٍ عَلِيمٍ ﴿٧٩﴾ فَلَمَّا جَآءَ ٱلسَّحَرَةُ قَالَ لَهُم مُّوسَىٰٓ أَلْقُوا۟ مَآ أَنتُم مُّلْقُونَ ﴿٨٠﴾ فَلَمَّآ

أَلْقَوْا قَالَ مُوسَىٰ مَا جِئْتُم بِهِ ٱلسِّحْرُ إِنَّ ٱللَّهَ سَيُبْطِلُهُۥٓ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُصْلِحُ عَمَلَ ٱلْمُفْسِدِينَ ﴿٨١﴾ وَيُحِقُّ ٱللَّهُ ٱلْحَقَّ بِكَلِمَٰتِهِۦ وَلَوْ كَرِهَ ٱلْمُجْرِمُونَ ﴿٨٢﴾ ﴾

ذكر تعالى قِصةَ السحرة مع موسى ـ عليه السلام ـ في سورة الأعراف، وقد تقدَّم الكلام عليها هناك. وفي هذه السورة، وفي سورة طه، وفي الشعراء؛ وذلك أنَ فِرْعَون ـ لعنه الله ـ أرادَ أن يَتَهرَّجَ[1] على الناس، ويُعارِضَ ما جاء به موسى ـ عليه السلام ـ من الحقِّ المُبين، بِزَخارِفِ السحرةِ والمُشَعبِذين، فانعكَسَ عليه النظامُ، ولم يحصلْ له ذلكَ المرامُ، وظهرت البراهينُ الإلَهيةُ في ذلك المحفِلِ العامِّ، و﴿ أُلقِيَ السحرةُ ساجدين * قالوا آمنَّا بِرَبِّ العالمين * رَبِّ موسى وهارون﴾ فظن فرعونُ أن يستنصر بالسّحار، على رسولِ عالِمِ الأسرارِ، فخاب وخَسِر الجنة واستوجَب النار.

﴿ وقال فرعونُ ائتوني بكلِّ ساحرٍ عليم * فلما جاء السحرةُ قال لهم مُوسَى ألقُوا ما أنتم مُلقُون ﴾؛ وإنما قال لهم ذلك لأنهم لما اصطفُّوا ـ وقد وُعِدُوا من فِرْعَونَ بالتقريب والعَطاءِ الجزيل ـ ﴿ قالوا يا مُوسَى إمَّا أن تُلقي وإما أن نكون أول من ألقى * قال بل ألقُوا ﴾، فأراد موسى أن تكونَ البَـدأةُ منهم، ليرَى الناسُ ما صَنعوا، ثم يأتِيَ بالحقِّ بعده فَيَدْمَغَ باطلهم. ولهذا لما ﴿ ألقوا سَحَرُوا أعين الناسِ واسترهَبُوهم وجاءوا بسحرٍ عظيم ﴾، ﴿فأوجسَ في نفسه خيفةً موسى * قلنا لا تَخَفْ إنك أنت الأعلى * وألقِ ما في يمينك تلقف ما صَنَعوا إنّ ما صنعُوا كيدُ ساحر ولا يُفلِحُ الساحرُ حيث أتى ﴾. فعند ذلك قال موسى لما ألقَوا: ﴿ ما جئتم به السحر إنَّ الله سَيُبطِلُه إن الله لا يُصلِح عمل المفسدين * ويُحِقُّ الله الحقَّ بكلماته ولو كَرِه المجرمونَ﴾.

وقال ابنُ أبي حاتم: حدثنا محمد بن عَمّار بن الحارث، حدثنا عبد الرحمن ـ يَعني الدشتَكِيَّ ـ أخبرنا أبو جعفر الرازيُّ، عن ليثٍ ـ وهو ابن أبي سليم ـ قال: بَلَغني أن هؤلاءِ الآياتِ شفاءٌ من السحر بإذن الله تعالى، تقرأ في إناء فيه ماء، ثم يُصَبّ على رأس المسحور الآية التي من سورة يونُس: ﴿ فلما ألقوا قال موسى ما جئتم به السحرُ إن الله سَيُبطِلُه إن الله لا يُصلِحُ عمل المفسدين * ويُحِقُّ الله الحقَّ بكلماتِهِ ولو كَرِه المُجرِمُونَ﴾، والآية الأخرى: ﴿ فَوَقع الحقُّ وبَطَل ما كانوا يعمَلُون ﴾... إلى آخر أربعِ آياتٍ. وقولُه: ﴿ إنَّ ما صنعوا كيدُ ساحرٍ ولا يُفلِحُ الساحرُ حيث أتى ﴾.

﴿ فَمَآ ءَامَنَ لِمُوسَىٰٓ إِلَّا ذُرِّيَّةٌ مِّن قَوْمِهِۦ عَلَىٰ خَوْفٍ مِّن فِرْعَوْنَ وَمَلَإِيهِمْ أَن يَفْتِنَهُمْ ۚ وَإِنَّ فِرْعَوْنَ لَعَالٍ فِى ٱلْأَرْضِ وَإِنَّهُۥ لَمِنَ ٱلْمُسْرِفِينَ ﴿٨٣﴾ ﴾

يخبرُ تعالى أنه لم يُؤمِن بموسى ـ عليه السلام ـ مع ما جاء به من الآيات البَيِّناتِ والحُجَج القاطعاتِ والبراهين السَّاطِعَاتِ، إلا قليل من قوم فِرْعَونَ، من الذُرِّية ـ وهم الشبابُ ـ على وَجَل وخوفٍ منه ومن مَلَئِه، أن يَرُدُّوهم إلى ما كانوا عليه من الكفر؛ لأن فِرْعَونَ كان جَبَّاراً عَنِيداً مُسرفاً في التمرد والعُتُوِّ، وكانت له سطوةٌ ومهابةٌ، تخاف رَعِيَّتُه منه خوفاً شديداً.

قال العَوفيُّ، عن ابن عباس: ﴿ فما آمن لموسى إلا ذُرِّيةٌ من قومِهِ على خوفٍ من فِرْعَونَ ومَلَئِهم أن يَفتِنَهم ﴾، قال: فإن الذرِّية التي آمنَتْ لموسى من أناسٍ غير بني إسرائيل من قومِ فِرْعَون يسير، منهم: امرأةُ فرعون، ومؤمنُ آلِ فِرْعونَ، وخازنُ فِرْعونَ، وامرأةُ خازِنِه[2].

(١) كذا، ولعل الصواب: يُهَرِّج، يقال: هَرَّجَ فلان: أذاع الهَرْجَ والاضطراب بالقول الباطل والإشاعات المزيفة.

(٢) تفسير الطبري ١١/١٥٠.

وروَى علي بن أبي طلحةَ، عن ابنِ عبَّاسٍ في قوله: ﴿ فما آمنَ لِموسَى إلا ذُرِّيةٌ من قومِهِ ﴾، يقول: بني إسرائيلَ. وعن ابن عبَّاسٍ، والضحَّاك، وقتادة: الذريةُ القليلُ. وقال مجاهد في قوله: ﴿ إلا ذريةٌ من قومه ﴾، قال: هم أولاد الذين أُرسِل إليهم موسى، من طول الزمان، ومات آباؤهم.

واختار ابن جرير قولَ مجاهد في الذريَّة: أنها من بَني إسرائيلَ لا من قوم فرعون، لعودِ الضَّمِير على أقرب المذكورِين.

وفي هذا نظر؛ لأنه أرادَ بالذرية الأحداثَ والشبابَ، وأنهم من بني إسرائيل، فالمعروفُ أنَّ بني إسرائيلَ كُلَّهم آمنوا بموسى ـ عليه السلام ـ واستبشَرُوا به، وقد كانوا يعرِفُون نعتَه وصِفَتَه والبشارةَ به من كُتُبهم المتقدِّمة، وأنَّ الله تعالى سيُنقِذُهم به من أَسْرِ فِرْعَونَ ويُظهِرُهم عليه، ولهذا لما بلغ هذا فرعونَ حذَّرَ كُلَّ الحَذَر فلم يُجْدِ عنه شيئاً، ولما جاء موسى آذاهم فرعونُ أشد الأذى، و﴿ قالوا أُوذينا من قبل أن تَأْتِيَنَا ومن بعدِ ما جئتنا قال عَسَى ربكم أن يُهلِكَ عَدُوَّكم ويستخلِفَكُم في الأرضِ فينظُرَ كيفَ تعمَلُونَ ﴾. وإذا تقرَّر هذا فكيفَ يكونُ المرادُ إلاَّ ذريةً من قوم مُوسى، وهم بنو إسرائيل؟!

﴿ على خَوفٍ من فِرْعَونَ ومَلَئِهم ﴾، أي: وأشرافِ قَوْمِهم أن يَفتِنَهم، ولم يكُن في بني إسرائيلَ مَن يُخاف منه أن يُفْتَنَ عن الإيمان سوى قارونَ، فإنه كان من قوم موسى، فَبَغى عليهم؛ لكنه كان طاوياً إلى فرعون، متصلاً به، مُتعلقاً بحباله. ومن قال: «إن الضمير في قوله: ﴿ وَمَلَئِهم ﴾، عائدٌ إلى فرعون، وعُظْم المَلِك من أجل أتباعه أو بحذف «آل» فرعون، وإقامةِ المضاف إليه مُقامَه». فقد أبعد، وإن كان ابنَ جَريرٍ قد حكاهما عن بعض النحاة. ومما يدلُّ على أنه لم يكن في بني إسرائيل إلا مؤمنٌ قوله تعالى:

﴿ وَقَالَ مُوسَىٰ يَٰقَوْمِ إِن كُنتُمْ ءَامَنتُم بِٱللَّهِ فَعَلَيْهِ تَوَكَّلُوٓاْ إِن كُنتُم مُّسْلِمِينَ ﴿٨٤﴾ فَقَالُواْ عَلَى ٱللَّهِ تَوَكَّلْنَا رَبَّنَا لَا تَجْعَلْنَا فِتْنَةً لِّلْقَوْمِ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٨٥﴾ وَنَجِّنَا بِرَحْمَتِكَ مِنَ ٱلْقَوْمِ ٱلْكَٰفِرِينَ ﴿٨٦﴾ ﴾

يقولُ تعالى مخبراً عن موسى أنه قال لبني إسرائيل: ﴿ يا قومِ إن كنتُم آمنتم بالله فعليه توكَّلُوا إن كنتُم مسلمين ﴾، أي: فإن الله كافٍ مَن توكَّلَ عليه، ﴿ أليسَ الله بكافٍ عبدَه ﴾، ﴿ ومَن يَتوكَّل على الله فهو حَسْبُه ﴾.

وكثيراً ما يقرنُ الله بين العبادةِ والتوكُّلِ، كما في قوله تعالى: ﴿ فاعبُده وتوكَّل عليه ﴾، ﴿ قل هو الرحمنُ آمنَّا به وعليه توكَّلنا ﴾، ﴿ ربُّ المشرق والمغربِ لا إلَه إلا هُو فاتخِذه وَكِيلاً ﴾، وأمر الله تعالى المؤمنين أن يقولوا في كل صَلَواتهم مراتٍ مُتعدِّدةٍ: ﴿ إيَّاكَ نعبدُ وإياكَ نَستَعِينُ ﴾.

وقد امتثل بنو إسرائيلَ ذلك، فقالوا: ﴿ على الله تَوكَّلنا ربَّنا لا تجعلنا فتنةً للقومِ الظالمينَ ﴾، أي: لا تُظفِرْهُم بنا، وتُسلِّطهم علينا، فيَظنُّوا أنَّهم إنما سُلِّطوا لأنهم على الحقِّ ونحنُ على الباطل، فيُفتَنُوا بذلك. هكذا رُوِي عن أبي مِجلَزٍ، وأبي الضُّحى[١].

وقال ابنُ أبي نَجيح وغيرُ واحد، عن مجاهدٍ: لا تُعذِّبنا بأيدي قومِ فرعونَ، ولا بِعذابٍ مِن عندك، فيقولُ قوم فرعون: لو كانوا على حقٍّ ما عُذِّبوا، ولا سُلِّطنا عليهم، فيَفتِنُوا بنا[١].

---

(١) تفسير الطبري ١١/١٥٢.

وقال عبد الرزّاق: أنبأنا ابن عُيينة، عن ابن أبي نَجيح، عن مجاهد: ﴿ ربّنا لا تجعلنا فتنةً للقوم الظالمين ﴾، لا تُسلّطهم علينا فيفتِنونا.

﴿ ونجِّنا برحمتك ﴾، أي: خلّصنا برحمةٍ منك وإحسانٍ، ﴿ من القوم الكافرينَ ﴾، أي: الذين كفروا الحقَّ وستَروه، ونحنُ قد آمنّا بك وتوكّلنا عليك.

﴿ وَأَوْحَيْنَآ إِلَىٰ مُوسَىٰ وَأَخِيهِ أَن تَبَوَّءَا لِقَوْمِكُمَا بِمِصْرَ بُيُوتًا وَٱجْعَلُوا۟ بُيُوتَكُمْ قِبْلَةً وَأَقِيمُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ ۗ وَبَشِّرِ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿٨٧﴾ ﴾

يذكرُ تعالى سبَب إنجائه بني إسرائيلَ من فِرْعَونَ وقومه، وكيفيّةَ خلاصِهم منهم، وذلك أنّ الله تعالى أمَر موسى وأخاه هارونَ ـ عليهما السلام ـ أن يتبوّآ، أي: يتّخِذا لِقومِهما بمصرَ بيوتاً.

واختلف المفسرون في معنى قوله تعالى: ﴿ واجعلوا بيوتكم قبلةً ﴾، فقال الثوري وغيره، عن خُصَيف، عن عكرمة، عن ابن عباس: ﴿ واجعلوا بيوتكم قبلةً ﴾، قال: أمِرُوا أن يتخذوها مساجد.

وقال الثوري أيضاً، عن منصور، عن إبراهيم: ﴿ واجعلوا بيوتكم قبلةً ﴾، قال: كانوا خائفين، فأمروا أن يُصلُّوا في بيوتهم. وكذا قال مجاهد، وأبو مالك، والربيعُ بن أنس، والضحاكُ، وعبد الرحمنُ بن زيدِ بن أسلَم، وأبوه زيدُ بن أسلَمَ. وكأن هذا ـ والله أعلم ـ لما اشتدَّ بهم البلاءُ من قِبَل فرعونَ وقومه، وضيّقوا عليهم، أمِرُوا بكثرةِ الصلاة، كما قال تعالى: ﴿ يا أيُّها الذينَ آمنُوا استعِينُوا بالصَّبرِ والصلاة ﴾. وفي الحديث: «كان رسولُ الله ـ ﷺ ـ إذا حزَبَه أمرٌ صَلّى»(١). أخرجه أبو داود، ولهذا قال تعالى في هذه الآية: ﴿ واجعلوا بيوتكم قبلةً وأقيموا الصلاةَ وَبشّرِ المؤمنين ﴾، أي: بالثّوابِ والنّصرِ القريب.

وقال العوفيُّ، عن ابن عباس، في تفسير هذه الآيةِ قال: قالت بنُو إسرائيل لموسى ـ عليه السلام ـ: لا نستطيعُ أن نُظهِرَ صلاتنا مع الفراعنة. فأذِنَ الله تعالى لهم أن يُصلّوا في بيوتهم، وأمروا أن يجعلُوا بيوتهم قِبَل القبلة.

وقال مجاهد: ﴿ واجعلوا بُيُوتكم قبلة ﴾، قال: لما خاف بنُو إسرائيلَ من فِرْعَون أن يُقتَلُوا في الكنائسِ الجامعةِ، أمروا أن يجعَلُوا بيوتَهم مساجدَ مستقبلةَ الكعبةِ، يُصَلُّون فيها سراً. وكذا قال قتادةُ، والضَّحّاكُ.

وقال سعيد بن جُبَير: ﴿ واجعلوا بيوتكم قبلةً ﴾، أي: يقابل بعضُها بعضاً.

﴿ وَقَالَ مُوسَىٰ رَبَّنَآ إِنَّكَ ءَاتَيْتَ فِرْعَوْنَ وَمَلَأَهُۥ زِينَةً وَأَمْوَٰلًا فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا رَبَّنَا لِيُضِلُّوا۟ عَن سَبِيلِكَ ۖ رَبَّنَا ٱطْمِسْ عَلَىٰٓ أَمْوَٰلِهِمْ وَٱشْدُدْ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ فَلَا يُؤْمِنُوا۟ حَتَّىٰ يَرَوُا۟ ٱلْعَذَابَ ٱلْأَلِيمَ ﴿٨٨﴾ قَالَ قَدْ أُجِيبَت دَّعْوَتُكُمَا فَٱسْتَقِيمَا وَلَا تَتَّبِعَآنِّ سَبِيلَ ٱلَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٨٩﴾ ﴾

هذا إخبارٌ من الله تعالى عَمّا دعا به مُوسَى ـ عليه السلام ـ على فرعونَ وَمَلَئِهِ، لما أبوا قبول الحق واستمرُّوا على ضَلالهم وكفرهم معاندين جاحدِين، ظُلماً وعُلُواً وتكبراً وعُتُوّاً، قال: ﴿ ربّنا إنك آتيتَ فِرْعونَ وملأه زينةً ﴾، أي: من أثاث الدنيا ومتاعها، ﴿ وأموالاً ﴾، أي: جزيلة كثيرة، ﴿ في ﴾ هذه ﴿ الحياة الدنيا ربنا لِيَضِلُّوا عن سَبِيلك ﴾ ـ بفتح الياء ـ أي: أعطيتَهم ذلك وأنت تعلم أنهم لا يُؤمِنُون بما أرسلتني به إليهم استدراجاً منك لهم، كما قال تعالى: ﴿ لِنَفْتِنَهم فيه ﴾.

(١) سنن أبي داود. كتاب الصلاة ٢/٣٥.

وقرأ آخرون: ﴿ لِيُضلّوا ﴾ ـ بضم الياء ـ أي: لِيفتَتِنَ بما أعطيتهم مَن شئت من خَلْقِك، ليظُنَّ من أغويته أنَّك إنما أعطيتَ هؤلاءِ هذا لِحُبِّك إياهم، واعتنائك بهم.

﴿ ربنا اطمِسْ على أموالهم ﴾، قال ابنُ عباس، ومجاهدٌ: أي أَهلِكْها. وقال الضحاكُ، وأبو العاليةِ، والربيعُ بن أنس: جَعَلها الله حجارةً منقُوشَةً كهيئةِ ما كانت. وقال قتادة: بلغنا أن زُرُوعهم تحولت حجارةً.

وقال محمدُ بن كعب القُرَظِيُّ: اجعل سُكَّرهم حجارةً.

وقال ابنُ أبي حاتم: حدثنا إسماعيل بن أبي الحارث، حدثنا يحيى بن أبي بكير، عن أبي مَعشرٍ، حدثني مُحمَّد بن قيس: أن محمد بن كَعْبٍ قرأ سورةَ يونس على عُمَر بن عبد العزيز: ﴿ وقال مُوسَى رَبَّنا إنك آتيتَ فِرْعَونَ وملأه ﴾ إلى قوله: ﴿ اطمِسْ على أموالهم ﴾ . . . إلى آخرها، فقال له عُمَر: يا أبا حمزةَ، أيُّ شيء الطَّمْسُ؟ قال: عادت أموالهم كلُّها حجارةً. فقال عُمَر بن عبد العَزيز لغلامٍ له: ائتني بكيسٍ. فجاءه بِكيسٍ، فإذا فيه حِمَّصٌ وبيض، قد قطع قد حول حجارة.

وقولُه: ﴿ واشْدُد على قُلُوبهم ﴾، قال ابنُ عباس: أي اطبع عليها، ﴿ فلا يُؤمِنُوا حتى يَرَوُا العذابَ الأليم ﴾.

وهذه الدعوةُ كانت من موسى ـ عليه السلام ـ غضباً لله ولدينه على فِرْعَون ومَلَئِهِ، الذين تَبيَّن له أنه لا خير فيهم، ولا يجيءُ منهم شيءٌ كما دعا نوح ـ عليه السلام ـ فقال: «ربِّ لا تَذَر على الأرضِ من الكافرين دَيَّاراً * إنك إن تَذَرهُم يُضِلُّوا عبادك ولاَ يَلِدُوا إلا فاجراً كفاراً ﴾ ولهذا استجاب الله تعالى لموسى ـ عليه السلام ـ فيهم هذه الدعوةَ، التي أَمَّنَ عليها أخُوه هارونُ، فقال تعالى: ﴿ قد أُجيبَت دَعوتُكُما ﴾.

قال أبو العالية، وأبو صالح، وعكرمةُ، ومحمدُ بن كعب القرظيُّ، والربيعُ بن أنس: دعا موسى وأَمَّنَ هارونُ، أي: قد أجبناكُما فيما سألتُما من تدميرِ آلِ فِرعَونَ.

وقد يَحتَجُّ بهذه الآيةِ مَن يقولُ: إنَّ تأمين المأمومِ على قراءةِ الفاتحةِ يُنَزَّل منزلة قراءتها، لأن موسى دعا، وهارونَ أَمَّن.

وقال تعالى: ﴿ قد أُجِيبت دعوتُكما فاستقيما ﴾. . . ، الآية، أي: كما أُجِيبَت دعوتكما فاستقيما على أمري.

قال ابنُ جريج، عن ابن عباس: ﴿ فاستَقِيما ﴾، فامضِيا لأمري، وهي الاستقامة، قال ابن جُرَيج: يقولون: إن فِرْعَونَ مكث بعد هذه الدعوةِ أربعينَ سنةً.

وقال مُحمَّد بنُ علي بن الحُسَين: أربعينَ يوماً.

﴿ ۞ وَجَٰوَزۡنَا بِبَنِيٓ إِسۡرَٰٓءِيلَ ٱلۡبَحۡرَ فَأَتۡبَعَهُمۡ فِرۡعَوۡنُ وَجُنُودُهُۥ بَغۡيٗا وَعَدۡوًاۖ حَتَّىٰٓ إِذَآ أَدۡرَكَهُ ٱلۡغَرَقُ قَالَ ءَامَنتُ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا ٱلَّذِيٓ ءَامَنَتۡ بِهِۦ بَنُوٓاْ إِسۡرَٰٓءِيلَ وَأَنَا۠ مِنَ ٱلۡمُسۡلِمِينَ (٩٠) ءَآلۡـَٰٔنَ وَقَدۡ عَصَيۡتَ قَبۡلُ وَكُنتَ مِنَ ٱلۡمُفۡسِدِينَ (٩١) فَٱلۡيَوۡمَ نُنَجِّيكَ بِبَدَنِكَ لِتَكُونَ لِمَنۡ خَلۡفَكَ ءَايَةٗۚ وَإِنَّ كَثِيرٗا مِّنَ ٱلنَّاسِ عَنۡ ءَايَٰتِنَا لَغَٰفِلُونَ (٩٢) ﴾

يذكُر تعالى كيفيةَ إغراقِهِ فِرعونَ وجُنودَه؛ فإن بني إسرائيلَ لما خرجُوا من مصرَ صحبةَ موسَى عليه السلامُ، وهم فيما قيل ستمائة ألفِ مُقاتلٍ سِوَى الذُرِّيةِ، وقد كانوا استعارُوا من القبطِ حُلِيّاً كثيراً، فخرجوا به

معهم، فاشتدَّ حَنَقُ فِرعَونَ عليهم، فأرسل في المدائن حاشرين، يجمَعُون له جُنوده من أقاليمه، فَرَكِبَ وراءَهم في أُبَّهةٍ عظيمة، وجيوش هائلة لما يُريده الله تعالى بهم، ولم يَتَخلَّف عنه أحدٌ ممَّن له دولةٌ وسلطانٌ في سائر مملكته، فَلحِقُوهم وقتَ شروق الشمس، ﴿ فلما تراءى الجمعانِ قال أصحابُ موسى إنا لمُدْرَكُون ﴾، وذلك أنهم لما انتَهوا إلى ساحلِ البحر، وأدركهم فِرعَونُ، ولم يبقَ إلا أن يتقاتلَ الجمعانِ، وألَحَّ أصحابُ موسى -عليه السلامُ- عليه في السؤال: كيفَ المخلص مما نحن فيه؟ فيقول: إني أُمِرتُ أن أَسلُكَ هاهنا، ﴿ كَلَّا إن مَعي ربي سَيَهدينِ ﴾، فعندما ضاقَ الأمرُ اتَّسع، فأمره الله تعالى أن يَضرِبَ البحرَ بعَصاه، فَضَربه فانفلقَ البحرُ، ﴿ فكانَ كُلُّ فِرْقٍ كالطودِ العَظِيم ﴾، أي: كالجَبَل العظيمِ، وصار اثني عشر طريقاً، لِكلِّ سِبطٍ واحدٌ. وأمر الله الرِّيحَ فنشَّفت أرضه، ﴿ فاضرِبْ لهم طريقاً في البحرِ يَبَساً لا تخافُ دَرَكاً ولا تخشَى ﴾، وتخرَّقَ الماءُ بين الطُّرُق كهيئة الشبابيك، ليرى كلُّ قومٍ الآخرين لئلا يظنُّوا أنهم هَلَكوا. وجازت بنو إسرائيل البحرَ، فلما خَرَج آخرُهم منه انتهى فرعونُ وجنوده إلى حافَتِهِ من الناحيةِ الأخرى، وهو في مائةِ ألفِ أدهَمَ[١] سوى بقية الألوان، فلما رأى ذلك هاله وأحجَم وهابَ وهَمَّ بالرجوع، وهيهاتَ ولاتَ حينَ مناصٍ، نَفَذ القدر، واستُجيبت الدعوة. وجاء جبريل -عليه السلام- على فرس وديقٍ حائلٍ[٢]، فَمَرَّ إلى جانب حصانِ فرعون فحمحَم إليها وَتَقدَّم جبريلُ فاقتحم البحرَ ودخله، فاقتحم الحصانُ وراءَه، ولم يبقَ فِرعَونُ يَملِكُ من نفسه شيئاً، فَتَجلَّد لِأُمرائِهِ، وقال لهم: ليس بَنُو إسرائيلَ بأحقَّ بالبحر منا، فاقتحمُوا كُلُّهم عن آخِرِهم وميكائيلُ في ساقَتِهم، لا يتركُ أحداً منهم إلا ألحقه بهم. فلما استوسقوا[٣] فيه وتكامَلُوا، وهَمَّ أَوَّلُهم بالخُروجِ منه، أمر الله القديرُ البحرَ أن يرتَطِمَ عليهم، فارتطم عليهم، فلم ينجُ منهم أحدٌ، وجَعَلت الأمواجُ ترفعُهم وتخفِضُهم، وتراكمت الأمواجُ فوقَ فِرْعَون، وغَشِيته سكراتُ الموتِ، فقال وهو كذلك: ﴿ آمنت أنَّه لا إِلَه إلا الذي آمنَتْ به بنُو إسرائيلَ وأنا من المسلمين ﴾. فآمن حيثُ لا ينفعُه الإيمان، ﴿ فَلَمَّا رأوا بأسنا قالوا آمنَّا بالله وحدَه وكَفَرنا بما كُنَّا به مشركين ۞ فلم يَكُ ينفعهم إيمانهم لَمَّا رأوا بأسنا سُنَّةَ الله التي قد خَلَت في عباده وخَسِر هنالك الكافرون ﴾.

وهكذا قال الله تعالى في جَوابِ فِرْعَون حين قال ما قال: ﴿ الآن وقد عَصَيت قبلُ ﴾، أي: أهذا الوقتَ تقولُ وقد عصيتَ الله قبلَ هذا فيما بينكَ وبينه؟! ﴿وكُنتَ من المُفسِدِينَ ﴾، أي: في الأرضِ الذين أَضَلُّوا الناسَ، ﴿ وجَعَلناهم أئمة يدعُونَ إلى النارِ ويومَ القيامةِ لا يُنصَرُونَ ﴾.

وهذا الذي حَكَى الله تعالى عن فِرْعَون من قوله هذا في حاله ذاك من أسرارِ الغيبِ التي أعلم الله بها رسولَه، ولهذا قال الإمامُ أحمدُ بن حَنبلٍ رَحِمه الله:

حدثنا سُليمانُ بن حَربٍ، حدثنا حمَّاد بن سَلَمة، عن علي بن زيد، عن يوسف بن مِهْران، عن ابن عباس قال قالَ رسولُ الله -ﷺ-: «لما قال فِرعَونُ: ﴿ آمنتُ أنه لا إِلَه إلا الذي آمنَتْ به بنُو إسرائيلَ ﴾، قال: قال لي جبريل: يا محمَّدُ، لو رأيتني وقد أخذت من حَالِ البحرِ، فَدَسسته في فيه مخافةَ أن تنالَه الرحمةُ»[٤].

ورواه التِّرمذيُّ، وابنُ جرير، وابنُ أبي حاتم في تفاسيرهم، من حديث حَمَّاد بن سَلَمة، به. وقال الترمذيُّ: حديث حسن[٤].

(١) الادهم: الأسود، يكون في الخيل والإبل وغيرهما، يقال: فرسٌ أدهم وبعير أدهم. والعربُ تقول: ملوك الخيل دُهْمُها.

(٢) الوِدَاق في كُلِّ ذات حافر: إرادةُ الفحل، وقد وَدَقَت تَدِقُ وَدْقاً ووِداقاً وَوُدُوقاً، أودقت وهي مُودِقٌ، واستودقت، وهي وَدِيقٌ وَوَدُوق. يقال: أتانٌ وَدِيقٌ، وبغلة وَدِيقٌ. وناقةٌ حائلٌ: لم تحمل سنةً أو سنتين أو سنواتٍ.

(٣) أي: اجتمعوا.

(٤) مسندُ أحمد ٣٠٩/١، وعارضةُ الأحوذيِّ، تفسير سورة يونس ٢٧١/١١. وتفسير الطبري ١٦٣/١١. والحال: الطين الأسود.

وقال أبو داود الطيالسيُّ: حدثنا شعبةُ، عن عَدِيِّ بن ثابت وعطاءِ بن السائبِ، عن سعيد بن جُبَير، عن ابن عباسٍ قال: قال رسولُ الله ـ ﷺ ـ: «قال لي جبريلُ: لو رأيتَني وأنا آخذ من حَال البحرِ فأدسُّه في فَم فرعون مخافة أن تُدْرِكه الرحمةُ»!

وقد رواه أبو عيسى الترمذيُّ أيضاً، وابنُ جرير أيضاً من غير وجهٍ، عن شعبةَ، به، وقال الترمذيُّ: حَسنٌ غريبٌ صَحيحٌ[1]. ووقع في روايةٍ عند ابن جرير، عن محمد بن المثنى، عن غُندَر، عن شعبةَ، عن عطاءٍ وعديٍّ، عن سعيدٍ، عن ابن عباس، رفعه أحدهما، وكأن الآخرَ لم يرفَعه، فالله أعلم.

وقال ابنُ أبي حاتم: حدثنا أبو سعيد الأشجُّ، حدثنا أبو خالد الأحمرُ، عن عُمَر بن عبد الله بنِ يعلى الثَّقفيِّ، عن سعيد بن جُبَير، عن ابن عباس قال: لما أغرق الله فِرْعَونَ أشار بإصبَعِه ورفَع صوتَه: ﴿ آمنتُ أنَّه لا إلَه إلا الَّذي آمنت به بنُو إسرائيل ﴾، قال: فخاف جبريلُ أن تَسبِقَ رحمةُ الله فيه غَضَبه، فَجَعَل يأخذُ الحالَ بجناحِهِ فيضرِبُ به وجهَه فَيَرْمُسُه.

وكذا رواه ابنُ جرير، عن سفيانَ بن وكيع، عن أبي خالدٍ، به موقوفاً. وقد رُوِي من حديث أبي هُرَيرة أيضاً، فقال ابنُ جَرير:

حدثنا ابن حُمَيد، حدثنا حَكَّام، عن عَنْبَسَة ـ هو ابنُ سعيدٍ ـ عن كَثِير بن زاذان، عن أبي حازم، عن أبي هُرَيرة ـ رضي الله عنه ـ قال: قال رسول الله ـ ﷺ ـ: قال لي جبريلُ: يا محمدُ، لو رأيتَني وأنا أُغُطه[2] وأدسُّ من الحالِ في فيه، مخافةَ أن تُدرِكَه رحمةُ الله فيغفر له. يعني فرعونَ[3].

كَثِير بن زَاذانَ هذا قال ابنُ مَعِين: لا أعرِفُه، وقال أبو زُرعةَ وأبو حاتمٍ: مجهولٌ، وباقي رجاله ثقاتٌ. وقد أرسلَ هذا الحديثَ جماعةٌ من السلفِ: قتادةُ، وإبراهيمُ التَّيمِيُّ، وميمونُ بن مِهرانَ. ونُقِل عن الضَّحَّاكِ بن قيس: أنه خَطَب بهذا للناس، فالله أعلم.

وقولُه: ﴿ فاليومَ نُنَجِّيك ببدنِكَ لتكونَ لمن خلفك آيةً ﴾، قال ابن عباس وغيره من السلف: إنَّ بعضَ بني إسرائيل شَكُوا في موتِ فرعون، فأمر الله تعالى البحر أن يُلقِيَه بِجَسَدِهِ بلا رُوحٍ، وعليه درعُه المعروفَةُ، على نجوةٍ من الأرضِ وهو المكانُ المرتفعُ، ليتحقَّقُوا موته وهلاكه، ولهذا قال تعالى: ﴿ فاليوم نُنَجِّيكَ ﴾، أي: نرفَعُكَ على نَشَزٍ من الأرض، ﴿ بِبَدَنِكَ ﴾، قال مجاهد: بِجَسَدِكَ. وقال الحسن: بجسم لا رُوحَ فيه. وقال عبد الله بن شَدَّاد: سوياً صحيحاً، أي: لم يتمزق ليتحقَّقوهُ ويعرفوه. وقال أبو صخر: بِدِرْعِكَ. وكلُّ هذه الأقوالِ لا مُنافَاةَ بينها، كما تقدَّم، والله أعلم.

وقولُه: ﴿ لتكونَ لمن خَلْفَكَ آيةً ﴾، أي: لتكون لبني إسرائيلَ دليلاً على مَوتِكَ وهَلاكِكَ، وأن الله هو القادرُ الذي ناصيةُ كلِّ دابَّةٍ بيده، وأنه لا يقومُ لِغَضَبه شيءٌ، ولهذا قرأ بعضُ السَّلَفِ: ﴿ لتكون لمن خَلَقَكَ[4] آية وإن كثيراً من الناس عن آياتنا لغافلون ﴾، أي: لَا يَتَّعِظُون بها، ولا يعتبِرُون. وقد كان يوم عاشوراء، كما قال البخاري:

---

(١) مسند أبي داود الطيالسي ٣٤١، وعارضة الأحوذي ٢٧٢/١١، وتفسير الطبري ١٦٣/١١.

(٢) غَطَّ الشيء في الماء غطاً: غَطَسه وغمسه فيه.

(٣) تفسير الطبري ١٦٣/١١.

(٤) قال الألوسي في روح المعاني ١٨٤/١١: «ونُسِب إلى ابن السميقع وأبي السَّمال أنهما أيضاً قرآ (لمن خَلَقَك) ـ بفتح اللام والقاف ـ أي لتكون لخالقك آية كسائر الآيات». ثم قال: ذكر في النشر أن مما لا يوثق بنقله قراءة ابن السميقع وأبي السمال (ننحيك) بالحاء و (لمن خَلَقك) بالقاف». وانظر البحر المحيط لأبي حيان ١٨٩/٥ ـ ١٩٠.

حدثنا محمد بن بَشَّار، حدثنا غُندَر، حَدَّثنا شعبة، عن أبي بشر، عن سعيد بن جُبَير، عن ابن عباس قال: قَدِم النبي ـ ﷺ ـ المدينَة، واليهودُ تصومُ يوم عاشوراء فقالوا: هذا يومٌ ظهر فيه موسى على فِرْعَون. فقال النبي ـ ﷺ ـ لأصحابه: «أنتم أحقُّ بموسى منهم، فَصُوموه»(١).

﴿ وَلَقَدْ بَوَّأْنَا بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ مُبَوَّأَ صِدْقٍ وَرَزَقْنَٰهُم مِّنَ ٱلطَّيِّبَٰتِ فَمَا ٱخْتَلَفُوا۟ حَتَّىٰ جَآءَهُمُ ٱلْعِلْمُ ۚ إِنَّ رَبَّكَ يَقْضِى بَيْنَهُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ فِيمَا كَانُوا۟ فِيهِ يَخْتَلِفُونَ ﴿٩٣﴾ ﴾

يُخبِر تعالى عَمَّا أنعم به على بني إسرائيلَ من النِّعم الدينيَّة والدُّنيويَّة فـ ﴿مُبَوَّأَ صِدْقٍ ﴾، قيل: هو بلادُ مصرَ والشام، مما يلي بيتَ المقدِس ونواحيه؛ فإنَّ الله تعالى لما أهلَكَ فِرْعَونَ وجنودَه استقرَّت يدُ الدولة الموسوية على بلادِ مصرَ بكمالها، كما قال الله تعالى: ﴿ وأورثنا القومَ الذين كانوا يُستضعَفُونَ مشارقَ الأرضِ ومغاربها التي باركنا فيها وتمَّت كلمةُ ربِّك الحُسنى على بني إسرائيلَ بما صَبَروا ودمَّرنا ما كان يصنعُ فِرْعَونُ وقومُه وما كانوا يعرِشُونَ ﴾. وقال في الآية الأُخرَى: ﴿ فأخرجناهم من جناتٍ وعُيونٍ * وكُنوزٍ ومَقامٍ كريم * كذلك وأورثناها بني إسرائيل ﴾. ولكن استمرُّوا مع موسى ـ عليه السلام ـ طالبين إلى بلاد بيتِ المقدِس، وهي بلادُ الخليل ـ عليه السلام ـ فاستمرَّ موسى بمنِ معه طالباً بيت المقدس، وكان فيه قومٌ من العَمالقة، فَنَكَل بنو إسرائيل عن قتلهم، فَشرَّدهم الله تعالى في التِّيه أربعين سنة، ومات فيه هارون، ثم مُوسى ـ عليهما السلام ـ وخرجوا بعدهما مع يُوشَع بن نون، ففتح الله عليهم بيتَ المقدس، واستقرت أيديهم عليها إلى أن أخذها منهم بُختَنَصَّرَ حيناً من الدهر، ثم عادت إليهم، ثم أخذها ملوكُ اليونان، وكانت تحتَ أحكامهم مُدَّةً طويلةً، وبَعَث الله عيسى ابن مريم ـ عليه السلام ـ في تلك المدة، فاستعانت اليهودُ ـ قَبَّحهم الله ـ على معاداة عيسى ـ عليه السلام ـ بملوك اليونان، وكانت تحت أحكامهم، ووشَوا عندهم، وأوحوا إليهم أن هذا يُفسِدُ عليكم الرعايا. فبعثوا من يَقبِضُ عليه، فرفعه الله إليه، وشُبِّه لهم بعضُ الحوارِيِّين بمشيئة الله وقَدره، فأخذوه فَصَلَبُوه، واعتقدوا أنه هو، ﴿وما قتلوه يقيناً * بل رَفَعه الله إليه وكان الله عزيزاً حكيماً ﴾. ثم بعد المسيح ـ عليه السلام ـ بنحو ثلاثمائة سنة، دخل قُسطنطِينُ أحدُ ملوك اليونان ـ في دين النصرانيةِ، وكان فَيلسُوفاً قبل ذلك. فدخل في دين النصارى قيل: تقية، وقيل: حيلةً لِيُفسِده، فوضعت له الأساقفةُ منهم قوانين وشريعةً وبِدَعاً أحدثُوها، فبنى لهم الكنائسَ والبِيَع الكبار والصغار، والصَّوامِعَ والهياكل، والمعابد والقَلَّايات(٢). وانتشر دينُ النصرانية في ذلك الزمان، واشتهر على ما فيه من تبديلٍ وتغييرٍ وتحريفٍ، ووَضْعٍ وكَذِبٍ، ومخالفةٍ لدين المَسِيح. ولم يبقَ على دين المسيح على الحقيقةِ منهم إلا القليلُ من الرهبان، فاتخذوا لهم الصوامع في البَرارِي والمهامهِ والقِفارِ، واستحوذت يدُ النصارى على مملكةِ الشام والجزيرةِ وبلادِ الروم، وبنى هذا الملكُ المذكورُ مدينةَ قُسطنطِينِيَّة، والقُمَامة، وبيتَ لحم، وكنائس بيتِ المقدِس، ومدن حَوران كبُصرى وغيرِها من البلدان بنايات هائلة محكمة، وعَبَدُوا الصليب من حينئذٍ، وصَلُّوا إلى الشرق، وصَوَّروا الكنائس، وأحلُّوا لحم الخنزير، وغير ذلك مما أحدثُوه من الفروعِ في دينهم والأصولِ، ووضعُوا له الأمانةَ الحقيرة التي يسمونها الكبيرة، وصنَّفُوا له القوانين، وبسطُ هذا يطول.

(١) فتح الباري، تفسير سورة يونس ٨/٣٤٨.

(٢) القَلَّايات مثل الصوامع، جمع قَلَّايَة، كذا يُسَمِّيها النصارى، وهي تعريب كَلَّاذَة، وهي من بيوت عباداتهم. وقد وردت في حديث عُمَر ـ رضي الله عنه ـ لما صالح نصارى الشام أنهم كتبوا له كتاباً: «إنا لا نحدث كنيسةً ولا قَلِيَّةً». انظر لسان العرب: قَلَا.

والغرضُ أنَّ يَدَهم لم تَزَل على هذه البلادِ إلى أن انتزعها منهم الصحابةُ ـ رضي الله عنهم ـ وكان فتحُ بيتِ المقدس على يَدَي أميرِ المؤمنين عُمَرَ بن الخطاب، رَضِي الله عنه، ولله الحمد والمنة.

وقولُه: ﴿ وَرَزقناهُم من الطَّيِّباتِ ﴾، أي: الحلال، من الرزق الطيب النافع المستطاب طبعاً وشرعاً. وقولُه: ﴿ فما اختلفُوا حتى جاءهم العلمُ ﴾، أي: ما اختلفوا في شيءٍ من المسائِل إلا مِن بعد ما جاءهم العلمُ، أي: ولم يكن لهم أن يَختلِفوا. وقد بَيَّن الله لهم وأزالَ عنهم اللبسَ. وقد ورد في الحديثِ: «أن اليهود اختلفُوا على إحدى وَسبعِينَ فرقةً، وأن النصارى اختلفوا على اثنتينِ وسَبعِينَ فرقةً، وستفترق هذه الأمة على ثلاثٍ وَسبعِينَ فرقةً، منها واحدةٌ في الجنة، وثنتان وسبعُون في النار. قيل: من هم يا رسول الله؟ قال: ما أنا عليه وأصحابي».

رواه الحاكم في مستدركه بهذا اللفظ[1]، وهو في السُّنن والمسانيدِ. ولهذا قال الله تعالى: ﴿ إن ربك يقضِي بينهم ﴾ أي: يفصل بينهم ﴿ يومَ القيامةِ فيما كانوا فيه يَختلفُونَ ﴾.

﴿ فَإِن كُنتَ فِي شَكٍّ مِّمَّآ أَنزَلْنَآ إِلَيْكَ فَسْـَٔلِ ٱلَّذِينَ يَقْرَءُونَ ٱلْكِتَٰبَ مِن قَبْلِكَ ۚ لَقَدْ جَآءَكَ ٱلْحَقُّ مِن رَّبِّكَ فَلَا تَكُونَنَّ مِنَ ٱلْمُمْتَرِينَ ﴿٩٤﴾ وَلَا تَكُونَنَّ مِنَ ٱلَّذِينَ كَذَّبُوا۟ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ فَتَكُونَ مِنَ ٱلْخَٰسِرِينَ ﴿٩٥﴾ إِنَّ ٱلَّذِينَ حَقَّتْ عَلَيْهِمْ كَلِمَتُ رَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ ﴿٩٦﴾ وَلَوْ جَآءَتْهُمْ كُلُّ ءَايَةٍ حَتَّىٰ يَرَوُا۟ ٱلْعَذَابَ ٱلْأَلِيمَ ﴿٩٧﴾ ﴾

قال قتادةُ بن دِعامَةَ: بلغنا أن رسولَ الله ـ ﷺ ـ قال: لا أشكُّ ولا أسألُ. وكذا قال ابن عباس، وسعيد بن جُبَير، والحسن البصريُّ، وهذا فيه تثبيتٌ للأمة، وإعلامٌ لهم أن صِفَةَ نَبِيِّهم ـ ﷺ ـ موجودةٌ في الكُتُب المتقدمة التي بأيدي أهلِ الكتابِ، كما قال تعالى: ﴿ الذين يَتَّبِعُونَ الرسولَ النبيَّ الأميَّ الذي يَجِدُونَه مكتوباً عندهم في التوراةِ والإنجيلِ ﴾... الآية. ثم مع هذا العلم الذي يعرِفُونه من كتبهم كما يعرفون أبناءَهم، يُلبِسُون ذلك ويُحرِّفُونه ويُبَدِّلونه، ولا يُؤمِنُون به مع قيام الحُجَّةِ عليهم، ولهذا قال تعالى: ﴿ إن الذين حَقَّت عليهم كَلِمةُ رَبِّك لا يُؤمِنون * ولو جاءتهم كُلُّ آيةٍ حَتَّى يَرَوُا العذابَ الأليم ﴾، أي: لا يُؤمِنُونَ إيماناً ينفعهم، بل حين لا ينفعُ نفساً إيمانُها، ولهذا لما دعا موسى ـ عليه السلام ـ على فِرْعَونَ ومَلَئِه قال: ﴿ رَبَّنا اطمِس على أموالهم واشدُد على قلوبهم فلا يُؤمِنُوا حتى يَرَوُا العذابَ الأليم ﴾، كما قال تعالى: ﴿ ولو أننا نَزَّلنا إليهم الملائكة وكَلَّمَهُم الموتى وحَشَرنا عليهم كُلَّ شيء قُبُلًا ما كانوا لِيُؤمِنُوا إلا أن يشاءَ الله ولكنَّ أكثرَهم يجهَلُون ﴾، ثم قال تعالى:

﴿ فَلَوْلَا كَانَتْ قَرْيَةٌ ءَامَنَتْ فَنَفَعَهَآ إِيمَٰنُهَآ إِلَّا قَوْمَ يُونُسَ لَمَّآ ءَامَنُوا۟ كَشَفْنَا عَنْهُمْ عَذَابَ ٱلْخِزْىِ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَمَتَّعْنَٰهُمْ إِلَىٰ حِينٍ ﴿٩٨﴾ ﴾

يَقول تعالى: فَهلَّا كانت قريةٌ آمنت بكَمَالها من الأمم السالفة الذين بَعَثنا إليهم الرسلَ! بل ما أرسلنا من قبلك يا محمدُ من رسولٍ إلا كَذَّبه قومه، أو أكثرهم، كما قال تعالى: ﴿ يا حسرةً على العباد ما يأتيهم من رسولٍ إلا كانوا به يستهزءُون ﴾، ﴿ كذلك ما أتى الذين من قبلهم من رَسُولٍ إلا قالوا ساحرٌ أو مجنونٌ ﴾،

(١) المستدرك، كتاب الإيمان ١/١٢٨ ـ ١٢٩، ومسند أحمد ٣/١٤٥، وسنن أبي داود، كتاب السنة ٤/١٩٧ ـ ١٩٨، وعارضة الأحوذي، أبواب الإيمان ١٠/١٠٨ ـ ١٠٩.

﴿ كذلك ما أرسلنا من قبلك في قرية من نذير إلا قال مترفوها إنا وَجَدنا آباءَنا على أُمَّةٍ وإنا على آثارهم مُقتَدُون ﴾. وفي الحديثِ الصَّحيح: «عُرِض عَلَيَّ الأنبياء، فَجعل النبيُّ يمرُّ ومعه الفِئَامُ من الناس، والنبيُّ معه الرجلُ، والنبي معه الرجلانِ، والنبي ليس معه أحَدٌ»[١]. ثم ذكر كثرة أتباع موسى ـ عليه السلام ـ ثم ذكر كثرة أُمَّتِهِ ـ صلواتُ الله وسلامُه عليه ـ كثرةً سدَّت الخافِقَين الشَّرقيَّ والغَربيَّ.

والغرضُ أنه لم تُوجَدِ قرية آمنت بكمالها بنبيِّهم ممن سَلَف من القُرَى إلا قومَ يُونُس، وهم أهلُ نِينَوَى، وما كان إيمانُهم إلا خوفاً من وُصولِ العذابِ الذي أنذرهم به رسولُهم، بعد ما عاينوا أسبابَه، وخَرَج رسولُهم من بين أظهرهم، فعندها جَأَروا إلى الله واستغاثوا به، وتَضَرَّعوا لديه، واستكانوا وأحضَرُوا أطفالهم ودوابَّهم ومواشيَهم، وسألوا الله تعالى أن يرفَع عنهم العذاب الذي أنذرهم به نَبِيُّهم. فعندها رَحِمَهم الله، وكَشَف عنهم العذابَ وأُخِّروا، كما قال تعالى: ﴿ إلا قومَ يونس لما آمنوا كَشفنا عنهم عذابَ الخِزْيِ في الحياةِ الدُّنيا وَمتَّعناهم إلى حين ﴾.

واختلفَ المُفَسِّرونَ: هل كُشف عنهم العذابُ الأخرويُّ مع الدنيَويِّ؟ أو إنما كُشِف عنهُم في الدُّنيا فَقط؟ على قولَين، أحدُهما: إنما كان ذلكَ في الحياةِ الدُّنيا، كما هُو مُقَيَّد في هذهِ الآيةِ. والقولُ الثاني فيهما، لقولِهِ تعالى: ﴿ وأرسلناهُ إلى مائة ألفٍ أو يَزيدون * فآمنوا فَمتَّعناهم إلى حينٍ ﴾، فأطلق عليهم الإيمانَ. والإيمانُ منقِذٌ من العذاب الأخروي، وهذا هو الظاهرُ، والله أعلم.

قال قتادةُ في تفسير هذه الآية: لم ينفَع قريةً كَفرت ثم آمنت حينَ حَضَرها العذابُ فَتُركت إلّا قومَ يونُسَ، لما فَقَدوا نبيهم وظَنُّوا أن العذاب قد دنا منهم قذف الله في قلوبهم التوبةَ، ولبسوا المُسُوح، وفَرَّقوا بين كلِّ بَهيمةٍ وولدها، ثم عَجُّوا[٢] إلى الله أربعينَ ليلة. فلما عَرَف الله منهم الصِّدقَ من قلوبهم، والتوبةَ والندامة على ما مَضَى منهم كَشَف الله عنهم العذابَ بعد أن تدلى عليهم، قال قتادة: وذُكِر أن قومَ يونُس كانوا بِنِينَوَى أرضِ الموصِلِ[٣].

وكذا رُوِي عن ابن مسعود، ومجاهدٍ، وسعيد بن جُبَير، وغيرِ واحد من السَّلَفِ، وكان ابنُ مسعودٍ يقرؤها: ﴿ فَهلَّا كانت قريةٌ آمنت ﴾.

وقال أبو عِمْرانَ، عن أبي الجَلْدِ قال: لما نَزَل بهم العذابُ جَعَل يدورُ على رءوسهم كقِطَعِ الليل المظلم، فَمَشَوا إلى رجل من علمائهم فقالوا: عَلِّمنا دعاءً ندعُو به لعلَّ الله يكشِفُ عنا العذاب. فقال: قولوا: يا حيُّ حينَ لا حيَّ، يا مُحْيِيَ الموتى، لا إلَه إلا أنت. قال: فكُشِفَ عنهم العذابُ.

وتمامُ القصةِ سيأتي مُفصَّلاً في سُورةِ الصافاتِ إن شاء الله.

﴿ وَلَوْ شَآءَ رَبُّكَ لَآمَنَ مَن فِي ٱلْأَرْضِ كُلُّهُمْ جَمِيعًا ۚ أَفَأَنتَ تُكْرِهُ ٱلنَّاسَ حَتَّىٰ يَكُونُوا۟ مُؤْمِنِينَ (٩٩) وَمَا كَانَ لِنَفْسٍ أَن تُؤْمِنَ إِلَّا بِإِذْنِ ٱللَّهِ ۚ وَيَجْعَلُ ٱلرِّجْسَ عَلَى ٱلَّذِينَ لَا يَعْقِلُونَ (١٠٠) ﴾

يقولُ تعالى: ﴿ ولو شاء ربُّك ﴾ ـ يا محمدُ ـ لأذِنَ لأهل الأرض كلِّهم في الإيمان بما جئتَهم به، فآمنوا كلُّهم، ولكن له حكمةٌ فيما يفعله تعالى، كما قال: ﴿ ولو شاء رَبُّك لجعل الناسَ أمةً واحدةً ولا يزالُون

(١) أخرجه الحاكم في المستدرك، في كتاب الأهوال ٤/٥٧٧ ـ ٥٧٨، وقال: «هذا حديث صحيح الإسناد، ولم يخرجاه بهذه السياقة».
(٢) العَجُّ: رَفْعُ الصوتِ، يقال: عَجَّ إلى الله بالدعاء، وعجّ بالتلبية في الحج.
(٣) تفسير الطبري ١١/١٧١.

مُختلِفين. إلا من رَحِم رَبُّك ولذلك خلَقهم وتمت كَلِمةُ ربِّك لأملأنَّ جَهَنَّم من الجِنَّةِ والناسِ أجمعين ﴾، وقال تعالى: ﴿ أفلم ييأس الذين آمنوا أن لو يشاء الله لهَدى النّاسَ جَمِيعاً ﴾. ولهذا قال تعالى: ﴿ أفأنت تُكرِهُ النّاسَ ﴾، أي: تُلزمُهم وتُلجئهم ﴿ حتى يكونوا مؤمنين ﴾، أي: ليس ذلك عليك ولا إليك، بل الله ﴿ يُضِلُّ من يشاءُ ويَهدِي من يشاء فلا تذهَبْ نفسُك عليهم حَسَراتٍ ﴾ ﴿ ليس عليك هداهم ولكنَّ الله يهدِي من يشاء ﴾، ﴿ لعلَّك باخعٌ نفسَك ألَّا يكونوا مُؤمنين ﴾، ﴿ إنَّكَ لا تَهدِي مَن أحببتَ ﴾، ﴿ فإنَّما عليك البلاغُ وَعَلينا الحِسَابُ ﴾، ﴿فَذَكِّر إنما أنتَ مذكر * لستَ عليهم بِمُصَيطِرٍ ﴾... إلى غير ذلك من الآيات الدالَّة على أن الله تعالى هو الفعَّال لما يريدُ، الهادي من يشاء، المضلُّ لمن يشاء، لعلمِهِ وحكمَتِهِ وعَدْلِهِ. ولهذا قال: ﴿ وما كان لنفسٍ أن تُؤمِنَ إلا بإذنِ الله ويجعلُ الرِّجسَ ﴾، وهو: الخبالُ والضَّلالُ، ﴿ على الذين لا يعقِلُون ﴾، أي: حُجَجَ الله وأدلَّته، وهو العادلُ في كل ذلك، في هدايةِ من هَدَى، وإضلالِ من ضَلَّ.

﴿ قُلِ ٱنظُرُواْ مَاذَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۚ وَمَا تُغْنِى ٱلْءَايَٰتُ وَٱلنُّذُرُ عَن قَوْمٍ لَّا يُؤْمِنُونَ ﴿١٠١﴾ فَهَلْ يَنتَظِرُونَ إِلَّا مِثْلَ أَيَّامِ ٱلَّذِينَ خَلَوْاْ مِن قَبْلِهِمْ ۚ قُلْ فَٱنتَظِرُوٓاْ إِنِّى مَعَكُم مِّنَ ٱلْمُنتَظِرِينَ ﴿١٠٢﴾ ثُمَّ نُنَجِّى رُسُلَنَا وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ۚ كَذَٰلِكَ حَقًّا عَلَيْنَا نُنجِ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿١٠٣﴾ ﴾

يُرشِدُ تعالى عبادَه إلى التفكُّر في آلائِهِ وما خَلَق في السمواتِ والأرضِ من الآياتِ الباهرةِ لذوي الألباب، مما في السمواتِ من كواكِبَ نيِّراتٍ، ثوابتَ وسيَّاراتٍ، والشمسِ والقمرِ، والليلِ والنهارِ، واختلافهما، وإيلاجِ أحدِهما في الآخر، حتى يطولَ هذا ويقصُرَ هذا، ثم يقصُرَ هذا ويطولَ هذا، وارتفاعِ السماءِ واتساعِها، وحُسنِها وزِينَتِها، وما أنزل الله منها من مطرٍ فأحيا به الأرضَ بعد موتِها، وأخرجَ فيها من أفانينِ الثمارِ والزُّروعِ والأزاهيرِ، وصُنُوفِ النبات، وما ذَرَأ فيها من دوابَّ مختلفةِ الأشكالِ والألوانِ والمنافعِ، وما فيها من جبالٍ وسُهولٍ وقِفارٍ وعُمرانٍ وخَرابٍ، وما في البحرِ من العجائبِ والأمواجِ، وهو مَعَ هذا مُذَلَّلٌ للسالكين، يحمِلُ سُفُنَهم، ويجري بها برفقٍ بتسخيرِ القدير له، لا إلَه إلا هو، ولا رب سواه.

وقولُه: ﴿ وما تُغني الآياتُ والنذُرُ عن قوم لا يُؤمِنُون ﴾، أي: وأيُّ شيءٍ تُجدي الآيات السماويةُ والأرضيةُ، والرسل بآياتها وحُجَجِها وبَراهينها الدالة على صدقها، عن قوم لا يُؤمِنون؟ كما قال: ﴿ إن الذين حقَّت عليهم كَلِمَةُ ربِّك لا يؤمنون * ولو جاءتهم كُلُّ آية حتى يَرَوُا العذابَ الأليم ﴾.

وقولُه: ﴿ فهل ينتظِرُون إلا مثل أيام الذين خَلَوا من قبلهم ﴾، أي: فهل يَنتظِرُ هؤلاء المُكَذِّبون لك يا محمدُ من النقمةِ والعذابِ إلا مثلَ أيامِ الله في الذين خَلَوا من قبلهم من الأمم المكذِّبة لِرسُلِهم، ﴿ قل فَانتظِرُوا إنِّي معكم من المنتظرين * ثم نُنَجِّي رُسُلَنا والذين آمَنُوا ﴾، أي: ونُهلِك المُكَذِّبين بالرسل، ﴿ كذلك حَقّاً علينا نُنجِ المؤمنين ﴾ حقّاً أوجبه تعالى على نفسه الكريمةِ، كقوله: ﴿ كَتَب ربكم على نفسه الرحمةَ ﴾، وكما جاء في الصَّحيحَين، عن رسولِ الله ـ ﷺ ـ أنه قال: «إن الله كتَبَ كتاباً فهو عِندَه فوق العرش: إنَّ رحمَتِي سَبقت غَضبي»(١).

﴿ قُلْ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِن كُنتُمْ فِى شَكٍّ مِّن دِينِى فَلَآ أَعْبُدُ ٱلَّذِينَ تَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ وَلَٰكِنْ أَعْبُدُ ٱللَّهَ ٱلَّذِى يَتَوَفَّىٰكُمْ ۖ وَأُمِرْتُ

---

(١) فتح الباري، كتاب التوحيد ١٣ / ٤٤٠ ومسلم، كتاب التوبة ٤ / ٢١٠٧.

أَنْ أَكُونَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ ﴿١٠٤﴾ وَأَنْ أَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفًا وَلَا تَكُونَنَّ مِنَ الْمُشْرِكِينَ ﴿١٠٥﴾ وَلَا تَدْعُ مِن دُونِ اللَّهِ
مَا لَا يَنفَعُكَ وَلَا يَضُرُّكَ فَإِن فَعَلْتَ فَإِنَّكَ إِذًا مِّنَ الظَّالِمِينَ ﴿١٠٦﴾ وَإِن يَمْسَسْكَ اللَّهُ بِضُرٍّ فَلَا كَاشِفَ لَهُ إِلَّا هُوَ وَإِن
يُرِدْكَ بِخَيْرٍ فَلَا رَادَّ لِفَضْلِهِ يُصِيبُ بِهِ مَن يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ وَهُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ ﴿١٠٧﴾ ﴾

يقول تعالى لرسوله محمَّد ـ صلواتُ الله وسلامُه عليه ـ قل: يا أيها الناسُ، إن كنتُم في شَكٍّ من صحَّةِ ما جئتكم به من الدين الحنيفِ الذي أوحاه الله إلي، فها أنا لا أعبدُ الذين تعبدُون من دونِ الله، ولكن أعبدُ الله وحدَه لا شريكَ له، وهو الذي يَتوفَّاكم كما أحياكم، ثم إليه مَرجعُكم، فإن كانت آلهتكم التي تَدعُون من دونِ الله حقاً، فأنا لا أعبدُها، فادعُوها فلْتضُرَّني، فإنها لا تَضُرُّ ولا تنفعُ، وإنما الذي بيده الضرُّ والنفعُ هو الله وحدَه لا شريكَ له، وأُمِرتُ أن أكونَ من المؤمنين.

وقولُه: ﴿ وأن أقم وجهَك للدين حَنِيفاً ولا تكونَنَّ من المشركين ﴾، أي: أَخلِصْ العبادةَ لله وحدَه حنيفاً، أي: مُنحرِفاً عن الشرك. ولهذا قال: ﴿ ولا تكونَنَّ من المشركين ﴾، وهو معطوفٌ على قوله: ﴿ وأُمِرتُ أن أكونَ من المؤمنين ﴾.

وقولُه: ﴿ وإن يَمْسَسْكَ الله بِضُرٍّ ﴾... إلى آخرها، بيانٌ لأن الخيرَ والشرَّ والنفعَ والضرَّ إنما هو راجعٌ إلى الله تعالى وحدَه لا يُشارِكه في ذلك أحد، فهو الذي يَستحِقُّ العبادةَ وحدَه، لا شَريكَ له.

روى الحافظ ابن عساكر، في ترجمة صفوان بن سُلَيم، من طريق عبد الله بن وهب: أخبرني يحيى بن أيوبَ، عن عيسى بن موسى، عن صفوان بن سُلَيم، عن أنس بن مالك أن رسولَ الله ـ ﷺ ـ قال: «اطلُبُوا الخيرَ دهرَكُم كُلَّه، وتَعرَّضُوا لنفحاتِ رحمةِ الله، فإنَّ لله نَفَحاتٍ من رَحمتِه، يُصِيبُ بها مَن يشاءُ من عبادِه، واسألوه أن يَسْتُرَ عَوْرَاتِكم، ويُؤمِن رَوْعَاتِكم».

ثم رَواه من طريق اللَّيثِ، عن عيسى بن موسى، عن صَفْوَانَ، عن رجل من أشجَعَ، عن أبي هُرَيرة مرفوعاً، بمثله سواء.

وقولُه: ﴿ وهو الغفورُ الرحيمُ ﴾، أي: لمن تاب إليه وتوكَّل عليه، ولو من أيِّ ذنب كان، حتى من الشرك به، فإنه يتوبُ عليه.

﴿ قُلْ يَا أَيُّهَا النَّاسُ قَدْ جَاءَكُمُ الْحَقُّ مِن رَّبِّكُمْ فَمَنِ اهْتَدَىٰ فَإِنَّمَا يَهْتَدِي لِنَفْسِهِ وَمَن ضَلَّ فَإِنَّمَا يَضِلُّ
عَلَيْهَا وَمَا أَنَا عَلَيْكُم بِوَكِيلٍ ﴿١٠٨﴾ وَاتَّبِعْ مَا يُوحَىٰ إِلَيْكَ وَاصْبِرْ حَتَّىٰ يَحْكُمَ اللَّهُ وَهُوَ خَيْرُ الْحَاكِمِينَ ﴿١٠٩﴾ ﴾

يقولُ تعالى آمراً لرسولِهِ ـ صلواتُ الله وسلامُه عليه ـ أن يخبر الناسَ أنّ الذي جاءهم به من عند الله هو الحقُّ الذي لا مِرْيةَ فيه ولا شكَّ، فمن اهتدى به واتبعه فإنما يعودُ نفعُ الاتباع على نفسِه، ومن ضلَّ عنه فإنما يرجعُ وبالُ ذلك عليه. ﴿ وما أنا عليكم بوكيل ﴾، أي: وما أنا مُوكَّل بكم حتى تكونُوا مؤمنين به، وإنما أنا نذيرٌ لكم، والهدايةُ على الله تعالى.

وقولُه: ﴿ واتَّبِعْ ما يُوحَى إليك واصبر ﴾، أي: تَمَسَّك بما أنزل الله عليك وأوحاه، واصبر على مخالَفةِ مَن خالَفك مِنَ الناس، ﴿ حتى يحكُمَ الله ﴾، أي: يفتَح بينك وبينهم، ﴿ وهو خيرُ الحاكِمين ﴾، أي: خيرُ الفاتِحِينَ بِعَدْلِهِ وحِكْمَتِهِ.

آخر تفسير سورة يونس، والحمدُ لله ربِّ العالمين

تفسير

سُورَةُ هُودٍ

آياتها ١٢٣ — ترتيبها ١١

وهي مكية

قال الحافظُ أبو يَعْلى: حدَّثنا خلف بن هشام البزَّارُ، حدثنا أبو الأحوص، عن أبي إسحاق، عن عكرمةَ قال: قال أبو بكر: سألتُ رسولَ الله ـ ﷺ ـ: ما شَيَّبك؟ قال: «شيَّبتني هودٌ، والواقعةُ، وعَمَّ يتساءلون، وإذا الشمس كُوِّرت»[١].

وقال أبو عيسى التِّرمذيُّ: حدثنا أبو كُرَيب محمد بن العلاء، حدثنا معاويةُ بن هشام، عن شيبانَ، عن أبي إسحاقَ، عن عكرمة، عن ابن عباسٍ قال: قال أبو بكر: يا رسولَ الله، قد شِبْتَ؟ قال: شَيَّبتني هودٌ، والواقعةُ، والمرسلات، وعم يتساءلون، وإذا الشمس كُوِّرت»[٢]. وفي رواية: هود وأخواتها»[٢].

وقال الطبرانيُّ: حدثنا عَبْدانُ بن أحمد، حدثنا حَمَّاد بن الحسن، حدثنا سعيد بن سلام، حدثنا عُمَر بن محمد، عن أبي حازم، عن سهل بن سعد قال: قال رسولُ الله ـ ﷺ ـ: «شيبتني هود وأخواتُها: الواقعة، والحاقَّة، وإذا الشمس كُوِّرت»[٣].

وقد رُوِي من حديث ابن مسعود، فقال الحافظ أبو القاسم سُلَيمان بن أحمد الطبراني في مُعجَمه الكبير: حدثنا محمد بن عثمان بن أبي شيبةَ، حدثنا أحمدُ بن طارق الوابشي، حدثنا عمرو بن ثابت، عن أبي إسحاقَ، عن عبد الله بن مسعودٍ ـ رضي الله عنه ـ: أن أبا بكر قال: يا رسول الله، ما شَيَّبك؟ قال: هودٌ، والواقعةُ[٤].

عَمرو بن ثابت متروك، وأبو إسحاقَ لم يدرك ابنَ مسعودٍ. والله أعلم.

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

﴿الٓر كِتَٰبٌ أُحْكِمَتْ ءَايَٰتُهُۥ ثُمَّ فُصِّلَتْ مِن لَّدُنْ حَكِيمٍ خَبِيرٍ ۝١ أَلَّا تَعْبُدُوٓا۟ إِلَّا ٱللَّهَ ۚ إِنَّنِى لَكُم مِّنْهُ نَذِيرٌ وَبَشِيرٌ ۝٢ وَأَنِ ٱسْتَغْفِرُوا۟ رَبَّكُمْ ثُمَّ تُوبُوٓا۟ إِلَيْهِ يُمَتِّعْكُم مَّتَٰعًا حَسَنًا إِلَىٰٓ أَجَلٍ مُّسَمًّى وَيُؤْتِ كُلَّ ذِى فَضْلٍ فَضْلَهُۥ ۖ وَإِن تَوَلَّوْا۟ فَإِنِّىٓ أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ كَبِيرٍ ۝٣ إِلَى ٱللَّهِ مَرْجِعُكُمْ ۖ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ۝٤﴾

---

(١) مسند أبي يعلى ١/١٠٢. (٢) عارضة الأحوذي، تفسير سورة الواقعة ١٢/١٨١. وقد سقط حديث الترمذي من مخطوطة الأزهر.
(٣) المعجم الكبير ٦/١٤٨. (٤) المعجم الكبير ١٠/١٢٥ ـ ١٢٦. وفيه يروي أبو إسحاق، عن أبي الأحوص، عن عبد الله.

قد تقدّم الكلامُ على حروف الهجاء في أول سورة البقرةِ بما أغنى عن إعادتِهِ هاهنا، وبالله التوفيق.

وأما قولُه: ﴿ أحكمت آياته ثم فُصِّلت ﴾، أي: هي محكمة في لفظها، مُفَصَّلة في معناها، فهو كاملٌ صورةً ومعنى. هذا معنى ما رُوي عن مجاهدٍ، وقتادةَ، واختاره ابنُ جرير.

وقولُه: ﴿ من لَدُن حكيمٍ خبيرٍ ﴾، أي: من عند الله الحكيمِ في أقواله وأحكامِهِ، الخبيرِ بعواقبِ الأمورِ.

﴿ ألَّا تعبدُوا إلا الله ﴾ أي: نَزَل هذا القرآنُ المحكم المفصَّل لعبادة الله وحدَه لا شريكَ له، كما قال تعالى: ﴿ وما أرسلنا من قبلك من رسولٍ إلا نُوحي إليه أنّه لا إلَه إلا أنا فاعبدونِ ﴾، وقال: ﴿ولقد بعثنا في كُلِّ أمة رسولاً أن اعبدوا الله واجتنبُوا الطاغوتَ ﴾.

وقولُه: ﴿ إنني لكم منه نذيرٌ وبشيرٌ ﴾، أي: إني لكم نذيرٌ من العذاب إن خالفتمُوه، وبشيرٌ بالثواب إن أطعتمُوه، كما جاء في الحديث الصحيح: «أن رسولَ الله ـ ﷺ ـ صَعِدَ الصفا فدعا بُطُونَ قريش الأقربَ ثم الأقربَ، فاجتمعُوا، فقال: يا معشرَ قُرَيش، أرأيتُم لو أخبرتُكم أن خيلاً تُصَبِّحكُم، ألستم مُصَدِّقِيَّ؟ فقالوا: ما جَرَّبنا عليك كَذِباً. قال: فإني نذيرٌ لكم بين يَدَي عذابٍ شديدٍ»[1].

وقولُه: ﴿ وأن استغفِرُوا ربَّكم ثم توبوا إليه يُمتِّعكم متاعاً حسناً إلى أجل مُسمىً ويُؤتِ كلَّ ذي فضلٍ فَضْلَه ﴾ أي: وآمُرُكم بالاستغفار من الذنوبِ السالفةِ والتوبةِ منها إلى الله ـ عز وجل ـ فيما تَستقبِلُونه، وأن تَستَمِرُّوا على ذلك، ﴿ يُمَتِّعكم متاعاً حَسَناً ﴾، أي: في الدنيا ﴿ إلى أجلٍ مُسَمىً ويُؤتِ كُلَّ ذي فضلٍ فضلَه ﴾، أي: في الدار الآخرة، قاله قتادةُ، كقوله: ﴿ من عَمِل صالحاً من ذكر أو أُنثى وهو مؤمنٌ فَلَنُحيينهُ حياةً طيِّبةً ولنجزينهم أجرهم بأحسنِ ما كانوا يعمَلُون ﴾، وقد جاء في الصَّحيح: أنَّ رسولَ الله ـ ﷺ ـ قال لسعدٍ: «وإنَّك لن تُنفِقَ نفقةً تَبتغي بها وجهَ الله إلا أُجِرْت بها حتى ما تجعلَ في في امرأتك»[2].

وقال ابنُ جَرير: [حُدِّثت] عن المُسيَّب بن شَريك، عنِ أبي بكر، عن سَعِيد بن جُبير، عن ابن مسعود في قوله: ﴿ ويُؤتِ كُلَّ ذي فضلٍ فضلَه ﴾، قال: من عَمِلَ سيئةً كُتِبت عليه سيئةً، ومن عَمِل حسنة كتبت له عشرَ حَسَناتٍ. فإن عُوقِبَ بالسيئة الَّتي كان عَمِلها في الدنيا بَقِيَت له عَشرُ حَسَناتٍ، وإن لم يُعاقَب بها في الدنيا أُخِذ من الحسناتِ العشرِ واحدةٌ، وبقيت له تسعُ حسناتٍ. ثم يقول: هَلَكَ من غلب آحادُه أعشارَه»[3].

وقولُه: ﴿ وَإِن تَوَلَّوا فإني أخافُ عليكم عذابَ يَومٍ كبيرٍ ﴾، هذا تهديدٌ شديدٌ لمن تَولَّى عن أوامر الله تعالى، وكَذَّب رُسُلَه، فإنَّ العذابَ يناله يومَ مَعادِهِ لا مَحَالَةَ، ﴿ إلى الله مَرجعُكم ﴾، مَعادُكم ومَرجعُكم يوم القيامة، ﴿ وهُو على كُلِّ شيءٍ قديرٌ ﴾، أي: وهو القادرُ على ما يشاءُ من إحسانِهِ إلى أوليائه، وانتقامِهِ من أعدائِهِ، وإعادَةِ الخلائِقِ يومَ القيامة، وهذا مقامُ الترهيبِ، كما أنَّ الأوَّل مقامُ ترغيبٍ.

﴿ أَلَآ إِنَّهُمْ يَثْنُونَ صُدُورَهُمْ لِيَسْتَخْفُوا۟ مِنْهُ ۚ أَلَا حِينَ يَسْتَغْشُونَ ثِيَابَهُمْ يَعْلَمُ مَا يُسِرُّونَ وَمَا يُعْلِنُونَ ۚ إِنَّهُۥ عَلِيمٌۢ بِذَاتِ ٱلصُّدُورِ ⑤ ﴾

(١) أخرجه الشيخان، فتح الباري، تفسير سورة المَسَد ٧٣٧/٨، ومسلم، كتاب الإيمان ١٩٣/١ ـ ١٩٤.
(٢) أخرجه الشيخان، فتح الباري، كتاب الإيمان ١٣٦/١، ومسلم، كتاب الوصية ١٢٥٠/٣ ـ ١٢٥١.
(٣) تفسير الطبري ١٨٢/١١.

قال ابنُ عباس: كانوا يكرهُون أن يستقبلوا السماء بِفُروجهم، وَحال وِقَاعِهِم، فأنزل الله هذه الآية، رواه البخاري من حديث ابن جُرَيج، عن محمد بن عباد بن جعفر: أَنَّ ابن عباس قرأ: ﴿ أَلا إِنهم تَثْنوني صدورُهم ﴾، فقلت: يا أبا عباس، ما تَثنوني صدورُهم؟ قال: الرجل كان يجامع امرأته فيستحيي، أو: يَتَخَلَّى فَيَستحِيي، فنزلت: ﴿ أَلا إِنهم تَثْنوني صُدُورُهم ﴾[١].

وفي لفظٍ آخرَ له قال ابن عباس: أناسٌ كانوا يستحيون أن يَتَخلَّوا فَيُفضُوا إلى السماء، وأن يُجامِعُوا نساءهم فَيُفضُوا إلى السماء، فنزل ذلك فيهم[١].

ثم قال: حدثنا الحُمَيدي، حدثنا سفيان، حدثنا عمرو قال: قرأ ابن عباس: ﴿ أَلا إِنهم يثنوني صدورُهم ليستخفوا منه ألا حين يَستغشُون ثيابهم ﴾.

قال البخاري: وقال غيره، عن ابن عباس: ﴿ يستغشون ﴾: يُغَطُّون رءوسَهم[١].

وقال ابنُ عباس في روايةٍ أُخرَى في تفسير هذه الآيةِ: يعني به الشكَّ في الله، وعَمَلَ السيئات[٢]. وكذا رُوِي عن مجاهد، والحسن، وغيرهم: أي أنهم كانوا يَثْنُون صُدُورَهم إذا قالوا شيئاً أو عملوه، يظُنُّون أنهم يستخفون من الله بذلك، فأعلمهم الله تعالى أنهم حين يَستغشُون ثيابهم عند منامِهم في ظُلمة الليل، ﴿ يَعلَمُ ما يُسِرُّون ﴾ من القول: ﴿ وما يعلنون إنه عليم بذات الصدور ﴾، أي: يعلم ما تُكِنُّ صدورُهم من النيات والضمائر والسرائر. وما أحسن ما قال زُهَير بن أبي سُلمى في مُعَلَّقته المشهورة[٣]:

فَـلا تَكْتُمُنَّ اللهَ مـا في نُفُـوسِكم … لِيَخفَى، فَمَهمـا يُكـتَمِ اللهُ يَـعْلَمِ
يُؤَخَّـرْ فَيُـوضَـعْ في كتـاب فَـيُدَّخرْ … لِيَـوم حِسَـابٍ، أو يُعجَّـلْ فَيُنْـقَمِ

فقد اعترف هذا الشاعر الجاهليّ بوجودِ الصانع وعلمِه بالجُزئيات، وبالمعاد وبالجزاء، وبكتابة الأعمالِ في الصُّحُف ليوم القيامة.

وقال عبد الله بن شَدَّاد: كان أحدهم إذا مَرَّ برسول الله - ﷺ - ثَنَى صَدْرَه، وغَطَّى رأسه، فأنزل الله ذلك[٤].

وعودُ الضمير على الله أولى؛ لقوله: ﴿ أَلا حين يستغشُون ثيابَهم يعلم ما يُسِرُّون وما يُعلِنُون ﴾.

وقرأ ابنُ عباس: ﴿ أَلا إنهم تَثْنَوني صُدورُهم ﴾، برفع الصدور على الفاعلية، وهو قريب المعنى.

﴿ ۞ وَمَا مِن دَآبَّةٍ فِي ٱلۡأَرۡضِ إِلَّا عَلَى ٱللَّهِ رِزۡقُهَا وَيَعۡلَمُ مُسۡتَقَرَّهَا وَمُسۡتَوۡدَعَهَاۚ كُلّٞ فِي كِتَٰبٖ مُّبِينٖ ﴿٦﴾ ﴾

أخبر تعالى أنه مُتكفِّل، بأرزاق المخلوقات من سائرِ دَوابِّ الأرض، صغيرها وكبيرها، بَحريِّها وبَرِّيها، وأنه ﴿ يعلم مُستقرَّها ومُستودَعها ﴾، أي: يعلم أين مُنتهى سيرها في الأرض، وأين تأوِي إليه من وكرها، وهو مُستودَعُها.

---

(١) فتح الباري، تفسير سورة هود ٨/٣٤٩ ـ ٣٥٠.
(٢) أخرجه الطبري وابن أبي حاتم من طريق عكرمة، انظر تفسير الطبري ١١/١٨٥، والدرّ المنثور ٤/٤٠٠.
(٣) ديوان زهير ١٨.
(٤) تفسير الطبري ١١/١٨٣.

وقال عَليُّ بن أبي طلحة وغيره، عن ابن عباس: ﴿ ويعلم مُستقرَّها ﴾ أي: حيث تأوي؛ ﴿ ومستودعها ﴾، حيث تموت.

وعن مجاهد: ﴿ مُستقرَّها ﴾ في الرَّحم، ﴿ ومُستودَعها ﴾ في الصلب، كالتي في الأنعام[١]، وكذا رُوي عن ابن عباس والضحاك، وجماعة. وذَكَر ابن أبي حاتم أقوالَ المفسرين هاهنا، كما ذكره عند تلك الآية، فالله أعلم، وأن جميع ذلك مكتوبٌ في كتاب عند الله مُبينٍ عن جميع ذلك، كما قال تعالى: ﴿ وما من دابةٍ في الأرضِ ولا طائرٍ يطيرُ بجناحيه إلا أُمَمٌ أمثالكم ما فرَّطنا في الكتاب من شيء ثم إلى ربِّهم يُحشرون ﴾. وقوله: ﴿ وعنده مفاتحُ الغيب لا يعلمها إلا هو ويعلم ما في البر والبحر وما تسقطُ من ورقة إلا يعلمها ولا حَبَّةٍ في ظلماتِ الأرض ولاَ رطبٍ ولا يابسٍ إلا في كتاب مبين ﴾.

﴿ وَهُوَ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ فِى سِتَّةِ أَيَّامٍ وَكَانَ عَرْشُهُۥ عَلَى ٱلْمَآءِ لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا وَلَئِن قُلْتَ إِنَّكُم مَّبْعُوثُونَ مِنۢ بَعْدِ ٱلْمَوْتِ لَيَقُولَنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓا۟ إِنْ هَٰذَآ إِلَّا سِحْرٌ مُّبِينٌ ۝٧ وَلَئِنْ أَخَّرْنَا عَنْهُمُ ٱلْعَذَابَ إِلَىٰٓ أُمَّةٍ مَّعْدُودَةٍ لَّيَقُولُنَّ مَا يَحْبِسُهُۥٓ ۗ أَلَا يَوْمَ يَأْتِيهِمْ لَيْسَ مَصْرُوفًا عَنْهُمْ وَحَاقَ بِهِم مَّا كَانُوا۟ بِهِۦ يَسْتَهْزِءُونَ ۝٨ ﴾

يخبرُ تعالى عن قُدرتِهِ على كُلِّ شيءٍ، وأنه خَلَق السمواتِ والأرضَ في سِتَّةِ أيامٍ، وأن عَرشَهُ كان على الماءِ قبل ذلك، كما قال الإمام أحمد:

حَدَّثنا أبو معاويةَ، حدثنا الأعمشُ، عن جامع بن شَدَّادٍ، عن صفوانَ بن مُحرزٍ، عن عِمْرانَ بن حُصَين قال: قال رسولُ الله ـ ﷺ ـ: اقبلُوا البشرى يا بني تميم. قالوا: قد بَشَّرتَنا فَأَعطِنا. قال: اقبلوا البُشرَى يا أهلَ اليمن. قالوا: قد قبِلنا، فأخبرنا عن أوَّلِ هذا الأمر كيفَ كانَ؟ قال: كان الله قبلَ كلِّ شيءٍ، وكان عرشُه على الماء، وكتَبَ في اللوح المحفوظ ذكر كُلِّ شيء. قال: فأتاني آتٍ فقال: يا عمرانُ، انحلَّتْ ناقتُك من عقالها. قال: فخرجت في إثرها، فلا أدري ما كان بعدي[٢].

وهذا الحديث مُخرَّج في صحيحَي البخاري ومسلم بألفاظ كثيرة؛ فمنها: «قالوا: جئناك نسألك عن أول هذا الأمر، فقال: كان الله ولم يكن شيءٌ قبله ـ وفي رواية: غيرُه ـ وفي رواية: مَعَه ـ وكان عرشُه على الماء، وكتب في الذكر كُلَّ شيءٍ، ثم خلق السمواتِ والأرضَ»[٢].

وفي صَحِيح مسلم، عن عبد الله بن عَمرو بن العاص قال: قال رسولُ الله ـ ﷺ ـ: «إن الله قدر مقادير الخلائق قبل أن يخلُقَ السمواتِ والأرضَ بخمسينَ ألفَ سنةٍ، وكان عرشُه على الماء»[٣].

وقال البخاريُّ في تفسير هذه الآية: حدثنا أبو اليمان، أخبرنا شُعَيب، حدثنا أبو الزِّناد، عن الأعرج، عن أبي هُرَيرَة ـ رضي الله عنه ـ: أن رسولَ الله ـ ﷺ ـ قال: «قال الله ـ عزَّ وجلَّ ـ: أَنفِق أُنفِقْ عليك. وقال: يدُ الله ملأى لا يَغِيضُها نفقة، سَحَّاءُ الليلَ والنهار. وقال: أفرأيتُم ما أنفقَ منذ خلق السماء والأرض، فإنه لم يَغِض ما في يده، وكان عرشُه على الماءِ، وبيده المِيزانُ يخفِضُ ويرفَعُ»[٤].

(١) انظر تفسير الآية ٩٨ من سورة الأنعام.
(٢) مسند أحمد ٤/٤٣١ ـ ٤٣٢، وفتح الباري، كتاب بدء الخلق ٦/٢٨٦.
(٣) مسلم، كتاب القدر ٤/٢٠٤٤.
(٤) فتح الباري، تفسير سورة هود ٨/٣٥٢. لا يَغيضُها: لا ينقصها. وسَحَّاءُ: دائمة.

وقال الإمامُ أحمدُ: حدثنا يزيدُ بن هارونَ، أخبرنا حَمَّاد بن سَلَمةَ، عن يعلَى بن عطاء، عن وكيع بن عُدُس، عن عَمِّه أبي رَزِين ـ واسمه لَقِيط بن عامر بن المُنتَفِق العُقَيلي ـ قال قلتُ: يا رسولَ الله، أين كان رَبُّنا قبل أن يخلق خَلْقَه؟ قال: كان في عَمَاءٍ، ما تحته هواءٌ وما فوقه هواءٌ، ثم خَلَق العرش بعد ذلك(١).

وقد رواه الترمذيُّ في التفسير، وابنُ ماجه في السنة من حديث يزيدَ بن هارونَ، به، وقال الترمذي: هذا حديث حسن(١).

وقال مجاهدٌ: ﴿ وكان عرشُه على الماء ﴾، قبل أن يخلُقَ شيئاً. وكذا قال وهب بن مُنبِّه، وضمرةُ بن حَبِيب، وقاله قتادة، وابنُ جرير، وغيرُ واحد.

وقال قَتادةُ في قوله: ﴿ وكان عرشُه على الماءِ ﴾، يُنَبِّئُكم كيفَ كان بَدْءُ خَلْقِهِ قبل أن يخلُقَ السمواتِ والأرضَ.

وقال الزبيعُ بن أَنَس: ﴿ وكان عرشُه على الماء ﴾، فلما خَلَق السموات والأرض قَسَم ذلك الماء قسمين، فجعلَ نِصفاً تحت العرش، وهو البحر المسجورُ.

وقال ابنُ عباس: إنما سُمِّي العرشُ عرشاً لارتفاعه.

وقال إسماعيل بن أبي خالد، سَمِعت سَعداً الطائي يقولُ: العرشُ ياقوتةٌ حمراءُ.

وقال محمدُ بن إسحاقَ في قوله تَعالى: ﴿ وهو الذي خَلَق السمواتِ والأرضَ في سِتَّةِ أيام وكان عرشه على الماء ﴾، فكانَ كما وَصَفَ نفسَه تعالى، إذ ليس إلا الماءُ وعليه العرشُ، وعلى العرشِ ذُو الجلالِ والإكرامِ، والعزةِ والسلطانِ، والملكِ والقُدرةِ، والحِلْمِ والعِلْمِ، والرَّحمةِ والنِّعمةِ، الفَعَّال لما يُرِيدُ.

وقال الأعمشُ، عن المِنهال بن عَمرو، عن سعيد بن جُبَير قال: سُئِل ابنُ عباسٍ عن قَولِ الله: ﴿ وكان عرشُه على الماء ﴾، على أي شيء كان الماءُ؟ قال: على مَتنِ الرِّيح.

وقوله تعالى: ﴿ ليبلُوَكم أَيُّكم أحسنُ عملاً ﴾، أي: خَلَق السمواتِ والأرضَ لنفع عبادِهِ الذين خلقهم ليعبدُوه وحدَه لا شريكَ له، ولم يخلق ذلك عبثاً، كما قال تعالى: ﴿ وما خلقنا السماءَ والأرضَ وما بينهما باطلاً ذلك ظَنُّ الذين كفروا فويلٌ للذين كَفَرُوا من النار ﴾، وقال تعالى: ﴿ أفحسبتم أنما خلقناكم عَبَثاً وأنكُم إلينا لا تُرجَعُون * فتعالى الله الملك الحقُّ لا إلَه إلا هو ربُّ العرشِ الكريمِ ﴾، وقال تعالى: ﴿ وما خلقتُ الجِنَّ والإنسَ إلا ليعبُدونِ ﴾.

وقولُه: ﴿ ليبلُوَكُم ﴾، أي: ليختبركم ﴿ أيكم أحسنُ عملاً ﴾، ولم يقل، أكثرُ عملاً، بل أحسَنُ عملاً، ولا يكون العَمَل حسناً حتى يكون خالصاً لله عزَّ وجلَّ، على شريعةِ رسولِ الله ـ ﷺ ـ فمتى فَقَد العمَلُ واحداً من هذين الشرطين بَطَل وحَبِط.

وقولُه: ﴿ ولئن قُلت إنَّكم مبعوثونَ من بعد الموتِ ليقولَنَّ الذين كَفَرُوا إن هذا إلا سحرٌ مبين ﴾، يقول تعالى: ولئن أَخبَرتَ ـ يا محمد ـ هؤلاءِ المشركين أن الله سيبعثُهم بعد مَماتِهم كما بداهم، مع أنهم يعلَمُون أن الله تعالى هو الذي خَلَق السمواتِ والأرضَ، كما قال تعالى: ﴿ ولئن سألتهم من خلقهم ليقولُنَّ الله ﴾،

(١) مسند أحمد ١١/٤، وعارضة الاحوذي، تفسير سورة هود ٢٧٢/١٠ ـ ٢٧٣، وابن ماجه، المقدمة ٦٤/١ ـ ٦٥. والعَمَاء: السحاب. ومعنى «في عماء» أي: فوق سحاب عالياً عليه. و«ما» في قوله: ما فوقه وما تحته، قيل: إنها نافية، وقيل: موصولة.

﴿ ولئن سألتهم من خَلَق السموات والأرض وسَخَّر الشمس والقمر ليقولُنَّ الله ﴾، وهم مَع هذا يُنكِرُون البعث والمَعَاد يوم القيامة، الذي هو بالنسبةِ إلى القدرةِ أهونُ من البَدْأةِ، كما قال تعالى: ﴿ وهو الذي يبدأ الخَلْقَ ثم يُعيده وهو أهونُ عليه ﴾، وقال تعالى: ﴿ ما خلْقكم ولا بَعثكُم إلا كنفسٍ واحِدَةٍ ﴾، وقولهم: ﴿ إن هذا إلاّ سحرٌ مبين ﴾، أي: يقولونَ كفراً وعناداً: ما نُصَدِّقك على وقوع البعثِ، وما يَذْكر ذلك إلا مَن سَحَرته، فهو يتبعُك على ما تقولُ.

وقولُه: ﴿ ولئن أخرنا عنهم العذابَ إلى أُمَّةٍ معدودةٍ لَيقُولُنَّ ما يحبسه ﴾. يقول تعالى: ﴿ ولئن أَخَّرنا العذابَ﴾ والمؤاخذة عن هؤلاء المشركين إلى أجلٍ معدودٍ وأمدٍ محصورٍ، وأوعدناهم به إلى مُدَّةٍ مضروبةٍ، ليقولُنَّ تكذيباً واستعجالاً: ﴿ ما يحبسه ﴾، أي: يُؤَخِّر هذا العذابَ عنا؟! فإنَّ سجاياهم قد أَلِفَتِ التكذيبَ والشكَّ، فلم يبق لهم محيصٌ عنه ولا محيد.

والأُمَّة تستعملُ في القرآن والسنة في معانٍ متعددةٍ، فَيُراد بها الأمد، كقوله في هذه الآية: ﴿ إلى أُمَّةٍ معدودةٍ ﴾، وقوله في يوسف: ﴿ وقال الذي نجا منهما وادَّكر بعد أُمَّة ﴾، وتستعمل في الإمام المقتدى به، كقوله: ﴿ إن إبراهيم كان أمة قانتاً لله حنيفاً ولم يك من المشركين ﴾، وتُستعمَلُ في المِلَّة والدين كقوله إخباراً عن المشركين أنهم قالوا: ﴿ إنا وجدنا آباءنا على أُمَّةٍ وإنا على آثارهم مُقتَدُون ﴾، وتستعمل في الجَماعة كقوله: ﴿ ولما وَرَد ماء مدينَ وجدَ عليه أُمَّةً من الناس يَسقُونَ ﴾. وقال تعالى: ﴿ ولقد بعثنا في كُلِّ أمةٍ رَسُولاً أمة أن اعبدُوا الله واجتَنِبُوا الطاغوتَ ﴾، وقال تعالى: ﴿ ولِكُلِّ أمةٍ رسولٌ فإذا جاء رسولُهم قُضِي بينهم بالقسط وهم لا يُظلَمُون ﴾.

والمرادُ من الأمة هاهنا الذين يُبعَث فيهم الرسولُ مؤمنهم وكافرهم، كما في صحيح مسلم: «والذي نفسي بيده لا يسمَعُ بي أَحَدٌ من هذه الأُمَّة، يَهوديٌّ ولا نَصرانيٌّ، ثم لا يؤمنُ بي إلا دخل النار»(١).

وأما أمة الأتباعِ فهم المُصَدِّقون للرُسُلِ، كما قال تعالى: ﴿ كُنتُم خيرَ أُمَّةٍ أُخرجَتْ للنَّاسِ ﴾، وفي الصحيح: «فأقول: أُمَّتي أُمَّتي»(٢).

وتُستعمَلُ الأمةُ في الفِرقة والطَّائفة، كقوله تعالى: ﴿ ومن قوم موسى أُمَّة يهدُون بالحقِّ وبه يَعدلُون ﴾، وقال تعالى: ﴿ من أهل الكتاب أُمَّةٌ قائمة يتلون آيات الله آناءَ الليل وهم يسجدون ﴾.

﴿ وَلَئِنْ أَذَقْنَا ٱلْإِنسَٰنَ مِنَّا رَحْمَةً ثُمَّ نَزَعْنَٰهَا مِنْهُ إِنَّهُۥ لَيَـُٔوسٌ كَفُورٌ ﴿٩﴾ وَلَئِنْ أَذَقْنَٰهُ نَعْمَآءَ بَعْدَ ضَرَّآءَ مَسَّتْهُ لَيَقُولَنَّ ذَهَبَ ٱلسَّيِّـَٔاتُ عَنِّىٓ إِنَّهُۥ لَفَرِحٌ فَخُورٌ ﴿١٠﴾ إِلَّا ٱلَّذِينَ صَبَرُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ أُو۟لَٰٓئِكَ لَهُم مَّغْفِرَةٌ وَأَجْرٌ كَبِيرٌ ﴿١١﴾ ﴾

يخبر تعالى عن الإنسان وما فيه من الصِّفاتِ الذميمةِ، إلا مَن رَحِم الله من عباده المؤمنين، فإنه إذا أصابته شدَّةٌ بعد نِعمةٍ، حَصَل له يأسٌ وقنوطٌ من الخير بالنِّسبة إلى المستقبل، وكفرٌ وجحودٌ لماضي الحال، كأنه لم يَرَ خيراً، ولم يَرجُ بعدَ تلك فرجاً. وهكذا إن أصابته نعمةٌ بعد نِقمَةٍ ﴿ ليقولَنَّ ذهبَ السيِّئاتُ عني ﴾، أي يقولُ: ما بَقِي ينالني بعد هذا ضيمٌ ولا سوءٌ، ﴿ إنه لفَرِحٌ فَخُورٌ ﴾، أي: فَرِحٌ بما في يده. بَطِرٌ فَخُورٌ على

(١) مسلم، كتاب الإيمان ١/١٣٤.
(٢) أخرجه الشيخان، فتح الباري، كتاب التوحيد ٨/٤٧٣، ومسلم، كتاب الإيمان ١/١٨٣.

غيره. قال الله تعالى: ﴿ إلا الذين صَبَرُوا ﴾، أي: في الشَّدائِدِ والمَكارِه، ﴿ وعَمِلوا الصالحاتِ ﴾، أي: في الرَّخاءِ والعافية، ﴿ أولئك لهم مغفرةٌ ﴾، أي: بما يُصِيبهم من الضرَّاء، ﴿ وأجرٌ كبيرٌ ﴾، بما أسلفوه في زَمَن الرخاء، كما جاء في الحديث: «والذي نفسي بيده لا يُصِيب المؤمن هَمٌّ ولا غَمٌّ، ولا نَصَبٌ ولا وَصَبٌ، ولا حُزنٌ حتى الشوكةُ يُشاكها، إلا كَفَّر الله عنه بها من خَطاياه»[(١)]، وفي الصَّحِيحين[(٢)]: «والذي نفسي بيده لا يَقضِي الله للمؤمن قضاءً إلا كان خيراً له، إن أصابته سَرَّاءُ فشكَرَ كان خيراً له، وإن أصابته ضَرَّاءُ فصبَرَ كان خيراً له، وليس ذلك لأحدٍ غيرِ المُؤمِن». وهكذا قال الله تعالى: ﴿والعصر * إن الإنسان لفي خُسر * إلا الذين آمنوا وعملوا الصالحات وتواصَوا بالحقِّ وتواصَوا بالصَّبرِ ﴾. وقال تعالى: ﴿إن الإنسان خُلِق هَلُوعاً * إذا مَسَّه الشر جَزُوعاً * وإذا مَسَّه الخيرُ منوعاً * إلا المصلِّين﴾... الآية.

﴿ فَلَعَلَّكَ تَارِكُۢ بَعۡضَ مَا يُوحَىٰٓ إِلَيۡكَ وَضَآئِقُۢ بِهِۦ صَدۡرُكَ أَن يَقُولُواْ لَوۡلَآ أُنزِلَ عَلَيۡهِ كَنزٌ أَوۡ جَآءَ مَعَهُۥ مَلَكٌۚ إِنَّمَآ أَنتَ نَذِيرٌۚ وَٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٖ وَكِيلٌ ﴿١٢﴾ أَمۡ يَقُولُونَ ٱفۡتَرَىٰهُۖ قُلۡ فَأۡتُواْ بِعَشۡرِ سُوَرٖ مِّثۡلِهِۦ مُفۡتَرَيَٰتٖ وَٱدۡعُواْ مَنِ ٱسۡتَطَعۡتُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ إِن كُنتُمۡ صَٰدِقِينَ ﴿١٣﴾ فَإِلَّمۡ يَسۡتَجِيبُواْ لَكُمۡ فَٱعۡلَمُوٓاْ أَنَّمَآ أُنزِلَ بِعِلۡمِ ٱللَّهِ وَأَن لَّآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَۖ فَهَلۡ أَنتُم مُّسۡلِمُونَ ﴿١٤﴾ ﴾

يقولُ تعالى مُسلِّياً لرسوله ـ ﷺ ـ عما كان يَتعَنَّتُ به المشركون، فيما كانوا يقولُونه عن الرسول ـ كما أخبر تعالى عنهم ـ: ﴿ وقالوا ما لهذا الرسولِ يأكلُ الطعامَ ويمشِي في الأسواقِ لولا أُنزِلَ إليه مَلَكٌ فيكونَ معه نذيراً * أو يُلقَى إليه كَنزٌ أو تكونُ له جنةٌ يأكل منها وقال الظالمون إن تتَّبِعُون إلا رَجُلاً مسحُوراً ﴾. فأمر الله تعالى رسوله ـ صلواتُ الله تعالى وسلامُه عليه ـ وأرشدَه إلى ألَّا يضيقَ بذلك منهم صدرُه، ولا يَهيدَنَّه[(٣)] ذلك ولا يُثنِيَنَّه عن دعائهم إلى الله ـ عز وجل ـ آناءَ الليل وأطرافَ النهار، كما قال تعالى: ﴿ ولقد نعلَمُ أنك يضيقُ صدرك بما يقولون * فَسبِّح بحمد ربك وكُن من الساجدين * واعبُد ربَّك حتى يأتيك اليقين﴾، وقال هاهنا: ﴿ فَلعلَّك تاركٌ بعضَ ما يُوحَى إليك وضائقٌ به صدرُك أن يقولوا ﴾، أي: لقولهم ذلك، فإنما أنت نذيرٌ، ولك أسوةٌ بإخوانِك من الرسُلِ قبلك، فإنهم كُذِّبُوا وأُوذوا، فَصَبرُوا حتى أتاهم نصرُ الله عز وجل.

ثم بيَّن تعالى إعجازَ القرآن، وأنه لا يستطيعُ البشرُ الإتيان بمثله، ولا بعَشْرِ سُوَرٍ مثلِه، ولا بِسُورَةٍ من مثله، لأن كلامَ الربِّ لا يُشبِهُه كلامُ المخلوقين، كما أنَّ صفاتِه لا تُشبه صفاتِ المُحْدثاتِ. وذاتُه لا يشبهها شيءٌ، تعالى وتقدَّس وتنزَّه، لا إلَه إلا هو، ولا ربَّ سواه.

ثم قال تعالى: ﴿فإلَّم يستجيبُوا لكم﴾، أي: فإن لم يأتوا بمعارَضَةِ ما دعوتموهم إليه، فاعلَمُوا أنهم عاجِزُونَ عن ذلك، وأن هذا الكلامَ منزَّلٌ من عند الله، متضمِّن عِلمَه وأمرَه ونَهْيَه، ﴿ وأن لا إلَه إلا هُو فهل أنتم مُسلِمُون ﴾.

﴿ مَن كَانَ يُرِيدُ ٱلۡحَيَوٰةَ ٱلدُّنۡيَا وَزِينَتَهَا نُوَفِّ إِلَيۡهِمۡ أَعۡمَٰلَهُمۡ فِيهَا وَهُمۡ فِيهَا لَا يُبۡخَسُونَ ﴿١٥﴾ أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ لَيۡسَ لَهُمۡ

---

(١) أخرجه الشيخان، فتح الباري، كتاب المرضى ١٠/١٠٣، ومسلم، كتاب البرّ ٤/١٩٩٢ـ١٩٩٣.
(٢) كذا، ولم يقع لنا إلا في صحيح مسلم، كتاب الزهد والرقائق ٤/٢٢٩٥.
(٣) أي: لا يُفزِعَنه.

﴿فِي الْآخِرَةِ إِلَّا النَّارُ وَحَبِطَ مَا صَنَعُوا فِيهَا وَبَاطِلٌ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴿١٦﴾﴾

قال العَوفي، عن ابن عَبَّاس، في هذه الآية: إن أهل الرِّياء يُعطَون بحسناتهم في الدنيا، وذلك أنهم لا يَظلِمُون فقيراً، يقول: من عمل صالحاً التماس الدنيا، صوماً أو صلاة أو تهجداً بالليل، لا يعمله إلا التماس الدنيا، يقول الله: أُوفِيهِ الذي التمس في الدنيا من المثابة، وحبط عمله الذي كان يعمله التماس الدنيا، وهو في الآخرة من الخاسرين.

وهكذا رُوِي عن مجاهدٍ، والضحَّاكِ، وغير واحد.

وقال أنسُ بن مالك، والحسنُ: نزلت في اليهود والنصارى. وقال مجاهدٌ وغيره: نَزَلت في أهل الرياء.
وقال قتادةُ: من كانت الدنيا هَمَّه وَسَدَمَه[1] وطَلِبَتَه ونِيَّته، جازاه الله بحسناته في الدنيا، ثم يُفضِي إلى الآخرة وليس له حسنةٌ يُعطَى بها جزاء. وأما المؤمن فَيُجازى بحسناته في الدنيا، ويُثاب عليها في الآخرة[2].

وقد وَرَد في الحديثِ المرفُوع نحوٌ من هذا.

وقال تعالى: ﴿مَن كان يُريدُ العاجلةَ عَجَّلنا له فيها ما نشاءُ لمن نُريد ثم جَعَلنا له جَهَنَّم يصلاَها مَذْمُوماً مَدحُوراً * ومن أراد الآخرة وسَعَى لها سَعْيَها وهو مؤمنٌ فأُولئك كان سعيُهم مَشْكُوراً * كُلاًّ نُمِدُّ هؤلاءِ وهؤلاءِ من عَطاءِ رَبِّك وما كان عطاء ربك محظُوراً * انظُر كيف فَضَّلنا بعضَهم على بعضٍ ولَلآخرةُ أكبرُ درَجاتٍ وأكبرُ تفضيلاً﴾، وقال تعالى: ﴿من كان يريدُ حرثَ الآخرة نَزِد له في حَرْثِه ومن كان يريدُ حَرْثَ الدنيا نُؤتِهِ منها وما له في الآخرةِ من نصيب﴾.

﴿أَفَمَن كَانَ عَلَىٰ بَيِّنَةٍ مِّن رَّبِّهِۦ وَيَتْلُوهُ شَاهِدٌ مِّنْهُ وَمِن قَبْلِهِۦ كِتَٰبُ مُوسَىٰٓ إِمَامًا وَرَحْمَةً أُوْلَٰٓئِكَ يُؤْمِنُونَ بِهِۦ وَمَن يَكْفُرْ بِهِۦ مِنَ الْأَحْزَابِ فَالنَّارُ مَوْعِدُهُۥ فَلَا تَكُ فِي مِرْيَةٍ مِّنْهُ إِنَّهُ الْحَقُّ مِن رَّبِّكَ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يُؤْمِنُونَ ﴿١٧﴾﴾

يخبرُ تعالى عن حال المؤمنين الذين هم على فِطْرةِ الله تعالى التي فَطَر عليها عبادَه، من الاعترافِ له بأنّه لا إله إلا هو، كما قال تعالى: ﴿فأقِم وجهَك للدين حَنِيفاً فطرَة الله التي فَطَر الناس عليها لا تبديل لِخلق الله ذلك الدين القيِّم﴾. وفي الصحيحَين عن أبي هُريرة قال: قال رسولُ الله ـ ﷺ ـ: «كُلُّ مولودٍ يولَد على الفِطرَةِ، فأبواه يُهوِّدانِهِ ويُنَصِّرانه ويُمَجِّسانه، كما تُولَدُ البهيمةُ بهيمةً جَمْعاء، هل تُحسّون فيها من جدْعاء»[3]؟.
وفي صحيح مسلم عن عياض بن حِمار، عن رسول الله ـ ﷺ ـ قال: «يقول الله تعالى: إني خلقتُ عبادي حُنَفاء، فجاءتهم الشياطين فاجتالتهم عن دينهم، وحَرَّمَتْ عليهم ما أَحْلَلتُ[4] لهم». وفي المسند والسنن: «كُلّ مولودٍ يُولَدُ على هذه المِلَّةِ حتى يُعرِبَ عنه لسانُه»[5]... الحديث. فالمؤمنُ باقٍ على هذه الفِطْرَة.

(١) يقال: سَدِمَ فلان بالشيء: قَرِص عليه ولَهِج به، فهو سادِمٌ، وسَدِمٌ، وسَدْمانٌ.
(٢) تفسير الطبري ١٢/١٢.
(٣) تقدم الحديث عند تفسير الآية ١١٩ من سورة النساء، ١٩ من سورة المائدة، ٧٩ من سورة الأنعام، ٣٠، ١٠٢، ١٧٢ من سورة الأعراف.
(٤) تقدم الحديث عند آيتي ٣٠، ١٠٢ من سورة الأعراف.
(٥) مسند الإمام أحمد ٣/٣٥٣ عن جابر بن عبد الله، وعن الأسود بن سريع ٣/٤٥٣، وسيأتي بتمامه عند تفسير الآية ٣٠ من سورة الروم. وقد ذكر ابن كثير هناك أن النسائي رواه في كتاب السير.

وقولُه: ﴿ ويتلُوه شاهدٌ منه ﴾، أي: وجاءه شاهدٌ من الله، وهو ما أوحاهُ إلى الأنبياء من الشرائع المُطَهَّرة المُكَمَّلة المعظَّمةُ المختتَمَة بشريعة محمد صلواتُ الله وسلامُه عليهم أجمعين. ولهذا قال ابنُ عباس، ومجاهدٌ، وعكرمةُ، وأبو العالية، والضحاكُ، وإبراهيمُ النخعيُّ، والسُّديُّ، وغيرُ واحدٍ في قولِه تعالى: ﴿ ويتلُوه شاهدٌ منه﴾: إنه جبريل عليه السلام. وعن عليٍّ، والحسنِ، وقتادَة: وهو محمد ﷺ.

وكلاهما قريبٌ في المعنى، لأنَّ كلاًّ من جبريل ومُحمَّدٍ ـ صلواتُ اللهِ عليهما ـ بَلَّغَ رسالةَ الله تعالى، فَجِبريلُ إلى مُحمَّدٍ، ومحمدٌ إلى الأمَّةِ.

وقيل: هو عليٌّ. وهو ضَعِيفٌ لا يَثبُت له قائلٌ. والأول والثاني هو الحقُّ، وذلك أن المؤمن عنده من الفطرة بما يشهَدُ للشريعةِ من حيثُ الجملة، والتفاصيلُ تؤخذ من الشريعة، والفطرةُ تُصدِّقها وتُؤمن بها، ولهذا قال تعالى: ﴿ أفمن كان على بيِّنةٍ من ربِّه ويتلوه شاهدٌ منه ﴾، وهو القرآن، بلَّغه جبريلُ إلى النبي ـ ﷺ ـ وبلغه النبي مُحمَّدٌ إلى أمته.

ثم قال تعالى: ﴿ ومن قبله كتابُ موسى ﴾، أي: ومن قبل القرآن كتابُ موسى، وهو التوراةُ، ﴿ إماماً ورحمةً ﴾، أي: أنزله الله تعالى إلى تلك الأمَّة إماماً لهم، وقدوةً يقتدونَ بها، ورحمةً من الله بهم. فمن آمن بها حَقَّ الإيمانِ قاده ذلك إلى الإيمانِ بالقرآنِ، ولهذا قال تعالى: ﴿ أولئك يُؤمنُون به ﴾.

ثم قال تعالى مُتوعِّداً لمن كَذَّب بالقرآن أو بشيءٍ منه: ﴿ ومن يكفُر به من الأحزابِ فالنارُ موعِدُه ﴾، أي: ومن كَفَر بالقرآن من سائر أهل الأرضِ مشركيهم، أهل الكتاب وغيرهم، من سائر طوائف بني آدم على اختلاف ألوانهم وأشكالهم وأجناسهم، ممن بَلَغه القرآنُ، كما قال تعالى: ﴿ لأنذركم به ومن بَلَغ ﴾، وقال تعالى: ﴿ قل يا أيها الناس إني رسولُ الله إليكم جميعاً ﴾. وقال تعالى: ﴿ ومن يكفُر به من الأحزاب فالنارُ موعِدُه ﴾. وفي صحيح مسلم، من حديث شعبة، عن أبي بشر، عن سعيد بن جُبَير، عن أبي موسى الأشعري ـ رضي الله عنه ـ أن رسول الله ـ ﷺ ـ قال: «والذي نفسي بِيَدِه لا يسمعُ بي أحدٌ من هذه الأمة يهوديٌّ أو نصرانيٌّ، ثم لا يؤمن بي، إلا دَخَل النار»[1].

وقال أيوبُ السَّختياني، عن سَعيد بن جُبَير قال: كنتُ لا أسمَعُ بحديثٍ عن رَسُولِ الله ـ ﷺ ـ على وَجْهِهِ إلا وجدتُ مِصْدَاقه ـ أو قال: تَصْدِيقَه ـ في القرآنِ، فَبَلَغني أنَّ رسولَ الله ـ ﷺ ـ قال: لا يسمَعُ بي أحدٌ من هذه الأمة، ولا يَهُودِيٌّ ولا نصرانيٌّ، فلا يُؤمِنُ بي إلا دَخَل النار. فَجَعلتُ أقول: أين مصداقُه في كتاب الله؟ قال: وقلَّما سَمِعتُ عن رسول الله ـ ﷺ ـ إلا وجدتُ له تصديقاً في القرآن، حتَّى وجدتُ هذه الآيَةَ: ﴿ ومَن يكفُر به من الأحزاب فالنارُ موعِدُه ﴾، قال: من المِلَلِ كُلِّها.

قولُه: ﴿ فلا تكُ في مِرْيَةٍ منه إنه الحقُّ من ربِّكَ ﴾، أي: القرآن حقٌّ من الله، لا مِرْيَةَ فيه ولا شَكَّ، كما قال تعالى: ﴿الۤمۤ ﴿ تنزيلُ الكتاب لا ريبَ فيه من ربِّ العالمين ﴾، وقال تعالى: ﴿الۤمۤ ﴿ ذلك الكتابُ لا ريبَ فيه ﴾.

وقولُه: ﴿ ولكنَّ أكثر الناس لا يُؤمِنُون ﴾، كما قال تعالى: ﴿ وما أكثرُ الناس ولو حَرَصتَ بمؤمنين ﴾، وقال تعالى: ﴿ وإن تطع أكثَرَ مَن في الأرضِ يُضِلُّوك عن سبيل الله ﴾، وقال تعالى: ﴿ ولقد صَدَّق عليهم إبليس ظنه فاتَّبعُوه إلا فريقاً مِنَ المؤمنين ﴾.

---

(١) أخرجه مسلم في كتاب الإيمان عن أبي هريرة ١/ ٣٤. فأما رواية أبي موسى فقد أخرجها النسائي في سننه الكبرى في كتاب التفسير، كما ذكر المزّي في تحفة الأشراف ٦/ ٤١٤، وكذلك أخرجها الطبري عند تفسير هذه الآية ١٢/ ٢٠.

﴿ وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ افْتَرَىٰ عَلَى اللَّهِ كَذِبًا ۚ أُولَٰئِكَ يُعْرَضُونَ عَلَىٰ رَبِّهِمْ وَيَقُولُ الْأَشْهَادُ هَٰؤُلَاءِ الَّذِينَ كَذَبُوا عَلَىٰ رَبِّهِمْ ۚ أَلَا لَعْنَةُ اللَّهِ عَلَى الظَّالِمِينَ ﴿١٨﴾ الَّذِينَ يَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ اللَّهِ وَيَبْغُونَهَا عِوَجًا وَهُم بِالْآخِرَةِ هُمْ كَافِرُونَ ﴿١٩﴾ أُولَٰئِكَ لَمْ يَكُونُوا مُعْجِزِينَ فِي الْأَرْضِ وَمَا كَانَ لَهُم مِّن دُونِ اللَّهِ مِنْ أَوْلِيَاءَ ۘ يُضَاعَفُ لَهُمُ الْعَذَابُ ۚ مَا كَانُوا يَسْتَطِيعُونَ السَّمْعَ وَمَا كَانُوا يُبْصِرُونَ ﴿٢٠﴾ أُولَٰئِكَ الَّذِينَ خَسِرُوا أَنفُسَهُمْ وَضَلَّ عَنْهُم مَّا كَانُوا يَفْتَرُونَ ﴿٢١﴾ لَا جَرَمَ أَنَّهُمْ فِي الْآخِرَةِ هُمُ الْأَخْسَرُونَ ﴿٢٢﴾ ﴾

يُبيِّن تعالى حالَ المُفترين عليه وفَضِيحَتهم في الدار الآخرة على رُءوسِ الخلائق من الملائكة والرسل والأنبياء، وسائر البشر والجانّ، كما قال الإمام أحمد:

حدَّثنا بَهزٌ وعفَّانُ قالا: أخبرنا هَمَّام، حدثنا قتادةُ، عن صفوانَ بنِ مُحرِزٍ قال: كنت آخذاً بيد ابن عُمَر إذ عَرَض له رجلٌ قال: كيفَ سَمِعت رسولَ الله - ﷺ - يقول في النجوى يوم القيامة؟ قال: سَمِعت رسول الله - ﷺ - يقول: إن الله - عزَّ وجلَّ - يُدني المؤمن فَيَضعَ عليه كنَفَه[(١)]، ويستره من الناس، ويُقرِّره بذنوبه، ويقول له: أتعرف ذَنْبَ كذا؟ أتعرف ذَنْبَ كذا؟ أتعرف ذَنْبَ كذا؟ حتى إذا قرَّره بذنوبه، ورأى في نفسه أنه قد هَلَك قال: فإني قد سترتُها عليك في الدنيا! وإني أغفرُها لك اليوم. ثم يُعطَى كتابَ حَسَناتِهِ، وأما الكُفَّارُ والمنافقون فيقولُ: ﴿الأشهاد هؤلاء الذين كَذَبوا على ربهم ألا لعنة الله على الظالمين﴾[(٢)].

أخرجه البخاري ومسلم في الصحيحَين، من حديث قتادة[(٢)] به.

وقولُه: ﴿ الذين يَصُدُّون عن سبيلِ الله ويبغونها عِوَجاً ﴾، أي: يردُّون الناسَ عن اتباع الحقِّ وسُلُوكِ طريقِ الهدى الموصِّلة إلى الله - عزَّ وجلَّ - ويُجنِّبُونَهُم الجنةَ، ﴿ ويبغُونها عِوَجاً ﴾، أي: ويُرِيدُون أن يكون طريقهُم عِوَجاً غير معتدلة، ﴿ وهُم بالآخرةِ هم كافرون ﴾، أي: جاحِدُونَ بها مُكَذِّبون بوقُوعها وكَوْنِها.

﴿ أولئك لم يكونوا مُعجِزين في الأرض وما كان لَهُم من دُون الله من أولياءَ ﴾، أي: بل كانوا تحتَ قهره وغَلَبته، وفي قبضته وسُلطانه، وهو قادرٌ على الانتقام منهم في الدار الدنيا قبلَ الآخرة، ﴿ ولكن يُؤخِّرهم ليوم تَشخَصُ فيه الأبصار ﴾، وفي الصحيحَين: «إنَّ الله ليُملي للظالم حتى إذا أخَذَه لم يُفلِته»[(٣)]. ولهذا قال تعالى: ﴿ يُضاعَفُ لهم العذابُ ما كانوا يستطيعون السمعَ وما كانُوا يُبصِرُون ﴾، أي يضاعَفُ عليهم العذاب، وذلك لأنَّ الله تعالى جَعَل لهم سمعاً وأبصاراً وأفئدةً، فما أغنى عنهم سمعُهم ولا أبصارُهم ولا أفئدتُهم، بل كانوا صُمّاً عن سَماع الحقِّ، عُمياً عن اتباعه، كما أخبر تعالى عنهم حينَ دُخولِهم النار: ﴿ وقالوا لو كُنَّا نسمَعُ أو نعقِل ما كُنَّا في أصحابِ السَّعير ﴾، وقال تعالى: ﴿ الذين كَفَرُوا وصدُّوا عن سبيل اللهِ زدناهُم عذاباً فوق العذاب بما كانوا يُفسِدون ﴾، ولهذا يُعذَّبون على كُلِّ أمر تَركُوه، وعلى كل نَهْيٍ ارتكبُوه. ولهذا كان أصحُّ الأقوال أنهم مُكلَّفون بفروع الشرائع أَمْرِها ونَهْيِها بالنسبة إلى الدارِ الآخِرة.

وقولُه: ﴿ أولئك الذين خَسِرُوا أنفُسَهم وضَلَّ عنهم ما كانوا يفترون ﴾، أي: خَسِرُوا أنفسهم لأنهم دَخَلُوا ناراً حامية، فهم مُعذَّبون فيها لا يُفتَّرُ عنهم من عذابها طَرْفَةَ عينٍ، كما قال تعالى: ﴿ كُلَّما خَبَتْ زِدناهُم سَعِيراً ﴾.

---

(١) أي: سِتْرَه وعفوه.

(٢) مسند أحمد ٧٤/٢، وفتح الباري، تفسير سورة هود ٣٥٣/٨، ومسلم، كتاب التوبة ٢١٢٠/٤.

(٣) فتح الباري، تفسير سورة هود ٣٥٤/٨، ومسلم، كتاب البر ١٩٩٧/٤.

و ﴿ ضَلَّ عنهم ﴾، أي: ذَهَب عنهم ﴿ ما كانوا يفترون ﴾ من دون الله من الأنداد والأصنام، فلم تُجْدِ عنهم شيئاً، بل ضَرَّتْهم كُلَّ الضَّرَر، كما قال تعالى: ﴿ وإذا حُشِر الناسُ كانوا لهم أعداءً وكانوا بعبادتهم كافرين ﴾، وقال تعالى: ﴿ واتخذوا من دون الله آلهة ليكونوا لهم عِزًّا * كلا سيكفُرون بعبادتهم ويكونون عليهم ضِدًّا ﴾، وقال الخليل لقومه: ﴿ إنما اتخذتُم من دون الله أوثاناً مَوَدَّةَ بَيْنِكم في الحياةِ الدُّنيا ثُمَّ يومِ القيامةِ يكفر بعضُكم ببعضٍ ويَلْعَنُ بعضُكم بعضاً ومأواكم النار وما لكم من ناصرين ﴾، وقال تعالى: ﴿ إذ تبرَّأ الذين اتُّبِعوا من الذين اتَّبَعُوا ورَأَوُا العَذابَ وتَقَطَّعت بهم الأسبابُ ﴾؛ إلى غير ذلك من الآيات الدالَّةِ على خُسْرِهم ودَمَارِهم، ولهذا قال: ﴿ لا جَرَمَ أنهم في الآخرةِ هم الأخسرون ﴾ يخبرُ تعالى عن حالهم أنهم أخسرُ الناس صفقةً في الدار الآخرة، لأنهم استبدلُوا بالدركاتِ عن الدرجات، واعتاضوا عن نعيم الجنان بحميم آنٍ، وعن شُرب الرحيق المختوم، بسَمُوم وحَميم، وظِلٍّ من يحموم، وعن الحور العين بطعامٍ من غِسْلين، وعن القُصُور العالية بالهاويةِ، وعن قُرْبِ الرحمن ورؤيته بغَضَب الدَّيَّان وعقوبته، فلا جَرَم أنهم في الآخرة هم الأخسرون.

﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ وَأَخْبَتُوٓاْ إِلَىٰ رَبِّهِمْ أُوْلَٰٓئِكَ أَصْحَٰبُ ٱلْجَنَّةِ هُمْ فِيهَا خَٰلِدُونَ ﴿٢٣﴾ ۞ مَثَلُ ٱلْفَرِيقَيْنِ كَٱلْأَعْمَىٰ وَٱلْأَصَمِّ وَٱلْبَصِيرِ وَٱلسَّمِيعِ هَلْ يَسْتَوِيَانِ مَثَلًا أَفَلَا تَذَكَّرُونَ ﴿٢٤﴾ ﴾

لمَّا ذكر تعالى حال الأشقياء ثَنَّى بذكر السُّعَداء، وهم الذين آمَنُوا وعمِلوا الصالحات، فآمنت قلوبُهم وعَمِلَت جوارحهُم الأعمالَ الصالحةَ قولاً وفعْلاً، من الإتيان بالطاعات وتَرْكِ المُنكَرات، وبهذا وَرِثُوا الجنَّات، المشتملة على الغُرَفِ العاليات، وَالسُّرُرِ المصفوفات، والقُطوف الدانيات، والفُرُش المرتفعات، والحِسَان الخيِّرات، والفواكهِ المتنوعات، والمآكل المشتَهيات، والمشارِبِ المُستَلَذَّات، والنظر إلى خالقِ الأرضِ والسمواتِ، وهم في ذلك خالدُونَ، لا يَمُوتون ولا يَهرمُون ولا يَمرضُون، وينامُون ولا يَغِطُّون، ولا يبصقون ولا يتمخَّطون، إن هو إلا رَشْحُ مِسك يَعْرَقُون.

ثم ضَرَب تعالى مثل الكافرين والمؤمنين، فقال: ﴿ مثلُ الفريقين ﴾، أي: الذين وصفهم أولاً بالشقاء والمؤمنين السُّعَداء، فأولئك كالأعمى والأصم، وهؤلاء كالبصير والسميع. فالكافر أعمى عن وَجهِ الحقِّ في الدنيا، وفي الآخرة لا يهتدي إلى خير ولا يعرفُه، أصمُّ عن سماع الحُجَج، فلا يسمَعُ ما يُنتَفَعُ به، ﴿ ولو عَلِم الله فيهم خيراً لأسمعهم وَلو أسمعهم لتولَّوا وهم مُعرِضُون ﴾، وأما المؤمن ففَطِنٌ ذكيٌّ لبيب، بصيرٌ بالحق، يُميِّز بينه وبين الباطل، فيَتَّبعُ الخير ويترك الشر، سميع للحجة، يفرق بينها وبين الشبهة، فلا يَرُوج عليه باطل، فهل يَستوي هذا وهذا؟!

﴿ أفلا تَذَكَّرون ﴾ أفلا تعتبرون وتُفرِّقون بين هؤلاءِ وهؤلاءِ، كما قال في الآية الأخرى: ﴿ لا يستوي أصحابُ النار وأصحابُ الجنة أصحابُ الجنة هم الفائزون ﴾ وقال: ﴿ وما يستوي الأعمى والبصيرُ * ولا الظلماتُ ولا النورُ * ولا الظل ولا الحَرُورُ * وما يستوي الأحياءُ ولا الأمواتُ إن الله يُسمِع مَن يشاء وما أنت بمُسمعٍ مَن في القبور * إن أنت إلا نذير * إنا أرسلناك بالحق بشيراً ونذيراً وإن من أُمَّةٍ إلا خلا فيها نذير ﴾.

﴿ وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَىٰ قَوْمِهِۦٓ إِنِّى لَكُمْ نَذِيرٌ مُّبِينٌ ﴿٢٥﴾ أَن لَّا تَعْبُدُوٓاْ إِلَّا ٱللَّهَ إِنِّىٓ أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ أَلِيمٍ ﴿٢٦﴾ فَقَالَ ٱلْمَلَأُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ مِن قَوْمِهِۦ مَا نَرَىٰكَ إِلَّا بَشَرًا مِّثْلَنَا وَمَا نَرَىٰكَ ٱتَّبَعَكَ إِلَّا ٱلَّذِينَ هُمْ أَرَاذِلُنَا

﴿ بَادِيَ ٱلرَّأْيِ وَمَا نَرَىٰ لَكُمْ عَلَيْنَا مِن فَضْلٍ بَلْ نَظُنُّكُمْ كَٰذِبِينَ ﴿٢٧﴾ ﴾

يَخبر تعالى عن نوح عليه السلام، وكان أوَّل رسول بَعَثه الله إلى أهلِ الأرض من المشركين عَبَدةِ الأصنام أنه قال لقومه: ﴿ إني لكم نذيرٌ مبينٌ ﴾، أي: ظاهر النِّذارَة لكم من عذاب الله إن أنتم عبدتُم غير الله. ولهذا قال: ﴿ أن لا تعبدُوا إلا الله ﴾، وقولِه: ﴿ إني أخافُ عليكُم عذابَ يومٍ أليم ﴾، أي: إن استمررتُم على ما أنتم عليه عَذَّبكم الله عذاباً أليماً مُوجِعاً شاقاً في الدار الآخرة.

﴿ فقال المَلأُ الذين كفرُوا من قومِه ﴾، والمَلأُ هم: السادةُ والكبراءُ من الكافرين منهم: ﴿ ما نراك إلا بشراً مثلَنا ﴾، أي: لستَ بملَك ولكنَّك بشرٌ، فكيف أُوحِيَ إليك من دُوننا؟ ثم ما نراك اتَّبعَك إلا أراذلنا كالباعةِ والحاكَةِ وأشباههم، ولم يَتَّبعك الأشرافُ ولا الرؤَساءُ، ثم هؤلاء الذين اتَّبعُوك لم يكن عن تَروٍّ منهم ولا فكرةٍ ولا نظرٍ، بل بمُجرَّد ما دعوتهم أجابوك فاتَّبعوك، ولهذا قال: ﴿ وما نَراك اتبعك إلا الذين هم أراذلنا باديَ الرَّأيِ ﴾، أي: في أول بادىءِ الرَّأي، ﴿ وما نَرى لكم علينا من فَضْلٍ ﴾، يقولون: ما رأينا لكم علينا فضيلةً في خَلْق ولا خُلُق، ولا رِزْقٍ ولا حالٍ، لَمَّا دخلتم في دينكم هذا، ﴿ بل نَظُنُّكم كاذِبينَ ﴾، أي: فيما تَدْعُونَه لكم من البرِّ والصلاحِ والعبادةِ، والسعادةِ في الدارِ الآخرةِ إذا صِرتُم إليها.

هذا اعتراضُ الكافرين على نُوح - عليه السلام - وأتباعه، وذلك دليلٌ على جهلهم وقلَّة علمهم وعَقْلِهم، فإنه ليس بعارٍ على الحقِّ رَذَالة من اتبعه، فإن الحقَّ في نفسه صحيح، وسَواءٌ اتبعه الأشراف أو الأراذلُ، بل الحقُّ الذي لا شك فيه أن أتباعَ الحق هم الأشرافُ، ولو كانوا فُقراءَ، والذين يَأْبونه هم الأراذلُ، ولو كانوا أغنياءَ. ثم الواقع غالباً أن ما يَتبع الحقَّ ضعفاءُ الناس، والغالبُ على الأشراف والكُبَراء مخالفته، كما قال تعالى: ﴿ وكذلك ما أرسلنا من قبلك في قرية من نذير إلا قال مُترَفُوها إنا وَجدنا آباءنا على أُمة وإنا على آثارهم مُقتَدُون ﴾، ولما سأل هرقلُ ملكُ الروم أبا سفيان صخر بن حَرْب عن صفاتِ النبي - ﷺ - قال له فيما قال: أشرافُ الناس اتَّبعُوه أو ضعفاؤهم؟ قال: بل ضُعَفاؤهم. فقال هرقل: هم أتباعُ الرسل.

وقولُهم: «بادِيَ الرأي» ليست بِمَذَمَّة ولا عَيبٍ، لأنَّ الحقَّ إذا وَضح لا يبقى للتروِّي ولا للفكرِ مجالٌ، بل لا بدَّ من اتباع الحقِّ والحالةُ هذه لكلِّ ذي زَكاءٍ وذَكاءٍ، ولا يُفكِّر ويُروِّي هاهنا إلا عَيِيٌّ أو غَبِيٌّ. والرسُلُ - صلوات الله وسلامه عليهم أجمعين - إنَّما جاءوا بأمرٍ جَليٍّ واضحٍ. وقد جاء في الحديثِ أنَّ رسولَ الله - ﷺ - قال: «ما دعوتُ أحداً إلى الإسلام إلا كانت له كبوةٌ، غيرَ أبي بكر، فإنه لم يَتَلعثم»، أي: ما تردَّد ولا تَروَّى، لأنه رأى أمراً جَلياً عظيماً واضحاً، فبادَرَ إليه وسارَعَ.

وقولُهم: ﴿ وما نَرَى لكم علينا من فضلٍ ﴾، هُم لا يَرون ذلك، لأنهم عُمي عن الحقِّ، لا يسمَعُون ولا يُبصِرُون، بل هم في رَيبِهم يَتردَّدُون، وفي ظلماتِ الجهل يَعْمَهُون، وهم الأفَّاكون الكاذِبُون، الأقلُّون الأرذَلُون، وفي الآخرة هم الأخسَرُون.

﴿ قَالَ يَٰقَوْمِ أَرَءَيْتُمْ إِن كُنتُ عَلَىٰ بَيِّنَةٍ مِّن رَّبِّي وَءَاتَىٰنِي رَحْمَةً مِّنْ عِندِهِۦ فَعُمِّيَتْ عَلَيْكُمْ أَنُلْزِمُكُمُوهَا وَأَنتُمْ لَهَا كَٰرِهُونَ ﴿٢٨﴾ ﴾

يقولُ تعالى مخبراً عن نوح ما رَدَّ على قومه في ذلك: ﴿ أرأيتُم إن كنتُ على بَيِّنةٍ من ربِّي ﴾، أي: على يقينٍ وأمرٍ جَليٍّ، ونُبوَّةٍ صادقةٍ، وهي الرحمةُ العظيمةُ من الله به وبهم، ﴿ فَعُمِّيت عليكم ﴾، أي: خَفِيت عليكم فلم تهتدُوا إليها، ولا عَرَفتُم قدرها، بل بادرْتُم إلى تكذيبها وردِّها، ﴿ أنلزِمُكُمُوها ﴾، أي: نَغْصِبكم بقبولها وأنتم لها كارهون.

﴿ وَيَٰقَوْمِ لَآ أَسْـَٔلُكُمْ عَلَيْهِ مَالًا ۖ إِنْ أَجْرِىَ إِلَّا عَلَى ٱللَّهِ ۚ وَمَآ أَنَا۠ بِطَارِدِ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ ۚ إِنَّهُم مُّلَٰقُوا۟ رَبِّهِمْ وَلَٰكِنِّىٓ أَرَىٰكُمْ قَوْمًا تَجْهَلُونَ ﴿٢٩﴾ وَيَٰقَوْمِ مَن يَنصُرُنِى مِنَ ٱللَّهِ إِن طَرَدتُّهُمْ ۚ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ ﴿٣٠﴾ ﴾

يقولُ لقومه: لا أسألكم على نُصحي مالاً أُجرةً آخذُها منكم، إنما أبتغي الأجر من الله ـ عزَّ وجلَّ ـ ﴿ وما أنا بطارد الذين آمنوا ﴾، كأنهم طلبُوا منه أن يطرُد المؤمنين عنه، احتشاماً ونفاسةً منهم أن يجلسوا معهم، كما سأل أمثالُهم خاتمُ الرسل ـ ﷺ ـ أن يطرُد عنهم جماعةً من الضعفاء ويجلس معهم مجلساً خاصّاً، فأنزل الله تعالى: ﴿ ولا تطرُدِ الذين يدعونَ ربَّهم بالغداةِ والعشي ﴾، وقال تعالى: ﴿ واصبر نَفْسَكَ مع الذين يدعُون ربهم بالغداة والعَشِيِّ يُريدُونَ وجهَهُ ولا تعدُ عيناك عنهُم ﴾. وقال تعالى: ﴿ وكذلك فَتَنَّا بعضَهم ببعضٍ ليقولُوا أهؤلاءِ مَنَّ الله عليهم من بَيْنِنَا أليس الله بأعلم بالشّاكرين ﴾... الآيات.

﴿ وَلَآ أَقُولُ لَكُمْ عِندِى خَزَآئِنُ ٱللَّهِ وَلَآ أَعْلَمُ ٱلْغَيْبَ وَلَآ أَقُولُ إِنِّى مَلَكٌ وَلَآ أَقُولُ لِلَّذِينَ تَزْدَرِىٓ أَعْيُنُكُمْ لَن يُؤْتِيَهُمُ ٱللَّهُ خَيْرًا ۖ ٱللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا فِىٓ أَنفُسِهِمْ ۖ إِنِّىٓ إِذًا لَّمِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٣١﴾ ﴾

يخبرُهم أنه رسولٌ من الله، يدعُو إلى عبادَةِ الله وحدَه لا شريكَ له، بإذن الله له في ذلك، ولا يسألُهم على ذلك أجراً، بل هو يدعُو من لقيه من شَريفٍ ووضيع، فمن استجابَ له فقد نجا. ويخبرُهم أنه لا يَقدِر على التصرُّفِ في خزائن الله، ولا يعلَمُ من الغيب إلا ما أطلَعه الله عليه، وليس هو بملَك من الملائكة، بل بشَرٌ مرسَلٌ، مُؤَيَّدٌ بالمعجزات. ولا أقولُ عن هؤلاء الذين تَحتَقِرونهم وتزدَرُونَهم: إنه ليس لهم عند الله ثوابٌ على إيمانهم. الله أعلَمُ بما في أنفسهم، فإن كانوا مؤمنين باطناً كما هو الظاهرُ من حالِهم، فَلَهُم جزاءُ الحُسنَى، ولو قَطع لهم أحدٌ بِشَرٍّ بعد ما آمنوا لكان ظَالماً قائِلاً ما لا عِلْمَ لَهُ به.

﴿ قَالُوا۟ يَٰنُوحُ قَدْ جَٰدَلْتَنَا فَأَكْثَرْتَ جِدَٰلَنَا فَأْتِنَا بِمَا تَعِدُنَآ إِن كُنتَ مِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ ﴿٣٢﴾ قَالَ إِنَّمَا يَأْتِيكُم بِهِ ٱللَّهُ إِن شَآءَ وَمَآ أَنتُم بِمُعْجِزِينَ ﴿٣٣﴾ وَلَا يَنفَعُكُمْ نُصْحِىٓ إِنْ أَرَدتُّ أَنْ أَنصَحَ لَكُمْ إِن كَانَ ٱللَّهُ يُرِيدُ أَن يُغْوِيَكُمْ ۚ هُوَ رَبُّكُمْ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴿٣٤﴾ ﴾

يقولُ تعالى مخبراً عن استعجالِ قَومِ نُوح نقمةَ الله وعذابَه وسَخَطَه، والبلاءُ موكَّلٌ بالمنطق: ﴿ يا نوحُ قد جادلتنا فأكثرتَ جِدَالنا ﴾، أي: حاجَجْتنا فأكثرتَ من ذلك، ونحن لا نَتَّبِعُكَ، ﴿ فَأْتِنَا بِمَا تَعِدُنا ﴾، أي: من النقمة والعَذَابِ، ادعُ علينا بما شئت، فَلْيَأْتِنا ما تدعُو به ﴿إن كنتَ من الصَّادِقِينَ * قال إنما يأتيكم به اللهُ إن شاءَ وما أنتُم بمعجزين ﴾، أي: إنما الذي يُعاقبكم ويُعجِّلُها لكم الله الذي لا يُعجِزُه شيءٌ، ﴿ ولا ينفعُكم نُصحِي إن أردتُ أن أنصحَ لكم إن كان الله يريدُ أن يُغويَكم ﴾، أيْ: أيُّ شيءٍ يُجدِي عليكم إبلاغِي لكم وإنذارِي إياكم ونُصحِي، إن كان الله يُريدُ إغواءَكم ودمارَكُم، ﴿ هو ربُّكم وإليه ترجَعُون ﴾، أي: هو مالكُ أَزِمَّةِ الأمور، والمتصرِّفُ الحاكمُ العادل الذي لا يجورُ، له الخلقُ وله الأمرُ، وهو المبدئُ المعيدُ، مالكُ الدنيا والآخرةِ.

﴿ أَمْ يَقُولُونَ ٱفْتَرَىٰهُ ۖ قُلْ إِنِ ٱفْتَرَيْتُهُۥ فَعَلَىَّ إِجْرَامِى وَأَنَا۠ بَرِىٓءٌ مِّمَّا تُجْرِمُونَ ﴿٣٥﴾ ﴾

هذا كلامٌ معترِضٌ في وَسَطِ هذه القصة، مُؤكِّد لها ومقرِّر بشأنها. يقول تعالى لمحمد ـ ﷺ ـ: أم يقول هؤلاء الكافرون الجاحدون: افترى هذا وافتعلَهُ من عنده. ﴿ قل إن افتريتُه فَعَليَّ إجرامي ﴾، أي: فإثم ذلك

عَليَّ»، ﴿وأنا بريءٌ مما تُجرِمُون﴾، أي: ليس ذلك مُفتَعَلاً ولا مُفترىً، لأنّي أعلمُ ما عند الله من العقوبةِ لمن كَذَب عليه.

﴿وَأُوحِيَ إِلَىٰ نُوحٍ أَنَّهُۥ لَن يُؤْمِنَ مِن قَوْمِكَ إِلَّا مَن قَدْ ءَامَنَ فَلَا تَبْتَئِسْ بِمَا كَانُوا۟ يَفْعَلُونَ ﴿٣٦﴾ وَٱصْنَعِ ٱلْفُلْكَ بِأَعْيُنِنَا وَوَحْيِنَا وَلَا تُخَٰطِبْنِى فِى ٱلَّذِينَ ظَلَمُوٓا۟ ۚ إِنَّهُم مُّغْرَقُونَ ﴿٣٧﴾ وَيَصْنَعُ ٱلْفُلْكَ وَكُلَّمَا مَرَّ عَلَيْهِ مَلَأٌ مِّن قَوْمِهِۦ سَخِرُوا۟ مِنْهُ ۚ قَالَ إِن تَسْخَرُوا۟ مِنَّا فَإِنَّا نَسْخَرُ مِنكُمْ كَمَا تَسْخَرُونَ ﴿٣٨﴾ فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ مَن يَأْتِيهِ عَذَابٌ يُخْزِيهِ وَيَحِلُّ عَلَيْهِ عَذَابٌ مُّقِيمٌ ﴿٣٩﴾﴾

يخبرُ تعالى أنه أُوحِيَ إلى نُوح لما استعجَلَ قوْمُه نقمةَ الله بهم وعذابَه لهم، فدعا عليهم نوحٌ دعوَتَه التي قال الله تعالى مخبراً عنه أنه قال: ﴿ربِّ لا تَذَر على الأرضِ من الكافرين دَيَّاراً﴾، ﴿فدعا ربَّه أني مغلوبٌ فانتصر﴾، فعند ذلك أوحى الله تعالى إليه: ﴿أنه لن يُؤمِنَ من قومك إلا مَن قد آمن﴾، فلا تحزَن عليهم ولا يَهُمنَّك أمرُهم.

﴿واصنع الفُلكَ﴾، يعني السفينةَ ﴿بأعيننا﴾، أي: بمرأىً منا، ﴿ووحينا﴾، أي: وتعليمنا لكَ ماذا تصنَعُه، ﴿ولا تخاطبني في الذين ظَلَمُوا إنهم مُغرَقُون﴾.

فقال بعض السلف: أمره الله تعالى أن يَفْرِزَ[١] الخشب ويقطِّعه ويُيَبِّسَه، فكان ذلك في مائةِ سنةٍ، ونَجَرها في مائة سنة أخرى، وقيل: في أربعين سنة، فالله أعلم.

وذكر محمد بن إسحاق، عن التوراة: أن الله أمره أن يصنعها من خَشَب الساج[٢]، وأن يجعل طولَها ثمانين ذراعاً وعرضَها خمسين ذراعاً. وأن يطلي باطنها وظاهرها بالقار، وأن يجعَلَ لها جُؤجُؤاً[٣] أزوَرَ يشقُّ الماء. وقال قتادة: كان طولها ثلاثمائة ذراع في عرض خمسين.

وعن الحسن: طولها ستمائة ذراع وعرضها ثلاثمائة ذراع. وعنه مع ابن عباس: طولها ألف ومائتا ذراع، في عرض ستمائة. وقيل: طولها ألفا ذراع، وعرضها مائة ذراع، فالله أعلم.

قالوا كلهُم: وكان ارتفاعها في السماء ثلاثين ذراعاً، ثلاثَ طبقاتٍ، كل طبقة عشرة أذرع، فالسفلى للدوابِّ والوحوشِ: والوُسطَى للإنس: والعُليا للطُّيورِ. وكان بابُها في عرضها، ولها غطاء من فوقها مُطبِقٍ عليها.

وقد ذكر الإمامُ أبو جعفر بن جَرير أثراً غريباً، من حديث علي بن زيد بن جُدعان، عن يوسف بن مِهران، عن عبد الله بن عباس أنه قال: قال الحواريُّون لعيسى ابن مريمَ: لو بعثتَ لنا رجلاً شَهِد السفينة فَحَدَّثنا عنها. قال: فانطلَقَ بهم حَتَّى أتى إلى كَثِيب من تُرابٍ، فأخذ كفّاً من ذلك التراب بكفِّه، قال: أتدرون ما هذا؟ قالوا: الله ورسوله أعلمُ. قال: هذا كعبُ حام بن نُوحٍ. قال: وضَرَب الكثيبَ بعصاه، قال: قُم بإذن الله. فإذا هو قائم

---

(١) أي: يَشُقُّه.

(٢) السَّاجُ: ضربٌ من الشجر يعظم جداً ويذهب طولاً وعرضاً، وله ورق كبير.

(٣) الجُؤجُؤ: صدر السفينة. وهو في الأصل: مجتمع رءوس عظام الصدر. ويقال: زَوِرَ زَوَراً: اعْوَجَّ صدرُه، وهو أزوَر، وهي زوراء.

ينفُضُ التراب عن رأسه، قد شاب. قال له عيسى ـ عليه السلام ـ: هكذا هلكتَ؟ قال: لا. ولكني مُتُّ وأنا شابٌّ ولكنَّني ظننتُ أنها الساعةُ، فمن ثَمَّ شِبتُ. قال: حَدِّثنا عن سفينة نُوح؟ قال: كان طولُها ألفَ ذراع ومائتي ذراع، وعرضُها ستمائةِ ذراع، وكانت ثلاثَ طبقات، فطبقة فيها الدوابُّ والوحش، وطبقةٌ فيها الإنسُ، وطبقة فيها الطيرُ، فلما كثر أرواث الدوابِّ، أوحى الله ـ عزَّ وجلَّ ـ إلى نوح ـ عليه السلامُ ـ أن اغمِز ذَنَبَ الفِيل، فَغمزه، فوقع منه خنزيرٌ وخنزيرةٌ، فأقبلا على الرَّوثِ، فلما وقع الفأر بخَرَزِ[1] السفينة يقرضه وحبالِها، أوحى الله إلى نوح، أن اضرب بين عيني الأسد، فخرج من منخره سنَّور وسنَّورةٌ، فأقبلا على الفأر. فقال له عيسى ـ عليه السلام ـ: كيف عَلِم نوحٌ أن البلاد قد غَرِقت؟ قال: بعث الغراب يأتيه بالخبر، فوجد جيفةً فوقع عليها، فدعا عليه بالخوف، فلذلك لا يألف البيوت، قال: ثم بعث الحمامة، فجاءت بورق زيتون بمنقارها، وطين برجليها، فعلم أن البلاد قد غَرِقت. قال: فطوَّقَها الخضرة التي في عنقها، ودعا لها أن تكون في أنس وأمانٍ، فمن ثم تألف البيوتَ. قال: فقلنا: يا رسولَ الله. ألا ننطلق به إلى أهلينا فيجلسَ معنا ويحدثنا؟ قال: كيف يتبعكم من لا رِزْقَ له؟ قال: فقال له: عد بإذن الله. فعاد تُراباً[2].

وقولُه: ﴿ ويصنعُ الفلكَ وكُلَّما مرَّ عليه مَلأٌ من قومه سَخِروا منه ﴾، أي يَطْنِزُونَ[3] به ويُكذِّبون بما يتوعَّدُهم به من الغرق، ﴿ قال إن تسخَرُوا منا فإنّا نسخَرُ منكم كما تسخرون * فسوف تعلَمُون﴾، وعيدٌ شديدٌ، وتهديدٌ أكيدٌ، ﴿ من يأتيه عذابٌ يُخزِيه ﴾، أي: يُهينُه في الدنيا، ﴿ ويحلُّ عليه عذابٌ مُقِيم ﴾، أي: دائمٌ مستمرٌ أبداً.

﴿ حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءَ أَمْرُنَا وَفَارَ ٱلتَّنُّورُ قُلْنَا ٱحْمِلْ فِيهَا مِن كُلٍّ زَوْجَيْنِ ٱثْنَيْنِ وَأَهْلَكَ إِلَّا مَن سَبَقَ عَلَيْهِ ٱلْقَوْلُ وَمَنْ ءَامَنَ وَمَآ ءَامَنَ مَعَهُۥٓ إِلَّا قَلِيلٌ ﴿٤٠﴾ ﴾

هذه مُواعَدَةٌ من الله تعالى لِنُوحٍ ـ عليه السلام ـ إذا جاء أمرُ الله من الأمطار المُتَتابِعَةِ، والهَتَّان[4] الذي لا يُقلع ولا يَفتُر، بل هو كما قال تعالى: ﴿ ففتحنا أبواب السماء بماء مُنهَمِر * وفجرنا الأرض عُيُوناً فالتقى الماءُ على أمر قد قُدِر * وحملناه على ذات ألواح ودُسُر * تجري بأعيننا جزاءً لمن كان كُفِرَ ﴾.

وأما قولُه: ﴿ وفار التَّنورُ ﴾، فعن ابن عباس: «التنور: وجهُ الأرض».

أي: صارت الأرضُ عيوناً تفورُ، حتى فار الماء من التنانير التي هي مكانُ النار، صارت تفورُ ماءً. وهذا قولُ جمهورُ السَّلَفِ وعلماءِ الخَلَف.

وعن علي بن أبي طالب ـ رضي الله عنه ـ: «التنورُ: فَلَق الصُّبحِ وتنوير الفَجْرِ». وهو ضياؤهُ وإشراقُه: والأول أظهر.

وقال مجاهدٌ والشعبيُّ: كان هذا التنورُ بالكُوفَةِ. وعن ابن عباسٍ: عينٌ بالهندِ. وعن قتادةَ: عينٌ بالجَزيرة، يقال لها: «عينُ الوَرْدَة». وهذه أقوالٌ غريبةٌ.

---

(١) خَرَزُ الظهر: فقاره. ويقال: قَلَفْتُ السفينة: قَرَزْتُ الواحها باللِّيف. والمراد أنه الفأر أخذ يقرض ألواح السفينة وليفها. والله أعلم.

(٢) تفسير الطبري ١٢/٣٥ ـ ٣٦.

(٣) طَنَزَ به طَنْزاً: سَخِرَ واستهزأ.

(٤) هَتَنت السماء هَتْناً وهُتُوناً: هَطَلت وتتابع مطرها.

فحينئذ أمرَ الله نوحاً ـ عليه السلام ـ أن يحمل معه في السفينة من كلِّ زوجين ـ من صنوف المخلوقات ذوات الأرواح، قيل: وغيرها من النباتات ـ اثنين، ذكراً وأنثى، فقيل: كان أولُ من أدخل من الطيور الدُّرَّة[1]، وآخر من أدخل من الحيوانات الحِمَارَ، فدخل إبليس متعلقاً بذنبه، فدخل بيده، وجعل يريد أن ينهض فيثقله إبليس وهو متعلق بِذَنبه، فجعل يقول له نوح: ما لك؟ ويحكَ! ادخلْ. فينهَض ولا يقدِرُ، فقال: ادخُل وإن كانَ إبليسُ معك: فدخلا في السفينة.

وذكر أبو عُبَيدة بن عبد الله بن مسعود أنهم لم يستطيعوا أن يحمِلُوا معهم الأسد، حتى ألقيت عليه الحُمَّى.

وقال ابنُ أبي حاتم: حدثنا أبي، حدثنا عبد الله بن صالح كاتب الليث، حدثني الليث، حدثني هشام بن سعد، عن زيد بن أسلم، [عن أبيه] أن رسول الله ـ ﷺ ـ قال: «لما حَمَل نوحٌ في السفينة من كلِّ زوجين اثنين، قال أصحابُه: وكيف يطمئن أو: تطمئن ـ المواشي ومعها الأسدُ؟ فَسَلَّط الله عليه الحُمَّى، فكانت أول حُمَّى نزلت الأرض، ثم شكوا الفارةَ فقالوا: الفُوَيسقة تُفسِدُ علينا طعامَنا ومتاعَنا. فأوحى الله إلى الأسد، فعَطِسَ، فخرجت الهِرَّة منه، فتَخَبَّأت الفارةُ منها.

وقولُه: ﴿ ومَن آمن ﴾، أي: من قومك، ﴿ وما آمن معه إلا قليل ﴾، أي نَزْرٌ يَسِيرٌ مع طول المدَّة والمُقام بين أظهرُهم ألفَ سنةٍ إلا خمسين عاماً، فعنِ ابن عباس: كانوا ثمانينَ نفساً منهم نساؤُهم. وعن كَعْبِ الأحبارِ: كانوا اثنين وسبعين نفساً. وقيل: كانوا عشرةً. وقيل: إنما كانوا نوحٌ وبنُوه الثلاثة سامٌ وحامٌ ويافثُ، وكَنَائِنُه[2] الأربع نساء هؤلاء الثلاثة وامرأة يام. وقيل: بل امرأة نُوحٍ كانت معهم في السفينة، وهذا فيه نَظَر، بل الظاهرُ أنَّها هلكت، لأنها كانت على دين قومها، فأصابها ما أصابهم، كما أصاب امرأةَ لوطٍ ما أصاب قومَها، والله أعلمُ وأحكمُ.

﴿ ۞ وَقَالَ ٱرْكَبُواْ فِيهَا بِسْمِ ٱللَّهِ مَجْرٜىٰهَا وَمُرْسَىٰهَآ إِنَّ رَبِّي لَغَفُورٞ رَّحِيمٞ ﴿٤١﴾ وَهِيَ تَجْرِي بِهِمْ فِي مَوْجٖ كَٱلْجِبَالِ وَنَادَىٰ نُوحٌ ٱبْنَهُۥ وَكَانَ فِي مَعْزِلٖ يَٰبُنَيَّ ٱرْكَب مَّعَنَا وَلَا تَكُن مَّعَ ٱلْكَٰفِرِينَ ﴿٤٢﴾ قَالَ سَـَٔاوِيٓ إِلَىٰ جَبَلٖ يَعْصِمُنِي مِنَ ٱلْمَآءِۚ قَالَ لَا عَاصِمَ ٱلْيَوْمَ مِنْ أَمْرِ ٱللَّهِ إِلَّا مَن رَّحِمَۚ وَحَالَ بَيْنَهُمَا ٱلْمَوْجُ فَكَانَ مِنَ ٱلْمُغْرَقِينَ ﴿٤٣﴾ ﴾

يقولُ تعالى إخباراً عن نوحٍ ـ عليه السلام ـ أنه قال للذين أُمِرَ بحملهم مَعَه في السفينة: ﴿ اركبُوا فيها بسم الله مجراها ومُرسَاها ﴾، أي: باسم الله يكون جَرْيُها على وجهِ الماء، وباسم الله يكونُ مُنتَهى سيرها، وهو رُسُوُّها. وقرأ أبو رَجَاء العَطارِدِيُّ: ﴿ بسم الله مُجرِيها ومُرْسِيها ﴾[3].

وقال الله تعالى: ﴿ فإذا استويتَ أنتَ ومن مَعَك على الفُلكِ فقل الحمدُ لله الذي نَجَّانا من القوم الظالمين * وقل ربِّ أنزلني مُنزلاً مُباركاً وأنتَ خيرُ المُنزلين ﴾. ولهذا تُستَحَبُّ التسميةُ في ابتداء الأمور، عند الركوبِ على السفينة وعلى الدابة، كما قال تعالى: ﴿ والذي خلق الأزواج كُلَّها وجعل لكم من الفلك والأنعام ما تركَبُون * لِتستَوُوا على ظهوره ثم تذكروا نعمةَ ربِّكم إذا استويتم عليه وتقولوا سبحانَ الذي سخر لنا هذا وما كنا له مُقرنين * وإنا إلى رَبِّنا لمنقلبون ﴾، وجاءت السنةُ بالحثِّ على ذلك، والندبِ إليه، كما سيأتي في سُورة «الزُّخرف»، إن شاء الله، وبه الثقةُ.

(١) الدُّرَّة: البَبْغاء الصغيرة. (٢) الكَنَائن: جمع كَنَّة، وهي امرأة الابن أو الأخ. (٣) الدر المصون للسمين الحلبي ٦/٣٢٦.

وقال أبو القاسم الطبراني: حدثنا إبراهيم بن هاشم البغويُّ، حدثنا محمد بن أبي بكر المُقَدَّمي ـ وحدثنا زكريَّا بن يحيى الساجيُّ، حدثنا محمد بن موسى الحَرَشي ـ قالا: حدثنا عبد الحميد بن الحسن الهلاليُّ، عن نَهشَل بن سعيدٍ، عن الضحاك، عن ابن عباس، عن النبي ـ ﷺ ـ قال: «أمان أمتي من الغَرَق إذا ركبوا في السفن أن يقولُوا: بسم الله الملك، ﴿وما قدروا الله حق قدره والأرضُ جميعاً قبضتُه يوم القيامة والسموات مطويات بيمينه سبحانه وتعالى عما يشركون﴾، ﴿بسم الله مجراها ومُرسَاها إنّ ربي لغفور رحيم﴾»(١).

وقولُه: ﴿إن ربِّي لغفورٌ رحيمٌ﴾، مناسبٌ عند ذكر الانتقام من الكافرين بإغراقهم أجمعين ذكْرُ أنه غفورٌ رحيمٌ، كما قال: ﴿إن ربَّك لَسَريعُ العقابِ وإنه لغفورٌ رحيمٌ﴾، وقال: ﴿وإن ربَّك لذو مَغْفِرة للناس على ظُلمهم وإن ربك لشديد العقاب﴾، إلى غير ذلك من الآيات التي يقرنُ فيها بين انتقامه ورَحمته.

وقولُه: ﴿وهي تجري بهم في مَوجٍ كالجبالِ﴾، أي: السفينةُ سائرةٌ بهم على وجه الماء، الذي قد طبَّق جميع الأرض، حتى طَفَت على رءوس الجبال، وارتفع عليها بخمسة عشرةَ ذراعاً، وقيل: بثمانينَ ميلاً، وهذه السفينةُ على وجه الماء سائرةٌ بإذن الله وتحت كَنَفه وعنايته، وحِرَاسَتِهِ وامتنانه، كما قال تعالى: ﴿إنا لما طَغَا الماءُ حملناكم في الجارية * لنجعَلَها لكم تَذكِرةً وتَعِيَهَا أذنٌ واعيةٌ﴾، وقال تعالى: ﴿وحَمَلناهُ على ذاتِ ألواحٍ ودُسُرٍ * تجري بأعيُننا جزاءً لمن كان كُفِر * ولقد تركناها آيةً فهل من مُدَّكِرٍ﴾.

وقولُه: ﴿ونادى نوحُ ابنه وكان في معزِلٍ يا بنيَّ اركب معنا ولا تَكُن مع الكافرين﴾، هذا هو الابنُ الرابعُ، واسمه يامٌ، وكان كافراً، دعاه أبوه عند ركوب السفينة أن يُؤمِنَ ويركَبَ معهم ولا يغرَق مثل ما يغرَق الكافرون، ﴿قال سآوي إلى جَبَلٍ يعصِمُني من الماء﴾، وقيل: إنه اتخذ له مركباً من زُجاج وهذا من الإسرائيليات، والله أعلمُ بصحته. والذي نَصَّ عليه القرآن أنه قال: ﴿سآوي إلى جَبَلٍ يَعصِمني من الماء﴾، اعتقَدَ بجهله أنَّ الطوفان لا يبلغُ إلى رُءُوسِ الجبال، وأنه لو تعلَّق في رأس جبل لنجّاه ذلك من الغرق، فقال له أبوه نوح ـ عليه السلام ـ: ﴿لا عاصِمَ اليوم من أمر الله إلاّ من رَحِم﴾، أي: ليس شيءٌ يَعصِمُ اليوم من أمر الله. وقيل: إن عاصماً بمعنى معصوم، كما يقال: طاعمٌ وكاس، بمعنى مطعومٍ ومَكسُوّ، ﴿وحال بينهما الموجُ فكـان من المغرقين﴾.

﴿وَقِيلَ يَٰٓأَرۡضُ ٱبۡلَعِي مَآءَكِ وَيَٰسَمَآءُ أَقۡلِعِي وَغِيضَ ٱلۡمَآءُ وَقُضِيَ ٱلۡأَمۡرُ وَٱسۡتَوَتۡ عَلَى ٱلۡجُودِيِّۖ وَقِيلَ بُعۡدٗا لِّلۡقَوۡمِ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٤٤﴾﴾

يخبرُ تعالى أنه لما غَرِق أهلُ الأرض إلاَّ أصحابَ السفينة أمر الأرضَ أن تَبلعَ ماءَها الذي نَبع منها واجتمع عليها، وأمر السماء أن تُقلِعَ عن المطر، ﴿وغِيضَ الماء﴾، أي: شرَعَ في النقص، ﴿وقُضِيَ الأمر﴾، أي: فُرِغَ من أهل الأرض قاطبة، ممن كفر بالله، لم يبقَ منهم ديَّارٌ، ﴿واستوت﴾ السفينةُ بمن فيها ﴿على الجوديِّ﴾، قال مجاهد: وهو جَبَلٌ بالجزيرة، تشامخت الجبالُ يومئذٍ من الغَرَق وتطاولت، وتواضعَ هو لله عز وجل فلم يَغرَق، وأرست عليه سفينةُ نوح عليه السلام(٢).

وقال قتادة: استوت عليه شهراً حتى نزلُوا منها. قال قتادة: قد أبقى الله سفينةَ نوح ـ عليه السلام ـ على

(١) المعجم الكبير ١٢/١٢٤ ـ ١٢٥.
(٢) تفسير الطبري ١٢/٤٨.

الجُوديّ من أرض الجزيرة عِبْرَةً وآية حتى رآها أوائلُ هذه الأمةِ، وكم من سفينةٍ قد كانت بعدَها فهلكت، وصارت رَماداً.

وقال الضحاك: الـجُوديّ: جبلٌ بالموصِلِ. وقال بعضهم: هو الطورُ.

وقال ابن أبي حاتم: حدثنا أبي، حدثنا عَمرو بن رافع، حدثنا محمد بن عُبَيد، عن توبة بن سالم قال: رأيت زِرّ بن حُبَيش يصلّي في الزاوية حين يَدخل من أبواب كِندَة، على يمينك، فسألته: إنك لكثيرُ الصلاة هاهنا يومَ الجمعة. قال: بلغني أن سفينة نوح أرْسَتْ من هاهنا.

وقال علباءُ بن أحمَرَ، عن عكرمة، عن ابن عباس قال: كان مع نوح في السفينة ثمانُونَ رجلًا، معهم أهلوهم، وإنهم كانوا في السفينة مائة وخمسين يوماً، وإن الله وَجهَ السفينة إلى مَكّة فدارت بالبيت أربعين يوماً، ثم وجهها الله إلى الجُوديّ فاستقرت عليه، فبعث نُوحٌ الغرابَ ليأتيَه بخبر الأرض، فذهب فوقع على الجِيَفِ، فأبطأ عليه، فبعث الحمامة فأتته بورق الزيتون، ولطخت رجليها بالطين، فعرف نوح عليه السلام أن الماء قد نَضَب، فهبط إلى أسفل الجُودِيّ، فابتنى قريةً وسماها ثمانين، فأصبحوا ذات يوم وقد تبلبلت ألسنَتُهم على ثمانينَ لغةً، إحداها اللسانُ العربي. فكان[لا يفقه]بعضُهم كلام بعض، وكان نوح عليه السلام يُعبّر عنهم[1].

وقال كعب الأحبار: إن السفينةَ طافت ما بين المشرِق والمغرِب قبل أن تستقرّ على الجُوديّ.

وقال قتادةُ وغيرُه: رَكِبُوا في عاشر شهر رجب فساروا مائةً وخمسينَ يوماً، واستقرّت بهم على الجُوديّ شهراً، وكان خروجُهم من السفينة في يوم عاشوراء من المحرم. وقد وَرَد نحوُ هذا في حديثٍ مرفوعٍ رواهُ ابنُ جَرير[2]. وأنهم صاموا يومهم ذاك، فالله أعلم.

وقال الإمامُ أحمد: حدثنا أبو جعفر، حدثنا عبد الصمد بن حَبِيب الأزديُّ، عن أبيه حَبيب بن عبد الله، عن شُبَيل، عن أبي هُرَيرة قال: مَرَّ النبي - ﷺ - بأناس من اليهودِ، وقد صامُوا يومَ عاشوراء، فقال: ما هذا من الصوم؟ قالوا: هذا اليوم الذي نجى الله موسى وبني إسرائيل من الغرق، وغَرِق فيه فرعونُ، وهذا يوم استوت السفينةُ على الجُودِيّ، فصامه نوح وموسى - عليهما السلام - شكراً لله عز وجل. فقال النبيُّ - ﷺ -: أنا بموسى، وأحقُّ بصوم هذا اليوم. فصام، وقال لأصحابه: من كان أصبحَ منكم صائماً فَلْيُتِمّ صومَه، ومن كان أصابَ من غَداءِ أهله فَلْيُتِمّ بقيةَ يومه[3].

وهذا حديثٌ غريبٌ من هذا الوجه، وَلِبَعضِه شاهدٌ في الصَّحيح[4].

وقولُه: ﴿وقيل بُعداً للقوم الظالمين﴾: أي: هلاكاً وخَساراً لهم، وبُعداً من رحمةِ الله، فإنهم قد هَلَكُوا عن آخرهم، فلم يبق لهم بقيةٌ.

وقد روى الإمامُ أبو جعفر بن جرير والحبر أبو محمد بن أبي حاتم في تفسيريهما، من حديث موسى بن يعقوب الزّمعِيّ، عن فائد مولى عُبَيد الله بن أبي رافع، أن إبراهيم بن عبد الرحمن بن أبي رَبيعة أخبره: أن عائشَة زوجَ النبي - ﷺ - أخبرته: أن النبي - ﷺ - قال: لو رَحِمَ الله من قوم نوح أحداً لرحم أم الصبي، قال

---

(١) أخرجه ابن المنذر وابن أبي حاتم وابن عساكر. انظر الدرّ المنثور ٤/٤٣١.
(٢) تفسير الطبري ١٢/٤٧.
(٣) مسند الإمام أحمد ٢/٣٥٩-٣٦٠.
(٤) أخرجاه في كتاب الصوم، فتح الباري ٤/٢٤٤، ومسلم ٢/٧٩٥.

رسول الله ـ ﷺ ـ: كان نوح ـ عليه السلام ـ مكثَ في قومِه ألفَ سنةٍ [إلا خمسين عاماً][(١)]، يعني[(٢)] وغرس مائةَ سنة الشجر، فَعَظُمت وذَهَبت كُلَّ مذهب، ثم قَطَعها، ثم جَعَلَها سفينة. ويمرُّون عليه ويسخَرُون منه ويقولون: تعملُ سفينة في البَرّ، فكيف تجري؟ قال: سوف تعلمون. فلما فَرَغ ونَبَع الماءُ، وصار في السكك خَشِيت أمّ الصبي عليه، وكانت تحبه حباً شديداً، فخرجت إلى الجبل، حتى بلغت ثلثه، فلما بلغها الماءُ ارتفعت حتى بَلَغت ثُلُثَيه، فلما بَلَغها الماءُ خَرَجت به حتى استوت على الجَبَل، فلما بلغ رقبتها رَفَعته بيديها فَغَرِقا، فلو رَحِمَ الله منهم أحداً لَرَحِمَ أمَّ الصبيِّ[(٣)].

وهذا حديثٌ غريبٌ من هذا الوجه، وقد رُوِي عن كعب الأحبار، ومجاهد بن جَبْر قصةُ هذا الصبي وأمِّه بنحو من هذا.

﴿ وَنَادَىٰ نُوحٌ رَّبَّهُۥ فَقَالَ رَبِّ إِنَّ ٱبْنِى مِنْ أَهْلِى وَإِنَّ وَعْدَكَ ٱلْحَقُّ وَأَنتَ أَحْكَمُ ٱلْحَٰكِمِينَ ﴿٤٥﴾ قَالَ يَٰنُوحُ إِنَّهُۥ لَيْسَ مِنْ أَهْلِكَ ۖ إِنَّهُۥ عَمَلٌ غَيْرُ صَٰلِحٍ ۖ فَلَا تَسْـَٔلْنِ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِۦ عِلْمٌ ۖ إِنِّىٓ أَعِظُكَ أَن تَكُونَ مِنَ ٱلْجَٰهِلِينَ ﴿٤٦﴾ قَالَ رَبِّ إِنِّىٓ أَعُوذُ بِكَ أَنْ أَسْـَٔلَكَ مَا لَيْسَ لِى بِهِۦ عِلْمٌ ۖ وَإِلَّا تَغْفِرْ لِى وَتَرْحَمْنِىٓ أَكُن مِّنَ ٱلْخَٰسِرِينَ ﴿٤٧﴾ ﴾

هذا سؤالُ استعلام وكَشْفٍ من نوح عليه السلام، عن حال وَلَدِه الذي غَرِق، ﴿ قال ربِّ إن ابني من أهلي ﴾، أي: وقد وعدتني بنجاةِ أهلي، ووعدُك الحقُّ الذي لا يُخلَفُ، فكيف غَرِق وأنت أحكَمُ الحاكمين؟ ﴿ قال يا نوح إنه ليس من أهلِكَ ﴾، أي: الذين وعدت إنجاءهم، لأني إنما وعدتُك بنجاة مَن آمن من أهلك. ولهذا قال: ﴿ وأهلك إلا مَن سبق عليه القولُ منهم ﴾، فكان هذا الولد ممن سبَقَ عليه القولُ بالغَرَق لِكُفرِه ومخالفته أَبَاه نَبِيَّ الله نوحاً عليه السلام.

وقد نَصَّ غيرُ واحدٍ من الأئمة على تخطئة من ذَهَب في تفسير هذا إلى أنه ليس بابنه، وإنما كان ابن زِنية، ويُحكَى القولُ بأنه ليس بابنه، وإنما كان ابنَ امرأته عن مجاهد، والحسن، وعُبَيد بن عُمَير، وأبي جعفر الباقر، وابن جُرَيج. واحتجَّ بعضهم بقوله: ﴿ إنه عمل غير صالح ﴾، وبقوله: ﴿ فخانتاهما ﴾، فممن قاله الحسن البصري، احتج بهاتين الآيتين. وبعضهم يقول: كان ابن امرأته. وهذا يحتمل أن يكون أراد ما أراد الحسن أراد أنه نُسِب إليه مجازاً، لكونه كان ربيباً عنده، فالله أعلم.

وقال ابنُ عباس، وغير واحد من السلف: ما زنت امرأة نَبِيٍّ قط ـ قال: وقوله: ﴿ إنه ليس من أهلك ﴾، أي: الذين وعدتُك نَجاتَهم.

وقولُ ابن عباس في هذا هو الحقُّ الذي لا مَحِيدَ عنه، فإنَّ الله سبحانه أغيرُ من أن يمكن امرأة نَبِيٍّ من الفاحشة، ولهذا غضب الله على الذين رَمَوا أُمَّ المؤمنين عائشة بنتَ الصِّدِّيق زوجَ النبي ﷺ، وأنكر على المؤمنين الذين تَكَلَّموا بهذا وأشاعوه، ولهذا قال تعالى: ﴿ إن الذين جاءوا بالإفكِ عُصبة منكم لا تحسَبُوه شر لكم بل هو خير لكم لكلِّ امرىءٍ منهم ما اكتسب من الإثم والذي تَوَلَّى كِبْرَه منهم له عذابٌ عظيم ﴾، إلى قوله:

---

(١) عن تفسير الطبري.

(٢) لفظ الطبري ١٣٥/١٢: «إلا خمسين عاماً يدعوهم إلى الله، حتى كان آخر زمان غرس شجرة فعظمت». وانظر الدرّ المنثور ٤١٨/٤ ـ ٤١٩.

(٣) أخرجه الحاكم وصححه، انظر المستدرك ٣٤٢/٢، وقال الذهبي: «إسناده مظلم، وموسى ليس بذاك».

﴿ إذ تَلَقَّونه بألسنتكم وتقولُون بأفواهكم ما ليس لكم به علم وتحسبونَه هَيِّناً وهو عند الله عظيم ﴾.

وقال عبد الرزاق: أخبرنا معمر، عن قتادَةَ وغيره، عن عكرمةَ، عن ابن عباس قال: هو ابنُه غير أنه خالفه في العمل والنية، قال عكرمة: في بعض الحروف: ﴿ إنه عَمِل عملاً غيرَ صالح ﴾، والخيانة تكون على غير باب(١).

وقد ورد في الحديث أن رسولَ الله قرأ بذلك، فقال الإمام أحمد:

حدثنا يزيدُ بن هارون، حدثنا حماد بن سلمة، عن ثابت، عن شَهر بن حَوْشَب، عن أسماءَ بنتِ يزيدَ قالت: سمعتُ رسول الله ـ ﷺ ـ يقرأ: ﴿ إنه عَمِلَ غَيْرَ صَالحٍ ﴾(٢)، وسمعتُه يقول: ﴿ يا عبادي الذين أسرفوا على أنفسهم لا تقنطُوا من رحمة الله إن الله يغفر الذنوب جميعاً ﴾، ولا يبالي، ﴿ إنه هو الغفور الرحيم ﴾(٣).

وقال أحمد أيضاً: حدثنا وكيع، حدثنا هارون النحويُّ، عن ثابت البُنَانيِّ، عن شهر بن حَوشَب، عن أم سلمة أن رسول الله قرأها: ﴿ إنه عَمِلَ غَيْرَ صالح ﴾. أعاده أحمد أيضاً في مسنده(٤).

أم سلمة هي أم المؤمنين، والظاهر ـ والله أعلم ـ أنها أسماءُ بنت يزيدَ، فإنها تكنى بذلك أيضاً.

وقال عبد الرزاق أيضاً: أخبرنا الثوري وابن عُيَينة، عن موسى بن أبي عائشةَ، عن سليمان بن قَتَّةَ قال: سمعت ابن عباس سُئِل وهو إلى جَنْب الكعبة، عن قول الله: ﴿ فخانتاهما ﴾، قال: أما وإنه لم يَكُن بالزنا، ولكن كانت هذه تخبر الناس أنه مجنونٌ، وكانت هذه تدلُّ على الأضياف. ثم قرأ: ﴿ إنه عَمِلَ غَيْرَ صَالحٍ ﴾ ـ قال ابن عيينة: وأخبرني عمار الدُّهْني أنه سأل سعيد بن جُبَير عن ذلك فقال: كان ابنَ نوح، إن الله لا يكذب! قال تعالى: ﴿ ونادى نوح ابنَه ﴾، قال: وقال بعض العلماء: ما فَجَرت امرأةُ نبيٍّ قط(٥).

وكذا رُوي عن مجاهد أيضاً، وعكرمةَ، والضحاكِ، وميمونِ بن مهران، وثابت بن الحَجَّاج، وهو اختيارُ أبي جعفر بـن جرير، وهو الصوابُ لا شك فيه.

﴿ قِيلَ يَٰنُوحُ ٱهۡبِطۡ بِسَلَٰمٖ مِّنَّا وَبَرَكَٰتٍ عَلَيۡكَ وَعَلَىٰٓ أُمَمٖ مِّمَّن مَّعَكَۚ وَأُمَمٞ سَنُمَتِّعُهُمۡ ثُمَّ يَمَسُّهُم مِّنَّا عَذَابٌ أَلِيمٞ (٤٨) ﴾

يخبرُ تعالى عما قيل لنوحٍ ـ عليه السلام ـ حين أرستِ السفينةُ على الجُوديِّ، من السلام عليه، وعلى مَن معه من المؤمنين، وعلى كلِّ مُؤمنٍ من ذُرِّيته إلى يوم القيامة، كما قال محمد بن كعب: دَخَل في هذا السلام كلُّ مؤمنٍ ومُؤمنةٍ إلى يوم القيامة، وكذلك في العذابِ والمتاع كلُّ كافرٍ وكافرةٍ إلى يوم القيامة.

وقال محمد بن إسحاق: ولما أرادَ الله أن يكفَّ الطوفانَ أرسلَ ريحاً على وجهِ الأرضِ، فَسكن الماءُ، وانسدَّت ينابيعُ الأرضِ الغمر(٦) الأكبر وأبواب السماء، يقول الله تعالى: ﴿ وقيل يا أرضُ ابلَعِي ماءك ﴾...

(١) أخرجه الطبري ١٢/٥١.
(٢) انظر ضبط هذه القراءة في تفسير الطبري ١٢/٥٣، وروح المعاني ١٢/٦٩. وقد قرأ بها الكسائي من السبعة. الإقناع لابن الباذش ٢/٦٦٥.
(٣) مسند أحمد ٦/٤٥٤.
(٤) مسند أحمد ٦/٢٩٤. والإعادة في ٦/٣٢٢.
(٥) تفسير الطبري ١٢/٥٣.
(٦) كذا، ومثله في تفسير الطبري ١٢/٤٨. وفي النهاية بدل الغمر: الغَوط. ورجحه الأستاذ محمود محمد شاكر في نشرته ١٥/٣٣٨ ـ ٣٣٩، وفسّر الغوط بأنه: والمتّسع من الأرض مع طمأنينة، وهو هنا: عمق الأرض: الأبعد.

الآية، فجعل الماءُ ينقُص ويَغيض ويُدْبِرُ، وكان استواءُ الفُلْكِ على الجُوديِّ، فيما يزعمُ أهل التوراة، في الشهر السابع لسبعَ عشرةَ ليلةً مَضَت منه، وفي أوّلِ يوم من الشهر العاشر رُئي رُءوس الجبال. فلما مضى بعد ذلك أربعُون يوماً، فتح نوح كُوّة الفُلْك التي رَكِب فيها، ثم أرسل الغُرابَ لينظر له ما صنع الماءُ، فلم يرجع إليه. فأرسل الحمامةَ فرجعت إليه، لم تجد لرجليها موضعاً، فَبسط يده للحمامة فأخذها فأدخَلها. ثم مضى سبعة أيام، ثم أرسلها لتنظُر له، فرجَعَت حين أمست، وفي فيها وَرَقُ زيتونٍ، فَعَلِم نوح أن الماء قد قَلَّ عن وجه الأرض. ثم مكث سبعةَ أيامٍ ثم أرسلها، فلم ترجع، فعلم نوحٌ أن الأرض قد بَرَزَت. فلما كَمُلت السنةُ فيما بين أن أرسل الله الطوفانَ إلى أن أرسلَ نوحٌ الحَمامَةَ، ودخلَ يومٌ واحدٌ من الشهر الأول من سنة اثنتين، بَرَزَ وجهُ الأرضِ وظَهَرَ اليَبَس، وكشف نوح غطاءَ الفلك ورأى وجهَ الأرضِ، وفي الشهر الثاني من سنة اثنتين، في سبع وعشرين ليلة منه ﴿قيل يا نوح اهبطْ بسلامٍ مِنّا﴾... الآية.

﴿تِلْكَ مِنْ أَنۢبَآءِ ٱلْغَيْبِ نُوحِيهَآ إِلَيْكَ ۖ مَا كُنتَ تَعْلَمُهَآ أَنتَ وَلَا قَوْمُكَ مِن قَبْلِ هَٰذَا ۖ فَٱصْبِرْ ۖ إِنَّ ٱلْعَٰقِبَةَ لِلْمُتَّقِينَ ﴿٤٩﴾﴾

يقولُ تعالى لنبيِّه ﷺ: هذه القصةُ وأشباهُها ﴿من أنباءِ الغَيبِ﴾، يعني من أخبارِ الغُيُوبِ السالفة نُوحيها إليك على وجهها، كأنك شاهدها، ﴿نوحيها إليك﴾، أي: نُعلِمُكَ بها وحياً منّا إليك، ﴿ما كنتَ تعلَمُها أنتَ ولا قومُكَ من قبل هذا﴾، أي: لم يكُن عندكَ ولا عند أحدٍ من قومِك علمٌ بها، حتى يقولَ من يُكَذِّبك: إنك تعلمتَها منه، بل أخبرك الله بها مطابقةً لما كان عليه الأمر الصحيح، كما تشهد به كتبُ الأنبياء قبلك، فاصبر على تكذيبِ من كَذَّبك من قومك، وأذاهم لك، فإنا سننصُركَ ونحوطُكَ بعنايتنا، ونجعل العاقبةَ لك ولأتباعِكَ في الدُّنيا والآخرةِ، كما فَعَلنا بالمرسَلين حيث نصرناهُم على أعدائهم، ﴿إنا لننصُر رُسُلَنا والذين آمنوا﴾... الآية، وقال تعالى: ﴿ولقد سبقت كَلِمتُنا لِعبادِنَا المرسلين * إنهم لهم المنصُورُون﴾... الآية، وقال تعالى: ﴿فاصبِر إنَّ العاقبةَ للمتَّقِينَ﴾.

﴿وَإِلَىٰ عَادٍ أَخَاهُمْ هُودًا ۚ قَالَ يَٰقَوْمِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُۥٓ ۖ إِنْ أَنتُمْ إِلَّا مُفْتَرُونَ ﴿٥٠﴾ يَٰقَوْمِ لَآ أَسْـَٔلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْرًا ۖ إِنْ أَجْرِىَ إِلَّا عَلَى ٱلَّذِى فَطَرَنِىٓ ۚ أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴿٥١﴾ وَيَٰقَوْمِ ٱسْتَغْفِرُوا۟ رَبَّكُمْ ثُمَّ تُوبُوٓا۟ إِلَيْهِ يُرْسِلِ ٱلسَّمَآءَ عَلَيْكُم مِّدْرَارًا وَيَزِدْكُمْ قُوَّةً إِلَىٰ قُوَّتِكُمْ وَلَا تَتَوَلَّوْا۟ مُجْرِمِينَ ﴿٥٢﴾﴾

يقولُ تعالى: ﴿و﴾ لقد أرسلنا ﴿إلى عادٍ أخاهُم هُوداً﴾، آمراً لهم بعبادةِ الله وحدَه لا شريكَ له، ناهياً لهم عن الأوثان التي افتروها واختلقوا لها أسماءَ الآلهة، وأخبرهم أنه لا يريدُ منهم أجرةً على هذا النُّصح والبلاغِ من الله، إنما يبغي ثوابه من الله الذي فَطَره ﴿أفلا تعقِلُون﴾ من يدعوكُم إلى ما يُصلِحُكم في الدنيا والآخرةِ من غير أجرة.

ثم أمرهم بالاستغفار الذي فيه تكفيرُ الذنوبِ السالفة، وبالتَّوبة عما يَستقبلُون، ومن اتَّصفَ بهذه الصِّفَةِ يَسَّرَ الله عليه رِزقَه، وسَهّلَ عليه أمرَه، وحَفِظ شأنَه، ولهذا قال: ﴿يُرسِلِ السماءَ عليكم مدراراً﴾، وفي الحديث: «من لَزِم الاستغفار جَعَلَ الله له مِن كُلِّ هَمٍّ فرجاً، ومن كلِّ ضِيقٍ مخرجاً، ورَزَقه من حَيثُ لا يحتسِبُ»[1].

(١) أخرجه أبو داود في كتاب الصلاة ٢/٨٥، وابن ماجه في كتاب الأدب ٢/١٢٥٤ ـ ١٢٥٥.

﴿ قَالُوا يَا هُودُ مَا جِئْتَنَا بِبَيِّنَةٍ وَمَا نَحْنُ بِتَارِكِي آلِهَتِنَا عَن قَوْلِكَ وَمَا نَحْنُ لَكَ بِمُؤْمِنِينَ ﴿٥٣﴾ إِن نَّقُولُ إِلَّا اعْتَرَاكَ بَعْضُ آلِهَتِنَا بِسُوءٍ قَالَ إِنِّي أُشْهِدُ اللَّهَ وَاشْهَدُوا أَنِّي بَرِيءٌ مِّمَّا تُشْرِكُونَ ﴿٥٤﴾ مِن دُونِهِ فَكِيدُونِي جَمِيعًا ثُمَّ لَا تُنظِرُونِ ﴿٥٥﴾ إِنِّي تَوَكَّلْتُ عَلَى اللَّهِ رَبِّي وَرَبِّكُم مَّا مِن دَابَّةٍ إِلَّا هُوَ آخِذٌ بِنَاصِيَتِهَا إِنَّ رَبِّي عَلَى صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴿٥٦﴾ ﴾

يخبرُ تعالى أنَّهم قالوا لِنبيِّهم: ﴿ ما جئتنا ببيِّنةٍ ﴾، أي: بحجَّة وبُرهانٍ على ما تدَّعيه، ﴿ وما نحنُ بتاركي آلهتِنا عن قولِكَ ﴾ أي: بمجرَّد قولِكَ: اتركوهم، نترُكهم، ﴿ وما نحن لك بمؤمنين ﴾، بمصدِّقين، ﴿ إن نقولُ إلا اعتراكَ بعض آلهتنا بِسُوءٍ ﴾، يقولون: ما نظُنُّ إلا أن بعضَ الآلهةِ أصابَكَ بجنونٍ وخَبَلٍ في عقلِكَ بسببِ نَهيِكَ عن عبادتها وعَيْبِكَ لها، ﴿ قال إني أُشهِدُ الله واشهدُوا أني بريءٌ مما تُشرِكون من دُونه ﴾، يقول: إني بريءٌ من جميعِ الأندادِ والأصنامِ، ﴿ فكيدوني جميعاً ﴾، أي: أنتم وآلهتكم إن كانت حقاً، ﴿ ثم لا تُنظرونِ ﴾، أي: طرفةَ عَيْنٍ.

وقولُه: ﴿ إني توكَّلتُ على الله ربِّي وربِّكم ما من دابةٍ إلا هو آخذٌ بناصيتها ﴾، أي: تحت قَهرِه وسُلطانِهِ، وهو الحاكمُ العادلُ الذي لا يجورُ في حكمه، فإنَّه على صراطٍ مستقيم.

قال الوليدُ بن مسلمٍ، عن صفوانَ بنِ عَمْرٍو، عن أيفَعَ بنِ عبدِ الكَلاعِيِّ أنه قال في قوله تعالى: ﴿ ما من دابةٍ إلا هو آخذٌ بناصِيَتِها إنَّ ربي على صراط مستقيم ﴾، قال: فَيَأخذُ بِنَواصِي عِبادِهِ، فَيَلْقى المؤمن حتَّى يكونَ له أشفَقَ من الوالد لولده، ويقال للكافر: ﴿ ما غرَّكَ بربك الكريم ﴾.

وقد تضمَّن هذا المقام حجةً بالغة، ودلالةً قاطعةً على صدق ما جاءهم به، وبُطلان ما هُم عليه من عبادةِ الأصنامِ التي لا تنفعُ ولا تضرُّ، بل هي جَمادٌ لا تسمعُ ولا تُبصِرُ، ولا تُوالي ولا تُعادِي، وإنما يستحقُّ إخلاصَ العبادةِ الله وحدَه لا شريكَ له، الذي بيده الملكُ، وله التَّصرُّفُ، وما من شيءٍ إلا تحتَ مُلكِهِ وقَهرِهِ وسُلطانِهِ، فلا إلَه إلا هُو، ولا ربَّ سواه.

﴿ فَإِن تَوَلَّوْا فَقَدْ أَبْلَغْتُكُم مَّا أُرْسِلْتُ بِهِ إِلَيْكُمْ وَيَسْتَخْلِفُ رَبِّي قَوْمًا غَيْرَكُمْ وَلَا تَضُرُّونَهُ شَيْئًا إِنَّ رَبِّي عَلَى كُلِّ شَيْءٍ حَفِيظٌ ﴿٥٧﴾ وَلَمَّا جَاءَ أَمْرُنَا نَجَّيْنَا هُودًا وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ بِرَحْمَةٍ مِّنَّا وَنَجَّيْنَاهُم مِّنْ عَذَابٍ غَلِيظٍ ﴿٥٨﴾ وَتِلْكَ عَادٌ جَحَدُوا بِآيَاتِ رَبِّهِمْ وَعَصَوْا رُسُلَهُ وَاتَّبَعُوا أَمْرَ كُلِّ جَبَّارٍ عَنِيدٍ ﴿٥٩﴾ وَأُتْبِعُوا فِي هَذِهِ الدُّنْيَا لَعْنَةً وَيَوْمَ الْقِيَامَةِ أَلَا إِنَّ عَادًا كَفَرُوا رَبَّهُمْ أَلَا بُعْدًا لِّعَادٍ قَوْمِ هُودٍ ﴿٦٠﴾ ﴾

يقولُ لهم هودٌ: فإن تَوَلَّوا عما جئتكم به من عبادة الله ربكم وحدَه لا شريك له، فقد قامت عليكم الحجةُ بإبلاغي إيَّاكم رسالةَ الله التي بَعثني بها، ﴿ ويَستخلِفُ ربِّي قوماً غيركم ﴾ يعبُدُونه وحدَه لا يُشركون به ولا يُبالي بكم، فإنَّكم لا تضرُّونه بكفرِكم بل يعودُ وبالُ ذلك عليكم، ﴿ إنَّ ربِّي على كلِّ شيءٍ حفيظٌ ﴾، أي: شاهدٌ وحافظٌ لأقوالِ عبادِه وأفعالِهم، ويَجزيهم عليها إن خيراً فخيرٌ، وإن شرّاً فشرٌّ.

﴿ ولما جاء أمرُنا ﴾، وهو الريحُ العقيمُ، فأهلَكَهم الله عن آخرِهم، ونجى هوداً وأتباعَه من عذابٍ غليظٍ، برحمته تعالى ولطفه.

﴿ وتلك عادٌ جَحدُوا بآياتِ ربِّهم ﴾، كَفَروا بها، وعَصَوا رُسُلَ الله، وذلك أنَّ من كَفَر بنبيٍّ فقد كَفَر

بجميع الأنبياء، لأنه لا فرقَ بين أحدٍ منهم في وُجُوب الإيمانِ به، فعادٌ كفَرُوا بهودٍ، فنزل كفرُهم منزلة من كفر بجميع الرسُلِ، ﴿ واتبعوا أمرَ كلِّ جبَّارٍ عنيدٍ ﴾، تركوا اتباعَ رسُولِهم الرشيدِ، واتبعوا أمر كل جبَّارٍ عنيد. فلهذا أتبِعُوا في هذه الدنيا لعنةً من الله ومن عباده المؤمنين كُلَّما ذُكِرُوا، ويُنادَى عليهم يومَ القيامةِ على رُءُوس الأشهادِ، ﴿ ألا إنَّ عاداً كفَرُوا ربَّهم ﴾ . . . الآية.

قال السُّديُّ: ما بُعِث نَبِيٌّ بعد عاد إلا لُعِنُوا على لسانه[1].

﴿ ۞ وَإِلَىٰ ثَمُودَ أَخَاهُمْ صَٰلِحًا قَالَ يَٰقَوْمِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُۥ هُوَ أَنشَأَكُم مِّنَ ٱلْأَرْضِ وَٱسْتَعْمَرَكُمْ فِيهَا فَٱسْتَغْفِرُوهُ ثُمَّ تُوبُوٓا۟ إِلَيْهِ إِنَّ رَبِّى قَرِيبٌ مُّجِيبٌ ﴿٦١﴾ ﴾

يقولُ تعالى: ﴿ و ﴾ لقد أرسلنا ﴿ إلى ثَمُودَ ﴾ وهم الذين كانوا يسكُنون مدائِنَ الحِجْر بين تَبُوكَ والمدينةِ، وكانوا بعد عادٍ، فبعث الله منهم ﴿ أخاهم صالحاً ﴾، فأمرهم بعبادةِ الله وحدَه، ولهذا قال: ﴿ هو أنشأكم من الأرضِ ﴾، أي: ابتدأ خَلْقَكم منها، خلَق منها أباكُم آدمَ، ﴿ واستعمَرَكُم فيها ﴾ أي: جعلكم عُمَّاراً تعمُرونها وتَستغِلُّونها، ﴿ فاستغفِرُوه ﴾ لِسالِفِ ذُنوبكم، ﴿ ثم تُوبُوا إليه ﴾ فيما تَستقبِلُونه؛ ﴿ إنَّ ربِّي قريبٌ مجيبٌ ﴾، كما قال تعالى: ﴿ وإذا سألكَ عبادِي عَنِّي فإني قريبٌ أُجِيبُ دعوةَ الداعِ إذا دعانِ ﴾ . . . الآية.

﴿ قَالُوا۟ يَٰصَٰلِحُ قَدْ كُنتَ فِينَا مَرْجُوًّا قَبْلَ هَٰذَآ أَتَنْهَىٰنَآ أَن نَّعْبُدَ مَا يَعْبُدُ ءَابَآؤُنَا وَإِنَّنَا لَفِى شَكٍّ مِّمَّا تَدْعُونَآ إِلَيْهِ مُرِيبٍ ﴿٦٢﴾ قَالَ يَٰقَوْمِ أَرَءَيْتُمْ إِن كُنتُ عَلَىٰ بَيِّنَةٍ مِّن رَّبِّى وَءَاتَىٰنِى مِنْهُ رَحْمَةً فَمَن يَنصُرُنِى مِنَ ٱللَّهِ إِنْ عَصَيْتُهُۥ فَمَا تَزِيدُونَنِى غَيْرَ تَخْسِيرٍ ﴿٦٣﴾ ﴾

يذكر تعالى ما كان من الكلام بين صالح ـ عليه السلام ـ وبين قومه، وما كان عليه قومُه من الجَهلِ والعِناد في قولهم: ﴿ قد كنتَ فينا مَرْجوّاً قبلَ هذا ﴾، أي: كنا نرجوكَ في عَقلِكَ قبل أن تقولَ ما قُلتَ! ﴿ أتنهانا أن نعبُدَ ما يعبدُ آباؤنا ﴾، وما كان عليه أسلافُنا، ﴿ وإننا لفي شَكٍّ مما تدعُونا إليه مُرِيبٍ ﴾، أي: شكٍّ كثيرٍ.

﴿ قال يا قوم أرأيتُم إن كنتُ على بَيِّنة من ربِّي ﴾، فيما أرسلني به إليكم على يقينٍ وبُرهانٍ، ﴿ وآتاني منه رحمةً فمن يَنصُرني من الله إن عَصيتُه ﴾، وتركت دعوتَكم إلى الحقِّ وعبادةِ الله وحدَه، فلو تركته لما نفعتُموني ولما زِدتُموني ﴿ غير تخْسِير ﴾، أي: خسارةٍ.

﴿ وَيَٰقَوْمِ هَٰذِهِۦ نَاقَةُ ٱللَّهِ لَكُمْ ءَايَةً فَذَرُوهَا تَأْكُلْ فِىٓ أَرْضِ ٱللَّهِ وَلَا تَمَسُّوهَا بِسُوٓءٍ فَيَأْخُذَكُمْ عَذَابٌ قَرِيبٌ ﴿٦٤﴾ فَعَقَرُوهَا فَقَالَ تَمَتَّعُوا۟ فِى دَارِكُمْ ثَلَٰثَةَ أَيَّامٍ ذَٰلِكَ وَعْدٌ غَيْرُ مَكْذُوبٍ ﴿٦٥﴾ فَلَمَّا جَآءَ أَمْرُنَا نَجَّيْنَا صَٰلِحًا وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مَعَهُۥ بِرَحْمَةٍ مِّنَّا وَمِنْ خِزْىِ يَوْمِئِذٍ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ ٱلْقَوِىُّ ٱلْعَزِيزُ ﴿٦٦﴾ وَأَخَذَ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ ٱلصَّيْحَةُ فَأَصْبَحُوا۟ فِى دِيَٰرِهِمْ جَٰثِمِينَ ﴿٦٧﴾ كَأَن لَّمْ يَغْنَوْا۟ فِيهَآ أَلَآ إِنَّ ثَمُودَا۟ كَفَرُوا۟ رَبَّهُمْ أَلَا بُعْدًا لِّثَمُودَ ﴿٦٨﴾ ﴾

---

(١) أخرجه ابن أبي حاتم وأبو الشيخ. انظر الدرّ المنثور ٤/٤٤٤.

وتقدَّم الكلامُ على هذه القصة مستوفىً في سُورةِ «الأعراف»[(١)]، بما أغنى عن إعادته هاهنا، وبالله التوفيق.

﴿ وَلَقَدْ جَاءَتْ رُسُلُنَا إِبْرَاهِيمَ بِالْبُشْرَىٰ قَالُوا سَلَامًا قَالَ سَلَامٌ فَمَا لَبِثَ أَن جَاءَ بِعِجْلٍ حَنِيذٍ ﴿٦٩﴾ فَلَمَّا رَأَىٰ أَيْدِيَهُمْ لَا تَصِلُ إِلَيْهِ نَكِرَهُمْ وَأَوْجَسَ مِنْهُمْ خِيفَةً قَالُوا لَا تَخَفْ إِنَّا أُرْسِلْنَا إِلَىٰ قَوْمِ لُوطٍ ﴿٧٠﴾ وَامْرَأَتُهُ قَائِمَةٌ فَضَحِكَتْ فَبَشَّرْنَاهَا بِإِسْحَاقَ وَمِن وَرَاءِ إِسْحَاقَ يَعْقُوبَ ﴿٧١﴾ قَالَتْ يَا وَيْلَتَىٰ أَأَلِدُ وَأَنَا عَجُوزٌ وَهَٰذَا بَعْلِي شَيْخًا إِنَّ هَٰذَا لَشَيْءٌ عَجِيبٌ ﴿٧٢﴾ قَالُوا أَتَعْجَبِينَ مِنْ أَمْرِ اللَّهِ رَحْمَتُ اللَّهِ وَبَرَكَاتُهُ عَلَيْكُمْ أَهْلَ الْبَيْتِ إِنَّهُ حَمِيدٌ مَّجِيدٌ ﴿٧٣﴾ ﴾

يقولُ تعالى: ولما جاءت رسلُنا، وهم الملائكةُ، إبراهيمَ بالبشرى، قيل: تُبَشِّره بإسحاقَ، وقيل: بهلاكِ قوم لوطٍ. ويشهدُ للأول قولُه تعالى: ﴿ ولما ذَهَب عن إبراهيم الروعُ وجاءَته البُشرى يُجادِلُنا في قوم لوطٍ﴾ - ﴿قالوا سلاماً قال سلامٌ﴾، أي: عليكم. قال علماءُ البيان: هذا أحسنُ مما حَيّوه به، لأن الرفع يدلُّ على الثبوتِ والدوامِ.

﴿فما لَبِثَ أن جاء بِعِجْلٍ حَنِيذٍ﴾، أي: ذهب سريعاً فأتاهم بالضِّيافةِ، وهو عِجْلٌ: فَتِيُّ البَقرِ، حَنِيذٌ: مَشْوِيٌّ على الرَّضْفِ، وهي الحجارةُ المُحماةُ.

هذا معنى ما رُوِيَ عن ابن عباس، وقتادةَ، وغيرِ واحد، كما قال في الآيةِ الأخرى: ﴿ فراغَ إلى أهله فجاء بعجل سَمِينٍ * فَقَرَّبَه إليهم قال ألا تأكلونَ ﴾.

وقد تضمنت هذه الآيةُ آدابَ الضِّيافةِ من وُجُوهٍ كثيرةٍ.

وقولُه: ﴿ فلما رأى أيديَهم لا تَصِلُ إليه نَكِرهم ﴾ تَنَكَّرَهم، ﴿ وأوجَس منهم خيفةً ﴾. وذلك أن الملائكةَ لا هِمَّةَ لهم إلى الطعام ولا يشتهُونه ولا يأكلُونه، فلهذا رأى حالَهم مُعرِضين عَمَّا جاءهم به، فارغين عنه بالكُلِّيةِ، فعند ذلك نَكِرهم، ﴿ وأوجَس منهم خيفةً ﴾.

قال السُّدِّيُّ: لما بعثَ اللهُ الملائكةَ لقوم لوطٍ أقبلت تمشي في صُوَرِ رجالٍ شبانٍ، حتى نزلوا على إبراهيم فتَضيَّفُوه، فلما رآهم أجَلَّهم، ﴿ فَراغَ إلى أهله فجاء بعجلٍ سَمِينٍ ﴾، فَذَبحه ثُمَّ شواه في الرضْفِ، وأتاهم به فَقعد معهم، وقامت سارَةُ تخدُمُهم، فذلك حين يقول: «وامرأتُه قائمةٌ وهو جالِسٌ» - في قراءة ابن مسعود - ﴿ فلما قَرّبه إليهم قال ألا تأكلونَ ﴾، قالوا: يا إبراهيمُ، إنا لا نأكلُ طعاماً إلا بثمن. قال: فإن لهذا ثمناً. قالوا: وما ثمنُه؟ قال: تذكرونَ اسم الله على أوله، وتحمَدُونه على آخره. فنظر جبريلُ إلى ميكائيلَ فقال: حُقَّ لهذا أن يَتَّخِذَه ربُّه خليلاً. ﴿ فلما رأى أيديَهم لا تَصل إليه نَكِرَهم﴾، يقول: فلما رآهم لا يأكُلون فَزِع منهم وأوجسَ منهم خيفةً، فلما نَظَرت سارةُ أنه قد أكرمَهم وقامت هي تَخدُمُهم ضَحِكت وقالت: عجباً لأضيافِنا هؤلاءِ، نخدُمهم بأنفُسِنا كرامةً لهم، وهم لا يأكلون طعامنا[(٢)]؟!

وقال ابنُ أبي حاتم: حدثنا علي بن الحسين، حدثنا نصر بن علي، نُوح بن قَيس، عن عثمانَ بن مِحْصَن في ضيفِ إبراهيم قال: كانوا أربعة: جبريلَ، وميكائيلَ، وإسرافيلَ، ورُفائيلَ، قال نُوح بن قَيس: فزعم نوحُ بن

---

(١) انظر فيما مضى تفسير الآيات ٧٣ - ٧٩ من سورة الأعراف.

(٢) أخرجه الطبري ١٢/٧٢.

أبي شداد أنهم لما دخلوا على إبراهيم فقرَّب إليهم العجل مَسَحه جبريلُ بجناحه، فقام يَدرُجُ حتى لَحِق بِأُمِّه، وأمُّ العجل في الدار.

وقولُه تعالى إخباراً عن الملائكة: ﴿ قالوا لا تَخَف ﴾، أي قالوا: لا تَخَف منا، إنَّا ملائكةٌ أُرسِلْنا إلى قَوم لُوطٍ لِنُهلِكَهم. فضحكت سارَةُ استبشاراً بهلاكهم، لكثرةِ فَسادِهم وغِلَظِ كُفرِهم وعِنَادِهم، فلهذا جُوزِيَتْ بالبشارة بالولد بعد الإياس.

وقال قتادةُ: ضَحِكت وعَجِبت أن قوماً يأتيهم العذابُ وهم في غَفْلَةٍ.

وقولُه: ﴿ومن وراءِ إسحاقَ يعقوبَ ﴾، قال العَوفيُّ، عن ابن عباس: ﴿ فَضَحِكت ﴾ أي: حاضت.

وقولُ محمد بن قيس: إنها إنما ضَحِكت من أنها ظَنَّت أنهم يُرِيدُون أن يعمَلُوا كما يعمَلُ قومُ لوط. وقول الكلبيِّ: إنها إنما ضَحِكت لِمَا رأت من الرَّوع بإبراهيم ـ ضعيفانِ جداً، وإن كان ابنُ جرير قد رَوَاهما بِسَنَدِه إليهما، فلا يُلتَفَتُ إلى ذلك، والله أعلم.

وقال وَهبُ بن مُنَبِّه: إنما ضَحِكت لما بُشِّرت بإسحاقَ. وهذا مخالفٌ لهذا السياقِ، فإنَّ البِشَـارَةَ صريحةٌ مُرتَّبَةٌ على ضَحِكها.

﴿ فَبَشَّرها بإسحاق ومن وراءِ إسحاقَ يعقوبَ ﴾، أي: بوَلَدٍ لها يكونُ له ولدٌ وَعقبٌ ونَسل؛ فإنَّ يعقوبَ وَلَدُ إسحاقَ، كما قال في آية البقرة: ﴿ أم كنتم شهداء إذ حَضَر يعقوبَ الموتُ إن قال لبنيه ما تعبدُون من بعدي قالوا نعبدُ إلهك وإله آبائك إبراهيمَ وإسماعيل وإسحاقَ إلهاً واحداً ونحنُ له مُسلِمونَ ﴾.

ومن هاهنا استدلَّ مَن استدلَّ بهذه الآية، على أن الذَّبيح إنما هو إسماعيل، وإنه يمتنع أن يكون هو إسحاقَ، لأنه وَقَعت البشارة به، وأنه سَيُولد له يعقوبُ، فكيف يُؤْمَرُ إبراهيم بذبحه وهو طفلٌ صغيرٌ، ولم يولد له بعد يعقوبُ الموعودُ بوجوده. ووعدُ الله حقٌ لا خُلْفَ فيه، فيمتنع أن يُؤمَرَ بِذَبْحِ هذا والحالةُ هذه، فتعيَّنَ أن يكونَ هو إسماعيلَ. وهذا من أحسن الاستدلالِ وأصحِّه وأبينه، ولله الحمد.

﴿ قالت يا ويلتىٰ أألد وأنا عجوزٌ وهذا بعلي شيخاً ﴾... الآية، حُكِي قولُها في هذه الآية، كما حُكِي فعلُها في الآية الأخرى، فإنها: ﴿ قالت يا ويلتىٰ أألد وأنا عجوزٌ ﴾، وفي الذاريات: ﴿ فأقبلت امرأته في صَرَّةٍ فَصَكَّت وجهها وقالت عجوزٌ عقيمٌ ﴾، كما جرَتْ به عادةُ النساء في أقوالهنَّ وأفعالهنَّ عند التعجُّب. ﴿ قالوا أتعجَبِين من أمرِ الله ﴾ أي: قالت الملائكة لها: لا تَعجَبي من أمرِ الله، فإنَّه إذا أرادَ شيئاً أن يقول له «كُن» فيكونُ، فلا تعجَبي من هذا، وإن كنتِ عجُوزاً عَقِيماً، وبعلُك شيخاً كبيراً، فإنَّ الله على ما يشاء قديرٌ.

﴿ رحمةُ الله وبركاته عليكُم أهل البيت إنه حَمِيدٌ مَجِيدٌ ﴾، أي: هو الحميدُ في جميع أفعالِه وأقوالِه، محمودٌ ممجَّدٌ في صِفَاتِه وذَاتِه، ولهذا ثبت في الصَّحِيحَين أنهم قالوا: «قد عُلِّمنا السلامَ عليك، فكيف الصلاةُ عليكَ يا رسول الله؟ قال: «قولوا: اللهم صَلِّ على محمدٍ، وعلى آل محمدٍ، كما صَلَّيت على إبراهيمَ وآلِ إبراهيمَ، وبارِك على مُحمَّد وعلى آلِ مُحمَّدٍ، كما باركتَ على آلِ إبراهيمَ، إنك حميدٌ مجيدٌ»[1].

﴿ فَلَمَّا ذَهَبَ عَنْ إِبْرَٰهِيمَ ٱلرَّوْعُ وَجَآءَتْهُ ٱلْبُشْرَىٰ يُجَٰدِلُنَا فِى قَوْمِ لُوطٍ ﴿٧٤﴾ إِنَّ إِبْرَٰهِيمَ لَحَلِيمٌ أَوَّٰهٌ مُّنِيبٌ ﴿٧٥﴾ يَٰٓإِبْرَٰهِيمُ أَعْرِضْ عَنْ هَٰذَآ إِنَّهُۥ قَدْ جَآءَ أَمْرُ رَبِّكَ وَإِنَّهُمْ ءَاتِيهِمْ عَذَابٌ غَيْرُ مَرْدُودٍ ﴿٧٦﴾ ﴾

(١) فتح الباري، كتاب الأنبياء ٤٠٧/٦، ومسلم، كتاب الصلاة ٣٠٥/١.

يخبرُ تعالى عن إبراهيم ـ عليه السلام ـ أنَّه لما ذهبَ عنه الروعُ، وهو ما أوْجَس من الملائكةِ خِيفةً، حين لم يأكلُوا، وبَشَّروه بعد ذلك بالولد، وأخبرُوه بهلاكِ قومِ لوطٍ، أخذَ يقولُ كما قال سعيد بن جُبَير في الآية، قال: لما جاءه جبريلُ ومن معه، قالوا له: ﴿ إنا مُهلِكُو أهلِ هذهِ القريةِ ﴾، قال لهم: أتُهلِكُون قريةً فيها ثلاثمائةِ مؤمنٍ؟ قالوا: لا. قال: أفتُهلِكُون قريةً فيها مائتا مؤمن؟ قالوا: لا. قال: أفتُهلِكون قريةً فيها أربعُون مؤمناً؟ قالوا: لا. قال: ثلاثون؟ قالوا: لا. حتى بلغ خمسة قالوا: لا. قال: أرأيتَكم إن كان فيها رجل واحد مسلم، أتهلكونها؟ قالوا: لا. فقال إبراهيم ـ عليه السلام ـ عند ذلك: ﴿ إن فيها لوطاً قالوا نحنُ أعلم بمن فيها لَنُنجينَّه وأهلَه إلا امرأتَه ﴾. . . الآية، فَسَكت عنهم واطمأنت نفسُه.

وقال قتادةُ وغيره قريباً من هذا، زاد ابن إسحاق: أفرأيتم إن كان فيها مؤمنٌ واحدٌ؟ قالوا: لا. قال: فإن كان فيها لوطٌ يُدفَع به عنهم العذابُ؟ ﴿ قالوا نحن أعلم بمن فيها ﴾. . . الآية.

وقولُه: ﴿ إنَّ إبراهيم لحليمٌ أوَّاه منيبٌ ﴾، مَدَحَ إبراهيم بهذه الصفات الجميلة، وقد تَقَدَّم تفسيرها(١).

وقولُه تعالى: ﴿ يا إبراهيمُ أعرضْ عن هذا إنه قد جاء أمرُ ربك ﴾. . . الآية، أي: إنه قد نفذ فيهم القضاء، وحقَّت عليهم الكلمةُ بالهلاكِ وحُلُولِ البأس الذي لا يُرَدُّ عن القومِ المجرمين.

﴿ وَلَمَّا جَآءَتْ رُسُلُنَا لُوطًا سِيٓءَ بِهِمْ وَضَاقَ بِهِمْ ذَرْعًا وَقَالَ هَٰذَا يَوْمٌ عَصِيبٌ ۝٧٧ وَجَآءَهُۥ قَوْمُهُۥ يُهْرَعُونَ إِلَيْهِ وَمِن قَبْلُ كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ٱلسَّيِّـَٔاتِ ۚ قَالَ يَٰقَوْمِ هَٰٓؤُلَآءِ بَنَاتِى هُنَّ أَطْهَرُ لَكُمْ ۖ فَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَلَا تُخْزُونِ فِى ضَيْفِىٓ ۖ أَلَيْسَ مِنكُمْ رَجُلٌ رَّشِيدٌ ۝٧٨ قَالُوا۟ لَقَدْ عَلِمْتَ مَا لَنَا فِى بَنَاتِكَ مِنْ حَقٍّ وَإِنَّكَ لَتَعْلَمُ مَا نُرِيدُ ۝٧٩ ﴾

يخبرُ تعالى عن قُدُومِ رُسُله من الملائكة بعد ما أعلمُوا إبراهيمَ بهلاكهم، وفارَقُوه وأخبروه بإهلاكِ الله قوم لوطٍ هذه الليلة. فانطلَقوا من عنده فأتوا لوطاً ـ عليه السلام ـ وهو ـ على ما قيل ـ في أرضٍ له، وقيل: في منزله، ووردُوا عليه وهُم في أجمل صورةٍ تكونُ، على هيئة شبان حِسانِ الوُجُوه، ابتلاءً من الله، وله الحكمةُ والحجّةُ البالغةُ، فساءه شأنُهم وضاقت نفسُه بِسَبَبِهم، وخَشِي إن لم يُضفْهم أن يُضيفَهم أحدٌ من قومه، فينالهم بسوءٍ، ﴿ وقال هذا يومٌ عَصِيب ﴾. قال ابنُ عباس، وغيرُ واحد: «شديدٌ بلاؤُه». وذلك أنه عَلِم أنه سَيُدافع عنهم، ويَشُقُّ عليه ذلك.

وذكر قتادةُ أنهم أَتوه وهو في أرضٍ له، فَتَضيَّفُوه فاستحيا منهم، فانطلق أمامهم وقال لهم في أثناء الطريق، كالمعرض لهم بأن ينصرفوا عنه: إنه ـ والله يا هؤلاء ـ ما أعلم على وَجْهِ الأرض أهلَ بلدٍ أخبثَ من هؤلاء! ثم مشى قليلاً، ثم أعاد ذلك عليهم، حتى كَرَّره أربعَ مرات، قال قتادةُ: وقد كانوا أُمِرُوا ألَّا يُهلِكُوهم حتى يشهد عليهم نَبيُّهم بذلك.

وقال السديُّ: خرجت الملائكةُ من عند إبراهيم نحو قرية لُوطٍ، فبلغوا نهر سَدوم نصفَ النهار، ولَقُوا بنتَ لوطٍ تستقي، فقالوا: يا جاريةُ، هل من منزلٍ؟ فقالت: مكانَكم حتى آتيكم. وفَرِقت عليهم من قومها، فأتت أباهَا فقالت: يا أبتاه، أَدْرِكْ فتياناً على باب المدينة، ما رأيت وجوهَ قوم أحسنَ منهم، لا يأخذهم قومُك [فيفضحوهم]، وكان قومُه نهوه أن يُضِيف رجلاً، فقالوا: خل عنا فَلْنُضِفِ الرِّجالَ. فجاء بهم، فلم يعلم بهم أحدٌ إلا أهلَ بيتِهِ، فخرجت امرأته فأخبرت قومَها، فجاءوا يُهرَعُون إليه(٢).

(١) أي في سورة التوبة، انظر تفسير الآية ١١٤.

(٢) تفسير الطبري ١٢/٨١ـ٨٢.

وقولُه: ﴿ يُهرَعُون إليه ﴾، أي يُسرِعُون ويُهرْوِلُون من فرحهم بذلك. وقولُه: ﴿ ومن قبلُ كانوا يعملون السيئاتِ ﴾، أي: لم يَزَل هذا من سَجيتهم حتى أخذوا وهُم على ذلك الحال. وقولُه: ﴿ قال يا قوم هؤلاء بناتي هُنَّ أطهرُ لكم ﴾، يُرشِدُهم إلى نسائهم، فإنَّ النبيَّ للأمة بمنزلة الوالد، فأرشدهم إلى ما هو أنفعُ لهم في الدنيا والآخرة، كما قال لهم في الآية الأخرى: ﴿أتأتون الذُّكرانَ من العالمين * وتَذَرُون ما خلق لكم ربكم من أزواجِكم بل أنتم قومٌ عادُونَ ﴾، وقولُه في الآية الأخرى: ﴿ قالوا أوَ لم ننهكَ عن العالمين ﴾ أي: ألم ننهكَ عن ضيافةِ الرِّجال؟ ﴿قال هؤلاء بناتي إن كنتُم فاعلين * لعمرُكَ إنهم لفي سَكْرَتِهم يعمَهُون ﴾، وقال في هذه الآية الكريمة: ﴿ هؤلاء بناتي هُنَّ أطهرُ لكم ﴾، قال مجاهد: لم يَكُنَّ بناتِهِ، ولكن كُنَّ من أُمَّتِهِ، وكل نَبِيٍّ أبو أُمَّتِه. وكذا رُوِي عن قتادةَ، وغيرِ واحد. وقال ابن جُريج: أمرهم أن يتزوجوا النساء، لم يعرض عليهم سفاحاً. وقال سعيد بنُ جبَير: يعني نساءهم، هن بَناته، وهو أبٌ لهم، ويقال في بعض القراءات: «النبي أولى بالمؤمنين من أنفسهم وأزواجُه أمهاتهم وهو أبٌ لهم»[(١)]. وكذا رُوِي عن الربيع بن أنس، وقتادةَ، والسديِّ، ومحمدِ بن إسحاق، وغيرِهم.

وقولُه: ﴿ فاتقوا الله ولا تُخزونِ في ضَيفي ﴾، أي: اقبلوا ما آمركُم به من الاقتصارِ على نِسَائكم، ﴿أليس منكم رجلٌ رَشِيدٌ ﴾، أي: فيه خيرٌ، يقبل ما آمرُه به، ويترك ما أنهاه عنه؟!

قالوا: ﴿ لقد علمتَ ما لنا في بناتِك من حَقٍّ ﴾، أي: إنك تعلم أن نساءنا لا أرب لنا فيهن ولا نَشتَهِيهنَّ، ﴿ وإنك لتعلمُ ما نريد ﴾، أي: ليس لنا غَرَضٌ إلا في الذكور، وأنت تعلمُ ذلك، فأَيُّ حاجةٍ في تكرارِ القولِ علينا في ذلك؟! قال السديُّ: ﴿ وإنك لتعلَمُ ما نريد ﴾: إنما نُريد الرجالَ.

﴿ قَالَ لَوْ أَنَّ لِي بِكُمْ قُوَّةً أَوْ ءَاوِيٓ إِلَىٰ رُكْنٍ شَدِيدٍ ۝٨٠ قَالُواْ يَٰلُوطُ إِنَّا رُسُلُ رَبِّكَ لَن يَصِلُوٓاْ إِلَيْكَ فَأَسْرِ بِأَهْلِكَ بِقِطْعٍ مِّنَ ٱلَّيْلِ وَلَا يَلْتَفِتْ مِنكُمْ أَحَدٌ إِلَّا ٱمْرَأَتَكَ إِنَّهُۥ مُصِيبُهَا مَآ أَصَابَهُمْ إِنَّ مَوْعِدَهُمُ ٱلصُّبْحُ أَلَيْسَ ٱلصُّبْحُ بِقَرِيبٍ ۝٨١ ﴾

يقولُ تعالى مخبراً عن نبيه لوط ـ عليه السلام ـ: إن لوطاً توعَّدهم بقوله: ﴿ لو أن لي بكم قُوَّةً ﴾... الآية، أي: لكنت نَكَّلْتُ بكم وفعلتُ بكم الأفاعيل بنفسي وعَشِيرتي، ولهذا ورد في الحديث، من طريق محمد بن عمرو بن علقمةَ، عن أبي سلمة، عن أبي هُرَيرة أن رسولَ الله ـ ﷺ ـ قال: «رحمةُ الله على لوطٍ، لقد كان يَأْوِي إلى ركنٍ شديدٍ، ـ يعني الله، عزَّ وجلَّ ـ فما بَعث الله بعده من نبيٍّ إلا في ثَرْوَةٍ من قومه»[(٢)].

فعند ذلك أخبرته الملائكةُ أنَّهم رُسُل الله إليه، وأنهم لا وُصولَ لهم إليه، ﴿ قالوا يا لوطُ إنا رسلُ ربِّك لن يصِلُوا إليكَ ﴾، وأمروه أن يُسريَ بأهله من آخرِ الليل، وأن يَتَّبِعَ أدبارَهُم، أي: يكون ساقةً لأهله، ﴿ ولا يلتفِت منكم أحدٌ ﴾، أي: إذا سَمِعت ما نزل بهم، ولا تَهُولَنَّكم تلك الأصواتُ المُزعِجَةُ، ولكن استمرُّوا ذاهبين.

﴿ إلا امرأتَكَ ﴾، قال الأكثرون: هو استثناءٌ من المثبت، وهو قولُه: ﴿ فَأَسْرِ بأهلِكَ ﴾، تقديرُه: ﴿ إلاَّ امرأتَكَ ﴾، وكذلك قرأها ابن مسعود[(٣)]، ونصب هؤلاء امرأتَكَ، لأنه من مُثْبَتٍ، فوجَبَ نصبه عندهم.

وقال آخرون من القُرَّاء والنُّحاة: هو استثناءٌ من قوله: ﴿ ولا يَلْتَفِتْ منكم أحدٌ إلا امرأتَكَ ﴾، فجوَّزوا

(١) تفسير الطبري ١٢/٨٤.

(٢) أخرجه الترمذي في تفسير سورة يوسف ١١/٢٨٢، وأخرجه الحاكم وصححه في كتاب التاريخ ٢/٥٦١. وانظر الدر المنثور ٤/٤٥٩.
والثروة: الكَثْرَةُ والمَنَعَةُ.

(٣) قرأ ابن مسعود: «فأَسْرِ بأهلك بقطع من الليل إلا امرأتك». انظر الدر المصون للسمين ٦/٣٦٨.

الرفعَ والنصب، وذكر هؤلاءِ أنها خَرَجت معهم، وأنها لما سمعت الوَجْبَةَ(١) التفتت وقالت: واقوماه! فجاءها حَجَرٌ من السماء فقتلها.

ثم قَرَّبوا له هَلاكَ قومِهِ تبشيراً له، لأنه قال لهم: أهلِكُوهم الساعةَ. فقالوا: ﴿ إنَّ موعِدَهم الصبحُ أليسَ الصُّبحُ بِقَريبٍ ﴾، هذا وقومُ لُوطٍ وُقوفٌ على الباب وعُكُوفٌ قد جاءوا يُهرَعُون إليه من كلِّ جانب، ولوطٌ واقفٌ على الباب يُدافعهم ويَرْدَعهم وينهاهُم عما هُم فيه، وهم لاَ يقبَلُون منه، بل يَتوعَّدُونه ويَتهدَّدونه، فعند ذلك خَرَج عليهم جبريلُ ـ عليه السلام ـ فضربَ وُجُوهَهم بجناحه، فطمَس أعيُنَهم، فرجعوا وهم لا يهتدون الطريقَ، كما قال تعالى: ﴿ ولَقَدْ رَاوَدُوه عن ضَيفِهِ فَطَمَسْنَا أعيُنَهم فَذُوقُوا عَذَابِي ونُذُرِ ﴾. . . الآية.

وقال معمرٌ، عن قتادةَ، عن حُذَيفةَ بن اليَمانِ قال: كانَ إبراهيمُ ـ عليه السلام ـ يأتي قومَ لوطٍ، فيقول: أنهَاكم [عن](٢) الله أن تَعرَّضُوا لعُقُوبته. فلم يُطِيعُوه، حتى إذا بلغَ الكتابُ أجله انتهتِ الملائكةُ إلى لوطٍ وهو يعمَلُ في أرضٍ له، فدعاهُم إلى الضِّيافَةِ فقالوا: إنا ضيوفُكَ الليلةَ. وكان الله قد عَهِدَ إلى جبريلَ ألا يُعذِّبهم حتى يشهَدَ عليهم لوطٌ ثلاث شهَاداتٍ، فلما تَوَجَّه بهم لوطٌ إلى الضِّيافَةِ ذَكَر ما يعمَلُ قومُه من الشر، فَمَشى معهم ساعةً، ثم التفت إليهم فقال: أما تَعلَمُونَ ما يعملُ أهلُ هذه القريةِ؟ ما أعلَمُ على وجهِ الأرضِ شَرّاً منهم، أين أذهبُ بكم؟ إلى قومي وهُم أشرُّ خَلْقِ الله. فالتفت جبريل إلى الملائكة فقال: احفظوها، هذه واحدةٌ. ثم مشَى معهم ساعةً، فلما توسط القرية وأشفَقَ عليهم واستحيا منهم، قال: أما تعلَمُونَ ما يعمَلُ أهلُ هذه القريةِ؟ ما أعلَمُ على وجهِ الأرضِ أشرَّ منهم، إنَّ قومي أشرُّ خلقِ الله. فالتفت جبريلُ إلى الملائكة فقال: احفظوا، هاتان اثنتان. فلما انتهى إلى باب الدار بكى حياءً منهم وشفقةً عليهم فقال: إن قومي أشر من خَلْقِ الله؟ أما تعلمون ما يعملُ أهلُ هذه القرية؟ ما أعلمُ على وجه الأرض أهلَ قريةٍ شرّاً منهم. فقال جبريل للملائكة: احفظوا، هذه ثلاث، قد حقَّ العذاب! فلما دَخلُوا ذهبت عَجوزُ السُّوءِ فَصَعِدت فَلوَّحت بثوبها، فأتاها الفُسَّاقُ يُهرَعُون سراعاً، قالوا: ما عندك؟ قالت: ضَيَّفَ لوطاً قومٌ، ما رأيت قطُّ أحسَنَ وجوهاً منهم، ولا أطيب ريحاً منهم. فهُرِعُوا يُسارِعُون إلى الباب، فعاجَلَهُم لوطٌ على الباب، فدافَعُوه طويلاً، هو داخلٌ وهم خارجٌ، يُناشِدُهم الله ويقول: ﴿ هؤلاء بناتي هُنَّ أطهرُ لكم ﴾، فقام المَلَكُ فَلَزَّ بالباب ـ يقول: فَسَدَّه ـ واستأذن جبريلُ في عقوبتهم، فأذن الله له، فقام في الصُّورة التي يكون فيها في السماء، فنشر جناحه ـ ولجبريل جناحان، وعليه وشاحٌ من دُرٍّ منظوم، وهو بَرّاقُ الثنايا، أجلَى الجبين، ورأسه حُبُكٌ(٣) حُبُكٌ مثل المَرْجَان(٣)، وهو اللؤلؤ، كأنه الثلج، ورجلاه إلى الخضرة ـ فقال يا لوطُ: ﴿ إنا رُسُلُ رَبِّك لن يَصِلُوا إليك ﴾، امضِ يا لوطُ عن الباب ودعني وإيَّاهم، فَتَنَحَّى لوطٌ عن الباب، فخرج إليهم، فَنَشر جناحَه، فَضَرب به وُجُوهَهم ضربةً شَدَخ أعيُنَهم، فصاروا عُمْياً لا يعرِفون الطريق، ثم أُمِرَ لوطٌ فاحتمَلَ بأهلهِ في ليلته، قال: ﴿ فَأَسْرِ بِأَهلك بِقِطْعٍ من اللَّيلِ ﴾(٤).

ورُوِي عن محمد بن كعب، وقتادة، والسديِّ، نحوَ هذا.

---

(١) الوَجْبَةُ: الرجفة، وصوت الساقط.
(٢) عن تفسير الطبري.
(٣) شعر حُبُكٌ: جَعْدٌ مُتكسِّرٌ.
(٤) أخرجه الطبري في تفسيره ١٢/٩٢.

﴿فَلَمَّا جَآءَ أَمْرُنَا جَعَلْنَا عَٰلِيَهَا سَافِلَهَا وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهَا حِجَارَةً مِّن سِجِّيلٍ مَّنضُودٍ ﴿٨٢﴾ مُّسَوَّمَةً عِندَ رَبِّكَ ۖ وَمَا هِيَ مِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ بِبَعِيدٍ ﴿٨٣﴾﴾

يقولُ تعالى: ﴿فلما جاء أمرُنا﴾ وكان ذلك عند طُلوع الشَّمسِ، ﴿جَعلنا عالِيَهَا﴾، وهي سَدُومِ ﴿سافِلَها﴾، كقوله: ﴿فَغشَّاها ما غَشَّى﴾، أي: أمطرنا عليها حجارةً من «سِجِّيلٍ»، وهي بالفارسيَّةِ: حجارة من طينٍ، قاله ابنُ عباس وغيرُه.

وقال بعضُهم: أي من «سَنْكِ» وهو الحجر، و«كِلْ»، وهو الطين، وقد قال في الآية الأُخرى: ﴿حجارة من طين﴾، أي: مستحجرةً قويةً شَدِيدَةً. وقال بعضُهم: مَشْوِيَّةً، وقال البخاريُّ: «سِجِّيل»: الشديدُ الكَبِيرُ، سِجِّيلٌ وسِجِّينٌ، اللامُ والنُون أختان، وقَال تميمُ بن مُقبلٍ:

وَرَجْلَةٍ يَضْرِبُون البَيْضَ ضَاحِيَةً ضَرْباً تواصَت به الأبطالُ سِجِّينا[1]

وقولُه: ﴿مَنْضودٍ﴾، قال بعضُهُم: منضودة في السماء، أي: مُعدَّةً لذلك. وقال آخرون: ﴿مَنضُودٍ﴾، أي: يَتْبَعُ بعضُها بعضاً في نزولها عليهم.

وقولُه: ﴿مُسَوَّمة﴾، أي مُعْلَمة مَختومة، عليها أسماءُ أصحابِها، كُلُّ حَجَرٍ مكتوبٌ عليه اسمُ الذي ينزل عليه.

وقال قتادةُ وعكرمةُ: ﴿مُسَوَّمة﴾: مُطَوَّقة، بها نَضْحٌ[2] من حُمْرَةٍ.

وذكروا أنها نزلت على أهل البلدِ، وعلى المُتَفرِّقين في القُرَى مما حولَهَا، فبينا أحدُهم يكونُ عند الناس يتحدَّث إذ جاءه حجرٌ من السماءِ فَسَقط عليه من بين الناس، فَدَمَّره، فتتبعهم الحجارةُ من سائر البلاد، حتى أهلكتْهُم عن آخرهم فلم يبق منهم أحد.

وقال مجاهد: أخذ جبريلُ قومَ لوط من سَرْحهم ودُورِهم، حَمَلَهُم بمواشيهم وأمتعتهم، ورفعهم حتى سمع أهل السماء نُبَاحَ كِلاَبِهم ثم أكفأهم ـ وكان حمَلَهُم على خَوَافي جناحِهِ الأَيمَنِ ـ قال: ولما قَلَبها كان أَوَّلَ ما سقطَ منها شَرَفَاتها[3].

وقال قتادةُ: بلغنا أن جبريلَ أخذ بِعُروة[4] القَرْيَةِ الوسطى، ثم ألوَى بها إلى جَوِّ السماء، حتى سَمِعَ أهلُ السماء ضَوَاغِيَ[5] كِلاَبِهم، ثم دَمَّر بعضها على بعض، ثم اتبع شُذَّاذ القوم صَخْراً ـ قال: وذكر لنا أنهم كانوا أربع قرى، في كل قرية مائة ألف ـ وفي رواية: ثلاث قرى، الكبرى منها سدوم ـ قال: وبلغنا أن إبراهيم عليه السلام كان يشرف على سَدُوم، ويقول: سدوم، يوم، ما لَكَ.

وفي رواية عن قتادة وغيره: بلغنا أن جبريلَ ـ عليه السلام ـ لما أصبحَ نَشَر جناحَه، فانتسَفَ به أرضَهُم بما

---

(١) فتح الباري، تفسير سورة هود ٨/٣٥٢. وذكر ابن حجر بعد بيت تميم: «هو كلام أبي عبيدة [يعني معمر بن المثنى] بمعناه». ثم ذكر أيضاً نقد ابن قتيبة لتفسير أبي عبيدة فقال: «وقد تعقبه ابن قتيبة بأنه لو كان معنى السِّجيل الشديد لما دخلت عليه (مِنْ)، وكان يقول: (حجارة سِجِّيلاً)، لأنه لا يقال: حجارة من شديد».
والبَيْضُ: واحده بَيْضَةٌ، وهي الخُوذَةُ، تجعلُ على الرأس. وضاحيةً: بارزة ظاهرة.

(٢) النَّضْحُ: الأثر يبقى في الثوب ونحوه من طيب وغيره.

(٣) شرفاتها: جمع شَرَف. وهو الموضع العالي يشرف على ما حوله. والثابت في جمعه سماعاً: أشراف. ولكن أجاز بعض النحاة أن يجمع غير العاقل جمع مؤنث سالماً. ونص الطبري ١٢/٩٧: شُرَفُها.

(٤) العُرْوة: ضواحي البلد، وألوى بها: ذهب بها.

(٥) الضواغي: جمع ضاغية، وهي الصائحة.

فيها من قُصورِها ودوابِّها وحِجَارتها وشَجَرِها، وجَمِيع ما فيها، فَضَمَّها في جناحِهِ، فَحواها وطَوَاها في جوف جناحه، ثم صَعِد بها إلى السماءِ الدنيا، حتى سَمِع سكانُ السَّماءِ أصواتَ الناسِ والكلاب، وكانوا أربعَةَ آلافِ ألف، ثم قلبها، فأرسلها إلى الأرضِ منكوسةً، وَدَمْدَم بعضَها على بعضٍ، فجعلَ عالِيَها سافِلَها، ثم أتبعها حجارةً من سِجِّيلٍ[١].

وقال محمد بن كعب القُرَظي: كانت قُرَى قوم لُوطٍ خمس قريات: «سَدُوم»، وهي العُظمى، و«صعبة» و«صعوةُ» و«عثرةُ»، و«دُوما»، احتملها جبريل بجناحِهِ، ثم صَعِد بها، حتى إنّ أهل السماءِ ليسمَعُون نابحة كلابها، وأصواتَ دَجَاجِها، ثم كَفَأَهَا على وجهها، ثم أتبعها الله بالحجارَةِ، يقول الله تعالى: ﴿ جعلنا عالِيَها سافِلَها وأمطرنا عليها حجارةً من سِجِّيلٍ ﴾، فأهلكها الله وما حَولَها من المؤتفكات.

وقال السّديُّ: لَمَّا أصبحَ قَومُ لوط نزل جبريل فاقتلع الأرْض من سبعِ أرضين، فحَملها حتى بَلَغ بها السماء، حتى سمع أهلُ السماء نُباحَ كلابهم، وأصواتَ دُيوكِهم، ثم قلبها فَقتلهم، فذلك قوله: ﴿ والمؤتفكةَ أهوَى ﴾، ومن لم يمت حين سَقَط للأرضِ، أمطر الله عليه وهو تحتَ الأرضِ الحجارة، ومن كان منهم شاذّاً في الأرض يتبعُهم في القرى، فكان الرجلُ يتحدَّث فيأتيه الحجَرُ فيقتُله، فذلك قوله عزَّ وجلَّ: ﴿ وأمطرنا عليهم ﴾، أي: في القرى حجارة من سِجِّيلٍ، هكذا قال السديُّ.

وقولُه: ﴿ وما هي من الظالمين بِبَعيدٍ ﴾، أي: وما هذه النقمَةُ ممن تَشَبَّه بهم في ظُلمِهم ببعيدٍ عنه.

وقد ورد في الحديث المرويِّ في السُّنَنِ، عن ابن عباسٍ مرفوعاً: «من وَجدتُموه يعمَلُ عملَ قومِ لوطٍ فاقتلُوا الفاعل والمفعول به»[٢]. وذهب الإمام الشافعي - في قول عنه - وجماعةٌ من العلماء إلى أنَّ اللائط يُقتَلُ، سواء كان مُحصناً أو غير مُحصنٍ، عملا بهذا الحديث. وذهبَ الإمامُ أبو حنيفة أنه يلقى من شاهقٍ، ويُتبَعُ بالحِجَارةِ، كما فَعَل الله بقومِ لُوطٍ. والله سبحانَه وتعالى أعلَمُ بالصَّواب.

﴿ ۞ وَإِلَىٰ مَدْيَنَ أَخَاهُمْ شُعَيْبًا ۚ قَالَ يَا قَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُ ۖ وَلَا تَنقُصُوا الْمِكْيَالَ وَالْمِيزَانَ ۚ إِنِّي أَرَاكُم بِخَيْرٍ وَإِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ مُّحِيطٍ ﴿٨٤﴾ ﴾

يقول تعالى: ولقد أرسلنا إلى مديَن، وهم قبيلةٌ من العَرَبِ، كانوا يسكُنون بين الحجاز والشام، قريباً من بلاد مَعَان، في بلد يعرف بهم، يقال لها: مدين، فأرسل الله إليهم شُعيباً، وكان من أشرفهم نسباً. ولهذا قال: ﴿ أخاهم شعيباً ﴾ يأمرهم بعبادة الله تعالى وحده، وينهاهُم عن التَّطفيفِ في المكيال والميزان، ﴿ إني أراكم بخير وإني أخافُ عليكم عذابَ يوم عظيم ﴾، أي: في معيشتكم ورزقِكم فأخافُ أن تُسلَبُوا ما أنتم فيه بانتهاككم مَحارِمَ الله، ﴿ وإني أخافُ عليكم عذابَ يومٍ محيطٍ ﴾، أي: في الدارِ الآخرة.

﴿ وَيَا قَوْمِ أَوْفُوا الْمِكْيَالَ وَالْمِيزَانَ بِالْقِسْطِ ۖ وَلَا تَبْخَسُوا النَّاسَ أَشْيَاءَهُمْ وَلَا تَعْثَوْا فِي الْأَرْضِ مُفْسِدِينَ ﴿٨٥﴾ بَقِيَّتُ اللَّهِ خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ۚ وَمَا أَنَا عَلَيْكُم بِحَفِيظٍ ﴿٨٦﴾ ﴾

---

(١) تفسير الطبري ١٢/٩٨.

(٢) أخرجه أبو داود، والترمذي، وابن ماجه في الحدود، سنن أبي داود ٤/١٥٨، وعارضة الأحوذي ٦/٢٤٠، وابن ماجه ٢/٨٥٦.

ينهاهم أولاً عن نقص المكيال والميزان إذا أعطوا الناس، ثم أمرهم بوفاء الكيل والوزن بالقسط آخذين ومعطين، ونهاهم عن العيث في الأرض بالفساد، وقد كانوا يقطعون الطريق.

وقولُه: ﴿ بقيةُ الله خيرٌ لكم ﴾، قال ابن عباس: رزقُ الله خَيرٌ لكم. وقال الحسن: رزق الله خير من بخسكم الناس. وقال الربيع بن أنس: وصية الله خير لكم. وقال مجاهد: طاعة الله. وقال قتادة: حظكم من الله خير لكم. وقال عبد الرحمن بن زيد بن أسلم: «الهلاك» في العذاب، «والبقية» في الرحمة. وقال أبو جعفر ابن جَرير: ﴿ بقيةُ اللهِ خيرٌ لكم ﴾، أي: ما يفضلُ لكم من الرِّبح بعدَ وفاءِ الكيل والميزان ﴿ خيرٌ لكم ﴾ أي: من أخذ أموال الناسِ قال: وقد رُوِي هذا عن ابن عباس[1].

قلتُ: ويُشبه قولَه تعالى: ﴿ قل لا يستَوِي الخبيثُ والطيبُ ولو أعجَبَك كثرةُ الخَبِيثِ ﴾.

قولُه: ﴿ وما أنا عليكم بِحَفيظٍ ﴾، أي: بِرَقيبٍ ولا حَفِيظ، أي: افعلُوا ذلك لله عزَّ وجلَّ، لا تفعلُوه ليراكُـم الناسُ، بل لله عزَّ وجلَّ.

﴿ قَالُواْ يَٰشُعَيْبُ أَصَلَوٰتُكَ تَأْمُرُكَ أَن نَّتْرُكَ مَا يَعْبُدُ ءَابَآؤُنَآ أَوْ أَن نَّفْعَلَ فِىٓ أَمْوَٰلِنَا مَا نَشَٰٓؤُاْ إِنَّكَ لَأَنتَ ٱلْحَلِيمُ ٱلرَّشِيدُ ﴿٨٧﴾ ﴾

يقولون لَهُ على سَبِيل التهكُّم ـ قبَّحهم الله ـ: ﴿أصلاتُكَ﴾، قال الأعمشُ: أي: قُرآنُكَ، ﴿ تأمرك أن نترُكَ ما يعبدُ آباؤنا ﴾، أي: الأوثانَ والأصنامَ، ﴿ أو أن نفعلَ في أموالِنا ما نَشاءُ ﴾، فنترك التَّطفِيفَ على قولك، هي أموالُنا نفعلُ فيها ما نريد.

قال الحسن في قوله: ﴿ أصلاتُك تأمُركَ أن نتركَ ما يعبدُ آباؤنا ﴾: إيْ والله، إنَّ صلاته لتأمرهُم أن يتركُوا ما كان يعبد آباؤهم.

وقال الثوريُّ في قوله: ﴿ أو أن نفعلَ في أموالِنا ما نشاءُ ﴾، يعنونَ الزكاةَ.

وقولُهم: ﴿ إنك لأنتَ الحليمُ الرشيدُ ﴾، قال ابن عباس، وميمون بن مِهْران، وابن جُرَيجٍ، وابنُ أسلَمَ، وابنُ جَريرٍ: يقولون ذلك ـ أعداءَ الله ـ على سبيلِ الاستهزاءِ، قبَّحهُم الله ولَعَنهم عن رحمته، وقد فعَل.

﴿ قَالَ يَٰقَوْمِ أَرَءَيْتُمْ إِن كُنتُ عَلَىٰ بَيِّنَةٍ مِّن رَّبِّى وَرَزَقَنِى مِنْهُ رِزْقًا حَسَنًا وَمَآ أُرِيدُ أَنْ أُخَالِفَكُمْ إِلَىٰ مَآ أَنْهَىٰكُمْ عَنْهُ إِنْ أُرِيدُ إِلَّا ٱلْإِصْلَٰحَ مَا ٱسْتَطَعْتُ وَمَا تَوْفِيقِىٓ إِلَّا بِٱللَّهِ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَإِلَيْهِ أُنِيبُ ﴿٨٨﴾ ﴾

يقولُ لهم: ﴿أرأيتم﴾ يا قوم ﴿إن كنتُ على بيِّنةٍ من ربِّي﴾، أي: على بصيرةٍ فيما أدعو إليه، ﴿ورزقني منه رزقاً حسناً﴾، قيل: أراد النبوةَ، وقيلَ: أراد الرزقَ الحلالَ. ويَحتمِلُ الأمرين.

وقال الثَّوريُّ: ﴿ وما أُريدُ أن أخالِفَكم إلى ما أنهاكم عنه ﴾، أي: لا أنهاكُم عن شيءٍ وأخالفُ أنا في السرِّ فأفعلَه خِفيةً عنكم، كما قال قتادةُ في قوله: ﴿ وما أريدُ أن أخالِفَكُم إلى ما أنهاكم عنه ﴾، يقول: لم أكُن لأنهاكُم عن أمر وأركَبَه، ﴿ إن أريدُ إلاّ الإصلاحَ ما استطعتُ ﴾، أي، فيما آمرُكم وأنهاكُم، إنَّما مُرادِي

(١) تفسير الطبري ١٢/١٠٠.

إصلاحُكم جَهدِي وطاقَتي، ﴿ وما تَوفيقي ﴾، أي: في إصابةِ الحقِّ فيما أريدُه ﴿ إلا بالله عليه توكلتُ ﴾ في جَمِيع أُمورِي، ﴿ وَإليه أنيبُ ﴾، أي: أرجعُ. قاله مجاهد وغيره.

قال الإمام أحمدُ: حدَّثنا عفَّانُ، حدثنا حماد بن سَلَمة، حدثنا أبو قَزَعَةَ سُوَيد بن حُجَير الباهليُّ، عن حكيم بـن معاوية، عن أبيه: أن أخاه مالكاً قال: يا معاويةُ، إن مُحَمَّداً أخذ جيراني، فانطَلِقْ إليه، فإنه قد كَلَّمَك وعَرَفك. فانطلقتُ معه فقال: دَعْ لي جيراني، فقد كانوا أسلمُوا. فأعرَضَ عنه، [فقام مُتَمَعِّطاً](١)، فقال: أما والله لئن فعلتَ إنَّ الناس يزعمون أنك تأمرُ بالأمر وتُخالِفُ إلى غَيرِه. وجَعلتُ أجرُّه وهو يتكلَّم، فقال رسولُ الله - ﷺ - : ما تقول؟ فقال: إنَّكَ والله لئن فعلتَ ذلك إن الناسَ ليزعُمون أنَّك لتأمُرُ بالأمرِ وتُخالِف إلى غيره. قال فقال: أوَقَد قالوها - أوقائلهم - ولئن فعلتُ ذلك ما ذاك إلا عَلَيَّ، وما عليهم من ذلك من شيءٍ، أرسِلُوا له جِيرَانه»(٢).

وقال أحمد أيضاً: حدثنا عبد الرزَّاقِ، حدثنا معمَرٌ، عن بهز بن حكيم، عن أبيه، عن جده قال: أخذ النبي - ﷺ - ناساً من قومي في تُهمَة فحبسهم، فجاء رجل من قومي إلى رسول الله - ﷺ - وهو يخطب، فقال: يا محمد، علامَ تحبسُ جيرتي؟ فصمَت رسولُ الله - ﷺ - عنه فقال: إنَّ ناساً ليقولونَ: إنك تنهى عن الشيء وتَسْتَخْلِي(٣) به، فقال النبي - ﷺ -: ما يقولُ؟ قال: فجعلت أعرض(٤) بينهما الكلام مخافةَ أن يسمعها فيدعُوَ على قومي دَعوةً لا يفلحون بعدها أبداً، فلم يَزَلْ رسولُ الله - ﷺ - به حتى فهمها، فقال: أوَ قد قالوها - أو: قائلها منهم، والله لو فعلتُ لكان عليّ وما كان عليهم، خَلُّوا له عن جيرانه(٥)».

ومن هذا القبيل الحديثُ الذي رواه الإمامُ أحمدُ:

حدثنا أبو عامر، حدثنا سُليمان بن بلال، عن ربيعةَ بن أبي عبد الرحمن، عن عبد الملك بن سعيد بن سُوَيد الأنصاري قال: سمعت أبا حُمَيد وأبا أُسَيد يقولان: قال رسولُ الله - ﷺ -: إذا سمعتم الحديثَ عني تعرفه قلوبكُم وتَلِينُ له أشعارُكم وأبشارُكم، وتَرَون أنه منكم قريبٌ، فأنا أولاكُم به. وإذا سَمِعتم الحديثَ عني تُنكِرُه قلوبُكم، وتنفِرُ منه أشعارُكم وأبشارُكم، وتَرَون أنه منكم بعيدٌ، فأنا أبعدُكم منه(٦).

هذا إسنادٌ صحيح، وقد أخرج مسلم بهذا السند حديثَ: «إذا دخلَ أحدُكم المسجدَ فَلْيَقل: اللهمَّ، افتح لي أبوابَ رَحمتِكَ. وإذا خَرج فَلْيَقل: اللهمَّ، إني أسألُكَ من فَضلِكَ»(٦).

ومعناهُ - والله أعلم - مهما بلغكم عنِّي من خَيرٍ فأنا أولاكُم به: ومهما يَكُن من مكروهٍ فأنا أبعدكُم منه، ﴿ وما أُرِيد أن أخالفكم إلى ما أنهاكُم ﴾.

وقال قتادةُ، عن عَزْرَة، عن الحَسَنِ العُرَني، عن يحيى بن الجَزَّار، عن مَسرُوقٍ أنَّ امرأة جاءت ابنَ مسعود قالت: أتنهى عن الواصِلَة(٧)؟ قال: نعم. فقالت: فَلَعلَّه في بعضِ نسائِكَ؟ فقال: ما حَفِظتُ إذاً وَصيَّةَ العبدِ الصالح: ﴿ وما أُرِيد أن أخالِفَكم إلى ما أنهاكُم عنه ﴾(٨).

---

(١) أي: مُغْضَباً.

(٢) مسند أحمد ٤/٤٤٧.

(٣) أي: تنفرد به.

(٤) لفظ المسند: «أعرض بينهما بالكلام». والمراد: أنه كان يدخل كلامه بين كلامهما بحيث لا يبين كلام أحدهما للآخر.

(٥) مسند أحمد ٥/٢.

(٦) مسند أحمد ٣/٤٩٧، ومسلم، كتاب صلاة المسافرين ١/٤٩٤.

(٧) في الدرّ المنثور: المواصلة. وهو تحريف. والواصلة: التي تصل شعرها بشعر آخر زور. والمراد النهي عن فعلها.

(٨) أخرجه ابن أبي حاتم كما في الدر ٤/٤٦٧.

وقال عثمان بن أبي شيبةَ: حدثنا جريرٌ، عن أبي سليمان العُتَبِيِّ قال: كانت تَجيئنا كُتُبُ عُمَرَ بن عبدِ العزيز فيها الأمرُ والنهيُ، فيكتُب في آخرِها، وما كانت من ذلك إلا كما قال العبدُ الصالح: ﴿ وما توفيقي إلا باللهِ عليه توكلتُ وإليه أنيبُ ﴾.

﴿ وَيَٰقَوۡمِ لَا يَجۡرِمَنَّكُمۡ شِقَاقِيٓ أَن يُصِيبَكُم مِّثۡلُ مَآ أَصَابَ قَوۡمَ نُوحٍ أَوۡ قَوۡمَ هُودٍ أَوۡ قَوۡمَ صَٰلِحٖۚ وَمَا قَوۡمُ لُوطٖ مِّنكُم بِبَعِيدٖ ۝٨٩ وَٱسۡتَغۡفِرُواْ رَبَّكُمۡ ثُمَّ تُوبُوٓاْ إِلَيۡهِۚ إِنَّ رَبِّي رَحِيمٞ وَدُودٞ ۝٩٠ ﴾

يقولُ لهم: ﴿ ويا قومِ لا يجرِمَنَّكم شِقَاقِي ﴾، أي لا تَحمِلَنَّكم عَداوتي وبُغضي على الإصرار على ما أنتُم عليه من الكفر والفساد فيُصيبكم مثلُ ما أصابَ قومَ نوحٍ وقومَ هودٍ وقومَ صالح وقومَ لوط مِن النقمَةِ والعَذابِ.

قال قتادة: ﴿ ويا قومِ لا يجرمَنَّكم شِقاقي ﴾، يقول: لا يحملنكم فراقي. وقال السديُّ: عَداوتي، على أن تَتمادوا في الضَّلال والكُفر، فيُصيبكُم من العَذابِ ما أصابهم.

وقال ابنُ أبي حاتم: حدثنا محمد بن عوف، حدثنا أبو المُغيرة عبدُ القُدُّوس بن الحجاج، حدثنا ابن أبي غَنيةَّ، حدثني عبد الملك بن أبي سُليمان، عن أبي ليلى الكِنْدِي قال: كنتُ مع مولايَ أُمسِكُ دابَّته، وقد أحاطَ الناسُ بعثمانَ بن عفان، إذ أشرفَ علينا من داره فقال: ﴿يا قومِ لا يَجْرِمَنَّكم شقاقي أن يُصِيبكم مثلُ ما أصابَ قومَ نوحٍ أو قوم هود أو قوم صالح﴾، يا قوم، لا تقتُلوني، إنكم إن تَقتُلوني كنتم هكذا. وشَبَّك بين أصابعه.

وقولُه: ﴿ وما قومُ لوط منكم ببعيدٍ ﴾، قيلَ: المرادُ في الزَّمان، قال قتادة: إنما أهلكوا بين أيديكم بالأمس، وقيل: في المكان، ويحتَمِلُ الأمرانِ. ﴿ واستغفِرُوا ربَّكم ثم توبوا إليه ﴾، أي استغفِرُوه من سَالِفِ الذُّنوبِ، وتُوبُوا فيما تستقبلونه من الأعمالِ السَّيئة، ﴿ إن ربِّي رَحِيم وَدُودٌ ﴾، أي: لمن تابَ وأنابَ.

﴿ قَالُواْ يَٰشُعَيۡبُ مَا نَفۡقَهُ كَثِيرٗا مِّمَّا تَقُولُ وَإِنَّا لَنَرَىٰكَ فِينَا ضَعِيفٗاۖ وَلَوۡلَا رَهۡطُكَ لَرَجَمۡنَٰكَۖ وَمَآ أَنتَ عَلَيۡنَا بِعَزِيزٖ ۝٩١ قَالَ يَٰقَوۡمِ أَرَهۡطِيٓ أَعَزُّ عَلَيۡكُم مِّنَ ٱللَّهِ وَٱتَّخَذۡتُمُوهُ وَرَآءَكُمۡ ظِهۡرِيًّاۖ إِنَّ رَبِّي بِمَا تَعۡمَلُونَ مُحِيطٞ ۝٩٢ ﴾

يقولون: ﴿ يا شعيبُ ما نفقَهُ كثيراً مما تقولُ ﴾، أي: ما نفهَمُ ولا نعقِلُ كثيراً من قولك، وفي آذاننا وقرٌ، ومن بَينِنَا وبينك حِجَابٌ، ﴿ وإنا لنراك فينا ضَعيفاً ﴾.

قال سعيد بن جُبَير، والثوريُّ: كان ضَرير البصر. قال الثوري: وكان يقال له: خَطِيبُ الأنبياءِ. قال السّديُّ: ﴿ وإنا لَنَراك فينا ضَعِيفاً ﴾ قال: أنتَ واحدٌ. [وقال أبو رَوقٍ: يعنونَ ذَليلا، لأن عَشيرتك ليسُوا على دينك].

﴿ولولا رهطُكَ ﴾ أي: قومُكَ وعَشيرَتُك؛ لولا مَعَزَّةُ قومِكَ علينا لَرَجَمْنَاكَ، قيل: بالحجارةِ، وقيل: لَسَبَبْنَاك، ﴿ وما أنت علينا بعزيز ﴾، أي: ليس لك عندنا مَعَزَّة.

﴿ قال يا قومِ أرهطي أَعَزُّ عليكم من الله ﴾، يقول: أتتركُوني لأجل قومي، ولا تتركُوني إعظاماً لجَنابِ الله أن تنالُوا نَبيَّه بمساءَةٍ. وقد اتخذتُم جانبَ الله ﴿ وراءَكم ظِهْرِياً ﴾، أي: نبذتُموه خلْفَكم، لا تُطِيعُونه ولا تُعَظِّمونه، ﴿ إن ربي بما تعملون محيطٌ ﴾، أي: هو يعلَمُ جَميعَ أعمالِكم وسَيَجزيكم بها.

﴿ وَيَٰقَوْمِ ٱعْمَلُوا۟ عَلَىٰ مَكَانَتِكُمْ إِنِّى عَٰمِلٌ ۖ سَوْفَ تَعْلَمُونَ مَن يَأْتِيهِ عَذَابٌ يُخْزِيهِ وَمَنْ هُوَ كَٰذِبٌ ۖ وَٱرْتَقِبُوٓا۟ إِنِّى مَعَكُمْ رَقِيبٌ ﴿٩٣﴾ وَلَمَّا جَآءَ أَمْرُنَا نَجَّيْنَا شُعَيْبًا وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مَعَهُۥ بِرَحْمَةٍ مِّنَّا وَأَخَذَتِ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ ٱلصَّيْحَةُ فَأَصْبَحُوا۟ فِى دِيَٰرِهِمْ جَٰثِمِينَ ﴿٩٤﴾ كَأَن لَّمْ يَغْنَوْا۟ فِيهَآ ۗ أَلَا بُعْدًا لِّمَدْيَنَ كَمَا بَعِدَتْ ثَمُودُ ﴿٩٥﴾ ﴾

لما يئس نبي الله شُعَيْبٌ من استجابة قومه له، قال: يا قوم، ﴿ اعملُوا على مكانتكم ﴾، أي: على طريقتكم. وهذا تهديدٌ ووعيدٌ شديدٌ، ﴿ إني عاملٌ ﴾، على طريقتي ومنهجي فسوف ﴿ تعلمُون من يأتيه عذاب يُخزيهِ ﴾، أي: في الدار الآخرة، ﴿ ومن هو كاذبٌ ﴾، أي: مني ومنكم، ﴿ وارتقِبُوا ﴾، أي: انتظروا ﴿ إني معكم رقيبٌ ﴾.

قال الله تعالى: ﴿ لما جاء أمرنا نَجَّينا شُعَيباً والذين آمنوا معه برحمةٍ منا وأخذتِ الذين ظلمُوا ﴾، وهم قومُه، ﴿ الصيحةُ فأصبحُوا في دِيارِهم جاثِمينَ ﴾، وقولهُ: ﴿جاثِمين﴾، أي: هامِدِينَ لا حِراكَ بهم، وذكر هاهنا أنهم أتتهم صيحةٌ، وفي الأعراف رجفةٌ، وفي الشُّعَراء عذابُ يوم الظُّلَّةِ، وهم أمةٌ واحِدَةٌ، اجتمع عليهم يومَ عذابهم هذه النقَمُ كلها، وإنما ذكر في كُلِّ سياق ما يناسبه، ففي الأعرافِ لما قالوا: ﴿ لَنُخرِجنَّكَ يا شعيبُ والذين آمنوا مَعَكَ من قريتنا ﴾، ناسب أن يذكر هناك الرجفة فَرُجِفَت بهم الأرضُ التي ظَلَموا بها، وأرادوا إخراجَ نَبيِّهم منها، وهاهنا لما أساءوا الأدبَ في مقالتهم على نبيهم ناسبَ ذكرَ الصيحةِ التي أسكتتهم وأخمدتهم، وفي الشعراء لما قالوا: ﴿فأسقِطْ علينا كِسَفاً من السماء إن كنت من الصادقين﴾، قال: ﴿فأخذهم عذابُ يوم الظُّلَّةِ إنه كان عذابَ يومٍ عظيمٍ ﴾، وهذا من الأسرارِ الغريبة الدقيقةِ، ولله الحمدُ والمنَّة كثيراً دائماً.

وقولُه: ﴿ كأن لم يَغنَوا فيها ﴾، أي: يَعيشُوا في دَارِهم قبل ذلك، ﴿ ألا بُعداً لمدين كما بَعِدت ثمودُ ﴾، وكانوا جيرانَهم، قريباً منهم في الدار، وشبيهاً بهم في الكفرِ وقَطْعِ الطريقِ، وكانوا عرباً شِبْهَهم.

﴿ وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مُوسَىٰ بِـَٔايَٰتِنَا وَسُلْطَٰنٍ مُّبِينٍ ﴿٩٦﴾ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ وَمَلَإِي۟هِۦ فَٱتَّبَعُوٓا۟ أَمْرَ فِرْعَوْنَ ۖ وَمَآ أَمْرُ فِرْعَوْنَ بِرَشِيدٍ ﴿٩٧﴾ يَقْدُمُ قَوْمَهُۥ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ فَأَوْرَدَهُمُ ٱلنَّارَ ۖ وَبِئْسَ ٱلْوِرْدُ ٱلْمَوْرُودُ ﴿٩٨﴾ وَأُتْبِعُوا۟ فِى هَٰذِهِۦ لَعْنَةً وَيَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ ۚ بِئْسَ ٱلرِّفْدُ ٱلْمَرْفُودُ ﴿٩٩﴾ ﴾

يقول تعالى مُخبِراً عن إرساله موسى ـ عليه السلام ـ بآياته وبَيِّناتِه وحُجَجِه ودلائله الباهرة القاطِعَةِ إلى فرعون ـ لعنه الله ـ وهو مَلِكُ ديارِ مصر على أمة القِبْطِ، ﴿ فاتبعوا أمر فرعون ﴾، أي: مَسْلكه ومَنْهجه وطريقته في الغيِّ والضلالِ، ﴿ وما أمرُ فرعون برَشيدٍ ﴾، أي: ليس فيه رُشْدٌ ولا هُدَى، وإنما هو جهلٌ وضلالٌ، وكفرٌ وعِنادٌ، وكما أنهم اتَّبعُوه في الدنيا وكان مُقَدَّمَهم وَرئيسَهُم، كذلك هُو يَقْدُمُهم يومَ القيامةِ إلى نارِ جهَنَّم، فأوردَهُم إيَّاها، وشَرِبوا من حياض رَدَاها، وله في ذلك الحظُّ الأوفرُ من العَذَاب الأكبر، كما قال تعالى: ﴿ فَعصَى فرعونُ الرسولَ فأخذناه أخذاً وَبِيلاً ﴾، وقال تعالى: ﴿فكَذَّبَ وعَصَى * ثم أدبر يَسْعَى * فحشر فَنَادَى * فقال أنا ربكُم الأعلى * فأخذه الله نَكَالَ الآخرةِ والأولى * إنَّ في ذلك لعبرةً لمن يخشَى﴾ وقال تعالى: ﴿ يقدُم قومَه يومَ القيامةِ فأوردَهُم النار وبِئسَ الوِرْدُ المورودُ ﴾، وكذلك شأن المتبوعيـن يكونُون مُوفرين في العذاب يوم المَعَاد، كما قال تعالى: ﴿ لكلٍّ ضِعفٌ ولكن لا تعلَمُونَ ﴾، وقال تعالى إخباراً عن الكَفَرةِ أنهم

يقولون في النار: ﴿ رَبَّنا إنا أطَعْنَا سَادَتَنَا وكُبراءَنا فأَضَلُّونا السَّبيلا * رَبَّنا آتِهم ضِعفَينِ من العذابِ والعنهُم لعناً كَبيراً ﴾.

وقال الإمام أحمد: حدثنا هُشَيْم، حدثنا أبو الجَهم، عن الزُّهري، عن أبي سَلَمة، عن أبي هُرَيرة قال: قال رسولُ الله ـ ﷺ ـ: «امرؤ القيس حامِلُ لواء شُعَراء الجاهلية إلى النار»(١).

وقولُه: ﴿وأُتبِعُوا في هذه لعنةً ويوم القيامة بئسَ الرِّفْدُ المرفودُ﴾ أي: أتبعناهم زيادةً على ما جازيناهم من عذابِ النار لعنةً في هذه الحياة الدنيا، ﴿ ويوم القيامة بئسَ الرِّفْدُ المرفُود ﴾.

قال مجاهدٌ: زِيدُوا لعنةً يوم القيامةِ، فتلك لعنتان.

وقال عليُّ بن أبي طَلحةَ، عن ابن عباس: ﴿ بئسَ الرِّفْدُ المرفودُ ﴾، قال: لعنةُ الدنيا والآخرة، وكذا قال الضحاك، وقتادةُ، وهكذا قوله تعالى: ﴿ وجعلناهم أئمةً يَدعُون إلى النارِ ويومَ القيامةِ لا ينصَرُون * وأتبعناهُم في هذه الدنيا لعنةً ويومَ القيامةِ هم من المقبُوحِينَ﴾ وقال تعالى: ﴿النار يُعرَضُون عليها غُدُوًّا وعَشِيًّا ويوم تقومُ الساعةُ أدخِلُوا آل فرعون أشدَّ العذابِ ﴾.

﴿ ذَٰلِكَ مِنْ أَنۢبَآءِ ٱلْقُرَىٰ نَقُصُّهُۥ عَلَيْكَ مِنْهَا قَآئِمٌ وَحَصِيدٌ ﴿١٠٠﴾ وَمَا ظَلَمْنَٰهُمْ وَلَٰكِن ظَلَمُوٓاْ أَنفُسَهُمْ فَمَآ أَغْنَتْ عَنْهُمْ ءَالِهَتُهُمُ ٱلَّتِى يَدْعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ مِن شَىْءٍ لَّمَّا جَآءَ أَمْرُ رَبِّكَ وَمَا زَادُوهُمْ غَيْرَ تَتْبِيبٍ ﴿١٠١﴾ ﴾

لما ذكر تعالى خَبَر هؤلاء الأنبياء، وما جَرى لهم مع أممهم، وكيفَ أهلك الكافرين ونَجَّى المؤمنين قال: ﴿ ذلك من أنباء القُرى ﴾، أي: من أخبارها ﴿ نَقُصُّهُ عليك منها قائم ﴾، أي: عامرٌ، ﴿ وحَصِيد ﴾، أي: هالك دائِرٌ، ﴿ وما ظلمناهم ﴾، أي: إذ أهلكناهم، ﴿ ولكن ظَلَمُوا أنفُسهم ﴾، أي: بتكذِيبهم رُسُلنا وكُفرِهم بهم، ﴿ فما أغنت عنهم آلهتُهم ﴾ أي: أصنامُهم وأوثانُهم التي كانوا يعبُدونها، ﴿ من دون الله من شَيء ﴾، أي: ما نفعُوهم ولا أنقذوهم لما جاء أمرُ الله بإهلاكهم، ﴿ وما زادُوهم غير تَتْبِيبِ ﴾

قال مجاهد، وقتادةُ، وغيرهما: أي غيرَ تخسِير. وذلك أنَّ هلاكهم ودَمَارهم إنما كان باتباعهم تلكَ الآلهةِ وعبادَتِهم إياها، فبهذا أصابهم، وخَسِروا بهم في الدُّنيا والآخرة.

﴿ وَكَذَٰلِكَ أَخْذُ رَبِّكَ إِذَآ أَخَذَ ٱلْقُرَىٰ وَهِىَ ظَٰلِمَةٌ إِنَّ أَخْذَهُۥٓ أَلِيمٌ شَدِيدٌ ﴿١٠٢﴾ ﴾

يقول تعالى: وكما أهلكنا أولئك القرون الظَّالمة المكذِّبة لرُسُلِنا كذلك نفعَلُ بنظائرهم وأشباهِهم وأمثالهم، ﴿ إنَّ أخذه أليم شديد﴾، وفي الصَّحِيحَينِ عن أبي موسى الأشعري ـ رضي الله عنه ـ قال: قال رسول الله ـ ﷺ ـ: «إنّ الله ليُملي للظالم، حتى إذا أخذه لم يُفلِته، ثم قرَأ رسول الله ـ ﷺ ـ: ﴿ وكذلك أخذُ رَبِّك إذا أخذ القُرَى وهي ظالمة إن أخذه أليمٌ شَدِيد ﴾»(٢).

﴿ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَةً لِّمَنْ خَافَ عَذَابَ ٱلْءَاخِرَةِ ذَٰلِكَ يَوْمٌ مَّجْمُوعٌ لَّهُ ٱلنَّاسُ وَذَٰلِكَ يَوْمٌ مَّشْهُودٌ ﴿١٠٣﴾ وَمَا نُؤَخِّرُهُۥٓ إِلَّا لِأَجَلٍ مَّعْدُودٍ ﴿١٠٤﴾ يَوْمَ يَأْتِ لَا تَكَلَّمُ نَفْسٌ إِلَّا بِإِذْنِهِۦ فَمِنْهُمْ شَقِىٌّ وَسَعِيدٌ ﴿١٠٥﴾ ﴾

---

(١) مسند أحمد ٢/٢٢٨.

(٢) تقدم عند تفسير الآية ٢٠ من هذه السورة، وخرجناه هنالك.

يقولُ تعالى: إنَّ في إهلاكنا الكافرين، ونصرةِ الأنبياءِ، وإنجائنا المؤمنين، ﴿ لآيةً ﴾، أي: عظةً واعتباراً على صدق موعُودنا في الدار الآخرة، ﴿ إنّا لننصُر رسلنا والذين آمنوا في الحياة الدنيا ويوم يقومُ الأشهاد﴾ وقال تعالى: ﴿ فأوحى إليهم ربُّهم لَنُهلِكَنَّ الظالمين * ولَنُسكننَّكم الأرضَ من بعدهم ذلك لمن خافَ مَقامي وخافَ وَعيدِ ﴾.

وقال تعالى: ﴿ ذلكَ يومٌ مجموع له الناسُ ﴾، أي: أوّلهم وآخرُهم، فلا يبقى منهم أحدٌ، كما قال: ﴿ وحَشَرناهم فلم نُغادِر منهم أحداً ﴾.

﴿ وذلك يومٌ مشهودٌ ﴾، أي: يومٌ عظيم تحضُره الملائكةُ كلُّهم، ويجتمعُ فيه الرسلُ جميعُهم، وتُحشَرُ فيه الخلائقُ بأسرهم، من الإنس والجنِّ والطيرِ والوحوشِ والدوابِّ، ويحكم فيهم العادُل الذي لا يَظلِمُ مثقال ذَرَّةٍ، وإن تكُ حسنةً يضاعفها.

وقولُه: ﴿ وما نُؤَخِّره إلا لأجلٍ معدُودٍ ﴾، أي: ما نؤخر إقامة يوم القيامةِ إلّا لأنه قد سَبَقت كلمةُ الله وقضاؤه وقدرُه. في وجود أناس معدُودين من ذُرِّيةِ آدمَ، وضَرْبِ مدَّةٍ معيَّنة، إذا انقضت وتكامل وجودُ أولئك المقدَّر خروجُهم من ذريَّةِ آدم، أقام الله الساعةَ، ولهذا قال: ﴿ وما نُؤخِّره إلا لأجل معدُودٍ ﴾، أي: لمدَّةٍ مؤقتة لا يُزادُ عليها ولا يُنقَصُ منها، ﴿ يومَ يأتِ لا تَكلَّم نفسٌ إلا بإذنه ﴾، يقول: يوم يأتي هذا اليومُ وهو يومُ القيامة، لا يتكلَّم أحدٌ إلا بإذن الله تعالى، كما قال تعالى: ﴿ يوم يقومُ الروحُ والملائكةُ صفاً لا يَتكلَّمون إلا من أَذِن له الرحمنُ وقال صَوَاباً ﴾، وقال تعالى: ﴿ وَخَشعتِ الأصواتُ لِلرحمن فلا تسمَعُ إلا همساً ﴾، وفي الصحيحَين عن رسول الله ـ ﷺ ـ في حديث الشفاعة الطويل: «ولا يتكلَّم يومئذٍ إلا الرسلُ، ودَعْوى الرسُلِ يومئذٍ: اللهُمَّ، سَلِّمْ سَلِّمْ»[(١)].

وقولُه: ﴿ فمنهم شقيٌّ وسعيدٌ ﴾، أي: فمن أهل الجَمْعِ شقيٌّ ومنهم سعيدٌ، كما قال: ﴿ فريقٌ في الجَنَّة وفريقٌ في السعير﴾.

وقال الحافظ أبو يعلَى في مُسنَدِه: حدثنا موسى بن حيَّان، حدثنا عبدُ الملك بن عمرو، حدثنا سُلَيمان بن سفيانَ، حدثنا عبدالله بن دينار، عن ابن عُمَر، عن عُمَر ـ رضي الله عنه ـ قال: لما نزلت ﴿ فمنهم شقيٌّ وسعيدٌ ﴾، سألت النبي ـ ﷺ ـ قلت: يا رسولَ الله، علامَ نعملُ؟ على شيءٍ قد فُرِغَ منه، أم على شيءٍ لم يُفرَغْ منه؟ فقال: «على شيءٍ قد فُرِغ منه يا عُمَر وجَرَت به الأقلامُ، ولكن كلٌّ مُيسَّرٌ لما خُلِقَ له»[(٢)].

ثم بيَّن تعالى حالَ الأشقياء وحالَ السُّعداءِ، فقال:

﴿ فَأَمَّا ٱلَّذِينَ شَقُوا۟ فَفِى ٱلنَّارِ لَهُمْ فِيهَا زَفِيرٌ وَشَهِيقٌ ﴿١٠٦﴾ خَـٰلِدِينَ فِيهَا مَا دَامَتِ ٱلسَّمَـٰوَٰتُ وَٱلْأَرْضُ إِلَّا مَا شَآءَ رَبُّكَ ۚ إِنَّ رَبَّكَ فَعَّالٌ لِّمَا يُرِيدُ ﴿١٠٧﴾ ﴾

يقولُ تعالى: ﴿ لهم فيها زَفيرٌ وشَهيقٌ ﴾، قال ابنُ عباس: الزفيرُ في الحَلْقِ، والشهيقُ في الصَّدرِ. أي: تَنَفُّسُهم زفيرٌ، وأخذُهم النفسَ شهيقٌ، لما هُم فيه من العَذَابِ، عياذاً بالله من ذلك.

﴿ خالدين فيها ما دامتِ السمواتُ والأرضُ ﴾، قال الإمام أبو جعفر بنُ جَرير: من عادة العَرَبِ إذا أرادت

(١) فتح الباري، كتاب الأذان ٢/٢٩٢ ـ ٢٩٣، ومسلم، كتاب الإيمان ١/١٦٣ ـ ١٦٧.
(٢) أخرجه الترمذي في تفسير سورة هود، وحسَّنه ١١/٢٧٤ ـ ٢٧٥. كما أخرجه غير واحد. انظر الدرّ المنثور ٤/٤٧٥.

أن تَصِف الشيء بالدوام أبداً قالت: «هذا دائمٌ دوامَ السمواتِ والأرض»، وكذلك يقولون: هو باقٍ ما اختلف الليلُ والنهار، وما سَمَر ابنا سَمير، وما لألأتِ العُفْرُ بأذنابها. يعنُون بذلك كلمة: «أبداً»، فخاطبهم جَلَّ ثناؤه بما يتعارفُونه بينهم، فقال: ﴿ خَالِدِين فيها ما دامتِ السمواتُ والأرضُ ﴾[١].

قلتُ: وَيحتمِلُ أَنَّ المرادَ بما دامت السموات والأرضُ الجنسُ،لأنه لا بُدَّ في عالم الآخرة من سموات وأرض، كما قال تعالى: ﴿ يوم تُبدَّلُ الأرضُ غيرَ الأرض والسمواتُ ﴾، ولهذا قال الحسن البصريَ في قوله: ﴿ ما دامت السموات والأرض ﴾، قال: تُبدَّلُ سماءٌ غيرُ هذه السماء، وأرضٌ غيرُ هذه الأرض، فما دامت تلك السماءُ وتلك الأرضُ[٢].

وقال ابنُ أبي حاتم: ذُكر عن سفيان بن حُسَين، عن الحكم، عن مجاهدٍ، عن ابن عباس قوله: ﴿ ما دامتِ السمواتُ والأرضُ ﴾، قال: لكل جَنَّةٍ سماءٌ وأرضٌ.

وقال عبدُ الرحمن بن زيدِ بن أسلَمَ: ما دامت الأرضُ أرضاً، والسماءُ سماءً.

وقولُه: ﴿ إلا ما شاء ربُّك إنَّ ربك فعالٌ لما يريدُ ﴾، كقوله تعالى: ﴿ النارُ مثواكم خالدين فيها إلا ما شاء الله إنَّ ربَّك حكيمٌ عليمٌ ﴾.

وقد اختلف المفسِّرون في المراد من هذا الاستثناءِ، على أقوالٍ كثيرةٍ، حكاها الشيخُ أبو الفرج بن الجوزي في كتابه «زَادُ المَسير»[٣]، وغيرُه من علماء التفسير، ونقل كثيراً منها الإمامُ أبو جعفر بنُ جرير ـ رحمه الله ـ في كتابه[٣]، واختار هو ما نقله عن خالد بن مَعْدَانَ، والضحَّاكِ، وقتادةَ، وأبي سنانَ، ورواه ابن أبي حاتم عن ابن عباس والحسن أيضاً: أن الاستثناءَ عائدٌ على العُصاة من أهل التوحيد، ممن يخرجهم الله من النار بشفاعَةِ الشافعين، من الملائكةِ والنَّبِيِّين والمؤمنين، حين يشفعون في أصحاب الكبائر، ثم تأتي رحمةُ أرحمِ الرَّاحمين، فَتُخرِجُ من النار مَن لم يعمل خيراً قطُّ، وقال يوماً من الدهر: لا إلَه إلا الله. كما وَرَدت بذلك الأخبارُ الصحيحةُ المستفيضةُ عن رسول الله ـ ﷺ ـ بمضمُونِ ذلك من حديث أنس، وجابر، وأبي سعيدٍ، وأبي هُرَيرَةَ، وغيرهم من الصحابة، ولا يبقى بعد ذلك في النارِ إلا مَن وجبَ عليه الخلودُ فيها ولا محيدَ له عنها. وهذا الذي عليه كثيرٌ من العلماء قديماً وحديثاً في تفسيرِ هذه الآيةِ الكريمةِ.

وقد رُوِي في تفسيرها عن أمير المؤمنين عُمَر بن الخطاب، وابنِ عَبَّاس، وابنِ مسعود، وأبي هُرَيرة، وعبد الله بن عمرو، وجابر، وأبي سعيد، من الصحابة. وعن أبي مِجْلَز، والشعبيِّ، وغيرهما من التابعين. وعن عبد الرحمن بن زيد بن أسلَمَ، وإسحاقَ بن راهَوَيه وغيرهما من الأئمة ـ أقوالٌ غريبةٌ. ووردَ حديثٌ في مُعجَم الطَّبَرَانيِّ الكبيرِ، عن أبي أمامة صُدَيِّ بن عَجْلانَ الباهليِّ، ولكن سَنَده ضعيفٌ، والله أعلم.

وقال قتادة: الله أعلم بِثُنْيَاه[٤]. وقال السدِّيُّ: هي مَنسُوخةٌ بقوله: ﴿ خَالِدِينَ فيها أبداً ﴾.

﴿ ۞ وَأَمَّا ٱلَّذِينَ سُعِدُواْ فَفِى ٱلْجَنَّةِ خَٰلِدِينَ فِيهَا مَا دَامَتِ ٱلسَّمَٰوَٰتُ وَٱلْأَرْضُ إِلَّا مَا شَآءَ رَبُّكَ عَطَآءً غَيْرَ مَجْذُوذٍ ﴿١٠٨﴾ ﴾

(١) تفسير الطبري ١٢/١١٧. والسَّمير: الدهر، وابناه: الليل والنهار. والعُفْر: جمع أعفر، وهو الظبي، ولألأت بأذنابها: بصبصت وحركت.

(٢) أخرجه ابن أبي حاتم وأبو الشيخ. الدر المنثور ٤/٤٧٧.

(٣) زاد المسير ٤/١٦٠ ـ ١٦١، وتفسير الطبري ١٢/١٢٠.

(٤) الثُّنيا: الاستثناء.

يقولُ تعالى: ﴿ وأما الذين سُعِدوا ﴾، وهم أتباعُ الرسل، ﴿ ففي الجنَّةِ ﴾، أي: فمأواهم الجنةُ، ﴿ خالدين فيها ﴾، أي: ماكثين مقيمينَ فيها أبداً، ﴿ ما دامتِ السموتُ والأرضُ إلا ما شاء ربُّك ﴾، معنى الاستثناء هاهنا أن دَوامهم فيما هم فيه من النعيم، ليس أمراً واجباً بذاته، بل هو موكولٌ إلى مشيئةِ الله تعالى، فله المنةُ عليهم، ولهذا يُلهمُون التسبيحَ والتحميدَ كما يُلهمُونَ النَفَسَ.

وقال الضحاكُ، والحسنُ البصريُّ: هي في حَقِّ عُصاة الموحِّدين الذين كانُوا في النار، ثم أُخرِجُوا منها. وعَقَّب ذلك بقوله: ﴿ عطاءً غيرَ مَجذُوذٍ ﴾، أي غيرَ مقطوع. قاله ابنُ عباس، ومجاهد، وأبو العالية وغيرُ واحد، لئلاَّ يَتوهَّم مُتوهِّم بعد ذكره المشيئة أنَّ ثمَّ انقطاعاً، أو لبساً، أو شيئاً، بل حَتَم له بالدوام وعدم الانقطاع. كما بيَّن هنا أن عذاب أهل النار في النار دائماً مَردُودٌ إلى مشيئته، وأنه بعَدْله وحكمته عذبهم، ولهذا قال: ﴿ إنَّ ربَّك فَعَّالٌ لما يريدُ ﴾، كما قال: ﴿ لا يُسأَلُ عما يَفعَلُ وهُم يُسأَلُون ﴾، وهنا طيَّبَ القلوبَ وثَبَّت المقصودَ بقوله: ﴿ عطاءً غيرَ مَجذُوذٍ ﴾.

وقد جاء في الصَّحيحَين: «يُؤتى بالموتِ في صُورَةِ كَبْشٍ أملَحَ فَيُذبَحُ بين الجنَّة والنارِ، ثم يُقَال: يا أهلَ الجنَّةِ، خُلودٌ فلا مَوتَ، ويا أهلَ النَار، خُلودٌ فلا مَوتَ[1]».

وفي الصَّحيحين أيضاً «فيقال: يا أهلَ الجنة، إنَّ لكم أن تَعِيشوا فلا تموتُوا أبداً، وإن لكم أن تَشِبُّوا فلا تَهْرَمُوا أبداً، وإن لكم أن تَصِحُّوا فلا تَسقَمُوا أبداً، وإن لكم أن تَنعمُوا فلا تَيأَسُوا أبداً»[2].

﴿ فَلَا تَكُ فِي مِرْيَةٍ مِّمَّا يَعْبُدُ هَٰٓؤُلَآءِ ۚ مَا يَعْبُدُونَ إِلَّا كَمَا يَعْبُدُ ءَابَآؤُهُم مِّن قَبْلُ ۚ وَإِنَّا لَمُوَفُّوهُمْ نَصِيبَهُمْ غَيْرَ مَنقُوصٍ ﴿١٠٩﴾ وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا مُوسَى ٱلْكِتَٰبَ فَٱخْتُلِفَ فِيهِ ۚ وَلَوْلَا كَلِمَةٌ سَبَقَتْ مِن رَّبِّكَ لَقُضِيَ بَيْنَهُمْ ۚ وَإِنَّهُمْ لَفِى شَكٍّ مِّنْهُ مُرِيبٍ ﴿١١٠﴾ وَإِنَّ كُلًّا لَّمَّا لَيُوَفِّيَنَّهُمْ رَبُّكَ أَعْمَٰلَهُمْ ۚ إِنَّهُۥ بِمَا يَعْمَلُونَ خَبِيرٌ ﴿١١١﴾ ﴾

يقولُ تعالى: ﴿فَلا تَكُ في مِرْيةٍ مما يعبدُ هؤلاء﴾ المشركون أنه باطلٌ وجهل وضلالٌ، فإنَّهم إنما يعبدُون ما يعبد آباؤهم من قبل، أي: ليس لهم مُستَنَدٌ فيما هم فيه إلا اتباع الآباءِ في الجهالات، وسَيَجزيهم الله على ذلك أتمَّ الجزاء فَيُعذِّب كافِرَهم عذاباً لا يُعذِّبه أحداً من العالمين، وإن كان لهم حسناتٌ فقد وَفَّاهم الله إيَّاها في الدنيا قبل الآخرة.

قال سفيانُ الثوريُّ، عن جابر الجُعفي، عن مجاهدٍ، عن ابنِ عَبَّاسٍ: ﴿ وإنا لموفُّوهم نَصِيبَهم غيرَ منقُوص ﴾، قال: ما وُعِدوا فيه من خيرٍ أو شر.

وقال عبدُ الرحمنِ بن زيد بن أسلَمَ: لموفوهم من العَذاب نصيبَهُم غيرَ منقُوص.

ثم ذكر تعالى أنه آتى مُوسَى الكتابَ فاختلفَ الناسُ فيه، فمِن مُؤمنٍ به ومِنْ كافرٍ به، فَلَكَ بِمَن سَلَف مِن الأنبياء قبلك يا محمدُ أسوةٌ، فلا يَغيظنَّك تكذيبُهم لك، ولا يَهيدَنَّك ذلك[3].

﴿ ولولا كلمةٌ سَبَقت من ربِّك لَقُضِي بينهم ﴾، قال ابنُ جَرير: لولا ما تقدَّم من تأجيلِه العذابَ إلى أجلٍ معلُومٍ لقَضَى الله بينهم[4].

---

(١) فتح الباري، تفسير سورة مريم ٨/٤٢٨، ومسلم، كتاب الجنة ٤/٢١٨٨.
(٢) الحديث أخرجه مسلم في كتاب الجنة ٨/٢١٨٢، وانظر تحفة الأشراف للمزي ٩/٢٩٧.
(٣) أي: لا يُفزِعَنَّك.
(٤) انظر لفظه في تفسيره ١٢/١٢٣.

ويحتمِل أن يكونَ المرادُ بالكلمة أنه لا يعذِّب أحداً إلا بعد قيام الحجَّةِ عليه، وإرسالِ الرسُول إليه، كما قال: ﴿ وما كنا مُعذِّبين حتى نبعث رسولا ﴾؛ فإنه قد قال في الآية الأخرى: ﴿ ولولا كلمةٌ سَبَقت من ربك لكان لزاماً وأجل مسمى * فاصبر على ما يقولون ﴾.

ثم أخبرَ أنَّ الكافرين في شَكٍّ مما جاءَهُم به الرسول قويٍّ، فقال: ﴿ وإنَّهم لفي شَكٍّ منه مُريب ﴾.

ثم أخبرنا تعالى أنه سيجمَعُ الأوَّلين والآخِرين من الأمَم، ويجزيهم بأعمالهم، إن خيراً فخيرٌ، وإن شرّاً فشرٌّ، فقال: ﴿ وإنَّ كُلّاً لَمّا لَيُوفِّيَنَّهم ربُّك أعمالَهم إنه بما يعملون خبيرٌ ﴾، أي: عليم بأعمالهم جميعها، جليلِها وحقيرِها، صغيرِها وكبيرِها.

وفي هذه الآية قراءاتٌ كثيرة[1]، ويرجِعُ معناها إلى هذا الذي ذكرناه، كما في قوله تعالى: ﴿ وإن كلٌّ لَمَّا جَميع لدينا محضرون ﴾[2].

﴿ فَٱسْتَقِمْ كَمَآ أُمِرْتَ وَمَن تَابَ مَعَكَ وَلَا تَطْغَوْا۟ ۚ إِنَّهُۥ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ ﴿١١٢﴾ وَلَا تَرْكَنُوٓا۟ إِلَى ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ فَتَمَسَّكُمُ ٱلنَّارُ وَمَا لَكُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ مِنْ أَوْلِيَآءَ ثُمَّ لَا تُنصَرُونَ ﴿١١٣﴾ ﴾

يأمرُ تعالى رسولَه وعبادَه المُؤمِنين بالثَّباتِ والدَّوام على الاستقامةِ، وذلك من أكبر العَوْنِ على النَّصرِ على الأعداءِ ومخالفةِ الأضداد. ونهى عن الطغيان، وهو البغيُ، فإنَّه مصْرَعَةٌ حتى ولو كان على مُشرِكٍ، وأعلم تعالى أنه بصيرٌ بأعمال العباد، لا يغفَل عن شيءٍ، ولا يخفَى عليه شيءٌ.

وقولُه: ﴿ ولا تركَنُوا إلى الذينَ ظَلَمُوا ﴾، قال علي بن أبي طلحةَ، عن ابن عباس: لا تُدْهِنُوا[3]. وقال العوفي، عن ابن عباس: هو الركونُ إلى الشرك. وقال أبو العالية: لا تَرْضَوا أعمالهم. وقال ابنُ جُرَيج، عن ابن عباس: ولا تَميلوا إلى الذين ظَلَمُوا.

وهذا القولُ حسنٌ، أي: لا تَستعِينُوا بالظَّلَمة فتكونُوا قد رضيتم بباقي صَنيعهم، ﴿فتَمسَّكُم النار وما لَكُم من دون الله من أولياء ثم لا تُنصَرونَ ﴾، أي: ليس لكم من دونه من ولي يُنقِذكُم، ولا نَاصِرٍ يُخلِّصُكم من عَذابِه.

﴿ وَأَقِمِ ٱلصَّلَوٰةَ طَرَفَيِ ٱلنَّهَارِ وَزُلَفًا مِّنَ ٱلَّيْلِ ۚ إِنَّ ٱلْحَسَنَٰتِ يُذْهِبْنَ ٱلسَّيِّـَٔاتِ ۚ ذَٰلِكَ ذِكْرَىٰ لِلذَّٰكِرِينَ ﴿١١٤﴾ وَٱصْبِرْ فَإِنَّ ٱللَّهَ لَا يُضِيعُ أَجْرَ ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿١١٥﴾ ﴾

قال عليُّ بن أبي طلحةَ، عن ابن عَبَّاسٍ: ﴿ وأقمِ الصلاةَ طرفَيِ النهارِ ﴾، قال: يعني الصبحَ والمغربَ: وكذا قال الحسنُ، وعبدُ الرحمن بن زيدِ بن أسلَمَ.

وقال الحسنُ ـ في روايةٍ ـ وقتادةُ، والضحاكُ، وغيرُهم: هي الصبحُ والعصرُ. وقال مجاهد: هي الصبح في أول النهار، والظهر والعصر من آخره. وكذا قال محمد بن كعب القُرَظيُّ، والضحاك في رواية عنه.

---

(١) قال ابن الباذش في الإقناع ٢/٦٦٦: (وإنْ كُلّاً) خفيف: الحرميان، وأبو بكر. (لَمّا) هنا وفي يسٓ وفي الطارق مُشدّد: عاصم وابن عامر، وحمزة». هذا وانظر تفسير الطبري ١٢/١٢٣ ـ ١٢٤.

(٢) الآية ٣٢ من سورة يسٓ.

(٣) الإدهان: الملاينة والملاطفة.

وقولُه ﴿ وزُلَفاً من الليل ﴾، قال ابنُ عباس، ومجاهدُ، والحسنُ وغيرُهم: يعني صلاةَ العِشَاءِ.

وقال الحسنُ ـ في روايةِ ابنِ المُبَارك، عن مبارك بن فَضَالَةَ، عنه: ﴿وزُلَفاً من الليل ﴾، يعني المغربَ والعِشَاءَ، قال رسولُ الله ـ ﷺ ـ: «هما زُلْفَتَا الليل: المغربُ والعشاءُ»(١). وكذا قال مجاهد، ومحمد بن كعب، وقتادة، والضحاك: إنها صلاة المغرب والعشاء.

وقد يَحْتَمِلُ أن تكون هذه الآية نزلت قبل فَرْضِ الصلَوات الخمسِ ليلةَ الإسراءِ؛ فإنه إنما كان يَجِبُ من الصلاة صلاتان: صلاة قبل طلوع الشمس، وصلاة قبلَ غروبها. وفي أثناء الليل قيام عليه وعلى الأمة، ثم نُسِخَ في حقِّ الأُمَّةِ، وثَبت وجوبهُ عليه، ثم نُسِخ عنه أيضاً في قولٍ، والله أعلم.

وقولُه: ﴿ إن الحسناتِ يُذهِبن السيِّئاتِ ﴾، يقولُ: إن فعل الخيراتِ يُكَفِّر الذُّنُوبَ السالفة، كما جاءَ في الحديثِ الذي رواه الإمامُ أحمدُ وأهلُ السُّنَنِ، عن أميرِ المؤمنينِ عَليِّ بن أبي طالب: قال: كنتُ إذا سَمِعتُ من رسولِ الله ـ ﷺ ـ حديثاً نَفَعني الله بما شاء أن ينفَعَني منه، وإذا حَدَّثني عنه أحدٌ استحلفتهُ، فإذا حَلَف لي صَدَّقته، وحدثني أبو بكر ـ وصَدَق أبو بكر ـ أنه سَمِعَ رسولَ الله ـ ﷺ ـ يقولُ: «ما من مُسلِمٍ يُذنبُ ذنباً فَيَتوضأُ ويُصلِّي ركعتين، إلا غُفِرَ له»(٢).

وفي الصَّحيحين، عن أَميرِ المؤمنين عثمانَ بن عفان: أنه تَوضأَ لهم كوُضوءِ رسولِ الله ـ ﷺ ـ ثم قال: هكذا رأيتُ رسولَ الله يتوضأ، وقال: «مَن تَوضأَ نحو وُضُوئي هذا، ثم صَلَّى ركعتين لا يُحدِّثُ فيهما نفسَه، غُفِر له ما تَقدَّم من ذَنبِهِ»(٣).

وروى الإمامُ أحمد، وأبو جعفرِ بنِ جَريرٍ، من حديثِ أبي عَقيل زُهْرَةَ بن مَعْبَدٍ: أنه سمع الحارث مولى عثمان يقولُ: جلس عثمانُ يوماً وجلسنا معه، فجاءه المؤذِّن، فدعا عثمانُ بماء في إناء أظنُّه سيكون فيه قدرُ مُدٍّ(٤) فتوضأ، ثم قال: رأيتُ رسول الله ـ ﷺ ـ يتوضأُ وُضُوئي هذا، ثم قال: «من تَوضأَ وُضُوئي هذا ثم قام فَصَلَّى صلاة الظهر، غُفِر له ما كان بينه وبين صلاة الصُّبح، ثم صَلَّى العصر غُفِر له ما بينه وبين صلاة الظُّهر، ثم صَلَّى المغرِب غُفِرَ له ما بينه وبين صلاة الصُّبح، ثم صَلَّى العشاءَ غُفِر له ما بينه وبين صلاة المغرب، ثم لَعلَّه يبيت يتمرَّغُ ليلتَه، ثم إن قام فَتوضأَ وصلَّى الصُّبحَ غُفِر له ما بينها وبين صَلاَةِ العشاء، وهُنَّ الحسناتُ يُذهِبن السيِّئات»(٥).

وفي الصحيح عن أبي هُرَيرة رضي الله عنه، عن رسول الله ـ ﷺ ـ أنه قال: «أرأيتم لو أَنَّ بباب أحدكم نهراً غَمْراً يغتسِلُ فيه كلَّ يوم خَمْسَ مَرَّاتٍ، هل يُبقي من دَرَنِه شيئاً؟ قالوا: لا، يا رسولَ الله. قال: وكذلك الصلواتُ الخمسُ، يمحُو الله بِهِنَّ الذنوبَ والخطايا»(٦).

وقال مسلم في صحيحه: حدثنا أبو الطَّاهِر وهارون بن سعيد قالا: حدثنا ابنُ وهب، عن أبي صَخْرٍ: أن عُمَر بن إسحاق مولى زائدةَ حَدَّثه، عن أبيه، عن أبي هُرَيرة: أن رسولَ الله ـ ﷺ ـ كان يقول: «الصلواتُ الخمس، والجمعةُ إلى الجمعةِ، ورمضانُ إلى رمضانَ، مُكَفِّراتٌ ما بينهنَّ إذا اجتُنِبَتِ الكبائرُ»(٧).

---

(١) تفسير الطبري ١٢/١٣٠.

(٢) مسند الإمام أحمد ١/٢.

(٣) فتح الباري، كتاب الوضوء ١/٢٥٩، ومسلم، كتاب الطهارة ١/٢٠٤ ـ ٢٠٥.

(٤) المدّ: مكيال اختلف الفقهاء في تقديره بالكيل المصري، فقدره الشافعية بنصف قَدَح، وقَدّره المالكية بنحو ذلك. والقَدَح: ثمن الكيلة من الحبوب. وهو رطل وثلث عند أهل الحجاز، وعند أهل العراق: رطلان. وانظر تعليقنا على كتاب الخراج لأبي يوسف ٩٦.

(٥) مسند الإمام أحمد ١/٧١.

(٦) أخرجه الشيخان، فتح الباري، كتاب المواقيت ٢/١١، ومسلم، كتاب المساجد ١/٤٦٢ ـ ٤٦٣.

(٧) مسلم، كتاب الطهارة ١/٢٠٩.

وقال الإمام أحمدُ: حدثنا الحَكَم بن نافع، حدثنا إسماعيل بن عَيَّاش، عن ضَمْضَمٍ بن زُرعَةَ، عن شُرَيحِ بن عُبَيد، أن أبا رَهْم السَّمْعِيَّ كان يحدِّث: أن أبا أيوبَ الأنصاريَّ حَدَّثه أن النبي ـ ﷺ ـ كان يقولُ: إنَّ كلَّ صلاةٍ تَحُطُّ ما بين يَدَيها من خطيئة»[١].

وقال أبو جعفر بن جرير: حدثنا مُحمَّد بن عوف، حدثنا مُحمَّد بن إسماعيلَ، حدثنا أبي، عن ضَمْضَمِ ابن زُرْعَةَ، عن شُرَيح بن عُبَيد، عن أبي مالك الأشعريِّ قال: قال رسولُ الله ـ ﷺ ـ: «جُعِلَتِ الصلواتُ كَفَّاراتٍ لما بينهنَّ؛ فإن الله قال: ﴿ إن الحسناتِ يُذهِبنَ السيِّئاتِ ﴾»[٢].

وقال البخاريُّ: حدثنا قُتَيبة بن سعيد، حَدثنا يزيد بن زُرَيع، عن سُليمان التَّيمِيِّ، عن أبي عثمانَ النَهدِيِّ، عن ابن مسعودٍ: أن رجلاً أصابَ من امرأة قبلة، فأتى النبي ـ ﷺ ـ فأخبره، فأنزل اللهُ: ﴿ وأقِمِ الصَّلاةَ طَرفَيِ النهار وزُلَفاً من الليل، إن الحسناتِ يُذهِبنَ السيِّئاتِ ﴾، فقال الرجلُ: ألي هذا يا رسولَ الله؟ قال: لجميع أُمَّتي كلِّهم»[٣].

هكذا رَوَاه في كتاب الصلاة، وأخرجَه في التفسير عن مُسَدَّدٍ، عن يَزيدَ بن زُرَيع، بنحوه: ورواه مُسلِمٌ، وأحمد، وأهل السنن إلا أبا داودَ، من طُرُق، عن أبي عثمان النهديِّ، واسمه عبد الرحمن بن مُلّ، به[٣].

وروى الإمامُ أحمد، ومسلم، وأبو داودَ والترمذيُّ، والنسائي، وابنُ جرير ـ وهذا لفظُه ـ من طُرُق، عن سِمَاكِ بن حَرْبٍ: أنه سَمِعَ إبراهيمَ بن يَزيدَ يُحدِّثُ عن علقمةَ والأسودِ، عن ابن مسعودٍ قال: جاء رجلٌ إلى النبي ـ ﷺ ـ فقال: يا رسولَ الله، إني وجدتُ امرأةً في بُستانٍ، ففعلتُ بها كُلَّ شيء، غير أني لم أجامِعْهَا، قَبَّلتها ولَزِمتُها، ولم أفعل غير ذلك، فافعل بي ما شئتَ. فلم يَقُل رسولُ الله ـ ﷺ ـ شيئاً، فذهب الرَّجُل، فقال عُمَر: لقد سَتَر الله عليه، لو سَتَر على نفسه! فأتبعه رسولُ الله بصرَه ثم قال: رُدُّوه علي. فَرَدُّوه عليه، فقرأ عليه: ﴿ أَقِمِ الصَّلاةَ طَرَفَي النَّهارِ وزُلَفاً من اللَّيل إن الحسنات يُذْهِبنَ السَّيِّئاتِ ذلك ذكرى للذاكرين ﴾. فقال معاذُ ـ وفي رواية عُمَر ـ: يا رسولَ الله، أله وحده، أم للناسِ كافَّةً؟ فقال: بل للناس كافَّةً[٤].

وقال الإمامُ أحمد: حَدَّثنا محمد بن عبيد، حدثنا أبان بن إسحاق، عن الصَّباح بن محمد، عن مُرَّةَ الهَمْداني، عن عبد الله بن مسعود قال: قال رسول الله ـ ﷺ ـ: «إن الله قَسَم بينكم أخلاقكم كما قَسَم بينكم أرزاقكم. وإن الله يُعطِي الدُّنيا مَن يحبُّ، ولا يُعطِي الدِّين إلا من أَحَبَّ. فمن أعطاه الله الدِّين فقد أحبَّه، والذي نفسي بيده لا يُسْلِمُ عبدٌ حتى يسلم قلبه ولسانه، ولا يُؤمِن حتى يَأمن جارهُ بَوَائِقَه. قال: قلنا: وما بَوَائِقُه يا نَبِيَّ الله؟ قال: غِشُّه وظُلمه، ولا يكسبُ عبد مالاً حَراماً فَيُنفِقَ منه فَيُبارَكَ له فيه، ولا يَتصدَّق فَيُقبلَ منه، ولا يتركه خلف ظهره إلا كان زادَهُ إلى النار، إن الله لا يمحُـو السيِّءَ بالسيِّءِ، ولكنه يمحُو السَّيِّءَ بالحسن، إن الخبيثَ لا يمحُو الخبيثَ»[٥].

---

(١) مسند الإمام أحمد ٤١٣/٥.

(٢) تفسير الطبري ١٣٣/١٢.

(٣) فتح الباري، كتاب مواقيت الصلاة ٨/٢، وتفسير سورة هود ٣٥٥/٨. ومسلم، كتاب التوبة ٢١١٥/٤ ـ ٢١١٦، ومسند أحمد ٣٨٥/١ ـ ٣٨٦، وعارضة الأحوذي، تفسير سورة هود ٢٧٩/١١. وأخرجه النسائي في سننه الكبرى في التفسير والرجم والصلاة، كما في تحفة الأشراف ٧٩/٧، وابن ماجه في كتاب الصلاة ٤٤٧/١ ـ ٤٤٨، وفي الزهد ١٤٢١/٢.

(٤) مسند أحمد ٤٤٥/١، ٤٤٩، ومسلم، كتاب التوبة ٢١١٦/٤ ـ ٢١١٧، وسنن أبي داود، كتاب الحدود ١٦٠/٤، وعارضة الأحوذي، تفسير سورة هود ٢٧٦/١١ ـ ٢٧٧، والنسائي في سننه الكبرى كما في تحفة الأشراف ٥/٧، والطبري في تفسيره ١٣٤/١٢.

(٥) مسند أحمد ٣٨٧/١.

وقال ابنُ جرير: حدثنا أبو السائِب، حدثنا أبو مُعَاوية، عن الأعمش، عن إبراهيمَ قال: كان فلانُ بن مُعَتّب رجلاً من الأنصار، فقال: يا رسولَ الله، دخلَتْ عليَّ امرأةٌ فنِلْتُ منها ما ينالُ الرجلُ من أهله، إلا أني لم أجامِعْهَا. فلَم يَدْرِ رسولُ الله ـ ﷺ ـ ما يُجيبه، حتى نزلت هذه الآية: ﴿ وأَقِم الصلاة طَرَفَي النهارِ وزُلَفاً من الليلِ إنَّ الحسنَاتِ يُذهِبنَ السَّيِّئاتِ ذلك ذكرى للذَّاكِرِينَ ﴾. فدعاهُ رسولُ الله، فقرأها عليه[١].

وعن ابن عباس: أنه عَمْرو بن غَزِيَّة الأنصاريُّ التَّمارُ[٢]، وقال مقاتِلٌ: هو أبو نُفَيلٍ عامرُ بن قَيس الأنصاريُّ[٢]، وذكر الخطيبُ البغدادي أنه أبو اليَسَرِ: كَعْبُ بن عَمرو.

وقال الإمامُ أحمدُ: حدثنا يونس وعفَّانُ قالا: حدثنا حَمّاد ـ يعني ابن سلمَة ـ عن علي بن زيدٍ ـ قال عَفَّان: أنبأنا عليُّ بن زيدٍ، عن يوسفَ بن مِهران، عن ابن عباس: أن رجُلاً أتى عُمَر قال: امرأة جاءت تُبايعه، فأدخلتها الدَّوْلَجَ[٣]، فأصبتُ منها ما دُون الجماع، فقال: ويحكَ! لعَلَّها مُغِيبَةٌ[٤] في سبيل الله؟ قال: أجل. قال: فَائتِ أبا بكر فاسأله. قال: فأتاه فَسألَه فقال: لعلها مُغِيبَةٌ في سبيل الله؟ فقال مثلَ قولِ عُمر، ثم أتى النبيَّ ـ ﷺ ـ فقال له مثل ذلك، قال: فلعلها مُغِيبَةٌ في سبيلِ الله. ونزل القرآن: ﴿ وأقم الصَّلاةَ طَرَفَي النهار وزُلَفاً من الليل إن الحسناتِ يُذهِبْنَ السيِّئات ﴾ . . . إلى آخر الآية، فقال: يا رسولَ الله، إليَّ خاصَّةً أم للناس عامَّةً؟ فَضرب ـ يعني عُمَرَ ـ صدره بيده وقال: لا، ولا نُعمَةَ عين، بل للناس عامَّةٌ. فقال رسولُ الله ـ ﷺ ـ: صدق عمر[٥].

وروَى الإمامُ أبو جعفر بنُ جرير من حديث قيس بن الرَّبيع، عن عثمان بن موهب، عن موسى بن طلحَة عن أبي اليَسرَ كعب بن عَمْرو الأنصارِي قال: أتتني امرأةٌ تبتاعُ مني بِدِرْهم تمراً، فقلت: إنَّ في البيت تمراً أطيبَ وأجودَ من هذا. فدخَلَت، فأهويتُ إليها فقبلتُها، فأتيتُ عُمر فسألته، فقال: اتَّقِ الله، واستُر على نفسِكَ، ولا تخبرنَّ أحداً. قال: فلم أصبر حتى أتيتُ أبا بكرٍ فسألتهُ، فقال: اتَّق الله، واستُر على نَفْسِكَ، ولا تُخبِرَنَّ أحداً. قالَ: فلم أصبر حتى أتيتُ النبيَّ ـ ﷺ ـ فأخبرتُه، فقال: أَخلَفْتَ رَجُلاً غازياً في سبيل الله في أهلِهِ بمثل هذا؟! حتى ظننتُ أني من أهل النار، حتى تَمنَّيْتُ أني أسلمتُ ساعتَئِذٍ. فأطرقَ رسولُ الله ـ ﷺ ـ ساعةً فنزل جبريل، فقال: أين أبو اليَسَر؟ فَجئتُ، فقرأ عليَّ: ﴿ وأقم الصَّلاة طَرَفَي النهار وزُلَفاً من اللَّيل ﴾ إلى ﴿ ذكرى للذَّاكِرِينَ ﴾، فقال إنسانٌ: يا رسولَ الله، أله خاصَّةً أم للناسِ عامَّةً؟ قَال: للناسِ عامَّةً[٦].

وقال الحافظُ أبو الحسن الدارقطنيُّ: حدثنا الحُسَين بن إسماعيل المحاملي، حدثنا يوسفُ بن موسى، حدثنا جرِيرٌ، عن عبد الملك بن عُمَير، عن عبد الرَّحمن بن أبي ليلى، عن مُعاذِ بن جَبَل: أنه كان قاعِداً عند النبيّ ـ ﷺ ـ. فجاءه رجلٌ فقال: يا رسول، ما تقولُ في رجل أصابَ من امرأةٍ لا تحِلُ له، فلم يَدَع شيئاً يُصيبه الرجلُ من امرأته إلا قد أصاب منها، غير أنه لم يُجامعها؟ فقال له النبي ـ ﷺ ـ: توضأ وُضوءاً حسَناً، ثم قم فَصَلِّ، قال: فأنزل الله ـ عز وجل ـ هذه الآية، يعني قوله: ﴿ وأقم الصَّلاة طَرَفَيِ النهار وزُلَفاً من الليل ﴾، فقال معاذ: أهِي له خاصَّةً أم للمسلمين عامة؟ قال: بل للمسلمين عامَّة[٧].

---

(١) تفسير الطبري ١٢/١٣٥.
(٢) أسد الغابة ٤/٢٦٠، فأما أبو نُفَيل فلم يقع لنا.
(٣) الدَّوْلَجُ: البيت الصغير داخل البيت الكبير.
(٤) أي: غاب عنها زوجها.
(٥) مسند أحمد ١/٢٤٥.
(٦) تفسير الطبري ١٢/١٣٧.
(٧) سنن الدارقطني، كتاب الطهارة ١/١٣٤، وتفسير الطبري ١٢/١٣٦.

ورواه ابنُ جرير من طرق، عن عبد الملك بن عُمَير، بـه.

وقال عبد الرزاق: أخبرنا محمد بن مسلم، عن عمرو بن دينار، عن يحيى بن جَعْدَة: أن رَجُلاً من أصحاب النبيّ ـ ﷺ ـ ذكر امرأةً وهو جالس مع رسول الله ـ ﷺ ـ فاستأذنه لحاجةٍ، فأذِنَ له، فذهب يطلبها فلم يجدها، فأقبلَ الرجلُ يريد أن يُبَشر النبي ـ ﷺ ـ بالمطر، فوجد المرأة جالسةً على غَدِير، فدفع في صدرها وجَلَس بين رجليها، فصار ذكره مثل الهُدْبة، فقام نادماً حتى أتى النبيَّ ـ ﷺ ـ فأخبره بما صَنَع، فقال له: استغفر رَبَّك، وصَلِّ أربَع ركعاتٍ. قال: وتلا عليه: ﴿ وأقِمِ الصَّلاةَ طَرَفَيِ النهارِ وزُلَفاً من الليل﴾[1]. . . الآية.

وقال ابنُ جَرير: حدثني عبدُ الله بن أحمَد بن شَبّويه، حدثنا إسحاقُ بن إبراهيم، حَدَّثني عَمْرُو بن الحارث،حدثني عبد الله بن سالم، عن الزُّبَيديِّ، عن سُلَيم بن عامرٍ: أنه سَمِع أبا أمامَة يقول: إنّ رَجُلاً أتى النبيَّ ـ ﷺ ـ فقال: يا رسولَ الله، أقِم فيَّ حدَّ الله ـ مَرَّةً أو ثِنْتَين ـ فأعرضَ عنه رسولُ الله ـ ﷺ ـ ثم أُقيمتَ الصلاةُ، فلما فَرَغ النبيُّ ـ ﷺ ـ من الصلاة قال: أين هذا الرجل القائل: أقم فيَّ حدَّ الله؟ قال: أنا ذا. قال: هل أتممتَ الوضوءَ وَصلَّيت معنا آنفاً؟ قال: نعم. قال: فإنك من خَطِيئتك كما ولدتك أُمُّك، ولاَ تَعدْ. وأنزل الله على رسول الله ـ ﷺ ـ: ﴿ وأقم الصَّلاةَ طَرَفَيِ النَّهارِ وزُلَفاً من الليلِ إنّ الحسنـاتِ يُذهِبْنَ السيِّئاتِ ذلك ذكرى للذَّاكرِينَ ﴾[1].

وقال الإمامُ أحمدُ: حدثنا عفّانُ، حدثنا حمَّاد بن سلمَةَ، أنبأنا علي بن زيدٍ، عن أبي عثمانَ قال: كنتُ مع سلمانَ الفارسيِّ تحتَ شجرةٍ، فأخذَ منها غُصناً يابساً فهزَّه حتى تحاتَّ[2] ورقهُ، ثم قال: يا أبا عثمانَ، ألا تسألني: لم أفْعَلُ هذا؟ فقلتُ: لم تفعله؟ قال: هكذا فَعَل بي رسولَ الله ـ ﷺ ـ وأنا معه تحتَ شجرةٍ، فأخذَ منها غصناً يابساً فهزه حتى تحاتّ ورقُهُ، فقال: يا سَلْمانُ، ألا تسألني: لم أفعلُ هذا؟ قلتُ: وَلِم تفعَلُه؟ فقال: إن المُسلِمَ إذا تَوَضَّأ فأحسنَ الوضُوءَ، ثم صَلَّى الصلواتِ الخُمْس، تحاتّت خطاياه كما يَتحاتُ هذا الورَقُ. وقال: ﴿ وأقم الصلاة طَرَفَيِ النهارِ وزُلَفاً من الليل إنَّ الحسناتِ يُذهِبْنَ السيئاتِ ذلك ذكرى للذاكرين ﴾[3].

وقال الإمامُ أحمدُ: حدثنا وكيع، حدثنا سفيانُ، عن حبيب بن أبي ثابت، عن ميمونِ بن أبي شَبِيب، عن معاذٍ ـ رضي الله عنه ـ: أنَّ رسولَ الله ـ ﷺ ـ قال له: يا معاذُ، أتبع السيئة الحسنَةَ تمحُها، وخالِقِ الناس بِخُلق حسن[4].

وقال الإمامُ أحمد ـ رضي الله عنه ـ: حدثنا وكيعٌ، حدثنا سفيان، عن حَبِيب، عن ميمونِ بن أبي شَبِيب، عن أبي ذَرٍّ: أن رسولَ الله ـ ﷺ ـ قال: اتّقِ الله حيثُما كنتَ، وأتبعِ السيئَةَ الحسنَةَ تَمحُها، وخالِقِ النَّاسَ بِخُلق حَسَن[5].

وقال أحمدُ: حدثنا أبو معاوية، حدثنا الأعمشُ، عن شِمْرِ بن عَطِيَّةَ، عن أشياخِهِ، عن أبي ذَرٍّ قال: قلتُ: يا رسولَ الله، أوصِني. قال: إذا عملتَ سيئةً فأتبعها حسنَةً تمحُها. قال قلت: يا رسولَ الله، أمِنَ الحسناتِ: لا إلَه إلا الله؟ قال: هي أفضلُ الحَسَناتِ[6].

---

(١) تفسير الطبري ١٢/١٣٦ ـ ١٣٧.

(٢) أي: تساقط.

(٣) مسند أحمد ٥/٤٣٧.

(٤) مسند أحمد ٥/٢٢٨.

(٥) مسند أحمد ٥/١٥٣.

(٦) مسند أحمد ٥/١٦٩.

وقال الحافظ أبو يَعْلَى المَوْصِليُّ: حدثنا هُذيل بن إبراهيم الجُمَّاني، حدثنا عثمان بن عبد الرحمن الزُّهري، من ولد سعد بن أبي وَقَّاص، عن الزُّهري؛ عن أَنَسِ بن مالك قال: قال رسولُ الله ـ ﷺ ـ: «ما قال عبدٌ «لا إلَه إلا الله» في ساعةٍ من ليل أو نهارٍ، إلاَ طَلَسَت[1] ما في الصَّحيفة من السيِّئاتِ، حتى تسكُن إلى مِثلِها من الحسنات»[2]. عثمان بنُ عبدِ الرحمنِ، يقال له: الوَقَّاصِيُّ فيه ضعفٌ.

وقال الحافظ أبو بكر البزَّار: حدثنا بشرُ بن آدَمَ وزيدُ بن أَخْزَمَ قالا: حدثنا الضَّحَّاكُ بنُ مَخْلَدٍ، حدثنا مَستُورُ بن عَبَّاد، عن ثابت، عن أنس: أن رجُلاً قال: يا رسول الله، ما تركتُ من حاجةٍ ولا داجة[3]. فقال رسول الله ـ ﷺ ـ: تشهدُ أن لا إلَه إلا الله وأني رسولُ الله؟ قال: بلى. قال: فإنَّ هذا يأتي على ذلك[4]. تفرَّد به من هذا الوجه مستورٌ.

﴿ فَلَوْلَا كَانَ مِنَ ٱلْقُرُونِ مِن قَبْلِكُمْ أُوْلُواْ بَقِيَّةٍ يَنْهَوْنَ عَنِ ٱلْفَسَادِ فِى ٱلْأَرْضِ إِلَّا قَلِيلًا مِّمَّنْ أَنجَيْنَا مِنْهُمْ وَٱتَّبَعَ ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ مَآ أُتْرِفُواْ فِيهِ وَكَانُواْ مُجْرِمِينَ ﴿١١٦﴾ وَمَا كَانَ رَبُّكَ لِيُهْلِكَ ٱلْقُرَىٰ بِظُلْمٍ وَأَهْلُهَا مُصْلِحُونَ ﴿١١٧﴾ ﴾

يقولُ تعالى: فهلاَّ وُجِدَ من القرون الماضيةِ بقايا من أهل الخير يَنْهون عما كان يقَع بينهم من الشرور والمنكرات والفساد في الأرض.

وقولُهُ: ﴿ إلاّ قليلا ﴾، أي: قد وُجِد منهم من هذا الضربِ قليلٌ لم يكونوا كثيراً، وهم الذين أنجاهم الله عند حُلُولِ غِيَرِه[5]، وفَجْأَة نِقَمِه، ولهذا أمر تعالى هذه الأمةَ الشريفةَ أن يكونَ فيها من يأمُر بالمعروفِ وينهى عن المنكر، كما قال تعالى: ﴿ ولْتكن منكم أمةٌ يدعُون إلى الخير ويأمُرونَ بالمعروفِ وينهَونَ عن المنكر وأولئك هُم المُفلِحُون ﴾. وفي الحديثِ: «إنَّ الناسَ إذا رأَوُا المنكر فلم يُغيِّرُوه أوشك أن يَعُمَّهم الله بعقابٍ»[6]. ولهذا قال تعالى: ﴿ فلولا كان من القُرون من قبلكم أُولوا بقيةٍ ينهَون عن الفساد في الأرض إلا قليلاً ممن أنجينا منهم ﴾.

وقولُه: ﴿ واتَّبع الذين ظَلَمُوا ما أُترفُوا فيه ﴾، أي: استَمَرُّوا على ما هُم فيه من المعاصي والمنكرات، ولم يلتفِتُوا إلى إنكارِ أولئك حتى فَجَأهم العذابُ، ﴿ وكانوا مُجرمين ﴾.

ثم أخبر تعالى أنه لم يُهلِك قريةً إلَّا وهي ظالمةٌ، ولم يأتِ قريةً مصلحةً بأسُه وعذابُه قطُّ حتى يكونوا هم الظالمين، كما قال تعالى: ﴿ وما ظَلَمناهم ولكن ظلموا أنفُسَهم ﴾ وقال: ﴿ وما ربك بظلام للعبيد ﴾.

---

(١) في مسند أبي يعلى: «طمست». وطَلَسَت وَطَمَسَتْ: مَحَتْ.

(٢) مسند أبي يَعْلَى ٦/٢٩٤. وأورده الهيثمي في مجمع الزوائد ١٠/٨٢ عن أبي يعلى وقال: «وفيه: عثمان بن عبد الرحمن الزهري. وهو متروك».

(٣) الداجة: ما صغر من الحوائج. أراد: أنه لم يَدَع شيئاً دعته إليه نفسه من الشهوات إلا أتاه.

(٤) كشف الأستار عن زوائد البزار، كتاب الأذكار ٤/٧. وقال الهيثمي في مجمع الزوائد ١٠/٨٣: «رواه أبو يعلى والبزار والطبراني في الصغير والأوسط، ورجالهم ثقات».

(٥) غِيَرُ الدهر: أحواله وتصرفاته المتغيِّرة، يقال: لا أراني الله بك غِيَراً. قيل: مفرده غِيَرَة. وقيل: هو مفرد.

(٦) أخرجه أبو داود في كتاب الملاحم ٤/١٢٢، والترمذي وابن ماجه في الفتن، عارضة الأحوذي ٩/١٣ ـ ١٥، وابن ماجه ٢/١٣٢٧. وانظره فيما تقدم، في تفسير الآية ١٠٥ من سورة المائدة.

﴿ وَلَوْ شَآءَ رَبُّكَ لَجَعَلَ ٱلنَّاسَ أُمَّةً وَٰحِدَةً ۖ وَلَا يَزَالُونَ مُخْتَلِفِينَ ﴿١١٨﴾ إِلَّا مَن رَّحِمَ رَبُّكَ ۚ وَلِذَٰلِكَ خَلَقَهُمْ ۗ وَتَمَّتْ كَلِمَةُ رَبِّكَ لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنَ ٱلْجِنَّةِ وَٱلنَّاسِ أَجْمَعِينَ ﴿١١٩﴾ ﴾

يخبرُ تعالى أنه قادرٌ على جَعْلِ الناسِ كُلِّهم أمةً واحدةً، من إيمانٍ أو كُفرانٍ، كما قال تعالى: ﴿ ولو شاء ربُّك لآمن مَن في الأرضِ كلُّهم جميعاً ﴾.

وقولُه: ﴿ولا يزالون مختلفين * إلا مَن رَحِم رَبُّك﴾، أي: ولا يزالُ الخُلْفُ بين الناسِ في أَديانهم واعتقاداتِ مِلَلِهم ونِحَلِهم ومَذاهبهم وآرائِهم.

قال عكرمةُ: ﴿ مختلِفينَ ﴾ في الهُدَى. وقال الحسنُ البصريُّ: ﴿ مختلِفِينَ ﴾ في الرزقِ يُسَخِّر بعضهم بعضاً. والمشهور الصحيح الأول.

وقولُه: ﴿إلا مَن رحم ربك﴾، أي: إلا المرحومين من أتباع الرسُل، الذين تَمسَّكوا بما أُمِرُوا به من الدين. أخبرتْهم به رسلُ الله إليهم، ولم يَزَل ذلك دأْبَهم، حَتَّى كانَ النبيُّ - ﷺ - الأميُّ خاتَمَ الرسُلِ والأنبياءِ، فاتبعُوه وصَدَّقوهُ، ونَصَروه وَوَازَرُوه، ففازُوا بسعادَةِ الدنيا والآخرة؛ لأَنهم الفرقةُ الناجيةُ، كما جاء في الحديثِ المرويِّ في المسانيد والسُّنَنِ، من طُرُقٍ يَشُدُّ بعضُها بعضاً: «إن اليهودَ افترقت على إحدى وسبعين فرقةً، وإنَّ النصارَى افترقُوا على ثنتين وسبعينَ فرقةً، وستفتَرِقُ أُمَّتي على ثلاثٍ وسبعينَ فرقةً، كُلُّها في النارِ إلا فرقةً واحدةً. قالوا: ومن هُم يا رسولَ الله؟ قال: ما أنا عليه وأصحابي». رواه الحاكم في مستدركه بهذه الزيادة[1].

وقال عطاءٌ: ﴿ ولا يزالون مختلفين ﴾، يعني اليهودَ والنصارى والمجوسَ، ﴿ إلاَّ من رَحِم ربُّك ﴾، يعني الحنيفيَّة.

وقال قتادة: أهلُ رحمةِ الله أهلُ الجماعة وإن تفرَّقت ديارُهم وأبدانُهم، وأهلُ معصيته أهلُ فُرقَةٍ وإن اجْتَمعَتْ ديارُهم وأبدانُهم.

وقولُه: ﴿ ولذلك خَلَقهم ﴾، قال الحسنُ البصريُّ - في رواية عنه -: وللاختلاف خَلَقهم، وقال علي بن أبي طلحة، عن ابن عباس: خَلَقهم فريقَين، كقولِهِ: ﴿ فمنهُم شقيٌّ وسعيدٌ ﴾.

وقيل: للرَّحمةِ خَلَقهم، قال ابنُ وهب: أخبرني مسلمُ بن خالدٍ، عن ابن أبي نَجِيح، عن طاوس: أن رجلين اختصَما إليه فأكثرا، فقال طاوس: اختلفتُما فأكثرتُما! فقال أحد الرجلين: لذلك خَلَقنا. فقال طاوس: كذبت. فقال: أليس الله يقول: ﴿ولا يزالون مختلفين * إلا مَن رحم ربك ولذلك خَلَقهم ﴾، قال: لم يخلقهم ليختلفوا، ولكن خلقهم للجماعة والرحمة. كما قال الحكمُ بن أبان، عن عكرمةَ، عن ابن عباس قال: للرحمةِ خَلَقهم، ولم يخلُقهم لـلعذاب. وكذا قال مجاهدٌ والضحَّاك وقتادةُ. ويـرجعُ معنى هذا القولِ إلى قولهِ تعالى: ﴿ وما خلقتُ الجنَّ والإنسَ إلا ليعبـدونِ ﴾.

وقيل: بل المرادُ: وللرحمةِ والاختلافِ خَلَقهم، كما قال الحسنُ البصري - في روايةٍ عنه - في قوله: ﴿ولا يزالون مختلفين * إلا من رحم ربك ولذلك خَلَقهم﴾، قال: الناس مختلفون على أديانٍ شَتَّى، ﴿ إلا مَن رحِم ربُّك﴾، فمن رَحِم ربُّك غيرُ مختلف. قيل له: فلِذلك خلقهم؟ فقال: خَلَق هؤلاء لنارِه، وخلق هؤلاء لرحمتِه، وخلق هؤلاء لعذابه. وكذا قال عطاءُ بن أبي رَبَاح، والأعمشُ.

---

(١) تقدّم الحديث عند تفسير الآية ٩٣ من سورة يونس، وخرجناه هناك.

وقال ابنُ وهب: سألتُ مالكاً عن قوله تعالى: ﴿ولا يزالون مختلفين * إلا من رَحِم ربك ولذلك خَلَقهم﴾، قال: ﴿فَريقٌ في الجنة وفريقٌ في السعير﴾ وقد اختار هذا القولَ ابن جرير، وأبو عُبَيدة والفَرَّاء[١].

وعن مالِكٍ فيما رويناه عنه في التفسير: ﴿ولذلك خَلَقهم﴾، قال: للرحمة، وقال قوم: للاختلافِ.

وقولُه: ﴿ وتَمَّت كلمة ربك لأملأنَّ جهنَّم من الجنة والناس أجمعين ﴾، يخبر تعالى أنه قد سَبَق في قَضائه وقَدَره، لعلمِه التام وحِكْمتِه النافذة، أنَّ ممن خَلَقه من يستحقُّ الجنةَ، ومنهم مَن يستحقُّ النار، وأنه لابدَّ أن يَملأ جهنم من هذين الثَّقلَين الجنِّ والإنسِ، وله الحجةُ البالغةُ والحكمةُ التامة. وفي الصَّحيحَين عن أبي هُرَيرة ـ رضي الله عنه ـ قال: قال رسول الله ـ ﷺ ـ: «اختصمتِ الجنةُ والنارُ، فقالت الجنةُ: ما لي لا يدخُلني إلا ضَعفَةُ الناس وسَقَطُهم[٢]؟ وقالتِ النار: أُوثِرتُ بالمُتكبِّرين والمُتجبِّرين. فقال الله ـ عزَّ وجلَّ ـ للجنةِ: أنتِ رحمتِي، أرحمُ بك من أشاء. وقال للنار: أنتِ عذابي، أنتقمُ بك ممن أشاء، ولكل واحدةٍ منكما مِلْؤُها. فأما الجنةُ فلا يزالُ فيها فضلٌ حتى ينشىءَ الله لها خلقاً يسكُن فضل الجنة، وأما النار فلا تزالُ تقول: هل من مزيدٍ؟ حتى يضعَ عليها ربُّ العزة قَدَمه، فتقول: قَطْ قَطْ[٣]، وعزتك[٤].

﴿ وَكُلًّا نَّقُصُّ عَلَيْكَ مِنْ أَنۢبَآءِ ٱلرُّسُلِ مَا نُثَبِّتُ بِهِۦ فُؤَادَكَ ۚ وَجَآءَكَ فِى هَٰذِهِ ٱلْحَقُّ وَمَوْعِظَةٌ وَذِكْرَىٰ لِلْمُؤْمِنِينَ ﴿١٢٠﴾ ﴾

يقولُ تعالى: وكلُّ أخبار نقصُّهـا عليك من أنباءِ الرسل المتقدِّمين قبلك مع أممهم، وكيف جَرَى لهم من المحاجَّات والخُصُومات، وما احتملـه الأنبياءُ من التكذيب والأذى، وكيف نَصَر الله حِزْبَه المؤمنين وخَذَل أعداءَه الكافرين، كلُّ هذا مما نُثَبِّت به فؤادكَ ـ يا محمد ـ أي: قَلْبَك، ليكونَ لك بمن مضى من إخوانك من المرسلين أُسْوَة.

وقولُه: ﴿ وجاءك في هذه الحقُّ ﴾، أي: هذه السورةِ. قاله ابنُ عباس، ومجاهدٌ، وجماعةٌ من السَّلف: وعن الحسنِ ـ في روايةٍ عنه ـ وقتادةَ: في هذه الدنيا.

والصحيح: في هذه السورةِ المشتملة على قَصَص الأنبياء وكيف نجّاهم الله والمؤمنين بهم وأهلك الكافرين، جاءك فيها قَصَصٌ حق، ونبأ صِدْقٍ، وموعظة يرتدِعُ بها الكافرون، وذكرى يتوقَّرُ بها المؤمنونَ[٥].

﴿ وَقُل لِّلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ ٱعْمَلُوا۟ عَلَىٰ مَكَانَتِكُمْ إِنَّا عَٰمِلُونَ ﴿١٢١﴾ وَٱنتَظِرُوٓا۟ إِنَّا مُنتَظِرُونَ ﴿١٢٢﴾ ﴾

يقولُ تعالى آمراً رسوله أن يقولَ للذين لا يُؤمِنون بما جاء من ربِّه على وجه التهديد: ﴿ اعملوا على مَكَانَتِكُـم ﴾، أي: على طريقتكم ومنهجكم، ﴿ إنا عاملونَ ﴾، أي: على طريقتنا ومَنْهَجِنا، ﴿ وانتظِروا إنا مُنتظِرُون ﴾، أي: فستعلمون من تكونُ له عاقبةُ الدار، إنه لا يفلحُ الظالمون.

وقد أنجز الله لرسوله وعدَه، ونَصَره وأيَّده، وجَعَل كَلِمَته هي العليا، وكَلِمة الذين كفرُوا السفلى، والله عزيز حكيم.

(١) تفسير الطبري ١٤٤/٦٢، ومعاني القرآن للفراء ٣١/٢.

(٢) السقط: الساقط من كُلِّ شيء، واللئيم في حسبه ونسبه.

(٣) أي: حَسْبي.

(٤) فتح الباري، تفسير سورة ﴿ق﴾ ٥٩٥/٨، وكتاب التوحيد ٤٣٤/١٣، ومسلم، كتاب الجنة ٢١٨٦/٤.

(٥) أي: يتثبتون بها.

﴿وَلِلَّهِ غَيْبُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَإِلَيْهِ يُرْجَعُ ٱلْأَمْرُ كُلُّهُۥ فَٱعْبُدْهُ وَتَوَكَّلْ عَلَيْهِ ۚ وَمَا رَبُّكَ بِغَٰفِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ ﴿١٢٣﴾﴾

يخبر تعالى أنه عالم غيبِ السمواتِ والأرضِ، وأنه إليه المرجعُ والمآبُ وسَيُوَفِّي كلَّ عاملٍ عَمَله يوم الحساب، فله الخلقُ والأمرُ. فأمر تعالى بعبادتِه والتوكُّلِ عليه؛ فإنه كافٍ مَن تَوَكَّل عليه وأنابَ إليه.

وقولُه: ﴿وما ربُّك بغافل عما تَعملون﴾، أي: ليس يخفى عليه ما عليك مُكَذِّبوك يا محمد، بل هو عليمٌ بأحوالهم وأقوالهم، وسَيَجزِيهم على ذلك أَتَمَّ الجزاءِ في الدنيا والآخرةِ، وسَينصُرُك وحِزْبَك عليهم في الدارين.

وقال ابنُ جرير: حدثنا ابنُ وكيع، حدثنا زيدُ بن الحباب، عن جعفرِ بن سُلَيمان، عن أبي عمران الجَوْني، عن عبد الله بن رَبَاح، عن كَعبٍ قال: خَاتمة «التوراة» خاتمة «هود»[1].

[تم تفسير سورة هود]

(١) تفسير الطبري ١٢/١٤٨.

تفسير

سُورَةُ يُوسُفَ

وهي مكية

رَوَى الثَّعْلَبِيُّ(١) وغيرُه، من طريق سَلاَم بن سَلْم ـ ويقال: سُلَيم ـ المَدَائِنِيِّ، وهو متروكٌ، عن هارونَ بن كثير ـ وقد نَصَّ على جَهَالته أبو حاتِمٍ(٢) ـ عن زَيدِ بنِ أسلَمَ، عن أبيه، عن أبي أُمَامَةَ، عن أُبَيِّ بن كَعب قال: قال رسولُ الله ـ ﷺ ـ: «علموا أرِقَّاءكم سورةَ يوسف، فإنه أيما مسلمَ تَلاها، أو علّمها أهلَه، أو ما ملكت يمينُه، هَوَّن الله عليه سكراتِ الموتِ، وأعطاه من القوة ألاَّ يحسُدَ مسلما».

وهذا من هذا الوجه لا يصحُّ، لضعفِ إسنادِه بالكلِّية. وقد ساقه الحافظُ ابن عساكر مُتَابعاً، من طريق القاسم بن الحَكَم، عن هارونَ بن كثير، به، ومن طريق شَبَابة، عن محمد بن عبد الواحد النَضْرِيِّ، عن علي ابن زيد بن جُدعان ـ وعن عطاء بن أبي ميمونة، عن زِرِّ بن حُبَيش، عن أُبَيِّ بن كعب، عن النبي ـ ﷺ ـ فذكر نحوه. وهو منكر من سائرِ طرقه.

ورَوَى البيهقي في «الدلائل» أن طائفة من اليهود حين سَمِعوا رسول الله ـ ﷺ ـ يتلو هذه السورة أسلموا، لموافقتها ما عندهم. وهو من رواية الكَلْبِيِّ، عن أبي صَالحٍ، عن ابن عَبَّاس(٣).

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

﴿ الٓرۚ تِلْكَ ءَايَٰتُ ٱلْكِتَٰبِ ٱلْمُبِينِ ۝١ إِنَّآ أَنزَلْنَٰهُ قُرْءَٰنًا عَرَبِيًّا لَّعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ ۝٢ نَحْنُ نَقُصُّ عَلَيْكَ أَحْسَنَ ٱلْقَصَصِ بِمَآ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانَ وَإِن كُنتَ مِن قَبْلِهِۦ لَمِنَ ٱلْغَٰفِلِينَ ۝٣ ﴾

أما الكلامُ على الحروف المقطَّعة فقد تقدَّم في أول سورة «البقرة».

وقولُه: ﴿ تلك آياتُ الكتابِ﴾، أي: هذه آياتُ الكتابِ، وهو القرآنُ، ﴿ المبينِ﴾، أي: الواضحُ

---

(١) هو: أبو أسحق أحمد بن إبراهيم الثعلبي النيسابوري، المقرىء المفسِّر، قال ابن خلكان: كان أوحد زمانه في علم التفسير». وتفسيره هو: الكشف والبيان عن تفسير القرآن. ويقول الدكتور محمد حسين الذهبي في كتابه التفسير والمفسرون ١/٢٢٧: ومن العلماء من يرى أنه لا يوثق به». توفي رحمه الله سنة ٤٢٧.

(٢) الجرح والتعديل لابن أبي حاتم ٩/٩٤.

(٣) دلائل النبوة، جماع أبواب أسئلة اليهود، باب ما جاء في تعجب الحبر الذي سمعه يقرأ سورة يوسف ٦/٢٧٦.

الجليُّ، الذي يُفصِح عن الأشياء المُبهمة ويُفسِّرها ويُبيِّنها. ﴿ إنا أنزلناه قرآناً عربياً لعلَّكم تَعقِلون ﴾، وذلك لأنَّ لغةَ العربِ أَفصَحُ اللغاتِ وأبينُها وأوسعُها، وأكثرُها تأديةً للمعاني التي تقومُ بالنفوس، فلهذا أُنزِلَ أشرفُ الكُتُب بأشرفِ اللُّغاتِ على أشرفِ الرسلِ، بِسِفارة أشرَفِ الملائكة، وكان ذلك في أشرف بقاعِ الأرض، وابتُدِىء إنزالُه في أشرفِ شهور السنة وهو رمضانُ، فَكَمُل من كلِّ الوُجوه، ولهذا قال تعالى: ﴿نحن نقصُّ عليك أحسَنَ القَصَص بما أوحينا إليكَ هذا القرآنَ ﴾،[أيْ]، بِسَببِ إيحائِنا إليكَ هذا القرآن.

وقد وَرَدَ في سبب نزولِ هذه الآياتِ ما رواه ابنُ جرير:

حدثني نصر بن عبد الرحمن الأوديُّ، حدثنا حَكّام الرازي، عن أيُّوبَ، عن عمرو ـ هو ابن قيس المُلائِيِّ ـ عن ابن عباس قال: قالوا: يا رسولَ الله، لو قَصَصْتَ علينا؟ فنزلت: ﴿ نحن نقصُّ عليكَ أحسَنَ القَصَص ﴾[١]. ورواه من وجه آخر، عن عمرو بن قَيس مرسلا[١].

وقال أيضاً: حدثنا محمدُ بن سعيد العطار، حدثنا عَمرو بن محمد، أنبأنا خَلّاد الصَّفّار، عن عَمرو بن قيس، عن عمرو بن مُرَّة، عن مصعَبِ بن سعد، عن سعدٍ قال: أُنزِلَ على النبيِّ ـ ﷺ ـ القرآنُ، قال: فتلا عليهم زماناً، فقالوا: يا رسولَ الله، لو قَصَصتَ علينا، فأنزل الله عزَّ وجلَّ: ﴿ الٓر تلك آياتُ الكتابِ المبين ﴾، إلى قوله: ﴿ لَعلَّكم تعقِلُون ﴾: ثم تَلا عليهم زماناً، فقالوا: يا رسولَ الله، لو حَدَّثتنا. فأنزل الله عز وجل: ﴿ الله نَزَّلَ أحسَنَ الحديثِ ﴾. . . الآية، وذكر الحديث[١].

ورواه الحاكمُ من حديث إسحاق بن رَاهوَيه، عن عَمرو بن محمد القُرَشي العَنْقزِيِّ، به[٢].

ورَوى ابنُ جرير بسنده، عن المَسعوديِّ، عن عَون بن عبد الله قال: مَلَّ أصحابُ رسول الله ـ ﷺ ـ مَلَّةً، فقالوا: يا رسولَ الله، حَدِّثنا. فأنزل الله: ﴿ الله نَزَّل أحسن الحديث ﴾، ثم مَلُّوا مَلة أخرى فقالوا: يا رسول الله، حدثنا فوقَ الحديثِ ودُون القرآنِ. يعنون القَـصص، فأنزل الله: ﴿الٓر تلك آياتُ الكتابِ المبينِ * إنا أنزلناه قرآناً عربيّاً لعلكم تعقلُون * نحن نقصُّ عليك أحسَنَ القَصَصِ بما أوحينَا إليكَ هذا الـقرآنَ وإن كنتَ من قبلِه لمن الغافلين ﴾، فأرادُوا الحديث، فدلَّهم على أحسنِ الحديثِ، وأرادُوا القَصَص فدلهم على أحسَن القصص[١].

ومما يناسبُ ذكرُه عند هذه الآية الكريمةِ المشتملةِ على مدح القرآن، وأنه كافٍ عن كلِّ ما سواه من الكتب ما قال الإمام أحمد:

حدثنا سُرَيجُ بن النعمان، أخبرنا هُشَيم، أنبأنا مُجالِد، عن الشَّعبي، عن جابر بن عبد الله: أن عُمَر بن الخطاب أتى النبي ـ ﷺ ـ بكتابٍ أصابَه من بعضِ أهلِ الكتابِ، فقرأه على النبي ـ ﷺ ـ فَغَضِب وقال: «أمُتَهوِّكُونَ فيها يا ابنَ الخطاب؟ والذي نفسي بيده لقد جئتكُم بها بيضاءَ نقيَّةً، لا تسألوهم عن شيءٍ فَيُخبِرُوكم بحق فتكذِّبونه، أو بباطل فتصدقونَه. والذي نَفسِي بيده لو أنَّ موسى كان حياً لما وَسِعَه إلا أن يتبعني»[٣].

وقال الإمام أحمدُ: حدثنا عبد الرزَّاقِ، أخبرنا سفيان، عن جابر، عن الشَّعبيِّ، عن عبد الله بن ثابت قال: جاء عُمَر إلى رسول الله ـ ﷺ ـ فقال: يا رسولَ الله، إني مررتُ بأخٍ لي من قُرَيظَة، فكتَب لي جوامعَ من التوراةِ، ألَا أعرِضُها عليك؟ قال: فتغيَّر وجهُ رَسُول الله ـ ﷺ ـ قال عبد الله بن ثابت: فقلت له: ألا ترى ما بِوَجهِ

---

(١) تفسير الطبري ١٢/١٥٠.

(٢) المستدرك، تفسير سورة يوسف ٢/٣٤٥.

(٣) مسند الإمام أحمد ٣/٣٨٧. وتهوَّك: تَحيَّر.

رسول الله ﷺ؟ فقال عُمَر: رَضِينا بالله ربّاً، وبالإسلام ديناً، وَبِمُحمَّد رسولا. قال: فَسُرِّي عن النبي ـ ﷺ ـ وقال: والذي نفسُ محمد بيده لو أصبَحَ فيكم موسَى ثم اتبعتموه وتركتموني لضَلَلْتُم، إنكم حَظِّي من الأمم، وأنا حَظُّكم من النبيِّينَ»[1].

وقال الحافظُ أبو يعلَى الموصليُّ: حدثنا عبد الغفار بن عبد الله بن الزُّبير، حدثنا علي بن مُسهِر، عن عبدِ الرحمن بن إسحاقَ، عن خليفَة بن قيس، عن خالد بن عُرْفُطَة قال: كنتُ جالساً عند عُمَر إذ أُتِيَ برجُلٍ من عبد القيس مسكنه بالسُّوس، فقال له عُمر: أنتَ فلانُ بنُ فلانٍ العَبْدِيُّ؟ قال: نعم. قال: وأنت النازلُ بالسُّوسِ، قال: نعم. فَضَربه بقَنَاةٍ[2] معه، قال: فقال الرجلُ: ما لي يا أميرَ المؤمنين؟ فقال له عمر: اجلِس. فجَلَس، فقرأ عليه: ﴿بسم الله الرحمن الرحيم * الۤر تلك آياتُ الكتابِ المُبِينِ * إنا أنزلناه قرآناً عربيّاً لعلَّكُم تعقِلون * نحن نَقصُّ عليك﴾ إلى قوله: ﴿لمن الغافلين﴾، فقرأها ثلاثاً، وضرَبه ثلاثاً، فقال له الرجل: ما لي يا أمير المؤمنين؟ فقال: أنت الذي نَسَخت كتابَ دانيال! قال: مُرني بأمرك أَتَّبعْه. قال: انطلق فامحه بالحَمِيم والصوف الأبيضِ، ثم لا تَقرأه ولا تُقرئه أحداً من الناس[3]. فَلَئِنْ بلغني عنك أنك قَرَأته أو أَقرأته أحداً من الناس لأنهكنَّكَ عُقُوبَةً. ثم قال له: اجلِسْ، فَجَلس بين يديه، فقال: انطلقت أنا فانتسختُ كتاباً من أهل الكتاب، ثم جئتُ به في أديم، فقال لي رسول الله ـ ﷺ ـ: ما هذا في يدِك يا عُمَر؟ قال قلت: يا رسولَ الله، كتاب نسخته لنزداد به عِلماً إلى عِلمنا. فَغَضِب رسولُ الله ـ ﷺ ـ حتى احمرَّت وجنتاه، ثم نُودِي بالصلاة جامعةً، فقالت الأنصارُ: أَغضِبَ نبيكُم ﷺ؟ السِّلاحَ السِّلاحَ. فجاءوا حتى أحدَقُوا بمنبر رسولِ الله ـ ﷺ ـ فقال: يا أيُّها الناس، إني قد أُوتِيتُ جوامعَ الكلم وخواتيمَه، واختُصر لي اختصاراً، ولقد أتيتكم بها بيضاءَ نَقِيَّةً فلا تَتهوَّكوا ولا يَغُرَّنكم المتهوِّكون. قال عمر: فقمت فقلت: رَضيت بالله ربّاً، وبالإسلام ديناً، وبِكَ رسولاً. ثم نَزَل رسولُ الله ﷺ[3].

وقد رواه ابن أبي حاتم في تفسيره مختصراً، من حديث عبد الرحمن بن إسحاقَ، به: وهذا حديثٌ غريبٌ من هذا الوجهِ، وعبد الرحمن بن إسحاق هو أبو شَيبَةَ الواسطي، وقد ضَعَّفوه وشيخَه. قال البخاري: لا يصح حديثه.

قلت: وقد رُوِي له شاهد من وجه آخر، فقال الحافظ أبو بكر أحمد بن إبراهيم الإسماعيلي[4]: أخبرني الحسن بن سُفيانَ، حدثنا يعقوبُ بن سفيان، حدثنا إسحاقُ بن إبراهيم بن العلاء الزُّبيدي، حدثني عمرو بن الحارث، حدثنا عبد الله بن سالم الأشعريّ، عن الزُّبيدي، حدثنا سُلَيم بن عامر: أن جُبَير بن نُفَير حَدَّثهم: أَنَّ رجلين كانا بحمْص في خلافة عُمر ـ رضي الله عنه ـ فأرسل إليهما فيمن أرسل من أهل حِمْص، وكانا قد اكتسبا من اليهود مِلْءَ صُفْقَةٍ[5] فأخذاها معهما يستفتيان فيها أمير المؤمنين ويقولون: إن رضيها لنا أميرُ المؤمنين

(١) مسند أحمد ٤/٢٦٥ ـ ٢٦٦.

(٢) القناة: كل عصاً مستوية أو معوجّة.

(٣) أخرج هذا القدر ابن أبي حاتم في تفسيره بإسناد أبي علي بن مُسْهِر. وقال الهيتمي في المجمع ١/١٨٢: رواه أبو يعلى، وفيه: عبد الرحمن بن إسحاق الواسطي، ضعّفه أحمد وجماعة. وانظر الدر المنثور ٤/٤٩٧.

(٤) هو إمام أهل جرجان في الحديث والفقه، رحل إلى العراق والحجاز، وصنف التصانيف. توفي رحمه الله سنة ٣٧١ هـ. انظر الأنساب للسمعاني ١/١٥٢ ـ ١٥٣، ومصادر ترجمته في طبقات الحفاظ والمفسرين ٤٩.

(٥) في الأصل: ملاصو. دون نقط. وفي الطبقات السابقة: صلاصفة. ولم أتبينه. ورجحنا ما أثبتناه لأنه سيأتي في ختام الأثر: فخرجا بصفْتهما.

ازددنا فيها رغبةً. وإن نهانا عنها رَفَضناها. فلما قدِما عليه قالا: إنا بأرض أهل الكِتَابين، وإنا نَسمعُ منهم كلاماً تقشعرُّ منه جلودُنا، أفنأخذ منه أو نترك؟ فقال: لعلكما كتبتما منه شيئاً. قالا: لا. قال: سَأُحدّثكما، انطلقتُ في حياة رسول الله ـ ﷺ ـ حتى أتيت خَيبر، فوجدت يهودياً يقول قولاً أعجبني، فقلت: هلى أنت مُكتِبي ما تقولُ؟ قال: نعم. فأُتيتُ بأديم، فأخذُ يملي عَليَّ، حتى كتبتُ في الأكرُع[1]. فلما رجعتُ قلتُ: يا نبيَّ الله، وأخبرتُه. قال: ائتني به. فانطلقتُ أرغبُ عن المشي رجاءَ أن أكونَ أتيتُ رسولَ الله ببعض ما يُحِبُّ؛ فلما أتيتُ به قال: اجلس اقرأ علي. فقرأت ساعةً، ثم نظرتُ إلى وجهِهِ فإذا هو يَتلوَّن، فتحيرتُ من الفَرَق، فما استطعتُ أجيزُ[2] منه حرفاً، فلما رأى الذي بي دفعَه، ثم جعلَ يَتْبَعُه رسماً رسماً فيمحُوه بريقه، وهو يقول: «لا تَتَّبعوا هؤلاء، فإنهم قد هَوَّكُوا وتَهَوَّكوا. حتى محا آخِره حَرْفاً حَرْفاً. قال عُمَر ـ رضي الله عـنه ـ فلو عَلِمت أنكما كتبتما منه شيئاً جعلتُكما نكَالاً لهذه الأمة! قالا: والله ما نكتب منه شيئاً أبداً. فخرجَا بِصفَّتِهـما فحفرا لها فلم يألُوا[3] أن يُعَمِّقا، وَدَفناها فكـان آخرَ العهدِ منها.

وكذا روى الثوريُّ، عن جابر بن يزيد الجُعفِيِّ، عن الشعبيِّ، عن عبد الله بن ثابتِ الأنصاريِّ، عن عُمَر ابن الخطاب، بنحوه. وروى أبو داودَ في المراسيل[4]، من حديث أبي قِلَابَةَ، عن عُمر، نحوه، والله أعلم.

﴿ إِذْ قَالَ يُوسُفُ لِأَبِيهِ يَٰٓأَبَتِ إِنِّي رَأَيْتُ أَحَدَ عَشَرَ كَوْكَبًا وَٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ رَأَيْتُهُمْ لِي سَٰجِدِينَ ﴿٤﴾ ﴾

يقولُ تعالى: اذكُر لقومك ـ يا محمد ـ في قصَصَك عليهم من قصَّة يوسف إذ قال لأبيه، وأبوه هو: يعقوبُ عليه السلام، كما قال الإمام أحمد:

حدثنا عبد الصَّمد، حدثنا عبدُ الرحمن بن عبد الله بن دينار، عن أبيه، عن ابن عُمَر: أن رسولَ الله ـ ﷺ ـ قال: الكريمُ ابنُ الكريم ابنُ الكرِيم ابنُ الكريم، يوسفُ بنُ يعقوبَ بنِ إسحاقَ بنِ إبراهيم»[5].

انفرد بإخراجه البخاري، فَرواه عن عبد الله بن محمد، عن عبدالصَّمد، به. وقال البخاري أيضا:

حدثنا محمد، أخبرنا عبدةُ، عن عُبَيد الله، عن سعيد بن أبي سَعِيد، عن أبي هُرَيرة ـ رضي الله عنه ـ قال: سُئِل رسولُ الله ـ ﷺ ـ: أيُّ الناسِ أكرمُ؟ قال: أكرمُهم عند الله أتقاهُم. قالوا: ليس عن هذا نسألُك. قال: فأكرم الناس يوسفُ نبي الله، ابنُ نبي الله، ابنِ نبي الله، ابنِ خَلِيل الله. قالوا: ليسَ عن هذا نسألك. قال: فعن معادن العرب تسألُوني؟ قالوا: نعم. قال: فَخيارُكم في الجَاهلية خيارُكـم في الإسلام إذا فَقِهُوا. ثم قال: تابعه أبو أسامَةَ، عن عُبَيد الله[6].

وقال ابن عباس: رُؤيا الأنبياء وحيٌ.

وقد تكلَّم المفسرون على تعبير هذا المنام: أن الأحدَ عشر كوكباً عبارةٌ عن إخوته، وكانوا أحدَ عشر رجلاً، والشمسَ عبارةٌ عن أبيه وأمِّه. رُوِي هذا عن ابن عباس، والضحاك، وقتادةَ، وسفيانَ الثوريِّ،

---

(١) الأكرُع: جمع كُرَاع، وهو: مُسْتَدِقُّ الساق العاري من اللحم.

(٢) أي: لم أستطع أن أقرأ منه حرفاً. يقال: أجاز فلان الموضع وجازه سار فيه وقطعه.

(٣) أي: لم يُقصِّرا.

(٤) مراسيل أبي داود ٤٨.

(٥) مسند الإمام أحمد ٩٦/٢. وفتح الباري، تفسير سورة يوسف ٣٦١/٨.

(٦) فتح الباري، تفسير سورة يوسف ٣٦٢/٨.

زعبد الرحمن بن زيدِ بن أسلَمَ، وقد وقع تفسيرُها بعد أربعين سنة، وقيل: ثمانينَ سنة، وذلك حين رفَع أبويه على العرش، وهو سريرُه، وإخوته بين يديه ﴿وخرُّوا له سُجَّداً وقال يا أبتِ هذاتأويلُ رؤياي من قبل قد جعَلَها ربِّي حقاً﴾.

وقد جاء في حديث تسمية هذه الأحدَ عشر كوكبا، فقال الإمامُ أبو جعفرِ بن جَرير:

حدثني علي بن سعيد الكنديُّ، حدثنا الحكم بن ظُهير، عن السدِّيِّ، عن عبد الرحمن بن سابط، عن جابر قال: أتي النبيَّ ـ ﷺ ـ رجلٌ من يهودَ يقال له: بستانة اليهوديُّ، فقال له: يا محمدُ، أخبرني عن الكواكبِ التي رآها يوسفُ أنها ساجدةٌ له، ما أسماؤها؟ قال: فسكتَ النبيُّ ـ ﷺ ـ ساعةً فلم يُجبه شيءٍ، ونزل عليه جبريلُ ـ عليه السلام ـ فأخبره بأسمائها. قال: فبعثَ رسول الله ـ ﷺ ـ إليه فقال: «هل أنت مؤمنٌ إن أخبرتك بأسمائها؟ قال: نعم. قال: جُرِبَّان[1]، والطارق، والذيَّال، وذو الكنفات[2]، وقابس، ووثَّاب، وعَمُودان، والفيلقُ، والمُصبح، والضَّرُوح، وذو الفرْع، والضياء، والنور»، فقال اليهودي: إيْ والله، إنها لأسماؤُها[3].

ورواه البيهقيُّ[3] في الدلائل، من حَديث سعيد بن منصور، عن الحكيم بن ظُهَير. وقد رَوى هذا الحديث الحافظان أبو يعلى الموصلي وأبو بكر البزَّار في مسنديهما، وابنُ أبي حاتم في تفسيره، أما أبو يعلى فرواه عن أربعة من شيوخه عن الحكم بن ظُهَير، به وزاد: قال رسولُ الله ـ ﷺ ـ: «لما رآها يوسف قَصَّها على أبيه يعقوبَ، فقال له أبوه: هذا أمرٌ مُتَشَتت يجمَعه الله من بعدُ؛ قال: والشمسُ أبوه، والقمرُ أمه».

تَفرَّد به الحكم بن ظُهَير الفَزارِيُّ، وقد ضعفه الأئمةُ، وتَركه الأكثرونَ، وقال الجُوزجَانيُّ: ساقطٌ، وهو صاحبُ حديث حُسْنِ يوسفَ.

﴿ قَالَ يَٰبُنَيَّ لَا تَقۡصُصۡ رُءۡيَاكَ عَلَىٰٓ إِخۡوَتِكَ فَيَكِيدُواْ لَكَ كَيۡدًاۖ إِنَّ ٱلشَّيۡطَٰنَ لِلۡإِنسَٰنِ عَدُوّٞ مُّبِينٞ ٥ ﴾

يقولُ تعالى مخبراً عن قِيلِ يعقوبَ لابنه يُوسُفَ حين قَصَّ عليه ما رَأى من هذه الرؤيا، التي تعبيرُها خضوعُ إخوته له وتعظيمُهم إيَّاه تعظيماً زائداً، بحيث يخرُّون له ساجِدين إجلالاً وإكراماً واحتراماً، فَخَشِيَ يعقوبُ ـ عليه السلام ـ أن يحدِّث بهذا المنام أحداً من إخوَتِهِ فيحسُدوه على ذلك، فَيبغُوا له الغَوائِلَ، حَسَداً منهم له، ولهذا قال له: ﴿ لا تَقْصُصْ رؤياك على إخوتك فيكيدُوا لك كيداً ﴾، أي: يحتالوا لك حيلة يُرْدُونَك فيها. ولهذا ثبتت السنةُ عن رسول الله ـ ﷺ ـ أنه قال: «إذا رأى أحدُكم ما يحبُّ فلْيُحدِّث به، وإذا رَأى ما يكرَه فَلْيَتحوّل إلى جنبِهِ الآخر وَلْيتفُل عن يسارِهِ ثلاثاً، وَليستعِذْ بالله من شرِّها، ولا يُحدِّث بها أحداً، فإنها لن تضُرَّه»[4]. وفي الحديث الآخر الذي رواه الإمام أحمد وبعضُ أهل السنن، من رواية معاوية بن حيدَة القُشيريِّ أنه قال: قال رسولُ الله ـ ﷺ ـ: «الرؤيا على رجل طائرٌ ما لم تُعبَّر، فإذا عُبِّرَتْ وقَعَت»[5]. ومن هذا يؤخَذ الأمر

---

(١) في نسخة الأزهر: حرثان. ومثله في دلائل النبوة للبيهقي، على أن فيه أيضاً: حرثال، باللام، وكذلك تفسير القرطبي ٩/١٣١. وفي كشف الأستار ومجمع الزوائد: الحرتان. بالحاء والتاء. وفي تفسير الطبري ما أثبتناه غير مضبوط، واعتمدنا في الضبط على ما أثبته محقق تفسير سورة يوسف من تفسير القرآن العظيم لابن أبي حاتم، ولسان العرب.

(٢) كذا في النسخة. ومثله في دلائل النبوة للبيهقي، وتفسير القرطبي. وفي تفسير الطبري: ذو الكتفين. ومثله في تفسير ابن أبي حاتم، ونقل المحقق عن تحفة الراوي: «ذو الكتفين تثنية كتف، نجم كبير». فالله أعلم.

(٣) تفسير الطبري ١٢/١٥١، ودلائل النبوة للبيهقي ٦/٢٧٧، وكشف الأستار عن زوائد البزار ٣/٥٣، والمطالب العالية ٣/٣٤٤، ومجمع الزوائد ٧/٣٩، ومفحمات الأقران للسيوطي ١٢٠.

(٤) أخرجه مسلم في كتاب الرؤيا ٣/١٧٧٢ ـ ١٧٧٣، وأبو داود في كتاب الأدب ٤/٣٠٥، وابن ماجه في الرؤيا ٢/١٢٨٦، عن جابر بن عبد الله.

(٥) مسند الإمام أحمد ٤/١٠، وسنن أبي داود، كتاب الأدب ٤/٣٠٥، وابن ماجه، كتاب الرؤيا ٢/١٢٨٨، كل ذلك عن أبي رَزين.

بكتمان النعمةِ حتى توجَد وتظهَرَ، كما ورد في حديث: «استعينُوا على قَضاء الحوائج بكتمانها فإن كُلَّ ذِي نعمةٍ محسودٌ»[1].

﴿ وَكَذَٰلِكَ يَجْتَبِيكَ رَبُّكَ وَيُعَلِّمُكَ مِن تَأْوِيلِ الْأَحَادِيثِ وَيُتِمُّ نِعْمَتَهُ عَلَيْكَ وَعَلَىٰ آلِ يَعْقُوبَ كَمَا أَتَمَّهَا عَلَىٰ أَبَوَيْكَ مِن قَبْلُ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْحَاقَ ۚ إِنَّ رَبَّكَ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴿٦﴾ ﴾

يقولُ تعالَى مخبراً عن قول يعقوبَ لولده يوسف: إنه كما اختارك ربُّك، وأراك هذه الكواكبَ مع الشمس والقمر ساجدةً لك، ﴿كذلك يَجتبيك ربُّك﴾، أي: يختارُك ويَصطفيكَ لنبوَّته، ﴿ويُعلِّمك من تأويلِ الأحاديثِ﴾، قال مجاهد وغيرُ واحد: يعني تعبيرَ الرؤ يا. ﴿ويُتِمُّ نعمتَه عليك﴾، أي: بإرسالِك والإيحاءِ إليك، ولهذا قال: ﴿كما أتمَّها على أبَويك من قبل إبراهيم﴾، وهو الخليل، ﴿ وإسحاقَ ﴾ ولده، وهو الذبيح في قول، وليس بالرَّجيح، ﴿ إن ربَّك عليمٌ حكيمٌ ﴾، أي أعلمُ حيث يجعلُ رسالاته، كما قال في الآية الأخرى.

﴿ ۞ لَّقَدْ كَانَ فِي يُوسُفَ وَإِخْوَتِهِ آيَاتٌ لِّلسَّائِلِينَ ﴿٧﴾ إِذْ قَالُوا لَيُوسُفُ وَأَخُوهُ أَحَبُّ إِلَىٰ أَبِينَا مِنَّا وَنَحْنُ عُصْبَةٌ إِنَّ أَبَانَا لَفِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ ﴿٨﴾ اقْتُلُوا يُوسُفَ أَوِ اطْرَحُوهُ أَرْضًا يَخْلُ لَكُمْ وَجْهُ أَبِيكُمْ وَتَكُونُوا مِن بَعْدِهِ قَوْمًا صَالِحِينَ ﴿٩﴾ قَالَ قَائِلٌ مِّنْهُمْ لَا تَقْتُلُوا يُوسُفَ وَأَلْقُوهُ فِي غَيَابَتِ الْجُبِّ يَلْتَقِطْهُ بَعْضُ السَّيَّارَةِ إِن كُنتُمْ فَاعِلِينَ ﴿١٠﴾ ﴾

يقولُ تعالى: لقد كان في قِصةِ يُوسُفَ وَخبرِه مع إخوتِهِ آياتٌ، أي: عبرةٌ ومواعظُ للسائلين عن ذلك المُستَخبِرينَ عنه، فإنه خبرٌ عجيبٌ، يَستحقُّ أن يُستَخبَر عنه، ﴿ إذ قالوا لَيوسُفُ وأخوه أحبُّ إلى أبينا منّا ﴾، أي: حلَفوا فيما يَظنُّون: والله ليوسفُ وأخوه ـ يعنون بنيامينَ، وكان شقيقَه لأمّه ـ ﴿ أحبُّ إلى أبينا منّا ونحنُ عصبةٌ ﴾، أي: جماعةٌ، فكيفَ أحبَّ ذينِكَ الاثنينِ أكثرَ من الجَماعة؛ ﴿ إنَّ أبانا لفي ضلالٍ مُبينٍ ﴾، يعنونَ في تقديمهما علينا، ومَحبته إياهما أكثرَ منا.

واعلم أنه لم يقُم دليلٌ على نُبوَّة إخوة يوسفَ، وظاهرُ هذا السياق يدلُّ على خلاف ذلك، ومن الناس مَن يزعُم أنهم أُوحِيَ إليهم بعدَ ذلك. وفي هذا نظرٌ. ويحتاج مُدَّعي ذلك إلى دَليلٍ، ولم يذكروا سوى قوله تعالى: ﴿ قُولوا آمنا بالله وما أُنزِلَ إلينا وما أنزل إلى إبراهيمَ وإسماعيلَ وإسحقَ ويعقوبَ والأسباطِ ﴾، وهذا فيه احتمال، لأن بطونَ بني إسرائيلَ يقال لهم: الأسباطُ، كما يقال للعربِ: قبائلُ، وللعجَم: شعوبٌ؛ يذكر تعالى أنه أوحى إلى الأنبياء من أسباطِ بني إسرائيل، فذكرهم إجمالاً لأنهم كثيرون، ولكن كُلَّ سبطٍ من نسل رَجُل من إخوةِ يوسفَ، ولم يقم دليل على أعيان هؤلاء أنهم أُوحِي إليهم، والله أعلم.

﴿ اقتلوا يوسفَ او اطرحُوه أرضاً يخلُ لكم وجهُ أبيكم ﴾، يقولون: هذا الذي يُزاحِمُكم في مَحبَّة أبيكم لكم أَعدِمُوه من وجه أبيكم ليخلُوَ لكم وحدَكم، إما بأن تقتلُوه، أو تُلقُوه في أرضٍ من الأراضـي تَستريحُوا منه، وتَختلُوا أنتم بأبيكم، وتكونُوا من بعد إعدامِه قوماً صالِحينَ. فأضمروا التوبةَ قبلَ الذنب. ﴿ قال قائل منهم ﴾ - قال قتادة، ومحمد بن إسحاق: كان أكبَرَهم واسمه رُوبِيلَ. وقال السَّديُّ: الذي قال ذلك يَهُوذَا. وقال مجاهد:

---

(١) أخرجه السيوطي في الجامع الصغير ١٢٨/١ عن العقيلي في الضعفاء، وابن عوف في الكامل، والطبراني في الكبير، وأبي نعيم في الحلية، والبيهقي في شعب الإيمان.

هو شمعُون ـ ﴿لا تقتلوا يوسف﴾، أي: لا تَصِلُوا في عداوته وبُغضِه إلى قَتله، ولم يكُن لهم سبيلٌ إلى قتله، لأن الله تعالى كان يُريدُ منه أمراً لا بُدَّ من إمضائِهِ وإتمامِهِ، من الإيحاءِ إليه بالنبوَّةِ، ومن التمكين له ببلادِ مصرَ والحُكم بها، فَصَرفَهم الله عنه بمقالةِ رُوبِيلَ فيه وإشارته عليهم بأن يلقوه في غيابَةِ الجُبِّ، وهو أسفله ـ قال قتادة: وهي بئر بَيْتِ المقدس ـ ﴿يلتقطه بعضُ السيارة﴾، أي: المارَّةِ من المسافرين، فتستريحوا منه بهذا، ولا حاجَةَ إلى قَتْلِه. ﴿إن كنتُم فاعلين﴾، أي: إن كنتُم عازِمِينَ على ما تقولُون.

قال محمدُ بنُ إسحاقَ بن يَسَار: لقد اجتمعوا على أمرٍ عظيم، من قطيعةِ الرَّحِمِ، وعقُوقِ الوَالِدِ، وقِلَّةِ الرأفة بالصغير الضَّرَعِ[1] الذي لا ذَنْبَ له، وبالكبير الفاني ذِي الحقِّ والحُرمَةِ والفَضْلِ، وخَطَرُه عند الله، مع حق الوالد على وَلَدِه، ليفرقوا بينه وبين ابنه وحبيبه على كِبَر سِنِّه، ورِقَّةِ عَظْمِهِ، مع مكانه من الله، فيمن أحبَّه طفلاً صغيراً، وبين أبيه على ضَعفِ قُوَّته وصِغَرِ سِنِّه، وحاجتِهِ إلى لُطفِ والدِهِ وسُكونه إليه، يغفر الله لهم وهو أرحَمُ الراحمين، فقد احتمَلُوا أمراً عظيماً. رواه ابنُ أبي حاتمٍ من طريقِ سَلَمةَ بن الفضلِ، عنه[2].

﴿قَالُوا۟ يَـٰٓأَبَانَا مَا لَكَ لَا تَأْمَ۬نَّا عَلَىٰ يُوسُفَ وَإِنَّا لَهُۥ لَنَـٰصِحُونَ ﴿١١﴾ أَرْسِلْهُ مَعَنَا غَدًا يَرْتَعْ وَيَلْعَبْ وَإِنَّا لَهُۥ لَحَـٰفِظُونَ ﴿١٢﴾﴾

لما تواطئُوا على أخذه وطَرْحه في البئر ـ كما أشار عليهم أخوهُم الكبيرُ روبيلُ ـ جاءُوا أباهُم يعقوبَ ـ عليه السلام ـ فقالوا: ﴿يا أبانا ما لك لا تأمنَّا على يوسُفَ وإنا له لنَاصِحُونَ﴾. وهذه توطئةٌ وسَلَفٌ ودعوى، وهُم يُريدُون خلافَ ذلك، لما له في قُلوبهم من الحسد لحبِّ أبيه له، ﴿أرْسِله معنا﴾، أي: ابعَثه معنا، ﴿غداً نرْتَع ونَلعَبْ﴾ وقرأ بعضهم بالياء: ﴿يرتع ويلعب[3]﴾، قال ابن عباس: يسعى وينشط. وكذا قال قتادة، والضحاك والسدِّيُّ، وغيرهم. ﴿وإنا له لحافظون﴾، يقولون: ونحن نحفظُه ونحوطُه من أجلِكَ.

﴿قَالَ إِنِّى لَيَحْزُنُنِىٓ أَن تَذْهَبُوا۟ بِهِۦ وَأَخَافُ أَن يَأْكُلَهُ ٱلذِّئْبُ وَأَنتُمْ عَنْهُ غَـٰفِلُونَ ﴿١٣﴾ قَالُوا۟ لَئِنْ أَكَلَهُ ٱلذِّئْبُ وَنَحْنُ عُصْبَةٌ إِنَّآ إِذًا لَّخَـٰسِرُونَ ﴿١٤﴾﴾

يقولُ تعالى مخبراً عن نبيِّه يعقوبَ أنه قال لِبَنِيه في جَوابِ ما سألُوا من إرسالِ يوسفَ معهم إلى الرَّعي في الصَّحراءِ: ﴿إني ليحزُنني أن تذهبُوا به﴾، أي: يَشُقُّ عليَّ مفارقتُهُ مدَّة ذَهَابكم به إلى أن يرجِعَ، وذلك لفَرْطِ محبَّتِهِ له، لما يتوسَّمُ فيه من الخير العظيم، وشمائلِ النبوَّةِ والكمالِ في الخَلْق والخُلُق، صلواتُ الله وسلامُه عليه.

وقولُه: ﴿وأخاف أن يأكلَه الذئبُ وأنتم عنه غافلونَ﴾، يقول: وأخشى أن تشتَغِلُوا عنه برَمْيِكم ورَعيَّتِكم[4] فيأتيَه ذئبٌ فيأكُلَه وأنتم لا تشعُرونَ، فأخذُوا من فَمِه هذه الكلمةَ، وجعلوها عُذرَهم فيما فعلوه، وقالوا مُجيبين عنها في الساعةِ الراهنة: ﴿لئن أكله الذئبُ ونحنُ عصبةٌ إنا إذاً لخاسرونَ﴾، يقولون: لَئِن عدا عليه الذئبُ فأكَلَه من بيننا، ونحنُ جماعةٌ، إنَّا إذاً لهالِكُون عاجِزُونَ.

(١) الضَّرَعُ: الصغير السِّنِّ، والضعيف. (٢) انظر رواية الطبري ١٢/١٥٤.

(٣) قرأ بالنون ابن كثير وابن عامر وأبو عَمْرو، والباقون بالياء، انظر الإقناع لابن الباذش ٢/٦٦٩.

(٤) الرعيَّة: الماشية الراعية، والماشية المرعيَّة أيضاً.

﴿ فَلَمَّا ذَهَبُوا بِهِۦ وَأَجْمَعُوٓا أَن يَجْعَلُوهُ فِى غَيَٰبَتِ ٱلْجُبِّ ۚ وَأَوْحَيْنَآ إِلَيْهِ لَتُنَبِّئَنَّهُم بِأَمْرِهِمْ هَٰذَا وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ ﴿١٥﴾ ﴾

يقولُ تعالى: فلما ذَهَبت به إخوتُه من عند أبيه بعد مراجَعَتِهم له في ذلك، ﴿ وأجمَعُوا أن يجعلوه في غَيابة الجُبِّ ﴾، هذا فيه تعظيم لما فعلوه أنهم اتفقوا كلُّهم على إلقائه في أسفل ذلك الجبِّ، وقد أخذُوه من عند أبيه فيما يُظهرونه له إكراماً له، وبسطاً وشرحاً لصدره، وإدخالاً للسُّرُورِ عليه، فيقال: إنَّ يعقوب ـ عليه السلام ـ لما بعثه مَعَهم ضَمَّه إليه، وقَبَّله ودعا له.

قال السديّ وغيره: إنه لم يكن بين إكرامهم له وبين إظهار الأذى له إلاّ أن غابُوا عن عين أبيه وتوارَوا عنه، ثم شرَعوا يُؤذونه بالقولِ من شَتْمٍ ونحوه، والفعل من ضَرْبٍ ونحوه، ثم جاءوا به إلى ذلك الجبِّ الذي اتَّفقوا على رميه فيه فَرَبطُوه بحبل ودلُّوه فيه، فجعل إذا لجأ إلى واحدٍ منهم لَطَمه وَشَتَمه، وإذا تشبَّثَ بحافَاتِ البئر ضَرَبُوا على يديه، ثم قطعوا به الحبلَ من نصفِ المسافة، فسقط في الماء فَغَمره، فَصَعِد إلى صخرةٍ تكونُ في وسطه، يقال لها: الراغُوفةُ، فقام فوقَها.

قال الله تعالى: ﴿ وأوحينا إليه لَتُنَبِّئَنَّهم بأمرهم هذا وهم لا يشعرُون ﴾، يقولُ تعالى ذاكراً لُطفه ورحمَته وعائِدَته وإنزالَه اليُسر في حال العُسرِ: إنه أَوحى إلى يوسف في ذلك الحال الضيِّقِ، تطييباً لقلبه، وتثبيتاً له: إنك لا تحزَن مما أنت فيه، فإنَّ لك من ذلك فَرَجاً ومخرَجاً حَسناً، وسينصُرك الله عليهم، ويُعلِيك ويرفَعُ درجَتَك، وسَتُخبِرهم بما فعلُوا معك من هذا الصنيع.

وقولُه: ﴿ وهم لا يشعرون ﴾ قال قتادة: ﴿ وهم لا يشعُرون ﴾ بإيحاءِ الله إليه. وقال ابن عباس: سَتُنبئهم بصنيعهم هذا في حقك وهم لا يعرفونكَ ولا يستشعرُون بكَ، كما قال ابنُ جرير:

حدَّثني الحارث، حدثنا عبد العزيز، حدثنا صَدَقَة بن عُبادة الأَسَدِيّ، عن أبيه، سَمِعتُ ابنَ عباس يقول: لما دخلَ إخوةُ يوسفَ على يوسفَ فعرفهم وهم لهُ منكِرون، قال: جِيءَ بالصُّوَاعِ[1] فوضعه على يده، ثم نَقَره فَطَنَّ، فقال: إنه ليخبرني هذا الجام[1] أنه كان لكم أخٌ من أبيكم يقال له: يوسفُ، يُدنيه دونكم، وأنكم انطلقتُم به فألقيتُموه في غيابة الجب ـ قال: ثم نقره فَطَنّ ـ فأتيتم أباكم فقُلتم: إن الذئبَ أكَله، وجِئتم على قميصه بدم كَذِب ـ قال: فقال بعضُهم لبعض: إن هذا الجامَ لَيُخبره بخبركم. قال ابنُ عباس ـ رضي الله عنهما ـ: لا نرى هذه الآية نَزَلت إلا فيهم: ﴿ لَتُنبِّئَنَّهم بأمرهم هذا وهم لا يشعرون ﴾[2].

﴿ وَجَآءُوٓ أَبَاهُمْ عِشَآءً يَبْكُونَ ﴿١٦﴾ قَالُوا يَٰٓأَبَانَآ إِنَّا ذَهَبْنَا نَسْتَبِقُ وَتَرَكْنَا يُوسُفَ عِندَ مَتَٰعِنَا فَأَكَلَهُ ٱلذِّئْبُ ۖ وَمَآ أَنتَ بِمُؤْمِنٍ لَّنَا وَلَوْ كُنَّا صَٰدِقِينَ ﴿١٧﴾ وَجَآءُو عَلَىٰ قَمِيصِهِۦ بِدَمٍ كَذِبٍ ۚ قَالَ بَلْ سَوَّلَتْ لَكُمْ أَنفُسُكُمْ أَمْرًا ۖ فَصَبْرٌ جَمِيلٌ ۖ وَٱللَّهُ ٱلْمُسْتَعَانُ عَلَىٰ مَا تَصِفُونَ ﴿١٨﴾ ﴾

يقولُ تعالى مخبراً عن الذي اعتَمَده إخوَة يوسفَ بعد ما ألقوه في غَيابة الجُبّ: أنهم رَجَعُوا إلى أبيهم في ظُلمة الليل يبكُون، ويُظهِرُون الأسفَ والجزعَ على يوسفَ ويتغمَّمُون لأبيهم، وقالوا مُعتذِرين عما وَقَع فيما زعَمُوا: ﴿ إنا ذَهَبنا نستبِقُ ﴾، أي: نترامى، ﴿ وتركنا يوسفَ عند متاعنا ﴾، أي: ثيابنا وأمتِعَتِنا، ﴿ فأكَله الذئبُ ﴾، وهو الذي كان جزِعَ منه، وحَذِر عليه.

---

(١) الصُّوَاع: الصاع بمعنى المكيال، أو الإناء يُشرَبُ به. والجام: إناءٌ للشرب والطعام من فضة أو نحوه، وهي مؤنثة.

(٢) تفسير الطبري ١٢/١٦٢.

وقولهم: ﴿ وما أنت بمُؤمن لنا ولو كُنَّا صادقين ﴾، تَلَطُّفٌ عظِيم في تقرير ما يُحَاولونه، يقولُون: ونحنُ نعلم أنك لا تُصدِّقنا ـ والحالةُ هذه ـ لو كنا عندك صَادِقين، فكيفَ وأنت تَتَّهِمُنا في ذلك، لأنك خَشِيت أن يأكُلَه الذئبُ، فأكله الذئبُ، فأنت معذورٌ في تكذيبك لنا، لغرابة ما وَقَع، وعَجِيبِ ما اتَّفق لنا في أمرِنا هذا.

﴿ وجاءُوا على قميصِهِ بدَمٍ كَذِبٍ ﴾، أي: مكذُوبٍ مُفترىً. وهذا من الأفعال التي يُؤَكِّـدونَ بها ما تمالأوا عليه من المكيدة، وهو أنهم عَمَدوا إلى سَخْلة[1] ـ فيما ذكره مجاهدٌ، والسديُّ، وغيرُ واحد ـ فذَبحوها، ولَطَّخُوا ثوبَ يوسفَ بدمها، موهمين أن هذا قميصُه الذي أكلَه فيه الذئبُ، وقد أصابه من دَمِهِ، ولكنهم نَسُوا أن يخرقوه، فلهذا لم يَرُج هذا الصنيعُ على نبيِّ الله يعقوب، بل قال لهم مُعرِضاً عن كلامهم إلى ما وَقَع في نفسه من تمالُئِهم عليه: ﴿ بل سَوَّلت لكم أنفسُكم أمراً فصبرٌ جميلٌ ﴾، أي: فسأصبِرُ صبراً جميلاً على هذا الأمر الذي قد اتفقتُم عليه، حتى يُفَرِّجه الله بِعَونه ولُطفِهِ، ﴿ والله المستعانُ على ما تَصِفُون ﴾، أي: على ما تذكُرون من الكَذِب والمُحَال.

وقال الثوريّ، عن سِمَاكٍ، عن سعيد بن جُبَير، عن ابن عباس: ﴿ وجاءوا على قَميصه بدم كَذِبٍ ﴾، قال: لو أكله السبعُ لخرق القميصَ. وكذا قال الشعبيُّ، والحسنُ، وقتادةُ، وغيرُ واحد.

وقال مجاهدٌ: الصبر الجميلُ: الذي لا جَزَع فيه.

ورَوَى هُشَيم، عن عبد الرحمن بن يحيى، عن حِبَّان بن أبي جَبَلة قال: سُئِل رسولُ الله ـ ﷺ ـ عن قوله: ﴿ فصبرٌ جميلٌ ﴾، فقال: صبرٌ لا شكوى فيه. وهذا مرسل[2].

وقال عبدُ الرزَّاق: قال الثوريُّ عن بعضِ أصحابِه أنه قال: ثلاثٌ من الصبر: ألَّا تحدث بِوَجعِكَ، ولا بِمُصيبَتِكَ، ولا تُزَكِّي نفسَكَ[2].

وذكر البخاريُّ هاهنا حديثَ عائشةَ ـ رضي الله عنها ـ في الإفكِ حَتَّى ذكر قولها: والله لا أجدُ لي ولكم مثلاً إلا أبا يوسفَ، ﴿ فصبرٌ جميلٌ والله المستعانُ على ما تصفون ﴾[3].

﴿ وَجَآءَتْ سَيَّارَةٌ فَأَرْسَلُوا۟ وَارِدَهُمْ فَأَدْلَىٰ دَلْوَهُۥ ۖ قَالَ يَـٰبُشْرَىٰ هَـٰذَا غُلَـٰمٌ ۚ وَأَسَرُّوهُ بِضَـٰعَةً ۚ وَٱللَّهُ عَلِيمٌۢ بِمَا يَعْمَلُونَ ﴿١٩﴾ وَشَرَوْهُ بِثَمَنٍۭ بَخْسٍ دَرَٰهِمَ مَعْدُودَةٍ وَكَانُوا۟ فِيهِ مِنَ ٱلزَّٰهِدِينَ ﴿٢٠﴾ ﴾

يقولُ تعالى مخبراً عما جَرى ليوسفَ ـ عليه السلام ـ حين ألقاه إخوتُه، وتركُوه في ذلك الجبِّ فَرِيداً وَحِيداً، فمكَثَ في البئر ثلاثةَ أيام، فيما قاله أبو بكر بنُ عيَّاش.

وقال محمدُ بن إسحاق: لما ألقاه إخوتُه جَلَسُوا حولَ البئر يومَهُم ذلك ينظُرون ما يصنَعُ وما يُصنَعُ به، فساق الله له سَيَّارةً، فنزَلُوا قريباً من تلك البئر، وأرسلوا وَارِدَهم ـ وهو الذي يتَطَلَّب لهم الماء ـ فلما جاء تلك البئر، وأدلى دلْوَه فيها، تَشَبَّثَ يوسف ـ عليه السلام ـ فيها، فأخرجه واستبشرَ به، وقال: ﴿ يا بُشرى هذا غلامٌ ﴾.

وقرأ بعضُ القراء[4]: ﴿يا بُشْرَى﴾، فزعم السدّي أنه اسمُ رجل ناداه ذلك الرجلُ الذي أدلَى دلوه، معلماً

(١) السخلة: الذكر والأنثى من ولد الضأن.
(٢) أخرجه الطبري في تفسيره ١٢/١٦٦.
(٣) فتح الباري، تفسير سورة يوسف ٨/٣٦٢ ـ ٣٦٣.
(٤) هي قراءة الكوفيين. وقرأ باقي السبعة بألف بعد الراء وياءٍ مفتوحة، على الإضافة. انظر الإقناع لابن الباذش ٢/٦٧٠.

له أنه أصاب غلاماً. وهذا القول من السدّي غريبٌ، لأنه لم يُسبَق إلى تفسير هذه القراءة بهذا إلا في رواية عن ابن عباس، والله أعلم. وإنما معنى القراءة على هذا النحو يرجع إلى القراءة الأخرى، ويكون قد أضاف البشرى إلى نفسِه، وحَذَف ياء الإضافة وهو يريدها، كما تقول العرب: «يا نفسُ اصبري»، و «يا غلامُ أقبل»، بحذف حرفِ الإضافةِ، ويجوزُ الكسرُ حينئذ والرفعُ، وهذا منه، وتُفَسِّرُها القراءة الأخرى ﴿ يا بُشْرَيَّ ﴾[1]، والله أعلم.

وقولُه: ﴿ وأسرُّوه بضاعةً ﴾، أي: وأسره الوارِدُون من بَقيَّة السَّيَّارة، وقالوا: اشتريناه وَتَبَضَّعناه من أصحابِ الماء مخافةَ أن يُشارِكُوهم فيه إذا عَلِمُوا خَبَره. قاله مجاهد، والسديّ، وابنُ جرير. هذا قول.

وقال العَوفيُّ، عن ابن عباس قوله: ﴿ وأسرُّوه بضاعة ﴾، يعني إخوةَ يوسف، أَسرُّوا شأنه، وكَتَموا أن يكون أخاهم، وكَتَم يوسفُ شأنَه مخافةَ أن يقتُلَه إخوتُه، واختارَ البيعَ. فَذَكره إخوتُه لوارِدِ القَومِ، فنادى أصحابَه: ﴿ يا بشرى هذا غلام ﴾ يُبَاع، فباعَه إخوتُه.

وقولُه: ﴿ والله عليمٌ بما يعملون ﴾، أي: يعلَم ما يفعله إخوةُ يوسفَ ومُشتَرُوه، وهو قادرٌ على تغيير ذلك ودَفعه، ولكن له حكمةٌ وقَدَرٌ سابقٌ، فَتَركَ ذلك ليمضِي ما قَدَّره وقَضَاه، ألا له الخلقُ والأمرُ، تَبارك اللهُ ربُّ العالمين.

وفي هذا تعريضٌ لرسوله محمد ـ ﷺ ـ وإعلامٌ له بأني عالمٌ بأذَى قومِكَ، وأنا قادرٌ على الإنكار عليهم، ولكن سأملي لهم، ثم أجعلُ لك العاقبةَ والحُكم عليهم، كما جَعَلتُ ليوسفَ الحُكمَ والعاقبةَ على إخوته.

وقولُه: ﴿ وَشَروه بِثَمَنٍ بخسٍ دَرَاهِمَ مَعدودةٍ ﴾، يقولُ تعالى: وباعَه إخوتُه بثمنٍ قليلٍ، قاله مجاهدٌ وعكرمةُ.

والبخسُ: هو النقصُ، كما قال تعالى: ﴿ فلا يَخافُ بخساً ولا رَهقاً ﴾، أي: اعتاضَ عنه إخوتُه بِثَمنٍ دُونٍ قليلٍ، وكانوا مع ذلك فيه من الزاهِدِينَ، أي: ليس لهم رغبةٌ فيه، بل لو سألوه بلا شيءٍ لأجابوا.

قال ابنُ عباس، ومجاهدٌ، والضحَّاكُ: إن الضمير في قوله: ﴿ وشروه ﴾ عائد على إخوةِ يوسفَ. وقال قتادةُ: بل هو عائد على السيارة.

والأول أقوى، لأن قوله: ﴿ وكانوا فيه من الزاهدين ﴾، إنما أراد إخوتَه، لا أولئك السيارة، لأن السَّيَّارةَ استبشروا به وأسرُّوه بضاعةً، ولو كانوا فيه زاهِدين لما اشتَرَوه، فَتَرجَّح من هذا أنَّ الضمير في ﴿ وشَرَوه ﴾ إنما هو لإخوته.

وقيل: المرادُ بقوله: ﴿ بَخْسٍ ﴾ الحرامُ. وقيل: الظُّلم. وهذا وإن كان كذلك، لكن ليس هو المراد هنا، لأن هذا معلومٌ يعرفه كلُّ أحد أنَّ ثَمنه حرام على كل حال، وعلى كلِّ أحد، لأنه نبيٌّ ابنُ نبيٍّ، ابنِ نبيٍّ، ابنِ خَليلِ الرَّحمن، فهو الكريمُ، ابنُ الكريم، ابنِ الكريم، ابنِ الكريم. وإنما المراد هنا بالبَخسِ الناقصُ أو الزيوفُ أو كلاهما، أي: إنهم إخوته، وقد باعُوه ومع هذا بأنقصِ الأثمانِ، ولهذا قال: ﴿ دراهِمَ معدودةٍ ﴾، فعن ابنِ مسعود باعوه بعشرينَ درهماً. وكذا قال ابنُ عباس، ونوفُ البَكاليُّ، والسدِّيُّ، وقتادةُ، وعطيةُ العَوفي وزاد: اقتسَمُوها درهمَين درهمين. وقال مجاهد: اثنان وعشرون درهماً. وقال محمد بن إسحاق وعكرمة: أربعون درهماً.

---

(١) انظر تفسير الطبري ١٢/١٦٧ ـ ١٦٨، والمحتسب لابن جني ١/٣٣٦.

وقال الضحاك في قوله: ﴿ وكانوا فيه من الزَّاهدين ﴾، وذلك أنهم لم يعلَموا نُبوَّته ومنزلته عند الله عز وجل.

وقال مجاهد: لما باعُوه جعَلُوا يتبعُونَهم ويقولُون لهم: استوثِقوا منه لا يأبقُ حتَّى وَقَفُوه بمصرَ، فقال: من يَبْتَاعُنِي وَلْيَبْشَرْ(١)؟ فاشتراه الملك، وكان مسلماً.

﴿ وَقَالَ ٱلَّذِى ٱشْتَرَىٰهُ مِن مِّصْرَ لِٱمْرَأَتِهِۦٓ أَكْرِمِى مَثْوَىٰهُ عَسَىٰٓ أَن يَنفَعَنَآ أَوْ نَتَّخِذَهُۥ وَلَدًا ۚ وَكَذَٰلِكَ مَكَّنَّا لِيُوسُفَ فِى ٱلْأَرْضِ وَلِنُعَلِّمَهُۥ مِن تَأْوِيلِ ٱلْأَحَادِيثِ ۚ وَٱللَّهُ غَالِبٌ عَلَىٰٓ أَمْرِهِۦ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٢١﴾ وَلَمَّا بَلَغَ أَشُدَّهُۥٓ ءَاتَيْنَٰهُ حُكْمًا وَعِلْمًا ۚ وَكَذَٰلِكَ نَجْزِى ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿٢٢﴾ ﴾

يخبرُ تعالى بألطافه بيوسف ـ عليه السلام ـ أنه قَيَّض له الذي اشتراه من مصرَ، حتى اعتنَى به وأكرمَه، وأوصَى أهلَه به، وتوسَّم فيه الخير والفلاح، فقال لامرأته: ﴿ أكرمي مَثْواه عَسَى أن ينفَعَنا أو نَتَّخِذَه ولداً ﴾، وكان الذي اشتراه من مصر عزيزَها، وهو الوزير بها. قال العَوْفِيُّ، عن ابن عباس: وكان اسمه قطفير(٢).

وقال محمدُ بن إسحاقَ: اسمه إطفير بن روحيب، وهو العزيزُ، وكان على خزائن مصرَ، وكان الملكُ يومئذٍ الريَّانَ بن الوليد، رجلٌ من العَمَاليق(٣). قال: واسمُ امرأتِه راعيلُ بنت رَعَائيل(٣). وقال غيره: اسمها زليخا.

وقال محمدُ بن إسحاق أيضاً، عن محمد بن السائب، عن أبي صالح، عن ابن عباسٍ: كان الذي باعه بمصر مالكُ بـن ذُعْرِ بن بُوَيب بن عَيْفا بن مِدْيَان بن إبراهيم(٤)، فالله أعلم.

وقال أبو إسحاق، عن أبي عُبَيْدَةَ، عن عبد الله بـن مسعودٍ أنه قال: أفرسُ الناسِ ثلاثةٌ: عَزِيز مصرَ حين قال لامرأته: ﴿ أكرِمي مثواه ﴾، والمرأة التي قالت لأبيها: ﴿ يا أبت استأجِرْه إن خير من استأجرتَ القويُّ الأمينُ ﴾، وأبو بكر الصدّيق حين استخلف عمر بن الخطاب رضي الله عنهما(٥).

يقولُ تعالى: وكما أنقذْنا يوسفَ من إخوته، ﴿ كذلك مَكَّنا ليوسفَ في الأرضِ ﴾، يعني بلادَ مِصْرَ، ﴿ وَلنعلِّمه من تأويل الأحاديث ﴾، قال مجاهدٌ والسديُّ: هو تعبير الرؤيا، ﴿ والله غالبٌ على أمرِهِ ﴾، أي: إذا أراد شيئاً فلا يُرَدُّ ولا يُمانَعُ ولا يُخالَفُ، بل هو الغالبُ لما سواه.

قال سعيدُ بن جُبَير في قوله: ﴿ والله غالبٌ على أمره ﴾، أي: فَعَّال لما يشاء.

وقولُه: ﴿ ولكنَّ أكثرَ الناسِ لا يعلَمُون ﴾، يقول: لا يَدرُون حِكْمَته في خلقه، وتَلَطُّفَه لما يريد.

وقولُه: ﴿ ولما بَلَغ ﴾، أي: يوسفُ ـ عليه السلام ـ ﴿أَشُدَّه﴾، أي: استكمَل عقلَه وتم خَلْقَه، ﴿ آتيناه حُكماً وعلماً ﴾ يعني النبوةَ، إنه حباه بها بين أولئكَ الأقوامِ، ﴿ وكذلك نجزي المُحسِنينَ ﴾، أي، إنَّه كان محسناً في عَمَلِه، عاملاً بطاعةِ ربِّه تعالى.

(١) أي: وَلْيُسَرَّ وَلْيَسْتَبْشِر.
(٢) تفسير الطبري ١٢/١٧٤ ـ ١٧٥. ومفحمات الأقران للسيوطي ١٢٢.
(٣) كذا نسبه إلى ابن إسحاق، وهو في تفسير الطبري منسوباً إلى ابن عباس، انظر ١٢/١٧٤ ـ ١٧٥.
(٤) انظر المؤتلف والمختلف للدارقطني ١/٢٤١.
(٥) أخرجه ابن أبي حاتم في تفسيره، والطبري ١٢/١٧٦.

وقد اختُلفَ في مقدار المدّةِ التي بَلَغ فيها أشدَّه، فقال ابن عباس ومجاهد وقتادة: ثلاثٌ وثلاثُون: وعن ابن عباس: بضعٌ وثلاثون. وقال الضحَّاكُ: عشرونَ. وقال الحسنُ: أربعونَ سنةً. وقال عكرمةُ: خمسٌ وعشرون سنةً. وقال السُديُّ: ثلاثون سنة. وقال سعيد بن جُبَير: ثماني عشرةَ سنةً. وقال الإمامُ مالك، وربيعة، وزيدُ بن أسلَمَ، والشعبيُّ: الأشدُّ الحُلُم، وقيل: غير ذلك، والله أعلم.

﴿وَرَٰوَدَتۡهُ ٱلَّتِي هُوَ فِي بَيۡتِهَا عَن نَّفۡسِهِۦ وَغَلَّقَتِ ٱلۡأَبۡوَٰبَ وَقَالَتۡ هَيۡتَ لَكَۚ قَالَ مَعَاذَ ٱللَّهِۖ إِنَّهُۥ رَبِّيٓ أَحۡسَنَ مَثۡوَايَۖ إِنَّهُۥ لَا يُفۡلِحُ ٱلظَّٰلِمُونَ ۝٢٣﴾

يخبر تعالى عن امرأةِ العزيزِ التي كان يوسُفُ في بيتها بمصرَ، وقد أوصاها زوجُها به وبإكرامِهِ: ﴿ وَرَاوَدَتْه التي هوَ في بيتها عن نفسه ﴾، أي: حاولته على نفسه، ودَعته إليها، وذلك أنها أحبَّته حُبّاً شديداً لجَماله وحُسنِهِ وبهائِهِ، فَحملها ذلك على أن تَجمَّلت له، وغلَّقت عليه الأبوابَ، ودَعته إلى نفسها، ﴿ وقالت هيتَ لكَ ﴾، فامتنعَ من ذلك أشدَّ الامتناع، و﴿ قال معاذَ الله إنَّه ربِّي ﴾ وكانوا يُطلِقُون «الربَّ» على السيِّد والكبير، أي: إنَّ بَعْلَكِ رَبِّي أحسنَ مَثواي، أي: مَنْزلي وأحسَن إليّ، فلا أقابله بالفاحشة في أهله، ﴿ إنه لا يُفلِحُ الظالمون ﴾، قال ذلك مجاهد، والسديُّ، ومحمد بن إسحاقَ، وغيرهم.

وقد اختلف القراءُ في قراءة: ﴿ هيتَ لك ﴾، فقرأه كثيرون بفتح الهاء، وإسكان الياء، وفتح التاء. وقال ابن عباس، ومجاهدٌ، وغيرُ واحد: معناه أنها تدعُوه إلى نَفْسِها. وقال عليّ بن أبي طلحة، والعوفيُّ، عن ابن عباسٍ: ﴿ هَيت ﴾ لك، تقول: هَلُمَّ لك. وكذا قال زِرّ بن حُبَيش، وعكرمة، والحسن، وقتادة.

قال عمرو بن عُبَيد، عن الحسن: وهي كلمة بالسريانية، أي: عَلَيك. وقال السدي: ﴿ هَيت لك ﴾، أي: هَلُمَّ لك، وهي بالقبطية. وقال مجاهد: هي لغة عَرَبيَّة تدعُوه بها. وقال البخاريُّ: وقال عكرمةُ: ﴿ هيتَ لك ﴾: هَلُمَّ لك بالحَوْرانية[1]. هكذا ذكره مُعلَّقاً، وقد أسنده الإمام أبو جعفر بن جرير:

حدثني أحمدُ بن سُهَيل الواسطيُّ، حَدَّثنا قُرَّةُ بن عيسى، حدثنا النضرُ بن عَرَبيٍّ الجَزَريُّ، عن عِكْرِمة مولى ابنِ عباسٍ في قولِهِ: ﴿ هَيْتَ لك ﴾، قال: هَلُمَّ لك، قال: هي بالحَوْرَانيَّة[2].

وقال أبو عُبَيدٍ القاسمُ بن سَلّام: وكان الكسائيُّ يحكي هذه القراءةَ - يعني هَيتَ لك - ويقول: هي لغةٌ لأهل حَوْرَانٍ، وقعت إلى أهلِ الحجازِ، معناها تَعالَ. وقال أبو عُبَيدٍ: سألتُ شيخاً عالماً من أهل حوران، فذكر أنها لغتُهم يَعرِفُها.

واستشهد الإمامُ ابنُ جَريرٍ على هذه القراءة بقول الشاعرِ لعلي بن أبي طالب رضي الله عنه[2].

أَبلِغْ أَميرَ المؤمِنِينَ أَخا العِرَاقِ إِذَا أَتيتَنا
إِنَّ العِرَاقَ وَأَهْلَهُ عُنُقٌ إِلَيكَ فَهَيْتَ هَيْتَا

يقول: فتعالَ واقترب.

(١) فتح الباري، تفسير سورة يوسف ٨/٣٦٣.
(٢) تفسير الطبري ١٢/١٧٩.

وقرأ(١) ذلك آخرون: ﴿ هِئْتُ لَكَ ﴾، بكسرِ الهاءِ والهمزةِ، وضَمِّ التاء، بمعنى تهيَّأتُ لك، من قول القائل: هئتُ للأمر أهِيءُ هيْئَة. وممن رُوِي عنه هذه القراءة ابنُ عباس، وأبو عبد الرحمن السُّلَمِيُّ، وأبو وائل، وعكرمةُ، وقتادةُ، وكلُّهم يفسرها بمعنى: تهيأتُ لك.

قال ابنُ جرير: وكان أبو عَمرو والكسائيُّ ينكرانِ هذه القراءة.

وقرأ عبدُ الله بن إسحاق: ﴿ هَيتِ ﴾، بفتح الهاء وكسر التاء، وهي غريبةٌ.

وقرأ آخرونَ، منهم عامَّةُ أهلِ المدينة ﴿ هِيْتَ ﴾ [بكسر الهاء، وتسكين الياء، وفتح التاء. وقرأ بعض المكيِّين (٢) ﴿هَيْتُ﴾] بفتح الهاء، وضَمِّ التاءِ(٣). وأنشدَ قولَ الشاعر:

لَيسَ قَومِي بالأبْعَدِينَ إذَا مَا قَالَ دَاعٍ مِنَ العَشِيرَةِ: هَيتُ

قال عبد الرزاق: أنبأنا الثوريُّ، عن الأعمش، عنِ أبي وائل قال: قال ابنُ مسعودٍ: قد سَمِعتُ القَرَأَةَ فسمعتُهم مُتقاربين، فاقرءُوا كما عُلِّمتم، وإياكُم والتنطُّعَ والاختلافَ، فإنما هو كقولِ أحدِكم: «هَلُمَّ» و«تعالَ». ثم قرأ عبدُ الله: ﴿ هَيتَ لك ﴾، فقال: يا أبا عبدِ الرحمنِ، إنَّ ناساً يقرءُونها: ﴿ هِيتُ ﴾؟ فقال عبد الله: «إنِّي أقرأها كما عُلِّمت، أحبّ إليّ(٤)».

وقال ابنُ جرير: حدثني ابنُ وكيع، حدثنا ابن عُيَينة، عن منصور، عن أبي وائل قال: قال عبد الله: ﴿ هيتَ لك ﴾، فقال له مسروقٌ: إن ناساً يقرءونها ﴿ هِيتُ لك ﴾؟ فقال: دعُوني، فإني أقرأ كما أُقرِئتُ، أحبُّ إليَّ.

وقال أيضاً: حدثني المثنى، حدثنا آدم بن أبي إياس، حدثنا شعبةُ، عن شقيقٍ، عن ابن مسعود قال: ﴿ هَيْتَ لَكَ ﴾ بنصب الهاء والتاء، ولا يُهمَزُ.

وقال آخرون: ﴿ هِيتُ لك ﴾، بكسر الهاء، وإسكان الياء، وضَمِّ التاء.

قال أبو عُبَيدة معمرُ بنُ المثنى: «هيتَ» لا تثنى ولا تجمع ولا تؤنث، بل يخاطب الجميع بلفظ واحدٍ، فيقال: هيتَ لكَ، وهيتَ لكِ، وهيتَ لكما، وهيتَ لكم، وهيتَ لكنَّ(٥).

﴿ وَلَقَدْ هَمَّتْ بِهِۦ وَهَمَّ بِهَا لَوْلَآ أَن رَّءَا بُرْهَٰنَ رَبِّهِۦ كَذَٰلِكَ لِنَصْرِفَ عَنْهُ ٱلسُّوٓءَ وَٱلْفَحْشَآءَ إِنَّهُۥ مِنْ عِبَادِنَا ٱلْمُخْلَصِينَ ﴿٢٤﴾ ﴾

اختلفت أقوالُ الناس وعباراتُهم في هذا المقامِ، وقد رُوِيَ عن ابنِ عباسٍ، ومُجاهدٍ، وَسعيد بن جُبَير، وطائفةٍ من السَّلَفِ في ذلك ما ذَكره ابنُ جرير وغيره، والله أعلم.

وقال بعضُهم: المراد بهمِّه بها هَمُّ خَطَراتٍ، حديث النفس. حكاه البَغَوِيُّ(٦) عن بعض أهل التحقيق،

(١) هذه قراءة هشام. انظر الإقناع ٢/٦٧٠.
(٢) ما بين القوسين عن تفسير الطبري ١٢/١٨١.
(٣) هذه قراءة ابن كثير. انظر الإقناع ٢/٦٧٠.
(٤) تفسير الطبري ١٢/١٨١، وقد أخرجه البخاري بإسناده إلى الأعمش. انظر الفتح الباري، تفسير سورة يوسف ٨/٣٦٣.
(٥) تفسير الطبري ١٢/١٨٢.
(٦) تفسير البغوي ٢/٤١٩ ـ ٤٢٠.

ثم أورد البَغَوِيُّ هاهنا حديثَ عبد الرزَّاقِ، عن معمَرٍ، ، عن همَّام ، عن أبي هُرَيرة ـ رضي الله عنه ـ قال: قال رسولُ الله ـ ﷺ ـ: «يقولُ الله تعالى: إذا هَمّ عبدي بحسنةٍ فاكتبُوها له حسنةً، فإن عَمِلها فاكتبُوها له بعشرِ أمثالها، وإن هَمَّ بسيِّئةٍ فلم يعمَلها فاكتبوها حسنةً، فإنما تركَها من جَرَّائي، فإن عَمِلها فاكتُبوها بمثلها». وهذا الحديث مُخَرَّجٌ في الصَّحِيحَين، وله ألفاظٌ كثيرةٌ هذا منها[1].

وقيل: هَمَّ بضربها. وقيل: تمَنَّاها زوجةً. وقيلَ: ﴿ هَمَّ بها لولا أن رَأَى بُرهانَ رَبِّهِ ﴾، أي: فَلَم يَهُمَّ بها. وفي هذا القول نَظَرٌ[2] من حيثُ العربيَّةِ، ذَكرهُ ابنُ جرير وغيرُه.

وأما البُرهان الذي رآه ففيه أقوالٌ أيضاً؛ فعَن ابنِ عباس، ومجاهدٍ، وسعيد بن جُبَير، ومحمد بن سيرينَ، والحَسَنِ، وقتادةَ، وأبي صالح ، والضحَّاكِ، ومحمدِ بن إسحاقَ، وغيرهم: رَأى صُورَةَ أبيه يعقوبَ ـ عليه السلام ـ عاضّاً على إصبعه بِفَمه. وقيل عنه[3] في رواية: فضرب في صدرِ يوسف.

وقال العوفيُّ، عن ابن عباس: رأى خيالَ المَلِك ـ يعني سَيِّده ـ وكذا قال محمد بن إسحاق، فيما حكاه عن بعضهم: إنما هو خيال إطفير سَيِّده حين دنا من الباب.

وقال ابنُ جرير: حدثنا أبو كُرَيب، حدثنا وكيع، عن أبي مودود، سَمِعت من محمد بن كعب القُرَظِيِّ قال: رفع يوسف رأسه إلى سقف البيت، فإذا كتاب في حائط البيت: ﴿ لا تقربوا الزنا إنه كان فاحشة ومقتاً وساء سبيلاً ﴾.

وكذا رواه أبو معشر المدنيُّ، عن محمد بْن كعب.

وقال عبد الله بن وَهب، أخبرني نافعُ بن يزيدَ، عن أبي صخر قال: سَمِعت القُرَظِيَّ يقولُ في البرهان الذي رأى يوسفُ: ثلاث آيات من كتاب الله: ﴿ إنَّ عليكم لحافظين ﴾... الآية، وقولِه: ﴿ وما تكون في شأن ﴾... الآية، وقولِه: ﴿ أفمن هُو قائمٌ على كُلِّ نفسٍ بما كَسَبت ﴾، قال نافعٌ: سَمِعتُ أبا هلالٍ يقولُ مثل قول القُرَظِيِّ، وزاد آيةً رابعةً ﴿ ولا تقربُوا الزنا ﴾.

وقال الأوزاعيُّ: رأى آيةً من كتابِ الله في الجِدَارِ تنهَاه عن ذلك.

قال ابنُ جرير: والصوابُ أن يُقَال: إنَّه رأى من آياتِ الله ما زَجَره عما كانَ هَمَّ به، وجائزٌ أن يكونَ صورة يعقوبَ، وجائز أن يكون صورةَ المَلَكِ، وجائز أن يكون ما رآه مكتوباً من الزجر عن ذلك. ولا حُجَّة قاطعةً على تعيين شيءٍ من ذلك، فالصوابُ أن يُطلَقَ كما قال الله تعالى.

قال: وقولُه: ﴿ كذلكَ لِنَصرِفَ عنه السوءَ والفحشاءَ ﴾، أي: كما أريناه بُرهاناً صَرَفه عما كان فيه، كذلك نَقِيه السوءَ والفحشاءَ في جميعِ أموره[4].

﴿ إنه من عبادنا المخلَصين ﴾، أي: المُجتبين المُطَهَّرين المختارين المصطَفين الأخيار، صلواتُ الله وسلامُه عليه.

---

(١) فتح الباري، كتاب التوحيد ٤٦٥/١٣، ومسلم، كتاب الإيمان ١١٧/١.
(٢) انظر تفسير الطبري ١٨٥/١٢.
(٣) أي: عن ابن عباس. انظر تفسير الطبري ١٨٧/١٢.
(٤) تفسير الطبري ١٩١/١٢.

﴿ وَٱسۡتَبَقَا ٱلۡبَابَ وَقَدَّتۡ قَمِيصَهُۥ مِن دُبُرٖ وَأَلۡفَيَا سَيِّدَهَا لَدَا ٱلۡبَابِۚ قَالَتۡ مَا جَزَآءُ مَنۡ أَرَادَ بِأَهۡلِكَ سُوٓءًا إِلَّآ أَن يُسۡجَنَ أَوۡ عَذَابٌ أَلِيمٞ ﴿٢٥﴾ قَالَ هِيَ رَٰوَدَتۡنِي عَن نَّفۡسِيۚ وَشَهِدَ شَاهِدٞ مِّنۡ أَهۡلِهَآ إِن كَانَ قَمِيصُهُۥ قُدَّ مِن قُبُلٖ فَصَدَقَتۡ وَهُوَ مِنَ ٱلۡكَٰذِبِينَ ﴿٢٦﴾ وَإِن كَانَ قَمِيصُهُۥ قُدَّ مِن دُبُرٖ فَكَذَبَتۡ وَهُوَ مِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ ﴿٢٧﴾ فَلَمَّا رَءَا قَمِيصَهُۥ قُدَّ مِن دُبُرٖ قَالَ إِنَّهُۥ مِن كَيۡدِكُنَّۖ إِنَّ كَيۡدَكُنَّ عَظِيمٞ ﴿٢٨﴾ يُوسُفُ أَعۡرِضۡ عَنۡ هَٰذَاۚ وَٱسۡتَغۡفِرِي لِذَنۢبِكِۖ إِنَّكِ كُنتِ مِنَ ٱلۡخَاطِـِٔينَ ﴿٢٩﴾ ﴾

يُخبر تعالى عن حالهما حين خرَجا يستبقان إلى الباب، يوسفُ هاربٌ، والمرأة تطلُبه ليرجعَ إلى البيت، فَلَحِقته في أثناء ذلك، فأمسكت بقميصه من ورائه فَقَدَّته قداً فظيعاً، يقال: إنه سَقَط عنه، واستمرَّ يوسفُ هارِباً ذاهباً، وهي في إثره، فألفيا سَيِّدها ـ وهو زوجُها ـ عند الباب، فعند ذلك خَرَجت مما هي فيه بمكرها وكَيدِها، وقالت لزوجها مُتنصِّلة وقاذفةً يوسفَ بدائها: ﴿ ما جَزَاء مَن أراد بأهلك سُوءاً ﴾، أي: فاحشةً، ﴿ إلا أن يُسجَن ﴾، أي: يُحبس، ﴿ أو عذابٌ أليم ﴾، أي: يُضربَ ضرباً شديداً موجعاً. فعند ذلك انتصرَ يوسف ـ عليه السلام ـ بالحق، وتبرَّأ مما رمته به من الخيانة، وقال بَاراً صادقاً: ﴿ هي رَاودتني عن نَفْسِي ﴾، وذكر أنها اتَّبعته تَجذِبه إليها حتى قدَّت قميصه، ﴿ وشهد شاهدٌ من أهلها إن كان قيمصُه قُدَّ من قُبُل ﴾، أي: من قُدَّامه، ﴿ فصَدَقت ﴾، أي: في قولها إنه أرادها على نفسها، لأنه يكون لَمَّا دعاها وأبَت عليه دَفَعته في صَدْرِه، فَقَدَّت قيمصَه، فَيَصِحُّ ما قالت، ﴿وإن كان قميصُه قُدَّ من دُبُر فَكَذَبت وهو من الصَّادقين﴾، وذلك يكونُ ـ كما وَقَع ـ لما هَرَب منها وتَطَلَّبه أمسَكَت بقميصه من ورائه لتردّه إليها، فَقَدَّت قميصه من ورائه.

وقد اختلفُوا في هذا الشاهد: هل هو صغيرٌ أو كبيرٌ، على قولَين لعلماء السَّلَفِ، فقال عبد الرزاق:

أخبرنا إسرائيل، عن سِمَاكٍ، عن عِكرَمَة، عن ابن عباس: ﴿ وَشهد شاهدٌ من أهلها ﴾، قال: ذُو لِحيَة(١).

وقال الثوري، عن جابر، عن ابن أبي مُلَيكة، عن ابن عباس: كان من خاصَّة الملك. وكذا قال مجاهد، وعكرمة، والحسن، وقتادة، والسدي، ومُحمَّد بن إسحاقَ: إنه كان رجلاً.

وقال زيدُ بن أسلَمَ، والسديُّ: كان ابنَ عمها. وقال ابن عباس: كان من خاصَّة الملك.

وقد ذكر ابنُ إسحاقَ أن زُلَيخا كانت بنتَ أخت الملك الرَّيان بن الوليد.

وقال العوفيُّ، عن ابن عباس في قوله: ﴿ وَشهد شاهدٌ من أهلها ﴾، قال: كان صَبياً في المهد. وكذا رُوي عن أبي هُرَيرَة، وهلالِ بنِ يسافٍ، والحسنِ، وسعيدِ بن جُبَير، والضَّحَّاكِ بنِ مُزَاحِم: أنه كان صبياً في الدار. واختاره ابنُ جرير(٢). وقد وَرَد فيه حديث مرفوعٌ فقال ابن جرير:

حدثنا الحسن بن محمد، حدثنا عَفَّانُ، حدثنا حماد ـ هو ابن سَلَمة ـ أخبرني عطاء بن السائب، عن سعيد بن جُبَير، عن ابن عباس، عن النبي ـ ﷺ ـ قال: «تكلَّم أربعةٌ وهم صغار»، فذكر فيهم شاهدَ يوسفَ(٣).

---

(١) تفسير الطبري ١٢/١٩٥.
(٢) تفسير الطبري ١٢/١٩٦.
(٣) تفسير الطبري ١٢/١٩٤.

ورواه غيرُه عن حَمَّاد بن سلمة، عن عطاء، عن سعيد، عن ابن عباس قال: «تَكَلَّم أربعةٌ وهم صِغَارٌ: ابن ماشطةِ بنتِ فرعون، وشاهد يوسف، وصاحب جُرَيج، وعيسى ابن مريم»[١].

وقال ليث بن أبي سلم، عن مجاهد: كان من أمر الله، ولم يكن إنسياً. وهذا قول غريب.

وقولُه: ﴿ فلمَّا رأى قميصه قُدَّ من دُبُر ﴾ أي: فلما تحقق زوجُها صدقَ يوسف وَكذبها فيما قَذَفته ورمته به، ﴿ قال إنه من كَيدِكُنَّ ﴾ أي: إنَّ هذا البهت واللَّطخ الذي لَطختِ عِرْضَ هذا الشابِّ به من جُملَةِ كيدِكُنَّ، ﴿ إن كيدكُنَّ عظيمٌ ﴾.

ثم قال آمراً ليوسفَ ـ عليه السلام ـ بكتمان ما وَقَع: يا ﴿ يوسفُ أعْرِض عن هذا ﴾، أي: اضرِب عن هذا صفحاً، فلا تَذكره لأحدٍ، ﴿ واستغفري لِذَنبكِ ﴾، يقول لامرأته وقد كان لَيِّنَ العريكة سهلاً، أو أنه عَذَرها، لأنها رأت ما لا صَبْرَ لها عنه، فقال لها: ﴿ استغفري لذنبك ﴾، أي: الذي وَقَع منكِ من إرادةِ السُّوءِ بهذا الشابِّ، ثم قَذْفِهِ بما هو بَرِيءٌ منه، استغفري من هذا الذي وقَعَ منك، ﴿ إنَّك كُنتِ من الخاطئين ﴾.

﴿ ۞ وَقَالَ نِسْوَةٌ فِى ٱلْمَدِينَةِ ٱمْرَأَتُ ٱلْعَزِيزِ تُرَٰوِدُ فَتَىٰهَا عَن نَّفْسِهِۦ ۖ قَدْ شَغَفَهَا حُبًّا ۖ إِنَّا لَنَرَىٰهَا فِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ ﴿٣٠﴾ فَلَمَّا سَمِعَتْ بِمَكْرِهِنَّ أَرْسَلَتْ إِلَيْهِنَّ وَأَعْتَدَتْ لَهُنَّ مُتَّكَـًٔا وَءَاتَتْ كُلَّ وَٰحِدَةٍ مِّنْهُنَّ سِكِّينًا وَقَالَتِ ٱخْرُجْ عَلَيْهِنَّ ۖ فَلَمَّا رَأَيْنَهُۥٓ أَكْبَرْنَهُۥ وَقَطَّعْنَ أَيْدِيَهُنَّ وَقُلْنَ حَٰشَ لِلَّهِ مَا هَٰذَا بَشَرًا إِنْ هَٰذَآ إِلَّا مَلَكٌ كَرِيمٌ ﴿٣١﴾ قَالَتْ فَذَٰلِكُنَّ ٱلَّذِى لُمْتُنَّنِى فِيهِ ۖ وَلَقَدْ رَٰوَدتُّهُۥ عَن نَّفْسِهِۦ فَٱسْتَعْصَمَ ۖ وَلَئِن لَّمْ يَفْعَلْ مَآ ءَامُرُهُۥ لَيُسْجَنَنَّ وَلَيَكُونًا مِّنَ ٱلصَّٰغِرِينَ ﴿٣٢﴾ قَالَ رَبِّ ٱلسِّجْنُ أَحَبُّ إِلَىَّ مِمَّا يَدْعُونَنِىٓ إِلَيْهِ ۖ وَإِلَّا تَصْرِفْ عَنِّى كَيْدَهُنَّ أَصْبُ إِلَيْهِنَّ وَأَكُن مِّنَ ٱلْجَٰهِلِينَ ﴿٣٣﴾ فَٱسْتَجَابَ لَهُۥ رَبُّهُۥ فَصَرَفَ عَنْهُ كَيْدَهُنَّ ۚ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ ﴿٣٤﴾ ﴾

يُخبر تعالى أن خَبَر يوسُفَ وامرأةِ العزيز شاع في المدينة، وهي مصرُ، حتّى تحدَّث الناس به، ﴿ وقال نسوةٌ في المدينة ﴾ مثل نساء الأمراءِ الكُبراءِ يُنكِرْنَ على امرأةِ العزيز ـ وهو الوزير ـ ويَعِبْنَ ذلك عليها: ﴿ امرأةُ العزيزِ تَراوِدُ فتاها عن نفسه ﴾، أي: تُحاوِلُ غلامَها عن نفسه، وتدعُوه إلى نفسها، ﴿ قد شغَفها حباً ﴾، أي: قد وصل حُبُّه إلى شَغَافِ قلبها. وهو غِلافُه.

قال الضحَّاكُ، عن ابن عباس: الشَّغْفُ: الحبُّ القاتل، والشُّعْفُ دون ذلك، والشَّغاف حجابُ القلب.

﴿ إنا لَنَراها في ضَلالٍ مُبينٍ ﴾، أي: في صَنيعها هذا من حُبِّها فتاها، ومُرَاودتها إيَّاه عن نفسه.

﴿ فلما سَمِعَت بمكرهنَّ ﴾، قال بعضُهم: بِقَولهنَّ. وقال محمد بن إسحاق: بل بَلَغَهُنَّ حُسْنُ يوسف، فأحبين أن يَرينه، فقلن ذلك ليتوصَّلْنَ إلى رُؤيته ومُشَاهَدتِهِ، فعند ذلك ﴿ أرسلَتْ إليهنَّ ﴾، أي: دَعَتهُنَّ إلى مَنزلها لتضيِّفهُنَّ ﴿ واعتَدَتْ لَهُنَّ مُتَّكَأً ﴾.

قال ابن عباس، وسعيد بن جُبَير، ومجاهد، والحسن، والسدِّيُّ، وغيرُهم: هو المجلس المُعَدُّ فيه مفارشُ ومخادُّ وطعامٌ، فيه ما يُقطَعُ بالسكاكين من أُترُجٍّ[٢] ونحوه. ولهذا قال تعالى: ﴿ وآتت كُلَّ واحدةٍ منهن

---

(١) تفسير الطبري ١٢/١٩٣.

(٢) الأُترُجّ: شجر يعلو، ناعم الأغصان بالورق والثمر، وثمره كالليمون الكُبَار، وهو ذهبيُّ اللون، ذكيُّ الرائحة، حامض الماء.

سكيناً ﴾، وكان هذا مكيدةً منها، ومُقابلة لهنَّ في احتيالهن على رؤيته، ﴿ وقالت اخرُجْ عَليهنَّ ﴾، وذلك أنها كانت قد خبَّأته في مكان آخر، ﴿ فلما ﴾ خرَج و ﴿ رَأَيْنَهُ أكبَرْنَهُ ﴾، أي: أعظَمْنَ شأنه، وأجلَلْنَ قدْره، وجَعلْن يقطعْنَ أيديهنَّ دَهشاً برُؤيَته، وهُنَّ يظننَّ أنهن يقطعن الأترجَّ بالسكاكين، والمراد: أنهن حزَزْنَ أيدِيهُنَّ بها، قاله غيرُ واحد.

وعن مجاهدٍ، وقتادةَ: قَطَّعن أيديهُنَّ حتى ألقينَها، فالله أعلم.

وقد ذُكِر عن زيدِ بنِ أسلَمَ أنها قالت لهنَّ بعدما أكلْنَ وطابت أنفسُهنَّ، ثم وضَعَت بين أيديهن أُترجّاً، وآتت كُلَّ واحِدَةٍ منهن سِكّيناً: هل لَكُنَّ في النظر إلى يوسفَ؟ قُلْنَ: نعم. فبعثَت إليه تأمرُه أن اخرُج إليهن، فلما رَأينه جعَلْنَ يقطَعْنَ أيديَهُنَّ، ثم أمَرته أن يرجعَ، فرجع ليرينَه مُقبلاً ومُدبِراً، وهن يَحزُزْنَ في أيديهنَّ، فلما أحسسنَ بالألم جعلنَ يُولوِلْنَ، فقالت: أنتُنَّ من نظرةٍ واحدةٍ فعلتُنَّ هكذا، فكيف ألامُ أنا؟ ﴿ فقلن حاشَ لله ما هذا بشراً إن هذا إلا ملكٌ كريمٌ ﴾، ثم قلن لها: وما نَرى عليك من لوم بعد الذي رأينا. لأنهنَّ لم يرَيْنَ في البشرِ شِبْهَه ولا قَريباً منه، فإنه ـ صلواتُ الله عليه وسلامه ـ كان قد أُعطِيَ شَطْرَ الحُسن، كما ثَبت ذلك في الحديث الصَّحِيح في حديث الإسراء: أن رسول الله ـ ﷺ ـ مَرَّ بيوسفَ ـ عليه السلام ـ في السماء الثالثة، قال: «فإذا هُو قد أُعطِي شَطْرَ الحُسْنِ»(١).

وقال حَمَّاد بن سَلَمة، عن ثابتٍ، عن أنسٍ قال: قال رسولُ الله ـ ﷺ ـ: أُعطِيَ يوسفُ وأمُّه شَطْرَ الحُسْن(٢).

وقال سفيان الثوري، عن أبي إسحاقَ، عن أبي الأحوصِ، عن عبد الله بن مسعود قال: أعطي يوسفُ وأمهُ ثُلُثَ الحسن(٢).

وقال أبو إسحاق أيضاً، عن أبي الأحوص، عن عبد الله قال: كان وجهُ يوسفَ مثل البَرْقِ، وكانت المرأة إذا أتته لحاجةٍ غَطّى وجهَه مخافةَ أن تُفتتَن به.

ورواهُ الحسنُ البَصْرِي مرسلاً، عن النبي ـ ﷺ ـ أنه قال: «أُعطِيَ يوسُفُ وأُمُّه ثلثَ حُسْنِ أهلِ الدنيا، وأُعطِي الناسُ الثلثين ـ أو قال: أعطي يوسفُ وأُمُّه الثلثين والناس الثلث»(٢).

وقال سفيانُ، عن منصور، عن مجاهدٍ، عن ربيعةَ الجُرَشِيِّ قال: قُسِمَ الحسنُ نصفين، فأُعطِيَ يوسفُ وأُمُّه سارَةُ نصفَ الحُسنِ. والنصفُ الآخرُ بين سائر الخلق.

وقال الإمام أبو القاسم السهيلي: معناه أن يُوسُفَ كان على النِّصف من حُسن آدم ـ عليه السلام ـ فإن الله خَلَق آدم بيده على أكمل صورةٍ وأحسنها، ولم يكن في ذُرِّيته من يُوازِيه في جَماله، وكان يوسفُ قد أُعطِيَ شَطْرَ حُسنِه.

فلهذا قال هؤلاء النسوة عند رؤيته: ﴿ حاش لله ﴾ ـ قال مجاهد وغير واحد: معاذَ اللهِ، ﴿ ما هذا بشراً ﴾ ـ وقرأ بعضُهم: ﴿ ما هذا بِشِرىً ﴾ أي: بمُشْتَرىً(٣).

---

(١) أخرجه مسلم في صحيحه، كتاب الإيمان ١/١٤٥ ـ ١٤٧.

(٢) انظر هذه الآثار في تفسير الطبري ١٢/٢٠٧.

(٣) هذه قراءة الحسن وأبي الحويرث الحنفي، وهي بالباء الجارَّة وكسر الشين، وهو مصدر أقيم مقام اسم المفعول، أي: ما هذا بمُشْتَرىً، أي: ليس مِمَّن يُشْتَرى، بمعنى أنه أعزُّ من أن يجري عليه ذلك. انظر روح المعاني للألوسي ١٢/٢٣٢.

﴿إن هذا إلا مَلَكٌ كريم * قالت فَذلِكُنَّ الذي لُمتنَّني فيه﴾، تقول هذا مُعتذِرة إليهنَّ بأن هذا حقيق بأن يُحَبَّ لجمالِهِ وكماله.

﴿ولقد راودتهُ عن نفسِهِ فاستعصَمَ﴾، أي: فامتنع. قال بعضُهم: لما رأين جَمَاله الظاهِرَ أخبرتهُنَّ بصفاتِهِ الحسنةِ التي تخفى عنهنَّ، وهي العِفَّة مع هذا الجمال، ثم قالت تتوعَّدُ: ﴿ولئن لم يفعل ما آمره لَيسجُنَنَّ ولَيكُوناً مِّن الصاغِرين﴾، فعند ذلك استعاذ يوسف ـ عليه السلام ـ من شرِّهن وكيدِهِنَّ، و﴿قال ربِّ السجنُ أحبُّ إليَّ مما يدعُونَني إليه﴾، أي: من الفاحشة، ﴿وإلَّا تصرف عني كيدهُنَّ أصبُ إليهنَّ﴾ أي: إن وكلتَني إلى نفسي فليسَ لي من نفسي قدرةٌ، ولا أملك لها ضَرّاً ولا نفعاً إلا بِحَوْلِكَ وقُوَّتِكَ، أنت المستعانُ، وعليك التُّكلان، فلا تَكِلْني إلى نفسي.

﴿أصب إليهن وأكن من الجاهلين * فاستجاب له ربه فصرَفَ عنه كيدهُنَّ إنه السميع العليم﴾، وذلك أن يوسفَ ـ عليه السلام ـ عصَمَه الله عِصمَةً عَظِيمةً، وحماه فامتنَعَ منها أشدَّ الامتناع، واختار السجنَ على ذلك، وهذا في غايةِ مقاماتِ الكمالِ: أنه مع شَبَابه وجَمَاله وكَمَاله تدعُوه سيدَتُه، وهي امرأة عزيزِ مصر، وهي مع هذا في غايةِ الجَمَالِ والمال والرِّياسةِ، ويمتنع من ذلك، ويختارُ السِّجن على ذلك، خوفاً من الله ورجاءَ ثوابه. ولهذا ثبتَ في الصحيحَين أن رسول الله ـ ﷺ ـ قال: «سبعةٌ يُظِلُّهم الله في ظِلِّه يوم لا ظلَّ إلا ظِلُّه: إمامٌ عادلٌ، وشابٌّ نشأ في عبادة الله، ورجلٌ قلبه مُعلَّق بالمسجدِ، إذا خَرَج منه حَتَّى يعودَ إليه. ورجلانِ تحابَّا في الله اجتمعا عليه وافترقَا عليه، ورجلٌ تصدَّقَ بصدقةٍ فأخفَاها حتى لا تعلَمَ شِمالُه ما أنفقت يمينُه، ورجلٌ ذَكَر الله خالياً ففاضت عيناه، ورجلٌ دعته امرأةٌ ذات جمالٍ ومنصِبٍ فقال: إني أخافُ الله»[1].

﴿ثُمَّ بَدَا لَهُم مِّنۢ بَعۡدِ مَا رَأَوُاْ ٱلۡأٓيَٰتِ لَيَسۡجُنُنَّهُۥ حَتَّىٰ حِينٖ ٣٥﴾

يقولُ تعالى: ثم ظهرَ لهم من المصلحة فيما رأوه أنَّهم يسجُنونه إلى حين، أي: إلى مُدَّةٍ، وذلك بعدما عَرَفوا براءته، وظهرت الآياتُ ـ وهي الأدلةُ ـ على صدقِهِ في عِفَّته ونزاهته. فكأنهم ـ والله أعلم ـ إنما سَجَنُوه لَمَّا شاع الحديث إيهاماً أن هذا راوَدَها عن نفسها، وأنهم سَجَنُوه على ذلك. ولهذا لما طلبه الملِكُ الكبيرُ في آخر المدَّةِ، امتنَع من الخروجِ حتى تتبيَّن براءتُه مما نُسب إليه من الخيانة، فلما تقرَّر ذلك خَرَج وهو نَقِيّ العِرْضِ، صلواتُ الله عليه وسلامه. وذكر السدِّيُّ: أنهم إنما سَجَنُوه لئلا يَشِيعَ ما كان منها في حَقِّه ويبرأ عرضُه فَيَفْضَحَها[2].

﴿وَدَخَلَ مَعَهُ ٱلسِّجۡنَ فَتَيَانِۖ قَالَ أَحَدُهُمَآ إِنِّيٓ أَرَىٰنِيٓ أَعۡصِرُ خَمۡرٗاۖ وَقَالَ ٱلۡأٓخَرُ إِنِّيٓ أَرَىٰنِيٓ أَحۡمِلُ فَوۡقَ رَأۡسِي خُبۡزٗا تَأۡكُلُ ٱلطَّيۡرُ مِنۡهُۖ نَبِّئۡنَا بِتَأۡوِيلِهِۦٓۖ إِنَّا نَرَىٰكَ مِنَ ٱلۡمُحۡسِنِينَ ٣٦﴾

قال قتادةُ: كان أحدُهما ساقِيَ الملكِ، والآخر خَبَّازَه. قال محمد بن إسحاق: كان اسمُ الذي على الشراب نَبوا، والآخرُ مُجلِث[3].

قال السدّي: وكان سببُ حَبْسِ الملك إيَّاهما أنه توهَّم أنهما تَمَالآ على سَمِّه في طَعامه وشَرَابه.

---

(١) تقدم الحديث عند تفسير الآية ٢٧١ من سورة البقرة، وخرجناه هنالك.

(٢) انظر تفسير الطبري ١٢/٢١٣.

(٣) انظر تفسير الطبري ١٢/٢١٤، ومفحمات الأقران للسيوطي ١٢٣، وفتح الباري، كتاب التعبير ١٢/٣٨١.

وكان يوسفُ ـ عليه السلام ـ قد اشتهر في السِّجن بالجُودِ والأمانةِ وصِدْقِ الحديثِ، وحُسْنِ السَّمْتِ، وكَثْرَةِ العبادة ـ صلواتُ الله عليه وسلامُه ـ ومعرفةِ التَّعبير، والإِحسانِ إلى أهل السجن، وعيادةِ مرضاهم، والقيامِ بحقوقِهم. ولما دخلَ هذان الفَتَيان إلى السجن، تآلفا به وأحبَّاه حُبّاً شَدِيداً، وقالا له: والله لقد أحببناك حبّاً زائِداً. قال: بارك الله فيكما، إنه ما أحبَّني أحدٌ إلا دَخَل عليّ من محبَّته ضَرَرٌ، أحبَّتني عَمَّتي فدخَل علي الضَّررُ بسببها، وأحبَّني أبي فأُوذِيت بِسَببه، وأحبتني امرأةُ العزيزِ فكذلك. فقالا: والله ما نستطيعُ إلاَّ ذلك، ثم إنهما رَأيا مناماً، فرأى الساقي أنه يعصِرُ خمراً ـ يعني عِنَباً ـ وكذلكَ هي في قراءةِ عبد الله بن مسعود: «إني أراني أعصِرُ عِنَبا»[١]. ورواه ابن أبي حاتم، عن أحمد بن سنان، عن يزيد بن هارون، عن شريكٍ، عن الأعمشِ، عن زيدِ بن وهبٍ، عن ابن مسعودٍ: أنه قرأها: «أعصِرُ عِنباً»[١].

وقال الضحَّاك في قولِه: ﴿ إنِّي أراني أعصِرُ خمراً ﴾، يعني عِنَباً، قال: وأهل عُمَانُ يُسمُّون العِنَب خمراً.

وقال عِكْرِمةُ: رأيتُ فيما يَرَى النائمُ أني غَرَسْتُ حَبلَةً[٢] من عِنَب، فَخرج فيه عناقيدُ، فعصرتُهنَّ ثم سقيتُهنَّ المَلِك. قال: تمكث في السجن ثلاثة أيام، ثم تخرُج فتَسقِيه خَمْراً.

وقال الآخرُ، وهو الخَبَّازُ: ﴿ إني أراني أحمِلُ فوق رأسي خُبزاً تأكلُ الطَّيرمنه نبِّئنا بِتأويله إنَّا نَراك من المحسنين ﴾.

والمشهورُ عند الأكثرِين ما ذكرنَاه، وأنهما رأيا مناماً وطَلَبا تعبيره.

وقال ابنُ جَرير: حدثنا ابنُ وَكِيع وابن حُمَيد قالا: حدثنا جَرير، عن عُمارةَ بنِ القَعقاعِ، عن إبراهيمَ، عن عبد الله قال: ما رأى صاحِبَا يوسُفَ شيئاً، إنما كانا تحالما لِيُجرِّبا عَلَيه[٣].

﴿ قَالَ لَا يَأْتِيكُمَا طَعَامٌ تُرْزَقَانِهِۦٓ إِلَّا نَبَّأْتُكُمَا بِتَأْوِيلِهِۦ قَبْلَ أَن يَأْتِيَكُمَا ۚ ذَٰلِكُمَا مِمَّا عَلَّمَنِى رَبِّىٓ ۚ إِنِّى تَرَكْتُ مِلَّةَ قَوْمٍ لَّا يُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَهُم بِٱلْءَاخِرَةِ هُمْ كَٰفِرُونَ ﴿٣٧﴾ وَٱتَّبَعْتُ مِلَّةَ ءَابَآءِىٓ إِبْرَٰهِيمَ وَإِسْحَٰقَ وَيَعْقُوبَ ۚ مَا كَانَ لَنَآ أَن نُّشْرِكَ بِٱللَّهِ مِن شَىْءٍ ۚ ذَٰلِكَ مِن فَضْلِ ٱللَّهِ عَلَيْنَا وَعَلَى ٱلنَّاسِ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَشْكُرُونَ ﴿٣٨﴾ ﴾

يُخبِرهُما يوسفُ ـ عليه السلام ـ أنهما مهما رأيا في نومهما من حُلُم فإنه عارفٌ بتفسيره ويُخبرهما بتأويله قبلَ وقوعه، ولهذا قال: ﴿ لا يأتيكما طَعَامٌ تُرزَقَانه إلا نَبَّأتكما بتأويلِهِ قبل أن يأتيَكما ﴾.

قال مجاهد: يقول: ﴿ لا يأتيكما طَعَامٌ تُرزَقَانه ﴾ في نومكما، ﴿ إلا نبأتكما بتأويلِه قبل أن يأتيكما ﴾، وكذا قال السُّديُّ.

وقال ابنُ أبي حاتم ـ رحمه الله ـ: حدثنا عليُّ بن الحسين، حَدَّثنا مُحمَّد بن العلاء، حَدَّثنا مُحمد بن يَزِيدَ ـ شَيخٌ له ـ [عن[٤] رشدين]، عن الحسن بن ثَوبانَ، عن عِكْرِمَةَ، عن ابن عباس قال: ما أدري لعلَّ يوسفَ ـ عليه السلام ـ كان يَعْتَافُ[٥]، وهو كذلك، لأني أجِدُ في كتابِ الله حينَ قال للرَّجُلَين: ﴿ لا يأتيكما طعامٌ تُرزَقَانِه إلا

(١) أخرجه البخاري في تاريخه، وابن جرير وغير واحد. انظر الدرّ المنثور ٤/٥٣٦. وذكر الحافظ في فتح الباري ١٢/٣٨٢ بعد أن ذكر رواية ابن أبي حاتم: «وكأنه أراد التفسير».

(٢) الحَبَلَةُ: الكَرْمُ. والقضيبُ من الكَرْم، وجمعه: حَبَلٌ.

(٣) تفسير الطبري ١٢/٢١٤.

(٤) ما بين القوسين عن تفسير ابن أبي حاتم. ورشدين هو ابن سعد يروي عن الحسن بن ثوبان. انظر تهذيب الكمال ٩/١٩٢.

(٥) أي: إنه كان يتعرَّف الشيء بعلامات تدلُّ عليه.

نبأتكمابتأويله ﴾، قال: إذا جاءَ الطعامُ حُلواً أو مُرّاً اعتاف عند ذلك. ثم قال ابنُ عباس: إنما عُلِّمَ فعَلِم. وهذا أثر غريبٌ.

ثم قال: وهذا إنما هو من تَعليم الله إيايَ، لأني اجتنبتُ مِلَّةَ الكافِرين بالله واليومِ الآخر، فلا يرجُون ثواباً ولا عقاباً في المعاد، ﴿ واتبعتُ مِلَّةَ آبائي إبراهيمَ وإسحاقَ ويعقوبَ ﴾، يقول: هجرتُ طريقَ الكفرِ والشركِ، وسلكتُ طريق هؤلاء المرسلين ـ صلواتُ الله وسلامُه عليهم أجمعينَ ـ وهكذا يكون حالُ من سَلَك طريقَ الهُدى، واتَّبع المرسلين، وأعرضَ عن طريق الظالمينَ، فإنه يَهدي قلبَه ويُعلِّمه ما لم يكن يعلَمُه، ويجعَلُه إماماً يُقتدَى به في الخيرِ، وداعياً إلى سبيلِ الرشاد.

﴿ ما كان لنا أن نُشرِكَ بالله من شيءٍ ذلك من فضلِ الله علينا وعَلَى الناسِ ﴾، هذا التوحيدُ ـ وهو الإقرارُ بأنه لا إلَه إلا هو وحدَه لا شريكَ له ـ ﴿ من فَضْلِ الله علينا ﴾، أي: أوحاه إلينا، وأَمَرنا به ﴿ وعلى الناسِ ﴾، إذ جَعَلَنا دُعاةً لهم إلى ذلك، ﴿ ولكنَّ أكثرَ الناسِ لا يشكرُون ﴾، أي: لا يَعرِفُون نعمةَ الله عليهم بإرسالِ الرُّسُلِ إليهم، بل ﴿ بَدَّلُوا نعمةَ الله كُفراً وأحلُّوا قومهم دار البَوَارِ ﴾.

وقال ابنُ أبي حاتم: حدثنا أحمدُ بن سنان، حدثنا أبو معاوية، حدثنا حَجَّاجُ، عن عطاءٍ، عن ابنِ عباس: أنه كان يجعلُ الجَدَّ أباً، ويقولُ: والله فمن شاءَ لاعنَّاه عند الحَجَرِ[١]، ما ذَكر الله جَدّاً ولا جَدَّةً، قال الله تعالى ـ يعني إخباراً عن يوسف ـ: ﴿ واتبعتُ مِلَّةَ آبائي إبراهيمَ وإسحاقَ ويعقوبَ ﴾[١].

﴿ يَٰصَٰحِبَيِ ٱلسِّجۡنِ ءَأَرۡبَابٞ مُّتَفَرِّقُونَ خَيۡرٌ أَمِ ٱللَّهُ ٱلۡوَٰحِدُ ٱلۡقَهَّارُ ٣٩ مَا تَعۡبُدُونَ مِن دُونِهِۦٓ إِلَّآ أَسۡمَآءٗ سَمَّيۡتُمُوهَآ أَنتُمۡ وَءَابَآؤُكُم مَّآ أَنزَلَ ٱللَّهُ بِهَا مِن سُلۡطَٰنٍۚ إِنِ ٱلۡحُكۡمُ إِلَّا لِلَّهِۚ أَمَرَ أَلَّا تَعۡبُدُوٓاْ إِلَّآ إِيَّاهُۚ ذَٰلِكَ ٱلدِّينُ ٱلۡقَيِّمُ وَلَٰكِنَّ أَكۡثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعۡلَمُونَ ٤٠ ﴾

ثم إنَّ يوسفَ ـ عليه السلام ـ أقبلَ على الفتَيين بالمخاطبة، والدعاءِ لهما إلى عبادةِ الله وحدَه لا شريكَ له، وخلعِ ما سِواه من الأوثان التي يعبدها قومُهما، فقال: ﴿ أأربابٌ متفرِّقون خيرٌ أم الله الواحدُ القهَّارُ ﴾، الذي ولِيَ كُلَّ شيءٍ بعزِّ جلاله، وعَظَمةِ سلطانه.

ثم بَيَّن لهما أنَّ التي يَعبُدونها ويُسمُّونها آلهةً إنما هو جَهْلٌ منهم، وتسميةٌ من تلقاءِ أنفُسِهم، تلقاها خَلَفُهم عن سَلَفِهم، وليس لذلك مستندٌ من عند الله، ولهذا قال: ﴿ ما أنزل الله بها من سلطانٍ ﴾، أي: حُجَّةٍ ولا بُرهانٍ.

ثم أخبرُهم أن الحُكْم والتصرُّفَ والمشيئةَ والمُلْك كلَّه لله، وقد أَمر عبادَه قاطبةً ألَّا يعبدوا إلا إيَّاه، ثم قال: ﴿ ذلك الدينُ القَيِّمُ ﴾، أي: هذا الذي أدعوكم إليه من تَوحيدِ الله وإخلاصِ العَمَلِ له، هو الدِّينُ المستَقيمُ، الذي أَمر الله به. وأنزل به الحُجَّة والبرهانَ الذي يُحبُّه ويرضَاه، ﴿ ولكنَّ أكثرَ الناسِ لا يعلَمُون ﴾، أي: فلهذا كان أكثرُهم مشركين، ﴿ وما أكثرُ الناسِ ولو حَرصتَ بمؤمنين ﴾.

وقد قال ابنُ جَرِير: إنما عَدَلَ بهم يُوسُفُ عن تعبير الرُّؤيا إلى هذا، لأنه عَرَف أنها ضَارَّةٌ لأَحدِهما، فأحبَّ أن يَشْغَلهما بغير ذلك، لئلا يُعاوِدُوه فيها، فعاوَدُوه، فأعادَ عليهم الموعِظة[٢].

---

(١) أخرجه أيضاً سعيد بن منصور في سننه عن هشيم، عن حجاج ١/٤٧، وفيه: عند الحجر الأسود.
(٢) انظر تفسير الطبري ١٢/٢١٧.

وفي هذا الذي قاله نظرٌ؛ لأنه قد وَعَدَهما أولاً بتعبيرها، ولكن جَعَل سُؤالهما له على وَجْهِ التعظيم والاحترام وُصْلَةً وسَبَباً إلى دُعائهما إلى التوحيدِ والإسلام، لما رَأى في سَجِيَّتِهما من قَبُول الخيرِ والإقبالِ عليه، والإنصاتِ إليه، ولهذا لما فَرَغ من دعوتِهما شَرَع في تعبيرِ رُؤياهما، من غير تكرار سؤال فقال:

﴿ يَٰصَٰحِبَيِ ٱلسِّجْنِ أَمَّآ أَحَدُكُمَا فَيَسْقِى رَبَّهُۥ خَمْرًا ۖ وَأَمَّا ٱلْءَاخَرُ فَيُصْلَبُ فَتَأْكُلُ ٱلطَّيْرُ مِن رَّأْسِهِۦ ۚ قُضِىَ ٱلْأَمْرُ ٱلَّذِى فِيهِ تَسْتَفْتِيَانِ ﴿٤١﴾ ﴾

يقولُ لهما: ﴿ يا صاحِبَيِ السِّجنِ أَمَّا أحدُكما فَيَسقي رَبَّه خَمْراً ﴾، وهو الذي رَأى أنه يَعصِر خَمْراً، ولكنه لم يُعَيِّنه لئلا يَحزَنَ ذاك، ولهذا أبهمه في قوله: ﴿ وَأَمَّا الآخرُ فَيُصلَب فتأكُلُ الطيرُ من رَأْسِهِ ﴾، وهو في نفس الأمر الذي رَأى أنه يحمل فوقَ رأسِه خُبزاً.

ثم أعلمهما أن هذا قد فُرِغ منه، وهو واقعٌ لا محالةُ، لأنَّ الرؤيا على رَجُلِ طائرٌ ما لم تُعَبَّر، فإذا عُبِّرَت وقَعَت.

وقال الثوريّ، عن عمارة بن القعقاع، عن إبراهيم، عن عبد الله قال: لما قالا ما قالا وأخبرَهما قال: ما رأينا شيئاً. فقال: ﴿ قُضِيَ الأمرُ الذي فيه تَستفتِيانِ ﴾.

ورواه محمد بن فُضَيل، عن عمارة، عن إبراهيم، عن علقمة، عن ابن مسعود، به. وكذا فَسَّره مجاهدٌ، وعبدُ الرحمن بن زيد بن أسلَمَ، وغيرُهم. وحاصلُه أن من تَحَلَّم بباطلٍ وفَسَّره، فإنه يُلزَمُ بتأويله، والله أعلم. وقد ورد في الحديث الذي رواه الإمام أحمد، عن معاوية بن حيدة، عن النبي ـ ﷺ ـ: «الرُّؤيا على رجل طائرٌ ما لم تُعبَّر فإذا عُبِّرت وقعت»(١).

وفي مسند أبي يعلى، من طريقِ يزيدَ الرَّقاشي، عن أنس مرفوعاً: «الرُّؤيا لأول عابر»(٢).

﴿ وَقَالَ لِلَّذِى ظَنَّ أَنَّهُۥ نَاجٍ مِّنْهُمَا ٱذْكُرْنِى عِندَ رَبِّكَ فَأَنسَىٰهُ ٱلشَّيْطَٰنُ ذِكْرَ رَبِّهِۦ فَلَبِثَ فِى ٱلسِّجْنِ بِضْعَ سِنِينَ ﴿٤٢﴾ ﴾

لما ظَنَّ يوسفُ ـ عليه السلام ـ نجاة أحدهما، وهو الساقي، قال له يوسف خفيةً عن الآخر ـ والله أعلم ـ لئلا يُشعِره أنه المصلوبُ قال له: ﴿ اذكرني عِندَ ربِّك ﴾، يقول: اذكر قِصَّتي عند ربِّك ـ وهو المَلِك ـ فَنسِيَ ذلك المُوصَى أن يُذَكِّر مَولاه بذلك، وكان من جملةِ مكايِدِ الشيطانِ، لِئلاَّ يطلعَ نَبِيُّ الله من السِّجنِ.

هذا هو الصوابُ أن الضمير في قوله: ﴿ فأنساهُ الشيطانُ ذكر ربِّه ﴾ عائد على الناجي، كما قاله مجاهدٌ، ومحمد بن إسحاقَ، وغيرُ واحد. ويُقالُ إنَّ الضمير عائدٌ على يوسف ـ عليه السلام ـ رواهُ ابنُ جرير، عن ابنِ عباس، ومجاهدٍ أيضاً، وعكرمةَ، وغيرهم. وأسند ابنُ جريرٍ هاهنا حديثاً قال:

حدثنا ابنُ وكيع، حدثنا عَمْرو بن محمد، عن إبراهيمَ بن يزيدَ، عن عمرو بن دينار، عن عكرمةَ، عن ابن

---

(١) تقدم الحديث عند تفسير الآية الخامسة من هذه السورة، وخرجناه هنالك.

(٢) مسند أبي يعلى ٧/١٥٨ ـ ١٥٩.

عباس قال: قال النبيّ ـ ﷺ ـ: «لو لم يَقُل ـ يعني يوسفَ ـ الكلمةَ التي قال: ما لَبِثَ في السِّجن طولَ ما لبث، حيثُ يبتغي الفرج من عند غير الله»(١).

وهذا الحديثُ ضعيفٌ جدّاً؛ لأن سُفيان بنَ وكيع ضعيفٌ، وإبراهيمَ بن يزيدَ ـ هو الخُوزيُّ ـ أضعفُ منه أيضاً. وقد رُوي عن الحسن وقتادة مرسلاً عن كلٍّ منهما، وهذه المرسلاتُ هاهنا لا تُقبلُ لو قبل المرسل من حيث هو في غير هذا الموطن، والله أعلم.

«وأما البِضعُ»، فقال مجاهد وقتادةُ: هو ما بين الثلاث إلى التسع.

وقال وهب بن مُنَبِّه: مكثَ أيوبُ في البلاء سبعاً، ويوسُفُ في السِّجن سبعاً، وعُذِّب بُختنصَّر سَبْعاً(٢).

وقال الضحَّاكُ، عن ابن عباس ـ رضي الله عنهما ـ: ﴿ فَلَبِثَ فِي السِّجن بضعَ سِنينَ ﴾، قال: ثنتا عشرة سنة، وقال الضحَّاكُ: أربعَ عشرة سنة.

﴿ وَقَالَ ٱلْمَلِكُ إِنِّىٓ أَرَىٰ سَبْعَ بَقَرَٰتٍ سِمَانٍ يَأْكُلُهُنَّ سَبْعٌ عِجَافٌ وَسَبْعَ سُنۢبُلَٰتٍ خُضْرٍ وَأُخَرَ يَابِسَٰتٍ يَٰٓأَيُّهَا ٱلْمَلَأُ أَفْتُونِى فِى رُءْيَٰىَ إِن كُنتُمْ لِلرُّءْيَا تَعْبُرُونَ ﴿٤٣﴾ قَالُوٓا۟ أَضْغَٰثُ أَحْلَٰمٍ وَمَا نَحْنُ بِتَأْوِيلِ ٱلْأَحْلَٰمِ بِعَٰلِمِينَ ﴿٤٤﴾ وَقَالَ ٱلَّذِى نَجَا مِنْهُمَا وَٱدَّكَرَ بَعْدَ أُمَّةٍ أَنَا۠ أُنَبِّئُكُم بِتَأْوِيلِهِۦ فَأَرْسِلُونِ ﴿٤٥﴾ يُوسُفُ أَيُّهَا ٱلصِّدِّيقُ أَفْتِنَا فِى سَبْعِ بَقَرَٰتٍ سِمَانٍ يَأْكُلُهُنَّ سَبْعٌ عِجَافٌ وَسَبْعِ سُنۢبُلَٰتٍ خُضْرٍ وَأُخَرَ يَابِسَٰتٍ لَّعَلِّىٓ أَرْجِعُ إِلَى ٱلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَعْلَمُونَ ﴿٤٦﴾ قَالَ تَزْرَعُونَ سَبْعَ سِنِينَ دَأَبًا فَمَا حَصَدتُّمْ فَذَرُوهُ فِى سُنۢبُلِهِۦٓ إِلَّا قَلِيلًا مِّمَّا تَأْكُلُونَ ﴿٤٧﴾ ثُمَّ يَأْتِى مِنۢ بَعْدِ ذَٰلِكَ سَبْعٌ شِدَادٌ يَأْكُلْنَ مَا قَدَّمْتُمْ لَهُنَّ إِلَّا قَلِيلًا مِّمَّا تُحْصِنُونَ ﴿٤٨﴾ ثُمَّ يَأْتِى مِنۢ بَعْدِ ذَٰلِكَ عَامٌ فِيهِ يُغَاثُ ٱلنَّاسُ وَفِيهِ يَعْصِرُونَ ﴿٤٩﴾ ﴾

هذه الرؤيا من مَلك مصر مما قـدّر الله تعالى أنها كانت سبباً لخروج يوسفَ ـ عليه السلام ـ من السجن معزَّزاً مكرماً، وذلك أن المَلك رأى هذه الرؤيا، فهالته وتعجَّب من أمرها، وما يكونُ تفسيرها، فَجمع الكَهَنة والحُزَاة(٣) وكُبَراء دولته وأمراءه وقصَّ عليهم ما رأى، وسألهم عن تأويلها، فلم يعرفُوا ذلك، واعتذَرُوا إليه بأن هذه ﴿ أضغاثُ أحلامٍ ﴾، أي: أخلاطُ اقتضت رُؤياك هذه، ﴿ وما نحن بتأويلِ الأحلامِ بعالمين ﴾، أي: ولو كانت رُؤيا صحيحةً من أخلاطٍ لما كان لنا معرفة بتأويلها، وهو تعبيرُها. فعند ذلك تَذَكَّرَ ذلك الذي نجا من ذينك الفتيين اللَّذين كانا في السجن مع يوسفَ، وكان الشيطانُ قد أنساه ما وصّاه به يوسفُ من ذكر أَمْرِه للمَلِك، فعند ذلك تَذَكَّر ﴿ بعد أُمَّةٍ ﴾، أي: مُدَّةٍ ـ وقرأ بعضُهم: ﴿ بعد أَمَهٍ ﴾(٤)، أي: بعد نِسيان ـ فقال للمَلِك والذين جمعهم لذلك: ﴿ أنا أُنبِّئكم بتأويله ﴾، أي: بتأويل هذا المَنام، ﴿ فأرسلونِ ﴾، أي: فابعثونِ إلى يوسفَ الصديقِ إلى السِّجن. ومعنى الكلام: فبعثوا. فجاءه فقال: ﴿ يُوسُفُ أَيُّها الصدِّيق أفتنا ﴾، وذَكَر المنام الذي رآه الملك، فعند ذلك ذَكَر له يوسفُ ـ عليه السلام ـ تعبيرَها من غير تعنيف لذلك الفتى في نسيانه ما وَصَّاه به، ومن

---

(١) تفسير الطبري ١٢/٢٢٣.

(٢) تفسير الطبري ١٢/٢٢٤.

(٣) حزا الشيء يحزوه حزواً: قدّره تخميناً.

(٤) تنسب هذه القراءة، إلى ابن عباس وغير واحد، انظر تفسير الطبري ١٢/٢٢٨ ـ ٢٢٩. هذا ويقال: أَمِهَ أَمْهاً: نَسِيَ، وأَمِه الشيء: نَسِيَهُ.

غير اشتراطٍ للخروج قبل ذلك، بل قال: ﴿ تزرعُون سبعَ سنينَ دَأَباً ﴾، أي: يأتيكم الخِصْبُ والمطرُ سبعَ سنين مُتوالِياتٍ، فَفَسَّر البقر بالسنين، لأنها تُثِير الأرض التي تُسْتغَلّ منها الثمرات والزروع، وهُنَّ السُّنبلات الخضر. ثم أرشدهم إلى ما يَعتَمِدونه في تلك السنين فقال: ﴿ فما حَصَدتُم فَذَرُوه في سُنبُلِهِ إلا قليلاً مما تأكلون ﴾، أي: مهما استغللتم في هذه السبع السنين الخِصْبِ فاخزنُوه في سنبله، ليكون أبقى له وأبعدَ عن إسراع الفساد إليه، إلا المقدارَ الذي تأكُلونه، ولْيكن قليلاً قليلاً لا تُسرفوا فيه، لتنتفعوا في السبع الشِّداد، وهُنَّ السبع السنين المُحْل التي تعقب هذه السبعَ متوالياتٍ، وهن البقرات العِجَاف اللاَّتي يأكُلن السمان، لأن سِني الجَدْبِ يُؤكَلُ فيها ما جَمَعوه في سِني الخِصْبِ، وهُنَّ السنبلاتُ اليَابِساتُ.

وأخبرهم أنهنَّ لا يُنبِتْنَ شيئاً، وما بَذَروه فلا يَرْجِعُون منه إلى شيء، ولهذا قال: ﴿ يأكُلن ما قَدَّمْتم لهنَّ إلا قليلاً مما تُحصِنُون ﴾.

ثم بَشَّرهم بعد الجَدْبِ العامِّ المتوالي بأنه يَعقُبهم. بعد ذلك ﴿ عامٌ فيه يُغاث الناسُ ﴾، أي: يأتيهم الغيثُ، وهو المطرُ، وتُغِلُّ البلادُ، ويَعصِرُ الناس ما كانوا يعصِرُون على عادتهم، من زيتٍ ونَحوه، وسُكرٍ ونحوه، حتى قال بعضُهم: يدخلُ فيه حَلْبُ اللَّبنِ أيضاً.

قال عليُّ بن أبي طلحة، عن ابن عباس ﴿ وفيه يَعصِرُون ﴾: يَحلِبُون.

﴿ وَقَالَ ٱلْمَلِكُ ٱئْتُونِى بِهِۦ ۖ فَلَمَّا جَآءَهُ ٱلرَّسُولُ قَالَ ٱرْجِعْ إِلَىٰ رَبِّكَ فَسْـَٔلْهُ مَا بَالُ ٱلنِّسْوَةِ ٱلَّـٰتِى قَطَّعْنَ أَيْدِيَهُنَّ ۚ إِنَّ رَبِّى بِكَيْدِهِنَّ عَلِيمٌ ﴿٥٠﴾ قَالَ مَا خَطْبُكُنَّ إِذْ رَٰوَدتُّنَّ يُوسُفَ عَن نَّفْسِهِۦ ۚ قُلْنَ حَـٰشَ لِلَّهِ مَا عَلِمْنَا عَلَيْهِ مِن سُوٓءٍ ۚ قَالَتِ ٱمْرَأَتُ ٱلْعَزِيزِ ٱلْـَٔـٰنَ حَصْحَصَ ٱلْحَقُّ أَنَا۠ رَٰوَدتُّهُۥ عَن نَّفْسِهِۦ وَإِنَّهُۥ لَمِنَ ٱلصَّـٰدِقِينَ ﴿٥١﴾ ذَٰلِكَ لِيَعْلَمَ أَنِّى لَمْ أَخُنْهُ بِٱلْغَيْبِ وَأَنَّ ٱللَّهَ لَا يَهْدِى كَيْدَ ٱلْخَآئِنِينَ ﴿٥٢﴾ ۞ وَمَآ أُبَرِّئُ نَفْسِىٓ ۚ إِنَّ ٱلنَّفْسَ لَأَمَّارَةٌۢ بِٱلسُّوٓءِ إِلَّا مَا رَحِمَ رَبِّىٓ ۚ إِنَّ رَبِّى غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٥٣﴾ ﴾

يقولُ تعالى إخباراً عن المَلِك لمَّا رَجَعُوا إليه بتعبير رؤياه التي كان رآها، بما أعجبَه وأيقنه، فَعرَفَ فضلَ يوسفَ ـ عليه السلام ـ وعِلْمَه، وحسن اطلاعه على رُؤياه، وحُسن أخلاقِه على من بِبَلَدِه من رعاياه، فقال: ﴿ ائتوني به ﴾، أي: أخرجُوه من السِّجن وأحضِرُوه. فلما جاءه الرسولُ بذلِك امتنَعَ من الخروج حتى يتحقَّق المَلِكُ ورعيَّتُه براءَةَ ساحتِه، ونزاهةَ عَرضِه، مما نُسِب إليه من جِهَةِ امرأةِ العزيزِ، وأنَّ هذا السِّجنَ لم يكُن على أمر يَقتضِيه، بل كان ظُلماً وعُدواناً، قال: ﴿ ارجع إلى ربِّك فاسأله ما بالُ النِّسوةِ اللاتي قَطَّعن أيديهن إنَّ ربِّي بكيدهِنَّ عليمٌ ﴾.

وقد وَرَدت السنةُ بمدحه على ذلك، والتنبيهِ على فَضْلِه وشَرَفِه، وعُلُوِّ قَدْرِه وصَبْرِه ـ صلواتُ الله وسلامُه عليه ـ فَفي المسندِ والصَّحِيحَين من حديث الزُّهريِّ، عن سعيد وأبي سَلَمة، عن أبي هُرَيرة ـ رضي الله عنه ـ قال: قال رسولُ الله ـ ﷺ ـ: «نحن أحقُّ بالشكِّ من إبراهيمَ إذ قال: ﴿ ربِّ أرِني كيف تحيي الموتى قال أوَلم تؤمن قال بلى ولكن ليطمئنَّ قلبي ﴾، ويرحم الله لُوطاً لقد كان يَأوِي إلى ركنٍ شديدٍ، ولو لبثتُ في السِّجن ما لبثَ يوسفُ لأَجَبتُ الداعِيَ»[١].

---

(١) مسند الإمام أحمد ٢/٣٢٦، وفتح الباري، تفسير سورة البقرة ٨/٢٠١، ومسلم، كتاب الإيمان ١/١٣٣.

وقال الإمامُ أحمدُ أيضاً: حدثنا عفَّانُ، حدثنا حَمَّاد بن سَلَمة، حدثنا محمد بن عمرو، عن أبي سَلَمة، عن أبي هُريرة، عن النبي ـ ﷺ ـ في قوله: ﴿ فاسأله ما بالُ النِّسوةِ اللاتي قَطَّعن أيديهنَّ إن ربِّي بكَيدِهِنَّ عليمٌ ﴾، فقال رسول الله ـ ﷺ ـ: «لو كنتُ أنا لأسرعتُ الإجابةَ وما ابتغيتُ العُذْرَ»(١).

وقال عبدُ الرزَّاق: أخبرنا ابن عُيَينة، عن عمرو بن دينار، عن عكرمةَ قال: قال رسول الله ـ ﷺ ـ: «لقد عجبتُ من يوسفَ وصَبْره وكَرَمِه، والله يغفرُ له، حين سُئِلَ عن البقراتِ العجافِ والسِّمانِ، ولو كنتُ مكانه ما أجبتُهم حتى أشترط أن يُخرجُوني. ولقد عَجِبتُ من يوسفَ وصبره وكَرَمه، والله يغفرُ له حين أتاه الرسولُ، ولو كنتُ مكانه لبادرتُهم البابَ، ولكنَّه أراد أن يكون له العُذر». هذا حديثٌ مُرسَلٌ(٢).

وقوله تعالى: ﴿ قال ما خطبُكُنَّ إذ راودتنَّ يوسفَ عن نفسه ﴾، إخبارٌ عن الملك حين جَمَع النِّسوة اللاتي قَطَّعن أيديهُنَّ عند امرأة العزيز، فقال مخاطباً لهنَّ كُلِّهن، وهو يريدُ امرأةَ وزيره، وهو العزيز: ﴿ ما خَطبُكُنَّ ﴾، أي: شأنُكنَّ وخبركن ﴿ إذ راودتُنَّ يوسفَ عن نفسِهِ ﴾، يعني يومَ الضِّيافة، ﴿ قلن حاشَ لله ما عَلِمنا عليه من سوءٍ ﴾، أي: قالت النسوةُ جواباً للملك: حاشَ لله أن يكونَ يوسفُ مُتَّهماً، والله ما عَلِمنا عليه من سُوءٍ. فعند ذلك ﴿ قالت امرأةُ العزيز الآنَ حَصْحَصَ الحقُّ ﴾، قال ابن عباس، ومجاهد، وغير واحد: تقولُ: الآن تَبَيَّن الحقُّ وظَهَر وبَرَز.

﴿أنا راودتُه عن نفسِهِ وإنه لمن الصَّادِقين ﴾، أي في قوله: ﴿ هِيَ راوَدَتني عن نَفْسِي ﴾، ﴿ ذلك لِيعلَمَ أنِّي لم أَخُنه بالغَيب ﴾، تقول: إنما اعترفتُ بهذا على نفسي، ذلك ليعلَمَ زَوجي أني لم أَخُنه في نفسِ الأمرِ، ولا وَقَع المحذورُ الأكبرُ، وإنما راودتُ هذا الشابَّ مُراوَدَةً فامتنعَ، فلهذا اعترفتُ لِيعلَمَ أني بريئة، ﴿ وأن الله لا يهدي كيدَ الخائنين * وما أُبرِّىء نفسي ﴾، تقول المرأة: ولستُ أُبرِّىء نفسي؛ فإن النفس تَتَحدَّث وتَتَمنَّى، ولهذا راودتُه لأنها أَمَّارةٌ بالسُّوءِ، ﴿ إلا ما رَحِم ربي ﴾، أي: إلا من عَصَمه الله تعالى، ﴿ إنَّ ربي غفورٌ رحيمٌ ﴾.

وهذا القولُ هو الأشهرُ والأنسبُ بسياقِ القصَّةِ ومعاني الكلام. وقد حكاه الماورديُّ في تَفْسيره، وانتدبَ لنصره الإمامُ العلامةُ أبو العباس ابن تَيميَّة ـ رَحِمَه الله ـ فأفرده بتصنيفٍ على حِدَةٍ(٣).

وقد قيل: إن ذلك من كلام يوسفَ عليه السلام، من قوله: ﴿ ذلك ليعلم أني لم أَخُنه ﴾ في زوجته ﴿ بالغَيب ﴾ . . . الآيتين، أي: إنما رَدَدْتُ الرسولَ ليعلم الملك بَراءَتي وليعلم العزيزُ ﴿ أني لم أَخُنه ﴾ في زوجته ﴿بالغيب وأن الله لا يهدي كيد الخائنين * وما أُبرِّيء نفسِي إن النفسَ لأمارةٌ بالسوء ﴾، وهذا القولُ هو الذي لم يحكِ ابنُ جرير ولا ابن أبي حاتم سواه.

وقال ابنُ جرير: حَدَّثنا أبو كُرَيب، حدثنا وكيع، عن إسرائيلَ، عن سِماكٍ، عن عكرمةَ، عن ابن عباسٍ قال: لما جمع المَلِكُ النسوةَ فسألهن: هل راودتُنَّ يوسفَ عن نفسه؟ ﴿ قلن حاشَ لله ما عَلِمنا عليه من سُوءٍ قالت امرأةُ العزيز الآن حَصْحَصَ الحقُّ أنا راودتُه عن نفسِه وإنَّه لمن الصَّادِقين ﴾ قال يوسف: ﴿ ذلك ليعلَمَ أنِّي لم أَخُنه بالغيب﴾. قال: فقال له جبريلُ عليه السلامُ: ولا يوم هَمَمتَ بما هَمَمتَ به؟ فقال: ﴿ وما أبرىء نفسي إن النفسَ لأمارة بالسُّوءِ ﴾(٤).

---

(١) مسند الإمام أحمد ٢/٣٨٩.

(٢) تفسير الطبري ١٢/٢٣٥ ـ ٢٣٦. وقد وصله ابن جرير في تاريخه ١/٢٤٠، كما ذكر محقق تفسير سورة يوسف من تفسير القرآن العظيم لابن أبي حاتم، وانظر فتح الباري ١٢/٢٨٢ ـ ٢٨٣.

(٣) انظر دقائق التفسير ٣/٢٨٠. (٤) تفسير الطبري ١٣/١.

وهكذا قال مجاهدٌ، وسعيد بن جُبَير، وعكرمةُ، وابنُ أبي الهُذَيل، والضَّحَّاكُ، والحسنُ، وقتادةُ، والسديُّ.

والقول الأول أقوى وأظهر؛ لأن سياق الكلام كلِّه من كلامِ امرأةِ العزيزِ بحضرةِ الملك، ولم يكن يوسفُ ـ عليه السلام ـ عندهم، بل بعد ذلك أحضره الملكُ.

﴿ وَقَالَ ٱلْمَلِكُ ٱئْتُونِى بِهِۦٓ أَسْتَخْلِصْهُ لِنَفْسِى ۖ فَلَمَّا كَلَّمَهُۥ قَالَ إِنَّكَ ٱلْيَوْمَ لَدَيْنَا مَكِينٌ أَمِينٌ ﴿٥٤﴾ قَالَ ٱجْعَلْنِى عَلَىٰ خَزَآئِنِ ٱلْأَرْضِ ۖ إِنِّى حَفِيظٌ عَلِيمٌ ﴿٥٥﴾ ﴾

يقول تعالى إخباراً عن الملك حين تحقَّق براءة يوسف ـ عليه السلام ـ ونزاهَة عِرْضِهِ مما نُسِب إليهم، قال: ﴿ ائتوني به أَستخلِصْهُ لنفسِي ﴾، أي: أجعله من خاصّتي وأهل مَشُورتي. ﴿ فلما كلَّمه ﴾، أي: خاطبه الملك وعَرَفه ورأى فضله وبراعته، وعلم ما هو عليه من خَلْق وخُلُق وكَمال قال له الملك: ﴿ إنكَ اليومَ لدينا مَكِينٌ أَمِينٌ ﴾، أي: إنك عندنا قد بَقِيتَ ذا مكانةٍ وأمانةٍ، فقال يوسفُ ـ عليه السلام ـ: ﴿ اجعلني على خزائِنِ الأرضِ إني حفيظٌ عليمٌ ﴾، مدح نفسه، ويجوزُ للرجل ذلك إذا جُهِل أمرُه، للحاجة. وذكر أنه ﴿ حَفِيظٌ ﴾، أي: خازن أمين، ﴿ عليم ﴾، ذو علم وبصَر بما يتولاه.

قال شيبةُ بن نعامةَ: حَفِيظ لما استودعتني، عليم بِسِني الجَدْبِ. رواه ابن أبي حاتم.

وسأل العملَ لِعِلْمِه بِقُدرته عليه، ولما في ذلك من المصالح للناس، وإنما سأل أن يُجْعَل على خَزَائن الأرض، وهي الأهراء(١) التي يجمع فيها الغلات، لما يستقبلونه من السِّنين التي أخبرهم بشأنها، لِيتصرَّفَ لهم على الوجهِ الأحوطِ والأصلحِ والأرشدِ. فأُجيبَ إلى ذلك رغبةً فيه، وتكرِمَةً له، ولهذا قال تعالى:

﴿ وَكَذَٰلِكَ مَكَّنَّا لِيُوسُفَ فِى ٱلْأَرْضِ يَتَبَوَّأُ مِنْهَا حَيْثُ يَشَآءُ ۚ نُصِيبُ بِرَحْمَتِنَا مَن نَّشَآءُ ۖ وَلَا نُضِيعُ أَجْرَ ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿٥٦﴾ وَلَأَجْرُ ٱلْءَاخِرَةِ خَيْرٌ لِّلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَكَانُوا۟ يَتَّقُونَ ﴿٥٧﴾ ﴾

يقول تعالى: ﴿ وكذلك مَكَّنا ليوسفَ في الأرض ﴾، أي: أرضِ مصرَ، ﴿ يَتَبوَّأُ منها حيث يشاءُ ﴾. قال السِّديّ، وعبدُ الرحمن بن زيد بن أسلَمَ: يتصرَّف فيها كيف يشاء. وقال ابنُ جرير: يَتَّخِذُ منها منزلاً حيث يشاء، بعد الضيق والحَبْسِ والإسارِ. ﴿ نُصِيب بِرَحمَتِنا مَن نشاءُ ولا نُضِيع أجر المحسنين ﴾، أي: وما أضعنا صَبْرَ يوسفَ على أذى إخوتِهِ، وَصَبْرَه على الحبس بِسَببِ امرأةِ العَزيزِ، فلهذا أعقبه الله ـ عز وجل ـ السلامةَ والنصرَ والتأييد، ﴿ولا نُضِيع أجرَ المحسنين * ولأجرُ الآخرةِ خيرٌ للذين آمنوا وكانوا يتقون﴾، يُخبر تعالى أن ما ادَّخره الله لنبيه يوسف ـ عليه السلام ـ في الدار الآخرة أعظمُ وأكثرُ وأجلُّ مما خَوَّله من التصرُّفِ والنفوذ في الدنيا، كما قال تعالى في حق سليمان عليه السلام: ﴿ هذا عطاؤنا فامنُن أو أمسك بغير حساب * وإن له عندنا لزُلفى وحسن مآب ﴾.

والغرضُ أن يوسف ـ عليه السلام ـ ولاّه مَلِكُ مصر الريَّانُ بن الوليد الوزارةَ في بلاد مصر، مكانَ الذي اشتراه من مصر زَوجِ التي رَاودَته، وأسلم الملكُ على يَدَي يوسفَ عليه السلام. قاله مجاهد.

وقال محمدُ بن إسحاق لما قال يوسف للملك: ﴿ اجعلني على خزائن الأرضِ إني حفيظٌ عَليم ﴾، قال

(١) الأهراء: جمع هُرْي، وهو: بيت كبير ضخم يُجمَعُ فيه الطعامُ.

الملك: قد فعلتُ. فَوَلّاه فيما ذكروا عَمَل إطفير، وعَزَل إطفير عما كان عليه، يقول الله ـ عزَّ وجلَّ ـ: ﴿ وكذلك مكنّا ليوسفَ في الأرض يتبوَّأ منها حيث يشاء نُصِيب برحمتنا من نشاء ولا نُضِيع أجرَ المُحسِنينَ ﴾، قال: فذُكر لي ـ والله أعلم ـ أن إطفير هَلَكَ في تلك الليالي، وأن الملك الريَّان بنَ الوليد زوَّج يوسف امرأة إطفير: راعيل، وأنها حين دخلت عليه قال: أليس هذا خيراً مما كنتِ تُريدين؟ قال: فيزعمون أنها قالت: أيُّها الصديقُ، لا تَلُمني، فإني كنتُ امرأةً كما ترى حسناء جميلة، ناعمةً في مُلْكٍ ودنيا، وكان صاحبي لا يأتي النساءَ، وكنتَ كما جعَلَك الله في حُسنك وهَيئتك على ما رأيتَ. فيَزعُمون أنه وجدَها عذراء، فأصابها فَولدت له رجلين أفرائيم بن يوسف، وميشا بن يوسف[1]. وولد لأفرائيم نُونُ، والد يُوشَع بن نُونَ، ورحمةُ امرأةُ أيوبَ عليه السلام.

وقال الفُضَيل بن عياض: وقفت امرأةُ العزيزِ على ظهر الطريق حتى مَرَّ يوسفَ، فقالت: الحمدُ لله الذي جَعَل العبيد مُلوكاً بطاعَتِه، والملوكَ عَبيداً بمعصيَتِه.

﴿ وَجَآءَ إِخْوَةُ يُوسُفَ فَدَخَلُواْ عَلَيْهِ فَعَرَفَهُمْ وَهُمْ لَهُۥ مُنكِرُونَ ﴿٥٨﴾ وَلَمَّا جَهَّزَهُم بِجَهَازِهِمْ قَالَ ٱئْتُونِى بِأَخٍ لَّكُم مِّنْ أَبِيكُمْ ۚ أَلَا تَرَوْنَ أَنِّىٓ أُوفِى ٱلْكَيْلَ وَأَنَا۠ خَيْرُ ٱلْمُنزِلِينَ ﴿٥٩﴾ فَإِن لَّمْ تَأْتُونِى بِهِۦ فَلَا كَيْلَ لَكُمْ عِندِى وَلَا تَقْرَبُونِ ﴿٦٠﴾ قَالُواْ سَنُرَٰوِدُ عَنْهُ أَبَاهُ وَإِنَّا لَفَٰعِلُونَ ﴿٦١﴾ وَقَالَ لِفِتْيَٰنِهِ ٱجْعَلُواْ بِضَٰعَتَهُمْ فِى رِحَالِهِمْ لَعَلَّهُمْ يَعْرِفُونَهَآ إِذَا ٱنقَلَبُوٓاْ إِلَىٰٓ أَهْلِهِمْ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ ﴿٦٢﴾ ﴾

ذكر السُّديّ، ومحمد بن إسحاق، وغيرهما من المفسرين: أنَّ السببَ الذي أقدمَ إخوةَ يُوسُفَ بلادَ مصرَ، أن يوسف ـ عليه السلام ـ لما باشر الوزارة بمصر، ومَضَت السبعُ السنينُ المُخصِبةُ، ثم تلتها سنينُ الجَدْبِ، وعَمَّ القحطُ بلادَ مصرَ بكَمالِها، ووصلَ إلى بلاد كنعان، وهي التي فيها يعقوبُ ـ عليه السلام ـ وأولادُه. وحينئذٍ احتاط يوسفُ ـ عليه السلام ـ للناس في غَلّاتهم، وجَمعها أحسنَ جَمْعٍ، فَحَصَلَ من ذلك مبلغ عظيم، وأَهراءُ[2] متعددة هائلة، ووَرَد عليه الناسُ من سائر الأقاليم والمعاملات، يمتارون لأنفسهم وعيالهم، فكان لا يُعطى الرجلُ أكثَرَ من حمل بعير في السنةِ. وكان عليه السلام لا يُشبِعُ نفسه ولا يأكل هو والمَلِكُ وجنودُهما إلا أكلةً واحدةً في وسط النهار، حتى يتكفى الناسُ بما في أيديهم مُدَّة السبع سنين. وكان رحمةً من الله على أهلِ مصرَ.

وما ذكره بعضُ المفسرين من أنه باعهم في السنة الأولى بالأموال، وفي الثانية بالمَتَاع، وفي الثالثة بكذا، وفي الرابعة بكذا، حتى باعهم بأنفسهم وأولادِهم بعد ما تَملَّك عليهم جميعَ ما يملكون، ثم أعتقهم ورَدَّ عليهم أموالَهم كلها، الله أعلمُ بصحة ذلك، وهو من الإسرائيليات التي لا تُصدَّق ولا تُكَذَّب.

والغرضُ أنه كان في جُملَة من ورد للمِيرةِ إخوةُ يوسفَ، عن أمر أبيهم لهم في ذلك، فإنه بلغهم أن عزيزَ مصرَ يُعطي الناسَ الطعام بثمنه، فأخذُوا معهم بضاعة يعتاضون بها طعاماً، ورَكِبوا عشرة نَفَرٍ، واحتبس يعقوبُ ـ عليه السلام ـ عنده بنيامين شقيقَ يوسفَ ـ عليهما السلام ـ وكان أحب وَلَده إليه بعدَ يُوسُفَ. فلما دَخلوا على يوسف وهو جالسٌ في أُبهته ورياستِه وسيادته عَرَفهم حين نظر إليهم، ﴿ وهم له مُنكِرُون ﴾، أي: لا يَعرِفُونه، لأنهم فارقُوه وهو صغيرحَدَثٌ فباعُوه للسيارة، ولم يدرُوا أين يذهبونَ به، ولا كانوا يستَشعِرُون في أنفسهم أن يصيرَ إلى ما صار إليه، فلهذا لم يَعرِفوه، وأما هُو فعَرَفهم.

---

(١) أخرجه الطبري ١٣/ ٦.

(٢) الأهراء: تقدّم تفسيرها من قريب.

فذكَر السدِّيُّ وغيره أنه شرَع يخاطبهم، فقال لهم كالمنكر عليهم: ما أقدمكم بلادي؟ قالوا: أيُّها العزيزُ، إنا قَدمنا للميرة. قال: فَلَعلَّكم عيون؟ قالوا: معاذ الله. قال: فمن أين أنتم؟ قالوا: من بلاد كَنْعانَ، وأبونا يعقوبُ نبيُّ الله. قال: وله أولادٌ غيركم؟ قالوا: نعم، كنا اثنَي عشر، فذَهَب أصغرُنا، هلك في البرِّية، وكان أحبَّنا إلى أبيه، وبَقِي شقيقُه فاحتبسه أبوه ليتسلَّى به عنه. فأمر بإنزالهم وإكرامهم.

﴿ ولما جهَّزهم بجهازهم ﴾، أي: وَفَّاهم كَيْلهم، وحَمَّل لهم أحمالهم قال: ائتوني بأخيكم هذا الذي ذكرتُم لأعلَمَ صدقكم فيما ذكرتم، ﴿ ألا تَرَون أنّي أُوفي الكيلَ وأنا خيرُ المنزلين ﴾، يُرَغِّبهم في الرجوع إليه، ثم رَهَّبَهم فقال: ﴿ فإن لم تَأتوني به فلا كيلَ لكم عِنْدِي ولا تقرَبُونِ ﴾، أي: إن لم تَقْدَموا به معكم في المرَّة الثانية فليس لكم عندي ميرةٌ، ﴿ ولا تَقْرَبُونِ * قالوا سَنُراوِدُ عنه أباه وإنا لفاعِلُون ﴾، أي: سَنَحرِصُ على مجيئه إليكَ بكلِّ ممكنٍ ولا نُبقِي مجهوداً لتعلم صدقنا فيما قلناه.

وذَكَر السديُّ أنه أخذَ منهم رهائنَ حتى يَقْدَموا به معهم. وفي هذا نظر؛ لأنه أحسن إليهم ورغَّبهم كثيراً، وهذا لحرصه على رُجُوعهم.

﴿ وقال لِفتيَته ﴾[1]، أي: غِلْمانه، ﴿ اجعَلُوا بِضَاعتهم ﴾، وهي التي قَدِمُوا بها ليمتارُوا عِوَضاً عنها ﴿ في رِحَالِهم ﴾ أي: في أمتعتهم من حيثُ لا يَشعُرون، ﴿ لعلهم يَرْجِعون ﴾ بها.

قيل: خَشِي يوسفُ ـ عليه السلام ـ ألَّا يكون عِندهم بضاعةٌ أخرى يرجعون للميرة بها. وقيل: تَذَمَّمَ[2] أن يأخذ من أبيه وإخوته عِوَضاً عن الطعام. وقيل: أراد أن يَرُدَّهم إذا وجدوها في متاعهم تَحَرُّجاً وتورُّعاً لأنه يعلم ذلك منهم. والله أعلم.

﴿ فَلَمَّا رَجَعُوٓا إِلَىٰٓ أَبِيهِمْ قَالُوا۟ يَٰٓأَبَانَا مُنِعَ مِنَّا ٱلْكَيْلُ فَأَرْسِلْ مَعَنَآ أَخَانَا نَكْتَلْ وَإِنَّا لَهُۥ لَحَٰفِظُونَ ﴿٦٣﴾ قَالَ هَلْ ءَامَنُكُمْ عَلَيْهِ إِلَّا كَمَآ أَمِنتُكُمْ عَلَىٰٓ أَخِيهِ مِن قَبْلُ فَٱللَّهُ خَيْرٌ حَٰفِظًا وَهُوَ أَرْحَمُ ٱلرَّٰحِمِينَ ﴿٦٤﴾ ﴾

يخبر تعالى عنهم أنهم لما رَجَعُوا إلى أبيهم ﴿ قالوا يا أبانا مُنِعَ منا الكيلُ ﴾، يعنون بعدَ هذه المرَّة، إن لم تُرسِل معنا أخانا بنيامينَ فأرسله معنا نَكتَل.

وقرأ بعضهم بالياء، أي: يَكتَلْ هُو، ﴿ وإنا له لحافظون ﴾، أي: لا تَخَف عليه فإنه سَيَرجع إليك. وهذا كما قالوا له في يوسفَ: ﴿ أرسله معنَا غداً يرتَعْ ويَلْعَب وإنا له لحافظون ﴾، ولهذا قال لهم: ﴿ هل آمنكم عليه إلا كما أمِنتُكم على أخيه من قبلُ ﴾، أي: هل أنتم صَانِعُونَ به إلا كما صنعتُم بأخيه من قبل، تُغَيِّبونه عني، وتَحُولون بيني وبينه، ﴿ فالله خيرٌ حفظاً ﴾. وقرأ بعضُهم: ﴿ حافظاً ﴾[3]، ﴿ وهو أرحمُ الراحمين ﴾، أي: هو أرحمُ الراحمين بي، وسيرحَمُ كِبَرِي وضَعفِي وَوَجْدِي بولَدِي، وأرجُو من الله أن يردَّه عليَّ، ويجمَعَ شملي به، إنه أرحمُ الراحِمِينَ.

﴿ وَلَمَّا فَتَحُوا۟ مَتَٰعَهُمْ وَجَدُوا۟ بِضَٰعَتَهُمْ رُدَّتْ إِلَيْهِمْ ۖ قَالُوا۟ يَٰٓأَبَانَا مَا نَبْغِى ۖ هَٰذِهِۦ بِضَٰعَتُنَا رُدَّتْ إِلَيْنَا ۖ

---

(١) قرأ حفص وحمزة والكسائي: ﴿لِفِتْيَانِهِ﴾. وقرأ باقي السبعة ﴿لِفِتْيَتِهِ﴾، بدون ألف وبالتاء بدل النون. انظر الإقناع لابن الباذش ٢/٦٧٢.

(٢) أي: استنكف واستحيا.

(٣) كذلك قرأ حفص وحمزة والكسائي: ﴿حافظاً﴾، بالألف، وقرأ الباقون بكسر الحاء وسكون الفاء: ﴿حِفْظاً﴾. الإقناع ٢/٦٧٢.

وَنَمِيرُ أَهْلَنَا وَنَحْفَظُ أَخَانَا وَنَزْدَادُ كَيْلَ بَعِيرٍ ذَلِكَ كَيْلٌ يَسِيرٌ ﴿٦٥﴾ قَالَ لَنْ أُرْسِلَهُ مَعَكُمْ حَتَّى تُؤْتُونِ مَوْثِقًا مِنَ اللَّهِ لَتَأْتُنَّنِي بِهِ إِلَّا أَنْ يُحَاطَ بِكُمْ فَلَمَّا آتَوْهُ مَوْثِقَهُمْ قَالَ اللَّهُ عَلَى مَا نَقُولُ وَكِيلٌ ﴿٦٦﴾ ﴾

يقولُ تعالى: ولـما فَتح إخوةُ يوسفَ متاعهم وجدُوا بضاعتهم رُدَّت إليهم، وهي التي كان أمر يوسفُ فتيانه بوضعها في رحالهم، فلما وجدُوها في متاعهم ﴿ قالوا يا أبانا ما نَبْغي ﴾، أي: ماذا نريد؟ ﴿ هذه بضاعتُنا رُدَّت إلينا ﴾، كما قال قتادةُ: ما نبغي وَرَاء هذا؟! إنَّ بضاعتنا رُدَّت إلينا وقد أُوفي لنا الكيلُ[1]. ﴿ ونَميرُ أهلنا ﴾، أي: إذا أرسلت أخانا مَعَنا نأتي بالميرة إلى أهلنا، ﴿ ونحفظُ أخانا ونزدادُ كَيْلَ بَعيرٍ ﴾. وذلك أن يُوسُفَ ـ عليه السلام ـ كان يُعطِي كُلَّ رَجُلٍ حِمْلَ بَعيرٍ. وقال مجاهدٌ: حِمْلَ حِمَارٍ. وقد يُسَمَّى في بعض اللغات بعيراً، كذا قال. ﴿ ذلك كَيلٌ يسيرٌ ﴾، هذا من تمام الكلام وتَحسِينه، أي: إن هذا يسير في مقابلة أَخذِ أَخِيهم ما يَعدِلُ هذا. ﴿ قال لن أُرسِلَه معكُم حتى تُؤتونِ مَوْثِقاً من الله ﴾، أي: تَحلِفُون بالعهودِ والمواثيقِ، ﴿ لَتَأْتُنَّني بِهِ إلاّ أن يُحاط بِكُم ﴾، إلا أن تُغلَبُوا كُلُّكُم ولا تَقدِرُون على تخليصه. ﴿ فلما آتوه مَوثِقهم ﴾، أكَّده عليهم فقال: ﴿ الله على ما نقولُ وَكِيلٌ ﴾.

قال ابن إسحاق: وإنما فَعَل ذلك، لأنه لم يجد بُدّاً من بعثهم لأجلِ المِيرَةِ التي لا غِنَى لهم عنها، فَبَعثه معهم.

﴿ وَقَالَ يَا بَنِيَّ لَا تَدْخُلُوا مِنْ بَابٍ وَاحِدٍ وَادْخُلُوا مِنْ أَبْوَابٍ مُتَفَرِّقَةٍ وَمَا أُغْنِي عَنْكُمْ مِنَ اللَّهِ مِنْ شَيْءٍ إِنِ الْحُكْمُ إِلَّا لِلَّهِ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَعَلَيْهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُتَوَكِّلُونَ ﴿٦٧﴾ وَلَمَّا دَخَلُوا مِنْ حَيْثُ أَمَرَهُمْ أَبُوهُمْ مَا كَانَ يُغْنِي عَنْهُمْ مِنَ اللَّهِ مِنْ شَيْءٍ إِلَّا حَاجَةً فِي نَفْسِ يَعْقُوبَ قَضَاهَا وَإِنَّهُ لَذُو عِلْمٍ لِمَا عَلَّمْنَاهُ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٦٨﴾ ﴾

يقولُ تعالى إخباراً عن يعقوبَ ـ عليه السلام ـ: إنه أَمَر بنيه لَمَّا جهَّزهم مع أخيهم بنيامين إلى مصر أَلاَّ يدخلوا كُلُّهم من باب واحد، ولْيدخلُوا من أبوابٍ مُتفرِّقة، فإنه كما قال ابنُ عباس، ومحمدُ بن كعب، ومجاهدٌ، والضحَّاكُ، وقتادةُ، والسديُّ: إنه خشي عليهم العين، وذلك أنهم كانوا ذَوِي جَمالٍ وهَيئةٍ حَسنةٍ، ومنظرٍ وبَهاءٍ، فَخشِي عليهم أن يُصِيبهم الناسُ بعيونهم؛ فإن العينَ حَقٌّ[2]، تستنزل الفَارِس عن فرسه.

وروى ابنُ أبي حاتم، عن إبراهيم النَّخعِيِّ في قوله: ﴿ وادخلُوا من أبواب مُتفرِّقة ﴾، قال: عَلِم أنه سيلقى إخوته في بعض الأبواب.

وقولُه: ﴿ وما أُغني عنكم من الله من شيء ﴾، أي: هذا الاحترازُ لا يردُّ قدرَ الله وقضاءه؛ فإن الله إذا أراد شيئاً لا يُخالَفُ ولا يُمانَعُ، ﴿ إنِ الحكمُ إلا لله عليه توكلتُ وعليه فَلْيتوكَّلِ المتوكلون * ولما دَخلُوا من حيثُ أَمرَهم أبوهم ما كان يُغني عنهم من الله من شيءٍ إلا حاجةً في نفسِ يعقوبَ قضاها ﴾، قالوا: هي دفعُ إصابةِ العينِ لهم، ﴿ وإنه لذو علم لما عَلَّمناه ﴾، قال قتادة والثوريُّ: لذو عَمَل بعلمه. وقال ابنُ جرير: لذو علم لتعليمنا إياه[3]، ﴿ ولكن أكثر الناسِ لا يعلمون ﴾.

---

(١) تفسير الطبري ١٣/١١.

(٢) أخرجه البخاري ومسلم، انظر فتح الباري، كتاب الطب ١٠/٢٠٣، ومسلم، كتاب السلام ٤/١٧١٩.

(٣) تفسير الطبري ١٣/١٤ ـ ١٥.

﴿ وَلَمَّا دَخَلُوا عَلَىٰ يُوسُفَ ءَاوَىٰٓ إِلَيْهِ أَخَاهُ قَالَ إِنِّىٓ أَنَا۠ أَخُوكَ فَلَا تَبْتَئِسْ بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴿٦٩﴾ ﴾

يخبرُ تعالى عن إخوةِ يوسفَ لما قَدِموا على يوسفَ ومعهم أخوه شقيقُه بنيامينُ، فأدخلهم دار كرامته ومنزل ضيافته، وأفاض عليهم الصِّلة والألطاف[1] والإحسان، واختلى بأخيه فأطلعه على شأنِه وما جرى له، وعرَّفه أنه أخوه، وقال له: لا تَبْتَئِس، أي: لا تأسَفْ على ما صَنَعُوا بي، وأمره بكتمان ذلك عنهم، وألاَّ يُطلِعَهم على ما أطلَعه عليه من أنه أخوه، وتواطأ معه أنه سَيَحتال على أن يُبقِيه عنده مُعزَّزاً مُكرَماً مُعظَّماً.

﴿ فَلَمَّا جَهَّزَهُم بِجَهَازِهِمْ جَعَلَ ٱلسِّقَايَةَ فِى رَحْلِ أَخِيهِ ثُمَّ أَذَّنَ مُؤَذِّنٌ أَيَّتُهَا ٱلْعِيرُ إِنَّكُمْ لَسَٰرِقُونَ ﴿٧٠﴾ قَالُوا وَأَقْبَلُوا عَلَيْهِم مَّاذَا تَفْقِدُونَ ﴿٧١﴾ قَالُوا نَفْقِدُ صُوَاعَ ٱلْمَلِكِ وَلِمَن جَآءَ بِهِۦ حِمْلُ بَعِيرٍ وَأَنَا۠ بِهِۦ زَعِيمٌ ﴿٧٢﴾ ﴾

لَمَّا جَهَّزهم وحَمَّل لهم أبعرتهم طعاماً أَمَر بعضَ فتيانه أن يَضَع «السقاية»، وهي: إناءٌ من فِضَّةٍ في قولِ الأكثرين. وقيل: من ذَهَبٍ ـ قاله ابنُ زيد ـ كان يشرب فيه، ويَكِيل الناسَ به من عِزَّة الطعامِ إذ ذاك، قاله ابن عباس، ومجاهدٌ، وقتادةُ، والضحَّاكُ، وعبدُ الرحمن بنُ زيدٍ.

وقال شعبة، عن أبي بشر، عن سعيد بن جُبَير، عن ابن عباس: صُوَاع الملك قال: كان من فضة يَشْرَبون فيه، وكان مثل المَكُّوكِ[2]، وكان للعباس مثلُه في الجاهلية، فوضعها في متاع بنيامينَ من حيث لا يشعرُ أحد، ثم نادى منادٍ بينهم: ﴿ أَيَّتُها العير إنكم لسارِقُون ﴾، فالتفتوا إلى المنادِي وقالوا: ﴿ماذا تَفقِدُون ۞ قالوا نَفقِدُ صُوَاعَ المَلِك ﴾، أي: صاعَه الذي يَكِيل به، ﴿ ولمن جاء به حِملُ بَعيرٍ ﴾، وهذا من باب الجَعالَةِ[3]، ﴿ وأنا به زعيمٌ ﴾، وهذا من باب الضَّمانِ والكَفالَةِ.

﴿ قَالُوا تَٱللَّهِ لَقَدْ عَلِمْتُم مَّا جِئْنَا لِنُفْسِدَ فِى ٱلْأَرْضِ وَمَا كُنَّا سَٰرِقِينَ ﴿٧٣﴾ قَالُوا فَمَا جَزَٰٓؤُهُۥٓ إِن كُنتُمْ كَٰذِبِينَ ﴿٧٤﴾ قَالُوا جَزَٰٓؤُهُۥ مَن وُجِدَ فِى رَحْلِهِۦ فَهُوَ جَزَٰٓؤُهُۥ كَذَٰلِكَ نَجْزِى ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٧٥﴾ فَبَدَأَ بِأَوْعِيَتِهِمْ قَبْلَ وِعَآءِ أَخِيهِ ثُمَّ ٱسْتَخْرَجَهَا مِن وِعَآءِ أَخِيهِ كَذَٰلِكَ كِدْنَا لِيُوسُفَ مَا كَانَ لِيَأْخُذَ أَخَاهُ فِى دِينِ ٱلْمَلِكِ إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُ نَرْفَعُ دَرَجَٰتٍ مَّن نَّشَآءُ وَفَوْقَ كُلِّ ذِى عِلْمٍ عَلِيمٌ ﴿٧٦﴾ ﴾

لما اتهمهم أولئك الفتيانُ بالسرقة قال لهم إخوةُ يوسف: ﴿ تالله لقد علمتُم ما جئنا لِنُفسِدَ في الأرض وما كنا سارقين ﴾، أي: لقد تَحقَّقتُم وعَلِمتم منذ عرفتمونا ـ لأنهم شاهدوا منهم سيرةً حسنةً ـ أنَّا ما جئنا للفسادِ في الأرض، ﴿وما كنا سارِقينَ﴾، أي: ليست سَجَايانا تقتضي هذه الصفةَ. فقال لهم الفتيان: ﴿فما جزاؤُه﴾، أي: السارقِ، إن كان فيكم ﴿ إن كنتُم كاذبين ﴾، أي: أي شيء يكونُ عقوبتَه إن وَجدنا فيكم مَن أخذه؟ ﴿ قالوا جَزاؤُه من وُجِد في رَحْلِهِ فهو جزاؤُه كذلك نَجزي الظالمين ﴾.

وهكذا كانت شريعةُ إبراهيم أنَّ السارق يُدفَع إلى المسروق منه. وهذا هو الذي أراد يوسفُ عليه السلامُ، ولهذا بدأ بأوعيتهم قبل وعاء أخيه، أي: فَتَّشها قبله تَوْرِيةً، ﴿ ثم استخرجها من وعاءِ أخيهِ ﴾، فأخذَه منهم

---

(١) الألطاف: جمع لَطَفٍ، والمراد به هنا: الهديَّةُ.
(٢) المكُّوك: طاسٌ يشرب به، أعلاه ضيق ووسطه واسع.
(٣) الجَعَالةُ ـ بفتح الجيم وبكسرها ـ: ما يجعل على العمل من أَجْرٍ أو رِشْوَة.

بِحُكم اعترافهم والتزامهم وإلزاماً لهم بما يعتقدونه، ولهذا قال تعالى: ﴿ كذلك كدْنا ليوسف ﴾، وهذا من الكَيدِ المحبُوبِ المرادِ الذي يُحِبُّه الله ويرضاه، لما فيه من الحِكْمَةِ والمصلحة المطلوبة.

وَقولُه: ﴿ ما كانَ ليأخذَ أخاه في دينِ المَلِكِ ﴾، أي: لم يَكُن له أخذُه في حُكْمِ مَلِك مصرَ، قاله الضحاكُ وغيرُه.

وإنما قَيَّضَ الله له أن التَزم له إخوتُه بما التزمُوه، وهو كان يعلم ذلك من شريعتهم، ولهذا مدحه تعالى فقال: ﴿ نرفعُ دَرجاتٍ مَّن نشاءُ ﴾، كما قال تعالى: ﴿يرفَعِ الله الذين آمنوا منكم والذين أُوتُوا العِلم دَرجَاتٍ ﴾

﴿ وفوقَ كُلِّ ذي عِلْمٍ عليمٌ ﴾، قال الحسنُ البصريُّ: ليس عالم إلا فوقه عالمٌ، حتى ينتهي إلى الله عز وجل. وكذا رَوَى عبد الرزاق، عن سُفيانَ الثوريِّ، عن عبد الأعلى الثعلبي، عن سعيد بن جُبَير قال: كُنَّا عند ابنِ عَبَّاسٍ فَتحدَّث بحديثٍ عَجِيبٍ، فَتَعجَّب رجلٌ فقال: الحمدُ لله ﴿ فَوْقَ كلِّ ذي عِلْمٍ عليمٌ ﴾! فقال ابنُ عباس: بِئسَ ما قلت! الله العليمُ، وهو فوق كلِّ عالم. وكذا رَوَى سِمَاك، عن عكرمةَ، عن ابنِ عَبَّاسٍ: ﴿ وفوقَ كُلِّ ذي عِلمٍ عَلِيمٌ ﴾، قال: يكونُ هذا أعلَمَ من هذا، وهذا أعلَمُ من هذا، والله فوق كُلِّ عالمٍ. وهكذا قال عكرمة.

وقال قتادةُ: ﴿ وفوقَ كُلِّ ذي علم عليمٌ ﴾، حتى ينتهي العلمُ إلى الله، منه بُدىء وتَعلَّمت العلماءُ، وإليه يعودُ، وفي قراءة عبد الله: «وفوقَ كُلِّ عالم عليم».

﴿ ۞ قَالُوٓاْ إِن يَسۡرِقۡ فَقَدۡ سَرَقَ أَخٞ لَّهُۥ مِن قَبۡلُۚ فَأَسَرَّهَا يُوسُفُ فِي نَفۡسِهِۦ وَلَمۡ يُبۡدِهَا لَهُمۡۚ قَالَ أَنتُمۡ شَرّٞ مَّكَانٗاۖ وَٱللَّهُ أَعۡلَمُ بِمَا تَصِفُونَ ﴿٧٧﴾ ﴾

وقال إخوةُ يوسف لما رأوا الصُّواع قد أُخرِجَ من متاع بنيامينَ: ﴿ إن يَسْرِق فقد سَرَق أخٌ له من قبلُ ﴾، يَتنصَّلُون إلى العزيز من التشبُّه به، ويذكرون أن هذا فعل كما فعلَ أخٌ له من قبلُ، يعنون به يوسف عليه السلام.

قال سعيد بن جُبَير، عن قتادة: كان يوسف قد سرق صنماً لجدِّه، أبي أمه، فكَسره.

وقال محمد بن إسحاقَ، عن عبد الله بن أبي نَجيح، عن مجاهدٍ قال: كان أَوَّلُ ما دخلَ على يوسف من البلاء ـ فيما بلغني ـ أن عمَّته ابنة إسحاق، وكانت أكبَرَ ولد إسحاق، وكانت إليها مِنْطَقَةُ(٢) إسحاقَ، وكانوا يتوارثونها بالكِبَر، فكان مَن اختانَها(٣) مِمَّن وليها كان لَهُ سَلَماً لا يُنازَعُ فيه، يَصْنَعُ فيه ما يشاءُ. وكان يعقوبُ حين وُلد له يوسف قد حَضَنتهُ عمتُه، فكان منها وإليها، فلم يُحِبَّ أحدٌ شيئاً من الأشياء حُبَّها إياه، حتى إذا ترعرَعَ وبلغ سنوات وَقَعت نفسُ يعقوبَ عليه فأتاها، فقال: يا أُخيَّةُ، سَلِّمي إليّ يوسفَ، فوالله ما أقدِرُ على أن يَغِيبَ عَنِّي ساعةً. قالت: فوالله ما أنا بتاركَتِهِ. ثم قالت: فَدَعه عندي أياماً أنظر إليه وأسكُن عنه، لعل ذلك يُسَلِّيني عنه، أو كما قالت. فلما خرج من عندها يعقوبُ، عَمَدت إلى منطقة إسحاقَ، فحزمتها على يوسف من تحت ثيابه، ثم قالت: فقدتُ مِنطقَةَ إسحاق عليه السلام، فانظروا من أخذها ومن أصابها؟ فالتُمِسَتْ. ثم

(١) تفسير الطبري ١٣/٢٧.
(٢) المِنطَقَةُ والمِنْطَق: ما يُشدُّ به الوسط.
(٣) في الأصل: اختباها. والمثبت عن تفسير الطبري، تحقيق الأستاذ محمود شاكر ١٦/١٩٦ ـ ١٩٧ واختان الشيء: نقصه، واختان الأمانة: لم يؤدها، أو بعضها. ومعنى «كان له سَلَماً»، أي: كان له خالصاً لا يَشْرَكه فيه أحد.

قالت: اكشِفُوا أهلَ البيت. فكَشَفُوهم، فوجدُوها مع يوسف. فقالت: والله إنه لي لسَلَمٌ، أصنعُ فيه ما شئت. فأتاها يعقوبُ فأخبرته الخبر. فقال لها: أنت وذاك، إن كان فعل ذلك فهو سَلَم لك ما أستطيعُ غيرَ ذلك. فأمسكته فما قَدر عليه يعقوب حتى ماتت. قال: فهو الذي يقول إخوةُ يوسفَ حين صَنَع بأخيه ما صَنَع حين أخذه: ﴿ إن يَسْرِق فقد سَرَق أخٌ له من قبلُ ﴾[1].

وقولُه: ﴿ فأسرَّها يوسفُ في نفسه ﴾، يعني الكلمةَ التي بعدها، وهي قوله: ﴿ أنتم شرٌّ مكاناً والله أعلمُ بما تَصِفُون ﴾ أي: تذكرون. قال هذا في نفسه، ولم يُبدِها لهم، وهذا من باب الإضمارِ قبل الذِّكر، وهو كثيرٌ، كقول الشاعر[2]:

جَـزَى بَنُـوه أبـا الغِيلَانِ عَنْ كِبَـرٍ وَحُسْن فِعْـلٍ كمـا يُجـزَى سِنِمَّـارُ

وله شواهدُ كثيرةٌ من القرآنِ والحديثِ واللغةِ، في مَنْثُورها وأخبارِها وأشعارِها.

قال العَوفيُّ، عن ابن عباس: ﴿ فأسرَّها يوسفُ في نفسِهِ ﴾، قال: أسرَّ في نفسه: ﴿ أنتُم شرٌّ مكاناً والله أعلَمُ بما تَصِفُونَ ﴾.

﴿ قَالُواْ يَٰٓأَيُّهَا ٱلْعَزِيزُ إِنَّ لَهُۥٓ أَبًا شَيْخًا كَبِيرًا فَخُذْ أَحَدَنَا مَكَانَهُۥٓ ۖ إِنَّا نَرَىٰكَ مِنَ ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿٧٨﴾ قَالَ مَعَاذَ ٱللَّهِ أَن نَّأْخُذَ إِلَّا مَن وَجَدْنَا مَتَٰعَنَا عِندَهُۥٓ إِنَّآ إِذًا لَّظَٰلِمُونَ ﴿٧٩﴾ ﴾

لما تعيَّن أخْذُ بنيامين وتقرَّر تَركُه عند يوسفَ بمقتضى اعترافهم شرَعوا يترقَّقون له ويُعطِفُونه عليهم، فـ ﴿ قالوا يا أيُّها العزيزُ إنَّ له أباً شيخاً كبيراً ﴾، يعنونَ: وهو يُحبُّه حبّاً شَديداً ويتسلَّى به عن وَلَده الذي فقده، ﴿ فخُذْ أحدَنا مكانه ﴾، أي: بَدَله يكونُ عِندَكَ عِوضاً عنه، ﴿ إنا نراك من المُحسِنين ﴾، أي: من العادلين المُنصِفين القابلين للخير، ﴿ قال معاذ الله أن نأخُذَ إلا مَن وَجَدْنا متاعنا عِندَه ﴾، أي: كما قلتم واعترفتم، ﴿ إنا إذاً لظالمون ﴾، إن أخذنا بريئاً بسقيم.

﴿ فَلَمَّا ٱسْتَيْـَٔسُواْ مِنْهُ خَلَصُواْ نَجِيًّا ۖ قَالَ كَبِيرُهُمْ أَلَمْ تَعْلَمُوٓاْ أَنَّ أَبَاكُمْ قَدْ أَخَذَ عَلَيْكُم مَّوْثِقًا مِّنَ ٱللَّهِ وَمِن قَبْلُ مَا فَرَّطتُمْ فِى يُوسُفَ ۖ فَلَنْ أَبْرَحَ ٱلْأَرْضَ حَتَّىٰ يَأْذَنَ لِىٓ أَبِىٓ أَوْ يَحْكُمَ ٱللَّهُ لِى ۖ وَهُوَ خَيْرُ ٱلْحَٰكِمِينَ ﴿٨٠﴾ ٱرْجِعُوٓاْ إِلَىٰٓ أَبِيكُمْ فَقُولُواْ يَٰٓأَبَانَآ إِنَّ ٱبْنَكَ سَرَقَ وَمَا شَهِدْنَآ إِلَّا بِمَا عَلِمْنَا وَمَا كُنَّا لِلْغَيْبِ حَٰفِظِينَ ﴿٨١﴾ وَسْـَٔلِ ٱلْقَرْيَةَ ٱلَّتِى كُنَّا فِيهَا وَٱلْعِيرَ ٱلَّتِىٓ أَقْبَلْنَا فِيهَا ۖ وَإِنَّا لَصَٰدِقُونَ ﴿٨٢﴾ ﴾

يخبر تعالى عن إخوة يوسُفَ أنهم لما يَئِسُوا من تخليص أخيهم بنيامين، الذي قد التزمُوا لأبيهم بردِّه إليه، وعاهَدُوه على ذلك، فامتنع عليهم ذلك، ﴿ خلَصُوا ﴾، أي: انفردوا عن الناس ﴿ نَجِيّاً ﴾ يتناجَون فيما بينهم.

﴿ قال كبيرُهم ﴾، وهو رُوبيل، وقيل: يَهُوذا، وهو الذي أشار عليهم بإلقائِهِ في البئر عندما هَمُّوا بقتله، قال لهم: ﴿ ألم تعلَمُوا أن أباكم قد أخَذ عليكم مَوثِقاً من الله ﴾ لتَرُدُّنَّه إليه، فقد رأيتم كيف تعذَّر عليكم ذلك

(١) أخرجه الطبري في تفسيره ١٣/٢٩، وكذلك ابن أبي حاتم، والقرطبي ٩/٢٣٩.

(٢) هو: سليط بن سعد. انظر أمالي الشجري ١/١٠١، وشرح الكافية الشافية لابن مالك ٢/٥٨٧، ٤/١٧٥٦.

مع ما تقدَّم لكم من إضاعةِ يوسفَ عنه، ﴿ فَلَن أبرحَ الأرضَ ﴾، أي: لن أُفارقَ هذه البلدةَ، ﴿ حتى يأذَنَ لي أبي ﴾ في الرجوعِ إليه راضياً عني، ﴿ أو يحكُم الله لي ﴾، قيل: بالسَّيفِ[1]. وقيل: بأن يمكنَني من أَخْذِ أخِي، ﴿ وهو خيرُ الحَاكِمين ﴾.

ثم أمرهم أن يُخبِرُوا أباهم بِصُورة ما وقع حتى يَكُونَ عُذراً لهم عنده ويتنصَّلُوا إليه، ويبرءوا مما وقع بقولهم.

وقوله: ﴿ وما كنا للغيب حَافظين ﴾ قال عكرمة وقتادة: ما نعلم أن ابنَك سَرَق.

وقال عبدُ الرحمن بن زيد بن أسلم: ما عَلِمنا في الغيب أنه يَسْرِق له شيئاً، إنما سَأَلْنا: ما جَزَاءُ السَّارِقِ[2]؟

﴿ واسأل القرية التي كُنَّا فيها ﴾، قيل: المراد مصرُ. قاله قتادة، وقيل: غيرها، ﴿ والعيرَ التي أقبلنا فيها ﴾، أي: التي رافقناها، عن صِدْقنا وأمانتنا وحِفظنا وحِرَاسَتِنا، ﴿ وإنا لصادقون ﴾ فيما أخبرناك به، من أنه سرق وأخذوه بسرقته.

﴿ قَالَ بَلْ سَوَّلَتْ لَكُمْ أَنفُسُكُمْ أَمْرًا فَصَبْرٌ جَمِيلٌ عَسَى ٱللَّهُ أَن يَأْتِيَنِي بِهِمْ جَمِيعًا إِنَّهُۥ هُوَ ٱلْعَلِيمُ ٱلْحَكِيمُ ﴿٨٣﴾ وَتَوَلَّىٰ عَنْهُمْ وَقَالَ يَٰٓأَسَفَىٰ عَلَىٰ يُوسُفَ وَٱبْيَضَّتْ عَيْنَاهُ مِنَ ٱلْحُزْنِ فَهُوَ كَظِيمٌ ﴿٨٤﴾ قَالُوا۟ تَٱللَّهِ تَفْتَؤُا۟ تَذْكُرُ يُوسُفَ حَتَّىٰ تَكُونَ حَرَضًا أَوْ تَكُونَ مِنَ ٱلْهَٰلِكِينَ ﴿٨٥﴾ قَالَ إِنَّمَآ أَشْكُوا۟ بَثِّى وَحُزْنِىٓ إِلَى ٱللَّهِ وَأَعْلَمُ مِنَ ٱللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴿٨٦﴾ ﴾

قال لهم كما قال لهم حين جاءُوا على قَمِيص يوسفَ بدمٍ كَذِبٍ: ﴿ بل سَوَّلت لكم أنفُسكم أمراً فصبرٌ جَمِيلٌ ﴾.

قال محمدُ بن إسحاقَ: لما جاءوا يعقوبَ وأخبرُوه بما جرى اتَّهمهم وَظنَّ أنها كَفَعلتهم بيوسف ﴿ قال بل سَوَّلت لكم أنفُسكم أمراً فصبرٌ جميلٌ ﴾.

وقال بعضُ الناس: لما كان صَنيعُهم هذا مُرتَّباً على فِعْلِهم الأولِ سُحِب حُكمُ الأوَّلِ عليه، وصَحَّ قولُه: ﴿ بل سَوَّلت لكم أنفُسكم أمراً فصبرٌ جميلٌ ﴾.

ثم تَرجَّى من الله أن يردَّ عليه أولادَه الثلاثةَ: يوسُفَ، وأخاه بنيامين، وروبيلَ الذي أقام بديار مصر ينتظر أمر الله فيه، إما أن يرضَى عنه أبوه فيأمرَه بالرجوع إليه، وإما أن يأخذَ أخاه خِفيةً، ولهذا قال: ﴿ عسى الله أن يأتيني بهم جميعاً إنه هو العليمُ ﴾، أي: العليم بحالي، ﴿ الحكيمُ ﴾ في أفعاله وقضائه وقَدَره.

﴿ وتولَّى عنهم وقال يا أسفَى على يوسُفَ ﴾، أي: أعرضَ عن بَنِيه وقال مُتذكِّراً حُزنَ يوسفَ القديمِ الأولِ: ﴿يا أسفَى على يوسُفَ﴾، جدَّدَ له حزنُ الابنين الحزنَ الدَّفِينَ.

قال عبد الرزَّاق: أخبرنا الثوريُّ، عن سفيان العُصْفُريّ، عن سعيد بن جُبَير أنه قال: لم يُعطَ أحدٌ غيرَ هذه الأمة الاسترجاع، ألا تسمَعُون إلى قول يعقوب ـ عليه السلام ـ: ﴿ يا أسفَى على يوسفَ وابيضَّت عيناه من

(١) أخرجه الطبري عن أبي صالح باذام. انظر تفسير الطبري ١٣/٣٥.
(٢) أخرجه ابن أبي حاتم، وهذا لفظه، والطبري ١٣/٣٦.

الحُزن فهو كَظِيم ﴾[1]، أي: ساكتٌ لا يشكو أمره إلى مخلوق. قاله قتادة وغيره. وقال الضحاك: ﴿ فهو كظيمٌ ﴾ كَمِيد حزينٌ.

قال ابن أبي حاتم: حدثنا أبي، [حدثنا أبو سلمة[2]]، حدثنا حماد بن سَلَمة، عن علي بن زيد، عن الحسن، عن الأحنفِ بن قيس: أن النبي ـ ﷺ ـ قال: «إن داود ـ عليه السلام ـ قال: يا ربِّ، إن بني إسرائيل يسألونك بإبراهيم وإسحاق ويعقوب، فاجعلني لهم رابعاً. فأوحى الله تعالى إليه: أن يا داودُ، إنَّ إبراهيم أُلقِي في النار بسببي فصبَر، وتلك بَلِيَّةٌ لم تَنلك، وإن إسحاقَ بذل مُهجةَ دمه في سَبَبِي فَصبر، وتلك بَلِيَّةٌ لم تَنلك. وإنَّ يعقوبَ أَخذتُ منه حَبِيبه حتى ابيضَّتْ عيناه من الحزن، فصَبر، وتلكَ بليَّة لم تَنَلْك.

وهذا مرسل، وفيه نكارة؛ فإن الصحيح أن إسماعيل هو الذَّبِيح، ولكن عليِّ بن زيد بن جُدعان له مناكيرُ وغرائبُ كثيرةٌ، والله أعلم.

وأقربُ ما في هذا أن يكونَ قد حكاه الأحنف بن قيس ـ رحمه الله ـ عن بني إسرائيلَ ككعب ووهب ونحوهما، والله أعلم، فإن الإسرائيليين ينقلون أن يعقوبَ كتَبَ إلى يوسف لما احتبس أخاه بسبب السَّرقة يتلطَّف له في رَدِّه، ويذكر له أنهم أهلُ بيتٍ مصابون بالبلاء، فإبراهيم ابتُلِي بالنار، وإسحاقُ بالذَّبح، ويعقوبُ بفراق يوسفَ، في حديث طويل لا يصحُّ ـ والله أعلم ـ فعند ذلك رقَّ له بنوه، وقالوا له على سبيل الرفق به والشفقة عليه: ﴿ تالله تفتـؤُ تذكرُ يوسفَ ﴾، أي: لا تفارق تَذكُّرَ يوسفَ، ﴿ حتى تَكُون حرضاً ﴾ أي ضَعِيفَ الجِسْمِ، ضَعِيفَ القُوَّةِ، ﴿ أو تكونَ من الهالكين ﴾، يقولون: وإن استمرَّ بك هذا الحالُ خَشِينا عليك الهلاكَ والتَّلَفَ.

﴿ قـال إنما أشكُو بَثِّي وحُزني إلى الله ﴾، أي: أجابَهم عما قالوا بقوله: ﴿ إنما أشكُو بَثِّي وحُزني ﴾، أي: هَمِّي وما أنا فيه ﴿ إلى الله ﴾ وحدَه، ﴿ وأعلَمُ من الله ما لا تعلَمُون ﴾، أي: أرجُو منه كلَّ خير.

وعن ابن عباس: ﴿ وأعلَمُ من الله ما لا تعلَمُون ﴾، أعلم أن رُؤيا يوسفَ صادقةٌ، وأني سوف أسجدُ له.

وقال ابنُ أبي حاتم: حدثنا الحسن بن عَرَفة، حدثنا يحيى بن عبد الملك بن أبي غَنيَّة، عن حفص[3] بن عُمَر، عن أبي الزبير، عن أنس بن مالك ـ رضي الله عنه ـ قال: قال رسولُ الله ـ ﷺ ـ: «كان ليعقوبَ النبيِّ ـ عليه السلام ـ أَخٌ مُؤَاخٍ له، فقال له ذات يوم: ما الذي أذهبَ بَصَرَكَ وقَوَّس ظهرك؟ قال: الذي أذهبَ بَصَري البكاءُ على يوسف، وأما الذي قَوَّس ظهري فالحزنُ على بِنْيَامِينَ. فأتاه جبريل ـ عليه السلام ـ فقال: يا يعقوبُ، إن الله يُقرئُك السلام ويقول لك: أما تَستَحي أن تَشكُوني إلى غيري؟ فقال يعقوبُ: إنما أشكُو بَثِّي وحُزني إلى الله. فقال جبريل ـ عليه السلام ـ: الله أعلَمُ بما تشكُو». وهذا حديث غريب، فيه نكارة.

---

(١) أخرجه الطبري ١٣/٣٩. وكذلك ابن أبي حاتم، ولفظه: «ما أُعطِيتْ أُمَّةٌ مثل ما أُعطِيَت هذه الأمة: ﴿الذين إذا أصابتهم مُصيبةٌ قالوا إنا لله وإنا إليه راجعون ﴾، ألم تسمع إلى قول يعقوب: ﴿ يا أسفى على يوسف ﴾، ولو أعطيها أحد أعطيها يعقوب».

(٢) عن تفسير ابن أبي حاتم. وأبو سلمة هو موسى بن إسماعيل المنقري، روى عن حماد بن سلمة، وعنه أبو حاتم. انظر الجرح والتعديل لابن أبي حاتم ٨/١٣٦.

(٣) في الأصل: عن حفص بن عمر بن أبي الزبير. ومثله في تفسير ابن أبي حاتم. ويبدو أن الصواب ما أثبتناه، فلم نجد حفصاً هذا. وأخشى أن يكون حُصَينَ بن عُمَر الأحْمَسي؛ فقد رواه الطبراني في المعجم الصغير ٢/٣٣، بإسناده إلى يحيى، عن حصين، عن أبي الزبير. وحصين هذا يروي عن أبي الزبير، ويروي عنه يحيى بن عبد الملك بن أبي غَنِيَّة. انظر تهذيب الكمال ٦/٥٢٦ ـ ٥٢٧. وقد رواه الحاكم في مستدركه ٢/٣٤٨، وفي سنده: حفص بن عُمَر بن الزبير. ثم قال: «هكذا في سماعي بخط يد: حفص بن عمر بن الزبير. وأظن الزبير وهما من الراوي، فإنه: حفص بن عُمَر بن عبد الله بن أبي طلحة الأنصاري، ابن أخي أنس بن مالك».

﴿ يَٰبَنِيَّ ٱذْهَبُواْ فَتَحَسَّسُواْ مِن يُوسُفَ وَأَخِيهِ وَلَا تَاْيْـَٔسُواْ مِن رَّوْحِ ٱللَّهِ إِنَّهُۥ لَا يَاْيْـَٔسُ مِن رَّوْحِ ٱللَّهِ إِلَّا ٱلْقَوْمُ ٱلْكَٰفِرُونَ ﴿٨٧﴾ فَلَمَّا دَخَلُواْ عَلَيْهِ قَالُواْ يَٰٓأَيُّهَا ٱلْعَزِيزُ مَسَّنَا وَأَهْلَنَا ٱلضُّرُّ وَجِئْنَا بِبِضَٰعَةٍ مُّزْجَىٰةٍ فَأَوْفِ لَنَا ٱلْكَيْلَ وَتَصَدَّقْ عَلَيْنَآ إِنَّ ٱللَّهَ يَجْزِى ٱلْمُتَصَدِّقِينَ ﴿٨٨﴾ ﴾

يقولُ تعالى مخبراً عن يعقوب ـ عليه السلام ـ أنه نَدَب بَنِيه على الذَّهاب في الأرض، يَستعلِمُون أخبارَ يوسف وأخيه بنيامين ـ والتَحسُّسُ يكونُ في الخير، والتَجسُّسُ يُستعمَلُ في الشرِّ ـ ونَهَّضَهم وبَشَّرهم وأمرهم ألَّا ييأسُوا من روح الله، أي: لا يقطَعُوا رَجاءَهم وأَمَلَهم من الله فيما يَرُومونه ويَقصِدُونه، فإنه لا يقطَعُ الرَّجاءَ ويقطَعُ بالإياسِ من الله إلا القومُ الكافِرُونَ.

وقولُه: ﴿ فلما دَخلُوا عليه ﴾، تقديرُ الكَلام: فَذَهبوا فدخَلُوا بلد مصر، ودَخَلُوا على يوسف، ﴿ قالوا يا أيُّها العزيزُ مَسَّنا وأهلَنا الضرُّ ﴾، يعنون من الجَدْبِ والقَحط وقلَّة الطعام، ﴿ وَجِئنا بِبِضَاعةٍ مُزجَاة ﴾، أي: ومعنا ثمنُ الطعام الذي نمتارُه، وهو ثمنٌ قليلٌ. قاله مجاهدٌ، والحسنُ، وغيرُ واحد.

وقال ابنُ عباس: الرديءُ لا يَنفُق، مثل خَلَق[1] الغِرارة، والحَبْلِ، والشيء. وفي رواية عنه: الدراهمُ الرديئة التي لا تجوزُ إلا بنقصان. وكذا قال قتادة، والسدِّيُّ. وقال سعيد بن جبير: هي الدراهم الفُسُول[2]. وقال أبو صالح: هو الصَّنَوبرُ وحبة الخضراء[3]. وقال الضحاك: كاسدة لا تنفُق، وقال أبو صالح: جاءوا بحَبِّ البُطْم الأخضر والصَّنوبرُ[3].

وأصلُ الإزجاء: الدفعُ لضعف الشيءِ، كما قال حاتم الطائي[4]:

لِيَبْكِ على مِلْحَانَ ضَيفٌ مُدَفَّعٌ وأرملَةٌ تُزْجي مَعَ الليلِ أرْمَلا

وقال أعشى بني ثعلبة[5]:

الوَاهبُ المائةِ الهجَان وعَبيدِها عُوذاً تُزَجّي خلْفَها أطْفَالَها

وقولُه إخباراً عنهم: ﴿ فأوفِ لنا الكيلَ ﴾، أي: أعطِنا بهذا الثمن القليل ما كنت تُعطِينا قبل ذلك. وقرأ ابن مسعود: «فأوقِرْ رِكابنا وتَصدَّق علينا».

---

(١) الخَلَق: البالي من الثياب والجلد وغيرهما، يستوي فيه المذكر والمؤنث. والغِرَارَةُ: وعاء من الخيش ونحوه، يوضع فيه القمح ونحوه. ولا ينفُق: لا يروج.

(٢) الفُسُول: الرديئة.

(٣) البُطْم: الحبة الخضراء، من الفصيلة الفستقية، شجرتها من أربعةِ إلى ثمانية أمتار، تنبت في الأراضي الجبلية، ثمرتها خشنة مفلطحة خضراء، تقشر عن غلاف خشبي، يحتوي ثمرة واحدة، تؤكل في بلاد الشام.
والصَّنَوْبَرُ: شجر من المخروطات الصنوبرية، يُزْرَع لخشبه وللزينة، ولبعض أنواعه بُزُورٌ صغيرة لذيذة الطعم، وهو شجرٌ جَبَلِيٌّ.

(٤) البيت في تفسير الطبري ١٣/ ٥٠.
والمدَفَّع: الذي يحقره الناسُ فلا يضيفونه. وقال الطبري في تفسيره: «يعني أنها تسوقه بين يديها على ضعف منه عن المشي والعجز».

(٥) ديوانه ٢٩، وتفسير الطبري ١٣/ ٥٠.
والهجان: جمع هجين، وهي الإبل البيض. والعوذ: الحديثة النتاج، جمع عائد.

وقال ابن جُرَيج: ﴿ وتَصدَّق علينا ﴾ بِرَدِّ أخينا إلينا. وقال سعيد بن جُبَير والسدّيُّ: ﴿ وتصدَّق علينا ﴾، يقولون: تَصدَّق علينا بِقَبضِ هذه البِضَاعةِ المُزجَاةِ، وتجوَّزْ فيها(١).

وَسُئِلَ سُفيانُ بن عُيينة: هل حُرِّمتِ الصدَقَة على أحد من الأنبياء قبل النبي ﷺ؟ فقال: ألم تسمع قوله: ﴿ فأوف لنا الكيلَ وتَصدَّق علينا إن الله يجزي المتصدقين ﴾. رواه ابنُ جرير، عن الحارث، عن القاسم، عنه(١).

وقال ابنُ جرير: حَدَّثني الحارث، حدثنا القاسم، حدثنا مروان بن معاوية، عن عثمانَ بن الأسود: سَمِعتُ مجاهداً وسُئِل: هل يُكرَه أن يقولَ الرجلُ في دعائه: اللهم تَصدَّق عليّ؟ فقال: نعم، إنما الصدقةُ لمن يبتغي الثوابَ(٢).

﴿ قَالَ هَلْ عَلِمْتُم مَّا فَعَلْتُم بِيُوسُفَ وَأَخِيهِ إِذْ أَنتُمْ جَٰهِلُونَ ﴿٨٩﴾ قَالُوٓاْ أَءِنَّكَ لَأَنتَ يُوسُفُ قَالَ أَنَا۠ يُوسُفُ وَهَٰذَآ أَخِى قَدْ مَنَّ ٱللَّهُ عَلَيْنَآ إِنَّهُۥ مَن يَتَّقِ وَيَصْبِرْ فَإِنَّ ٱللَّهَ لَا يُضِيعُ أَجْرَ ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿٩٠﴾ قَالُواْ تَٱللَّهِ لَقَدْ ءَاثَرَكَ ٱللَّهُ عَلَيْنَا وَإِن كُنَّا لَخَٰطِـِٔينَ ﴿٩١﴾ قَالَ لَا تَثْرِيبَ عَلَيْكُمُ ٱلْيَوْمَ يَغْفِرُ ٱللَّهُ لَكُمْ وَهُوَ أَرْحَمُ ٱلرَّٰحِمِينَ ﴿٩٢﴾ ﴾

يقولُ تعالى مخبراً عن يوسف ـ عليه السلام ـ: أنه لما ذكر له إخوتُه ما أصابهم من الجهد والضيق وقلّة الطعام وعُموم الجَدْب، وتذكَّر أباه وما هو فيه من الحزن لفقد ولديه، مع ما هو فيه من الملك والتصرف والسَّعةِ، فعند ذلك أخذته رِقَّةٌ ورأفةٌ ورحمةٌ وشفقة على أبيه وإخوته، وبدَرَه البكاءُ، فَتعرَّف إليهمْ، يقال: إنه رفع التاجَ عن جبهته، وكان فيها شامةٌ، وقال: ﴿ هل عَلِمتُم ما فعلتُم بيوسُفَ وأخيه إذ أنتم جاهلون ﴾، يعني: كيف فرّقوا بينه وبينه ﴿ إذ أنتم جاهلون ﴾، أي: إنما حَمَلكم على هذا الجهلُ بمقدار هذا الذي ارتكبتموه، كما قال بعض السلف: كل من عَصَى الله فهو جاهل، وقرأ: ﴿ ثم إنَّ ربك للذين عَمِلُوا السوء بجهالة ﴾... إلى قوله: ﴿ إن ربَّك من بَعدها لغفورٌ رحيمٌ ﴾.

والظاهرُ ـ والله أعلم ـ أن يوسفَ ـ عليه السلام ـ إنما تَعرَّف إليهم بنفسه، بإذن الله له في ذلك، كما أنه إنما أخفى منهم نفسَه في المرَّتين الأُوليين بأمر الله تعالى له في ذلك ـ والله أعلم ـ ولكن لما ضاقَ الحالُ واشتدَّ الأمر فَرَّج الله تعالى من ذلك الضِّيق، كما قال تعالى: ﴿فإن مع العسر يسراً * إن مع العسر يسراً ﴾، فعند ذلك قالوا: ﴿ أئِنَّكَ لأنتَ يوسفُ ﴾ ـ وقرأ أبي بن كعب: «أوْ أنت يوسفُ»(٣)، وقرأ ابنُ مُحَيصِن: ﴿ إنك لأنتَ يوسف ﴾ ـ والقراءةُ المشهورة هي الأولى، لأن الاستفهام يدل على الاستعظام، أي: إنهم تَعجَّبوا من ذلك أنهم يَتردَّدُون إليه من سنتين وأكثر، وهم لا يعرفونه، وهو مع هذا يَعرِفُهم ويكتُم نفسه، فلهذا قالوا على سبيل الاستفهام: ﴿ أئنك لأنت يوسف ﴾، قال: ﴿ أنا يوسفُ وهذا أخي قد مَنَّ الله علينا ﴾، أي: بجمعه بيننا بَعدَ التفرقة وبُعدِ المدّة، ﴿ إنه من يتق ويصبر فإن الله لا يضيع أجر المحسنين * قالوا تالله لقد آثرك الله علينا وإن

(١) تفسير الطبري ١٣/٥٣.
(٢) تفسير الطبري ١٣/٥٤.
(٣) في روح المعاني ١٣/٤٨: «وقرأ أُبَيٌّ: ﴿ أئِنّك أو أنت يوسف ﴾. وخرج ذلك ابن جني في كتاب المحتسب على حذف خبر إنَّ وقدره: أئنك لغير يوسف أو أنت يوسف».

كنّا لخاطئين ﴾، يقولون معترفين له بالفضل والأثرة عليهم في الخَلْق والخُلُق، والسَّعة والمُلكِ، والتصرُّف والنبوة أيضاً ـ على قول من لم يجعَلْهم أنبياء ـ وأقروا له بأنهم أساءُوا إليه وأخطأوا في حَقِّه.

﴿ قال لا تَثْرِيبَ عليكُم اليومَ ﴾، يقول: لا تأنيبَ عليكم ولا عَتْب عَلَيكُم اليوم، ولا أُعِيدُ ذنبكم في حَقِّي بعد اليوم. ثم زادهم الدعاء لهم بالمغفرة فقال: ﴿ يغفرُ الله لكم وهو أرحمُ الراحمين ﴾.

قال السّدي: اعتذروا إلى يوسفَ، فقال: ﴿ لا تثريبَ عليكم اليوم ﴾، يقول: لا أذكرُ لكم ذنبكم. وقال ابنُ إسحاقَ والثوريُّ: ﴿ لا تثريبَ عليكم ﴾، أي: لا تأنيبَ عليكم اليوم عندي فيما صنعتُم ﴿ يغفِرُ الله لكم ﴾ أي: يستر الله عليكم فيما فعلتُم، ﴿ وهو أرحمُ الرَّاحِمِينَ ﴾.

﴿ ٱذْهَبُوا۟ بِقَمِيصِى هَٰذَا فَأَلْقُوهُ عَلَىٰ وَجْهِ أَبِى يَأْتِ بَصِيرًا وَأْتُونِى بِأَهْلِكُمْ أَجْمَعِينَ ﴿٩٣﴾ وَلَمَّا فَصَلَتِ ٱلْعِيرُ قَالَ أَبُوهُمْ إِنِّى لَأَجِدُ رِيحَ يُوسُفَ لَوْلَآ أَن تُفَنِّدُونِ ﴿٩٤﴾ قَالُوا۟ تَٱللَّهِ إِنَّكَ لَفِى ضَلَٰلِكَ ٱلْقَدِيمِ ﴿٩٥﴾ ﴾

يقولُ: اذهبُوا بهذا القميص، ﴿ فألقوه على وجهِ أبي يأْتِ بصيراً ﴾، وكان قد عَمِيَ من كثرةِ البُكاء، ﴿ وأْتوني بأهلكم أجمعين ﴾، أي: بجميع بني يعقوبَ.

﴿ ولما فَصَلتِ العيرُ ﴾، أي: خَرَجت من مصر، ﴿ قال أبوهم ﴾، يعني يعقوب ـ عليه السلام ـ لمن بَقِي عنده من بنيه: ﴿ إني لأجدُ رِيح يوسُفَ لولا أن تُفَنِّدُونِ ﴾، تنسُبوني إلى الفَنَد والكِبَر.

قال عبد الرزاق: أنبأنا إسرائيل، عن أبي سِنانٍ، عن عبد الله بنِ أبي الهُذَيلِ قال: سَمِعت ابنَ عباس يقول: ﴿ ولما فَصَلت العير ﴾، قال: لما خَرَجْت العير هاجت ريحٌ فجاءت يعقوبَ بريحِ قَمِيصِ يوسف فقال: ﴿ إني لأجدُ ريح يوسف لولا أن تُفَنِّدونِ ﴾، قال: فوجَد ريحه من مَسِيرة ثَمَانِية أيام. وكذا رواه سُفيان الثَّوريُّ، وشعبة، وغيرهما، عن أبي سِنانٍ، به.

وقال الحسن وابن جُريج: كان بينهما ثمانون فرسخاً، وكان بينه وبينه منذ افترقا ثمانون سنة[1].

وقولُه: ﴿ لولا أن تُفَنِّدونِ ﴾، قال ابن عباس، ومجاهد، وعطاء، وقتادة، وسعيد بن جبير: تُسَفِّهونِ، وقال مجاهد أيضاً، والحسن: تُهَرِّمونِ.

وقولهم: ﴿ إنك لفي ضلالك القديم ﴾، قال ابن عباس: لفي خَطَئِك القديم. وقال قتادةُ: أي من حُبِّ يوسف لا تنساه ولا تسلاه، قالوا لوالدهم كَلِمةً غَلِيظَةً، لم يكن ينبغي لهم أن يقولوها لوالدهم، ولا لنبي الله ﷺ. وكذا قال السديّ، وغيره.

﴿ فَلَمَّآ أَن جَآءَ ٱلْبَشِيرُ أَلْقَىٰهُ عَلَىٰ وَجْهِهِۦ فَٱرْتَدَّ بَصِيرًا ۖ قَالَ أَلَمْ أَقُل لَّكُمْ إِنِّىٓ أَعْلَمُ مِنَ ٱللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴿٩٦﴾ قَالُوا۟ يَٰٓأَبَانَا ٱسْتَغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَآ إِنَّا كُنَّا خَٰطِـِٔينَ ﴿٩٧﴾ قَالَ سَوْفَ أَسْتَغْفِرُ لَكُمْ رَبِّىٓ ۖ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلْغَفُورُ ٱلرَّحِيمُ ﴿٩٨﴾ ﴾

قال ابن عباس والضحاك: ﴿ البشير ﴾ البريدُ. وقال مجاهد، والسّدي: كان يهوذا بنَ يعقوبَ.

(١) أخرجه عبد الله بن أحمد في زوائد الزهد عن الحسن، انظر الدر المنثور ٤/٥٨٩.

قال السديُّ: إنما جاء به لأنه هو الذي جاء بالقميص وهو مُلَطَّخ بدمٍ كَذِبٍ، فأراد أن يغسلَ ذاك بهذا، فجاء بالقميصِ فألقاه على وجه أبيه، فرجَعَ بصيراً.

وقال لِبَنِيه عند ذلك: ﴿ ألم أَقُل لكم إني أعلم من الله ما لا تعلمُون ﴾، أي: أعلم أن الله سيرده إليَّ، وقلتُ لكم: ﴿ إني لأَجدُ ريح يوسف لولا أن تُفَنِّدونِ ﴾. فعند ذلك قالوا لأبيهم مُترفقين له: ﴿ يا أبانا استغفر لنا ذُنوبنا إنا كنا خاطئين * قال سوفَ أستغفرُ لكم ربِّي إنه هو الغفورُ الرحيمُ ﴾، أي: مَن تابَ إليه تابَ عليه.

قال ابن مسعود، وإبراهيم التَّيمي، وعَمرو بن قيس، وابن جُرَيج، وغيرهم: أَرْجَأَهم إلى وقت السَّحَر.

وقال ابنُ جرير: حَدَّثني أبو السائب، حدثنا ابنُ إدريسَ، سَمِعتُ عبد الرحمن بن إسحاق يذكر عن مُحَارِب بن دثار قال: كانَ عُمَر ـ رضي الله عنه ـ يأتي المسجدَ فيسمع إنساناً يقول: «اللهم دَعَوتَني فأجبتُ، وأمرتَني فأطعتُ، وهذا السَّحَرُ فاغفِر لي». قال: فاستمع الصوت فإذا هو من دار عبدِ الله بن مسعود. فسأل عبد الله عن ذلك فقال: إن يعقوبَ أَخَّر بَنِيه إلى السَّحَرِ بقوله: ﴿ سوف أستغفِرُ لكم ربِّي ﴾[(١)].

وقد وَرَد في الحديث أن ذلك كان ليلةَ جُمعة، كما قال ابنُ جرير أيضاً:

حدثني المثنى، حدثنا سُلَيمان بن عبد الرحمن أبو أيوبَ الدِّمشقي، حَدَّثنا الوليد، أنبأنا ابن جُرَيج، عن عطاء وعكرمة، عن ابن عباس، عن رسولِ الله ـ ﷺ ـ: ﴿ سَوف أستغفِرُ لكم ربِّي ﴾، يقول: حتى تأتي ليلة الجُمُعة، وهو قولُ أخي يعقوبَ لِبَنِيه[(٢)].

وهذا غريبٌ من هذا الوجه، وفي رفعه نظرٌ، والله أعلم.

﴿ فَلَمَّا دَخَلُوا عَلَىٰ يُوسُفَ ءَاوَىٰٓ إِلَيْهِ أَبَوَيْهِ وَقَالَ ادْخُلُوا مِصْرَ إِن شَآءَ اللَّهُ ءَامِنِينَ ﴿٩٩﴾ وَرَفَعَ أَبَوَيْهِ عَلَى الْعَرْشِ وَخَرُّوا لَهُۥ سُجَّدًا ۖ وَقَالَ يَٰٓأَبَتِ هَٰذَا تَأْوِيلُ رُءْيَٰىَ مِن قَبْلُ قَدْ جَعَلَهَا رَبِّى حَقًّا ۖ وَقَدْ أَحْسَنَ بِىٓ إِذْ أَخْرَجَنِى مِنَ السِّجْنِ وَجَآءَ بِكُم مِّنَ الْبَدْوِ مِنۢ بَعْدِ أَن نَّزَغَ الشَّيْطَٰنُ بَيْنِى وَبَيْنَ إِخْوَتِىٓ ۚ إِنَّ رَبِّى لَطِيفٌ لِّمَا يَشَآءُ ۚ إِنَّهُۥ هُوَ الْعَلِيمُ الْحَكِيمُ ﴿١٠٠﴾ ﴾

يخبرُ تعالى عن وُرُودِ يعقوب ـ عليه السلام ـ على يوسف ـ عليه السلام ـ وقُدُومه بلادَ مصر، لما كان يوسف قد تقدَّم إلى إخوته أن يأتوه بأهلهم أجمعين، فتحمَّلوا عن آخرهم وترحَّلوا من بلاد كنعانَ قاصدين بلاد مصر، فلما أُخبِر يوسف ـ عليه السلام ـ باقترابهم خَرَج لِتلقِّيهم، وأمر الملك أُمراءه وأكابِرَ الناسِ بالخروج مع يوسف لتلقِّي نبي الله يعقوب ـ عليه السلام ـ ويقال: إن المَلك خَرَج أيضاً لِتلقِّيه، وهو الأشبه.

وقد أشكل قولُه: ﴿ آوى إليه أَبَوَيه وقال ادخلُوا مصر ﴾ على كَثير من المفسرين، فقال بعضهم: هذا من المقدم والمؤخر، ومعنى الكلام. وقال ادخلوا مصر إن شاء الله آمنين. وآوى إليه أبويه، ورفعهما على العرش.

وقد رَدَّ ابنُ جَريرٍ هذا وأجادَ في ذلك. ثم اختارَ ما حَكاه عن السُّديِّ: أن يوسُفَ آوى إليه أَبَوَيه لما تلقاهما، ثم لما وصلوا بابَ البلد قال: ﴿ ادخلوا مِصرَ إن شاء الله آمنين ﴾.

---

(١) تفسير الطبري ١٣/٦٤.
(٢) تفسير الطبري ١٣/٦٥.

وفي هذا نَظَرٌ أيضاً، لأنَّ الإيواءَ إنما يكونُ في المنزل، كقوله: ﴿ آوى إليه أخاه ﴾، وفي الحديث: «مَن آوى مُحْدِثاً»(١)، وما المانع أن يكون قال لهم بعد ما دخلوا عليه وآواهم إليه: ﴿ ادخلوا مصر ﴾، وضمَّنه: اسكنوا مصر؟ ﴿ إن شاءَ الله آمنينَ ﴾، أي: مما كنتم فيه من الجَهدِ والقَحْطِ، ويُقالُ - والله أعلم - إن الله تعالى رَفَع عن أهل مصر بقية السنينَ المُجدبةِ ببركة قُدُوم يعقوبَ عليهم، كما رَفَع بَقِيَّةَ السنينَ التي دعا بها رسولُ الله - ﷺ - على أهل مَكَّة حين قال: «اللهمَّ أعِنِّي عليهم بِسَبْعٍ كَسَبْعِ يوسُفَ»(٢)، ثم لما تَضرَّعُوا إليه واستشفَعُوا لديه وأرسلوا أبا سفيان في ذلك، فدعا لهم، فَرُفِعَ عنهم بقيةُ ذلك ببركة دعائه عليه السلام.

وقولُه: ﴿ آوى إليه أبويه ﴾، قال السدِّي، وعبدُ الرحمن بن زيد بن أسلم: إنما كان أباه وخالته، وكانت أمه قد ماتت قَدِيماً. وقال محمدُ بن إسحاقَ وابنُ جرير: كان أبوه وأُمُّه يعيشان.

قال ابن جرير: ولم يَقُم دليل على موتِ أمه، وظاهِرُ القرآن يدلُّ على حَيَاتِها(٣). وهذا الذي نَصَره هو المنصور الذي يدل عليه السياق.

وقولُه: ﴿ وَرَفع أبويه على العرش ﴾، قال ابنُ عباس، ومجاهدٌ، وغيرُ واحد: يعني السرير، أي: أجلسهما معه على سَرِيرِه. ﴿ وخَرُّوا له سجداً ﴾، أي: سَجَد له أبواه وإخوتُه الباقون، وكانوا أحدَ عشر رجلاً، ﴿ وقال يا أَبَتِ هذا تأويلُ رُؤياي من قبلُ ﴾، أي: التي كان قصها على أبيه ﴿ إني رأيتُ أحدَ عشر كوكباً والشمسَ والقمر رأيتهم لي ساجدين ﴾.

وقد كان هذا سائغاً في شَرَائعهم إذا سلَّموا على الكبير يَسجُدون له، ولم يَزَل هذا جائزاً من لَدُن آدمَ إلى شريعةِ عيسى - عليه السلام - فحرم هذا في هذه الملة، وجُعِلَ السجود مختصاً بجناب الرب سبحانه وتعالى. هذا مضمون قول قتادة وغيره.

وفي الحديث أنَّ معاذاً قَدِمَ الشام فوجَدَهم يسجدون لأساقفتهم، فَلَمَّا رجع سَجَد لرسولِ الله - ﷺ - فقال: ما هذا يا معاذ؟ فقال: إني رأيتهم يسجُدون لأساقفتهم، وأنت أحقُّ أن يُسجَدَ لك يا رسول الله! فقال: «لو كنتُ آمراً أحداً أن يسجُدَ لأحدٍ لأمرتُ الزوجةَ أن تسجُدَ لزوجها من عِظَم حَقِّه عليها»(٤).

وفي حديث آخر: أن سَلْمان لَقِي النَّبي - ﷺ - في بعض طُرُق المدينة، وكان سلمانُ حديثَ عهدٍ بالإسلام، فسجَد للنبيِّ - ﷺ - فقال: «لا تسجُد لي يا سلمانُ، واسجد للحيِّ الذي لا يَمُوتُ».

والغرضُ أنَّ هذا كان جائزاً في شَريعتهم، ولهذا خَرُّوا له سُجَّداً فعندها قال يوسف: ﴿ يا أَبَتِ هذا تأويلُ رُؤيايَ من قبلُ قد جَعَلَها ربِّي حقاً ﴾، أي هذا ما آلَ إليه الأمرُ، فإنَّ التأويل يطلَق على ما يَصِيرُ إليه الأمرُ، كما قال تعالى: ﴿ هل يَنظُرون إلا تأويلَه يومَ يأتي تأويلُه ﴾، أي: يومَ القيامةِ يأتيهم ما وُعِدُوا من خَيرٍ وشَرٍّ.

وقولُه: ﴿ قد جَعَلها ربِّي حقاً ﴾، أي: صحيحةً صِدْقاً. يذكرُ نِعَم الله عليه، ﴿ وقد أحسنَ بي إذ أخرجَني من السِّجنِ وجاء بكم من البَدو ﴾، أي: البادية.

قال ابن جُرَيج وغيره: كانوا أهلَ باديةٍ وماشِيَةٍ، وقال: كانوا يسكنون بالعَرَبَاتِ من أرض فلسطين، من

---

(١) أخرجه الشيخان، فتح الباري، كتاب الفرائض ١٢/٤١-٤٢، ومسلم، كتاب العتق ٢/١١٤٧.
(٢) أخرجه الشيخان، فتح الباري، تفسير سورة الروم ٨/٥١١، وسورة صٓ ٨/٥٤٧ ومسلم، كتاب صفات المنافقين ٤/٢١٥٥-٢١٥٦.
(٣) تفسير الطبري ١٣/٦٧.
(٤) سنن ابن ماجه، كتاب النكاح ١/٥٩٥، ومسند أحمد ٤/٣٨١.

غور الشام، قال: وبعضٌ يقولُ: كانوا بالأولاج من ناحية شِعْبِ أسفلَ من حُسْمَى[١]، وكانوا أصحابَ باديةٍ وشَاءٍ وإبِـل[٢].

﴿ من بعدِ أن نَزَغ الشيطانُ بيني وبين إخوتي إنَّ ربِّي لطيفٌ لما يشاءُ ﴾، أي: إذا أراد أمراً قَيَّض له أسباباً ويسَّره وقَدَّره، ﴿ إنه هو العليمُ ﴾ بمصالح عباده ﴿ الحكيمُ ﴾ في أفعالِه وأقوالِه، وقضائِه وقَدَرِه، وما يختارُه ويُرِيدُه.

قال أبو عثمان النَّهدِيُّ، عن سلمان: كان بين رؤيا يوسفَ وتأويلِها أربعون سنة. قال عبد الله بن شداد: وإليها ينتهي أقصى الرؤيا. رواه ابن جرير[٣].

وقال أيضاً: حَدَّثنا عَمرو بن علي، حدثنا عبد الوهاب الثَّقفِيُّ، حدثنا هِشامٌ، عن الحسن قال: كان منذ فارقَ يوسفُ يعقوبَ إلى أن التقيا ثمانون سنةً، لم يُفارِق في الحزن قلبه، ودموعُه تجرِي على خَدَّيه، وما على وجه الأرض عبدٌ أحبُّ إلى الله من يعقوب[٤].

وقال هُشَيم: عن يُونسَ، عن الحَسَن: ثلاثٌ وثمانون سنةً[٤].

وقال مباركُ بن فَضَالةَ، عن الحَسَنِ: أُلقِي يوسفُ في الجبِّ وهو ابنُ سبعَ عشرةَ سنةً، فغاب عن أبيه ثمانين سنة. وعاش بعد ذلك ثلاثاً وعشرينَ سنةً، فمات وله عشرون ومائةُ سنة.

وقال قتادةُ: كان بينهما خمسٌ وثلاثونَ سنةً.

وقال محمد بن إسحاق: ذُكر ـ والله أعلم ـ أنَّ غَيبَةَ يوسُفَ عن يعقوبَ كانَت ثماني عشرةَ سنةً، قال: وأهلُ الكتابِ يزعمُون أنها كانت أربعينَ سنةً أو نحوها، وأن يعقوبَ ـ عليه السلام ـ بقِي مع يوسفَ بعد أن قَدِم عليه مصر سبع عشرة سنة، ثم قَبَضه الله إليه.

وقال أبو إسحاق السَّبِيعيُّ، عن أبي عُبَيدة، عن عبد الله بن مسعود قال: دخل بنو إسرائيلَ مصرَ، وهم ثلاثة وستون إنساناً، وخرجُوا منها وهم ستمائة ألف وسبعُون ألفاً.

وقال أبو إسحاقَ، عن مسروقٍ: دخلوا وهم ثلاثمائة وتسعونَ من بين رجل وامرأة. والله أعلم.

وقال موسى بن عُبَيدَةَ، عن محمد بن كعب القُرَظِيِّ، عن عبد الله بن شَدَّاد: اجتمع آل يعقوبَ إلى يوسفَ بمصر وهم ستةٌ وثمانون إنساناً، صغيرُهم وكبيرُهم، وذَكرُهم وأُنثاهم، وخرجوا منها وهم ستمائة ألف ونَيِّف[٥].

﴿ ۞ رَبِّ قَدْ ءَاتَيْتَنِي مِنَ ٱلْمُلْكِ وَعَلَّمْتَنِي مِن تَأْوِيلِ ٱلْأَحَادِيثِ فَاطِرَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ أَنتَ وَلِيِّۦ فِي ٱلدُّنْيَا وَٱلْآخِرَةِ تَوَفَّنِي مُسْلِمًا وَأَلْحِقْنِي بِٱلصَّٰلِحِينَ ﴿١٠١﴾ ﴾

(١) حُسْمَى: أرضٌ ببادية الشام، بينها وبين وادي القرى ليلتان.
(٢) أخرجه الطبري في تفسيره ١٣/٧١ ـ ٧٢.
(٣) تفسير الطبري ١٣/٧٠.
(٤) تفسير الطبري ١٣/٧٠ ـ ٧١.
(٥) تفسير الطبري ١٣/٧٢.

هذا دعاءٌ من يوسفَ الصدِّيق دعا به رَبَّه ـ عزَّ وجلَّ ـ لما تمَّت النعمةُ عليه، باجتماعه بأبويه وإخوته، وما مَنَّ الله به عليه من النبوة والملك، سأل ربه ـ عزَّ وجلَّ ـ كما أتمَّ نعمته عليه في الدنيا أن يستمرَّ بها عليه في الآخرة، وأن يتوفَّاه مُسلماً حين يتوفاه .قاله الضحاك، وأن يُلحِقَه بالصالحين، وهم إخوانُه من النبيِّين والمرسَلين، صلواتُ الله وسلامُه عليهم أجمعين.

وهذا الدعاءُ يَحتمِلُ أن يوسفَ ـ عليه السلام ـ قاله عند احتضاره، كما ثبتَ في الصَّحيحَين عن عائشةَ ـ رضي الله عنها ـ: أن رسول الله ـ ﷺ ـ جعل يرفَع إصبَعَه عند الموت، ويقول: «اللهمَّ في الرَّفيقِ الأعلى، اللهمَّ في الرَّفيقِ الأعلى، اللهمَّ في الرَّفيقِ الأعلى»(١).

ويَحتمل أنه سأَل الوفاةَ على الإسلام واللَّحاق بالصَّالحين إذا حان أجلُه، وانقضى عُمُره، لا أنه سأَل ذلك مُنَجَّزاً، كما يقول الداعي لغيره: «أماتك الله على الإسلام». ويقول الداعي: «اللهم أحيِنا مُسلِمين، وتَوفَّنا مسلمين، وألحِقْنا بالصَّالحين». ويحتمل أنه سأل ذلك مُنَجَّزاً، وكان ذلك سائغاً في ملتهم، كما قال قتادةُ قولَه: ﴿ تَوَفَّني مسلماً وألحقني بالصالحين ﴾، لما جمع الله شمله وأقرَّ عينه، وهو يومئذ مغمورٌ في الدنيا ومُلكها وغَضَارتها، فاشتاق إلى الصَّالحين قبله، وكان ابن عباس يقول: ما تمنَّى نبيٌّ قطُّ الموتَ قبل يوسف عليه السلام(٢).

وكذا ذكر ابن جرير، والسدِّي عن ابن عباس: أنه أول نَبيٍّ دعا بذلك. وهذا يَحتمِلُ أنه أول من سَأل الوفاة على الإسلام، كما أن نُوحاً أَوّلُ من قال: ﴿ ربِّ اغفر لي ولوالديَّ ولمن دَخَل بَيْتي مُؤمِناً ﴾، ويَحتمِلُ أنه أول من سأَل إنجاز ذلك، وهو ظاهر سياق قتادة، ولكن هذا لا يجوزُ في شَريعتنا.

قال الإمام أحمدُ بن حَنبلٍ ـ رحمه الله ـ: حدثنا إسماعيل بن إبراهيم، حدثنا عبد العزيز بن صُهَيب، عن أنس بن مالك قال: قال رسولُ الله ـ ﷺ ـ: «لا يَتمنينَّ أحدُكم الموتَ لِضُرٍّ نَزَل به، فإن كان لا بدَّ مُتمنياً الموت فليقل: اللهم أَحْيني ما كانت الحياةُ خيراً لي، وَتوفَّني إذا كانت الوفاةُ خيراً لي»(٣).

وأخرجاه في الصَّحِيحَين، وعندهما: «لا يَتمنَّينَّ أحدُكم الموتَ لِضُرٍّ نَزَل به إمَّا محسناً فيزداد، وإمَّا مُسيئاً فلعله يَسْتَعتِبُ، ولكن لِيَقُل: اللهمَّ، أَحْيِني ما كانتِ الحياةُ خيراً لي، وَتوفَّني إذا كانتِ الوفاةُ خيراً لي»(٣).

وقال الإمامُ أحمدُ: حدَّثنا أبو المغيرة، حدثنا مُعانُ بن رفاعَةَ، حدثني علي بن يزيدَ، عن القاسم، عن أبي أُمامَةَ قال: جَلَسنا إلى رسول الله ـ ﷺ ـ فذكَّرنا ورقَّقَنا، فَبكى سعدُ بن أبي وقَّاصٍ فأكثر البُكاء، فقال: يا ليتني مِتّ! فقال النبي ـ ﷺ ـ: يا سعدُ أعندي تَتمنَّى الموت؟ فردَّد ذلك ثلاث مرات، ثم قال: يا سعد، إن كنتَ خُلِقت للجنة، فما طال عُمرك، أو حَسُن من عملك، فهو خيرٌ لك»(٤).

وقال الإمامُ أحمدُ: حدثنا حَسَن، حدثنا ابن لَهِيعَة، حدثنا أبو يونس ـ هو سُلَيم بن جُبير ـ عن أبي هُرَيرة، عن النبي ـ ﷺ ـ أنه قال: «لا يَتمنَّينَّ أحدُكم الموتَ ولا يَدْعُوَنَّ به من قبل أن يأتيه، إلا أن يكونَ قد وَثِق بعمله، فإنه إذا مات أحدُكم انقطَع عنه عملُه، وإنه لا يَزيد المؤمنَ عملُه إلا خيراً». تفرَّد به أحمد(٥).

(١) فتح الباري، كتاب فضائل الصحابة ٢٠/٧، ومسلم، كتاب الطب ١٧٢١/٤ ـ ١٧٢٢.
(٢) تفسير الطبري ٧٣/١٣.
(٣) مسند أحمد ١٠١/٣، وفتح الباري، كتاب الدعوات ١٥٠/١١، ومسلم، كتاب الذكر والدعاء ٢٠٦٤/٤.
(٤) مسند أحمد ٢٦٦/٥ ـ ٢٦٧.
(٥) مسند أحمد ٣٥٠/٢.

وهذا فيما إذا كان الضرُّ خاصّاً به، أما إذا كان فتنةً في الدين فيجوزُ سُؤالُ الموت، كما قال الله تعالى إخباراً عن السحرة لما أرادهم فرعونُ عن دِينهم وتهدَّدهم بالقتل: ﴿ قالوا رَبَّنا أفرِغْ علينا صَبْراً وَتوفَّنا مُسلِمِينَ ﴾، وقالت مريم لما أجاءها المخاضُ ـ وهو الطَّلْقُ ـ إلى جِذْعِ النخلة: ﴿ يا ليتني مِتُّ قبلَ هذا وكنتُ نَسياً مَنْسيّاً ﴾، لِمَا تعلم من أن الناسِ يقذِفُونها بالفاحشة، لأنها لم تكن ذاتَ زَوجٍ وقد حَمَلت ووَلَدت، فيقول القائل أنَّى لها هذا؟ ولهذا واجهوها أوَّلاً بأن قالوا: ﴿يا مريمُ لقد جئت شيئاً فَرِيّاً ۝ يا أختَ هرون ما كان أبوكِ امرأ سَوءٍ وما كانت أمُّكِ بَغياً ﴾. فجعلَ الله لها من ذلك الحال فَرجاً ومخرجاً، وأنطق الصبيَّ في المهد بأنه عَبدُ اللهِ ورسولُه، كان آيةً عظيمةً ومعجزةً باهرةً صلواتُ الله وسلامُه عليه. وفي حديث مُعاذٍ الذي رواه الإمام أحمدُ والترمذيُّ، في قصة المنام والدعاء الذي فيه: «وإذا أردتَ بقوم فتنةً فتوفَّني إليك غير مفتون»[(١)].

وقال الإمام أحمدُ: حدثنا أبو سلمة، أخبرنا عبدُ العزيز بن محمد، عن عمرو، عن عاصم بن عُمَر بن قتادة، عن محمود بن لَبِيد أن النبي ـ ﷺ ـ قال: «اثنتان يكرههما ابنُ آدم: الموتُ، والموتُ خير للمؤمن من الفتنةِ، ويكره قِلَّة المال، وقِلَّةُ المالِ أقلُّ للحساب»[(٢)].

فعند حُلُولِ الفِتَنِ في الدين يجوزُ سُؤالُ الموتِ، ولهذا قال علي بن أبي طالب ـ رضي الله عنه ـ في آخِرِ إمارته لما رأى أن الأمور لا تجتمع له، ولا يزدادُ الأمرُ إلا شِدَّةً قال: «اللهمَّ، خُذني إليكَ، فقد سَئِمتُهم وسَئِمُوني».

وقال البخاري ـ رحمه الله ـ لما وَقَعت له تلك المِحَنُ وجَرَى له ما جَرَى مع أمير خراسان: «اللهمَّ. توفَّني إليك»[(٣)].

وفي الحديث: «إن الرَّجُل ليمرُّ بالقبر ـ أي في زمان الدَّجالِ ـ فيقولُ: يا لَيتني مكانَكَ»[(٤)]، لما يَرَى من الفِتَنِ والزلازل والبلابل، والأمورِ الهائلةِ التي هي فتنةٌ لكل مفتون.

قال أبو جعفر بن جَرِير: وذُكِر أنَّ بني يعقوبَ الذين فعلوا بيوسف ما فعلوا، استغفر لهم أبوهم، فتاب الله عليهم وعَفَا عنهم، وغَفَرَ لهم ذُنُوبَهم. ذِكْرُ مَن قال ذلك:

حدثنا القاسم، حدثنا الحسن، حدثني حجَّاجُ، عن صالح المرِّيِّ، عن يزيدَ الرَّقاشي، عن أنس بن مالك قال: إنَّ الله تعالى لما جَمَع ليعقوب شَمْلَه، وأقرَّ عينَه خلا وَلَده نجيّاً، فقال بَعضُهم لبعض: ألستُم قد عَلِمتُم ما صنعتُم وما لَقِي منكم الشيخ، وما لقي منكم يوسفَ؟ قالوا: بلى. قال: فَيَغرُّكم عفوُهما عنكم، فكيفَ لكم بربكم؟ فاستقام أمرُهم على أن أتوا الشيخ فجلسُوا بين يديه، ويوسُف إلى جَنْبِ أبيه قاعداً، قالوا: يا أبانا، إنا أتيناك في أمرٍ لم نأتك في مثلِهِ قطُّ، ونَزَل بنا أمرٌ لم ينزل بنا مثلُه. حتى حَرَّكُوه، والأنبياء ـ عليهم السلام ـ أرحمُ البريَّة، فقال: ما لكم يا بَنِيَّ؟ قالوا: ألستَ قد عَلِمتَ ما كانَ منَّا إليك، وما كان منَّا إلى أخينا يوسفَ؟ قال: بلى. قالوا: أوَ لستُما قد عَفَوتما؟ قالا: بلى. قالوا: فإنَّ عَفْوَكما لا يُغني عنا شيئاً، إن كان الله لم يعفُ عنا. قال: فما تُرِيدُون يا بَنِيَّ؟ قالوا: نُريدَ أن تدعُوَ الله لنا، فإذا جاءكَ الوحيُ من الله بأنه قد عفا عما صنعنا قَرَّت أعيُننا، واطمأنت قلُوبنا، وإلا فلا قُرَّة عين في الدنيا أبداً لنا. قال: فقام الشيخُ فاستقبل القبلة، وقام يوسفُ خَلْفَ أبيه، وقامُوا خلفهما أذلَّةً خاشعين، قال: فدعا وأمَّن يوسفُ، فلم يُجَبْ فيهم عشرين سنة. قال

(١) مسند الإمام أحمد ٥/٢٤٣، وعارضة الأحوذي، تفسير سورة ص ١٢/١١٤ ـ ١١٦.
(٢) مسند أحمد ٥/٤٢٧.
(٣) البداية والنهاية لابن كثير ١١/٣٠.
(٤) أخرجه مسلم وابن ماجه في كتاب الفتن، مسلم ٤/٢٢٣١، وابن ماجه ٢/١٣٤٠.

صالح المرِّيُّ: يُخِيفهم. قال: حتى إذا كان رأسُ العشرين نزل جبريل ـ عليه السلام ـ على يعقوبَ فقال: إن الله بعثني إليك أبشِّرُك بأنه قد أجابَ دعوتَكَ في ولدِك، وأنه قد عفا عما صنعوا، وأنه قد اعتقَدَ مواثيقَهم من بَعدِكَ على النبوة(١).

هذا الأثرُ موقوفٌ عن أنسٍ، ويزيدُ الرَّقاشي وصالح المرِّي ضَعيفان جداً.

وذكر السديُّ أن يعقوبَ ـ عليه السلام ـ لما حضره الموتُ أوصى إلى يوسفَ بأن يُدفَن عند إبراهيم وإسحاقَ، فلما مات صَبَّره(٢) وأرسله إلى الشام، فدُفِن عندهما عليهم السلامُ.

﴿ ذَٰلِكَ مِنْ أَنۢبَآءِ ٱلْغَيْبِ نُوحِيهِ إِلَيْكَ ۖ وَمَا كُنتَ لَدَيْهِمْ إِذْ أَجْمَعُوٓا۟ أَمْرَهُمْ وَهُمْ يَمْكُرُونَ ﴿١٠٢﴾ وَمَآ أَكْثَرُ ٱلنَّاسِ وَلَوْ حَرَصْتَ بِمُؤْمِنِينَ ﴿١٠٣﴾ وَمَا تَسْـَٔلُهُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ ۚ إِنْ هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ لِّلْعَٰلَمِينَ ﴿١٠٤﴾ ﴾

يقولُ تعالى لعبده ورسوله محمد ـ صلواتُ الله وسلامُه عليه ـ لما قَصَّ عليه نَبأ إخوةِ يوسفَ، وكيف رَفَعه الله عليهم، وجعل له العاقبةَ والنصرَ والملك والحُكم، مع ما أرادوا به من السُّوء والهلاكِ والإعدامِ: هذا وأمثالُه يا محمدُ من أخبار الغيوب السابقة، ﴿ نوحيه إليك ﴾ ونعلمك به لما فيه من العبرة لك والاتعاظ لمن خالفك، ﴿ وما كنتَ لديهم ﴾ حاضراً عندهم ولا مُشاهِداً لهم ﴿ إذ أجمَعُوا أمرهم ﴾، أي: على إلقائِهِ في الجُبِّ، ﴿وهم يمكُرون ﴾ به، ولكنا أعلمناك به وحياً إليك، وإنزالاً عليك، كما قال تعالى: ﴿ وما كنتَ لديهم إذ يُلقون أقلامَهم أيهم يكفلُ مريم وما كنتَ لديهم إذ يختصِمُون ﴾. وقال تعالى: ﴿ وما كنت بجانب الغَربِيِّ إذ قَضَينا إلى موسى الأمر وما كنت مِن الشاهِدينَ ﴾. إلى أن قال: ﴿ وما كنتَ بجانب الطور إذ نادينا ولكن رحمةً من ربك ﴾، وقال: ﴿ وما كُنتَ ثاوياً في أهل مدين تتلو عليهم آياتنا ولكنَّا كنا مرسلين ﴾، وقال: ﴿ ما كان لي من علم بالملأ الأعلى إذ يختصمون * إن يُوحَى إليَّ إلا أنما أنا نذير مبين ﴾.

يُقرر تعالى أنه رسُوله، وأنه قد أطلعه على أنباء ما قد سَبَق مما فيه عبرة للناس ونجاةٌ لهم في دينهم ودنياهم؛ ومع هذا ما آمن أكثر الناس، ولهذا قال: ﴿ وما أكثرُ الناسِ ولو حَرَصت بمؤمنين ﴾، وقال: ﴿ وإن تُطِع أكثَرَ من في الأرض يُضِلُّوك عن سبيل الله ﴾، إلى غير ذلك من الآيات.

وقولُه: ﴿ وما تسألُهم عليه من أجرٍ ﴾، أي: وما تسألُهم ـ يا محمد ـ على هذا النصح والدعاء إلى الخير والرشد من أجر، أي: من جُعَالة ولا أُجرةٍ على ذلك، بل تفعلُه ابتغاء وجهِ الله، ونُصحاً لخلقه.

﴿ إنْ هُو إلاَّ ذكرٌ للعالمينَ ﴾، أي: يتذكَّرون به ويهتَدُون، ويَنجُون به في الدنيا والآخرةِ.

﴿ وَكَأَيِّن مِّنْ ءَايَةٍ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ يَمُرُّونَ عَلَيْهَا وَهُمْ عَنْهَا مُعْرِضُونَ ﴿١٠٥﴾ وَمَا يُؤْمِنُ أَكْثَرُهُم بِٱللَّهِ إِلَّا وَهُم مُّشْرِكُونَ ﴿١٠٦﴾ أَفَأَمِنُوٓا۟ أَن تَأْتِيَهُمْ غَٰشِيَةٌ مِّنْ عَذَابِ ٱللَّهِ أَوْ تَأْتِيَهُمُ ٱلسَّاعَةُ بَغْتَةً وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ ﴿١٠٧﴾ ﴾

يخبرُ تعالى عن غَفلة أكثر الناس عن التفكُّر في آياتِ الله ودلائلِ توحيده، بما خَلقه الله في السموات والأرض من كواكبَ زاهراتٍ ثوابتَ، وسياراتٍ دائراتٍ، والجميعُ مُسخَّراتٌ، وكم في الأرض من قِطَعٍ

(١) تفسير الطبري ١٣/٧٤.
(٢) صَبَّر الجُثة: صنع بها ما يقيها الفساد إلى وقتٍ ما. وكانوا قديماً يستعملون الصَّبِرَ في هذا. وهذا الفعل مولَّد.

متجاورات، وحدائقَ وجنَّات، وجبالٍ راسياتٍ. وبحارٍ زاخراتٍ، وأمواجٍ متلاطماتٍ، وقفارٍ شاسعاتٍ، وكم من أحياءٍ وأمواتٍ، وحيواناتٍ ونباتٍ، وثمراتٍ متشابهةٍ ومختلفاتٍ، في الطعوم والروائح والألوان والصِّفات، فسبحانَ الواحدِ الأحدِ، خالقِ أنواعِ المخلوقاتِ، المتفردِ بالدوامِ والبقاءِ والصمديَّةِ ذي الأسماءِ والصفاتِ.

وقولُه: ﴿ وما يُؤمِنُ أكثرُهم باللهِ إلاَّ وهم مُشرِكون ﴾، قال ابن عباس: من إيمانهم إذا قيل لهم: مَن خلق السموات؟ ومَن خَلق الأرض؟ ومَن خَلق الجبال؟ قالوا: الله، وهم مُشرِكون به[1]. وكذا قال مجاهدٌ، وعطاءٌ وعكرمةُ، والشعبيُّ، وقتادةُ، والضحَّاكُ، وعبدُ الرحمن بن زيدِ بن أسلَمَ. وهكذا في الصحيحَينِ: أنَّ المشركين كانوا يقولُون في تَلبيَتِهم: لَبَّيكَ لا شريكَ لك، إلا شريكاً هو لك، تَملِكُه وما ملك[2]. وفي الصحيح: أنهم كانوا إذا قالوا: «لبيك لا شريكَ لك». يقول رسول الله ـ ﷺ ـ: «قَدْ قَدْ» أي: حَسْبُ حَسْبُ، لا تَزيدُوا على هذا[2].

وقال الله تعالى: ﴿ إنَّ الشركَ لَظلمٌ عظيمٌ ﴾، وهذا هو الشركُ الأعظمُ الذي يُعبَدُ مع الله غيره، كما في الصحيحَين، عن ابن مسعود قلت: يا رسولَ الله، أيّ الذنبِ أعظَمُ؟ قال: «أن تجعل لله نِدّاً وهو خَلَقَك»[3].

وقال الحَسَنُ البصريُّ في قوله: ﴿ وما يُؤمِن أكثرُهم بالله إلاَّ وهُم مُشرِكُون ﴾، قال: ذاك المنافقُ يعمَلُ إذا عَمِل رياءً للناس وهو مُشرِكٌ بعَمَلِه ذاك، يعني قولَه تعالى: ﴿ إنَّ المنافقين يُخادِعُون الله وهو خَادِعُهم وإذا قامُوا إلى الصَّلاةِ قاموا كُسَالى يُرَاءون الناسَ ولا يذكُرون الله إلا قليلاً ﴾.

وثَمَّ شركٌ آخرُ خَفِيٌّ لا يشعُر به غالباً فاعلُه كما رَوَى حَمَّاد بن سلمة، عن عاصم بن أبي النَّجُودِ، عن عُروةَ قال: دخل حُذَيفة على مريضٍ فرأى في عضده سَيراً فَقَطَعه ـ أو: انتزعَه ـ ثُمَّ قال: ﴿ وما يُؤمِن أكثرُهم بالله إلا وهم مُشرِكون ﴾. وفي الحديث: «مَن حَلف بغيرِ الله فقد أشرك». رواه الترمذيّ، وحسَّنَهُ من رِوَايَةِ ابنِ عُمَرَ[4]. وفي الحديث الذي رواه أحمد وأبو داودَ وغيره، عن ابن مَسعُودٍ ـ رضي الله عنه ـ قال: قال رسولُ الله ـ ﷺ ـ: «إنَّ الرُّقَى والتَّمائِمَ والتِّوَلَةَ شِرْكٌ»[5]. وفي لفظٍ هما: «الطِّيَرة شركٌ وما منَّا إلاَّ ولكنَّ الله يُذهِبُه بالتوكُّلِ»[6]. ورواهُ الإمام أحمدُ بأبسطَ من هذا فقال:

حدثنا أبو معاويةَ، حدثنا الأعمشُ، عن عَمرو بن مُرَّة، عن يحيى الجَزَّار، عَن ابنِ أخي زينبَ، عن زينبَ امرأة عبد الله بن مَسعُودٍ قالت: كان عبدُ الله إذا جاء من حاجةٍ فانتهى إلى البَاب تَنحنَحَ وبَزَق كراهيةَ أن يهجُم منا على أمر يكرهُه، قالت: وإنه جاء ذات يوم فَتَنحنَحَ وعندي عجوزٌ تَرقِيني من الحُمْرَة[7] فأدخلتُها تحتَ السرير، قالت: فدخَلَ فجلسَ إلى جانبي، فَرَأى في عنقي خيطاً، قال: ما هذا الخيطُ؟ قالت، قلتُ: خيطٌ رُقِيَ لي فيه. قالت: فأخذَه فقطَعَه، ثم قال: إنَّ آل عبد الله لأغنياءُ عن الشِّرك، سَمِعتُ رسول الله ـ ﷺ ـ

---

(١) تفسير الطبري ١٣/٧٧.

(٢) أخرجه مسلم في كتاب الحج ٢/٨٤٣. وانظر تحفة الأشراف ٤/٤٦٩.

وقَدْ قَدْ، يجوز فيها سكون الدال، وكسرُها مع التنوين، والمعنى: كفاكم هذا الكلام، فاقتصروا عليه ولا تزيدوا.

(٣) تقدم الحديث عند تفسير الآية ٢٢ من سورة البقرة، وخرجناه هنالك.

(٤) عارضة الأحوذي، أبواب النذور ٧/١٨.

(٥) مسند الإمام أحمد ١/٣٨١، وسنن أبي داود، كتاب الطب ٤/٩.

والتِّوَلَةُ: ما يحبب المرأة إلى زوجها من السحر وغيره، جعله من الشرك لاعتقادهم أن ذلك يُؤثِّر ويفعل خلاف ما قَدَّره الله تعالى.

(٦) مسند الإمام أحمد ١/٣٨٩، وسنن أبي داود، كتاب الطب ٤/١٧.

(٧) الحُمْرَة: مَرَضٌ جلديٌّ مُعْدٍ، يَحْمَرُّ فيه موضع الإصابة، تصحبه حُمَّى عالية.

يقول: إنَّ الرُّقَى والتمائم والتِّوَلة شركٌ. قالت، قلتُ له: لم تقولُ هذا وقد كانت عَيني تَقذِفُ، فكنت أختلِفُ إلى فلانٍ اليهوديِّ يَرقِيها، فكانَ إذا رَقَاها سكَنت؟! قال: إنما ذاكَ من الشيطانِ. كان ينخَسُها بيدِهِ، فإذا رَقيتها كف عنها، إنما كان يكفيك أن تقولي كما قال رسولُ الله ـ ﷺ ـ: «أذهِبِ الباسَ ربَّ الناس، اشفِ وأنتَ الشافي، لا شفاءَ إلا شفاؤُكَ، شفاءً لا يُغادِرُ سُقماً»(١).

وفي حديث آخَرَ رواه الإمامُ أحمدُ، عن وكيع، عن ابن أبي ليلى، عن عيسى بن عبد الرحمن قال: دخلنا على عبد الله بن عُكَيم، وهو مريضٌ نعودُه، فقيل له: تعَلَّقتَ شيئاً؟ فقال: أتَعَلَّقُ شيئاً؟! وقد قال رسول الله ـ ﷺ ـ: «من تَعَلَّق شيئاً وُكِلَ إليه»(٢). ورَواه النَّسائيُّ عن أبي هُرَيرةَ.

وفي مُسنَدِ الإمامِ أحمدَ، من حَديثِ عُقبةَ بن عامر قال: قال رسول الله ـ ﷺ ـ: «من علَّق تَميمةً فقد أشرَكَ»(٣). وفي رواية: «من تعلق تَميمةً فلا أتَمَّ الله له، ومن تَعلَّق وَدعةً فلا وَدَعَ الله له»(٣).

وعن العلاء، عن أبيه، عن أبي هُرَيرة ـ رضي الله عنه ـ قال: سَمِعتُ رسولَ الله ـ ﷺ ـ يقول: قال الله: «أنا أغنى الشُّرَكاءِ عن الشِّرْكِ، ومن عَمِلَ عَمَلاً أشركَ فيه مَعِي غيري تركتُه وشِرْكَه». رواه مسلم(٤).

وعن أبي سعيد بن أبي فَضالة قال: سَمِعتُ رسولَ الله ـ ﷺ ـ يقولُ: «إذا جَمَعَ الله الأولينَ والآخرين لِيوم لا ريبَ فيه، يُنادِي مُنادٍ: من كان أشرك في عَمَلٍ عَمِله لله فَلْيطلُب ثَوابَه من عند غير الله، فإن الله أغنى الشُّركاء عن الشرك». رواه أحمدُ(٥).

وقال الإمامُ أحمدُ: حدثنا يونُس، حدثنا ليثٌ، عن يزيدَ ـ يعني ابنَ الهادِ ـ عن عمرو، عن محمودِ بن لَبيدٍ، أن رسول الله ـ ﷺ ـ قال: «إنَّ أخوفَ ما أخافُ عليكم الشركُ الأصغرُ. قالوا: وما الشركُ الأصغرُ يا رسولَ الله؟ قال: الرياءُ، يقولُ الله يومَ القيامةِ إذا جَزَى الناس بأعمالهم: اذهبُوا إلى الذين كنتُم تراءون في الدنيا، فانظروا هل تجدون عندهم جزاء»(٦)؟!

وقد رواه إسماعيل بن جعفر(٧)، عن عَمْرو بن أبي عَمْرو مولى المُطلب، عن عاصم بن عُمَر بن قتادةَ، عن محمود بن لَبيدٍ، به.

وقال الإمامُ أحمدُ: حدثنا حسن، أنبأنا ابن لَهِيعةَ، أنبأنا ابن هُبَيرة، عن أبي عبد الرحمن الحُبُليِّ، عن عبد الله بن عَمرو قال: قال رسولُ الله ـ ﷺ ـ: «من رَدَّته الطِّيَرَةُ من حاجة فقد أشرَكَ. قالوا: يا رسولَ الله، ما كفارةُ ذلك؟ قال: أن يقول أحدهم: اللهم لا خيرَ إلا خيرُك، ولا طَيْرَ إلا طيرُك، ولا إله غيرك»(٨).

وقال الإمام أحمد: حدثنا عبد الله بن نُمَير، حدثنا عبد الملك بن أبي سليمان العَرْزَميُّ، عن أبي علي ـ رجل من بني كاهلٍ ـ قال: خَطبنا أبو موسى الأشعريُّ فقال: يا أيُّها الناسُ، اتقُوا هذا الشركَ فإنه أخفى من

---

(١) مسند أحمد ١/٣٨١.

(٢) مسند أحمد ٤/٣١٠، وأخرجه الترمذي في كتاب الطب، عارضة الأحوذي ٨/٢٢٩، ولفظه: «فقلنا له: ألا تُعلِّق شيئاً؟ قال: الموت أقرب من ذلك، قال النبي ـ ﷺ ـ: من تعلق شيئاً وُكِل إليه».

(٣) مسند الإمام أحمد ٤/١٥٦، ١٥٤ ولا وَدَعَ له: لا جعله في دَعَةٍ وسُكُونٍ.

(٤) مسلم، كتاب الزهد ٤/٢٢٨٩.

(٥) مسند أحمد ٤/٢١٥.

(٦) مسند أحمد ٥/٤٢٨، وقد تقدّم الحديث آخر سورة الكهف.

(٧) الذي في المسند ٥/٤٢٨: عبد الرحمن بن أبي الزناد، عن عَمْرو.

(٨) مسند أحمد ٢/٢٢٠.

دَبِيب النمل. فقام عبد الله بن حَزْن وقيس بن المُضَارِب فقالا: والله لَتخرُجَنَّ[١] مما قلتَ أو لنأتينَّ عُمَر مأذوناً لنا أو غيرَ مأذونٍ. قال: بل أخرُج مما قلتُ، خَطَبنا رسول الله ـ ﷺ ـ ذات يوم فقال: «أيها الناسُ، اتَّقُوا هذا الشركَ فإنه أخفى من دَبيبِ النمل. فقال له مَن شاء الله أن يقول: فكيف نتَّقِيه وهو أخفى من دبيب النَّمل يا رسول الله؟ قال: قُولوا: اللهمَّ إنا نعوذُ بك مِن أن نُشرِكَ بكَ شيئاً نعلمُه، ونَستغفِرُك لما لا نعلَمُه»[٢].

وقد رُوِي من وجهٍ آخَر، وفيه أنَّ السائلَ في ذلك هو الصِّدِّيق، كما رواه الحافظُ أبو يعلى الموصليُّ، من حديث عبد العزيز بن مسلم، عن ليثِ بن أبي سُلَيم، عن أبي محمد، عن مَعقِل بن يسار قال: شَهِدتُ النبيَّ ـ ﷺ ـ: أو قال: حَدَّثني أبو بكر الصِّديقُ، عن رسول الله ـ ﷺ ـ أنه قال: «الشِّركُ أخفى فيكم من دَبِيبِ النمل. فقال أبو بكر: وهلِ الشركُ إلا من دعا مع الله إلهاً آخر؟ فقال رسولُ الله ـ ﷺ ـ: الشِّركُ فيكم أخفى من دَبيبِ النمل. ثم قال: ألا أدلُّكَ على ما يُذهِب عنك صَغيرَ ذلك وكبيرَه؟ قل: اللهُمَّ، أعوذ بك أن أُشرِكَ بك وأنا أعلم، وأستغفِرُكَ لما لا أعلم»[٣].

وقد رواه الحافظُ أبو القاسم البغويُّ، عن شيبان بن فَرُّوخٍ، عن يحيى بن كثير، عن الثوريِّ، عن إسماعيل بن أبي خالد، عن قيس بن أبي حازمٍ، عن أبي بكر الصِّدِّيق قال: قال رسول الله ـ ﷺ ـ: «الشركُ أخفَى في أمتي من دَبِيب النمل على الصَّفا. قال: فقال أبو بكر: يا رسولَ الله، فكيف النجاةُ والمخرجُ من ذلك؟ فقال: ألا أخبرُك بشيءٍ إذا قلته بَرِئتَ من قَليلِه وكَثيرِه وصَغيرِه وكَبيرِه؟ قال: بلى، يا رسولَ الله. قال: قل: اللهمَّ، إني أعوذُ بك أن أُشرِكَ بك وأنا أعلم، وأستغفِرُك لما لا أعلم».

قال الدارقطنيُّ: يحيى بن كثير هذا يقال له: «أبو النضر»، متروكُ الحديث[٤].

وقد رَوَى الإمام أحمد، وأبو داودَ، والترمذيُّ ـ وصَحَّحه ـ والنسائيُّ، من حديث يعلى بن عطاء، سَمِعتُ عَمرو بن عاصمٍ، سَمِعتُ أبا هُرَيرة قال: قال أبو بكر الصِّدِّيق ـ رضي الله عنه ـ: يا رسولَ الله، عَلِّمني شيئاً أقولُه إذا أصبحتُ وإذا أمسيتُ وإذا أخذتُ مَضْجَعِي. قال: قل: اللهُمَّ، فاطرَ السمواتِ والأرضِ، عَالِمَ الغيبِ والشهادةِ، رَبَّ كلِّ شيءٍ ومَلِيكَه، أشهدُ أن لا إلَه إلا أنتَ، أعوذُ بك من شَرِّ نفسي، شَرِّ الشيطانِ وشِرْكِه»[٥].

وَزاد أحمدُ في روايةٍ له من حديث لَيثِ بن أبي سُلَيم، عن مجاهد، عن أبي بكر قال: أمرني رسولُ الله ـ ﷺ ـ أن أقولَ... فذكر هذا الدُّعاءَ، وزاد في آخره: «وأن أَقترِفَ على نفسي سُوءاً أو أَجُرَّه إلى مُسلمٍ»[٦].

وقولُه: ﴿ أَفَأَمِنُوا أن تأتِيهم غاشيةٌ من عذاب الله أو تَأتِيَهُم الساعةُ بغتةً وهم لا يَشعُرونَ ﴾، أي: أفأمِن هؤلاء المشركون أن يأتِيَهم أمرٌ يغشاهم من حيث لا يشعرون، كما قال تعالى: ﴿ أَفَأَمِنَ الذين مَكَرُوا السيئاتِ أن يَخسِفَ الله بهم الأرضَ أو يأتيهم العذابُ من حيثُ لا يشعُرون ۝ أو يأخذَهم في تقلُّبهم فما هم بِمُعجِزين ۝

(١) يقال: خرج من الأمر: خلص منه.

(٢) مسند أحمد ٤/٤٠٣.

(٣) مسند أبي يعلى ١/٦١ـ٦٣. وقال الهيثمي في مجمع الزوائد ١٠/٢٢٤: «رواه أبو يعلى عن شيخه عمرو بن الحصين العقيلي، وهو متروك».

(٤) انظر المؤتلف والمختلف ٤/٢٢٢٦.

(٥) مسند أحمد ١/٩، وسنن أبي داود، كتاب الأدب ٤/٣١٦ـ٣١٧، وعارضة الأحوذي، أبواب الدعوات ١٢/٢٧٩ـ٢٨٠.

(٦) مسند أحمد ١/١٤.

أو يأخذَهم علي تخوُّفٍ فإن ربّكم لرءوف رحيم﴾، وقال تعالى: ﴿أفأمنَ أهلَ القرى أن يأتيَهم بأسنا بياتاً وهم نائمون ✽ أو أَمِنَ أهلُ القُرَى أن يأتيهُم بأسُنا ضُحىً وهم يلعبون ✽ أَفَأَمِنُوا مكر الله فَلاَ يَأْمَنُ مَكْرَ الله إلا القومُ الخاسِرُون﴾.

﴿قُلْ هَٰذِهِۦ سَبِيلِىٓ أَدْعُوٓا۟ إِلَى ٱللَّهِ ۚ عَلَىٰ بَصِيرَةٍ أَنَا۠ وَمَنِ ٱتَّبَعَنِى ۖ وَسُبْحَٰنَ ٱللَّهِ وَمَآ أَنَا۠ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ﴿١٠٨﴾﴾

يقولُ تعالى لعبده ورسولِه إلى الثَّقَلَينِ الإنسِ والجن، آمراً له أن يُخبِرَ الناس: أن هذه سبيلهُ، أي: طريقهُ ومسلكهُ وسُنّتُه، وهي الدعوةُ إلى شهادة أن لا إلّه إلا الله وحدَه لا شَريكَ له، يدعو إلى الله بها على بَصيرة من ذلك، ويقين وبُرهانٍ، هو وكلُّ من اتَّبعَه، يدعُو إلى ما دعا رسُول الله ـ ﷺ ـ على بصيرةٍ ويقينٍ وبرهانٍ شرعيٍّ وَعقليٍّ.

وقولُه: ﴿ وسبحَانَ الله ﴾، أي: وأُنزِّه الله وأُجِلُّه وأُعظِّمه وأُقدِّسه، عن أن يكون له شريكٌ أو نَظِيرٌ، أو عديلٌ أو نديدٌ، أو ولدٌ أو والدٌ أو صاحبةٌ، أو وزيرٌ أو مُشِيرٌ، تباركَ وتعالى وتقدّس وتنزّه عن ذلك كلّه علواً كبيراً، ﴿ تَسبّح له السموات السبع والأرضُ ومن فيهنّ وإن مِّن شيءٍ إلا يُسبّح بحمده ولكن لا تفقهُونَ تَسبِيحهم إنه كان حليماً غفوراً ﴾.

﴿وَمَآ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ إِلَّا رِجَالًا نُّوحِىٓ إِلَيْهِم مِّنْ أَهْلِ ٱلْقُرَىٰٓ ۗ أَفَلَمْ يَسِيرُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ فَيَنظُرُوا۟ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ ۗ وَلَدَارُ ٱلْءَاخِرَةِ خَيْرٌ لِّلَّذِينَ ٱتَّقَوْا۟ ۗ أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴿١٠٩﴾﴾

يُخبِر تعالى أنه إنما أرسلَ من الرِّجال لا من النساء. وهذا قولُ جمهور العُلَماء، كما دَلَّ عليه سياقُ هذه الآية الكَريمة: أن الله تعالى لم يُوحِ إلى امرأةٍ من بناتِ بني آدمَ وَحْيَ تشريعٍ.

وَزَعم بعضهم: أن سَارَة امرأة الخليل، وأُمَّ موسى، ومريَم أم عيسى نَبيّات، واحتجوا بأن الملائكة بَشَّرت سارة بإسحاق، ومن وراء إسحاق يعقوب، وبقوله: ﴿ وأوحينا إلى أم موسى أن أرْضِعيه ﴾. . . الآية، وبأنَّ الملَكَ جاء إلى مريم فَبَشَّرها بعيسى ـ عليه السلام ـ وبقوله تعالى: ﴿ إذ قالت الملائكة يا مريمُ إن الله اصطفاكِ وطَهَّرك واصطفاكِ على نساء العالمين ✽ يا مريمُ اقنُتي لربِّك واسجُدي واركَعِي مع الراكعين ﴾.

وهذا القدرُ حاصلٌ لهنّ، ولكن لا يلزمُ من هذا أن يَكُنَّ نَبيَّاتٍ بذلك، فإن أراد القائلُ بِنُبوّتهنّ هذا القدر من التشريف فهذا لاشك فيه، ويبقى الكلام معه في أن هذا: هل يكفي في الانتظام في سِلكِ النبوّة بمجرده أم لا؟ الذي عليه أهلُ السُّنَّةِ والجَماعة، وهو الذي نَقَله الشيخُ أبو الحسن علي بن إسماعيل الأشعريُ عنهم: أنه ليس في النساء نبيّةٌ، وإنما فيهن صِدّيقاتٌ، كما قال تعالى مُخبراً عن أشرفهن مريم بنت عمران حيث قال: ﴿ ما المسيحُ ابنُ مريمَ إلا رَسول قد خلت من قبله الرسل وأمه صِدِّيقة كانا يأكلان الطعام ﴾، فوصفها في أشرفِ مقاماتها بالصِّدِّيقيَّة، فلو كانت نبيّة لَذُكر ذلك في مقام التشريف والإعظام، فهي صِدِّيقة بنصِّ القرآن.

وقال الضحاك، عن ابن عباس في قوله: ﴿ وما أرسلنا من قبلك إلا رجالاً نُوحِي إليهم من أهل القُرَى ﴾، أي: ليسوا من أهل السماء كما قلتُم. وهذا القولُ من ابن عباس يَعتَضِدُ بقوله تعالى: ﴿ وما أرسلنا من قبلك من المرسلين إلا إنهم ليأكلون الطعام ويمشُون في الأسواق ﴾. . . الآية، وقوله تعالى: ﴿ وما جَعلناهم جسداً

لا يأكلون الطعام وما كانوا خالدين * ثم صَدَقناهم الوعد فأنجيناهم ومن نَشاءُ وأهلكنا المسرفين ﴾، وقوله تعالى: ﴿ قل ما كنتُ بدعاً من الرسل ﴾. . . الآية.

وقولُه: ﴿ من أهل القُرَى ﴾، المراد بالقُرى المدنُ، لا أنَّهم من أهل البوادي، الذين هم أجفى الناس طِباعاً وأخلاقاً: وهذا هو المعهودُ المعروفُ أنَّ أهلَ المُدُنِ أرقُّ طباعاً، والطفُ من أهل سوادهم، وأهلُ الريفِ والسوادِ أقربُ حالاً من الذين يسكنون في البوادي، ولهذا قال تعالى: ﴿ الأعراب أشدُّ كفراً ونفاقاً وأجدَرُ أن لا يعلَمُوا حدودَ ما أنزل الله على رسوله ﴾.

وقال قتادةُ في قوله: ﴿ من أهل القُرَى ﴾، لأنهم أعلم وأحلم من أهل العمود.

وفي الحديث الآخر: أنَّ رجُلاً من الأعرابِ أهدى لرسولِ الله ـ ﷺ ـ ناقة فلم يزل يُعطِيه ويزيده حتى رَضِي، فقال رسول الله ـ ﷺ ـ: «لقد هَمَمْتُ ألاَّ أتَّهِبَ هِبَةً من قُرَشِيٍّ، أو أنصاريٍّ، أو ثَقَفِيٍّ، أو دَوْسِيٍّ»[(١)].

وقال الإمامُ أحمدُ: حدثنا حجَّاجٌ، حدثنا شعبةُ، عن الأعمش، عن يحيى بن وَثَّاب، عن شيخٍ من أصحابِ رسولِ الله ﷺ ـ قال الأعمش: هو ابن عُمَرَ، عن النبي ـ ﷺ ـ أنه قال: «المؤمن الذي يُخالِطُ الناسَ ويَصبِرُ على أذاهم خيرٌ من الذي لا يُخَالِطُهم ولا يصبر على أذاهم»[(٢)].

وقولُه: ﴿ أفلَم يَسِيروا في الأرض ﴾ يعني: هؤلاء المُكَذِّبين لك يا مُحمَّد في الأرضِ، ﴿ فينظُروا كيف كان عاقبةُ الذين من قَبلهم ﴾، أي: من الأمم المُكذِّبة للرسُلِ، كيف دَمَّر الله عليهم، وللكافرين أمثالُها، كقوله: ﴿ أفلم يَسِيرُوا في الأرض فتكون لهم قلوبٌ يَعقِلون بها أو آذان يسمعُون بها فإنها لا تعمى الأبصار ولكن تعمى القلوبُ التي في الصدور ﴾، فإذا استمعُوا خَبَر ذلك رأوا أن الله قد أهلَكَ الكافرين ونَجَّى المؤمنين، وهذه كانت سُنَّته تعالى في خَلقه، ولهذا قال تعالى: ﴿ ولدارُ الآخرةِ خيرٌ للذين اتَّقوا ﴾، أي: وَكَما أنجينا المؤمنين في الدنيا كذلك كَتَبنا لهم النجاة في الدَّار الآخرة أيضاً، وهي خيرٌ لهم من الدنيا بكثير، كما قال تعالى: ﴿إنا لننصرُ رُسُلَنا والذين آمنوا في الحياةِ الدنيا ويومَ يقومُ الأشهاد * يومَ لا ينفعُ الظالمين معذِرَتُهم ولهم اللَّعْنَةُ وَلَهُمْ سوءُ الدار﴾.

وأضاف الدار إلى الآخرة فقال: ﴿ ولدار الآخرة ﴾، كما يقال: «صلاةُ الأولى»، «وَمسجِدُ الجامعِ»، «وعام الأوَّلِ»، «وبارِحَةُ الأولى»، «ويومُ الخميسِ». قال الشاعر[(٣)]:

أتَمْدَحُ فَقْعَساً وَتَذمُّ عَبْساً ألاَ للهِ أمُّكَ مِنْ هَجِينِ
وَلَو أقْوتْ عَلَيكَ ديارُ عَبْسٍ عَرَفْتَ الذُلَّ عِرْفَانَ اليَقِينِ

﴿ حَتَّىٰٓ إِذَا ٱسۡتَيۡـَٔسَ ٱلرُّسُلُ وَظَنُّوٓاْ أَنَّهُمۡ قَدۡ كُذِبُواْ جَآءَهُمۡ نَصۡرُنَا فَنُجِّيَ مَن نَّشَآءُۖ وَلَا يُرَدُّ بَأۡسُنَا عَنِ ٱلۡقَوۡمِ ٱلۡمُجۡرِمِينَ ١١٠ ﴾

(١) مسند أحمد ١/٢٩٥. وأتَّهب: آخذ هِبَةً.
(٢) مسند أحمد ٢/٤٣.
(٣) تفسير الطبري ١٣/٨١، ومعاني القرآن للفراء ٢/٥٦. وقال الطبري: «وأضيفت الدار إلى الآخرة، وهي الآخرة، لاختلاف لفظهما». ثم ذكر الأمثلة المذكورة هنا، والبيتين.
والهجين: ولد العربي لغير العَرَبية. وأقْوَتِ الدارُ: خلت من ساكنيها.

يُخبرُ تعالى أَنَّ نصره يَنزِلُ على رسله ـ صلواتُ الله وسلامُه عليهم أجمعين ـ عند ضيق الحالِ وانتظار الفرَجِ من الله تعالى في أَحوَجِ الأوقات إلى ذلك، كما في قوله تعالى: ﴿ وَزُلزِلُوا حتى يقولَ الرسولُ والذين آمنوا معه متى نصرُ الله ألا إنَّ نَصر الله قريب ﴾.

وفي قوله ﴿ كُذِّبوا ﴾ قراءتان، إحداهما بالتشديد: ﴿ قد كُذِّبُوا ﴾، وكذلك كانت عائشة ـ رضي الله عنها ـ تقرؤها، قال البخاري:

حدثنا عبدُ العزيز بن عبد الله، حدثنا إبراهيمُ بن سعد، عن صالح، عن ابن شِهَابٍ قال: أخبرني عروةُ ابنِ الزبير، عن عائشة قالت له وهو يسألها عن قول الله: ﴿ حتى إذا استيأسَ الرسلُ ﴾، قال قلت: أَكُذِبُوا أم كُذِّبُوا؟ فقالت عائشة: كُذِّبوا. فقلت: فقد استيقنوا أن قومَهم قد كَذَّبوهم فما هو بالظَّنِّ؟ قالت: أجل، لعمري لقد استيقنوا بذلك. فقلت لها: وظنوا أنهم قد كُذِبُوا؟ قالت: معاذَ الله، لم تكن الرسلُ تظنُّ ذلك بِربِّها. قلتُ: فما هذه الآية؟ قالت: هم أتباعُ الرسُلِ الذين آمنوا بِرَبِّهم وصَدَّقوهم، فطال عليهم البلاء، واستأخر عنهم النصرُ، ﴿ حتى إذا استيأسَ الرسلُ ﴾ مِمَّن كذبهم من قومهم، وظَنت الرسلُ أن أتباعهم قد كَذَّبوهم، جاءَهُم نصرُ الله عند ذلك[١].

حدثنا أبو اليمان، أنبأنا شُعَيبٌ، عن الزهريِّ قال: أخبرنا عروةُ فقلت: «لعلها ﴿قد كُذِبوا﴾ مُخَفَّفة؟ قالت: معاذ الله»[١]. انتهى ما ذكره.

وقال ابنُ جريج: أخبرني ابن أبي مُلَيكة: أن ابن عباس قرأها: ﴿ وظَنُّوا أَنَّهُم قد كُذِبُوا ﴾ خفيفة، قال عبد الله هو ابن أبي مليكة: ثم قال لي ابن عباس: كانوا بشراً، وتلا ابن عباس: ﴿ حتى يقولَ الرسول والذين آمنوا معه متى نصر الله ألا إن نصر الله قريب ﴾. قال ابنُ جريج: وقال لي ابنُ أبي مُلَيكَةَ: وأخبرني عُروةُ عن عائشةَ: أنها خالفت ذلك وَأَبَتْهُ، وقالت: ما وَعَد الله محمداً ـ ﷺ ـ من شيءٍ إلا قد عَلِم أنه سيكونُ حتى مات، ولكنه لم يزل البلاءُ بالرسُلِ حتى ظنُّوا أنَّ مَن معهم من المؤمنين قد كَذَّبوهم. قال ابنُ أبي مليكة في حديث عُروةَ: كانت عائشة تقرؤها: ﴿ وظنوا أنهم قد كُذِّبوا ﴾ مثقلة، للتكذيب[٢].

وقال ابن أبي حاتم: أخبرنا يونُس بن عبد الأعلى قراءة، أخبرنا ابن وهب، أخبرني سُليمان بن بلال، عن يحيى بن سعيد قال: جاء إنسانٌ إلى القاسمِ بن محمد فقال: إن محمد بن كعبٍ القرظي يقول هذه الآية: ﴿حتى إذا استيأس الرسل وظنوا أنهم قد كُذِبوا﴾، فقال القاسم: أَخْبِرْهُ عني أني سَمِعت عائشة زوج النبي ـ ﷺ ـ تقول: ﴿حتى إذا استيأس الرسل وظَنوا أنهم قد كُذِّبوا﴾، تقولَ: كَذَّبتهم أتباعهم. إسناد صحيح أيضاً.

والقراءة الثانية بالتخفيف، واختلفوا في تفسيرها، فقال ابن عباس ما تقدم. وعن ابن مسعود، فيما رواه سفيان الثوري، عنِ الأعمش، عن أبي الضحى، عن مسروق، عن عبد الله أنه قرأ: ﴿ حتى إذا استيأس الرسل وظنوا أنهم قد كُذِبُوا﴾ مخففة، قال عبد الله: هو الذي تكره[٣].

وهذا عن ابن مسعودٍ وابن عباس ـ رضي الله عنهما ـ مخالف لما رواه آخرون عنهما. أما ابن عباس فَروى الأعمش، عن مسلم، عن ابن عباس في قوله: ﴿ حتى إذا استيأس الرسل وظنوا أنهم قد كُذِبوا ﴾، قال:

(١) فتح الباري، تفسير سورة يوسف ٣٦٧/٨.
(٢) تفسير الطبري ٨٧/١٣.
(٣) تفسير الطبري ٨٦/١٣.

لما أيست الرسل أن يَستَجِيبَ لهم قومهم، وظن قومُهم أن الرسل قد كَذَبُوهم، جاءهم النصر على ذلك، ﴿ فَنُجِّي من نشاء ﴾(١).

وكذا رُوِيَ عن سعيد بنُ جبير، وعمران بن الحارث السُّلمي، وعبد الرحمن بن معاوية، وعلي بن أبي طلحة، والعوفيِّ، عن ابن عباس، بمثله.

وقال ابنُ جرير: حدثني المثنى، حدثنا عارمُ أبو النعمان، حدثنا حمَّاد بن زيد، حدثنا شُعَيبٌ، حدثنا إبراهيم بن أبي حُرَّة الجَزرِي قال: سأل فَتىً من قُريشٍ سعيدَ بن جُبَيرٍ فقال له: يا أبا عبد الله، كيف هذا الحرفُ، فإني إذا أتيت عليه تمنيتُ أني لا أقرأُ هذه السورة: ﴿ حتى إذا استيأس الرسل وظنوا أنهم قد كُذِبُوا ﴾؟ قال: نعم، حتى إذا استيأس الرسلُ من قومِهم أن يصدِّقوهم، وظن المرسَل إليهم أن الرسل كُذِبوا. فقال الضحَّاكُ بن مزاحم: ما رأيت كاليوم قطُّ رجلا يُدعَى إلى علم فَيتَلكأ! لو رحلت في هذه إلى اليمن كان قليلاً(٢).

ثم رَوَى ابنُ جرير أيضاً من وجه آخر: أنَّ مسلم بن يسار سأل سعيدَ بن جُبَير عن ذلك، فأجابه بهذا الجوابِ، فَقَام إلى سعيد فاعتنقه، وقال: فرَّج الله عَنْكَ كما فَرَّجتَ عني(٢).

وهكذا رُوِي من غير وجه عن سعيد بن جُبَير أنه فَسَّرها كذلك. وكذا فَسَّرها مجاهدُ بن جَبْر، وغير واحد من السلف، حتَّى إن مُجاهِداً قرأها: ﴿ وظنُّوا أنهم قد كَذَبوا ﴾، بفتح الذال. رواه ابنُ جرير(٣) إلا أن بعض من فسَّرها كذلك يعيد الضمير في قوله: ﴿وظنوا أنهم قد كَذَبوا﴾ إلى أتباع الرُسل من المؤمنين، ومنهم من يُعيده إلى الكافرين منهم، أي: وظن الكفار أن الرسل قد كَذَبوا ـ مُخَفَّفَةً ـ فيما وَعَدوا به من النصر.

وأما ابن مسعود فقال ابن جرير: حدثنا القاسمُ، حدثنا الحُسَين، حدثنا محمد بن فُضَيل، عن جَحش بن زيادٍ الضبيِّ، عن تميم بن حَذْلَم قال: سمعتُ عبدَ الله بن مسعودٍ يقولُ في هذه الآية: ﴿ حتى إذا استيأس الرسلُ ﴾ من إيمان قومهم أن يؤمنوا بهم، وظَنَّ قومُهم حين أبطأ الأمر أنهم قد كَذَبوا، بالتخفيف(٤).

فهاتان الروايتان عن كل من ابن مسعودٍ وابن عبَّاس، وقد أنكرت ذلك عائشة على من فَسَّرها بذلك، وانتصر لها ابنُ جرير، ووجَّه المشهور عن الجمهور، وزَيَّف القولَ الآخرَ بالكلية وَرَدَّهُ وأباه، ولم يقبله ولا ارتضاه، والله أعلم.

﴿ لَقَدْ كَانَ فِي قَصَصِهِمْ عِبْرَةٌ لِّأُوْلِي الْأَلْبَابِ مَا كَانَ حَدِيثًا يُفْتَرَى وَلَكِن تَصْدِيقَ الَّذِي بَيْنَ يَدَيْهِ وَتَفْصِيلَ كُلِّ شَيْءٍ وَهُدًى وَرَحْمَةً لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ (١١١) ﴾

يقولُ تعالى: لقد كان في خَبَر المرسلين مع قومهم، وكيف أنجينا المؤمنين وأهلكنا الكافرين، ﴿ عِبْرَةٌ لأولي الألباب ﴾ وهي العقولُ، ﴿ ما كان حديثاً يُفتَرى ﴾، أي: وما كان لهذا القرآن أن يُفتَرَى من دون الله، أي: يُكَذَّب ويُختَلَق، ﴿ ولكن تصديقَ الذي بين يديه ﴾، أي: من الكتب المُنَزَّلة من السماء، وهو يُصَدِّق ما

(١) تفسير الطبري ١٣/٨٢.
(٢) تفسير الطبري ١٣/٨٤.
(٣) تفسير الطبري ١٣/٨٨.
(٤) تفسير الطبري ١٣/٨٥.

فيها من الصَّحيح، وينفي ما وقع فيها من تحريفٍ وتبديل وتغييرٍ، ويحكم عليها بالنَّسخِ أو التقرير، ﴿ وتفصيلَ كُلِّ شيءٍ ﴾، من تحليل وتحريم، ومحبوب ومكروه، وغير ذلك من الأمر بالطاعاتِ والواجباتِ والمستحبَّاتِ، والنهي عن المحرَّماتِ وما شاكَلَها من المكروهات، والإخبار عن الأمورِ على الجَلِيَّةِ، وعن الغُيُوب المستقبلة المجملة والتَّفصِيليَّة، والإخبارِ عن الرَّب تبارك وتعالَى بالأسماءِ والصِّفاتِ، وتنزيهه عن مُمَاثَلَةِ المخلوقات، فلهذا كان: ﴿ هُدىً ورحمةً لقوم يُؤمِنُونَ ﴾ تهتدي به قلوبُهم من الغَيِّ إلى الرشاد، ومن الضلالة إلى السَّدَادِ، ويبتغُون به الرحمةَ من ربِّ العباد، في هذه الحياة الدنيا والمعاد. فنسأل الله العظيمُ أن يجعلنا منهم في الدنيا والآخِرَةِ، يوم يفوزُ بالربح المُبْيَضَّةُ وجوهُهم الناضِرَةُ، ويرجعُ المسودَّة وجوهُهم بالصفقة الخاسرة.

آخر تفسير سورة يوسف، ولله الحمد والمنَّةُ، وبه المستعان،
وعليه التُّكلان، وهو حسبنا ونعمَ الوكيلُ

تفسير

سورة الرعد

بسم الله الرحمن الرحيم

﴿ الٓمٓرۚ تِلْكَ ءَايَٰتُ ٱلْكِتَٰبِۗ وَٱلَّذِىٓ أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ ٱلْحَقُّ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يُؤْمِنُونَ ۝١ ﴾

أَمّا الكلامُ على الحروف المقطعة في أوائل السُّوَر فقد تقدَّم في أول سُورة البقرة، وقدَّمنا أنَّ كلَّ سورة تُبتدأُ بهذه الحروف ففيها الانتصارُ للقرآن، وتبيانُ أنَّ نزولَه من عند الله حقٌّ لا شكَّ فيه ولا مِرْيةَ ولا ريبَ، ولهذا قال: ﴿ تلك آياتُ الكتابِ ﴾، أي: هذه آياتُ الكتابِ، وهو القرآن. وقيل: التوراةُ والإنجيلُ. قاله مجاهدٌ وقتادةُ. وفيه نظرٌ، بل هو بعيد.

ثم عَطَف على ذلك عَطْفَ صفاتٍ قولَه ﴿ والذي أُنزِل إليك ﴾، أي: يا محمدُ، ﴿ من ربِّك الحقُّ ﴾، خبرٌ تقدَّم مبتدؤه، وهو قوله: ﴿ والذي أُنزِلَ إليك من ربِّك ﴾، هذا هو الصحيحُ المطابقُ لتفسير مجاهد وقتادةَ، واختار ابنُ جريرٍ أن تكون الواو زائدةً أو عاطفةً صفةً على صفةٍ كما قدَّمنا، واستشهد بقول الشاعر[1]:

إلى المَلِك القَـرْمِ وابـنِ الهُـمـامِ وَلَـيثِ الـكَـتِـيـبـة فـي الـمُـزْدَحَـمْ

وقولُه: ﴿ ولكنَّ أكثر الناس لا يُؤمِنُونَ ﴾، كقوله: ﴿ وما أكثرُ الناسِ وَلَو حَرَصْتَ بمؤمنين ﴾، أي: مع هذا البيَانِ والجلاءِ والوُضوح لا يُؤمِنُ أكثرُهم لما فيهم من الشِّقاقِ والعنادِ والنفاقِ.

﴿ ٱللَّهُ ٱلَّذِى رَفَعَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ بِغَيْرِ عَمَدٍ تَرَوْنَهَاۖ ثُمَّ ٱسْتَوَىٰ عَلَى ٱلْعَرْشِۖ وَسَخَّرَ ٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَۖ كُلٌّ يَجْرِى لِأَجَلٍ مُّسَمًّىۚ يُدَبِّرُ ٱلْأَمْرَ يُفَصِّلُ ٱلْءَايَٰتِ لَعَلَّكُم بِلِقَآءِ رَبِّكُمْ تُوقِنُونَ ۝٢ ﴾

يخبرُ تعالى عن كمال قُدرته وعَظِيم سلطانه أنه الذي بإذنه وأمرِه رَفَع السمواتِ بغير عَمَدٍ، بل بإذنه وأمْرِه وتَسخيره رَفَعها عن الأرض بُعداً لا تُنال ولا يدرَكُ مَداها، فالسماء الدنيا محيطةٌ بجميع الأرض وما حَولَها من الماء والهواء من جميع نواحيها وجهاتها وأرجائها، مرتفعةٌ عليها من كُلِّ جانبٍ على السواء، وبعدُ ما بينها وبين الأرض من كل ناحية مسيرةُ خمسمائة عام، وسُمكها في نفسها مَسِيرةُ خَمسِمائةِ عامٍ. ثم السماءُ الثانيةُ محيطةٌ

(١) البيت في معاني القرآن للفراء ١/٥٢، ٢/٥٨، ٢٨٦، وتفسير الطبري ١٣/٩٢، غير منسوب.

بالسماء الدنيا وما حوت، وبينها وبينها من البعد مسيرةُ خمسمائةِ عام، وسُمكها خمسُمائة عام، ثم السماء الثالثة محيطةٌ بالثانية بما فيها، وبينها وبينها خمسُمائة عام، وسُمكها خمسُمائة عام، وكذا الرابعةُ والخامسةُ والسادسةُ والسابعةُ، كما قال تعالى: ﴿ اللهُ الذي خَلَقَ سبعَ سموات ومن الأرض مثلَهن يتنزَّل الأمرُ بينهنَّ لِتعلَمُوا أنَّ الله على كلِّ شيءٍ قديرٌ وأن الله قد أحاطَ بكلِّ شيءٍ عِلماً ﴾، وفي الحديث: «ما السمواتُ السبعُ وما فيهنَّ وما بينهنَّ في الكرسي إلا كحَلْقةٍ ملقاةٍ بأرضِ فلاةٍ، والكرسيُّ في العَرْش كتلك الحَلْقةِ في تلك الفَلاةِ»[1]، وفي روايةٍ: «والعرشُ لا يَقدُر قَدْرَه إلا الله عز وجل»[1]. وجاء عن بعضِ السلَفِ أن بُعدَ ما بين العرشِ إلى الأرضِ مسيرةُ خمسين ألفَ سنةٍ وبُعد ما بين قُطْرَيهِ مسيرةُ خمسينَ ألفَ سنةٍ، وهو من ياقوتةٍ حمراءَ.

وقولُه: ﴿ بغير عَمَدٍ تَرَونها ﴾، رُوِي عن ابن عباسٍ، ومجاهدٍ، والحسنِ، وقتادةَ أنهم قالوا: لها عَمَدٌ ولكن لا تُرَى.

وقال إياسُ بن معاويةَ: السماءُ على الأرضِ مثل القُبَّةِ[2]، يعني بلا عَمَدٍ، وكذا رُوِيَ عن قتادةَ، وهذا هو اللائق بالسياق. والظاهر من قوله تعالى: ﴿ ويُمسِكُ السماءَ أن تَقَعَ على الأرض إلا بإذنِه ﴾، فعلى هذا يكون قوله: ﴿ تَرَونها ﴾ تأكيداً لنفي ذلك، أي: هي مرفوعة بغير عَمَد كما تَرَونها. وهذا هو الأكملُ في القدرةِ. وفي شعر أُميَّةَ بن أبي الصَّلتِ الذي آمن شِعرُه وكفر قلبه، كما ورد في الحديث[3]. ويُروَى لزيد بن عَمْرو بن نُفَيل رَحِمه الله ورَضِي عنه[4]:

وأنتَ الَّذي مِنْ فَضْلِ مَنٍّ وَرَحْمَةٍ ... بَعَثْتَ إلى مُوسَى رَسُولاً مُنَادِيا
فقلتَ له: يا اذهَبْ وهارون فادعُوا ... إلى الله فِرْعَونَ الذي كانَ طَاغيا
وَقُولاَ لَه: هَلْ أنتَ سَوَّيت هَذه ... بلا وَتِدٍ حَتَّى اطمأنَّتْ كَمَا هِيَا
وقُولاَ لَه: آأنتَ رَفَعتَ هَذه ... بلا عَمَدٍ أَرْفِقْ[5] إذاً بِكَ بانِيا؟
وَقُولاَ لَه: هَل أنتَ سَوَّيتَ وَسْطَهَا ... مُنِيراً إذا ما جَنَّكَ اللَّيلُ هادِيا
وقُولا لَه: مَنْ يُرسِلُ الشمسَ غُدوةً ... فَيُصبحَ ما مَسَّتْ مِنَ الأرْضِ ضَاحيا
وَقُولا له: مَن يُنبِتُ الحبَّ في الثَّرَى ... فَيُصبِحَ مِنْه العُشبُ يَهْتَزُّ رَابِيا
وَيُخرِجَ مِنه حَبَّه في رُؤوسه ... فَفِي ذَاكَ آياتٌ لِمَن كَانَ وَاعِيا

(١) تقدم الحديثان عند تفسير الآية ٢٥٥ من سورة البقرة، وخرجناه هنالك.

(٢) تفسير الطبري ١٣/٩٤.

(٣) ذكر ابن كثير في البداية والنهاية ٢/٢١٢ ما رواه يحيى بن محمد بن صاعد بإسناده إلى الشريد الهمداني أن رسول الله ـ ﷺ ـ قال له: أسمعك من شعر أمية بن أبي الصلت؟ قلت: نعم. قال: هات. فأنشدته، قال: أظنه قال مائة بيت، فقال: عند الله عِلْمُ أمية بن أبي الصلت. ثم قال ابن صاعد: هذا حديث غريب، فأما الذي يُروَى أنه رسول الله ـ ﷺ ـ قال في أمية: «آمن شعره وكفر قلبه» فلا أعرفه، والله أعلم».

هذا وانظر الشعر والشعراء لابن قتيبة ١/٤٥٩.

(٤) الأبيات في سيرة ابن هشام ١/٢٢٨.

(٥) قال السُّهَيلي في الروض الأنف ١/١٤٩: «أرْفِق: تعجبٌ، وبك في موضع رفع، لأنه المعنى: رُفُقْتَ، وبانياً: تمييز، لأنه يصح أن يُجَرَّ بمن، كما تقول: أحسن بزيد من رجل».

وقولُه: ﴿ ثم استوى على العرشِ ﴾، تَقدَّم تفسيرُ ذلك في سورة الأعراف(١)، وأنه يُمَرُّ كما جاء من غير تَكْييفٍ ولا تَشبيهٍ ولَا تعطيلٍ ولا تمثيلٍ، تعالى الله عُلوّاً كبيراً.

وقولُه: ﴿ وسخَّر الشمسَ والقمَرَ كلٌّ يجري لأجل مسمًّى ﴾ قيل: المرادُ أنهما يجريان إلى انقطاعهما بقيام الساعة، كما في قوله تعالى: ﴿ والشمسُ تجري لمستقر لها ذلك تقديرُ العزيز العليم ﴾.

وقيل: المرادُ إلى مُستقرِّهما وهو تحت العرش مما يلي بطن الأرض من الجانب الآخر، فإنهما وسائرُ الكواكب إذا وصلُوا هنالك يكونون أبعدَ ما يكون عن العرش، لأنه على الصَّحيح الذي تقومُ عليه الأدلة قبَّةٌ مما يلي العالم من هذا الوجه، وليس بمحيط كسائر الأفلاك، لأنه له قوائم وحَمَلة يحمِلُونه. ولا يتصوَّر هذا في الفلك المستدير، وهذا واضح لمن تَدبَّر ما وَرَدَتْ به الآيات والأحاديث الصحيحةُ، ولله الحمد والمنةُ.

وذَكَر الشمسَ والقمر لأنهما أظهرُ الكواكب السيَّارة السبعة، التي هي أشرف وأعظم من الثوابت، فإذا كان قد سَخَّر هذه فَلأَنْ يدخلَ في التسخير سائرُ الكواكب بطريق الأولى والأخرى، كما نَبَّه بقوله تعالى: ﴿ لا تسجُدوا للشمس ولا لـلقمر واسجُدوا لله الذي خَلَقهنَّ إن كنتم إياه تعبدون ﴾، مع أنه قد صَرَّح بذلك بقوله: ﴿ والشمسَ والقمَرَ والنجومَ مُسخَّراتٍ بأمره ألا له الخلقُ والأمْر تباركَ الله ربُّ العالمين ﴾.

وقولُه: ﴿ يُفصِّل الآيات لعلكم بلقاء ربكم تُوقنُون ﴾، أي: يُوضِّح الآياتِ والدَّلالاتِ الدَّالةَ على أنه لا إلَه إلا هو، وأنه يُعيد الخَلْقَ إذا شاء كما ابتدأ خَلْقَه.

﴿ وَهُوَ ٱلَّذِى مَدَّ ٱلْأَرْضَ وَجَعَلَ فِيهَا رَوَٰسِىَ وَأَنْهَٰرًا ۖ وَمِن كُلِّ ٱلثَّمَرَٰتِ جَعَلَ فِيهَا زَوْجَيْنِ ٱثْنَيْنِ ۖ يُغْشِى ٱلَّيْلَ ٱلنَّهَارَ ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ ﴿٣﴾ وَفِى ٱلْأَرْضِ قِطَعٌ مُّتَجَٰوِرَٰتٌ وَجَنَّٰتٌ مِّنْ أَعْنَٰبٍ وَزَرْعٌ وَنَخِيلٌ صِنْوَانٌ وَغَيْرُ صِنْوَانٍ يُسْقَىٰ بِمَآءٍ وَٰحِدٍ وَنُفَضِّلُ بَعْضَهَا عَلَىٰ بَعْضٍ فِى ٱلْأُكُلِ ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ ﴿٤﴾ ﴾

لما ذكر تعالى العالم العُلوي شَرَع في ذكر قُدرته وحِكمته وإحكامه للعالم السُّفلي، فقال: ﴿ هو الذي مَدَّ الأرض ﴾، أي: جعلها مُتَّسِعة ممتدَّةً في الطول والعَرض، وأرساها بجبالٍ راسيات شامخاتٍ، وأجرى فيها الأنهار والجَداولَ والعُيونَ لسقيِ ما جَعَل فيها من الثمراتِ المختلفة الألوانِ والأشكالِ والطعومِ والروائح، من كلِّ زوجَين اثنينِ، أي: من كلِّ شكلٍ صنفان.

﴿يُغشِي الليلَ النهارَ﴾، أي: جَعَل كُلّاً منهما يطلبُ الآخر طلباً حثيثاً، فإذا ذهب هذا غَشِيه هذا، وإذا انقضى هذا جاء الآخرُ، فَيَتصرَّفُ أيضاً في الزمان كما تَصرَّف أيضاً في المكان والسكَّانِ، ﴿ إنَّ في ذلك لآياتٍ لقوم يَتفكَّرون ﴾، أي: في آلاءِ الله وحكمتِهِ ودلائِله.

وقولُه: ﴿ وفي الأرضِ قِطَعٌ متجاوراتٌ ﴾: أي: أراضٍ يجاورُ بعضُها بعضاً، مع أنَّ هذه طيبة تُنبِتُ ما ينتفع به الناس، وهذه سَبَخَةٌ مالحة لا تُنبِتُ شيئاً. هكذا رُوِي عن ابن عباس، ومجاهد، وسعيد بن جُبيرَ، والضحَّاك، وغيرهم.

وكذا يدخل في هذه الآية اختلافُ ألوانِ بقاع الأرض، فهذه تربة حمراءُ، وهذه بيضاءُ، وهذه صفراءُ، وهذه سوداءُ، وهذه مُحْجِرةٌ، وهذه سهلةٌ، وهذه مُرمِلةٌ، وهذه سَمِيكة، وهذه رَقِيقة، والكل متجاوِرَات. فهذه

(١) انظر تفسير الآية ٥٤ من سورة الأعراف.

بصفَتِها، وهذه بصفتها الأخرى، فهذا كلُّه مما يدل على الفاعل المختار، لا إلَه إلا هُوَ، ولاَ رَبَّ سِواه.

وقولُه: ﴿وجناتٌ من أعنابٍ وزرعٌ ونخيلٌ﴾، يَحتمِلُ أن تكون عاطفة على ﴿جنات﴾، فيكونِ ﴿وزرعٌ ونخيلٌ﴾ مرفوعين. ويحتمل أن يكون معطوفاً على ﴿أعنابٍ﴾، فيكون مجروراً. ولهذا قرأ بكلٍّ منهما طائفةٌ من الأئمة[١].

وقولُه: ﴿صِنْوَانٌ وغيرُ صِنْوانٍ﴾، الصنوان: هي الأصول المجتمعة في مَنْبِتٍ واحدٍ، كالرّمان والتين وبعض النخيل، ونحو ذلك. وغير الصِّنوان: ما كان على أصل واحد، كسائر الأشجار، ومنه سُمِّي عم الرجل صِنوُ أبيه، كما جاء في الحديث الصحيح أنَّ رسول الله ـ ﷺ ـ قال لعُمَر: أما شَعَرتَ أن عَمّ الرجل صِنْوُ أبيه؟[٢].

وقال سُفيان الثوريُّ، وشعبةُ، عن أبي إسحاقَ، عن البراء ـ رضي الله عنه ـ الصِّنوان هي النخلات في أصل واحد، وغيرُ الصِّنوانِ المتفرقاتُ. وقاله ابنُ عباس، ومجاهدٌ، والضحاكُ، وقتادةُ، وعبدُ الرحمن بنُ زيدِ ابن أسلَمَ.

وقولُه: ﴿تُسقى بِماء واحدٍ ونُفضِّل بعضها على بعض في الأُكل﴾، قال الأعمشُ، عن أبي صالح، عن أبي هُرَيرة ـ رضي الله عنه ـ عن النبي ـ ﷺ ـ: ﴿ونُفَضِّل بعضها على بعض في الأُكل﴾، قال: «الدَّقل والفارسي، والحُلْو والحامض»، رواه الترمذي وقال: حسن غريب[٣].

أي: هذا الاختلاف في أجناس الثمرات والزّروع، في أشكالها وألوانِها، وطُعُومها وروائِحِها، وأوراقِها وأزهارِها، فهذا في غاية الحلاوة، وذا في غايةِ الحُمُوضةِ، وذا في غاية المَرارةِ، وذا عَفِصٌ[٤]، وهذا عذب، وهذا جَمَع هذا وهذا، ثم يستحيل إلى طعم آخَرَ بإذن الله تعالى، وهذا أصفرُ، وهذا أحمَرُ، وهذا أبيضُ، وهذا أسودُ، وهذا أزرقُ، وكذلك الزُّهورات مع أن كُلَّها يَستمِدَ من طبيعةٍ واحدةٍ، وهو الماء، مع هذا الاختلاف الكثير الذي لا ينحصر ولا ينضبط، ففي ذَلكَ آياتٌ لمن كان واعياً، وهذا من أعظم الدَّلالات على الفاعِلِ المختارِ، الذي بِقُدرته فاوتَ بين الأشياء، وخلقها على ما يريدُ، ولهذا قال تعالى: ﴿إنَّ في ذلك لآياتٍ لقومٍ يعقلُون﴾.

﴿۞ وَإِن تَعْجَبْ فَعَجَبٌ قَوْلُهُمْ أَءِذَا كُنَّا تُرَٰبًا أَءِنَّا لَفِى خَلْقٍ جَدِيدٍ أُو۟لَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ بِرَبِّهِمْ وَأُو۟لَٰٓئِكَ ٱلْأَغْلَٰلُ فِىٓ أَعْنَاقِهِمْ وَأُو۟لَٰٓئِكَ أَصْحَٰبُ ٱلنَّارِ هُمْ فِيهَا خَٰلِدُونَ ﴿٥﴾﴾

يقولُ تعالى لرسوله محمد ـ صلواتُ الله وسلامُه عليه ـ: ﴿وَإن تعجَب﴾ من تكذيب هؤلاء المشركين بأمر المعاد مع ما يُشاهدونه من آيات الله ـ سبحانه ـ ودلالاته في خَلْقِه على أنه القادرُ على ما يشاء، ومَع ما يعترفُون به من أنه ابتدأ خَلْقَ الأشياء، فكَوَّنها بعد أن لم تكُنِ شيئاً مذكوراً، ثم هُم بعد هذا يُكَذِّبون خبره في أنه سَيُعيد العالَمينَ خَلْقاً جديداً، وقد اعترفُوا وشاهدُوا ما هو أعجبُ مما كَذَّبوا به، فالعجبُ من قولهم: ﴿أئذا كُنّا

---

(١) قرأ بالرفع ابن كثير وأبو عمرو وحفص. انظر الإقناع لابن الباذش ٢/٦٧٥.

(٢) أخرجه مسلم وأبو داود في كتاب الزكاة، صحيح مسلم ٢/٦٧٦ ـ ٦٧٧، وسنن أبي داود ٢/١١٥.

(٣) عارضة الأحوذي، تفسير سورة الرعد ١١/٢٨٤.
والدَّقَلُ: رديء التمر ويابسه.

(٤) أي: مُرٌّ، يقال: عَفِصَ الطعام عَفَصاً وعُفُوصَةً: كان فيه مرارةٌ وتَقَبُّض.

ترابًا أئنا لفي خلقٍ جديدٍ ﴾، وقد علِم كلُّ عالم وعاقل أن خلْقَ السمواتِ والأرض أكبرُ من خلْقِ الناس، وأنَّ من بدأ الخلْقَ فالإعادةُ سهلةٌ عليه، كما قال تعالى: ﴿ أوَلم يرَوا أنَّ الله الذي خلَق السمواتِ والأرضَ ولَم يعْيَ بخلْقِهنَّ بقادرٍ على أن يُحيِيَ الموتَى بلى إنَّه على كُلِّ شيءٍ قديرٌ ﴾.

ثم نعَت المكذِّبين بهذا فقال: ﴿ أولئك الذين كفَروا بربهم وأولئك الأغلالُ في أعناقهم ﴾، أي يُسحَبونَ بها في النار، ﴿ وأولئك أصحابُ النارِ هُم فيها خالدُونَ ﴾ أي: ماكِثون فيها أبداً، لا يَحُولونَ عنها ولا يَزُولون.

﴿ وَيَسْتَعْجِلُونَكَ بِٱلسَّيِّئَةِ قَبْلَ ٱلْحَسَنَةِ وَقَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِهِمُ ٱلْمَثُلَـٰتُ وَإِنَّ رَبَّكَ لَذُو مَغْفِرَةٍ لِّلنَّاسِ عَلَىٰ ظُلْمِهِمْ وَإِنَّ رَبَّكَ لَشَدِيدُ ٱلْعِقَابِ ۝٦ ﴾

يقول تعالى: ﴿ ويستعجِلُونك ﴾، أي: هؤلاءِ المُكذِّبون ﴿ بالسيِّئة قبل الحَسَنة ﴾، أي: بالعقُوبة، كما أخبر عنهم في قوله: ﴿ وقالوا يا أيها الذي نُزِّلَ عليه الذكر إنك لَمجنونٌ * لو ما تأتينا بالملائكة إن كُنتَ من الصادقين * ما نُنَزِّل الملائكةَ إلا بالحقِّ وما كانوا إذاً منظَرين ﴾. وقال تعالى: ﴿ ويَستعجِلُونك بالعذاب ولولا أجلٌ مُسمّىً لجاءهم العذاب وَليأتِيَنَّهم بغتةً وهم لا يَشعرون * يَستعجلُونك بالعذابِ وإنَّ جَهنَّم لمحيطةٌ بالكافرين ﴾، وقال: ﴿ سأل سائل بعذاب واقعٍ ﴾، وقال ﴿ يستعجلُ بها الذين لا يُؤمِنون بها والذين آمنوا مُشفِقُونَ منها ويَعلمُونَ أنها الحقّ ﴾، ﴿ وقالُوا ربنا عَجِّل لنا قِطَّنا قبل يوم الحساب ﴾، أي: حسابنا وعِقَابنا، كما قال مخبراً عنهم: ﴿ وإذ قالوا اللهمَّ إن كان هذا هو الحق من عندك فأمطِرْ علينا حِجارةً من السماءِ أو ائتنا بعذاب أليم ﴾، فكانوا يَطلبُون من الرسول أن يأتيَهم بعذابِ الله، وذلك من شِدَّة تكذيبهم وكُفرهم وعِنادهم.

قال الله تعالى: ﴿ وقد خلَت من قبلهم المَثُلاتُ ﴾، أي: قد أوقعنا نِقمتنا بالأمم الخالية وَجعلناهم مَثُلَةً وعبرةً وعظةً لمن اتَّعظَ بهم.

ثم أخبر تعالى أنه لولا حلمُه وعفوُه لعاجَلَهُم بالعقوبة، كما قال تعالى: ﴿ ولو يُؤاخِذُ الله الناسَ بما كَسَبُوا ما تَرَكَ على ظهرها من دابَّةٍ ﴾. وقال تعالى في هذه الآية الكريمة: ﴿ وإن ربَّك لذو مَغفرةٍ للناس على ظُلمهم ﴾، أي: إنه ذو عفوٍ وصَفحٍ وستْرٍ للناس مَع أنهم يَظلِمون ويُخطِئون بالليل والنهار. ثم قرن هذا الحُكم بأنه شديد العقاب، ليعتدِلَ الرجاءُ والخوفُ، كما قال تعالى: ﴿ فإن كَذَّبوك فقل ربُّكم ذُو رحمةٍ واسعةٍ ولا يُرَدُّ بأسُه عن القوم المجرمين ﴾، وقال: ﴿ إن ربَّك لسريعُ العقاب وإنه لغفورٌ رحيم ﴾، وقال: ﴿ نبىء عِبادي أنِّي أنا الغفورُ الرحيمُ * وأنَّ عَذابِي هو العذابُ الأليمُ ﴾. إلى أمثال ذلك من الآيات التي تجمَعُ الرجاء والخوف.

وقال ابنُ أبي حاتم: حدثنا أبي، حدثنا موسى بن إسماعيل، حدثنا حمّاد، عن علي بن زيدٍ، عن سَعيد ابن المُسيَّبِ قال: لما نزلت هذه الآية: ﴿ وإن ربك لَذُو مغفرةٍ للناس على ظُلْمِهم وإنَّ ربَّك لشديدُ العِقاب ﴾ قال رسول الله ـ ﷺ ـ: «لولا عفوُ الله وتجاوُزُه ما هَنَأ أحداً العيشُ، ولولا وعيدُه وعقابُهُ لاتَّكَلَ كلُّ أحَدٍ».

وروى الحافظُ ابنُ عساكرٍ في ترجمةِ الحَسَنِ بن عثمان أبي حَسَّان الزيادِيِّ[1]. أنه رأى رَبَّ العِزَّةِ في النوم، ورسولُ الله ـ ﷺ ـ واقفٌ بين يديه يشفَع في رجل من أُمَّته، فقال له: ألم يكفك أني أنزلتُ عليك في سورةِ الرَّعد: ﴿ وإن ربك لَذُو مغفرةٍ للناس على ظُلْمهم ﴾؟ قال: ثم انتبهتُ.

(١) انظر ترجمته في العبر للذهبي ١/٤٣٧، والأنساب للسمعاني ٣/١٨٥.

﴿ وَيَقُولُ الَّذِينَ كَفَرُوا لَوْلَا أُنزِلَ عَلَيْهِ آيَةٌ مِّن رَّبِّهِ إِنَّمَا أَنتَ مُنذِرٌ وَلِكُلِّ قَوْمٍ هَادٍ ﴿٧﴾ ﴾

يقولُ تعالى إخباراً عن المشركين أنهم يقولون كُفراً وعناداً: لولا يأتينا بآيةٍ من ربِّه كما أُرسِلَ الأوَّلون، كما تَعَنَّتوا عليه أن يَجعَلَ لهم الصَّفا ذَهَباً، وأن يُزيلَ عنهم الجبالَ، ويجعلَ مكانها مُروجاً وأنهاراً. قال الله تعالى: ﴿ وما مَنَعنا أن نُرسِلَ بالآيات إلا أن كَذَّبَ بها الأوَّلون وآتينا ثمودَ الناقة مُبصِرَةً فظلموا بها وما نُرسِلُ بالآيات إلا تخويفاً ﴾، قال الله تعالى: ﴿ إنما أنت منذرٌ ﴾، أي: إنَّما عليكَ أن تُبَلِّغ رسالةَ الله التي أمرَكَ بها، و﴿ ليس عليكَ هُدَاهم ولكن الله يَهدِي مَن يشاءُ ﴾.

وقولُه: ﴿ ولكلِّ قومٍ هادٍ ﴾، قال علي بن أبي طلحةَ، عن ابن عباسٍ، أي: وَلِكُلِّ قومٍ داعٍ.

وقال العوفيُّ، عن ابن عباس في تفسيرها: يقول الله تعالى: أنت يا محمدُ منذرٌ، وأنا هادي كُلِّ قوم. وكذا قال: مجاهد، وسعيد بن جُبير، والضحاك.

وعن مجاهد: ﴿ ولكلِّ قوم هادٍ ﴾، أي نبيٌّ. كما قال: ﴿ وإن من أُمَّةٍ إلا خلا فيها نذير ﴾. وبه قال قتادة، وعبدُ الرحمن بنُ زيدٍ. وقال أبو صالح، ويحيى بن رافع: ﴿ ولكلِّ قوم هادٍ ﴾، أي: قائدٌ. وقال أبو العالية: الهادي القائدُ، والقائدُ الإمام، والإمامُ العَمَل.

وعن عِكْرِمةَ، وأبي الضُّحى: ﴿ ولكلِّ قوم هادٍ ﴾ قال: هو محمد ﷺ. وقال مالك: ﴿ ولكلِّ قومٍ هادٍ ﴾، مَن يدعوهم إلى الله عز وجل.

وقال أبو جعفر بن جرير: حدثني أحمد بن يحيى الصُّوفي، حدثنا الحسنُ بن الحُسَين الأنصاري، حدثنا معاذ بن مسلم بياع الهَرَوِيِّ، عن عطاء بن السائب، عن سعيد بن جبير، عن ابن عباس - رضي الله عنهما - قال لما نَزَلت ﴿ إنما أنتَ منذِرٌ وَلِكُلِّ قوم هادٍ ﴾، قال: وَضَع رسولُ الله - ﷺ - يَدَه على صدره، وقال: أنا المنذرُ، ولكل قومٍ هادٍ. وأومأ بيده إلى منكِب عليٍّ، فقال: أنت الهادي يا عليُّ، بك يهتدي المهتدُون من بعدي»[(١)]. وهذا الحديث فيه نكارة شديدة[(١)].

وقال ابنُ أبي حاتم: حدثنا عليُّ بن الحُسَين حدثنا عثمانُ بن أبي شيبةَ، حدثنا المطلب بن زياد، عن السديِّ، عن عبدِ خيرٍ، عن علي: ﴿ ولكلِّ قوم هادٍ ﴾، قال: الهادي رَجُلٌ من بني هاشم. قال الجُنَيدُ: هو علي بن أبي طالب رَضِيَ الله عنه.

قال ابنُ أبي حاتم: ورُوِي عن ابن عباس - في إحدى الرِّوايات - وعن أبي جعفرٍ محمد بن علي، نحوُ ذلك.

﴿ اللَّهُ يَعْلَمُ مَا تَحْمِلُ كُلُّ أُنثَىٰ وَمَا تَغِيضُ الْأَرْحَامُ وَمَا تَزْدَادُ وَكُلُّ شَيْءٍ عِندَهُ بِمِقْدَارٍ ﴿٨﴾ عَالِمُ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ الْكَبِيرُ الْمُتَعَالِ ﴿٩﴾ ﴾

يخبرُ تعالى عن تمام علمه الذي لا يخفَى عليه شيءٌ، وأنه مُحيطٌ بما تحمِله الحواملُ من كلِّ إناثِ الحيواناتِ، كما قال تعالى: ﴿ ويعلَم ما في الأرحامِ ﴾، أي: ما حَمَلت من ذكر أو أنثى، أو حَسَنٍ أو قبيحٍ، أو شَقِيٍّ أو سعيدٍ، أو طويل العمر أو قصيره، كما قال تعالى: ﴿ هو أعلَمُ بكم إذ أنشأكم من الأرضِ وإذ أنتم أجنَّةٌ في بطونِ أمهاتكم فلا تُزَكُّوا أنفسكم هو أعلم بمن اتقى ﴾.

وقال تعالى: ﴿ يخلقُكم في بطون أمهاتكم خَلْقاً من بعد خلقٍ في ظُلُماتٍ ثلاثٍ ﴾، أي: خَلَقكم طَوراً من بعدِ طَورٍ، كما قال تعالى: ﴿ولقد خلقنا الإنسان من سُلالةٍ من طين * ثم جعلناه نُطفةً في قرارٍ مَكِينٍ * ثم

(١) تفسير الطبري ١٣/١٠٨، وانظر الحديث في ميزان الاعتدال، ترجمة الحسن بن الحسين ١/٤٨٤.

خَلقنا النطفة علقةً فخلقنا العلقة مُضغةً فَخلقنا المُضغةَ عِظاماً فَكَسونا العظامَ لحماً ثم أنشأناهُ خلقاً آخَر فتبارَك الله أحسنُ الخالقين ﴾. وفي الصحيحَين عن ابنِ مسعود قال: قال رسولُ الله ـ ﷺ ـ: «إنَّ خَلقَ أحدكم يُجْمَع في بَطْنِ أمه أربعين يوما، ثم يكون علقةً مثلَ ذلك، ثم يكون مُضغَةً مثل ذلك، ثم يُبْعَثُ إليه مَلَكٌ فيُؤمَرُ بأربعِ كلماتٍ: بِكَتْب رِزْقِه، وعُمُره، وَعَملِه، وشقيٌّ أو سعيد»(١).

وفي الحديث الآخر: «فيقول المَلَك: أيْ رَبِّ، أذكر أم أنثى؟ ربِّ، أشقيٌّ أم سعيدٌ؟ فما الرزقُ؟ فما الأجلُ؟ فيقولُ الله، ويكتُبُ المَلَك»(٢).

وقولُه: ﴿ وما تَغِيضُ الأرحامُ وما تزدادُ ﴾، قال البخاري: حدثنا إبراهيمُ بن المنذر، حدثنا مَعن، حدثنا مالك، عن عبد الله بن دينار، عن ابن عُمَر: أن رسولَ ـ ﷺ ـ قال: مفاتيحُ الغيبِ خمسٌ لا يَعلَمُها إلا الله: لا يعلم ما في غد إلا الله، ولا يعلَمُ ما تَغِيضُ الأرحامُ إلا الله، ولا يعلم متى يأتي المطرُ أحدٌ إلا الله،ولا تَدْرِي نفس بِأيِّ أرضٍ تموتُ، ولا يعلَمُ متى تقوم الساعةُ إلا الله»(٣).

وقال العوفيُّ، عن ابن عباس: ﴿ وما تَغِيضُ الأرحامُ ﴾، يعني السِّقْط، ﴿ وما تزداد ﴾، يقول: ما زادت الرَّحِمُ في الحمل على ما غاضت حتى ولدته تماماً. وذلك أن من النساء من تحمل عشرةَ أشهر، ومنهن من تحمِلُ تسعة أشهر، ومنهن من تَزِيد من الحمل، ومنهن من تَنقُص، فذلك الغيضُ والزيادة التي ذكر الله تعالى، وكلُّ ذلك بعلمه تعالى(٤).

وقال الضحاكُ، عن ابن عباس في قوله: ﴿ وما تَغِيضُ الأرحامُ وما تزدادُ ﴾، قال: ما نقصت من تِسْعةٍ وما زَادَ عليها. وقال الضحاك: وَضَعتني أُمِّي وقد حملتني في بطنها سنتين، وولدتني وقد نَبَتت ثَنِيَّتِي.

وقال ابن جُرَيج، عن جَمِيلةَ بنت سعدٍ، عن عائشة قالت: لا يكونُ الحمل أكثر من سنتين قَدْرَ ما يتحرك ظِلُّ مِغْزَل(٥).

وقال مجاهدٌ: ﴿ وما تَغِيض الأرحام وما تزدادُ ﴾، قال: ما تَرَى من الدم في حملها، وما تزدادُ على تسعة أشهر.وبه قال عطيةُ العَوفِيُّ وقتادةُ، والحسنُ البصريُّ، والضَّحَّاكُ.

وقال مجاهدٌ أيضاً: إذا رأت المرأةُ الدمَ دُونَ التسعةِ زاد على التسعة، مثل أيام الحيض، وقاله عكرمةُ، وسعيد بن جُبَير، وابنُ زيد.

وقال مجاهدٌ أيضاً: ﴿ وما تَغِيض الأرحام ﴾: إراقة المرأةِ حتى يخسَّ الولدُ، ﴿ وما تزدادُ ﴾، إن لم تُهرقِ المرأةُ تَمَّ الولدُ وعَظم.

وقال مكحولٌ: الجَنينُ في بطن أُمّه لا يَطْلُب، ولا يحزَن ولا يغتَمُّ، وإنما يأتيه رزقُه في بطن أُمِّه من دم حيضتها، فَمِن ثَمَّ لا تحيضُ الحامل. فإذا وَقَع إلى الأرض استهلَّ، واستهلالُه استنكارٌ لمكانه، فإذا قُطِعت سُرَّته حَوَّل الله رزقَه إلى ثَدْيي أمه حتى لا يطلب ولا يحزَن ولا يغتَمّ، ثم يصير طفلاً يتناول الشيء بكفِّه فيأكله،

(١) تقدم الحديث عند تفسير الآية ٢٣٤ من سورة البقرة، وخرجناه هنالك.
(٢) أخرجاه في كتاب القدر، فتح الباري ٤٧٧/١١، ومسلم ٢٠٣٨/٤.
(٣) فتح الباري، تفسير سورة الرعد ٣٧٥/٨.
(٤) تفسير الطبري ٦٠٩/١٣.
(٥) تفسير الطبري ١١٠/١٣.

فإذا هو بلغ قال: هو المَوت أو القتل، أنّى لي بالرزق؟ فيقول مكحول: يا ويلَكَ! غَذَاكَ وأنت في بَطْنِ أُمِّكَ وأنت طفلٌ صغيرٌ، حتى إذا اشتددت وعَقَلت قلت: هو الموتُ أو القتلُ، أنّى لي بالرِّزقِ؟! ثم قرأ مكحول: ﴿ الله يعلم ما تحمِلُ كلُّ أنثى وما تَغِيضُ الأرحامُ وما تزدادُ وكلُّ شيءٍ عنده بمقدار ﴾.

وقال قتادةُ: ﴿ وكلُّ شيءٍ عنده بمقدارٍ ﴾، أي: بِأَجلٍ، حَفِظَ أرزاقَ خَلْقِه وآجالَهم، وجَعَل لذلك أجلاً معلوماً.

وفي الحديثِ الصَّحِيح أنَّ إحدى بناتِ النبي ـ ﷺ ـ بعثت إليه: أن ابناً لها في الموت، وأنها تحبُّ أن يحضره. فبعث إليها يقول: «إن لله ما أخَذ، وله ما أعطَى، وكُلُّ شيءٍ عنده بأجلٍ مسمًّى، فَمُروها فلْتَصبِرْ ولْتَحتسِب»... الحديث بتمامه(١).

وقولُه: ﴿ عَالِمُ الغيبِ والشهادةِ ﴾، أي: يعلَم كُلَّ شيءٍ مما يُشاهِدُه العباد ومما يَغيب عنهم، ولا يخفى عليه منه شيء، ﴿الكبيرُ﴾، الذي هو أكبرُ من كُلِّ شيءٍ، ﴿المتعالِ﴾، أي: على كلِّ شيءٍ، قد أحاط بِكُلِّ شَيْءٍ علما، وقهر كل شيء، فَخَضعت له الرقاب ودان له العبادُ، طوعاً وكرهاً.

﴿ سَوَآءٌ مِّنكُم مَّنْ أَسَرَّ ٱلْقَوْلَ وَمَن جَهَرَ بِهِۦ وَمَنْ هُوَ مُسْتَخْفٍۭ بِٱلَّيْلِ وَسَارِبٌۢ بِٱلنَّهَارِ ﴿١٠﴾ لَهُۥ مُعَقِّبَٰتٌ مِّنۢ بَيْنِ يَدَيْهِ وَمِنْ خَلْفِهِۦ يَحْفَظُونَهُۥ مِنْ أَمْرِ ٱللَّهِ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُغَيِّرُ مَا بِقَوْمٍ حَتَّىٰ يُغَيِّرُوا۟ مَا بِأَنفُسِهِمْ ۗ وَإِذَآ أَرَادَ ٱللَّهُ بِقَوْمٍ سُوٓءًا فَلَا مَرَدَّ لَهُۥ ۚ وَمَا لَهُم مِّن دُونِهِۦ مِن وَالٍ ﴿١١﴾ ﴾

يُخبر تعالى عن إحاطة عِلمه بجميع خَلقه، سواء منهم من أسرَّ قوله أو جَهَر به، فإنه يسمعُه، لا يخفَى عليه شيءٌ كما قال: ﴿ وإن تَجهر بالقولِ فإنّه يعلم السرَّ وأخفَى ﴾، وقال: ﴿ ويعلَمُ ما تُخفُون وما تُعلِنون ﴾، وقالت عائشة ـ رضي الله عنها ـ: سبحان الذي وَسِع سمعُه الأصواتَ، والله لقد جاءت المجادِلة تشتكي زوجَها إلى رسول الله ـ ﷺ ـ وأنا في جَنب البيت، وإنه ليخفَى عليَّ بعضُ كلامها، فأنزل الله: ﴿ قد سَمِع الله قولَ التي تُجادِلك في زوجها وتشتكي إلى الله والله يسمع تَحاوُركما إن الله سميع بصير ﴾(٢).

وقولُه: ﴿ ومن هُو مستخفٍ بالليل ﴾، أي: مُختفٍ في قَعْر بيته في ظَلام الليل، ﴿ وسارِبٌ بالنهار ﴾، أي: ظاهرٌ ماشٍ في بياض النهار وضِيائه، فإن كِلَيهما في علم الله على السَّواء، كما قال تعالى: ﴿ ألا حينَ يستغشُون ثيابهم يعلم ما يُسرُّون وما يُعلِنون ﴾، وقال تعالى: ﴿ وما تكونُ في شأن وما تتلُو منه من قرآن ولا تعمَلُون من عمل إلا كُنا عَليكم شهوداً إذ تُفِيضون فيه ومَا يعزُب عن ربِّك من مثقالِ ذَرَّةٍ في الأرض ولا في السَّماء ولا أصغرَ من ذلك ولا أكبرَ إلا في كتابٍ مبينٍ ﴾.

وقولُه: ﴿ له مُعقِّبات من بين يديه ومن خَلفه يَحفظُونه من أَمْرِ الله ﴾، أي: لِلْعَبد ملائكةٌ يَتعاقَبون عليه، حَرَسٌ بالليلِ وحَرَسٌ بالنهار، يحفظونه من الأسواءِ(٣) والحادثاتِ، كما يتعاقبُ ملائكةٌ آخرون لِحِفْظِ الأعمالِ من خير أو شر، ملائكةٌ بالليل وملائكةٌ بالنهار، فاثنان عن اليمينِ والشمالِ يكتُبان الأعمالَ، صاحب اليمين يكتبُ

(١) أخرجه الشيخان، فتح الباري، كتاب القدر ١١/٤٩٤، ومسلم، كتاب الجنائز ٢/٦٣٥ - ٦٣٦.
(٢) أخرجه الإمام أحمد في مسنده ٦/٤٦، والبخاري تعليقاً في كتاب التوحيد ١١/٣٧٢، والنسائي في كتاب التفسير من السنن الكبرى، وابن ماجه في المقدمة ١/٦٧.
(٣) الأسواءُ: جمع سُوءٍ، وهو كلُّ ما يغُمُّ الإنسان، واسمٌ جامع للآفات.

الحسنات، وصاحب الشمال يكتبُ السيئات، وملكان آخران يحفَظانه ويحرُسانه، واحد من ورائِهِ وآخرُ من قدامة، فهو بين أربعة أملاكٍ بالنهارِ، وأربعةٍ آخرينَ، بَدَلانِ حافظان وكاتبان، كما جاء في الصحيح: «يتعاقبون فيكم ملائكة بالليل وملائكة بالنهار ويجتمعون في صلاة الصبح وصلاة العَصر، فيصعد إليه الذينَ باتوا فيكم فيسألهم وهو أعلمُ بكم: كيف تركتُم عبادي؟ فيقولون: أتيناهم وهم يُصَلُّون، وتركناهم وهم يُصَلُّون»(١). وفي الحديث الآخر: «إنَّ معكم مَن لا يفارقكم إلا عند الخلاءِ وعند الجماعِ، فاستحيُوهم وأكرِمُوهم»(٢).

وقال علي بن أبي طلحةَ، عن ابن عباس: ﴿ لهُ مُعقِّباتٌ من بين يَدَيه ومن خَلفه يحفظُونه من أمر الله﴾ والمعقِّبات من أمر الله، وهي الملائكةُ(٣).

وقال عِكرمةُ، عن ابن عباس: ﴿ يحفَظُونه من أمر الله ﴾، قال: ملائكةٌ يحفظونه من بين يديه ومن خلفه، فإذا جاء قَدَرُ الله خَلَّوا عنه.

وقال مجاهدٌ: ما من عبد إلا له مَلَك مُوكَّل، يحفظُه في نومِهِ ويَقظَته من الجنِّ والإنسِ والهوامِّ، فما منها شيء يأتيه يريده إلا قال الملك: وراءك. إلا شيءٌ يأذن الله فيه فَيُصِيبُه.

وقال الثَّوري، عن حبيب بن أبي ثابت، عن سعيد بن جُبَير، عن ابن عباس: ﴿ له مُعَقِّبات من بين يديه ومن خلفه ﴾، قال: ذلك مَلِك من ملوك الدنيا، له حَرَسٌ من دونه حرس.

وقال العَوفيُّ، عن ابن عباس: ﴿لـه مُعَقِّبات من بين يَدَيه ومن خَلْفه ﴾، يعني وليَّ الشيطانِ، يكونُ عليه الحرسُ.

وقال عِكْرِمةُ في تفسيرها: هؤلاء الأمراءُ. المواكبُ من بين يَدَيه ومن خلفه.

وقال الضحاك: ﴿ له مُعَقِّبات من بين يديه ومن خلفه يَحفَظُونه من أمر الله ﴾، قال: هو السلطان المحترِسُ من أمر الله، وهم أهل الشرك.

والظاهر ـ والله أعلم ـ أن مُرَاد ابن عباس وعكرمة والضَّحاك بهذا أن حرس الملائكة للعبيد يشبه حرس هؤلاء لملوكهم وأمرائهم.

وقد رَوَى الإمام أبو جعفر جَرير هاهنا حديثاً غَريباً جِداً فقال:

حدثني المثنَّى، حدثنا إبراهيمُ بن عبد السلام بن صالح القُشَيري، حدثنا علي بن جَرير، عن حَمّادِ بن سَلَمة، عن عبد الحميد بن جعفر، عن كِنانةَ العَدَويِّ قال: دخل عثمانُ بن عفانَ على رسول الله ـ ﷺ ـ فقال: يا رسولَ الله، أخبرني عن العبد كم مَعَه من مَلَك؟ فقال: مَلَكٌ على يمينك على حَسَناتك، وهو آمرٌ على الذي على الشمال، إذا عَمِلتَ حسنة كُتِبَتْ عشراً، فإذا عَمِلْتَ سيئةً قال الذي على الشمال للذي على اليمين: أكتبُ؟ قال: لا، لعله يستغفرُ الله ويتوبُ. فإذا قال ثلاثاً قال: نعم، اكتُب، أراحنا الله منه، فَبِئس القرينُ! ما أقَلَّ مُراقَبَته لله وأقل استحياءه منا! يقول الله: ﴿ ما يلفِظُ من قول إلا لديه رَقِيبٌ عَتيدٌ ﴾ ومَلَكان من بين يديك ومن خَلْفِك، يقول الله: ﴿ له مُعَقِّبات من بين يديه ومن خلفه يحفَظُونه من أمر الله﴾، ومَلَكٌ قابضٌ على ناصيتك، فإذا تواضعتَ لله رَفَعك، وإذا تَجبَّرتَ على الله قَصَمك. ومَلَكان على شَفَتيك، ليس يحفَظَانِ عليكَ إلا الصَّلاة

---

(١) فتح الباري، كتاب مواقيت الصلاة ٢/٣٣، ومسلم، كتاب المساجد ١/٤٣٩.

(٢) انفرد بإخراجه الترمذي في أبواب الأدب، انظر عارضة الأحوذي ١٠/٢٤١.

(٣) تفسير الطبري ١٣/١١٧.

على محمد ﷺ، وملك قائم على فيك لا يَدَع الحيَّة أن تدخُلَ في فيك، ومَلَكان على عينيك. فهؤلاء عشرةُ أملاكٍ على كُلِّ بني آدَمَ، ينزلون ملائكةُ الليل على ملائكة النهار، لأنَّ ملائكةَ اللَّيلِ سِوى ملائكةِ النهار، فهؤلاء عشرون مَلَكاً على كل بني آدَمَ، وإبليس بالنهار وولده بالليل»[١].

وقال الإمامُ أحمدُ ـ رحمه الله ـ: حدثنا أسود بن عامر، حدثنا سُفيان، حدثني منصور، عن سالم بن أبي الجَعْدِ، عن أبيه، عن عبدالله قال: قال رسولُ الله ـ ﷺ ـ: «ما منكم من أحدٍ إلا وقد وُكِّل به قرينُه من الجنِّ وقرينُه من الملائكة. قالوا: وإياكَ يا رسول الله، قال: وإياي، ولكن أعانني الله عليه، فلا يأمرني إلا بخير»[٢]. انفرد بإخراجه مسلم[٢].

وقولُه: ﴿ يَحفظُونه من أَمْرِ الله ﴾، قيل: المرادُ حِفظُهم له من أَمْرِ الله. رواه عليُّ بن أبي طلحة وغيرُه، عن ابن عباس[٣]. وإليه ذهب مجاهدٌ، وسعيد بن جُبَير، وإبراهيم النخَعِيُّ، وغيرُهم.

وقال قتادةُ: ﴿ يَحفَظُونه من أَمْرِ الله ﴾، قال: وفي بعض القراءات: ﴿ يحفَظُونه بأمر الله ﴾.

وقال كعب الأحبار: لو تجلَّى لابن آدم كلُّ سَهْلٍ وحَزْنٍ لرأى كلَّ شيءٍ من ذلك شياطين، لولا أنَّ الله وَكَّل بكم ملائكةً يَذُبُّون عنكم في مَطْعَمِكم ومَشْرَبِكم وعَوْرَاتكم إذاً لتُخُطِّفتُم.

وقال أبو أُمَامَةَ: ما مِن آدميٍّ إلا ومعه مَلَكٌ يَذُود عنه حتى يُسلِمه للذي قُدِّر له.

وقال أبو مِجْلَز: جاء رجلٌ من مُرَادٍ إلى علي ـ رضي الله عنه ـ وهو يصلِّي، فقال: احترِسْ، فإنَّ ناساً من مُرادٍ يُريدون قَتْلَك. فقال: إنَّ مع كل رَجُلٍ مَلَكين يحفظانه مما لم يُقَدَّر، فإذا جاء القَدَرُ خَلَّيا بينه وبينه، وإن الأجلَ جُنَّةٌ حَصِينَة.

وقال بعضُهم: ﴿ يحفَظُونه من أَمْرِ الله ﴾: بِأمر الله، كما جاء في الحديث أَنَّهم قالوا: يا رسولَ الله، أرأيتَ رُقىً نَسْتَرقِيَ بها، هل تَرُدُّ من قَدَرِ الله شيئاً؟ فقال: هي من قَدَرِ الله[٤].

وقال ابن أبي حاتم: حدثنا أبو سعيد الأشجُّ، حدثنا حفصُ بن غياثٍ، عن أشعث، عن جَهْمٍ، عن إبراهيم قال: أوحى الله إلى نَبيٍّ من أنبياء بني إسرائيل: أَنْ قُل لقومِكَ: إنه ليس من أهلِ قريةٍ ولا أهلِ بيتٍ يكونُون على طاعةِ الله فَيَتحوَّلون منها إلى معصيةِ الله إلا تَحَوَّلَ الله لهم مما يُحِبُّون إلى ما يكرَهُون، ثم قال: إنَّ مصداقَ ذلك في كتاب الله: ﴿ إنَّ الله لا يُغيِّر ما بِقَوم حتى يُغَيِّروا ما بأنفُسِهم ﴾.

وقد وَرَد هذا في حديث مرفوع، فقال الحافظ مُحمَّد بن عثمان بن أبي شيبة في كتابه «صفة العرش»: حدثنا الحسن بن علي، حدثنا الهَيْثَمُ بن الأشعثِ السُّلَمي، حدثنا أبو حَنيفة اليَمَانيِ الأنصاري، عن عُمَير بن عبد الملك قال: خَطَبَنا عليُّ بن أبي طالب على منبر الكوفة قال: كنتُ إذا سَكَتُّ عن رسول الله ـ ﷺ ـ ابتدأني، وإذا سألته عن الخير أنبأني، وإنه حَدَّثني عن ربِّه ـ عز وجلِ ـ قال: قال الرَّبُّ: وَعِزَّتي وجلالي وارتفاعي فوق عرشي، ما من أهل قريةٍ ولا أهلِ بيتٍ كانوا على ما كرهتُ من معصيتي، ثم تحوَّلوا عنها إلى ما

---

(١) تفسير الطبري ١١٥/١٣.

(٢) مسند أحمد ٣٩٧/١، ومسلم، كتاب صفة القيامة ٢١٦٧/٤ ـ ٢١٦٨.

(٣) تفسير الطبري ١١٧/١٣.

(٤) أخرجه الترمذي في كتاب الطب والقدر بإسناده إلى أبي خزامة عن أبيه، عارضة الأحوذي ٢٢٤/٨، ٣١٤، وابن ماجه أيضاً في كتاب الطب ١١٣٧/٢ ـ ١١٣٨، والإمام أحمد في مسنده ٤٢١/٣.

أحببت من طاعتي، إلا تحولتُ لهم عمّا يكرهون من عَذابي إلى ما يُحبُّون من رَحْمتي»[١]. وهذا غريبٌ، وفي إسنادِه مَن لا أعرِفُه.

﴿ هُوَ ٱلَّذِى يُرِيكُمُ ٱلْبَرْقَ خَوْفًا وَطَمَعًا وَيُنشِئُ ٱلسَّحَابَ ٱلثِّقَالَ ﴿١٢﴾ وَيُسَبِّحُ ٱلرَّعْدُ بِحَمْدِهِۦ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةُ مِنْ خِيفَتِهِۦ وَيُرْسِلُ ٱلصَّوَٰعِقَ فَيُصِيبُ بِهَا مَن يَشَآءُ وَهُمْ يُجَٰدِلُونَ فِى ٱللَّهِ وَهُوَ شَدِيدُ ٱلْمِحَالِ ﴿١٣﴾ ﴾

يُخبر تعالى أنه هو الذي يُسخِّر البرقَ، وهو: ما يُرى من النُّور اللامع ساطعاً من خَلَلِ السَّحاب. ورَوى ابنُ جَرير أنَّ ابن عباس كَتب إلى أبي الجَلْد يسأله عن البَرْقِ فقال: البرق الماء[٢].

وقولُه: ﴿ خوفاً وطمعاً ﴾، قال قتادةُ: خوفاً للمُسَافِر، يخافُ أذاه ومَشَقَّته، وطَمَعاً للمُقيم يرجُو بَركته ومَنفعته، ويطمع في رِزْقِ الله.

﴿ ويُنشِيء السَّحاب الثِّقال ﴾، أي: ويخلقُها مُنشأةً جَدِيدة، وهي لِكَثرةِ مائها ثقيلةٌ إلى الأرض. قال مجاهدٌ: والسَّحابُ الثِّقالُ: الذي فيه الماء.

﴿ ويُسَبِّحُ الرَّعدُ بِحَمْدِه ﴾، كما قال تعالى: ﴿ وَإن من شَيءٍ إلا يُسبِّحُ بِحَمْدِه ﴾.

وقال الإمامُ أحمدُ: حدثنا يزيدُ، حدثنا إبراهيمُ بن سعد، أخبرني أبي قال: كنتُ جالساً إلى جَنْبِ حُمَيد ابن عبدالرحمن في المسجد، فَمَرَّ شيخٌ من بني غفار، فأرسل إليه حُمَيد، فلما أقبل قال: يا ابنَ أخي، وَسِّع له فيما بيني وبينك، فإنه قد صَحِب رسولَ الله ﷺ. فجاء حتى جلس فيما بيني وبينه، فقال له حُمَيد: ما الحديث الذي حَدَّثتني عن رسول الله ﷺ؟ فقال الشيخُ: سَمِعتُ رسولَ الله ـ ﷺ ـ يقولُ: «إن الله يُنشِيءُ السَّحابَ فَينطِقُ أحسنَ النطق، ويَضحك أحسن الضَّحِكَ»[٣].

والمرادُ ـ والله أعلم ـ أن نطقَها الرعدُ، وضَحِكِها البرقُ.

وقال موسى بن عُبَيدة، عن سَعد بن إبراهيم قال: يبعَثُ الله الغيثَ، فلا أحسنَ منه مَضْحَكاً، ولا آنسَ منه مَنْطِقاً، فَضَحِكُه البرقُ، ومنطقُه الرعد.

وقال ابنُ أبي حاتم: حدثنا أبي، حدثنا هشام بن عُبَيد الله الرازيُّ، عن محمد بن مسلم قال: بَلَغنا أن البرق ملكٌ له أربعة وجوه: وجهُ إنسان، ووجهُ ثور، ووجهُ نَسر، ووجهُ أَسَدٍ، فإذا مَصَعَ بذنبِه[٤] فذاك البرقُ.

وقال الإمام أحمدُ: حدثنا عفان، حدثنا عبد الواحد بن زياد، حدثنا الحجَّاج، حدثني أبو مَطَر، عن سالم، عن أبيه قال: كان رسولُ الله ـ ﷺ ـ إذا سَمِعَ الرعْد والصواعِقَ قال: اللهمَّ، لا تَقتُلنا بِغَضَبِكَ، ولا تُهلِكْنا بِعَذابِكَ، وعافِنَا قبل ذلك»[٥].

---

(١) أخرجه أيضاً أبو الشيخ وابن مردويه، انظر الدر المنثور ٦١٦/٤.

(٢) تفسير الطبري ١٢٣/١٣. وأبو الجَلْد هو: جَيلانُ بن فَرْوَةَ الأسدي، بصري. روى عنه أبو عمران الجوني. انظر المؤتلف والمختلف للدارقطني ٥١٢/١، ٨٦٩/٢.

(٣) مسند أحمد ٤٣٥/٥.

(٤) يقال: مَصَعَتِ الدابة بذنبها: حَرَّكته من غير عَدْوٍ.

(٥) مسند أحمد ١٠٠/٢ ـ ١٠١، وعارضة الأحوذي، أبواب الدعاء ٨/١٣، والمستدرك، كتاب الأدب ٢٨٦/٤، وانظر تحفة الأشراف للمزي ٤١٧/٥. والأدب المفرد للبخاري ١٨٧.

ورَوَاه التِّرمذيُّ، والبخاري في كتاب الأَدَب، والنسائي في اليوم والليلة، والحاكم في مُستدرَكِه، من حديث الحجاج بن أرطاة، عن أبي مطر ـ ولم يُسَمّ ـ به.

وقال أبو جعفر بن جَرير: حدثنا أحمد بن إسحاق: حدثنا أبو أحمدَ، حدثنا إسرائيلُ، عن أبيه، عن رَجُلٍ، عن أبي هُرَيرَةَ ـ رَفَع الحديثَ ـ قال: إنه كان إذا سَمِع الرعدَ قال: «سُبحانَ من يُسبِّح الرعدُ بِحَمْدِهِ»[1].

ورُوي عن علي ـ رضي الله عنه ـ أنه كان إذا سَمِع صوت الرعد قال: سبحانَ من سَبَّحتَ له. وكذا رُوي عن ابن عباس، والأسود بن يزيد، وطاوس أنهم كانوا يقولون كذلك.

وقال الأوزاعيُّ: كان ابن أبي زكريًا يقول: من قال حين يسمَعُ الرعد: «سبحانَ الله وبِحَمده»، لم تُصِبه صاعقة[1].

وعن عبد الله بن الزُّبير: أنه كان إذا سَمِع الرعدَ تركَ الحديثَ وقال: سُبحانَ الذي يُسبِّح الرعدُ بِحَمده والملائكةُ من خِيفَتِهِ، ويقولُ: إنَّ هذا لوعيد شديدٌ لأهل الأرض. رواه مالك في الموطأ[2] والبخاري في كتاب الأدب[2].

وقال الإمام أحمد: حدثنا سليمان بن داود الطيالسيُّ، حدثنا صَدَقَة بن موسى، حدثنا محمد بن وَاسع، عن شُتَير بن نَهارٍ، عن أبي هُرَيرة أن رسول الله ـ ﷺ ـ قال: «قال ربُّكم ـ عزَّ وجلَّ: لو أن عَبِيدي أطاعوني لأسقيتهم المطَرَ بالليل، وأطلعت عليهم الشمس بالنهار، ولما أسمعتهم صوتَ الرعد»[3].

وقال الطبراني: حدثنا زكريا بن يحيى السَّاجي، حدثنا أبو كامل الجَحْدري، حدثنا يحيى بن كثير أبو النضر، حدثنا عبد الكريم، حدثنا عطاء، عن ابن عباس قال: قال رسول الله ـ ﷺ ـ: «إذا سَمِعتم الرعدَ فاذكُروا الله؛ فإنه لا يُصِيب ذاكراً»[4].

وقولُه: ﴿ويُرسِلُ الصَّواعِق فَيُصِيبُ بها مَن يشاءُ﴾، أي: يُرْسِلُها نِقمة يَنْتَقِم بها مِمَّن يشاء، ولهذا تكثُر في آخر الزمان، كما قال الإمام أحمد:

حدثنا محمد بن مُصعب، حدثنا عمارة، عن أبي نَضْرة، عن أبي سعيد الخُدريِّ ـ رضي الله عنه ـ: «أن النبيَّ ـ ﷺ ـ قال: «تكثُر الصواعقُ عند اقترابِ الساعةِ، حتى يأتي الرجلُ القومَ فيقول: من صُعِق تلكم الغداةَ؟ فيقولون: صُعِق فلان وفلان وفلان»[5].

وقد رُوي في سَبَب نُزُولِها ما رواه الحافظ أبو يعلى الموصلي:

حَدَّثنا إسحاق، حدثنا علي بن أبي سارَةَ الشيباني، حدثنا ثابتٌ، عن أنس: أن رسول الله ـ ﷺ ـ بعَثَ رَجُلا مرَّةً إلى رَجُلٍ من فَرَاعِنَة العرب فقال: اذهب، فادعُه لي. [فقال: يا رسول الله، إنه أعتى من ذلك. قال: اذهب فادعه لي]. قال: فَذَهب إليه فقال: يدعُوك رسول الله ـ ﷺ ـ. فقال له: من رسولُ الله؟ وما الله؟ أمِن ذَهَبٍ هُو؟ أم من فِضَّةٍ هُو؟ أم من نُحاس هو؟ قال: فرجع إلى رسول الله ـ ﷺ ـ فأخبَرَه، فقال: يا رسول الله،

(١) تفسير الطبري ١٣/١٢٤.
(٢) الموطأ، كتاب الكلام ٢/٩٩٢. والأدب المفرد ١٨٧.
(٣) مسند أحمد ٢/٣٥٩.
(٤) المعجم الكبير ١١/١٦٤.
(٥) مسند أحمد ٣/٦٤ ـ ٦٥.

قد أخبرتُك أنه أعتى من ذلك، قال لي كذا وكذا. فقال: ارجع إليه الثانية ـ أُراه ـ فذهب فقال له مثلَها، فرجَعَ إلى رسولِ الله ـ ﷺ ـ فقال يا رسولَ الله، قد أخبرتك أنه أعتى من ذلك. قال: ارجع إليه فادعُه. فرجع إليه الثالثة. قال: فأعاد ذلك الكلامَ. فبينا هُو يُكلِّمهُ، إذ بَعَث الله ـ عزَّ وجلَّ ـ سحابةً حِيالَ رأسِه، فرَعَدت، فوقعت منها صاعقةٌ، فذهب بِقِحْف رأسه[1] فأنزل الله: ﴿ ويُرسِلُ الصواعق فيُصِيب بها مَن يشاء وهم يُجادِلُون في الله وهو شَدِيد المِحَالِ ﴾[2].

ورَوَاه ابنُ جرير من حديث علي بن أبي سارَة، به. ورواه الحافظ أبو بكر البزَّار، عن عبدة بن عبد الله، عن يزيدَ بن هارونَ، عن دَيْلَم بن غزوان، عن ثابت، عن أنَسٍ، فذكر نحوه[2].

وقال: حدثنا الحسَنُ بن محمد، حدثنا عفان، حدثنا أبانُ بن يزيد، حدثنا أبوعمران الجَونيُّ، عن عبد الرحمن ابن صُحَار العَبْدي: أنه بَلَغه أن نَبِيّ الله بَعَثه إلى جَبَّار يدعُوه، فقال: أرأيتم ربكم، أذَهَبٌ هو؟ أو فِضَّة هو؟ ألؤلؤٌ هو؟ قال: فَبينا هو يجادِلهُم، إذ بعث الله سحابة فرَعَدَت، فأرسل عليه صاعقةً فذهبَتْ بِقِحْفِ رأسه، ونزلت هذه الآية[3].

وقال أبو بكر بن عياش، عن لَيث بن أبي سُلَيم، عن مجاهد قال: جاء يهوديٌّ فقال: يا محمد، أخبرني عن رَبِّك، من أيِّ شيء هُو؟ من نُحاس هو؟ من لُؤلُؤٍ؟ أو ياقوتٍ؟ قال: فجاءت صاعِقَةٌ فأخذَته، وأنزل الله: ﴿ويُرسِلُ الصَّواعِقَ فَيُصِيبُ بها مَن يَشَاء﴾[3].

وقال قتادةُ: ذُكِر لنا أنَّ رَجُلاً أنكر القرآنَ، وكذَّب النبيَّ ـ ﷺ ـ فأرسل الله صاعِقَةً فأهلكته، وأنزل الله: ﴿ويُرسِلُ الصَّواعق. . .﴾ الآية.

وذَكَروا في سبب نزولها قصةَ عامرِ بن الطُّفَيل وأربدَ [أخي لبيد[4]] بن ربيعةَ لما قَدِما على رسول الله ـ ﷺ ـ المدينة، فَسَألاه أن يجعلَ لهما نصفَ الأمرِ، فأبى عليهما رسولُ الله ﷺ، فقال له عامر بن الطُّفَيل ـ لعنه الله ـ: أما والله لأملأنها عليك خيلاً جُرداً[5] ورجالا مُرْداً[5]. فقال له رسول الله ـ ﷺ ـ: «يأبى الله عليك ذلك وابنا قَيْلة[6]»، يعني الأنصارَ، ثم إنهما هَمَّا بالفَتْكِ بالنبيِّ ـ ﷺ ـ وجعل أحدُهما يُخاطِبه، والآخر يَستلُّ سيفَه ليقتُلَه من ورائه، فَحَمَاه الله منهما وعَصَمه، فخرجا من المدينة فانطلقا في أحياء العرب، يجمعان الناسَ لحربه ـ عليه السلام ـ فأرسلَ الله على أربَد سحابةً فيها صاعقة فأحرقته. وأما عامرُ بن الطفيل فأرسل الله عليه الطاعونَ، فخرجت فيه غُدَّةٌ عظيمةٌ، فجعل يقول: يا آلَ عامر، غُدَّةٌ كغدَّةِ البَكْر[7] وموتٌ في بيت سَلُولِيَّةٍ؟ حتى

(١) القِحْف: أعلى الدِّماغ.

(٢) مسند أبي يعلى ٦/١٨٣ ـ ١٨٤، وتفسير الطبري ١٣/١٢٥، وكشف الأستار عن زوائد البزار، كتاب التفسير ١٣/٥٤.

(٣) تفسير الطبري ١٣/١٢٥.

(٤) زدنا ما بين القوسين ليستقيم النص، فَأَرْبَدُ هو ابنُ قيس، وهو أخو لَبيد بن ربيعةَ لأمّه. وانظر تفسير الطبري ١٣/١٢٦، وجمهرة أنساب العرب لابن حزم ٢٦٨، وأسد الغابة ٣/١٢٧.

(٥) الجُرْدُ: جمع أجرد، وهو الذي يسبق الخيل وينجرد عنها لسرعته. والمُرْد: جمع أَمْرَد، وهو الشاب الذي طرَّ شاربه ولم تنبت لحيته. يريد الفتيان الأقوياء.

(٦) ابنا قَيلة: هما الأوس والخزرج.

(٧) الغُدَّة: من أمراض الإبل، وهو طاعونها. وسلول: أقل العرب وأذلهم، وكان عامر قد نزل ببيت امرأة منهم. ويضرب المثل في خصلتين إحداهما شرٌّ من الأخرى. انظر فتح الباري، كتاب المغازي ٧/٣٨٥ ـ ٣٨٧، والأمثال للميداني ٢/٥٧ ـ ٥٨، وأمالي السهيلي ١٢٠.

ماتا ـ لعنهما الله ـ وأنزل الله في مثل ذلك: ﴿ ويُرسِلُ الصَّواعِقَ فَيُصيب بها من يشاء ﴾، وفي ذلك يقول لبيد بن ربيعة، أخو أربد يَرْثيه(١):

أَخْشَى عَلَى أَرْبَدَ الحُتُوفَ وَلَا أَرْهَبُ نَوءَ السِّمَاكِ وَالأَسَدِ
فَجَّعني الرَّعْدُ والصَّواعِقُ بالـ ـفَارِسِ يَومَ الكَريهَةِ النَّجُدِ

وقال الحافظ أبو القاسم الطبرانيُّ: حدثنا مَسْعَدَةُ بن سعد العَطَّار، حدثنا إبراهيمُ بن المنذر الحِزَامي، حدثني عبدُ العزيز بن عِمرانَ، حدثني عبدُ الرَّحمن وعبدُ الله ابنا زيد بن أسلَمَ، عن أبيهما، عن عطاء بن يسار، عن ابن عبَّاس: أن أربدَ بن قيس بن جَزْء بن خالد بن جعفر بن كِلاب، وعامر بن الطُّفيل بن مالك، قَدِما المدينَة على رسول الله ـ ﷺ ـ فانتَهيا إليه وهو جالس، فَجَلسا بين يديه، فقال عامر بن الطُّفيل: يا محمدُ، ما تجعلُ لي إن أسلمتُ؟ فقال رسولُ الله ـ ﷺ ـ: لَكَ ما للمسلمين، وعليكَ ما عليهم. قال عامر بن الطُّفَيل: أتجعلُ لي الأمرَ إن أسلمتُ من بعدِك؟ قال رسولُ الله ـ ﷺ ـ: ليس ذلك لك ولا لِقومك، ولكن لك أَعِنَّةُ الخيل. قال: أنا الآن في أَعِنَّة خيلِ نَجدٍ، اجعل لي الوَبَر ولك المَدَرُ. قال رسول الله: لا. فلما قَفَلا من عنده قال عامر: أما والله لأملأنَّها عليكَ خيلاً ورجالا. فقال له رسول الله ـ ﷺ ـ: يمنعك الله. فلما خرج أربدُ وعامرٌ قال عامر: يا أربدُ، أنا أشغلُ عنك محمداً بالحديث، فاضربهُ بالسيفِ، فإن الناس إذا قتلتَ مُحمَّداً لم يَزيدوا على أن يَرضَوا بالدِّية، ويَكرَهُوا الحربَ، فَنُعطِيهم الدية. قال أربد: افعل. فأقبلا رَاجِعَين إليه، فقال عامرٌ: يا محمدُ، قُم معي أكلِّمك. فقامَ معه رسول الله ـ ﷺ ـ فجلسا إلى الجِدَارِ، ووقَف معه رسول الله ـ ﷺ ـ يُكلِّمه، وسَلَّ أربدُ السيفَ، فلما وضَع يدَه على السَّيفِ يَبِسَت يدُه على قائِم السَّيفِ، فلم يستطع سَلَّ السيفِ، فأبطأ أربدُ على عامر بالضربِ، فالتفت رسولُ الله ـ ﷺ ـ فرأى أربدَ وما يصنعُ، فانصرفَ عنهما. فلما خَرَج عامر وأربدُ من عند رسول الله ـ ﷺ ـ حتى إذا كانا بالحَرَّة ـ حَرَّة(٢) واقم ـ نزلا، فخرج إليهما سَعد بنُ معاذ وَأُسَيْدُ بن حُضَير فقالا: اشخصَا يا عَدُوَّي الله، لعنكما الله. فقال عامر: من هذا يا سعد؟ قال: هذا أُسَيْدُ بن حُضَير الكَتَائب(٣). فخرجا حتى إذا كانا بالرَّقَم(٤)، أرسل الله على أربدَ صاعقةً فَقَتَلَتْهُ، وخرج عامر حتى إذا كان بالخريم(٥) أرسل الله قُرْحةً فأخذته، فأدركه الليلُ في بيت امرأةٍ من بني سَلُولَ، فجعل يَمَسُّ قُرحته في حلقه ويقول: غُدَّة كغدَّة الجَمَل في بيت سَلُولية! يَرغبُ أن يَمُوتَ في بيتها! ثم ركب فرسَه فأحضره(٦) حتى مات عليه راجعاً، فأنزل الله فيهما: ﴿ الله يعلَمُ ما تحمل كل أنثى وما تَغِيض الأرحامُ ﴾ إلى قوله: ﴿ وما لهم من دُونه من والٍ ﴾ ـ قال:

---

(١) تفسير الطبري ١٣/١٢٦.

الحتوف: الآجال. ونَوْءُ السماك والأسد، يعني السِّماك الأعزل، ونَوْؤهُ أربع ليال في تشرين الأول ـ شهر أكتوبر ـ وهو نوءٌ غزير. وأما الأسد فإنه يعني زبرة الأسد، ونوؤها أربع ليال في أواخر آب ـ شهر أغسطس ـ ويكون في نَوْءِ الزبرة مطر شديد. انظر كتاب الأنواء لابن قتيبة ٥٨ ـ ٦٥.

والنُّجُد: الشجاع الشديد البأس، السريع الإجابة إلى ما دعي إليه.

يقول لَبيد: كنت أخشى عليه كلَّ حتف أعرفه إلا هذا الحتف المفاجىء من صواعق الصيف.

(٢) حَرَّة واقم: بالمدينة، وكان لأسيد بن حضير حصنٌ بها.

(٣) في مجمع الزوائد ٥/٤١: الكاتب. ومثله في المعجم الكبير. وفي اللسان: وحُضَير الكتائب: رجلٌ من سادات العرب.

(٤) الرقم: موضع بالمدينة، وجبال بديار غطفان.

(٥) الخريم: كذا في أصولنا، وهي في المعجم الكبير وفي تفسير الطبري: بالجرير.

(٦) الإحضار: ارتفاع الفرس في عَدْوه. والذي في اللسان أن الفعل لازم.

المُعَقبات من أمر الله يحفظون محمداً ـ ﷺ ـ ثـم ذكر أربدَ وما قتَله به، فقال: ﴿ ويُرسِلُ الصواعق فيُصِيبُ بها من يشاء ﴾ . . . الآية[١].

وقولُه: ﴿ وهم يُجادِلُون في الله ﴾، أي: يَشُكُّون في عَظَمته، وأنه لا إلّه إلا هو، ﴿ وهو شديدُ المِحَالِ ﴾.

قال ابنُ جَرير: شَدِيدةٌ مُمَاحلَتُهُ في عُقُوبة من طَغَى عليه وعَتَا وتمادَى في كفره[٢].

وهذه الآيةُ شبيهةٌ بقوله: ﴿ومَكَرُوا مكراً ومَكَرْنَا مكراً وهم لا يشعرون * فانظر كيفَ كان عاقبة مكرهم أنا دمرناهم وقومهم أجمعين﴾.

وعن علي ـ رضي الله عنه ـ ﴿ وهو شديدُ المِحَالِ ﴾، أي شديدُ الأخْذِ. وقال مجاهد: شديدُ القُوَّةِ.

﴿ لَهُۥ دَعْوَةُ ٱلْحَقِّ ۖ وَٱلَّذِينَ يَدْعُونَ مِن دُونِهِۦ لَا يَسْتَجِيبُونَ لَهُم بِشَىْءٍ إِلَّا كَبَٰسِطِ كَفَّيْهِ إِلَى ٱلْمَآءِ لِيَبْلُغَ فَاهُ وَمَا هُوَ بِبَٰلِغِهِۦ ۚ وَمَا دُعَآءُ ٱلْكَٰفِرِينَ إِلَّا فِى ضَلَٰلٍ ﴿١٤﴾ ﴾

قال عليّ بن أبي طالب ـ رضي الله عنه ـ: ﴿ له دعوةُ الحقِّ ﴾، قال: التوحيد. رواه ابنُ جرير[٣].

وقال ابن عباس، وقتادةُ، ومـالك عن محمد بن المنكدر: ﴿ له دعوةُ الحقِّ ﴾: لا إلّه إلا الله.

﴿ والذين يدعُون من دُونه ﴾، أي: ومَثَلُ الذين يعبدون آلهة غير الله، ﴿ كباسط كَفَّيه إلى الماء ليبلُغ فاه ﴾، قال علي بن أبي طالب: كمثل الذي يتناول الماء من طرف البئر بيده، وهو لا يناله أبداً بيدِه، فكيف يبلغ فاه؟!

وقال مُجاهِدٌ: ﴿ كباسِطِ كَفَّيه ﴾: يَدعُو الماءَ بِلِسَانِه، ويشير إليه بيده فلا يأتيه أبداً.

وقيل: المرادُ كقابض يَدِهِ على الماء، فإنه لا يَحكُم منه على شيءٍ، كما قال الشاعر[٤]:

فَـإنّـي وَإيَّـاكُـمْ وَشَـوْقـاً إليـكـمُ   كَـقَـابِض مـاءٍ لَم تَـسِقْـهُ أنـامِلُهْ

وقال الآخر[٥]:

فَـأصْبَحْتُ مِمَّـا كَـانَ بَيْني وَبَيْنَهـا   مِنَ الـوُدِّ مِثْلَ القَـابضِ الماءَ بِـالْيَدِ

ومعنى الكلام أنَّ هذا الذي يبسُط يَدَه إلى الماء إما قابضاً وإما متناولاً له من بُعد، كما أنه لا ينتفع بالماء الذي لم يصل إلى فيه، الذي جعله محلا للشرب، فكذلك هؤلاء المشركون الذين يعبدُون مع الله إلَهاً غيره، لا ينتفعون بهم أبداً في الدُّنيا ولا في الآخرةِ. ولهذا قال: ﴿ وما دُعاء الكافِرين إلاَّ في ضَلالٍ ﴾.

(١) المعجم الكبير ١٠/٣٧٩ ـ ٣٨١. وقال في مجمع الزوائد ٧/٤٢: «رواه الطبراني في الأوسط والكبير بنحوه. . . وفي إسنادهما: عبد العزيز بن عمران، وهو ضعيف».

(٢) تفسير الطبري ١٣/١٢٦.

(٣) تفسير الطبري ١٣/١٢٨.

(٤) ضابىء البُرْجُمي، شاعر جاهلي. والبيت في تفسير الطبري ١٣/١٢٩، وخزانة الأدب ٤/٨٠.
لم تسِقْهُ: لم تجمعه، يقال: وَسَقَ الشيءَ: ضمَّه وجمعه.

(٥) ينسب إلى الأحوص بن محمد الأنصاري، ولم نجده في ديوانه. وهو في مجاز القرآن لأبي عبيدة ١/٣٢٧، وتفسير الطبري ١٣/١٢٩.

﴿ وَلِلَّهِ يَسْجُدُ مَن فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ طَوْعًا وَكَرْهًا وَظِلَالُهُم بِالْغُدُوِّ وَالْآصَالِ ۩ ﴿١٥﴾ ﴾

يُخبر تعالى عن عظمته وسلطانه الذي قَهر كُلَّ شيء، ودان له كلُّ شيء. ولهذا يسجُد له كل شيء طوعاً من المؤمنين، وكرهاً من المشركين، ﴿ وظلالهم بالغُدُوِّ ﴾، أي: البُكر، والآصال[1] وهو جمع أصيل وهو آخر النهار، كما قال تعالى: ﴿ أَوَلم يَروا إلى ما خَلَق الله من شيءٍ يَتفيَّؤ ظلاله عن اليمين والشمائل سُجَّداً لله وهم داخرون ﴾.

﴿ قُلْ مَن رَّبُّ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ قُلِ اللَّهُ ۚ قُلْ أَفَاتَّخَذْتُم مِّن دُونِهِ أَوْلِيَاءَ لَا يَمْلِكُونَ لِأَنفُسِهِمْ نَفْعًا وَلَا ضَرًّا ۚ قُلْ هَلْ يَسْتَوِي الْأَعْمَىٰ وَالْبَصِيرُ أَمْ هَلْ تَسْتَوِي الظُّلُمَاتُ وَالنُّورُ ۗ أَمْ جَعَلُوا لِلَّهِ شُرَكَاءَ خَلَقُوا كَخَلْقِهِ فَتَشَابَهَ الْخَلْقُ عَلَيْهِمْ ۚ قُلِ اللَّهُ خَالِقُ كُلِّ شَيْءٍ وَهُوَ الْوَاحِدُ الْقَهَّارُ ﴿١٦﴾ ﴾

يقرر تعالى أنه لا إلّه إلا هُو، لأنهم مُعترفُون أنه هو الذي خَلَق السمواتِ والأرضَ، وهو ربُّها ومُدَبِّرها، وهم مع هذا قد اتَّخذُوا من دونه أولياءَ يعبدونهم، وأولئك الآلهةُ لا تَملِكُ لنفسها ولا لعابديها بطريق الأولى، ﴿ نفعا ولا ضَرّاً ﴾، أي: لا تُحَصِّل منفعةً، ولا تدفَعْ مَضرَّةً. فهل يَستَوي من عَبَد هذه الآلهةَ مع الله ومن عَبَد اللهَ وحدَه لا شريكَ له وهو على نُورٍ من ربِّه؟! ولهذا قال: ﴿ قل هل يستوي الأعمى والبصيرُ أم هل تستوي الظلماتُ والنورُ أم جَعَلوا لله شركاء خلقوا كخلقه فتشابه الخلق عليهم﴾، أي: أجعل هؤلاء المشركون مع الله آلهة تناظر الربَّ وتماثله في الخلق، فَخلقوا كخلقه، فتشابه الخلقُ عليهم، فلا يَدرُون أنها مخلوقةٌ من مخلوقٍ غيره؟ أي: ليس الأمرُ كذلك، فإنه لا يشابهه شيءٌ ولا يماثله، ولا نِدّ له ولا عِدْل له، ولا وَزير لَه، ولا وَلَد ولا صاحبة. ﴿ تعالى الله عن ذلك علواً كبيراً ﴾، وإنما عبد هؤلاء المشركون معه آلهة هم يعترفون أنها مخلوقة له عبيد له، كما كانوا يقولون في تَلْبِيَتِهم: «لبيك لا شريكَ لك، إلا شريكاً هو لك، تَملِكُه وما مَلَك»[2]. وكما أخبر تعالى عنهم في قوله: ﴿ ما نعبدُهم إلا لِيُقرِّبونا إلى الله زلفى ﴾، فأنكر تعالى ذلك عليهم، حيث اعتقدوا ذلك، وهو تعالى لا يُشفَع عِنده أحداً إلا بإذنه، ﴿ ولا تنفع الشفاعةُ عنده إلا لمن أذن له ﴾، ﴿ وكم من ملك في السمواتِ لا تُغني شفَاعتُهم شيئاً إلا مِن بعد أن يأذَن الله لمن يشاء ويرضَى﴾. وقال: ﴿إن كلُّ مَن في السموات والأرض إلا آتي الرحمن عبداً * لقد أحصاهم وعَدَّهم عدّاً * وكلهم آتيه يوم القيامة فرداً﴾، فإذا كان الجميعُ عبيداً، فَلِم يعبدُ بعضُهم بعضاً بلا دليل ولا برهانَ، بل بِمُجرَّد الرأي والاختراع والابتداع؟ ثم قد أرسل رُسُله من أولهم إلى آخرهم تزجُرهم عن ذلك، وتنهاهم عن عبادةِ مَن سِوَى الله، فكَذَّبوهم وخالَفوهم، فحقت عليهم كلمةُ العذابِ لا محالة، ﴿ولا يظلم ربُّك أحداً﴾.

﴿ أَنزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَسَالَتْ أَوْدِيَةٌ بِقَدَرِهَا فَاحْتَمَلَ السَّيْلُ زَبَدًا رَّابِيًا ۚ وَمِمَّا يُوقِدُونَ عَلَيْهِ فِي النَّارِ ابْتِغَاءَ حِلْيَةٍ أَوْ مَتَاعٍ زَبَدٌ مِّثْلُهُ ۚ كَذَٰلِكَ يَضْرِبُ اللَّهُ الْحَقَّ وَالْبَاطِلَ ۚ فَأَمَّا الزَّبَدُ فَيَذْهَبُ جُفَاءً ۖ وَأَمَّا مَا يَنفَعُ النَّاسَ فَيَمْكُثُ فِي الْأَرْضِ ۚ كَذَٰلِكَ يَضْرِبُ اللَّهُ الْأَمْثَالَ ﴿١٧﴾ ﴾

---

(١) البُكر: جمع بُكْرة، وهي أول النهار إلى طلوع الشمس.

(٢) أخرجه مسلم في كتاب الحج ٨٤٣/٢.

اشتملت هذه الآيةُ الكريمةُ على مَثَلين مَضرُوبَين للحقِّ في ثباته وبقائه، والباطل في اضمحلاله وفَنائه، فقال تعالى: ﴿ أنزل من السماء ماءً ﴾، أي: مطراً، ﴿ فسالت أودية بِقَدرِها ﴾، أي: أخذ كلُّ واد بحسبه، فهذا كبيرٌ وَسِع كثيراً من الماء، وهذا صغير فَوسع بقدَرِه. وهو إشارةٌ إلى القلوب وتفاوتها، فمنها ما يَسَعُ علماً كثيراً، ومنها ما لا يَتّسع لكثير من العلوم بل يضيقُ عنها، ﴿ فاحتمل السيلُ زَبداً رابياً ﴾، أي: فجاء على وجهِ الماء الذي سال في هذه الأودية زَبَدٌ عالٍ عليه، هذا مثل، وقوله: ﴿ ومما يُوقِدُون عليه في النار ﴾، هذا هو المثل الثاني، وهو ما يُسبَكُ في النار من ذهب أو فضة ﴿ ابتغاء حليةٍ ﴾، أي: ليجعل حليةَ نحاسٍ أو حديدٍ، فَيُجعَل متاعاً، فإنه يعلُوه زَبَدٌ منه، كما يعلو ذلك زبدٌ منه، ﴿ كذلك يَضربُ الله الحقَّ والباطِلَ ﴾، أي: إذا اجتمعا لا ثباتَ للباطِلِ ولا دَوام له، كما أن الزبد لا يثبتُ مع الماء، ولا مع الذَّهب ونحوهِ مما يُسبَكُ في النار، بل يذهَبُ ويَضمحِلُّ، ولهذا قال: ﴿ فأما الزبدُ فيذهَبُ جُفاءً ﴾، أي: لا يُنتَفعُ به، بل يَتفرَّقُ ويتمزَّقُ ويذهَبُ في جانِبَي الوادي، ويعلَق بالشجر وتَنْسِفُه الرياح. وكذلك خَبَث الذهب والفضة والحديد والنحاس يذهَبُ، لا يرجع منه شيء، ولا يبقى إلا الماءُ، وذلك الذهبُ ونحوه ينتفَعُ به. ولهذا قال: ﴿ وأما ما ينفع الناس فيمكثُ في الأرضِ كذلك يضرب الله الأمثالَ ﴾، كما قال تعالى: ﴿ وتلك الأمثال نَضرِبُها للناس وما يعقِلُها إلا العالمون ﴾.

قال بعضُ السلفِ: كنتُ إذا قرأتُ مثلاً من القرآن فلم أفهمه بَكَيتُ على نفسي، لأن الله تعالى يقولُ: ﴿ وَمَا يعقِلُها إلاَّ العالِمون ﴾(١).

قال عليُّ بن أبي طلحةَ، عن ابن عباس: قولُه تعالى: ﴿ أنزلَ من السماء ماء فسالت أوديةٌ بقَدرها ﴾: هذا مثل ضربه الله، احتملت منه القلوبُ على قدر يقينها وشكِّها، فأما الشكُّ فلا ينفع معه العملُ، وأما اليقينُ فينفع الله به أهله، وهو قولُه: ﴿ فأما الزبد فيذهب جفاء ﴾، وهو الشك، ﴿ وأما ما ينفع الناس فيمكثُ في الأرض ﴾، وهو اليقين، وكما يُجعل الحَلْي في النار فيؤخَذُ خالِصُه ويُترَكُ خَبَثه في النار. فكذلك يقبلُ الله اليقينَ ويتركُ الشكَّ.

وقال العوفيُّ، عن ابن عباس قولُه: ﴿ أنزل من السماء ماءً فسالت أوديةٌ بقدرها فاحتمل السيلُ زَبَداً رابياً ﴾، يقولُ: احتملَ السيلُ ما في الوادي من عُودٍ ودِمْنَةٍ(٢)، ﴿ ومما توقِدُون(٣) عليه في النار ﴾، فهو الذهبُ والفضةُ والحليةُ والمتاعُ والنحاسُ والحديدُ، فللنحاس والحديد خَبَثٌ، فجعل الله مثل خُبثه كزبد الماء، فأما ما ينفع الناس فالذهب والفضةُ، وأما ما ينفع الأرض فما شربت من الماء فأنبتت. فجعل ذاك مثلَ العمل الصالح يبقى لأهله، والعمل السيىء يضمحلُّ عن أهله، كما يذهبُ هذا الزبدُ، فكذلك الهُدَى والحقُّ جاءا من عند الله، فمن عَمِلَ بالحقِّ كان له ويبقى كما يبقَى ما ينفع الناسَ في الأرض. وكذلك الحديدُ لا يُستطاعُ أن يُعمَلَ منه سِكِّينٌ ولا سيفٌ حتى يدخل في النار فتأكل خبثَه، ويخرجَ جَيِّده فينتفع به. كذلك يضمحلُّ الباطل إذا كان يوم القيامة، وأقيم الناسُ، وعُرِضت الأعمالُ، فيزيغ الباطلُ ويهلِك، وينتفعُ أهلُ الحقِّ بالحق(٤).

وكذلك رُوِي في تفسيرها عن مجاهد، والحسن البصري، وعطاء، وقتادةَ، وغير واحد من السلف والخلف.

---

(١) أخرجه ابن أبي حاتم بإسناده إلى عَمْرو بن مُرَّة، وسيأتي في تفسير الآية ٤٣ من سورة العنكبوت.
(٢) الدمنة: آثار الديار.
(٣) كذا في أصلنا: (توقدون)، بالتاء. وهي قراءة من عدا: حفصاً وحمزة والكسائي. انظر الإقناع لابن الباذش ٦٧٥/٢.
(٤) تفسير الطبري ١٣/ ١٣٥.

وقد ضَرَب الله ـ سبحانه وتعالى ـ في أول سورة البقرة للمنافقين مثلين نارياً ومائياً، وهما قوله: ﴿ مثلهم كمثلِ الذي استوقد ناراً فلما أضاءت ما حوله ﴾... الآية، ثم قال: ﴿ أو كَصَيِّب من السماء فيه ظلماتٌ ورعدٌ وبرقٌ ﴾... الآية. وهكذا ضرَب للكافرين في سورة النور مثلين، أحدهما قوله: ﴿ والذين كفروا أعمالهم كسرابٍ بقيعة يحسبه الظمآن ماء ﴾... الآية، والسرابُ إنما يكون في شدة الحر، ولهذا جاء في الصحيحين: «فيقال لليهود يوم القيامة: فما تريدون؟ فيقولون: أيْ ربَّنا، عَطِشنا فاسقِنا. فيقال: ألا ترِدون؟ فيَرِدُون النار فإذا هي كالسراب يحطم بعضها بعضاً»(١). ثم، قال في المثل الآخر: ﴿ أو كظُلماتٍ في بحر لجيٍّ يغشاه موجٌ من فوقه موجٌ من فوقه سَحابٌ ﴾... الآية، وفي الصَّحِيحَين عن أبي موسى الأشعريِّ قال: قال رسولُ الله ـ ﷺ ـ: «إنَّ مثلَ ما بعثني الله به من الهُدَى والعلم كَمَثلِ غيثٍ أصابَ أرضاً، فكان منها طائفة قَبِلت الماءَ فأنبتت الكلأَ والعُشْبَ الكثير، وكانت منها أجادبُ أمسكت الماء، فَنفع الله بها الناسَ، فَشَرِبوا ورعَوا وَسقُوا وَزَرعُوا، وأصابت طائفةً منها أخرى، إنما هي قيعانٌ لا تُمسِكُ ماءً ولا تُنبِتُ كَلأً، فذلك مَثَلُ من فَقِه في دين الله ونَفَعه الله بما بعثني ونَفع به، فَعَلِم وعَلَّم. ومثل من لم يَرْفع بذلك رأساً ولَم يَقْبَل هُدَى الله الذي أرسلت به»(٢). فهذا مثل مائي، وقال في الحديث الآخر الذي رواه الإمام أحمد:

حَدَّثنا عبد الرزاق، حدثنا معمرٌ، عن همام بن مُنَبِّه قال: هذا ما حَدَّثنا أبو هُرَيرة، عن رسول الله ـ ﷺ ـ أنه قال: «مَثَلي ومثلُكم كمثل رجل استوقد ناراً، فلما أضاءَت ما حولَه جعل الفَرَاشُ وهذه الدوابُّ التي يَقَعْنَ في النار يَقَعْنَ فيها، وجعل يَحْجُزُهُنَّ ويَغْلِبْنَه فَيَتقحَّمْنَ فيها، قال: فذلكم مثلي ومثلكم، أنا آخذ بحُجَزِكم عن النار، هَلُمَّ عن النار، هَلُمَّ عن النار، هَلُمَّ. فتغلبوني، فتقتحِمُون فيها»(٣)، وأخرجاه في الصحيحين أيضاً(٣)، فهذا مثلٌ ناريٌّ.

﴿ لِلَّذِينَ ٱسۡتَجَابُواْ لِرَبِّهِمُ ٱلۡحُسۡنَىٰۚ وَٱلَّذِينَ لَمۡ يَسۡتَجِيبُواْ لَهُۥ لَوۡ أَنَّ لَهُم مَّا فِي ٱلۡأَرۡضِ جَمِيعٗا وَمِثۡلَهُۥ مَعَهُۥ لَٱفۡتَدَوۡاْ بِهِۦٓۚ أُوْلَٰٓئِكَ لَهُمۡ سُوٓءُ ٱلۡحِسَابِ وَمَأۡوَىٰهُمۡ جَهَنَّمُۖ وَبِئۡسَ ٱلۡمِهَادُ ١٨ ﴾

يُخبر تعالى عن مال السُعداء والأشقياء فقال: ﴿ للذين استجابُوا لربِّهم ﴾، أي: أطاعُوا الله ورسوله، وانقادُوا لأوامره، وصدَّقُوا أخباره الماضية والآتية، فلهم ﴿ الحُسنى ﴾، وهو الجزاء الحسنُ، كما قال تعالى مخبراً عن ذي القَرنين أنه قال: ﴿ أمَّا من ظَلَم فَسوف نُعذِّبه ثم يُرَدُّ إلى ربِّه فيعذِّبُه عذاباً نُكراً * وأما من آمن وعَمِل صالحاً فله جزاءً الحسنى وسنَقُول له من أمرنا يُسراً ﴾، وقال تعالى: ﴿ للذين أحسَنُوا الحُسنى وزيادةٌ ﴾.

وقولُه: ﴿ والذين لم يَستَجِيبُوا له ﴾ أي لم: يُطِيعوا الله، ﴿ لو أنَّ لهم ما في الأرض جميعاً ﴾، أي: في الدار الآخرة، لو أن يُمكِنَهم أن يفتدُوا من عذاب الله بملْءِ الأرض ذهباً ومثله مَعَه لافتدَوا به، ولكن لا يُتقبَّل منهم؛ لأنه تعالى لا يَقبل منهم يوم القيامة صرفاً ولا عدلاً، ﴿ أولئك لهم سوءُ الحساب ﴾، أي: في الدار الآخرة، أي: يُناقَشون على النَّقِير والقِطْمِير(٤)، والجَليل والحَقير، «ومن نُوقِشَ الحسابَ عُذِّب»(٥)، ولهذا قال: ﴿ ومأواهم جَهَنَّم وبِئسَ المِهادُ ﴾.

(١) فتح الباري، كتاب التوحيد ١٣/٤٢٠ ـ ٤٢٢، ومسلم، كتاب الإيمان ١٦٧ ـ ١٧١، ١٨٢ ـ ١٨٤.
(٢) فتح الباري، كتاب العلم ١/١٧٥، ومسلم، كتاب الفضائل ٤/١٧٨٨ ـ ١٧٨٩.
(٣) مسند أحمد ٢/٣١٢، وفتح الباري، كتاب الرقاق ١١/٣١٦ وكتاب الاعتصام ١٣/٢٥٠، ومسلم، كتاب الفضائل ٤/١٧٨٩.
(٤) النَّقير: النكتة التي في النواة. والقطمير: القشرة الرقيقة على النواة كاللفافة لها. والمراد: أنهم سيناقشون على كلّ الأمور جليلها وحقيرها.
(٥) أخرجه الإمام أحمد في مسنده ٦/٤٧، والشيخان، فتح الباري، تفسير سورة الانشقاق ٨/٦٩٧، ومسلم، كتاب الجنة ٤/٢٢٠٤.

﴿ ۞ أَفَمَن يَعْلَمُ أَنَّمَا أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ الْحَقُّ كَمَنْ هُوَ أَعْمَىٰ ۚ إِنَّمَا يَتَذَكَّرُ أُولُو الْأَلْبَابِ ﴿١٩﴾ ﴾

يقولُ تعالى: لا يَستوِي مَن يعلم مِن الناس أن الذي ﴿ أُنزِلَ إليكَ ﴾ يا مُحمَّدُ ﴿ من ربِّكَ ﴾ هو ﴿ الحقُّ ﴾، أي: الذي لا شكَّ فيه ولا مِرْيَةَ ولا لَبْسَ فيه ولا اختلافَ فيه، بل هو كلُّه حقٌّ يُصَدِّق بعضُه بعضاً، لا يُضادُّ شيءٌ منه شيئاً آخرَ، فأخباره كلُّها حقٌّ، وأوامرُه ونواهيه عدلٌ، كما قال تعالى: ﴿ وتَمَّت كَلِمة ربِّك صِدْقاً وعَدْلاً ﴾، أي: صدقاً في الإخبار، وعدلاً في الطَّلَب، فلا يستَوي مَن تحقق صِدْقَ ما جئتَ به يا محمد ومن هُو أعمى لا يَهتدِي إلى خير ولا يفهَمُه، ولو فَهِمه ما انقاد له ولا صَدَّقه ولا اتَّبعه، كما قال تعالى: ﴿ لا يَستوي أصحابُ النارِ وأصحابُ الجنة أصحابُ الجنةِ هم الفائزون ﴾، وقال في هذه الآية الكريمة: ﴿ أفمن يعلم أنما أُنزلَ إليكَ من ربِّك الحقُّ كَمَن هو أعمَى ﴾، أي: أفهذا كهذا؟ لا استواءَ.

وقوله: ﴿إنما يتذكر أولوا الألباب﴾، أي: إنما يتعظ ويعتبر ويعقل أولوا العقول السليمة الصحيحة، جعلنا الله منهم.

﴿ الَّذِينَ يُوفُونَ بِعَهْدِ اللَّهِ وَلَا يَنقُضُونَ الْمِيثَاقَ ﴿٢٠﴾ وَالَّذِينَ يَصِلُونَ مَا أَمَرَ اللَّهُ بِهِ أَن يُوصَلَ وَيَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ وَيَخَافُونَ سُوءَ الْحِسَابِ ﴿٢١﴾ وَالَّذِينَ صَبَرُوا ابْتِغَاءَ وَجْهِ رَبِّهِمْ وَأَقَامُوا الصَّلَاةَ وَأَنفَقُوا مِمَّا رَزَقْنَاهُمْ سِرًّا وَعَلَانِيَةً وَيَدْرَءُونَ بِالْحَسَنَةِ السَّيِّئَةَ أُولَٰئِكَ لَهُمْ عُقْبَى الدَّارِ ﴿٢٢﴾ جَنَّاتُ عَدْنٍ يَدْخُلُونَهَا وَمَن صَلَحَ مِنْ آبَائِهِمْ وَأَزْوَاجِهِمْ وَذُرِّيَّاتِهِمْ ۖ وَالْمَلَائِكَةُ يَدْخُلُونَ عَلَيْهِم مِّن كُلِّ بَابٍ ﴿٢٣﴾ سَلَامٌ عَلَيْكُم بِمَا صَبَرْتُمْ ۚ فَنِعْمَ عُقْبَى الدَّارِ ﴿٢٤﴾ ﴾

يقولُ تعالى مخبراً عمَّن اتَّصف بهذه الصفاتِ الحَمِيدة، بأنَّ لهم ﴿ عُقبى الدارِ ﴾، وهي العاقبةُ والنصرةُ في الدنيا والآخرة. ﴿ الذين يُوفون بعهد الله ولا ينقضُون الميثاق ﴾، وليسوا كالمنافقين الذين إذا عاهد أحدُهم غَدَر، وإذا خاصَم فَجَر، وإذا حَدَّث كذَب، وإذا ائتُمِنَ خانَ. ﴿ والذين يَصِلُون ما أمر الله به أن يُوصَل ﴾، من صِلَة الأرحامِ، والإحسانِ إليهم وإلى الفقراءِ والمحاويجِ، وبذل المعروف، ﴿ ويخشَون ربَّهم ﴾، أي: فيما يأتون وما يَذَرُون من الأعمال، يُرَاقبون الله في ذلك، ويخافُون سُوء الحساب في الدار الآخرة. فلهذا أَمْرُهم على السداد والاستقامةِ في جَميع حَرَكاتهم وسَكَناتِهم وجَميع أحوالِهم القاصِرَة والمتعدِّية. ﴿ والذين صَبَرُوا ابتغاءَ وجهِ ربِّهم﴾، أي: عن المحارم والمآثم، فَقَطموا نُفوسَهم عن ذلك لله ـ عز وجل ـ ابتغاءَ مَرْضَاتِه وجَزيل ثوابه، ﴿ وأقاموا الصلاةَ ﴾، بِحدُودِها ومَوَاقيتها ورُكُوعِها وسُجودِها وخُشوعها على الوجه الشرعي المرضيِّ، ﴿ وأنفقوا مما رزقناهُم ﴾، أي: على الذين يجبُ عليهم الإنفاقُ لهم من زوجات وقَرابات وأجانِب، من فُقراء ومحاويج ومساكين، ﴿ سِرّاً وعلانيةً ﴾، أي: في السرِّ والجَهْر، لم يمنعهُم من ذلك حالٌ من الأحوال، في آناءِ الليل وأطراف النهار، ﴿ ويدرءُون بالحسنة السيئة ﴾، أي: يَدفعون القبيحَ بالحسنِ، فإذا آذاهم أحدٌ قابلوه بالجميل صبراً واحتمالاً وصفحاً وعَفْواً، كما قال تعالى: ﴿ ادفعْ بالتي هي أحسنُ فإذا الذي بينك وبينه عداوةٌ كأنه وليٌّ حميمٌ ۞ وما يُلَقَّاها إلا الذين صَبَرُوا وما يلقاها إلا ذُو حَظٍّ عظيم ﴾، ولهذا قال مخبراً عن هؤلاء السُّعَداءِ المتَّصِفين بهذه الصفاتِ الحسنةِ بأن لهم عُقبى الدارِ. ثم فَسَّر ذلك بقوله: ﴿ جناتُ عَدْنٍ ﴾، والعدنُ: الإقامةُ، أي: جناتُ إقامةٍ يَخلُدون فيها.

وعن عبد الله بن عَمرو أنه قال: إنَّ في الجنة قصراً يُقال له: عَدْنٌ، حولَه البُروجُ والمُروجُ، فيه خمسةُ

آلافِ بابٍ، على كل بابٍ خمسةُ آلافِ حِبَرَةٍ لا يدخلُه إلا نبيٌّ أو صِدِّيقٌ أو شَهِيدٌ[١].

وقال الضحَّاكُ في قوله: ﴿ جناتُ عدنٍ ﴾، مدينةُ الجنةِ، فيها الرسلُ والأنبياءُ والشهداءُ وأئمةُ الهُدى، والناسُ حولَهم بعد، والجنّاتُ حولها. رواهما ابنُ جَرير[١].

وقولُه: ﴿ ومَن صَلح من آبائهم وأزواجهم وذُرِّياتهم ﴾، أي: يُجمَعُ بينَهم وبين أحبابهم فيها من الأباءِ والأهلينَ والأبناء، ممن هو صالحٌ لدخول الجنَّةِ من المؤمنين، لِتَقَرَّ أعينُهم بهم، حتى إنه تُرفَع درجةُ الأدنى إلى درجةِ الأعلى، من غير تَنْقِيص لذلك الأعلى عن دَرَجته، بل امتناناً من الله وإحساناً، كما قال تعالى: ﴿ والذين آمنوا واتَّبعَتْهم ذُرِّيتهم بإيمانٍ ألحقنا بهم ذُرِّيتهم وما ألتناهم من عملهم من شيءٍ كُلُّ امرىءٍ بما كَسَب رهينٌ ﴾.

وقولُه: ﴿ والملائكةُ يدخُلونَ عليهم من كلِّ باب * سلامٌ عليكم بما صَبَرتُم فنعم عُقبى الدَّارِ ﴾، أي: وتدخلُ عليهم الملائكةُ من هاهنا وهاهنا للتهنئةِ بدُخولِ الجنة، فعند دُخولهم إيَّاها تَفِد عليهم الملائكةُ مُسلِّمين مُهَنِّئين لهم بما حصَلَ لهم من الله من التقريب والإنعام، والإقامةِ في دارِ السَّلامِ، في جوارِ الصدِّيقين والأنبياءِ والرسُلِ الكِرامِ.

وقال الإمام أحمد ـ رحمه الله ـ: حدثنا أبو عبد الرحمن، حدثني سَعِيد بن أبي أَيُّوبَ، حدثنا معروفُ بن سُويد الجُذَامي، عن أبي عُشَّانَةَ[٢] المَعَافِرِيّ، عن عبد الله بن عَمرو بن العاص ـ رضي الله عنهما ـ عن رسول الله ـ ﷺ ـ أنه قال: «هل تَدرُون أوَّلَ مَن يدخل الجَنةَ من خَلْقِ الله؟ قالوا: الله ورسولُه أعلم. قال: أوَّلُ مَن يدخلُ الجنةَ من خَلقِ الله الفقراءُ المهاجرونَ الذين تُسَدُّ بهم الثغورُ، وتُتَّقى بهم المكارهُ، ويموتُ أحدُهم وحاجتُه في صَدره لا يَستطيع لها قضاءً، فيقول الله تعالى لمن يشاءُ من ملائكته: ائتُوهم فَحَيُّوهم. فتقول الملائكةُ: نحن سُكَّان سمائِك، وخِيرَتُك من خَلقك، أفتأمرنا أن نأتي هؤلاء فَنُسَلِّم عليهم؟ قال: إنهم كانوا عباداً يَعبدُونني لا يُشرِكُون بي شيئاً، وتُسَدُّ بهم الثغورُ، وتُتَّقى بهم المكارهُ، ويموتُ أحدُهم وحاجتُه في صَدْرِه فلا يستطيعُ لها قضاء. قال: فتأتيهمُ الملائكةُ عند ذلك، فيَدخُلون عليهم من كلِّ باب، ﴿ سلامٌ عليكم بما صَبَرتُم فنعمَ عُقبى الدارِ ﴾[٣].

ورواه أبو القاسم الطبراني، عن أحمد بن رِشدين، عن أحمدَ بن صَالح، عن عبد الله بن وَهب، عن عَمرو بن الحارث، عن أبي عُشَّانَةَ[٢]، سَمع عبد الله بن عمرو، عن النبي ـ ﷺ ـ قال: «أولُ ثُلَّةٍ يدخلون الجنةَ فقراء المهاجرين، الذين تُتقى بهم المكارهُ، وإذا أُمِرُوا سَمِعوا وأطاعوا، وإن كانت لرجلٍ منهم حاجةٌ إلى سلطان لم تُقْضَ حتى يَموتَ وهي في صدره، وإن الله يدعُو يومَ القيامة الجنةَ فتأتي بزخرفها وزينتها، فيقول: أين عبادي الذين قاتلوا في سبيلي، وأُوذوا في سبيلي، وجاهَدُوا في سبيلي؟ ادخُلوا الجنة بِغير عذاب ولا حساب، وتأتي الملائكةُ فيسجدون ويقولون: رَبَّنا نحن نُسَبِّحُك الليلَ والنهارَ، ونُقَدِّسُ لك، مَن هؤلاء الذين آثرتَهم علينا؟ فيقول الربُّ ـ عز وجل ـ: هؤلاء عبادِي الذين جاهَدُوا في سبيلي، وأُوذوا في سبيلي. فتدخلُ عليهم الملائكةُ من كلِّ باب: ﴿ سلامٌ عليكُم بما صَبَرتُم فنعم عقبى الدار ﴾.

وقال عبدُ الله بن المبارك، عن بَقِيَّة بن الوليدِ، حدثنا أرطاة بن المنذر، سَمِعتُ رجلاً من مشيخةِ الجند، يقال له «أبو الحَجَّاج» يقول: جلستُ إلى أبي أمامة فقال: إن المؤمنَ لَيَكُون متكئاً على أريكته إذا دخلَ الجنة،

---

(١) تفسير الطبري ١٣/١٤١ ـ ١٤٢. والحِبَرَةُ: ثوبٌ من قطن وكتان كان يصنع في اليمن.
(٢) أبو عُشَّانَة: حَيُّ بن يُؤمن، تابعي. انظر المقتنى للذهبي ٣٩٨.
(٣) مسند أحمد ٢/١٦٨.

وعنده سِماطان من خَدَم ، وعندَ طَرَفِ السماطين بابٌ مُبوَّب، فَيُقبِلُ المَلَكُ فيستأذنُ، فيقول أقصى الخدم للذي يليه: «مَلَك يستأذن»، . ويقول الذي يليه للذي يليه: «مَلَك يستأذن»، حتى يبلغ المؤمن فيقول: ائذنوا. فيقول أقربهم إلى المؤمن: ائذنوا، ويقول الذي يليه للذي يليه: ائذنوا. حتى يبلغَ أقصاهم الذي عند الباب، فيفتح له، فيدخل فيسلِّم ثم ينصرف، رواه ابن جرير(١).

ورواه ابن أبي حاتم، من حديث إسماعيل بن عياش، عن أرطاةَ بن المنذر، عن أبي الحجاج يوسف الألْهانِي قال: سمعت أبا أمامة... فذكر نحوه.

وقد جاء في الحديث: أن رسولَ الله ـ ﷺ ـ كان يزورُ قبورَ الشهداء في رأس كلِّ حول، فيقول لهم: ﴿ سلامٌ عليكم بما صَبَرتُم فنعم عقبى الدار ﴾. وكذا أبو بكر، وعمر، وعثمان.

﴿ وَالَّذِينَ يَنقُضُونَ عَهْدَ اللَّهِ مِنۢ بَعْدِ مِيثَٰقِهِۦ وَيَقْطَعُونَ مَآ أَمَرَ اللَّهُ بِهِۦٓ أَن يُوصَلَ وَيُفْسِدُونَ فِى الْأَرْضِ أُولَٰٓئِكَ لَهُمُ اللَّعْنَةُ وَلَهُمْ سُوٓءُ الدَّارِ ﴿٢٥﴾ ﴾

هذا حالُ الأشقياء وصفاتُهم، وذِكرُ مآلِهِمْ في الدار الآخرة ومَصيرهم إلى خلافِ ما صار إليه المؤمنون، كما أنهم اتَّصفُوا بخلاف صفاتهم في الدنيا، فأولئك كانوا يوفُون بعهد الله ويَصِلُون ما أمر الله به أن يُوصَلَ، وهؤلاء ﴿ ينقضُون عهدَ الله من بعد ميثاقِهِ ويقطَعُون ما أمر الله به أن يُوصَل ويُفسِدُون في الأرض ﴾، كما ثَبَت في الحديث: «آيةُ المنافِق ثلاث: إذا حَدَّث كَذَب، وإذا وَعد أخلَفَ، وإذا اؤتُمِـن خانَ» ـ وفي رواية: «وإذا عاهَدَ غَدَر، وإذا خاصَم فَجَر»(٢).

ولهذا قال: ﴿ أولئك لهم اللَّعنةُ ﴾، وهي الإبعادُ عن الرحمة، ﴿ ولهم سوءُ الدَّارِ ﴾، وهي سوءُ العاقبةِ والمآل، ومأواهم جَهَنَّم وبئس القرارُ.

وقال أبو العالية في قوله: ﴿ والذين ينقضُون عهدَ الله ﴾... الآية، قال: هي ستُّ خصالٍ في المنافقين إذا كان فيهم الظَّهرة(٣) على الناس أظهروا هذه الخِصَال: إذا حَدَّثوا كَذَبوا، وإذا وَعَدُوا أخلَفُوا، وإذا اتُّمِنُوا خانُوا، ونَقَضوا عهد الله من بعد ميثاقه، وقَطَعوا ما أمر الله به أن يُوصَلَ، وأفسدُوا في الأرض. وإذا كانت الظَّهرة عليهم أظهروا الثلاث الخصال: إذا حَدَّثوا كَذَبُوا، وإذا وَعَدُوا أخلَفُوا، وإذا اتُّمِنُوا خانُوا.

﴿ اللَّهُ يَبْسُطُ الرِّزْقَ لِمَن يَشَآءُ وَيَقْدِرُ وَفَرِحُوا۟ بِالْحَيَوٰةِ الدُّنْيَا وَمَا الْحَيَوٰةُ الدُّنْيَا فِى الْآخِرَةِ إِلَّا مَتَٰعٌ ﴿٢٦﴾ ﴾

يذكرُ تعالى أنَّه هو الذي يُوَسِّع الرزقَ على من يشاء، ويُقَتِّره على من يشاء، لما له في ذلك من الحكمة والعدلِ. وفَرِح هؤلاء الكفارُ بما أوتوا في الحياة الدنيا استدراجاً لهم وإمهالاً، كما قال تعالى: ﴿ أيحسبون أنما نُمِدُّهم به من مالٍ وبنينَ * نُسارعُ لهم في الخيراتِ بل لا يَشعُرون ﴾.

---

(١) تفسير الطبري ١٣/١٤٢. والسِّماطُ: الصف، يقال: مشى بين سماطين من الجنود وغيرهم، وهم على سِمَاطٍ واحد، أي: نظم واحد.
(٢) تقدم الحديث في سورة البقرة عند الآية ١٧٧، وخرجناه هنالك.
(٣) المراد: إذا كان فيهم الغلبة، يقال: ظهر على عدوه ظهوراً: غلبه.

ثم حَقَّر الحياة الدنيا بالنسبة إلى ما ادَّخره تعالى لعباده المؤمنين في الدار الآخرة فقال: ﴿ وما الحياةُ الدنيا في الآخرةِ إلا متاعٌ ﴾، كما قال: ﴿ قل متاعُ الدنيا قليلٌ والآخرة خيرٌ لمن اتَّقى ولا تُظلَمُون فتِيلاً ﴾، وقال: ﴿ بل تُؤثِرُون الحياةَ الدنيا * والآخرةُ خيرٌ وأبقى ﴾.

وقال الإمامُ أحمد: حدثنا وكيع ويحيى بن سعيد قالا: حدثنا إسماعيل بن أبي خالد، عن قيس، عن المستورد أخي بني فهر قال: قال رسولُ الله ـ ﷺ ـ: ما الدنيا في الآخرةِ إلا كَمثَل ما يجعَلُ أحدُكم إصبعه هذه في اليمِّ، فَلْينظُر بم تَرجِعُ؟ وأشار بالسبَّابة[١]. ورَواه مسلمٌ في صَحِيحه[١].

وفي الحديث الآخر: أنَّ رسول الله ـ ﷺ ـ مرَّ بجَدْيٍ أسَكَّ مَيِّتٍ ـ والأسَكُّ: الصغيرُ الأُذُنين ـ فقال: «وَاللهِ لَلدُّنيا أهونُ على الله مِن هَذا على أهلِهِ حينَ ألقَوه»[٢].

﴿ وَيَقُولُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لَوْلَآ أُنزِلَ عَلَيْهِ ءَايَةٌ مِّن رَّبِّهِۦ قُلْ إِنَّ ٱللَّهَ يُضِلُّ مَن يَشَآءُ وَيَهْدِىٓ إِلَيْهِ مَنْ أَنَابَ (٢٧) ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَتَطْمَئِنُّ قُلُوبُهُم بِذِكْرِ ٱللَّهِ أَلَا بِذِكْرِ ٱللَّهِ تَطْمَئِنُّ ٱلْقُلُوبُ (٢٨) ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ طُوبَىٰ لَهُمْ وَحُسْنُ مَـَٔابٍ (٢٩) ﴾

يخبر تعالى عن قِيلِ المشركين: ﴿ لَولا ﴾، أي: هَلَّا ﴿ أُنزِل عليه آيةٌ من ربِّه ﴾ كما قالوا: ﴿ فَلْيأتِنا بآيةٍ كما أُرسِلَ الأولون ﴾. وقد تقدَّم الكلامُ على هذا غير مَرَّةٍ، وأنَّ الله قادرٌ على إجابة ما سألوا. وفي الحديث: إنَّ الله أوحى إلى رسوله لَمَّا سألوه أن يُحوِّل لهم الصَّفا ذهباً، وأن يُجريَ لهم يُنبوعاً، وأن يُزيح الجبال من حول مكة فيصيرَ مكانها مروجٌ وبساتين: إن شئتَ ـ يا محمد ـ أعطيتُهم ذلك، فإن كفروا فإني أعذِّبهم عذاباً لا أعذِّبه أحداً من العالمين، وإن شئتَ فتحتُ عليهم بابَ التوبةِ والرَّحمةِ، فقال: «بل تفتحُ لهم بابَ التوبةِ والرَّحمةِ»[٣]. ولهذا قال لرسوله: ﴿ قل إن الله يضلُّ من يشاء ويهدي إليه مَن أنابَ ﴾، أي: هو المضلُّ والهادي، سواءٌ بُعِثَ الرسول بآيةٍ على وَفقِ ما اقترحُوا، أو لم يُجِبْهُم إلى سُؤَالِهم، فإن الهداية والإضلَال ليس منوطاً بذلِكَ ولا عَدَمِه، كما قال: ﴿ وما تُغني الآياتُ والنذُرُ عن قوم لا يؤمنون ﴾، وقال: ﴿ إن الذين حَقَّت عليهم كَلِمَةُ ربِّك لا يؤمنون * ولو جاءتهم كلُّ آية حتى يَرَوُا العذابَ الأليم ﴾، وقال: ﴿ ولو أنَّنا نزلنا إليهم الملائكةَ وكلَّمهم الموتى وحَشَرنا عليهم كُلَّ شيء قُبُلاً ما كانوا ليؤمنوا إلا أن يشاء الله ولكنَّ أكثرهم يجهلون ﴾. وهكذا قال: ﴿قل إن الله يضلُّ من يشاء ويَهدِي إليه مَن أنابَ ﴾، أي: ويَهدِي مَن أناب إلى الله، ورجع إليه، واستعان به، وتَضَرَّع لديه.

﴿ الذين آمنُوا وتَطمَئِنُّ قلوبُهم بذكر الله ﴾، أي: تَطِيبُ وتركَن إلى جانب الله، وتسكُن عند ذِكْرِه، وترضَى به، مولىً ونَصِيراً، ولهذا قال: ﴿ ألا بِذِكرِ الله تَطمَئِنُّ القلوبُ ﴾، أي: هو حَقِيقٌ بذلك.

﴿ الذين آمنوا وعملوا الصالحات طُوبى لهم وحسنُ مآبٍ ﴾، قال ابن أبي طلحة، عن ابن عباس: فَرَحٌ وقُرَّةُ عين. وقال عِكرِمَةُ: نِعْم مآلُهم. وقال الضحاك: غبطةٌ لَهُم. وقال إبراهيم النَّخَعِيُّ: خير لهم. وقال قَتَادَةُ:

---

(١) تقدم الحديث عند تفسير الآية ٢٦ من سورة التوبة، وخرجناه هنالك.

(٢) أخرجه الإمام أحمد في مسنده ٣٦٥/٣، ومسلم في كتاب الزهد عن جابر بن عبدالله ٢٢٧٢/٤، وكذلك الترمذي وابن ماجه في الزهد عن المستورد بن شداد، انظر عارضة الأحوذي ١٩٨/٩، وسنن ابن ماجه ١٣٧٧/٢.

(٣) أخرجه الإمام أحمد في مسند ٢٤٢/١٥.

هي كلمة عربية، يقول الرجلُ: «طُوبى لك»، أي: أصبت خيراً. وقال في رواية: ﴿ طُوبى لهم ﴾، حُسنى لهم. ﴿وحسنُ مآب ﴾، أي: مرجعٌ. وهذه الأقوال شيء واحد لا منافاة بينها.

وقال سعيد بن جُبَير، عن ابن عباس: ﴿ طُوبى لهم ﴾، قال: هي أرض الجنة بالحبشية. وقال سعيد بن مَسْجُوح: طوبى اسم الجنة، بالهندية. وكذا روى السّدي، عن عكرمة: ﴿ طُوبى لهم ﴾، أي: الجنة. وبه قال مجاهد.

وقال العَوفي: عن ابن عباس: لما خَلَق الله الجنة وفَرَغ منها قال: ﴿ الذين آمنوا وعَمِلوا الصالحاتِ طُوبى لهم وحُسنُ مآبٍ ﴾، وذلك حين أعجَبَتْهُ[١].

وقال ابنُ جريرٍ: حدثنا ابن حُميد، حدثنا يعقوبُ، عن جَعفرٍ، عن شهر بن حَوشَبٍ قال: ﴿ طُوبَى ﴾، شجرةٌ في الجنة، كُلُّ شجرِ الجَنَّةِ منها، أغصانُها من وراء سُورِ الجنة[١]. وهكذا رُوِي عن أبي هريرة، وابن عباس، ومغيث بن سُمَيّ، وأبي إسحاق السَّبِيعي وغير واحد من السَّلَفِ: أن طوبى شجرة في الجنة، في كل دار منها غصنٌ منها.

وذكر بعضُهم أن الرحمن ـ تبارك وتعالى ـ غَرَسها بيده من حَبَّةِ لُؤلُؤةٍ، وأمرها أن تمتدَّ، فامتدت إلى حيثُ يشاءُ الله ـ تبارك وتعالى ـ وخَرَجت من أصلها ينابيعُ أنهارِ الجَنَّةِ، من عَسَلٍ وَخمر وماءٍ ولبن.

وقد قال عبد الله بنُ وَهبٍ: حدثنا عمرو بن الحارث، أنَّ دَرّاجاً أبا السَّمح حَدَّثَه، عن أبي الهَيْثَم، عن أبي سَعيدٍ الخدري ـ رضي الله عنه ـ مرفوعاً: ﴿ طوبى ﴾: شَجَرةٌ في الجَنَّةِ مسيرةُ مائةِ سنةٍ، ثيابُ أهلِ الجنة تخرجُ من أكمامها[٢].

وقال الإمام أحمد: حدثنا حسن بن موسى، سمعت عبد الله بن لَهِيعة، حدثنا دَرّاجٍ أبو السَّمح، أن أبا الهيثم حَدَّثه، عن أبي سعيد الخدري عن رسول الله ـ ﷺ ـ: أن رجلاً قال: يا رسولَ الله، طُوبَى لمن رآك وآمَنَ بك. قال: «طُوبى لمن رآني وآمَنَ بي، ثم طُوبى، ثم طُوبى لمن آمن بي ولم يَرَني. قال له رجل: وما طُوبى؟ قال: شجرةٌ في الجنة مسيرةُ مائة عام، ثيابُ أهل الجَنَّةِ تخرجُ من أكمامها»[٣].

ورَوَى البخاريُّ ومسلم جميعاً، عن إسحاقَ بن راهَوَيه، عن مُغيرة المخزومي، عن وُهَيْبٍ، عن أبي حازِمٍ، عن سهل بن سعد قال: قال رسول الله ـ ﷺ ـ: «إن في الجنة شجرةً يسير الراكب في ظلها مائة عام لا يقطعها. قال: فَحَدّثت به النعمانَ بن أبي عياش الزُّرَقي، فقال: حدثني أبو سعيد الخُدْري، عن النبي ـ ﷺ ـ قال: «إن في الجنة شجرةً يسير الراكبُ الجَوَادَ المضمَّرَ السريع مائة عام ما يقطعها»[٤].

وفي صحيح البخاري، من حديث يزيدَ بن زُرَيع، عن سعيدٍ، عن قَتَادَةَ، عن أنس ـ رضي الله عنه ـ قال: قال رسولُ الله ـ ﷺ ـ في قول الله: ﴿ وظلٍّ ممدودٍ ﴾، قال: «في الجنة شَجَرةً يسير الركبُ في ظلها مائة عام لا يقطعها»[٥].

---

(١) تفسير الطبري ١٤٧/١٣.

(٢) تفسير الطبري ٤٩/١٣.

(٣) مسند الإمام أحمد ٧١/٣.

(٤) فتح الباري، كتاب الرقاق ٤١٥/١١ ـ ٤١٦، ومسلم، كتاب الجنة ٢١٧٦/٤.
وتضمير الخيل: أن تُشَدَّ عليها سروجُها وتُجلَّل بالأجلَّةِ حتى تَعْرَقَ تحتها، فيذهب رَهَلُها، ويشتد لحمها، ويُحمَل عليها غلمانٌ خِفَافٌ يُجْرُونها ولا يَعْنُفُونَ بها، فإذا فُعِل بها ذلك أُمِن عليها انقطاع النَّفس عند عَدْوِها.

(٥) فتح الباري، كتاب بدء الخلق ٣١٩/٦.

وقال الإمام أحمدُ: حدثنا سُرَيجٌ، حدثنا فُلَيح، عن هلال بن علي، عن عبد الرحمن بن أبي عَمْرَة، عن أبي هُريرة قال: قالَ رسولُ الله ـ ﷺ ـ: «في الجنةِ شجرةٌ يسيرُ الراكب في ظِلِّها مائة سنة، اقرأوا إن شئتم: ﴿ وظل ممدود ﴾». أخرجاه في الصحيحَين[1].

وقال أحمد أيضاً: حدثنا محمد بن جعفر وحجَّاج قالا: حدثنا شعبةُ، سَمِعتُ أبا الضحَّاك يُحدِّث عن أبي هُرَيرة، عن النبي ـ ﷺ ـ أنه قال: «إن في الجنةِ شجرةً يسير الركبُ في ظِلِّها سبعينَ ـ أو: مائةَ سنةٍ ـ هي شجرة الخُلد»[2].

وقال محمدُ بن إسحاق، عن يحيى بن عباد بن عبد الله بن الزُّبير، عن أبيه، عن أسماءِ بنت أبي بكر ـ رضي الله عنها ـ قالت: سَمِعتُ رسولَ الله ـ ﷺ ـ وذكر سِدْرَة المنتهى، قال: «يسيرُ في ظل الفَنَن منها الراكبُ مائةَ سنة، أو قال: يستظِلُّ في الفَنَنِ منها مائةُ راكب، فيها فِراش الذهب، كأن ثَمرها القِلال». رواه الترمذي[3].

وقال إسماعيل بن عَيَّاش، عن سعيد بن يوسف، عن يحيى بن أبي كثير، عن أبي سلام الأسود قال: سَمِعتُ أبا أمامةَ الباهِليَّ قال: قال رسولُ الله ـ ﷺ ـ: «ما منكم من أحد يدخلُ الجَنَّة إلا انطُلِقَ به إلى طُوبى، فَتفتحُ له أكمامها، فيأخذ من أيِّ ذلك شاء، إن شاءَ أبيضَ، وإن شاء أحمَرَ، وإن شاء أصفَرَ، وإن شاء أسودَ، مثلَ شقائِقِ النعمان وأرقَّ وأحسَن»[4].

وقال الإمام أبو جعفر بنَ جرير: حدثنا محمدُ بن عبد الأعلى، حدثنا محمد بن ثَورٍ، عن معمر، عن أشعثَ بن عبد الله، عن شهر بنَ حوشب، عن أبي هُرَيرة ـ رضي الله عنه ـ قال: طُوبى شجرةٌ في الجَنَّةِ، يقول الله لها: «تَفَتَّقِي لعبدِي عَمَّا شاء؛ فَتَفَتَّقُ له عن الخيل بِسُرُوجِها ولُجُمها، وعن الإبل بِأَزِمَّتِها، وعَمَّا شاء من الكِسوَة»[5].

وقد رَوَى ابنُ جرير، عن وهب بن مُنَبِّه هاهنا أثراً غريباً عجيباً، قال وهب ـ رحمه الله ـ: إن في الجنَّة شجرةً يقال لها «طُوبى»، يسير الراكبُ في ظِلِّها مائة عام، لا يقطعها، زهرُها رِياطٌ[6]، وورَقُها بُرود، وقُضبانها عَنبَرٌ، وبطحاؤها ياقوتٌ، وتُرابها كافورٌ، ووَحلها مِسكٌ، يخرجُ من أصلها أنهارُ الخمرِ واللبنِ والعسلِ، وهي مجلِسٌ لأهل الجنَّةِ، فبيناهُم في مجلسِهم إذ أتتهم ملائكةٌ من ربِّهم يَقُودون نُجُباً مزمومةً بسلاسِلَ من ذهبٍ، وجوهُها كالمصابيح حُسناً، ووبَرُها كَخزِّ المِرْعِزِّي[7] من لينه، عليها رِحالٌ ألواحها من ياقوتٍ، ودفوفها من ذهبٍ، وثيابها من سندسٍ وإستبرقٍ، فَيُنِيخُونها ويقولون: «إنَّ ربَّنا أرسلنا إليكم لِتَزُورُوه وتُسَلِّموا عليه». قال: فيركَبُونها، فهي أسرعُ من الطائر، وأوطأ من الفِراش، نُجُباً من غير مِهْنَةٍ[8]، يسيرُ الرجل إلى جَنْبِ أخيه وهو يُكلِّمه ويُناجيه، لا تُصِيب أذنُ راحلة منها أذنَ الأخرى، ولا بَرْكُ[9] راحلةٍ بَرْكَ الأخرى، حتى إنَّ الشجرةَ لَتَتَنحَّى

(١) مسند الإمام أحمد ٢/٤٨٢، وفتح الباري، كتاب بدء الخلق ٦/٣١٩ ـ ٣٢٠. ولم يقع لنا في مسلم، وانظر تفسير الآية ٣٠ من سورة الواقعة من هذا التفسير، وتحفة الأشراف للمزّي ١٠/١٤٩.

(٢) مسند أحمد ٢/٤٥٥.

(٣) عارضة الأحوذي، أبواب صفة الجنة ١٠/١٢ والقِلَالُ: جمعُ قُلَّةٍ، وهي إناءٌ للشُّربِ، كالجرَّة الكبيرة.

(٤) أخرجه ابن بي شية في صفة الجنة، وابن أبي حاتم. الدر المنثور ٤/٦٤٤.

(٥) تفسير الطبري ١٣/١٤٧.

(٦) الرياط: جمع رَيْطَةٍ، وهو: كل ثوبٍ لَيِّنٍ رقيقٍ. والبُرود: جمعُ بُرْدٍ، وهو: كساءٌ مُخَطَّط يُلتَحفُ به.

(٧) المِرْعِزِّي: الزغب الذي تحت شعر العَنْز.

(٨) يقال: مَهَن الرَّجل يَمْهَن مَهْناً ومَهْنَةً ـ بفتح الميم وكسرها ـ: عمل في صنعته.

(٩) البَرْكُ: الصدر.

عن طريقهم، لئلاّ تُفرّق بين الرجل وأخيه، قال: فيأتونَ إلى الرحمن الرحيم فَيُسفِر لهم عن وجهه الكريم حتى ينظُروا إليه، فإذا رأوه قالوا: «اللهمَّ، أنت السلامُ ومنك السلامُ، وحقٌّ لك الجلال والإكرام». قال: فيقول تعالى عند ذلك: «أنا السلامُ ومنّي السلامُ، وعليكم حَقَّت رحمتي ومحبّتي، مرحباً بعبادي الذين خَشُوني بغيبٍ وأطاعُوا أمري». قال: فيقولون: «ربَّنا، لم نعبدك حقَّ عبادتك، ولم نَقدُرك حق قَدرك، فأذن لنا في السجودِ قُدَّامك». قال: فيقول الله: «إنها ليست بدار نَصَبٍ ولا عبادة، ولكنها دارُ مُلْك ونَعيم، وإنّي قد رفعتُ عنكم نَصَبَ العبادة، فَسَلُوني ما شئتم، فإنَّ لكل رجُلٍ منكم أُمنيّته». فيسألونه، حتى إنَّ أقصَرهم أُمْنِيَّةً ليقولُ: «ربِّ، تَنافس أهلُ الدنيا في دنياهم فَتضايقوا فيها، ربِّ فآتِني مثلَ كلِّ شيءٍ كانوا فيه من يوم خلقتها إلى أن انتهتِ الدنيا». فيقول الله تعالى: «لقـد قَصرت بك أمنيَّتُك، ولقد سألت دُون منزلتك، هذا لك منّي، [وسأُتحِفُك بمنزلتي]، لأنه ليس في عطائي نَكَدٌ ولا تَصريـدٌ»[(١)]. قال: ثم يقول: «اعرِضُـوا على عبادي ما لم يبلغ أمانيهم، ولم يخطُر لهم على بال». قال: فَيعرِضُون عليهم حتى تَقْصُرَ بهم أمانيهم التي في أنفسهم، فيكون فيما يعرضون عليهم براذين مُقرَّنة، على كل أربعة منها سرير من ياقوتةٍ واحدةٍ، على كل سريرٍ منها قُبّةٌ من ذهبٍ مُفْرَغةٍ، في كل قُبّةٍ منها فُرش من فُرش الجنة مُتظاهرة، في كل قُبّة منها جاريتان من الحُور العين، على كلِّ جارية منهن ثوبان من ثيابِ الجنةِ، وليس في الجنة لون إلا وهو فيهما، ولا ريحٌ لهيبة إلا قد عَبِقَتَا به، ينفذ ضوءُ وجُوهِهما غِلَظَ القبة، حتى يظنُّ من يراهُما أنهما دُون القبَّة، يرى مُخُّهما من فوق سوقهما، كالسِّلك الأبيض في ياقوتةٍ حَمراء، يريان له من الفضل على صاحبته كَفَضلِ الشمس على الحجارة أو أفضلَ، ويَرَى هو لهما مثل ذلك، ويدخلُ إليهما فَيُحيِّيانه ويُقبِّلانه ويَعتنِقانـه، ويقـولان له: «والله ما ظَنَنَّا أن الله يخلُق مثلك». ثم يأمر الله تعالى الملائكةَ فَيسِيرُون بهم صَفّاً في الجنة، حتى ينتهي بِكُلِّ رجلٍ منهم إلى مَنْزلته التي أُعِدَّت له[(٢)].

وقد رَوى هذا الأثر ابنُ أبي حاتم بسنده، عن وهب بن مُنَبِّه، وزاد: فانظُروا إلى موهوبِ رَبِّكم الذي وَهَب لكم، فإذا هو بِقِباب في الرفيق الأعلى، وغُرَف مَبنِيَّة من الدرِّ والمَرْجانِ، وأبوابُها من ذهب، وسُرُرها من ياقوتٍ، وفُرُشها من سندُسٍ وإستبرقٍ، ومنابرُها من نور، يَفُور من أبوابها وعِراضها نورٌ مثلُ شعاعِ الشمس، عنده مثل الكوكب الدرِّي في النهارِ المضيءِ، وإذا بِقُصُورٍ شامخةٍ في أعلى عِلِّيِّينَ من الياقوتِ يَزْهرُ نورُها، فلولا أنه مُسخّر إذاً لالتمعَ[(٣)] الأبصارَ، فما كان من تلك القصور من الياقوت الأبيضِ، فهو مفروشٌ بالحرير الأبيض، وما كان فيها من الياقوت الأحمر فهو مفروش بالعبقري الأحمرِ، وما كان فيها من الياقوت الأخضر، فهو مفروش بالسندس الأخضر، وما كان فيها من الياقوت الأصفر، فهو مفروش بالأرجوان الأصفر. مُبَوَّبَةٌ[(٤)] بالزُّمرُدِ الأخضر، والذهب الأحمر، والفضّةِ البيضاء، قوائمُها وأركانُها من الجوهر، وشُرُفُها قِبابٌ من لؤلؤ، وبروجُها غُرَف من المَرْجانِ. فلما انصرفوا إلى ما أعطاهم ربُّهم قُرِّبت لهم بَرَاذِين من ياقوتٍ أبيضَ، منفُوخ فيها الروح، تَجنُبُها الوِلدانُ المُخلّدون، بيدِ كلِّ وليدٍ منهم حَكَمَة[(٥)] بِرذَونٍ من تلك البَرَاذين، ولُجُمها وأعنتها من فِضّةٍ بيضاء، منظومةٍ بالدرِّ والياقوت، سُرُوجُها سُرُر موضونة[(٦)]، مفروشةٌ بالسندُسِ والإستبرق. فانطلقت بهم

(١) التصريد: تقليل العطاء.
(٢) تفسير الطبري ١٣/١٤٨ ـ ١٤٩.
(٣) أي: اختلسها.
(٤) في الأصل: منزه. والمثبت عن الدر المنثور، يريد أن هذه القصور لها أبواب من الزمرد.
(٥) الحكمة: ما أحاط بحنكي الفرس من لجامه.
(٦) أي: منسوجة بالدرِّ والجوهر، بعضها مُداخَلٌ في بعض.

تلك البراذينُ تَزِفُّ[١] بهم ببطن رياضِ الجنَّةِ. فلما انتهَوا إلى منازلهم وجدُوا الملائكة قُعُوداً على منابر من نور، ينتظرونهم ليزورُوهم ويُصافِحُونهم ويهنئوهم كرامَةَ ربهم. فلما دخلوا قُصُورَهم وجدُوا فيها جميع ما تَطاولَ[٢] به عليهم ربُّهم وما سألوا وتَمنَّوا، وإذا على باب كل قصر من تلك القصور أربعة جنان، جَنَّتَان ذواتا أفنان، وجنتان مُدْهامتان، وفيهما عينان نَضَّاختان، وفيهما من كلِّ فاكهة زوجانِ، وحورٌ مقصوراتٌ في الخيام، فلما تَبَيَّنوا منازلهم واستقروا قرارَهم قال لهم ربهم: هل وجدتم ما وعدتكم حقاً؟ قالوا: نعم، وربِّنا. قال: هل رَضِيتُم ثوابَ ربكم؟ قالوا: رَبَّنا، رَضِينا فارضَ عنا. قال: برضاي عنكم حَلَلتم داري، ونظرتُم إلى وجهي، وصافحتكم ملائكتي، فَهَنِيئاً هَنِيئاً لكم، ﴿ عطاءً غير مجذُوذٍ ﴾، ليس فيه تنغيصٌ ولا تَصْرِيدٌ. فعند ذلك قالوا: الحمدُ لله الـذي أذهبَ عنا الحزن، وأدخلنا دارَ المقامة من فضله، لا يمسنا فيها نَصَبٌ ولا يمسنا فيها لغوبٌ، إن ربنا لغفورٌ شكورٌ[٣].

وهذا سياق غريب، وأثر عجيبٌ ولبعضه شواهدُ، ففي الصحيحين: أن الله تعالى يقول لذلك الرجل الذي يكون آخرَ أهل الجنة دُخولاً الجنةَ: «تَمنَّ». فيَتمنَّى، حتى إذا انتهَتْ به الأمانيُّ يقول الله تعالى: «تمنَّ مِن كذا، وتَمنَّ من كذا»، يُذَكِّره، ثم يقول: «ذلك لك، وعشرةُ أمثاله»[٤].

وفي صحيح مسلم، عن أبي ذَرٍّ، عن رسول الله ـ ﷺ ـ عن الله ـ عزَّ وجلَّ ـ: «يا عبادي، لو أن أوَّلكم وآخركم، وإنسكم وجنَّكم، قامُوا في صعيد واحد فسألوني، فأعطيتُ كُلَّ إنسانٍ مَسْألته، ما نَقَص ذلك من ملكي شيئاً إلا كما ينقص المِخْيَطُ إذا أدخل في البحرِ»[٥]... الحديث بطُوله.

وقال خالدُ بنُ مَعْدانَ: إنَّ في الجنة شجرةً يقال لها طُوبى، لها ضروعٌ، كُلُّها تُرضِع صبيانَ أهل الجنة، وَإِنَّ سَقَطَ المرأة يكونُ في نهر من أنهار الجنةِ، يُتقلَّب فيه حتى تقوم القيامة، فيُبعثُ ابنَ أربعين سنة. رواه ابن أبي حاتم[٦].

﴿ كَذَٰلِكَ أَرْسَلْنَٰكَ فِىٓ أُمَّةٍ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِهَآ أُمَمٌ لِّتَتْلُوَا۟ عَلَيْهِمُ ٱلَّذِىٓ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ وَهُمْ يَكْفُرُونَ بِٱلرَّحْمَٰنِ قُلْ هُوَ رَبِّى لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَإِلَيْهِ مَتَابِ ﴿٣٠﴾ ﴾

يقولُ تعالى: وكما أرسلناك ـ يا محمدُ ـ في هذه الأمَّةِ ﴿لِتتلُوَا عليهم الذي أوحينا إليك﴾، أي: تُبلِّغهم رسالةَ الله إليهم، كذلك أرسلنا في الأمم الماضية الكافرةِ بالله، وقد كُذِّب الرسلُ من قَبلك، فلك فيهم أسوةٌ، وكما أوقعنا بأسنا ونقمَتنا بأولئك، فَلْيحذَرْ هؤلاء من حُلول النِّقَم بهم، فإنَّ تَكذِيبهم لك أشدُّ من تَكذِيب غيرك من المرسلين، قال الله تعالى: ﴿ تالله لقد أَرْسَلنا إلى أُمَمٍ من قبلك فزيَّن لهم الشيطانُ أعمالهم فهو وَلِيُّهم اليوم ولَهُم عذابٌ أليم ﴾. وقال تعالى: ﴿ ولقد كُذِّبت رُسُلٌ من قبلك فَصَبرُوا على ما كُذِّبوا وأُوذُوا حتى أتاهم نَصرُنا ولا مُبَدِّل لكلماتِ الله ولقد جاءك من نَبَإِ المُرسَلين ﴾، أي: كيفَ نصرناهم، وجعلنا العاقبةَ لهم ولأتباعهم في الدنيا والآخرة.

---

(١) أي: تُسرِعُ بهم.
(٢) أي: تفضل به.
(٣) الدر المنثور ٤/٦٤٧ ـ ٦٤٩.
(٤) فتح الباري، كتاب الرقاق ١١/٤٤٤ ـ ٤٤٦، ومسلم، كتاب الإيمان ١/١٦٦.
(٥) مسلم، كتاب البر ٤/١٩٩٤ ـ ١٩٩٥.
(٦) وأخرجه ابن أبي الدنيا أيضاً في العَزاء، انظر الدر المنثور ٤/٦٤٥.

وقولُه: ﴿ وهم يكفُرون بالرَّحمن ﴾، أي: هذه الأمةُ التي بعثناك فيهم يَكفُرون بالرحمن لا يُقِرُّون به لأنهم كانوا يأنَفُون من وصف الله بالرحمن الرحيم، ولهذا أَنِفُوا يومِ الحديبية أن يكتبوا «بسم الله الرحمن الرحيم»، وقالوا: ما ندري ما الرحمنُ الرحيم؟! قاله قتادة. والحديثُ في صحيح البخاريِّ[1]، وقد قال الله تعالى: ﴿قل ادعُوا الله أو ادعوا الرحمن أيًّا مَّا تدعُوا فله الأسماء الحُسنَى﴾، وفي صحيح مسلم عن عبد الله بن عُمَر قال: قال رسولُ الله ـ ﷺ ـ: «إنَّ أحبَّ الأسماء إلى الله عبد الله وعبد الرحمن»[2].

﴿ قل هُو ربِّي لا إلَه إلا هُو ﴾، أي: هذا الذي تَكفُرون به أنا مؤمنٌ به مُعترِفٌ مقرٌّ له بالربُوبية والإلَهية هو ربِّي لا إلَه إلا هو، ﴿ عليه توكلتُ ﴾، أي: في جَميع أموري، ﴿ وإليه مَتابِ ﴾، أي: إليه أرجع وأُنيب، فإنه لا يستحقُّ ذلك أحدٌ سواه.

﴿ وَلَوْ أَنَّ قُرْءَانًا سُيِّرَتْ بِهِ ٱلْجِبَالُ أَوْ قُطِّعَتْ بِهِ ٱلْأَرْضُ أَوْ كُلِّمَ بِهِ ٱلْمَوْتَىٰ بَل لِّلَّهِ ٱلْأَمْرُ جَمِيعًا أَفَلَمْ يَا۟يْـَٔسِ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ أَن لَّوْ يَشَآءُ ٱللَّهُ لَهَدَى ٱلنَّاسَ جَمِيعًا وَلَا يَزَالُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ تُصِيبُهُم بِمَا صَنَعُوا۟ قَارِعَةٌ أَوْ تَحُلُّ قَرِيبًا مِّن دَارِهِمْ حَتَّىٰ يَأْتِىَ وَعْدُ ٱللَّهِ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُخْلِفُ ٱلْمِيعَادَ (٣١) ﴾

يقولُ تعالى مادحاً للقرآن الذي أنزله على محمد ـ ﷺ ـ ومُفَضِّلاً له على سائر الكتب المنزلة قبله: ﴿ ولو أنَّ قرآناً سُيِّرت به الجبالُ ﴾، أي: لو كان في الكتبِ الماضيةِ كتابٌ تُسَيَّرُ به الجبالُ عن أماكنها، أو تُقَطَّع به الأرضُ وتنشقُّ، أو تُكلَّم به الموتى في قبورها، لكان هذا القرآنُ هو المتَّصِفَ بذلك دُون غيره، أو بطَريقِ الأولى أن يكون كذلك، لما فيه من الإعجازِ الذي لا يَستطِيع الإنسُ والجنُّ عن آخرهم إذا اجتمَعُوا أن يأتوا بمثلِه، ولا بسورةٍ من مثله، ومع هذا فهؤلاء المشركون كَافِرُون به جَاحِدُون له، ﴿ بل لله الأمرُ جميعاً ﴾، أي: مرجعُ الأمورِ كُلِّها إلى الله ـ عزَّ وجلَّ ـ ما شاء الله كانَ، وما لم يَشأ لم يكن، ومن يُضلِل فلا هاديَ له، ومن يَهدِ الله فلا مُضلَّ له.

وقد يُطلَق اسمُ القرآنِ على كلٍّ من الكتب المتقدمة، لأنه مشتق من الجميع. قال الإمام أحمد:

حدثنا عبد الرزَّاق، حدثنا معمَرٌ، عن همام بن مُنبِّه قال: هذا ما حَدَّثنا أبو هُرَيرة قال: قال رسول الله ـ ﷺ ـ: «خُفِّفَت على داودَ القراءةُ فكان يأمرُ بدابَّته أن تُسرَجَ، فكان يقرأ القرآن من قبل أن تُسرَج دابته، وكان لا يأكل إلا من عَمل يديه»[3]. انفرد بإخراجه البخاري[3]. والمرادُ بالقران هنا الزَّبُور.

وقولُه: ﴿ أفلم ييأس الذين آمنوا ﴾، أي: من إيمانِ جَميعِ الخلق ويعلَموا أو يتبيَّنُوا ﴿ أن لو يشاءُ الله لهَدَى الناسَ جَمِيعاً ﴾، فإنه ليس ثَمَّ حجةٌ ولا مُعجزَةٌ أبلغ ولا أنجع في النفوس والعقول من هذا القرآن، الذي لو أنزله الله على جَبَل لرأيته خاشعاً مُتصَدِّعاً من خشْيَةِ الله، وثبَت في الصَّحيح أنَّ رسولَ الله ـ ﷺ ـ قال: «ما من نبيٍّ إلا وقد أوتي ما آمَن على مثله البشرُ، وإنما كان الذي أُوتيتُه وحياً أوحاه الله إليَّ، فأرجُو أن أكُون أكثَرهم

(١) فتح الباري، كتاب الشروط ٥/٣٣١.
(٢) مسلم، كتاب الآداب ٣/١٦٨٢.
(٣) مسند أحمد ٢/٣١٤، وفتح الباري، كتاب الأنبياء ٦/٤٥٣.

تابعاً يوم القيامة»[١]. معناه أن مُعجِزَةَ كُلِّ نبيٍّ انقرضت بموته، وهذا القرآن حُجَّةٌ باقية على الآباد، لا تنقضي عجائبهُ، ولا يَخْلَقُ عن كثرة الردِّ، ولا يشبَعُ منه العلماءُ، هو الفصلُ ليس بالهَزْل. من تَرَكه من جَبَّار قَصمه الله، ومن ابتغَى الهُدَى في غيرِه أَضَلَّه الله.

وقال ابنُ أبي حاتم: حدثنا أبو زُرعَةَ، حدثنا مُنجاب بن الحارثِ، أنبأنا بشر بن عُمَارة، حدثنا عُمر بن حَسَّان، عن عطيَّةَ العَوْفيِّ قال: قلتُ له: ﴿ ولو أن قرآنا سُيِّرت به الجبالُ ﴾ . . . الآية، قالوا لمحمد ـ ﷺ ـ: لو سُيِّرت لنا جبالُ مكة حتى تَتَّسِع فَنحرُثَ فيها، أو قُطِّعت لنا الأرض كما كان سُلَيمان يقطَع لقومه بالرِّيح، أو أُحييت لنا الموتى كما كان عيسى يُحيي الموتَى لِقومه؟ فأنزلَ الله هذه الآيةَ. قال قلت: هل تَرَوْون هذا الحديثَ عن أحد من أصحاب النبيِّ ﷺ؟ قال: نعم، عن أبي سعيد، عن النبي ﷺ.

وكذا رَوَى ابن عباس، والشعبيُّ، وقتادةُ، والثوريُّ، وغير واحد في سببِ نُزُولِ هذه الآية، فالله أعلم. وقال قتادةُ: لو فُعِلَ هذا بقرآنٍ غير قرآنِكم فُعِلَ بقرآنكم[٢].

وقولُه: ﴿ بل لله الأمرُ جَميعاً ﴾، قال ابن عباس: لا يصنَعُ من ذلك إلا ما يَشَاءُ، ولم يكُن لِيفعَلَ. رواه ابن إسحاق بسنده عنه، وقاله ابنُ جَرِيرٍ أيضاً.

وقال غيرُ واحد من السَّلَفِ في قوله: ﴿ أفلم ييأس الذين آمنُوا ﴾، أَفَلم يعلمِ الذين آمنُوا. وقرأ آخرون: «أفلم يَتَبيَّن الذين آمَنُوا أن لو يشاءُ الله لهدَى الناسَ جميعاً»[٣].

وقال أبو العالية: قد يَئِسَ الذين آمنوا أن يَهدُوا، ولو يشاءُ الله لهدَى الناسَ جميعاً.

وقولُه: ﴿ ولا يزالُ الذين كفروا تُصِيبهم بما صَنَعُوا قارعةٌ أو تحلُّ قريباً من دارهم ﴾، أي: بسبب تَكْذِيبهم لا تَزَالُ القوارِعُ تُصِيبهم في الدنيا، أو تُصِيب مَن حولهم ليتَّعِظُوا ويعتبروا، كما قال تعالى: ﴿ ولقد أهلكنا ما حَولَكُم من القُرَى وصَرَّفنا الآياتِ لَعلَّهم يرجعون ﴾، وقال: ﴿ أفلا يرون أنا نأتي الأرضَ ننقصُها من أطرافها أفهم الغالبون ﴾.

قال قتادةُ، عن الحسن: ﴿ أو تحلُّ قَرِيباً من دارهم ﴾، أي: القارعة. وهذا هو الظاهر من السياق.

وقال أبو داود الطيالسي: حدثنا المسعوديُّ، عن قتادةَ، عن سعيد بن جُبير، عن ابن عباس في قوله: ﴿ ولا يزالُ الذين كفروا تُصِيبهم بما صَنَعُوا قارعةٌ ﴾، قال: سَرِيَّةٌ، ﴿ أو تَحُلُّ قريباً من دارهم ﴾، قال: محمد ﷺ، ﴿ حتى يأتي وعدُ الله ﴾، قال: فتحُ مكة[٤].

وهكذا قال عكرمة، وسعيد بن جُبَير، ومجاهد، في رواية.

وقال العوفيُّ، عن ابن عباس: ﴿ تُصِيبهم بما صنعوا قارعة ﴾، قال: عذابٌ من السماء ينزِلُ عليهم، ﴿أو تَحلَّ قريباً من دَارِهم﴾، يعني نزولَ رسول الله ـ ﷺ ـ بهم، وقتالَه إيَّاهم. وكذا قال مجاهد، وقتادةُ.

وقال عكرمة ـ في رواية عنه ـ عن ابن عباس: ﴿قارعةٌ﴾، أي: نَكْبَةٌ. وكلُّهم قال: ﴿حتى يأتي وعدُ الله﴾، يعني فتحَ مكة. وقال الحسن البصري: يومَ القيامة.

---

(١) أخرجه الشيخان، وقد تقدّم أول التفسير في كتاب فضائل القرآن.
(٢) تفسير الطبري ١٥٢/١٣.
(٣) هي قراءة تنسب إلى ابن عباس وغير واحد، انظر روح المعاني ١٥٦/١٣.
(٤) رواه الطبري في تفسيره ١٥٦/١٣.

وقولُه: ﴿ إن الله لا يُخلِفُ الميعادَ ﴾ أي: لا ينقضُ وعدَه لِرُسلِه بالنُّصرة لهم ولأتباعهم في الدُّنيا والآخرة، ﴿ فلا تَحسَبنَّ الله مُخلِفَ وَعْدِه رُسُلَه إن الله عزيزٌ ذُو انتقام ﴾.

﴿ وَلَقَدِ ٱسْتُهْزِئَ بِرُسُلٍ مِّن قَبْلِكَ فَأَمْلَيْتُ لِلَّذِينَ كَفَرُوا۟ ثُمَّ أَخَذْتُهُمْ ۖ فَكَيْفَ كَانَ عِقَابِ ﴿٣٢﴾ ﴾

يقولُ تعالى مُسلياً لرسوله ـ ﷺ ـ في تكذيب من كَذَّبه من قومه: ﴿ ولقد اسْتُهزِئَ برُسُلٍ من قبلك ﴾، أي: فَلَك فيهم أسوةٌ، ﴿ فأمليتُ للذين كَفَروا ﴾، أي: أنظرتهم وأجَّلتهم، ﴿ ثم أخذتهم ﴾ أخذةً رابيةً، فكيف بلغك ما صنعتُ بهم وعاقبتهم؟ كما قال تعالى: ﴿ وكَأَيِّن من قريةٍ أمليتُ لها وهي ظالمةٌ ثم أخذتُها وإليَّ المصيرُ ﴾، وفي الصَّحيحَين: «إن الله لَيُمْلِي للظالم حتى إذا أخذَه لم يُفْلِته»، ثم قرأ رسول الله ـ ﷺ ـ: ﴿ وكذلك أخذُ رَبِّك إذا أخذَ القُرى وهي ظالمةٌ إن أخذَه أليمٌ شَدِيدٌ ﴾[1].

﴿ أَفَمَنْ هُوَ قَآئِمٌ عَلَىٰ كُلِّ نَفْسٍۭ بِمَا كَسَبَتْ ۗ وَجَعَلُوا۟ لِلَّهِ شُرَكَآءَ قُلْ سَمُّوهُمْ ۚ أَمْ تُنَبِّـُٔونَهُۥ بِمَا لَا يَعْلَمُ فِى ٱلْأَرْضِ أَم بِظَٰهِرٍ مِّنَ ٱلْقَوْلِ ۗ بَلْ زُيِّنَ لِلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مَكْرُهُمْ وَصُدُّوا۟ عَنِ ٱلسَّبِيلِ ۗ وَمَن يُضْلِلِ ٱللَّهُ فَمَا لَهُۥ مِنْ هَادٍ ﴿٣٣﴾ ﴾

يقول تعالى: ﴿ أفمن هُو قائمٌ على كُلِّ نفسٍ بما كَسَبَت ﴾، أي: حفيظٌ عليمٌ رقيبٌ على كلِّ نفس منفوسة، يعلم ما يعمل العامِلُون من خير وشرٍّ، ولا يخفى عليه خافيةٌ، ﴿ وما تكونُ في شأنٍ وما تتلُو منه من قرآنٍ ولا تعمَلُون من عَمَلٍ إلا كُنَّا عليكم شُهُوداً إذ تُفِيضُون فيه ﴾، وقال تعالى: ﴿ وما تسقط من وَرَقةٍ إلا يعلَمُها ﴾، وقال: ﴿ وما من دابَّةٍ في الأرضِ إلا على الله رزقُها ويعلَمُ مُستقرَّها ومُستودَعُها كُلٌّ في كتابٍ مبين ﴾، وقال: ﴿ سواءٌ منكم من أَسَرَّ القولَ ومن جَهَر به ومن هُو مُستَخفٍ باللَّيل وساربٌ بالنهار ﴾، وقال: ﴿ يعلم السرَّ وأخفَى ﴾، وقال: ﴿ وهو معكم أين ما كُنتم والله بما تعمَلُون بَصِيرٌ ﴾... أفمن هو هكذا كالأصنامِ التي يَعبُدونها، لا تسمع ولا تُبصِرُ ولا تَعقِل، ولا تملِكُ نفعاً لأنفسِها ولا لِعَابِدِيها، ولا كَشْفَ ضُرٍّ عنها ولا عن عابديها؟ وحذف هذا الجواب اكتفاء بدلالة السياق عليه، وهو قوله: ﴿ وجَعَلُوا لله شركاء ﴾، أي: عَبَدُوها معه، من أصنام وأندادٍ وأوثانٍ.

﴿ قل سَمُّوهم ﴾، أي: أَعلِمُونا بهم، واكشِفُوا عنهم حتى يُعرَفُوا، فإنهم لا حقيقةَ لهم، ولهذا قال: ﴿ أم تُنَبِّئونه بما لا يعلَم في الأرض ﴾، أي: لا وجود له، لأنه لو كان له وجودٌ في الأرضِ لَعَلِمَه، لأنه لا تخفَى عليه خافيةٌ. ﴿ أم بظاهِرٍ من القول ﴾، قال مجاهد: بظَنٍّ من القول. وقال الضحاك وقتادة: بباطلٍ من القول.

أي: إنما عبدتُم هذه الأصنامَ بِظَنٍّ منكم أنها تنفَعُ وتَضُرُّ، وَسَمَّيتُموها آلهةً، ﴿ إن هي إلا أسماءٌ سَمَّيتُموها أنتم وآباؤكم ما أنزل الله بها من سلطانٍ إن يَتَّبِعُون إلا الظَّنَّ وما تَهوى الأنفسُ ولقد جاءَهم من ربِّهم الهُدَى ﴾.

﴿ بل زُيِّن للذين كفروا مكرُهم ﴾، قال مجاهدٌ: قولهم. أي: ما هم عليه من الضلال والدعوة إليه آناء الليل وأطراف النهار، كما قال تعالى: ﴿ وقَيَّضنا لهم قُرَناء فَزَيَّنُوا لهم ما بين أيدِيهم وما خَلْفَهم وَحَقَّ عليهم القولُ في أُمَمٍ قد خَلَت من قبلهم من الجِنِّ والإنسِ إنَّهم كانُوا خَاسِرِين ﴾.

(١) تقدم الحديث عند تفسير الآية ٢٠ من سورة هود، وخرجناه هناك.

﴿ وَصَدُّوا عن السبيل ﴾، مَن[1] قرأها بفتح الصاد، معناه أنهم لما زُيِّن لهم ما فيه وأنه حَقٌّ دَعَوا إليه وصَدُّوا الناسَ عن اتباع طريق الرسل، ومن قرأها: ﴿ وصُدُّوا ﴾، أي: بما زُيِّن لهم من صحَّة ما هم عليه صُدُّوا به عن سبيلِ الله، ولهذا قال: ﴿ ومن يُضلِلِ الله فما له من هَادٍ ﴾، كما قال: ﴿ ومن يُرِدِ الله فِتنَته فلن تَملِكَ له مِنَ الله شيئاً ﴾ وقال: ﴿ إن تحرِص على هُداهم فإن الله لا يَهدِي من يُضِلُّ وما لهم من نَاصِرِين ﴾.

﴿ لَّهُمْ عَذَابٌ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا ۖ وَلَعَذَابُ ٱلْـَٔاخِرَةِ أَشَقُّ ۖ وَمَا لَهُم مِّنَ ٱللَّهِ مِن وَاقٍ ﴿٣٤﴾ ۞ مَّثَلُ ٱلْجَنَّةِ ٱلَّتِى وُعِدَ ٱلْمُتَّقُونَ ۖ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ ۖ أُكُلُهَا دَآئِمٌ وَظِلُّهَا ۚ تِلْكَ عُقْبَى ٱلَّذِينَ ٱتَّقَوا۟ ۖ وَّعُقْبَى ٱلْكَٰفِرِينَ ٱلنَّارُ ﴿٣٥﴾ ﴾

ذَكَر تعالى عقابَ الكُفَّار وثوابَ الأبرار، فقال بعد إخباره عن حالِ المشركين وما هُم عليه من الكُفر والشِّرك: ﴿ لهم عذابٌ في الحياةِ الدُّنيا ﴾، أي: بأيدي المؤمنين قتلاً وأسراً، ﴿ ولَعَذابُ الآخرةِ ﴾، أي: المدَّخَرُ مع هذا الخِزي في الدنيا ﴿ أشقُّ ﴾، أي: من هذا بكثير كما قال رسول الله ـ ﷺ ـ للمُتَلاعنَين: «إنَّ عذاب الدنيا أهونُ من عذاب الآخرة»[2]. وهو كما قال ـ صلواتُ الله وسلامُه عليه ـ فإنَّ عذابَ الدنيا له انقضاء، وذاك دائم أبداً في نارٍ هي بالنسبة إلى هذه سبعون ضعفاً ووَثاقٍ لا يُتَصوَّر كثافته وشدَّتُه، كما قال تعالى: ﴿ فيومئذٍ لا يُعذِّب عذابَه أحد * ولا يُوثِقُ وَثَاقه أحد ﴾، وقال تعالى: ﴿ وأعتدنا لمن كذَّب بالساعةِ سَعِيراً * إذا رأتهم من مكانٍ بعيد سَمِعُوا لها تَغَيُّظاً وزَفِيراً * وإذا أُلقوا منها مكاناً ضَيِّقاً مُقَرَّنين دَعَوا هنالك ثُبوراً * لا تدعُوا اليومَ ثُبوراً واحداً وادعُوا ثُبوراً كَثيراً * قل أذلك خيرٌ أم جنةُ الخُلدِ التي وُعِد المُتَّقونَ كانت لهم جَزاءً ومَصِيراً ﴾. ولهذا قَرَن هذا بهذا، فقال: ﴿ مثلُ الجنةِ التي وُعِد المتَّقون ﴾، أي: صِفَتُها ونَعتُها، ﴿ تجري من تحتها الأنهارُ ﴾، أي: سارحةٌ في أرجائها وجوانبها، وحيثُ شاء أهلُها، يُفَجِّرونها تفجيراً، أي: يُصرِّفونها كيف شاءُوا وأين شاءُوا كما قال تعالى: ﴿ مثلُ الجنة التي وُعِد المتقون فيها أنهارٌ من ماء غير آسنٍ وأنهارٌ من لَبَنٍ لم يَتَغيَّر طعمُه وأنهارٌ من خمرٍ لَذَّةٍ للشاربين وأنهارٌ من عَسَلٍ مُصَفًّى ولهم فيها من كلِّ الثَّمراتِ ومغفرةٌ من ربِّهم كَمَن هو خالِدٌ في النار وسُقُوا ماءً حَمِيماً فَقَطَّع أمعاءَهم ﴾.

وقولُه: ﴿ أُكُلها دائمٌ وظِلُّها ﴾، أي: فيها المطاعِمُ والفَوَاكِه والمَشَارِبُ، لا انقطاعَ ولا فناءَ. وفي الصَّحيحَين، من حديث ابن عباس في صلاة الكسوف، وفيه قالوا: يا رسولَ الله، رأيناك تناولتَ شيئاً في مقامِك هذا، ثم رأيناك تَكَعْكَعتَ فقال: «إني رَأيت الجَنَّةَ ـ أو: أُريتُ الجنَّةَ ـ فتناولتُ منها عنقوداً، ولو أخذتُه لأكلتم منه ما بَقِيت الدُّنيا»[3].

وقال الحافظُ أبو يعلَى: حدثنا أبو خَيثمَةَ، حدثنا عبد الله بن جَعفر، حدثنا عُبَيد الله، حدثنا ابنُ عَقِيل، عن جابر قال: بينما نحنُ في صلاة الظهر إذ تَقَدَّم رسولُ الله ـ ﷺ ـ فتقدَّمنا، ثم تناول شيئاً ليأخذَه ثم تأخَّر. فلما قَضَى الصَّلاة قال له أُبَيُّ بن كعب: يا رسولَ الله، صنعتَ اليومَ في الصلاةِ شيئاً ما رأيناكَ كنتَ تصنَعُه. فقال: إني عُرِضَت عَلَيَّ الجنةُ وما فيها من الزَّهْرَةِ والنَّضْرَة، فتناولت منها قِطفاً من عِنَبٍ لآتيكم به، فَحِيلَ بيني وبينه، ولو أتيتكم به لأكلَ منه مَن بين السماء والأرض، لا يَنْقُصُونه».

---

(١) قرأ الكوفيون بضم الصاد، وباقي السبعة بالفتح. انظر الإقناع لابن الباذش ٦٧٦/٢.

(٢) أخرجه مسلم في كتاب الإيمان ١١٣٠/٢ ـ ١١٣١، والترمذي في التفسير، عارضة الأحوذي ٤٤/١٢، والنسائي في كتاب الطلاق ١٧٦/٦، وانظر تحفة الأشراف ٤٢٦/٥.

(٣) فتح الباري، كتاب الأذان ٢٣٢/٢، ومسلم، كتاب الكسوف ٦٢٦/٢. وتَكَعْكَعْتَ: توقفت وأحجمتَ.

وروى مسلم من حديث أبي الزبير، عن جابر، شاهداً لِبَعضِهِ[(١)].

وعن عُتبة بن عَبدِ السُّلَمي: أن أعرابياً سألَ النبيَّ ـ ﷺ ـ عن الجنَّةِ، فقال: فيها عِنَبٌ؟ قال: نعم». قال: فما عِظَمُ العنقود؟ قال: مسيرةُ شهر للغُرَاب الأبقع ولا يفتر». رواه أحمد[(٢)].

وقال الطبراني: حدثنا مُعَاذ بن المثنى، حدثنا علي بن المديني، حدثنا ريحانُ بن سعيد، عن عباد بن منصور، عن أيوبِ، عن أبي قِلَابَةِ، عن أبي أسماءَ، عن ثوبانَ قال: قال رسول الله ـ ﷺ ـ: «إنَّ الرجلَ إذا نَزَع ثمرةً من الجنَّةِ عادت مكانها أخرى»[(٣)].

وعن جابر بن عبد الله قال: قال رسولُ الله ـ ﷺ ـ: «يأكلُ أهلُ الجنة ويشربُون، ولا يمتَخِطُون ولا يَتَغوَّطون ولا يبولون، طعامهم جُشَاء كريح المسك، ويُلهَمُون التسبيح والتَّقدِيسَ كما يُلهَمُون النفسَ». رواه مسلم[(٤)].

وروى الإمامُ أحمد والنسائيُّ، من حديث الأعمش، عن ثُمامة بن عُقبةَ، سَمِعتُ زيدَ بن أرقم قال: جاء رجل من أهل الكتابِ فقال: يا أبا القاسم، تزعُم أنَّ أهل الجنة يأكُلون ويَشرَبُون؟ قال: «نعم، والذي نفسُ محمد بيَدِه، إن الرجل منهم ليعطى قُوَّة مائة رجل في الأكل والشرب والجِمَاع والشهوة. قال: فإن الذي يأكلُ ويشرب تَكون له الحاجة، وليس في الجنة أذىً؟ قال: حاجةُ أحدِهم رَشْحٌ يَفِيض من جلودهم كريح المسك، فَيَضْمَرُ بطنُه»[(٥)].

وقال الحسنُ بن عَرَفَةَ: حدثنا خَلَف بن خَلِيفة، عن حُمَيدٍ الأعرجِ، عن عبد الله بن الحارث، عن عبد الله بن مسعودٍ ـ رضي الله عنه ـ قال: قال لي رسولُ الله ـ ﷺ ـ: «إنك لتنظرُ إلى الطير في الجنة، فَيَخِرُّ بين يديكَ مشويّاً».

وجاء في بعض الأحاديث: أنه إذا فُرِغَ منه عاد طائراً كما كان بإذن الله تعالى[(٦)]. وقد قال تعالى: ﴿ وفاكهةٍ كثيرةٍ * لا مقطوعةٍ ولا ممنوعةٍ ﴾، وقال: ﴿ ودانيةً عليهم ظلالُها وذُلِّلت قُطوفُها تَذْليلاً ﴾. وكذلك ظِلُّها لا يَزُولُ ولا يَقْلِصُ، كما قال تعالى: ﴿ والذين آمنوا وعَمِلوا الصالحاتِ سَنُدخِلُهم جناتٍ تَجري من تحتها الأنهارُ خالدين فيها أبـداً لهم فيها أزواجٌ مُطَهَّـرة ونُدخِلُهم ظلاً ظَليلاً ﴾. وقال تَقَدَّم في الصحيحَينِ من غير وجه أن رسولَ الله ـ ﷺ ـ قال: «إن في الجنَّة شجرةً يسيرُ الراكبُ الجَوَادَ المُضَمَّرَ السريعَ في ظلها مائة عام لا يقطعُها»، ثم قرأ: ﴿ وظِلٍّ ممدودٍ ﴾[(٧)].

وكثيراً ما يقرن الله تعالى بين صِفَةِ الجنة وصِفَة النار، لِيُرغَبَ في الجنة ويُحَذَّر من النار، ولهذا لما ذكر صفةَ الجنة بما ذكر قال بعده: ﴿ تلك عُقبى الذين اتَّقَوا وعُقبَى الكافِرين النارُ ﴾، كما قال تعالى: ﴿ لَا يَسْتَوِي أصحابُ النار وأصحاب الجنة أصحابُ الجنة هم الفائزون ﴾.

---

(١) مسلم، كتاب الكسوف ٢/٦٣٣.
(٢) مسند أحمد ٤/١٨٣ ـ ١٨٤.
(٣) المعجم الكبير ٢/١٠٢.
(٤) مسلم، كتاب الجنة ٤/٢١٨١.
والجُشَاء: تَنَفُّس المعـدةِ من الامتلاء.
(٥) مسند أحمد ٤/٣٦٧، والسنن الكبرى للنسائي، كتاب التفسير، انظر تحفة الأشراف ٣/١٩١.
(٦) انظر الأثر المروي عن كعب، عند تفسير الآية ٢١ من سورة الواقعة، وقد رواه ابن أبي حاتم بإسناده إليه.
(٧) تقدم الحديث عند تفسير الآية ٢٩ من هذه السورة.

وقال بلالُ[١] بنُ سعد خطيبُ دمشق في بعض خطبه: عبادَ الله، هل جاءكم مُخبِرٌ يُخبركم أنَّ شيئاً من عبادتكم تُقُبِّلَت منكم، أو أنَّ شيئاً من خطاياكم غُفِرت لكم؟ ﴿ أفحسبتُم أنما خلقناكم عبثاً وأنكم إلينا لا تُرجَعُون ﴾، والله لوعُجِّلَ لكم الثوابُ في الدنيا لاستقللتُم كُلُّكم ما افتُرِض عليكم، أَوَ ترغبون في طاعة الله لِتَعْجِيل دنياكم[٢]، ولا تنافسون في جنة ﴿ أُكلها دائم وظلها تلك عُقْبَى الذين اتقوا وعُقبى الكافِرين النارُ ﴾. رواه ابن أبي حاتم.

﴿ وَالَّذِينَ ءَاتَيْنَٰهُمُ ٱلْكِتَٰبَ يَفْرَحُونَ بِمَآ أُنزِلَ إِلَيْكَ ۖ وَمِنَ ٱلْأَحْزَابِ مَن يُنكِرُ بَعْضَهُۥ ۚ قُلْ إِنَّمَآ أُمِرْتُ أَنْ أَعْبُدَ ٱللَّهَ وَلَآ أُشْرِكَ بِهِۦٓ ۚ إِلَيْهِ أَدْعُوا۟ وَإِلَيْهِ مَـَٔابِ ﴿٣٦﴾ وَكَذَٰلِكَ أَنزَلْنَٰهُ حُكْمًا عَرَبِيًّا ۚ وَلَئِنِ ٱتَّبَعْتَ أَهْوَآءَهُم بَعْدَمَا جَآءَكَ مِنَ ٱلْعِلْمِ مَا لَكَ مِنَ ٱللَّهِ مِن وَلِىٍّ وَلَا وَاقٍ ﴿٣٧﴾ ﴾

يقولُ تعالى: ﴿ والذين آتيناهُم الكتابَ ﴾، وهم قائِمُون بمقتضاه، ﴿ يَفرحُون بما أُنزِل إليكَ ﴾، أي: من القرآن لما في كُتُبهم من الشَّواهِد على صدقه والبِشارة به، كما قال تعالى: ﴿ الذين آتيناهُم الكتابَ يتلُونه حَقَّ تلاوته أولئك يُؤمِنُون به ومن يكفُر به فأولئك هُم الخاسِرُون ﴾. وقال تعالى: ﴿ قل آمِنُوا به أو لا تُؤمِنُوا إنَّ الذين أُوتُوا العِلْمَ من قبله إذا يُتلَى عليهم يَخِرُّون للأذقان سُجَّداً * ويقولون سبحان ربِّنا إن كان وعدُ ربِّنا لَمَفعولاً ﴾، أي: إنْ كان ما وَعَدَنا الله به في كتبنا من إرسالِ محمدٍ ـ ﷺ ـ لحقّاً وصِدقاً مفعولاً لا محالَة وكائناً، فسبحانه ما أصدقَ وعدَه! فله الحمدُ وحدَه، ﴿ ويَخِرُّون للأذقان يبكُونَ ويَزيدُهم خُشُوعاً ﴾.

وقولُه: ﴿ ومن الأحزابِ من يُنكِرُ بعضَه ﴾، أي: ومن الطَّوائِفِ من يُكَذِّب ببعضِ ما أُنزِلَ إليك.

وقال مجاهدٌ: ﴿ ومِنَ الأحزابِ ﴾: اليهودِ والنَّصارى مَن يُنكِر بعضَ ما جاءك من الحقِّ. وكذا قال قتادةُ، وعبدُ الرحمن بنُ زيدِ بن أسلَمَ.

وهذا كما قال تعالى: ﴿ وَإنَّ من أهل الكتاب لَمَن يُؤمِنُ بالله وما أُنزِلَ إليكم وما أُنزِلَ إليهم خاشِعين لله لا يَشتَرُونَ بآياتِ الله ثمناً قليلاً أولئك لَهم أجرُهم عندَ ربِّهم إن الله سريعُ الحِسَاب ﴾.

﴿ قُل إنما أُمِرتُ أن أعبدَ الله ولا أُشرِكَ به ﴾، أي: إنما بُعِثتُ بعبادةِ الله وحدَه لا شريكَ له كما أُرسِلَ الأنبياءُ من قبلي، ﴿ إليه أدعُو ﴾، أي: إلى سبيله أدعُو الناسَ، ﴿ وإليه مآبِ ﴾، أي: مَرْجِعي ومَصِيري.

وقولُه: ﴿ وكذلك أنزلناه حُكماً عربياً ﴾، أي: وكما أرسلنا قبلَكَ المرسلين، وأنزلنا عليهم الكُتُب من السَّماءِ، كذلك أنزلنا عليكَ القرآنَ مُحكماً مُعرباً، شرَّفناك به وفَضَّلناك على مَن سِوَاك بهذا الكِتاب المُبين الواضحِ الجَليِّ الذي ﴿ لا يأتيه الباطلُ من بين يَدَيه ولا من خَلْفِه تنزيلٌ من حَكِيم حَمِيدٍ ﴾.

وقولُه: ﴿ ولئن اتَّبعت أهواءَهم ﴾، أي: آراءَهم، ﴿ بعد ما جاءَكَ من العِلم ﴾، أي: مِنَ الله تعالى،

---

(١) هو أبو عَمْرو بلالُ بنُ سعد بن تميم السَّكُونيُّ، تابعيّ ثقة، روى عن أبيه، وكان أبوه له صحبة، وروى عنه أبو عمرو الأوزاعي. وقال عنه الأوزاعي: «سمعت بلال بن سعد، ولم أسمع واعظاً أبلغ منه». وقال عبدالله بن المبارك: «كان مَحَلُّ بلال بن سعد بالشام ومصر كمحلِّ الحسن بن أبي الحسن بالبصرة». توفيّ في إمرة هشام بن عبد الملك. انظر البداية والنهاية ٣٦١/٩-٣٦٣، وتهذيب الكمال ٢٩١/٤-٢٩٦.

(٢) في الأصل: «للتعجيل» دون ذكر «دنياكم». والمثبت عن الطبعات السابقة. وفي البداية والنهاية ٣٦٣/٩ رواية أخرى عن ابن عساكر، ولفظها: «أترغبون في طاعة الله لدارٍ معمورة بالآفات ولا ترغبون وتنافسون في جنة أكلها دائم وظلُّها؟!».

﴿ما لَكَ من الله من وليٍّ ولا واقٍ﴾. وهذا وعيدٌ لأهل العلم أن يَتَّبعوا سُبُل أهلِ الضَّلالةِ بعد ما صاروا إليه من سُلوك السنة النبويَّة والمحجَّةِ المُحمَّدية، على مَن جاء بها أفضلُ الصَّلاةِ والسَّلامِ.

﴿ وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلًا مِّن قَبْلِكَ وَجَعَلْنَا لَهُمْ أَزْوَاجًا وَذُرِّيَّةً وَمَا كَانَ لِرَسُولٍ أَن يَأْتِيَ بِـَٔايَةٍ إِلَّا بِإِذْنِ ٱللَّهِ لِكُلِّ أَجَلٍ كِتَابٌ ﴿٣٨﴾ يَمْحُوا۟ ٱللَّهُ مَا يَشَآءُ وَيُثْبِتُ وَعِندَهُۥٓ أُمُّ ٱلْكِتَٰبِ ﴿٣٩﴾ ﴾

يقولُ تعالى: وكما أرسلناك ـ يا محمدُ ـ رسولاً بشرياً كذلك بعثنا المُرسَلين قبلك بَشراً يأكُلون الطعام، ويمشُونَ في الأسواق ويأتونَ الزوجات، ويُولَد لهم، وجعلنا لهم أزواجاً وذُرِّيَّةً، وقد قال تعالى لأشرفِ الرُّسلِ وخاتمهم: ﴿قل إنما أنا بشرٌ مثلكُم يوحَى إليّ﴾. وفي الصَّحيحَينِ أنَّ رسولَ الله ـ ﷺ ـ قال: «أما أنا فأصومُ وأفطِرُ، وأقومُ وأنامُ، وآكلُ الدَّسَم، وأتزوجُ النِّساءَ، فمن رَغِب عن سُنَّتي فَليس مِنّي»(١).

وقال الإمام أحمد: حدثنا يزيدُ، أنبأنا الحجاجُ بن أرطاةَ، عن مكحولٍ قال: قال أبو أيُّوبَ: قال رسول الله ـ ﷺ ـ: «أربعٌ من سُنَن المُرسَلِين: التَّعطُّر، والنِّكاح، والسِّواك، والحِنَّاء»(٢).

وقد رواه أبو عيسى التِّرمذيُّ، عن سفيانَ بن وكيع، عن حَفص بن غياثٍ، عن الحجَّاج، عن مكحولٍ، عنِ أبي الشِّمال، عن أبي أيُّوبَ... فذكره، ثم قال: وهذا أصحُّ من الحديثِ الذي لم يذكر فيه أبو الشِّمال(٢).

وقولُه: ﴿ وما كانَ لرسُولٍ أن يأتيَ بآيةٍ إلا بإذنِ الله ﴾، أي: لم يكن يأتي قومَه بخارقٍ إلا إذا أُذِنَ له فيه، ليس ذلك إليه، بل إلى الله ـ عزَّ وجلَّ ـ يفعلُ ما يشاءُ، ويحكُم ما يُريدُ.

﴿ لِكُلِّ أجلٍ كتابٌ ﴾، أي: لكلِّ مُدَّةٍ مضرُوبةٍ كتابٌ مكتوبٌ بها، وكلُّ شيءٍ عنده بمقدار، ﴿ ألم تعلَم أنَّ الله يعلَمُ ما في السماءِ والأرضِ إنَّ ذلك في كتابٍ إنَّ ذلك على الله يَسِيرٌ ﴾.

وكان الضحاكُ بن مُزاحِم يقولُ في قوله: ﴿ لكلِّ أجلٍ كتابٌ ﴾، أي: لِكُلِّ كتابٍ أجَلٌ ـ يعني لكلِّ كتابٍ أنزله من السماء مدةٌ مضروبةٌ عند الله ومقدارٌ مُعيَّن ـ فلهذا يمحُو ما يشاء منها ويُثبِت(٣). يعني حتى نُسِخت كلُّها بالقرآنِ الذي أنزله الله على رسوله، صلواتُ الله وسلامُه عليه.

وقولُه: ﴿ يَمحُو الله ما يشاء ويُثبِتُ ﴾، اختلف المفسرون في ذلك فقال الثوريُّ، ووكيعٌ، وهُشَيم، عن ابنِ أبي ليلى، عن المِنهال بن عمرو، عن سعيد بن جُبَير، عن ابن عبَّاس: يُدبِّر أمر السَّنَةِ، فَيَمحُو ما يشاء، إلا الشَّقاء والسعادة، والحياةَ والموت. وفي رواية: ﴿ يمحُو الله ما يشاء ويُثبِتُ ﴾، قال: كلُّ شيءٍ إلا الحياةَ والموتَ، والشقاءَ والسعادةَ، فإنهما قد فُرِغ منهما.

وقال مجاهد: ﴿ يَمحُو الله ما يَشاء ويُثبِتُ ﴾، إلا الحياةَ والموتَ، والشَّقاءَ والسَّعادةَ، فإنهما لا يَتغيَّران.

وقال منصورٌ: سألتُ مجاهداً فقلتُ: أرأيتَ دعاء أحدِنا يقول: «اللهم إن كان اسمي في السُّعداء فأثبِته

---

(١) أخرجاه في كتاب النكاح، فتح الباري ١٠٤/٩، ومسلم ١٠٢٠/٢. وليس فيهما: «وآكل الدسم».
(٢) مسند أحمد ٤٢١/٥، وعارضة الأحوذي، أبواب النكاح ٢٩٨/٤ ـ ٢٩٩.
(٣) تفسير الطبري ١٦٥/١٣.

فيهم، وإن كان في الأشقياء فامحه عنهم، واجعله في السعداء». فقال: حَسَن. ثم لقيته بعد ذلك بحولٍ أو أكثر، فسألته عن ذلك، فقال: ﴿ إنا أنزلناه في ليلة مباركة إنا كنا مُنذرين * فيها يُفرَق كُلُّ أمر حكيم ﴾، قال: يَقضي في ليلة القدر ما يكون في السنَّة من رزقٍ أو مُصيبة، ثم يُقدِّم ما يشاء ويُؤخِّر ما يشاء، فأما كتابُ الشقاوةِ والسعادةِ فهو ثابتٌ لا يُغيَّر.

وقال الأعمشُ، عن أبي وائل شَقِيقِ بن سَلَمَةَ: إنه كان يُكثِرُ أن يدعُوَ بهذا الدعاءِ: «اللهمَّ إن كنتَ كتبتنا أشقياء فامحه، واكتبنا سعداء، وإن كنت كتبتنا سعداءَ فأثبِتنا، فإنك تمحو ما تشاءُ وتُثبِتُ وعندك أُمُّ الكتاب». رواه ابن جرير.

وقال ابنُ جرير أيضاً: حدثنا عَمرو بن علي، حدثنا مُعاذ بن هشام، حدثني أبي، عن أبي حكيمة عِصْمة، عن أبي عثمان النَّهدِيِّ: أن عُمَر بن الخطاب ـ رضي الله عنه ـ قال وهو يَطُوف بالبيت، وهو يَبكي: اللهمَّ، إن كنتَ كتبتَ عَلَيَّ شِقوةً أو ذنباً فامحه، فإنك تمحُو ما تشاء وتُثبِت، وعندك أُمُّ الكتاب، فاجعله سعادةً ومَغْفِرةً[١].

وقال حَمَّاد، عن خالد الحَذَّاء، عن أبي قِلَابَةَ، عن ابن مسعود: أنه كان يدعُو بهذا الدعاء أيضاً. ورواه شَريك، عن هلال بن حُمَيد، عن عبد الله بن عُكَيْم، عن ابن مسعود، بمثله.

وقال ابنُ جرير: حَدَّثني المثنَّى، حدثنا حجَّاجٌ، حدثنا حَمَّاد[٢]، عن أبي حمزةَ، عن إبراهيمَ: أن كعباً قال لِعُمَر بن الخطاب: يا أميرَ المؤمنين، لولا آيةٌ في كتاب الله لأنبأتُك بما هو كائنٌ إلى يومِ القيامة. قال: وما هي؟ قال: قال الله تعالى: ﴿ يمحُو الله ما يشاءُ ويُثبِتُ وعنده أُمُّ الكِتَابِ ﴾[٣].

ومعنى هذه الأقوالِ أنَّ الأقدارَ ينسخُ الله ما يشاءُ منها، ويُثبِتُ منها ما يشاءُ، وقد يُستأنَسُ لهذا القولِ بما رَواه الإمام أحمد:

حدثنا وكيعٌ، حدثنا سفيانُ ـ وهو الثَّوريُّ ـ عن عبد الله بن عيسى، عن عبد الله بن أبي الجَعْدِ، عن ثوبانَ قال: قال رسولُ الله ـ ﷺ ـ: «إنَّ الرجلَ لَيُحرَمُ الرِّزقَ بالذنبِ يُصِيبه، ولا يردُّ القَدَرَ إلا الدعاءُ، ولا يَزيدُ في العُمُرِ إلا البرُّ»[٤]. ورواه النَّسائي وابنُ ماجه، من حديث سفيان الثوريِّ، به[٤].

وثَبَت في الصحيح أنَّ صِلَةَ الرَّحمِ تَزيدُ في العُمُر، وفي الحديث الآخر: «إن الدُّعاء والقَضَاء لَيَعتَلِجانِ بين السماء والأرض»[٥].

وقال ابنُ جرير: حَدَّثني محمد بن سَهل بن عَسْكَرٍ، حدثنا عبد الرزَّاق، أخبرنا ابن جُرَيج، عن عَطَاءٍ، عن ابن عباس قال: إن لله لوحاً محفوظاً مسيرةَ خمسمائة عام، من دُرَّةٍ بيضاءَ لها دَفَّتان من ياقوت ـ والدفتان: لوحان ـ لله ـ عز وجل ـ كل يوم ثلاثمائة وستون لحظة، ﴿يمحُو ما يشاء ويُثبِتُ وعنده أُمُّ الكتاب﴾[٦].

وقال الليثُ بن سعدٍ، عن زيادةَ بن محمد، عن محمد بن كعب القُرَظِيِّ، عن فَضَالة بن عُبَيد، عن أبي

---

(١) تفسير الطبري ١٣/١٦٧.

(٢) في الأصل: خصاف. وأثبتنا ما في تفسير الطبري، فأبو حمزة الذي يروي عن إبراهيم النخعي هو: ميمون القصاب الكوفي، يروي عنه الحمادان. انظر تفسير الطبري تـ الأستاذ محمود شاكر ١٦/٤٨٤، والمُقْتَنى للذهبي ٢٠٠.

(٣) تفسير الطبري ١٣/١٦٨.

(٤) مسند أحمد ٥/٢٧٧، والنسائي في كتاب التفسير من السنن الكبرى، وابن ماجه في المقدمة ١/٣٥، وفي الفتن ٢/١٣٣٤، وانظر تحفة الأشراف للمزي ٢/١٣٣.

(٥) أخرجه البزار، انظر كشف الأستار عن زوائد البزار، كتاب الأدعية ٤/٣٧، ومجمع الزوائد ١٠/١٤٦. ويعتلجان: يتصارعان.

(٦) تفسير الطبري ١٣/١٧٠.

الدَّرداءِ قال: قال رسولُ الله ـ ﷺ ـ: «إن الله يفتحُ الذِّكر في ثلاث ساعات يَبْقَين من الليل، في الساعة الأولى منها ينظر في الذكر الذي لا ينظر فيه أحدٌ غيره، فيمحُو ما يشاء ويُثبِت». وذكر تَمام الحديث. رواه ابن جرير(١).

وقال الكلبيُّ: ﴿ يمحُو الله ما يشاء ويُثبِت ﴾، قال: يمحُو من الرزق ويَزِيد فيه، ويمحُو من الأجلِ ويَزيد فيه، فقيل له: من حَدَّثك بهذا؟ فقال: أبو صالح، عن جابر بن عبد الله بن رِئَابٍ، عن النبيِّ ﷺ. ثم سُئِل بعد ذلك عن هذه الآية فقال: يُكتَب القولُ كلُّه، حتى إذا كان يومُ الخميس طُرِحَ منه كلُّ شيءٍ ليسَ فيه ثوابٌ ولا عقابٌ، مثلُ قولك: أكلتُ وَشرِبتُ، دخلتُ وخرجتُ ونحوُه من الكلام، وهو صادق، ويُثبِت ما كان فيه الثوابُ، وعليه العقابُ(٢).

وقال عكرمةُ، عن ابن عباس: الكتابُ كتابان، فكتابٌ يمحو الله منه ما يشاءُ ويُثبِت، وعنده أُمُّ الكتاب.

وقال العوفي، عن ابن عباس في قوله: ﴿ يمحُو الله ما يشاء ويُثبِتُ وعنده أمُّ الكتاب ﴾، يقول: هو الرجلُ يعمَلُ الزمانَ بطاعةِ الله، ثم يَعُودُ لمعصيةِ الله فيموتُ على ضَلَالَةٍ، فهو الذي يمحُو. والذي يُثبِتُ الرجلُ يعمَلُ بمعصية الله، وقد كان سبق له خيرٌ حتى يموتَ وهو في طاعةِ الله، فهو الذي يُثبِتُ.

ورُوِي عن سعيد بن جُبَير أنها بمعنى: ﴿ يَغفِرُ لمن يشاء ويُعذِّب من يشاء والله على كل شيء قدير ﴾.

وقال علي بن أبي طلحة، عن ابن عباس: ﴿ يمحُو الله ما يشاء ويُثبِت ﴾، يقول: يُبَدِّل ما يشاء فينسَخُه، ويثبت ما يشاء فلا يُبَدِّله، ﴿ وعنده أم الكتاب ﴾، يقول: وجُملةُ ذلك عنده في أم الكتاب، الناسخُ والمنسوخُ، وما يُبَدَّلُ وما يثبت، كُلُّ ذلك في كتاب.

وقال قتادةُ في قوله: ﴿يمحُو الله ما يشاءُ ويَثبِتُ﴾: كقوله: ﴿ما نَنْسَخْ من آية أو نَنْسَأْها(٣) نَأْتِ بِخَيرٍ منها أو مِثْلِهَا ﴾.

وقال ابن أبي نَجِيح، عن مجاهد في قوله: ﴿ يمحُو الله ما يشاء ويُثبِتُ ﴾، قال: قالت كفارُ قريش حين أُنزِلت: ﴿ وما كان لرسولٍ أن يأتيَ بآيةٍ إلا بإذنِ الله ﴾، ما نَرَاك يا محمدُ تَمْلِك من شيءٍ، ولقد فُرِغ من الأمر. فأنزلت هذه الآيةُ تخويفاً ووَعِيداً لهم: إنا إن شِئنا أَحْدَثنا له من أمرنا ما شِئنا، ونُحدِث في كلِّ رمضان، فَنَمحُو ونُثبِتُ ما نشاء من أرزاقِ الناسِ ومَصَائِبهم، وما نُعطِيهم وما نقسم لهم.

وقال الحسن البصري: ﴿ يمحُو الله ما يشاء ﴾، قال: من جاء أجلُه، فَذَهبَ، ويُثبِتُ الذي هو حَيٌّ يجري إلى أجله. وقد اختار هذا القول أبو جعفر بنُ جَرير رَحِمَه الله(٤).

وقولُه: ﴿ وعنده أم الكتاب ﴾، قال(٥): الحلال والحرام. وقال قتادةُ: أي جملةُ الكتابِ وأصلُه. وقال الضحَّاكُ: ﴿ وعنده أمُّ الكتابِ ﴾، قال: كتابٌ عند ربِّ العالمين.

وقال سُنَيد بن داود، حدثني مُعتَمِرٌ، عن أبيه، عن سَيَّار، عن ابن عباس: أنه سأل كعباً عن﴿أُمِّ الكتاب﴾

(١) تفسير الطبري ١٣/ ١٧٠.
(٢) تفسير الطبري ١٣/ ١٦٨.
(٣) كذا في أصلنا، وهي قراءة أبي عمرو وابن كثير، انظر الإقناع لابن الباذش ٢/ ٦٠١.
(٤) تفسير الطبري ١٣/ ١٧٠.
(٥) القائل هو: الحسن البصري، انظر تفسير الطبري ١٣/ ١٧١.

فقال: علم الله ما هو خالِقٌ وما خَلقُه عاملون، ثم قال لِعلمِهِ: كن كتاباً. فكانا كتاباً.

وقال ابن جرير، عن ابن عباس: (وعنده أُمُّ الكتابِ)، قال: الذكر[1].

﴿ وَإِن مَّا نُرِيَنَّكَ بَعۡضَ ٱلَّذِي نَعِدُهُمۡ أَوۡ نَتَوَفَّيَنَّكَ فَإِنَّمَا عَلَيۡكَ ٱلۡبَلَٰغُ وَعَلَيۡنَا ٱلۡحِسَابُ ﴿٤٠﴾ أَوَلَمۡ يَرَوۡاْ أَنَّا نَأۡتِي ٱلۡأَرۡضَ نَنقُصُهَا مِنۡ أَطۡرَافِهَاۚ وَٱللَّهُ يَحۡكُمُ لَا مُعَقِّبَ لِحُكۡمِهِۦۚ وَهُوَ سَرِيعُ ٱلۡحِسَابِ ﴿٤١﴾ ﴾

يقول تعالى لرسوله: ﴿ وَإِمَّا نُرِينَّكَ ﴾ يا محمدُ ﴿ بعضَ الذي نَعِدُهم ﴾، أي: نَعِدُ أعداءَك من الخِزْيِ والنَّكالِ في الدنيا، ﴿ أو نَتوفَّينَّكَ ﴾ قبل ذلك، ﴿ فإنَّما عليكَ البلاغُ ﴾، أي: إنما أرسلناك لِتُبلِغَهم رسالةَ الله، وقد بَلَّغت ما أُمِرتَ به، ﴿ وعَلَينا الحسابُ ﴾، أي: حِسَابُهم وجزاؤُهم، كما قال تعالى: ﴿ فَذَكِّر إنما أنت مُذَكِّر * لستَ عَلَيهِم بِمُسَيطِر * إلاَّ من تولَّى وكَفَر * فَيُعذِّبه الله العذابَ الأكبر * إنَّ إلينَا إيابَهم * ثم إنَّ علينا حِسَابَهم ﴾.

وقوله: ﴿ أوَ لم يَرَوا أنا نأتِي الأرضَ ننقصُها من أَطْرَافِها ﴾، قال ابن عباس: أَوَ لم يَرَوا أنا نفتحُ لِمُحمَّدٍ الأرضَ بعدَ الأرضِ؟ وقال في رِوَايةٍ: أَوَ لم يَرَوا إلى القرية تخرَبُ حتى يكونَ العمران في ناحيةٍ؟

وقال مجاهدٌ وعِكرِمَةُ: ﴿ ننقصُها من أطرافِها ﴾، قال: خَرابها. وقال الحسن والضحَّاكُ: هو ظهورُ المسلمين على المشركين. وقال العوفي، عن ابن عباس: نُقصان أهلِها وبَرَكَتِها. وقال مجاهد: نقصانُ الأنفسِ والثَّمرات وخَرابُ الأرض. وقال الشعبيُّ: لو كانت الأرضُ تنقصُ لَضاق عليك حُشُّك، ولكن تنقصُ الأنفسُ والثمراتُ[2]. وكذا قال عكرمةُ: لو كانت الأرض تنقُص لم تجد مكاناً تقعُد فيه، ولكن هو الموتُ.

وقال ابن عباس في رواية: خَرابها بموت فُقَهائها وعُلَمائها وأهلِ الخير منها. وكذا قال مجاهدٌ أيضاً: هو مَوْتُ العُلَماءِ.

وفي هذا المعنى رَوَى الحافظ ابن عساكر في ترجمة أحمد بن عبد العزيز أبي القاسم المِصْري الواعظ، سكن أصبهان: حَدَّثنا أبو محمد طلحةُ بن أَسَدٍ الرَّقِّي [3] بدمشق، أنشدنا أبو بكر الآجُرِّي بمكة قال: أنشدنا أحمدُ بن غزال لنفسه:

الأرض تحيَا إذا ما عَاشَ عَالِمُها مَتَى يمُتْ عَالمٌ منها يمُت طَرَفُ
كالأرض تحْيَا إذا ما الغيثُ حَلَّ بها وإن أبى عَادَ في أكنافِهَا التَّلَفُ

والقولُ الأول أولى، وهو ظهورُ الإسلام على الشِّرك قريةً بعدَ قريةٍ.

﴿ وَقَدۡ مَكَرَ ٱلَّذِينَ مِن قَبۡلِهِمۡ فَلِلَّهِ ٱلۡمَكۡرُ جَمِيعٗاۖ يَعۡلَمُ مَا تَكۡسِبُ كُلُّ نَفۡسٖۗ وَسَيَعۡلَمُ ٱلۡكُفَّٰرُ لِمَنۡ عُقۡبَى ٱلدَّارِ ﴿٤٢﴾ ﴾

يقولُ: ﴿ وقد مَكَر الذين من قَبلهم ﴾ بِرُسُلِهم، وأرادُوا إخراجَهم من بلادهم، فَمَكر الله بهم، وجَعَل العاقِبَة للمتقين، كما قال تعالى: ﴿ وَإذ يمكُر بك الذين كَفَرُوا لِيُثبِتُوك أو يَقتُلوك أو يُخرِجُوك ويمكُرون

(١) تفسير الطبري ١٧١/١٣.
(٢) تفسير الطبري ١٣/١٧١، والحُشُ: البستان.
(٣) انظر تهذيب تاريخ ابن عساكر ٧/٦٧.

ويمكرُ الله والله خيرُ الماكرين ﴾. وقال تعالى: ﴿ ومكَرُوا مكراً ومكَرْنا مكراًوهُم لا يَشعرُون * فانظر كيف كان عاقبةُ مكرهم أنا دمَّرناهم وقومَهم أجمعين * فتلك بيوتُهم خاويةً بما ظلموا ﴾. . . الآية.

وقولُه: ﴿ يعلَمُ ما تكسِبُ كُلُّ نفسٍ ﴾، أي: إنَّه تعالى عالمٌ بجميعِ السَّرائرِ والضَّمائرِ، وسَيَجزي كُلَّ عاملٍ بعَمَلِه.

﴿ وسيعلم الكافرُ ﴾[1] ـ وقرىء: ﴿ الكُفَّار ﴾ ـ لمن عُقبى الدار، أي: لمن تكون الدائرة والعاقبةُ، لهم أو لأتباعِ الرسُلِ؟ كلَّا، بل هي لأتباعِ الرسُلِ في الدنيا والآخرة، ولله الحمدُ والمنَّةُ.

﴿ وَيَقُولُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لَسْتَ مُرْسَلًا قُلْ كَفَىٰ بِٱللَّهِ شَهِيدَۢا بَيْنِى وَبَيْنَكُمْ وَمَنْ عِندَهُۥ عِلْمُ ٱلْكِتَٰبِ ﴿٤٣﴾ ﴾

يقولُ: ويُكَذِّبك هؤلاء الكفارُ ويقولون: ﴿ لستَ مُرسلاً ﴾، أي: ما أرسلك الله. ﴿ قل كفى بالله شَهيداً بيني وبينكم ﴾، أي: حَسْبِيَ الله، وهو الشاهدُ عليَّ وعليكم، شاهدٌ عَليَّ فيما بلغتُ عنه من الرسالةِ، وشاهدٌ عليكم أيها المُكَذِّبون فيما تفتَرُونه من البهتان.

وقولُه: ﴿ ومَن عنده عِلْمُ الكتابِ ﴾، قيل: نَزَلت في عبد الله بن سَلَام. قاله مجاهد. وهذا القولُ غريبٌ؛ لأن هذه الآية مكيَّةٌ وعبد الله بن سَلَام إنما أسلم في أول مَقْدَمِ رسول الله ـ ﷺ ـ المدينةَ. والأظهر في هذا ما قاله العَوْفيُّ، عن ابن عباس قال: هم مِنَ اليهودِ والنَّصارى[2].

وقال قتادةُ: منهم ابن سَلَام، وسلمانُ، وتَميمٌ الداريُّ. وقال مجاهد ـ في رواية ـ عنه: هو الله تعالى. وكان سعيد بن جُبَير ينكر أن يكون المراد بها عبد الله بن سَلَام، ويقولُ: هي مكيَّةٌ، وكان يَقرؤُها: ﴿ وَمِن عِندِه عِلْمُ[3] الكتابِ ﴾، ويقول: من عند الله. وكذا قرأها مجاهد والحسن البصري.

وقد رَوَى ابن جرير من حديث هارونَ الأعورِ، عن الزهريِّ، عن سالم، عن ابن عُمَر: أن رسولَ الله ـ ﷺ ـ قرأها: ﴿ ومِن عنده عِلْمُ الكتابِ ﴾. ثم قال: لا أصل له من حديث الزهريِّ عند الثقات[3].

قلتُ: وقد رَواه الحافظُ أبو يعلى في مُسنَدِه، من طريق هارونَ بن موسى هذا، عن سليمانَ بن أرقم ـ وهو ضعيفٌ ـ عن الزُّهريِّ، عن سالم، عن أبيه مرفوعاً كذلك. ولا يَثبُتُ، والله أعلم.

والصحيحُ في هذا: أن ﴿ومَن عنده ﴾، اسمُ جنس يشمل علماء أهل الكتاب الذين يَجِدُون صِفَةَ محمد ـ ﷺ ـ وَنَعْتَه في كتبهم المتقدمة، من بشارات الأنبياءِ به، كما قال تعالى: ﴿ وَرَحمَتِي وَسِعَت كلَّ شيء فسأكتُبها للذين يتقون ويؤتُون الزكاة والذين هُم بآياتنا يؤمِنون * الذين يَتَّبِعُونَ الرسُولَ النبيَّ الأميَّ الذي يجدُونه مكتوباً عندهم في التوراة والإنجيل ﴾. . . الآية، وقال تعالى: ﴿ أوَ لم يكُن لهم آية أن يعلَمَه علماءُ بني إسرائيل ﴾. . . الآية. وأمثال ذلك مما فيه الإخبار عن عُلَماء بني إسرائيل: أنهم يَعْلَمون ذلك من كُتُبهم المنزَّلة. وقد وَرَد في حديثِ الإخبارُ عن عبد الله بن سَلَام بأنه أسلم بمكَّة قبل الهجرةِ، قال الحافظُ أبو نُعَيم الأصبهانيُّ في كتابِ «دلائلِ النبوَّة» وهو كتابٌ جَلِيلٌ:

---

(١) قرأ الكوفيون وعامر: ﴿الكُفَّار﴾، بالجمع. وباقي السبعة: ﴿الكافِرُ﴾. انظر الإقناع لابن الباذش ٢/٦٧٦.

(٢) كذا ضبطها الألوسي في روح المعاني ١٣/١٧٦، وقال: ويجعل (مِنْ) حرف جرّ، والجارّ والمجرور خبر مقدم، و﴿عِلْمُ﴾ مبتدأ مؤخر.

(٣) تفسير الطبري ١٣/١٧٨.

حدثنا سُليمان بن أحمد الطَّبَرانيُّ، حدثنا عبدان بن أحمد، حدثنا محمد بن مُصَفًّى، حدثنا الوليد بن مسلم، عن محمد بـن حمزةَ بن يوسفَ بن عبد الله بن سَلَام، عن أبيه: أن عبد الله بن سلام قال لأحبار اليهود: إني أردت أن أجدِّد[١] بمسجدِ أبينا إبراهيمَ وإسماعيلَ عهداً[١]. فانطَلَقَ إلى رسول الله - ﷺ - وهو بمكَّة، فوافاهم وقد انصرفُوا من الحجِّ، فوجَد رسولَ الله بمنى، والناسُ حولَه، فقامَ مع الناس، فلما نَظَر إليه رسولُ الله - ﷺ - قال: أنت عبد الله بن سَلَام؟ قال قلتُ: نعم. قال: ادنُ. فدنوتُ منه، قال: أَنْشُدكَ بالله يا عبدَ الله بن سَلَام، أما تَجِدُني في التوراةِ رسولَ الله؟ فقلت له: انعتْ ربَّنا. قال: فجاء جبريلُ حتى وَقَف بين يَدَي رسولِ الله - ﷺ - فقال له: ﴿قل هُو الله أحدٌ ۞ الله الصمدُ﴾... إلى آخرها، فَقرأهـا علينا رسولُ الله ﷺ. فقال ابن سلام: أشهدُ أن لا إلَه إلا الله، وأنكَ رسولُ الله. ثم انصرفَ ابنُ سَلَام إلى المدينةِ فكتم إسلامَه. فلما هاجَر رسولُ الله - ﷺ - إلى المدينة وأنا فوقَ نخلةٍ لي أجُدُّها[٢]، فألقيتُ نفسي، فقالت أمي: لِلهِ أنتَ! لو كان موسى بنُ عمران ما كان[٣] لك أن تُلقِي نفسَك من رأسِ النخلةِ. فقلتُ: والله لَأنِّي أَسَرُّ بقُدوم رسول الله - ﷺ - من مُوسَى بن عِمْرانَ إذ بُعِث[٤]. وهذا حديثٌ غريب جداً.

آخر تفسير سورة الرعد، ولله الحمدُ

(١) في أصلنا: «أحدث... عبداً».
(٢) أي: أقطع ثمارها.
(٣) في أصلنا: «ما كان يولك». وفي الدلائل: «ما كان تم لك». والمثبت عن الطبعات السابقة.
(٤) دلائل النبوة ٣٠٠.

تفسير

سُورَةُ إِبْرَاهِيمَ

وهي مكية

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

﴿ الٓر ۚ كِتَٰبٌ أَنزَلْنَٰهُ إِلَيْكَ لِتُخْرِجَ ٱلنَّاسَ مِنَ ٱلظُّلُمَٰتِ إِلَى ٱلنُّورِ بِإِذْنِ رَبِّهِمْ إِلَىٰ صِرَٰطِ ٱلْعَزِيزِ ٱلْحَمِيدِ ﴿١﴾ ٱللَّهِ ٱلَّذِى لَهُۥ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ ۗ وَوَيْلٌ لِّلْكَٰفِرِينَ مِنْ عَذَابٍ شَدِيدٍ ﴿٢﴾ ٱلَّذِينَ يَسْتَحِبُّونَ ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَا عَلَى ٱلْءَاخِرَةِ وَيَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ وَيَبْغُونَهَا عِوَجًا ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ فِى ضَلَٰلٍۭ بَعِيدٍ ﴿٣﴾ ﴾

قد تقدَّم الكلامُ على الحروف المقطَّعة في أوائل السُّوَر.

﴿ كتابٌ أنزلناه إليك ﴾، أي: هذا كتابٌ أنزلناه إليك يا محمدُ، وهو القرآن العظيم، الذي هو أشرف كتاب أنزله الله من السماء، على أشرف رسول بعثه الله في الأرض، إلى جميع أهلها عَربهم وعَجَمهم.

﴿ لِتُخرجَ الناسَ من الظُّلمات إلى النور ﴾، أي: إنما بعثناك ـ يا محمدُ ـ بهذا الكتاب، لِتُخرجَ الناسَ مما هُم فيه من الضلال والغيِّ إلى الهُدَى والرَّشَدِ، كما قال: ﴿ الله وليُّ الذين آمنوا يُخرِجهم من الظُّلُمات إلى النور والذين كفروا أولياؤهم الطاغوت يُخرِجُونهم من النور إلى الظُّلُمات ﴾... الآية، وقال تعالى: ﴿ هو الذي يُنَزِّل على عبده آيات بيناتٍ ليخرجكم من الظلمات إلى النور ﴾.

وقولُه: ﴿ بإذن ربِّهم ﴾، أي: هو الهادي لمن قَدَّرَ له الهِدَايَةَ على يَدَي رسوله المبعُوثِ عن أمره يهديهم ﴿ إلى الصراط العزيزِ ﴾، أي: العزيزِ الذي لا يُمانَع ولا يُغَالَب، بل هو القاهرُ لكلِّ ما سِوَاه، ﴿ الحميدِ ﴾، أي: المحمودِ في جميعِ أفعاله وأقواله، وشَرْعه وأَمْره ونَهْيِه، الصَّادِقِ في خَبره.

وقولُه: ﴿اللهِ الذي له ما في السَّمواتِ وما في الأرض ﴾، قَرَاه بعضُهم[1] مستأنفاً مرفوعاً، وقرأه آخرون على الإتباع صفة للجلالة، كما قال تعالى: ﴿ قُل يا أيها الناسُ إنِّي رسولُ الله إليكم جميعاً الذي له ملكُ السمواتِ والأرضِ ﴾... الآية.

(١) رَفَع نافع وابن عامر، وبالجرِّ قرأ الباقون من السبعة. انظر الإقناع لابن الباذش ٢/٦٧٧.

وقولُه: ﴿ وويل للكافرين من عذابٍ شديدٍ ﴾، أي: ويلٌ لهم يوم القيامة إذ خالفوكَ ـ يا محمد ـ وكذَّبوك.

ثم وَصَفهم بأنهم يَستحِبُّون الحياةَ الدنيا على الآخرة، أي: يُقدِّمُونها ويُؤْثرونها عليها، ويَعمَلُون للدنيا ونَسُوا الآخرةَ، وتركوها وراءَ ظُهورهم، ﴿ ويَصُدُّون عن سبيل الله ﴾، وهي اتباعُ الرسُلِ، ﴿ ويَبغُونها عِوَجاً ﴾، أي: وَيُحِبُّون أن تكونَ سبيلُ الله عِوَجاً مائلةً عائِلَةً[1]، وهي مستقيمةٌ في نفسها، لا يضرُّها مَن خالفها ولا مَن خَذَلها، فهم في ابتغائهم ذلك في جَهلٍ وضَلالٍ بعيدٍ من الحقِّ، لا يُرجَى لهم ـ والحالة هذه ـ صلاحٌ!

﴿ وَمَآ أَرۡسَلۡنَا مِن رَّسُولٍ إِلَّا بِلِسَانِ قَوۡمِهِۦ لِيُبَيِّنَ لَهُمۡۖ فَيُضِلُّ ٱللَّهُ مَن يَشَآءُ وَيَهۡدِي مَن يَشَآءُۚ وَهُوَ ٱلۡعَزِيزُ ٱلۡحَكِيمُ ﴿٤﴾ ﴾

هذا من لُطفِه تعالى بخلقه أنَّه يرسل إليهم رُسُلاً منهم بلغاتهم لِيفهمُوا عنهم ما يُرِيدون وما أُرسِلُوا به إليهم، كما قال الإمام أحمد:

حدَّثنا وَكِيعٌ، عن عُمَر بن ذَرٍّ قال: قال مجاهد عن أبي ذَرٍّ قال: قال رسولُ الله ـ ﷺ ـ: «لم يَبْعَثِ الله ـ عزَّ وجلَّ ـ نبيّاً إلا بِلُغَةِ قَوْمِهِ»[2].

وقولُه: ﴿ فَيُضِلُّ الله مَن يشاء ويهدي مَن يشاء ﴾، أي: بعدَ البيانِ وإقامةِ الحُجَّة عليهم يُضِلُّ تعالى مَن يشاءُ عن وجهِ الهُدَى، ويَهدِي مَن يشاءُ إلى الحقِّ، ﴿ وهو العزيزُ ﴾، الذي ما شاء كانَ، وما لم يشأ لم يَكُن، ﴿ الحكيمُ ﴾ في أفعالِه، فَيُضِلّ مَن يستحق الإضلالَ، ويَهدِي من هو أهلٌ لذلك.

وقد كانت هذه سُنَّةَ الله في خَلْقِه أنه ما بَعَث نَبِيّاً في أُمَّةٍ إلا أن يكونَ بِلُغَتهم، فاختَصَّ كُلُّ نبيٍّ بإبلاغ رسالَته إلى أمته دون غيرهم، واختَصَّ محمدَ بنَ عبد الله رسولَ الله بعموم الرسالة إلى سائر الناس، كما ثَبَت في الصَّحِيحين عن جَابر قال: قالَ رسولُ الله ـ ﷺ ـ: «أُعطِيتُ خمساً لم يُعطَهُن أحدٌ من الأنبياء قبلي: نُصِرْتُ بالرُّعب مسيرةَ شهر، وجُعِلت لي الأرض مَسجِداً وطَهُوراً، وأُحِلَّت لي الغنائم ولم تَحِلَّ لأحد قبلي، وأُعطِيتُ الشفاعةَ، وكان النبيُّ يُبعَث إلى قومِهِ وبُعِثتُ إلى الناسِ عامَّةً»[3].

وله شواهدُ من وجوهٍ كثيرةٍ، وقال تعالى: ﴿ قل يا أيُّها الناسُ إنِّي رسولُ اللهِ إليكُم جميعاً ﴾.

﴿ وَلَقَدۡ أَرۡسَلۡنَا مُوسَىٰ بِـَٔايَٰتِنَآ أَنۡ أَخۡرِجۡ قَوۡمَكَ مِنَ ٱلظُّلُمَٰتِ إِلَى ٱلنُّورِ وَذَكِّرۡهُم بِأَيَّىٰمِ ٱللَّهِۚ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَأٓيَٰتٖ لِّكُلِّ صَبَّارٖ شَكُورٖ ﴿٥﴾ ﴾

يقول تعالى: وكَمَا أرسلناك ـ يا محمد ـ وأنزلنا عليك الكتابَ لتخرجَ الناسَ كُلَّهم، تدعُوهم إلى الخروج من الظُّلُماتِ إلى النور، كذلك أرسلنا موسى في بني إسرائيل بآياتنا ـ قال مجاهد: وهي التسعُ الآياتِ[4] ـ ﴿ أن

(١) عائلة: جائرة.

(٢) مسند الإمام أحمد ١٥٨/٥.

(٣) تقدم الحديث عند تفسير الآية ١٥١ من سورة آل عمران، وخرجناه هنالك.

(٤) انظر تفسير الآية ١٠١ من سورة الإسراء. وأثر مجاهد في تفسير الطبري ١٨٢/١٣.

أَخْرِجْ قومَك من الظُّلُماتِ ﴾، أي: أمرناه قائلينَ له: ﴿ أَخْرِجْ قومَكَ من الظُّلُماتِ إلى النُور ﴾، أي: ادعهم إلى الخيرِ، لِيَخرُجوا من ظُلُمات ما كانوا فيه من الجَهلِ إلى نُورِ الهُدَى وبَصيرة الإيمان. ﴿ وذَكِّرهُم بأَيَّامِ الله ﴾، أي: بأَيادِيه ونعَمِه عليهم في إخراجِه إيَّاهم من أَسْرِ فِرْعَون وقَهْرِه وظُلمِه وغَشْمِه، وإنجائِه إيَّاهم من عَدُوِّهم، وفَلْقِه لهم البحرَ، وتَظْلِيله إيَّاهم بالغَمَامِ، وإنزالِه عليهم المَنَّ والسلوى، إلى غير ذلك من النعم. قال ذلك مجاهد، وقتادةُ، وغيرُ واحد.

وقد وَرَد فيه الحديث المرفوع الذي رواه عبدُ الله ابنُ الإمام أحمدَ بن حَنْبلٍ في مُسْنَدِهِ حيثُ قال:

حَدَّثني يحيى بن عبد الله مولى بني هاشم، حدثنا محمد بن أبان الجُعفي، عن أبي إسحاق، عن سعيد بن جُبَير، عن ابن عباس، عن أُبيِّ بن كَعبٍ، عن النبيِّ ـ ﷺ ـ في قوله ـ تبارك وتعالى ـ: ﴿ وذَكِّرهم بأيام الله ﴾، قال بِنِعَمِ الله تَبَارَكَ وتعالى[١].

ورواه ابنُ جرير، وابن أبي حاتم، من حديث محمد بن أبان، به[١]. ورواه عبد الله ابنُه أيضاً موقوفاً، وهو أشبه[١].

وقولُه: ﴿ إن في ذلك لآياتٍ لكلِّ صبار شكُورٍ ﴾، أي: إن فيما صنعنا بأوليائِنا بني إسرائيل حين أنقذناهُم من يد فِرْعَونَ، وأنجيناهم مما كانوا فيه من العذاب المُهين، لعبرةً ﴿ لكلِّ صَبَّار ﴾، أي: في الضَّرَّاءِ ﴿ شكور ﴾، أي: في السراء، كما قال قتادة: نعم العبدُ عبدٌ إذا ابتُلي صَبَر، وإذا أُعطِيَ شَكَرَ[١].

وكذا جاء في الصَّحِيح عن رسول الله ـ ﷺ ـ أنه قال: «إنَّ أمر المُؤمِن كُلَّه عَجَبٌ، لا يقضي الله له قضاء إلا كان خيراً له، إن أصابته ضَرَّاءُ صَبَر فكان خيراً له، وإن أصابته سَرَّاءُ شَكَرَ فكان خيراً له»[٢].

﴿ وَإِذْ قَالَ مُوسَىٰ لِقَوْمِهِ ٱذْكُرُوا۟ نِعْمَةَ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ أَنجَىٰكُم مِّنْ ءَالِ فِرْعَوْنَ يَسُومُونَكُمْ سُوٓءَ ٱلْعَذَابِ وَيُذَبِّحُونَ أَبْنَآءَكُمْ وَيَسْتَحْيُونَ نِسَآءَكُمْ ۚ وَفِى ذَٰلِكُم بَلَآءٌ مِّن رَّبِّكُمْ عَظِيمٌ ﴿٦﴾ وَإِذْ تَأَذَّنَ رَبُّكُمْ لَئِن شَكَرْتُمْ لَأَزِيدَنَّكُمْ ۖ وَلَئِن كَفَرْتُمْ إِنَّ عَذَابِى لَشَدِيدٌ ﴿٧﴾ وَقَالَ مُوسَىٰٓ إِن تَكْفُرُوٓا۟ أَنتُمْ وَمَن فِى ٱلْأَرْضِ جَمِيعًا فَإِنَّ ٱللَّهَ لَغَنِىٌّ حَمِيدٌ ﴿٨﴾ ﴾

يقول تعالى مخبراً عن موسى حينَ ذَكَّر قومَه بأيَّام الله عندهُم ونعمه عليهم، إذ أنجاهُم من آل فِرْعَونَ، وما كانوا يَسُومونهم به من العذابِ والإذلال، حين كانوا يُذَبحونَ مَن وُجِد من أبنائهم، ويتركون إناثهم، فأنقذ الله بني إسرائيل من ذلك. وهذه نعمةٌ عظيمةٌ، ولهذا قال: ﴿ وَفِي ذَلكُم بلاءٌ من رَبِّكم عَظِيمٌ ﴾، أي: نعمةٌ عظيمةٌ منه عليكم في ذلك، أنتم عاجِزُونَ عن القِيام بِشُكرِها.

وقيلَ: وفيما كان يصنَعُه بكم قومُ فرعونَ من تلك الأفاعيل ﴿ بلاءٌ ﴾، أي: اختبارٌ عظيمٌ. ويَحتَمِلُ أن يكون المرادُ هذا وهذا. والله أعلم، كما قال تعالى: ﴿ وبلوناهم بالحسناتِ والسيِّئاتِ لَعَلَّهم يرجِعُون ﴾.

وقولُه: ﴿ وإذ تأذن ربكم ﴾، أي: آذنكم وأعلمَكُم بوعدِه لكم. ويحتمل أن يكون المعنى: وإذ أقسَمَ ربُّكم وآلَى بِعِزَّته وجَلالِه وكِبريائِه، كما قال: ﴿ وإذ تأذَّنَ ربُّك لَيَبعَثَنَّ عليهم إلى يوم القيامة ﴾.

(١) مسند الإمام أحمد ١٢٢/٥. وتفسير الطبري ١٨٤/١٣.

(٢) انفرد بإخراجه مسلم في كتاب الزهد ٢٢٩٥/٤.

وقولُه: ﴿ لَئِن شَكَرتم لأزيدَنَّكم ﴾، أي: لَئِن شَكَرتُم نعمتي عليكم لأزيدنَّكم منها، ﴿ ولئن كفرتم ﴾، أي: كفرتم النِّعم وسترتُموها وجَحدتُموها، ﴿ إنَّ عذابي لَشديدٌ ﴾، وذلك بِسَلْبِها عنهم، وعِقَابِهِ إيَّاهم على كُفْرِها. وقد جاء في الحديث: «إن العبدَ لَيُحرَم الرزق بالذَّنب يُصِيبه»(١). وفي المسند: أنَّ رسولَ الله ـ ﷺ ـ مرَّ به سائل فأعطاه تمرةً، فتَسَخَّطها ولم يقبلها، ثم مرَّ به آخرُ فأعطاه إياها فقبلها وقال: تمرةٌ من رسول الله ﷺ! فأمَرَ له بأربعينَ درهماً، أو كما قال:

قال الإمام أحمد: حدثنا أسود، حدثنا عُمارة الصَّيدلاني، عن ثابت، عن أنس قال: أتى النبيَّ ـ ﷺ ـ سائل فأمر له بتمرةٍ فلم يأخذها ـ أو: وَحَّش بها ـ قال: وأتاه آخرُ فأمَرَ له بتمرةٍ، فقال: سُبحانَ الله! تمرةٌ من رسول الله ﷺ! فقال للجارية: اذهبي إلى أم سَلَمة، فأعطيه الأربعين درهماً التي عندها». تَفَرَّدَ به الإمام أحمد(٢).

وعُمَارة(٣) بن زَاذان وثَّقه ابن حبَّان، وأحمدُ، ويعقوبُ بن سفيان. وقال ابن مَعِين: صالح. وقال أبو زُرعَة: لا بأس به. وقال أبو حاتم: يُكتَب حديثه ولا يُحتَجُّ به، ليس بالمتين. وقال البخاري: ربما يَضطرِب في حديثه. وعن أحمدَ أيضاً أنه قال: رُوِيَ عنه أحاديثُ منكرةٌ. وقال أبو داود: ليس بذاكَ. وضَعَّفه الدارقطنيُّ، وقال ابن عَدِيٍّ: لا بأس به، ممن يُكتَبُ حديثه.

وقولُه تعالى: ﴿ وقال مُوسَى إن تكفُروا أنتم ومَن في الأرض جميعاً فإنَّ الله لَغَنِيٌّ حَمِيدٌ ﴾، أي: هو غَنِيٌّ عن شُكرِ عبادِهِ، وهو الحميدُ المحمودُ، وإن كَفَره مَن كَفَره، كما قال: ﴿ إن تكفُروا فإن الله غَنِيٌّ عنكم ولا يرضَى لعباده الكُفر وإن تَشكُروا يَرضَهُ لكم ﴾. وقال تعالى: ﴿ فكَفَروا وتولَّوا واستغنَى الله والله غنيٌّ حَمِيدٌ ﴾. وفي صحيح مسلم، عن أبي ذَرٍّ، عن رسولِ الله ـ ﷺ ـ فيما يَروي عن ربِّه ـ عز وجل ـ أنه قال: «يا عبادي، لو أنَّ أوَّلكم وآخِركم وإنسَكم وجِنَّكم كانوا على أتقى قَلْب رَجُلٍ منكم ما زاد ذلك في ملكي شيئاً. يا عبادي، لو أنَّ أوَّلكم وآخِركم وإنسَكم وَجِنَّكم كانوا على أفجَرِ قلبِ رَجُلٍ منكم ما نَقصَ ذلك في ملكِي شيئاً. يا عبادي، لو أنَّ أوَّلكم وآخِركم وإنسَكم وجِنَّكم قاموا في صَعِيدٍ واحدٍ فسألوني، فأعطيتُ كُلَّ إنسانٍ مَسْألته، ما نَقص ذلك من مُلكي شيئاً، إلا كما ينقص المِخْيَطُ إذا أُدخِل في البحر»(٤)... فسُبحانَه وتَعالى الغنيُّ الحميدُ.

﴿ أَلَمْ يَأْتِكُمْ نَبَؤُا۟ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ قَوْمِ نُوحٍ وَعَادٍ وَثَمُودَ وَٱلَّذِينَ مِنۢ بَعْدِهِمْ لَا يَعْلَمُهُمْ إِلَّا ٱللَّهُ جَآءَتْهُمْ رُسُلُهُم بِٱلْبَيِّنَٰتِ فَرَدُّوٓا۟ أَيْدِيَهُمْ فِىٓ أَفْوَٰهِهِمْ وَقَالُوٓا۟ إِنَّا كَفَرْنَا بِمَآ أُرْسِلْتُم بِهِۦ وَإِنَّا لَفِى شَكٍّ مِّمَّا تَدْعُونَنَآ إِلَيْهِ مُرِيبٍ ﴿٩﴾ ﴾

قال ابنُ جَرير: «هذا من تَمَام قِيلِ مُوسَى لقومِه»(٥). يعني: وتذكاره إيَّاهم بأيام الله بانتقامِهِ من الأُمَم المُكَذِّبة للرسُلِ.

(١) أخرجه ابن ماجه في المقدمة ١/٣٥، والفتن ٢/١٣٣٤، والنسائي في الرقائق من السنن الكبرى، انظر تحفة الأشراف للمزي ٢/١٣٣.

(٢) مسند الإمام أحمد ٣/١٥٤ ـ ١٥٥. وَحَّش بها: رماها.

(٣) يريد: عمارة الصيدلاني الذي تقدم في الحديث.

(٤) مسلم، كتاب البر ٤/١٩٩٤ ـ ١٩٩٥.

(٥) انظر تفسير الطبري ١٣/١٨٧.

وفيما قال ابنُ جريرٍ نَظَرٌ؛ والظاهرُ أنه خَبَرٌ مستأنَفٌ من الله تعالى لهذه الأمَّةِ، فإنه قد قيل: إن قصَّةَ عادٍ وثَمودَ ليست في التوراة، فلو كان هذا من كلام مُوسَى لقومه وقَصِّه عليهم ذلك فلا شكَّ أن تكونَ هاتان القِصَّتان في «التوراة»، والله أعلم. وبالجملة فالله تعالى قد قَصَّ علينا خَبَر قوم نوح وعاد وثَمودَ وغيرهم من الأمم المكذِّبة للرسُلِ، مما لا يُحصى عَدَدَهم إلا الله ـ عزَّ وجلَّ ـ أتتهم رسلُهم بالبيِّنات، أي: بالحُجَجِ والدَّلائِلِ الواضِحَاتِ الباهِرَاتِ القاطِعَاتِ.

وقال ابنُ إسحاقَ، عن عمرو بن مَيمُونٍ، عن عبد الله أنه قال في قوله: ﴿ لَا يَعلَمُهم إلا الله ﴾: كَذَبَ النَّسَّابُون. وقال عُروة بن الزبير: ما وَجَدنا أحداً يعرِف ما بعد مَعَدِّ بنِ عَدنان.

وقولُه: ﴿ فَرَدُّوا أيديَهُم في أفواههم ﴾، اختلف المفسرون في معناه فقيل: معناه أنهم أشاروا إلى أفواه الرسل يأمُرونهم بالسكوت عنهم، لَمَّا دعوهم إلى الله عز وجل. وقيل: بل وَضَعُوا أيديهم على أفواههم تكذيباً لهم. وقيل: بل هو عبارة عن سُكُوتهم عن جواب الرسل. وقال مجاهد، ومحمد بن كعب، وقتادةُ: معناه أنهم كَذَّبوهم ورَدُّوا عليهم قولَهم بأفواهِهم.

قال ابن جرير: وتوجيهه[1] أن «في» هاهنا بمعنى «الباء»، قال: وقد سُمِع من العرب: «أدخلك الله بالجنَّةِ»، يعنون في الجنةِ، وقال الشاعر:

وَأَرْغَبُ فيها عَن لَقيطٍ ورهْطه ... ولكنَّني عَن سِنْبِسٍ لَسْتُ أرغب

يريد: أرغب بها.

قلتُ: ويُؤيِّد قولَ مجاهدٍ تفسيرَ ذلك بتمام الكلام: ﴿ وقالوا إنا كفرنا بما أرسلتم به وإنا لَفِي شَكٍّ مما تَدعُوننا إليه مُرِيبٍ ﴾، فكأنَّ هذا تفسيرٌ لمعنى رَدِّ أيديهم في أفواههم.

وقال سفيانُ الثَّوريُّ، وإسرائيلُ، عن أبي إسحاقَ، عن أبي الأحوصِ، عن عبد الله في قوله: ﴿ فَرَدُّوا أيديَهم في أفواههم ﴾، قال: عَضُوا عليها غَيْظاً[2]. وقال شعبةُ، عن أبي إسحاقَ، عن هُبَيرة بن مَريَم، عن عبد الله أنه قال ذلك أيضاً. وقد اختاره عبد الرحمن بن زيد بن أسلم، ووجَّهه ابنُ جرير مختاراً له، بقوله تعالى عن المنافقين: ﴿ وإذا خَلَوا عَضُّوا عليكم الأنامِلَ من الغَيظِ ﴾.

وقال العَوفيُّ، عن ابن عباس: لما سَمِعوا كتابَ الله عَجبوا ورَجَعُوا بأيديهم إلى أفْواهِهِم.

وقالُوا: ﴿ إنَّا كَفرنا بما أُرسِلتُم به وإنا لفي شَكٍّ مما تدعونَنا إليه مريب ﴾، يقولون: لا نُصَدِّقكم فيما جِئتُم به؛ فإن عندنا فيه شَكّاً قوياً.

﴿ ۞ قَالَتْ رُسُلُهُمْ أَفِي ٱللَّهِ شَكٌّ فَاطِرِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ يَدْعُوكُمْ لِيَغْفِرَ لَكُم مِّن ذُنُوبِكُمْ وَيُؤَخِّرَكُمْ إِلَىٰٓ أَجَلٍ مُّسَمًّى قَالُوٓاْ إِنْ أَنتُمْ إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُنَا تُرِيدُونَ أَن تَصُدُّونَا عَمَّا كَانَ يَعْبُدُ ءَابَآؤُنَا فَأْتُونَا بِسُلْطَٰنٍ مُّبِينٍ ﴿١٠﴾ قَالَتْ لَهُمْ رُسُلُهُمْ إِن نَّحْنُ إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ يَمُنُّ عَلَىٰ مَن يَشَآءُ مِنْ عِبَادِهِۦ وَمَا كَانَ

(١) هذا قول الفراء في معاني القرآن ٢/٧٠، واستشهد بالبيت المذكور، وذكر القول والشاهد أيضاً في ٢/٢٢٣. وانظر تفسير الطبري ١٣/١٨٩.

(٢) تفسير الطبري ١٣/١٨٨.

لَنَآ أَن نَّأْتِيَكُم بِسُلْطَٰنٍ إِلَّا بِإِذْنِ ٱللَّهِ ۚ وَعَلَى ٱللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ ٱلْمُؤْمِنُونَ ﴿١١﴾ وَمَا لَنَآ أَلَّا نَتَوَكَّلَ عَلَى ٱللَّهِ وَقَدْ هَدَىٰنَا سُبُلَنَا ۚ وَلَنَصْبِرَنَّ عَلَىٰ مَآ ءَاذَيْتُمُونَا ۚ وَعَلَى ٱللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ ٱلْمُتَوَكِّلُونَ ﴿١٢﴾ ﴾

يخبر تعالى عما دار بين الكفَّار وبين رُسُلهم من المجادلة، وذلك أن أُممهم لما واجهُوهم بالشكِّ فيما جاءُوهم به من عبادة الله وحده لا شريكَ له، قالت الرسُل: ﴿ أفي الله شك﴾.

وهذا يَحتمِلُ شيئين، أحدُهما: أفي وجُودِه شكٌّ؟ فإن الفِطر شاهدةٌ بوجُودِه، ومجبولةٌ على الإقرار به، فإن الاعتراف به ضروريٌّ في الفِطَر السليمة، ولكن قد يَعرِضُ لبعضها شكٌّ واضطرابٌ، فتحتاجُ إلى النظَر في الدليل الموصِّل إلى وُجُوده، ولهذا قالت لهم الرسل تُرشِدُهم إلى طريق مَعرفته بأنه ﴿ فاطرُ السمواتِ والأرضِ ﴾، الذي خلقها وابتدَعَها على غير مثالٍ سَبَق، فإنَّ شواهِدَ الحُدوثِ والخَلْقِ والتَّسخِير ظاهرٌ عليها، فلا بدَّ لها من صانعٍ، وهو الله لا إلَه إلا هو، خالقُ كلِّ شيءٍ وإلَهُهُ ومَليكُه.

والمعنى الثاني في قولهم: ﴿ أفي الله شكٌّ ﴾، أي: أفي إلاهيَّته وتفرُّده بوجُوبِ العِبَادةِ له شكٌّ؟ وهو الخالقُ لجميعِ الموجودات، ولا يستحقُّ العبادةَ إلا هو، وحدَه لا شريكَ له، فإنَّ غالبَ الأُمم كانت مقرَّة بالصانع، ولكن تعبُد معه غيره من الوسائطِ التي يَظُنُّونها تَنفعُهم أو تُقَرِّبهم من الله زُلفَى.

وقالت لهم رُسُلهم: الله ﴿يدعُوكم ليغفرَ لكم من ذنوبكم﴾، أي: في الدار الآخرة، ﴿ويُؤخِّركم إلى أجل مُسمًّى ﴾، أي: في الدنيا، كما قال تعالى: ﴿ وأن استغفِروا ربَّكم ثم تُوبُوا إليه يُمتِّعكم متاعاً حسناً إلى أجل مُسمَّى ويُؤتِ كلَّ ذي فضلٍ فضلَه ﴾... الآية، فقالت لهم الأُمَمُ محاجِّين في مقام الرسالة بعد تقدير تسليمهم للمقام الأول، وحاصِلُ ما قالوه: ﴿ إن أنتم إلا بشرٌ مثلنا ﴾، أي: كيف نتَّبِعكم بمجرَّدِ قولكم، ولمَّا نَر منكم مُعجزةً؟! ﴿ فأتُونا بسلطان مبينٍ ﴾، أي: خارقٍ نقترحُه عليكم.

قالت لهم رُسُلُهم: ﴿ إن نحنُ إلا بَشرٌ مثلكم ﴾، أي: صَحِيحٌ أنا بشرٌ مثلكُم في البشريةِ، ﴿ ولكنَّ الله يَمنُّ على من يشاءُ من عبادِهِ ﴾، أي: بالرِّسالة والنُّبوَّة، ﴿ وما كان لنا أن نأتيكم بِسُلطان ﴾، على وَفْقِ ما سألتم، ﴿ إلا بإذنِ الله ﴾، أي: بعد سُؤالنا إياه، وإذْنِه لنا في ذلك، ﴿ وعلى الله فليتوكَّلِ المُؤمِنُون ﴾، أي: في جَمِيعِ أُمورِهم.

ثم قالت الرسُل: ﴿ وما لنا ألَّا نَتوكَّل على الله ﴾، أي: وما يمنعنا من التوكُّل عليه وقد هدانا لأقوَمِ الطُّرُقِ وأوضَحِها وأبيَنِها، ﴿ ولَنَصْبِرَنَّ على ما آذيتمُونا ﴾، أي: من الكلام السَّيِّىءِ، والأفعال السَّخِيفَةِ، ﴿ وعلى الله فَلْيتوكَّلِ المتوكِّلُون ﴾.

﴿ وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لِرُسُلِهِمْ لَنُخْرِجَنَّكُم مِّنْ أَرْضِنَآ أَوْ لَتَعُودُنَّ فِى مِلَّتِنَا ۖ فَأَوْحَىٰٓ إِلَيْهِمْ رَبُّهُمْ لَنُهْلِكَنَّ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿١٣﴾ وَلَنُسْكِنَنَّكُمُ ٱلْأَرْضَ مِنۢ بَعْدِهِمْ ۚ ذَٰلِكَ لِمَنْ خَافَ مَقَامِى وَخَافَ وَعِيدِ ﴿١٤﴾ وَٱسْتَفْتَحُوا۟ وَخَابَ كُلُّ جَبَّارٍ عَنِيدٍ ﴿١٥﴾ مِّن وَرَآئِهِۦ جَهَنَّمُ وَيُسْقَىٰ مِن مَّآءٍ صَدِيدٍ ﴿١٦﴾ يَتَجَرَّعُهُۥ وَلَا يَكَادُ يُسِيغُهُۥ وَيَأْتِيهِ ٱلْمَوْتُ مِن كُلِّ مَكَانٍ وَمَا هُوَ بِمَيِّتٍ ۖ وَمِن وَرَآئِهِۦ عَذَابٌ غَلِيظٌ ﴿١٧﴾ ﴾

يُخبِرُ تعالى عما توعَّدت به الأمم الكافرة رُسُلهم من الإخراج من أرضهم، والنفي من بين أظهُرِهم، كما قال قوم شُعيب له ولمن آمن به: ﴿ لَنُخرجَنَّك يا شُعيب والذين آمنوا معَك من قريتنا أو لَتعودُنَّ في مِلَّتنا ﴾. وقال

قوم لوط: ﴿ أخرِجُوا آل لُوطٍ من قريتكم إنهم أناسٌ يتطهَّرُون ﴾. وقال تعالى إخباراً عن مُشركي قُريشٍ: ﴿وَإِن كَادُوا لَيستَفِزُّونَكَ من الأرض لِيُخرجُوكَ منها وإذاً لا يلبثون خِلافك إلا قليلاً ﴾، وقال تعالى: ﴿ وإذ يمكُر بك الذين كفروا لِيُثبِتُوكَ أو يَقتلوك أو يُخرِجُوكَ ويَمكُرون ويمكُر الله والله خيرُ الماكِرينَ﴾.

وكان من صُنعِه تعالى أنه أظهَرَ رسولَه ونَصره، وجَعل له بسبب خُروجِه من مَكَّة أنصاراً وأعواناً وجُنداً، يُقاتِلون في سَبيل الله، ولم يَزل يُرَقِّيه تعالى من شيءٍ إلى شيءٍ، حتى فَتح له مكَّةَ التي أخرجَته، ومَكَّن له فيها، وأرغَم آناف أعدائِه منهم وسائِرِ الأرض، حتى دَخل الناسُ في دين الله أفواجاً، وظهرت كلمةُ الله ودينهُ على سائرِ الأديان، في مشارقِ الأرض ومَغاربها في أيسرِ زَمانٍ، ولهذا قال تعالى: ﴿ فأوحى إليهم رَبُّهم لَنُهلِكَنَّ الظالمين * وَلَنُسْكِنَنَّكُمُ الأرضَ من بعدهم ﴾، كما قال تعالى: ﴿ ولقد سَبقت كَلِمتُنا لعبادنا المُرسَلين * إنَّهم لهم المنصُورون * وإنَّ جُندنا لهم الغالبون﴾. وقال تعالى: ﴿ كَتَبَ الله لأغلبنَّ أنا ورُسُلي إن الله قويٌّ عَزيزٌ ﴾، وقال: ﴿ ولقد كتبنا في الزَّبُور من بعد الذِّكر أن الأرضَ يَرِثُها عباديَ الصَّالِحُون ﴾، ﴿ وقال موسى لقومه استَعِينُوا بالله واصبرُوا إنَّ الأرضَ لله يُورِثُها من يَشاءُ من عـباده والعاقِبَةُ للمتَّقين ﴾، وقال تعالى: ﴿ وأورثنا القومَ الذين كانوا يُستضعفُون مَشَارِقَ الأرضِ ومَغَارِبها التي باركنا فيها وتَمَّت كلمةُ ربِّك الحسنى على بَني إسرائيلَ بما صَبَرُوا ودَمَّرنا ما كان يصنَعُ فِرعَون وقومُه وما كانُوا يَعرِشُون ﴾.

وقولُه: ﴿ ذلك لمن خاف مَقَامي وخافَ وعِيدِ ﴾، أي: وعيدي هذا لمن خَاف مقامي بين يَدَي يوم القيامة، وخَشِيَ من وَعيدِي، وهو تَخْويفي وعذابي، كما قال تعالى: ﴿فأما من طَغَى * وآثر الحياةَ الدُّنيا * فإن الجَحِيم هي المأوَى * وأما من خافَ مَقَام ربِّه ونَهى النفسَ عن الهَوَى * فإن الجَنَّةَ هي المأوَى ﴾، وقال: ﴿ ولمن خافَ مَقامَ ربِّه جنتان ﴾.

وقولُه: ﴿ واستفتَحُوا ﴾، أي: استنصرت الرسُل ربَّها على قومها. قاله ابن عباس، ومجاهدٌ، وقتادةُ. وقال عبدُ الرحمن بن زيدِ بن أسلَم: استفتحت الأممُ على أنفُسِها، كما قالوا: ﴿ اللهمَّ إن كان هذا هو الحقَّ من عندك فأمطِرْ علينا حجارة من السماء أو ائتنا بعذابٍ أليم ﴾. ويَحْتَمِلُ أن يكون هذا مراداً وهذا مراداً، كما أنهم استفتحُوا على أنفُسِهم يوم بدر، واستفتح رسولُ الله واستَنصَرَ، وقال الله تعالى للمشركين: ﴿ إن تَستفتِحُوا فقد جاءَكُم الفتحُ وإن تَنتَهوا فَهُوَ خيرٌ لكم ﴾... الآية، والله أعلم.

﴿ وخابَ كلُّ جبَّارٍ عَنيدٍ ﴾، أي: مُتَجَبِّر في نفسِه معاند للحقِّ، كما قال تعالى: ﴿ ألقيا في جهنم كل كَفَّارٍ عَنيدٍ * مَنَّاعٍ للخيرِ مُعتدٍ مُريب * الذي جَعَل مع الله إلهاً آخرَ فألقياه في العذاب الشديد﴾. وفي الحديث: «إنه يُؤتَى بجهنم يوم القيامة، فتنادي الخلائقَ فتقول: إنِّي وُكِّلتُ بكلِّ جَبَّار عَنيدٍ»... الحديث[١]. خابَ وخَسِر، حينَ اجتهَد الأنبياءُ في الابتهالِ إلى ربِّها العزيزِ المُقتَدِرِ.

وقولُه: ﴿ من ورائه جهنَّم ﴾، و «وراءُ» هاهنا بمعنى «أمام»، كما قال تعالى: ﴿ وكان وراءَهم مَلِكٌ يأخذ كُلَّ سفينة غصباً﴾، وكان ابنُ عباسٍ يقرؤها: «وكان أمامَهم ملك»[٢]. أي: من وراء الجبَّار العَنيدِ جهنَّم، أي: هي له بالمرصاد، يَسكنُها مُخلَّداً يوم المعاد، ويُعرَض عليها غُدوّاً وعَشِيّاً إلى يوم التَّنادِ.

﴿ ويُسقَى مِن مَاءٍ صَدِيدٍ ﴾، أي: في النار ليس له شرابٌ إلا من حَميمٍ أو غَسَّاق، فهذا في غاية الحرارة، وهذا في غاية البَردِ والنَّتنِ، كما قال: ﴿هذا فَليَذُوقُوه حَميمٌ وغَسَّاقٌ * وآخَرُ من شَكلِه أزوَاجٌ ﴾. قال

(١) أخرجه الترمذي في أبواب صفة جهنم، عارضة الأحوذي ١١/٤٤ - ٤٥.
(٢) روح المعاني للآلوسي ١٦/٩.

مجاهد، وعكرمة: الصديدُ من القيح والدم. وقال قتادةُ: هو ما يسيلُ من لحمه وجلده. وفي روايةٍ عنه: الصَديدُ ما يخرجُ من جوف الكافر، قد خالط القيحَ والدمَ. وفي حديث شهر بن حَوشَب، عن أسماءَ بنتِ يزيدَ بن السَّكَنِ قالت قلتُ: يا رسولَ اللهِ، ما طينةُ الخَبَالِ؟ قال: صَدِيد أهل النار[1]. وفي روايةٍ: «عُصَارةُ أهل النار»[1].

وقال الإمام أحمد: حدثنا علي بن إسحاقَ، أنبأنا عبد الله، أنبأنا صفوانُ بن عمرو، عن عبيد الله بن بُسْرٍ، عن أبي أمامَةَ ـ رضي الله عنه ـ عن النبي ـ ﷺ ـ في قوله: ﴿ وَيُسقَى من ماءٍ صَدِيدٍ يَتجرَّعه ﴾، قال: يُقَرَّبُ إليه فَيتكرَّهُه، فإذا أُدنيَ منه شَوَى وَجْهَه، ووقعت فروةُ رأسِهِ، فإذا شربه قَطَّع أمعاءَه حتى يَخرُجَ من دُبرُه. يقول الله تعالى: ﴿ وسُقوا ماءً حَميماً فَقَطَّع أمعاءَهُم ﴾، ويقول: ﴿وإن يَستغِيثُوا يُغاثُوا بماءٍ كالمُهل يَشْوِي الوجوهَ بئس الشرابُ ﴾[٢].

وهكذا رواه ابنُ جرير، من حديث عبد الله بن المبارك[٢]، به. ورواه هو وابنُ أبي حاتم، من حديث بَقِيَّةَ ابن الوليد، عن صَفْوَانَ بن عَمرو، به.

وقولُه: ﴿ يَتَجرَّعه ﴾، أي: يَتغصَّصُه ويتكَرَّهُهُ، أي: يشربُه قَهراً وَقَسْراً، لا يَضعهُ في فيه حتى يَضْرِبه الملَكُ بمطراقٍ من حَديدٍ، كما قال تعالى: ﴿ ولهم مَقَامِعُ من حديدٍ ﴾. ﴿ ولا يكادُ يُسِيغُه ﴾، أي: يَزْدَرِدهُ لِسُوءِ لونه وَطَعْمِه وريحه، وحَرَارَته أو بَرْدِه الذي لا يُستَطَاعُ. ﴿ ويأتيه الموتُ من كل مكان ﴾، أي: يألم له جميعُ بَدَنه وجَوَارحه وأعضَائِه. قال مَيمونُ بن مِهرانٍ: من كلِّ عظم، وعِرْقٍ، وعَصَبٍ. وقال عِكْرِمةُ: حتّى من أطراف شعره. وقال إبراهيم التيمِيُّ: من موضع كل شعرة، أي: من جَسَدِه، حَتَّى من أطرافِ شَعْرِهِ. وقال ابنُ جَرير: ﴿ ويأتيه الموتُ من كلِّ مكانٍ ﴾، أي: من أمامِهِ وَوَرائِه. وعن يمينه وشِمَاله، ومن فَوْقِه ومن تحت أرجُلِه، ومن سائر أعضاء جَسَدِه.

وقال الضحَّاكُ، عن ابن عباس: ﴿ ويأتيه الموتُ من كلِّ مكان ﴾ قال: أنواعُ العذاب التي يُعَذِّبه اللهُ بها يوم القيامة في نار جهنَّم، وليس منها نوعٌ إلا الموت يأتيه منه لو كان يموتُ، ولكن لا يموتُ؛ لأن الله تعالى قال: ﴿ لا يُقضى عليهم فيموتوا ولا يُخفف عنهم من عذابها ﴾.

ومعنى كلام ابن عباس ـ رضي الله عنه ـ أنه ما من نَوعٍ من هذِه الأنواع من العَذابِ إلَّا إذا وَرَد عليه اقتضَي أن يَمُوتَ منه لو كان يموتُ، ولكنه لا يموتُ ليخلُدَ في دَوَام العذابِ والنَّكالِ، ولهذا قال: ﴿ ويأتيه الموتُ من كلِّ مكانٍ وما هو بميِّتٍ ﴾.

وقولُه: ﴿ ومن ورائه عذاب عليظٌ ﴾، أي: وله من بعد هذا الحال عذابٌ آخرُ غليظٌ، أي: مؤلمٌ صعبٌ شديدٌ أغلظُ من الذي قبلَه وأدهى وأمرُّ. وهذا كما قال تعالى عن شجرة الزقُّوم: ﴿ إنها شجرةٌ تخرُج في أصل الجَحِيم ۞ طلعُها كأنه رُءُوس الشياطين ۞ فإنهم لآكلونَ منها فمالئونَ منها البُطونَ ۞ ثم إن لهم عليها لَشَوْباً من حَمِيم ۞ ثم إنَّ مُرجِعَهم لإلى الجَحِيم﴾، فأخبر أنهم تارةً يكونُون في أكل زَقُّوم، وتارةً في شُرب حَمِيم، وتارةً يَرِدون إلى الجَحِيم، عياذاً بالله من ذَلك، وهكذا قال تعالى: ﴿هذه جَهَنَّم التي يُكَذِّبُ بها المُجرِمُون ۞ يَطُوفون

---

(١) أخرجه مسلم، وأبو داود، والنسائي عن جابر في كتاب الأشربة، صحيح مسلم ١٥٨٧/٣، وسنن أبي داود ٣٢٧/٣، وسنن النسائي ٣٢٧/٨، وأخرجه الترمذي عن ابن عُمر في الأشربة، انظر عارضة الأحوذي ٨/ ٥٠ ـ ٥٥.

(٤) مسند الإمام أحمد ٢٦٥/٥، وتفسير الطبري ١٣/ ١٩٥ ـ ١٩٦.

بينها وبين حَميم آنٍ﴾، وقال تعالى: ﴿إن شَجرةَ الزقُّوم * طعام الأثيم * كالمُهل يَغلي في البُطون * كَغَلي الحميم * خُذوه فاعتِلُوه إلى سَوَاءِ الجَحِيم * ثم صُبُّوا فوقَ رأسه من عذاب الحميم * ذُق إنّكَ أنت العزيزُ الكريمُ * إن هذا ما كنتم به تمترون﴾، وقال: ﴿وأصحابُ الشِّمالِ ما أصحابُ الشمال * في سَمُومٍ وَحميمٍ * وظِلٍّ من يحمُومٍ * لا باردٍ ولا كَريمٍ﴾، وقال تعالى: ﴿هذا وإنَّ للطاغين لشرَّ مآب * جهنم يَصْلَونها فبئس المهادُ * هذا فَلْيَذُوقوه حميمٌ وغساقٌ * وآخرُ من شَكْلِه أزواجٌ﴾ إلى غير ذلك من الآيات الدالة على تَنوُّع العذابِ عليهم، وتكراره وأنواعه وأشكاله، مما لا يُحصِيه إلا الله عز وجل، جزاءً وفاقاً، ﴿وما ربك بظلّامٍ للعبيدِ﴾.

﴿مَثَلُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ بِرَبِّهِمْۖ أَعْمَـٰلُهُمْ كَرَمَادٍ ٱشْتَدَّتْ بِهِ ٱلرِّيحُ فِى يَوْمٍ عَاصِفٍۖ لَّا يَقْدِرُونَ مِمَّا كَسَبُواْ عَلَىٰ شَىْءٍۚ ذَٰلِكَ هُوَ ٱلضَّلَـٰلُ ٱلْبَعِيدُ ﴿١٨﴾﴾

هذا مثلٌ ضَرَبه الله تعالى لأعمال الكُفّار الذين عَبَدوا مع الله غيره، وكَذَّبوا رُسُله، وبَنَوا أعمالَهم على غير أساسٍ صَحيح؛ فانهارت وَعَدِمُوها أحوَج ما كانوا إليها، فقال تعالى: ﴿مثلُ الذين كَفَرُوا بربِّهم أعمالهم﴾، أي: مثَل أعمالِ الذين كَفَرُوا يومَ القيامة إذا طَلَبوا ثوابها من الله تعالى؛ لأنهم كانُوا يَحسبون أنهم على شيءٍ، فلم يَجِدُوا شيئاً، ولا ألْفوا حاصِلاً إلا كما يَتحصَّل من الرَّماد إذا اشتدت به الريحُ العاصفة، ﴿في يوم عاصفٍ﴾، أي: ذي ريحٍ عاصفةٍ قوية، فلا يقدِرُون على شيءٍ من أعمالهم التي كَسَبوا في الدنيا إلا كَمَا يَقدِرُون على جَمع هذا الرَّماد في هذا اليوم، كما قال تعالى: ﴿وقَدِمنا إلى ما عَمِلوا من عَمَلٍ فجعلناهُ هباءً مَنْثوراً﴾، وقال تعالى: ﴿مثل ما يُنفقون في هذه الحياة الدنيا كمثل ريحٍ فيها صِرٌّ أصابَت حَرْثَ قومٍ ظَلَمُوا أنفُسهم فأهلكته﴾. وقال تعالى: ﴿يا أيها الذين آمنوا لا تُبطِلوا صَدَقاتِكم بالمنِّ والأذى كالذي يُنفِقُ ماله رئاءَ الناسِ وَلا يُؤمِنُ بالله واليومِ الآخر فَمثَلُهُ كَمَثلِ صَفْوانٍ عليه ترابٌ فأصابه وابلٌ فتركه صَلْداً لا يَقدِرُون على شيءٍ مما كَسَبوا والله لا يهدي القومَ الكافرين﴾.

وقال في هذه الآية: ﴿ذلك هو الضلالُ البعيد﴾، أي: سَعْيُهُمْ وَعَمَلُهم على غير أساسٍ ولا استقامةٍ، حتى فَقَدُوا ثوابَهم أحوَج ما هم إليه، ﴿ذلك هو الضلالُ البعيدُ﴾.

﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ ٱللَّهَ خَلَقَ ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ بِٱلْحَقِّۚ إِن يَشَأْ يُذْهِبْكُمْ وَيَأْتِ بِخَلْقٍ جَدِيدٍ ﴿١٩﴾ وَمَا ذَٰلِكَ عَلَى ٱللَّهِ بِعَزِيزٍ ﴿٢٠﴾﴾

يقولُ تعالى مخبراً عن قُدرته على مَعاد الأبدان يومَ القيامةِ، بأنه خَلَق السمواتِ والأرضَ التي هي أكبرُ من خَلْقِ الناسِ، أفليس الذي قَدَر على خَلْقِ هذه السمواتِ في ارتفاعها واتّساعها وعَظَمتها، وما فيها من الكواكبِ الثوابت والسيارات، والحَرَكات المختلِفاتِ، والآياتِ الباهراتِ، وهذه الأرضِ بما فيها من مهادٍ ووهادٍ وأوتادٍ، وبَرارِيَّ وصحارَى وقفارٍ، وبحارٍ وأشجارٍ، ونباتٍ وحيوانٍ، على اختلاف أصنافها ومنافعها، وأشكالها وألوانها؛ ﴿أوَلم يَروا أن الله الذي خلق السمواتِ والأرض ولم يعْيَ بخلقهنَّ بقادرٍ على أن يُحيِيَ الموتى بلَى إنّه على كلِّ شيءٍ قَدِيرٌ﴾، وقال تعالى: ﴿أوَلم يَرَ الإنسانُ أنا خلقناهُ من نطفةٍ فإذا هو خصيمٌ مُبينٌ * وضَرَب لنا مثلاً ونَسِيَ خَلْقَه قال مَن يُحيي العظامَ وهي رَمِيمٌ * قل يحييها الذي أنشأها أوّلَ مرّةٍ وهو بكلِّ خلقٍ عليم * الذي جَعل لكم

من الشَّجرِ الأخضرِ ناراً فإذا أنتم تُوقِدُون * أوَ ليس الذي خَلَق السمواتِ والأرضَ بقادرٍ على أن يخلُقَ مثلَهم بلى وهو الخَلّاقُ العَلِيم * إنما أمرُه إذا أراد شيئاً أن يقولَ له كُن فيكونُ * فسُبحان الذي بيده مَلكوتُ كُلِّ شيءٍ وإليه تُرجَعُون﴾.

وقولُه: ﴿ إن يشأ يُذهِبكم ويأتِ بِخَلْقٍ جديد * وما ذلك على الله بِعَزيز﴾، أي: بعظيم ولا مُمتنع، بل هو سَهلٌ عليه إذا خالفتم أمره أن يذهبكم ويأت بآخرين على غير صِفَتِكم، كما قال تعالى: ﴿ يا أيها الناسُ أنتم الفقراءُ إلى الله والله هو الغنيُّ الحَميدُ * إن يَشأ يُذهِبكُم ويأتِ بِخَلْقٍ جَدِيدٍ * وما ذلك على الله بِعَزِيزٍ ﴾، وقال: ﴿ وإن تتولَّوا يَستَبدِل قوماً غيركم ثم لا يكُونوا أمثالَكُم ﴾، وقال: ﴿ يا أيها الذين آمنوا من يرتدَّ منكم عن دِينه فَسوف يأتي الله بقومٍ يُحِبُّهم ويُحِبُّونه ﴾، وقال: ﴿ إن يشأ يُذهِبكم أيُّها الناسُ ويأتِ بآخرينَ وكان الله على ذلك قديراً ﴾

﴿ وَبَرَزُوا۟ لِلَّهِ جَمِيعًا فَقَالَ ٱلضُّعَفَٰٓؤُا۟ لِلَّذِينَ ٱسْتَكْبَرُوٓا۟ إِنَّا كُنَّا لَكُمْ تَبَعًا فَهَلْ أَنتُم مُّغْنُونَ عَنَّا مِنْ عَذَابِ ٱللَّهِ مِن شَىْءٍ ۚ قَالُوا۟ لَوْ هَدَىٰنَا ٱللَّهُ لَهَدَيْنَٰكُمْ ۖ سَوَآءٌ عَلَيْنَآ أَجَزِعْنَآ أَمْ صَبَرْنَا مَا لَنَا مِن مَّحِيصٍ ﴿٢١﴾

يقول: ﴿ وَبَرزُوا ﴾، أي: بَرَزت الخلائقُ كلُّها، بَرُّها وفاجِرُها لله وحدَه الواحدِ القَهّارِ، أي: اجتمَعُوا له في بَرازٍ من الأرض، وهو المكان الذي ليس فيه شيءٌ يستر أحدا.

﴿ فقال الضعفاءُ ﴾، وهم الأتباعُ لقادتهم وسادتهم وكُبَرائِهم الذين استكبَرُوا عن عبادةِ الله وحدَه لا شريكَ له، وعن مُوافَقَةِ الرُّسل، فقالوا لهم: ﴿ إنا كُنَّا لكم تَبَعاً ﴾، أي: مهما أمرتمونا ائتمرنَا وفَعَلنا، ﴿ فهل أنتم مُغنُونَ عنا من عذابِ الله من شيءٍ ﴾، أي: فهل تَدفَعُون عنا شيئاً من عذابِ الله، كما كنتم تَعِدُوننا وتُمنُّوننا؟ فقالت القادةُ لهم: ﴿ لو هدانا الله لهديناكم ﴾، ولكن حَقَّ علينا قولُ ربنـا، وسَبَق فينا وفِيكم قَدَرُ الله، وحقَّت كلمةُ العذاب على الكافرين. ﴿ سواءٌ علينا أجَزِعنا أم صَبَرنا ما لنا من محيصٍ ﴾، أي: ليس لنا خَلاصٌ مما نحن فيه إن صَبَرنا عليه أو جَزِعنا منه.

قال عبدُ الرحمن بن زيدِ بن أسلَمَ: إنَّ أهلَ النار قال بعضُهم لبعضٍ: تعالَوا، فإنما أدرك أهلُ الجنةِ ببكائهم وتضرُّعهم إلى الله عز وجل، تعالَوا نبكِ ونتضرَّع إلى الله. فبكوا وتضرَّعوا، فلما رأوا ذلك لا ينفعهُم قالوا: تعالَوا، فإنما أدرك أهلُ الجنةِ الجنةَ بالصَّبر، تعالَوا حتى نَصبِرَ. فصبروا صَبراً لم يُرَ مثلُه، فلم ينفعهم ذلك، فَعِندَ ذلك قالُوا: ﴿ سَواءٌ علينا أجَزِعنا أمْ صَبَرنا ما لنا من مَحِيصٍ ﴾[1].

قلتُ: والظاهرُ أنَّ هذه المراجعةَ في النار بعد دُخولهم إليها، كما قال تعالى: ﴿ وإذ يتحاجُّون في النار فيقولُ الضعفاءُ للذين استكبَرُوا إنا كنا لكم تَبَعاً فهل أنتم مُغنُون عَنّا نصيباً من النار * قال الذين استكبَرُوا إنا كلٌّ فِيها إن الله قد حَكَم بين العِباد ﴾، وقال تعالى: ﴿ قال ادخُلُوا في أُمَمٍ قد خَلَت من قبلِكم من الجنِّ والإنسِ في النّار، كُلّما دخلت أُمةٌ لعنت أُختها حَتّى إذا ادّاركُوا فيها جَميعاً قالت أُخراهم لأولاهم ربَّنـا هؤلاء أضَلُّونا فآتِهم عذاباً ضِعفاً من النار * قال لِكُلٍّ ضِعفٌ ولكن لا تعلمونَ * وقالت أُولاهم لأُخراهم فما كان لكم علينا من فضلٍ فذوقوا العذابَ بما كنتم تكسِبُون ﴾، وقال تعالى: ﴿ يومَ تُقَلَّبُ وجوهُهُم في النار يقولون يا ليتنا أطعنَا الله

(١) تفسير الطبري ١٣/١٩٩ ـ ٢٠٠.

وأطعنا الرسولا * وقالوا رَبَّنا إنا أطعنا سادَتَنا وكُبَراءنا فأَضلُّونا السَّبيلا * ربنا آتهم ضعْفَين من العَذاب والْعَنْهُم لعناً كَبِيراً﴾.

وأما تخاصُمهم في المحشر فقال تعالى: ﴿ ولو تَرَى إذ الظالمون موقوفون عند ربِّهم يرجعُ بعضُهم إلى بعضٍ القول يقولُ الذين استُضعِفُوا للذين استكبروا لولا أنتم لَكُنَّا مؤمنين * قال الذين استكبَرُوا للذين استضعفـوا أنحنُ صَدَدْناكم عن الهُدَى بعد إذ جاءكم بل كُنتم مُجرمين * وقال الذين استُضعِفُوا للذين استكبروا بل مَكْرُ اللَّيلِ والنَّهارِ إذ تأمروننا أن نكفُرَ بالله ونجعلَ له أنداداً وأَسرُّوا الندامةَ لما رَأَوُا العذابَ وجعلنا الأغلالَ في أعناقِ الذين كفروا هل يُجزَون إلا ما كانوا يعملون﴾.

﴿ وَقَالَ ٱلشَّيْطَٰنُ لَمَّا قُضِيَ ٱلْأَمْرُ إِنَّ ٱللَّهَ وَعَدَكُمْ وَعْدَ ٱلْحَقِّ وَوَعَدتُّكُمْ فَأَخْلَفْتُكُمْ ۖ وَمَا كَانَ لِيَ عَلَيْكُم مِّن سُلْطَٰنٍ إِلَّآ أَن دَعَوْتُكُمْ فَٱسْتَجَبْتُمْ لِي ۖ فَلَا تَلُومُونِي وَلُومُوٓا۟ أَنفُسَكُم ۖ مَّآ أَنَا۠ بِمُصْرِخِكُمْ وَمَآ أَنتُم بِمُصْرِخِيَّ ۖ إِنِّي كَفَرْتُ بِمَآ أَشْرَكْتُمُونِ مِن قَبْلُ ۗ إِنَّ ٱلظَّٰلِمِينَ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٢٢﴾ وَأُدْخِلَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ جَنَّٰتٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَا بِإِذْنِ رَبِّهِمْ ۖ تَحِيَّتُهُمْ فِيهَا سَلَٰمٌ ﴿٢٣﴾ ﴾

يُخبر تعالى عما خَطَب به إبليس أتباعَه بَعْدَ ما قَضَى الله بين عباده، فأدخلَ المؤمنينَ الجناتِ، وأسكَنَ الكافِرينَ الدَّرَكاتِ، فقام فيهم إبليسُ ـ لعنه الله ـ حينئذٍ خطيباً ليزيدَهم حُزناً إلى حُزْنِهم، وغَبناً إلى غَبْنِهم، وحَسْرة إلى حسرتهم، فقال: ﴿إن الله وعَدَكم وَعْدَ الحقِّ﴾، أي: على ألسنة رُسُله، ووعدكم في اتّباعهم النجاةَ والسلامةَ، وكان وعداً حقّاً، وخبراً صِدْقاً. وأما أنا فوعدتُكم وأخلفتُكم، كما قال الله تعالى: ﴿يَعِدُهم ويمنِّيهم وما يَعِدُهم الشيطانُ إلا غُروراً﴾.

ثم قال: ﴿وما كان لي عليكُم من سِلطانٍ﴾، أي: ما كان لي عليكُم فيما دَعوتكُم إليه من دليل ولا حُجَّةٍ على صدقِ ما وَعَدتُكم به، ﴿إلا أن دَعوتكُم فاستجبتُم لي﴾، بمجرَّد ذلك، هذا وقد أقامت عليكم الرسلُ الحُجَجَ والأدلةَ الصَّحيحةَ على صدقِ ما جاءوكم به، فخالفتُموهم فصرتُم إلى ما أنتم فيه، ﴿ فلا تَلُوموني ﴾ اليومَ، ﴿ ولومُوا أنفسكم ﴾، فإن الذنب لكم، لِكَونكم خالفتم الحُجَجَ واتبعتُموني بمجرَّدِ ما دعوتُكم إلى الباطل، ﴿ما أنا بِمُصْرِخِكُمْ﴾، أي: بنافعكم ومُنقِذكم ومُخلِّصكم مما أنتم فيه، ﴿وما أنتم بمُصرِخيَّ﴾، أي: بنافعيَّ بإنقاذِي مما أنا فيه من العذابِ والنكالِ، ﴿إني كفرتُ بما أشركتُمونِ من قبل﴾، قال قتادةُ: أي بسببِ ما أشركتُموني من قبل، وقال ابنُ جرير: يقول: إني جَحدت أن أكونَ شريكاً لله عز وجل(١).

وهذا الذي قاله هو الراجحُ، كما قال تعالى: ﴿ ومن أضلُّ ممن يدعُو من دون الله من لا يستجيبُ له إلى يوم القيامة وهم عن دُعائِهم غافلون * وإذا حُشِرَ الناس كانوا لهم أعداءً وكانوا بعبادَتهم كافرين﴾، وقال: ﴿ كلاّ سيكفرون بعبادتهم ويكونون عليهم ضِدّاً ﴾.

وقولُه: ﴿ إن الظالمين ﴾، أي: في إعراضهم عن الحق واتباعهم الباطل ﴿ لهم عذابٌ أَلِيمٌ ﴾.

والظاهرُ من سياق الآية أنَّ هذه الخطبة تكون من إبليس بعد دخولهم النار، كما قَدَّمنا. ولكن قد ورد في

---

(١) تفسير الطبري ١٣/ ٢٠٠.

حديث رواه ابن أبي حاتم ـ وهذا لفظه ـ وابنُ جرير من رواية عبد الرحمن بن زياد: حدثني دُخَين الحَجْري، عن عقبة بن عامر، عن رسولِ الله ـ ﷺ ـ أنه قال: «إذا جَمَعَ الله الأوَّلين والآخِرين فقَضَى بينهم، فَفَرِغ من القضاء، قال المؤمنون: قد قَضَى بيننا ربُّنا، فمن يشفع لنا؟ فيقولون: انطلقوا بنا إلى آدم ـ وذكر نوحاً، وإبراهيم، وموسى، وعيسى ـ فيقول عيسى: أَدُلُّكم على النبيِّ الأميِّ. فيأتوني، فيأذن الله لي أن أقومَ إليه فيثورُ من مجلسي من أطيب ريح شَمَّها أحدٌ قطُّ، حتى آتي ربي فَيُشَفِّعني، ويجعل لي نوراً من شعر رأسي إلى ظُفرِ قَدَمي، ثم يقول الكافرون هذا: قد وجدَ المؤمنونَ من يشفَع لهم، فمن يشفع لنا؟ ما هو إلا إبليسُ، هو الذي أضلَّنا، فيأتون إبليسَ فيقولون: قد وجد المؤمنونَ من يشفَع لهم، فقم أنت فاشفَع لنا، فإنك أنت أضْللتنا. فيقومُ فيثورُ من مجلِسِهِ مِن أَنْتَنِ ريحٍ شَمَّها أحدٌ قطُّ، ثم يَعظُم نَحِيبُهم، ﴿ وقال الشيطان لما قُضِيَ الأمر إنَّ الله وعَدكم وَعْدَ الحقِّ ووعدْتكم فأخلفتُكم وما كان لي عليكم من سلطانٍ إلا أن دعوتُكم فاستجبتم لي فَلَا تَلُومُونِي ولوموا أنفسكم ﴾.

وهذا سياق ابن أبي حاتمٍ. ورواه ابنُ المبارك عن رِشْدين بن سعد، عن عبد الرحمن بن زياد بن أَنْعُمٍ، عن دُخَين، عن عقبة، به مرفوعاً.

وقال محمدُ بن كعب القُرَظي ـ رحمه الله ـ: لما قال أهل النار: ﴿سواءٌ علينا أَجَزِعنا أم صَبَرنا ما لنا من مَحِيصٍ ﴾، قال لهم إبليس: ﴿ إن الله وَعَدكم وَعْدَ الحقِّ ﴾... الآية، فلما سَمِعوا مقالته مَقَتوا أنفُسَهم، فَنُودوا: ﴿ لَمَقْتُ الله أكبرُ من مقتِكم أنفسَكم إذ تُدعَون إلى الإيمانِ فتكفُرُونَ ﴾.

وقال عامر الشعبيُّ: يقوم خطيبان يومَ القيامة على رُءُوس الناس، يقول الله لعيسى ابن مريمَ: ﴿ أأنتَ قُلتَ للناسِ اتَّخِذُوني وأُمِّي إلَهين من دون الله ﴾... إلى قوله: ﴿ قال الله هذا يومُ ينفعُ الصَّادِقين صِدْقُهم﴾، قال: ويقومُ إبليسُ ـ لعنه الله ـ فيقول: ﴿ وما كان لي عليكمُ من سُلطانٍ إلا أن دعوتُكم فاستجبتُم لي ﴾... الآية.

ثم لما ذكر تعالى مآل الأشقياء وما صارُوا إليه من الخزي والنكال، وأنَّ خطيبهم إبليسُ، عطفَ بحالِ السُّعداءِ وأنهم يدخُلون يومَ القيامةِ جنات تجري من تحتها الأنهارُ سارحةً فيها حيثُ ساروا وأينَ سَارُوا، ﴿خالدين فيها﴾، ماكثينَ أبداً لا يَحُولون ولا يَزُولون، ﴿بإذن ربِّهم تحيتُهم فيها سلامٌ﴾، كما قال تعالى: ﴿حتَّى إذا جاءُوها وفُتِحت أبوابُها وقال لهم خزنتها سلامٌ عليكم ﴾، وقال تعالى: ﴿ والملائكةُ يدخُلون عليهم من كلِّ باب ● سلامٌ عليكم﴾، وقال تعالى: ﴿ ويُلقَّونَ فيها تحيةً وسلاماً ﴾، وقال: ﴿ دعواهُم فيها سبحانَك اللهمَّ وتحيَّتُهم فيها سلامٌ وآخرُ دعواهُم أنِ الحمدُ لله ربِّ العالمين ﴾.

﴿ أَلَمْ تَرَ كَيْفَ ضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلًا كَلِمَةً طَيِّبَةً كَشَجَرَةٍ طَيِّبَةٍ أَصْلُهَا ثَابِتٌ وَفَرْعُهَا فِى ٱلسَّمَآءِ ﴿٢٤﴾ تُؤْتِىٓ أُكُلَهَا كُلَّ حِينٍۭ بِإِذْنِ رَبِّهَا ۗ وَيَضْرِبُ ٱللَّهُ ٱلْأَمْثَالَ لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ ﴿٢٥﴾ وَمَثَلُ كَلِمَةٍ خَبِيثَةٍ كَشَجَرَةٍ خَبِيثَةٍ ٱجْتُثَّتْ مِن فَوْقِ ٱلْأَرْضِ مَا لَهَا مِن قَرَارٍ ﴿٢٦﴾ ﴾

قال عليُّ بن أبي طلحةَ، عن ابن عباس قوله: ومثلُ كلمةٍ طيبةٍ شهادةُ أن لا إلَه إلا الله، ﴿ كشجرةٍ طَيِّبةٍ ﴾، وهو المؤمن، ﴿ أصلُها ثابتٌ ﴾، يقول: لا إلَه إلا الله في قلب المؤمن، ﴿ وفرعُها في السماء ﴾، يقول: يُرفَعُ بها عَمَلُ المؤمن إلى السماء[1].

(١) تفسير الطبري ٢٠٣/١٣.

وهكذا قال الضحَّاكُ، وسعيد بن جُبير، وعكرمةُ، وقتادةُ، وغيرُ واحد: إن ذلك عبارةٌ عن المؤمن، وقوله الطيِّبِ، وعَمَلِه الصالحِ ، وإنَّ المؤمنَ كالشجرةِ من النَّخلِ ، لا يزال يُرفَع له عملٌ صالحٌ في كُلِّ حينٍ ووقتٍ، وصباحٍ ومساءٍ. وهكذا رواه السُّديّ، عن مُرَّةَ، عن ابن مسعود قال: هي النخلة. وشعبة، عن معاوية بن قُرَّة، عن أنس: هي النخلة. وحمَّادُ بن سَلَمة، عن شُعَيب بن الحبحاب، عن أنس: أن رسول الله ـ ﷺ ـ أُتِيَ بِقِنَاع[1] بُسْرٍ فقال[2]: ﴿ومثل كلمة طيبة كشجرة طَيِّبة﴾، قال: هي النخلة[3]. ورُوِي من هذا الوجه ومن غيره، عن أنس موقوفاً. وكذا نصَّ عليه مسروقٌ، ومجاهدٌ، وعكرمةُ، وسعيد بنُ جبير، والضحاكُ، وقتادةُ، وغيرهم.

وقال البخاري: حدثنا عُبَيدُ بن إسماعيل، عن أبي أسامة، عن عُبَيد الله، عن نافع، عن ابن عُمَر قال: كنا عند رسول الله ـ ﷺ ـ فقال: «أخبرُوني عن شجرةٍ تُشبه ـ أو: كالرجل ـ المسلم، لا يتحاتُّ ورقُها [ولا، ولا، ولا]، ﴿تُؤتِي أُكلها كلَّ حين﴾. قال ابنُ عمر: فوقع في نفسي أنها النخلةُ، ورأيتُ أبا بكر وعُمَر لا يتكلَّمان، فكرهتُ أن أتكلَّمَ، فلما لم يقولوا شيئاً قال رسولُ الله ـ ﷺ ـ: هي النخلةُ. فلما قمنا قلت لعُمَر: يا أبتاه، والله لقد كان وَقَع في نفسي أنها النخلةُ. قال: ما منعك أن تَكَلَّم؟ قال: لم أركُم تَتَكلَّمون، فكرهت أن أتكلم أو أقول شيئاً. قال عمر: لأن تكون قلتَها أحبُّ إليَّ من كذا وكذا[4].

وقال أحمد: حدثنا سفيانُ، عن ابن أبي نَجِيح، عن مجاهدٍ: صَحِبتُ ابنَ عمر إلى المدينة، فلم أسمعهُ يحدِّث عن رسول الله ـ ﷺ ـ إلا حَدِيثاً واحداً ـ قال: كُنَّا عند رسولِ الله ـ ﷺ ـ فأتي بجُمَّار. فقال: «من الشجر شجرةٌ مَثَلها مثلُ الرجل المسلم. فأردتُ أن أقول: «هي النخلة»، فنظرت فإذا أنا أصغرُ القوم، فسكتُّ، فقال رسول الله ـ ﷺ ـ: «هي النخلةُ». أخرجاه[5].

وقال مالك وعبد العزيز، عن عبد الله بن دينار، عن ابن عُمَر قال: قال رسولُ الله ـ ﷺ ـ يوماً لأصحابه: «إنَّ من الشَجر شجرةً لا يُطْرَحُ ورقُها، مَثَلُ المؤمن. قال: فوقع الناس في شَجَر البَوَادِي، ووَقَع في قلبي أنها النخلة، فاستَحْيَيتُ، حتى قال رسول الله ـ ﷺ ـ: هي النخلة. أخرجاه أيضاً[6].

وقال ابنُ أبي حاتم: حدثنا أبي، حدثنا موسى بن إسماعيل، حدثنا أبانُ ـ يعني ابن يزيدَ العطَّارُ ـ حدثنا قتادةُ: أن رجلاً قال: يـا رسولَ الله، ذهبَ أهلُ الدُّثُورِ[7] بالأجُور! فقال: «أرأيتَ لو عَمَدَ إلى متاع الدنيا، فرَكَّب بعضَها على بعض أكان يبلغُ السماء؟ أفلا أخبرك بعملٍ أصلُه في الأرض وفرعُه في السماء؟ قال: ما هو يا رسولَ الله؟ قال: تقولُ: «لا إله إلا الله، والله أكبرُ، وسبحانَ الله، والحمدُ لله»، عشر مرات في دُبُرِ كُلِّ صلاة، فذاك أصله في الأرض، وفرعُه في السماء»[8].

وعن ابن عباس: ﴿ كشَجَرة طيبة ﴾، قال: هي شجرةٌ في الجنة.

---

(١) القِنَاعُ هنا: الطبق الذي يؤكل عليه الطعام أو الفاكهة، والبُسر: تمر النَّخْلِ قبل أن يرطب.

(٢) في الأصل: «فقرأ». وليس المذكور لفظَ الآيةِ.

(٣) رواه الترمذي بإسناده إلى حماد مرفوعاً، ثم رواه من وجه آخر موقوفاً، وقال: «وهذا أصح من حديث حماد بن سلمة، ورَوَى غير واحدٍ مثل هذا موقوفاً، ولا نعلم أحداً رفعه غير حماد بن سلمة». عارضة الأحوذي، تفسير سورة إبراهيم ١١/٢٨٥، وقد أخرجه الطبري مرفوعاً ١٣/٢٠٤ ـ ٢٠٥.

(٤) فتح الباري، تفسير سورة إبراهيم ٨/٣٧٧. وما بين القوسين عنه.

(٥) مسند الإمام أحمد ٢/١٢، وفتح الباري، كتاب العلم ١/١٦٥، ومسلم، كتاب صفة القيامة ٤/٢١٦٥.

(٦) فتح الباري، كتاب العلم ١/١٤٤، ومسلم، كتاب صفة القيامة ٤/٢١٦٤ ـ ٢١٦٥. وتفسير الطبري ١٣/٢٠٦.

(٧) الدثور: جمع دَثْرٍ، وهو المال الكثير.

(٨) الدر المنثور ٥/٢٢.

وقولُه: ﴿ تؤتي أُكلها كل حين ﴾، قيل: غُدوةً وعَشياً. وقيل: كلَّ شهرٍ، وقيل: كلَّ شهرين: وقيل: كلَّ ستةِ أشهُر. وقيل: كلَّ سبعةِ أشهرٍ. وقيل: كلَّ سنةٍ.

والظاهرُ من السِّياق أن المؤمِنَ مثلهُ كمَثَلِ شجرةٍ، لا يزال يوجَدُ منها ثمر في كلِّ وقتٍ من صيف أو شتاء، أو ليل أو نهار، كذلك المؤمنُ لا يزالُ يُرفَع له عملٌ صالحٌ آناءَ الليل وأطرافَ النهار في كلِّ وقتٍ وحينٍ.

﴿ بإذن ربِّها ﴾، أي: كاملاً حَسَناً كثيراً طيبا، ﴿ ويَضرِب الله الأمثالَ للناسِ لعلَّهم يتذكَّرون ﴾.

وقولُه: ﴿ ومثلُ كلمةٍ خبيثةٍ كشجرةٍ خبيثةٍ ﴾، هذا مثلُ كفرِ الكافر، لا أصلَ له ولا ثباتَ، وشُبِّه بشجرة الحَنْظَل. ويقال لها: «الشَّرْيان»[(١)]. رواه شعبةُ عن معاويةَ بن قُرَّة، عن أنسِ بن مالكٍ: أنها شجرةُ الحنظلِ.

وقال أَبو بكر البَزَّارُ الحافظُ: حدثنا يحيى بن محمد بـن السكن، حدثنا أبو زيد سعيد بن الرَّبيع، حدثنا شعبةُ، عن معاوية بن قُرَّةَ، عن أنس ـ أحسَبه رَفعه ـ قال: «مثلُ كلمةٍ طيِّبة كشجرة طيِّبةٍ»، قال: هي النخلةُ، ﴿ ومثل كلمة خبيثة كشجرة خبيثةٍ ﴾، قال: هي الشَّرْيان.

ثم رواه عن محمد بن المثنى، عن غُنْدَر، عن شعبةَ، عن معاوية، عن أنس موقوفاً.

وقال ابن أبي حاتم: حدثنا أبي، حدثنا موسى بن إسماعيل، حدثنا حَمَّاد ـ هو ابن سَلَمةَ ـ عن شعيب بن الحَبْحاب، عن أنس بن مالك: أن النبي ـ ﷺ ـ قال: «ومثلُ كلمةٍ خبيثةٍ كَشَجرةٍ خبيثةٍ»، هي الحنظلةُ. فأخبرت بذلك أبا العالية فقال: هكذا كنا نسمَعُ.

ورواه ابنُ جرير، من حديث حَمَّاد بن سَلَمة، به. ورواه أبو يعلى في مسنده بأبسط من هذا فقال:

حدثنا غسان، عن حمَّاد، عن شُعَيب، عن أنس: أن رسولَ الله ـ ﷺ ـ أتى بقِنَاع عليه بُسْر، فقال: «ومثلُ كلمةٍ طيبةٍ كشجرة طيبةٍ، أصلها ثابتٌ وفرعها في السماء. تؤتي أكلها كلَّ حين بإذن ربها»، فقال: هي النخلة ـ ﴿ ومثل كلمة خبيثة كشجرة خبيثة اجتُثَّت من فوق الأرض ما لها من قرار﴾، قال: هي الحنظلُ. قال شُعَيب: فأخبرت بذلك أبا العالية فقال: كذلك كنا نسمَعُ[(٢)].

وقوله: ﴿ اجتُثَّت ﴾، أي: استُؤصِلَت ﴿ من فوق الأرض ما لها من قَرَارٍ﴾، أي: لا أصلَ لها ولا ثباتَ، كذلك الكفرُ لا أصلَ له ولا فرعَ، ولا يصعَدُ للكافرِ عَمَلٌ، ولا يُتقَبَّل منه شيءٌ.

﴿ يُثَبِّتُ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ بِٱلْقَوْلِ ٱلثَّابِتِ فِي ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَفِي ٱلْآخِرَةِ وَيُضِلُّ ٱللَّهُ ٱلظَّٰلِمِينَ وَيَفْعَلُ ٱللَّهُ مَا يَشَآءُ ﴿٢٧﴾ ﴾

قال البخاري: حدثنا أبو الوليد، حدثنا شعبةُ، أخبرني عَلْقَمةُ بنُ مَرْثَد قال: سَمِعتُ سعدَ بن عُبَيدة، عن البراء بـن عازب ـ رضي الله عنه ـ أن رسولَ الله ـ ﷺ ـ قال: «المسلمُ إذا سُئِل في القبر شَهد أن لا إلَه إلا الله وأنَّ محمداً رسولُ الله، فذلك قولُه: ﴿ يُثبِّت الله الذين آمنُوا بالقولِ الثابتِ في الحياةِ الدنيا وفي الآخرة ﴾»[(٣)].

ورواه مسلم أيضاً وبقية الجماعة كلهم، من حديث شُعبَةَ، به[(٣)].

(١) في لسان العرب عن الزمخشري: الشَّرْيان والشَّرْيُ: الحنظل.

(٢) مسند أبي يعلى ٧/١٨٢ ـ ١٨٣.

(٣) فتح الباري، تفسير سورة إبراهيم ٨/٣٧٨، ومسلم، كتاب الجنة وصفة نعيمها ٤/٢٢٠١، وسنن أبي داود، كتاب السنة ٤/٢٣٨، وعارضة الأحوذي، تفسير سورة إبراهيم ١١/٢٨٦، والنسائي في كتاب التفسير من السنن الكبرى، وابن ماجه، كتاب الزهد ٢/١٤٢٧.

وقال الإمام أحمدُ: حدثنا أبو معاوية، حدثنا الأعمشُ، عن المِنهال بن عمرو، عن زاذانَ، عن البراء بن عازبٍ قال: خَرَجنا مع رسولِ الله ـ ﷺ ـ في جنازةِ رجلٍ من الأنصار، فانتهينا إلى القبرِ ولما يُلحَد، فجلس رسولُ الله ـ ﷺ ـ وجلسنا حوله كأن على رُءُوسنا الطيرَ، وفي يده عودٌ يَنْكُتُ[1] به في الأرضِ، فرفع رأسه فقال: استعيذُوا بالله من عذاب القبر. مرتين أو ثلاثاً، ثم قال: إنَّ العبدَ المؤمنَ إذا كان في انقطاعٍ من الدنيا وإقبالٍ إلى الآخرةِ نَزَل إليه ملائكةٌ من السماء بيضُ الوجوهِ كأنَّ وجوهَهم الشمسُ، معهم كَفَنٌ من أكفانِ الجنة وحَنُوط من حَنُوط الجنَّةِ، حتى يجلسوا منه مدَّ البَصر. ثم يجيءُ ملكُ الموتِ حتى يجلِسَ عند رأسِهِ، فيقول: أيَّتُها النفسُ الطيِّبةُ، اخرُجي إلى مغفرةٍ من الله ورِضْوانٍ. قال: فتخرُجِ تَسِيل كما تَسِيل القطرُ من فِي السِّقَاءِ، فيأخذُها، فإذا أخذَها لم يدعُوها في يَدِه طَرْفَة عينٍ حتى يأخذُوها فيجعلُوها في ذلك الكَفَنِ وفي ذلك الحَنُوطِ، ويخرُج منها كأطيبِ نَفْحةِ مِسْك وُجِدت على وَجْهِ الأرض. فيصعَدُون بها، فلا يَمرُّون ـ يعني بها ـ على مَلإٍ من الملائكة إلا قالوا: ما هذا الروح [الطيِّبُ]؟ فيقولون: فلان ابن فلانٍ، بأحسنِ أسمائه التي [كانوا] يُسمُّونه بها في الدنيا، حتى يَنتهُوا به إلى السَّماءِ الدنيا، فيستفتحون له، فيُفتح له، فيشيعه من كل سماءٍ مُقرَّبُوها إلى السماء التي تليها، حتى ينتهي به إلى السماء السابعةِ، فيقول الله: اكتبوا كتابَ عبدي في عِلِّيِّين، وأعيدُوه إلى الأرض، فإني منها خلقتُهم وفيها أُعِيدُهم، ومنها أخرجهم تارة أخرى.

قال: فتُعاد روحُه [في جَسَدِه]، فيأتيه مَلَكان فيُجلِسانِه فيقُولان له: من ربُّك؟ فيقول: ربِّي الله. فيقولون له: ما دينُك؟ فيقول: ديني الإسلامُ. فيقولان له: ما هذا الرجُل الذي بُعِثَ فيكم؟ فيقول: هو رسولُ الله. فيقولان له: وما عِلْمُك؟ فيقول: قرأت كتابَ الله، فآمنتُ به وصدَّقت. فيُنادي منادٍ من السماء: أن صَدَق عبدِي، فأفرِشُوه من الجنة، وألْبِسُوه من الجنَّةِ، وافتحُوا له باباً إلى الجنة. قال: فيأتِيه من رَوْحِها[2] وطيبِها، ويُفسَحُ له في قبرِه مَدَّ بَصَرِه. ويأتيه رجلٌ حَسَنُ الوجهِ، حَسَنُ الثِّيابِ، طَيِّبُ الرِّيحِ، فيقول: أبشر بالذي يسرُّك، هذا يومُك الذي كنت تُوعَد. فيقول له: مَن أنتَ؟ فوجهُكَ الوجهُ يجيءُ بالخير. فيقول: أنا عَمَلُك الصالحُ. فيقولُ: ربِّ، أقِمِ الساعةَ، ربِّ، أقِمِ الساعةَ، حتى أرْجِعَ إلى أهلي ومالي[3].

قال: وإن العبدَ الكافِرَ إذا كان في انقطاعٍ من الدنيا وإقبالٍ من الآخرة، نَزَل إليه من السماء ملائكةٌ سود الوُجوهِ معهم المُسُوح[4]، فَجَلسوا منه مَدَّ البصرِ. ثم يجيءُ مَلَكُ الموتِ حتى يجلِسَ عند رأسه، فيقول: أيتها النفسُ الخبيثةُ، اخرُجي إلى سَخَطٍ من الله وغَضَبٍ. قال: فتُفرَّقُ في جسده، فينتزِعُها كما يُنتزَعُ السَّفُّودُ من الصُّوفِ المبلول، فيأخذها، فإذا أخذها لم يَدَعُوها في يده طرفة عينٍ، حتى يجعلُوها في المُسُوح. ويخرج منها كأنتنِ ريحِ جيفةٍ وُجِدت على وجهِ الأرض، فيصعدون بها فلا يمرُّون بها على مَلَإٍ من الملائكة إلا قالوا: ما هذا الروحُ الخبيث؟ فيقولون: فلان ابن فلان. بأقبح أسمائه التي كان يُسمُّونه بها في الدنيا. حتّى ينتهي به إلى السماء الدنيا، فيُستفتَحَ له، فلا يُفتَح له. ثم قرأ رسولُ الله ـ ﷺ ـ: ﴿ لا تُفَتَّح لهم أبوابُ السماءِ ولا يدخُلون الجنةَ حتى يلِج الجمَلُ في سَمِّ الخِيَاطِ ﴾، فيقول الله: اكتبُوا كتابه في سِجِّين ـ في الأرض السفلى ـ فتُطرَح روحُه طَرْحاً. ثم قرأ: ﴿ ومن يُشرك بالله فكأنما خرَّ من السماء فتخطفُه الطير أو تهوي به الريح في مكان سَحيق ﴾.

(١) أي: يضرب به الأرض.
(٢) الرَّوحُ: بَرْدُ نسيم الريح.
(٣) المعنى: حتى أرجع لمشاهدة أهلي وما قُدِّر لي من الأجر على ما قدّمت من العمل الصالح.
(٤) المُسُوح: جمع مِسْح، وهو كساء من الشَّعْر.

فتُعاد روحه في جَسَدِهِ، ويأتيه مَلَكان فَيُجلِسانه ويقـولان له: من ربُّـك؟ فيقول: هـاه هاه، لا أدري! فيقولان له: ما دينك؟ فيقول: هاه هاه، لا أدري. فيقولان له: ما هذا الرجل الذي بُعِث فيكم؟ فيقول: هاه هاه، لا أدري! فينادي منادٍ من السماء: أن كَذَب، فأفرِشُوه من النار، وافتَحُوا له بـاباً إلى النـار. فيأتِيـه من حَرِّهـا وسَمُومِها، ويُضيَّقُ عليه قبرُه حتى تختلِفَ فيه أضلاعهُ، ويأتيـه رجلٌ قبيـحُ الوجـهِ، قَبِيحُ الثيـاب، مُنتِنُ الريـح فيقول: أبشر بالذي يَسوؤُكَ، هذا يومك الذي كنت توعد! فيقول: ومن أنت؟ فـوجهُكَ الـوجهُ يجيء بـالشر! فيقول: أنا عَمَلُكَ الخبيثُ، فيقول: رَبِّ، لا تُقِم الساعة»[1].

ورواه أبو داود من حديث الأعمش، والنسائي وابنُ ماجه، من حديث المِنْهال بن عَمرو، به[1].

وقال الإمام أحمد: حدثنا عبد الرزّاق، حدثنا معمرٌ، عن يونس بن خَبَّاب[2]، عن المنهال بن عمرو، عن زاذانَ، عن البَرَاء بن عازب ـ رضي الله عنه ـ قال: «خَرَجنا مع رسول الله ـ ﷺ ـ إلى جنازة»... فذكر نحوه.

وفيه: «حتى إذا خرج روحُه صَلَّى عليه كلُّ مَلَكٍ بين السماء والأرض، [وكلُّ مَلَكٍ في السماء][3]، وفُتِحت أبواب السماء، ليس من أهل باب إلا وَهُم يدعُون الله ـ عزَّ وجلَّ ـ أن يعرُجَ بِرُوحِه من قِبَلِهم».

وفي آخره: «ثم يُقَيَّض له أعمى أصمُّ أبكَمُ، وفي يده مِرْزَبَّة لو ضُرب بها جَبَلٌ لكان تراباً، فَيَضرِبُه ضربةً فَيَصِيرُ تراباً: ثم يُعيدُه الله ـ عزَّ وجلَّ ـ كما كان، فَيَضرِبُه ضربةً أخرى فيصيحُ صيحةً يسمَعُها كلُّ شيءٍ إلا الثَّقلين. قال البَرَاء: ثم يُفتَحُ له باب إلى النارِ، ويُمهَّدُ من فُرُشِ النار[4].

وقال سفيانُ الثَّوريُّ، عن أبيه، عن خيثمةَ، عن البراءِ في قوله تعالى: ﴿ يُثَبِّتُ الله الذين آمَنُوا بالقولِ الثَّابِتِ في الحياةِ الدُّنيا ﴾، قال: عذابُ القبر[5].

وقال المسعوديُّ، عن عبد الله بن مُخَارق، عن أبيه، عن عبد الله قال: إن المؤمن إذا مات أُجْلِسَ في قَبرِه، فيقال له: من ربُّك؟ ما دينُك؟ من نَبِيُّك؟ فَيُثَبِّته الله، فيقول: ربِّي الله، وديني الإسلامُ، ونَبِيِّي محمدٌ ﷺ. وقـرأ عبد الله: ﴿ يُثَبِّتُ الله الذين آمنوا بالقول الثابت في الحياة الدنيا وفي الآخِرَةِ ﴾[5].

وقال الإمام عبدُ بن حُمَيدٍ ـ رحمه الله ـ في مسنده: حدثنا يونُس بن محمد، حدثنا شيبانُ بن عبد الرحمن، عن قتادةَ، حدثنا أنس بن مالك قال: قال رسولُ الله ـ ﷺ ـ: «إن العبد إذا وُضع في قبره، وتولَّى عنه أصحابُه، إنه ليسمع قَرْعَ نِعالهم، قال: فيأتيه مَلَكان فَيُقعِدَانه فيقولان له: ما كنتَ تقولُ في هذا الرجل؟ قال: فأما المؤمنُ فيقول: أشهدُ أنه عبدُ الله ورسولُه. قال: فَيُقال له: انظر إلى مَقْعَدِك من النار، قد أبدلك اللهُ به مقعداً من الجنة. قال نبيُّ الله ـ ﷺ ـ: فيراهما جميعاً. قال قتادةُ: وذُكِر لنا أنه يُفسَحُ له في قبره سبعونَ ذراعاً، ويُملأُ عليه خَضِراً إلى يوم القيامة.

رواه مُسلِم عن عبد بن حُمَيد، به، وأخرجه النسائي من حديث يونس بن محمد المؤدِّب، به[6].

---

(١) مسند الإمام أحمد ٤/٢٨٧، وقد تقدم عند تفسير الآية ٤٠ من سورة الأعراف. وسنن أبي داود، كتاب الجنائز ٣/٢١٣، وكتاب السنة ٤/٢٣٩، والنسائي، كتاب الجنائز مختصراً ٤/٧٨، وابن ماجه فيه مختصراً كذلك ١/٤٩٤.

(٢) في الأصل: يونس بن حبيب والمثبت من المسند، وهو الصواب، انظر المؤتلف والمختلف للدارقطني ١/٤٧١.

(٣) من المسند

(٤) مسند أحمد ٤/٢٩٥ ـ ٢٩٦، وتقدم أيضاً عند تفسير الآية ٤٠ من سورة الأعراف.

(٥) تفسير الطبري ١٣/٢١٦

(٦) مسلم، كتاب الجنة ٤/٢٢٠٠ ـ ٢٢٠١، والنسائي، كتاب الجنائز ٤/٩٧
ومعنى يُملأ عليه خضراً، أي: يُملأ عليه نعما غضة ناعمة

وقال الإمام أحمدُ: حدثنا يحيى بنُ سعيدٍ، عن ابن جُرَيج، أخبرني أبو الزُّبير، أنه سأل جابر بن عبد الله عن فتّاني القبر فقال: سَمِعتُ النبيَّ ـ ﷺ ـ يقول: «إن هذه الأمة تُبْتَلى في قُبُورها، فإذا أُدخِل المؤمنُ قبرَه وتَوَلّى عنه أصحابُه، جاء مَلَكٌ شديدُ الانتهار، فيقول له: ما كنتَ تقولُ في هذا الرجلِ؟ فيقولُ المؤمنُ: أقول: إنه رسولُ الله وعبدُه. فيقول له الملَك: انظر إلى مقعدِك الذي كان لك في النار، قد أنجاك الله منه، وأبدلَك بمقعَدِك الذي تَرَى من النار مقعَدَك الذي تَرَى من الجنّةِ. فيراهما كِلَيهما. فيقول المؤمن: دَعُوني أُبَشِّر أهلي. فيقال له: اسكن. وأمّا المنافِقُ فيقعُد إذا تولّى عنه أهلُه، فيقال له: ما كنتَ تقولُ في هذا الرجلِ؟ فيقول: لا أدرِي، أقول كما يقولُ الناس. فيقال له: لا دَرَيتَ، هذا مَقعدُك الذي كان لك في الجَنّةِ، قد أُبدِلْتَ مكانَه مقعَدَك من النارِ.

قال جابر: فَسَمِعتُ النبيَّ ـ ﷺ ـ يقول: «يُبعَثُ كُلُّ عبدٍ في القبر على ما مات، المؤمنُ على إيمانِه، والمنافقُ على نِفَاقِه».

إسنادُه صحيحٌ على شرط مُسلِم، ولم يخرجاه[1].

وقال الإمام أحمد: حدثنا أبو عامر، حدثنا عَبّاد بن راشد، عن داود بن أبي هند، عن أبي نَضْرة، عن أبي سَعيدٍ الخدريِّ قال: شَهِدنا مع رسولِ الله ـ ﷺ ـ جنازةً، فقال رسولُ الله ـ ﷺ ـ: يا أيها الناسُ، إن هذه الأمة تُبتَلى في قُبُورها، فإذا الإنسانُ دُفِن وَتَفَرَّق عنه أصحابه جاءه مَلَكٌ في يده مِطراقٌ فأقعده، قال: ما تقول في هذا الرجل؟ فإن كان مؤمناً قال: أشهد أن لا إلَه إلا الله، وأشهد أن محمداً عبد الله ورسوله. فيقول له: صدقتَ. ثم يَفتح له باباً إلى النار، فيقول: هذا كان منزلك لو كفرت بربِّك، فأما إذ آمنتَ فهذا منزلك. فَيفتح له باباً إلى الجنة، فيريد أن ينهض إليه، فيقول له: اسكن. ويُفسَحُ له في قبره. وإن كان كافراً أو منافقاً يقول له: ما تقولُ في هذا الرجل؟ فيقول: لا أدري، سَمِعت الناسَ يقولون شيئاً. فيقول: لا دَرَيت ولا تَلَيت[2] ولا اهتديت. ثم يَفتح له باباً إلى الجنة، فيقول له: هذا مَنْزِلك لو آمنتَ بربِّك، فأما إذ كفرت به فإن الله ـ عزّ وجلّ ـ أبدلك به هذا. فَيَفتح له باباً إلى النار، ثم يقمَعه قَمْعَةً بالمطراق يسمَعُها خلْقُ الله ـ عزّ وجلّ ـ كلُّهم غيرُ الثقلين. فقال بعضُ القوم: يا رسولَ الله، ما أحدٌ يقومُ عليه مَلَكٌ في يده مِطراقٌ إلا هِيلَ[3] عند ذلك. فقال رسول الله ﷺ: ﴿يُثَبِّتُ الله الذين آمنُوا بالقولِ الثّابتِ﴾[4].

وهذا أيضاً إسنادٌ لا بأسَ به، فإنَّ عبّاد بنَ راشدٍ التميمي رَوَى له البخاريُّ مقروناً[5]، ولكن ضعفه بعضُهم.

وقال الإمام أحمد: حدثنا حُسَين بن محمد، عن ابن أبي ذِئب، عن محمد بن عمرو بن عطاء، عن سعيد ابن يَسَارٍ، عن أبي هُرَيرة، عن النبي ـ ﷺ ـ: «إنَّ الميِّتَ تحضُره الملائكة. فإذا كان الرجلُ الصالحُ قالوا: اخرجي أيتها النفسُ المطمئنّةُ كانت في الجسد الطيب، اخرجي حميدةً، وأبشري بروحٍ وريحانٍ وربٍّ غير غضبانَ». قال: فلا يزالُ يُقال لها ذلك حتى تخرُجَ، ثم يُعرَج بها إلى السماء، فيُستفتَح لها فيقال: من هذا؟

(١) لم يقع لنا الحديث في المسند من هذه الطريق، انظر: ٣/٣٤٦.
(٢) أي: ولا استطعت أن تدري.
(٣) أي: خاف.
(٤) مسند الإمام أحمد ٣/٣ ـ ٤.
(٥) في ميزان الاعتدال ٢/٣٦٥: وأخرج له البخاري مقروناً بغيره، ولكنه ذكره في كتاب الضعفاء

فيقال: فلان. فيقولون: «مرحباً بالرُّوح الطيبة كانت في الجسد الطيِّب، ادخلي حَمِيدةً، وأبشري برَوح وريحان، وربٌّ غير غضبان. قال: فلا يزالُ يقالُ لها ذلك، حتى يُنتهى بها إلى السماءِ التي فيها الله عَزَّ وجلَّ. وإذا كان الرجلُ السَّوءُ قالوا: «اخرُجي أيتها النفسُ الخبيثةُ كانت في الجَسَد الخَبيثِ، اخرُجي ذميمةً، وأبشري بحميم وغسَّاق، وآخَرَ من شكله أزواجٌ». فلا يزالُ يُقَال لها ذلك حتى تخرُجَ، ثم يُعرَّج بها إلى السماء، فَيُستفتَحُ لها فيقال: مَن هذا؟ فيقال: فلانٌ، فيقال: لا مرحباً بالنفس الخبيثةِ كانت في الجسدِ الخبيثِ، ارجِعي ذميمةً، فإنه لا تُفتَح لكِ أبواب السماء. فَيُرسَل من السماء ثم يصير إلى القبر، فيجلس الرجلُ الصالح فيقال له مثل ما قيل في الحديث الأول، ويجلِسُ الرجل السَّوء فيقال له مثل ما قيل له في الحديث الأول(١).

ورواه النسائي وابنُ ماجه، من طريق ابن أبي ذِئْب، بنحوه(١).

وفي صَحيح مُسلم عن أبي هُرَيرة ـ رضي الله عنه ـ قال: إذا خرجَت روحُ العبد المؤمن تَلقَّاها ملكان يصعَدان بها ـ قال حماد: فَذَكَر من طِيب ريحها وَذَكَرَ المِسْكَ ـ قال: ويقولُ أهلُ السماء: روحٌ طيِّبةٌ جاءت من قِبَلِ الأرض، صَلَّى الله عليكِ وعلى جَسَدٍ كنت تَعْمُرينَه. فيُنطلَقُ به إلى ربِّه عز وجل فيقول: انطلِقُوا به إلى آخرِ الأجل. وإن الكافر إذا خرجت روحه ـ قال حَمَّاد: وذَكَرَ من نَتْنِها وَذَكَرَ مقتاً(٢) ـ ويقول أهلُ السماء: روحٌ خَبِيثةٌ جاءت من قِبَلِ الأرض. قال: فيقال: انطلِقُوا به إلى آخر الأَجَلِ. قال أبو هُرَيرة: فَرَدَّ رسولُ الله ـ ﷺ ـ رَيْطَةً(٣) كانت عليه على أنفه، هكذا(٤).

وقال ابن حِبَّان في صَحِيحه: حدثنا عُمَر بن محمد الهَمْدَاني، حدثنا زيد بن أَخْزَمَ، حدثنا مُعاذ بن هِشَام، حدثني أبي، عن قَتَادة، عن قَسَامة بن زُهَير، عن أبي هُرَيرة، عن النبي ـ ﷺ ـ قال: «إنَّ المؤمن إذا قُبِضَ أتته ملائكةُ الرحمة بحَريرةٍ بيضاءَ، فيقولون: اخرُجي إلى رَوْح الله. فتخرجُ كأطيب ريحِ مسكٍ، حتى إنه ليناوله بعضهم بعضاً يَشُمُّونه حتى يَأتوا به بابَ السماء، فيقولون: ما هذه الريحُ الطَّيِّبة التي جاءت من قِبَلِ الأرض؟ ولا يأتون سماءً إلا قالوا مثل ذلك، حتى يأتوا به أرواحَ المؤمنين، فَلَهُم أشدُّ فَرَحاً به من أهل الغائب بغائبهم، فَيقُولون: ما فعل فلان؟ فيقولون: دَعُوه حتى يستريح، فإنه كان في غَمٍّ! فيقول: قد مات، أما أتاكم؟ فيقولون: ذُهِب به إلى أُمِّه الهاوية. وأما الكافر فيأتيه ملائكةُ العذابِ بِمِسْحٍ(٥) فيقولون: اخرُجي إلى غَضَب الله. فتخرج كأنتن ريحِ جيفةٍ، فَيُذْهَب به إلى باب الأرض»(٦).

وقد رَوَى أيضاً من طريق همَّام بن يحيى، عن قتادة، عن أبي الجوزاء، عن أبي هُرَيرة، عن النبي ـ ﷺ ـ بنحوه، قال: «فيُسأل: ما فَعَل فلانٌ؟ ما فعل فلانٌ؟ ما فعلَت فلانةُ؟ قال: وأما الكافر فإذا قُبِضَت نفسُه وذُهِب بها إلى باب الأرض تَقُول خَزَنَةُ الأرضِ: ما وجدنا ريحاً أنتنَ من هذه! فَتَبْلغُ بها الأرضَ السفلى.

قال قتادةُ: وحدَّثني رجل، عن سَعِيد بن المسيِّب، عن عبد الله بن عَمرو قال: أرواح المؤمنين تُجمع بالجَابِيَتَينِ، وأرواحُ الكُفَّار تجمع بِبَرَهُوتَ، سَبْخَةٍ بحضرَموتَ(٧).

---

(١) تقدم الحديث عند تفسير الآية ٦٢ من سورة الأنعام، وخرجناه هنالك.

(٢) في مسلم: لَعْناً.

(٣) الرَّيْطَةُ: ثوب رقيق. وقيل: مُلاءَة. وكان سبب رَدِّها على الأنف ما ذكر من نَتْنِ ريح رُوح الكافر.

(٤) مسلم، كتاب الجنة ٤/٢٢٠٢.

(٥) المِسْح: كساءٌ من شَعَرٍ.

(٦) الإحسان بترتيب صحيح ابن حبَّان، كتاب الجنائز ٥/٨.

(٧) الإحسان بترتيب صحيح ابن حبَّان، كتاب الجنائز ٥/٧. وفي معجم البلدان: «ورُوِي عن ابن عَبَّاسٍ ـ رضي الله عنه ـ أنه قال: أرواح =

وقال الحافظ أبو عيسى الترمذي - رحمه الله -: حدثنا يحيى بن خَلَف، حدثنا بِشْرُ بن المُفضَّل، عن عبد الرحمن بن إسحاقَ، عن سعيد بن أبي سَعيد المَقْبُري، عن أبي هُرَيرة قال: قال رسولُ الله - ﷺ -: «إذا قُبِرَ الميِّت - أو قال: أحدُكم - أتاه مَلَكان أسوَدان أزرقان، يقال لأحدهما: المُنكر، والآخر: النَّكير، فيقولان: ما كنتَ تقولُ في هذا الرجل؟ فيقول ما كان يقول: «هو عبدُ الله ورسولُه، أشهدُ أن لا آله إلا الله، وأشهدُ أن محمداً عبدُه ورسولُه». فيقولان: قد كنا نعلَم أنك تقول هذا. ثم يُفسَح له في قبره، سبعونَ ذراعاً في سبعين. ثم يُنَوَّر له فيه، ثم يقال له: نَمْ. فيقول: أرجعُ إلى أهلي فأخبرهم؟ فيقولان: نَمْ نومةَ العَرُوس الذي لا يُوقِظُه إلا أحَبُّ أهلِه إليه، حتى يَبعثه الله من مَضجَعِه ذلك. وإن كان منافقاً قال: «سَمِعتُ الناسَ يقولون، فقلت مثلهم، لا أدري»! فيقولان: قد كنا نعلم أنك تقولُ ذلك، فيقال للأرض: التئمي عليه. فَتَلْتَئِمُ عليه، فَتختلِفُ أضلاعُه، فلا يزالُ فيها مُعَذَّباً حتى يَبعثَه الله من مَضْجعِه ذلك». ثم قال الترمذي: هذا حديث حسن غريب[1].

وقال حَمَّاد بن سلمة، عن مُحَمَّد بن عَمْرو، عن أبي سَلَمة، عن أبي هُرَيرة قال: قال رسولُ الله - ﷺ -: «يُثَبِّت الله الذين آمنوا بالقَولِ الثابتِ في الحياةِ الدُّنيا وفي الآخرةِ» - قال: «ذاكَ إذا قيل له في القبر: مَن ربُّك؟ وما دِينُك؟ فيقول: «ربِّي الله، ودِيني الإسلامُ، ونَبِيِّي محمدٌ، جاءَنا بالبيناتِ من عند الله، فآمنتُ به وصدقتُ». فيقال له: صدقت، على هذا عِشتَ، وعليه مِتَّ، وعليه تُبعثُ»[2].

وقال ابنُ جرير: حدثنا مجاهد بن موسى والحسن بن محمد قالا: حدثنا يزيدُ، أنبأنا محمد بن عمرو، عن أبي سلمة، عن أبي هُرَيرة: إن الميِّتَ لَيسمَعُ خَفْقَ نِعالهم حينَ يُوَلُّون عنه مُدبِرين، فإذا كان مؤمناً كانت الصلاةُ عند رأسه، والزكاةُ عن يمينه، والصيامُ عن يَساره، وكان فعلُ الخيراتِ من الصَّدَقةِ والصِّلة والمعروفِ والإحسانِ إلى الناس عند رِجْلَيه، فيُؤتى من عند رأسه فتقول الصلاةُ: ما قِبَلي مَدخلٌ. فيُؤتى مِن عَن يمينه فتقول الزكاةُ: ما قِبَلي مدخلٌ. فيُؤتى عن يَسارِه فيقول الصيامُ: ما قِبَلي مدخلٌ. فيُؤتى من عندِ رجليه فيقول فعلُ الخيراتِ: ما قِبَلي مَدْخلٌ. فيقال له: اجلِسْ. فيجلس قد مَثَلَتْ له الشمسُ قد دَنَت للغُروب، فيقال له: أخبِرْنَا عما نسألُكَ. فيقول: دَعُوني حتى أصلِّي. فيقال: إنك ستفعلُ، فأخبرنا عما نسألك. فيقول: وعَمَّ تسألوني؟ فيقال: أرأيتَ هذا الرجل الذي كان فيكم، ماذا تقولُ فيه، وماذا تشهدُ به عليه؟ فيقول: أمحمدٌ؟ فَيُقال له: نعم. فيقول: أشهد أنه رسولُ الله، وأنه جاءنا بالبيِّناتِ من عند الله فَصدَّقناه. فيقال له: على ذلك حَيِيتَ، وعلى ذلك مِتَّ، وعلى ذلك تُبعثُ إن شاء الله. ثم يُفسَحُ له في قَبره، سبعون ذراعاً، ويُنَوَّر له فيه، ويُفتَح له بابٌ إلى الجنة، فيقال له: انظر إلى ما أعدَّ الله لك فيها. فيزداد غبطةً وسروراً ثم يُفتَح له باب إلى النار فيقال له: انظر إلى ما صَرَفَ الله عنك لو عَصَيته. فيزداد غبطة وسروراً. ثم يُجعَلُ نَسَمُه في النسيم الطيِّب، وهي طيرٌ خُضرٌ تَعْلَقُ بشجر الجنة، ويُعاد الجَسَد إلى ما بُدِيء منه من التُّراب»، وذلك قولُ الله: ﴿ يُثَبِّتُ الله الذين آمنُوا بالقولِ الثابتِ في الحياة الدنيا وفي الآخرة ﴾[3].

= المؤمنين بالجابية من أرض الشام، وأرواح الكفار في بَرَهُوت من أرض حضرموت». وفي لسان العرب: «بَرَهوتُ: وادٍ معروف، قيل: هو بحضرموت. وفي حديث علي - عليه السلام -: شَرُّ بِئرٍ في الأرضِ بَرَهُوتُ. هي بفتح الباء والراء، بئر عميقة، لا يُستَطاع النزول إلى قعرها. ويقال: بُرْهُوتُ، بضم الباء وسكون الراء. قال ابن الأثير: أخرجه الهروي عن عليٍّ - عليه السلام - وأخرجه الطبراني في المعجم عن ابن عباس، عن سيدنا رسول الله ﷺ».

(١) عارضة الأحوذي، أبواب الجنائز ٢٩١/٤ - ٢٩٣.

(٢) أخرجه الطبري وابن مردويه، انظر الدر المنثور ٣٢/٥، وتفسير الطبري ٢١٥/١٣.

(٣) تفسير الطبري ٢١٥/١٣ - ٢١٦.

ورواه ابن حِبّان، من طريق المُعتمر بن سليمان، عن محمد بن عَمرو، وذكر جَوابَ الكَافِرِ وعذابَه[١].

وقال البزّار: حدثنا سعيد بن بحر القراطيسي، حدثنا الوليد بن القاسم، حدثنا يزيد بن كيسانَ، عن أبي حازم، عن أبي هُرَيرة ـ أحسَبه رَفَعه ـ قال: «إن المؤمن ينزل به الموتُ، ويُعاين ما يُعايِن، فَيودُّ لو خرجَت ـ يعني نَفْسَه ـ والله يحب لقاءه، وإن المؤمنَ يُصعَد بروحه إلى السماء، فتأتيه أرواحُ المؤمنين، فتستخبرُه عن معارفهم من أهل الأرض، فإذا قال: «تركتُ فلاناً في الأرض»[٢]، أعجبهم ذلك. وإذا قال: «إن فلاناً قد ماتَ»، قالوا: ما جِيءَ به إلينا. وإنَّ المؤمن يُجلَسُ في قبره، فَيُسألُ: من ربُّك؟ فيقولُ: ربِّي الله، ويُسألُ: مَن نَبِيُّك؟ فيقولُ: محمد نَبِيِّي. فيقال: ما دينُك؟ قال: ديني الإسلام. فَيُفتَح له بابٌ في قبره، فيقول ـ أو: يقال ـ: انظر إلى مجلسك. ثم يرى القبر فكأنما كانت رَقْدَةً، وإذا كان عَدوُّ الله نَزَلَ به الموتُ وعايَن ما عاين، فإنه لا يُحب أن تخرُجَ روحُه أبداً، والله يُبغِضُ لقاءَه، فإذا جلس في قبره ـ أو: أُجلِسَ ـ يقال له: من ربُّك؟ فيقول: لا أدري. فَيُقال: لا دَرَيت! فَيُفتح له بابٌ من جهنم، ثم يُضرَبُ ضربةً يسمعها كلُّ دابة إلا الثقلين، ثم يقال له: نَم كما ينام المنهوشُ. قلت لأبي هُرَيرة: ما المنهوشُ؟ قال: الذي تَنْهَشُه الدوابُّ والحيَّاتُ. ثم يُضَيَّق عليه قبرُه. ثم قال: لا نعلَم رواه إلا الوليدُ بن القاسم[٣].

وقال الإمام أحمدُ ـ رحمه الله ـ: حدثنا حُجَين بن المثنى، حدَّثنا عبدُ العزيز بن أبي سَلَمة الماجِشُون، عن محمد بن المنكدر قال: كانت أسماءُ ـ يعني بنتَ الصدِّيق، رضي الله عنها ـ تُحدِّث عن النبي ـ ﷺ ـ قالت: قال: «إذا دخل الإنسانُ قبره، فإن كان مؤمناً أَحَفَّ[٤] به عملُه: الصلاةُ والصيام، قال: فيأتيه الملَكُ من نحو الصلاة فتردُّه، ومن نحو الصيام فيردُّه، قال: فيناديه: اجلس. فيجلسُ. فيقول له: ماذا تقول في هذا الرجل؟ يعني النبي ﷺ. قال: مَن؟ قال: محمدٌ. قال: أشهد أنه رسولُ الله، قال: يقولُ: وما يُدريك؟ أدركته؟ قال: أشهدُ أنه رسولُ الله. قال: يقولُ: على ذلك عشتَ، وعليه متَّ، وعليه تُبعَثُ. وإن كان فاجراً أو كافراً، جاءه المَلَك ليس بينه وبينه شيءٌ يَرُدّه، فأجلَسه يقول: اجلس، ماذا تقولُ في هذا الرجل؟ قال: أيّ رجل؟ قال: محمد؟ قال يقول: والله ما أدري، سَمِعت الناسَ يقولون شيئاً فقلتُه. قال له المَلَك: على ذلك عشتَ، وعليه متَّ، وعليه تبعثُ. قال: وتسلَّط عليه دابةٌ في قبره، معها سوطٌ تَمْرَتُه جَمْرَةٌ مثلُ غرْبِ[٥] البعِيرِ، تضربه ما شاء الله، صَمّاءُ لا تسمع صوتَه فترحَمُه»[٦].

وقال العوفيُّ، عن ابن عباس ـ رضي الله عنهما ـ في هذه الآية قال: إنَّ المؤمن إذا حَضَره الموت شَهِدته الملائكةُ، فَسلَّموا عليه وبَشَّروه بالجنة، فإذا مات مَشَوا مع جَنَازته، ثم صَلّوا عليه مع الناس، فإذا دُفِن أُجْلِسَ في قبره فيقال له: من ربُّك؟ فيقول: ربِّي الله. فيقال له: مَن رسولك؟ فيقول: محمدٌ ﷺ. فيقال له: ما شهادتك؟ فيقول: أشهدُ أن لا إلَه إلا الله، وأشهد أنَّ محمداً رسولُ الله. فَيُوسع له قبره مدَّ بَصَره، وأما الكافر فتنزل عليه الملائكةُ، فيبسُطون أيديهم ـ والبَسْطُ هو الضرب ـ يضرِبون وجوهَهم وأدبارَهم عند الموت. فإذا أُدخِلَ قبره أُقعِدَ فقيل له: مَن ربُّك؟ فلم يَرْجِع إليهم شيئاً، وأنساه الله ذِكْرَ ذلك. وإذا قيل: مَنِ الرسولُ الذي

(١) الإحسان بترتيب صحيح ابن حبّان، كتاب الجنائز ١/٤١٣ ـ ٤١٤.
(٢) في كشف الأستار: في الدنيا.
(٣) كشف الأستار عن زوائد البزار، كتاب الجنائز ١/٤١٣ ـ ٤١٤.
(٤) كذا، والمعروف: حَفَّ به: أي أحدق وأحاط به.
(٥) في الأصل: عرق. وفي الدر المنثور: عرف. والمثبت عن المسند. والغَرْبُ: الدلو العظيمة.
(٦) مسند أحمد ٦/٣٥٢ ـ ٣٥٣، والدر المنثور ٥/٢٧.

بُعِثَ إليكم؟ لم يهتدِ له، ولم يَرْجع إليه شيئاً، كذلك يُضِلُّ الله الظالمين[١].

وقال ابنُ أبي حاتم: حدثنا أحمدُ بن عثمان بن حَكِيم الأوديُّ، حدثنا شُرَيح بن مسلمة، حدثنا إبراهيمُ ابن يوسف، عن أبيه، عن أبي إسحاقَ، عن عامر بن سعدِ البَجَلِيِّ، عن أبي قتادةَ الأنصاريِّ في قوله تعالى: ﴿ يُثَبِّتُ الله الذين آمنوا بالقول الثابت في الحياةِ الدنيا وفي الآخرة ﴾ الآية، قال: إن المؤمن إذا مات أُجْلِسَ في قبره، فيقال له: من ربُّك؟ فيقولُ: الله. فيقال له: من نبيُّك؟ فيقول: محمد بن عبد الله. فيقال له ذلك مرات. ثم يُفتَح له بابٌ إلى النار، فيقال له: انظر إلى مَنزِلك في النار لو زغْتَ. ثم يُفْتح له بابٌ إلى الجنة، فيقال له: انظر إلى مَنْزِلك من الجنة إذ ثَبَتَّ. وإذا مات الكافرُ أُجلِسَ في قبره، فيقال له: من ربُّك؟ من نبيُّك؟ فيقول: لا أدري، كنتُ أسمَعُ الناسَ يقولون. فيقال له: لا دَرَيت. ثم يُفتَح له بابٌ إلى الجنة، فيقال له: انظر إلى منزلك لو ثَبَتَّ، ثم يفتح له باب إلى النار، فيقال له: انظُر إلى منزلك إذْ زِغْتَ، فذلك قوله تعالى: ﴿ يُثَبِّتُ الله الذين آمنوا بالقول الثابِت في الحياة الدُّنْيَا وفي الآخرة ﴾[٢].

وقال عبد الرزَّاق، عن معمرٍ، عن ابن طاووس، عن أبيه: ﴿ يُثَبِّتُ الله الذين آمنوا بالقول الثابت في الحياة الدنيا ﴾، قال: لا إلَه إلا الله، ﴿ وفي الآخرة ﴾، المسألة في القبر.

وقال قتادةُ: أما الحياةُ الدنيا فَيُثَبِّتُهم بالخيرِ والعملِ الصالحِ، ﴿ وفي الآخرة ﴾، في القبرِ. وكذا رُوي عن غَير واحدٍ من السَّلَف.

وقال أبو عبد الله الحكيم التِّرمذيُّ في كتابه «نَوادِر الأصول»: حدثنا أبي، حدثنا عبد الله بن نافع، عن ابن أبي فُدَيكٍ، عن عبد الرحمن[٣] بن عبد الله، عن سعيد بن المُسَيَّب، عن عبد الرحمن بن سَمُرَةَ قال: خرج علينا رسول الله ـ ﷺ ـ ذات يوم، ونحنُ في مسجد المدينة، فقال: «إني رأيتُ البارحة عَجَباً، رأيتُ رَجُلاً من أمتي جاءَه مَلَكُ الموت لِيقبضَ روحَه، فَجاءه برُّه بوالديه فرَدَّ عنه. ورأيتُ رَجُلاً من أُمَّتي قد بُسِطَ عليه عذابُ القبر، فجاءَه وُضوءُه فاستنقذه من ذلك. ورأيت رجلاً من أمتي قد احتوشته الشياطينُ[٤] فجاءه ذكرُ الله فَخَلَّصه مِن بَينهم. ورأيت رجُلاً من أُمَّتي قد احتَوشَتْه ملائكة العذابِ، فجاءته صلاتُه فاستَنقَذَتْه من أيديهم ورأيتُ رَجُلاً من أُمَّتي يَلْهثُ عطشاً، كُلَّما وَرَد حَوضاً مُنِعَ منه، فجاءه صيامُه فَسَقاه وأَرْواه. ورأيتُ رجلاً من أمتي والنبيُّون قعودٌ حِلقاً حِلقاً، وكلّما دنا لحلقة طَرَدُوه، فجاءه اغتسالُه من الجَنَابة، فأَخذَ بيده فأقعدَه إلى جنبي. ورأيت رجلاً من أُمَّتي من بين يديه ظُلمة، ومن خَلفه ظُلمة، وعن يمينه ظُلمة، وعن شِمَاله ظُلمة، ومن فوقه ظُلمة، ومن تحته ظُلمة، فهو متحيِّر فيها فجاءته حَجَّتُه وعُمرتُه، فاستخرجاه من الظُلمة وأدخلاه النُّور. ورأيت رَجُلاً من أُمَّتي يُكلِّم المؤمنين فلا يُكَلِّمونه، فجاءته صلَةَ الرَّحِم، فقالت: يا معشرَ المؤمنين، كَلِّموه، فَكَلَّموه. ورأيتُ رَجُلاً من أُمَّتي يتَّقي وهَج النَّار أو شَرَرَهَا بيده عن وجهه، فجاءته صَدَقته فصارت سِتراً على وجهه وظِلاًّ على رأسه. ورأيت رَجُلاً من أمتي قد أخذته الزبانية من كلِّ مكان، فجاءه أمرُه بالمعروف ونهيُه عن المنكر فاستنقذاه من أَيدِيهم، وأدخلاه مع ملائكة الرحمة. ورأيتُ رَجُلاً من أمتي جاثياً على رُكبتيه، بينه وبين الله حِجَابٌ، فجاءه حسن خُلقه، فأخذ بيده فأدخلَه على الله عزَّ وجلَّ. ورأيتُ رجلاً من أمتي قد هَوَت صحيفتُه من قِبَل شِماله، فجاءه خوفُه من الله فأخذ صَحيفتَه، فجعلها في يمينه. ورأيتُ رَجُلا من أُمَّتي قد خَفَّ ميزانه،

(١) تفسير الطبري ١٣/٢١٦، ٢١٨. والدر المنثور ٥/٢٩.
(٢) ذكر السيوطي في الدر المنثور ٥/٣٠ أنه أخرجه ابن أبي حاتم، والطبراني في الأوسط، وابن مَنْدَة.
(٣) في التذكرة: عبد الرحمن بن أبي عبدالله.
(٤) أي: أحاطوا به وجَعَلوه وَسْطَهم.

فجاءته أفراطُه[١] فثقّلوا ميزانه. ورأيت رجلاً من أمتي قائماً على شَفِير جَهنَّم، فجاءه وَجَلُه من الله فاستنقَذَه من ذلك ومضى. ورأيت رَجُلاً من أمتي هَوَى في النار، فجاءته دموعُه التي بكى من خشية الله في الدنيا فاستخرجته من النار. ورأيتُ رَجُلاً من أُمَّتي قائماً على الصراط يُرْعَدُ كما تُرعَدُ السَّعفَة، فجاء حسنُ ظنِّه بالله، فسكَّن رِعْدَته ومضى. ورأتُ رَجُلاً من أُمَّتي على الصِراط يَزحَفُ أحياناً ويحبُو أحياناً، فجاءته صلاتُه عليَّ، فأخذَت بيده فأقامته ومَضَى على الصِراط. ورأيتُ رَجُلاً من أمتي انتهى إلى أبوابِ الجنة، فَغُلِّقت الأبوابُ دونه، فجاءته شهادة أن لا إلَه إلا الله فَفَتَحت له الأبوابَ وأدخلَته الجنةَ».

قال القرطبيُّ بعد إيراده هذا الحديث من هذا الوجه: «هذا حديثٌ عظيم، ذكرَ فيه أعمالاً خاصة تُنجّي من أهوال خاصة». أورده هكذا في كتابه «التذكرة»[٢].

وقد رَوى الحافظُ أبو يعلى المَوْصليُّ في هذا حديثاً غريباً مُطوَّلاً فقال: حدثنا أبو عبد الله أحمد بن إبراهيمالنُكْرِي، حدثنا محمد بن بكر البُرساني أبو عثمان، حَدَّثنا أبو عاصم الحَبَطِيُّ ـ وكان من خِيَارِ أهل البصرةِ وكان من أصحاب حَزْمٍ وسلام بن أبي مطيع ـ حدثنا بكر بن خُنَيس، عن ضِرَارِ بن عمرو، عن يزيدَ الرَّقاشي، عن أنسِ بن مالك، عن تَمِيم الدَّارِيِّ، عن النبي ـ ﷺ ـ قال: يقول الله ـ عزَّ وجلَّ ـ لملك الموت: انطلِق إلى وَلِيِّي فَأْتِنِي به، فإني قد ضَرَبتُه بالسَّرَّاء والضَّرَّاء، فوجدتُه حيث أُحِبُّ. ائتِنِي بِهِ فَلأُرِيحنَّه. فينطلق إليه مَلَك الموتِ ومعه خمسُمائة من الملائكةِ، معهم أكفانٌ وحَنُوطٌ من الجَنَّةِ، ومعهم ضَبَائر[٣] الرَّيْحان، أصلُ الريحانة واحدٌ وفي رأسِها عِشرُون لوناً، لكلِّ لونٍ منها ريحٌ سِوَى ريحِ صَاحِبِه، ومعهمَ الحَريرُ الأبيضُ فيه المسكُ الأَذْفَرُ[٤]. فيجلس مَلَكُ الموتِ عند رأسِه وتَحِفُّ به الملائكة، ويَضَع كلُّ مَلَك منهم يَده على عُضوٍ من أعضائه ويَبْسط ذلك الحريرَ الأبيضَ والمِسكَ الأذفَر تحت ذقنه، ويُفتَح له بابٌ إلى الجنةِ، فإنَّ نفسَه لتَعَلَّلُ[٥] عند ذلك بِطُرَفِ الجنة تارة وبأزواجها تارة، ومرَّةً بِكسْواتِها، ومَرَّةً بثمارها، كما يُعَلِّلُ الصبيَّ أهلُه إذا بَكَى. قال: وإن أزواجه لَيَبتهِشْنَ عند ذلك ابتهاشاً[٦].

قال: وتنزو الروحُ ـ قال البُرْسَاني: يريد أن تَخرُج من العَجَل إلى ما تُحِبُّ ـ قال: ويقول مَلَكُ الموتِ: اخرُجي يا أيتها الروحُ الطيبة، إلى سِدْرٍ مخضودٍ، وطَلْحٍ منضود، وظِلٍّ ممدُودٍ، وماءٍ مَسكُوب. قال: ولَـمَلَكُ الموت أشدُّ به لُطفاً من الوالدةِ بولدها، يعرِف أن ذلك الروح حَبِيب لربِّه، فهو يَلتمِسُ بلُطفِهِ تَحبُّباً لديه رضاءً للربِّ عنه، فَتُسَلّ روحُه كما تُسَلُّ الشعرةُ من العَجِين. قال: وقال الله عزَّ وجلَّ: ﴿ الذين تتوفاهم الملائِكة طيِّبين ﴾. وقال: ﴿ فأما إن كان من المقربين * فروحٌ وريحانٌ وجنَّة نعيم ﴾ قال: رَوحٌ من جهة الموت، وريحانٌ يُتلقّى به، وجنةُ نَعيمٍ تُقابله.

قال: فإذا قَبَض ملكُ الموتِ رُوحه، قال الروحُ للجَسَد: جَزَاك الله عَني خيراً، فقد كنتَ سَرِيعاً بي إلى

---

(١) الأفراط: جمع فرَط، وهو: ما يتقدم الإنسانَ من أجرٍ وعملٍ، ويقال في الدعاء للطفل الميِّت: اللهمَّ اجعله لنا فَرَطاً، أي: أجراً يتقدَّمنا حتى نَرِدَ عليه. ثم تدرَّجت الدلالة حتى أصبح يطلق على الولد الذي مات ولم يُدْرِك: فَرَطٌ.

(٢) التذكرة في أحوال الموتى وأمور الآخرة للقرطبي ٢٤٠ ـ ٢٤٢.

(٣) ضَبَائر: جمعُ ضِبَارَة، وهي الحُزمةُ.

(٤) يقال: مِسكٌ أذْفَر: جَيِّد إلى الغاية، وذَفِرَ الشيءُ: اشتدَّت رائحته طيِّبةً كانت كالمسك، أو خبيثة كالصُّنان.

(٥) أي: تتشاغل.

(٦) أي: يبتهجن ويفرحن.

طاعةِ الله، بَطِيئاً بي عن مَعْصِيَةِ الله، فقد نَجَّيتَ وأنجيتَ. قال: ويقول الجَسَدُ للرُّوحِ مثلَ ذلك. قال: وتبكِي عليه بقاعُ الأرض التي كان يُطيع الله فيها، وكلُّ بابٍ من السماء يصعَد منه عملُه. وينزِل منه رزقُه أربعينَ ليلةً. قال: فإذا قَبَض مَلَكُ الموتِ رُوحَه، أقامت الخمسمائةُ من الملائكةِ عند جَسَدِه، فلا يَقْلِبهُ بنو آدم لشقٍّ إلا قَلَبته الملائكة قبلهم، وغَسَّلته وكَفَّنته بأكفانٍ قبل أكفانِ بني آدم، وحَنُوطٍ قبل حَنُوطِ بني آدم، ويَقُوم من بين باب بيته إلى بابِ قبره صَفَّان من الملائكة، يَستقبِلُونه بالاستغفار، فَيَصِيحُ عند ذلك إبليسُ صيحة تتصدَّعُ منها عظامُ جسده، قال: ويقولُ لجُنُودِه: الويلُ لكم! كيف خَلَص هذا العبدُ منكم؟ فيقولُون: إنَّ هذا كان عبداً معصُوماً.

قال: فإذا صَعِد ملكُ الموتِ برُوحه يَستقبله جبريلُ في سبعينَ ألفاً من الملائكة، كلٌّ يأتيه ببشارةٍ من ربِّه سوى بِشَارة صاحِبه، قال: فإذا انتهى مَلَكُ الموتِ بِرُوحه إلى العرش، خرَّ الروحُ ساجِداً، قال: يقول الله ـ عزَّ وجلَّ ـ لِمَلَك الموتِ: انطلِق برُوح عبدي فَضَعه في سدرٍ مخضود، وطلحٍ منضودٍ، وظلٍّ ممدودٍ، وماءٍ مَسْكُوبٍ.

قال: فإذا وُضِع في قبره جاءته الصلاةُ فكانت عن يمينه وجاءه الصيامُ فكان عن يساره، وجاءه القرآن فكان عند رأسه، وجاءه مَشْيُهُ إلى الصلاة فكان عند رجليه، وجاءه الصَّبْرُ فكان ناحيةَ القبر. قال: فيبعثُ الله عزَّ وجلَّ عُنُقاً(١) من العذاب، قال: فيأتيه عن يمينه قال: فتَقول الصلاة وراءَكَ، والله ما زال دائباً عمرَه كلَّه، وإنما استراح الآن حين وضع في قبره. قال: فيأتيه عن يساره، فيقول الصيامُ مثل ذلك، قال: ثم يأتيه مِن عند رأسِه، فيقول القرآن والذكر مثل ذلك، قال: ثم يأتيهِ من عند رجلَيه، فيقول مشيُه إلى الصلاة مثل ذلك. فلا يأتيه العذابُ من ناحية يلتمسُ هل يجدُ إليه مَسَاغاً إلا وجدَ وليَّ الله قد أخذَ جُنَّته، قال: فينقمعُ العذابُ عند ذلك فيخرُج، قال: ويقولُ الصبرُ لسائرِ الأعمال: أما إنَّه لم يمنعني أن أباشِرَ أنا بنفسي إلا أنِّي نظرتُ ما عندكم، فإن عجزتُم كنت أنا صاحبه، فأما إذ أجزأتُم عنه فأنا له ذُخرٌ عند الصِّراط والميزانِ.

قال: ويبعَثُ الله مَلَكين أبصارهُما كالبرق الخاطف، وأصواتهما كالرَّعدِ القاصفِ، وأنيابُهما كالصَّياصِي، وأنفاسُهما كاللَّهب، يَطآن(٢) في أشعارهما، بينَ مَنْكِب كلِّ واحدٍ مسيرةُ كذا وكذا، وقد نُزِعَت منهما الرأفةُ والرحمةُ، يقال لهما: مُنكَر ونَكِير، في يدِ كلِّ واحدٍ منهما مِطرَقةٌ، لو اجتمع عليها ربيعةُ ومُضَرُ لم يُقِلُّوها(٣). قال: فيقُولان له: اجلس. قال: فيجلِسُ فيستوي جالساً. قال: وتَقَع أكفانُه في حَقْوَيهِ(٤) قال: فيقولان له: من ربُّك؟ وما دينُك؟ ومن نبيُّك؟ قال: قالوا: يا رسول الله، ومن يُطيق الكلام عند ذلك، وأنت تَصِف مِنَ المَلَكين ما تَصِفُ؟ قال: فقال رسول الله ـ ﷺ ـ: ﴿يُثَبِّتُ الله الذين آمنوا بالقولِ الثابت في الحياة الدنيا وفي الآخرة ويُضِلُّ الله الظالمين ويفعلُ الله ما يشاء﴾. قال: فيقولُ رَبِّي الله وحدَه لا شريكَ له، وديني الإسلامُ الذي دانت به الملائكةُ، ونَبِيِّي محمدٌ خاتَمُ النبيِّين، قال: فيقولان: صدقت. قال: فَيَدفَعانِ القبرَ فَيُوسِّعان من بين يَدَيه أربعين ذراعاً، وعن يمينه أربعينَ ذراعاً، وعن شماله أربعينَ ذراعاً، ومن خلفه أربعينَ ذِراعاً، ومِن عند رأسِهِ أربعينَ ذراعاً، ومن عند رِجلَيه أربعينَ ذراعاً. قال: فيوسعان له مائتي ذراع ـ قال البُرسانيُّ: فأحسَبُه: وأربعين ذراعاً تُحاطُ به ـ قال: ثم يقولان له: انظر فوقك، فإذا بابٌ مفتوحٌ إلى الجنَّةِ، قال: فَيَقُولان له: وَليَّ الله، هذا منزلك إذ أطعتَ الله. فقال رسولُ الله ـ ﷺ ـ: «والذي نفسُ محمد بيده إنه

(١) أي: طائفة منه وقطعة، والعنق من كل شيء: أوَّله.

(٢) يصف المَلَكين بطول الشَّعر، حتى إنهما ليسيران عليه.

(٣) أي: لم يرفعوها.

(٤) الحقو: الخصر.

يَصِلُ إلى قلبه عند ذلك فرحةٌ، ولا تَرتدُّ أبداً»، ثم يقال له: انظُر تحتك. قال: فينظُر تحته فإذا بابٌ مفتوحٌ إلى النار. قال: فيقولان: وَلِيَّ اللهِ، نجوتَ آخِرَ ما عليك. قال: فقال رسول الله ـ ﷺ ـ: «إنه ليصل إلى قلبه عند ذلك فرحة لا ترتدُّ أبداً». قال: فقالت عائشةُ: يُفتَح له سبعةٌ وسبعونَ باباً إلى الجنةِ، يأتيه ريحُها وبردُها، حتى يَبْعَثَه الله عزَّ وجلَّ.

وبالإسناد المتقدِّم إلى النبي ـ ﷺ ـ قال: ويقولُ الله تعالى لِمَلَكِ الموتِ: انطلِق إلى عَدُوِّي فَأْتِني به، فإني قد بَسطتُ له رِزْقِي، ويَسَّرْتُ له نِعْمَتي، فأبى إلاّ معصيتي، فَأْتِني بهِ لأَنتقِمَ منه.

قال: فينطلقُ إليه مَلَكُ الموتِ في أكرهِ صُورةٍ رآها أحدٌ من الناس قطّ، له اثنتا عشرةَ عيناً، ومعه سَفُودٌ من النار كثيرُ الشوك، ومعه خمسُمائةٍ من الملائكة، معهم نُحاسٌ وجَمْرُ جَهَنَّم، ومعهم سياطٌ من نار، لِينُها لِينُ السِّياط وهي نارٌ تأجَّجُ، قال: فَيَضرِبُه مَلَكُ الموتِ بذلك السفُّودِ ضربةً يَغيبُ كلُّ أصلِ شوكةٍ من ذلك السفّود في أصل كُلِّ شَعرَةٍ وعِرْقٍ وظُفرٍ. قال: ثم يَلْوِيه لَيّاً شَدِيداً. قال: فَينـزِعُ رُوحَه من أظفارِ قَدَميه، قال: فَيُلقيها في عقبيه، ثم يَسْكَر عند ذلك عدوُّ الله سَكرَةً، فَيُرفِّهُ[1] ملك الموت عنه. قال: وتضرِبُ الملائكة وجهَه ودُبُره بتلك السِّياط، قال: فيشُدُّه مَلَكُ الموتِ شدة فَينزِع روحَه من عقبيه، فَيُلقِيها في ركبتيه، ثم يَسْكَر عدوُّ الله عند ذلك سَكرة، فَيُرَفِّه ملك الموت عنه. قال: فتضرب الملائكة وَجْهَه ودُبُره بتلك السياط قال: ثم[2] يَنْتُرُه مَلَكُ الموت نَترةً فينزِعُ رُوحَه من ركبتيه فَيُلقِيها في حَقْوَيه، قال: فَيَسْكَر عَدُوُّ الله عند ذلك سكرة، فَيُرفِّه مَلَكُ الموتِ عنه، قال: وتَضرِبُ الملائكةُ وجهَه ودُبُره بتلكَ السِّياطِ،قال: كذلك إلى صَدْرِه، ثم كَذلِك إلى حَلْقِه، قال: ثم تَبْسُط الملائكةُ ذلك النحاسَ وجَمْرَ جهَنَّم تحت ذقنه، قال: ويقولُ مَلَكُ الموتِ: اخرُجِي أَيَّتُها الروحُ اللعينةُ الملعونةُ إلى سَمُومٍ وحَمِيم، وظِلٍّ من يحمُومٍ، لا باردٍ ولا كريمٍ.

قال: فإذا قبضَ مَلَكُ الموتِ رُوحَه قال الروحُ للجسد: جَزاكَ الله عني شرّاً، فقد كنتَ سَرِيعاً بي إلى معصيةِ الله، بَطِيئاً بي عن طاعة الله، فقد هلكتَ وأهلكتَ. قال: ويقول الجَسَدُ للروح مثلَ ذلك، وتلعنه بقاعُ الأرضِ التي كان يعصِي الله عليهـا، وتنطلقُ جنودُ إبليسَ إليه فَيُبَشِّرونه بأنهم قد أوردوا عبداً من ولدِ آدم النارَ.

قال: فإذا وُضع في قبره ضُيِّق عليه قبرُه حتى تختلف أضلاعُه، حتى تدخُلَ اليمنى في اليسرى، واليُسرى في اليُمنى قال: ويبعث الله إليه أفاعِيَ دُهماً كأعناقِ الإبل يأخذن بأرْنَبَتِه[3] وإبهامَي قدميه، فيقْرِضنه حتى يَلْتقين في وَسَطه.

قال: ويبعَثُ الله مَلَكين أبصارُهما كالبرق الخاطفِ، وأصواتُهما كالرَّعدِ القاصفِ، وأنيابهُما كالصَّياصِي، وأنفاسُهمـا كاللهب، يطآن في أشعارهما، بين مَنْكِبي كُلِّ واحد منهما مسيرة كذا وكذا، قد نُزعت منهما الرأفة والرحمة، يقال لهما: مُنكَرٌ ونَكِير، في يدِ كُلِّ واحدٍ منهما مِطرَقَةٌ، لو اجتمعَ عليها ربيعةُ ومُضَر لم يُقِلُّوها. قال: فيقولان له: اجلس. قال: فيستوي جالساً، قال: وتقع أكفانُه في حَقْوَيه، قال: فيقولان له: من ربُّك؟ وما دينُك؟ ومن نبيُّـكَ؟ فيقول: لا أدري. فيقولان: لا دَرَيت ولا تَلَيتَ[4]! فيضربانه ضربةً يتطاير شَرَرُها في قبره، ثم يَعُودان قال: فيقولان: انظُر فوقكَ. فينظر، فإذا بابٌ مفتوحٌ من الجنة، فيقولان: هذا ـ عَـدُوَّ الله ـ منزِلُك لو

(١) أي: يخفِّف.
(٢) أي: يجذبه أو يقذفه في شدّة.
(٣) الأرنبة: طرف الأنف.
(٤) أي: ولا قدرت على أن تدري. وهذا دعاء عليه.

أطعْتَ الله. قال رسول الله ـ ﷺ ـ: «والذي نفسي بيده إنه لَيَصِلُ إلى قلبه عند ذلك حسرةٌ لا ترتدُّ أبداً». قال: ويقولان له: انظر تحتك. فينظر تحته، فإذا بابٌ مفتوح إلى النار، فيَقولان: عَدُوُّ الله، هذا منزِلُك إذْ عَصَيت الله. قال رسول الله ـ ﷺ ـ: «والذي نفسي بيده إنه لَيَصِلُ إلى قلبه عند ذلك حَسْرَةٌ لا ترتدُّ أبداً». قال: وقالت عائشة: ويُفتَحُ له سبعةٌ وسبعون باباً إلى النار، يأتيه حَرُّها وسَمُومُها حتى يبعثه الله إليها.

هذا حديثٌ غَرِيبٌ جداً، وسياقٌ عَجِيبٌ، ويَزِيدُ الرَّقاشِيُّ، راوِيه عن أنسٍ، له غرائبُ ومُنكرَاتٌ، وهو ضعيفُ الرِّوايةِ عند الأئمة، والله أعلم.

ولهذا قال أبو داود: حَدَّثنا إبراهيم بن موسى الرَّازيُّ، حدثنا هشامُ ـ هو ابن يوسف ـ عن عبد الله بن بَحِير، عن هانىء مولى عثمان، عن عثمان ـ رضي الله عنه ـ قال: كان النبيُّ ـ ﷺ ـ إذا فَرَغ من دفنِ الرجلِ وقفَ عليه فقال: «استغفِرُوا لأخيكم، واسألوا له بالتَّثبيتِ، فإنه الآن يُسأَلُ». انفردَ به أبو داودَ(١)

وقد أورد الحافظُ أبو بكر بن مَرْدُويه عند قوله تعالى: ﴿ولو ترى إذ الظالمون في غمراتِ الموت والملائكةُ باسطو أيديهم﴾ . . . الآية، حديثاً مطولاً جداً، من طريق غريب، عن الضحاك، عن ابن عباس مرفوعاً، وفيه غرائبُ أيضاً.

﴿ ۞ أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ بَدَّلُواْ نِعْمَتَ ٱللَّهِ كُفْرًا وَأَحَلُّواْ قَوْمَهُمْ دَارَ ٱلْبَوَارِ ﴿٢٨﴾ جَهَنَّمَ يَصْلَوْنَهَا ۖ وَبِئْسَ ٱلْقَرَارُ ﴿٢٩﴾ وَجَعَلُواْ لِلَّهِ أَندَادًا لِّيُضِلُّواْ عَن سَبِيلِهِۦ ۗ قُلْ تَمَتَّعُواْ فَإِنَّ مَصِيرَكُمْ إِلَى ٱلنَّارِ ﴿٣٠﴾ ﴾

قال البخاريُّ: قوله: ﴿ألم تر إلى الذين بَدَّلوا نعمتَ الله كفراً﴾. ألم تعلم كقوله: ﴿ألم تَرَ كيف﴾، ﴿ألم تر إلى الذين خَرَجُوا﴾، البوار: الهلاك، بار يَبُور بَوراً، و﴿قوماً بوراً﴾: هالكين.

حدثنا علي بن عبد الله، حدثنا سُفيان، عن عَمرو، عن عطاءٍ سَمِع ابنَ عَبَّاسٍ: ﴿أَلم تَرَ إلى الذين بَدَّلُوا نِعْمَتَ الله كفراً﴾ قال: هم كُفَّار أهلِ مكة(٢).

وقال العوفيُّ، عن ابن عباس في هذه الآية: هو جَبَلَةُ بن الأَيْهَمِ والذين اتَّبعوه من العَرَبِ، فَلحِقُوا بالرُّوم(٣).

والمشهورُ الصحيح عن ابن عباس هو القولُ الأول، وإن كان المعنى يَعُمُّ جميع الكفار؛ فإن الله تعالى بعَث محمداً ـ ﷺ ـ رحمةً للعالمين، ونعمةً للناس، فمن قَبِلها وقام بِشُكرِها دَخَلَ الجنَّة، ومن ردَّها وكَفَرَها دَخَل النار.

وقد رُوي عن علي نحوُ قولِ ابن عباس الأول، قال ابن أبي حاتم:

حدثنا أبي، حدثنا مسلم بن إبراهيم، حدثنا شعبةُ، عن القاسم بن أبي بَزَّةَ، عن أبي الطُّفَيل: أن ابن الكَوَّاء سأل علياً عن: ﴿الذين بدَّلوا نعمتَ الله كفراً وأحلُّوا قومهم دارَ البوار﴾ قال: كفار قريشٍ يومَ بدر.

حدَّثنا المنذرُ بن شاذان، حدثنا يعلى بن عُبَيد، حدثنا بسَّام ـ هو الصيرفيُّ ـ عن أبي الطُّفَيل قال: جاء

(١) سنن أبي داود، كتاب الجنائز ٣/٢١٥.
(٢) فتح الباري، تفسير سورة إبراهيم ٨/٣٧٨.
(٣) تفسير الطبري ١٣/٢٢٣.

رجلٌ إلى عليٍّ فقال: يا أميرَ المؤمنين، مَنِ الذين بدلوا نعمةَ الله كفراً وأحلُّوا قومهم دارَ البَوَارِ؟ قال: منافِقُو قريش.

وقال ابن أبي حاتم: حدثنا أبي، حدثنا ابنُ نُفيل قال: قرأت على معقل، عن ابن أبي حُسَين قال: قام علي بن أبي طالب - رضي الله عنه - فقال: ألا أحدٌ يسألني عن القرآن؟ فوالله لو أعلَمُ اليومَ أحداً أعلَمَ منيٍّ به، وإن كان من وَرَاء البحار، لأتيتهُ. فقام عبدالله بن الكَوَّاء فقال: مَنِ الذين بَدَّلوا نعمةَ الله كفراً وأحلُّوا قومهم دار البَـوار؟ فقال: مشركو قريش، أتتهم نعمةُ الله: الإيمانُ، فَبَدَّلوا نعمةَ الله كـفراً وأحلُّوا قومَهم دار البَوَار.

وقال السُّديُّ في قوله: ﴿ألم ترَ إلى الذين بَدَّلوا نعمت الله كفراً﴾ الآية، ذكر مسلم المستوفى عن علي أنه قال: هما الأفجران من قريش: بَنُـو أمية، وبنو المُغِيرة، فأما بَنُو المغيرة فأحلُّوا قومهم دار البوار يوم بدر، وأما بنو أمية فأحلوا قومهم دار البوار يوم أُحُدٍ. وكان أبو جهل يومَ بدر. وأبو سفيانَ يومَ أحدٍ. وأما دار البَوَار فهي جهنم.

وقال ابن أبي حاتم - رحمه الله -: حدثنا محمد بن يحيى، حدثنا الحارث بن منصور، عن إسرائيل، عن أبي إسحاق عن عمرو بن مُرَّة قال: سمعتُ علياً قرأ هذه الآيةَ: ﴿وأحلُّوا قومَهم دارَ البَوَارِ﴾، قال: هما الأفجَران من قريشٍ، بنو أمية وبنو المُغَيرة، فأما بنو المُغِيرة فأُهلِكوا يوم بدر، وأما بَنُو أمية فمتَّعوا إلى حين.

ورواه أبو إسحاقَ، عن عَمْرو ذي مرٍّ، عن علي، نحوه. ورُوِيَ من غير وجهٍ عنه[1].

وقال سفيان الثوري، عن عليِّ بن زَيد، عن يوسف بن سعد، عن عُمَر بن الخطاب في قوله: ﴿ألم ترَ إلى الذين بدلوا نعمت الله كفراً﴾، قال: هما الأفجرانِ من قُرَيش: بَنُـو المغيرة وبنو أُميَّة، فأما بنو المغيرة فكُفيتموهُم يوم بدر، وأما بَنُوأُمَيَّة فَمُتِّعوا إلى حين.

وكذا رواه حمزةُ الزياتُ، عن عمرو بن مُرَّة قال: قال ابن عباس لعمر بن الخطاب: يا أمير المؤمنين، هذه الآية: ﴿الذين بَدَّلوا نعمت الله كفراً وأحلوا قومَهم دار البوار﴾، قال: هم الأفجران من قُرَيش: أخوالي وأعمامك، فأما أخوالي فاستأصلهم الله يوم بدر، وأما أعمامُكَ فَأَمْلَى الله لهم إلى حين[2].

وقال مجاهد، وسعيد بنُ جُبير، والضحاك،وقتادة، وابنُ زَيدٍ: هم كفار قريش الذين قتلوا يوم بدر. وكذا رَوَاه مالك في تفسيره، عن نافع، عن ابن عمر.

وقولُه: ﴿وجَعَلوا لله أنداداً لِيُضِلُّوا عن سبيله﴾، أي: جَعَلوا له شركاء عَبَدُوهم معه، ودَعَوُا الناس إلى ذلك.

ثم قال تعالى مهَدِّداً لهم ومتوعِّداً لهم على لسان نبيه - ﷺ -: ﴿قل تَمَتَّعوا فإن مضيركم إلى النار﴾، أي: مهما قدرتُم عليه في الدنيا فافعلوا، فمهما يكن من شيء ﴿فإنَّ مصيركم إلى النار﴾، أي: مَرْجِعكم وموئلكم إليها، كما قال تعالى: ﴿نمتعهم قليلاً ثم نَضْطَرُّهم إلى عذاب غليظ﴾، وقال تعالى: ﴿متاعٌ في الدنيا ثم إلينا مَرْجِعُهم ثم نُذِيقهم العذابَ الشديدَ بما كانُوا يكفُرُون﴾.

---

(١) أخرجه الحاكم في مستدركه ٣٥٢/٢.

(٢) تفسير الطبري ٢١٩/١٣.

﴿ قُل لِّعِبَادِيَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ يُقِيمُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَيُنفِقُواْ مِمَّا رَزَقْنَٰهُمْ سِرًّا وَعَلَانِيَةً مِّن قَبْلِ أَن يَأْتِيَ يَوْمٌ لَّا بَيْعٌ فِيهِ وَلَا خِلَٰلٌ ﴿٣١﴾ ﴾

يقولُ تعالى آمراً العبادَ بطاعته والقيام بحقِّه، والإحسان إلى خَلقه، بأن يُقيموا الصلاةَ، وهي عبادةُ الله وحدَه لا شريكَ له، وأن يُنفِقوا مما رَزَقهم الله بأداء الزكوات، والنفقة على القَرابات والإحسانِ إلى الأجانب. والمرادُ بإقامتها هو: المحافظةُ على وَقتها وحدُودِها، وركُوعِها وخُشوعها وسُجودها.

وأمر تعالى بالإنفاق مما رَزق في السرِّ، أي: في الخِفْيَةِ، والعَلانية وهي: الجهرُ، وليبادرُوا إلى ذلك لخلاصِ أنفسهم، ﴿من قبل أن يأتي يومٌ﴾، وهو يومُ القيامة، وهو يومٌ ﴿لا بيعٌ فيه ولا خِلالٌ﴾، أي: لا يُقبَلُ من أحد فديَةٌ بأن تُبَاع نفسه، كما قال تعالى: ﴿فاليومَ لا يُؤخذُ منكم فديةٌ ولا من الذين كفروا﴾.

وقوله: ﴿ولا خلال﴾، قال ابنُ جرير: يقول: ليس هناك مُخالَّة خليل فَيصفحَ عمن استوجب العقوبة عن العقاب لمُخَالَّته، بل هنالك العدلُ والقسط. فالخِلَالُ مصدر، من قول القائل: «خاللتُ فلاناً فأنا أُخالُّه مُخالَّةً وخِلالاً» ومنه قولُ امرىء القيس:

صَرفتُ الهَوَى عَنهُنَّ مِنْ خَشْيَةِ الرَّدَى وَلَسْتُ بِمقْلِيِّ الخِـلَالِ ولا قَـالِ[1]

وقال قتادةُ: إنَّ الله قد عَلِم أن في الدنيا بُيوعاً وخِلالاً يتخالُّون بها في الدنيا، فينظر رجل من يُخالِل؟ وعلامَ يُصَاحِب؟ فإن كان لله فَلْيُداوِمْ، وإن كان لغير الله فَسَيُقطَعُ عنه[1].

قلت: والمرادُ من هذا أنه يُخبر تعالى أنه لا ينفعُ أحداً بيعٌ ولا فديةٌ، ولو افتدى بملءِ الأرضِ ذهباً لو وَجَده، ولا ينفعُه صداقة أحدٍ ولا شفاعةُ أحدٍ إذا لَقِي الله كافراً، قال الله تعالى: ﴿واتقوا يوماً لا تَجزِي نفسٌ عن نفسٍ شيئاً ولا يُقبلُ منها عدلٌ ولا تَنفعُها شفاعةٌ ولا هم يُنْصَرُونَ﴾، وقال تعالى: ﴿يا أيُّها الذين آمنُوا أنفِقُوا مما رزقْناكم من قبلِ أن يأتي يومٌ لا بيعٌ فيه ولا خُلَّةٌ ولا شفاعةٌ والكافرون هم الظالمون﴾.

﴿ ٱللَّهُ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَأَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَأَخْرَجَ بِهِۦ مِنَ ٱلثَّمَرَٰتِ رِزْقًا لَّكُمْ وَسَخَّرَ لَكُمُ ٱلْفُلْكَ لِتَجْرِىَ فِى ٱلْبَحْرِ بِأَمْرِهِۦ وَسَخَّرَ لَكُمُ ٱلْأَنْهَٰرَ ﴿٣٢﴾ وَسَخَّرَ لَكُمُ ٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ دَآئِبَيْنِ وَسَخَّرَ لَكُمُ ٱلَّيْلَ وَٱلنَّهَارَ ﴿٣٣﴾ وَءَاتَىٰكُم مِّن كُلِّ مَا سَأَلْتُمُوهُ وَإِن تَعُدُّواْ نِعْمَتَ ٱللَّهِ لَا تُحْصُوهَآ إِنَّ ٱلْإِنسَٰنَ لَظَلُومٌ كَفَّارٌ ﴿٣٤﴾ ﴾

يُعدِّد تعالى نِعَمَه على خلقه، بأن خَلَق لهم السمواتِ سقفاً محفوظاً، والأرضَ فِراشاً، وأنزلَ من السماءِ ماءً فأخرج به أزواجاً من نباتٍ شتّى، ما بين ثِمار وزُرُوع، مختلفةَ الألوانِ والأشكالِ، والطعُومِ والروائح والمنافع. وسَخَّر الفلك بأن جعلها طافيةً على تيار ماءِ البحرِ، تجري عليه بأمر الله تعالى، وسخَّر البحر يحملها ليقطَع المسافرون بها من إقليم إلى إقليم آخر لجلب ما هنا إلى هناك، وما هناك إلى ها هنا، وسخَّر الأنهار تشق الأرضَ من قُطرٍ إلى قُطرٍ، رزقاً للعباد من شربٍ وَسَقْيٍ، وغير ذلك من أنواع المنافع.

(١) تفسير الطبري ١٣/٢٢٤.

﴿وَسَخَّر لكم الشمسَ والقمر دائبين﴾، أي: يَسيران لا يَفْتُران ليلاً ولا نهاراً، ﴿لا الشمسُ ينبغي لها أن تدرك القمرَ ولا الليلُ سابق النهارِ وكلٌّ في فلك يَسبحون﴾، ﴿يُغشِي الليل النهار يَطلبُه حثيثاً والشمسَ والقمرَ والنجومَ مسخراتٍ بأمره ألا له الخلقُ والأمرُ تبارَكَ اللهُ ربُّ العالمين﴾، فالشمسُ والقمرُ يتعاقبان، والليلُ والنهارُ يتقارَضان، فتارةً يأخذُ هذا من هذا فيطولُ، ثم يأخذ الآخرُ من هذا فيقصُر، ﴿يُولِج الليلَ في النهارِ وَيُولِجُ النهارَ في الليل وسخَّر الشمسَ والقمرَ كلٌّ يجري لأجل مُسمّى ألا هو العزيزُ الغفَّار﴾. وقال تعالى: ﴿يُكَوِّر الليلَ على النهارِ ويكور النهارَ على الليلِ وسخر الشمسَ والقمرَ كلٌّ يجري لأجل مسمى﴾.

وقوله: ﴿وآتاكم من كلِّ ما سألتموه﴾، يقول: هيَّأ لكم كلَّ ما تحتاجون إليه في جَمِيع أحوالكم مما تسألُونَه: بحالكم وقَالكم. وقال بعضُ السلفِ: من كلِّ ما سألتمُوه وما لم تسألُوه[١]. وقرأ بعضُهم: ﴿وآتاكُم من كُلٍّ ما سألتموه﴾[٢].

وقولُه: ﴿وإن تعدُّوا نعمةَ الله لا تُحصُوها﴾، يخبر عن عَجز العباد عن تَعداد النعم فضلاً عن القيام بشكرها، كما قال طلقُ بن حَبيبٍ ـ رحمه الله ـ: إن حَقَّ الله أثقلُ من أن يقومَ به العبادُ، وإنَّ نعم الله أكثرُ من أن يُحصِيهَا العبادُ، ولكن أصبِحوا توابين وأَمسُوا توابين.

وفي صحيح البخاري أنَّ رسول الله ـ ﷺ ـ كان يقولُ: «اللهمَّ، لك الحمدُ غير مَكْفِيٍّ ولا مُودَّعٍ، ولا مُستغنًى عنه، ربَّنا»[٣].

وقال الحافظُ أبو بكرٍ البزَّارُ في مُسنَدِهِ: حدثنا إسماعيلُ بنُ أبي الحارث، حدثنا داودُ بنُ المُحبّر، حدثنا صالح المُرّيُّ، عن جَعْفرِ بن زيد العَبْدِي، عن أنس، عن النبي ـ ﷺ ـ أنه قال: «يخرجُ لابن آدم يوم القيامة ثلاثةُ دواوين: ديوانٌ فيه العملُ الصالح، وديوانٌ فيه ذنوبُه، وديوان فيه النعَمُ من الله تعالى عليه، فيقولُ الله لأصغر نِعَمِه ـ أحسبه قال: في ديوان النعم ـ: خُذِي ثَمَنك من عمله الصالح كُلِّه، ثم تَنَحّى وتقولُ: وعِزَّتِك ما استوفيتُ! وتبقى الذنوبُ والنِّعم[٤] فإذا أراد الله أن يرحَم قال: يا عبدي، قد ضاعفتُ لك حسناتِك وتجاوزتُ عن سَيِّئاتك، أحسبُه قال: ووهبتُ لك نِعَمي»[٥]. غريب، وسندهُ ضعيفٌ.

وقد رُوِي في الأثر: أن داودَ ـ عليه السلام ـ قال: يا ربِّ: كيف أشكُرك وشُكري لك نعمةٌ منك عليّ؟ فقال الله تعالى: الآن شكرتَني يا داودُ. أي: حينَ اعترفت بالتقصير عن أداء شُكر النعم.

وقال الشافعي ـ رحمه الله ـ: «الحمدلله الذي لا يُؤدِّي شُكرُ نِعمَةٍ من نِعَمِهِ، إلا بنعمة [منه] تُوجِبُ على مُؤدِّي ماضي نِعَمه بأدائها نعمةً حادثة تَوجِبُ عليه شكره بها»[٦]. وقال القائل في ذلك:

---

(١) تفسير الطبري ١٣/٢٢٦ ـ ٢٢٧.

(٢) نسبها الألوسي في روح المعاني ١٣/٢٢٦ إلى ابن عباس وجماعة، وقال: (من كلٍّ) بالتنوين، أي: وآتاكم من كل شيءٍ ما احتجتم إليه وسألتموه بلسان الحال. وجُوِّز على هذه القراءة أن تكون (ما) نافية، والمفعول الثاني (من كلٍّ)، كما في قوله تعالى: ﴿وأُوتِيَتْ من كل شيءٍ﴾، والجملة المنفيّة في موضع الحال، أي: آتاكم من كلٍّ غَيْرَ سائلين. ولا يخفى أن الوجه هو الأول، لما أنَّ القراءة على هذا الوجه تخالف القراءة الأولى، والأصل توافق القراءتين، وإن فُهِم منها إيتاء ما سألوه بطريق الأولى». وانظر تفسير الطبري ١٣/٢٢٦ ـ ٢٢٧.

(٣) فتح الباري، كتاب الأطعمة ٩/٥٨٠.

غير مَكْفِيٍّ: غير محتاج إلى أحد. ولا مُوَدَّع: غير متروك.

(٤) بعده في كشف الأستار: «وقد ذهب العمل الصالح كُلُّه».

(٥) كشف الأستار عن زوائد البزار، كتاب البعث ٤/١٦٠.

(٦) الرسالة ٧ ـ ٨. وما بين القوسين عنها.

لو كل جارحةٍ مني لها لُغةٌ تُثني عليك بما أوليت من حَسَنِ
لَكان ما زادَ شُكري إذ شكرت به إليك أبلغَ في الإحسان والمِنَنِ

﴿وَإِذْ قَالَ إِبْرَٰهِيمُ رَبِّ ٱجْعَلْ هَٰذَا ٱلْبَلَدَ ءَامِنًا وَٱجْنُبْنِى وَبَنِىَّ أَن نَّعْبُدَ ٱلْأَصْنَامَ ﴿٣٥﴾ رَبِّ إِنَّهُنَّ أَضْلَلْنَ كَثِيرًا مِّنَ ٱلنَّاسِ ۖ فَمَن تَبِعَنِى فَإِنَّهُۥ مِنِّى ۖ وَمَنْ عَصَانِى فَإِنَّكَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٣٦﴾﴾

يذكرُ تعالى في هذا المقام محتجاً على مشركي العَرَب بأنَّ البلد الحرام مكَّةَ إنما وُضِعت أوّلَ ما وُضِعتِ على عبادة الله وحده لا شريك له، وأنَّ إبراهيم الذي كانت عامرةً بسببه آهِلةً تبرَّأ ممن عَبَد غيرَ الله، وأنه دعا لمكة بالأَمْنِ فقال: ﴿ربِّ اجعل هذا البَلَد آمنا﴾. وقد استجاب الله له، فقال تعالى: ﴿إن أوّلَ بيتٍ وُضِع للناس الذي ببكَّةَ مباركاً وهدًى للعالمين * فيه آياتٌ بيناتٌ مقامُ إبراهيم ومن دَخَله كان آمناً﴾، وقال في هذه القصة: ﴿ربِّ اجعَلْ هذا البلدَ آمناً﴾ فعرَّفه كأنه دَعَا به بعد بنائها، ولهذا قال: ﴿الحمدُ لله الذي وَهَب لي على الكِبَرِ إسماعيلَ وإسحاقَ﴾، ومعلومٌ أن إسماعيلَ أكبرُ من إسحاق بثلاث عشرةَ سنةً، فأما حين ذهَبَ بإسماعيلَ وأمه وهو رضيعٌ إلى مكان مكة، فإنه دعا أيضاً فقال: ﴿ربِّ اجعل هذا بلداً آمناً﴾، كما ذكرناه هنالك في سورة البقرة مستقصًى مُطوَّلاً[١].

وقَال: ﴿واجنبني وبنيَّ أن نعبُدَ الأصنام﴾، يَنبغي لكلِّ داعٍ أن يدعُو لنفسِه ولوالدَيه ولذريته.

ثم ذكر أنه افتُتِنَ بالأصنام خلائقُ من الناس وأنه بَرِيءٌ مِمَّن عبدها، وردَّ أمرهم إلى الله، إن شاء عذَّبهم، وإن شاء غَفَر لهم، كما قال عيسى - عليه السلام -: ﴿إن تُعذِّبهم فإنهم عبادُك وإن تَغفِر لهم فإنك أنت العزيزُ الحكيمُ﴾. وليس في هذا أكثرُ من الردِّ إلى مشيئةِ الله تعالى، لا تجويزُ وقوعِ ذلك.

قال عبدالله بن وَهب: حدثنا عمرو بن الحارث، أن بكر بن سَوادة حدثه، عن عبد الرحمن بن جُبَيْر، عن عبدالله بن عمرو: أن رسول الله - ﷺ - تلا قولَ إبراهيم: ﴿ربِّ إنهنَّ أضللن كثيراً من الناس فمن تَبِعني فإنه مني ومن عصاني فإنك غفورٌ رحيم﴾، وقول عيسى عليه السلام: ﴿إن تعذِّبهم فإنهم عبادُك وإن تغفِر لهم فإنك أنت العزيز الحكيم﴾ ورفَع يديه، قال: «اللهم أُمَّتي، اللهم أُمَّتي». وبكى، فقال الله: اذهَب إلى محمدٍ - وربُّك أعلم - وسَله ما يُبكِيك؟ فأتاه جبريل - عليه السلام - فسأله، فأخبره رسولُ الله - ﷺ - ما قال، فقال الله: اذهب إلى محمد، فقل له: إنا سَنُرضِيك في أُمتك ولا نَسُوؤك[٢].

﴿رَّبَّنَآ إِنِّىٓ أَسْكَنتُ مِن ذُرِّيَّتِى بِوَادٍ غَيْرِ ذِى زَرْعٍ عِندَ بَيْتِكَ ٱلْمُحَرَّمِ رَبَّنَا لِيُقِيمُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ فَٱجْعَلْ أَفْـِٔدَةً مِّنَ ٱلنَّاسِ تَهْوِىٓ إِلَيْهِمْ وَٱرْزُقْهُم مِّنَ ٱلثَّمَرَٰتِ لَعَلَّهُمْ يَشْكُرُونَ ﴿٣٧﴾﴾

وهذا يدلُّ على أن هذا دعاء ثانٍ بعد الدعاء الأول الذي دعا به عندما وَلَّى عن هاجر وولدها، وذلك قبل بناء البيت، وهذا كانَ بعد بنائِهِ، تأكيداً ورغبةً إلى الله عزَّ وجلَّ، ولهذا قال: ﴿عند بيتك المحرَّم﴾.

---

(١) انظر تفسير الآية ١٢٦ من سورة البقرة.
(٢) تفسير الطبري ١٣/٢٢٩.

وقولُه: ﴿رَبَّنا لِيقيموا الصَّلاةَ﴾، قال ابنُ جريرٍ، هو مُتعلِّق بقوله: ﴿المحرَّم﴾، أي: إنما جعلتَه محرَّماً ليتمكَّنَ أهلُه من إقامةِ الصلاةِ عندَه[1].

﴿فاجعلَ أفئدةً من الناس تهوي إليهم﴾، قال ابن عباس، ومجاهدٌ، وسعيد بن جُبَير، لو قال «أفئدة الناس»، لازدَحَم عليه فارسُ والرومُ واليهودُ والنصارى والناسُ كُلُّهم، ولكن قال: ﴿مِنَ النَّاسِ﴾. فاختصَّ به المسلمون[1].

وقولُه: ﴿وارزُقهم من الثمرات﴾، أي: ليكونَ ذلك عوناً لهم على طاعتك، وكما أنه: ﴿وادٍ غير ذي زَرعٍ﴾، فاجعل لهم ثماراً يأكُلُونها. وقد استجاب الله ذلك، كما قال: ﴿أوَ لم نُمكِّن لهم حَرَماً آمناً يُجبَى إليه ثَمَراتُ كل شيءٍ رِزقاً من لدنا﴾، وهذا من لُطفه تعالى وكَرَمه ورَحمته وبرَكته: أنه ليس في البلد الحرام مكةَ شَجَرَةٌ مثمرةٌ، وهي تُجبَى إليها ثمراتُ ما حولها، استجابةً لِخَليله إبراهيم عليه الصلاةُ والسلامُ.

﴿رَبَّنَآ إِنَّكَ تَعۡلَمُ مَا نُخۡفِي وَمَا نُعۡلِنُۗ وَمَا يَخۡفَىٰ عَلَى ٱللَّهِ مِن شَيۡءٖ فِي ٱلۡأَرۡضِ وَلَا فِي ٱلسَّمَآءِ ﴿٣٨﴾ ٱلۡحَمۡدُ لِلَّهِ ٱلَّذِي وَهَبَ لِي عَلَى ٱلۡكِبَرِ إِسۡمَٰعِيلَ وَإِسۡحَٰقَۚ إِنَّ رَبِّي لَسَمِيعُ ٱلدُّعَآءِ ﴿٣٩﴾ رَبِّ ٱجۡعَلۡنِي مُقِيمَ ٱلصَّلَوٰةِ وَمِن ذُرِّيَّتِيۚ رَبَّنَا وَتَقَبَّلۡ دُعَآءِ ﴿٤٠﴾ رَبَّنَا ٱغۡفِرۡ لِي وَلِوَٰلِدَيَّ وَلِلۡمُؤۡمِنِينَ يَوۡمَ يَقُومُ ٱلۡحِسَابُ ﴿٤١﴾﴾

قال ابنُ جرير: يقول تعالى مخبراً عن إبراهيم خليلِه أنه قال: ﴿رَبَّنا إنَّك تعلم ما نخفي وما نُعلن﴾، أي: أنت تَعلم قَصْدِي في دعائي وما أردتُ بدعائي لأهل هذا البلد، وإنما هو القصدُ إلى رضاك والإخلاص لك، فإنك تعلم الأشياءَ كلَّها ظاهرها وباطنها، ولا يَخفى عليك منها شيءٌ في الأرض ولا في السماء.

ثم حَمِد ربَّه -عزَّ وجلَّ- على مارزَقه من الولد بعد الكِبَر، فقال: ﴿الحمدُ لله الذي وَهَب لي على الكِبَر إسماعيلَ وإسحاقَ إنَّ ربي لسميعُ الدعاءِ﴾، أي: إنه ليستجيبُ لمن دَعاه، وقد استجابَ لي فيما سألتُه من الولدِ.

ثم قال: ﴿ربِّ اجعَلني مُقيمَ الصَّلاةِ﴾، أي: محافظاً عليها مقيماً لحدودها، ﴿ومن ذُرِّيتي﴾، أي: واجعَلهم كذلك مُقيمين الصلاةَ، ﴿ربَّنا وتقَبَّل دعاءِ﴾، أي: فيما سألتُك فيه كلِّه.

﴿ربَّنا اغفر لي ولوالديَّ﴾، وقرأ بعضُهم[2]: ﴿ولوالدِي﴾، على الإفراد. وكان هذا قبل أن يتبرأ من أبيه لما تَبيَّن له عداوتُه لله عزَّ وجلَّ، ﴿وللمؤمنين﴾، أي: كلِّهم، ﴿يومَ يقومُ الحسابُ﴾، أي: يوم تحاسبُ عبادك فتجزيهم بأعمالهم، إن خيراً فخيرٌ، وإن شراً فشرٌ.

﴿وَلَا تَحۡسَبَنَّ ٱللَّهَ غَٰفِلًا عَمَّا يَعۡمَلُ ٱلظَّٰلِمُونَۚ إِنَّمَا يُؤَخِّرُهُمۡ لِيَوۡمٖ تَشۡخَصُ فِيهِ ٱلۡأَبۡصَٰرُ ﴿٤٢﴾ مُهۡطِعِينَ مُقۡنِعِي رُءُوسِهِمۡ لَا يَرۡتَدُّ إِلَيۡهِمۡ طَرۡفُهُمۡۖ وَأَفۡـِٔدَتُهُمۡ هَوَآءٞ ﴿٤٣﴾ وَأَنذِرِ ٱلنَّاسَ يَوۡمَ يَأۡتِيهِمُ ٱلۡعَذَابُ﴾

يقول: ولا تحسبنَّ الله ـ يا محمدُ ـ غافلاً عما يعمل الظالمون، أي: لا تحسبه إذ أنظَرهم وأجَّلهم انه

(١) تفسير الطبري ١٣/٢٣٣ ـ ٢٣٤.
(٢) هو ابن جُبَير كما في روح المعاني ١٣/٢٤٤، والبحر المحيط ٥/٤٣٥.

غافلٌ عنهم مهملٌ لهم، لا يُعاقِبهم على صُنعهم، بل هو يُحصي ذلك عليه ويعُدُّه عداً، أي: ﴿إنما يُؤخِّرُهم ليوم تشخَصُ فيه الأبصارُ﴾، أي: من شدةِ الأهوالِ يوم القيامة.

ثم ذَكر تعالى كيفيَّةَ قيامهم من قُبورهم ومَجيئهم إلى قيام المحشر فقال: ﴿مُهطِعين﴾، أي: مُسرِعين، كما قال تعالى: ﴿مُهطعين إلى الداعِ﴾... الآية، وقال تعالى: ﴿يومئذٍ يتَّبِعون الداعيَ لا عِوَجَ له وخَشعت الأصواتُ للرحمن فلا تسمعُ إلا همساً﴾ إلى قوله: ﴿وعَنَت الوجوهُ للحيِّ القيُّوم وقد خابَ مَن حَمل ظُلماً﴾.

وقال تعالى: ﴿يوم يخرجُون من الأجداث سِراعاً كأنهم إلى نُصُب يُوفِضون﴾.

وقولُه: ﴿مُقنعي رُءُوسهم﴾، قال ابن عباس، ومجاهد وغير واحد: رافعي رُءُوسهم.

﴿لا يَرتدُّ إليهم طَرْفُهم﴾، أي: أبصارُهم طائرةٌ شاخصةٌ، يُديمون النظرَ لا يَطرِفون لحظةً لكثرةِ ما هُم فيه من الهولِ والفِكرةِ والمَخافة لما يَحِلُّ بهم، عياذاً بالله العظيم من ذلك، ولهذا قال: ﴿وأفئدتُهم هواءٌ﴾، أي: وقلوبُهم خاويةٌ خاليةٌ ليس فيها شيءٌ لكثرة الوَجَل والخوفِ. ولهذا قال قتادةُ وجماعةٌ: إنَّ أمكنةَ أفئدتهم خاليةٌ لأنَّ القلوب لدى الحناجر قد خَرَجت من أماكنها من شدَّة الخوف. وقال بعضهم: ﴿هواءٌ﴾، خرابٌ لا تعي شيئاً.

ولشدَّة ما أخبر الله تعالى عنهم قال لرسُوله: ﴿وأنذرِ الناسَ يومَ يأتيهم العذابُ﴾.

﴿ فَيَقُولُ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ رَبَّنَآ أَخِّرْنَآ إِلَىٰٓ أَجَلٍ قَرِيبٍ نُّجِبْ دَعْوَتَكَ وَنَتَّبِعِ ٱلرُّسُلَ ۗ أَوَلَمْ تَكُونُوٓا۟ أَقْسَمْتُم مِّن قَبْلُ مَا لَكُم مِّن زَوَالٍ ﴿٤٤﴾ وَسَكَنتُمْ فِى مَسَٰكِنِ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوٓا۟ أَنفُسَهُمْ وَتَبَيَّنَ لَكُمْ كَيْفَ فَعَلْنَا بِهِمْ وَضَرَبْنَا لَكُمُ ٱلْأَمْثَالَ ﴿٤٥﴾ وَقَدْ مَكَرُوا۟ مَكْرَهُمْ وَعِندَ ٱللَّهِ مَكْرُهُمْ وَإِن كَانَ مَكْرُهُمْ لِتَزُولَ مِنْهُ ٱلْجِبَالُ ﴿٤٦﴾ ﴾

يقولُ تعالى مخبراً عن قِيلِ الذين ظلمُوا أنفسَهم عند مُعاينة العذاب: ﴿ربَّنا أخِّرنا إلى أجل قريب نُجب دعوتك ونتَّبع الرسل﴾، كما قال تعالى: ﴿حتى إذا جاء أحدهم الموت قال ربِّ ارجعونِ * لعلي أعمل صالحاً فيما تركت كلَّا إنها كلمة هو قائلُها ومن ورائهم برزخٌ إلى يوم يُبعثُون﴾، وقال تعالى: ﴿يا أيها الذين آمنوا لا تلهِكُم أموالكُم ولا أولادكم عن ذكر الله ومن يفعَل ذلك فأولئك هم الخاسرون * وأنفِقُوا مما رزقناكم من قبل أن يأتي أحدَكم الموتُ فيقول ربِّ لولا أخرتني إلى أجل قريبٍ فأصَّدَّقَ وأكُن من الصالحين﴾، وقال تعالى مخبراً عنهم في حال محشرهم: ﴿ولو تَرَى إذ المجرمون ناكسُوا رءوسِهم عند ربِّهم ربنا أبصَرْنا وسَمِعنا فارجِعنا نعملْ صالحاً إنا مُوقِنونَ﴾ وقال تعالى: ﴿ولو تَرَى إذ وقفوا على النار فقالوا يا ليتنا نُرَدُّ ولا نُكذِّبَ بآيات ربنا ونكونَ من المؤمنين * بل بدا لهم ما كانوا يخفون من قبلُ ولـو رُدُّوا لعادُوا لما نهوا عنه وإنهم لكاذبون﴾، وقال تعالى: ﴿وهم يَصْطَرِخُون فيها ربَّنا أخرِجْنا نعمل صالحاً غير الذي كنا نعمل أوَ لم نُعمِّركم ما يَتذكَّر فيه من تذكَّر وجاءكم النذيرُ فذُوقوا فما للظالمين من نصيرٍ﴾.

وقال تعالى راداً عليهم في قولهم هذا: ﴿أوَ لم تكونوا أقسمتُم من قبلُ ما لكم من زَوالٍ﴾، أي: أوَ لم تكونوا تَحلفُون من قبل هذه الحال: أنه لا زوال لكم عما أنتم فيه، وأنه لا معادَ ولا جزاءَ، فذُوقُوا هذا بذاك.

قال مجاهدٌ وغيره: ﴿ما لكم من زَوالٍ﴾، أي: ما لكم من انتقالٍ من الدنيا إلى الآخرةِ، كما أخبر عنهم تعالى: ﴿وأقسمُوا بالله جهدَ أيمانِهم لا يبعث الله من يَموتُ بلى وعداً عليه حقًّا﴾.

﴿وسكنتُم في مساكن الذين ظَلَمُوا أنفسهم وَتبيَّن لكم كيف فعلنا بهم وضربنا لكم الأمثالَ﴾، أي: قد رأيتم وبَلَغكُم ما أحللنا بالأمم المكذِّبة قبلكم، ومع هذا لم يكن لكم فيهم مُعتَبَرٌ، ولم يكن فيما أوقعنا بهم مُزدجَرٌ لكم؟ ﴿حكمة بالغةٌ فما تُغني النذرُ﴾.

وقد روى شعبةُ، عن أبي إسحاق، عن عبد الرحمن أن علياً ـ رضي الله عنه ـ قال في هذه الآية ﴿وإن كان مكرُهم لِتَزُولَ منه الجبالُ﴾، قال: أخذ ذاكَ الذي حاجَّ إبراهيم في ربِّه نَسْرَين صَغِيرين، فَرَبَّاهما حتى استغلظا واستَعْلَجَا[١] وَشَبَّا، قال: فأوثق رجلٍ كلَّ واحد منهما بِوَتِدٍ إلى تابوتٍ، وجَوَّعهما، وقعد هو ورجلٌ آخر في التابوت، قال: ورفع في التابوتِ عصاً على رأسِه اللحمُ، قال: فطارا، وجعل يقولُ لصاحِبِه: انظر، ما تَرَى؟ قال: أرى كذا وكذا. حتى قال: أرى الدنيا كلها كأنها ذبابٌ، قال فقال: صَوِّب العصا[٢]. فصوَّبها فَهَبَطا، قال: فهو قولُ الله عز وجل: ﴿وإن كادَ مكرُهم لِتَزُولَ منه الجبالُ﴾. قال أبو إسحاق: وكذلك هي في قراءة عبد الله: ﴿وإن كادَ مكرُهم﴾[٣].

قلت: وكذا رُوِيَ عن أُبيّ بن كعب، وعُمَر بن الخطاب ـ رضي الله عنهما ـ أنهما قرآ: ﴿وإن كاد﴾، كما قرأ علي، وكذا رَواه سفيانُ الثوريُّ، وإسرائيلُ، عن أبي إسحاقَ، عن عبد الرحمن بن أَذْنانَ[٤]، عن علي، فذكر نحوه. وكذا رُوِيَ عن عِكْرِمَةَ أنَّ سياق هذه القصةِ للنُّمْرُودِ ملِك كنعان: أنه رام أسباب السماء بهذه الحيلةِ والمَكْرِ، كما رام ذلك بعدَه فِرعونُ مَلِك القِبطِ في بناء الصَّرْحِ فَعَجزا وضَعُفا. وهما أَقَلُّ وأحقَرُ، وأصغَرُ وأدحَرُ.

وذكر مجاهِدٌ هذه القصة عن بُختنصَّرَ، وأنه لما انقطَع بصرُه عن الأرض وأهلها، نُودِيَ أيها الطاغية: أين تريد؟ فَفَرِق، ثم سَمِع الصَّوتَ فوقه، فصوَّب الرماح فَصَوَّبتِ النُّسور، فَفَزعت الجبالُ من هَدَّتها، وكادت الجبالُ أن تَزُولَ من حِسِّ ذلك. فذلك قولُه: ﴿وإن كان مكرُهم لِتَزُولَ منه الجبالُ﴾[٥].

ونقل ابنُ جُرَيج عن مجاهد أنه قرأها ﴿لَتَزُولُ منه الجبالُ﴾، بفتح اللام الأولى، وضم الثانية.

ورَوَى العوفيُّ عن ابن عباس في قوله: ﴿وإن كان مكرُهم لِتَزُولَ منه الجبالُ﴾، يقول: ما كان مكرهم لِتَزُولَ منه الجبال[٦]. وكذا قال الحسن البصري. ووجَّهه ابنُ جرير بأن هذا الذي فَعَلُوه بأنفسهم من كُفرِهم بالله وشركهم به، ما ضرَّ ذلك شيئاً من الجِبَالِ ولا غيرِها، وإنما عاد وبالُ ذلك على أنفسهم.

قلت: ويُشبِهُ هذا إذاً قولَه تعالى: ﴿ولا تمشِ في الأرض مرحا إنَّك لن تَخْرِقَ الأرضَ ولن تبلُغَ الجبالَ طُولاً﴾.

والقول الثاني في تفسيرها ما رواه علي بن ابي طلحَة، عن ابن عباس: ﴿وإن كان مكرهم لَتَزُولَ منه الجبالُ﴾، يقول: شركهم، كقوله: ﴿تكاد السموات يتفطَّرن منه وتنشقُّ الأرض وتَخِرُّ الجبالُ هدّاً ۞ أن دَعَوا للرحمنِ وَلَداً﴾. وهكذا قال الضحاك، وقتادةُ.

---

(١) أي: غَلُظَا واشتدَّا وضَخُم بَدَنُهما.

(٢) أي: خَفِّضها، يقال: صَوَّب الشيءَ: خَفَضه وأماله.

(٣) تفسير الطبري ١٣/٢٤٤. ونسبت القراءة في روح المعاني ١٣/٢٥١ إلى عمر، وعلي، وأُبيّ، وعبدالله، وغيرهم، وقال الألوسي: ﴿وإن كادَ﴾ بدالٍ مكان النون، و﴿لَتزولُ﴾ بالفتح والرفع، أي: بفتح اللام الداخلة على الفعل، ورفع المضارع.

(٤) عبد الرحمن بن أذنان مترجم في الجرح والتعديل ٥/٢١٠، وقد حرف «أذنان» في تفسير الطبري ١٣/٢٤٤، ٢٤٥.

(٥) تفسير الطبري ١٣/٢٤٤.

(٦) تفسير الطبري ١٣/٢٤٧.

﴿ فَلَا تَحْسَبَنَّ ٱللَّهَ مُخْلِفَ وَعْدِهِۦ رُسُلَهُۥٓ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَزِيزٌ ذُو ٱنتِقَامٍ ﴿٤٧﴾ يَوْمَ تُبَدَّلُ ٱلْأَرْضُ غَيْرَ ٱلْأَرْضِ وَٱلسَّمَٰوَٰتُ ۖ وَبَرَزُوا۟ لِلَّهِ ٱلْوَٰحِدِ ٱلْقَهَّارِ ﴿٤٨﴾ ﴾

يقولُ تعالى مُقرِّراً لوعدِه ومؤكِّداً: ﴿ فلا تحسَبنَّ الله مُخلِفَ وعدِه رُسُلَه ﴾، أي: من نصرتهم في الحياة الدنيا ويوم يقوم الأشهاد.

ثم أخبر أنه ذو عزَّةٍ لا يمتنع عليه شيءٌ أراده ولا يُغالَبُ، وذُو انتقام ممن كَفَر به وجَحَده، ﴿ ويلٌ يومئذٍ للمكذِّبين ﴾ ولهذا قال: ﴿ يوم تُبدَّل الأرضُ غيرَ الأرضِ والسَّمٰواتُ ﴾، أي: وعدُه هذا حاصلٌ يوم تبدَّلُ الأرض غير الأرض، وهي هذه على غير الصفةِ المألوفة المعروفةِ، كما جاء في الصحيحَين، من حديث أبي حازم، عن سهل بن سَعدٍ قال: قال رسولُ الله ـ ﷺ ـ: «يُحشَر الناسُ يومَ القيامةِ على أرضٍ بيضاءَ عفراءَ، كقُرصة النَّقِيِّ، ليس فيها مَعْلَم لأحد»[١].

وقال الإمامُ أحمد: حدثنا محمد بن أبي عديٍّ، عن داودَ، عن الشعبيِّ، عن مسروق، عن عائشة أنها قالت: أنا أوَّلُ الناس سأل رسول الله ـ ﷺ ـ عن هذه الآية: ﴿ يوم تُبدَّلُ الأرضُ غير الأرض والسمواتُ وبَرَزُوا لله الواحد القهار ﴾، قالت: قلت: أين الناسُ يومئذٍ يا رسولَ الله؟ قال: على الصراط[٢].

رواه مُسلِمٌ منفرداً به دون البخاري، والترمذيُّ، وابنُ ماجه، من حديث داودَ بن أبي هندٍ، به. وقال الترمذي: حسن صحيح[٢]. ورواه أحمدُ أيضاً، عن عَفَّان، عن وُهَيب، عن داود، عن الشعبيِّ، عنها. ولم يذكر مَسرُوقاً[٢].

وقال قتادةُ، عن حَسَّانَ بن بلالٍ المُزَنيِّ، عن عائشة ـ رضي الله عنهما ـ أنها سألت رسول الله ـ ﷺ ـ عن قول الله: ﴿ يوم تبدَّلُ الأرضُ غيرَ الأرض والسمواتُ ﴾، قال: قالت: يا رسول الله، فأين الناسُ يومئذٍ؟ قال: «لقد سألتني عن شيء ما سألني عنه أحدٌ من أُمَّتي، ذاك أَنَّ الناسَ على جسرِ جَهَنَّم»[٣].

وروى الإمام أحمدُ، من حديث حَبيب بن أبي عمرةَ، عن مجاهد، عن ابن عباس: حَدَّثتني عائِشةُ أنها سَأَلت رسولَ الله ـ ﷺ ـ عن قولِهِ تعالى: ﴿ والأرضُ جميعاً قبضتُه يومَ القيامة والسمواتُ مطويات بيمينه ﴾، فأين الناسُ يومئذٍ يا رسولَ الله؟ قال: «هم على مَتْن جَهَنَّم»[٤].

وقال ابنُ جرير: حدثنا الحسن: حدثنا علي بن الجَعْدِ، أخبرني القاسم، سَمِعتُ الحَسَنَ قال: قالت عائشةُ: يا رسولَ الله، ﴿ يوم تُبدَّلُ الأرضُ غير الأرضِ ﴾، فأيـن الناسُ يومئذٍ؟ قال: «إنَّ هذا شيءٌ ما سألني عنه أحدٌ! قال: على الصِّراط يا عائشة»[٥].

ورواه أحمدُ، عن عَفَّانَ، عن القاسِم بن الفَضْلِ، عن الحَسَنِ، به[٥].

---

(١) فتح الباري، كتاب الرقاق ٣٧٢/١١، ومسلم، كتاب صفة القيامة ٢١٥٠/٤.
عفراء: بيضاء إلى حمرة. والنَّقِيُّ: الدقيق الحُوَّارى، وهو الذي نُخِل مرة بعد أخرى. وقال الخطابي: الدقيق النقيّ من الغِشّ والنُّخال.

(٢) مسند الإمام أحمد ٣٥/٦، ١٣٤، ومسلم، كتاب صفة القيامة ٢١٥٠/٤، وعارضة الأحوذي، تفسير سورة إبراهيم ٢٨٦/١١، وابن ماجه، كتاب الزهد ١٤٣٠/٢.

(٣) تفسير الطبري ٢٥٣/١٣.

(٤) مسند أحمد ١١٦/٦ ـ ١١٧، ولفظه: «على جِسْر جَهَنَّم».

(٥) تفسير الطبري ٢٥٣/١٣، ومسند الإمام أحمد ١٠١/٦.

وقال الإمام مسلم بن الحجّاج في صَحِيحِه: حدثني الحسنُ بن علي الحُلْوَانِيّ، حدثنا أبو توبةَ الربيعُ بنُ نافعٍ، حدثنا معاويةُ بـن سَلّام، عن زيدٍ ـ يعني أخاه ـ أنه سَمِع أبا سَلّام، حدثني أبو أسماء الرَّحَبِيُّ: أن ثوبان مولى رسول الله ـ ﷺ ـ حَدَّثه قال: كنتُ قائماً عند رسول الله ـ ﷺ ـ فجاءه حَبرٌ من أحبار اليهود، فقال: السلامُ عليك يا محمدُ. فدفعته دَفعةً كاد يُصرَع منها، فقال: لِمَ تَدفعُني؟ فقلت: ألا تقول: «يا رسولَ الله»؟! فقال اليهوديُّ: إنما ندعُوه باسمه الذي سَمّاه به أهلُه! فقال رسولُ الله ـ ﷺ ـ: «إن اسمي محمدٌ الذي سمَّاني به أهلي. فقال اليهودي: جئتُ أسألك. فقال رسولُ الله ـ ﷺ ـ: أينفعك شيءٌ إن حَدَّثتُك؟ فقال: أسمَعُ بأذني. فنكَتَ[1] رسولُ الله ـ ﷺ ـ بعودٍ معه، فقال: سَلْ. فقال اليهوديُّ: أين يكونُ الناسَ حين تُبدَّلُ الأرضُ غيرَ الأرضِ والسموات؟ فقال رسولُ الله ـ ﷺ ـ: هم في الظلمة دونَ الجسرِ. قال: فمن أَوَّلُ الناس إجازةً[2]؟ قال فقال: فُقَراءُ المهاجريـن. قال اليهوديُّ: فما تُحْفَتُهُم حين يدخلونَ الجَنة؟ قال: زيادة كبدِ الحوتِ. قال: فما غِذَاؤُهم في أثرها؟ قال: يُنحَر لهم ثورُ الجنة الذي كان يأكل من أطرافها. قال: فما شرابهم عليه؟ قال: من عين فيها تسمَّى سلسبيلاً. قال: صدقتَ. قال: وجئتُ أسألُكَ عن شيء لا يعلَمه أحدٌ من أهل الأرض إلا نبيٌّ أو رجلٌ أو رجلانِ؟ قال: يَنفعُك إن حدَّثتك؟ قال: أسمعُ بأذني. قال: جئت أسألك عن الولد. قال: ماء الرجل أبيضُ وماء المرأة أصفرُ، فإذا اجتمعا فَعَلا منيُّ الرجلِ منيَّ المرأة أذْكَرا[3] بإذن الله تعالى، وإذا علا منيُّ المرأةِ منيَّ الرجل آنَثَا بإذن الله. قال اليهوديُّ: لقد صَدَقْتَ، وإنك لنبيٌّ. ثم انصرف، فقال رسول الله ـ ﷺ ـ: لقد سألني هذا عن الذي سألني عنه، وما لي علمٌ بشيء منه، حتى أتاني الله به»[4].

قال أبو جعفر بن جرير الطبري: حدثني ابن عوف، حدثنا أبو المغيرة، حدثنا ابنُ أبي مَرْيَم، حدثنا سعيدُ ابن ثوبان الكَلَاعي، عن أبي أيوب الأنصاري: قال: أتى النبيَّ ـ ﷺ ـ حَبر من اليهود فقال: أرأيتَ إذ يقولُ الله في كتابِهِ: ﴿ يوم تُبدَّلُ الأرضُ غيرَ الأرضِ والسمواتُ ﴾، فأين الخَلْق عند ذلك؟ فقال: أضيافُ الله، فلن يُعجزَهم ما لديه[5].

ورواه ابنُ أبي حاتم، من حديث أبي بكر بن عبد الله بن أبي مَرْيَم، به.

وقال شعبةُ: أخبرنا أبو إسحاقَ، سَمِعتُ عمرو بن ميمون ـ وربَّما قال: قال عبد الله، وربما لم يَقُل ـ فقلت له: عن عبد الله؟ فقال: سَمِعت عَمْرو بن ميمون يقول: ﴿ يومُ تبدَّل الأرضُ غيرَ الأرض ﴾، قال: أرضٌ كالفضَّةِ البيضاءِ نَقِيَّةٌ، لم يسفَك فيها دم، ولم يعمل عليها خطيئة، يَنفُذُهم[6] البصرُ، ويُسمِعُهم الداعي، حُفاةً عراةً كما خُلِقوا، قال: أراه قال: قياماً حتى يُلجِمَهم العَرَقُ[7].

ورُوِي من وجهٍ آخرَ عن شعبة وعن إسرائيل، عن أبي إسحاقَ، عن عَمْرو بن ميمون، عن ابن مسعود، بنحوه. وكذا رواه عاصم، عن زِرٍّ، عن ابن مسعود، به[8].

وقال سفيان الثوري، عن أبي إسحاق، عن عَمرو بن ميون. لم يُخْبر به. أورد ذلك كله ابنُ جرير[8].

---

(١) أي: خَطَّ في الأرض، فِعْلَ المُفَكِّر.

(٢) أي: عبوراً.

(٣) أي: كان الولد ذكراً. وآنَثَا: كان الولد أنثى. ويروى: آنثا.

(٤) مسلم، كتاب الحيض ١/٢٥٢ ـ ٢٥٣.

(٥) تفسير الطبري ١٣/٢٥٣ ـ ٢٥٤.

(٦) أي: يخترقهم ويجاوزهم لاستواء الصعيد.

(٧) تفسير الطبري ١٣/٢٤٩.

(٨) تفسير الطبري ١٣/٢٤٩ ـ ٢٥٠.

وقد قال الحافظ أبو بكر البزَّار: حدثنا محمد بن عبد الله بن عُبَيد بَن عَقيل، حدثنا سَهلُ بنُ حمادٍ أبو عَتَّاب، حَدَّثنا جريرُ بن أيوب، عن أبي إسحاقَ، عن عَمرو بن ميمون، عن عبد الله، عن النبي ـ ﷺ ـ في قول الله عز وجل: ﴿ يوم تُبدَّل الأرضُ غيرَ الأرْضِ ﴾، قال: «أرضٌ بيضاءُ لم يَسقُط[1] عليها دمٌ، ولم يُعمَل عليها خطيئة». ثم قال: لا نعلم رفعه إلا جريرُ بن أيوب، وليس بالقوي[2].

ثم قال ابنُ جرير: حدثنا أبو كريب، حدثنا معاويةُ بن هشام، عن سنانٍ، عن جابر الجُعفِي، عن أبي جُبَيرة، عن زيدٍ قال: أرسلَ رسولُ ـ ﷺ ـ إلى اليهود فقال: «هل تدرُون لم أرسَلتُ إليهم؟ قالوا: الله ورسوله أعلَم. قال: أرسلت إليهم أسألُهم عن قول الله: ﴿ يوم تُبدَّل الأرضُ غيرَ الأرض ﴾، إنها تكون يومئذ بيضاء مثل الفضة. فلما جاءوا سألهم فقالوا: تكون بيضاء مثل النَقِيّ[3].

وهكذا رُوِي عن علي، وابن عباس، وأنس بن مالك، ومجاهد بن جَبْـر: أنها تبدَّل يوم القيامة بأرض من فضةٍ. وعن علي ـ رضي الله عنه ـ أنه قال: تَصِير الأرضُ فضةً، والسموات ذهباً. وقال الربيع، عن أبي العالية، عن أبيّ بن كعب قال: تَصِير السمواتُ جناناً.

وقال أبو معشَر، عن محمد بن كعب القُرَظِيِّ، أو عن محمد[4] بن قيسٍ في قوله: ﴿ يومَ تُبدَّلَ الأرضُ غير الأرض ﴾، قال: خبزةٌ يأكلُ منها المؤمنون من تحت أقدامهم.

وكذا رَوَى وكيع، عن عمر بن بَشير الهَمْدَانِيِّ[5]، عن سعيد بن جُبَير في قوله: ﴿ يوم تُبَدَل الأرضُ غيرَ الأرض ﴾، قال: تبدلُ خبزةً بيضاءَ، يأكل المؤمنُ من تحتِ قدَمَيهِ.

وقال الأعمش، عن خَيْثَمَةَ قال: قال عبد الله ـ هو ابن مسعود ـ: الأرض كلُّها يوم القيامة نارٌ، والجنةُ من ورائها تُرى كَوَاعِبُها وأكوابُها، ويُلجِـمُ[6] الناس العرقُ ـ أو يبلُغ منهم العرقُ ـ ولم يبلغوا الحساب[7].

وقال الأعمش أيضاً، عن المنهال بن عمرو، عن قيس بن السَّكَنَ قال: قال عبدُ الله: الأرضُ كلُّها نارٌ يوم القيامة، الجنة من ورائها، ترى أكوابها وكَوَاعبها، والذي نفسُ عبدِ الله بيده إنَّ الرجل ليَفِيضُ عَرَقاً حتى ترسُخَ في الأرض قدمُه، ثم يرتفع حتى يبلُغ أنفه، وما مسَّه الحسابُ. قالوا: مِمَّ ذاك يا أبا عبد الرحمن؟ قال: مما يَرَى الناس ويَلْقَون.

وقال أبو جعفر الرازيُّ، عن الربيع بن أنس، عن كعب في قوله: ﴿ يوم تُبدَّلُ الأرضُ غيرَ الأرضِ والسمواتُ ﴾، قال: تصيرُ السمواتُ جناناً، ويصير مكانُ البحرِ ناراً، وتبدل الأرض غيرها.

وفي الحديث الذي رواه أبو داود: «لا يركَبُ البحرَ إلا غازٍ أو حاجٌ أو مُعتَمِر، فإن تحت البحرِ ناراً وتحت النار بحراً»[8].

---

(١) في كشف الأستار: «ولم يُسفَك عليها دم، أو لم. . .».
(٢) كشف الأستار عن زوائد البزار، كتاب البعث ٤/١٥٦.
(٣) تفسير الطبري ١٣/٢٥٠.
(٤) في الأصل: «عن محمد بن كعب القرظي، عن محمد بن قيس». والمثبت عن تفسير الطبري ١٣/٢٥٢.
(٥) في الأصل: معمر بن بشير. وفي تفسير الطبري ١٣/٢٥٢: عمر بن بشر. والمثبت عن الجرح والتعديل لابن أبي حاتم ٦/١٠٠.
(٦) أي: يصير العَرَق لهم بمنزلة اللجام.
(٧) تفسير الطبري ١٣/٢٥١.
(٨) سنن أبي داود، كتاب الجهاد ٣/٦. وفي الأصل: «أو تحت النار بحراً». والمثبت عن السنن، وما ساق ابن كثير عند الآية السادسة من سورة التكوير.

وفي حديث الصُّور المشهورُ المرويُّ عن أبي هُريرة، عن النبي ـ ﷺ ـ أنه قال: «تُبَدَّلُ الأرضُ غير الأرض والسموات، فيبسُطها ويَمُدُّها مدَّ الأديم العُكَاظِيِّ، لا ترى فيها عوجاً ولا أمْتاً، ثم يزجر الله الخلق زجرةً، فإذا هم في هذه المبدَّلة»(١).

وقولُه: ﴿ وَبَرَزُوا لله ﴾، أي: خَرجت الخلائقُ جميعُها من قُبورهم لله ﴿ الواحدِ القهارِ ﴾، أي: الذي قَهر كلَّ شيء وغَلَبه، ودانت له الرقابُ، وخضعت له الألبابُ.

﴿ وَتَرَى ٱلْمُجْرِمِينَ يَوْمَئِذٍ مُّقَرَّنِينَ فِى ٱلْأَصْفَادِ ﴿٤٩﴾ سَرَابِيلُهُم مِّن قَطِرَانٍ وَتَغْشَىٰ وُجُوهَهُمُ ٱلنَّارُ ﴿٥٠﴾ لِيَجْزِىَ ٱللَّهُ كُلَّ نَفْسٍ مَّا كَسَبَتْ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ سَرِيعُ ٱلْحِسَابِ ﴿٥١﴾ ﴾

يقولُ تعالى: ﴿ يوم تُبدَّل الأرضُ غيرَ الأرض والسموات ﴾، وتبرزُ الخلائقُ لديَّانِها، ترى ـ يا محمدُ ـ يومئذ المجرمين، وهم الذين أجرمُوا بكُفرهم وفسادهم، ﴿ مُقَرَّنين ﴾، أي: بعضُهم إلى بعضٍ، قد جُمِعَ بين النظراء أو الأشكال منهم، كلُّ صنفٍ إلى صنفٍ، كما قال تعالى: ﴿احشروا الذين ظلموا وأزواجَهم ﴾، وقال: ﴿ وإذا النفوسُ زُوِّجت ﴾ وقال: ﴿ وإذا ألقوا منها مَكاناً ضَيِّقاً مُقَرَّنين دَعوا هنالك ثُبوراً ﴾، وقال: ﴿ والشياطينَ كلَّ بناءٍ وغوَّاصٍ * وآخرين مُقَرَّنين في الأصفاد﴾.

والأصفادُ: هي القيودُ، قاله ابنُ عباس، وسعيد بن جُبَير، والأعمشُ، وعبد الرحمن بن زَيد. وهو مشهورٌ في اللغة، قال عَمرو بن كُلثوم(٢):

فَـآبُـوا بـالـنِّـهـابِ وَبـالـسَّـبـايـا وَأُبـنـا بـالـمُـلُـوك مُـصَـفَّـدِيـنـا

وقولُه: ﴿ سَرَابيلهم من قَطِران ﴾، أي: ثيابهم التي يلبسُونَها عليهم من قَطِرانٍ، وهو الذي تُهْنَأُ به الإبلُ، أي: تُطلَى، قاله قتادةُ. وهو ألصقُ شيءٍ بالنار.

ويُقال فيه: «قَطِـران»، بفتح القاف وكسر الطاء، وبفتح القاف وتسكين الطاء. وبكسر القاف وتسكين الطاء. ومنه قول أبي النجم(٣):

كَـأنَّ قِـطْـرانـاً إذَا تَـلاهَـا تَـرْمِي بـه الـرِّيـح إلى مَجْـراهـا

وكان ابن عباس يقول: القِطران هو: النحاسُ المذابُ، وربما قرأها: «سرابيلهم من قِطرٍ آنٍ»(٤)، أي: من نُحاسٍ حارٍّ قد انتهى حرُّه. وكذا رُوِي عن مجاهد، وعِكْرِمة، وسعيد بن جُبَير، والحسن، وقتادةَ.

وقولُه: ﴿ وتغشَى وجوهَهم النارُ ﴾، كقوله: ﴿ تَلْفح وجُوهَهُم النارُ وهم فيها كالحُونَ﴾.

وقال الإمامُ أحمدُ ـ رَحِمه الله ـ: حدثنا يحيى بن إسحاق، أنبأنا أبانُ بن يزيد، عن يحيى بن أبي كثير، عن زيد، عن أبي سَلاّم، عن أبي مالك الأشعري قال: قال رسولُ الله ـ ﷺ ـ: «أربعٌ من أمرِ الجاهلية لا

(١) تقدم الحديث عند تفسير الآية ٧٣ من سورة الأنعام.
(٢) البيت في معلقة عَمْرو ١٠٠ شرح ابن كيسان، بتحقيقنا، وفي تفسير الطبري ١٣/٢٥٤. والنِّهابُ: ما انتهبوا.
(٣) البيت أيضاً من شواهد الطبري ١٣/٢٥٦. هذا وفي روح المعاني ١٣/٢٥٦ أن عُمَر وعليّاً ـ رضي الله عنهما ـ قرَآ: قِطْرانٍ، بزنَة سِرْحَانٍ.
(٤) في روح المعاني أيضاً ١٣/٢٥٦ أن عليّاً، وابن عباس، وأبا هريرة وجماعة قرأوا: (من قَطِرٍ آنٍ)، على أنهما كلمتان مُنَوَّنتان، أولاهما: قَطِرٍ ـ بفتح القاف وكسر الطاء ـ وهي النحاس مطلقاً، أو المذاب منه. وثانيهما (آنٍ) بوزن عالٍ، بمعنى شديد الحرارة.

يُتْرَكنَ: الفخرُ بالأحساب، والطعنُ في الأنسابِ، والاستسقاءُ بالنجومِ، والنياحةُ. والنائحةُ إذا لم تَتُبْ قبل موتها تقام يوم القيامة وعليها سربالٌ من قَطِران، ودِرْعٌ من جَرَب». انفرد بإخراجه مسلم(١).

وفي حديث القاسم، عن أبي أمامة ـ رضي الله عنه ـ قال: قال رسول الله ـ ﷺ ـ: «النائحةُ إذا لم تَتُبْ توقف في طريق بين الجنة والنار، سرابيلها من قطرانٍ، وتَغْشى وجهها النارُ»(٢).

وقولُه: ﴿لِيَجْزِيَ اللهُ﴾، أي: يومَ القيامة، [كما قال]: ﴿ليجزِيَ الذين أساءُوا بما عَمِلوا ويجزِيَ الذين أحسنُوا بالحُسنَى﴾.

﴿إن الله سريع الحساب﴾، يَحتَمِلُ أن يكون كقوله تعالى: ﴿اقترب للناس حسابُهم وهم في غَفلةٍ معرضون﴾، ويَحتمِلُ أنه في حال محاسبته لعبده سريعُ النّجاز؛ لأنه يعلَمُ كلَّ شيء، ولا يخفَى عليه خافيةٌ، وإن جميعَ الخلقِ بالنسبة إلى قدرته كالواحِد منهم، كقوله تعالى: ﴿ ما خَلْقُكم ولا بعثُكم إلا كنفسٍ واحدةٍ ﴾، وهذا معنى قول مجاهدٍ: ﴿سريع الحساب﴾ [إحصاءً]. ويحتمل أن يكون المعنيان مُرادَين، والله أعلم.

﴿ هَٰذَا بَلَٰغٌ لِّلنَّاسِ وَلِيُنذَرُوا۟ بِهِۦ وَلِيَعْلَمُوٓا۟ أَنَّمَا هُوَ إِلَٰهٌ وَٰحِدٌ وَلِيَذَّكَّرَ أُو۟لُوا۟ ٱلْأَلْبَٰبِ ﴿٥٢﴾ ﴾

يقول تعالى: هذا القرآنُ بلاغٌ للناس، كقوله: ﴿لأُنذركم به ومن بَلَغ﴾، أي: هُو بلاغٌ لجميع الخَلْق من إنسٍ وجان، كما قال في أول السورة: ﴿الٓر * كتابٌ أنزلناه إليك لتخرجَ الناسَ من الظلماتِ إلى النور بإذنِ ربهم﴾. ﴿وَلِيُنْذَروا به﴾، أي: ليتعِظُوا به، ﴿وليعلَمُوا أنما هو إلهٌ واحدٌ﴾، أي: يستدلوا بما فيه من الحجج والدلالات على أنه لا إله إلا هو، ﴿وَلِيذَّكَّر أولُوا الألبابِ﴾، أي: ذَوُو العقول.

آخر تفسير «سورة إبراهيم» عليه الصلاة والسلام، والحمد لله ربّ العالمين

(١) مسند أحمد ٥/٣٤٢ـ٣٤٣، ومسلم، كتاب الجنائز ٢/٦٤٤.
(٢) أخرجه ابن أبي حاتم والطبراني، انظر الدرّ المنثور ٥/٦٠.

تفسير

سُورَةُ الحِجْر

آياتها ٩٩ ترتيبها ١٥

وهي مكية

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

﴿الٓرۚ تِلْكَ ءَايَٰتُ ٱلْكِتَٰبِ وَقُرْءَانٍ مُّبِينٍ ۝١ رُّبَمَا يَوَدُّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لَوْ كَانُوا۟ مُسْلِمِينَ ۝٢ ذَرْهُمْ يَأْكُلُوا۟ وَيَتَمَتَّعُوا۟ وَيُلْهِهِمُ ٱلْأَمَلُ فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ ۝٣﴾

قد تقدَّم الكلامُ على الحروف المقطَّعة في أوائل السُّوَر.

وقولُه: ﴿رُبَما يودُّ الذين كفروا لو كانوا مسلمين﴾، إخبار عنهم أنهم سَيَندمُون على ما كانوا فيه من الكفر، وَيَتمنَّون لو كانوا مع المسلمين في الدار الدنيا.

ونَقَل السدِّي في تفسيره بسنَدِه المشهورِ عن ابن عباس، وابن مسعود، وغيرهما من الصحابة: أنَّ الكفَّار لما عُرِضُوا على النار تمنوا أن لو كانوا مسلمين. وقيل: المرادُ أن كلَّ كافر يَوَدُّ عند احتضاره أن لو كان مؤمناً. وقيل: هذا إخبارٌ عن يوم القيامة، كما في قوله تعالى: ﴿ولو تَرَى إذ وُقِفُوا على النار فقالوا يا ليتنا نُرَدُّ ولا نُكَذِّبَ بآيات ربِّنا ونكونَ من المؤمنين﴾.

وقال سفيان الثوريُّ، عن سَلَمة بن كُهَيل، عن أبي الزَّعراء، عن عبدالله في قوله: ﴿رُبما يودُّ الذين كَفَرُوا لو كانوا مسلمين﴾، قال: هذا في الجُهَنَّمِيِّينَ إذ رأوهم يخرجون من النار.

وقال ابنُ جرير: حدَّثني المثنى، حدثنا مسلم، حدثنا القاسم، حدثنا ابن أبي فَرْوَة العَبْدِيُّ: أن ابنَ عباس وأنسَ بن مالكٍ كانا يتأوّلان هذه الآية: ﴿رُبَما يودُّ الذين كفروا لو كانوا مسلمين﴾، يتأوَّلانها يومَ يحبس الله أهلَ الخطايا من المسلمين مع المشركين في النار، قال: فيقولُ لهم المشركون: «ما أغنى عنكم ما كنتم تعبدُون في الدنيا». قال: فيغضَبُ الله لهم بفضل رحمَتِه فيُخرِجُهم، فذلك حين يقول: ﴿رُبَما يَوَدُّ الذين كَفَرُوا لو كانوا مُسلمين﴾[1].

وقال عبد الرزَّاق: أخبرنا الثوريُّ، عن حَمَّادٍ، عن إبراهيمَ ـ وعن خُصَيف، عن مجاهد قالا: يقول أهلُ

(١) تفسير الطبري ١٤/٣.

النار للموحِّدين: ما أغنى عنكم إيمانكم؟ فإذا قالوا ذلك قال: أخرِجُوا من كان في قَلْبِهِ مثقالُ ذَرَّةٍ. قال: فعند ذلك قولُه: ﴿يَوَدُّ الذين كَفَرُوا لو كانُوا مُسلِمينَ﴾[١].

وهكذا رُوِي عن الضحَّاكِ، وقتادةَ، وأبي العالية، وغيرهم. وقد وَرَد في ذلك أحاديثُ مرفوعةٌ، فقال الحافظ أبو القاسم الطبراني:

حدثنا محمد بن العباس هو الأخرَمُ، حدثنا محمد بن منصور الطُوسِيُّ، حدثنا صالح بن إسحاق الجِهْبِذُ ـ رأى عليه[٢] بن موسى ـ حدثنا مُعَرِّف بن واصل، عن يعقوب بن [أبي][٣] نباتة، عن عبد الرحمن الأغرِّ، عن أنس بن مالك ـ رضي الله عنه ـ قال: قال رسول الله ـ ﷺ ـ: إن ناساً من أهل «لا إلَه إلا الله» يدخلُون النار بذنوبهم، فيقولُ لهم أهلُ اللاَّتِ والعُزَّى: ما أغنى عنكم قولُكم: «لا إلَه إلا الله» وأنتم معنا في النار! فيغضَبُ الله لهم فَيُخرِجُهم فَيُلقِيهم في نَهر الحياة، فيبرأون من حَرْقهم كما يبرأُ القمَرُ من خُسُوفه، فيدخلون الجنة، ويسمَّون فيها الجُهَنَّميين. فقال رجلٌ: يا أَنسُ، أنت سَمِعتَ هذا من رَسُولِ الله ﷺ؟ فقال أنس: سمعتُ رسولَ الله ـ ﷺ ـ يقول: من كَذَب عليَّ متعمداً فَلْيتبوَّأْ مقعدَه من النار. نعم، أنا سَمعتُ رسولَ الله ـ ﷺ ـ يقول هذا. ثم قال الطبراني: تفرَّد به الجِهْبِذُ.

الحديث الثاني، وقال الطبرانيُّ أيضاً:

حدثنا عبدُالله بن أحمد بن حنبل، حدثنا أبو الشعثاء علي بن الحُسَين الواسِطِيُّ، حدثنا خالد بن نافع الأشعريُّ، عن سعيد بن أبي بُردَةَ، عن أبيه، عن أبي مُوسَى ـ رضي الله عنه ـ قال قال رسولُ الله ـ ﷺ ـ: «إذا اجتمع أهلُ النار في النار، ومعهم مَن شاء الله من أهل القبلةِ، قال الكفارُ للمسلمين: ألم تكونوا مُسلمين؟ قالوا: بلى. قالوا: فما أغنى عنكم الإسلامُ فقد صِرتُم معنا في النار! قالوا: كانت لنا ذنوبٌ فأُخِذنا بها. فَسَمِع الله ما قالوا، فأمر بمن كان في النار من أهل القبلة فأُخرِجُوا، فلما رأى ذلك من بقي من الكفار قالوا: يا ليتنا كنا مُسلِمين فَنخرُجَ كما خرَجوا. قال: ثم قرأ رسول الله ـ ﷺ ـ: أعوذ بالله من الشيطان الرجيم، ﴿الر تلك آياتُ الكتابِ وقرآنٍ مبينٍ * رُبَما يودُّ الذين كفروا لو كانوا مُسلِمين﴾.

ورواه ابن أبي حاتم، من حديث خالد بن نافع، به، وزاد فيه: ﴿بسم الله الرحمن الرحيم﴾، عِوَضَ الاستعاذةِ[٤].

الحديث الثالث، وقال الطَبَرانيُّ أيضاً:

حدثنا موسى بن هارون، حدثنا إسحاقُ بن راهويه قال: قلت لأبي أسامةَ: أحدثكم أبو رَوقٍ ـ واسمه عطيةُ بنُ الحارثِ ـ: حَدَّثني صالح بن أبي طريف قال: سألتُ أبا سعيدِ الخُدْرِيَّ فقلت له: هل سَمِعتَ رسولَ الله ـ ﷺ ـ يقولُ في هذه الآية: ﴿رُبَما يَوَدُّ الذين كفروا لو كانوا مُسلِمين﴾؟ قال: نعم، سَمِعتُه يقول: يُخرِجُ الله ناساً من المؤمنين مِن النار بعدَ ما يأخذُ نِقْمَتَه منهم، وقال: لما أدخلَهم الله النارَ مع المشركين قال لهم المشركون: تزعُمون أنكم أولياءُ الله في الدنيا، فما بالكم معنا في النار؟ فإذا سَمِعَ الله ذلك منهم أذن في الشفاعة لهم فتشفَعُ الملائكة والنبيُّون، ويشفَع المؤمنون، حتى يخرُجوا بإذن الله: ﴿رُبَما يَوَدُّ الذين كفروا لو كانوا

(١) تفسير الطبري ١٤/٣.
(٢) كذا. وفي الطبعات السابقة: والجهبذ وابن علي يحيى بن موسى.
(٣) عن تهذيب الكمال، ترجمة معرف بن واصل.
(٤) أخرجه الحاكم وصححه في كتاب التفسير ٢/١٤، والطبري في تفسيره ١٤/٢، وغير واحد، انظر الدرّ المنثور ٥/٦٢ـ٦٣.

مسلمين﴾، فَيُسمون في الجنة الجَهَنَّمِيِّين، من أجل سَوَادٍ في وُجُوههم، فيقولون: يا ربِّ، أذهِبْ عنا هذا الاسم. فيأمرُهم فيغتسلون في نهر الجنة، فيذهب ذلك الاسم عنهم. فأقر به أبو أسامة، وقال: نعم[١].

الحديث الرابع، وقال ابنُ أبي حاتم:

حدثنا علي بن الحسين، حدثنا العباس بن الوليد النَّرْسي، حدثنا مسكينُ أبو فاطمة، حدثني اليمانُ ابن يزيد، عن محمد بن جبرٍ، عن محمد بن علي، عن أبيه، عن جَده قال: قال رسول الله - ﷺ -: «منهُم من تأخذهُ النارُ إلى ركبتَيه، ومنهم من تأخذُه النارُ إلى حُجْزَتِه[٢]، ومنهم من تأخذه النار إلى عنُقه، على قدر ذُنُوبهم وأعمالهم، ومنهم من يمكثُ فيها شهراً ثم يخرُج منها، ومنهُم مَن يمكثُ فيها سنةً ثم يخرج منها، وأطولُهم فيها مُكثاً بِقَدْرِ الدنيا منذ يوم خلقت إلى أن تَفْنَى، فإذا أراد الله أن يخرجُوا منها قالت اليهودُ والنصارى ومَن في النار من أهل الأديان والأوثان، لمن في النار من أهل التوحيد: آمنتم بالله وكُتبه ورُسله، فنحنُ وأنتم اليوم في النار سواءٌ، فيغضَب الله لهم غَضَباً لم يَغضبه لشيءٍ فيما مَضى، فيُخرجهم إلى عينٍ في الجنةِ، وهو قولُه: ﴿رُبَما يودُّ الذين كفروا لو كانوا مسلمين﴾[٣].

وقولُه: ﴿ذَرْهُم يأكلوا ويَتمتَّعوا﴾، تهديدٌ لهم شديدٌ، ووعيدٌ أكيدٌ، كقوله تعالى: ﴿قل تَمتَّعُوا فإنَّ مَصِيرَكُم إلى النار﴾، وقوله: ﴿كُلُوا وتمتَّعُوا قليلاً إنكم مُجرِمون﴾، ولهذا قال: ﴿ويُلْهِهِمُ الأملُ﴾، أي: عن التوبة والإنابة، ﴿فسوفَ يعلَمُون﴾، أي: عاقبة أمرهم.

﴿وَمَآ أَهْلَكْنَا مِن قَرْيَةٍ إِلَّا وَلَهَا كِتَابٌ مَّعْلُومٌ ۝٤ مَّا تَسْبِقُ مِنْ أُمَّةٍ أَجَلَهَا وَمَا يَسْتَـْٔخِرُونَ ۝٥﴾

يقولُ تعالى: إنه ما أهلك قريةً إلا بعد قيام الحجَّةِ عليها وانتهاء أجلها، وإنه لا يُؤخِّر أمةً حان هلاكُها عن ميقاتها ولا يَتقدَّمُون عن مدَّتِهم. وهذا تنبيهٌ لأهلِ مَكَّةَ، وإرشادٌ لهم إلى الإقلاعِ عَمَّا هُم فيه من الشِّركِ والعنادِ والإلحادِ، الذي يَستحقُونَ به الهلاكَ.

﴿وَقَالُوا۟ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِى نُزِّلَ عَلَيْهِ ٱلذِّكْرُ إِنَّكَ لَمَجْنُونٌ ۝٦ لَّوْ مَا تَأْتِينَا بِٱلْمَلَـٰٓئِكَةِ إِن كُنتَ مِنَ ٱلصَّـٰدِقِينَ ۝٧ مَا نُنَزِّلُ ٱلْمَلَـٰٓئِكَةَ إِلَّا بِٱلْحَقِّ وَمَا كَانُوٓا۟ إِذًا مُّنظَرِينَ ۝٨ إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا ٱلذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُۥ لَحَـٰفِظُونَ ۝٩﴾

يُخبر تعالى عن كُفرهم وعُتوِّهم وعنادهم في قولهم: ﴿يا أيها الذي نُزِّل عليه الذكرُ﴾، أي: الذي يدَّعي ذلك: ﴿إنك لَمجنونٌ﴾، أي: في دعائك إيَّانا إلى اتِّباعك وتَرْكِ ما وَجدنا عليه آباءنا. ﴿لو ما﴾، أي: هَلاَّ ﴿تأتينا بالملائكةِ﴾، أي: يَشْهَدُون لك بصحَّةِ ما جئتَ به، ﴿إن كُنتَ من الصادقين﴾. كما قال فرعونُ: ﴿لولا ألقِي عليه أساوِرة[٤] من ذهب أو جاء معه الملائكة مُقترنين﴾، ﴿وقال الذين لا يرجون لقاءنا لولا أُنزِلَ علينا الملائكةُ أو نَرَى ربَّنا لقد استكبروا في أنفسهم وعَتَوا عُتُوّاً كبيراً * يوم يَرون الملائكة لا بُشْرى يومئذٍ للمجرمينَ ويقولُون حِجْراً محجُوراً﴾. وكذا قال في هذه الآية: ﴿ما نُنَزِّلُ الملائكة إلا بالحقِّ وما كانُوا إذاً مُنْظَرِين﴾.

---

(١) أخرجه أيضاً إسحق بن راهويه وابن حبّان وابن مردويه كما في الدرّ المنثور ٥/٦٣، والحديث أخرجه ابن حِبّان في صحيحه، باب وصف الجنة وأهلها، انظر الإحسان بترتيب صحيح ابن حبان ٩/٢٦١ - ٢٦٢.

(٢) الحُجْزة: موضع شَدِّ الإزار من الوسط.

(٣) الدرّ المنثور ٤/٦٤.

(٤) قرأ حفص ﴿أَسْوِرَةٌ﴾، وقرأ الباقون من السَّبعة: ﴿أَساوِرَةٌ﴾. انظر الإقناع لابن الباذش ٢/٧٦١.

وقال مجاهد في قوله: ﴿ما ننزل الملائكة إلا بالحق﴾: بالرِّسالة والعذاب[١].

ثم قَرَّر تعالى أنه هو الذي أنزل الذكر، وهو القرآن، وهو الحافظُ له من التغيير والتبديل. ومنهم من أعاد الضمير في قوله تعالى: ﴿له لحافظون﴾، على النبي ـ ﷺ ـ كقوله: ﴿والله يعصِمُك من الناس﴾. والمعنى الأول أولى، وهو ظاهرُ السِّياق.

﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ فِي شِيَعِ الْأَوَّلِينَ ﴿١٠﴾ وَمَا يَأْتِيهِم مِّن رَّسُولٍ إِلَّا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِئُونَ ﴿١١﴾ كَذَٰلِكَ نَسْلُكُهُ فِي قُلُوبِ الْمُجْرِمِينَ ﴿١٢﴾ لَا يُؤْمِنُونَ بِهِ ۖ وَقَدْ خَلَتْ سُنَّةُ الْأَوَّلِينَ ﴿١٣﴾﴾

يقول تعالى مُسلِّياً لرسوله في تكذيب مَن كَذَّبه من كفار قريش: إنه أرسل من قَبْله في الأمم الماضية، وإنه ما أتى أمةً رسولٌ إلا كذَّبوه واستهزءُوا به. ثم أخبر أنه سَلَكَ التكذيب في قلوب المجرمين الذين عاندُوا واستكبروا عن اتباع الهُدَى. قال أنسٌ، والحسنُ البصريُّ: ﴿كذلك نَسلُكه في قلوب المجرمين﴾، يعني الشرك.

وقولُه: ﴿وقد خلَت سنةُ الأولين﴾، أي: قد عُلِم ما فَعَل تعالى بِمَن كَذَّب رُسُلَه من الهلاكِ والدَّمارِ، وكيف أنجى الله الأنبياءَ وأتباعَهم في الدنيا والآخرة.

﴿وَلَوْ فَتَحْنَا عَلَيْهِم بَابًا مِّنَ السَّمَاءِ فَظَلُّوا فِيهِ يَعْرُجُونَ ﴿١٤﴾ لَقَالُوا إِنَّمَا سُكِّرَتْ أَبْصَارُنَا بَلْ نَحْنُ قَوْمٌ مَّسْحُورُونَ ﴿١٥﴾﴾

يُخبر تعالى عن قُوَّة كُفرهم وعِنادِهم ومكابَرتِهم للحقِّ أنَّه لو فتح لهم باباً من السماء، فَجعلُوا يصعدون فيه لَمَا صَدَّقوا بذلك، بل قالوا: ﴿سكِّرَت أبصارُنا﴾. قال مجاهدٌ، وابنُ كثير، والضحاك: سُدَّت أبصارُنا. وقال قتادة، عن ابن عباس، أُخِذَت أبصارنا. وقال العوفيُّ، عن ابن عباس: شُبِّه علينا، وإنما سُحِرنا. وقال الكَلْبِيُّ: عَمِيت أبصارُنا. وقال ابنُ زيدٍ: ﴿سُكِّرت أبصارنا﴾، السكران الذي لا يعقِلُ[٢].

﴿وَلَقَدْ جَعَلْنَا فِي السَّمَاءِ بُرُوجًا وَزَيَّنَّاهَا لِلنَّاظِرِينَ ﴿١٦﴾ وَحَفِظْنَاهَا مِن كُلِّ شَيْطَانٍ رَّجِيمٍ ﴿١٧﴾ إِلَّا مَنِ اسْتَرَقَ السَّمْعَ فَأَتْبَعَهُ شِهَابٌ مُّبِينٌ ﴿١٨﴾ وَالْأَرْضَ مَدَدْنَاهَا وَأَلْقَيْنَا فِيهَا رَوَاسِيَ وَأَنبَتْنَا فِيهَا مِن كُلِّ شَيْءٍ مَّوْزُونٍ ﴿١٩﴾ وَجَعَلْنَا لَكُمْ فِيهَا مَعَايِشَ وَمَن لَّسْتُمْ لَهُ بِرَازِقِينَ ﴿٢٠﴾﴾

يذكُر تعالى خَلقَه السماءَ في ارتفاعها وما زَيَّنها به مِنَ الكَواكبِ الثَّواقِب لمن تأملها وكَرَّر النظر فيها يرَى فيها من العَجائِب والآيات الباهراتِ ما يَحارُ نظره فيه. ولهذا قال مجاهد، وقتادةُ: البروجُ ها هنا هي الكواكبُ.

قلت: وهذا كقوله تعالى: ﴿تبارك الذي جَعَل في السماء بروجاً وجعل فيها سراجاً وقمراً منيراً﴾. ومنهم من قال: البروج هي: منازلُ الشمسِ والقمرِ. وقال عطية العَوفي: البروج ها هنا: هي قُصور الحَرَس.

---

(١) أخرجه الطبري ١٤/٧.
(٢) تفسير الطبري ١٤/١٣.

وجعَل الشُّهُب حرساً لها من مَردة الشياطين لئلا يسمَعُوا إلى الملأ الأعلى، فمن تَمرَّد منهم لاستراق السمع جاءه ﴿شهابٌ مبين﴾ فأتلفه، فَرُبَّما يكون قد ألقى الكلمة التي سَمِعها قبل أن يُدرِكَه الشهاب إلى الذي هو دُونَه، فيأخذها الآخر، ويأتي بها إلى وَلِيِّه، كما جاء مُصرَّحاً به في الصحيح، كما قال البخاري في تفسير هذه الآية:

حدثنا علي بن عبدالله، حدثنا سفيانُ، عن عمرو، عن عكرمة، عن أبي هُرَيرة يبلُغُ به النبيَّ - ﷺ - قال: «إذا قضى الله الأمرَ في السماء ضَرَبت الملائكةُ بأجنحتها خُضعاناً[1] لقوله كأنه سلسلة على صَفوان، قال علي: وقال غيره: صفْوَان يَنْفُذُهم ذلك، فإذا فُزِّع عن قلوبهم قالوا: ماذا قال ربُّكم؟ قالوا لِلَّذي قال: الحقَّ، وهو العلي الكبير. فيسمعُها مسترِقُو السمع، ومستَرِقُو السمع، هكذا واحد فوق آخر - ووصفَ سفيانُ بيده، فَفَرَّج بين أصابع يده اليمنى، نَصَبَها بعضَها فوق بعض - فربما أدرك الشهابُ المستمع قبل أن يَرْمِي بها إلى صاحبه فيحرقَه، وربما لم يدركه حتى يَرْمي بها إلى الذي يليه، إلى الذي هو أسفلُ منه، حتى يُلقُوها إلى الأرض. وربما قال سفيانُ: «حتى تنتهي إلى الأرض فَتُلْقَى على فم الساحر - أو: الكاهن - فيَكذب معها مائة كَذْبة، فيقولون: ألم يخبرنا يومَ كذا وكذا يكونُ كذا وكذا، فوجدناه حَقّاً؟ لِلْكَلِمَةِ التي سُمِعت من السماء»[2].

ثم ذكر تعالى خَلْقَه الأرضَ، ومدَّه إياها وتوسيعَها وبَسطها، وما جَعَل فيها من الجبال الرَّوَاسي، والأودِيَةِ والأراضِي والرِّمالِ، وما أنبت فيها من الزُّروع والثِّمار المتناسبة.

وقال ابن عباس: ﴿من كلِّ شيءٍ موزونٍ﴾، أي: معلوم. وكذا قال سعيد بن جُبَير، وعكرمةُ، وأبو مالك، ومجاهدٌ، والحكم بن عُتَيبة، والحسن بن محمد، وأبو صالح، وقتادةُ. ومنهم من يقول: مُقَدَّر بقدَرٍ. وقال ابنُ زيد: من كلِّ شيءٍ يُوزَن ويُقَدَّرُ بقَدَرٍ، وقال ابن زَيدٍ: ما تَزِنهُ الأسواقُ.

وقولُه: ﴿وجَعَلنا لكم فيها معايشَ ومَن لستُم له برازِقِينَ﴾، يذكر تعالى أنه صَرَفهم في الأرض في صُنُوفِ الأسباب والمعايش، وهي جَمْعُ مَعيشةٍ.

وقولُه: ﴿ومن لستُم له برازِقِين﴾، قال مجاهد: وهي الدوابُّ والأنعام. وقال ابنُ جَرير: هم العبيدُ والإماءُ والدوابُّ والأنعام[3].

والقصدُ أنه تعالى يمتنُّ عليهم بما يَسَّر لهم من أسباب المكاسب ووجوه الأسباب وصُنُوفِ المعايش، وبما سَخَّر لهم من الدوابِّ التي يركبونها والأنعامِ التي يأكُلُونها، والعبيدِ والإماءِ التي يستخدمونها، ورزقُهم على خالقهم لا عَلَيهم، فلهم هم المنفعة، والرزقُ على الله تعالى.

﴿ وَإِن مِّن شَيْءٍ إِلَّا عِندَنَا خَزَآئِنُهُۥ وَمَا نُنَزِّلُهُۥٓ إِلَّا بِقَدَرٍ مَّعْلُومٍ ﴿٢١﴾ وَأَرْسَلْنَا ٱلرِّيَٰحَ لَوَٰقِحَ فَأَنزَلْنَا مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَأَسْقَيْنَٰكُمُوهُ وَمَآ أَنتُمْ لَهُۥ بِخَٰزِنِينَ ﴿٢٢﴾ وَإِنَّا لَنَحْنُ نُحْيِۦ وَنُمِيتُ وَنَحْنُ ٱلْوَٰرِثُونَ ﴿٢٣﴾ وَلَقَدْ عَلِمْنَا ٱلْمُسْتَقْدِمِينَ مِنكُمْ وَلَقَدْ عَلِمْنَا ٱلْمُسْتَـْٔخِرِينَ ﴿٢٤﴾ وَإِنَّ رَبَّكَ هُوَ يَحْشُرُهُمْ إِنَّهُۥ حَكِيمٌ عَلِيمٌ ﴿٢٥﴾ ﴾

يُخبر تعالى أنه مالكُ كلِّ شيءٍ، وأن كُلَّ شيءٍ سهلٌ عليه، يَسِيرٌ لديه، وأنَّ عنده خزائنَ الأشياءِ من جميع

(١) أي: خاضعين، وخُضْعَان: مصدر خَضَع خُضوعاً وخُضْعاناً. وفي ضبطه روايات أخر. والصفوان: الحجر الأملس.

(٢) فتح الباري، تفسير سورة الحجر ٨/٣٨٠.

(٣) تفسير الطبري ١٤/١٨.

الصنوف، ﴿وما نُنَزِّله إلا بِقَدَرٍ معلوم﴾، كما يشاءُ وكما يريدُ، وَلِما لَهُ في ذلك من الحكمةِ البالغة والرحمةِ بعبادِهِ لا على جهة الوجوب، بل هُوَ كَتَب على نفسه الرحمةَ.

قال يزيد بن أبي زياد، عن أبي جُحَيفة، عن عبدالله: ما من عام بأمطرَ من عام، ولكن الله يُقَسِّمه حيث شاء، عاماً هاهُنا، وعاماً هاهُنا. ثم قرأ: ﴿وإن من شيءٍ إلا عندنا خزائنُه وما نُنَزِّله إلا بقَدَرٍ معلوم﴾. ورواه ابنُ جَرير(١).

وقال أيضاً: حدثنا القاسم، حدثنا الحسن، حدثنا هُشَيم، أخبرنا إسماعيل بن سالم، عن الحكم بن عُتَيبة في قوله: ﴿وما نُنَزِّله إلا بقدر معلوم﴾، قال: ما عامٌ بأكثَرَ مطراً من عام ولا أقلَّ، ولكنه يُمطَر قومٌ ويُحرَمُ آخرون، وربما كان في البحر. قال: وبَلَغَنا أنه ينزلُ مع المطرِ من الملائكة أكثرُ من عَدَدِ ولد إبليسَ وولدِ آدمَ، يُحصُون كُلَّ قطرةٍ حيثُ تقعُ وما تُنبِتُ(١).

وقال البزَّارُ: حدثنا داودُ، وهو ابن بكر التُستَرِيُّ، حدثنا حَيَّان بن أغلَبَ بن تميم، حدثني أبي، عن هشام، عن محمد بنِ سِيرينَ، عن أبي هُرَيرة ـ رضي الله عنه ـ قال: قال رسولُ الله ـ ﷺ ـ: «خزائن الله الكلامُ، فإذا أراد شيئاً قال له: كن، فكانَ».

ثم قال: لا يَرْويه إلا «أغلبُ»، ولم يكن بالقويِّ، وقد حدث عنه غير واحد من المتقدِّمين، ولم يروه عنه إلا ابنه(٢).

وقولُه: ﴿وأرسلنا الرياحَ لواقِحَ﴾، أي: تُلقِحَ السحابَ فَتَدِرُّ ماءً، وتُلقِحُ الشجرَ فتتَفَتَّحُ عن أوراقِها وأكمامِها.

هذه «الرياح» ذكرها بصيغة الجمع، لِيكُونَ منها الإنتاجُ، بخلاف الريح العقيم فإنه أفردَها ووصفها بالعقيم، وهو عدمُ الإنتاج، لأنه لا يكون إلا من شيئينِ فَصَاعِداً.

وقال الأعمش، عن المنهال بن عمرو، عن قيس بن السَّكَنِ، عن عبدالله بن مسعود في قوله: ﴿وأرسلنا الرياحَ لواقح﴾، قال: تُرسَلُ الريحُ فتحمِلُ الماءَ من السماء، ثم تَمْرِي السحابَ، حتى تَدِرَّ كما تَدِرُّ اللَّقِحَةُ(٣). وكذا قال ابن عباس، وإبراهيم النخَعي، وقتادةُ. وقال الضحاك: يبعثها الله على السحاب، فتُلقِحُهُ، فيمتلىءُ ماءً.

وقال عُبيَد بن عُمَير اللَّيثيُّ: يبعَثُ الله المُبشِّرة فَتَقُمُّ الأرضَ قَمّاً(٤)، ثم يبعثُ الله المثيرةَ فَتُثير السحابَ، ثم يبعَثُ الله المؤلفة فتؤلِّف السحابَ، ثم يبعث الله اللَّواقح فَتُلقِحُ الشجَرَ، ثم تلا: ﴿وأرسلنا الرياح لَوَاقِح﴾ (٤).

وقد رَوَى ابنُ جرير، من حديث عبَيس بن ميمون، عن أبي المِهزَمِ، عن أبي هُرَيرة، عن النبي ـ ﷺ ـ «الريحُ الجنوبُ من الجنة، وهي الريح اللواقحُ، وهي التي ذكَر الله في كتابه، وفيها منافعُ للناسِ»(٥). وهذا إسناد ضعيف.

(١) تفسير الطبري ١٤/١٨ ـ ١٩.
(٢) وأخرجه ابن مردويه أيضاً، الدر المنثور ٥/٧٠.
(٣) أخرجه الطبري ١٤/٢٠. ومَرَى الناقة: مسح ضَرعها لِتَدِرّ. واللَّقِحَةُ: الناقة القريبة العهد بالنتاج.
(٤) أخرجه الطبري ١٤/٢١. وتَقُمُّ الأرض: تكنسها.
(٥) تفسير الطبري ١٤/٢٢. وأخرجه ابن أبي الدنيا وغير واحد، انظر الدرّ المنثور ٥/٧٢.

وقال الإمام أبو بكر عبدالله بن الزبير الحُميدي في مُسندِه:

حدثنا سفيانُ، حدثنا عمرو بن دينار، أخبرني يزيدُ بن جُعْدُبَةَ اللَّيثي: أنه سمع عبد الرحمن بن مِخْرَاقٍ يُحدِّث عن أبي ذرٍّ قال: قال رسولُ الله ـ ﷺ ـ: «إن الله خَلَق في الجنة ريحاً بعد الرِّيح بسبع سِنينَ، وإنَّ مِن دونها باباً مُغلَقاً، وإنما يأتيكم الرِّيحُ من ذلك[(١)] البابِ، ولو فُتِح لأذرَتْ[(٢)] ما بين السماءِ والأرض من شيءٍ، وهي عند الله الأزيَبُ وهي فِيكُمُ الجَنُوبُ»[(٣)].

وقولُه: ﴿فأسقيناكُمُوه﴾: أي: أنزلناه لكم عَذباً يُمكنُكم أن تَشربُوا منه، ولو نشاءُ لجعلناه أُجَاجاً. كما يُنَبِّه الله على ذلك في الآيةِ الأخرى في سورة «الواقِعَةِ»، وهو قولُه: ﴿أفرأيتم الماء الذي تشربُون * أأنتم أنزلتُمُوه من المزْنِ أم نحن المنزلون * لو نَشاءُ جعلناه أجاجاً فلولا تشكرون﴾، وفي قولِهِ: ﴿هو الذي أنزَل من السَّماءِ ماءً لكم منه شراب ومنه شَجَرٌ فيه تُسِيمُونَ﴾.

وقولُه: ﴿وما أنتم له بخازنين﴾، قال سفيان الثَّوريُّ: بمانعين[(٤)]. ويَحتَمِلُ أن المراد: وما أنتم له بحافظين، بل نحن نُنزِلُه ونحفَظُهُ عليكم، ونجعَلُه مَعِيناً ويَنَابيعَ في الأرض، ولو شاء تعالى لأغارَهُ وذَهَب به، ولكن من رَحْمَتِهِ أنزَلَه وجعله عذباً، وحَفِظه في العُيُونِ والآبار والأنهار وغيرِ ذلك، ليبقى لهم في طُولِ السَّنَةِ يشرَبُون ويُسقُون أنعامَهُم وزُروعَهم وثمارهم.

وقولُه: ﴿وإنا لنحن نُحيي ونُميت﴾، إخبارٌ عن قُدرته تعالى على بَدْءِ الخلق وإعادَتِه، وأنه هو الذي أحيا الخَلقَ من العَدَم، ثم يُمِيتُهم، ثم يَبْعَثُهم كُلَّهم ليوم الجَمْعِ. وأخبر أنه تعالى يَرِثُ الأرضَ ومن عليها وإليه يرجعون. ثم قال مخبراً عن تمام علمه بهم، أوَّلهم وآخرهم: ﴿ولقد عَلِمنا المُسْتَقدِمينَ منكم ولقد عَلِمنا المُستأخِرين﴾، قال ابن عَبَّاسٍ ـ رضي الله عنهما ـ: المُستقدِمُونَ: كُلُّ من هَلَكَ من لَدُن آدمَ عليه السلام، والمستأخرون: من هُو حَيٌّ ومن سيأتي إلى يوم القيامة. ورُوِي نحوُه عن عكرمةَ، ومجاهِدٍ، والضَّحَّاكِ. وقتادةَ، ومحمد بن كعب، والشعبيِّ، وغيرِهم: وهو اختيارُ ابنِ جَرِير، رَحِمه الله[(٥)].

وقال ابنُ جرير: حدثنا محمد بن عبد الأعلى، حدثنا المعتمر بن سليمان، عن أبيه، [عن رجل][(٥)]، عن مَرْوان بن الحكم أنه قال: كان أناسٌ يستأخرون في الصفوف من أجلِ النساء فأنزل الله: ﴿ولقد عَلِمنا المستقدمين منكم ولقد عَلِمنا المستأخِرين﴾[(٦)].

وقد وردَ في هذا حديث غريب جداً، فقال ابن جرير:

حدثني محمد بن موسى الحَرَشِيُّ، حدثنا نوحُ بن قَيس، حدثنا عمرو بن مالك، عن أبي الجَوزاء، عن ابن عَبَّاسٍ ـ رضي الله عنهما ـ قال: كانت تُصَلِّي خَلْفَ رسولِ الله ـ ﷺ ـ امرأةٌ، قال ابنُ عباس: لا والله ما إنْ رأيتُ مثلَها قطُّ، وكان بعضُ المسلمين إذا صَلَّوا استقدَمُوا ـ يعني لِئلَّا يراها ـ وبعضٌ يستأخِرُونَ، فإذا سَجَدُوا نَظَرُوا إليها من تحت أيديهم!! فأنزل الله: ﴿وَلَقَدْ عَلِمْنَا المُسْتَقْدِمِينَ منكم ولقد عَلِمنا المستأخرين﴾[(٧)].

---

(١) في مسند الحميدي: «من خلل ذلك»، أي: خِلالِ. وهي الفُرْجَةُ.

(٢) أي: أطارته وفرَّقته. والأَزْيَبُ: من أسماء ريح الجنوب. وأهل مكة يستعملون هذا الاسم كثيراً.

(٣) مسند الحميدي ١/٧٠ ـ ٧١. والمطالب العالية ٣/٢٦٤.

(٤) أخرجه الطبري ١٤/٢٢.

(٥) تفسير الطبري ١٤/٢٣.

(٦) تفسير الطبري ١٤/٢٦.

(٧) تفسير الطبري ١٤/٢٦، ومسند أحمد ١/٣٠٥، وعارضة الأحوذي، تفسير سورة الحجر ١١/٢٨٦ ـ ٢٨٧، وابنُ ماجه ١ /٣٣٢=

وكذا رواه أحمد وابنُ أبي حاتم في تفسيره، والترمذي والنسائيُّ في كتاب التفسير من سُنَنِهما، وابنُ ماجه من طُرق عن نوح بن قيس الحُدَّاني، وقد وثقه أحمدُ وأبو داود وغيرهما، وحُكِي عن ابن معين تَضعيفُه، وأخرَجَ له مُسلمٌ، وأهلُ السُنَنِ.

وهذا الحديثُ فيه نَكارةٌ شَدِيدةٌ، وقد رواه عبد الرزَّاق، عن جعفر بن سليمان، عن عمرو بن مالك وهو النُّكْرِيّ: أنه سمع أبا الجوزاء يقول في قوله: ﴿ولقد عَلِمنا المستقدمين منكم﴾، في الصفوف في الصلاة ﴿والمستأخرين﴾. فالظاهر أنه من كلام أبي الجَوزَاءِ فقط، ليس فيه لابن عباس ذكرٌ. وقد قال الترمذي: «هذا أشبهُ من رواية نُوحِ بـن قيس»، والله أعلم.

وهكذا رَوَى ابن جرير عن محمد بن أبي معشَرٍ، عن أبيه: أنه سمع عَوْنَ بن عبدالله يُذاكر محمدَ بن كعب في قوله: ﴿وَلَقَدْ عَلِمْنَا الْمُسْتَقْدِمِينَ مِنكُمْ وَلَقَدْ عَلِمْنَا المستَأخِرِين﴾، وأنها في صُفُوفِ الصلاة، فقال محمدُ بن كعب: ليس هكذا، ﴿ولقد علمنا المستقدِمِينَ منكم﴾: الميتُ والمقتولُ، ﴿والمستأخِرِين﴾: من يُخلَقُ بعد، ﴿وإن ربك هو يحشُرهم إنه حكيمٌ عَلِيمٌ﴾. فقال عونُ بنُ عبدالله: وَفَّقَكَ الله وجَزاكَ خيراً[1].

﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَا ٱلْإِنسَـٰنَ مِن صَلْصَـٰلٍ مِّنْ حَمَإٍ مَّسْنُونٍ ﴿٢٦﴾ وَٱلْجَآنَّ خَلَقْنَـٰهُ مِن قَبْلُ مِن نَّارِ ٱلسَّمُومِ ﴿٢٧﴾﴾

قال ابن عباس: ومجاهدٌ، وقتادةُ: المراد بالصلصال ها هنا: التراب اليابسُ. والظاهر أنه كقوله تعالى: ﴿خَلَقَ الإنسان من صَلْصَالٍ كالفخَّارِ * وخَلَقَ الجانَّ من مارجٍ من نارٍ﴾. وعن مجاهد أيضاً: ﴿الصلصالُ﴾ المُنتنُ. وتفسيرُ الآيةِ بالآيةِ أولى.

وقولُه: ﴿من حَمَإٍ مسنُونٍ﴾، أي: الصَّلصالُ من حَمَإٍ، وهو: الطين، والمسنونُ الأملسُ، كما قال الشاعر[2]:

ثُمَّ خاصَرْتها إلى القُبَّة الخَضْرَاءِ تَمْشي في مَرْمَرٍ مسْنُونِ

أي: أمْلَسَ صَقِيلٍ. ولهذا رُوِي عن ابن عباس أنه قال: هو الترابُ الرَّطبُ. وعن ابن عباس، ومجاهد، والضحاك أيضاً: أن الحَمَأ المسنونَ هو المُنتنُ. وقيل: المرادبالمسنُونِ ها هنا المصبُوبُ.

وقولُه: ﴿والجانَّ خلقناه من قبلُ﴾، أي: من قبلِ الإنسانِ، ﴿من نار السموم﴾. قال ابن عباس: هي السَّمُومُ التي تقتلُ. وقال بعضُهم: السمومُ بالليل والنهار. ومنهم من يقول: السَّموم بالليل، والحرورُ بالنهار.

وقال أبو داودَ الطَّيَالسيُّ: حدثنا شعبة، عن أبي إسحاق قال: دخلت على عَمْرو الأصمِّ أعوده، فقال: ألا أحدِّثُك حَديثاً سمعتُه من عبدالله بن مسعود، يقول: هذه السَّموم جزءٌ من سبعين جزءاً من السمومِ التي خُلِقَ منها الجانُّ، ثم قرأ: ﴿والجانَّ خلقناهُ من قبلُ من نَارِ السَّمُوم﴾[3].

وعن ابن عباس: أن الجان خُلق من لَهَبِ النار، وفي رواية: من أحسَنِ النارِ. وعن عمرو بن دينار: من

= والنسائي في السنن الكبرى، كتاب التفسير. انظر تحفة الأشراف للمزي ٣٦٥/٤ ـ ٣٦٦.

(١) وأخرجه ابن أبي حاتم أيضاً، انظر الدر المنثور ٧٥/٥، وتفسير الطبري ٢٣/١٤.

(٢) عبد الرحمن بن حسَّان، قاله في رملة بنت معاوية، انظر الخبر في الشعر والشعراء ٤٨٤/١ ـ ٤٨٥، واللسان: سَنَن.

(٣) أخرجه الطبري بإسناده إلى أبي داود، انظر ٣٠/١٤ ـ ٣١.

نار الشمس، وقد وَرَد في الصحيح: «خُلقَت الملائكة من نور، وخُلقت الجانُّ من مارج من نار، وخُلِق آدم مما وُصِف لكم»(١).

ومقصودُ الآية التنبيهُ على شَرَف آدمَ عليه السلامُ، وطيبِ عُنصرِه، وطهارةِ مَحْتَدِه.

﴿وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَٰٓئِكَةِ إِنِّى خَٰلِقٌۢ بَشَرًا مِّن صَلْصَٰلٍ مِّنْ حَمَإٍ مَّسْنُونٍ ﴿٢٨﴾ فَإِذَا سَوَّيْتُهُۥ وَنَفَخْتُ فِيهِ مِن رُّوحِى فَقَعُوا۟ لَهُۥ سَٰجِدِينَ ﴿٢٩﴾ فَسَجَدَ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ كُلُّهُمْ أَجْمَعُونَ ﴿٣٠﴾ إِلَّآ إِبْلِيسَ أَبَىٰٓ أَن يَكُونَ مَعَ ٱلسَّٰجِدِينَ ﴿٣١﴾ قَالَ يَٰٓإِبْلِيسُ مَا لَكَ أَلَّا تَكُونَ مَعَ ٱلسَّٰجِدِينَ ﴿٣٢﴾ قَالَ لَمْ أَكُن لِّأَسْجُدَ لِبَشَرٍ خَلَقْتَهُۥ مِن صَلْصَٰلٍ مِّنْ حَمَإٍ مَّسْنُونٍ ﴿٣٣﴾﴾

يذكُر تعالى تنويهَه بذكر آدمَ في ملائكتهِ قبلَ خَلْقِه له، وتشريفَه إيَّاه بأمرِه الملائكة بالسجُودِ له. ويذكُر تَخلُّفَ إبليسَ عدوِّه عن السجود له من بين سائر الملائكة، حَسَداً وكفراً، وعناداً واستكباراً، وافتخاراً بالباطل، ولهذا قال: ﴿لم أكن لأسجدَ لبشر خلقته من صَلصَال من حمإٍ مسنون﴾ كما قال في الآية الأخرى: ﴿أنا خيرٌ منه خلَقْتني من نار وخَلقته من طِينٍ﴾، وقولُه: ﴿أرأيتك هذا الذي كرَّمت عَلَيَّ لئن أخَّرتَنِ إلى يومِ القيامة لأحتنكَنَّ ذُرِّيته إلا قليلاً﴾.

وقد رَوَى ابنُ جرير ها هنا أثراً غريباً عجيباً، من حديثِ شَبِيبِ بن بِشْرٍ، عن عِكْرِمَة، عن ابن عباس قال: لما خَلق الله الملائكة قال: إني خالق بشراً من طين، فإذا أنا خلقته فاسجُدوا له. قالوا: لا نَفْعَلْ. فأرسل عليهم ناراً فأحرقتْهُم. ثم خلق ملائكة فقال لهم مثل ذلك فقالوا: لا نَفْعَلْ. فأرسل عليهم ناراً فأحرقتهم. ثم خلق ملائكةً أخرى فقال: إني خالقٌ بشراً من طين، فإذا أنا خلقتُه فاسجُدُوا له فأَبَوا، فأرسلَ عليهم ناراً فأحرقتهم. ثم خلق ملائكة فقال: إني خالقٌ بشراً من طينٍ، فإذا أنا خلقتُه فاسجُدوا له. قالوا: سَمِعنا وأَطَعنا، إلا إبليسَ كانَ من الكافرين الأوَّلين(٢).

وفي ثُبوت هذا عنه بُعْدٌ، والظاهرُ أنَّه إسرائيليٌّ، والله أعلم.

﴿قَالَ فَٱخْرُجْ مِنْهَا فَإِنَّكَ رَجِيمٌ ﴿٣٤﴾ وَإِنَّ عَلَيْكَ ٱللَّعْنَةَ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلدِّينِ ﴿٣٥﴾ قَالَ رَبِّ فَأَنظِرْنِىٓ إِلَىٰ يَوْمِ يُبْعَثُونَ ﴿٣٦﴾ قَالَ فَإِنَّكَ مِنَ ٱلْمُنظَرِينَ ﴿٣٧﴾ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْوَقْتِ ٱلْمَعْلُومِ ﴿٣٨﴾﴾

يقول آمراً لإبليس آمراً كونياً لا يخالَفُ ولا يمانَعُ، بالخروج من المنزلةِ التي كان فيها من المَلإ الأعلى، وإنه ﴿رجيمٌ﴾، أي: مرجومٌ. وإنه قد أتبعه لعنةً لا تزال متصلة به، لاحقةً له، متواترةً عليه إلى يومِ القيامة.

وعن سعيد بن جُبَير أنه قال: لما لَعنَ الله إبليسَ تغيَّرت صورتُه عن صُورةِ الملائكة، ورَنَّ رنَّةً، فكلُّ رَنَّةٍ في الدنيا إلى يوم القيامة منها. رواه ابنُ أبي حاتم.

وإنه لما تحقق الغَضَبُ الذي لا مَرَدَّ له سأَلَ من تمام حَسَدِه لآدم وذُرِّيته النَّظِرَةَ إلى يوم القيامة، وهو يومُ البعث، وإنه أُجيبَ إلى ذلك استدراجاً له وإمهالاً، فلما تحقَّق النَظِرة ـ قبَّحه الله ـ

﴿قَالَ رَبِّ بِمَآ أَغْوَيْتَنِى لَأُزَيِّنَنَّ لَهُمْ فِى ٱلْأَرْضِ وَلَأُغْوِيَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ ﴿٣٩﴾ إِلَّا عِبَادَكَ مِنْهُمُ ٱلْمُخْلَصِينَ ﴿٤٠﴾ قَالَ

(١) تقدم الحديث عند تفسير الآية ١٢ من سورة الأعراف وخرجناه هنالك، وسيأتي عند الآية ٥٠ من سورة الكهف.
(٢) تفسير الطبري ٣١/١٤.

﴿هَٰذَا صِرَٰطٌ عَلَيَّ مُسْتَقِيمٌ ﴿٤١﴾ إِنَّ عِبَادِي لَيْسَ لَكَ عَلَيْهِمْ سُلْطَٰنٌ إِلَّا مَنِ ٱتَّبَعَكَ مِنَ ٱلْغَاوِينَ ﴿٤٢﴾ وَإِنَّ جَهَنَّمَ لَمَوْعِدُهُمْ أَجْمَعِينَ ﴿٤٣﴾ لَهَا سَبْعَةُ أَبْوَٰبٍ لِّكُلِّ بَابٍ مِّنْهُمْ جُزْءٌ مَّقْسُومٌ ﴿٤٤﴾﴾

يقول تعالى مُخبراً عن إبليسَ وتمرُّده وعُتوِّه أنه قال للربِّ: ﴿بما أغويتني﴾، قال بعضُهم: أقسم بإغواءِ الله له.

قلت: وَيحتَمِلُ أنه بسبب ما أغويتني وأضللتني ﴿لأُزَيِّنَنَّ لهم﴾، أي: لِذريَّةِ آدمَ عليه السلام. ﴿في الأرض﴾ أي: أُحبِّب إليهم المعاصي وأُرغِّبُهم فيها، وأَؤُزُّهُم[1] إليها، وأُزعِجُهم إزعاجاً، ﴿ولأُغوينَّهم﴾ أي: كما أغويتني وقَدَّرت عليّ ذلك، ﴿أجمَعِينَ * إلا عبادَكَ منهم المُخْلَصِينَ﴾، كما قال: ﴿أرأيتَكَ هذا الذي كَرَّمت عليّ لَئِن أخرتَنِ إلى يوم القيامة لأحتنِكَنَّ ذُرِّيته إلا قليلاً﴾. قال الله تعالى له مُتهدِّداً ومُتوعِّداً: ﴿هذا صراطٌ عَلَيَّ مستقيمٌ﴾، أي: مرجعكُم كُلكم إليَّ، فأُجازيكم بأعمالِكُم، إن خيراً فخير، وإن شرّاً فشرٌّ، كما قال تعالى: ﴿إن ربَّك لَبالمِرْصَادِ﴾.

وقيل: طريقُ الحقِّ مرجِعُها إلى الله تعالى، وإليه تَنْتَهي. قاله مجاهدٌ، والحسنُ، وقتادةُ، كما قال: ﴿وعلى اللهِ قصدُ السبيلِ﴾.

وقرأ قيسُ بن عُبَاد، ومحمد بن سِيرِينَ، وقتادةُ: «هذا صِراطٌ عَلِيٌّ[2] مستقيمٌ»، كقوله: ﴿وإنه في أم الكتاب لدينا لَعَلِيٌّ حَكِيمٌ﴾، أي: رفيعٌ. والمَشهورُ القراءةُ الأولى.

وقولُه: ﴿إنَّ عبادي ليس لك عليهم سلطانٌ﴾، أي: الذين قدرتُ لهم الهدايةَ فلا سبيلَ لك عليهم، ولا وصولَ لَكَ إليهم. ﴿إلَّا من اتَّبعَك من الغاوينَ﴾، استثناءٌ منقطعٌ.

وقد أوردَ ابنُ جَرير ها هنا من حديث عبدالله بن المبارك، عن عبدالله بن مَوْهَبٍ، حدثنا يزيدُ بن قُسيط قال: كانت الأنبياءُ يكونُ لهم مساجدُ خارجةً من قراهم، فإذا أراد النبي أن يستنبِىءَ رَبَّه عن شيء خَرَج إلى مسجده فَصَلَّى ما كتب الله له، ثم سأل ما بدا له، فبينا نبيٌّ في مسجِده إذ جاء عدوُّ الله ـ يعني إبليسَ ـ حتى جلس بينَه وبينَ القبلةِ، فقال النبيُّ: «أعوذُ بالله من الشيطان الرجيم». فقال عدوّ الله: أرأيت الذي تَعوَّذُ منه؟ فَهُو هُو. فقال النبي: «أعوذ بـالله من الشيطان الرجيم». قال: فَرَدَّدَ ذلك ثلاثَ مراتٍ، فقال عدوُّ الله: أَخْبِرني بأيِّ شيء تنجُو مِنِّي؟ فقال النبي: بل أَخْبِرني بأيِّ شيء تَغلبُ ابنَ آدمَ؟ مرتين، فأخذ كلُّ واحد منهما على صاحبه، فقال النبي: إن الله تعالى يقول: ﴿إنَّ عبادي ليس لكَ عليهم سلطان إلا من اتَّبعَك من الغاوين﴾. قال عدو الله: قد سَمِعت هذا قبل أن تُولَد. قال النبيُّ: ويقولُ: ﴿وإمَّا ينزغَنَّكَ من الشيطان نزغٌ فاستعِذ بالله إنه سميعٌ عليمٌ﴾، وإني والله ما أحسستُ بك قَطُّ إلا استعذتُ بالله منك. قال عدوُّ الله: صدقتَ، بهذا تنجُو مني. فقال النبي: أخبِرني بأيِّ شيء تغلب ابنَ آدم؟ قال: آخذُه عند الغَضَبِ والهَوَى[3].

وقولُه: ﴿وإن جهنَّم لموعدهم أجمعين﴾، أي: جهنَّمُ موعدُ من اتَّبع إبليسَ، كما قال عن القرآن: ﴿ومن يكفُر به من الأحزابِ فالنارُ موعِدُه﴾.

---

(١) أزّ الشيء: هزّه وحرّكه شديداً.
(٢) روح المعاني ١٤/ ٥١.
(٣) تفسير الطبري ١٤/ ٣٤.

ثم أخبر أن لجهنَّم سبعةَ أبواب، ﴿لكلِّ بابٍ منهم جزءٌ مقسومٌ﴾، أي: قد كُتِب لكلِّ بابٍ منها جزءٌ من أتباع إبليسَ يدخُلُونه، لا محيدَ لهم عنه ـ أجارنا اللهُ منها ـ وكلٌّ يدخلُ من بابٍ بحسب عمله، ويستقرُّ في دَرَكٍ بقدرِ فعلِه.

قال إسماعيل بـن عُلَيّة وشعبةُ كلاهما عن أبي هارونَ الغَنَوِيِّ، عن حِطّانَ بن عبدالله أنه قال: سمعتُ علي بـن أبي طالب وهو يخطبُ قال: إن أبواب جهنم هكذا. قال أبو هارون: أطباقاً بعضُها فوقَ بعض.

وقال إسرائيل، عن أبي إسحاق، عن هُبَيرة بن يَرِيم، عن عليٍّ ـ رضي الله عنه ـ قال: أبوابُ جهنم سبعةٌ بعضُها فوق بعض، فيمتلىء الأولُ، ثم الثاني، ثم الثالث، حتى تُملأ كُلُّها.

وقال عكرمة: ﴿سبعةُ أبواب﴾: سبعةُ أطباقٍ. وقال ابن جُرَيج: ﴿سبعة أبواب﴾: أولها جهنم، ثم لظَى، ثم الحُطَمة، ثم سعير، ثم سقَر، ثم الجَحِيم، ثم الهاوية. ورَوَى الضحاك، عن ابن عباس نَحْوَه. وكذا رُوِي عن الأعمش بنحوه أيضاً.

وقال قتادةُ: ﴿لها سبعةُ أبوابٍ لكلِّ بابٍ منهم جزءٌ مقسومٌ﴾، هي والله منازلُ بأعمالهم. رواهنَّ ابن جرير[1].

وقال جُويبر، عن الضحّاك: ﴿لها سبعة أبواب لكلِّ باب منهم جزءٌ مقسومٌ﴾، قال: بابٌ لليهودِ، وبابٌ للنصارى، وبابٌ للصابئين، وبابٌ للمجُوس، وبابٌ للذين أشركُوا ـ وهم كفارُ العَرَب ـ وبابٌ للمنافقين، وبابٌ لأهل التوحيدِ، فأهلُ التوحيد يُرجَى لَهُم ولا يُرجَى لأولئك أبداً[2].

وقال الترمذيُّ: حدثنا عبدُ بن حُمَيدٍ، حدثنا عثمانُ بن عُمَر، عن مالك بن مِغْوَل، عن جُنَيدٍ، عن ابن عمر، عن النبيِّ ـ ﷺ ـ قال: «لجهنَّم سبعةُ أبوابٍ: بابٌ منها لمن سلَّ السيفَ على أُمَّتي، أو قال: على أُمَّة محمدٍ». ثم قال: لا نعرفُهُ إلا من حديث مالك بن مِغْوَل[3].

وقال ابنُ أبي حاتم حدثنا أبي، حدثنا عباس بن الوليد الخلال، حدثنا زيد ـ يعني ابن يحيى ـ حَدَّثنا سعيدُ بن بشير، عن قتادةَ، عن أبي نَضْرَةَ، عن سَمُرة بن جُندَب، عن النبي ـ ﷺ ـ في قوله: ﴿لكلِّ باب منهم جزء مقسوم﴾ ـ قال: إن من أهلِ النار من تأخذه النار إلى كَعبيه، وإنَّ منهم من تأخذُه النار إلى حُجْزَتِهِ، ومنهم من تأخذه النار إلى تَرَاقِيه، منازلُ بأعمالهم، فذلك قوله: ﴿لكلِّ بابٍ منهم جزءٌ مقسوم﴾[4].

﴿إِنَّ ٱلْمُتَّقِينَ فِى جَنَّٰتٍ وَعُيُونٍ ﴿٤٥﴾ ٱدْخُلُوهَا بِسَلَٰمٍ ءَامِنِينَ ﴿٤٦﴾ وَنَزَعْنَا مَا فِى صُدُورِهِم مِّنْ غِلٍّ إِخْوَٰنًا عَلَىٰ سُرُرٍ مُّتَقَٰبِلِينَ ﴿٤٧﴾ لَا يَمَسُّهُمْ فِيهَا نَصَبٌ وَمَا هُم مِّنْهَا بِمُخْرَجِينَ ﴿٤٨﴾ ۞ نَبِّئْ عِبَادِىٓ أَنِّىٓ أَنَا ٱلْغَفُورُ ٱلرَّحِيمُ ﴿٤٩﴾ وَأَنَّ عَذَابِى هُوَ ٱلْعَذَابُ ٱلْأَلِيمُ ﴿٥٠﴾﴾

لما ذَكر تعالى حالَ أهل النار عَطفَ على ذكر أهل الجنة، وأنَّهم في جناتٍ وعُيُون.

---

(١) تفسير الطبري ١٤/٣٥ ـ ٣٦.

(٢) أخرجه ابن أبي حاتم، الدرّ المنثور ٥/٨٢.

(٣) عارضة الأحوذي، تفسير سورة الحجر ١١/٢٨٧. وفيه وفي أصلنا أيضاً بدل جُنَيد: حميد. وهو تحريف، انظر تحفة الأحوذي ٨/٥٥١ ـ ٥٥٢، وتحفة الأشراف للمزّي ٥/٣٢٩.

(٤) أخرجه مسلم بإسناده إلى قتادة بنحوه، كتاب الجنة ٤/٢١٨٥. والحُجْزَة: موضع شدّ الأزار من الوسط.

وقولُه: ﴿ادخلُوها بسلام﴾، أي: سَالِمِين من الآفاتِ، مُسَلَّماً عليكم، ﴿آمنين﴾ من كلِّ خَوفٍ وفَزَعٍ، ولا تخشوا من إخراج ولا انقطاع ولا فناءٍ.

وقولُه: ﴿ونزَعنا ما في صُدُورهم من غلٍّ إخواناً على سُرُرٍ متقابلين﴾، روى القاسم، عن أبي أمامة قال: يَدْخـلُ أهلُ الجنةِ الجنةَ على مـا في صُدُورهم في الدنيا من الشحناءِ والضغائِنِ، حتى إذا توافَوا وتقابَلُوا نزَع الله ما في صُدُورهم في الدنيا من غِلٍ، ثم قرأ: ﴿ونزَعنا ما في صُدُورهم من غِلٍّ﴾.

هكذا في هذه الرواية، والقاسم بن عبد الرحمن في روايته عن أبي أمامَة ضعيفٌ.

وقد رَوَى سُنَيد في تفسيرهِ: حدثنا ابنُ فضالة، عن لقمانَ، عن أبي أمامَةَ قال: لا يدخل مؤمنٌ الجنةَ حتى يَنزِعَ الله ما في صدورهم من غلٍّ، حتى ينزِعَ منه مثلَ السَّبُعِ الضَّارِي[(١)].

وهذا موافق لما في الصحيح، من رواية قتادةَ: حدثنا أبو المتوكِّل النَّاجي: أن أبا سعيدٍ الخدريَّ حَدَّثهم: أن رسولَ الله ـ ﷺ ـ قال: «يَخلُص المؤمنون من النار، فَيُحبَسُون على قنطرةٍ بين الجنة والنارِ، فَيُقتَصُّ لبعضهم من بعضٍ، مظالمُ كانت بينهم في الدنيا، حتى إذا هُذِّبوا ونُقُّوا أُذِنَ لهم في دخولِ الجنة»[(٢)].

وقال ابنُ جرير: حدثنا الحسن، حدثنا يزيدُ بن هارونَ، أخبرنا هشامٌ، عن محمد ـ هو ابن سيرينَ ـ قال: استأذن الأشترُ على عليٍّ ـ رضي الله عنه ـ وعنده ابن لطلحةَ، فحَبَسه ثم أَذِن له. فلما دخل قال: إني لأراكَ إنما احتبستني لهذا؟ قال: أجل. قال: إني لأراه لو كان عندك ابنٌ لعثمانَ لحبستَني؟ قال: أجل، إني لأرجُو أن أكون أنا وعثمان ممن قال الله تعالى: ﴿وَنَزَعنا ما في صُدُورِهِمْ من غلٍّ إِخْواناً على سُرُرٍ مُتَقابِلينَ[(٣)]﴾.

وحدثنا الحسنُ: حَدَّثنا أبو معاوية الضريرُ، حدثنا أبو مالك الأشجعيُّ، عن أبي حَبيبة ـ مولىً لطلحة ـ قال: دخل عمرانُ بنُ طلحةَ على عليٍّ ـ رضي الله عنه ـ بعد ما فَرَغ من أصحاب الجملِ، فرحَّب به وقال: إني لأرجُو أن يجعلني الله وأباك من الذين قال الله: ﴿ونزَعنا ما في صُدورهم من غلٍّ إخواناً على سُرُرٍ متقابلين﴾. قـال: ورجلانِ جالسان على ناحية البساط، فقالا: الله أعدل من ذلك، تقتلهم بالأمس وتكونون إخواناً! فقال علي ـ رضي الله عنه ـ: قُوما أبعدَ أرضٍ وأسحَقَها! فمن هو إذاً إن لم أكن أنا وطلحة؟! وذكر أبو معاوية الحديثَ بِطُوله[(٣)].

ورَوى وكيع، عن أبان بن عبدالله البَجَلي، عن نُعَيم بن أبي هند، عن رِبْعِيِّ بن حِرَاشٍ، عن علي، نحوه، وقال فيه: فقام رجلٌ من هَمْدانَ فقال: الله أعدلُ من ذاك يا أميرَ المؤمنين. قال: فصاحَ به عليٌّ صيحةً، فظننتُ أن القصر تَدَهْدَهَ[(٤)] لها، ثم قال: إذا لم نكن نحنُ فمن هُو[(٣)]؟!

وقال سعيدُ بن مسروقٍ، عن أبي طلحةَ ـ وذكره ـ فيه: فقال الحارثُ الأعورُ ذلك، فقام إليه عليٌّ ـ رضي الله عنه ـ فضربه بشيءٍ كان في يده في رأسِهِ، وقال: فمن هُم يا أعورُ إذا لم نكن نحن؟!.

وقال سفيانُ الثوريُّ، عن منصور، عن إبراهيم قال: جاء ابن جُرموزٍ قاتلُ الزبير يستأذن على عليّ ـ رضي الله عنه ـ فَحَجبه طويلاً، ثم أذن له، فقال له: أما أهلُ البلاءِ فتجفُوهم. فقال علي: بفيك الترابُ، إني لأرجو أن أكونَ أنا وطلحةُ والزُّبير مِمَّن قال الله: ﴿ونزَعنا ما في صُدورهم من غلٍّ إخواناً على سُرُرٍ متقابلين﴾.

---

(١) تفسير الطبري ١٤/٣٦.
(٢) أخرجه البخاري في كتاب الرقاق، فتح الباري ١١/٣٩٥.
(٣) تفسير الطبري ١٤/٣٧.
(٤) تَدَهْدَهَ: تهدَّم.

وكذا روى الثوري، عن جعفر بن محمد، عن أبيه، عن عليٍّ، بنحوه.

وقال سفيانُ بنُ عيينة، عن إسرائيلَ، عن أبي موسى، سَمِع الحسنَ البصريَّ يقول: قال علي: فينا واللهِ - أهلَ بدرٍ - نزلَت هذه الآيةُ: ﴿ونزَعنا ما في صُدُورهم من غلٍّ إخواناً على سُرُرٍ متقابلين﴾.

وقال كثيرٌ النَّوَّاءُ: دخلتُ على أبي جعفرٍ محمدِ بن علي فقلتُ: وَلِيِّي وليُّكم، وسِلْمِي سِلْمكُم، وعَدُوِّي عَدُوُّكم، وحَرْبِي حَرْبُكم. إني أسألُكَ باللهِ: أتَبْرَأُ من أبي بكر وعمر؟ فقال: ﴿قد ضَلَلْتُ إذاً وما أنا من المهتَدِينَ﴾، تَوَلَّهُمَا يا كَثِير، فما أدركَكَ فهو في رقبتي هذه. ثم تلا هذه الآية: ﴿إخواناً على سُرُرٍ متقابلين﴾، قال: أبو بكر، وعمر، وعلي، رضي الله عنهم أجمعين[١].

وقال الثوريُّ، عن رجل، عن أبي صالح في قوله: ﴿إخواناً على سرر متقابلين﴾، قال: هم عشرةٌ: أبو بكر، وعمر، وعثمان، وعليٌّ، وطلحةُ، والزُّبير، وعبدُ الرحمنِ بنُ عَوفٍ، وسعدُ بن أبي وَقَّاصٍ، وسعيدُ بنُ زيدٍ، وعبدالله بنُ مسعودٍ، رضي الله عنهم أجمعين[٢].

وقولُه: ﴿متقابلين﴾ - قال مجاهد: لا ينظُر بعضُهم في قفا بعض[٣]. وفيه حديث مرفوع، قال ابن أبي حاتم:

حدثنا يحيى بن عبدك القزوينيُّ، حدثنا حَسَّان بنُ حَسَّان، حدثنا إبراهيم بن بَشِير، حدثنا يحيى ابن معين، عن إبراهيم القُرَشي، عن سعيد بن شُرَحبيل، عن زيدِ بن أبي أوفى قال: خَرَج علينا رسولُ الله - ﷺ - فتلا هذه الآية: ﴿إخواناً على سُرُرٍ متقابلين﴾، في الله، ينظُر بعضُهم إلى بعض[٤].

وقولُه: ﴿لا يَمَسُّهم فيها نَصَبٌ﴾، يعني المشقَّةَ والأذى، كما جاء في الصَّحِيحَينِ: «إن الله أَمَرني أن أُبَشِّرَ خَديجة ببيت في الجَنَّةِ من قَصَبٍ، لا صَخَبَ فيه ولا نَصَبَ»[٥].

وقولُه: ﴿وما هم منها بمُخرجين﴾، كما جاء في الحديث: «يقال: يا أَهْلَ الجنةِ، إن لكم أن تَصِحُّوا فلا تَمرضُوا أبداً، وإن لكم أن تَعِيشوا فلا تَموتُوا أبداً، وإن لكم أن تَشِبُّوا فلا تهرمُوا أبداً، وإن لكم أن تُقِيمُوا فلا تَظْعَنُوا أبداً»[٦]. وقال الله تعالى: ﴿خالدين فيها لا يبغُون عنها حِوَلاً﴾.

وقولُه: ﴿نَبِّىء عبادي أني أنا الغفورُ الرحيمُ * وأن عذابي هو العذابُ الأليمُ﴾، أي: أخبر - يا محمد - عبادي أني ذُو رحمةٍ وذو عقابٍ أليم.

وقد تَقَدَّم ذكرُ نظيرِ هذه الآية الكريمة، وهي دالَّةٌ على مَقامَيِ الرجاءِ والخوفِ، وذُكِر في سبب نزولها ما رواه مُوسى بن عُبَيدة، عن مصعب بن ثابت قال: مَرَّ رسول الله - ﷺ - على ناس من أصحابه يضحَكُون، فقال:

---

(١) أخرجه أيضاً ابن أبي حاتم، وابن عساكر، الدر المنثور ٥/٨٥.

(٢) أخرجه ابن مردويه، والشيرازي في الألقاب، وابن عساكر. الدر ٥/٨٥.

(٣) أخرجه الطبري ١٤/٣٨، وغير واحد، الدر ٥/٨٥.

(٤) أخرجه أيضاً الطبراني في المعجم الكبير ٥/٢٢٠ - ٢٢١ من حديث طويل، وكذلك ابن مردويه، وأبو القاسم البغوي، وابن عساكر. الدر ٥/٨٦.

(٥) فتح الباري، كتاب مناقب الأنصار ٧/١٣٣ - ١٣٤، ومسلم، كتاب فضائل الصحابة ٤/١٨٨٧. والقصب: اللؤلؤ المجوف. والصَّخَبُ: الصوت المختلط المرتفع. والنصب: المشقة.

(٦) أخرجه مسلم في كتاب الجنة ٤/٢١٨٢، والترمذي في تفسير سورة الزمر، عارضة الأحوذي ١٢/١٢٤ - ١٢٥، والنسائي في التفسير من السنن الكبرى. انظر تحفة الأشراف للمزي ٣/٣٢٩.

«اذكُروا الجنةَ، واذكُروا النار». فنزلت: ﴿نَبِّىء عبادِي أني أنا الغفورُ الرحيمُ * وأن عذابي هو العذابُ الأليمُ﴾، رواه ابن أبي حاتم. وهو مُرسَلٌ.

وقال ابنُ جرير: حدثني المثنَّى، حدثنا إسحاقُ، أخبرنا ابن المكِّي، أخبرنا ابنُ المبارك، أخبرنا مُصعَبُ ابن ثابت، حدثنا عاصم بن عُبَيد الله، عن ابن أبي رَبَاح، عن رجُلٍ من أصحاب النبي ـ ﷺ ـ قال: طَلَع علينا رسولُ الله ـ ﷺ ـ من الباب الذي يدخُل منه بنو شيبةَ، فقال: ألا أراكم تضحَكُون؟ ثم أدبر، حتى إذا كان عند الحجر رَجَع إلينا القَهقَرَى، فقال: إني لما خرجتُ جاء جبريلُ ـ عليه السلام ـ فقال: يا محمد؟ إن الله يقول: لم تُقنِط عبادي؟ ﴿نَبِّىء عبادي أني أنا الغفور الرحيمُ * وأن عذابي هو العذاب الأليمُ﴾[١].

وقال سعيدٌ، عن قتادةَ في قوله تعالى: ﴿نَبِّىء عبادي أني أنا الغفورُ الرحيمُ﴾، قال: بلغنا أنَّ رسول الله ـ ﷺ ـ قال: «لو يعلم العبدُ قدرَ عَفوِ الله لما تَورَّع من حرام، ولو يعلَمُ قدرَ عقابِهِ لَبَخع نفسَـه»[٢].

﴿ وَنَبِّئْهُمْ عَن ضَيْفِ إِبْرَاهِيمَ ﴿٥١﴾ إِذْ دَخَلُوا عَلَيْهِ فَقَالُوا سَلَامًا قَالَ إِنَّا مِنكُمْ وَجِلُونَ ﴿٥٢﴾ قَالُوا لَا تَوْجَلْ إِنَّا نُبَشِّرُكَ بِغُلَامٍ عَلِيمٍ ﴿٥٣﴾ قَالَ أَبَشَّرْتُمُونِي عَلَىٰ أَن مَّسَّنِيَ الْكِبَرُ فَبِمَ تُبَشِّرُونَ ﴿٥٤﴾ قَالُوا بَشَّرْنَاكَ بِالْحَقِّ فَلَا تَكُن مِّنَ الْقَانِطِينَ ﴿٥٥﴾ قَالَ وَمَن يَقْنَطُ مِن رَّحْمَةِ رَبِّهِ إِلَّا الضَّالُّونَ ﴿٥٦﴾ ﴾

يقول تعالى: وخَبِّرهم يا محمدُ عن قصَّة ﴿ضيف إبراهيم﴾ ـ والضَّيفُ ـ يُطلَقُ على الواحد والجمع، كالـزَّورِ والسَّفـرِ ـ وكيف ﴿دخلوا عليه فقالوا سلاماً قال إنا منكم وَجِلُون﴾، أي: خائفون. وقد ذُكِر سببُ خوفِهِ منهم لَمَّا رأى أيديهم لا تصِلُ إلى ما قَرَّبه لهم ضيافةً، وهو العجلُ السمينُ الحَنِيذُ. ﴿قالوا لا توجَلْ﴾، أي: لا تَخَفْ، ﴿وبَشَّروه بغُلام عليمٍ﴾، وهو إسحاق عليه السلام، كما تقدم في سورة هود.

ثم ﴿قال﴾ مُتعجِّباً من كِبَرِه وكِبَر زوجته ومتحقِّقاً للوعد ﴿أبشَّرتموني على أن مسني الكِبر فَبِمَ تبشرونَ﴾، فأجابوه مؤكدين لما بَشَّرُوه به تحقيقاً وبشارةً بعد بشارةٍ، ﴿ قالوا بَشَّرنَاكَ بالحقِّ فلا تَكُن مِنَ القانِطِينَ ﴾ ـ وقرأ بعضهم: ﴿ القَنِطين ﴾[٣] ـ فأجابهم بأنه ليس يقنَطُ ولكن يرجُو من الله الولد، وإن كان قد كَبِر وأسنَّت امرأتُه فإنه يعلَمُ من قُدرَةِ الله ورَحمَتِهِ ما هو أبلغُ من ذلك.

﴿ قَالَ فَمَا خَطْبُكُمْ أَيُّهَا الْمُرْسَلُونَ ﴿٥٧﴾ قَالُوا إِنَّا أُرْسِلْنَا إِلَىٰ قَوْمٍ مُّجْرِمِينَ ﴿٥٨﴾ إِلَّا آلَ لُوطٍ إِنَّا لَمُنَجُّوهُمْ أَجْمَعِينَ ﴿٥٩﴾ إِلَّا امْرَأَتَهُ قَدَّرْنَا إِنَّهَا لَمِنَ الْغَابِرِينَ ﴿٦٠﴾ ﴾

يقولُ تعالى إخباراً عن إبراهيم ـ عليه السلام ـ لمَّا ذهب عنه الروعُ وجاءته البُشرى: إنه شَرَع يسألُهم عما جاءُوا له، فقالوا: ﴿ إنا أُرسِلْنا إلى قَومٍ مُجرمين ﴾، يَعنون قومَ لوطٍ. وأخبروه أنهم سَيُنَجُّون آل لُوطٍ من بينهم إلا امرأته فإنَّها من المُهلكين. ولهذا قالوا: ﴿ إلا امرأته قَدَّرنا إنها لمن الغابرين ﴾، أي: الباقيـن المُهْلَكين.

(١) أخرجه ابن المنذر أيضاً، الدر المنثور ٨٦/٥.
(٢) تفسير الطبري ٣٩/١٤، والدر المنثور ٨٦/٥. وبَخَع نفسه: قهرها.
(٣) تنسب هذه القراءة إلى ابن وثَّاب، وطلحة، والأعمش، وأبي عَمْرو ـ في رواية ـ انظر روح المعاني للألوسي ٦٢/١٤. وتفسير الطبري ٤٠/١٤، والبحر المحيط ٤٥٩/٥.

﴿ فَلَمَّا جَاءَ ءَالَ لُوطٍ الْمُرْسَلُونَ ﴿٦١﴾ قَالَ إِنَّكُمْ قَوْمٌ مُّنكَرُونَ ﴿٦٢﴾ قَالُوا بَلْ جِئْنَاكَ بِمَا كَانُوا فِيهِ يَمْتَرُونَ ﴿٦٣﴾ وَأَتَيْنَاكَ بِالْحَقِّ وَإِنَّا لَصَادِقُونَ ﴿٦٤﴾ ﴾

يُخبِر تعالى عن لوطٍ لما جاءته الملائكةُ في صورة شبابٍ حسانِ الوُجوهِ، فدخلُوا عليه داره: ﴿قال إنكم قومٌ منكَرون * قالوا بل جئناك بما كانوا فيه يمترُون﴾، يعنُون: بِعذابِهم وهلاكهم ودَمارِهم الذي كانوا يَشكُّون في وُقُوعه بهم، وحُلُوله بساحتهم. ﴿ وأتيناك بالحقِّ ﴾، كما قال تعالى: ﴿ ما نُنزِّلُ الملائكةَ إلا بالحقِّ ﴾.

وقولُه: ﴿ وإنَّا لصادِقُون ﴾، تأكيدٌ لخبرهم إيَّاه بما أخبرُوه به من نجاتِه وإهلاكِ قومِه.

﴿ فَأَسْرِ بِأَهْلِكَ بِقِطْعٍ مِّنَ الَّيْلِ وَاتَّبِعْ أَدْبَارَهُمْ وَلَا يَلْتَفِتْ مِنكُمْ أَحَدٌ وَامْضُوا حَيْثُ تُؤْمَرُونَ ﴿٦٥﴾ وَقَضَيْنَا إِلَيْهِ ذَٰلِكَ الْأَمْرَ أَنَّ دَابِرَ هَٰؤُلَاءِ مَقْطُوعٌ مُّصْبِحِينَ ﴿٦٦﴾ ﴾

يذكُر تعالى عن الملائكةِ أنَّهم أمَرُوه أن يُسرِيَ بأهله بعد مُضيِّ جانبٍ من الليل، وأن يَكُونَ لوطٌ ـ عليه السلام ـ يمشي وراءَهم، ليكونَ أحفَظَ لهم. وهكذا كان رسولُ الله ـ ﷺ ـ يمشي في الغَزاةِ بما كان يكونُ ساقةً، يُزجِي[1] الضَّعِيفَ، ويَحمِلُ المُنقَطِعَ[1].

وقولُه: ﴿ ولاَ يَلتَفِتْ منكم أحدٌ ﴾، أي: إذا سمِعتُم الصيحةَ بالقومِ فلا تَلْتَفِتُوا إليهـم، وذَرُوهم فيما حلَّ بهم من العَذابِ والنَّكالِ، ﴿ وامضُوا حيثُ تُؤمَرُون ﴾، كأنه كانَ مَعَهُم مَن يهديهم السَّبِيل.

﴿ وقَضَينا إليه ذلك الأمرَ ﴾، أي: تَقدَّمنا إليه في هذا ﴿ أَنَّ دابر هؤلاء مقطوعٌ مُصبِحِينَ ﴾، أي: وقتَ الصباح، كما قال في الآية الأُخرى: ﴿ إنَّ موعِدَهُم الصبحُ أليسَ الصُّبحُ بقَرِيبٍ﴾.

﴿ وَجَاءَ أَهْلُ الْمَدِينَةِ يَسْتَبْشِرُونَ ﴿٦٧﴾ قَالَ إِنَّ هَٰؤُلَاءِ ضَيْفِي فَلَا تَفْضَحُونِ ﴿٦٨﴾ وَاتَّقُوا اللَّهَ وَلَا تُخْزُونِ ﴿٦٩﴾ قَالُوا أَوَلَمْ نَنْهَكَ عَنِ الْعَالَمِينَ ﴿٧٠﴾ قَالَ هَٰؤُلَاءِ بَنَاتِي إِن كُنتُمْ فَاعِلِينَ ﴿٧١﴾ لَعَمْرُكَ إِنَّهُمْ لَفِي سَكْرَتِهِمْ يَعْمَهُونَ ﴿٧٢﴾ ﴾

يخبِرُ تعالى عن مجيءِ قومِ لوطٍ لمَّا عَلِمُوا بأضيافه وصَباحَةِ وُجُوهِهم، وأنهم جاءُوا مُستبشِرين بهم فَرِحين، ﴿ قال إنَّ هؤلاء ضَيفي فلا تَفضَحُونِ * واتقُوا الله ولا تُخزُونِ﴾.

وهذا إنما قاله لهم قبل أن يعلَم بأنهم رُسلُ الله كما في سياقِ سُورةِ هودٍ، وأمَّا ها هنا فَتقدَّم ذِكرُ أنهم رُسُلُ الله، وعَطَف بذكر مجيءِ قومه ومحاجَّته لهم. ولكن الواو لا تقتضي الترتيبَ، ولا سيما إذا دلَّ دليلٌ على خلافه. فقالوا له مُجيبين: ﴿ أوَلَم نَنْهكَ عن العالمين ﴾، أي: أوَما نَهيناكَ أن تُضِيفَ أحداً؟! فأرشدهم إلى نسائِهم، وما خلَق لهم ربُّهم منهنَّ من الفُروجِ المباحَةِ. وقد تقدَّم أيضاً القولُ في ذَلِكَ، بما أغنى عن إعادَتِهِ[2].

---

(١) أي: يَسُوق لِيَلحَق بالرِّفاقِ. والمنقطعُ المُنفَرِدُ. والحديث انفرد به أبو داود في كتاب الجهاد ٣/٤٤.

(٢) انظر تفسير سورة الأعراف، الآية ٨٠ وما بعدها، وسورة هود، الآية ٧٧ وما بعدها.

هذا كلُّه وهُم غافِلُون عما يُراد بهم، وما قد أحاطَ بهم من البَلاء، وماذا يُصبحهم من العذاب المستقرّ.

ولهذا قال تعالى لنبيه ـ ﷺ ـ: ﴿ لعمرُك إنَّهم لفي سَكْرَتِهم يَعمَهُون﴾، أقسم تعالى بحياة نَبيِّه صلواتُ الله وسلامُه عليه، وفي هذا تشريف عظيمٌ، ومقامٌ رفيعٌ وجاهٌ عريضٌ.

قال عمرو بن مالك النُكْري، عن أبي الجَوزاء، عن ابن عباس أنه قال: ما خَلق الله وما ذَرَأ وما بَرَأ نفساً أكرم عليه من محمد ـ ﷺ ـ وما سَمِعتُ الله أقسم بحياة أحدٍ غيرَه. قال الله تعالى: ﴿ لعمرُكَ إنَّهم لفي سَكْرَتِهم يعمهون ﴾. رواه ابن جرير(١).

وقال قتادةُ: ﴿ في سَكْرَتهم ﴾، أي: في ضَلالتهم، ﴿ يعمَهُون ﴾، أي: يلعبون.

وقالَ عليُّ بن أبي طلحةَ، عن ابن عباس. ﴿ لعمرُكَ ﴾: لَعَيْشُكَ، ﴿ إنهم لفي سَكْرَتِهم يَعمَهُون ﴾، قال: يَتحيَّرون.

﴿ فَأَخَذَتْهُمُ ٱلصَّيْحَةُ مُشْرِقِينَ ﴿٧٣﴾ فَجَعَلْنَا عَٰلِيَهَا سَافِلَهَا وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهِمْ حِجَارَةً مِّن سِجِّيلٍ ﴿٧٤﴾ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّلْمُتَوَسِّمِينَ ﴿٧٥﴾ وَإِنَّهَا لَبِسَبِيلٍ مُّقِيمٍ ﴿٧٦﴾ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَةً لِّلْمُؤْمِنِينَ ﴿٧٧﴾ ﴾

يقولُ: ﴿ فأخذتهُم الصيحةُ ﴾، وهي ما جاءهم من الصَّوتِ القاصفِ عند شُروق الشمس، وهو طلوعُها، وذلك مع رَفْع بلادهم إلى عَنانِ السماء ثم قَلْبِها، وجَعْلِ عاليها سافلَها، وإرسالِ حجارةِ السِّجِّيل عليهم. وقد تقدّم الكلام على السِّجيلِ في هود بما فيه كفاية(٢).

وقولُه: ﴿ إن في ذلك لآيات للمُتوسِّمين ﴾. أي: إنَّ آثار هذه النِّقم ظاهرةٌ على تلك البلادِ لمن تأمَّل ذلك وتوسَّمه بعينِ بَصَره وبَصِيرته، كما قال مجاهدٌ في قوله: ﴿ للمتوسِّمِينَ ﴾، قال: المُتفرِّسين.

وعن ابن عباس، والضحَّاك: للناظرين. وقال قتادةُ: للمُعتَبِرين. وقال مالكٌ عن بعضِ أهلِ المدينة: ﴿ للمتوسِّمين ﴾: للمُتأمِّلين.

وقال ابنُ أبي حاتم: حدثنا الحسن بنُ عرفةَ، حدثنا محمد بن كثير العَبْدِي، عن عمرو بن قيس، عن عَطِيَّةَ، عن أبي سعيد قال: قال رسولُ الله ـ ﷺ ـ: «اتقُوا فِراسَةَ المؤمِن فإنه ينظُر بنور الله. ثم قرأ النبي ـ ﷺ ـ: ﴿إنَّ في ذلك لآياتٍ للمُتوسِّمين ﴾.

رواه الترمذيُّ، وابنُ جرير، من حديث عَمْرو بن قيس المُلائِيِّ، وقال الترمذيُّ: لا نَعرِفه إلا من هذا الوجه(٣).

وقال ابنُ جرير أيضاً: حدثني أحمد بن محمد الطوسيُّ، حدثنا الحسنُ بن محمد، حدثنا الفُراتُ بن السائِب، حدثنا ميمونُ بن مِهْران، عن ابن عُمَر قال: قال رسولُ الله ـ ﷺ ـ: «اتَّقُوا فِرَاسَةَ المؤمن فإنَّ المؤمنَ ينظُر بنور الله»(٣).

وقال ابن جرير: حدثني أبو شُرَحبيل الحمصيُّ، حدثنا سُليمان بن سَلمة، حدثنا المؤمَّل بنُ سَعِيد بن

(١) تفسير الطبري ٤٤/١٤، وانظر الدر المنثور ٨٩/٥.

(٢) انظر تفسير الآية ٨٢ من سورة هود.

(٣) عارضة الأحوذي، تفسير سورة الحجر ٢٨٩/١١، وتفسير الطبري ٤٦/١٤.

يوسف الرَّحبي، حدثنا أبو المعلى أسدُ بن وَدَاعة الطائي، حدثنا وهبُ بن مُنَبِّه، عن طاوس بن كيسانَ، عن ثوبانَ قال: قالَ رسولُ الله ـ ﷺ ـ: «احذَرُوا فِرَاسة المؤمن؛ فإنه ينظر بنور الله وينطِقُ بتوفيقِ الله».

وقال أيضاً: حدثنا عبد الأعلى بن واصل، حدثنا سعيد بن محمد الجَرْمِيُّ، حدثنا عبد الواحد بن واصل، حدثنا أبو بشر[1] المُزَلِّق، عن ثابتٍ، عن أنس بن مالك قال: قال النبي ـ ﷺ ـ: «إن لله عباداً يعرِفُون الناس بالتوسُّم».

ورواه الحافظ أبو بكر البزَّارُ: حدثنا سهل بن بحر، حدثنا سعيد بن محمد الجَرْمـيُّ، حدثنا أبو بشر ـ يقال له: ابن المُزَلِّق ـ قال: وكان ثقة، عن ثابت، عن أنس قال: قال رسولُ الله ـ ﷺ ـ: «إنَّ للهِ عِباداً يعرِفُون الناس بالتوسُّم»[2].

وقولُه: ﴿ وإنَّها لَبِسبيل مُقِيم ﴾، أي: وإنَّ قرية سَدُومَ التي أصابها ما أصابها من القَلْبِ الصُّورِيِّ والمعنوي، والقَذْفِ بالحجارة، حتى صارت بحيرةً مُنتِنةً خَبيثة لَبِطَريقٍ مَهْيَع[3] مسالِكه، مُستَمِرَّةٍ إلى اليوم، كما قال تعالى: ﴿ وإنكم لتمرُّون عليهم مُصبِحين * وباللَّيلِ أفلا تَعقِلُون ﴾.

وقال مجاهد، والضحَّاكُ: ﴿ وإنها لبسبيلٍ مُقِيمٍ ﴾، قال: مَعْلَم: وقال قتادةُ: بطريقٍ واضحٍ. وقال قتادةُ أيضاً: بِصُقْعٍ من الأرضِ واحدٍ.

وقال السديُّ: بكتـابٍ مبيـنٍ، يعني كقوله: ﴿ وكُلَّ شيءٍ أحصيناهُ في إمامٍ مُبينٍ ﴾. ولكن ليس المعنى على ما قال هاهنا، والله أعلم.

وقولُه: ﴿ إنَّ في ذلك لآيةً للمؤمنين ﴾، أي: إن الـذي صنعنَا بقوم لوطٍ من الهلاكِ والدَّمارِ وإنجائِنا لوطاً وأهلَه لدلالةٌ واضحةٌ للمؤمنين بالله ورُسُلِه.

﴿ وَإِن كَانَ أَصْحَٰبُ ٱلْأَيْكَةِ لَظَٰلِمِينَ ﴿٧٨﴾ فَٱنتَقَمْنَا مِنْهُمْ وَإِنَّهُمَا لَبِإِمَامٍ مُّبِينٍ ﴿٧٩﴾ ﴾

أصحابُ الأيكةِ: هم قومُ شُعَيب. قال الضحَّاك، وقتادةُ، وغيرُهما: الأيكةُ الشَجرُ الملتفُّ.

وكان ظلمُهم بشركهم بالله وقَطعِهم الطريقَ، ونَقْصِهم المكيالَ والميزانَ، فانتقم الله منهم بالصَّيحةِ والرَّجْفَةِ وعذاب يوم الظُّلَّةِ، وقد كانوا قريباً من قومِ لوطٍ، بَعْدَهم في الزمان، ومُسامتين لهم في المكان، ولهذا قال تعالى: ﴿وإنهما لبإمام مبين﴾ أي: طَريق مبين. قال ابن عباس، ومجاهد، والضَّحاكُ: طريق ظاهر[4].

ولهذا لما أنذر شُعَيبٌ قومَه قال في نِذارَته إيّاهم: ﴿وما قومُ لوطٍ منكم ببعيدٍ﴾.

﴿ وَلَقَدْ كَذَّبَ أَصْحَٰبُ ٱلْحِجْرِ ٱلْمُرْسَلِينَ ﴿٨٠﴾ وَءَاتَيْنَٰهُمْ ءَايَٰتِنَا فَكَانُوا۟ عَنْهَا مُعْرِضِينَ ﴿٨١﴾ وَكَانُوا۟ يَنْحِتُونَ مِنَ ٱلْجِبَالِ بُيُوتًا ءَامِنِينَ ﴿٨٢﴾ فَأَخَذَتْهُمُ ٱلصَّيْحَةُ مُصْبِحِينَ ﴿٨٣﴾ فَمَآ أَغْنَىٰ عَنْهُم مَّا كَانُوا۟ يَكْسِبُونَ ﴿٨٤﴾ ﴾

---

(١) هو: بكر بن الحكم التميمي اليربوعي. انظر تهذيب الكمال ٤/٢٠٤.

(٢) كشف الأستار عن زوائد البزار، كتاب الزهد ٤/٢٤٣.

(٣) أي: واضح.

(٤) تفسير الطبري ١٤/٤٩.

أصحابُ الحِجْرِ هم: ثمودُ الذين كَذَّبوا صالحاً نَبِيَّهم، ومن كَذَّب برسولٍ فقد كَذَّبَ بجميعِ المُرسَلِين، ولهذا أطلق عَليهم تكذِيبَ المُرسَلين.

وذكر تعالى أنه آتاهم من الآيات ما يدلُّهم على صدق ما جاءهم به صالح، كالناقةِ التي أخرجها الله لهم بدُعاءِ صالحٍ من صخرةٍ صَمَّاءَ، فكانت تسرَحُ في بلادهم، لها شِرْبٌ ولهم شِربُ يوم معلوم، فلما عَتَوا وعَقَرُوها قال لهم: ﴿ تَمتَّعوا في داركُم ثلاثةَ أيامٍ ذلك وعدٌ غيرُ مكذوبٍ ﴾، وقال تعالى: ﴿ وأما ثَمود فهديناهم فاستَحبُّوا العَمَى على الهُدَى ﴾.

وذكر تعالى: أنهم ﴿ كانوا ينحتُون من الجبال بيوتاً آمنين ﴾، أي: من غير خَوف ولا احتياج إليها، بل أشراً وبَطَراً وعَبَثاً، كما هو المشاهد من صنيعهم في بيوتهم بوادي الحِجْرِ، الذي مَرَّ به رسولُ الله ـ ﷺ ـ وهو ذاهب إلى تبوك فَقَنَّعَ[١] رأسه، وأسرعَ دابَّته، وقال لأصحابه: «لا تدخُلوا بيوتَ المعذَّبين، إلا أن تكونوا باكِين، فإن لم تبكوا فَتباكَوا خشيةَ أن يُصِيبَكم ما أصابهم»[٢].

وقولُه: ﴿ فأخذتهم الصيحةُ مصبِحينَ ﴾. أي: وقتَ الصباحِ من اليوم الرابع، ﴿ فما أغنَى عنهم ما كانوا يَكسِبُون ﴾، أي: ما كانوا يَستغلّونه من زُرُوعهم وثِمَارهم التي ضَنُّوا بمائها عن الناقة، حتى عَقَروها لئلا تُضَيِّق عليهم في المياه، فما دَفَعت عنهم تلك الأموال، ولا نَفَعتهم لمَّا جاء أمرُ ربِّكَ.

﴿ وَمَا خَلَقْنَا ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَآ إِلَّا بِٱلْحَقِّ ۗ وَإِنَّ ٱلسَّاعَةَ لَءَاتِيَةٌ ۖ فَٱصْفَحِ ٱلصَّفْحَ ٱلْجَمِيلَ ﴿٨٥﴾ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ ٱلْخَلَّٰقُ ٱلْعَلِيمُ ﴿٨٦﴾ ﴾

يقولُ تعالى: ﴿وما خلقنا السمواتِ والأرضَ وما بينهما إلا بالحقِّ﴾، أي: بالعدل، ﴿ ليجزيَ الذين أساءوا بما عملوا ويجزي الذين أحسنُوا بالحسنى ﴾، وقال تعالى: ﴿وما خلقنا السماءَ والأرضَ وما بينهما باطِلاً ذلك ظنُّ الذين كفروا فويلٌ للذين كفروا من النَّارِ ﴾، وقال: ﴿ أفحسِبتُم أنَّما خلقناكم عَبثاً وأنَّكم إلينا لا تُرجَعُون * فتعالى الله الملكُ الحقُّ لا إلَه إلا هُو ربُّ العرشِ الكَريم ﴾.

ثم أخبرَ نَبيَّه بقيام الساعة، وأنها كائنةٌ لا محالةَ. ثم أَمَرَه بالصَّفح الجَمِيل عن المشركين في أذاهم له وتكذِيبهم ما جاءهم به، كما قال تعالى: ﴿ فاصفَحْ عنهم وقُل سلامٌ فسوفَ يعلَمُون ﴾.

وقال مجاهدٌ وقتادةُ وغيرُهما: كان هذا قبلَ القِتالِ. وهو كما قالا، فإن هذه مكيَّةٌ، والقتالُ إنما شُرِعَ بعد الهجرة.

وقولُه: ﴿ إن ربَّك هو الخلَّاق العليمُ ﴾، تقريرٌ للمعادِ، وأنه تعالى قادرٌ على إقامةِ الساعة؛ فإنه الخلَّاقُ الذي لا يُعجِزُه خلقُ ما يشاءُ، وهو العَلِيمُ بما تَمزَّق من الأجساد، وتفرَّق في سائر أقطار الأرض، كما قال تعالى: ﴿ أوَليسَ الذي خَلَق السمواتِ والأرضَ بقادرٍ على أن يخلُقَ مِثلَهم بلى وهو الخلَّاق العليم * إنما أمرُه

---

(١) في سيرة ابن هشام: سَجّى ثوبه على رأسه. والقناع: ما يوضع على الرأس.

(٢) تقدَّم الحديث في ذلك في سورة الأعراف عند الآية ٧٣، وخرجناه هنالك. وانظر سيرة ابن هشام ٥٢٢/٢، والسنن الكبرى للبيهقي، كتاب الصلاة ٤٥١/٢، والإحسان بترتيب صحيح ابن حبان، كتاب التاريخ ٢٨/٨.

إذا أرادَ شيئاً أن يقولَ له كُن فيكونُ * فَسُبحَان الذي بِيَدِه ملكوتُ كلِّ شيء وإليه تُرجَعُون﴾.

﴿وَلَقَدْ ءَاتَيْنَٰكَ سَبْعًا مِّنَ ٱلْمَثَانِي وَٱلْقُرْءَانَ ٱلْعَظِيمَ ﴿٨٧﴾ لَا تَمُدَّنَّ عَيْنَيْكَ إِلَىٰ مَا مَتَّعْنَا بِهِۦٓ أَزْوَٰجًا مِّنْهُمْ وَلَا تَحْزَنْ عَلَيْهِمْ وَٱخْفِضْ جَنَاحَكَ لِلْمُؤْمِنِينَ ﴿٨٨﴾﴾

يقولُ تعالى لنبيِّه: كما آتيناك القرآنَ العظيمَ. فلا تنظرنَّ إلى الدنيا وزينَتِها، وما مَتَّعنا به أهلَها من الزَّهرة الفانية لِنفتِنَهم فيه، فلا تَغبِطُهم بما هُم فيه، ولا تذهَب نفسُك عليهم حَسَراتٍ حَزناً عليهم في تَكذِيبهم لك، ومخالفتهم دينك. ﴿ واخفِض جناحَكَ لمن اتّبعَك من المُؤمنين ﴾، أي: أَلِن لهم جانبَكَ، كما قال تعالى: ﴿ لقد جاءَكُم رسولٌ من أنفسكم عزيزٌ عليه ما عَنِتُّم حَريصٌ عليكم بالمؤمنين رَءُوفٌ رَحِيم ﴾.

وقد اختلف في السبع المثاني: ما هي؟ فقال ابنُ مسعود، وابنُ عُمَر، وابن عباس، ومجاهدٌ، وسعيد بن جُبَير، والضَّحاك، وغيرُ واحد: «هي السبع الطُّوَل». يعنون: البقرة، وآل عمران، والنساء، والمائدة، والأنعام، والأعراف، ويونس. نَصَّ عليه ابنُ عباس، وسعيد بن جُبَير. وقال سَعِيد: بيَّن فيهنَّ الفرائضَ، والحدودَ، والقَصَص، والأحكام. وقال ابنُ عباس: بيَّن الأمثال والخَبَر والعِبَر.

وقال ابن أبي حاتم: حدثنا أبي، حدثنا ابن أبي عُمَر قال: قال سفيان: ﴿ المثاني ﴾، المُثَنَّى: البقرة، وآل عمران، والنساء، والمائدة، والأنعام، والأعراف، والأنفال وبراءةُ سورةٌ واحدةٌ.

قال ابن عباس: ولم يُعْطَهنَّ أحدٌ إلا النبيَّ - ﷺ - وأعطِيَ موسى منهن ثنتين. رواه هُشَيم، عن الحجاج، عن الوليد بن العيزَارِ، عن سعيد بن جُبَيـر، عنه.

وقال الأعمش، عن مسلم البَطِين، عن سعيد بن جُبَير، عن ابن عباس قال: أُوتِي النبي - ﷺ - سبعاً من المثاني الطُّوَل، وأوتِي موسى - عليه السلام - سِتاً، فلما ألقى الألواح ارتفع اثنتان وبقيت أربع.

ومقال مجاهد: هي السبع الطُول. ويقال: هي القرآن العظيم.

وقال خُصيف، عن زياد بن أبي مريم في قوله تعالى: ﴿ سبعاً من المثاني ﴾، قال: أعطيتُكَ سبعةَ أجزاءٍ: آمر، وأنهى، وأُبشِّر، وأُنذِر، وأَضرِبُ الأمثالَ، وأعدِّد النِّعَم، وأنبئك بِنَبَإِ القرآن. رواه ابنُ جرير، وابنُ أبي حاتم[٢].

والقولُ الثاني: أنها الفاتحةُ، وهي سبعُ آياتٍ. رُوِي ذلك عن عُمَر، وعلي، وابنِ مسعودٍ، وابن عباس. قال ابن عباس: والبسمَلَةُ هي الآية السابعةُ، وقد خصَّكم الله بها. وبه قال إبراهيمُ النخعِيُّ، وعبدالله بن عُبَيد ابن عُمَير، وابن أبي مُلَيكَة، وشهرُ بن حَوْشَبٍ، والحسن البصريُّ، ومجاهد.

وقال قتادة: ذُكِر لنا أنهنَّ فاتحةُ الكتابِ، وأنهنَّ يُثَنَّينَ في كل قراءة. [وفي رواية: في] كلِّ ركعةٍ مكتوبةٍ أو تطوُّع[٣]. واختاره ابنُ جرير، واحتجّ بالأحاديث الواردةِ في ذلك،وقد قدمناها في فضائل «سورة الفاتحة» في أول التَّفسير، ولله الحمدُ، وقد أوردَ البخاريُّ - رحمه الله - ها هنا حَدِيثين، أحدُهما، قال:

---

(١) أخرجه الطبري ١٤/٥٢.

(٢) الدرّ المنثور ٥/٩٦.

(٣) تفسير الطبري ١٤/٥٦.

حدَّثنا محمد بن بشار، حدثنا غُنْدَرٌ، حدثنا شعبةُ، عن خُبيب بن عبد الرحمن، عن حَفص بن عاصم، عن أبي سعيد بن المعلّى قال: «مَرَّ بيِ النبيُّ ـ ﷺ ـ وأنا أصلِّي، فدعاني فلم آته حتى صلَّيتُ، ثم أتيته فقال: ما منعك أن تأتيني؟ فقلت: كنت أصلِّي. فقال: ألم يقل الله: ﴿يا أيها الذين آمنوا استَجِيبُوا لله وللرسولِ إذا دَعَاكم﴾، ألا أُعلِّمك أعظَمَ سورة في القرآن قبل أن أخرُجَ من المسجد؟ فذهبَ النبيُّ ـ ﷺ ـ ليخرُجَ، فذكَّرته فقال: ﴿الحمدُ لله ربِّ العالمين﴾، هي السبعُ المثاني والقرآنُ العظيمُ الذي أُوتيته»(١).

الثاني، قال: حدثنا آدم، حدثنا ابن أبي ذئب، حدثنا المَقبُرِيُّ، عن أبي هُرَيرة ـ رضي الله عنه ـ قال: قال رسولُ الله ـ ﷺ ـ: «أُمُّ القرآنِ هي السبعُ المَثَاني والقرآنُ العظيم»(١).

فهذا نصٌّ في أن الفاتحة السبع المثاني والقرآن العَظيم، ولكن لا يُنافي وصفَ غيرها من السبع الطُوَل بذلك، لما فيها من هذه الصفة، كما لا يُنافي وصفَ القرآن بكماله بذلك أيضاً، كما قال تعالى: ﴿الله نزل أحسَنَ الحديثِ كتاباً متشابهاً مثاني﴾، فهو مثانٍ من وجه، ومُتَشَابهٌ من وجه، وهو القرآن العظيم أيضاً، كما أنه ـ عليه السلام ـ لما سُئل عن المسجد الذي أُسِّس على التقوى، فأشار إلى مسجدِه، والآيـة نزلَت في مسجدِ قُبَاءٍ، فلا تَنَافِيَ، فإنَّ ذكر الشيء لا يَنفِي ذكر ما عداه إذا اشتركا في تلك الصِّفَة، والله أعلم.

وقولُه: ﴿لا تَمدَّنَّ عينيك إلى ما مَتَّعنا به أزواجاً منهم﴾، أي: استغن بما آتاك الله من القرآن العظيم عَمَّا هم فيه من المتاع والزَّهرة الفانية. ومن ها هنا ذهب ابنُ عُيَيْنَة إلى تفسير الحديثِ الصَّحيح: «ليس منَّا من لم يتغنَّ بالقرآن»(٢)، إلى أنه يُستغنى به عما عداه، وهو تفسيرٌ صحيحٌ، ولكن ليس هو المقصودَ من الحديث، كما تقدَّم في أوَّلِ التفسير.

وقال ابنُ أبي حاتم: ذُكِر عن وكيع بن الجرَّاح، حدثنا موسى بن عُبَيدة، عن يَزيد بن عبدالله بن قُسَيطٍ، عن أبي رافع صاحب النبي ـ ﷺ ـ قال: أضافَ النبيُّ ـ ﷺ ـ ضيفٌ، ولم يكن عند النبيِّ ـ ﷺ ـ شيءٌ يُصلحه، فأرسل إلى رجل من اليهود: يقول لك محمدٌ رسولُ الله: أَسْلِفني دقيقاً إلى هلالِ رجَب. قال: لا، إلاَّ برَهْن. فأتيت النبيَّ ـ ﷺ ـ [فأخبرته] فقال: أما والله إني لأمينٌ من في السماء وأمينٌ مَن في الأرض، ولئن أسلَفني أو باعني لأُؤدِّينَّ إليه. فلما خرجتُ من عنده نزلت هذه الآية: ﴿لا تمدنَّ عينَيك إلى ما مَتَّعنا به أزواجاً منهم زهرة الحياة الدنيا...﴾ إلى آخر الآية، كأنهُ يعزِّيه عن الدنيا.

وقال العوفي، عن ابن عباس: ﴿لا تمدَّنَّ عينَيك﴾، قال: نَهى الرجلَ أن يتمنَّى مالَ صاحِبِه. وقال مجاهدٌ: ﴿إلى ما متعنا به أزواجاً منهم﴾، هم: الأغنياء.

﴿وَقُلْ إِنِّيٓ أَنَا ٱلنَّذِيرُ ٱلْمُبِينُ ﴿٨٩﴾ كَمَآ أَنزَلْنَا عَلَى ٱلْمُقْتَسِمِينَ ﴿٩٠﴾ ٱلَّذِينَ جَعَلُواْ ٱلْقُرْءَانَ عِضِينَ ﴿٩١﴾ فَوَرَبِّكَ لَنَسْـَٔلَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ ﴿٩٢﴾ عَمَّا كَانُواْ يَعْمَلُونَ ﴿٩٣﴾﴾

يأمر تعالى نبيَّه ـ صلواتُ الله وسلامُه عليه ـ أن يقولَ للناس: إنه ﴿النذيرُ المُبين﴾، البَيِّنُ النِّذَارة، نذيرٌ للناس من عذاب أليم أن يحلَّ بهم على تكذيبه كما حَلَّ بمن تقدَّمهم من الأمم المُكذِّبة لرسلها، وما أنزل الله عليهم من العَذَابِ والانتقام.

(١) فتح الباري، تفسير سورة الحجر ٨/٣٨١.
(٢) تقدّم الحديث في كتاب فضائل القرآن، بابِ من لم يتغن بالقرآن، وخرجناه هنالك.

وقولُه: ﴿المُقتسِمين﴾، أي: المتحالفين. أي: تحالَفُوا على مخالفة الأنبياء وتكذِيبهم وأذاهم، كما قال تعالى إخباراً عن قوم صالح. أنهم، ﴿قالوا تقاسموا بالله لَنُبيِّتنه وأهلَه﴾، أي: نَقتلُهم ليلاً، قال مجاهد: تقاسَمُوا: تحالَفُوا. ﴿وأقسموا بالله جهدَ أيمانهم لا يبعثُ الله مَن يَموتُ﴾، ﴿أوَلَمْ تَكُونوا أقسمتم من قبلُ ما لكم من زَوَال﴾، ﴿أهؤلاء الذين أقسمتُم لا ينالُهم الله بِرَحمةٍ﴾، فكأنهم كانوا لا يُكذِّبون بشيء إلا أقسموا عليه، فَسُمُّوا مقتسمين.

قال عبدُ الرحمن بنُ زيدِ بن أسلَمَ: المقتسِمُونَ أصحابُ صَالح، الذين تقاسَمُوا بالله لَنُبَيِّتنه وأهلَه. وفي الصحيحين، عن أبي موسى، عن النبي - ﷺ - قال: «إنما مَثَلي ومثلُ ما بَعثني الله به كَمَثلِ رَجُل أتى قومه فقال: يا قوم، إني رأيتُ الجيشَ بعينيَّ، وإني أنا النذيرُ العريانُ، فالنَّجاءَ النَّجاءَ! فأطاعه طائفة من قومه فأدلَجُوا وانطلقوا على مَهلِهم فَنَجوا، وكذَّبه طائفةٌ منهم فأصبَحُوا مكانهم، فَصَبحهم الجيشُ فأهلَكَهُم واجتاحَهُم. فذلك مثلُ من أطاعني واتَّبع ما جئتُ به، ومثلُ من عَصَاني وكذب ما جئتُ بِهِ مِنَ الحقِّ»[(١)].

وقولُه: ﴿الذين جَعَلُوا القرآنَ عِضِين﴾، أي: جَزَّءوا كُتبهم المنزَلَة عليهم، فآمنُوا ببعضٍ وكَفَرُوا بِبَعضٍ.

قال البخاريّ: حدثنا يعقوب بن إبراهيم، حدثنا هُشَيم، أنبأنا أبو بشر، عن سَعيد بن جُبَير، عن ابن عباس: ﴿جَعَلُوا القرآن عِضِين﴾، قال: هم أهلُ الكتاب، جَزَّءوه أجزاءً، فآمنوا ببعضه، وكَفَرُوا ببعضه[(٢)].

حدثنا عُبَيد الله بن موسى، عن الأعمش، عن أبي ظَبيان، عن ابن عباس: ﴿كما أنزلنا على المُقْتَسِمِينَ﴾، قال: آمنوا ببعضٍ، وكفرُوا ببعضٍ: اليهود والنصارى[(٢)].

قال ابنُ أبي حاتم: ورُوِيَ عن مجاهد، وعِكرمة، وسعيد بن جُبَير، والحسن، والضحاك، مثلُ ذلك.

وقال الحكم بن أَبانَ، عن عكرمةَ، عن ابن عباس: ﴿جَعَلُوا القرآن عضين﴾، قال: السحر. وقال عكرمةُ: «العَضْهُ»: السحر بلسان قريش، تقول للساحرة: إنها العاضهة[(٣)]. وقال مجاهد: عَضُّوه أعضاءً[(٤)]، قالوا: سحرٌ، وقالوا: كهانةٌ، وقالوا: أساطيرُ الأولين. وقال عطاء: «قال بعضهم: ساحر. وقال بعضهم: مجنون. وقال: ﴿بعضهُم﴾ كاهن. فذلك العِضُون». وكذا رُوِي عن الضحاكِ وغيره.

وقال محمد بن إسحاق، عن محمد بن أبي محمد، عن سعيد أو عكرمةَ، عن ابن عباس: أن الوليدَ ابن المُغيرة اجتمَعَ إليه نفرٌ من قُرَيش، وكان ذا شَرَفٍ فيهم، وقد حَضَر الموسم فقال لهم: يا معشَرَ قريش، إنه قد حضرَ هذا الموسمُ، وإنَّ وفودَ العربِ ستُقدِم عليكم فيه، وقد سَمِعوا بأمر صاحبكم هذا، فأجمعوا فيه رأياً واحداً ولا تختلفوا فَيُكَذِّبَ بعضُكم بعضاً، ويردَّ قولَكم بعضُه بعضاً. فقالوا: وأنت يا أبا عبد شمس فَقل وأقم لنا رأياً نقولُ به. قال: بل أنتم قولُوا لِأسْمَعَ. قالوا: نقولُ: كاهن. قال: ما هو بكاهن! قالوا: فنقولُ: مجنونَ. قال: ما هو بمجنون! قالوا: فنقول: شاعر. قال: ما هو بشاعر! قالوا: فنقول: ساحر. قال: ما هو بساحر! قالوا: فماذا نقول؟ قال: والله إن لِقَولِهِ حَلاوةً، فما أنتم بقائلين من هذا شيئاً إلا عُرِف أنه باطل، وإن أقرب القول أن تقولوا: هو ساحرٌ. فَتَفرَّقوا عنه بذلك، وأنزل الله فيهم: ﴿الذين جَعَلوا القرآن عِضِينَ﴾، أصنافاً، ﴿فَوَربِّك لنسألنَّهم أجمعينَ * عما كانوا يعملون﴾، دُوينَك النفرُ الذين قالوا ذلك لرسول الله[(٥)].

---

(١) فتح الباري، كتاب الاعتصام ١٣/٢٥٠، ومسلم، كتاب الفضائل ٤/١٧٨٨ - ١٧٨٩.

(٢) فتح الباري، كتاب التفسير ٨/٣٨٢.

(٣) في الأصل: الكاهنة. والمثبت عن تفسير الطبري ١٤/٦٩.

(٤) أي: فَرَّقوه فِرَقاً.

(٥) أخرجه أيضاً ابن أبي حاتم، والبيهقي وأبو نُعيم في الدلائل. انظر سيرة ابن هشام ١/٢٧٠ - ٢٧٢، ودلائل النبوة للبيهقي ٢/١٩٨ - ١٩٩، والدر المنثور ٥/٩٨.

وقال عَطِيَّة العَوفيُّ، عن ابن عُمَرَ في قوله: ﴿لَنَسأَلَنَّهم أجمَعِين * عما كانوا يعملون﴾، قال: عن لا إلَه إلا الله.

وقال عبد الرزاق: أنبأنا الثوري، عن لَيثٍ ـ هو ابن أبي سُلَيم ـ عن مجاهد، في قوله: ﴿لنسألَنَّهم أجمَعِين * عما كانوا يعملون﴾، قال: عن لا إلَه إلا الله.

وقد رَوَى الترمذي[١]، وأبو يعلَى الموصلي، وابنُ جرير، وابنُ أبي حاتم، من حديث شَريك القاضي، عن لَيث بـن أبي سُليم، عن بَشِير[١] بن نَهيك، عن أنس، عن النبي ـ ﷺ ـ: ﴿فَوَ رَبِّك لنسألنهم أجمَعِين﴾: عن لا إلَه إلا الله. ورواه ابنُ إدريس، عن ليث، عن بَشير، عن أنس موقوفاً[٢].

وقال ابن جرير: حدثنا أحمد، حدثنا أبو أحمد، حدثنا شريك، عن هِلَال، عن عبدالله بن عُكَيم قال: قال عبدالله ـ هو ابن مسعود ـ: والذي لا إلَه غيرهُ ما منكم من أحدٍ إلا سيخلُو الله به يوم القيامة، كما يخلو أحدكم بالقَمَر ليلةَ البدر، فيقول: ابنَ آدمَ، ماذا غَرَّكَ مني بي؟ ابنَ آدمَ، ماذا عملتَ فيما علمت؟ ابنَ آدم، ماذا أجبتَ المرسَلِينَ[٣]؟

وقال أبو جعفر: عن الرَّبيع، عن أبي العالية: ﴿فوَربك لنسألَنَّهم أجمعين * عما كانُوا يعمَلُون﴾، قال: يُسأَلُ العبادُ كلُّهم عن خِلَّتين يوم القيامة، عما كانوا يعبُدُون، وماذا أجابُوا المرسلين؟.

وقال ابن عيينة: عن عَمَلِكَ، وعن مَالِكَ.

وقال ابن أبي حاتم: حدثنا أبي، حدثنا أحمد بن أبي الحَوَارِي، حدثنا يونس الحَذَّاء، عن أبي حمزة الثمالي[٤]، عن معاذ بن جَبَل قال: قال لي رسول الله ـ ﷺ ـ: «يا معاذ، إنَّ المؤمن لَيُسألُ يومَ القيامةِ عن جميع سَعْيِه، حتى كحل عَيْنَيْهِ، وعن فُتَات الطينة بإصبعه، فلا ألفِيَنَّك يومَ القيامة وأحدٌ أسعدُ بما آتى الله منك».

وقال علي بن أبي طلحةَ، عن ابن عباس: ﴿فَوَرَبِّكَ لَنَسْأَلَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ * عَمَّا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾، ثم قال: ﴿فيومئذ لا يُسئلُ عن ذَنْبه إنس ولا جانٌ﴾، قال: لا يسألهم: هل عملتم كذا؟ لأنه أعلم بذلك منهم، ولكن يقول: لِمَ عمِلتم كذا وكذا؟

﴿ فَٱصْدَعْ بِمَا تُؤْمَرُ وَأَعْرِضْ عَنِ ٱلْمُشْرِكِينَ ﴿٩٤﴾ إِنَّا كَفَيْنَٰكَ ٱلْمُسْتَهْزِءِينَ ﴿٩٥﴾ ٱلَّذِينَ يَجْعَلُونَ مَعَ ٱللَّهِ إِلَٰهًا ءَاخَرَ فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ ﴿٩٦﴾ وَلَقَدْ نَعْلَمُ أَنَّكَ يَضِيقُ صَدْرُكَ بِمَا يَقُولُونَ ﴿٩٧﴾ فَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ وَكُن مِّنَ ٱلسَّٰجِدِينَ ﴿٩٨﴾ وَٱعْبُدْ رَبَّكَ حَتَّىٰ يَأْتِيَكَ ٱلْيَقِينُ ﴿٩٩﴾ ﴾

يقولُ تعالى آمراً رسولَه ـ صلواتُ الله وسلامهُ عليه ـ بإبلاغِ ما بعثه به وبإنفاذِه والصَّدْع به، وهو مواجهةُ المشركين به، كما قال ابن عباس: ﴿فاصدَع بما تُؤمَرُ﴾، أي: أمضِه وفي رواية: افعل ما تؤمر. وقال مجاهد: هو الجهر بالقرآن في الصلاة.

(١) هو في الترمذي من رواية أحمد بن عَبْدَةَ الضبي، عن معمَر بن سليمان، عن ليث، عن بِشرٍ، عن أنس. وفي تحفة الأشراف ١/١٠٠: بِشْرٌ، غير منسوب. ويقول الحافظ أبو العلى في تحفة الأحوذي ٨/٥٥٧ ـ ٥٥٨: «قال في التقريب: بشر عن أنس، قيل: هو ابن دينار، مجهول في السادس». وفي التهذيب ٤/١٦٣، مثله. وقال المحقق: «الذي قال «بشر بن دينار» هو ابن حبَّان».

(٢) انظر عارضة الأحوذي، تفسير سورة الحِجْر ١١/٢٨٨، وتفسير الطبري ١٤/٦٧، والدرّ المنثور ٥/٩٩.

(٣) تفسير الطبري ١٤/٦٧. (٤) في نسخة الأزهر كلمة غير واضحة، وانظر سند الحديث عند تفسير الآية ١٣ من سورة العنكبوت.

وقال أبو عُبيدة، عن عبدالله بن مسعود: ما زال النبي - ﷺ - مستخفياً حتى نَزَلت: ﴿فاصدَعْ بما تُؤمَرُ﴾، فَخَرج هو وأصحابُه[1].

وقولُه: ﴿وأعرِضْ عَنِ المشركين * إنَّا كفيناكَ المُستهزئينَ﴾، أي: بَلِّغ ما أُنزِل إليك من ربّك، ولا تلتفت إلى المشركين الذين يُرِيدون أن يَصُدُّوكَ عن آياتِ الله. ﴿وَدُّوا لو تُدهِنَ فَيُدهِنُون﴾، ولا تَخَفْهُم؛ فإن الله كافيكَ إيّاهم، وحافِظُكَ منهم، كما قال تَعالى: ﴿يا أيُّها الرسُولُ بَلِّغ ما أُنزِلَ إليك من ربِّك وإن لم تَفْعَل فَمَا بَلَّغتَ رِسَالَته والله يَعصِمُك مِنَ الناس﴾.

وقال الحافظ أبو بكر البزّار: حدثنا يحيى بن محمد بن السَّكن، حدثنا إسحاقُ بن إدريسَ، حدثنا عون بن كهْمَسَ، عن يزيد بن دِرْهَم، عن أنس قال: سَمِعتُ أنساً يقولُ في هذه الآية: ﴿إنا كفيناكَ المستهزئين * الذين يجعلُونَ مع الله إلَهاً آخَرَ﴾، قال: مَرَّ رسولُ الله - ﷺ - فَغَمزه بعضُهم، فجاء جبريلُ - أحسبه قال: فَغمزَهم[2] - فوقع في أجسادهم كهيئة الطعنة حتى ماتوا[3].

وقال محمدُ بن إسحاق: كان عظماءُ المستهزئين - كما حَدَّثني يزيدُ بن رُومان، عن عُروَةَ بن الزُّبير - خمسةَ نَفَرٍ، كانوا ذَوِي أسنانٍ وشَرَفٍ في قومهم، من بني أَسَدِ بن عبد العزَّى بن قُصَيٍّ الأسودُ بن المطلبِ أبو زَمعَةَ، كانَ رسولُ الله - ﷺ - فيما بلغني قد دعا عليه، لِمَا كان يَبلُغه من أذاه واستهزائِه، فقال: اللهمَّ، أعْمِ بَصرَه، وأثْكِلْه ولدَه. ومن بني زُهرَةَ الأسودُ بن عبد يَغُوثَ بن وهب بن عبد مناف بن زُهْرَة. ومن بني مخزوم الوليدُ بن المغيرة بن عبدالله بـن عُمَر بن مخزوم. ومن بني سهم بنِ عَمرو بن هُصَيص بن كعب بن لُؤَيّ العاصُ ابن وائل بن هشام بن سُعيد بن سعد. ومن خزاعة الحارثُ بن الطُّلاطِلَة بن عمرو بن الحارث بن عبد عمرو بن مِلْكَان - فلما تمادَوا في الشرِّ وأكثرُوا برسول الله - ﷺ - الاستهزاءَ، أنزل الله تعالى: ﴿فاصدَع بما تُؤمَرُ وأعرِضْ عَن المشركِينَ * إنا كفيناكَ المُستهزئينَ﴾ إلى قوله: ﴿فسوفَ يعلَمون﴾.

وقال ابن إسحاق: فحدثني يزيدُ بن رُومان، عن عُروة بن الزبير، أو غيره من العلماء: أن جبريلَ أتى رسول الله - ﷺ - وهو يطوفُ بالبيت، فقام وقام رسولُ الله - ﷺ - إلى جنبه، فَمرَّ به الأسود [بن المطلب، فرمى في وجهه بورقةٍ خضراء، فَعَمِي، ومَرَّ به الأسود] بن عبد يَغُوثَ، فأشار إلى بطنه، فاستسقى بطنُه، فمات منه حَبَناً[4]. ومرَّ به الوليد بن المغيرة، فأشار إلى أثر جُرح بأسفلِ كعب رجله، كان أصابَه قبل ذلك بسنتين وهو يجرُّ إزارَه، وذلك أنه مَرَّ برجل من خُزَاعة يَرِيشُ[5] نَبْلاً له، فتعلق سهمٌ من نَبْلِهِ بإزاره، فَخَدش رجله ذلكَ الخدشَ - وليس بشيء - فانتقضَ[6] به فَقتله. ومرَّ به العاصُ بن وائل، فأشار إلى أَخْمَص[7] قَدَمه، فخرج على حمارٍ له يريد الطائف، فربَض[8] على شِبْرِقَةٍ فَدَخلت في أَخْمَصِ رجلِه منها شوكةٌ فقتلته. ومَرَّ به الحارث

---

(١) الـدرّ المنثور ٥/٩٩.

(٢) لفظ البزار كما في كشف الأستار: فغمز بعضهم بعضاً.

(٣) كشف الأستار عن زوائد البزّار، تفسير سورة الحجر ٣/٥٤ - ٥٥. وقال البزار: «تفرّد به يزيد بن درهم، عن أنس. ولا أعلم له عن أنس غيره».

(٤) الحَبَنُ: عظم البطن.

(٥) أي: ينحتها ويعمل لها ريشاً.

(٦) انتقض الجرح: تجدّد بعدما بَرِىء.

(٧) الأخمص من باطن القدم، ما لم يُصب الأرض.

(٨) أي: برك. والشِّبْرِقَةُ: نبتٌ حجازي يُؤكَلُ، وله شوكٌ.

ابن الطُّلاَطِلة، فأشار إلى رأسه، فامتخط[١] قيحا، فقتله[٢].

قال محمد بن إسحاق: حدثني محمد بن أبي محمد، عن رجُلٍ، عن ابن عباس قال: كان رأسُهم الوليدُ ابن المغيرة، وهو الذي جَمَعَهُم[٢].

وهكذا رُوِي عن سعيد بن جُبَير وعِكْرِمةَ نحوُ سياق محمد بن إسحاقَ، عن يزيدَ، عن عُروَةَ، بطوله. إلا أن سعيداً يقول: الحارثُ بن غَيْطَلة. وعِكْرَمةُ يقولُ: الحارثُ بن قيسٍ. قال الزهري: وصدقا، هو الحارث ابن قيس، وأمه غَيْطَلة. وكذا رُوِي عن مجاهد، ومِقْسَمٍ، وقتادة، وغير واحد: أنهم كانوا خمسةً. وقال الشعبيُّ: كانوا سبعةً. والمشهورُ الأوَّلُ.

وقولُه: ﴿الذين يجعَلُون مع الله إلَهاً آخَرَ فسوفَ يعلمُونَ﴾، تهديدٌ شديدٌ، ووعيدٌ أكيدٌ، لمن جَعَل مع الله معبوداً آخر.

وقولُه: ﴿ولقد نعلَم أنَّك يضيقُ صدرُك بما يقولون * فَسَبِّح بحمد رَبِّك وكُن من السَّاجِدين﴾، أي: وإنا لنعلَمُ ـ يا محمدُ ـ أنك يحصلُ لك من أذاهم لك انقباضٌ وضيقُ صدرٍ. فلا يَهِيدَنَّكَ[٣] ذلك، ولا يُثْنِيَنَّكَ عن إبلاغك رسالَة الله، وتوكَّل على الله فإنه كافيكَ وناصرُكَ عليهم، فاشتَغِل بذكرِ الله وتحميده وَتسبيحه وعبادَتِه التي هي الصلاة، ولهذا قال: ﴿وكُن من الساجدين﴾، كما جاء في الحديث الذي رواه الإمام أحمد:

حدثنا عبد الرحمن بن مَهدِيٍّ، حدثنا معاويةُ بن صالح، عن أبي الزاهرية، عن كُثَير بن مُرَّة، عن نُعَيم بن هَمَّار: أنه سَمِع رسولَ الله ـ ﷺ ـ يقول: «قال الله: يا ابن آدمَ، لا تَعْجِز عن أربعِ ركعاتٍ من أول النهار أكفك آخره»[٤].

رواه أبو داودَ، من حديث مكحولٍ، عن كُثَير بن مُرَّة، بِنَحوه[٤].

ولهذا كان رسولُ الله ـ ﷺ ـ إذا حَزبه أمرٌ صلَّى[٥].

وقولُه: ﴿واعبد رَبَّك حتى يأتيكَ اليقينُ﴾، قال البخاري: قال سالم: الموتُ[٦]. وسالم هذا هو: سالم ابن عبدالله بن عمر، كما قال ابن جرير.

حدثنا محمد بن بشار، حدثنا يحيى بن سعيد، عن سُفيانَ، حدثني طارق بن عبد الرحمن، عن سالم بن عبدالله: ﴿واعبد رَبَّك حتى يأتيكَ اليقينُ﴾، قال: الموت[٧].

وهكذا قال مجاهد، والحسنُ، وقتادةُ، وعبدُ الرحمن بن زيدِ بن أسلَمَ، وغيره.

والدليل على ذلك قولُه تعالى إخباراً عن أهل النار أنَّهم قالوا: ﴿لم نَكُ من المصلِّين * ولم نَكُ نُطعِمُ الْمِسكينَ * وكُنَّا نَخوضُ مع الخائِضِينَ * وكنا نُكَذِّب بيوم الدِّين * حتى أتانا اليقين﴾. وفي الصحيح من حديث

---

(١) أي: استخرج المخاط من أنفه.

(٢) سيرة ابن هشام ١/٤٠٨ ـ ٤١٠، وتفسير الطبري ١٤/٦٩ ـ ٧٠.

(٣) أي: لا يُفزِعَنَّك ولا يَكْرُبَنَّك.

(٤) مسند أحمد ٥/٢٨٦. وسُنَن أبي داود، كتاب الصلاة ٢/٢٧ ـ ٢٨.

(٥) أخرجه أبو داود في كتاب الصلاة ٢/٣٥، والإمام أحمد في مسنده ٥/٣٨٨ عن أبي حذيفة. وتقدّم الحديث عند تفسير الآية ٤٥ من سورة البقرة.

(٦) فتح الباري، تفسير سورة الحجر ٨/٣٨٣.

(٧) تفسير الطبري ١٤/٧٤.

الزهريِّ، عن خارجةَ بن زيد بن ثابت، عن أم العلاء ـ امرأة من الأنصار ـ: أن رسولَ الله ـ ﷺ ـ لما دخل على عثمانَ بن مَظعُونٍ، وقد مات، قلتُ: رحمةُ الله عليك أبا السائب، فشهادتي عليكَ لقد أكرمَكَ الله. فقال رسولُ الله ـ ﷺ ـ: وما يدريك أن الله أكرمَه؟ فقلت: بأبي وأُمي يا رسولَ الله، فَمَن[1]؟ فقال: أمَّا هو فقد جاءه اليقينُ، وإني لأرجُو له الخيرَ»[2].

ويُستَدَلُّ من هذه الآية الكريمة، وهي قوله: ﴿واعبُد ربَّك حتى يأتيك اليقينُ﴾، على أنَّ العبادة كالصلاةِ ونحوها واجبةٌ على الإنسان ما دام عقلُه ثابتاً، فيصلي بحسب حاله، كما ثَبتَ في صحيح البخاري، عن عمرانَ ابن حُصَين ـ رضي الله عنهما ـ: أن رسول الله ـ ﷺ ـ قال: «صَلِّ قائماً، فإن لم تَستطع فقاعداً، فإن لم تَستَطِع فعلى جَنبٍ»[3].

ويُستَدلُّ بها على تخطئة من ذَهَب من الملاحدة إلى أن المراد باليقينِ المعرفةُ، فمتى وصلَ أحدُهم إلى المعرفة سَقَط عنه التكليفُ عندهم. وهذا كفرٌ وضلالٌ وجهلٌ؛ فإن الأنبياء ـ عليهم السلام ـ كانوا هم وأصحابهم أعلَمَ الناس بالله وأعرفَهم بحقوقه وصفاته، وما يستحق من التعظيم، وكانوا مع هذا أعبدَ وأكثر الناسِ عبادةً ومواظبةً على فعل الخيرات إلى حين الوفاةِ، وإنما المرادُ باليقين ها هنا الموتُ،كما قدمناه. ولله الحمدُ والمنَّة، والحمدُ لله على الهدايةِ، وعليه الاستعانةُ والتوكُّل، وهو المسئول أن يتوفَّانا على أكمَلِ الأحوال وأحسَنِها.

آخرُ تفسيرِ سُورةِ الحِجْرِ، والحمدُ لله ربِّ العالمينَ

---

(١) لفظ البخاري في كتاب الجنائز: فمن يكرمه الله؟

(٢) فتح الباري، كتاب الجنائز ١١٤/٣، وكتاب الشهادات ٢٩٣/٥، وأخرجه النسائي في كتاب الرؤيا من سننه الكبرى، كما في تحفة الأشراف ٩٤/١٣.

(٣) تقدم الحديث عند تفسير الآية ١٩١ من سورة آل عمران، وخرجناه هنالك.

فهرس موضوعات الجزء الرابع

- تفسير سورة الأعراف [من الآية ١٥٨] ١٤٩٥
- تفسير سورة الأنفال ١٥٣٩
- تفسير سورة التوبة ١٦١٨
- تفسير سورة يونس ١٧٣٤
- تفسير سورة هود ١٧٧٦
- تفسير سورة يوسف ١٨٢٣
- تفسير سورة الرعد ١٨٧٣
- تفسير سورة إبراهيم ١٩١١
- تفسير سورة الحجر ١٩٤٨

□□□